دائرة معارف في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم

تأليف

العلامة شبلي النعماني

أكمله

العلامة / سيد سليمان الندوي

الجزء الأول والثاني

ترجمه وكتب حواشيه

الدكتور يوسف عامر

قسم اللغة الأردية

جامعة الأزهر

قدم له

أ.د/ علي جمعة

مفتي الديار المصرية

طبع على نفقة

د/ حسن عباس زكي

دائرة معارف
في سيرة النبي ﷺ

تأليف

العلامة شبلي النعماني

أكمله

العلامة / سيد سليمان الندوي

الجزء الأول

قدم له

أ.د / علي جمعة

مفتي الديار المصرية

ترجمه وكتب حواشيه

الدكتور يوسف عامر

قسم اللغة الأردية

جامعة الأزهر

طبع على نفقة

د / حسن عباس زكي

تقديـــم (بقلم المترجم)

العلامة شبلي النعماني، وسيد سليمان الندوي من كبار علماء وأدباء اللغة الأردية، بفضل مؤلفاتهما فى مختلف صنوف العلم والمعرفة، ولأسلوبهما الأدبي والعلمي الفريد.

ولد العلامة محمد شبلي النعمانى سنة ١٨٥٧ م، وتوفي سنة ١٩١٤م. وولد سـيد سليمان الندوي سنة ١٨٨٤ م، وتوفي سنة ١٩٥٣ م. اهتم كلاهما بتاريخ الأمة الإسلامية وأخذا يوضحان ــ من خلال مؤلفاتهما الكثيرة ــ عظمة الأمة الإسلامية.

بدأ مولانا شبلي في تأليف كتاب "**سـيرة النـبي ﷺ**" باللغة الأردية، وأتم بعض أجزائه، ولكن كان قد قدر له أن يلقي ربه سبحانه وتعالى قبل أن يتمه، حسـبما وضـع خطته. ثم جاء تلميذه سيد سليمان الندوي وأتمه، وعلق على أمور كثيرة تطرق إليها شبلي كانت في حاجة إلى مثل هذا التعليق.

يشتمل كتـاب "**سـيرة النـبي ﷺ**" على سبعة أجـزاء، نشـرت فـى أربعـة مجلدات. وهو في الحقيقة دائرة معارف فى سيرة النبي ﷺ؛ فهو أفضل مـا كتـب فـى موضوعه باللغة الأردية، ويفوق ما سبقه من مؤلفات فى سيرة النبيﷺ فى أن أغلبها كان يدور حول المغازي وأخلاق وصفات النبي ﷺ، ولم يهتم أصحابها بتحري الدقـة فيمـا ذكروا من روايات، أو دراسة وتحقيق ما يكتبون عن السيرة النبوية، وربما كان هذا هـو السبب فى أن بعض النقاد يعد مثل هذه المؤلفات على أنهـا مجموعـة مـن الروايـات الصحيحة وغير الصحيحة، ويستثنى من هذه المؤلفات كتاب سليمان منصـور پـورى " رحمة للعالمين ".

بدأ المؤلف الجزء الأول بمقدمة وتمهيد. كتب فى المقدمة عن فن السيرة النبويـة وأهميته،ونشأته وتطوره، وإلقاء الضوء على أهم المؤلفات، وضوابط وأصـول الروايـة والدراية، فوضح أهمية علم الكلام وعلاقته بفن السيرة، وعلاقة فن السيرة بعلم الحـديث والمغازي والتاريخ، ثم تحدث عن مشاهير كتاب السيرة من مثل عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري، والإمام الزهري، وموسى بن عقبة، ومحمد بـن إسـحاق، وابـن هشـام، والواقدي، وابن سعد، والمؤرخين مثل الطبري وابن الأثير وابن خلدون وأبو الفـدا، ثـم كتب عن أصول وضوابط الرواية والدراية، التي وضعها علماء الحديث من أجل التحقق

من الرواية، ويعدها قواعد أساسية لعلم التاريخ الإسلامي. كما تحدث عن كيفية الاستناد على روايات الأحاديث وروايات السيرة، وفى نهاية المقدمة كتب عن المستشرقين ومؤلفاتهم فى السيرة، مع نقد ودراسة ادعاءاتهم والرد عليها، ثم بين المنهج الذي اتبعه فى تأليف الكتاب.

وفى التمهيد كتب عن العرب وتاريخهم القديم وحضارتهم وأديانهم، وسبب تسميتهم، وأنسابهم، وجغرافية بلادهم، ومصادر تاريخهم القديم، وقبائلهم، وحكوماتهم، وعاداتهم وتقاليدهم، كما تحدث تفصيلا عن بناء الكعبة، ومسألة الذبيح، وأثبت بأدلة عقلية ونقلية بأن الذبيح هو إسماعيل، وليس إسحاق عليهما السلام ــ كما يزعم اليهود ــ وساق أدلة من التوراة يثبت بها صحة ما يقول. وقدم حديثا مفصلا عن قدم الكعبة المكرمة، مستندا على مصادر شرقية وغربية.

ثم يكتب عن الموضوع الرئيسي للكتاب، فيكتب عن نسب النبي ﷺ، وعن أجداده القرشيين خاصة قصي وهاشم وعبد المطلب وأبيه عبد الله. وهنا رد على افتراء سر وليم ميور أن النبي ﷺ لم يكن من أولاد إسماعيل عليه السلام. ثم يكتب عن مولد النبي ﷺ وتسميته ورضاعته، وتربيته عند حليمة السعدية، ووالده وإخوانه وأخواته من الرضاعة، وسفره مع أمه إلى المدينة، ووفاتها، وكفالة جده عبد المطلب له، ثم كفالة عمه أبو طالب، وسفره إلى الشام، وحرب الفجار، وحلف الفضول، وبناء الكعبة، وشغله ﷺ بالتجارة، وزواجه من السيدة خديجة، وبعده عن عبادة الأصنام، ولقاءاته بالموحدين، ثم عن بعثته وهجرته إلى المدينة، وغزواته. وهنا كتب تفصيلا عن منهج المسلمين فى هذه الغزوات. ويكتب المؤلف آراء وادعاءات المستشرقين، ويرد عليها جنبا إلى جنب مع كتابته للوقائع الصحيحة.

وفى الجزء الثاني كتب عن السنوات الثلاث الأخيرة من حياة النبي ﷺ، ويبدأ بالحديث عن الأمن والأمان الذي عم شبه الجزيرة العربية بمجيء الإسلام، ثم عن قدوم وفود العرب وإعلان إسلامها، كما يكتب عن بقية الأحداث والأمور حتى وفاته ﷺ. ثم عن أولاده وأزواجه ﷺ.

وفى الجزء الثالث كتب عن مقام النبوة وحقيقتها وفضائلها ودلائلها ومعجزاتها.

وفى الجزء الرابع تحدث عن عقائد الإسلام الأساسية أي الإيمان بالنبوة، وبالوحي والملائكة، وبيوم القيامة، وبالثواب والعقاب، وبالجنة والنار.

وفى الجزء الخامس كتب عن العبادات، وفى السادس عن الأخلاق أي شرح وتفصيل لتلك الأخلاق التي تحلى بها النبي ﷺ، وقلده أصحابه فيها، وتمسك بها التابعون. وقارن المؤلف هنا بين أخلاق المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات السماوية الأخرى.

وفى الجزء السابع كتب عن المعاملات. ويقول سيد سليمان الندوي أن المقصود من المعاملات هنا هو كل الأحكام الشرعية، التي تتعلق بحقوق العباد. وكان قد وضح فى الجزء الرابع أن الشريعة الإسلامية تقوم على أربعة أركان وهي العقائد، والعبادات، والأخلاق، والمعاملات. لذا كتب عن كل ركن على حدة فى جزء خاص به، مع تفصيل ودقة متناهية. وهو فى كل هذا يكتب مستندا على القرآن الكريم وسيرة الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله.

يبدأ المؤلف كتابه بالحمد والثناء والصلاة على النبيﷺ، ثم يوضح بطريق غير مباشر القيمة من وراء تأليف كتاب فى سيرة النبي ويقول: إن خير ما يقدمه الإنسان في الحياة الدنيا هو العمل على إصلاح وتهذيب أخلاق النفس البشرية وتربيتها، إذ يجب أولا ترسيخ أصول وفروع كل أنواع فضائل الأخلاق، ثم نشر تعليمها العملي في الدنيا بأسرها.

ويقول إن الوعظ والإرشاد هو الطريقة المعروفة لتحقيق هذا الهدف، ولكن الطريقة التي تفضلها تمدناً هي تأليف كتب قيمة فى علم الأخلاق، ونشرها بين الناس، وتعليمها إياهم. وهناك طريقة أخري وهي حمل الناس على تطبيق محاسن الأخلاق، والبعد عن الرذائل. وهذه هي الطرق المعروفة والمتداولة حتى يومنا هذا، ولكن الطريقة الصحيحة والعملية لا تكون باللسان " الوعظ " أو بتقديم الكتب أو بالإكراه ؛ بل بتقديم قدوة حسنة لفضائل الأخلاق، والنبي محمد ﷺ هو خير من يُقتدي به ويُتبع فى كل أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته؛ فهو جامع لكل فضائل الأخلاق والأنبياء عليهم السلام، والنفوس الذكية التى قدمها لنا التاريخ لم تكن سوي نماذج لصنف خاص من فضائل الأخلاق . على سبيل المثال كانت تُعلّم صفات التواضع والقناعة والسلام والسماحة والعفو والحلم والتحمل والمثابرة فقط فيما تركه المسيح عليه السلام، فى حين أنه لا يوجد ذكر للأسس التي يقوم عليها الحكم فى صحيفة التعليم المسيحي . وصفحات العفو خالية بيضاء فى صحف موسى ونوح ـ عليهما السلام ـ التعليمية، لذا كانت هناك حاجة دائمة إلى

هادٍ جديد؛ إذ أن الإنسان كان يحتاج دائما في تكميل هدايته [1] إلى إنسان كامل جامع، وهذا هو ذلك الإنسان الكامل، والصحيفة الربانية، معراج البشر الأخير. قال تعالى: " اليوم أكملت لكم دينكم ".

---

[1] يخاطب الكتاب هنا أهل الكتاب والذين في صحائفهم ذكر لأحوال هؤلاء الأنبياء بهذه الصورة، لذا يسلم المؤلف بكل أحوالهم المذكورة، وأقام الحجة أمام أهل الكتاب على الضرورة والحاجة إلى شخصية كاملة .

والإسلام يوجب الإيمان الكامل بتصديق كافة الأنبياء عليهم السلام دون تفاوت، واتصافهم جميعا بكل فضائل النبوة، وهذا مصداقاً لقوله تعالى :" لا نفرق بين أحد من رسله " (البقرة الآية ٢٥٨).

لذا لابد من الإيمان بصدق الأنبياء جميعاً عليهم السلام واختصاصهم بفضائل النبوة دون تفاوت بين نبي وآخر. ثم يقول الله تعالى " تلك الرسل فضلنا بعضهم علي بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسي بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس. " (البقرة الآية ٢٠٣)

يتضح من هذه الآية أن هناك تفاوت جزئي بين مراتب فضائل الأنبياء عليهم السلام. إذن لابد من شرح قليل يوضح التوافق والتطابق بين صدق هاتين الآيتين .

إن جميع الأنبياء عليهم السلام يتصفون بكافة محاسن الأخلاق وفضائل النبوة دون تفاوت، ولكنهم غير متساويين جميعاً في الظهور العملي لكل هذه الفضائل بسبب حاجات العصر ومتطلبات البيئة والإرادة الإلهية، فهناك بعض الفضائل تتضح عند البعض، ولم تتضح عند البعض الآخر، إذ كانت تظهر هذه الفضائل طبقاً للحاجة إليها، فحين كانت تدعو الحاجة إلي ظهور فضيلة ما تظهر هذه الفضيلة .

خلاصة القول هو أنه : كانت هناك حاجة ومقام مناسب لظهور كل فضيلة، وإن لم تظهر أي فضيلة بسبب أي عارض، فهذا لا ينفي وجود هذه الفضيلة نفسها، لذا لو لم يكن هناك ظهور عملي في أي وقت لبعض فضائل هؤلاء الأنبياء الكرام عليهم السلام بسبب عدم الحاجة فهذا لا يعني أبداً أن هؤلاء الأنبياء عليهم السلام لم يتصفوا (حاشا لله) بهذه الفضائل .

وفي باب أسرى غزوة بدر حين أشار أبو بكر الصديق ــ رضي الله تعالى عنه ــ بأخذ الفدية منهم وتركهم، وأشار عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ بقتلهم، فأشار الرسول (ﷺ) ناحية أبي بكر وقال : إن الله تعالى خلق قلوب الناس متفاوتة في الرحمة، أيا أبو بكر ! مثالك إبراهيم وعيسى ــ عليهما السلام ــ، وأيا عمر ! مثالك نوح وموسى ــ عليهما السلام . أي ظهرت الرحمة والكرم من فريق والشدة من آخر. (أنظر المستدرك للحاكم، غزوة بدر)

في هذا الحديث إشارة إلى نفس نقطة الاختلاف التي ظهرت في مختلف أحوال الأنبياء ــ عليهم السلام ــ ولما كان محمد رسول الله (ﷺ) آخر المرسلين وبعث للناس عامة لذا ظهرت كافة فضائل نبوته عملياً في حياته (ﷺ) حسب مقتضى الأحوال، وأصبحت أشعة شمس نبوته مشعل هداية

كما يذكر المؤلف أسبابا أخرى جعلته يؤلف هذا الكتاب ومنها: "كانت حاجة المتقدمين إلى فن السيرة هي الوقوف على التاريخ والأحداث الإسلامية، ولم يكن للسيرة أية علاقة بعلم الكلام. ويقول المعترضون الآن إن الدين اعتراف فقط بالله تعالى؛ لذا يجب أن ينتهي البحث عند هذا الحد. ولكن كيف يكون هذا والإقرار بالنبوة جزء لا يتجزأ من الدين والإيمان، فلابد من الوقوف على حياة وأخلاق وعادات تلك الشخصية المباركة حاملة الوحي الإلهي، حتى يقتدي البشر بها؛ فيرتقون فى كل مجالات الحياة، خاصة وأن المستشرقين ومؤرخي أوربا يقدمون أخلاق النبي ﷺ بصورة معيبة،، وقد صرفت ظروف العصر الجديد وحاجاته المسلمين فى هذه الآونة عن تعلم العلوم العربية، وإذا أراد أي مسلم اليوم أو الغد التعرف على سيرة النبي ﷺ وأخلاقه؛ فيضطر إلى الرجوع إلى هذه المؤلفات الأوربية المملوءة بالادعاءات. وبهذا يتأثر المسلمون بما فيها من معلومات مسممة، دون علم ودراية؛ فيولد جيل يعتقد فى أن الرسول ﷺ كان رجلا مصلحا فقط، والذي إذا قام بأي عمل إصلاحي فى المجتمع الإنساني، فقد أدى واجبه، وعليه فلا يتصف بالنبوة، ولا يكون معصوما من الخطأ، ولهذا كله رأيت أن إسلامي يفرض علي أن أكتب كتابًا مفصلا عن حياة الرسول ﷺ".(١)

يتبع المؤلف منهج كتب السيرة العربية فى الحديث أولا عن أصل العرب وحضارتهم وأديانهم، ثم عن نسب الرسول ﷺ، غير أنه يمتاز بأنه صدر كتابه بمقدمة وافية عن فن رواية الحديث، والحاجة إلى تأليف كتاب فى سيرة النبي، وأفضلية النبي التاريخية على غيره من الأنبياء، وحاجة فن السيرة إلى علم الكلام، والفرق بين فن السيرة وعلم الحديث، ثم كتب عن نشأة وتطور فن السيرة، مع ذكر أهم مؤلفات السيرة النبوية، و كتابة تعليق عليها، وعلى أي مصادر استندت فيما كتبت من معلومات. وذكر هنا أن مؤلفات السيرة كثيرة ولا حصر لها، ولكنها تنتهي إلى ثلاثة أو أربعة كتب فقط هي سيرة ابن إسحاق والمغازي للواقدي وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري، وما ألف من كتب أخرى فى هذا الموضوع مستمد منها.

للدنيا بأسرها، وأضاءت كل زوايا العالم المظلمة بظهور فضائله (ﷺ) كلها. ومن المناسب هنا لابد من التذكير بأنه لا يجب أن يتبادر إلى الذهن من خلال ظهور هذه الفضائل الجزئية أي ظن يسئ أو يقلل من شأن بقية الأنبياء ــ عليهم السلام ــ الأمر الخطير الذى يمكن بسببه ضياع الإيمان.

(١) سيرة النبي؛ ج١ مقدمة المؤلف.

وعن كتاب المغازي للواقدي يقول: " بأنه مرفوض تماما، وذلك لأن المحدثين قد كتبوا عنه بالإجماع بأنه يختلق روايات من نفسه، وقال الإمام الشافعي: كتب الواقدي كذب ".[1] أما عن الكتب الثلاثة الأخرى فهي معتبرة، على الرغم من أن الإمام مالك وبعض المحدثين قد جرحوا ابن إسحاق.

يذكر المؤلف بأنه لا يوجد كتاب حتى الآن فى السيرة النبوية التزم بصحيح الروايات، وينقل قول الحافظ زين الدين العراقي – أستاذ الحافظ ابن حجر فى السيرة –

وليعلم الطالبُ أن السيرَ تجمعُ ما صح وما قد أنكرَ

ويقول إن هذا هو السبب فى وجود روايات ضعيفة كثيرة فى مؤلفات قيمة فى فن السيرة، لذا لابد من جمع كتب الحديث والرجال، ويُؤلفُ كتاب جيد فى موضوعه، بعد تحقيق ودراسة وافية، كما أنه لابد من الوقوف على ما كتبه الغرب فى هذا الموضوع.

يشير المؤلف إلى أن كتب السيرة الأولى كانت تقتصر فى حديثها على غزوات النبي، دون الحديث عن حياته وأخلاقه ﷺ تفصيلا، وكأنه ﷺ بعث للغزوات، فى حين أن الغزوات كانت شيئا عارضا فى حياته ﷺ، ولم تكن مقصودة بذاتها. ونحن نوافقه فى هذا، وربما كان هذا هو السبب فى حمل بعض المستشرقين إلى القول بأن الإسلام انتشر بحد السيف. أضف إلى هذا أن أغلب كتاب السيرة لم يهتموا بأسباب الغزوات، لذا اهتم المؤلف بهذا الأمر اهتماما كبيرا، وأثبت أن الغزوات كانت دفاعًا، ولم تكن مقصودة بالذات.

كما يذكر أن العمل الحقيقي للرسول ﷺ هو تأسيس شريعة خالدة، وإصلاح شرائع أديان العالم، وتكملة مكارم الأخلاق علميا وعمليا، وتعريف الناس كافة بتعاليم الدين الخاتم، فالغزوات كانت بمثابة حدث تكميلي فى سبيل الدعوة ونشرها.

كتب المؤلف فى مقدمته عن أسماء الرجال، وعن أصول وضوابط التحقق من السند فى القرآن الكريم والحديث، وكتب عن علم الدراية، وعن الرواة، ثم تحدث تفصيلا عن المؤلفات الأوربية فى فن السيرة وغيرها من الأمور المتعلقة بفن السيرة.

كتب عن منهج الصحابة فى الحديث والرواية مع التمثيل، ثم ذيل ما كتبه بقواعد وضوابط علماء الحديث فى هذا، حتى يتمسك العلماء اللاحقون بهذا المنهج وبهذه الضوابط، والتي من بينها ما يلي: ـــ

---

[1] سيرة النبي جـ ١ ص ٢٩ .

١. بادئ ذي بدء يجب البحث عن الواقعة فى القرآن الكريم ثم فى الأحاديث الصحيحة ثم فى عامة الأحاديث، وإن لم نجدها فنتجه إلى روايات السيرة.

٢. إن كتب السيرة فى حاجة إلي تنقيح ونقد رواياتها وإسنادها.

٣. إن روايات السيرة من حيث درجة الصحة أقل من روايات الحديث، لذا نرجح دائماً روايات الأحاديث فى أي اختلاف .

٤. نرجح روايات الأحاديث وروايات أرباب الفقه على غيرها فى أي اختلاف.

٥. لابد من البحث فى وقائع السيرة عن سلسلة العلة والمعول .

٦. يجب اعتبار معيار الشهادة حسب نوعية الواقعة .

٧. ما مقدار أصل الواقعة فى الروايات، وما مقدار رأى وفهم الراوي فيها ؟

٨. ما مقدار أثر الأسباب الخارجية ؟

٩. إن الروايات المخالفة لعامة الدلائل العقلية، والمشاهدة العامة، والأصول المعترف بها وقرائن الحال لا تكون حجة .

١٠. يجب التأكد من عدم حدوث أي خطأ للراوي فى فهم المعنى الأصلي للرواية.

١١. يجب قبول روايات الآحاد حسب أهمية الموضوع وقرائن الحال.

أما عن المنهج الذي اتبعه المؤلف في الكتاب هو أنه نهج عدة ضوابط وقواعد منها:ـ

١. الاعتماد على الآيات القرآنية، التي وردت فى أحداث عن السيرة، فمن الثابت قطعا أن القرآن الكريم به تصريحات وإشارات عن وقائع وأحداث كثيرة، وبها يتم الفصل فى الخلاف، ولكن لم يتم التدبر الكافي فى الآيات القرآنية، ومن ثم بقت هذه المسائل دون فصل فيها.

٢. الاعتماد على السنة النبوية قولا وفعلا بعد القرآن الكريم، فقد غض الطرف عن روايات السيرة في وجود الأحاديث الصحيحة، وذكر بأنه لا حاجة إلى الرواية التاريخية أو لرواية السيرة فى وجود الوقائع والأحداث التي وردت فى الصحاح الستة. وذكر أن أرباب السيرة قد وقعوا فى خطأ كبير وهو أنهم يبحثون عن الوقائع والأحداث فى تلك المواضع حيث يجب درجها من حيث العنوان والموضوع، وحين لا يجدون أي رواية فى هذه المواضع فيأخذون بالروايات الأقل درجة، ولكن فى كتب الحديث ترد وقائع تفصيلية من كل نوع فى مواضع ضمنية فى الرواية، وعليه إذا تحققت الاستفادة من الاستقراء العام والدقة

والتمحيص، لوجدت روايات فى الصحاح الستة عن الوقائع والأحداث المهمة. ويقول إن أكبر ميزة لكتابنا هذا هي أننا بحثنا عن روايات الحديث، ووفرناها فى كثير من الوقائع التفصيلية، الأمر الذي غاب عن نظر أهل السيرة.

٣. الاعتناء بروايات ابن سعد وابن هشام والطبري العامة فى الوقائع والأحداث اليومية والعامة، ولكن الوقائع التي تمثل أهمية ما فعني بنقدها وتحقيقها، لذا قام أولا بفصل أسماء كل رواة ابن سعد والطبري والذين يتجاوز عددهم المئات، ثم قام بتجريحهم وتعديلهم من خلال كتب أسماء الرجال، حتى يتم التحقيق المقصود لسلسلة الرواية بسهولة ويسر.

رجع المؤلف إلى كثير من المصادر العربية والإنجليزية والألمانية والفرنسية والأردية، وذكر فى مقدمة الكتاب أنه لا يعرف الإنجليزية والألمانية والفرنسية معرفة تمكنه من هذه المؤلفات، لذا أعد لها مترجمين حتى يستفيد منها، وهذه هي بعض المصادر التي رجع إليها:

القرآن الكريم، والصحاح الستة، وموطأ الإمام مالك، وعمدة القارئ للعلامة العيني، وفتح الباري لابن حجر، وشرح مسلم، وبحر العلوم للنووي، ومختصر سنن أبي داود للمنذري، والمستدرك للحاكم، ومسند الطيالسي، ومسند الإمام أحمد بن حنبل، ومسند الدارمي، وسيرة ابن هشام، وروض الأنف للسهيلي، والشفاء للقاضي العياض، والمواهب اللدنية للقسطلاني، وشرح المواهب للزرقاني، وزاد المعاد لابن القيم، وكتاب الشمائل للترمذي، وسيرة الگازروني، والخصائص الكبرى للسيوطي، ونور النبراس فى شرح سير سيد ابن الناس، وتاريخ الطبري، والتاريخ الكامل لابن الأثير، وتاريخ اليعقوبي، والبداية والنهاية لابن كثير، وطبقات ابن سعد، وفتوح البلدان، وأنساب الأشراف للبلاذري، والإصابة فى حياة الصحابة وتهذيب التهذيب لابن حجر، وتذكرة الحفاظ وميزان الاعتدال للذهبي، والمعارف لابن قتيبة، والفهرس لابن النديم، والملل والنحل للشهرستاني، وأسد الغابة لابن الأثير، والاستيعاب لابن عبد البر، وكتاب التوسل لابن تيمية، والعقد الفريد، وتاريخ مكة للأزرقي، وكتاب المدخل للبيهقي، وتفسير البيضاوي للقاضي عبد الله بن عمر، وسيرة محمد لاسپرنگر، وحياة محمد لوليم ميور، ومحمد والمحمدية لمارجوليوث، وهيروز ايند هيرو ورشپ لكارلائل، وانهيار مملكة روما لگبن، وإپالوجى لگادفرى هگنز، وتاريخ جغرافية العرب لريورند فارستر، وتمدن العرب

للبيان، ولتريرى هسترى آف دى عربس لنكلسن، وگولـدن مـائنز آف مـدين لبـرتن، وبائيبل، وڈكشنرى آف بائيبل، وهستورينس هسترى آف ورلد، وانسائيكلوپيديا بريتينيكا وغيرها من المصادر.

منهج المؤلف فى المصادر التي رجع إليها

إن الاستناد والاقتباس هو الشيء المقدم فى التاريخ والرواية، لذا لابد من ذكر أهم الأمر التي نهجها المؤلف، وهي:

١. اقتبس من تلك الكتب التي أطلع عليها فقط، إذ يذكر فى مواضع كثيرة بأنـه اطلع على الكتاب الذي يقتبس منه حين يرد ذكر المؤلف أو الكتاب نفسه.
٢. اقتبس الأحاديث الصحيحة فقط، أو الروايات التاريخية الصحيحة فيما يتعلـق بالأحداث التي تمثل قدرا من الأهمية، ولكنه لم يجتهد جهـد المحـدثين فـى تفصيل الجزئيات المتعلقة بالأحداث العامة. واتضح هذا تماما حين رجعـت إلى المصادر العربية، خاصة الصحاح الستة، وسيرة ابـن هشـام، وكتـاب الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري.
٣. يذكر المؤلف اسم مطبعة الكتب المطبوعة، والتي اقتبس منها، وبلدها وسـنة الطبع ورقم الصفحة والمجلد والجزء، أما المخطوطات فقد ذكر منها ما اطلع عليه فقط من مثل " روض الأنف " لعبد الرحمن السهيلي (ت ٥٨١هـ)وهي شرح لسيرة ابن إسحاق.

يتبع المؤلف منهجا خاصا في الرد على المستشرقين وهو أنه يتحاور معهم بالعقل والمنطق والفلسفة، ويرد على ادعاءاتهم أولاً من خلال ما كتبه أبناء جلدتهم فيما ذهبـوا إليه، ثم يقدم أدلته العقلية والنقلية، والتي وردت في مصادر التشريع الإسلامي. وهو هنـا يشعرنا بأنه مفكر وعالم يتحاور مع غير المسلم ليس بصفة المسلم، ولكنـه عـالم يريـد الوصول إلى الحقيقة. ومن أمثلة هذا ما رد به على اليهود والمستشرقين في مسألة الذبيح: هل هو إسماعيل أم إسحاق عليهما السلام؟ وهنا رجع إلى التوراة كثيرا، وفى حديثه عن إسماعيل عليه السلام وأولاده. وعن مقام إسماعيل يقول: إن اليهود يدعون بأن إسـحاق عليه السلام هو الذبيح، وعليه يقولون إن الشام هو مكان الذبح. ولو يثبت هـذا الادعـاء فلابد من التسليم والاعتراف بروايات العرب أنفسهم عن المذبح، وهنـا تتصـل حلقـات التاريخ كلها. فيقول:

ورد فى التوراة أن أول أولاد إبراهيم عليه السلام كان من السيدة هاجر، والذي سمي بإسماعيل عليه السلام، ثم وُلد إسحاقُ عليه السلام بعده من السيدة سارة، وحين كبُرَ إسماعيلُ فرأت السيدة سارة بأنه يسيء إلى إسحاق عليه السلام فقالت لإبراهيم اخرج هاجر وابنها من البيت. وتأتي رواية التوراة بعد هذهِ الواقعة وتقول: " فبكّر إبراهيم صباحا وأخذ خبزا وقربة ماء، وأعطهما لهاجر واضعا إياهما على كتفها والولد وصرفهما، فمضت وتاهت فى برية بئر سبع، ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار ومضت وجلست مقابلة بعيدة نحو رمية قوس لأنها قالت لا أنظر موت الولد فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالكِ يا هاجر لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة وفتح الله عينها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملئت القربة ماء وسقت الغلام وكان الله مع الغلام فكبر وسكن فى البرية وكان ينمو رامي قوس وسكن فى برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر. " [١]

ينقد المؤلف هذه الفقرة قائلا : يتضح من هذه الفقرة أنه حين خرج إسماعيل عليه السلام من البيت كان طفلا، لذا حملته السيدة هاجر على كتفها هو والسقاء . وهذه الرواية واضحة فى التوراة العربية :

" واضعا إياها على كتفها والولد ".

ولكن ورد فى التوراة أيضا أنه حين ولد إسماعيل عليه السلام كان إبراهيم عليه السلام فى سن ٨٦، وحين ختن إبراهيم إسماعيل عليهما السلام كان عمر إسماعيل ١٣ سنة، وإبراهيم ٩٩سنة[٢] وهذا يبن أن واقعة إخراج إسماعيل عليه السلام من البيت كانت بعد الختان، لذا كان عمر إسماعيل يزيد عن ١٣ سنة قطعا فى هذا الوقت، وولد فى هذا السن لا يكون صغيرا لدرجة أن تحمله الأم على الكتف، وتتجول به. والغرض من هذه الواقعة هو أن عمر إسماعيل كان قد بلغ مبلغا فى هذا الوقت لدرجة أن إبراهيم عليه السلام كان يستطيع أخذه وأمه من الموطن الأصلي وإسكانهما فى مكان آخر. وفى عبارة التوراة المذكورة تصريح بأن إسماعيل عاش فى فاران وكان يمارس الرماية. يقول

[١] سفر التكوين الإصحاح ٢١، من الفقرة ١٤ إلى ٢٤ ص ٣١ الكتاب المقدس.
[٢] سفر التكوين باب ١٧ الآية ٢٤ــ ٢٥ .

المسيحيون إن فاران اسم لتلك الصحراء التي تقع فى جنوب فلسطين؛ لذا مجيء إسماعيل فى شبه الجزيرة خلاف للواقع.

يتفق جغرافي العرب على أن فاران اسم لجبل الحجاز، وورد فى التوراة عبارة عن مقام إسماعيل وهي " وكان يعيش فى حويلة حتى آشور ــ التي تقع أمام مصر ــ فى ذلك الطريق المؤدي إلى آشور .(سفر التكوين الإصحاح ٢٥ الفقرة ١٨)

ويعلق المؤلف على هذا بقوله: ومن هذا التحديد يمكن أن تكون الأرض الواقعة أمام مصر جزء من بلاد العرب. ويرد ذكر بني إسماعيل فى كتاب النصارى المقدس ضمني فقط، وهذا هو السبب فى عدم وجود تصريح عن مقام إسماعيل فى شبه الجزيرة العربية، ولكن يتضح من إشارات عديدة أن إقامة السيدة هاجر فى شبه الجزيرة كان أمرا مسلما به، وفى العهد الجديد ــ الذي يعتبره المسيحيون وحي إلهي ــ مكتوب بولس لكليتون وردت هذه العبارة [١] " كان لإبراهيم ولدان أحدهما من جارية والآخر من حرة،ولكن الذي كان من الجارية ولد حسب الجسد، والذي كان من الحرة فبالموعد وكل ذلك رمز، إذ أن هاتين المرأتين عهدين، أحدهما من جبل سيناء الوالد للعبودية الذي هو هاجر لأن هاجر هي جبل سيناء فى العربية ولكنه يقابل اورشليم الحاضرة. "

ويعلق المؤلف على هذا بقوله : من الواضح هنا أن بولس يطلق على السيدة هاجر جبل سيناء العرب، ولو أنها ما عاشت فى بلاد العرب، فما المعنى من إطلاق جبل سيناء العرب عليها؟[٢]

وفى مسألة من الذبيح؟ يثبت أن إسماعيل عليه السلام هو الذبيح وليس إسحاق عليه السلام ــ كما يدعي اليهود ــ مستدلا بأدلة من التوراة ذاتها أولا ثم من القرآن الكريم. ويذكر فى بداية حديثه : بالرغم من أن التوراة قد مسخت تماما بسبب عد احتياط اليهود والأغراض الذاتية وتقلبات الزمن، وخاصة فيما يتعلق بالتصريحات والتلميحات التي وردت فيها عن النبي الخاتم ﷺ، فقد محتها تصرفات يد اليهود تماما، ولكن عناصر الحقيقة واضحة فى كل مكان حتى يومنا هذا، وعلى الرغم من التصريح فى التوراة بأن إسحاق عليه السلام هو الذبيح، إلا أنه توجد فى طي الكلام أدلة قطعية على أن إسحاق عليه السلام ما كان الذبيح أبدا، وعليه يجب وضع الأمور التالية فى الاعتبار: ــ

---

[١] باب ٤ الآية من ٢ إلى ٢٤.

[٢] انظر سيرة النبي ج١ ص ٩١، ٩٢.

١. حسب الشريعة السابقة كان القربان بالحيوان فقط، وبالآدمي البكر، وعليه فإن الكبش الذي قدمه هابيل قربانا كان بكرا. قال الله تعالى لموسى عليه السلام وهو يأمره بأحكام عن سبط لاوي: " لأن لي كل بكر فى بني إسرائيل من الناس ومن البهائم. "

٢. لا يمكن أن تزول أفضلية الابن البكر فى أي حال، ففي التوراة ورد لو أن شخصا له زوجتان، إحداهما محبوبة والأخرى غير مرغوبة فتكون الأفضلية للولد البكر حتى ولو كان من الزوجة الغير مرغوبة. " فإنه أول قدرته وله حق البكورية " (سفر التثنية، الإصحاح ٢١، الآية ١٥، ١٧)

٣. إن الأولاد المنذرين لله لم يكن لهم حق فى تركة الأب، وورد فى التوراة : " فى ذلك الوقت أنذر الرب سبط لاوي ليحملوا تابوت عهد الرب ولكي يقضوا أمام الرب ليخدموه ويباركوا باسمه إلى هذا اليوم لأجل ذلك لم يكن للاوي قسم ولا نصيب مع اخوته الرب هو نصيبه. " (التوراة، الإصحاح ١٠، الآية ٨، ٩)

٤. إن الشخص الذي كان ينذر لله كان يترك شعر الرأس، ويذهب إلى المعبد، ويحلق كما يُحلق الشعر الآن للتحلل من الإحرام فى الحج. وورد فى التوراة: " فها إنك تحملني وتلدني ربنا ولا يعل موسى رأسه لأن الصبي يكون نذيرا لله. " (سفر القضاة، الإصحاح ١٣، الآية ٤.)

٥. إن الشخص الذي كان يُتخذ خادما لله يستخدم له لفظ " إمام الله " (التوراة سفر العدد الإصحاح ٦ الآية ١٦ ــ ٢٠، سفر التكوين الإصحاح ١٧، سفر التثنية إصحاح١٠ الآية ٨)

٦. إن الأمر الذي صدر لإبراهيم عليه السلام بذبح الابن كان يشترط شرطا وهو أن يضحي بالابن البكر والمحبوب. (التوراة، سفر التكوين، إصحاح ٢٢ الآية ٢)

ثم يقول المؤلف: أمعن النظر فى أصل المسألة، ولكن يجب أولا القول بأن الفدو وتقديم القربان لله كانا شيئا واحدا فى شريعة إبراهيم عليه السلام، أي كان يستخدم لكليهما لفظا واحدا فقط. فلو يقال قُدم هذا الطفل قربانا فى المعبد الفلاني، فكان هذا يعني عزل ذلك الطفل من البيت من أجل خدمة ومجاورة هذا المعبد، ولكن حين كان يستخدم هذا اللفظ للحيوانات فكان يعني المعنى الحقيقي للقربان. وقد ورد فى التوراة على لسان الله تعالى : " لأن لي كل بكر فى بني إسرائيل من الناس ومن البهائم" (سفر العدد، الإصحاح ٧،٨)

ورد فى هذا الإصحاح نفسه تصريح بأن الله تعالى قال لموسى عليه السلام خذ من بني إسرائيل اللاويين وقدمهم أمام الله على أن يكونوا معينين لله، ويضعوا أيديهم على رأس بقرتين تقدمان قربانا.

والأمر بذبح الابن فى رؤيا إبراهيم عليه السلام كان المراد منه هو أن يقدم الابن لخدمة المعبد، واعتبر إبراهيم عليه السلام فى بداية الأمر أن هذه الرؤيا رؤيا عينية وحقيقية، لذا أراد تنفيذها بعينها، ولكن اتضح فيما بعد أنها رؤيا رمزية، وعليه عين إبراهيم عليه السلام الابن لخدمة بيت الله، والتزم بالشروط التي كان لابد منها فى الأضحية.

كما يجب وضع الأدلة التالية فى الاعتبار:

١. أن ميلاد إسحاق عليه السلام كان بعد إسماعيل، وعليه فإن إسحاق ليس هو الابن البكر، ولما كان هناك شرط الابن البكر للقربان؛ لذا لا يمكن أن يكون أمر الذبح خاصا بإسحاق.

٢. أعطى إبراهيم إسحاق عليهما السلام تركته كلها، وعلى العكس من هذا فقد أعطى إسماعيل وأمه سقاء الماء فقط وغادرهما، وهذه قرينة قطعية على هذا الأمر، وهو أن إبراهيم ما قدم إسحاق عليهما السلام قربانا للمعبد.

٣. ظل هذا العرف قائما لفترة فى نسل إسماعيل، وهو لم يكن الناس يحلقون شعر الرأس، وإن عدم الحلق وقت الإحرام أثر وتذكار لسنة إسماعيل عليه السلام هذه.

٤. إن الألفاظ التي كانت تستخدم للأضحية والقربان فى الملة الإبراهيمية استخدمها إبراهيم عليه السلام لإسماعيل عليه السلام، وليس لإسحاق عليه السلام. وورد فى التوراة أن الله حين بشر إبراهيم بميلاد إسحاق عليهما السلام قال إبراهيم: " ليت إسماعيل يعيش أمامك . " واستخدم هذا اللفظ "يعيش أمامك " فى مواضع أخرى من التوراة بنفس المعنى.

٥. كان إسماعيل عليه السلام أحب الأولاد لنفس إبراهيم عليه السلام، وإن ما ذكر فى التوراة ـ والتي أغلب ما تكون فى صف إسحاق عليه السلام ـ من خصائص تفرق بين إسحاق وبين إسماعيل عليهما السلام هي أن إسحاق عليه السلام مظهر لوعد وعهد الله. [1] وإن إسماعيل عليه السلام دعوة إبراهيم عليه السلام. أي أن

---

(١) التوراة، سفر التكوين، إصحاح ١٧، الآية ١٨.

إسماعيل عليه السلام قد ولد بناء على دعاء ورغبة إبراهيم عليه السلام [1] وعليه فقد سماه الله تعالى إسماعيل، لأن إسماعيل يتكون من لفظين" سمع " و" إيل " ومعنى سمع " السمع " ومعنى " إيل " " الله "[2] يعني أن الله تعالى سمع دعاء إبراهيم عليه السلام. وورد فى التوراة أن الله تعالى قال لإبراهيم عليه السلام: لقد سمعتك فيما يتعلق بإسماعيل. وحين بشر الله تعالى إبراهيم عليه السلام بإسحاق عليه السلام فتذكر إبراهيم إسماعيل عليهما السلام فى هذا المقام. ولما كان أمر إبراهيم عليه السلام بالذبح يتضمن شرط أن يكون الذبيح أحب الأبناء إلى نفسه؛ لذا يكون إسماعيل عليه السلام هو الذبيح وليس إسحاق عليه السلام.

٦. حين بشر الله تعالى بإسحاق عليه السلام، فبشر معها أيضا بأنني سأقيم مع نسله عهدًا أبديًا. فورد فى التوراة: " فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابنًا وتدعوا اسمه إسحاق وأقيم عهدي معه عهدًا أبديًا لنسله من بعده ." (التوراة، سفر التكوين إصحاح ١٧، آية ١٨)

وتفصيل هذا الإجمال هو أنه قد ذكر فى التوراة أن إبراهيم عليه السلام حين أراد ذبح ابنه فنادي ملك أوقف يدك. وقال الملك هذا اللفظ: " يقول الله تعالى إني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيرا كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر. " (التوراة، سفر التكوين، إصحاح ٢٢، الآية ١٥)

ويقول المؤلف إنه فى الوقت الذي بشر فيه إسحاق عليه السلام كان قد قال بأني سأبقي نسله فكيف كان ممكنا أنه فى الوقت الذي ليس فيه أولاد لإسحاق عليه السلام أن يصدر أمر بذبحه، ولكن النصوص كلها تنطبق على أن إسماعيل هو الذبيح؛ إذ كان إسماعيل عليه السلام هو أكبر الأولاد كما كان أحبهم لأبيه، وكان وقت الذبح قد بلغ سن البلوغ، أو أوشك عليه، ولم تكن هناك بشارة بكثرة نسله قبل القربان. وفى التوراة تصريح بأن إبراهيم لما أراد ذبح ابنه البكر، لذا كان هناك وعد بكثرة نسل هذا الابن، أي أن كثرة النسل هذه مرتبطة بها القربان نفسه، لذا يكون إسماعيل عليه السلام هو نفسه الذبيح، لأن الوعد بكثرة نسل إسحاق عليه السلام كان قد تم وقت ميلاده مباشرة، والذي لم يكن عوضا أو مكافأة عن أي شيء.

---

(١) التوراة سفر التكوين، إصحاح ١٥.

(٢) التوراة سفر التكوين، إصحاح ١٧ الآية ١٨.

تحدث المؤلف عن معاهدات النبي ﷺ مع اليهود فى المدينة ونقضهم العهد معه ﷺ ومحاربتهم إياه والعمل على قتله ﷺ. وكتب فى البداية عن قبائل اليهود التي كانت تسكن المدينة حتى قدم الأنصار إليها، ثم كتب عن بعض أعمال اليهود وخصالهم، وانتشار الزنا والفحشاء بين خاصتهم وعامتهم، وتحريفهم لحد الزنا من الرجم إلى الجلد محاباة للأشراف الذين كانوا منغمسين فى هذه الرذيلة. واستدل على هذا بما ورد فى القرآن الكريم من آيات حول ما ذكره من صفات أو أمور تتعلق باليهود، كما أشار إلى حسن معاملة الرسول ﷺ لليهود؛ ليس هذا فحسب بل مشاركته ﷺ إياهم فى بعض الأمور الاجتماعية والتي لم يؤمر فيها بشيء.

وعن اليهود يقول: " كان اليهود فى ثلاث قبائل: قينقاع والنضير وقريظة. وكانت هذه القبائل كلها تعيش فى المدينة وما حولها، وكانوا إقطاعيين وأثرياء وتجارا وصناعا. كان يهود بني قينقاع صاغة، كما كانوا أكثر اليهود شجاعة وقوة، لذا كانوا يكنزون أسلحة وذخيرة حربية كثيرة. أما الأنصار فكانوا مدينين بل مثقلين بالدين لليهود دائما. وكانت قبيلة قينقاع تتمتع بنفوذ ديني وعلمي فضلا عن نفوذهم التجاري والسياسي، وكان الأنصار عبدة أصنام وجهلة؛ لذا كانوا ينظرون إلى اليهود بعين الاحترام والعزة، ويعتبرونهم أكثر منهم تمدنا ومعرفة، وكان الأنصاري الذي لا يعيش له ولد ينذر : إن عاش ابني فسأجعله يهوديا. وبهذا وجد كثير من اليهود الجدد من هذا النوع فى المدينة.

ومن صفات اليهود الخلق السيئ، ونشر معاملاتهم التجارية فى كل مكان، وإثقال الناس جميعا بالديون. ولما كانوا هم وحدهم ينعمون بثروة طائلة؛ لذا كانوا يغالون فى الربا بقسوة بالغة، كما كانوا يأخذون الأطفال والنساء كرهن للدين. فقد طلب كعب بن الأشرف من أصدقائه الأنصار النساء أو الأطفال كرهن لوسق أو وسقين. كما كانوا يسيطرون على أموال الناس وثرواتهم بمختلف الطرق.

وبسبب شدة الطمع والحرص وصل بهم الحال إلى أنهم كانوا يقتلون الأطفال الأبرياء رميا بالحجارة من أجل مصاغ يصل قيمته بعض الدراهم. وبسبب الثروة الطائلة شاع بينهم الزنا والفحشاء. ولما كان الأمراء هم أكثر مرتكبي هذه الجريمة؛ لذا لم يكن يقام عليهم الحد. وذات مرة سأل النبي ﷺ يهودي: هل الجلد فقط حد الزنا فى شريعتكم؟ أجاب: لا، بل الرجم؛ ولكن الزنا شاع بين خاصتنا، ولم يقم الحد على أي شريف؛ لذا

تركنا هذا الحد. وكان يتم نسى عامه الناس. وفى النهاية تقرر تغيير الحد من الرجم إلى الجلد، حتى يتساوى الشريف والدنيء معا فى هذا الحد.

حين جاء الإسلام المدينة المنورة فبدا لليهود أن نفوذهم الأناني والظالم لن يدوم، وكلما كان ينتشر الإسلام فى المدينة يوما بعد يوم، كلما يقل ويزول وقار اليهود الديني المزعوم، والذي كانوا يتمتعون به منذ أزمان، وفجأة توقف الانتشار اليهودي بين مشركي المدينة، وبفضل انتصار المسلمين بدأ الأنصار ينعمون بشيء من الثراء ويتحررون من مخالب وبراثن ديون اليهود، وبدأ الآن ينكشف سوء الأخلاق المنتشر بين اليهود، والذي حجبه ثراءهم ورجال دينهم.

وبالرغم من أن النبي ﷺ كان قد تعاهد معهم على عدم التعرض لأنفسهم وأموالهم، ومنحهم الحرية الدينية الكاملة؛ إلا أن مقام نبوته كان يفرض عليه ﷺ وعظهم ونصحهم بالابتعاد عن الأخلاق الذميمة. ونزلت آيات فى الذكر الحكيم فى شأن حجب أخلاق اليهود هذه :

" سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" (المائدة: ٤٢)

" وَتَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " (المائدة : ٦٢)

" وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً " (النساء: ١٦١)

فكانت هذه أسباب مباشرة فى عداء اليهود اللدود تجاه الإسلام، وبدءوا يعملون على إيذاء الرسول ﷺ ومناهضة الإسلام بشتى الطرق. وقد أمر النبي ﷺ بالصبر على إيذائهم المتعدد. يقول الله تعالى:

" لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ " (آل عمران: ١٨٦) [1]

---

[1] أنظر سيرة النبي من ص ٢٣٩ إلى ص ٢٤٠.

يشير المؤلف إلى روايات كثيرة توجد فى كتب الحديث الصحيحة تتعلق بأحداث مهمة فى السيرة النبوية، دون التفات أرباب السير إليها. ومثال هذا يتضح فى حديثه عن أسباب غزوة بني النضير، وعدم موافقتهم على عقد معاهدة مع النبي ﷺ إذ يقول إن هذه الأمور كلها وردت تفصيلا فى سنن أبي داود فى خبر النضير كتاب الخراج والإمارة دون انتباه كتاب السيرة إليها. وبين أن السبب المباشر لهذه الغزوة هو مؤامرة اليهود أكثر من مرة على قتل النبي ﷺ [1] ومن هنا نرى أن المؤلف يحرص دائما على الرجوع إلى كتب الحديث والاعتماد عليها أولا فيما يكتب عن السيرة.

وردت روايات كثيرة فى كتب السيرة والأحاديث تبين أسباب غزوة بدر، وأغلبها يري أن سببها كان هجوم المسلمين على قافلة أبي سفيان التجارية، ولكن المؤلف يخالف هذا الرأي تماما ويقول إن من مثل هذه الآراء يجد فيها المستشرقون والمخالفون ثغرة للهجوم على الإسلام بل وعلى ذات النبي ﷺ ويدعون بأن الإسلام انتشر بحد السيف؛ لذا كتب تفصيلا عن أسباب هذه الغزوة من خلال ما ورد فى الكتاب والسنة والرواية تحت عنوان " نظرة ثانية على غزوة بدر "؛ فقد خص هذه الغزوة بالحديث عنها مرتين، واحدة أثناء حديثه عنها ضمن أحداث سنتها، والأخرى خصها بالذكر ليبين أسبابها ودوافعها، كي يثبت أن سببها لم يكن هجوم المسلمين على قافلة أبي سفيان ــ كما ذهب بعض المستشرقين وبعض كتاب السيرة ــ وليوضح أن غزوات النبي كانت دفاعا فقط، ولم يبدأ ﷺ بالحرب أبدا.

تحدث المؤلف عن المؤلفات الأوربية فى السيرة النبوية، وذكر أن المؤلفين هنا على ثلاثة أقسام: ــ

١. قسم لا يعرف اللغة العربية، وبالتالي لم يطلع على المصادر الأصيلة فى السيرة، ويعتمد أصحابه على مؤلفات الآخرين باللغات الأوربية والترجمات، ومن ثم يقومون بالقياس فقط على المواد الناقصة والمشتبه فيها، ويضعونها فى قالب يوافق مزاجهم وفكرهم.

٢. مؤلفون ماهرون فى اللغة العربية وآدابها، وعلى دراية كاملة بالتاريخ والفلسفة والدراسات الإسلامية، ولكنهم جاهلون فى فن السيرة . ولم يكتب هؤلاء كتبا مستقلة فى السيرة النبوية أو عن الدين الإسلامي؛ ولكنهم يكتبون ما يشاعون

[1] انظر سيرت النبي ص ٢٤٦، ٢٤٧.

يتطاول بالغ عن الإسلام أو نبيه فى مواقع ضمنية، بحجة أنهم يعرفون العربيـــة. ومن مثل هؤلاء العالم الألماني المعروف "ساخو"، والذي يُعرف بثقافته العربية الواسعة، وما كتبه فى مقدمته النقدية لكتاب البيروني" كتاب الهند "يدعو للغبطة، ولكنه كتب فى المقدمة ذاتها عن الإسلام أمرًا تُشعر من يقرأها بأنه لا علم لـــه بالعربية، ولم يطلع على الكتب الأصيلة عن الإسلام وتعاليمه. والعالم الألمـــاني نولديكى عارف بالعربية، ولكن مقالته عن القرآن الكريم فى المجلد السادس عشر من دائرة المعارف ينم عن تعصبه.

٣. مستشرقون درسوا الإسلام والأدب العربي دراسة وافية، مثل السيد يامر والســـيد مارجوليوث. ويمكن لنا أن نأمل فيهم الكثير، ولكن بالرغم من كثرة اطلاعـــاتهم ودراساتهم للمؤلفات العربية وتحقيقها؛ إلا أن حالهم هو: أرى كل شيء ولكني لا أفكر فى أي شيء

فقد قرأ مارجوليوث مسند الإمام أحمد بن حنبل كاملا، ولكن ما كتبه عـــن حيـــاة النبي ﷺ فى كتابه لا يمكن لكتاب غيره فى تاريخ البشـــرية تقديمـــه كنمـــوذج للكـــذب والافتراء، والتأويل والتعصب. والدكتور اسپرنگر الألماني المشهور عالم باللغة العربية، وهو أول من قام بتصحيح كتاب الإصابة فى أحوال الصحابة للحافظ ابن حجر، وطبعـــه فى مدينة كلكته بالهند، ولكنه بالرغم من هذا كتب كتابا مستقلا فى سيرة النبـــي ﷺ فـــى ثلاثة مجلدات ملأها بأكاذيب كثيرة. [1]

بين المؤلف أن التعصب الديني والسياسي سبب كبيـــر فـــى أخطـــاء المـــؤلفين الأوربيين، ولكن علينا ألا ننسى بأن هناك أسباب أخرى، والتي بسببها يمكن لنا أن نلتمس لهم العذر وهي:ـــ

١. السبب الأكبر هو اعتمادهم فى معلوماتهم على كتب السيرة والتاريخ فقط. مثـــل المغازي للواقدي، وسيرة ابن هشام، وسيرة محمد بن إسحاق، وتاريخ الطبـــري وغيرهم، فبالرغم من مكانة بعض هذه الكتب؛ إلا أنه لا يوجد كتاب واحـــد مـــن بينها ذو مكانة عالية من حيث السند. وبغض النظر عن مؤلفي السيرة فإن أكثـــر روايات السيرة مروية عن أناس ضعيفو الرواية، مثل سيف، وسري، وابن سلمة، وابن النجيح، لذا يكتفي بسندهم فيما يتعلق بالأحداث العادية والعامة فقط، ولـــيس

---

[1] انظر سيرة النبي المجلد الأول ص ٧٢،٧١.

فى الأحداث بالغة الأهمية. ولاشك فى أن الأحداث الحقيقية والصادقة عن حياة النبي ﷺ هي الواردة فى كتب الحديث بسند صحيح. والمؤلفون الأوربيون لا علم لهم بهذه الثروة العلمية.

٢. إن ضوابط وأصول التحقق من السند عند الأوربيين مختلفة تماما عن أصولنا وضوابطنا؛ فالأوربي لا ينظر أبدا إلى هذا الأمر وهو: هل الراوي صادق أم كاذب؟ وما هي أخلاقه وعاداته؟ وما قدرته فى الحفظ والتذكر؟ فهذا التحقيق والتدقيق لا يتحلى به الأوربي؛ إذ أنه ليس من الضروري بالنسبة له، فهو ينظر فقط إلى ما يقوله الراوي، هل يطابق القرائن والأحداث أم لا؟ افترض أن هناك راويُ كاذبُ يروي واقعة عن كاذب تبدو صحيحة من حيث قرائن الحال والأحداث المحيطة، والرواية مسلسلة تماما، فيسلم بشكل الرواية طبقا لمزاج الأوربي.

وعلى العكس من هذا تماما المؤرخُ المسلم، خاصة المحدث، فهو لا يهتم بحال الرواية ذاتها قبل نظره أولا فى هل الراوي ثقةُ أم لا؟ وإن كانت النتيجة لا؛ فروايته غير مقبولة السند عند المحدث، ولو روى راويُ ثقة روايةً تخالف القرائن والقياس فتقبل.

وقد أثر اختلاف هذه الضوابط والأصول فى مؤلفات الأوربيين، فعلى سبيل المثال يعتمد الأوربيون كثيرا على روايات الواقدي، وهذا يرجع إلى أن روايات الواقدي مترابطة ومسلسلة، وتتصل أحداثها بعضها ببعض، الأمر الذي يجعل أي واقعة ممتعة.

ونحن لا ننكر أيضا أنه لا يكتفي فى كل المواضع بكون الراوي ثقة فقط، فالثقاة من المحتمل خطأهم أيضا؛ لذا لابد من التمسك بأسلوب وضوابط الدراية التي وضعها المحدثون. [١]

بيّن المؤلفُ الأمورَ المشتركةَ بين المؤلفين الأوربيين فى مؤلفاتهم أو كتاباتهم عن السيرة النبوية؛ إذ يقول أن ادعاءاتِ المستشرقين على النبي ﷺ نجدها كما يلي:ــ

١. أن حياة النبي ﷺ فى مكة هي حياة النبوة فقط، ولكنه بعدما هاجر إلى المدينة، وزادت قوته، تبدلت هذه الحياة فجأة من حياة النبوة إلى الملكية، وبالتالي ظهرت تبعاتُها ومتطلباتُها من غزو عسكري وقتل وسفك دماء.

٢. تعدد أزواجه ﷺ وميله إلى النساء.

---

[١] أنظر المرجع السابق ص٧٢،٧٣.

٣. نشر الدعوة الإسلامية بالقوة.

٤. استباحة استعباد الجواري والعمل به.

٥. السياسة والحيلة كأهل الدنيا.

رد المؤلف على ادعاءات المستشرقين فيما يتعلق بنسب النبي ﷺ، وبأخلاقه وشخصيته، وتعدد أزواجه، ونشر الدعوة بالقوة، معتمدا على صحيح الروايات، وبالأدلة النقلية والعقلية. يقول فى رده على الادعاء " بأن الرسول ﷺ كان شهوانيا ــ حاشا لله ــ والدليل على ذلك كثرة أزواجه " " إن الرسول ﷺ تزوج السيدة خديجة وهي فى سن الأربعين، وهو فى سن الخامسة والعشرين، ولم يتزوج بغيرها حتى بلغ الثالثة والخمسين، وهذا ليس سن الشباب حتى يتزوج، ولو كان هدفه الزواج فلم ما تزوج قبل هذا السن، ولكن زواجه الذي جاء فى هذا السن الكبير كان لأغراض سياسية فى أغلبه، حتى تتحد قبائل عربية كبرى فيما بينها، وينتشر الإسلام فيها. " [١]

كما رد على ادعاء سر وليم ميور بأن الرسول ﷺ ليس من أولاد إسماعيل عليه السلام، وادعاء مارجوليوث الذي يحاول فيه التقليل من شأن قبيلة النبي ﷺ، وأن جده عبد المطلب أهانه ولم يهتم به ﷺ، وادعاء ديبر بأن محمد ﷺ تعلم العقائد والتعاليم النسطورية فى صومعة الراهب " بحيرا "، واستطاع بفطنته ــ رغم أميته ــ أن يتقن تعاليم أستاذه الدينية، بل وأفكاره الفلسفية، كما أراد سر وليم ميور أن يثبت بأي طريقة أن نفور محمد ﷺ من عبادة الأصنام، وتأسيسه لدين جديد كان نتيجة لسفره إلى الشام ــ والذي التقى فيه بهذا الراهب ــ وتجاربه ومشاهداته المختلفة. ولكن الواضح والظاهر تماما هو أنه لو فرض أن شارع الإسلام كان تلميذا للأساتذة المسيحيين هؤلاء فما كان من الممكن أن يوجد فى صدره حدة نفور التوحيد الخالص من التثليث الذي يتراءى فى كل صفحة من صفحات القرآن.

كما رد المؤلف على ادعاء مارجوليوث أن النبي ﷺ كان يعبد صنما يدعى عزّى قبل نومه هو والسيدة خديجة رضي الله عنها، وأنه ﷺ كان قد ذبح كبشا تقربا له. ورد على مارگوليوث فى ادعائه بأن محمدا ﷺ تآمر مع ملك الحبشة حتى يغزو مكة، فتنكسر قوة قريش، وبهذه الحيلة جعل أصحابه يهاجرون إلى الحبشة، ثم حين اتضح له بأن النجاشي إذا دخل مكة فسيستولي عليها، وبالتالي لن يحصل محمد ﷺ على شيء لذا منع

---

[١] سيرة النبي .

أصحابه من الهجرة إلى الحبشة. والتزم المؤلف فى رده على هذه الافتراءات كلها على صحيح الروايات.

ومن الموضوعات التي كتب عنها " حقيقة النبوة وخصائصها، ووضح الفرق بين المصلح والحكيم والنبي، وأثبت بالأدلة النقلية والعقلية أن النبوة عطاء إلهي، وهبة ربانية، لا يمكن نيلها بالسعي والجهد والكسب. يقول الله تعالى: " ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. "

يقول المؤلف أن الله تعالى خلق الكون، وكلف كل مخلوق فيه بعمل خاص، والذي يؤديه دون تقصير، ولا يحيد عما خلق من أجله، حتى تستقيم وتستمر حياة الإنسان، وَتُوفرُ له وسائل الراحة، وخلق الإنسان لنفسه. أي أن حياة الإنسان ليست ملكا لنفسه بل لله تعالى :" وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. "، وتؤدي كل المخلوقات أعمالها، غير أن الإنسان يحيد أحيانا عن الطريق؛ لذا بعث الله تعالى الأنبياء والرسل لهداية الناس إلى الصراط المستقيم، ثم بعث محمدا ﷺ ليكون آخر المرسلين، حتى يقتدي به الناس كافة فى كل أمور حياتهم.

ويقسم المؤلف المخلوقات من حيث العقل والإدراك والإرادة إلى ثلاثة أقسام: الأول: محروم من كل هذه الصفات تماما، كالشمس والأرض والأشجار والأزهار. والثاني يملك الشعور البدائي والعلم والفهم أيضا، ولكنه لا يقدر على القياس والاستقراء، ولا يستطيع أن يستخرج علما جديدا عن طريق قياس الحضر بالغائب، فإرادته واختياره مقصور على الأشياء الظاهرة الحسية مثل الحيوانات. والثالث هو المخلوق الذي يملك العقل والإدراك، ويقتبس ويستنبط عن طريق الاستقراء والتمثيل، ويحكم من الكليات على الجزئيات، ويصل من البديهيات إلى النظريات، ويقتبس الغائب من الحاضر، وهو الإنسان.وبالتالي فهو والجن المكلفان بتحمل مسئولية الخير والشر من بين المخلوقات كافة.

١. يخطئ المؤلف أحياناً فى نسب بعض القرابات، ففي حاشية ص ٢١٩ من المجلد الأول ذكر أن عبد الله بن جحش كان ابن خال النبي ﷺ فى حين أنه كان ابن عمته صفيه.
٢. توجد أخطاء مطبعية بالنص الأردي تغير المعني إن لم يلتفت إليها المترجم. علي سبيل المثال في ص ٢١٨ المجلد الأول ذكر المؤلف هذه الجملة (حضرمی عتبه بن ربيعه كا حريف تها) وهذه الجملة تعني أن الحضرمي كان خصما لعتبة بن

ربيعه، في حين أن الحقيقة عكس ذلك فقد كان الحضرمي حليفاً لعتبة وموال له. وربما كانت الجملة الصحيحة هي حضرمي عتبه بن ربيعه كا حليف تهـا " أي كان الحضر من حليفا لعتبة بن ربيعه.

تمتاز لغة المؤلف بالبلاغة والفصاحة والوضوح، وبالأسـلوب الأدبـي البليـغ. ويترجم الاقتباسات العربية وغيرها إلى الأردية ترجمة صحيحة وبليغة، مع إضـافات إن احتاج الأمر، حتى يتضح المعنى لأهل اللغة الأردية.

يستخدم ألفاظا واصطلاحات عربية كثيرة، خاصة المتعلقة بعلـم الحـديث وفـن السيرة.

يترجم معاني الآيات القرآنية والأحاديث النبوية واقتباسات التوراة التي يستدل بها على ما يقول ترجمة صحيحة، وإن كانت هناك أخطاء في تخريج بعض الآيات القرآنية. وحين يقتبس من التوراة يذكر السفر والإصحاح ورقم الفقرة.

يستخدم ألفاظا إنجليزية أحيانا من مثل سائيكالوجى، واسپريچولزم، ويكتب أسماء المؤلفات الإنجليزية باللغة الأردية بـنفس صـوتها الإنجليـزي مثـل "محمد اينڈ محمڈنزم از باسورتهـ : محمد والمحمدية لباسورث"، و" هسٹرى آف ورلڈ : تاريخ العالم".

حرص المؤلف حرصًا شديدًا على ذكـر أسـباب الغـزوات والسـرايا، حتـى للمستشرقين وغيرهم أن الإسلام ما انتشر بحد السيف، أو أن هذه الغزوات والسرايا مـا كانت لهدف استعماري أو اقتصادي، واثبت بأدلة كثيرة تاريخية ونقليـة وعقليـة بـأن الغزوات والسرايا ما كانت إلا دفاعاً عن الإسلام والمسلمين، ولم يكـن لهـا أي هـدف استعماري أو اقتصادي، خاصة وأن الرسول ص قام بإصلاحات وتعديلات أخلاقية كثيرة في الحرب؛ فمن المعروف أن الحرب كانت قبله ص عبارة عـن قتـل وسـلب ونهـب وإحراق بيوت وزرع، وقتل أطفال ونساء وشيخ، وبقر بطون الحبليـات وغيرهـا مـن الأعمال الوحشية. ولكن النبي ص جاء وغير هذا كله تماما ومنع قتل الأطفال والنسـاء والشيخ وإحراق البيوت والزرع . . . الخ، وهذا لأن الرسول ص جاء لتبليغ دعوة كلف بها، وتبلغ الدعوة ليس في حاجة الى حرب أو قتال، ولكن حين دعت الحاجة إلى الـدفاع عن هذه الدعوة أضطر إلى مقاومة الأعداء.

حرص المؤلف على كتابة الجمل الدعائية (رضي الله عنه)، و(رضي الله عنهـا) بعد ذكر اسم أي صحابي أي قبل اسم الأب إذا كان غير مسلم، فكتب عبد الله (رضي الله

عنه) بن رواحة، وزيد (رضي الله عنه) بن حارثة، ومسلمة (رضي الله عنه) بن الأكوع، وهذا حرص منه على أن يكون الدعاء خاص بالصحابي فقط وليس بأبيه الغير مسلم .

يتحرى المؤلف الدقة في صحة الروايات؛ فلا يكتف بنقلها أو الإطلاع عليها في مصدر واحد فقط؛ بل يبحث عنها، ويتحري صدقها في أصح المصادر وكتب الحديث. ومثال هذا ما ورد في رواية أن النبي ص أمر الزبير بتعذيب كنانة بن الربيع تعذيباً مميتاً، بسبب أنه جحد معر فتة لمكان كنز بنى النضير، وأخذ الزبير يكوي صدره بالنار حتي أشرق على الوفاة، ثم أمر النبي ص بقتل كنانة وسبي نساء اليهود ذكر المؤلف هذه الرواية في الجزاء الأول من كتابه، وأخذ يحللها وينقدها، ويثبت الصحيح فيها من عدمه وذلك من خلال مصادر عديدة، واثبت أن الصحيح في هذه الرواية هو أن كنانة قد قتل بالفعل، ولكنه ما قتل بسبب جحد معرفته بمكان الكنز، بل بسبب أنه (كنانة) كان قد قتل محمود بن مسلمة

فورد في الطبري صراحة (ثم دفعه رسول الله إلى محمد بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة) (ص ١٥٨)، والمؤلف هنا يذهب إلى أن كنانة قُتل قصاصاً، وبين المؤلف أن هذه الرواية وردت في تاريخ الطبري وسيرة أبن هشام نقلا عن ابن إسحاق ولكن ابن إسحاق لم يذكر اسم أي راو أعلى (أي من الصحابة). وصرح المحدثون في كتب الرجال أن ابن إسحاق كان يروي وقائع المغازي النبوية عن اليهود، لذا فهذه الرواية من بين هذه الروايات التي رواها ابن إسحاق نقلا عن اليهود، خاصة وأنها تتعلق بيهودي أورد المؤلف في بعض الموضع أشعاراً فارسية تتضمن معاني تحدث عنها المتن، فساقها على سبيل إمتاع القارئ وإثارة ذهنه قمت بترجمة هذه الأشعار إلى اللغة العربية.

ذكرنا سابقاً أن المؤلف يستند في كل ما يكتب على أحاديث نبوية كثيرة، ولكنه اكتفى بنقل معناها إلى اللغة الأردية فقط، دون كتابة نص الحديث باللغة العربية، واكتفى بتخريج الحديث في الحاشية أو في المتن ذاته، ولذا قمت بكتابة الأحاديث بنصها العربي في النص كما وردت في الصحاح، إذا كتب المؤلف عبارة قال النبي، أما إذا أشار إلى مفهوم الحديث فقط ولم يكتب عبارة قال النبي، فقمت بكتابة نص الحديث الذي أشار إليه في الحاشية، حتى يتمكن القارئ من حفظها بنصها كما رويت عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

أما الأحاديث النبوية التي ذكرها بنصها؛ قمت بنقلها كما هي، وكتبتها بخط بارز حتى يكون هناك فرق بين الأحاديث التى ذكرها بنصها والأحاديث التىَ ذكر معناها فقط أو أشار إلى ما تتضمنه من أمور لرسول الله ﷺ.

خرّج المؤلف الآيات القرآنية التى أوردها في كتابه ولكن توجد أخطاء كثيرة في هذا التخريج، فكثيراً ما يخرج اسم السورة صحيحا وقليل ما يصح تخريج الآية، ولذا قمت بتخريج الآيات القرآنية كاملا .

توجد أخطاء كثيرة متعلقة بالحواشي في الأصل الأردي فمثلا نجد أكثر من حاشية في أسفل الصفحة في حين أنه لم يذكر في المتن أعلى الصفحة سوي رقم أو رقمين، وهذا بالطبع يسبب عائقاً للقارئ، فهو لا يعرف إذا أي حاشية متعلقة بالأرقام التى ذكرت في المتن، فكان لابد علينا أن نرجع إلى المصادر العربية المتعلقة بالموضوع الذي يتحدث عنه المؤلف حتى ينبن لنا موضوع الحاشية الصحيح، وندون الرقم به.

كانت هناك أمور تستحق توضيحاً؛ لذا دونت ما رأيته من توضيحات وتعليقات في الحاشية أسفل الصفحة، وكتبت كلمة المترجم بين قوسين.

اقتبس المؤلف اقتباسات كثيرة من مصادر عربية، لذا نقلتها في الترجمة كما هي، وكتبتها بخط واضح مميز، حتى يتبين للقارئ أن كل ما كتب بخط واضح أصل اقتبسه المؤلف، وما دون ذلك ترجمة.

اقتبس المؤلف اقتباسات كثيرة من التوراة والإنجيل، وقام بتخريجها. وقمتُ بتخريج هذه الاقتباسات ثانية من نسخ حديثة للتوراة والإنجيل حتى يسهل الإطلاع عليها، كما قمتُ بتصحيح ما ورد خطئاً في تخريجها من حيث السفر والإصحاح ورقم الفقرة. هذا فضلا عن أني نقلت أيضا هذه الاقتباسات كلها باللغة العبرية في الحاشية حسبما وردت في نسخة التوراة العبرية.

نتعرف من خلال الكتاب على مدي احترام وتقدير التلميذ (سيد سليمان الندوي) لأستاذه (شبلي النعماني) من خلال أمور كثيرة أهمها ذكر في مقدمة الكتاب أنه قام ببعض الإضافات والحواشي على الأصل وحرص على كتبتها بين قوسين() حتى لا تختلط عباراته بعبارات أستاذة شبلي فإذا كان فيها خطآ يرجع إليه وليس إلى الأستاذ. كما ذكر انه دون اسمه بجانب اسم شبلي على غلاف الكتاب، حتى ترجع أخطأ الكتاب إليه وليس إلى أستاذه. أضف إلى هذا أنه حين كتب مقدمة للكتاب لم يوقع أسفلها على أنه مؤلفه

ولكنه وقع على أنه محرر ومعد لهذا الكتاب فقط، في حين أنه كتب أجزاء كاملة من هذا الكتاب بعد وفاة شبلي النعماني رحمه الله .

توجد بعض الأخطاء الإملائية والمطبعية في الاقتباسات العربية التي وردت في الكتاب، ومن ثم وجب تصحيحها بالرجوع إلى أصولها. نجد اختلافاً في ترتيب بعض الصفحات أحياناً، مما كان يسس عائقاً في الترجمة، ومن مثل هذا وردت صفحه ٣١٩ في الجزء الأول قبل ص٣١٨، لذا قمت بتصحيح هذا الترتيب في الترجمة طبقا لسير الأحداث التي وردت في هاتين الصفحتين، ووفقا لما ورد في كتب السيرة.

- قام سيد سليمان الندوى بإضافة صفحات في الجزء الأول على ما كتبه مولانا شبلي، ومن ثم أشار إلى هذا في حاشية هذه الصفحات بأن يقول قمت بإضافة هذا الموضوع بداية من ص كذا وحتى ص كذا.

والحقيقة هي أن هذا الكتاب يعد دائرة معارف في سيرة النبي ﷺ من حيث حجمه، ومن حيث وفرة المعلومات التي وردت به، وتحري الدقة في كل ما جاء به ويلقى الضوء على منهج علماء المسلمين في شبه القارة الهندية في كتابة السيرة النبوية، وأسلوبهم في الرد على المستشرقين وغيرهم ممن يعارضون الإسلام أو يتقولون عليه، فنري شبلي وسيد سليمان الندوى عالمان ومفكران وحكيمان يتحاوران مع المستشرقين وغيرهم محاورة علمية. بحتة، تهدف الوصول إلى الحقيقة، وليس الجدل من أجل الجدل ويتحاوران بأسلوب رزين هادي حتى يقنعا من يحاوراهما، أو على الأقل يعرفانه بمنهج الإسلام في الحوار والدعوة . **(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)**(النحل:١٢٥)

وفى هذه الترجمة قد حرصت كل الحرص على أن تكون الترجمة معبرة عن النص الأصلي، وما ورد فيها من أخطاء فهذا منى دون قصد.

وفى النهاية أتقدم بخالص الشكر إلى العالمين الجليلين السيد الأستاذ الدكتور / على جمعة والسيد الأستاذ الدكتور/ حسن عباس ذكى على أنهما منحاني فرصة ترجمة هذا الكتاب.

أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى زوجتي وأولادي، الذين وفروا لي الوقت الكافي للقيام بهذا العمل، جعله الله في ميزان أعمالهم. كما أشكر الأخت الفاضلة

الدكتورة / عبيــر الحــديدي على تفضلها بتخريج الاقتباسات العربيــة والعبريــة مــن التوراة. جزاها الله تعالى عني خير الجزاء.

واالله ولي التوفيق

رمضان ١٤٢٥هـ / نوفمبر ٢٠٠٤م

يوسف السيد عامر

المقدمة

فقير جاء في حضرة سيد الكونين ﷺ بإخلاص وعقيدة

انظر بعينك إلى رونق وبهاء اللؤلؤ

شوال ١٣٣٠هـ

شبلي النعماني

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة لكتاب " سيرة النبي " ﷺ (الجزء الأول)

إن حسن القبول لدى القراء الذي منحه الله تعالى لكتاب " سيرة النبي (ﷺ) " لهو فضل ونعمة كبيرة لكل من المؤلف والمحرر، فلله تعالي الحمد والشكر.

حين وصلتني (أنا الفقير إلى الله) مسودة كتاب " سيرة النبي "، بعد وفاة مولانا شبلي النعماني في نوفمبر سنة ١٩١٤ م، كنت أشعر بخوف إذا مس إصبعي مسودة الأستاذ، طبقًا لعقيدة الاحترام والتبجيل التي تجب على التلميذ تجاه الأستاذ، وإذا دعت الحاجة أحيانا إلى أي تعديل (في النص)، كان الخوف يأتي في المنام. وكان قد تم تبيض المسودة أمام المؤلف (شبلي)؛ لذا لم أقم بمقارنة التبييض بالمسودة، ولا بمقارنة المسودة بالأصول؛ بل نقلت أمانة المؤلف كما هي بعينها للقراء، سوى بعض إضافات في أماكن متفرقة طبقا لإشارات المؤلف ووضعتها بين قوسين، وفي المقدمة إشارة وتنويه إلى هذا.

ظلت هذه النسخة تطبع كما هي، دون الشعور بالحاجة إلى الرجوع إلى مقارنة ومطابقة الاقتباسات بأصولها، ولكن أثناء المراجعة أحيانا كان هناك شعور بالحاجة إلى التصحيح والإضافة في بعض الأماكن، لذا كانت هناك نسخة تصحح ويضاف إليها حسب الحاجة.

وفي هذه المرة، حين دعت الحاجة إلى طبع الكتاب طبعة جديدة، رأيت أنه لابد من مراجعة مسودته ومقارنتها ومطابقتها بالمصادر الأصلية (التي رجع إليها المؤلف)، ولكن هذا عمل صعب؛ إذ لابد من النظر ثانية في عشرات الكتب، وتقليب آلاف الصفحات، وتحقيق مختلف الروايات وكتابة حاشية في الأماكن التي تحتاج إلي تحشي، وهذا جهد يساوي جهد أي مُؤلِّف مستقل. لذا يسعدني أن أشكر صديقي العزيز / مولانا محمد أويس النكرامي الندوي فهوخير معين لي في هذا العمل، إذ ساعدني في البحث عن الوقائع وتحقيقها، وتحقيق الروايات، ومطابقة المسودة بالأصل، والرجوع إلى كتب الحديث والسيرة.

هناك أمور كنت أختلف فيها مع المؤلف، لذا وضحتها هنا في الحاشية، كما كانت هناك بعض الوقائع تحتاج إلي تصحيح لذا قمت بدرء هذه الحاجة، وبعض المؤاخذات

كانت في حاجة إلي تنبيه وتحذير، قمت بها أيضاً، وكانت هناك إشارة إلي مصادر في أماكن متفرقة، ولكني هنا قمت بالإشارة إلي مصادر تفوقها تعرفت عليها أثناء مطالعتي.

ومما يؤسف له أن هناك خطأ عددي في بعض الأماكن ــ وهو ما يكثر في النظام الهندسي الأردي ــ وكان موجوداً في أصل التبييض أيضاً، فتعرفت علي هذا الخطأ أثناء المراجعة وصححته؛ علي سبيل المثال فيما يتعلق بزواج السيدة فاطمة رضي الله عنها، كان قد كتب أن قيمة درع علي رضي الله تعالي عنه تساوي ربع روبية في حين أن المقصود ١٢٥روبية.[1] وكتب أيضاً أن عدد جيش الكفار في غزوة الأحزاب ٢٤ ألفاً، في حين أنه في بعض الروايات ١٤ ألفاً، وفي الروايات الصحيحة عشرة آلاف.

تمكن مولانا (شبلي) من الحصول على بعض الكتب المخطوطة؛ من مثل "الروض الأنف" والذي كان يصعب الاستفادة منه كما يجب، وقد طبع الآن. وبحث (شبلي) كثيراً عن بعض الكتب، ولكنه لم يحصل عليها مثل كتاب البداية والنهاية لابن كثير ــ وقد سمعت المؤلف كثيراً يقول: للأسف لا يوجد كتاب تاريخ ابن كثير، وإذا وجد فستذلل كل المشاكل ــ والحمد الله قد طبع هذا الكتاب الآن وتداول، كما كان كتاب المستدرك للحاكم مفقوداً في ذلك الوقت، والآن قد تم طبعه ونشر بين الناس. خلاصة القول هو أنه بالحصول على هذه الكتب، ظهرت واتضحت كثير من المعلومات الحديثة، لذا تحققت الاستفادة منها في تصحيح وتنقيح هذه النسخة (التي نحن بصدد طبعها) والإضافة إليها.

وهذه بعض الأمور التي روعيت في إعداد الطبعة: ــ

١. تمت مطابقة كل الوقائع والروايات المذكورة في الكتاب كاملة بكتب الحديث والسيرة، وتم تلافي أي نقص ظهر فيها.
٢. أضيفت حواشي توضيحية كثيرة لرفع أي إبهام وشرحه، ولدفع أي شبهة ولتصحيح الأسلوب.
٣. أشير إلى كل حدث تحدث عنه المؤلف وفقا للضرورة.
٤. كانت هناك بعض المراجع التي سقطت الإشارة إليها، فأشير إليها في هذه الطبعة. وكانت قد كتبت أسماء الكتب فقط في بعض الأماكن؛ لذا كتب في هذه الطبعة رقم الصفحة والباب كذلك.

---

[1] سوا : ربع، وفي الاصطلاح واحد وربع (المترجم).

٥. في الأماكن التي أشير فيها إلى الصفحة فقط ذكر في هذه الطبعة الأبواب والفصول أيضاً؛ حتى يتمكن من لديه طبعة هذا المرجع من الاطلاع عليه.

٦. إن كتب السيرة والحديث الحديثة التي طبعت بعد هذه الطبعة الأولي لكتاب (سيرة النبي) أستفيد منها في كل أمر جديد وأضيف إلى هذه الطبعة.

٧. إذا أشير إلي أي مرجع ذا قيمة علمية ضئيلة من قبل، ثم عثر علي مرجع حديث يفوقه أشير إليه أيضاً واستفيد منه.

٨. حرصنا علي كتابة "صلي الله عليه وسلم" كاملة بدلاً من ذكرها اختصاراً (في الطبعات السابقة)؛ حتى لا يحرم القارئ من ثواب وفضل ترديدها.

كان قد سطر قلمي أنا الجاهل نقداً غيرَ لائقٍ، في رواية الصحابي كعب بن مالك رضي الله عنه، في الحديث عن نقد وتحليل روايات غزوة بدر، والذي بسببه يبدو سوء الظن في شأن صحابي جليل القدر، الأمر الذي يخجلني كثيراً، والآن أعترف بخطئي هذا، وأحذف هذه العبارة وأبرئ صحابي الرسول صلي الله عليه وسلم هذا، وأطلب العفو من الله تعالي : ـ

ها هو العبد بسبب تقصيره يلتمس العفو والمغفرة من الله تعالى [١]

وأكون شاكراً وممنوناً لكل من لديه طبعة من الطبعات السابقة ويحذف هذه السطور من نسخته [٢] وهذه الطبعة تفوق الطبعات الأولى في أمور كثيرة؛ فقد حاولت التنقيح والتصحيح ـ طبقاً للاستطاعة البشرية ـ فيها. ولما كان الخطأ والنسيان من صفات البشر، لذا أكون شاكراً وممنوناً لكل قارئ يطلع علي الكتاب ويبدو له خطأ يخبرني به.

وفي النهاية أدعو الله تعالي أن يعفو عن خطئي ونسياني، ويمنح هذا العمل القبول والرواج، ويستفيد منه المسلمون، ويكون وسيلة للعفو عن هذا المذنب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلي الله سيد سليمان الندوي

غرة جمادى الثاني ١٣٦٤هـ

---

[١] بندهٔ همان به كه از تقصير خويش عذر به درگاهِ خدا آورد

[٢] هذه العبارة توجد في السطر ٩ حتى ١٢ ص ٢٥٥ ط ١ المجلد ١ سيرة النبي، وفي السطر ١٤ حتى ١٧ ص ٣٢٣ في الطبعات الأخرى.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

مضت أربع سنوات علي نشر الطبعة الأولى للمجلد الأول لسيرة النبي، وإن حسن إقبال القراء ــ الذي منحه الله تعالي إياه ــ عليه في هذه الفترة لهو فخر لنا نحن دار المصنفين، فلم يقبل على شرائه العامة فقط، بل أدرك الأمراء والحكام والخاصة وطبقة العلماء قدره أيضًا.

لا توجد في بلاد الهند أي طبقة من طبقات العلم إلا ونقدت موضوعات وتحقيقات كتاب "سيرة النبي" كل بمقياس نقد فنه، فقرأ الحفاظ الآيات القرآنية التي وردت فيه، وحقق علماء الحديث الأحاديث التي وردت فيه، ونقد الأدباء أشعاره وترجماته العربيــة، ونقــح علماء الأنساب الأسماء، وراجع الفلكيون والرياضيون تواريخه وطوالعه، وحقق علمــاء السيرة والتاريخ رواياته ووقائعه. ونحن إذ نشكرهم جميعاً علي دراساتهم ونتائجهم التــي أطلعونا عليها بكل حب وإخلاص، والتي استفدنا منها كثيراً.

كنا قد أقررنا في خاتمة الطبعة الأولى بأن هنــاك بعــض الأخطــاء المطبعيــة والمؤاخذات التي حدثت سهوا، لذا بذل الجهد الكبير ــ وفق المقدرة البشرية ــ لتصحيح هذه الأخطاء في هذه الطبعة، ونحن علي يقين ــ إن شاء الله تعــالي ــ ألا تبقــى هــذه الأخطاء والمؤاخذات، لذا لابد على من يريد نقد كتاب " سيرة النبي" الرجوع إلــي هــذه الطبعة.

كانت قد نشرت الطبعة الأولى في حجم كبير، لذا أبدي القراء الرغبة الجامحة في نشر الطبعة الثانية في حجم الكتاب العادي، حتى يمكن استخدامه بسهولة ويسر فــي أي وقت، ولهذا ستنشر مجلدات الطبعة الثانية في أحجام صغيرة.

سيد سليمان الندوي

٢٨ فبراير ١٣٣٩هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

إن المجلد الأول لكتاب "سيرة النبي (ﷺ)" ــ والذي تدوي شهرته في الهند كلها ــ يظهر اليوم في يد القراء بعد سبع سنوات، (لذا يفيض قلبي سعادة واطمئنانا لأني أديت الفرض الذي كان قد فرضه علي أستاذي الجليل في آخر لحظات حياته، فلله الحمد حيث أبرئ ذمتي اليوم من هذا الجزء من الكتاب) (يقول الشاعر):

سعيد من الحياة راغب فيها إذ أديت عملي

ولكن بالرغم من هذه السعادة والاطمئنان، أشعر بحزن وأسي؛ لأن المؤلف لم يستطع إهداء ثمرة هذا الجهد المضني بنفسه لأمته، ولم يضع بيده باقات زهور إخلاصه المنتقاة وحسن عقيدته من آلاف الجنات علي عتبة النبوة.

كانت قد تولدت فكرة تأليف كتاب "سيرة النبي" ﷺ لدي المؤلف - رحمة الله عليه- بعد تأليفه لكتاب "الفاروق" [١] مباشرة؛ فكتب جزءًا منه حتى غزوة أحد في ١٣٢٣هـ، ولكنه توقف بسبب بعض المعوقات، وظلت رغبة إيفاء حاجة الأمة كما هي في قلبه، وفي النهاية قرر في ١٣٢٠ هـ أن يحمل عبء هذه الأمانة، لذا ناشد الأمة إلى التبرع بمبلغ ٥٠ ألف روبية، فتسابق آلاف المسلمين منهم الغني والفقير أيضاً إلى هذا العمل. وقدرت هذه السعادة الأخروية من الأزل في نصيب خادمة الأمة المحمدية نواب سلطان جهان بيكم تاج الهند حاكمة بهوبال،[٢] متع الله المسلمين بطول بقائها ودوام ملكها؛ إذ تقدمت الجميع واستغنت بكتابة سيرة النبوة عن الأعمال الأخرى، وضمت ثروة السعادة هذه إلى خزانتها العامرة، وربما يكون هذا هو السبب في أن يفضل هذا العمل المؤرخون علي كل الأعمال الدينية التي قامت بها الحاكمات المسلمات حتى الآن؛ حيث أن هذا العمل يرتبط بذات وشخصية الرسول (ﷺ)، والتي هي أفضل شخصية في الكائنات في التاريخ الإسلامي.

---

[١] كتاب في سيرة عمر ابن الخطاب (رضي الله عنه) (المترجم) .

[٢] أحد الأقاليم الكبرى في الهند (المترجم) .

حين اقترع المسلمون على هذه الخدمة ثانياً بعد وفاه المؤلف ــ رحمة الله عليه ــ حرصت حاكمة بهوبال على إغداق فيضها المستمر على خلفاء المؤلف أيضـــا، وطبقًـــا لرغبة المؤلف ــ رحمه الله ــ لابد من ذكر منشى محمد أمين ــ الذي اهتم بكتابة تاريخ بهوبال ــ فكان له فضل في هذا العمل.

إن المسودة التي تركها المؤلف ــ رحمه الله ــ كانت تحتوى على جزء مبيض، وكانت هناك علامة ترمز إلى إضافة في بعض الأماكن، إشارة إلى بعض الأمور، وقد تم إضافتها ــ ويبدو أنه (المؤلف) بعد ما فرغ من تبيض الجزء رأى أنه من الأفضل ترتيب الوقائع حسب السنين كالمؤرخين القدماء، وكتابة الوقائع الثانوية تحت عنـــوان "وقـــائع متفرقة "، وقد كتب هو بقلمه حتى سنة ٤ هجرية في المبيضة. وحين أحيلت هذه الأمانـــة إلي، أضفت هذا النوع من الوقائع المتفرقة في أواخر باقي السنين. وكانت قـــد سـقطت الحواشي ومصادر الاقتباسات في بعض الأماكن، فبحثت عنها، وكتبتها مع حرص شديد حتى لا يختلط أي لفظ، بل أي حرف للمحرر بعبارة المؤلف، لـــذا وضـــعت كـــل هـــذه الإضافات الجزئية فيما بين قوسين، وعليه فبعض الفقرات والعلامات التي توجـــد بـــين قوسين هي إضافة (من عندي) سوي دعاء (ﷺ) والجملة الاعتراضية.

وكان الرأي في البداية هو أن يشتمل الكتاب على حياة الرسول (ﷺ) حتى وفاته، ولكنه حين بدأت الكتابة، اتضح أن ضخامته ستصل إلى ٨٠٠ صـــفحة، فتقـــل نفاســـته. وبسبب أمور ومعوقات تتعلق بالطباعة أُضطررت إلى تقسيمه إلى مجلدين، وختم المجلد الأول بالغزوات. ندعوا الله تعالى أن يمنح التوفيق لطبعه ونشره. حسبي الله ونعم الوكيل.

لم يتمكن المؤلف ــ رحمه الله ــ من كتابة مقدمة هذا الكتاب، وبالصدفة وجـــدت هذه الصفحة مدونة في مسودته (المؤلف) لذا ندونها هنا في الكتاب تبركاً.

المحرر سيد سليمان الندوي
دار المصنفين اعظم كره
٢٠ ربيع ثاني ١٩٣٩ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

فن السيرة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله وأصحابه أجمعين.

إن أول وأكبر فرض على الإنسان، وأهم خدمة جليلة يقدمها، هي إصلاح وتهذيب أخلاق النفس البشرية وتربيتها، أي أنه في البداية يجب ترسيخ أصول وفروع كل أنواع فضائل الأخلاق؛ من زهد وتقوى وعصمة وعفاف وإحسان وكرم وحلم وعفو وعزم وثبات وإيثار ولطف وغيره، واستغناء على أساس صحيح وبطريقة جيدة، ثم نشر تعليمها العملي في الدنيا بأسرها.

والوعظ والإرشاد هو الطريقة المعروفة لتحقيق هذا الهدف، ولكن الطريقة التي تفضلها تمدناً هي تأليف كتب قيمة في علم الأخلاق ونشرها بين الناس وتعليمها إياهم. وهناك طريقة أخري، وهي حمل الناس على تطبيق محاسن الأخلاق، والبعد عن الرذائل. وهذه هي الطرق المعروفة والمتداولة حتى يومنا هذا. ولا يمكن أن يستخدم أكثر من هذا اليوم، رغم ما نحن فيه من رقي وتقدم، ولكن الطريقة الصحيحة والعملية لا تكون باللسان "الوعظ" أو بتقديم الكتب أو بالجبر؛ بل بتقديم قدوة حسنة لفضائل الأخلاق، والتي تظهر آلاف المؤلفات في كل حركة لشفتيها، وتصبح كل إشاراتها أوامر ملكية. لاشك في أن ثروة محاسن الأخلاق في الدنيا اليوم ما هي إلا تزيين لقصر تمدن هذه الفضائل، ولكن النفوس الذكية التي قدمها لنا التاريخ لم تكن سوي نماذج لصنف خاص من فضائل الأخلاق. على سبيل المثال كانت تُعلّم صفات التواضع والقناعة والسلام والسماحة والعفو والحلم والتحمل والمثابرة فقط في حلقة تدريس وتعليم المسيح عليه السلام، في حين أنه لا يوجد ذكر للأخلاق التي يجب أن تكون في الحكم في صحيفة التعليم المسيحي. وصفحات العفو خالية بيضاء في صحف موسى ونوح ــ عليهما السلام ــ التعليمية، لذا كانت هناك

حاجة دائمة إلى هادٍ جديد ؛ إذ أن الإنسان كان يحتاج دائمًا في تكميل هدايته [1] إلى إنسان كامل جامع، مجاهد وعابد، غني وفقير، حاكم ومحكوم، مفلس وقانع، غني وجواد. وهذا

---

[1] يخاطب الكتاب هنا أهل الكتاب والذين في صحائفهم ذكر لأحوال هؤلاء الأنبياء بهذه الصورة، لذا يسلم المؤلف بكل أحوالهم المذكورة، وأقام الحجة أمام أهل الكتاب على الضرورة والحاجة إلى شخصية كاملة.

والإسلام يوجب الإيمان الكامل بتصديق كافة الأنبياء عليهم السلام دون تفاوت، واتصافهم جميعا بكل فضائل النبوة، وهذا مصداقاً لقوله تعالى :(**لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ**) (البقرة: من الآية٢٨٥).

لذا لابد من الإيمان بصدق الأنبياء جميعاً عليهم السلام واختصاصهم بفضائل النبوة دون تفاوت (بين نبي وآخر) . ثم يقول الله تعالى)**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**)(البقرة: من الآية٢٥٣)

يتضح من هذه الآية أن هناك تفاوت جزئي بين مراتب فضائل الأنبياء عليهم السلام. إذن لابد من شرح قليل يوضح التوافق والتطابق بين صدق هاتين الآيتين .

إن جميع الأنبياء عليهم السلام ينعمون بكافة محاسن الأخلاق وفضائل النبوة دون تفاوت، ولكنهم غير متساويين جميعاً في الظهور العملي لكل هذه الفضائل بسبب حاجات العصر ومتطلبات البيئة والإرادة الإلهية، فهناك بعض الفضائل تتضح عند البعض، ولم تتضح عند البعض الآخر، إذ كانت تظهر هذه الفضائل طبقاً للحاجة إليها، فحين كانت تدعو الحاجة إلي ظهور فضيلة ما تظهر هذه الفضيلة .

خلاصة القول هو أنه: كانت هناك حاجة ومقام مناسب لظهور كل فضيلة، ولو لم تظهر أي فضيلة بسبب أي عارض فهذا لا ينفي وجود هذه الفضيلة نفسها، لذا لو لم يكن هناك ظهور عملي في أي وقت لبعض فضائل هؤلاء الأنبياء الكرام عليهم السلام بسبب عدم الحاجة، فهذا لا يعني أبداً أن هؤلاء الأنبياء عليهم السلام لم يتصفوا (حاشا لله) بهذه الفضائل.

وفي باب أسرى غزوة بدر حين أشار أبو بكر الصديق ــ رضي الله تعالى عنه ــ بأخذ الفدية منهم وتركهم، وأشار عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ بقتلهم، فأشار الرسول (ﷺ) ناحية أبى بكر وقال : إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللين ويشد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: «فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم» ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال: «إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» ومثلك يا عمر مثل نوح قال «رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً». أي ظهرت الرحمة والكرم من فريق والشدة من آخر . (انظر المستدرك للحاكم، غزوة بدر)(المترجم).

في هذا الحديث إشارة إلى نفس نقطة الاختلاف التي ظهرت في مختلف أحوال الأنبياء ــ عليهم السلام .

هو ذلك الإنسان الكامل، والصحيفة الربانية، معراج البشر الأخير "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ" ـ (المائدة، الآية ٣).

ليس هناك أي شيء أبدي في الحياة، لذا أتت هذه الشخصية الجامعة إلى الدنيا ولم تخلد فيها، ومن هنا يجب اتباع لغته (ﷺ) حرفا حرفا، وتقليد حركاته وسكناته كما هي، وملامح وصفات شخصيته، حتى نقلده (ﷺ) في كل شيء يعترينا ويواجهنا في الحياة الدنيا. وهناك مصادفة عجيبة وهي أن كل أصحاب المذاهب والأديان الأخرى خالية من "الصفة الجامعة الكبرى"، فأحوال حياتهم لم تنقل إلينا كاملة. فعلى سبيل المثال نحن لا نعرف شيئا عن حياة المسيح ـ عليه السلام ـ سوى ثلاث سنوات من عمره الثلاثة والثلاثين، وعرف المصلحون الدينيون الفرس عن طريق ملحمة " الشاهنامة "[1] فقط، وطويت أخبار مصلحي الهند في أساطير، وما يعرف عن موسى ـ عليه السلام ـ موجود في التوراة المتاحة حاليا فقط، والتي ظهرت بعد موسى ـ عليه السلام ـ بثلاثمائة سنة. وفي هذا إشارة إلى أن سيرتهم ومبادئ تعاليمهم لم تكن أبدية، لذا روي عن حياتهم حسب الحاجة، فالله تعالى يدرك وقت الحاجة ويهيئها في وقتها.

يفضل أصحاب كل دين دينهم بقدر ما يفضل الآخرون دينهم، لذا لو يطرح هذا السؤال بدون حرج: من هي الشخصية التي اختصت بالصفة "الجامعة الكبرى" في الدنيا ؟ فتأتي أصوات عديدة من كل جهة، ولكنه حين تبدل صيغة السؤال إلى: من هو ذلك الشخص الذي سطرت سيرته بنسق وصحة وبطريقة لم تحظ بها أي صحيفة سماوية من جهة، ودونت وحفظت أقواله وأفعاله وأوضاعه وهيئته ومشيته وذوق طبيعته، وأسلوبه في الحوار، ومنهج حياته وسلوكه مع الآخرين، وأكله وشربه وجلوسه وقيامه ونومه ويقظته وابتسامته وحديثه بسعة، وتفصيل من جهة أخرى؟

ولما كان محمد رسول الله (ﷺ) آخر المرسلين وبعث للناس عامة لذا ظهرت كافة فضائل نبوته عملياً في حياته (ﷺ) حسب مقتضى الأحوال، وأصبحت أشعة شمس نبوته مشعل هداية للدنيا بأسرها، وأضاءت كل زوايا العالم المظلمة بظهور فضائله (ﷺ) كلها . تجدر الإشارة هنا إلي أنه لابد من التذكير بأنه لا يجب أن يتبادر إلى الذهن من خلال ظهور هذه الفضائل الجزئية أي ظن يسئ أو يقلل من شأن بقية الأنبياء ـ عليهم السلام ـ الأمر الخطير الذى يمكن بسببه ضياع الإيمان .

لمزيد من المعلومات ارجع إلى مقالة " خليل كى بشريت : بشرية الخليل في مجلة " معارف "، عدد محرم وصفر سنة ١٣٥٦ هـ .

[1] ملحمة معروفة في الشعر الفارسي، نظمها الفردوسي، وترجمت إلى لغات عديدة. (المترجم).

فيرتفع صوت واحد فقط للإجابة على هذا السؤال : (محمد العربي فديته بأبي وأمي).

ما تحدثنا عنه حتى الآن، يوضح الهدف الديني من وراء تأليف هذا الكتاب، وحين ننظر إلى هذه القضية من منظور علمي، تجد أن لفن السيرة درجة ومكانة خاصة بين العلوم والفنون، فسيرة أدنى إنسان علامة ورمز للعبرة والعظة ومعرفة الحقيقة، فكم من رغبات يتمناها الإنسان الصغير، وكم من مشاريع يعقدها، وكيف يرتقى من صغر حجمه إلى دائرة العمل، وكيف يصعد سلم الرقي، وأين يتعثر، وكم من عقبات يواجهها فينهك ويركن إلى الجلوس، ويستريح ثم يجد في السير.

والخلاصة هي: أن نماذج السعي والعمل والجهد والكفاح والعزيمة والجرأة والغيرة موجودة في سيرة حياة الاسكندر الأكبر، وهذا المنظر بعينه يبدو أيضاً في سيرة حياة العامل الفقير.

وعليه لو أن الهدف من فن السيرة هو الحصول على العبرة والعظة والوصول إلى الحقيقة فيغض النظر عن الاستفسار عن الشخصية.

ويبقى فقط النظر في الوقائع والأحداث المتوافرة، وكيف يمكن التعرف على سعتها واستقصائها حتى تتضح جميع مراحل الحياة في كل أحوالها، ولكن حين يوجد كل من: الفرد الكامل والأحداث المفصلة فأي حظ سعيد أكثر من هذا؟ وللأسباب المذكورة أعلاه أي شخص ينكر حاجتنا نحن المسلمين بل العالم أجمع إلى سيرة تلك الشخصية المباركة التي تسمى بـ " محمد " (رسول الله) اللهم صلي عليه وسلم صلاة كثيرا كثيراء وهذه الحاجة ليست حاجة إسلامية ودينة فقط؛ بل هي حاجة علمية، حاجة أخلاقية، حاجة حضارية وثقافية، حاجة أدبية، خلاصة القول هو أنها مجموعة من الحاجات الدينية والدنيوية معاً.

لم أكن جاهلا بهذا الأمر وهو أن أول فرض يجب عليَّ من الناحية الإسلامية هو كتابة السيرة النبوية قبل كل المؤلفات الأخرى, ولكن هذا الفرض فرض دقيق صعب للغاية، لذا لم أجرأ علي الإقدام علي هذا العمل لفترة، حتى رأيت أن حاجات أداء هذا الفرض تتزايد وتكثر.

وكانت الحاجة إلى السيرة في العصر الماضي، ترتبط بالتاريخ وتدوين الأحداث، ولم يكن لها علاقة بعلم الكلام. ويقول المعترضون: لو أن الدين هو إقرار فقط بالله تعالى

إذن يكتفي بالبحث هنا فقط. ولكن الاقرار بالنبوة جزء من الدين، فيجب البحث في أحوال وأخلاق وعادات ذلك الإنسان الذي كان حاملاً للوحي وسفيراً إلهياً (ﷺ).

إن الصورة الأخلاقية التي قدمها مؤرخو أوروبا عن النبي (ﷺ)، تفيض بـأنواع مختلفة من العيوب والافتراءات. واليوم حالت المتطلبات الحديثة للمسلمين دون تعلم العلوم العربية والاطلاع عليها، لذا فإنه حين يرغب هذا الجيل من المسلمين في التعرف على سيرة وشخصية نبي الإسلام (ﷺ)، فيضطر إلى الرجوع إلى مؤلفات هؤلاء الأوروبيين، وبهذا تؤثر فيهم هذه المعلومات المسممة تدريجيا، ولا علم للناس بهذا، حتى ظهر جيل في الأمة يعتقد في أن النبي (ﷺ) مصلح فقط، وإذا قام بأي عمل إصلاحي في المجتمع وكانت هذه هي الأسباب التي جعلتني أهتم بتأليف كتاب مفصل عن السيرة النبوية. وكان هذا العمل سهل في ظاهره، إذ توجد مئات الكتب باللغة العربية يمكن عن طريقها تأليف كتاب ضخم وممتع في عدة أشهر فقط، ولكن الأمر هو أن التأليف في هذا الموضوع يحتاج إلى مهل وتأنٍ شديد.

سنذكر تفصيلا فيما بعد أنه حتى اليوم ما أُلّف كتاب في السيرة خاصة [1] فيه التزام بالروايات الصحيحة. ويكتب الحافظ زين الدين العراقي ـ أستاذ الحافظ ابن حجر ـ عن السيرة النبوية :ـ

---

[1] جدير بالذكر هنا أنه بسبب قلة العلم والجهل، يعتقد أناس كثيرون بأن " السيرة" أحد أصناف علم الحديث. أي أن السيرة هي تلك الأحداث والوقائع التي كتبت عن الأحاديث، وترتبط بأخلاق وعادات الرسول ﷺ. وبوجود كتب كثيرة في علم الحديث لا يوجد بها حديث ضعيف مثل صحيح البخاري ومسلم، إذن كيف يصح هذا القول وهو "ما كتب حتى اليوم أي كتاب في السيرة فيه التزام بالروايات الصحيحة ". ولترسيخ هذه النقطة البحثية لابد من وضع الأمور التالية في الاعتبار :

١ـ الأول هو على أي شئ تطلق السيرة؟ كان المحدثون والعلماء يطلقون مصطلح المغازي والسيرة على غزوات الرسول (ﷺ) لذا يطلق مسمي " المغازي" و" السيرة " على كتاب ابن إسحاق، ويستخدم الحافظ ابن حجر في فتح الباري هذين المصطلحين لكتاب واحد، وهو ما اصطلح عليه في الفقه كذلك. فعند الحديث في الفقه في باب كتاب الجهاد والسير يعبر عن أحكام الغزوات والجهاد بلفظ السيرة.

واستمر هذا عدة قرون، فالمؤلفات التي عرفت باسم " السيرة " حتى القرن الثالث الهجري مثل "سيرة ابن هشام "، و "سيرة ابن عائذ " و" سيرة أموي " وغيرها كلها تشتمل في الأغلب على أحوال وأحداث الغزوات، ثم أضيفت موضوعات أخرى مع المغازي في مؤلفات ما بعد هذه الفترة، من مثل " المواهب اللدنية" والذي يضم موضوعات أخري كثيرة إضافة إلى المغازي.

لذا يري المحدثون أن السيرة أو المغازي وفن الحديث فنان مختلفان، لدرجة أنه في بعض المواضع يعتقد أن أرباب السيرة والمحدثين متنافسان، ففي بعض الأمور نري أهل السيرة جميعاً في جانب، والإمام البخاري ومسلم في جانب آخر، الأمر الذي يؤدي ببعض الناس إلى عدم التسليم برواية الإمام البخاري في مثل هذه الأمور، لأنه يخالف فيها أرباب السيرة جميعاً، ولكن المحققين يرون أن الحديث الصحيح يُرجّح على رواية جميع أهل السيرة المتفق عليها.ونحن هنا في هذا المقام نقدم واقعتين كنموذج.

هناك غزوة من الغزوات تعرف باسم " ذي قرد "، ويتفق أهل السيرة على أنها كانت قبل " صلح الحديبية "، في حين أن هناك رواية عن سلمة بن الأكوع ـ رضي الله عنه ـ في صحيح مسلم يتضح منها أنها كانت بعد " صلح الحديبية " وقبل" خيبر " بثلاثة أيام. كتب العلامة القرطبي في شرح هذا الحديث : ـ " لا يختلف أهل السيرة في أن غزوة ذي قرد كانت قبل الحديبية، وعليه فإن ما جاء في حديث سلمة من وهم بعض الرواة. "

يبحث الحافظ ابن حجر قول القرطبي هذا في " فتح الباري " ـ في ذكر غزوة ذي قرد ـ ويقول :

فعلى هذا ما في الصحيح من التاريخ لغزوة ذي قرد صح مما ذكره أهل السير.

الدمياطي محدث مشهور، ألف كتابا في السيرة، وهو اليوم في متناول الأيد، وقد رجح فيه روايات أهل السير في مواقع كثيرة؛ ولكنه حين حقق في الأمر أدرك أن الأحاديث الصحيحة مرجحة على روايات السيرة، فأراد أن ينقح كتابه؛ ولكنه لم يتمكن من هذا بسبب انتشار كتابه بكثرة.

ينقل الحافظ ابن حجر قول الدمياطي فيكتب : ـ

ودل ذلك على أنه كان يعتقد الرجوع عن كثير مما وافق فيه أهل السير وخالف الأحاديث الصحيحة وإن ذلك كان به قبل تضلعه منها، ولخروج نسخ كتاب وانتشاره لم يتمكن من تغييره. (الزر قاني على المواهب جـ ٣ ص١١)

٢ ـ هناك غزوة تعرف باسم " ذات الرقاع "، وعنها يتفق جميع أهل السير في وقوعها بعد غزوة " خيبر"؛ ولكن الإمام البخاري قد صرح بوقوعها بعد خيبر وعليه اختلف العلامة الدمياطي مع رواية البخاري. يكتب الحافظ ابن حجر في فتح الباري : وأما شيخه الدمياطي فادعى غلط الحديث الصحيح وإن جميع أهل السيرعلى خلافه. (فتح الباري، جـ ٧ ص ٣٢٢)

نقل الحافظ ابن حجر هذا القول ورفضه.

الخلاصة هي أن " السيرة " فن مستقل وليس هو علم الحديث بعينه؛ لذا لا تراعى الدقة المتناهية في رواياته، كما هو الحال في الصحاح الستة. ومثال هذا علم الفقه، فهو مأخوذ من القرآن الكريم والحديث؛ ولكن لا يمكن القول بأنه قرآن أو حديث، أو أنه يعادلهما.

٣ـ إن التفصيلات الجزئية في المغازي أو السير لاتصل إلى معيار أو درجة علم الحديث، وعليه يقل معيار النقد والتحقيق عند أهل السير، لذا تقل مكانة السيرة والمغازي عن مكانة ودرجة علم الحديث.

وليعلم الطالب أن السيرا تجمع ما صح وما قد أنكرا

وهذا هو السبب في وجود روايات ضعيفة بكثرة في مؤلفات معتَبرة، لذا كان من الضروري توفير كتب الحديث والرجال بكثرة، ثم إعداد كتاب سند وموثــق (فــي فــن السيرة) بعد نقد وتحقيق بالغ؛ ولكن مطالعة مئات الكتب والاقتباس منها ليس عمل فــرد واحد، هذا فضلاً عن ضرورة التعرف على ما كتبه الأوربيون عن النبي (ﷺ). ومن سوء حظي لا أعرف أي لغة أوروبية، لذا كانت هناك حاجة إلى لجنة تقوم بهذا التأليف، والتي تضم عالما باللغة العربية وعلماء باللغات الغربية. والآن وقد هيأ الله تعالى هذه الوســائل فما عذري الآن ؟ ولو لم أقم بأداء هذا الفرض الآن؛ فأي تعاسة تكبر هذا ؟

يحق للمسلمين أن يفخروا بأنه لا يوجد ــ حتى تقوم الساعة ــ أي نظير لنبــيهم (ﷺ)، والذي حفظوا سيرته (ﷺ) وأحواله حرفاً حرفا، ولا توجد أي شخصــية ــ حتــى اليوم ولن توجد ــ غيره (ﷺ)، دونت سيرتها مثله ﷺ. ومما يدعو إلى الدهشة أكثر مــن هذا، هو أنه قد كتبت أسماء وسيرة ١٣ ألف شخصية تقريباً ممن رأوا والتقوا بالرســول (ﷺ)؛ من أجل تحقيق أحواله وأفعاله (ﷺ). وحين بدأ التأليف كُتبت مؤلفات كثيــرة فــي سيرة هؤلاء الصحابة والشخصيات من مثل طبقات ابن سعد وكتاب الصحابة لابن السكن وكتاب لعبد الله بن على بن جارود، وكتاب العقلي في الصحابة، وكتاب ابن أبــي حــاتم الرازي، وكتاب الأزرق، وكتاب الدولابي، وكتاب البغوي [1] وطبقات ابن ماكولا، وأسد الغابة، والاستيعاب، والإصابة في أحوال الصحابة. هل يمكن لرفاق أي شخص في الدنيا أن يدون عن أسمائهم وسيرتهم وهم بهذا الكم؟

٤ــ التزم الإمامان البخاري ومسلم بعدم تدوين الأحاديث الضعيفة في صحيحهما؛ في حين أنه لم يلتــزم أي أحد هذا الالتزام في مؤلفات السيرة قديماً وحديثاً. مثلاً لا يوجد مثل هذا الالتزام فــي ســيرة ابــن إسحاق، وسيرة ابن هشام، وسيرة ابن سيد الناس، وسيرة الدمياطي، والحلبي، والمواهب اللدنية. ويتضح من تفصيلنا هذا ما تعنيه عبارة "ما كتب أي كتاب حتى اليوم في السيرة فيه التزام بالصحة " وإلــى أي مدي صحتها.

[1] ذكرت هذه الكتب في مقدمة " الاستيعاب ".

إن الثروة [1] التي تركها القدماء عن السيرة النبوية، ندون هنا نبذة عن تاريخها ومنهجها، حتى يتسنى لنا الاستفادة منها في إعداد كتاب كامل يعتد به، وإلى أي مدى تحتاج هذه الثروة إلى دراسة وتحقيق.

بداية فن السيرة ومؤلفاته

ساد اعتقاد وهو أن التعليم لم يكن منتشراً عند العرب، وبدأ التدوين والتأليف في الإسلام منذ عهد الخليفة المنصور العباسي (في ١٤٣هـ تقريباً)، لذا كانت ثروة السيرة والروايات محفوظة شفويا، ولم تكن مدونة؛ ولكن هذا الاعتقاد خاطئ؛ إذ كانت القراءة وَالكتابة منتشرة (ولو قليلاً) عند العرب منذ مدة، فقد كان الخط الحميري والنابتي سائدًا منذ زمن بعيد، والذي ظهرت لوحاته اليوم بكثرة بفضل أوروبا، واكتشف الخط العربي قبل الإسلام بفترة، ومر بصور كثيرة حتى وصل إلى هذا الشكل الذي عليه الآن.

إن الروايات القديمة الواردة في الكتب عن تاريخ هذا الخط وبدايته أغلبها، لا علاقة له بالصحة. على سبيل المثال، نقل ابن النديم عن الكلبي، إن أول من اخترع الخط العربي هم أبو جاد، وهواس حطي، وكلمن، وسعفص، وقريشات (هذه الأسماء هي التي نطلق عليها اليوم أبجد هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت) ويرى كعب أن سيدنا آدم عليه السلام هو الذي اخترع الخطوط كلها. ونقل ابن النديم قول عبد الله بن عباس (رضي الله عنه)؛ وهو أن أول من كتب الخط العربي ثلاثة أشخاص كانوا من قبيلة بولان (إحدى بطون قبيلة طي) والذين كانوا يعيشون في الأنبار، وأسماؤهم مرامر بن مرة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة.

والرواية الأقرب إلى القياس والصحة من بين هذه الروايات، هي تلك الرواية التي نقلها ابن النديم عن كتاب " مكة " لعمرو بن شعبة، وهي أن أول من اخترع الخط العربي هو شخص من قبيلة بني مخلد ابن النضر بن كنانة، وكان هذا على الأغلب في تلك الفترة التي ارتقت فيها قريش، وبدأت تتعرف على الشعوب الأخرى عن طريق التجارة. وكتب ابن النديم، كنت قد رأيت وثيقة في مكتبة مأمون الرشيد والتي كانت قد خطت بيد عبد المطلب بن هاشم جد الرسول (ﷺ)، وهذا نصها: ـ

---

[1] جدير بالذكر أن الوقائع الكثيرة المتعلقة بعادات وأخلاق وسيرة النبي (ﷺ) في كتب الحديث، والتي تساعد كثيرا في السيرة، لا يمكن أن يعد منها بمفردها مؤلف تاريخي، إضافة إلى فقدان التسلسل التاريخي بها، وأضف كتب الحديث إلى ما ذكرناه من كتب هنا.

حق عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة، على فلان ابن فلان الحميري من أهل وزل صنعاء إليه ألف درهم فضة كيلاً بالحديدة، ومتى دعاه بها أجابه شهد الله والملكان[1]

يتضح من هذه الوثيقة أن عبد المطلب كان قد أقرض شخصًا حميريًا ألف درهم، وكتب في النهاية شهادة ملكين، مما يدل على أنه كان هناك اعتقاد بالملائكة)كِرَاماً كَاتِبِينَ) (الانفطار: ١١) في ذلك العصر.

كتب ابن النديم أن خط هذه الوثيقة شبيها بخط النساء. وذكر العلامة البلاذري أنه حين بُعث النبي ﷺ، كان في قريش ١٧ شخصاً يعرف القراءة والكتابة، وهم عمر وعلي، وأبو عبيدة، وطلحة، وزيد، وأبو حذيفة، وأبو سفيان، والشفا بنت عبد الله، وغيرهم، رضوان الله عنهم أجمعين [2]

وقعت غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة، وفيها أُخذت الفدية من أسرى قريش، ولكن كان هناك فقراء ما استطاعوا أداء الفدية، فأمرهم الرسول ﷺ بأن يتولى كل واحد منهم تعليم عشر أطفال من أبناء المسلمين القراءة والكتابة، ومن هنا تعلم زيد بن ثابت ــ من كتاب الوحي ــ الكتابة.

. يتضح من هذه الأخبار أن القراءة والكتابة كانت قد انتشرت في عهد الرسول ﷺ بين العرب، خاصة في مكة والمدينة. وهنا أمر جدير بالتحقيق، وهو؛ هل دُونت الروايات والأحاديث في عهد الرسول (ﷺ) أم لا؟ وعليه هل وُجد مُؤلف في السيرة أم لا ؟ يوجد تصريح في بعض الأحاديث، والتي مذكور بعضها في صحيح مسلم، أن الرسول (ﷺ) كان قد منع تدوين الأحاديث. وهذا ما ورد في صحيح مسلم : ــ

«لَا تَكْتُبُوا عَنِّي إِلَّا الْقُرآنَ، فَمَنْ كَتَبَ عَنِّي شَيْئاً فَلْيَمْحُهُ».[3]

---

(1) ابن النديم , ص ١٧، طبعة مصر. (سيد سليمان الندوي).

(2) فتوح البلدان، ص ٤٧١، طبعة أوروبا.

(3) وهذا نص الحديث كاملا: (٦٤) ــ أخبرنا الحسنُ بنُ سفيان، قال: حدثنا كثير بنُ يحيى صاحبُ البصري، قال: حدثنا هَمَّام، عن زيدِ بنِ أسلم، عن عطاءِ بنِ يَسَار عن أبي سعيد الخُدْري، قال: قال رسولُ اللّه : «لَا تَكْتُبُوا عَنِّي إِلَّا الْقُرآنَ، فَمَنْ كَتَبَ عَنِّي شَيْئاً فَلْيَمْحُهُ». (٢:٥٦)

قال أبو حاتم : زجرُهُ عن الكِتبَةِ عنه سوى القرآن أرادَ به الحثَّ على حفظ السُّنَن دون الاتِّكال على كِتْبَتِها وتركِ حفظها والتفقُّه فيها. والدليلُ على صحة هذا إباحتُهُ، لأبي شاه كَتْبَ الخطبةِ التي سمعها من رسول الله، وإذْنُهُ لعَبْدِ اللّهِ بنِ عَمْرو بالكِتْبَة. (المترجم).

ولكن يبدو أن هذا كان في الفترة الأولى، إذ يثبت من أحاديث صحيحة كثيرة أن بعض الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ في حياة الرسول (ﷺ) كانوا يكتبون أقواله (ﷺ) بإذنه (ﷺ). وفي صحيح البخاري (باب العلم) ورد قول أبي هريرة رضي الله عنه، أنه ليس في الصحابة رضوان الله عليهم أحد أكثر مني حفظاً للأحاديث، باستثناء عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، لأنه كان يكتب أحاديث النبي (ﷺ)، ولم أكن أكتب أنا.

وفي رواية أن عادة عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، هي أنه كان يدون ما يسمعه من الرسول (ﷺ)، ومنعه صحابي، إذ أن الرسول (ﷺ) أحياناً يكون في حالة الغضب، وأخرى في حالة الفرح، وأنت تكتب كل شيء، لذا ترك عبد الله بن عمر رضي الله عنهما الكتابة، وذكر هذه الواقعة للنبي (ﷺ)، فأشار النبي (ﷺ) إلي شفاهه المباركة وقال: " أكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إلاَّ حَقٌّ». [1] روي الخطيب البغدادي في رسالته "تقيد العلم"، أنه كان يطلق على تلك المذكرة التي كان يدون فيها عبد الله (بن عمر رضي الله عنهما) أحاديث النبي (ﷺ) مسمى "صادقة " [2]

. ذات مرة أمر الرسول (ﷺ) بتدوين أسماء الذين دخلوا في الإسلام حتى تلك الفترة، لذا دُونت أسماء ألف وخمسمائة (١٥٠٠) صحابي في سجل [3].

روى الخطيب البغدادي في " تقيد العلم ": أنه حين كان يجتمع المسلمون في أعداد كثيرة عند أنس (رضي الله عنه) للاستماع إلي الأحاديث، فكان يُخرج مجلدًا، ويقول تلك هي الأحاديث التي كنت قد دونتها عن الرسول (ﷺ).

إن أوامر وأحكام الزكاة والصدقات التي أرسلها (ﷺ) إلي قبائل كثيرة كانت مكتوبة، ومنقولة كما هي بعينها في كتب الحديث، كما كانت الرسائل التي أرسلها (ﷺ) إلي الملوك والسلاطين يدعوهم إلي الإسلام، مكتوبة هي الأخرى.

---

(١) أبو دواد، المجلد ٢، ص ٧٧ . وهذا نص الحديث: (٣٦٤٧) ـــ حدثنا مُسَدَّدٌ وَ أَبُو بَكْرِ بنُ أبِي شَيْبَةَ قالاَ أخبرنا يَحْيَى عن عُبَيْدالله بنِ الأخْنَسِ عن الْوَلِيدِ بنِ عَبْدِ الله بنِ أبي مُغيثٍ عن يُوسُفَ بنِ مَاهَكَ عن عَبْدِ الله بنِ عَمْرٍو، قالَ: «كُنْتُ أكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ وَقَالُوا: أتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ وَرَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ في الْغَضَبِ وَالرِّضَى، فأمْسَكْتُ عن الْكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلكَ إلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، فأوْمَأ بأُصْبُعِهِ إلَى فِيهِ فقالَ: أكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إلاَّ حَقٌّ». (المترجم).

(٢) جامع بيان العلم للقاضي بن عبد البر، طبعة مصر، فيه ذكر لـ " صادقة " في ص ٧٧.

(٣) صحيح البخاري، باب الجهاد.

ورد في صحيح البخاري (باب كتابة العلم)، أنه حين قتل خزاعي رجلاً في الحرم سنة فتح مكة، فامتطي الرسول (ﷺ) الناقة وخطب (في الناس)، جاء رجل يمني وطلب : هلاّ تحرر لي هذه الخطبة ؟ فأمر الرسول (ﷺ) بتحرير هذه الخطبة له.

وهذه هي الثروة المكتوبة التي حررت حتى وفاة النبي (ﷺ) : ـ

١. الأحاديث النبوية التي دونها عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله تعالى عنهما) وأنس رضي الله تعالى عنه [١].

٢. الأوامر أو الأحكام والمعاهدات المكتوبة (كصلح الحديبية وغيره). والفرمانات التي أرسلها (ﷺ) إلى القبائل [٢].

٣. الرسائل التي أرسلها (ﷺ) إلى الملوك [٣] والأمراء [٤].

٤. أسماء ١٥٠٠ صحابي [٥].

وظلت ترتقى وتزيد هذه الثروة المكتوبة بعد وفاته (ﷺ)، لدرجة أنه (قبل بني العباس) حين انتقل سجل الأحاديث والروايات بعد مقتل الوليد بن يزيد من مكتبة الوليد حُملت روايات ومؤلفات الإمام الزهري فقط على الخيول والحمير. [٦]

المغازي

لم يكن لدى العرب من علوم أو فنون سوي ما كان يروى من أحداث المعارك والأحوال القبلية، ولهذا كانت روايات غزواته (ﷺ) أول ما انتشر من بين أقواله وأفعاله وأحواله (ﷺ)، وهذا هو أول فن وضعت أسسه. وبالرغم من هذا ظلت المغازي متأخرة عن غيرها من بين أنواع الروايات؛ إذ اعتني الخلفاء الراشدون والصحابة ـ عليم رضوان الله ـ كثيراً بأقواله وأفعاله (ﷺ)، والتي كانت تتعلق بالشريعة، ويستنبطون منها الأحكام الفقهية.

---

[١] صحيح البخاري، جـ ١، ص ٢١،٢٢ صحيفة على وكتابة الرجل من اليمن.

[٢] سنن ابن ماجة، ص١٣٠، جلدا ص ١٥٥، ١٥٦ ـ

[٣] صحيح البخاري جـ ١، ص ٥، وأيضاً ص ١٥ ـ

[٤] الذين كان قد أمر الرسول (ص) بتدوين أسماءهم حتي يتبين عدد من دخل في الإسلام حتى ذلك الوقت. المترجم.

[٥] صحيح البخاري، جـ ١، ص ١٢، ٢٢ صحيفة على وكتابة الرجل من اليمن.

[٦] تذكرة الحفاظ، العلامة الذهبي، تذكرة الإمام البخاري.

نقل الإمام البخاري هذه الرواية عن سائب بن يزيد ــ رضي الله عنه ــ والتي تخص غزوة أحد : ــ

(صحبت عبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، والمقداد، وسعداً، فما سمعت أحداً منهم يحدث عن النبي (ﷺ)، إلا إني سمعت طلحة يحدث عن يوم أحد)[1].

إن عبد الرحمن بن عوف، وطلحة، والمقداد، وسعد بن أبى وقاص، من كبار الصحابة، ولقد رويت عنهم أحاديث كثيرة، ولهذا فمن الممكن أن يكون المقصود من هذه العبارة أن هؤلاء الصحابة ما كانوا يروون وقائع الغزوات وأحداثها، سوى طلحة الذي كان يروي عن أحداث أحد.

وكان هذا هو السبب في أن العلماء الذين اتخذوا من المغازي فناً لهم كانوا مقبولين لدي العامة، في حين أنهم لم يكونوا ثقاة لدي الخاصة. مثلاً ابن إسحاق والواقدي كانا من جهابذة هذا العلم. ويقول المحدثون صراحة إن الواقدي كذاب. ويقول فريق بأن ابن إسحاق ثقة؛ في حين أن فريقًا آخر في نفس الدرجة يعتبره غير ثقة. وسوف نتحدث عن هذا تفصيلا في الصفحات القادمة. ويقول الإمام احمد بن حنبل : ثلاثة كتب ليس لها أصول؛ المغازي والملاحم والتفسير.

ونقل الخطيب البغدادي هذا القول، وكتب: "إن قصد الإمام أحمد هو تلك الكتب التي لا أساس لها "، ثم كتب: " أما كتب التفسير فمن أشهرها كتابا الكلبي ومقاتل بن سليمان. وقد قال أحمد في تفسير الكلبي: من أوله إلي آخره كذب. " ثم كتب " وأما المغازي فمن أشهرها كتاب محمد بن إسحاق وكان يأخذ من أهل الكتاب. وقد قال الشافعي: كتب الواقدي كذب".

وبالرغم من هذا لم يكن من الممكن رفض هذا الأمر، إذا كان الصحابة يروون بحرص شديد ما يحفظونه جيداً من روايات.

بداية التأليف بأمر من الخلافة

بالرغم من أنه قد انتشرت حلقات الحديث والفقه في عهد الصحابة والخلفاء الراشدين، وأقيمت حلقات تدريس كثيرة، إلا أن أغلبها كان شفهياً. وقد أمر بنو أمية العلماء والحكماء بالتأليف، ونقل القاضي ابن عبد البر قول الإمام الزهري في كتاب جامع

---

[1] صحيح البخاري ــ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ــ كتاب المغازي ــ حديث ٤٠٦٢ الطبعة الأولى، ١٩٩٢ م، ص٤٠ (المترجم).

بيان العلم: "كنا نكره كتاب العلم حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء". ويأتي الأمير معاوية ــ رضي الله عنه ــ في مقدمة هذا الأمر؛ إذ استدعي عبيد الله بن شرية من اليمن، وأمره بإعداد تاريخ القدماء، والذي يسمى بــ "أخبار الماضيين"[١] ومن بعده جلس عبد الملك بن مروان سنة ٦٥هــ على العرش، وأمر العلماء بالتأليف في مختلف العلوم والفنــون، وأرسل إلي سعيد بن جبر ــ أعلم أهل زمانه ــ بكتابة تفسير القرآن الكريم، فكتب سعيد التفسير وأرسله إليه، وحُفظ في المكتبة الملكية. والتفسير المعروف باسم عطاء بن دينار، تفسيره هو، إذ كان قد حصل عليه عطاء من المكتبة الملكية.[٢] وحين جلس عمر بن عبد العزيز على العرش اهتم اهتماماً بالغاً بالتأليف، وأرسل إلى كل الولايات أمــرًا بكتابــة وتدوين الأحاديث النبوية، واستكتب كتباً كثيرة في الحديث من سعد بن إبــراهيم قاضــي المدينة والمحدث المعروف، وأرسلها إلى الولايات، والتي كانت قابعة تحت سلطانه. يكتب العلامة ابن عبد البر في جامع بيان العلم: "عن سعد بن إبراهيم قال أمرنا عمر بن عبــد العزيز بجمع السنن فكتبناها دفتراً دفتراً فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفتراً".

و أرسل ــ عمر بن عبد العزيز ــ أمرا إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري ــ الذي كان أكبر محدثي عصره وقاضي المدينة وأستاذ الأمــام الزهــري ــ يأمره بصفة خاصة بجمع الحديث.

ولروايات أم المؤمنين السيدة عائشة ــ رضي الله تعالى عنها ــ فــي الحــديث أهمية ومنزلة خاصة؛ إذ أن أكثر الأحاديث المتعلقة بالعقيدة والمسائل الفقهية مروية عنها، لذا اهتم عمر بن عبد العزيز اهتماماً بالغاً برواياتها. ولما كانت عمرة بنت عبد الــرحمن سيدة فاضلة تربت في حجر السيدة عائشة، وكانت محدثة كبيرة، وعالمة جليلــة، واتفــق عامة العلماء على أنه لا يفضلها أي عالم في الرواية عن أم المؤمنين السيدة عائشة، كتب عمر بن عبد العزيز رسالة إلى أبي بكر بن محمد، بأن يدون روايات عمرة ويرسلها.

---

[١] فهرست ابن النديم ــ ص ٢٤٤. كتب المؤلف اسم الكتاب "أخيار" والصحيح "أخبار" وورد هــذا في كتاب الفهرست لابن النديم، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧١ــ ص ١٠٢ (المترجم).

[٢] ميزان الاعتدال ترجمة عطاء بن دينار ــ وتم طبعه في مصر، الطبعة الأولى، ســنة ١٩٦٣ وورد هذا في ص ٧٠. (المترجم).

اهتمام بالغ بالمغازي

حتى هذه الفترة لم يكن هناك اهتمام بالغ بالمغازي والسير، ولكن عمر بن عبد العزيز قد أولى هذا الفن اهتمامًا بالغًا، و أمر بعقد حلقات تدريس خاصة بالغزوات النبوية. وكان لعاصم بن عمر بن قتادة (١٢١هـ) مقدرة فائقة في هذا الفن؛ لذا أمره بالجلوس في المسجد الجامع بمدينة دمشق حتى يعلم الناس المغازي والمناقب.

في هذه الفترة كتب الإمام الزهري كتابًا مستقلا في المغازي؛ وهو أول مُؤلف في هذا الفن كما صرح بهذا الإمام السهيلي في كتاب (روض الأنف). والإمام الزهري — أعلم أهل زمانه — لم يكن له نظير في الفقه والحديث، وهو شيخ شيوخ البخاري، وبذل جهداً كبيراً في التعرف على الأحاديث، والتحقيق من الروايات، لدرجة أنه كان يذهب إلى منزل كل أنصاري في المدينة المنورة، ويسأل كل من يجده من شاب وشيخ رجل كان أو امرأة حتى إنه التقى بالنساء ذوات الحجر، وسألهن عن أقوال وأحوال الرسول ﷺ ودونها.

كان الإمام الزهري قرشي النسب، ولد في سنة ٥٠ هـ وشاهد كثيراً من الصحابة، والتحق ببلاط عبد الملك بن مروان سنة ٨٠هـ، وحصل على منزلة عالية. وأغلب الظن أنه ألف كتاب المغازي بإيعاز من عمر بن عبد العزيز. وجدير بالذكر أن الإمام الزهري كانت له علاقة ببلاط الخلفاء، ومن أقرب المقربين، وأسند إليه هشام بن عبد الملك تعليم أبنائه، وتوفي ١٢٤ هـ.

وبسبب الإمام الزهري بدأ الاهتمام بالمغازي وفن السيرة، وتخرج أناس كثيرون من حلقات درسه، وكانت لهم مكانة رفيعة في هذا الفن، ومن بينهم يعقوب ابن إبراهيم، ومحمد بن صالح التمار، وعبد الرحمن بن عبد العزيز، والذين كانوا يتمتعون بشهرة رفيعة في فن المغازي؛ لذا يتصفون بوصف خاص وهو "صاحب المغازي" في كتاب " تهذيب التهذيب" وغيره من المؤلفات.

ومن تلامذة " الزهري "؛ شخصيتان حصلتا على شهرة كبيرة في هذا الفن، وعليهما انتهت سلسلته، وهما " موسى بن عقبة " و"محمد بن إسحاق ".

وكان موسى بن عقبة من موالى عائلة الزبير، وكان قد شاهد عبد الله بن عمر — رضي الله عنهما — والإمام مالك تلميذه في علم الحديث، والذي كان يثني عليه وعلى علمه كثيراً، ويحث الناس على أنه إذا أرادوا تعلم فن المغازي؛ فليتعلموه من موسى. ومن خصائص مغازيه ما يلي : —

١. لم يكن في ذلك الوقت أحد من المؤلفين يلتزم بتحري الصحة في الروايات، لذا التزم (موسى) بتحري صحة الروايات على الأغلب.

٢. كان عامة المؤلفين ينقلون الوقائع والأحداث بكثرة، مما نتج عنه نتيجة حتمية؛ وهي ورود كل أنواع الروايات الرطب واليابس، أما موسى فكان يتحرى الدقة وينقل فقط الروايات الصحيحة من وجهة نظره، وهذا هو السبب في أن كتابه مختصر بالنسبة لكتب المغازي الأخرى.

٣. وحين لم يكن هناك تقيد بالعمر لرواية الحديث ؛ لذا كان كثير من الناس يلتحقون في حلقات الدرس وهم في سن الصبية أو بداية الشباب ويستمعون إلى الأحاديث ويرونها للناس، ولكن حين لم يكن من الممكن حفظ وفهم الأحداث والوقائع بشكل صحيح في مثل هذا العمر، لذا كان يحدث تبديل واختلاط في أغلب الروايات، أما موسى فقد تعلم هذا الفن وهو في سن كبير على العكس من الآخرين. وقد توفي في سنة١٤١ هـ وكتاب موسى ليس موجوداً الآن ولكنه ظل شائع ورائج لفترة، وتوجد اقتباساته في كل كتب السيرة القديمة.

يعتبر "محمد بن إسحاق " الأكثر شهرة في فن المغازي، ويعرف باسم إمام فن المغازي، وإن كان الواقدي لا يقل شهرة عنه، ولكن كذب الواقدي أمر مسلم به، لذا فشهرته شهرة سيئة. إن محمد بن إسحاق تابعي، رأي الصحابي " أنس – رضي الله عنه – وله مكانة مرموقة في علم الحديث. كان على باب الإمام الزهري حاجب معين، لا يسمح بدخول أي شخص بدون إذن، باستثناء " محمد بن إسحاق " الذي كان يتمتع بإذن صريح بالدخول حين يشاء. واختلف المحدثون في ثقته من عدمها، والإمام مالك يخالفه مخالفة شديدة. أما رأي المحدثين العام فهو أن رواياته مقبولة السند في المغازي والسيرة ولم يرو له البخاري في صحيحه، ولكنه نقل عنه في " جز القرأة ". وتقتبس منه وقائع كثيرة في التاريخ.

ولقد ارتقي " ابن إسحاق" بفن المغازى وجعله فناً ممتعاً لدرجة أنه أوجد تذوق فن المغازى في الخلفاء العباسيين الذين كانوا أكثر من يتذوق هذا الفن؛ لذا ذكر " ابن عدي " هذا الفضل؛ بل وكتب: " أنه لم يصل أي مؤلف في هذا الفن إلى مكانة كتابه.[1]

---

(١) تهذيب التهذيب.

وقد كتب " ابن حبان " في كتاب " الثقات "، بأن المحدثين اعترضوا على كتاب "محمد بن إسحاق " إذ يقولون بأنه عرف وقائع خيبر وغيرها عن هؤلاء اليهود، الذين أسلموا، وأوردها في كتابه؛ لذا لا يمكن الثقة فيه تماما، لأنه استمع إلى هذه الوقائع من اليهود. ويتضح من تصريح العلامة الذهبي، أن محمد بن إسحاق كان يروي عن اليهود والنصارى، ويعتبرهم ثقة. وتوفي في سنة ١٥١هـ.

وتمت ترجمة كتاب " المغازي " لمحمد بن إسحاق إلى اللغة الفارسية في عهد الشيخ " سعدي" وبأمر من " أبى بكر سعد زنكي". وقد اطلعت على إحدى مخطوطاته في مدينة " إله آباد ".

ذاع صيت كتاب " محمد بن إسحاق، وأعد نسخه كبار المحدثين المعروفين، وقد نقح " ابن هشام هذا الكتاب نفسه وأضاف إليه وأعده، وهو ما يعرف باسم " سيرة ابن هشام ". ولما كان أصل الكتاب يقل وجوده اليوم، لذا فأثره الموجود الآن هو كتاب "ابن هشام ". واسم "ابن هشام " عبد الملك، وهو ثقة ومحدث ومؤرخ مشهور، وكان من قبيلة حمير، وربما كان هذا هو السبب في كتابته تاريخ سلاطين حمير الذي يوجد الآن. وأضاف إلى فن السيرة شرح وتوضيح وتفسير الألفاظ الصعبة التي ترد في كتب السيرة. توفي في سنة٢١٣ هـ، أو سنة ٢١٨ هـ.

وذاعت شهرة سيرة " ابن إسحاق " حتى نظمها الناس شعراً، ومن بينهم " أبو نصر فتح بن موسى خضراوي"، المتوفى في سنة ٦٦٣ هـ، وعبد العزيز بن أحمد المعروف " بسعد ويري " والمتوفى تقريباً سنة ٦٠٧هـ، و" أبو إسحاق الأنصاري التلمساني "، وفتح الدين محمد بن إبراهيم والمعروف بابن الشهيد والمتوفى في سنه ٧٩٣ هـ. ونظم هذا الكتاب في عشرة آلاف بيت من الشعر تقريباً، ويعرف كتابه باسم " فتح الغريب في سيرة الحبيب".

" الواقدي " نفسه ليس جديراً بالذكر، ولكن من بين تلاميذه " ابن سعد "، والذي ألف كتاباً جامعا ومفصلا عن حياة الرسول ﷺ والصحابة (رضوان الله عليهم)، ولا نظير له حتى الآن.

"ابن سعد " محدث مشهور، كتب المحدثون عموما بأنه على الرغم من أن الواقدي غير ثقة، إلا أن " ابن سعد " سند. وعنه كتب "الخطيب البغدادي" هذه الألفاظ : —

" كان من أهل العلم والفضل والفهم والعدالة، صنف كتاباً كبيراً في طبقات الصحابة والتابعين إلى وقته، فأجاد فيه وأحسن " [١].

كان "ابن سعد" من موالي بنى هاشم، ولد في البصرة، وفضل العيش في بغداد، وتلميذه البلاذري المؤرخ المشهور، وتوفي في سنة ٢٣٠ هـ، وهو في سن الثانية والستين من عمره.

اسم كتابه " الطبقات "، وهو اثني عشر مجلداً، مجلدان في حياة الرسول ﷺ ويعتبر هذا الجزء من الكتاب في الحقيقة في السيرة النبوية، والمجلدات الأخرى في حياه الصحابة (رضوان الله عليهم) والتابعين، ولما كان يوجد ذكر للنبي في أماكن كثيرة أثناء حديثه عن حياة الصحابة، لذا توجد ذخيرة كبيرة في فن سيرة النبوية في هذا الجزء من الكتاب أيضًا.

وقد فقد هذا الكتاب على الأغلب؛ أي لا توجد نسخة له كاملة في أي مكتبة من مكتبات العالم، و أراد ملك ألمانيا طبعه ونشره، لذا أنفق مئة ألف روبية من جيبه الخاص، وأرسل البروفسور "ساخو" إلى القسطنطينية ومصر وأوروبا، وجمع مجلدات الكتاب كلها، وألزم اثني عشر عالما أوربيا بتصحيح كل جزء على حده، فطبعت هذه الطبعة ونشرت بهولندا بتحرٍ ودقة.

وهناك جزء كبير من هذا الكتاب مأخوذ من الواقدي، ولكن الروايات مذكورة بسندها، لذا يمكن فصل روايات الواقدي بسهولة.

وكانت قد كتبت مؤلفات كثيرة أخري في فن السيرة في تلك الفترة، وقد ورد ذكر أسمائها في كشف الظنون وغيره، ولكن بسبب عدم معرفة أي شيء عنها سوي أسمائها فقط، إذ ليس لها وجود اليوم؛ لذا نغض النظر عن أسمائها.

وهناك مؤلفات تاريخية مستقلة تتعلق بالسيرة، منها ما كتب على طريقة الحديث، أي التي فيها ذكر للروايات بسندها، والجزء الذي يتعلق بوقائع وحياة النبي(ﷺ) فيها هو في الحقيقة سيرة نبوية. وتاريخ الإمام البخاري أفضلها سنداً، ولكنهما مختصران جداً، وقد نشر التاريخ الصغير، والجزء الخاص بالسيرة النبوية فيه ليس الجزء العاشر للكتاب فهو يشتمل على خمسة عشر صفحة فقط، وليس فيهم أي ترتيب، "والتاريخ الكبير " كبير،

---

[١] تهذيب التهذيب، ترجمة محمد بن سعد .

وكنت قد رأيت نسخته في جامع أيا صوفيا، ولكن السيرة النبوية فيه قليلة جداً، كما أن الوقائع غير مرتبة.

" والتاريخ الكبير" للإمام الطبري هو أفضل كتاب جامع ومفصل عن الكتب التاريخية المتعلقة (بالسيرة النبوية)، والإمام الطبري له مكانة مرموقة، إذ اعترف بفضله وسعة علمه وسنده كل المحدثين، ويعد تفسيره أحسن التفاسير. ويقول المحدث " ابن خزيمة ": لا أعرف من هو أعلم منه في الدنيا. توفي في سنه ٣١٠ هـ.

وعنه كتب بعض المحدثين (السليماني) : أنه كان يضع الأحاديث للشيعة، ولكن كتب العلامة " الذهبي " في ميزان الاعتدال " : ـ

" **هذا رجم بالظن الكاذب؛ بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين**"

وفي هذا المقام كتب العلامة الذهبي كان فيه تشبعاً، ولكنه غير مضر، وكل مؤلفات التاريخ المفصلة والصحيحة مأخوذة من كتابه؛ مثل " التاريخ الكامل " لابن الأثير، وابن خلدون، وأبو الفداء وغيرهم، فهي مختصرات لهذا الكتاب. وكان قد فقد هذا الكتاب ونشر بفضل أوروبا.

وفي هذا المقام ندرج قائمة موجزة لأسماء أركان فن السيرة ومؤلفاتهم [1].

اسم المؤلف	سنة الوفاة	سيرته
• عروة بن الزبير	٩٤ هـ	ابن الزبير رضي الله عنه، وحفيد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وتربى في حجر أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ورواياته بكثرة في السيرة والمغازي. وكتب عنه الذهبي في "تذكرة الحافظ ": كان عالما بالسيرة، وكتب صاحب كشف الظنون في الحديث عن المغازي: أن البعض يري بأنه هو أول من ألف كتاباً في فن المغازي.
• الشعبي	١٠٩هـ	محدث مشهور، وله باع في كل الفنون،وكان

[1] أغلب مؤلفات هؤلاء المؤلفين مفقودة (وأعدت هذه القائمة من كتاب تهذيب التهذيب وغيره) والسبب من كتابة أسمائها هنا هو أن المؤلفات التي توجد اليوم فيها اقتباسات كثيرة من هذه الكتب. (المترجم).

سفيراً لخلافة دمشق[1] في القسطنطينية، وكانت له معرفة ودرجة فائقة في فن المغازي والسيرة، جعلت عبد الله بن عمر رضي الله عنه، يقول: بالرغم من أنني كنت شريكا في تلك الغزوات بنفسي، ولكنه يعرف تلك الأحداث أكثر مني.

• وهب بن منبه	١١٤ هـ	كان من أسرة عجمية باليمن، وسمع أحاديث من أبى هريرة، ومروي عنه كثير من تنبؤات وبشارة كتب العهد القديم المتعلقة بالرسول (ﷺ).
• عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري	١٢١ هـ	تابعي مشهور يروي عن أنس وعن أبيه وعن جدته رميثة، كان واسع العلم في المغازي والسيرة، كما جلس في مسجد دمشق بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز ودرّس هذا الفن.
• محمد بن مسلم بن شهاب الزهري	١٢٤ هـ	سبق ذكره.
• يعقوب بن عتبة ابن مغيرة بن الأخنس بن شريق الثقفي	١٢٨ هـ	كان ثقة كبيراً، وكان يستفاد منه في انتظام أمور الدولة والحكام والعمال، كما كان يعد من فقهاء المدينة المنورة، وكان عالماً بالسيرة النبوية، وجده "الأخنس بن شريق"؛ ذلك الشخص الذي كان من ألد أعداء الرسول (ﷺ).
• موسى بن عقبة الأسدي	١٤١ هـ	ذكر سابقاً
• هشام بن عروة بن الزبير	١٤٦ هـ	كثيراً ما يروي عن أبيه، وهو تلميذ الزهري، ويعد من علماء المدينة. والروايات التي رواها

[1] الخلافة الأموية. (المترجم).

في بغداد يقول المحدثون عنها بأن فيها تساهل وله جزء كبير في ذخيرة روايات السيرة، والتي رواها عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وعن أبيه، وله تلاميذ معرفون كثيرون في فن السيرة.

• محمد بن اسحق بن يسار المطلبي	١٥٠ هـ	ذكر سابقاً
• عمر بن راشد الأزدي	١٥٢ هـ	هو من تلاميذ الإمام الزهري ويأتي بعد الإمام "مالك" في الدرجة. وكان من أساطين علم الحديث، وله كتاب في المغازي، والذي اسماه "ابن النديم" بكتاب المغازي.
• عبد الرحمن بن عبد العزيز الأوسي	١٦٢ هـ	كان تلميذ الزهري، وروى عنه الإمام مسلم رواية، وهو عند المحدثين ضعيف الرواية، كان عالماً في فن السيرة، وعنه كتب "ابن سعد " كان عالماً بالسيرة.
• محمد بن صالح بن دينار التمار	١٦٨ هـ	تلميذ " الزهري " وأستاذ " الواقدي" وقال ابن سعد: بأنه كان عالماً في السيرة و المغازي وصدقه أكثر المحدثين، ويقول أبو الزناد المحدث الكبير: من يرد تعلم فن المغازي الصحيح، فليتعلمه من محمد بن صالح.
• أبو معشر بن نجيح المدني	١٧٠ هـ	كان تلميذاً لهشام بن عروة وعنه روي الثوري والواقدي، وبالرغم من أن المحدثين ضعفوا روايته في الحديث؛ إلا أنهم اعترفوا بجلالة شأنه في فن السيرة والمغازي. يقول "ابن حنبل": إنه صاحب نظر في هذا الفن وذكر "ابن النديم" كتابه " المغازي، ويرد اسمه بكثرة في كتب السيرة.

• عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن المخزومي	١٧٠ هـ	حفيد الصحابي المعروف مسور (رضي الله عنه) بن مخرمة، وكانت له منزلة معروفة في علم الحديث، كما كان من بين كبار علماء فن السيرة النبوية، وكتب " ابن سعد " في شأنه هذه الألفاظ : **من رجال المدينة عالماً بالمغازي.**
• عبد الملك بن محمد ابن أبي بكر بن عمر ابن حزم الأنصاري		اشتهرت أسرته دائما في علم الحديث والسيرة، فجده ذلك الرجل الذي كان أول من دون علم الحديث بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز، وجدته "عمرة"؛ كانت قد تربت في كنف أم المؤمنين عائشة، وكان هو نفسه عالماً في فن السيرة والمغازي، وتعلم على يد أبيه وعمه، وعينه الخليفة "هارون الرشيد" قاضياً، وكان الناس يتعلمون منه فن المغازي، وله كتاب في هذا الفن باسم كتاب المغازي.
• علي بن مجاهد الرازي الكندي	١٨٠ هـ	من تلاميذ "أبي معشر نجيح"، روي عنه الإمام "ابن حنبل". وهو جامع ومؤلف للمغازي، ولكن لا اعتبار لكتابه عند أرباب النقد.
• زياد بن عبد الله بن الطفيل البكائي	١٨٣ هـ	كان تلميذ " ابن إسحاق" وأستاذ "ابن هشام"، فكان واسطة العقد بين عهديهما، وبسبب عشقه لفن السيرة، ترك بيته وخرج مع أستاذه وصاحبه في أسفاره. وبالرغم من قلة مكانته عند المحدثين، لكنه يعد أكثر الرواة صحة عند كتاب السيرة.
• سلمة بن الفضل الأبرش الأنصاري	١٩١ هـ	تلميذ ابن إسحاق، وراوي سيرته، وكان قاضي الري. ولا احتجاج عليه عند أهل النقد، ولكن "ابن معين" ـ أحد علماء أسماء الرجال ـ

		يصدقه في علم المغازي ويقول: إن سيرته من أفضل السير النبوية. وفي الطبري روايات كثيرة مروية عنه.
• أبو محمد بن سعيد بن إبان الأموي	ت ١٩٤هـ	تتلمذ علي يد هشام بن عروة وابن جرير. وعنه كتب بن سعد: مع أنه قليل الرواية؛ إلا أنه ثقة. وذكر صاحب "كشف الظنون" اسمه من بين كتاب المغازي.
• وليد بن مسلم القرشي	١٩٥هـ	محدث شامي مشهور، قوي الحافظة، ولم يفضله أي عالم في الشام في عصره، كما كان يفوق " وكيع " في التاريخ والمغازي، وله سبعون مؤلفاً من بينها كتاب المغازي، والذي ورد ذكره في كتاب "الفهرست " [1].

- يونس بن بكير (ت ١٩٩ هـ): تلميذه " هشام بن عروة " و"ابن إسحاق"، وله مكانة معقولة في فن الرواية وعلم الحديث، وهو ثقة عند أكثر المحدثين. وذكر اسمه العلامة " الذهبي" في (التذكرة) بلقب صاحب المغازي، وكتب "ابن بكير" حاشية كتاب "المغازي" لابن إسحاق (الزرقانى، المواهب، ج ٣، ص١٠).
- محمد بن عمر الواقدي الأسلمي (ت٢٠٧ هـ): له كتابان في السيرة النبوية وهما كتاب السيرة، وكتاب التاريخ والمغازى والمبعث. يقول الإمام الشافعي: إن كل كتب الواقدي كومة من الكذب؛ منبع أغلب روايات اللغو في كتب السيرة. قال أحد المحدثين الظرفاء لو أن " الواقدي " صادق؛ فلا نظير له في الدنيا، ولو أنه كاذب فلا ثان له أيضاً في الدنيا.
- يعقوب بن إبراهيم الزهري (ت ٢٠٨ هـ): أحد أولاد عبد الرحمن بن عوف ــ رضي الله عنه ــ وهو أحد تلاميذ الزهري. ورتبته في المغازي هي أنه تعلم على يديه هذا الفن "ابن معين " العارف بعلم الرجال.
- عبد الرازق بن همام بن نافع الحميري (ت ٢١١ هـ): من المحدثين الثقاة، كان فيه قدر من التشيع. يقول " ابن معين " : لو يرتد عبد الرازق، فلا نستطيع ترك رواية الحديث

---
[1] صاحبه "ابن النديم ". (المترجم).

عنه أيضاً. وذهب بصره في أواخر عمره، لذا فأحاديث تلك الفترة ليست سندا، وله كتاب في فن المغازي.

- عبد الملك بن هشام الحميري (ت ٢١٣هـ أو ٢١٨ هـ): سبق ذكره.
- على بن محمد المدائني (ت ٢٢٥ هـ): كان تلميذ أبي معشر نجيح وسلمة بن الفضل وغيرهما. وهو ذو علم وفير في التاريخ وأنساب العرب. ولا يعد من بين المحدثين، ولكنه إمام المؤرخين. وهو مصدر أصيل لكتاب الأغاني. له مؤلفات كثيرة في التاريخ والأنساب، وله كتاب مفصل عن حياة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وحسبما يذكر ابن النديم أنه قد وضع عناوين مختلفة ومتنوعة.
- عمر بن شبة البصري (ت٢٦٢ هـ): إمام الحديث والتاريخ والأدب والشعر واللغة والنحو، كتب تاريخ مكة المكرمة والمدينة المنورة والبصرة. وله مكانة مرموقة في فن السيرة، وكان "ابن ماجة تلميذه في الحديث و "البلاذري"، "وأبو نعيم" تلميذاه في التاريخ.
- محمد بن عيسى الترمذي (ت٢٧٩ هـ): محدث مشهور، ويحتل كتابه المرتبة الثالثة بين الصحاح الستة، وله رسالة مميزة في سيرة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ، وتختلف في موضوعها عن المؤلفات المذكورة سابقا، وعنوانها " كتاب الشمائل". وفيه ذكر لأخلاق وعادات الرسول الشخصية وأحواله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وتحرى الدقة في صحة وسند كل الروايات. وكتب علماء كثيرون شروح وحواشي لهذه الرسالة.
- إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم (ت٢٨٥ هـ): أحد المحدثين الكبار، ألف "مسند الصحابة " ــ رضي الله عنهم أجمعين ــ وفي آخره كتاب المغازي.
- أبو بكر أحمد بن أبى خيثمة البغدادي (ت٢٩٩ هـ) : تلميذ "ابن حنبل" و"ابن معين" في الحديث، كما كان عالمًا جليل القدر في التاريخ والسير. ألف التاريخ الكبير، وفيه جزء عن سيره النبي ﷺ.
- محمد بن عائد الدمشقي : يعتد بمغازيه، ويقتبس منه بكثرة الحافظ ابن حجر وآخرون.

كانت هذه هي مؤلفات القدماء، وما بعدها من مؤلفات ندرجها في القائمة الموجزة التالية، وهى مؤلفات مأخوذة من المؤلفات القديمة وكتب الحديث. وفي هذا الجدول نذكر أيضاً لتلك الكتب التي ألفت كشرح لمؤلفات القدماء، وهذا لأنها في نفسها مؤلفات مستقلة، وما يوجد بها من ثروة علمية لا يوجد في أصل تلك الكتب:ــ

١. روض الأنف : شرح لسيرة ابن إسحاق واسم مؤلفه عبد الرحمن السهيلى، المتوفى في سنة ٥٨١ هـ، وهو من كبار المحدثين، واستفاد منه كل من جاء بعده من مؤلفين فيما يتعلق بالسيرة النبوية من تحقيقات ومعلومات. وكتب المؤلف في مقدمته " ألفت هذا الكتاب بالاستعانة بمئة وعشرين كتاباً ". ولدي نسخة مخطوطة منه.

٢. سيرة الدمياطى : ألفه الحافظ عبد المؤمن الدمياطى، المتوفى في سنه ٧٠٥هـ، ويقتبس منه في كثير من الكتب. واسم هذا الكتاب "المختصر في سيرة سيد البشر"، وهو في مئة صفحة تقريبًا، وتوجد نسخة منه في مكتبة مدينة "بتنة "[١].

٣. سيرة الخلاطى: ألفه علاء الدين على بن محمد الخلاطى الحنفي، والذي توفي في سنة ٧٠٨ هـ.

٤. سيرة الكازروني: ألفه الشيخ ظهير الدين على بن محمد الكازرونى، والمتوفى في سنة ٦٩٤ هـ [٢].

٥. سيرة ابن أبى طي : ألفه يحيي بن حميدة، المتوفى في سنة ٦٣٠هـ، وهو في ثلاث مجلدات.

٦. سيرة المغلطائى : كتاب مشهور وطبع في مصر، وكتب العلامة العيني شرحا لجزء منه، والذي يعرف باسم "كشف اللثام".

٧. شرف المصطفي: تأليف الحافظ أبو سعيد عبد الملك النيسابورى، وهو في ثمان مجلدات، ويقتبس الحافظ ابن حجر منه كثيراً في كتابه الإصابة، [٣] ولكن ما نقله من روايات في بعضها إهمال كبير ولغو، مما يدل على أن المؤلف (الحافظ أبو سعيد)، لم يفرق بين الرطب واليابس.

٨. شرف المصطفي : للحافظ ابن الجوزى.

٩. اكتفاء في مغازي المصطفي والخلفاء الثلاثة : تأليف أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي، المتوفى في سنة ٦٣٢هـ، ومنه اقتباسات أكثر المؤلفات.

---

(١) إحدى مدن الهند وتكتب پٹنه بالأردية، وبها مكتبة عريقة للدراسات الإسلامية والشرقية تعرف باسم خدا بخش لائبريري (المترجم).

(٢) توجد نسخة مخطوطة منه في مكتبة المسجد الجامع في مدينة " بومباي " (وتعرف هذه المدينة الآن باسم ممباي) فقد تغير اسمها من "بومباي " إلى "ممباي " في العقد الأخير من القرن الماضي. (المترجم).

(٣) يعرف الكتاب باسم "الإصابة في تمييز الصحابة" (المترجم).

١٠. سيرة ابن عبد البر: هو ابن عبد البر الإمام المحدث المشهور، ويقتبس منه كثيراً.

١١. عيون الأثر: تأليف ابن سيد الناس العالم الأندلسي المشهور، المتوفى في سنة ٧٣٤هـ. وهو كتاب جامع قيم، ويعد مصدرًا للمؤلفات المعتد بها، وما نقل عنه فهو سند. وتوجد مخطوطة لمجلده الثاني في مكتبة مدينة "كلكتا"، والتي اطلعنا عليها.

١٢. نور النبراس في سيرة ابن سيد الناس : هو شرح لعيون الأثر، واسم المؤلف إبراهيم بن محمد. ويتسم هذا الكتاب بمراعاة الدقة البالغة في التحقيق ونقد كثير من المعلومات. وهو في مجلدين كبيرين، وتوجد نسخة جيدة في مكتبه الندوة.(١)

١٣. سيرة المنظوم: ألفها نظما الحافظ زين الدين العراقي أستاذ ابن حجر، ولكنه كتب بنفسه في المقدمة، أن فيه كل شيء من رطب ويابس.

١٤. المواهب الدينة: كتاب مشهور ومصدر لكل ما ألف بعده. ألفه القسطلانى؛ وهو شارح معروف من شرّاح صحيح البخاري، وفي مرتبة الحافظ ابن حجر، وبالرغم من أن هذا الكتاب مفصل، إلا أنه يحتوي أيضاً على موضوعات لا حصر لها، وروايات خاطئة.

١٥. الزرقاني على المواهب : ـ وهو شرح للمواهب اللدينة. والحقيقة هي أنه ما ألف أي كتاب جامع محقق بعد الإمام السهيلي. وهذا الكتاب في ثمان مجلدات كبيرة الحجم، ونشر في مصر.

١٦. سيرة الحلبى: وهو كتاب مشهور ومتداول. (٢)

صحة المصادر

إن ما دون من أحداث ووقائع عن السيرة النبوية، قد دون بعد مئة عام تقريبًا من النبوة، لذا لم يكن لدى المؤلفين أي مصدر، بل كانت أكثر الروايات تروى شفويا.

وبناءً عليه، حين سنحت الفرصة للآخرين؛ أي أنه حين دونت أحوال أي عصر بعد مدة، اختير هذا الأسلوب؛ وهو كتابة كل نوع من أنواع الأقوال الكاذبة التي لا يعرف رُواتُها ولا أي شيء عنهم. وتنتخب تلك الأحداث والوقائع من بين هذه الأقوال والروايات

---

(١) ندوة العلماء.

(٢) ورد ذكر لهذه الكتب في كشف الظنون تحت عنوان السيرة.

الكاذبة التي تطابق القرينة والعقل (القياس). وقد كتبت المؤلفات التاريخية الأوروبية على هذا النهج والنمط.

لكن المسلمين أسسوا منهجاً قياسياً ومعيارياً لفن السيرة، يفوق هذا (الفن الأوروبي) بكثير، وكان من أول مناهجه وأصوله، هو أن تروي الواقعة على لسان ذلك الشخص الذي حضر الواقعة بنفسه، وإن لم يكن هو بنفسه، فتذكر أسماء كل الرواة بالترتيب حتى من حضر الواقعة. هذا فضلاً عن التدقيق في الشخصيات التي أتت في سلسة الرواية: من كان هؤلاء ؟ وكيف كان حالهم ؟ وما مشاغلهم ؟ وكيف كان سلوكهم ؟ وإلى أي مدي كانوا يتمتعون بالذاكرة القوية والفهم الجيد، وهل كانوا ثقة أم لا ؟ هل كانوا سطحيي الذهن أم أدقة ؟ أكانوا علماء أم جهلة ؟ والتعرف على هذه الأمور الدقيقة صعب للغاية، بل كان مستحيلاً. وقد صرف آلاف المحدثين أعمارهم في هذا العمل، فارتحلوا إلى مدن كثيرة، التقوا برواة وفروا لهم معلومات وفيرة، والرجال الذين لم يكونوا في زمانهم اطلعوا على أحوالهم ممن رأوهم. وبفضل هذا البحث والتحقيق ظهر علم الرجال، هذا الفن العظيم والذي بفضله يمكن التعرف على أحوال مئة ألف شخصٍ على الأقل. ولو يعتد بحسن ظن الدكتور "اسپر نكر" [1] فيبلغ عددهم خمسمائة ألف شخص.

ولم يهتم المحدثون بمنزلة وحيثية أي شخص في التعرف على الأحوال، والتعرف على أخلاق الجميع سواء أكانوا حكاما أم محكومين، وكشفها واحدة واحدة فظهرت مؤلفات لا حصر لها في هذا الفن، أجمالها كالآتي : ـ

إن "يحيي بن سعيد القطان " وهو أول من ألف كتابًا في هذا الفن أي جرح وتعديل الرواة، وكان ذو منزلة عظيمة حتى كتب عنه الإمام "أحمد بن حنبل": لم تر عيني نظيره. وراج هذا الفن بعده كثيرا، وألفت فيه كتب كثيرة والتي من بين أفضلها: ـ

- رجال" العقيلى ": هو كتاب في حال الرواة ضعاف الرواية.
- رجال " أحمد بن عبد العجلي"، المتوفى في سنه٢٦١ هـ : اسم هذا الكتاب "كتاب *الجرح والتعديل*".

---

[1] الدكتور اسپر نكر عالم ألماني مشهور باللغة العربية، عمل فترة في المنظمة الآسيوية في مدينة " كلكتا"، وصحح كتاب الإصابة، وتم نشره في كلكتا، وكتب في مقدمته لهذا الكتاب: "لا توجد أي أمة في الدنيا مضت ولا اليوم أيضًا، أوجدت علما عظيما، كما أوجد المسلمون علم الرجال، والذي بفضله يمكن التعرف اليوم على أحوال خمسمائة ألف شخصية.

- رجال الإمام عبد الرحمن بن حاتم الرازي، المتوفى سنه ٢٢٧ هـ : كتاب ضخم جداً.
- رجال " الإمام الدار قطني ": محدث مشهور، وهذا الكتاب في حال الرواة ضعاف الرواية.
- كامل " ابن عدي " : هو أشهر كتاب في هذا الفن، واتخذه كل المحدثين المتأخرين مصدرًا لهم.

وهذه الكتب مفقودة اليوم، ولكن توجد تلك المؤلفات التي أخذت منها. وكتاب "تهذيب الكمال " يفوق غيره من الكتب في هذا المجال سندا، والذي ألفه العلامة "المزي يوسف بن الزكي "، والمتوفى في سنة ٧٤٨ هـ. وأتمه "علاء الدين المغلطائى"، المتوفى في سنة ٧٦٢ هـ في ثلاثة عشر مجلداً.

واختصره العلامة " الذهبى"، المتوفى في سنة ٧٤٨ هـ، وكتب الكثير من المحدثين خلاصته. وفي نهاية الأمر، فقد ألف الحافظ "ابن حجر" كتابه الضخم "تهذيب التهذيب" من كل هذه المؤلفات، والذي يشتمل على اثني عشر مجلدا، وقد نشر قريبًا في "حيدر آباد " [1]. وكتب المؤلف في خاتمة الكتاب، أنه قضى ثمان سنوات في تأليفه. وهناك كتاب متداول وسند في هذا المجال هو "ميزان الاعتدال" للعلامة "الذهبي". أضاف " ابن حجر " إلى هذا الكتاب، ويعرف كتابه باسم " لسان الميزان ". ومن بين كتب علم الرجال التي اطلعنا عليها "تهذيب الكمال"، و"تهذيب التهذيب"، و"لسان الميزان "، و"التقريب "، و" التاريخ الكبير (البخاري)، "والتاريخ الصغير" (البخاري)، و" الثقاة " (ابن حبان)، و" تذكرة الحفاظ " (الذهبي)، و"مشتبه النسبة " (الذهبي)، و" الإنسان " (السمعاني)، و"تهذيب الأسماء ".

وكان قد وضع القرآن بنفسه أساس منهج التحقيق والبحث. قال تعالى:

"يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا " (الحجرات الآية رقم ٦) [2].

والحديث التالي يؤيد هذه الآية:

«كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ».[1]

---

[1] مدينة عريقة تشتهر بالطابع الإسلامي والعربي في الهند وپاكستان. (المترجم).

[2] هناك خطأ في تخريج الآيات القرآنية قمنا بتصحيحه. (المترجم).

وكان المنهج الثاني لتحقيق الأحداث هو؛ هل الواقعة التي تروي مطابقة للعقل أم لا ؟

نشأة علم الدراية

الحقيقة هي أن القرآن الكريم نفسه كان قد وضع هذا المنهج أيضا، فحين افترى المنافقون على السيدة " عائشة " رضي الله عنها، واشتهر هذا الافتراء حتى وقع بعض الصحابة في المغالطة؛ لذا ورد في صحيحي البخاري ومسلم، أن حسان (بن ثابت) كان من بين القاذفين، ولذا نزل حد القذف وصرح به في القرآن الكريم أيضا.

" إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم " (سورة النور الآية ١١)

- وورد في تفسير قوله تعالى " منكم " في تفسير الجلالين: جماعة من المؤمنين. وهذه آية من بين آيات القرآن الكريم التي نزلت في براءة وطهارة السيدة "عائشة ":(**وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) (النور:١٦)**

وحسب المنهج العام كانت طريقة تحقيق هذا الخبر، هي معرفة أسماء الرواة أولا، ثم النظر في هل هم ثقاة في الرواية أم لا؟ ثم شهادتهم. ولكن الله قال في هذه الآية: لو لم تقولوا إن هذا بهتان حين سمعتموه. ويثبت من هذا تماما، أن الواقعة التي تروى خلافاً لهذا النوع من القياس يجب اعتبارها خطأً تماما، وكان قد بدأ منهج هذا التحقيق؛ أي نشأ علم الدراية في عهد الصحابة أنفسهم.

وهناك من الفقهاء من يقول: إن الوضوء ينتقض بأكل الشيء المطهي على النار. وحين نسب أبو هريرة هذه المسألة لرسول الله صلي الله عليه وسلم أمام عبد الله بن عباس، قال عبد الله بن عباس: لو أن هذا صحيح، فينقض الوضوء من شرب الماء الذي سخن على النار[2]. ولم يكن عبد الله بن عباس يعتبر أن أبا هريرة ضعيف الرواية، ولكنه

---

[1] (٧) ــ وحدثنا عُبَيْدُ اللّهِ بْنُ مُعَاذٍ الْعَنْبَرِيُّ : حَدَّثَنَا أَبِي. ح وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ مَهْدِيَ. قَالاَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ خُبَيْبِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ : «كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ».(المترجم).

[2] سنن الترمذي، باب الوضوء. (٧٩) ـــ حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عُمَرَ قَالَ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ عَمْرٍو عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله : «الْوُضُوءُ مِمَّا مَسَّتِ النَّارُ، وَلَوْ مِنْ ثَوْرِ أقِطٍ» .

(قَالَ): فَقَالَ لَهُ ابْنُ عبَّاس: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَنَتَوَضَّأُ مِنَ الدُّهْنِ؟ أَنَتَوَضَأُ مِنَ الْحَمِيمِ؟ قَالَ: فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: يَا ابْنَ أَخي، إِذَا سَمِعْتَ حَدِيثاً عَنْ رَسُولِ الله فَلاَ تَضْرِبْ لَهُ مَثَلاً».

(قَالَ): وَفِي الْبَابِ عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ، وَأُمِّ سَلَمَةَ، وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَأَبِي طَلْحَةَ، وَأَبِي أَيُّوبَ، وَأَبِي مُوسَى.

حين رأى أن هذه الرواية مخالفة للدراية لم يعترف بها، واعتقد أنه ربما قد حدث خطأ في الفهم.

حين بدأ تدوين الحديث ضبط المحدثون مناهج علم الدراية، والتي من بينها: "**قال ابن الجوزي: وكل حديث رأيته يخالف العقول أو يناقض الأصول فاعلم أنه موضوع فلا يتكلف اعتباره؛ أي لا تعتبر رواية، ولا تنظر في جرحهم، أو يكون مما يدفع الحس والمشاهدة، أو مبايناً لنص الكتاب والسنة المتواترة، أو الإجماع القطعي؛ حيث لا يقبل شيء من ذلك التأويل أو يتضمن الإفراط بالوعيد الشديد على الأمر اليسير وبالوعد العظيم على الفعل اليسير. وهذا الأخير كثير موجود في حديث القصاص والطريقة ومن ركة المعنى لا تأكلوا القرعة حتى تذبحوها ولذا جعل بعضهم ذلك دليلاً على كذب راويه. وكل هذا من القرائن في المروي، وقد تكون في الراوي، كقصه غياث مع المهدي، أو انفراده عمن لم يدركه بما لم يوجد عند غيرهما أو انفراده بشيء مع كونه مما يلزم المكلفين علمه وقطع العذر فيه كما قرره الخطيب في أول الكفاية أو بأمر جسيم يتوفر الدواعي على نقده كحصر عدو الحاج عن البيت**" (١)

وخلاصة هذا الاقتباس هو أنه لا يعتد بالرواية حسب الأمور التالية، ولا حاجة في التحقق من أن راويها سند من عدمه: —

١. الرواية التي تخالف العقل.
٢. الرواية التي تناقض الأصول.
٣. الرواية التي تخالف الحس والمشاهدة.
٤. الرواية المتباينة لنص القرآن الكريم والأحاديث المتواترة أو الإجماع القطعي، حيث لا تقبل شيئاً من التأويل.
٥. الحديث الذي فيه الإفراط بالوعيد الشديد على الأمر اليسير.
٦. الوعد العظيم على الفعل اليسير.
٧. الرواية ركيكة المعنى مثل " لا تأكلوا القرعة حتى تذبحوها."

قَالَ أَبُو عِيسَى: وَقَدْ رَأَى بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ الْوُضُوءَ مِمَّا غَيَّرَتِ النَّارُ. وَأَكْثَرُ اهْلِ العِلمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ وَالتَّابِعِينَ ومَنْ بَعْدَهُمْ: عَلَى تَرْكِ الْوُضُوءِ مِمَّا غَيَّرتِ النَّارُ. (المترجم)

(١) فتح المغيث، طبعة لكناؤ، ص ١١٤. ومن المؤسف أن بهذه الطبعة أخطاء كثيرة، وقمنا بنقل بعض الجمل خطئا كما هي، وهذه ليست من أسس ابْن الجوزي، إذ أنه نقل أصول المحدثين.

٨. الراوي الذي يروى عن شخص رواية لم يروِها أحد آخر، ولم ير الراوي ذلك الشخص.

٩. الرواية التي يجب على المكلفين معرفتها ولم يروها سوي راو واحد.

١٠. الرواية التي فيها بيان لواقعة مهمة، ولو تحدث فيرويها أغلب الناس، وبالرغم من هذا يرويها راو واحد.

كتب الملا " على القاري " بتفصيل عن بعض أصول الحديث غير المعتبرة في خاتمة الموضوعات، ونقل أمثلة منها. ونحن هنا في هذا المقام نورد ملخصها :ـ

١. الحديث الذي فيه كلام لغو لا يمكن صدوره من فم النبيﷺ ؛ مثل: "إن من يقول لا إله إلا الله، يخلق الله طائرًا من هذا القول له سبعون فماً، وفي كل فم سبعون ألف لسان... الخ.

٢. الحديث الذي يخالف المشاهدة، مثل حديث "إن طعام الباذنجان دواء من كل داء".

٣. الحديث الذي يناقض الأحاديث الصحيحة.

٤. الحديث الذي يناقض الواقع، مثل " لا يجب الاغتسال بالماء الموضوع تحت أشعة الشمس؛ إذ أن بسببه يتولد البرص."

٥. الحديث الذي لا يوافق كلام الأنبياء عليهم السلام، مثل حديث " ثلاثة أشياء تقوي النظر، النظر إلى الخضرة والماء الجاري والوجه الحسن ".

٦. الأحاديث التي يرد فيها تنبؤ للمستقبل مع تحديد التاريخ، مثل "إنه في السنة الفولانية والتاريخ الفلاني سيحدث هذا الأمر".

٧. الأحاديث التي تشبه كلام الأطباء، مثل " إن أكل الهريسة [1] مقوي، أو إن المسلم حلو ويحب الحلوى".

٨. الأحاديث التي توجد أدله على كذبها، مثل " إن طول عوج بن عنق تسعة آلاف قدم ".

٩. الحديث الذي يناقض النص القرآني الصريح، مثل " إن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة " فلو أن هذه الرواية صحيحة فيمكن لكل إنسان أن يخبر عما بقي من الدنيا

---

(١) الهريسة : ١ ـ نوع من أنواع الحلوى يعد من دقيق القمح.

(٢) يخني باللحم مطبوخ باللبن (المترجم).

وقيام الساعة. في حين أنه قد ثبت من القرآن الكريم، أن قيام الساعة غيب لا يعرفه أي أحد.

١٠. الأحاديث التي تتعلق " بالخضر " عليه السلام.

١١. الأحاديث ركيكة الألفاظ.

١٢. الأحاديث التي ترد في فضائل سور القرآن الكريم كل سورة على حده، في حين أن هذه الأحاديث منقولة في تفسير البيضاوي والكشاف وغيرهما.

عمل المحدثون بهذا الأصول في مواضع كثيرة وردوا روايات كثيرة. على سبيل المثال هناك واقعة تقول بأن " الرسولﷺ كان قد أعفي يهود خيبر من الجزية، واستكتب وثيقة المعافاة ".

يكتب الملا " على القاري " عن هذه الرواية بأن هذه الرواية باطلة لوجود كثيرة:ــ

١. تذكر (الواقعة) أن" سعد بن معاذ "ــ رضي الله عنه ــ كان شاهداً على هذه المعاهدة، في حين أنه كان قد استشهد في غزوة الخندق.

٢. في الوثيقة اسم الكاتب " معاوية "، في حين أنه أسلم في فتح مكة.

٣. لم تفرض الجزية حتى ذلك الوقت، فقد نزل فرضها في القرآن الكريم بعد غزوة تبوك.

٤. حرر في الوثيقة أنه لن يستسخر اليهود، في حين أن السخرة لم تكن رائجة في عهد النبي ﷺ.

٥. ناهض أهل خيبر الإسلام مناهضة شديدة، فلم يُعْفَوْ من الجزية ؟

٦. لم تعفَ الجزية في مناطق نائية في شبه الجزيرة العربية، في حين أن هؤلاء الناس لم يخالفوا الإسلام بهذا القدر ولم يعادوه؛ فكيف يمكن أن يعفي أهل خيبر.

٧. لو أنهم أُعفوا من الجزية، فهذا دليل على أنهم أصبحوا حلفاء الإسلام، وتجب رعايتهم، في حين أنهم طردوا بعد عدة أيام.

تعليق

كانت هذه نبذة موجزة عن تاريخ فن السيرة، والآن نلقى عليها الضوء من عدة اتجاهات: ــ

١ــ بالرغم من وجودة مؤلفات لا حصر لها في السيرة النبوية؛ إلا أنها كلها تنتهي إلى ثلاثة أو أربعة كتب : سيرة " ابن إسحاق "، و" الواقدي "، "و" ابن سعد "، و"

الطبري " وغيرها من مؤلفات متأخرة عنها. وما ذكر فيها من أحداث ووقائع مستمدة في الأغلب من هذه الكتب (ولا علاقة للبحث هنا بكتب علم الحديث). لذا لابد لنا أن نلقي الضوء بدقة وبتفصيل على هذه الكتب المذكورة سابقاً.

من بين هذه الكتب كتاب " الواقدي " وهو يستحق الرفض والرد؛ إذ يكتب المحدثون بالإجماع بأنه يختلق روايات من تلقاء نفسه، وكتاب "الواقدي" نفسه في الحقيقة خير شاهد على هذا، وما يذكره من تفصيلات ممتعة ومنوعة عن الوقائع الثانوية لا يمكن اليوم لأكبر مؤرخ يشاهد الأحداث أن يدون مثله.

وفضلا عن" الواقدى "، فالمؤلفون الثلاثة الآخرون جديرون بالاعتبار والثقة، فبالرغم من أن " الإمام مالك " وبعض المحدثين قد اعترضوا على " ابن إسحاق "، إلا أن مرتبته هي أن نقل " الإمام البخاري " في رسالته " جزء القرأة " روايات عن سنده، ويعتبرها صحيحة. أما عن " ابن سعد " و" الطبري " فليس لأي أحد كلام عنهما، ولكن المؤسف هو أن اعتبار هؤلاء المؤلفين سنداً لا يؤثر بأي شيء في سند مؤلفاتهم.

وهؤلاء المؤلفون ليسوا شركاء في الواقعة، لذا فأي شيء يذكرونه، ينقلونه عن رواة آخرين، في حين أن كثيرا من رواتهم ضعاف الرواية وغير ثقاة. هذا فضلا عن أن أصل كتاب " ابن إسحاق " غير موجود (في بلاد الهند). رتب " ابن هشام " "كتاب " ابن إسحاق"، وعدل فيه، وهذه هي الصورة التي يوجد عليها اليوم، كتاب " ابن إسحاق "؛ ولكن " ابن هشام " روي كتاب " ابن إسحاق " عن طريق " زياد البكائي ". وبالرغم من أن " البكائي " ذو مكانة، إلا أنه يقل عن مستوى المحدثين الفائق. يقول " ابن المديني " (أستاذ الإمام البخاري): "إنه ضعيف، وقد تركته "، ويقول أبو حاتم : " لا يقبل سنده". ويقول النسائي: " إنه ضعيف ".

إن أكثر من نصف روايات " ابن سعد " مأخوذة عن الواقدي "؛ لذا فدرجة هذه الروايات هي نفسها درجة روايات " الواقدي ". أما بقية الرواة فبعضهم ثقة والبعض الآخر غير ثقة.

وشيوخ رواية الطبري الكبار مثل "سلمة الأبرش"، و"ابن سلمة" وغيرهما، ضعاف الرواية.

وبناء عليه، فإن ثروة السيرة العلمية ليست مساوية لكتب الحديث، إلا ما يوافق منها مستوي التحقيق والنقد فيعد مقبول الحجة والسند.

وأكبر سبب في قلة كتب السيرة، هو أن خصصت واقتصرت حاجة التحقيق والنقد على أحاديث الأحكام، أي تحقيق الروايات التي ترتبط بالأحكام الشرعية، أما غيرها من الروايات التي تتعلق بالسيرة والفضائل، ليست في حاجة إلى هذا القدر من التشدد والاحتياط. يكتب الحافظ زين الدين العراقي ــ المحدث الكبير ــ في مقدمة (السيرة المنظومة):

وليعلم الطالب أن السيرا   تجمع ما صح وما قد أنكرا

وهذا هو السبب في شيوع روايات ضعيفة كثيرة في المناقب وفضائل الأعمال. وأجاز علماء كبار نقل هذه الروايات في كتبهم. يكتب العلامة ابن تيميه ــ رحمه الله ــ في كتاب التوسل:

قد رواه من صنف في عمل يوم وليلة كابن السني وأبى نعيم. وفي مثل هذه الكتب أحاديث كثيرة موضوعة، لا يجوز الاعتماد عليها في الشريعة باتفاق العلماء.

روى الحاكم في المستدرك هذا الحديث حين وقعت الخطيئة من آدم عليه السلام، قال: " اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بمحمد لتغفر لي. قال الله: وكيف عرفت محمدا؟ قال آدم : "حين رفعت رأسي ونظرت إلي ساق العرش، وجدت مكتوبا عليه جملة لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضف لاسمك إلا اسم أحب الخلق إليك. " قال الله: صدقت يا آدم ولولاه لما خلقتك. " وينقل العلامة ابن تيميه رحمة الله عليه قول الحاكم هذا ويكتب: **وأما تصحيح الحاكم لمثل هذا الحديث، وأمثاله فهذا مما أنكره عليه أئمة العلم بالحديث، وقالوا: إن الحاكم يصحح أحاديث وهى موضوعة مكذوبة عند أهل المعرفة بالحديث. وكذلك أحاديث كثيرة في مستدركه يصححها، وهى عند أئمة أهل العلم بالحديث موضوعة** [1].

ذكر" ابن تيميه " في موضع كتاب أبو الشيخ الأصفهاني، وكتب: **وفيها أحاديث كثيرة قوية صحيحة وحسنة وأحاديث كثيرة ضعيفة موضوعة واهية، وكذلك ما يرويه خيثمة بن سليمان في فضائل الصحابة، وما يرويه أبو نعيم الأصفهاني فضائل الخلفاء في كتاب مفرد في أول حلية الأولياء، وما يرويه أبو بكر الخطيب، وأبو الفضل بن ناصر، وأبو موسى المديني، وأبو القاسم بن عساكر، والحافظ عبد الغنى، وأمثالهم ممن لهم معرفة بالحديث."**

---

[1] كتاب التوسل، طبعة المنار، ص ١٠١ (تذكرة الحفاظ، الذهبي، ترجمة الحاكم).

تدبر في أن أبا نعيم والخطيب البغدادي وابن عساكر والحافظ عبد الغنى وغيرهم أئمة الحديث والرواية، وبالرغم من هذا، كانوا يروون بدون تحر أحاديث ضعيفة في فضائل الخلفاء والصحابة – رضوان الله عليهم –، وكان السبب في هذا هو أنه كان قد ساد الاعتقاد بأن أحاديث الحلال والحرام هي فقط توجب الاحتياط والدقة المتناهية، وما سواها من روايات فنقل سلسلة السند كاف، ولا حاجة للتحقيق والنقد.

كتب في " الموضوعات " للملا "على القاري "، ذكر واعظ هذا الحديث في بغداد، وهو: " أن الله تعالى سيجلس محمد ﷺ معه على العرش يوم القيامة. وحين سمع الإمام "ابن جرير" بهذا، غضب غضبا شديدا، وكتب هذه الجملة وعلقها على بابه " لا جليس مع الله تعالى ". وعليه غضب أهل بغداد، وأمطروا بيته بالأحجار، حتى اختفت الجدران بين الأحجار.[1]

وهنا أمر جدير بالذكر، وهو أنه لم يظهر أي عالم يفوق الإمام "البخاري " والإمام "مسلم" في الحديث والرواية، وهو ما سُلم به. وكانا يتمتعان بحب وإخلاص للرسول ﷺ؛ لذا حصلا على مكانة مرموقة بين كل المحدثين. وبالرغم من هذا، فإن الروايات المتعلقة بالفضائل والمناقب والتي يوجد بها مبالغة، تبدو عند البيهقي وأبى نعيم والبراز والطبراني، ليس لها أي أثر في صحيح "البخاري" و"مسلم"؛ بل توجد مثل هذه الأحاديث في كتب "النسائي" و"ابن ماجة" و"الترمذي" ولا ذكر لها في الصحيحين. ويتضح من هذا، أنه كلما يزيد الاهتمام بالتحقيق والدراسة، تقل الروايات التي بها مبالغة. مثال ذلك رواية تقول: إنه حين ولد الرسول ﷺ، وقع أربعة عشر عمودا في إيوان كسري، وانطفأت نار فارس، ويبست بحيرة طبرية. روى "البهيقى"، و"أبو نعيم"، و"الخرائطي"، و"وابن عساكر"، و"أبو جرير" هذه الرواية، في حين أنه لا يوجد أي اثر لها في صحيحي البخاري ومسلم؛ بل وفي أي كتاب من الصحاح الستة.

إن الكتب التي ألفت في السيرة، أغلبها مستمد من هذا النوع من الكتب (الطبراني والبيهقي وأبو نعيم وغيرهم)؛ لذا وردت فيها روايات ضعيفة بكثرة، وعليه قال المحدثون : توجد في السيرة كل أنواع الروايات.

إن الضوابط والقواعد التي وضعها المحدثون، تغافل عنها الناس في روايات السيرة. وقاعدة المحدثين الأولى، هي ألا تنقطع سلسلة الرواية عن أصل الواقعة في أي

---

[1] الموضوعات، ملا على القاري، ص ١٣، طبعة دهلي.

موضع، ولكن أكثر الروايات المذكورة عن ميلاد النبي ﷺ منقطعة. فلا يوجد أي صحابي من صحابته ﷺ عمّر جدير بالرواية وقت ميلاده ﷺ، إذ أن " أبا بكر " أكثر المعمرين من أصحابه ﷺ، كان يصغره ﷺ بسنتين، وعليه فأكثر الروايات المتعلقة بميلاد النبي ﷺ غير متصلة؛ ونتيجة لهذا شاعت روايات بأوجه مختلفة. على سبيل المثال يروى أبو نعيم على لسان والدة النبي ﷺ "أنه حين ولد ﷺ، جاءت طيور كثيرة وملأت المكان، منقارها زمرد، وأجنحتها ياقوت، ثم جاءت سحابة بيضاء وحملته ﷺ، وجاء صوت: طوفوا بهذا الطفل في المشرق والمغرب وكل الأنهار حتى يعرفه الناس جميعا". [1]

وجزء كبير من المغازي منقول عن الإمام الزهري، في حين أن أغلب رواياته المذكورة في سيرة "ابن هشام" وطبقات "ابن سعد" وغيرهما منقطعة.

٢ـ مما يثير الدهشة البالغة أن كبار المؤلفين المشهورين، كالإمام الطبري وغيره، لم يستفيدوا من كتب الأحاديث الصحيحة في مواضع كثيرة في كتاباتهم عن السيرة.

فهناك وقائع وأحداث مهمة توجد عنها معلومات قيمة في كتب الحديث، تحل المسألة وتنهي الأمر، ولكن لا يوجد ذكر لهذه المعلومات في كتب السيرة والتاريخ. على سبيل المثال هذا التساؤل؛ وهو أنه حين هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، من أي فريق بدأت الحرب؟ وهذه واقعة جديرة بالبحث والدراسة. يتضح من تصريحات جميع أرباب السير والمؤرخين، أن الرسول ﷺ هو الذي بدأ بالحرب، في حين أن هناك حديث صريح وواضح في سنن أبي داود، أنه قبل غزوة بدر، كتب كفار مكة هذه الرسالة إلى عبد الله بن أبي : لقد آويتم محمدا ﷺ في مدينتكم، فأخرجوه منها، وإلا نأتي، ونستأصل كلاكما أنتم ومحمدا.[2] فهذه الواقعة ليست مذكورة في كتب السيرة والتاريخ.

هناك بعض من علماء السيرة أدرك هذا الأمر، وحين أمعنوا النظر في الأحاديث، اعترفوا بأن في كتب السيرة روايات كثيرة تعارض الأحاديث الصحيحة. وبما أن مؤلفاتهم كانت قد انتشرت، لذا ما أمكن تصحيحها وتنقيحها. ينقل الحافظ " ابن حجر" في موضع قول الدمياطي ويكتب: **ودل هذا على أنه كان يعتقد الرجوع عن كثير مما وافق**

---

[1] وردت هذه الرواية فى كتاب" المواهب اللدنية "، وفيها أمور فى غاية المبالغة وقد نقلت فقرة بسيطة.

[2] سنورد نص هذا الحديث عند الحديث عن غزوة أحد.

فيه أهل السير وخالف الأحاديث الصحيحة، وإن ذلك كان منه قبل تضدُّ منها ولخروج نسخ كتابه وانتشاره لم يتمكن من تغييره.[1]

٣- ما كتبه السابقون من مؤلفات في السيرة، وأوردوا بها روايات نقلها عنهم اللاحقون، وبسبب سند هؤلاء السابقين، اعتبر كل الناس أن هذه الروايات جميعها صحيحة، وبما أنه كان من المستحيل أن يحصل كل إنسان على أصل هذه الكتب؛ لذا لم يتمكن الناس من التحقق من الراوي، وسرت هذه الروايات تدريجيا في كل الكتب، ونتج عن هذا التدليس، أن الناس على سبيل المثال يعتبرون الروايات الواردة في كتاب الواقدي خاطئة؛ في حين أنه عندما تنقل هذه الروايات ذاتها عن ابن سعد؛ فالناس يعتبرونها صحيحة، ولو يوجد أصل كتاب ابن سعد، فيتضح أنه أخذ أغلب الروايات عن الواقدي ذاته.

٤- إنه في بعض المواضع لم يُستفد من تلك الضوابط التي وضعت للرواية فيما يتعلق بالصحابة (رضوان الله عليهم)، على سبيل المثال؛ هناك مراتب مختلفة طبقاً لقواعد وأصول الرواية، فلابد من أن يكون الراوي ضابطا، ومدركا، وفاهما للمعنى الصحيح، ودقيقا كل الدقة. وهذه الخصال ربما تقل في شخص، وتقل أكثر في شخص آخر. والصحابة الكرام أيضاً غير مستثنين من فرق المراتب هذا، الذي يوجد بشكل طبيعي عند الرواة؛ فالنقد الذي ساقته أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها) على رواية عبد الله بن عمر وأبى هريرة، والنقد الذي ساقه أيضاً عبد الله بن عباس على رواية أبى هريرة، والذي سبق أن ذكرناه نتيجة لهذا التفاوت.

وعلى أساس تفاوت المراتب، ظهرت قضية كبيرة وهي مثلا، حين تتعارض روايتان، كان يعتقد في أن الطريق الصحيح للفصل في هذا الأمر، هو إثبات أن رتبة رواة رواية، تفوق رتبة رواة الرواية الأخرى (بالرغم من أن كلا الراوين ثقة)، وتكون هذه وسيلة قطعية لترجيح هذه الرواية، ولكن هذا الضابط لا يعمل به فيما يتعلق بالصحابة. افترض أن هناك رواية مروية عن عمر بن الخطاب فقط، ورواية أخرى مروية عن أي بدو عربي، والذي ما رأي طوال حياته النبي ﷺ سوى مرة واحدة مصادفة، فهنا كلا الروايتين متساويتين. والعلامة " المازري " المحدث المشهور خالف هذا، واستند إليه كثيراً العلامة " النووي " في شرحه لصحيح مسلم، لذا ينقل " الحافظ ابن

---

[1] الزرقاني، جـ ٣ ص ١١.

حجر " في مقدمته لكتاب الإصابة (ص ١٠، ١١) قوله هذا: " **لسنا نعني بقولنا الصحابة عدول، أن كل من رآه ﷺ يوما ما، أو زاره لمامًا، أو اجتمع به لغرضٍ وانصرف عن كثب، وإنما نعني به؛ الذين لازموه وعززوه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه، أولئك هم المفلحون".**

ولكن المحدثين خالفوا " المازرى " في هذا القول، فيقيناً أخطأ العلامة " المازرى " هذا الخطأ، وخص الصحابة المقربين مطلقاً بصفة العدل، وعليه فإن مخالفة المحدثين له صحيحة، ولكن ما الشك في عدم مساواة رواية البدوي العادي بروايات أبى بكر وعمر وعلى (رضي الله عنهم) خاصة، وأنه لابد من مراعاة هذا الفرق في تلك الروايات التي ترتبط بالمسائل الفقهية والأمور الدقيقة.

٥ – لا يبحث أرباب السير عن أسباب وعلل أغلب الأحداث والوقائع، ولا يهتمون بتحقيقها ودراستها. وبالرغم من أن أسلوب وطريقة الأوروبيين في هذا الباب غير معتدلة تماما، لكن المؤرخ الأوروبي يبحث عن علة كل واقعة، ويُوجد سلسلة من المعلومات عن طريق البعيد من الاحتمال والقياس، وهنا يحدث تدخل كبير لأغراضه ومطامعه، إذ يجعل من مطمعه محوراً أساسيا، ويدير الأحداث كلها حوله. وعلى العكس منه تماما المؤرخ الإسلامي؛ إذ يبحث عن الوقائع والأحداث بصدق بالغ وعدل وبحيادية، دون أي غرض له في هذا، ولا يفكر في ما أثر الوقائع على دينه ومعتقداته وتاريخه، والحقيقة هي هدفه الأساسي، والتي من أجلها يضحي بكل شيء وبمعتقداته وقوميته.

ولكن حدث في هذا الأمر إفراط وتفريط زاد عن الحد. وللسلامة من هذا الأمر، ابتعد عن خلط الوقائع بالآراء، كما أنه لا يلقي النظر على الأسباب الظاهرة المتقاربة، ويترك كل واقعة ناقصة ويابسة. على سبيل المثال، يبدأ الحديث عن أغلب الغزوات هكذا: أرسل النبي ﷺ الجيوش في الوقت الفولاني للهجوم على القبيلة الفولانية، دون أي ذكر لأسباب هذا الهجوم، الأمر الذي يترك هذا الأثر على الناس، وهو أنه لا يوجد أي سبب يتيح الهجوم على الكفار والقضاء عليهم، وكأن السبب هو فقط أنهم كفار. وعليه يستدل المعارضون على أن الإسلام انتشر بالسيف؛ في حين أنه يثبت من التدقيق والتمحيص، أن القبائل التي أرسلت إليها الجيوش، كانت قد جهزت وأعدت العدة للهجوم على المسلمين منذ قبل ومستعدة للحرب.

٦ – لا بد من الاهتمام بأنه إلي أي مدي تتغير حيثية الرواية والشهادة بتغير نوعية الواقعة. على سبيل المثال راوي ثقة يروي واقعة عادية تحدث بوجه عام ويمكن حدوثها، وبالتالي يسلم بهذه الرواية ببساطة؛ ولكن افترض أن هذا الراوي نفسه يروي واقعة غير عادية، خلاف ما يحدث عامة، وتختلف تماما عما يحدث من وقائع، فالرواية هنا تحتاج إلى إثبات ودقة أكثر؟ لذا فمرتبة ثقة الراوي العادية ليست كافية هنا؛ بل لابد أن يكون عادلا ومحتاطا كل الاحتياط ونافذ البصيرة وقوي الإدراك والفهم.

- هناك مسألة، وهي هل أن قيد العمر ضروري للرواية أم لا ؟ يذهب أغلب المحدثين إلى أن الصبي البالغ من العمر خمس سنوات يمكن أن يروي الحديث، أو لو أن هناك أي صحابي روي أي قول أو فعل عن الرسول ﷺ، وكان إذ ذاك في الخامسة من عمره فروايته مقبولة. ويستدل المحدثون على هذا بالصحابي " محمود دين الربيع " إذا كان في الخامسة من عمره وقت وفاة النبي ﷺ، فذات مرة ألقى النبي ﷺ ماء الورد في فمه (رضي الله عنه) دليلا على الحب والشفقة. فقص هذا الصحابي هذه الواقعة للناس في شبابه، وسلم الجميع بها. يثبت من هذا أنه يمكن قبول رواية من كان عمره خمس سنوات.[1]

وعلى العكس من هذا يري بعض المحدثين أن رواية صغير السن غير مقبولة وليست حجة. ورد في فتح المغيث : ــ

" **ولكن قد منع قوم القبول هنا أي في مسألة الصبي خاصة فلم يقبلوا من تحمل قبل البلوغ لأن الصبي مظنة عدم الضبط، وهو وجه للشافعية، وكذا كان ابن المبارك يتوقف في تحديث الصبي.** " (كتاب فتح المغيث ص ١٦٤).

ورأي كلا الطرفين من إثبات ونفي يحتاج إلى بحث، فلا شك في أن الصبي صاحب الخمس سنوات، يروي هذه الواقعة مثلا : كنت قد رأيت الشخص الفلاني، وكان شعره أبيض، أو كان عجوزاً، أو أطعمني في حضنه، فليس هناك ما يدعوا إلى الشك في هذه الرواية، ولكن افترض أن هذا الصبي نفسه يقص أن الشخص الفلاني أخبر عن هذه المسألة الفقيهة الدقيقة، فيمكن الشك هنا في هل فهم الصبي هذه المسألة فهماً صحيحا أم لا؟

---

[1] هذا البحث بالتفصيل فى فتح المغيث من ص ١٦٦ إلي ١٦٨.

اهتم الفقهاء بهذه المسألة. فقد ورد في فتح المغيث عن شرح المهذب " **قبول أخبار الصبي المميز فيما طريقه المشاهدة، بخلاف ما طريقه النقل كالإفتاء ورواية الأخبار ونحوه.** " (طبعة لكناؤ ص١٢٢)

ولكن لم يسلم بهذه الواقعة بصفة عامة. ورد في فتح المغيث :

" **ثم الضبط** [١] **نوعان؛ ظاهر وباطن، فالظاهر بالضبط معناه من حيث اللغة. والباطن ضبط معناه من حيث تعلق الحكم الشرعي به، وهو الفقه ومطلق الضبط الذي هو شرط في الراوي، هو الضبط ظاهراً عند الأكثر. لأنه يجوز نقل الخبر بالمعنى، فيلحقه تهمة تبديل المعني بروايته قبل الحفظ أو قبل العلم حين سمع. ولهذا المعني قلت الرواية عن أكثر الصحابة لتعتذر هذا المعني. قال: وهذا الشرط وإن كان على ما بيننا فإن أصحاب الحديث قلما يعتبرونه في حق الطفل دون المغفل، فإنه متى صح عندهم سماع الطفل أو حضوره أجازوا روايته**" (ص١٢١)

وهناك مسألة وهي، هل يجب العمل برواية الصحابة الكرام غير الفقهاء المخالفة للقياس الشرعي أم لا ؟ وعن هذه المسألة ينقل بحر العلوم رأي الأمام فخر الإسلام :

" **ووجه قول الإمام فخر الإسلام أن النقل بالمعني شائع، وقلما يوجد النقل باللفظ، فإن حادثة واحدة قد رويت بعبارات مختلفة. ثم إن تلك العبارات ليست مترادفة، بل قد روي ذلك المعني بعبارات مجازية. فإذا كان الراوي غير فقيه، احتمل الخطأ في فهم المعنى المرادي الشرعي. ولا يلزم منه نسبة الكذب متعمدا إلى الصحابي معاذ الله عن ذلك** " (شرح مسلم، طبعة لكناؤ، ص ٤٣٢)

ولم يكن المحدثين غافلين عن هذه القاعدة؛ وهى أنه يجب الاهتمام بأهمية درجة الشهادة (السند) بقدر أهمية درجة الواقعة. وينقل الإمام البيهقي في كتاب المدخل قول ابن المهدي:

" **إذا روينا عن النبي ﷺ في الحلال والحرام والأحكام، شددنا في الأسانيد وانتقدنا الرجال وإذا روينا في الفضائل والثواب والعقاب سهلنا في الأسانيد وتسامحنا في الرجال.**" (فتح المغيث ص ١٢٠)

ويقول الإمام احمد بن حنبل :

---

[١] الضبط : أحد مصطلحات الحد [illegible] وهو يعني نقل ألفاظ ومعني الرواية بفهم جيد.

" ابن إسحاق رجل نكتب عنه هذه الأحاديث؛ يعني المعازي ونحوها، وإذ جاء الحلال والحرام أردنا قوماً هكذا وقبض أصابع يديه الأربع."(فتح المغيث،ص١٢٠)

يثبت من هذا أن المحدثين كانوا يهتمون بمرتبة الراوي بناء على أهمية الواقعة، وعليه فرق الإمام "ابن حنبل " في رواية "ابن إسحاق " فسنده غير مقبول في الحلال والحرام، ولكنه مقبول في المغازي وهذه هي قاعدة أهمية درجة السند بأهمية درجة الواقعة. ويتغير السند بتغير الواقعة، ولكن أهمية الواقعة لا تختص بالأحكام الفقهية.

اهتم فقهاء الحنفية بأهمية نوعية الواقعة، وعليه فمذهبهم هو أنه لابد من النظر في أن الراوي فقيه ومجتهد أم لا، إذا كانت الرواية خلاف القياس. ورد في المنار :

" **والراوي إن اعرف بالفقه والتقدم في الاجتهاد كالخلفاء الراشدين والعبادلة، كان حديثه حجة يترك به القياس، خلافاً لمالك. وإن اعرف بالعدالة والضبط دون الفقه كأنس وأبى هريرة، إن وافق حديثه القياس عمل به وإن خالفه لم يترك إلا بالضرورة.** " (نور الأنوار، ص١٧٦ ــ١٧٧)

ومثال أبي هريرة جدير بالبحث، إذ أنه رضي الله عنه فقيه ومجتهد عند معظم العلماء، ولكن هذا بحث جزئي، والحديث في أصل المسألة.

٧ – إن هذا الأمر جدير بالبحث والدراسة، وهو أن الواقعة التي يبينها الراوي كم فيها من قدر يرجع إلى أصل القصة، وكم من قدر يرجع إلى قياس الراوي ؟ وبتحري الدقة والتمحيص والاستقراء يبدو في بعض الأماكن، أن الشيء الذي يبينه الراوي على أنه واقعة، هو قياسه وليس واقعة. وأمثلة هذا توجد بكثرة في السيرة. ونكتفي هنا بذكر واقعتين فقط.

حين غضب الرسول ﷺ من أزواجه (رضي الله عنهن) واعتزلهن، فاشتهر بأن الرسول ﷺ طلقهن. وحين سمع بهذا عمر (رضي الله عنه) أتى إلى المسجد النبوي حيث يقول الناس [1]: إن الرسول ﷺ طلق أزواجه ــ أمهات المؤمنين رضي الله عنهن ــ فذهب عمر إلى الرسول ﷺ وقال: يا رَسُولَ اللّهِ! أَطَلَّقْتَهُنَّ؟ قَالَ ﷺ: «لاَ»..

[1] صحيح مسلم، باب فى الإيلاء. وهذا نص الحديث: (٣٦٤٦) ـــ حدثني زُهيرُ بْنُ حَرْبٍ: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ يُونُسَ الْحَنَفِيُّ: حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ: عَنْ سِمَاكٍ أَبِي زُمَيْلٍ. حَدَّثَنِي عَبْدُ اللّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا اعْتَزَلَ نَبِيُّ اللّهِ نِسَاءَهُ قَالَ: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا النَّاسُ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى وَيَقُولُونَ: طَلَّقَ رَسُولُ اللّهِ نِسَاءَهُ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرْنَ بِالْحِجَابِ. فَقَالَ عُمَرُ فَقُلْتُ: لأَعْلَمَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ.

ورد هذا الحديث في صحيح البخاري في أكثر من موضع بروايات مختلفة. يكتب الحافظ " ابن حجر " في شرح الرواية التي وردت في كتاب النكاح : "**وإن الأخبار التي تشاع ولو كثر ناقلوها، إن لم يكن مرجعها إلى أمر حسي من مشاهدة أو سماع لا**

قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ. فَقُلْتُ: يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ! أَقَدْ بَلَغَ مِنْ شَأْنِكِ أَنْ تُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَتْ: مَا لِي وَمَا لَكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ عَلَيْكَ بِعَيْبَتِكَ. قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ. فَقُلْتُ لَهَا: يَا حَفْصَةُ أَقَدْ بَلَغَ مِنْ شَأْنِكِ أَنْ تُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ ؟ وَاللَّهِ! لَقَدْ عَلِمْتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ لاَ يُحِبُّكِ، وَلَوْلاَ أَنَا لَطَلَّقَكِ رَسُولُ اللَّهِ، فَبَكَتْ أَشَدَّ الْبُكَاءِ. فَقُلْتُ لَهَا: أَيْنَ رَسُولُ اللَّهِ ؟ قَالَتْ: هُوَ فِي خِزَانَتِهِ فِي الْمَشْرُبَةِ. فَدَخَلْتُ فَإِذَا أَنَا بِرَبَاحٍ غُلاَمِ رَسُولِ اللَّهِ قَاعِداً عَلَى أُسْكُفَّةِ الْمَشْرُبَةِ. مُدَلٍّ رِجْلَيْهِ عَلَى نَقِيرٍ مِنْ خَشَبٍ. وَهُوَ جِذْعٌ يَرْقَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ وَيَنْحَدِرُ. فَنَادَيْتُ: يَا رَبَاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ . فَنَظَرَ رَبَاحٌ إِلَى الْغُرْفَةِ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئاً، ثُمَّ قُلْتُ: يَا رَبَاحُ! اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ . فَنَظَرَ رَبَاحٌ إِلَى الْغُرْفَةِ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئاً، ثُمَّ قُلْتُ: يَا رَبَاحُ! اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ . فَنَظَرَ رَبَاحٌ إِلَى الْغُرْفَةِ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ. فَلَمْ يَقُلْ شَيْئاً، ثُمَّ رَفَعْتُ صَوْتِي فَقُلْتُ: يَا رَبَاحُ! اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ . فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ظَنَّ أَنِّي جِئْتُ مِنْ أَجْلِ حَفْصَةَ، وَاللَّهِ! لَئِنْ أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ بِضَرْبِ عُنُقِهَا لأَضْرِبَنَّ عُنُقَهَا، وَرَفَعْتُ صَوْتِي. فَأَوْمَأَ إِلَيَّ أَنِ ارْقَهْ، فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ فَجَلَسْتُ، فَأَدْنَى عَلَيْهِ إِزَارَهُ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ. وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ. فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللَّهِ، فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ. وَمِثْلِهَا قَرَظاً فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ. وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ. قَالَ: فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ. قَالَ: «مَا يُبْكِيكَ؟ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ» قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَمَا لِي لاَ أَبْكِي؟ وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ. وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لاَ أَرَى فِيهَا إِلاَّ مَا أَرَى. وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالأَنْهَارِ. وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَصِفْوَتُهُ. وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ. فَقَالَ: «يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلاَ تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟» قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ حِينَ دَخَلْتُ وَأَنَا أَرَى فِي وَجْهِهِ الْغَضَبَ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا يَشُقُّ عَلَيْكَ مِنْ شَأْنِ النِّسَاءِ؟ فَإِنْ كُنْتَ طَلَّقْتَهُنَّ فَإِنَّ اللهَ مَعَكَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، وَأَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَكَ، وَقَلَّمَا تَكَلَّمْتُ، وَأَحْمَدُ اللَّهَ، بِكَلاَمٍ إِلاَّ رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يُصَدِّقُ قَوْلِي الَّذِي أَقُولُ. وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ. آيَةُ التَّخْيِيرِ: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ} (٦٦التحريم الآية: ٥) {وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ} (٦٦التحريم الآية: ٤) وَكَانَتْ عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍفَنَزَلْتُ أَتَشَبَّثُ بِالْجِذْعِ وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ كَأَنَّمَا يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا يَمَسُّهُ بِيَدِهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّما كُنْتَ فِي الْغُرْفَةِ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ. قَالَ: «إِنَّ الشَّهْرَ يَكُونُ تِسْعاً وَعِشْرِينَ» فَقُمْتُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ. فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: لَمْ يُطَلِّقْ رَسُولُ اللَّهِ نِسَاءَهُ. وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ} (٤النساء الآية: ٨٣) فَكُنْتُ أَنَا اسْتَنْبَطْتُ ... أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ آيَةَ التَّخْيِيرِ. (المترجم).

تستلزم الصدق، فإن جزم الأنصاري في روايته بوقوع التطليق، وكذا جزم الناس الذي رآهم عمر عند المنبر بذلك محمول على أنه شاع بينهم ذلك من شخص بناه على التوهم الذي توهمه من اعتزال النبي ﷺ نساءه، فظن لكونه لم تجر عادته بذلك، أنه طلقهن، فأشاع أنه طلقهن، فشاع ذلك، فتحدث الناس به، واخلق بهذا الذي ابتدأ بإشاعة ذلك، أن يكون من المنافقين كما تقدم".

تدبر في جمع الصحابة جميعاً (رضوان الله عليهم) في المسجد النبوي، ويذكر الجميع أن الرسول ﷺطلق (أزواجه)، والصحابة عموما ثقة وعدل، ويروي أكثرهم هذه الواقعة؛ وبالرغم من هذا، حين يحقق في الأمر، يتضح أن هذا لم يكن واقعة؛ بل كان قياساً. ويتجرأ الحافظ " ابن حجر " ــ رحمه الله ــ ويذكر أن الراوي الأول ربما كان من المنافقين. وهناك كثير من مثل هذه الوقائع في روايات تتعلق بالسيدة عائشة الصديقة ــ رضي الله عنها ــ والتي من بينها واقعة الإفك، فلابد أن يكون قياسها هو ذلك القياس الذي ذكره الحافظ " ابن حجر" في السطور السابقة أي ربما أن يكون المنافقون هم الذين الصقوا هذا بها (رضي الله عنها) ثم انتشر بين عامة المسلمين.

٨ – للحكومة أثر قوى وسبب ظاهري يؤثر في فن التاريخ والرواية، ولكن يفخر المسلمون دائما أن قلمهم لم يهزم بالسيف، فقد بدأ تدوين الحديث في عهد " بني أمية " والذين " أهانوا آل فاطمة " في المساجد الجامعة من السند حتى آسيا والأندلس، ولعن سيدنا " على " من على المنبر في خطبة الجمعة. واختلقوا أحاديث لا حصر لها في فضائل الأمير " معاوية " (رضي الله عنه) وغيره. وفي عهد العباسين أدخلت تنبؤات كل الخلفاء في الحديث، وفي الوقت نفسه أعلن المحدثون على الملأ، أن هذا كله ما هو إلا روايات كاذبة. وعلم الحديث اليوم نقي من كل شيء غث، ويتراءى بنى أمية والعباسين ــ الذين كانوا ظل الله وخلفاء النبي ﷺ ــ في المقام الذي يجب أن يكونوا فيه.

ذات مرة أنشد شاعر قصيدة في بلاط المأمون الرشيد [١]:

" يا أمير المؤمنين، لو أنك كنت موجودا حين توفي النبيﷺ، ما وجد تنازع على الخلافة، ولبايعك كلا الفرقين." وقف رجل في البلاط وقال : أنت كاذب. إذ كان جد أمير المؤمنين

---

١ هو المأمون بن الرشيد حكم من سنة ١٩٨ هـ إلى سنه ٢١٨ هـ (المترجم).

(العباس جد العباسين الأكبر) موجوداً هناك، فمن سأله؟ واضطر المأمون الرشيد مدح هذه الإجابة الصادقة بالرغم ما فيها من إساءة له.

وعليه، كان هناك أثر للحكومة على فن السيرة، وتتضح آثاره في المغازي. وكانت هذه هي الطريقة القديمة لكتابة التاريخ، وهي تدوين الفتوحات والأعمال البطولية والمعارك بتفصيل وإسهاب، أما عن الأحداث الاجتماعية والثقافية ونظم الحكم، فلا يلتفت إليها أبداً، أو يكتب عنها بطريقة تجعل القارئ يغفل مثل هذه الأحداث والأحوال. وحين بدأ التأليف في الإسلام فكانت هذه هي النماذج المتاحة أمام المؤلفين، وعليه أطلق على السيرة مسمي "المغازي" كما كانت تكتب تواريخ السلاطين تحت مسمى الحرب والشاهنامة (الملحمة). لذا اشتهرت المؤلفات الأولى في فن السيرة، مثل سيرة " موسى بن عقبة "، وسيرة " ابن إسحاق باسم " المغازي ". فترتيب هذين الكتابين أعد بطريقة عنونة السنين كتاريخ السلاطين، وتدوين الأحداث حسب هذا الترتيب. وهذه الأحداث جميعها تتعلق بالمعارك الحربية، ويبدأ القص بعنوان الغزوات.

وإن كانت هذه الطريقة لم تكن صحيحة لكتابة تاريخ السلطنة والحكومة، إلا أنها لم تكن مناسبة على الإطلاق لتدوين سيرة النبوة؛ إذ اعترت النبي ﷺ هذه الوقائع الحربية مصادفة (وليس بقصد الحرب كحرب). وبهذه الطريقة يبدو النبي في شكل الفاتح أو القائد؛ في حين أن هذه الصورة ليست هي الصورة الحقيقية للنبي، فسيرة النبي تتصف بالقداسة والنزاهة والحلم والكرم والمواساة والمساعدة والتضحية، بل وفي الوقت ذاته حين يلتبس الأمر بينة وبين " الإسكندر الأكبر" فتعرف العين العادية مباشرة أن هذا ليس الإسكندر بل هو ملك إلهي.

وهذا هو السبب في أن أسلوب المغازي مستقل عن مؤلفات السيرة في كتب الحديث.

يكتب جميع أرباب السيرة، أنه حين حاصر النبي ﷺ بني النضير أمر بقطع نخليهم (وفي القران الكريم ذكر إجمالي لهذا) كما يكتب أرباب السير أنه بسبب هذا الأمر اعترض اليهود وقالوا : " إن هذا ضد العدل والإنسانية " وينقل المؤرخون هذا الاعتراض ولا يردون عليه، بل يمرون عليه مر الكرام.

٩ - وهذا البحث جدير بالاهتمام، وهو أنه لو أن هناك رواية تخالف العقل أو المسلمات أو القرائن الصحيحة الأخرى، فورد هل يجب التسليم بها أم لا، بناءً على ثقة الرواة واتصال سلسة السند؟ كتب العلامة " ابن الجوزى " (كما مر سابقاً) ليس هناك حاجة

لجرح وتعديل الرواة إذا كان الحديث مخالفاً للعقل والقياس، ولا يمكن أن يكون هذا هو الحكم الفصل في أصل هذا البحث. فلفظ العقل لفظ غير مشخص. ويكتب مؤيدو الرواية: أي أنه لو تعطى السعة لهذا اللفظ فيمكن لكل شخص أن يرفض أي رواية يريد رفضها قائلاً: إن هذا خلاف العقل عندي.

والحقيقة هي أن القرار والحكم القاطع في هذا البحث صعب، والرأي العام هو أن الرواية التي يكون رواتها ثقة وسند ولا تنقطع سلسلة السند في أي موضع، فمثل هذه الرواية لا يمكن أن تكون مخالفة للعقل. وقياس هذا الأمثلة التالية: ــ

١ - حديث " **تلك الغرانيق العلى** " الذي ورد فيه أن الشيطان أخرج تلك الألفاظ من فم الرسول ﷺ، والتي فيها مدح للأصنام. قال بعض المحدثين : إنه ضعيف وغير سند، كما ذكروا دليلا عقليا على بطلانه أيضا :

" **لو وقع لارتد كثير ممن أسلم ولم ينقل ذلك** ".

ينقل الحافظ " ابن حجر " ــ رحمه الله ــ هذا القول في فتح الباري ويكتب : **وجميع ذلك لا يتمشى على القواعد فإن الطرق إذا كثرت وتباينت فحارجها دل ذلك على أن لها أصلا.**[1]

٢ - ورد في صحيح البخاري، أن إبراهيم عليه السلام كذب ثلاث مرات. وقد رفض الإمام الرازي هذا الحديث، مستدلا على هذا، بأنه لو يمكن التسليم بكذب إبراهيم عليه السلام، فيمكن التسليم بسهولة ويسر بكذب أي راوي لأي حديث. ينقل العلامة "القسطلانى" قول الإمام الرازي هذا ويكتب:

" **فليس بشيء إذ الحديث صحيح ثابت، وليس فيه نسبة محض الكذب إلي الخليل. وكيف السبيل إلي تخطية الراوي مع قوله: إني سقيم، وبل فعله كبيرهم هذا، وعن سارة أختي ــ إذا ظاهر هذه الثلاثة بلا ريب غير مراد**"[2]

توجد أمثلة كثيرة من هذا النوع، ولكننا أوردنا مثالين فقط على سبيل الاختصار.

وعلى الصعيد الآخر، هناك فريق ثان يتأمل ويتدبر في التسليم ببعض الأحاديث بناءً على الأدلة العقلية والقرائن، وكانت قد بدأت هذه الطريقة في عهد الصحابة الكرام

---

(١) فتح الباري،ج ٨، ص ٣٣٣.

(٢) القسطلاني. ج ٥ ــ ص ٣٨٩.

رضوان الله عليهم، واستمرت حتى الفترة الأخيرة للمحدثين. ولما كان هذا الرأي خلاف السائد والرائج؛ لذا ننقل هنا كثيراً من أمثلته : ــ

١ - روي " أبو هريرة " حديثا عن "عبد الله بن عباس" **قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله : «الْوُضُوءُ ممَّا مَسَّتِ النَّارُ، وَلَوْ مِنْ ثَوْرِ أقط»** .

(قَالَ): فَقَالَ لَهُ ابْنُ عبَّاس: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَنَتَوَضَّأُ مِنَ الدُّهْنِ؟ أَنَتَوَضَأُ مِنَ الْحَمِيمِ؟ قَالَ: فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: يَا ابْنَ أخي، إِذَا سَمِعْتَ حَدِيثاً عَنْ رَسُولِ الله فَلاَ تَضْرِبْ لَهُ مَثَلاً».[1]

٢ - ورد في مقدمة صحيح مسلم، أنه ذات مرة عرضت قضايا علي إمام " ابن عباس "، فكان " ابن عباس " ينقل حكم بعضها ويترك حكم البعض الأخر، ويقول : **والله ما قضي بهذا على إلا أن يكون ضل.**

وبعد هذه الرواية ذاتها، وردت رواية أخري في صحيح مسلم، وهي: " أحضر الناس كتاباً إلى ابن عباس رضي الله عنهما، مدون فيه فتاوى علي، فأبقى عبد الله بن عباس " جزاءً منه وحذف الباقي.[2] ويتضح من هذا، أن " ابن عباس " عرف من مضمون هذه الفتاوى فقط، أنها لا يمكن أن تكون صحيحة، ولم يعتبر أنه من الضروري التحقق من ثقة الرواة وسندهم.

٣ - ورد في صحيح البخاري (باب الصلاة النوافل جماعة) أن "محمود بن الربيع" روى هذا الحديث في جلسة، أن قال النبي صلى الله عليه وسلم فيها :**«لاَ يَشْهَدُ أَحَدٌ أَنْ لاَ**

---

[1] ابن ماجه والترمذي حديث الوضوء مما مسته النار. وهذا نص الحديث كاملا: (٧٩) ــ حَدَّثَنَا ابْنُ أبِي عُمَرَ قَالَ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ عَمْرٍو عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله : «الْوُضُوءُ ممَّا مَسَّتِ النَّارُ، وَلَوْ مِنْ ثَوْرِ أقط» .
(قَالَ): فَقَالَ لَهُ ابْنُ عبَّاس: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَنَتَوَضَّأُ مِنَ الدُّهْنِ؟ أَنَتَوَضَأُ مِنَ الْحَمِيمِ؟ قَالَ: فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: يَا ابْنَ أخي، إِذَا سَمِعْتَ حَدِيثاً عَنْ رَسُولِ الله فَلاَ تَضْرِبْ لَهُ مَثَلاً».
(قَالَ): وَفِي الْبَابِ عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ، وَأُمِّ سَلَمَةَ، وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَأَبِي طَلْحَةَ، وَأَبِي أَيُّوبَ، وَأَبِي مُوسَى.
قَالَ أَبُو عِيسَى: وَقَدْ رَأَى بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ الْوُضُوءَ مِمَّا غَيَّرَتِ النَّارُ. وَأَكْثَرُ اهْلِ العلمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ وَالتَّابِعِينَ ومَنْ بَعْدَهُمْ: عَلَى تَرْكِ الْوُضُوءِ مِمَّا غيَّرتِ النَّارُ. (المترجم).

[2] كتب النووي في شرح صحيح مسلم: يتضح من هذا أن الكتاب قد كتب في شكل ملاحق (كما كانت تكتب الرسائل في الماضي في شكل عرائض طويلة ثم تلف).

إله إلا الله وأنّي رَسُولُ اللهِ فيَدْخلَ النَّارَ، أوْ تَطْعَمَهُ»[1] وكان " أبو أيوب الأنصاري " رضي الله عنه ـــ والذي أقام في منزله الرسول ﷺ سبعة أشهر ـــ من الحاضرين في هذه الجلسة، وسمع هذا الحديث وقال: والله ما أظن رسول الله ﷺقال ما قلت قط. كان "محمود بن الربيع" صحابي، كما كان " أبو أيوب " ثقة. وعليه لما كان هذا الحديث مخالفا للقرآن عنده، لم يسلم به، وقال: ما أظن رسول الله قال ما قلت قط. وبالرغم من أنه ورد في البخاري أن " محمود بن الربيع " قدم المدينة، وصدق بهذا الحديث عن رواية (عتبان)؛ ولكن هذا لا يؤثر في أصل المسألة. وللأسباب التي بناءً عليها شك " أبو أيوب " في رواية " محمود بن الربيع " يمكن أيضا أن يوجد هذا الشك في رواية " عتبان". ولم يكن " أبو أيوب "ـــ معاذ الله ـــ يخطّئ "محمود بن الربيع " في أنه ربما أخطئ في فهم مفهوم الرواية، وهذا الاحتمال نفسه، يمكن أن يكون عن الراوي الأول كما قالت السيدة عائشة لبعض الصحابة: أنكم تروون عن أناس صادقين، ولكن يحدث خطأ في السمع.[2]

٤ - ذكر " عمار بن ياسر " رضي الله عنه رواية التيمم أمام "عمر بن الخطاب " (رضي الله عنه)، فلم يصدق عمر، بل قال ما ورد في صحيح مسلم في باب التيمم "اتق الله يا عمار". وعليه، حين استدل أبو موسى رضي الله عنه بهذه الرواية أمام " عبد الله بن مسعود " رضي الله عنه، فقال عبد الله: ولكن عمر لم يطمئن لرواية عمار.[3]

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد صحيح مسلم: ١١٣) حدثنا شَيْبَانُ بْنُ فَرُّوخَ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ (يَعْنِي ابْنَ الْمُغِيرَةِ) قَالَ: حَدَّثَنَا ثَابِتٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: حَدَّثَنِي مَحْمُودُ بْنُ الرَّبِيعِ عَنْ عِتْبَانَ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ. فَلَقِيتُ عِتْبَانَ. فَقُلْتُ: حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ. قَالَ: أَصَابَنِي فِي بَصَرِي بَعْضُ الشَّيْءِ. فَبَعَثْتُ إِلى رَسُولِ اللّهِ أَنِّي أُحِبُّ أَنْ تَأْتِيَنِي فَتُصَلِّيَ فِي مَنْزِلِي فَأَتَّخِذَهُ مُصَلَّى. قَالَ: فَأَتَى النَّبِيُّ وَمَنْ شَاءَ الله مِنْ أَصْحَابِهِ. فَدَخَلَ وَهُوَ يُصَلِّي فِي مَنْزِلِي. وَأَصْحَابُهُ يَتَحَدَّثُونَ بَيْنَهُمْ. ثُمَّ أَسْنَدُوا عُظْمَ ذَلِكَ وَكُبْرَهُ إِلَى مَالِكِ بْنِ دُخْشُمٍ. قَالُوا: وَدُّوا أنه دَعَا عَلَيْهِ فهلك. وَوَدُّوا أَنَّهُ أَصَابَهُ شَرٌّ. فَقَضَى رَسُولُ اللّهِ الصَّلاَةَ. وَقَالَ: «أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنِّي رَسُولُ اللّهِ؟» قَالُوا: إِنَّهُ يَقُولُ ذَلِكَ. وَمَا هُوَ فِي قَلْبِهِ. قَالَ: «لاَ يَشْهَدُ أَحَدٌ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنِّي رَسُولُ اللّهِ فَيَدْخُلَ النَّارَ، أَوْ تَطْعَمَهُ». قَالَ أَنَسٌ: فَأَعْجَبَنِي هذَا الْحَدِيثُ. فَقُلْتُ لابْنِي: اكْتُبْهُ. فَكَتَبَهُ. (المترجم).

[2] صحيح مسلم، كتاب الجنائز (سيد سليمان الندوي).

[3] صحيح البخاري، كتاب التيمم.

٥ - حين روي هذا الحديث أمام السيدة عائشة رضي الله عنها، وهو أن الميت يعذب بنواح الناس عليه، طعنت فيه؛ لأنه خلاف ما جاء في القرآن الكريم: "ولا تزر وازرة وزر أخري (الإسراء ١٥).

٦ - وحين روي هذا الحديث أمامها رضي الله عنها، أن الرسول ﷺ قال عن شهداء غزوة بدر إنهم يسمعون ما أقول. قالت السيدة عائشة إن ابن عمر أخطأ.[١] وبالرغم من أن راوي هذه الراوية صحابي مشهور وهو عبد الله بن عمر، إلا أن السيدة عائشة أنكرت صحتها، لأنها مخالفة للقرآن الكريم عندها (في وجهه نظرها) رضي الله عنها.

أثبت أغلب المحدثين في هذا الباب، أن الرواية صحيحة، وأن اجتهاد السيدة عائشة والذي على أساسه أنكرت هذه الرواية ليس صحيحاً. ونحن هنا لا نبحث في هذا الأمر، ولكننا نبحث فقط في أن هناك صحابة من بين أكابر الصحابة (رضوان الله عليهم) لا يسلمون بالرواية، بالرغم من ثقة الراوي، بناءً على أن الرواية على خلاف الأدلة العقلية والنقلية.

٧ - هناك مسألة مختلف فيها، وهى حين أن تطلق المرأة فهل واجب على الزوج أكلها وشرابها وإقامتها في فترة العدة أم لا ؟ وكانت فاطمة بنت قيس رضي الله عنها صحابية جليلة، والتي كان زوجها قد طلقها. وهى تذكر بأنها حين ذهبت إلي النبي ﷺ فلم يوجب لها النبي لا نفقة ولا سكن، وذكرت هذا الحديث أمام " عمر بن الخطاب "، وقال عمر: إننا لا نترك كتاب الله وسنة الرسول ببيان امرأة، والتي لا يمكن أن نجزم في تذكرها تماما لما حدث أو نسيانها إياه. ذكر الإمام الشعبي هذه الرواية عن " فاطمة بنت قيس " رضي الله عنها في مجلس، فزجره الأسود بن يزيد: أتروى مثل هذا الحديث، ثم ذكر واقعة عمر رضي الله عنه المذكورة أعلاه.[٢]

وبعد الصحابة رضوان الله عليهم، كان هناك فريق يتأمل ويتدبر في التسليم والإيمان ببعض الروايات بناءً على وجوه عقلية أو نقلية، بالرغم من أن رواتها كانوا ثقة وسند :ـ

---

[١] وردت هذه الرواية بروايات متعددة فى صحيح مسلم، كتاب الجنائز.

[٢] صحيح مسلم، كتاب الجنائز.

١- هناك حديث ضعيف، "إن الشخص الذي أحب وظل محافظا على عفته وعصمته ثـ توفي فهو شهيد. " يبطل الحافظ " ابن القيم " في "زاد المعاد " هذا الحديث بأدلة عقليه ويكتب : **فلو كان إسناد هذا الحديث كالشمس كان غلطاً ووهما.**[١]

٢- روي في صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب الفيء أن العباس وعلى رضي الله عنهما، جاءا إلى عمر رضي الله عنه، وقال العباس لعمر رضي الله عنهما : **اقـض بينـي وبينه هذا الكاذب الآثم الغادر الخائن.**[٢]

ولما كان من المستحيل أن تخرج مثل هذه الألفاظ من فم مسلم في شـأن علـى رضي الله عنه؛ لذا أخرج بعض المحدثين هذه الألفاظ مـن كتـبهم. ويكتـب العلامـة "المازرى" عن هذا الحديث : **إذا انسدت طرق تأويلها نسبنا الكذب إلى رواتها.**[٣]

٣- روى في البخاري، أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام، فكان طوله سـتون ذراعـا. ويكتب " ابن حجر" في شرحها: **ويشكل على هذا ما يوجد الآن مـن آثـار الأمـم السالفة كديار ثمودهم فإن مساكنهم تدل على أن قاماتهم لم تكن مفرطة الطول على جسم يقتضيه الترتيب السابق، ولم يظهر الآن ما يزيل هذا الأشكال.**[٤]

٤- روي في صحيح البخاري، أن إبراهيم عليه السلام سيقول لله تعالى : يا إلهي، كنـت قد وعدتني بأنك لن تفضحني في يوم القيامة. يكتب الحافظ "ابن حجر" في شرح هذا الحديث : **وقد استشكل الإسماعيلي هذا الحديث من أصله وطعن في صحته.** [٥]

رد الحافظ على اعتراض " الإسماعيلي "، ولكن درجة "الإسماعيلي " تفوق درجة الحافظ " ابن حجر " في علم الحديث؛ لذا فبالرغم من أن اعتراض الإسماعيلي خطـأ، إلا أنه جدير بالاعتبار؛ إذ أن الحديث عنده على خلاف الاستدلال.

٥- روي عن عمرو بن ميمون : إنني رأيت قرداً في الجاهلية وكان قد زنا، فاجتمعـت القردة ورجموه. دقق الحافظ ابن عبد البر ــ المحدث المشهور ــ النظر في صـحة هذا الحديث، وذلك لأن الحيوانات غير مكلفة، وعليه فلا يمكن إطلاق الزنـا علـى

---

[١] زاد المعاد، الجزاء الثاني، طبعة كانبور ص ٩٦.

[٢] ورد هذا الحديث فى شرح صحيح مسلم للنووي.

[٣] شرح صحيح مسلم، النووي، كتاب الجهاد، باب الفيء.

[٤] فتح الباري ــ طبعة مصر ص ٣٦٤ جلد ١٦.

[٥] فتح الباري، طبعة مصر ص ٣٨٤ جلد ٨ .

فعلهم، وبالتالي لا يمكن معاقبتهم. يكتب الحافظ "ابن حجر ": وقد استنكر ابن عبد البر قصة عمرو بن ميمون هذه، وقال: فيها إضافة الكذب إلي غير مكلف وإقامة الحد على البهائم. [1]

نقل الحافظ " ابن حجر " هذا القول، وكتب: إن طريقة الاعتراض ليست لائقة، ولو أن السند صحيح، فمن الأغلب أن يكون هذا القرد من الجن.

٦- روي عن أنس رضي الله عنه في صحيح البخاري، أنه ذات مرة[1] وقع نزاع بين صحابة الرسول وجماعة عبد الله بن أبي، وعليه نزلت هذه الآية. "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما". (الحجرات : ٩)

يتضح من الروايات، أن "عبد الله بن أبي" وجماعته لم يكونوا قد اعتنقوا الإسلام في الظاهر أيضا حتى ذلك الوقت، وعليه اعترض " ابن بطال " على هذا الحديث؛ بأنه لا يمكن أن تكون هذه الآية القرآنية متعلقة بهذه الواقعة، إذ في الآية تصريح بأن الطائفتين من المؤمنين، وهنا كانت جماعة عبد الله بن أبى كافرة علانية.

أجاب الحافظ " ابن حجر " على هذا، بأن هذا قيل على سبيل التعميم، وهناك كثير من مثل هذا النوع من الوقائع والأحداث، والتي يبدو منها أن أكثر المحدثين ينظرون أيضاً في الشواهد والقرائن الأخرى التي توافق الرواية من عدمه جنباً إلي جنب بسلسلة السند :ـ

١- هناك مرحلة كبيرة، وهي الرواية بالمعني؛ أي يجب رواية الرسول أو الصحابة بألفاظها، أو الاكتفاء برواية مفهومها ومطلبها. ويختلف المحدثين في هذا الباب. ويري أكثرهم، أنه لو أن الراوي يروي مفهوم الحديث بألفاظه هو، ولا يوجد اختلاف في أصل الحديث، فالتقيد بألفاظ الحديث هنا ليس ضروري، ولكن الفصل في هل عبر (الراوي) عن المعني الأصلي (للحديث)، أم حدث فيه تغيير أمر اجتهادي. وعليه كان بعض المحدثين من مثل عبد الملك بن عمر، وأبو زرعة، وسالم بن جعد، وقتادة، والإمام مالك، كانوا يتقيدون باللفظ،[2] ولكن من الواضح أنه كان هناك عدد بسيط فقط من بين مئات الرواة الذين كانوا يتمسكون بقيد الألفاظ، وكانت الكتابة قد انتشرت في تلك الفترة، وراج بين المحدثين أنهم يذكرون مفهوم الرواة بألفاظهم هم. ورد قول

---

[1] فتح الباري، طبعة مصر ـ جلد ٧ ص١٢٢.

سفيان الثوري[٣] في كتاب العلل في جامع الترمذي: **إن قلت لكم أني أحدثكم كما سمعت فلا تصدقوني؛ إنما هو المعنى.**

كما نقل الترمذي أقوالا أخري في هذا الباب عن واثلة بن الأسقع، ومحمد بن سيرين، وإبراهيم النخعي، والحسن البصري، والإمام الشعبي رحمه الله، وغيرهم.

إن الصحابة رضوان الله عليهم، الذين كانوا يحرصون على الاحتياط وتحري الدقة، كانت تتغير حالتهم وقت رواية الحديث.

ورد قول عمرو بن ميمون في مقدمة سنن " ابن ماجة ": كنت أذهب دائما عند عبد الله بن مسعود ليلة الخميس، وما سمعته قط يقول قال رسول ﷺ. وذات يوم خرج هذا اللفظ من فمه، فأحني رأسه فجأة، ثم حين وقع نظري عليه، رأيته واقفا وقد انفتحت أزرار القميص، واغرورقت العينان بالدموع، وانتفخت شرايين الرقبة، ويقول: أقال الرسول ﷺ هكذا أم هكذا؟ أم أكثر من هذا؟ أم أقل من هذا؟ أم يشبه هذا؟

وكان الإمام " مالك " ـ رحمه الله ـ يعتريه خوف شديد حين يروي الحديث ويقول: أقال الرسول هذا أم قال هكذا؟. ويقول الأمام " الشعبي " قضيت سنة مع " عبد الله بن عمر، ولكني ما رأيته أبداً يروي الحديث. ويقول السائب بن يزيد : إنني كنت قد سافرت مع سعد بن مالك من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، ولكنه ما روي حديث عن الرسول ﷺ في هذا السفر الطويل (في حين أنه كان صحابياً جليلا). سأل عبد الله بن الزبير أباه: « ما لي لا أسمعك تحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أسمع ابن مسعود وفلاناً وفلاناً ؟ قال : أما إني لم أفارقه منذ أسلمت ولكني سمعت منه كلمة : من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . [٤]

---

[١] ورد ذكر مفصل عن هذه الرواية فى كتاب العلم فى صحيح البخاري، واكتفينا هنا بذكر فجواها فقط.

[٢] ورد هذا التصريح عن هؤلاء فى كتاب العلل فى صحيح الترمذي.

[٣] كتبه المؤلف " ثغيان " خطئًا (المترجم).

[٤] وردت هذه الأقوال جميعها فى مقدمة صحيح" ابن ماجه "، انظر ص٤، ٥، طبعة اصح المطابع لكناؤ. وهذا نص الحديث كاملا: (١٤٢٥) ـــ حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن جامع بن شداد عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : قلت للزبير رضي الله عنه : « ما لي لا أسمعك تحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أسمع ابن مسعود وفلاناً وفلاناً ؟ قال : أما إني لم أفارقه منذ أسلمت ولكني سمعت منه كلمة : من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . (المترجم).

روي " ابن ماجه "، أن الرسول ﷺقال بنفسه على المنبر: " **قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ، عَلَى هٰذَا الْمِنْبَرِ: «إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْحَدِيثِ عَنِّي. فَمَنْ قَالَ عَلَيَّ فَلْيَقُلْ حَقًّا أَوْ صِدْقاً. وَمَنْ تَقَوَّلَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».** [1]

وهنا أمر جدير بالذكر، وهو: إن النظر وتحري الدقة في قبول مثل هذا النوع من الأحاديث، لا علاقة له بثقة الراوي من عدمه؛ إذ لا يمكن الكذب من الرواة الثقة والسند، ولكن من الممكن أن يخطئ الراوي الثقة أيضا في فهم وأداء مفهوم الرواية وغايتها، وحين يعترض على رواية الثقاة في أي موضع، يكون على هذا الأساس. وحين رويت هذه الرواية عن عبد الله بن عمر أمام السيدة عائشة (الصديقة بنت الصديق): " **إن الميت ليعذب ببكاء الحي** فقالت السيدة عائشة " **إنكم لتحدثون عن غير كاذبين ولا مكذبين ولكن السمع يخطئ.**[2] وفي رواية أخرى قالت السيدة عائشة رضي الله عنها عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما " **أما إنه لم يكذب ولكنه نسى أو أخطأ** ".[3]

(١١) وهناك بحث آخر وهو رواية الآحاد. ورواية الآحاد هي التي تقوم الرواية فيها على راو واحد فقط في سلسلة إسنادها؛ أي لا يؤيده راو آخر. وهناك اختلاف بين أهل علم الحديث في التسليم والرفض واليقين والظن في هذا النوع من الرواية، فالمعتزلة ينكرون قطعاً التسليم بروايات الآحاد، ولكن هذا الإنكار في الحقيقة إنكار بديهي، فنحن نؤمن ونصدق مباشرة بلا حجة في هذا النوع من الروايات في أحداث الحياة اليومية. مثلا يأتي شخص منا ويقول: " **يستدعيك زيد** " فعلى الفور ننهض ونذهب، ولا نقول أن هذا الخبر آحاد ونحن لا نسلم به وعلى العكس من المعتزلة يري أكثر المحدثين صحته (خبر الآحاد)، وهذا في الحقيقة أفرط، إذ أن منهج عمل الصحابة أنفسهم رضوان الله عليهم يخالف هذا.

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في سنن ابن ماجه: (٣٦) حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَعْلَى التَّيْمِيُّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ مَعْبَدِ بْنِ كَعْبٍ، عَنْ أَبِي قَتَادَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ، عَلَى هٰذَا الْمِنْبَرِ: «إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْحَدِيثِ عَنِّي. فَمَنْ قَالَ عَلَيَّ فَلْيَقُلْ حَقًّا أَوْ صِدْقاً. وَمَنْ تَقَوَّلَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». (المترجم).

[2] صحيح مسلم كتاب الجنائز.

[3] صحيح مسلم، كتاب الجنائز.

ذات مرة ذهب " أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، إلي "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه، وطلب الإذن ثلاث مرات، ولما كان "عمر" رضي الله عنه مشغولا في أحد الأعمال، لذا لم يجب طلبه، فاضطر إلي العودة. وحين فرغ "عمر" رضي الله عنه من العمل، استدعاه، وسأل عن سبب العودة، قال إنني سمعت من رسول الله ﷺ حين لم تجد الإجابة بعد الاستئذان ثلاث مرات فعليك أن ترجع. قال " عمر " رضي الله عنه أحضر شاهداً على هذه الرواية وإلا سأوقع عليك العقاب. قدم " أبو موسى الأشعري " رضي الله عنه شاهداً على قوله، فآمن عمر (بها). لم يكن عمر رضي الله عنه ــ لا قدر الله ــ يعتقد أن " أبا موسى الأشعري " رضي الله عنه كاذبا؛ ولكن " عمر " رضي الله عنه كان قد عاش سنوات في حضرة النبوة، ولم يسمع هذا الحديث من النبي ﷺ، في حين أن الحديث يتعلق بأمر يحدث بوجه عام، لذا لم يكتف "عمر " رضي الله عنه بشهادة شخص واحد فقط باعتبار أهمية الواقعة.

ادعت امرأة أمام " أبي بكر " رضي الله عنه الميراث، وكانت جدة للمتوفى، فقال " أبو بكر ": لم يرد ذكر ميراث الجدة في القرآن، وليس لي علم بأي رواية عن الرسول في هذا الباب، وشهد " المغيرة بن شعبة " رضي الله عنه بأن الرسول ﷺ كان يعطى الجدة السدس، ولم يكتف "أبو بكر" بشهادته هذه فقط في مثل هذه الواقعة، وحين شهد صحابي آخر وهو " محمد بن مسلمة " رضي الله عنه بهذا، أعطى "أبو بكر" هذه المرأة نصيبها في الميراث.

وهكذا لم يكتف "عمر " رضي الله عنه بشهادة " المغيرة " رضي الله عنه وحده فيما يتعلق بدية الجنين. وهناك عشرات الأمثلة من مثل هذا النوع من الروايات.

وعليه فإن أصول فقهاء الحنفية عن رواية الآحاد صحيح إلى حد ما، وهو أن هذا ظني الثبوت، ولم تثبت قطيعته. والأصل هو أن صحة روايات الآحاد وعدم صحتها أو الظن والقطع، يتركز على أهمية أصل الرواية ذاتها، وعدم أهميتها يعد ثقة وسند الرواة. مثلاً حين يقول شخص لنا " إن زيدا يناديكم " فنحن لا ننكر التسليم بهذه الواقعة أبداً بعد الاعتراف بثقة وسند الراوي، ولكن حين يقول هذا الشخص نفسه " استدعاكم الملك اليوم في البلاط " فنحن لا نتردد في التسليم بهذه الواقعة ونبحث عن شهادة آخرين لإثباتها.

ولو أن هناك راوٍ واحد يذكر عن النبيﷺ: "أنه ﷺذات مرة ارتدى قميصاً أبيضاً وخرج "، فلا عذر لنا في عدم التسليم والاعتراف بما قال، ولكن لو أن هذا الراوي نفسه

يقول: "إن الرسول ذات مرة خرج شبه عار (رواية من هذا النوع)، فنحن قطعاً لا نكتفي بهذه الشهادة الوحيدة في إثبات هذا الأمر.

نتائج المباحث المذكورة

تحدثنا في الصفحات السابقة عن منهج وأسلوب عمل الصحابة الكبار ـ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ـ فيما يتعلق بالرواية والحديث، وهنا نكرر ثانية تفصيل قواعد وضوابط علماء النقد والحديث فيما يلي بالترتيب كنتائج:ـ

١. بادئ ذي بدء، يجب البحث عن الواقعة فى القرآن الكريم ثم فى الأحاديث الصحيحة، ثم فى عامة الأحاديث، وإن لم نجدها فلا بد من النظر فى روايات السيرة.

٢. إن كتب السيرة فى حاجة إلي تنقيح، ولا بد من نقد رواياتها وإسنادها.

٣. إن روايات السيرة من حيث درجة الصحة، أقل من روايات الحديث، لذا نرجح دائماً روايات الأحاديث فى أي خلاف.

٤. نرجح روايات الأحاديث وروايات أرباب الفقه على غيرها فى أي خلاف.

٥. لابد من البحث فى وقائع السيرة عن سلسلة العلة والمعلول.

٦. يجب اعتبار معيار الشهادة حسب نوعية الواقعة.

٧. ما مقدار أصل الواقعة فى الروايات، وما مقدار رأي وفهم الراوي فيها ؟

٨. ما مقدار أثر الأسباب الخارجية ؟

٩. إن الروايات المخالفة لعامة الدلائل العقلية، والمشاهدة العامة، والأصول المعترف بها، وقرائن الحال لا تكون حجة.

١٠. فى جمع وتطبيق الروايات العديدة فى الموضوع المهم، يجب التأكد من عدم حدوث أي خطأ من الراوي فى أداء المفهوم (الأصلي للرواية).

١١. يجب قبول روايات الآحاد حسب أهمية الموضوع وقرائن الحال.

بعد تفصيل وإقرار هذه الضوابط والأصول، يبدو أن فن الرواية الإسلامي لكم هو عالي الدرجة من حيث نظرة العقل والدراية. ولكم بذل علماء الحديث جهداً مضنياً من أجل تصحيح الروايات، وراعوا الدقة المتناهية، ولكم واجهوا كثيراً من الصعاب. هل هناك وجود لذرة من هذا الاهتمام والاعتناء فى تاريخ الأمم الأخرى فى الدنيا ؟ وهل كتب أي أحد من كتاب سيرة نبي الإسلام عن حياة محمد ﷺ بهذا الجهد المضني، وبهذه

الدقة والفصاحة ؟ وهل يستطيع أن يكتب أي أحد غير مسلم، مراعياً هذه القواعد والضوابط. [1]

المؤلفات الأوربية

سيأتي الحديث تفصيلاً فيما بعد عن مؤلفات الأوروبيين فى سيرة النبي ﷺ، كما سنتحدث تفصيلياً عن أول الأوروبيين الذين كتبوا عن الإسلام، بداية من "هلدي برت"(والذي كان على قيد الحياة حتى سنة ١١٣٩ م) وحتى يومنا هذا، وما هي المؤلفات التي تركوها ؟ وما هو منهجهم وأسلوبهم العام ؟ وما هي الأخطاء المشتركة بينهم جميعاً؟ وما درجة مصادر معلوماتهم ؟ وما هي أسباب الأخطاء المشتركة بينهم ؟ وإلى أي مدى كان هناك أثر للتعصب وسوء الظن ؟ ونحن هنا نتحدث بإيجاز فقط عن هذه المؤلفات، لأننا فى هذا الجزء سنتعرض للحديث عن هذه المؤلفات فى أماكن مختلفة.

كانت أوروبا لفترة، لا تعرف أي شيء عن الإسلام، وحين أرادوا المعرفة ظلوا لفترة طويلة مبتلين فى أوهام وخيالات عجيبة وافتراءات. يكتب مؤلف أوربي " ظلت المسيحية حتى عصور الإسلام الأولى لا تستطيع أن تفهم الإسلام ولا أن تنتقده؛ بل كانت فقط تخافه وتمتثل للأمر؛ ولكن حين استقر العرب فى بادئ الأمر فى قلب فرنسا، أدارت تلك الشعوب ــ التي كانت تهرب من أمامهم ــ وجهها، ونظرت كقطيع المواشي حين يبتعد الكلب الذي يطاردهم". [2]

يبين المؤلف الفرنسي المعروف هنري ديكاسترى، والذي تُرجم كتابه إلى اللغة العربية، كيف عرفت أوربا المسلمين:ــ " إن تلك القصص والأغاني التي كانت رائجة عن الإسلام فى أوربا فى القرون الوسطى لا نعرف ماذا يقول المسلمون حين يسمعونها ؟ فهذه القصص والأناشيد كلها مليئة بالبغض والعداوة؛ بسبب عدم معرفة دين المسلمين، وإن الأخطاء وسوء الظنون الذي شاع اليوم تجاه الإسلام، بسبب تلك المعلومات القديمة نفسها، فكل شاعر مسيحي كان يعتقد أن المسلمين مشركين وعبدة أصنام، وكان يسلم بآلهتهم الثلاثة حسب ترتيب الدرجات ماهوم أو مهاميد أو ماهون، وابلين والثالث تركامان. وكانوا يعتقدون أن محمداً ﷺ أقام أساس دينه على ادعاء الألوهية. والأكثر

---

[1] قمت بإضافة هذا بداية من ص ٧٧ وحتى ص٧٩.(سيد سليمان الندوي).

[2] Mahomed and Mohamednism . by basoyrthsmith .m.a.p 63
(محمد اینڈ محمد نزم ازبا سورتهہ سمتهہ صاحب ایم اے ص ٦٣.)

دهشة هو أن محمد (هو نفس محمد محطم الأصنام وعدوها) يدعو الناس إلى عبادة صنمه الذهبي".

وحين انتصر المسيحيون على المسلمين فى أسبانيا، وأبعدوهم حتى جدران سرقوسطة، رجع المسلمون وحطموا أصنامهم. ويقول أحد شعراء هذه الفترة " كان إله المسلمين ايلين هناك فى غار، فانقضوا عليه، ووصفوه بالكسل المتناهي، وانهالوا عليه بالشتائم، وربطوا يده وشنقوه على سارية، وداسوه بالأقدام، وضربوه بالعصي، وقسموه إرباً إرباً، وألقوا بالماهوم (إلههم الثاني) فى حفره، ونهشته الخنازير والكلاب، ولم يحتقر أي إله أكثر من هذا قبل هذا. ثم تاب بعدها المسلمون عن ذنوبهم، وطلبوا العفو من آلهتهم، وصنعوا الأصنام المحطمة ثانية. وعليه، حين دخل الملك تشارلز سرقوسطة، أمر مصاحبيه أن يطوفوا بالمدينة كلها، ويقتحموا كل المساجد، ويحطموا بمعاول حديدية مهاميد وكل الأصنام " [1]

هناك شاعر ثان وهو ريتشه يدعو الله "بأن يجعل الهزيمة من نصيب عبدة صنم (الماهوم)"، ثم يحث الأمراء على الحرب الصليبية بهذه الألفاظ " انهضوا وحطموا مهاميد وأصنام تركمان، وألقوا بهم فى النار، واجعلوهم فداءً وقرابين لإلهكم ".

ظلت مثل هذه الأفكار قائمة حتى فترة (وسوف نكتب عنها تفصيلاً فى جزء آخر).

القرن السابع والثامن عشر الميلادي

إن السنين الوسطى للقرن السابع عشر الميلادي هي بداية العصر الجديد لأوروبا، إذ يبدأ عهد جهد وسعي أوروبا وحريتها من هذا العهد نفسه، وما نقصده هنا هو ذلك الشيء الذي ظهر فى تلك الفترة، وهو وجود المستشرقين الأوروبيين، والذين بسعيهم وجهودهم ترجمت كتب عربية نادرة الوجود ونشرت، وأسست مدارس اللغة العربية لأغراض سياسية وعلمية في أماكن مختلفة من البلاد. وهكذا جاء زمن استطاعت فيه أوروبا أن تتعرف على الإسلام بلغة الإسلام نفسه.

إن السمة الأولى لهذه الفترة هي أنه أُعتمد على مؤلفات اللغة العربية فيما يتعلق بسيرة النبي ﷺ والتاريخ الإسلامي إلى قدر كبير من الاستماع إلى المعتقدات السائدة وقصها، ومع هذا لم يبتعد عن استخدام فوائد المعلومات السابقة فى أكثر من أمر.

---

[1] كتاب هنري دي كاستري باللغة العربية طبعة، مصر ــ ص ٨ حتى ١٠.

ومنذ هذه الفترة حين أنقذت أوروبا من سيطرة رجال الدين، وانفصلت أمور دينهم عن سياستهم، انقسم المستشرقون الذين يؤلفون عن الإسلام إلى جماعتين: جماعة العامة ورجال الدين، وجماعة المحققين وغيرهم من المتعصبين. وما سعت إليه هاتان الجماعتان من النيل من الإسلام يبدو واضحاً أمامنا اليوم.

وكانت قد ترجمت المؤلفات التاريخية العربية فى تلك الفترة. وفى هذا المقام يذكر أولاً اسم " اربى نيوس (AR P)، و" مارجولويوث ادوارد بوكاك Pococke)) و" هاتنجر (Hattinjer)، ولكن من العجيب - إما صدفة أو قصداً - أن الكتب التاريخية العربية التي ترجمها هؤلاء المستشرقون فى البداية، كان أغلبها لهؤلاء المؤلفين المسيحيين الذين كانوا في القرون الماضية من سكان البلاد الإسلامية، من مثل "سعيد بن بطريق اوتيكوس" والمتوفى فى سنة ٩٣٩ م، وكان بطريرك الإسكندرية، وابن العميد المكين، والمتوفى سنة ١٢٧٣م وكان من رجال بلاط سلاطين مصر، وأبو الفرج بن العبري المالطي المتوفى فى سنة ١٢٨٦ م، ومؤلف كتاب تاريخ الدول.

نشر " اربى نيوس " ــ المستشرق الهولندي ــ جزءً من خلاصة تاريخ الطبري، وذيل الطبري لابن العميد المكين، مع ترجمة لاتينية من مدينة ليدن،[١] والذي يشتمل على وقائع وأحداث منذ بداية البعثة النبوية وحتى الدولة الأتابكية. ويشار إلى هذا الكتاب باسم المكين فى المؤلفات الإسلامية الأولى لأوروبا بكثرة.

أواخر القرن الثامن عشر

هذه هي تلك الفترة التي كانت قد أخذت قوة أوربا السياسية تنتشر فى البلاد الإسلامية، والتي أوجدت جماعة كثيرة العدد من المستشرقين، والذين أسسوا مدارس اللغات الشرقية بإيعاز من الحكومة، وأسسوا المكتبات الشرقية، والجمعيات الآسيوية، ووفروا وسائل طبع ونشر المؤلفات الشرقية، وبدءوا ترجمة المؤلفات الشرقية.

فى البداية أسس الهولنديون جمعية آسيوية فى سنة١٧٧٨ م فى مستعمراتهم بالجزر الشرقية. وقلدهم الإنجليز وأسسوا الجمعية الآسيوية العامة فى مدينة كلكتا سنة ١٧٨٤ م، وجمعية البنغال الآسيوية فى سنه ١٧٨٨ م. وبعدها أسس الفرنسيون دار العلوم للغات الشرقية الحية (العربية والفارسية والتركية)، وفى النهاية، تقليداً لهذه المدارس

---

(١) مدينة فى هولندا (المترجم).

والجمعيات، انتشر هذا النوع من الجمعيات والمدارس فى أوروبا كلها، وبدأ يُعتبر أن وجود أساتذة اللغة العربية ومكتباتها أمر ضروري فى عامة الجامعات.

وطبع كل ما هو محفوظ لدي المسلمين باللغة العربية من كتب السيرة المغازي فى أوروبا باستثناء بعض الكتب التي ألفت فى الفترة من أواخر القرن الثامن عشر وحتى نهاية القرن التاسع عشر، وترجم أكثرها إلى اللغات الأوروبية. ففي البداية ترجم " ريسك" (Reiske) (المتوفى ١٧٧٤م تاريخ " أبو الفداء " إلى اللغة اللاتينية، وضمن ترجمته حواشي، ونشرها فى خمسة مجلدات. وفى سنة ١٨٠٩م نشر القبطان(ايه إن متهيوز A. N. mathews) ترجمة إنجليزية لمشكاة المصابيح من مدينة كلكتا ". وفى سنة ١٨٥٦ م طبع " وان كريمر " (Kremer) كتاب المغازي " لمحمد بن عمر الواقدي " من مدينة " كلكتا ". كما نُشرت سيرة الرسول؛ الكتاب المشهور لابن هشام فى سنة ١٨٦٠م من(cottingen كوتينكن)، كما قام هذا المستشرق نفسه بطبع تاريخ المدينة للسمهودي، وتاريخ المعارف لابن قتيبة. وفى سنة ١٨١٤ م ترجم الدكتور " ويل " (G. weil) كتاب ابن هشام إلى اللغة الألمانية. وفى سنة ١٨٧٧ نشر البروفيسير الفرنسي " دى مانيارد" كتاب " تاريخ مروج الذهب للمسعودى " من مدينة باريس مع ترجمة فرنسية. وفى سنة ١٨٨٢م ترجم فالهاوزن (wellhausen) كتاب الواقدي إلى اللغة الألمانية بعنوان "محمد فى المدينة"، ونشره من مدينة برلين. وفى ١٨٨٣م نُشر كتاب " تاريخ اليعقوبي" فى مجلدين من مدينة ليدن تحت رعاية هاوتما (houtama). ومنذ عام ١٨٨٩م، وحتى ١٨٩٢م، نشر "بارت" (J.Barth) و"تولدكه" (Noldeke) وغيرهما كتاب "تاريخ الطبري" المشهور. وفى النهاية وبجهود المستشرق الألماني المشهور " سخاو " (Sachuu) وبمعاونة سبعة آخرين من المستشرقين ظل كتاب "طبقات ابن سعد" القيم، يُنشر من مدينة ليدن مجلد تلو الآخر منذ سنة ١٩٠٠ م تقريبا، وحتى العام الماضي، هذا الكتاب الذي لا يوجد نظيراً له فى تفصيله عن سيرة النبي ﷺ.

كان لأصل هذه المؤلفات التاريخية، ونشر ترجماتها والعلاقات بين أوروبا والدول الإسلامية، وقلة النفور الديني، ورغبة البحث الحر، أثر قوي فى خلق جماعة كبيرة فى أوروبا للتأليف عن التاريخ الإسلامي وسيرة النبيﷺ.

يعترف أحد علماء اكسفورد بهذه السلسة غير المتناهية بقوله:ــ

"هناك سلسلة واسعة لكتاب السيرة عن" محمد" ﷺ، والتي لا يمكـن أن تنتهـي والحصول على مكان فيها لهو مفخرة". (١)

وندرج هنا قائمة موجزة لهذه المؤلفات، والتي كتبت عن حياة النبي ﷺ أو عـن الشريعة الإسلامية، واقتبسنا منها في كتابنا هذا أو اطلعنا عليها.

م	اسم المؤلف	الوطن	اسم الكتاب أو المقالة	سنة التأليف
١	الدكتور چي. بي	إنجلترا	سيرة محمد الخادع (نعوذ بالله)	١٨١٥
٢	الدكتور وايت (واعظ اكسفورد)	إنجلترا	بيمفتن سرمنز إسلام اور پغمير إسلام	١٨٠٠
٣	كاردفري هكنس M.R.A.S	إنجلترا	ايالوجى	١٨٢٩
٤	الدكتور A J مولر	ألمانيا	الإسلام	١٨٣٠
٥	كارسن دى تاسى	فرنسا	الإسلام والقرآن	١٨٣١حتى ١٨٧٤
٦	إدوارد لين	إنجلترا	مختارات من القرآن	١٨٤٣
٧	الدكتور ويل	ألمانيا	ترجمة وتحشية ابن هشام	٤٦ /١٨٤٥م
٨	كارلائل	إنجلترا	هيروز ايند هيرو ورشب	١٨٤٦م
٩	كوسن دي برسيوال	فرنسا	تاريخ العرب	١٨٤٧
١٠	واشنكتن ارونك	إنجلترا	سيرة محمد	١٨٤٩
١١	الدكتور اسپر نكر	ألمانيا	سيرة محمد	١٨٥١
١٢	وان كريمر	ألمانيا	ترجمة وتحشية الواقدي	١٨٥٦
١٣	الكاتب نيشنل ريويو(مقالة)	إنجلترا	محمد	١٨٥٨
١٤	دوزي	هولندا	تاريخ الإسلام	١٨٦١

(١) مارجوليوث، محمد، المقدمة، ص ١.

١٥	الكاتب نيشنل ريويو (مقالة)	إنجلترا	أعظم العرب	١٨٦١
١٦	دي لين	إنجلترا	سيرة محمد	١٨٦١
١٧	ميور	إنجلترا	سيرة محمد	١٨٦١
١٨	برثالمى سينت هلير	فرنسا	محمد و القرآن	١٨٦٥
١٩	نولدكه	ألمانيا	القرآن والإسلام	١٨٦٩
٢٠	كوارترلى ريويو	إنجلترا	الإسلام	١٨٦٩
٢١	كوارترلى ريويو	إنجلترا	محمد	١٨٧٢
٢٢	جوليس تشارلس	فرنسا	تاريخ مؤسس الإسلام	١٨٧٤
٢٣	كانتمبريرى ريويو	إنجلترا	محمد والإسلام	١٨٧٥
٢٤	باسورث اسمث	إنجلترا	محمد والإسلام	١٨٧٥
٢٥	سيديو	فرنسا	تاريخ العرب	١٨٧٧
٢٦	فلهاوزن	ألمانيا	تعليق على الواقدي	١٨٨٢
٢٧	اهل كراهل	ألمانيا	سيرة محمد	١٨٨٤م
٢٨	كولد زهر		مطالعة الإسلام	١٨٩٠م
٢٩	رينان	فرنسا	تاريخ المذاهب	١٨٩٢م
٣٠	ايچ كريم	هولندا	سيرة محمد	١٨٩٤م
٣١	هنري دى كاسترى	فرنسا	آراء فى الإسلام	١٨٩٦م
٣٢	ايف بوهل	هولندا	سيرة محمد	١٩٠٣م
٣٣	والستن		نصف ساعة مع محمد	١٩٠٥م
٣٤	مارجوليوث		محمد	١٩٠٥م
٣٥	كوئل		محمد والإسلام	
٣٦	پرنس كائتانى	إيطاليا	التاريخ الكبير محمد والإسلام وسلاطين الإسلام	
٣٧	ميجر ليو نارد		الأساس الأخلاقي والروحاني للإسلام	١٩٠٩

يمكن تقسيم المؤلفين الأوروبيين إلى ثلاثة أقسام : ــ

١. قسم لا يعرف اللغة العربية ولا أصل المصادر. وثروة معلومات مثل هذا النوع من المؤلفين مستمدة من مؤلفات الآخرين والترجمات. وعملهم فقط هو القياس على المواد الناقصة والمشتبه فيها، ووضعها فى قالب طبعهم ومزاجهم. ومن العجيب أن يكون من بينهم بعض المؤلفين (مثل كبن)، الذين يتصفون بالرأي الصائب وحب العدل، ويستطيعون تمييز الجيد من الرديء، حتى ولو كان النفيس بين طيات الخبيث ولكن **قليل ماهم**.

٢. مؤلفون ماهرون فى اللغة العربية وآدابها والتاريخ والفلسفة والدراسات الإسلامية، ولكنهم جاهلين فى فن السيرة والأدب الديني، ولم يكتب هؤلاء المؤلفون كتاباً مستقلا عن السيرة أو عن الدين الإسلامي، ولكنهم فى مواضع ضمنية يكتبون ما يشاءون بجرأة بالغة عن الإسلام أو نبي الإسلام، بزعم معرفتهم للغة العربية. على سبيل المثال العالم الألماني المشهور " ساخو " والذي نشر طبقات "ابن سعد ": لا يستطيع أحد أن ينكر معرفته باللغة العربية، ومعلوماته الواسعة بها، وما كتبه فى مقدمته النقدية لكتاب " البيروني " (كتاب الهند) قابل للغبطة، لكنه يكتب فى المقدمة ذاتها عن الإسلام أشياءً، والتي بقراءتها تضطرنا إلى نسيان أن هذا هو ذلك الشخص المحترم الذي كنا قد رأيناه. كما درس " نولدكه" الألماني القرآن الكريم دراسة عميقة؛ ولكن مقاله عن القرآن الكريم فى المجلد السادس عشر من دائرة المعارف، لا يزيح الستار عن تعصبه فى أماكن كثيرة فقط بل يكشف عن سر جهله أيضا.

٣. مستشرقون درسوا الإسلام والأدب الإسلامي دراسة وافية من مثل السيد "پامر" والسيد " مارجوليوث " ونستطيع أن نأمل فيهم الكثير، ولكن بالرغم من وقوفهم على اللغة العربية وكثرة اطلاعاتهم ودراساتهم للكتب وتفحصها، إلا أن هذا هو حالهم أرى كل شئ، ولكني لا أفكر فى أي شئ

فقد قرأ " مارجوليوث " كل حرف من حروف مجلدات مسند الإمام " أحمد بن حنبل " الضخمة، ويمكن لي أن أدعي بأنه لا يوجد من يشبهه فى هذا من المسلمين فى عصرنا؛ ولكن ما كتبه من كتاب فى حياة النبيﷺ لا يمكن لكتاب غيره فى تاريخ الدنيا

تقديمه كنموذج للكذب والافتراء والتأويل والتعصب، ولو أن فيه أي ميزة فهي أنه يستطيع أن يجعل الحديث العادي والبسيط والذي لا يبدو فيه أي سوء سيئاً بقوة بيانه وأسلوبه وطبعه.

الدكتور " اسپرنكر "، عالم ألماني مشهور ماهر فى اللغة العربية، وشغل منصب مدير المدرسة العليا لعدة سنوات، قدم إلى مدينة لكناؤ، وكتب تقريراً عن المكتبة الملكية وقد اطلعنا عليه، وهو أول من قام بتصحيح كتاب " الإصابة فى أحوال الصحابة للحافظ " لابن حجر"، وطبعه فى مدينة كلكتا، ولكنه حين كتب كتاباً مستقلا ضخما عن سيرة النبي ﷺ فى ثلاثة مجلدات فتملكتنا الحيرة والدهشة.[١]

لاشك فى أن التعصب الديني والسياسي سبب كبير فى أخطاء المؤلفين الأوروبيين، ولكن هناك أيضا أسباب أخري، والتي بسببها يمكن لنا أن نلتمس لهم العذر:-

١. السبب الأكبر هو اعتمادهم فى معلوماتهم على كتب السيرة والتاريخ فقط، من مثل "المغازي" للواقدي وسيرة "ابن هشام" وسيرة "محمد بن إسحاق" و"تاريخ الطبري" وغيرها. ويبدو من هذا أنه لو يرغب أي أحد غير مسلم فى الكتابة عن سيرة النبي ﷺ، فعامة القياس هو أنه يهتدي بهذا، ويجب عليه الرجوع إلى مؤلفات السيرة؛ فى حين أن الواقع هو أنه لا يوجد كتاب واحد فى مؤلفات السيرة ذو مكانة عالية من حيث السند، لذا تحدثنا عن هذا الأمر فيما سبق. وبغض النظر عن مؤلفي السيرة فإن أكثر روايات السيرة مروية عن أناس مثل سيف، وسري، وابن سلمة، وابن نجيح ضعاف الرواية. لذا تكون شهادتهم كافيه فيما يتعلق بالأحداث العادية والعامة، وليس فى الأحداث بالغة الأهمية، والتي تقوم عليها أسس مسائل دقيقة.

إن الأحداث الحقيقية والصادقة عن حياة النبي ﷺ، هي الواردة فى كتب الحديث بروايات صحيحة، والمؤلفون الأوروبيون لا علم لهم تماماً بهذه الثروة،[٢] ولا يمكن

---

[١] هذا الكتاب باللغة الألمانية، والتي لا أعرفها، ولكن أكثر المؤلفين الآخرين اقتبسوا أقواله، واطلعت عليها.

[٢] كتب الحديث (المترجم).

أن يكون هناك نصف واحد مثل " مارجوليوث "، فهو أولا: ليس ماهراً بهذا العلم. [1] ثانيا: إن شرارة واحدة من تعصبه كافية لحرق كثير من المعلومات.

٢. والسبب الثاني والقوي أيضا، هو أن ضوابط وأصول التحقق من الشهادة عند الأوربيين، مختلفة تماما عن أصول وضوابط تحقيقنا، فالأوربي لا ينظر أبدًا إلى هذا الأمر، وهو هل الراوي صادق أم كاذب؟ وما هي أخلاقه وعاداته؟ وكيف تكون قوة ذاكرته؟ فهذا التحقيق والتدقيق لا يمكن أن يكون عند الأوروبي، كما أنه ليس من الضروري بالنسبة له، فهو ينظر فقط إلى أن ما يقوله الراوي هل يطابق القرائن والأحداث أم لا ؟ افترض أن هناك راو كاذب يروى واقعة عن كاذب تبدو صحيحة من حيث قرائن الحال والأحداث المحيطة والرواية مسلسلة تماما، ولا يوجد أي قطع في أي مكان منها، فيسلم بشكل الرواية طبقا لمزاج الأوروبي.

وعلى العكس من هذا تماما، فالمؤرخون المسلمون خاصة المحدثين، لا يهتمون بحال الرواية ذاتها؛ بل ينظرون أولا إلى هل اسم هذا الراوي مذكور في فهرس الرواة الثقاة في دفتر تحقيق أسماء الرجال أم لا؟ وإن كانت النتيجة لا، فروايته غير مقبولة الاعتبار والسند عندهم. وعلى العكس من هذا، لو روى راو ثقة رواية واضحة تخالف القرائن والقياس، وغير مطابقة في الظاهر للعقل، فبالرغم من هذا تقبل الرواية.

وقد أثر اختلاف الضوابط والأصول هذا كثيراً في مؤلفات الأوروبيين، على سبيل المثال يعتمد أهل أوروبا فى الأغلب على روايات " الواقدي "، والسبب فى هذا هو أن رواية الواقدي مربوطة ومسلسلة جداً، وتلتحم وتتصل كل الأجزاء بعضها ببعض، ولا توجد فجوة في الأحداث، الأمر الذي يجعل أي واقعة ممتعة.

ولكن الحقيقة هي أن هذه الأمور ذاتها تكشف السر، فإن الروايات التي تنتشر على الألسنة فقط منذ أكثر من مائة سنة، لا يمكن أن يكون فيها هذا القدر من استقصاء الجزئيات، ومن الممكن أنه مثلما تكتب الرواية التاريخية، يمكن أن توضع بعض الوقائع وتكتمل كتابتها عن طريق القياس والقرائن والمعلومات العامة بأسلوب سهل وبسيط ولكن لا يجرؤ على هذا أحد سوى " الواقدي " والمحدثون براء من هذا.

---

[1] علم الحديث (المترجم).

ونحن لا ننكر أيضا أنه لا يكتفي في كل المواضع بكون الراوي ثقة فقط؛ فالثقاة أيضاً يمكن أن يخطئوا؛ لذا لابد من التمسك بأصول وضوابط الدراية -التي وضعها المحدثون والتي ينساها البعض أحياناً.

الأصول والضوابط المشتركة بين المؤلفات الأوروبية.

إن افتراءات مؤلفات الأوروبيين، والتي يثيرونها ضد أخلاق النبي ﷺ، أو تلك الاعتراضات التي توجد بنفسها في نفس القراء بسبب مؤلفات هؤلاء المستشرقين نجدها كما يلي:ـ

١. إن حياة النبي ﷺ في مكة هي حياة النبوة فقط، ولكنه بعد هجرته إلى المدينة وازدياد قوته، تبدلت هذه الحياة فجأة، من حياة النبوة إلي الملكية. وبالتالي ظهرت لوازمها [١] ومتطلباتها من غزو عسكري وقتل وسفك دماء بذاتها.
٢. كثرة الزواج والميل إلي النساء.
٣. نشر الدعوة الإسلامية بالقوة.
٤. استباحة استبعاد الجارية والعمل به.
٥. السياسة والحيلة كأهل الدنيا.

لذا لابد على قراء كتابنا هذا أن يمعنوا النظر في هذا الأمر في كل الوقائع والأحداث، وهو هل هذه الاعتراضات تتفق مع ضوابط وأصول التحقيق التاريخي أم لا ؟

منهج تأليف الكتاب:

إن الأصول والضوابط التي اعتمدنا عليها في هذا الكتاب حان الآن إعلانها:ـ

١. أولا: الاعتماد على الآيات التي وردت في أحداث عن السيرة، فقد كان لها حق التقدم علي ما عداها. فمن الثابت قطعاً أن القران الكريم به تصريحات وإشارات عن كثير من الوقائع والأحداث وبها يتم الفصل في الخلاف؛ ولكن الناس لم يدققوا النظر كما يجب في الآيات القرآنية، وعليه بقت هذه المسائل دون فصل فيها.
٢. ويأتي الحديث الشريف في الدرجة الثانية بعد القرآن الكريم، فقد غضضنا النظر عن روايات السيرة أمام الأحاديث الصحيحة، وليست هناك أي حاجة للرواية التاريخية أو لرواية السيرة في وجود الوقائع التي وردت في البخاري ومسلم وغيرهما. ولقد وقع

---

(١) متطلبات الملوكية (المترجم).

أرباب السيرة في خطأ كبير، وهو أنهم يبحثون عن الوقائع والأحداث في تلك المواضع حيث يجب درجها من حيث العنوان والموضوع، وحين لا يجدون أي رواية في هذه المواضع، يأخذون بالروايات الأقل درجة. ولكن في كتب الحديث ترد وقائع تفصيلية من كل نوع في مواضع ضمنية في الرواية، وعليه إذا تمت الاستفادة من الاستقراء العام والدقة والتمحيص لوجدت روايات في الصحاح الستة عن الوقائع والأحداث المهمة. وأكبر ميزة لكتابنا هذا، هي أننا بحثنا عن روايات الحديث ووفرناها في كثير من الوقائع التفصيلية، الأمر الذي غاب عن نظر أهل السيرة.

٣. عُني كثيرا بروايات " ابن سعد " و" ابن هشام " و" الطبري " العامة في الوقائع والأحداث اليومية والعامة، أما عن الوقائع التي تمثل أي أهمية، فعنى بنقدها وتحقيقها بقدر الإمكان. ومن أجل هذا قمنا أولاً بفصل أسماء كل الرواة " ابن سعد " و" الطبري " والذين يتجاوز عددهم المئات، ثم قمنا بجرحهم وتعديلهم من خلال كتب أسماء الرجال، حتى يتم التحقيق المقصود لسلسلة الرواة بسهولة ويسر.

٤. وما ورد سابقا من تفصيل وتقصير، حاولنا إصلاحه وتلافيه بقدر الإمكان.

أجزاء الكتاب

هذا الكتاب في خمسة أجزاء. (١)

في الجزء الأول حديث موجز عن أحوال العرب وتاريخهم، وحياة النبي ﷺ بصفة عامة، منذ ولادته وحتى وفاته ﷺ، ثم عن غزواته ﷺ. وفي الباب الثاني من الجزء نفسه حديث مفصل عن أخلاق وعادات النبي ﷺ، كما ورد حال آله وأولاده وأزواجه أمهات المؤمنين رضي الله عنهن في هذا الباب أيضا.

والجزء الثاني يتعلق بمقام النبوة، وفرض النبوة، وتعليم العقائد، والأوامر والنواهي، وإصلاح الأعمال والأخلاق. وعليه، فقد ذكر تفصيلا أعمال مقام النبوة في هذا الجزء. وفيه أيضاً ذكر لبداية الفروض الخمسة، وتاريخ مفصل للتطور والتغير التدريجي وخيرها وفوائدها وحكمها ومقارنتها وموازنتها بالأديان الأخرى. وفي الجزء ذاته ذكر تفصيلا عن معتقدات العرب وأخلاقهم وعاداتهم قبل الإسلام، وما جاء فيها من إصلاحات أيضاً، والقانون أو الشريعة التي أعدها الإسلام من أجل إصلاح الدنيا، وكيف يكون كافياً للعالم كله في كل مكان وزمان؟

---

(١) أعد هذا الكتاب الآن في سبعة أجزاء، كما تغير ترتيبه كذلك.

وفي الجزء الثالث ذكر عن تاريخ القرآن الكريم ووجوه إعجازه وحقائقه وأسراره.

وفي الجزء الرابع ذكر مفصل عن المعجزات. ففي كتب السيرة القديمة يحدد باب لكل معجزة على حدة، ولكن لابد اليوم من كتابتها كلها بصفة مستقلة، إذ دعت الحاجة إلى بحث حقيقة وأصل المعجزة مع المعجزة نفسها. والمعجزات التي لها تاريخ وسنة معينة مثل "المعراج"، و"تكثير الطعام"، وغيرها، قد كتب عنها في أحداث تلك السنة.

والجزء الخامس يتعلق بمؤلفات الأوروبيين، أي ماذا كتب الأوروبيون عن النبي ﷺ والدين الإسلامي؟ وما هي ثروة معلوماتهم؟ ولمَ يخطئون في الوقائع والأحداث التاريخية؟ وما هي أخطاؤهم في فهمهم لمسائل الإسلام؟ والرد على اعتراضهم فيما يتعلق بأخلاق وعادات النبي ﷺ، أو بتعاليم الإسلام.

ليس من الضروري أن تنشر هذه الأجزاء بنفس الترتيب المذكور، فالجزء الذي تتوفر مادته العلمية سوف ينشر أولاً.

الإسناد والاقتباسات:

إن الإسناد والاقتباس هو الشيء المقدم في التاريخ والرواية؛ لذا لابد من ذكر أمور مهمة تتعلق به:

١. اقتبست فقط من تلك الكتب التي قد اطلعت عليها.

٢. اقتبست الأحاديث الصحيحة فقط، أو الروايات التاريخية الصحيحة فيما يتعلق بالأحداث التي تمثل قدراً من الأهمية، ولكن لم اجتهد جهد المحدثين في تفصيل الجزئيات المتعلقة بالأحداث العامة أو الغزوات.

٣. ذكر اسم مطبعة الكتب المطبوعة المقتبس منها، أما الكتب المخطوطة فقد وردت سابقاً في قائمة مؤلفات السيرة، وذكرت فيها ما اطلعت عليه منها.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

وجه التسمية

هناك آراء مختلفة حول وجه تسمية العــرب. يقــول أهــل اللغــة: إن العــرب والأعراب تعنى الفصاحة وطلاقة اللسان. ولما كان العرب يعتقدون أن العالم كله لاشيء أمام طلاقة لسانهم؛ لذا أطلقوا على أنفسهم مسمى " العرب " وعلى شعوب الدنيا الأخرى مسمى " العجم " (متلعثم اللسان).

ويقول البعض: إن لفظ العرب كان في الأصل " عربة "، إذ ورد لفــظ "عربــة " بدلاً من " العرب " في الأشعار القديمة.

ورجّت رباحــة العربــات رجــا — ترترق فــي مناكبهــا الــدماء
وعربة أرض جد في الشر أهلها — كما جد في شرب النقاح ظماء
وعربة أرض ما يحــل حرامهــا — من الناس إلا اللوزعي الحلاحل

يعنى لفظ "عربة" في اللغات السامية " الصحراء "، ولما كان أكثر بــلاد العــرب صحراء، لذا أطلق على المنطقة كلها مسمى العرب.

جغرافية العرب

للعرب حدود أربعة وهى :ـ

الغرب: بحر القلزم (البحر الأحمر)

الشرق: خليج فارس وبحر عمان

الجنوب: المحيط الهندي

الشمال: مختلف في الحدود الشمالية، فالبعض يرى أن دولة العرب تمتد حــدودها حتــى حلب والفرات.

أما عن شبه جزيرة سيناء والتي تسمى " التّيه "، فيعدها مؤلفو العرب وأوروبا من مصر، ولكنها في وجهة نظر الجيولوجيين تنتمي إلى العرب.

لم تُقَسْ مساحة بلاد العرب بطريقة صحيحة حتى الآن، مما يجعلنا نسلم بأنها تزيد عن مساحة ألمانيا وفرنسا أربعة أضعاف. والطول ألف وخمسمائة ميل تقريباً، والعرض ستمائة ميل، والمساحة الكلية مليون ومائتي ألف ميل مربع.

وأغلب البلاد صحراء، وتنتشر السلاسل الجبلية في البلاد كلهــا، وأطــول هــذه السلاسل جبل " السراة " والذي يمتد من " اليمن " جنوباً وحتى " الشام " شمالا. وأعلى قمة له ترتفع ثمانية آلاف قدم، وفيه أجزاء خصبة وخضراء.

توجد بكثرة مناجم الذهب والفضة. وأخبر العلامة " الهمداني " في "صفة جزيــرة العرب " عن علامة كل منجم. وكانت " قريش " تعمل بالتجارة. وكتــب المؤرخــون أن تجارتهم كانت في أغلبها فضة. وكتب "برتن" كتاباً مستقلا عن مناجم الذهب في "مدين" [1]

مصادر التاريخ القديم

إن مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام كما يلي: ـــ

١. بعض مؤلفات عصر الجاهلية، والتي كانت محفوظة في مكتبة ســلاطين " الحيــرة " والتي حصل عليها " ابن هشام " وذكرها في كتاب " التيجان ".
٢. الروايات الشفهية، والتي توارثتها الأجيال، فقد كانت ذاكرة العرب قوية الحفظ، لدرجة أن أشعار الجاهلية، هذه الثروة الكبيرة، كانت تروي شفاهية حتى الإســلام، وعليــه حُفظت ثروة كبيرة من تاريخ العرب القديم، كما حفظت روايات تاريخية كثيرة عــن أحوال أقوام العرب، التي كانت قد فنيت مثل طلسم، وجديس، وعاد، وثمــود، وعــن طريقها استطاع المؤرخون المسلمون كتابة مؤلفات يعتد بها عن تاريخ العرب القديم. منها على سبيل المثال كتب " هشام الكلبي " الذي كتب كتبا كثيرة عــن "طلســم" و" جديس" و" تبايعة اليمن" وسلاطين العرب الآخرين، والتي أورد "ابن النديم " ذكرهــا في كتاب الفهرست ص٩٦.
٣. أشعار الجاهلية، والتي فيها ذكر كثير من السلاطين والأقوام وعمارات العرب. وتوجد هذه الأشعار بكثرة في " صفة جزيرة العرب" و" ومعجم البلدان ". ومن هذه المصادر القديمة ذاتها أعد العلامة " الهمذاني " كتابه " الكليل"، [2] والذي يشتمل بابــه الثــامن على ذكر خاص لآثار سلاطين " حمير " القديمة والنقوش الحميرية.
٤. المؤلفات الأوروبية القديمة، مثل مؤلفات اليونانيين بداية من " ثيوفراســتس" (الــذي عاش قبل سيدنا عيسى عليه السلام بأربعمائة سنة) وحتى " بطليموس ". فقــد كتبــوا

---

[1] Gold Mine Sof Nedion.

[2] يوجد ذكر مفصل من هذا الكتاب في " طبقات الأمم " (طبعة بيروت)

أسماء لكثير من القبائل العربية، كما ذكروا أسماء مستوطناتهم. وكتب المؤرخ الروماني " پيني " أيضا عن العرب؛ ولكن باختصار.

٥. نقوش المباني القديمة المتهالكة للعرب، والتي اكتشفها المسلمون الأوائل، ووفرها الأوروبيون اليوم بكثرة بالغة.

قبائل وأقوام العرب

قسم المؤرخون العرب القبائل والأقوام العربية إلى ثلاثة أقسام:

١. العرب البائدة: أي أقدم القبائل العربية، والتي فنيت قبل الإسلام بكثير.
٢. العرب العاربة: بنو قحطان، وهم سكان العرب الأصليين بعد العرب البائدة وكان موطنهم اليمن.
٣. العرب المستعربة: بنو إسماعيل؛ أي أولاد سيدنا إسماعيل عليه السلام الذين استوطنوا الحجاز. [1]

وحين ظهر الإسلام كان بنو قحطان وبنو إسماعيل، والذين كان يطلق عليهم قبائل بني عدنان، هم سكان العرب الأصليين، إضافة إلي سكان قليلين جداً من اليهود. وعليه، كانت بلاد العرب فى حقيقة الأمر تتكون فى تلك الفترة من عناصر مختلفة، وكان كل عنصر يقوم على قبائل وفروع لا حصر لها، والذين ينتشرون فى كل قطعة أرض من اليمن وحتى الشام، وكان لهم فروع صغيرة كثيرة. وسيرد ذكر أسمائهم فى هذا الكتاب بكثرة، لذا نكتب عنهم هنا بإيجاز :

بنو قحطان. لهذه القبيلة ثلاثة فروع كبيرة هي:

١. قضاعة.
٢. كهلان.
٣. أزد وحمير، فرع أيضا من هذه القبيلة، والذين حكموا اليمن، ولكن ليس لهم أي تعلق بالأحداث هنا.

---

[1] ومن هنا تزيد حكومات العرب القديمة (سيد سليمان الندوي). ويبدو أن المؤلف نسي أن يضع رقم الحاشية فى النص، و حاولنا وضعه فى مكانه الصحيح إذ ذكر جملة بنفس المعني فى ص٧٩ وهي "أسس بنو قحطان وآل إسماعيل حكومات كثيرة قبل الإسلام والتي توجد أحداث قليلة عنها فى بعض الأماكن"(المترجم).

قبائل قضاعة: ينسب عامة علماء الأنساب قبائل قضاعة إلى بني قحطان، ونحن أيضاً نتبعهم هنا في هذا، وإلا فهم على وجه التحقيق يرجعون إلى بني إسماعيل. وعلى أي حال ففروعهم كما يلي:

١. بنو كلب، وبنو تنوخ، وبنو جرم، وبنو جهينة، وبنو نهد، وبنو عذره، وبنو أسلم، وبلي، وسلح، وضجعم، وتغلب، ونمر، وأسد، وتيم اللات، وكلب.
٢. كهلان بجيلة، وخثعم، وهمدان، وكندة، ومذحج، وطي، ونحم، وجذام، وعاملة.
٣. أزد: وكان الأنصار من هذا الفرع.

الأوس، والخزرج، وخزاعة، وغسان، ودوس.

والقبائل العدنانية المشهورة، والتي من آخر فروعها مضر كما يلي:

قبائل مضر وتنقسم إلي أسرتين؛ بني خندف وبني قيس:

١ ــ خندف:

هذيل، وكنانة، وأسد، وضبة، ومزينة، ورباب، وتيم، وهون.

ولكل واحد منها فروع متعددة.

الأصول	الفروع
كنانة	قريش، دول
هون	قارة
رباب	عدي، تيم، عكل، ثور
تيم	مقاعس، قريع، بهدلة، يربوع، رياح، ثعلبة، كليب

٢ ــ قيس

عدوان، وغطفان، وأعصر، وسليم، وهوازن، وهذه هي فروع بعضها:

الأصول	الفروع
غطفان	عبس، ذبيان، فزارة، مرة
اعصر	غني، باهلة
هوازن	سعد، نصر، حيثم، ثقيف، سلول، بنو عامر(وفروع بنى عامر بنو هلال، وبنو نمير، وبنو كعب)

اليهود: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة

أسس بنو قحطان وآل إسماعيل حكومات كثيرة قبل الإسلام، والتي توجد أحداث قليلة عنها فى بعض الأماكن.

حكومات العرب القديمة:

إن الثابت من النقوش وتصريحات المؤرخين هو أنه قد مضت خمس ممالك متقدمة فى العرب قبل الإسلام:ــ

المملكة المعينية: **معين** اسم مكان فى اليمن، وكانت حاضرة للسلطنة فى أحد العصور.

مملكة سبأ: أي **قوم سبأ**.

مملكة حضر موت: وحضر موت مكان معروف فى اليمن.

المملكة القتبانية: وقتبان اسم مكان في عدن، ولا وجود له اليوم.

مملكة نابت: كان " نابت " ولد من أولاد إسماعيل عليه السلام، وإليه تنتمي هذه السلسلة.

كانت السلطنة المعينية فى جنوب بلاد العرب، وكان من أماكنها الرئيسية " قرن " و"معين ". ويتضح من النقوش أنه كان بها خمسة وعشرون حاكما تقريبا. ويختلف الباحثون الأروبيون فى هل كانت حكومتا " معين " و" سبأ " متزامنتين أم أن إحداهما متقدمة على الأخرى؟ يري " كلازر" أن المملكة المعينية كانت قبل مملكة سبأ بكثير، إذ كانت موجودة قبل السيد المسيح عليه السلام بألف وخمسمائة سنة، ولكن "مولر" يرى أنه لا يوجد أي نقوش معينية قبل المسيح بثمانمائة سنة. وعليه فإن مملكتي " سبأ " و" معين " كانتا فى عصر واحد.

يثبت من النقوش أن مملكة سبأ كانت قبل السيد المسيح عليه السلام بسبعمائة سنة. وكانت "مأرب" عاصمة لها [1] وتوجد نقوش حجرية لهذه الفترة بكثرة. ويبدو أثر هذه المملكة قبل السيد المسيح بمائة وخمسة عشر سنة. ويأتي بعد هذا العهد عصر " حمير " فقد استولى الحميريون على " مأرب " واتخذوها عاصمة لهم.

استولى الحميريون على مملكة سبأ قبل المسيح بـ ١١٥ سنة تقريبا. ويثبت من النقوش أنه كان فى " حمير " ٢٦ حاكما، كما يوجد حفر للسنة أيضًا فى بعض نقوشها. وفي عهدهم كان الروم قد بدءوا يحاولون التدخل فى بلاد العرب؛ ولكن كانت هذه هي

---

[1] كتبها المؤلف مآرب والصحيح هو " مأرب " (المترجم).

المحاولة الأولى والأخيرة. إذ كان (أي ليس كالس) قد هجم على بلاد العرب قبل السيد المسيح بـ ١٨ سنة، ولكنه فشل تماماً، إذ أخذه الدليل ـ بحيلة وخداع ـ إلى الصحراء، فضلّ هو وجيشه فى الصحراء وهلك الجيش كله. [١]

وكان الحميريون قد اعتنقوا الدين اليهودي، وكان الحبشيون فى زمن يقرب تلك الفترة قد شرعوا يؤسسون دولتهم فى جنوب بلاد العرب، ثم هزموا الحميريين وأسسوا دولتهم المستقلة. وهناك نقش لهذا العهد وصلت إليه الأيدي فى عصرنا الحاضر منقوش عليه هذه العبارة.

" باسم الأب والابن والروح القدس، دوّن أبرهة على هذا الحجر التذكاري، فهو نائب حكومة ملك الحبشة " اراحميس ذي".

تتواتر بين العرب روايات عظيمة ونفوذ مملكتي " سبأ " و" حمير" واتساع رقعة فتوحاتهما بقدر لا يمكن معه أن ينكر اشتراكهما فى هذا، كما وردت وقائع كثيرة فى الشعر العربي. وطبقا لوجهة نظر العرب، فإن سلاطين " حمير" كانوا قد فتحوا أماكن بعيدة فى " إيران ". و"ذو القرنين " ـ الذي يطلق عليه العامة الاسكندر ـ هو عند العرب أحد حكام مملكة " حمير "، وورد فى " الشاهنامة " أن الملك " هامادران " قد أسر " كيكاؤس ". وكتب العلامة " الثعلبي " فى (تاريخ إيران) ـ الذي نشر مؤخراً فى أوروبا ـ أن هامادران " كان ملكا حميرياً، وكان هامادران " فى الحقيقة عربيا حميريا. كما كتب العلامة الثعلبي " أيضا أن " سوادية " زوجة " كيكاؤس " كانت ابنة هذا الملك الحميري ذاته، وهي كما يقول الفردوسي، كانت قد وقعت فى عشق " سياؤش"، واسمها الأصلي " سعدي "، وبدله الإيرانيون حسب نطقهم إلى " سواديه ".

وتثبت تحقيقات الأوربيين الحديثة تمدنا وحضارة رفيعة لسبأ وحمير. فيكتب البروفيسور والمستشرق الألماني المشهور " نولدكه":

" إن مُلك " حمير " و" سبأ " فى جنوب وغرب بلاد العرب؛ أي اليمن (والتي بسبب جوها الحار كانت مناسبة تماما للزراعة) كان قد وصل إلي درجة كبيرة من التمدن والرقي تحرك مشاعرنا اليوم لمدح آثار عماراتها العظيمة ونقوشها الكثيرة، وإن لقب (العرب الأثرياء) الذي منحه اليونانيون والروم لها لم يكن خاطئا... وفى التوراة عبارات

---

[١] أُقتبس هذا كله من مقال كتبه "جى دبلوثيا"، نشر عن العرب فى دائرة المعارف، وأيضا من كتاب " تاريخ العرب" لرينا لد نكلسن الأستاذ بجامعة كيمبردج من ص ٤ حتى ص ٦.

كثيرة تشهد على عظمة وشوكة " سبأ"، فقصة لقاء ملكة " سبأ " بـــ سليمان عليه الســـلام تختص بالذكر هنا"

(١- السلاطين ١٠ ــ الفقرة من ١ إلى ١٠) [١]

تعرّفنا على عمارات قوم ثمود بفضل جهود "داوني" و "يونتك"، ومن ثمود أيضا استمد قوم "نابت" ــ الذين كانوا يشبهون قوم "ثمود" فى كثير من الأشياء ــ على الأغلب المبادئ الأولي لحضارتهم.

وإن فن الكتابة الذي استمده قوم "سبأ" من الشمال فى العصور الأولي، نشروه في كل الأعمال فى مناطق كثيرة من بلاد العرب حتى نشروه فى " دمشق من ناحية، ومـــن ناحية أخري حتى أبي سينيا.[٢]

يكتب السيد " فارستر " فى جغرافيته عن المملكة النابتية، والتي كانـــت تتصـــل بحدود الشام، وكانت تحل محل قوم " ثمود " وتشبههم: ــ

" يبدو من المعلومات الموجزة أنه فى العصر القديم لم يكن اسم " نابت " ونفوذها مسيطراً فقط على الصحراء العربية، بل كان يسيطر على أقاليم الحجاز ونجد الكبـــرى، وكان النابتيون يتمتعون بحظ سعيد فى رواج التجارة، كما كانوا مستعدين تماما لمخـــاطر حرب بني إسماعيل. وكان لغارتهم على " فلسطين " و"الشام " وقطع الطريق أكثـــر مـــن مرة على السفن المصرية فى الخليج العربي سببا فى عداء تجار مقدونيا لهم، ولم تستطع

---

[١] المقصود بالسلاطين الملوك، وفقا لما ورد فى الكتاب المقدس، سفر الملوك الأول، الإصحاح العاشر، الفقرات من ١ إلى ١٠. وهذا نصه باللغة العبرية: ומלכת - שבא שמעת את - שמע שלמה לשם יהוה ותבוא לנסתו בחידות: ותבוא ירושלימה בחיל כבד מאד גמלים נשאים בשמים וזהב רב - מאד ואבן יקרה ותבוא אל - שלמה ותדבר אליו את כל - אשר היה עם - לבבה: ויגד - לה שלמה את - כל - דבריה לא - היה דבר נעלם מן - המלך אשר לא הגיד לה: ותרא מלכת - שבא את כל - חכמת שלמה והבית אשר בנה: ומאכל שולחנו ומושב עבדיו ומעמד משרתו ומלבושיהם ומשקיו ועולתו אשר יעלה בית יהוה ולא - היה בה עוד רוח: ותאמר אל - המלך אמת היה הדבר אשר שמעתי בארצי על - דבריך ועל - חכמתך: ולא - האמנתי לדברים עד אשר - באתי ותראינה עיני והנה לא - הוגד - לי החצי הוספת חכמה וטוב אל - השמועה אשר שמעתי: אשר אנשיך אשרי עבדיך אלה העמדים לפניך תמיד השמעים את - חכמתך: יהי יהוה אלוהיך ברוך אשר חפץ בך לתתך על - כסא ישראל באהבת יהוה את - ישראל לעולם וישימך למלך לעשות משפט וצדקה: ותתן למלך מאה ועשרים ככר זהב ובשמים הרבה מאד ואבן יקרה לא - בא כבשם ההוא עוד לרב אשר - נתנה מלכת - שבא למלך שלמה: (المترجم).

ــ مؤرخو تاريخ العالم ــ جـــ ٨ أي Historynis History Of World مقالة تمهيدية للبروفيسور نولدكه ص ٥.

قوة الروم أن تصدهم، ولكنهم فى عهد " استرابو" اضطروا إلى إطاعة الروم جبراً وبأسلوب يشتبه فيه. (١)

وكان هذا هو حال الممالك القديمة، ولقد انتهت كلها قبل الإسلام، واستقرت مكانها قبائل كبيرة فى اليمن والتي يطلق عليها " قيل " و"مقول ". وكانت قد ظهرت قبيلة "آل منذر" فى العراق، والتي كانت تحت سيطرة بلاد فارس. و"خورنق " و" سدير " عمارات العرب المشهورة، تذكار لهذه الفترة، وكانت الأسرة الغسانية تحكم حدود الشام، والتي كانت تابعة لقياصرة الروم، وكان " جبلة بن الأيهم الغساني " آخر حاكم لها.

الحضارة والتمدن:

كان كل جزء من بلاد العرب له وضع مختلف تماماً من الناحية الثقافية والحضارية، وقد أظهر "مانسيو ليبان"(٢) الفرنسي هذا الرأي بناء على أصول العمران والمجتمع؛ وهو أن حضارة العرب قبل الإسلام كانت قد بلغت أوجها في عصر من العصور، إذ أنه طبقاً لأصول التقدم والرقي لا يمكن لأي قوم أن يصلوا إلى درجة عالية من التمدن والثقافة فجأة من حالة الوحشية والبربرية.

هذا استدلال قياسي. ويثبت من التاريخ أيضاً أن بعض مناطق بلاد العرب؛ مثل اليمن، كانت قد وصلت إلى درجة عالية من الرقي في عصر من العصور، وأن باحثي الآثار القديمة الأوروبيين، درسوا الآثار القديمة في اليمن، وقرأوا النقوش القديمة، ويقرون بأن اليمن كان يتمتع بحضارة وثقافة قديمة.

وتحدث ياقوت الحموي في (معجم البلدان) عن الآثار القديمة والعجيبة في الحديث عن " صنعاء " و" قليس "، وبالرغم من المبالغة الواضحة في حديثه إلا أن الحقيقة ليست بقليلة.

وهكذا فإن بلاد العرب التي تتصل بإيران والشام، مثل " الخيرة " حاضرة "آل النعمان " و"حوران" المكان الرئيسي لقبيلة " غسان " لم تكونا خالية من الحضارة والتمدن.

ويزعم المؤرخون العرب أن " اليمن " في فترة ما، كان قد تطور تطوراً مكن سلاطينه من فتح إيران بأسرها، لذا يخبرون بأن سبب تسمية " سمرقند " هو أن أحد ملوك

---

(١) تاريخ جغرافية العرب، يورند فارستر، جـ ١، من ص ٢٢٠ إلى ص ٢٢٨.

(٢) تمدن العرب.

" اليمن " والذي كان يدعى " ثمر " حفر " سمرقند " ودمرها، وعليه أطلق الإيرانيون مسمى " ثمر كند " على هذا المكان المقدس (عندهم) ثم عُرّب وأصبح "سمرقند".

إن القلاع عظيمة الشأن، والآثار المعمارية التي لها وجود حتى الآن، لهي شاهد حي علي وجود حضارة ذو مرتبة عالية في فترة ما في هذه البلاد.

وقد ذكر العلامة " الهمداني " الآثار القديمة كلها في " الإكليل " لذا يكتب في "صفه جزيرة العرب ".[١]

"المشهور من محافل اليمن وقصورها القديمة التي ذكرتها العرب في الشعر والمثل... كثيرة الذي فيها من الشعر باب واسع وقد جمع ذلك كله الكتاب الثامن من الإكليل "

كتب المؤلف بعد ذلك ونحن هنا نحصر أسمائهم فقط، وهي كالتالي:-

غمدان، تُلغم، ناعط، صِرْواح، سلْحين، ظَفَار، مكِر، ضهر، شِبَام، غيْمَان، يَيْنُون، إيَام، بَراقِش، مَعين، رَوْثَان، ارْياب، هنْد، هُنَيْده، عَمْرَان، بُخَيْر.

ومن بينهم ورد ذكر حال "غمدان " و" ناعط " في معجم البلدان تفصيلاً، وذكر المؤلف عن عظمتهما ورفعتهما أمور بسببها تصبح المبالغة الآسيوية خداع. كتب عن "سلحين " بأنها عمرت في سبعين سنة، وكتب عن حال شبام:

"لهم فيها حصون عجيبة هائلة "

واستمر وجود قلعة " ناعط " حتى عهد "وهب بن منبه "، وقرأ المحدث المذكور نقشاً من نقوشها، فاتضح أنها عمرت ألف وستمائة سنة. ذهب الباحثون الأوروبيون في الوقت الحاضر إلي هذه الأماكن، وأجروا بحوثاً تشهد على حضارة وتمدن عجيب. يكتب السيد "ثياتشر" في مقالته:[٢]

" إن الرقي والتمدن الذي كان يوجد في بلاد العرب قبل السيد المسيح بقرون، يوجد منه حتى الآن آثار للقلاع والمدن، وتحدث عنه رحالة كثيرون... وتوجد هذه الآثار بكثرة في " اليمن " و"حضرموت"، وعلى أغلبها توجد نقوش حتى اليوم. كانت هناك قلعة بالقرب من " صنعاء "؛ والتي تحدث عنها "القزويني" في كتاب " آثار البلاد " وعدها من عجائب الدنيا السبع (وعن القلاع الأخرى أنظر الجمعية الشرقية الألمانية العامة، المجلد،

---

[١] ج، ١ ص ٢٠٣. (سيد سليمان الندوي).

[٢] انظر مقالة عن العرب في دائرة المعارف.

١٠ صـــ ٢٠ وما بعدها) شاهد " ارنوهاليوي " و"كلاذر " الآثار القديمـة فـي مـأرب " حاضرة مملكة " سبأ " القديمة.

وهناك آثار باقية حتى الآن لخندق كبير من بين الآثار المشهورة فـي "مـأرب"، وبمشاهدته يُتذكر حوض " عدن " المجدد، وظهرت أهميته حين نشـر " كـلاذر " تلـك النقوش والتي فيها ذكر لتجديده ثانية في القرنين الخامس والسادس الميلادي. وهناك خندق آخر في " اليمن " في منطقة " حران "، والذي يبلغ طوله أربعمائة وخمسين قدماً تقريباً.

ولم تكن بلاد العرب الأصلية والداخلية تنعم بهذه الحضارة والتمدن. وبالرغم من أن اللغة العربية تتسم بسعتها المتناهية؛ إلا أنه لا يوجد ألفاظ في اللغة العربيـة خاصـة بالأشياء التي تتعلق بالتمدن والحياة الاجتماعية، بل استمدت هذه الألفاظ من " إيران " أو " الروم "، فلم يكن للعملة أي لفظ، والدرهم والدينار كلاهما من لغة أخرى والـدرهم هـو اللفظ اليوناني " درخم " وهذا هو اللفظ الذي أصبح في اللغة الإنجليزية " Dram: درام " ولفظ " چراغ: المصباح " شئ بسيط وعادي، غير أنه لا يوجد أي لفظ في اللغة العربيـة يؤدي معناه، فأخذ العرب "چراغ " وجعلوه "سراج"، ثم اصطنعوا له لفظاً وهو المصـباح يعني الشيء الذي يصنع منه الصبح. وليس " للكوزه " أي لفظ , لذا أخذوا "الكـوز" مـن الكوزه. وعربوا آب ريز: مصب الماء إلى إبريق، وجعلوا " تشت" اللفظ الفارسـي فـي العربية " طست "، وأطلقوا على " پياله " " قدح" لفظ " الكـأس " وهـو "كاسـه" اللفـظ الفارسي، وأطلقوا على لفظ " كرته " مسمى " قرطق " في اللغة العربيـة وهـو فارسـي أيضاً، وأطلقوا مسمى " سروال " على " پائجامه " وهو في الأصل تبديل للفظ " شلوار".

حين لم يكن هناك ألفاظ لمثل هذه الأشياء الصغيرة فمن أين أتت ألفاظ (مسميات) لأدوات ولآلات التمدن الكبرى؟ يتضح من هذا الرقي الذي وصل إليه العرب في عصـر من العصور، كان بتأثير حضارة وتمدن البلدان المجاورة، لذا فالأماكن التي كانت تبعـد عن هذه البلدان ظلت على حالها الأصلي.

يثبت من الأحاديث الصحيحة أنه حتى عصر النبي ﷺ كانت وسائل المتعة قليلـة جداً، فقد ورد في صحيح البخاري وغيره (من الصحاح) في شأن مسألة الحجاب، أنه لـم تكن هناك بيوت الخلاء حتى تلك الفترة في المنازل، وكانت النساء يخرجن (في العـراء) لقضاء الحاجة. وورد في " صحيح الترمذي" في باب الفقر، أنه لم تكن هناك حتى تلـك

الفترة مناخل، فكانوا ينفخون في النخالة [1] ويطيرونها وما يتبقى فهو الدقيق. ويثبت من حديث ورد في صحيح البخاري، أنه لم تكن تضاء المصابيح في المنازل ليلاً. وردت رواية عن أحد الصحابة - رضوان الله عليهم- في أبي داود: «صَحِبْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم فَلَمْ أَسْمَعْ لِحَشَرَاتِ الأَرْضِ تَحْرِيماً»[2] وبالرغم من أن المحدثين يكتبون في شرح هذا الحديث: أنه ليس من الضروري أن عدم سماع راوٍ واحد بأن الرسولﷺ في الواقع لم يحرم أكل حشرات الأرض، إلا أنه يتضح من هذا أن العرب كانوا يأكلون حشرات الأرض قبل الإسلام. ويوجد تصريح في التاريخ والأدب بأن العرب كانوا يأكلون أم أربعة وأربعين والحرباء وجلد الحيوانات.

أديان العرب

كانت هناك أديان مختلفة في العرب قبل الإسلام، فكان البعض يعتقد أن المخلوقات تتبع قانون الفطرة، وليس هناك أي إله. وجاء في القرآن الكريم على لسان هؤلاء:

"وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر" (الجاثية:٢٤)

وكان البعض الثاني يعترف بالإله، ولكنه ينكر البعث والعقاب والثواب. وفي هذا قال الله تعالى في القرآن الكريم لإثبات يوم القيامة:(**قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**) (يس:٧٩)

والبعض الثالث كان يعترف بالإله والثواب والعقاب، ولكنه ينكر النبوة. وورد ذكر مثل هؤلاء الناس في هذه الآية الكريمة:

"**وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً**"(الفرقان:٧)

" **قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً** ") (الإسراء: ٩٤)

---

(١) الردة.

(٢) أبو داود، المجلد الثاني صـــــ١٧٦، باب في أكل حشرات الأرض. وهذا نص الحديث: [٣٧٩٨] حدثنا مُوسَى بنُ إِسْمَاعِيلَ قالَ أخبرنا غَالِبُ بنُ حَجْرَةَ قالَ حدَّثني مِلْقَامُ بنُ تَلِبَ عنْ أبيه، قال: «صَحِبْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم فَلَمْ أَسْمَعْ لِحَشَرَاتِ الأَرْضِ تَحْرِيماً». (المترجم).

إذ كانوا يرون أنه لو لم يكن هناك أي نبي فيجب أن يكون ملَكاً منزه عن الصفات البشرية. وكان الناس عموماً يعبدون الأصنام، ولم يكونوا يعتقدون في أنّ الأصنام آلهـه؛ بل كانوا يقولون أنها وسيلة تقربنا إلى الله.(١)

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)(الزمر: من الآية٣)

كانت قبيلة " حمير " - والتي كانت تسكن اليمن - تعبد " الشـمس "، وكانـت " كنانة " تعبد " القمر "، وكانت قبيلة " بني تميم " تعبد نجم " أوبران "، وهكذا كانت قبيلة " قيس " تعبد " الشعرى " وقبيلة " أسد " تعبد " عطارد " وقبيلتا " لخم " و" جـذام " كانتـا تعبدان " المشترى ".

وهذه قائمة بأسماء أشهر الأصنام وعبادها:

اسم الصنم	المكان	القبيلة التي كانت تعبده
اللات	الطائف	ثقيف
العُزى	مكة المكرمة	قريش وكنانة
مناة	المدينة المنورة	الاوس والخزرج وغسان
ود	دومة الجندل	كلب
سواع		هذيل
يعوث		مذجج وقبائل اليمن
يعوق		همدان

وكان " هبل " أكبر الأصنام، والذي كان منصوباً على سقف الكعبة وكانت قريش تستنجد به في الحروب.

كان "عمرو بن لحي " هو مؤسس عبادة الأصنام في بلاد العرب، واسمه الأصلي هو " ربيعة بن حارثة "، وكان ينتمي إلى " خزاعة " قبيلة العرب المشهورة. وكانت قبيلة " جرهم " تقوم علي شئون الكعبة قبل " عمرو "، وتحارب "عمرو" مع "جرهم" وأخرجها من مكة، وأصبح هو متولي شئون الحرم. وذهب ذات مرة إلى إحدى مدن الشـام، ورأى الناس هناك يعبدون الأصنام، فسألهم لم تعبدونها ؟ أجابوا لأنها تقضي الحاجة، وتنصـر في الحروب، وتمطر المطر حين ينزل القحط. فأخذ "عمـرو" بعـض الأصـنام مـنهم وأصطحبها معه، ونصبها حول الكعبة. ولما كانت الكعبة مركز العرب، لذا انتشرت عبادة

(١) ورد كل هذا التفصيل في " الملل والنحل " للشهرستاني في ذكر أديان العرب.

الأصنام بين القبائل جميعاً. وكان " مناة " أقدم هذه الأصنام، وكان منصوباً بالقرب من " قديد " على شاطئ البحر. وكانت الاوس والخزرج؛ أي سكان المدينة المنـــورة يقـــدمون القرابين، ومن عنده كانوا يُحرمون في حجهم إلى الكعبة. وكانت قبيلتا " هزيل " و"خزاعة " تعبدانه أيضاً. [1]

كتب "ياقوت الحموي" في معجم البلدان (في الحديث عن مكة): كان السبب فـــي إشاعة عبادة الأصنام في بلاد العرب، هو أن قبائل العرب حين كانت تأتي إلى الحج من كل صوب وحدب، كانوا يحملون في عودتهم بعض أحجار من الحرم، وينحتونها علـــى شكل أصنام مكة ويعبدونها.

الاعتقاد في وجود الله

بالرغم من أن العرب بأسْرهم كانوا عبدة أصنام، إلا أن هذا الاعتقاد ما خرج أبداً من قلبهم، وهو أن الإله الحقيقي شيء أفضل وأعلى من هذا، وهو خالق العـــالم بأسْـــره وكانوا يطلقون على الخالق الأكبر " الله ". يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُــولُنَّ اللَّـــهُ فَـــأَنَّى يُؤْفَكُونَ) (العنكبوت:٦١)

(فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) (العنكبوت:٦٥)

إن الحقيقة التي وضحها القرآن الكريم قبل ألف وثلاثمائة سنة، تُصدق عليها اليوم أبحاث وتحقيقات الآثار القديمة. أيضاً قول المستشرق المشهور " نولدكه" والذي ورد في دائرة معارف الأديان والأخلاق،[2] يصدق علي ذلك هذا اقتباس منه:-

" إن "الله" المكتوب "هلَه " في نقوش " صفا " كان جزء من أسم النباتيين وســـكان *العرب الشماليين القدماء مثل " زيد اللهي "... ولا يوجد اسم الله في النقوش النباتية علـــى* أنه معبود واحد، ولكنه يوجد في نقوش " صفا ". وكان اســـم " الله " رائـــج جـــداً بـــين المشركين المتأخرين، نقل " فلهاوزن " عبادات كثيرة في أدب العـــرب القـــدماء والتـــي أستخدم فيها لفظ " الله " على أنه المعبود الأعظم. ونجد اسم أحد الآلهة مراراً مقترناً بلقب الله في نقوش النباتيين. ومن هذا أخرج " فلهاوزن " هذه النتيجة؛ وهي أن لقب الله الـــذي

---

[1] تفصيل هذا كله في معجم البلدان في الحديث عن مناة.

[2] المجلد ١، صـــ ٦٦٤.

كان يستخدم في البداية لمختلف الآلهة، أصبح بالتدريج فيما بعد يستخدم كعلم لمعبود عظيم واحد فقط.

النصرانية واليهودية والمجوسية

بالرغم من صعوبة تعين الفترة والعصر، إلا أن هذه المذاهب الثلاثة كانت قد راجت بين العرب من مدة طويلة. وقد كتب العلامة " أبن قتيبة " في المعارف أن قبائل ربيعة وغسان كانت نصرانية. ويوجد أثر لهذا الدين في قضاعة. وكانت النصرانية قد وصلت إلى هذا القدر من الرقي، حتى يوجد أناس في مكة المكرمة نفسها كـ (ورقة بن نوفل) يستطيع قراءة الإنجيل باللغة العبرية. وكان هناك أناس قد ذهبوا إلى الشام ودرسوا بها.

وكانت قبائل حمير، وبنو كنانة، وبنو حرث بن كعب، وكنده يهودية، وكان لليهود الغلبة الساحقة في المدينة المنورة، وكانت بها حلقات درس مختلفة لتدريس التوراة. وكان يطلق على هذه الحلقات مسمى بيت المدراس[1]. ويأتي ذكرها بهذا الاسم في كتب الحديث. وكان كل سكان قلعة خيبر يهود، وكان "سمويل بن عاد"، الشاعر المشهور والمعاصر لامرئ القيس، والذي يُضرب المثل بوفائه حتى اليوم في بلاد العرب يهودياً.

وكانت قد راجت روايات أهل الكتاب في مكة المكرمة بقدر كبير، لدرجة أنه حين كان ينزل القرآن الكريم على الرسول ﷺ ويُذكر فيه وقائع بني إسرائيل، يسيئ الكفار الظن، ويقولون يعلمك أحد اليهود أو النصارى. وقد جاء في القرآن الكريم نفسه:

" **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ** " (النحل: ١٠٣)

وقد أُبطل هذا الاعتقاد أيضاً في القرآن الكريم، والذي سيأتي تفصيله في الوقت المناسب.

كانت قبيلة تميم مجوسية، وعليه كان " زراره التميمي " ــ والذي كان رئيساً لهذه القبيلة ــ قد تزوج بابنته بالرغم من أنه قد ندم على هذا. وكان الأقرع بن حابس مجوسياً أيضاً.[2]

---

[1] يطلق عليه بالعبرية بيت هامدراش، يطلق على العالم الذي يدرس في هذا البيت.

[2] معارف ابن قتيبة.

الدين الحنيفي

إن أصل أصول الدين الإبراهيمي كان هو التوحيد الخالص، وبالرغم من أن هذا الأصل كان قد تلوث بالشرك بسبب مرور الزمن وامتداده، وشيوع الجهل حتى كانت تعبد الأصنام في بيت الله نفسه، إلا أن هذا الأصل لم يفنَ تماماً، إذ كانت توجد آثاره في أماكن مختلفة من بلاد العرب. فمن كان ذو بصيرة من الناس كان ينفر من انحناء العاقل أمـام الجماد الذي لا يعقل. لذا ورد اعتقاد سوء عبادة الأصنام في قلب الكثيرين. ولكن تـاريخ هذا يبدأ فقط بفترة وجيزة قبل بعثة النبي ﷺ.[1] كتب ابن إسحاق ذات مرة: كان ورقة بن نوفل وعبد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل في احتفال سنوي لأحد الأصنام، وفجأة جاء هذا الاعتقاد في قلوبهم: ما هذا الجهل؟ ننحني أمـام حجـر لا يسمع ولا يبصر، ولا يستطيع أن يضر بأحد ولا أن ينفع آخر. وكان أربعتهم من قبيلـة قريش؛ فكان ورقة ابن عم السيدة خديجة رضي الله عنها، وكان زيد عم عمر رضي الله عنه، وكان عبد الله بـن جحش ابن أخت حمزة رضي الله عنه، وعثمان حفيد عبد العزى.

ذهب زيد إلى الشام للبحث عن الدين الإبراهيمي، وهنـاك التقـى بقساوسة المسيحيين وحاخامات اليهود، ولكنه لم يجد ضالته عند أي أحد، لذا اكتفي بهذا الاعتقـاد الإجمالي وهو " أؤمن بدين إبراهيم ". وردت في صحيح البخاري (باب قبل بناء الكعبة) رواية عن السيدة أسماء رضي الله عنها(بنت أبي بكر الصديق): رأيت زيداً في هذه الحالة يقول للناس متكئاً على الكعبة يا أهل قريش ! لا يوجد أي شخص من بينكم على دين إبراهيم غيري.

كان العرب يدفنون البنات أحياء، وكان زيد هو أول شخص خالف هذه العـادة، وحين كان يقدم أي أحد على مثل هذا، كان زيد يذهب إليه ويطلب هذه الفتاة ويقوم هـو بتربيتها.

ورد في صحيح البخاري أن النبي ﷺ كان قد شاهد زيدًا قبل البعثة وصحبه، وأن ورقة وعبد الله بن جحش وعثمان قد تركوا عبادة الأصنام واعتنقوا المسيحية.

وقريب من هذه الفترة خالف " أمية بن أبي الصلت "- والذي كان رئيسًا للطائف وشاعراً مشهوراً – عبادة الأصنام. كتب الحافظ بن حجر بسند "زبير بن بكار " في كتاب " الإصابة " أن أمية كان قد قرأ الكتب السماوية في الجاهلية، وتـرك عبـادة الأصـنام، وأعتنق الدين الإبراهيمي.

---

[1] سيرة ابن هشام، طبعة مصر، ص ٧٦.

وديوان أمية موجود اليوم، وبالرغم من أن أكثره مزيف، إلا أن الشعر الأصلي يوجد فيه أيضاً، وعاش حتى غزوة بدر. وكان عتبة - الذي كان رئيساً لمكة وجد الأمير معاوية لأمه - ابن خال أمية. وحين سمع أمية خبر قتله صدم صدمة عنيفة، وكتب رثاء مفعم بالأحزان، وربما لم يقبل الإسلام بسبب هذا.

ورد في الشمائل أنه ذات مرة، كان هناك صاحبي في صحبة النبي ﷺ، قرأ بيتاً من الشعر لأمية، فقال النبي ﷺ "صدق" حتى قرأ مئة بيتا، وكان الرسول ﷺ يقول عقب كل بيت "صدق" وفي النهاية قال الرسول ﷺ " صدق".[1]

كتب "ابن هشام " أسماء هؤلاء الأربعة في من خالفوا عبادة الأصنام، ولكن يثبت من الحقائق التاريخية الأخرى، أنه كان قد ظهر في العرب عديد من أصحاب النظر والبصيرة، والذين تركوا عبادة الأصنام، وأشهرهم خطيب العرب قس بن ساعدة الأيادي المشهور، وسيأتي ذكره فيما بعد. وكان هناك شخص يدعى قس بن نشبه والذي كتب عنه الحافظ " بن حجر " في " الإصابة "، أنه كان عبد الله في الجاهلية، وشرف بالإسلام بعد بعثة النبي ﷺ.

وهذا ليس تحقيق وبحث في لماذا يطلق على الدين الإبراهيمي الدين الحنيفي؟ وهذا اللفظ موجود في القرآن الكريم وهناك اختلاف في معناه. يكتب المفسرون أن هذا الدين الفطري قد أنحرف عن عبادة الأصنام، لذا يطلق عليه الحنيفي لأن معنى حنف "الانحراف". ويعني لقب حنيف في اللغة العبرية والسريانية[2] المنافق والكافر، ومن الممكن أن يكون عبدة الأصنام قد أطلقوا عليه هذا اللقب وقبله الموحدون فخراً.

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في سنن الدارمي: (٢٧٠٢) ـ أخبرنا محمدُ بنُ عيسى، ثَنَا عبدةُ بنُ سليمانَ، عنْ محمدِ بنِ إسحاقَ، عنْ يعقوبَ بنِ عتبةَ عنْ عكرمةَ، عنْ ابنِ عباسٍ، قالَ: صدَّقَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أميةَ بنَ أبي الصلتِ في بيتينِ منْ شعرِهِ فقالَ:

[شع] زحلٌ وثورٌ تحتَ رجلِ يمينِهِ والنسرُ للأخرَى وليثٌ مرصَدُ[/شع]

فقالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «صَدَقَ» فقالَ:

[شع] والشمسُ تطلعُ كلَّ آخرِ ليلةٍ حمراءُ يصبحُ لونُها يتورَّدُ[/شع]

فقالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «صَدَقَ» فقالَ قائلٌ:

[شع] تأبَى فما تطلعُ لَنَا في رِسْلِهَا إلاَّ معذبةً وإلاَّ تُجْلَدُ[/شع]

فقالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «صَدَقَ». (المترجم).

[2] هذا تصريح مارجوليوث.

ثبت بروايات كثيرة أن في العرب وخاصة مكة والمدينة أشخاص عدة، كانوا قد أنكروا عبادة الأصنام، وكانوا يبحثون عن الملة الإبراهيمية، وهذا لأنه قد أقترب وقت ظهور مجدد الملة الإبراهيمية.

وبناء على هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يبحثون عن الحقيقة والطريقة، يقول المؤلفون الأوروبيون: إن رواج الدين الصحيح والتوحيد الخالص كان موجوداً في العرب قبل الإسلام أيضاً، ولو أن هذا صحيح، فهناك أمر يثير الحيرة والدهشة، وهو: لمَ حدثت هذه الضجة الكبيرة حين ظهر الإسلام ؟

هل أصلحت هذه الأديان شيئاً في العرب ؟

كما ذُكر سابقاً أن الأديان المعروفة كلها كانت رائجة في بلاد العرب، اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، والحنيفية، والإلحاد أيضاً، ولكن، ما هي النتيجة التي ترتبت عن هذه الأديان كلها؟ من الناحية العقائدية، حدت النصرانية من كثرة الآلهة، ولكن لم يقل عددها عن ثلاثة، هذا فضلاً عن الاعتقاد في " عيسى " عليه السلام قد صلب نفسه، وأصبح كفارة لذنوب بني آدم كلهم كما كان هناك توحيد ولكن كان فيه الإله يتصارع مع البشر.[1]

كانت تقدم قرابين بشرية للأصنام، كما كان يرث الابن زوجة أبيه، كما كان يجوز زواج الأختين الشقيقتين معاً، ولم يكن هناك أي حد لتعدد الزوجات، وكان لعب القمار وشرب الخمر والزنا رائجاً بين الناس، ووصل عدم الحياء إلى حد كبير جعل الشاعر

---

[1] التوراة، سفر التكوين، إصحاح ٣٢، الفقرة من٢٢ إلى ٣٢. ففي هذه الصفحات ذكر مفصل عن واقعة حرب يعقوب عليه السلام مع الإله. وهذا النص كما ورد في اللغة العبرية: ויקם בלילה הוא ויקח את – שתי נשיו ואת – שתי שפחתיו ואת – אחד עשר ילדיו ויעבר את מעבר יבוק: ויקחם ויעברם את – הנחל ויעבר את – אשר – לו: ויותר יעקב לבדו ויאבק איש עמו עד עלות השחר: וירא כי לא יכול לו ויגע בכף – ירכו ותקע כף – ירך יעקב בהאבקו עמו: ויאמר שלחני כי עלה השחר ויאמר לא אשלחך כי אם ברכתני: ויאמר אליו מה – שמך ויאמר יעקב: ויאמר לא יעקב יאמר עוד שמך כי אם – ישראל כי שרית עם – אלוהים ועם – אנשים ותוכל: וישאל יעקב ויאמר הגידה – נא שמך ויאמר למה זה תשאל לשמי ויברך אותו שם: ויקרא יעקב שם המקום פניאל כי – ראיתי אלוהים פנים אל – פנים ותנצל נפשי: ויזרח – לו השמש כאשר עבר את – פנואל והוא צולע על – ירכו: על – כן לא – יאכלו בני – ישראל את – גיד הנשה אשר על – כף הירך עד היום הזה כי נגע בכף – ירך יעקב בגיד הנשה: (المترجم).

المشهور امرؤ القيس – والذي كان أميراً أيضاً – يوضح في قصيدته قصة إثمه بمتعة مع ابنة عمته، وكانت تعلق هذه القصيدة على الكعبة.

كان من الجائز استباحة حرق الناس أحياء في الحروب، وشق بطـون النسـاء، ورفع الأطفال الأبرياء على أسنة السيوف. وطبقاً لقول المسيحيين أن العرب قبل الإسلام تأثروا بالمسيحية أكثر من أي دين آخر، ولكن ما الذي ترتب على هذا ؟ نرى أنه يجـب الاستماع إلي الإجابة على لسان مؤرخي المسيحيين أنفسهم، إذ يكتب مؤرخ مسـيحي: " حث المسيحيون العرب على تعليم الدين المسيحي لخمسمائة سنة، ومن ثم كـان يوجـد مسيحيون قليلون، أي كان هناك مسيحيون في بني حارث "نجران" وبني حنيف " يمامة " وبعض من بني طي... والخلاصة هي أنك حين تنظر إلى العرب من حيث الديانة، يبدو لك أنه كانت هناك محاولات قليلة للمسيحيين في هذا الأمر، ولكن قوة اليهود كانت تطغي بشدة أحياناً. ولكن عبادة الأصنام ونهر معتقدات بني إسماعيل الواهية كان يصطدم بالكعبة من كل جانب".(١)

ولم يكن هذا الوضع يسود عند العرب وحدهم؛ بل كان هذا الظلام يسدل سـتارة على الدنيا بأسرها (وسوف نتحدث عنه تفصيلاً في الجزء الثاني من الكتاب). ألـم تكـن هناك حاجة إلى شمس (مشرقة) في هذا الظلام الشامل، وهذه الظلمة والسـواد الحالـك العالمي ؟

---

(١) ميور، Life Of Mohamed، مقدمة المجلد الأول.

أولاد إسماعيل

ذكرنا سابقاً أن مؤرخي العرب قد قسموا العرب إلى ثلاثة أقسام:-

١- أقوام العرب القديمة؛ والتي فنيت تماماً مثل طسم وجديس وغيرهما.

٢- العرب الأصليين (الخُلّص)؛ وهم أولاد قحطان مثل أهل اليمن والأنصار.

٣- أولاد إسماعيل.

حين استوطن إسماعيل عليه السلام مكة المكرمة، كان بنو جرهم يعيشون بجوار مكة، وتزوج إسماعيل عليه السلام من هذه القبيلة، وأطلق على أولاده العرب المستعربة. والجزء الأكبر من العرب الآن يرجع إلى هذه الأسرة ذاتها.

ينتمي نبي الإسلام وتاريخ الإسلام نفسه إلى هذا القسم الثالث، فالرسول ﷺ من أسرة إسماعيل نفسه، كما أن الشريعة التي كلف بها الرسول ﷺ؛ هي تلك الشريعة التي أعطيت إبراهيم عليه السلام. يقول الله تعالى في محكم التنزيل:

(**مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ**[١] **سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**). (الحج: من الآية ٧٨)

ولكن ينكر أكثر مؤرخي أوروبا المتعصبين هذه الحقائق كلها، إذ يرون أنه لم يأت إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى شبه جزيرة العرب، ولم يرفعا قواعد الكعبة، وأن محمد ﷺ ليس من أولاد إسماعيل.

اختارت هذه الأبحاث شكل التعصب الديني، لذا يكون من الصعب توقع أن ننهي هذا البحث بوضع أساس الاستدلال على مسلمات أوروبا.

هناك وقائع وأحداث كثيرة يختلف فيها، ولكن هناك أمران أساسيان فقط، واللذان لا يبدو فيهما أي قدر من الاتفاق بين كلا الفريقين. وأن الأصل الذي يوافقه فريق، لابد أن يكون هناك تسليم واعتراف بجزئياته الفرعية أيضاً بما يوافقه. والأمران الأساسيان هما:

---

[١] **يقول بعض المفسرين أن المقصود هنا هو إبراهيم عليه السلام، ويقول البعض الآخر أن المراد بالضمير هذا هو الله، وهذا هو الصحيح كما يتضح من الآيات.**

١- هل استوطنت السيدة هاجر وإسماعيل عليه السلام في شبه الجزيرة العربية أم لا؟

٢- هل أراد إبراهيم عليه السلام ذبح إسحاق عليه السلام أم إسماعيل عليه السلام؟

أين استوطن إسماعيل عليه السلام ؟

يدعي اليهود أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام، وعليه يقولون بأن مكان الفداء (الذبح) هو الشام، ولكن لو ثبت هذا الإدعاء؛ وهو أن الذبيح لم يكن إسحاق عليه السلام، بل كان إسماعيل عليه السلام فلابد من التسليم والاعتراف بروايات العرب أنفسهم عند مكان الفداء (الذبح)، وفي هذه الحالة تتصل كل حلقات التاريخ.

ذكر في التوراة أن أول أولاد إبراهيم عليه السلام كان من السيدة هاجر، والذي سمي بإسماعيل عليه السلام. وبعد إسماعيل عليه السلام ولد إسحاق عليه السلام من السيدة سارة. وحين كبر إسماعيل عليه السلام، رأت السيدة سارة أنه يسيئ إلى إسحاق عليه السلام، فقالت لإبراهيم: أخرج هاجر وابنها من البيت.

وهذه رواية التوراة بعد هذه الواقعة:

" فاستيقظ إبراهيم عليه السلام في الصباح مبكراً، وأخذ خبزاً وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعاً إياهما علي كتفها والولد وصرفها، فغادرت وتاهت في صحراء بئر سبع، وحين فرغ الماء من القربة، ألقت بهذا الولد تحت شجرة شائكة، وجلست أمامه بعيداً، إذ قالت يجب ألا أرى موت الولد، لذا جلست أمامه وبكت صارخة، فسمع الله هذا الولد. ونادى ملك الله من السماء هاجر، وقال لها يا هاجر! ما الذي أصابك، لا تخافي، فلقد سمع الله صوت هذا الولد في مكانه، انهضي واحملي الولد وشدي يدك به لأني سأجعله شعباً كبيراً. ثم فتح الله عيناها فرأت بئر ماء وذهبت وملأت سقاءها من الماء، وسقت الولد. وكان الله مع هذا الولد فكبر وعاش في الصحراء وأصبح رامي قوس، وعاش في صحراء فاران، وزوجته أمه بامرأة من مصر " (التوراة، سفر التكوين، إصحاح ٢١، فقرات ١٤: ٢١).

يتضح من هذه الفقرة أنه حين أُخرج إسماعيل عليه السلام من البيت كان طفلاً؛ لذا حملته السيدة هاجر على كتفها هو وسقاء. وهذه الرواية واضحة في التوراة العربية: " **واضعا إياها[١] على كتفها والولد** "

---

[١] وردت في التوراة "إياهما" أي الولد والقربة (المترجم). وهذا نصه باللغة العبرية:

וישכם אברהם בבקר ויקח - לחם וחמת מים ויתן אל - הגר שם על - שכמה ואת - הילד וישלחה ותלך ותתע במדבר באר שבע: ויכלו המים מן - החמת ותשלך את - הילד תחת אחד

ولكن ورد هذا أيضاً في التوراة؛ وهو أنه حين ولد إسماعيل عليه السلام كان إبراهيم عليه السلام يبلغ من العمر ٨٦ سنة. وحين ختن إبراهيمُ عليه السلام إسماعيلَ عليه السلام، كان عمر إسماعيل عليه السلام ١٣ سنة، وعمر إبراهيم عليه السلام ٩٩ سنة[١].

وهذا يبين أن واقعة إخراج إسماعيل عليه السلام من البيت كانت بعد الختان، لذا كان عمر إسماعيل عليه السلام يزيد عن ١٣ سنة قطعاً في هذا الوقت، وولد في هذا السن لا يكون صغيراً لدرجة أن تحمله الأم على الكتف وتتجول، والغرض من هذه الواقعة، هو أن عمر إسماعيل عليه السلام كان قد بلغ مبلغاً في هذا الوقت، لدرجة أن إبراهيم عليه السلام كان يستطيع أخذه وأمه من الموطن الأصلي وإسكانهم في مكان أخر.

وفي عبارة التوراة المذكورة تصريح بأن إسماعيل عليه السلام عاش في " فاران"، وكان يمارس الرماية. يقول المسيحيون إن "فاران" اسم لتلك الصحراء التي تقع في جنوب فلسطين، ومن ثم فإن مجيء إسماعيل عليه السلام في شبه الجزيرة خلاف للواقع.

يتفق جغرافيو العرب عموماً على أن فاران اسم لجبل الحجاز، لذا ورد تصريح واضح في "معجم البلدان". ولكن مؤلفي المسيحيين لا يتفقون معه، وتفصيله مبني على بحث طويل جداً، والذي يصل إلى حد المناقشة والمناظرة. لذا فنحن نغض الطرف عنه (هنا). ولا بد القول بأن حد العرب الشمالي كان واسعاً إلى حد ما في عصر من العصور.

يكتب مسيوليبان في تمدن العرب:

" إن الحد الشمالي لهذه الجزيرة ليس واضحاً أو سهلاً، أي يمتد هذا الحد من غزة – المدينة الفلسطينية الواقعة على البحر المتوسط – وحتى خط جنوب بحر لوط، ومن هناك

השיחם: ותלך ותשב לה מנגד הרחק כמטחוי קשת כי אמרה אל – אראה במות הילד ותשב מנגד ותשא את – קולה ותבך: וישמע אלוהים את – קול הנער ויקרא מלאך אלוהים אל – הגר מן – השמים ויאמר לה מה – לך הגר אל – תיראי כי – שמע אלוהים אל – קול הנער באשר הוא – שם: קומי שאי את – הנער והחזיקי את – ידך בו כי – לגוי גדול אשימנו: ויפקח אלוהים את – עיניה ותרא באר מים ותלך ותמלא את – החמת מים ותשק את – הנער: ויהי אלוהים את – הנער ויגדל וישב במדבר ויהי רובה קשת: וישב במדבר פארן ותקח – לו אמו אשה מארץ מצרים:(المترجم).

[١] التوراة، سفر التكوين، إصحاح ١٧، فقرات ٢٤–٢٥. وهذا نصه باللغة العبرية:
ואברהם בן – תשעים ותשע שנה בהמולו בשר ערלתו: וישמעאל בנו בן – שלש עשרה שנה בהמולו את בשר ערלתו: (المترجم).

حتى دمشق، ومن دمشق حتى نهر الفرات، ومن الفرات حتى خليج فارس. ويمكن أن نطلق على هذا الخط، الحد الشمالي لبلاد العرب "

وعليه فإن عدَّ المنطقة الحجازية لبلاد العرب من فاران ليس خلافاً للقياس. وردت هذه العبارة في التوراة[1] فيما يتعلق بمكان إقامة إسماعيل ﷺ :

" وسكنوا من "حويلة" حتى "شور" – التي تقع أمام مصر – في ذلك الطريق المؤدي إلى أشور ".

ومن هذا التحديد يمكن أن تكون الأرض الواقعة أمام مصر جزء من بلاد العرب. يرد ذكر بني إسماعيل في كتب النصارى المقدسة ضمنيا فقط، وهذا هو السبب في عدم وجود تصريح عن استيطان إسماعيل ﷺ في شبه الجزيرة العربية. ولكن يفهم من التلميحات المختلفة أن إقامة السيدة هاجر في شبه الجزيرة العربية كان أمراً مسلماً به، وفي العهد الجديد ــ والذي يعتبره المسيحيون وحي إلهي ــ رسالة بولس الرسول إلي أهل غلاطية وردت هذه العبارة:[2]

" كان لإبراهيم ابنان: واحد من الجارية والآخر من الحرة. ولكن الذي كان من الجارية ولد حسب الجسد، وأما الذي من الحرة فبالموعد. وكل ذلك رمز، لأن هاتين الامرأتين هما العهدان، أحداهما من جبل سيناء الوالد للعبودية الذي هو هاجر. لأن هاجر جبل سيناء في العربية. ولكنه يقابل أورشليم الحاضرة."

وبالرغم من أنه ليس من المعلوم ماذا كانت العبارة الأصلية، وعدم وضوح الترجمة العربية والأردية؛ لكن الواضح هو أن بولس – أكبر خليفة للسيد المسيح – كان يطلق على السيدة هاجر جبل سيناء العرب، ولو أن السيدة هاجر ما عاشت في بلاد العرب، فما المعنى من إطلاق جبل سيناء العرب عليها ؟ وهذا البحث سيتضح تأييده أكثر في ذكر " بكه " فيما بعد.

---

(١) التوراة، سفر التكوين، إصحاح ٢٥، فقرة ١٨. وهذا نصه باللغة العبرية: וישכנו מחוילה עד – שור אשר על – פני מצרים באכה אשורה על – פני כל – אחיו נפל: (المترجم).

(٢) الكتاب المقدس، العهد الجديد، سفر رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية، إصحاح ٤، الفقرات ٢٢ ــ ٢٤. (المترجم).

من الذبيح ؟

بالرغم من أن التوراة قد مسخت تماماً بسبب عدم احتياط اليهود، والأغراض الذاتية وتقلبات الزمن، وخاصة في التصريحات والإشارات التي وردت فيها فيما يتعلق بالنبي الخاتم ﷺ فقد محتها تصرفات يدِ اليهود تماماً، ولكن عناصر الحقيقة موجودة في كل مكان حتى الآن. وعلى الرغم من التصريح في التوراة بأن إسحاق عليه السلام هو الذبيح، لكن في طي الكلام توجد أدلة قطعية على هذا الأمر؛ وهو أن (إسحاق) ما كان هو الذبيح أبداً، وما كان من الممكن أن يكون. ويجب وضع الأمور التالية في الاعتبار:

١- حسب الشريعة السابقة كان القربان بالحيوان فقط، أو بالآدمي البكر، وعليه فإن الكبش الذي قدمه هابيل قرباناً كان بكراً.

قال الله تعالى لموسى عليه السلام وهو يأمره بأحكام عن (سبط) لاوي:

" **لأن لي كل بكر في بني إسرائيل من الناس والبهائم** "[١]

٢- لا يمكن أن تزول أفضلية الابن البكر في أي حال، ففي التوراة ورد لو أن شخص له زوجتان إحداهما محبوبة والأخرى غير مرغوبة، تكون الأفضلية للولد البكر حتى ولو كان من الزوجة غير المرغوبة.

" **فإنه هو أول قدرته وله حق البكورية**"

(سفر التثنية، الإصحاح ١٧، فقرة ١٥)[٢]

٣- إن الأولاد المنذرين لله لم يكن لهم حق في تركة الأب، وورد في التوراة: "**في ذلك الوقت أفرز الرب سبط لاوي ليحملوا تابوت عهد الرب ولكي يقفوا** [٣] **أمام الرب**

---

[١] التوراة، سفر العدد، الإصحاح ٨، الفقرة ١٧. وهذا نصه باللغة العبرية: כי לי כל - בכור בבני ישראל באדם ובבהמה ביום הכותי כל - בכור בארץ מצרים הקדשתי אותם לי: (المترجم).

[٢] التوراة، سفر التثنية، الإصحاح ٢١، الفقرة ١٧. وهذا نصه باللغة العبرية: כי את - הבכור בן - השנואה יכיר לתת לו פי שנים בכל אשר - ימצא לו כי - הוא ראשית אונו לו משפט הבכורה: (المترجم).

[٣] كتبها المؤلف يقضوا، ولكن الصحيح يقفوا. وهذا نصه باللغة العبرية وفقا لما ورد في التوراة، سفر التثنية، إصحاح ١٠، الفقرة ٨ ــ ٩: בעת ההוא הבדיל יהוה את - שבט הלוי לשאת את - ארון ברית - יהוה לעמוד לפני יהוה לשרתו ולברך בשמו עד היום הזה: על - כן לא - היה ללוי חלק ונחלה עם - אחיו יהוה הוא נחלתו כאשר דבר יהוה אלוהיך לו:(المترجم)

ليخدموه ويباركوا باسمه إلى هذا اليوم، لأجل ذلك لم يكن للاوي قسم ولا نصيب مع إخوته. الرب هو نصيبه" (سفر التثنية، إصحاح ١٠، فقرة ٨،٩)

٤- إن الشخص الذي كان يُنذر لله، كان يترك شعر الرأس ويذهب إلى المعبد، ويحلق كما يحلق الشعر الآن للتحلل من الإحرام في الحج، وورد في التوراة:

" فها إنك تحملين وتلدين ابنا ولا يعل موسى رأسه لأن الصبي يكون نذيراً للرب"

(التوراة، سفر القضاة، إصحاح ١٣، الفقرة ٥). [1]

٥- إن الشخص الذي كان يجعل خادماً لله، يستخدم له لفظ "أمام الرب"

(التوراة، سفر العدد، الإصحاح ٦، الفقرة ١٦،٢٠، سفر التكوين، إصحاح ١٧ فقرة١، سفر التثنية، إصحاح ١٠، فقرة ٨). [2]

٦- إن الأمر الذي صدر لإبراهيم عليه السلام بذبح الابن، كان يشترط شرطاً، وهو أن يضحي بالابن البكر والمحبوب.(التوراة، سفر التكوين، إصحاح ٢٢،الفقرة ٢)[3]

---

(١) التوراة، سفر القضاة، إصحاح ١٣، الفقرة ٥. وهذا نصه باللغة العبرية: כי הנך הרה ויולדת בן ומורה לא - יעלה על - ראשו כי - נזיר אלוהים יהיה הנער מן - הבטן והוא יחל להושיע את - ישראל מיד פלשתים: (المترجم).

(٢) التوراة، سفر العدد، إصحاح ٦، الفقرات ١٦، ٢٠ وهذا نصه باللغة العبرية:

והקריב הכוהן לפני יהוה ועשה את - חטאתו ואת - עולתו:

והניף אותם הכוהן תנופה לפני יהוה קודש הוא לכוהן על חזה התנופה ועל שוק התרומה ואחר ישתה הנזיר יין:

- التوراة، سفر التكوين، إصحاح ١٧، فقرة ١:

ויהי אברם בן - תשעים שנה ותשע שנים וירא יהוה אל - אברם ויאמר אליו אני - אל שדי התהלך לפני והיה תמים:

- التوراة، سفر التثنية، إصحاح ١٠، الفقرة ٨:

בעת ההוא הבדיל יהוה את - שבט הלוי לשאת את - ארון ברית - יהוה לעמוד לפני יהוה לשרתו ולברך בשמו עד היום הזה: (المترجم).

(٣) التوراة، سفر التكوين، إصحاح ٢٢، الفقرة ٢. وهذا نصه باللغة العبرية:

ויאמר קח - נא את - בנך את - יחידך אשר - אהבת את - יצחק ולך אל - ארץ המוריה והעלהו שם לעלה על אחד ההרים אשר אמור אליך: (المترجم).

والآن أمعن النظر في أصل المسألة، ولكن يجب أولاً القول بأن الفدو وتقديم القربان لله كانا شيئاً واحدًا في شريعة إبراهيم ﷺ؛ أي أنه كان يستخدم لكليهما لفظاً واحداً فقط.

إذا قيل: قُدم هذا الطفل قرباناً في المعبد الفلاني، كان هذا يعني أن يُعزل ذلك الطفل من البيت من أجل خدمة ومجاورة هذا المعبد. ولكن حين كان يُستخدم هذا اللفظ للحيوانات، كان يعنى المعنى الحقيقي للقربان، وقد ورد في التوراة على لسان الرب:

" لأن لي كل بكر في بنى إسرائيل من الناس والبهائم"

(سفر العدد، الإصحاح ٨، فقرة ١٧)[1]

فقد ورد في هذا الإصحاح نفسه تصريح بأن الله قال لموسى ﷺ: خذ من بنى إسرائيل اللاويين وقدمهم أمام الله على أن يكونوا معينين لله، ويضعوا أيديهم على رأس بقرتين واللتان تقدمان قرباناً(الخلاصة).

إن الأمر بذبح الابن في رؤيا إبراهيم ﷺ، كان المراد به هو أن يُقدم الابن لخدمة المعبد، واعتبر إبراهيم ﷺ في بداية الأمر، أن هذه الرؤيا رؤيا عينية وحقيقية؛ لذا أراد أن ينفذها بعينها. لكن اتضح فيما بعد أنها رؤيا رمزية وعليه عين إبراهيم ﷺ الابن لخدمة بيت الله، والتزم بالشروط التي كان لابد منها في الأضحية.

وبعد التدقيق فيما ذكر أعلاه يجب وضع الأدلة التالية في الاعتبار:-

١. لو أن ميلاد إسحاق ﷺ كان بعد إسماعيل ﷺ فإن إسحاق ﷺ ليس هو الابن البكر، ولما كان هناك شرط الابن البكر للأضحية ؟ لذا لا يمكن أن يكون أمر الذبح خاصاً بإسحاق ﷺ.

٢. أعطى إبراهيم ﷺ إسحاق ﷺ تركته كلها، وعلى العكس من هذا فقد أعطى إسماعيل ﷺ وأمه سقاء الماء فقط وغادرهما، وهذه قرينة قطعية على هذا الأمر؛ وهو أن إبراهيم ﷺ ما قدم إسحاق ﷺ قرباناً للمعبد.

٣. ظل هذا العرف قائماً لفترة في نسل إسماعيل ﷺ، وهو لم يكن الناس يحلقون شعر رؤوسهم، لذا فعدم الحلق في الحج وقت الإحرام أثر وتذكار لسنة إسماعيل ﷺ هذه.

---

[1] وردت هذه العبارة في العهد القديم هكذا " لأن لي كل بكر في بنى إسرائيل من الناس ومن البهائم" (التوراة، سفر العدد، الإصحاح٨ فقرة ١٧). وهذا نصه باللغة العبرية: כי לי כל - בכור בבני ישראל באדם ובבהמה....(المترجم).

٤. إن الألفاظ التي كانت تستخدم للأضحية والقربان في الملة الإبراهيمية، استخدمها إبراهيم عليه السلام لإسماعيل عليه السلام، وليس لإسحاق عليه السلام.

ورد في التوراة أن الله حين بشر إبراهيم عليه السلام بميلاد إسحاق عليه السلام قال إبراهيم:

"ليت إسماعيل يعيش أمامك"[١]

وحينما يستخدم هذا اللفظ في التوراة (يعيش أمامك) يستخدم في هذا المعنى.

٥. كان إسماعيل عليه السلام أحب الأولاد لنفس إبراهيم عليه السلام، وإن ما ذكر في التوراة ــ والتي أغلب ما تكون في صف إسحاق عليه السلام ــ من خصائص تفرق بين إسحاق عليه السلام وبين إسماعيل عليه السلام، هي أن إسحاق عليه السلام مظهر لوعد وعهد الله، وأن إسماعيل عليه السلام دعوة إبراهيم عليه السلام ؛ أي أن إسماعيل عليه السلام قد ولد بناء على دعاء ورغبة إبراهيم عليه السلام.[٢] وعليه، فقد سمّاه الله تعالى إسماعيل، لأن إسماعيل يتكون من لفظين(سمع) و(إيل)، ومعنى " سمع " السمع، ومعنى " إيل " "الله "[٣] يعنى أن الله تعالى سمع دعاء إبراهيم عليه السلام. وورد في التوراة أن الله تعالى قال لإبراهيم عليه السلام: لقد سمعتك فيما يتعلق بإسماعيل. وحين بشر الله تعالى إبراهيم عليه السلام بإسحاق عليه السلام، تذكر إبراهيم عليه السلام إسماعيل عليه السلام في هذا المقام. والخلاصة؛ هي أنه لما كان أمر إبراهيم عليه السلام بالذبح فيه شرط، وهو أن يكون الذبيح أحب الأبناء إلى نفسه؛ لذا يكون إسماعيل عليه السلام هو الذبيح وليس إسحاق عليه السلام.

---

[١] التوراة، سفر التكوين، إصحاح ١٧، فقرة ١٨. وهذا نصه باللغة العبرية: ויאמר אברהם אל - האלוהים לו ישמעאל יחיה לפניך: (المترجم).

[٢] التوراة، سفر التكوين، إصحاح ١٥، فقرات ٢ – ٦. وهذا نصه باللغة العبرية:
ויאמר אברם אדוני יהוה מה – תתן – לי ואנוכי הולך ערירי ובן – משק ביתי הוא דמשק אליעזר: ויאמר אברם הן לי לא נתתה זרע והנה בן – ביתי יורש אותי: והנה דבר – יהוה אליו לאמור לא יירשך זה כי – אם אשר יצא ממעיך הוא יירשך: ויוצא אותו החוצה ויאמר הבט – נא השמימה וספור הכוכבים אם – תוכל לספור אותם ויאמר לו יהיה זרעך: והאמן ביהוה ויחשבה לו צדקה: (المترجم).

[٣] التوراة، سفر التكوين، إصحاح ١٦، الفقرة ١١. وهذا نصه بالعبرية:
ויאמר לה מלאך יהוה הנך הרה וילדת בן וקראת שמו ישמעאל כי – שמע יהוה אל – עניך:(المترجم).

٦. حين بشر الله تعالى ببشرى إسحاق عليه السلام، بشر معها أيضاً: بأنني سأقيم مع نسله عهداً أبدياً. فقد ورد في التوراة:

" فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك أبناً، وتدعوا اسمه إسحاق، وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده "(التوراة، سفر التكوين، إصحاح ١٧،فقرة ٢٠) [١]

و تفصيل هذا الإجمال، هو أنه قد ورد في التوراة، أن إبراهيم عليه السلام حين أراد ذبح ابنه، نادى ملك أوقف يديك، وقال هذه الألفاظ:

"ونادي ملاك الرب ثانية من السماء. وقال بذاتي أقسمت، يقول الرب: إني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك، أباركك مباركة، وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء، وكالرمل الذي على شاطئ البحر".

(التوراة، سفر التكوين، إصحاح ٢٢، فقرة ١٥-١٧). [٢]

والآن عليك أن تتدبر جيداً، في أن الله تعالى في الوقت الذي بشر فيه بإسحاق عليه السلام، كان قد قال بأني سأبقى نسله، فكيف كان ممكناً أنه في الوقت الذي ليس فيه أولاد لإسحاق عليه السلام [٣] أن يصدر أمر بذبحه. ولكن لو يسلم بأن الذبيح هو إسماعيل، تنطبق

---

[١] التوراة، سفر التكوين، إصحاح ١٧، فقرة ٢٠. وهذا نصه بالعبرية: ולישמעאל שמעתיך הנה ברכתי אותו והפריתי אותו והרביתי אותו במאוד מאוד שנים – עשר נשיאם יוליד ונתתיו לגוי גדול: (المترجم).

[٢] ورد هذا في الكتاب المقدس، التوراة، سفر التكوين، إصحاح ٢٢، الفقرات من ١٥ – ١٧ ויקרא מלאך יהוה אל – אברהם שנים מן – השמים: ויאמר בי נשבעתי נאום – יהוה כי יען אשר עשית את – הדבר הזה ולא חשכת את – בנך את – יחידך: כי – ברך אברכך והרבה ארבה את – זרעך ככוכבי השמים וכחול אשר על – שפת הים וירש זרעך את שער אויביו:(المترجم)

[٣] من المسلم به أن أولاد إسحاق عليه السلام كانوا قد ولدوا بعد وفاة إبراهيم عليه السلام، وفقا لما ورد في التوراة، سفر التكوين، إصحاح ٢٥، فقرة ١١. وهذا نصه بالعبرية:

ויהי אחרי מות אברהם ויברך אלוהים את – יצחק בנו וישב יצחק עם – באר לחי ראי: كما ورد ذكر مواليد إسحاق بن إبراهيم في نفس السفر ونفس الإصحاح، الفقرات ١٩ – ٢٦:

ואלה תולדות יצחק בן – אברהם אברהם הוליד את – יצחק: ויהי יצחק בן – ארבעים שנה בקחתו את – רבקה בת – בתואל הארמי מפדן ארם אחות לבן הארמי לו לאשה: ויעתר יצחק ליהוה לנוכח אשתו כי עקרה הוא ויעתר לו יהוה ותהר רבקה אשתו: ויתרצצו הבנים בקרבה ותאמר אם – כן למה זה אנוכי ותלך לדרש את – יהוה: ויאמר יהוה לה שני גויים בבטנך ושני לאומים ממעיך יפרדו ולאום מלאום יאמץ ורב יעבוד צעיר: וימלאו ימיה ללדת והנה תומם בבטנה: ויצא

النصوص بأسرها على هذا. كان إسماعيل عليه السلام هو أكبر الأولاد، كما كان أحبهم(إلى أبيه)، وكان وقت الذبح قد بلغ سن البلوغ، أو أوشك عليه، ولم تكن هناك بشارة بكثرة نسله قبل القربان. وفي التوراة تصريح بأن إبراهيم لما أراد ذبح أبنه البكر، كان هناك وعد بكثرة نسل هذا الابن، أي أن كثرة النسل هذه مرتبطة بهذا القربان نفسه، لذا يكون إسماعيل عليه السلام هو نفسه الذبيح. لأن الوعد بكثرة نسل إسحاق عليه السلام كان قد تم وقت ميلاده مباشرة، والذي لم يكن عوضاً أو مكافأة عن أي صلة أو أي شيء.

مقام الذبح

٧. ورد في التوراة أن مكان الذبح هو " جبل المُرِيّا". ويقول اليهود: إن هذا المكان يوجد حيث كان هيكل سليمان، ويقول المسيحيون: إن هذا المكان هو المكان الذي صلب فيه عيسى عليه السلام. لكن المحققين الأوروبيين يرفضون كلا الادعاءين. فيكتب السير "ستنالي":

"خرج إبراهيم من خيمته صباحاً، وذهب إلى ذلك المقام الذي أمره الله تعالى بالذهاب إليه، لكنه ليس جبل "المريا" كما يدعى اليهود، وليس عند كنيسة القبر المقدس طبقاً لرأى المسيحيين. وهذا القياس بعيد كل البعد عن قياس اليهود، ويكثره بعداً دعوى المسلمين بأن هذا المكان جبل عرفات.[1] وغالباً هذا المقام على جبل جرزيم، وذلك مقام يشبه مقام الذبح".

ثبت من هذا أن دعوى اليهود والنصارى في تحديد (المريا) خطأ، وبقى هذا الأمر، وهو؛ هل دعوى المسلمين خطأ أيضاً ؟ وسيأتي تحقيقه فيما بعد.

הראשון אדמוני כולו כאדרת שער ויקראו שמו עשו: ואחרי – כן יצא אחיו וידו אוחזת בעקב עשו ויקרא שמו יעקב ויצחק בן – ששים שנה בלדת אותם:

أما مواليد إسماعيل فوردت في الفقرات ١٢ – ١٨ من نفس الإصحاح:

ואלה תולדות ישמעאל בן – אברהם אשר ילדה הגר המצרית שפחת שרה לאברהם: ואלה שמות בני ישמעאל בשמותם לתולדותם בכר ישמעאל נבית וקדר ואדבאל ומבשם: ומשמע ודומה ומשא: חדד ותימא יטור נפיש וקדמה: אלה הם בני ישמעאל ואלה שמותם בחצריהם ובטירותם שנים – עשר נשיאם לאומותם: ואלה שני חיי ישמעאל מאת שנה ושלושים שנה ושבע שנים ויגוע וימת ויאסף אל – עמיו: וישכנו מחוילה עד – שור אשר על – פני מצרים באכה אשורה על – פני כל – אחיו נפל: (المترجم)

(١) هذا خطأ إذ أن المسلمين يعتبرون أن " منى" مقام الذبح وليس عرفات.

إن الاختلاف الذي ظهر بتعيين (المُرِيّا) أوجد اختلافًا آخر؛ وهو أن هذا اللفظ اسم لمكان ما أو يحمل معنى وصفياً. واعتبره مترجمون كثيرون أنه لفظاً مشتقاً؛ ولذا ترجموه في بعض نسخ التوراة إلى البلوطات العالية، وفي البعض الآخر إلى الأرض العالية، والبعض الثالث إلى مقام الرؤيا. لكن الرأي الراجح، هو أن الناس اعتبروه اسماً لمكان، ولذا لم يترجموا اللفظ بل أبقوه كما هو، وتغير شكل اللفظ بسبب طول الزمن وعدم الاهتمام وتحول من "مُريا" إلى "موره" خاصة وان إملاء كلا اللفظيين في اللغة العبرية قريب.

و في التوراة تصريح عند موره وهو انه يقع في بلاد العرب. ورد في التوراة:

و كان جيش المديانيين[1] شماليهم عند تل مورة في الوادى

(سفر القضاة، إصحاح ٧، الفقرة ٢).[2]

وحين يوضع في الاعتبار كل الوقائع والقرائن، يثبت أن هذا اللفظ ليس "موره"؛ لكنه مروه؛ وهو جبل صغير في مكة المكرمة، حيث تؤدى هناك شعيرة السعي الآن.

وعلى هذا القياس، فإن روايات العرب وتصريحات القرآن الكريم وتحديد الأحاديث، كل هذه الأشياء تتفق في هذا الأمر، لدرجة أنه لا يمكن اتفاق وتطابق بدون صحة. وتفصيل هذا كما يلي:-

ورد في حديث، أن النبي ﷺ قال مشيراً إلى المروه:

"أن هذا هو مكان الذبح وأن كل جبال مكة ووديانها أماكن ذبح".[3]

---

(١) مدين أرض العرب، وكثيراً ما يطلق على العرب المديانيين، وأرض مدين من جنوب الشام حتى شمال اليمن، وهؤلاء الناس هم أولاد إبراهيم والذين كانوا من قطورة (ملحق الإنجيل ص ١١٤) (راجع سفر التكوين، إصحاح ٢٥، فقرات ١-٤). وهذا نصه بالعبرية: ויסף אברהם ויקח אשה ושמה קטורה: ותלד לו את - זמרן ואת - יקשן ואת - מדן ואת - מדין ואת - ישבק ואת - שוח: ויקשן ילד את - שבא ואת - דדן ובני דדן היו אשורם ולטושם ולאומים: ובני מדין עיפה ועפר וחנך ואבידע ואלדעה כל - אלה בני קטורה: (المترجم).

(٢) التوراة، سفر القضاة، إصحاح ٧، الفقرة ٢. وهذا نصه بالعبرية:
ויאמר יהוה אל - גדעון רב העם אשר אתך מתתי את - מדין בידם פן - יתפאר עלי ישראל לאמור ידי הושיעה לי: (المترجم).

(٣) موطأ الإمام مالك.

لم يكن يذبح في المروه في عهد النبي ﷺ ؛ بل كان يذبح في منى، التي هي على بعد ثلاثة أميال من مكة، ولكن النبيﷺ قال:

إن المروه هو مكان النبح، وهذا لأن إبراهيم عليه السلام كان قد أراد ذبح إسماعيل عليه السلام هنا في نفس المكان.

جاء في القرآن الكريم:

(ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ)(الحج: من الآية٣٣)

(هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ)(المائدة: من الآية٩٥)

إن المروة مقابل للكعبة تماماً، وعلى مقربة منها. ويتضح من هاتين الآيتين، أن الكعبة هي المكان الأصلي للذبح، وليس منى. ولكنه حين كثر عدد الحجيج، امتدت حدود الكعبة حتى منى.

ذكرى الذبح

اليهود أولاد إسحاق عليه السلام؛ لذا لو أن إسحاق عليه السلام هو الذبيح لوجد عندهم أي ذكر لهذا. وعلى العكس من هذا، فإن كل آثار الذبح موجودة حتى اليوم عند نسل إسماعيل عليه السلام، بل عند المسلمين جميعاً، الذين هم أولاد روحانيين لإسماعيل.

إن آثار الذبح كلها موجودة عند أولاد إسماعيل عليه السلام، والحج - أكبر فريضة إسلامية- أكبر تذكار لهذا الذبح. وتفصيل هذا كما يلي:

١. حين أراد الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بذبح الابن فنادى: يا إبراهيم! فقال إبراهيم عليه السلام "هاأنذا".[١]

وإن "لبيك" التي يرددها المسلمون في كل لحظة، وإن وقت الحج ما هو إلا ترجمة لفظية لذلك القول الإبراهيمي "هاأنذا".[٢]

---

[١] التوراة، سفر التكوين، إصحاح ٢٢، فقرة ١. وهذا نصه بالعبرية: ויהי אחר הדברים האלה והאלוהים נסה את - אברהם ויאמר אליו אברהם ויאמר הנני: (المترجم).

[٢] بالرجوع إلى الكتاب المقدس لم نجد هذا الاقتباس الذي جاء به شبلى، أما لفظ " هاأنذا: הנני " فقد ورد في التوراة، سفر التكوين، إصحاح ٢٢، الفقرات ١، ٧، ١١. وهذا نصه بالعبرية:

- ויהי אחר הדבקים האלה והאלוהים נסה את - אברהם ויאמר אליו אברהם ויאמר הנני:
- ויאמר יצחק אל - אברהם אביו ויאמר אבי ויאמר הנני בני ויאמר הנה האש והעצים ואיה השה לעולה:

٢. كانت هناك شعيرة في الشريعة الإبراهيمية؛ وهي أن من كان يقدم قرباناً أو ينذر لله، كان يطوف المعبد أو مكان الذبح عدة مرات.

وإن السعي سبع مرات بين الصفا والمروة في الحج، ما هو إلا تذكار لهذا القربان أو الفدو.

٣. كان من فروض النذر أو القربان، عدم حلق شعر الرأس حتى يوم الذبح، وهذه شعيرة في الحج أيضاً. وحين يتحلل من الإحرام، يحلق الرأس أو يقصر. وورد ذكر لهذه الشعيرة في القرآن الكريم نفسه:

- "محلقين رؤوسكم" (الفتح:٢٧).

٤. والأضحية ركن أساسي للحج، وهي تذكار لفداء إسماعيل عليه السلام ومن ثم قال الله تعالى في القرآن:(**وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ**) (الصافات:١٠٧).

وكانت هذه الأدلة بناء على تصريحات وكنايات التوراة. والثابت قطعاً طبقاً للقرآن الكريم، هو أن إسماعيل عليه السلام هو الذبيح، بالرغم من أن أكثر المفسرين أيدوا رواية اليهود خطأ. ووردت واقعة الذبح في القرآن الكريم هكذا:

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) (الصافات)

ذكر في هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام دعا الله أن يهب له أولاد، واستجاب له ربه، وقدم هذا الولد نفسه للذبح.

وثابت من التوراة؛ أن الولد الذي وهبه الله إبراهيم عليه السلام استجابة لدعوته، هو إسماعيل عليه السلام؛ لذا سمي بإسماعيل، فقد سمع الله تعالى دعاء إبراهيم المتعلق... وعليه فإن المذكور في الآية الكريمة هو إسماعيل عليه السلام، وليس إسحاق عليه السلام.

وذكر ولادة إسحاق بعد تفصيل ونهاية واقعة الذبح. يثبت قطعاً أن ما ذكر في الآية ليس إسحاق عليه السلام بل هو إسماعيل عليه السلام.

إن تسمية المسلمين بـ" المسلمين" يرجع إلى ذلك الاسم الذي كان قد اكتشفه إبراهيم عليه السلام من قبل، فقد جاء في القرآن:

- ויקרא אליו מלאך יהוה מן - השמים ויאמר אברהם אברהם ויאמר הנני: (المترجم).

(مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ [1] هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ)، (الحج: من الآية٧٨).

ويبدأ تاريخ هذه التسمية من قصة الذبح، أي حين أراد إبراهيم عليه السلام أن يذبح إسماعيل عليه السلام وقال له:

"إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى؟ فأحنى إسماعيل عليه السلام رقبته بطاعة ورضا. وفي هذا المقام، استخدم الله تعالى لفظ "أسلما" المشتق من "إسلام"، والذي يعني "التسليم" و"التفويض".

(فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ) (الصافات:١٠٣).

إن التسليم والرضا أعظم أعمال إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. أي حين أمر الله تعالى بالذبح، أسلم ورضي كلاهما؛ الأب والابن بطاعة. ورضي الله بهذا.

ثم أصبحت هذه الشعيرة الدينية لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وعليه، سمَّى إبراهيم عليه السلام متبعي ملته "مسلمين".

والقربان والإيثار والإسلام في الحقيقة، هذه كلها ألفاظ مترادفة، وهذا دليل قطعي على أن إسماعيل عليه السلام كان قد قدم نفسه قرباناً، ولو كان إسحاق للُقب أولاده أو أمته بهذا اللقب.

حقيقة القربان (الفداء)

تتضح حقيقة هذه المسألة تماماً، حين يدقق النظر في الهدف الأصلي من أمر إبراهيم عليه السلام بذبح الابن؟ كانت الشعوب عبدة للأصنام في العصور القديمة، يتقربون[2] بأولادهم لألهتهم، وكان هذا العرف موجود في الهند قبل الحكومة البريطانية، ويرى أعداء الإسلام أن ذبح إسماعيل عليه السلام كان أمراً من هذا النوع، ولكن هذا خطأ تماماً.

---

[1] ذكر في حاشية الصفحات الماضية أن بعض المفسرين اقروا بأن فاعل الفعل "سمى" هو إبراهيم عليه السلام وهذا بسبب قرب اللفظ وكان هذا هو رأى ابن زيد والحسن البصري من التابعين، وأيدهم في هذا أبو حيان، ولكن كان هناك من الصحابة مثل ابن عباس، ومن التابعين مجاهد والضحاك وقتادة وسفيان من أعاد الضمير على الله سبحانه وتعالى، وقالوا: إن المعنى هو أن الله تعالى سماكم المسلمين قبل نزول القرآن، وسماكم المسلمين أيضاً في هذا القرآن (سيد سليمان الندوي).

[2] يذبحونهم.

كتب كبار رجال التصوف:[1] إن الرؤيا التي يراها الأنبياء عليهم السلام على قسمين: رؤيا عينية، وأخرى تمثيلية أو رمزية. وفي الرؤية العينية يقصد ذلك الشيء

---

(1) إن جملة المؤلف هذه في حالة إلى مزيد من الشرح، فلما كتب المؤلف أن الرؤيا على قسمين إحداهما عينية؛ وهي التي تظهر فيها صورة الواقعة بعينها، والثانية رمزية وهي التي تظهر فيها صورة الواقعة في أي شكل رمزي. واعترف بهذا علماء كثيرون، وقالوا إن المنام هنا في الأصل هو الشكل الثاني للرؤيا" أي الرمزي" مثل رؤية سيدنا يوسف عليه السلام لأبيه وأمه في شكل الشمس والقمر، وأخوته في صورة النجوم، ومثل رؤية النبي ﷺ لوباء المدينة في شكل العجز والشيخوخة، ورؤية شهداء المسلمين في أُحد في صورة أبقار مذبوحة. يكتب المحدث " الخطابي" في " معالم السنن":

" وبعض الرؤيا مثل يضرب ليتأول على الوجه الذى يجب أن يصرف إليه معنى التعبير مثله وبعض الرؤيا لا يحتاج إلي ذلك بل يأتى كالمشاهدة" (فتح الباري، المجلد ١٣، صـــ٤٠٢).

ويقول الإمام "أبو بكر بن العربي المالكي" في كتاب أحكام القرآن في ذكر هذه الحقيقة عن رؤيا إبراهيم عليه السلام هذه: إن بعض الرؤى تكون كاسم، أي عينية وتصريحية، وتطابق الواقعة تماماً لفظاً. والبعض كالكنى؛ أي تظهر في صورة واقعة أخرى مشابهة بسبب أي شبه معنوي، لذا كان منام إبراهيم من النوع الثاني للرؤيا (أحكام القرآن ج ٢، صـــــ١٩٦، مصر).

وفي هذا المقام قلد مولانا شبلى بعض هؤلاء العلماء، وقال: إن رؤيا إبراهيمعليه السلام رؤيا رمزية، ومن ثم ذكر أن إبراهيم عليه السلام اعتبر- منامه الرمزي هذا- على أنه عيني وحقيقي بسبب خطأ اجتهاده هذا، واستعد لتنفيذه بذاته؛ ولكن في الوقت ذاته نبهه الوحي الإلهي بخطأ اجتهاده هذا ومنع ذبح إسماعيل عليه السلام بعينه وافتداه بذبح حيواني.

يأبى هذا الفقير إلى الله (سيد سليمان الندوى) أن يسلم بخطأ اجتهاد إبراهيم عليه السلام في هذه الواقعة، واعتقد أن إبراهيم عليه السلام – العاشق لله – ما أراد تنفيذ أمر الله تعالى بسبب خطأ اجتهادي؛ بل كان حبًا جماً في طاعة الله وعشقه. واستعد لتنفيذ هذا الأمر الإلهي بعينه ولفظه من تلقاء نفسه، حتى يصدق في هذا الابتلاء أمام الله تعالى. وبدلاً من التضحية بروح الابن من تلقاء نفسه، يستند على تأويل وقفه لخدمة التوحيد وولاية الكعبة. ويبقى طاهراً من شك وخداع مراقبة النفس، حتى يوضح الله تعالى بنفسه هذه الحقيقة بقوله، فأحب الله تعالى فعله هذا، ونادى: **(وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) (الصافات).**

وفرضت الأضحية على الأمة بهذا الشكل الرمزي أي تمثل الطاعة الجثمانية والأضحية في صورة التضحية بالحيوان. وهذا الشرح تتبعاً لبعض هؤلاء العلماء الذين يعتقدون بأن تلك الرؤيا رمزية بناء على وجوه دينية وعلمية، ولم يعتبر جهود العلماء أن هذه الرؤيا عينية، ولكن في الوقت الذي قدم فيه إبراهيم عليه السلام لتنفيذ الرؤيا، وعزم كل العزم على ذبح أبنه من تلقاء نفسه، وقدم كل ما عليه ولم يتوان

بعينه الذي يظهر في المنام. وفي الرؤيا التمثيلية يقدم الشيء في صورة التشبيه والتمثيل، وأن الرؤيا التي رآها إبراهيم عليه السلام كان المراد بها هو أن ينذر الولد لخدمة الكعبة؛ أي يجب عليه ألا ينشغل بأي شيء آخر، بل يُوقف لخدمة الكعبة. وورد لفظ الأضحية في أماكن كثيرة في التوراة بهذه المعاني.

واعتقد إبراهيم أن هذه الرؤيا رؤية عينية أي حقيقية، وأراد تنفيذها بعينها، وكأن هذا الاعتقاد كان اجتهادًا خاطئاً، والذي يمكن أن يحدث من الأنبياء عليهم السلام (ولكن هذا الخطأ لم يستمر، فقد نبه إليه الله تعالى) وعليه مُنع إبراهيم عليه السلام من تنفيذ هذا الفعل وقدر الله تعالى حسن نيته وقال:

(قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥)(الصافات)

على أي حال، إن الغرض من هذا التفصيل هنا، هو أنه كان المقصود بالقربان هو النذر لخدمة الكعبة. وإن اللفظ الذي كان مستخدماً في الشريعة السابقة للقربان أو النذر هو " أمام الله". وقد ورد هذا التركيب بكثرة في التوراة، وإن الدعاء الذي دعاه إبراهيم عليه السلام لله تعالي في حق إسماعيل عليه السلام كان بهذه الألفاظ.

" **ليت إسماعيل يعيش أمامك**" (التوراة، سفر التكوين، إصحاح١٧، فقرة ١٨)

و طبقاً لهذه الرغبة أمر في المنام بشكل رمزي أن يذبح الابن، وهذا الأمر دليل قاطع على أن إبراهيم عليه السلام كان قد أُمر في المنام بذبح إسماعيل عليه السلام وليس إسحاق عليه السلام.

لحظة واحدة في تنفيذ الأمر الإلهي، فناداه: يا إبراهيم قد أديت واجبك وصدقت الرؤيا، ولم تكن هناك حاجة إلى هذا، وبدلاً من الذبح ظهرت سنة ملة إبراهيم عليه السلام هذه في شكل التضحية بذبح عظيم.

واضح أن التضحية بالحيوان كما كتب بعض الأئمة المحققين، أنها تمثيل للتضحية بالنفس. ولحم هذه الأضحية بركة للمضحى في يوم العيد، وهدية للأحباب وطعام للفقراء.

لمزيد من التفصيل ارجع إلى مجلة "المعارف"، عدد ذي الحجة سنة ١٣٥٥هـ، مقالة " ذبح عظيم"، و"المعارف"، عدد صفر سنة ١٣٥٦هـ (سيد سليمان الندوى).

مكة المكرمة

ذكر سابقا في البحث عن مقام إسماعيل ﷺ بأنه كان عربياً، وثبت في تعيين وتحديد المذبح أنه كان وادي مكة، وعليه فهناك دراسة قديمة جداً عن مكة.

يكتب المسيحيون المتعصبون أن الادعاء بقدم وعراقة هذه المدينة ادعاء خاص للمسلمين فقط، إذ لا يوجد أي اثر لها في التاريخ القديم.[1]

إن " بكة " هو الاسم الأصلي والقديم لمكة. وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ) (آل عمران:٩٦) وورد في كتاب " الزبور " في " المزمور " ٨٤، فقرة ٦،٧:

" عابرين في وادي بكة، يجعلونه ينبوعاً، أيضا ببركات يغطون مورة يذهبون من قوة إلي قوة "[2]

إن لفظ " بكة " الذي ورد في العبارة هو نفسه مكة، ولكن لو اعتبر أن هذا اللفظ لفظا مشتقا بدلا من كونه اسم علم، يصير معناه " البكاء " وذلك اللفظ العربي. ولما كان اليهود والنصارى يعملون دائما على محو عزة وقدر مكة، لذا ترجم مترجمون كثيرون لفظ " بكة" المذكور في العبارة السابقة إلى البكاء، ولكن كل شخص يدرك بنفسه ماذا سيعني " وادي البكاء " في هذه الحالة ؟ ويبدو جلياً من آيات الزبور المذكورة سابقاً أن داود ﷺ قد أظهر في هذا النشيد شوقه وتنوقه إلي مكة المكرمة والمروة ومكان ذبح إسماعيل ﷺ، وهذه هي العبارة كاملة.

---

[1] يكتب مارجوليوث في كتابه: " مع أن المسلمين – بسبب الاعتقاد الديني – قد أقروا بأن مركزهم الديني قديم البناء، لكن يتضح من صحيح الروايات، أن اقدم عمارة في مكة كانت قد بنيت قبل محمد ﷺ ببعض الأجيال فقط." وأشار ماجولويوث في إثبات قوله في كتاب "الإصابة"، ونحن أيضاً لا نشك في صحة قوله، ولكننا نرفض مغالطته، وهذا ما ذكرناه في أعلى الصفحة.

[2] ورد اسم " وادى البكاء: עמק הבכא " في الكتاب المقدس، مزمور ٨٤، الفقرات ٦، ٧، النسخة العبرية، الفقرات ٧، ٨. وهذا نصه بالعبرية:

עברי בעמק הבכא מעין ישיתוהו גם ברכות יעטה מורה: ילכו מחיל אל - חיל יראה אל - אלוהים בציון: (المترجم).

(يناجي داود عليه السلام الله تعالى) ويقول: ما أحلى مساكنك يا رب الجنود. تشتاق بل تتوق نفسي إلى ديار الرب ... مذابحك يا رب (الجنود)[١] ملكي وإلهي. طوبى للساكنين في بيتك أبدا يسبحونك. ثم تأتي الآيات المتعلقة ببكة.

لنتدبر الآن في المكان الذي يُظهر داود عليه السلام – شوقه له بمجرد وصوله إياه، وهو ذلك المكان الذي توجد فيه الأمور التالية:–

١. أن يكون مذبحا (أو مكاناً للقربان)
٢. أن يكون بعيداً عن وطن داود عليه السلام، ولا بد من السفر والذهاب إليه.
٣. أن يطلق عليه " وادى البكاء "
٤. أن يكون به مورة [٢] أيضا.

وبوضع هذه الأمور محل الاعتبار، قطعا سيكون هناك يقين بأن " بكة " هي "مكة المكرمة"، وأن " مورة " هي " مروة ". وسيتضح معه تماما كيف يحرف اليهود الكلم عن مواضعه بتعصب. يقول الله تعالي:

(يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِه)(النساء: من الآية٤٦)

وهذه هي خلاصة مقال الدكتور " هستنكس " عن " وادي بكا " في" معجم الكتاب المقدس ": لو أن المقصود بهذا اللفظ أي واد، يمكن أن يكون كما يلي:–

١. واد يذهب من خلاله الزائرون إلى بيت المقدس.
٢. وادي عخور، الذي ورد ذكره في يشوع، إصحاح ٧، الآيات ٢٤ ــ ٢٦ وغيرهما.[٣]

---

[١] وردت مناجاة داود عليه السلام لله تعالى في الكتاب المقدس، مزمور ٨٤، الفقرات ١ – ٤، النسخة العبرية، الفقرات ٢ – ٥ وهذا نصه بالعبرية:

מה – ידידות משכנותיך יהוה צבאות: נכספה וגם כלתה נפשי לחצרות יהוה לבי ובשרי ירננו אל אל – חי: גם – צפור מצאה בית ודרור קן לה אשר – שתה אפרוחיה את – מזבחותיך יהוה צבאות מלכי ואלוהי: אשרי יושבי ביתך עוד יהללוך סלה: (المترجم).

[٢] مروة (المترجم).

[٣] ورد ذكر " وادى عخور: עמק עכור " في الكتاب المقدس، سفر يشوع، إصحاح ٧، الفقرات ٢٤ – ٢٦. وهذا نصه بالعبرية:

ויקח יהושוע את – עכן בן – זרח ואת – הכסף ואת – האדרת ואת – לשון הזהב ואת – בניו ואת – בנותיו ואת – שורו ואת – חמורו ואת – צואנו ואת אהלו ואת – כל – אשר – לו וכל – ישראל עמו ויעלו אותם עמק עכור: ויאמר יהושוע מה עכרתנו יעכרך יהוה ביום הזה וירגמו

٣. وادي الرفائيين الذي ورد في صموئيل الثاني إصحاح ٥، فقرات ١٨ – ٢٢ وغيرهما.[١]

٤. وادي في جبل سيناء.

٥. نهاية الطريق الذي يأتي من الشمال حتى بيت المقدس (انظر كتاب رينان "حياة عيسي"، الباب ٤)

ومن العجيب أن الدكتور هستنكس لم يذكر مكة المكرمة بين هذه الاحتمالات الكثيرة.

ومما يثير الحيرة والدهشة، هو أن مسميات الأودية التي ذكرها لا يوجد فيها أي تطابق بينها وبين لفظ " بكا "؛ بل لا يوجد بينها وبينه حرف مشترك. وعلى العكس من هذا، فإن لفظي " بكا " و"بكة" لفظان للفظ واحد، الفرق الذي يبدو بينهما كالفرق الذي يبدو في نطق أي لفظ واحد.

ورد في مقالة " مارجوليوث " بعنوان " محمد " في دائرة المعارف الجديدة[٢] عن مكة المكرمة:

" لا يوجد أي أثر لهذه المدينة في التواريخ القديمة، سوي لفظ "بكة" الذي ورد في المزمور ٨٤ الآية ٦ من الزبور"

ولكن السيد "مركيولوس" يعتبر أن هذه الشهادة التاريخية ضعيفة.

يكتب البروفيسور "دوزي" المحقق وعالم اللغة العربية الفرنسي المشهور[٣]:-

---

אותו כל – ישראל אבן וישרפו אותם באש ויסקלו אותם באבנים: ויקימו עליו גל – אבנים גדול עד ביום הזה וישב יהוה מחרון אפו על – כן קרא שם המקום ההוא עמק עכור עד היום הזה: (المترجم).

[١] ورد ذكر " وادى الرفائيين: עמק רפאים " في الكتاب المقدس، سفر صموئيل الثانى، إصحاح ٥، الفقرات ١٨ – ٢٢ وهذا نصه بالعبرية:

ופלשתים באו וינטשו בעמק רפאים: וישאל דוד ביהוה לאמור האעלה אל – פלשתים התתנם בידי ויאמר יהוה אל – דוד עלה כי – נתון אתן את – הפלשתים בידך: ויבוא דוד בבעל – פרצים ויכם שם דוד ויאמר פרץ יהוה את – אויבי לפני כפרץ מים על – כן קרא שם – המקום ההוא בעל פרצים: ויעזבו – שם את – עצביהם וישאם דוד ואנשיו: ויוספו עוד פלשתים לעלות וינטשו בעמק רפאים. (المترجم).

[٢] آخر دائرة معارف، ج ٧، صـــــ ٢٣٩٩، طبعة ارزن.

[٣] المرجع السابق.

" بكة هي ذلك المكان الذي يكتبه جغرافيو اليونان " ماكروبة ".

ولكن "مركيولوس" لم يؤمن برأي البروفيسور "دوزى".

كتب السيد "كارل إيل" في كتابه "هيروز ايند هيرووورشب" أن:-

ذكر المؤرخ الروماني "سيسلس" الكعبة وقال: إنها أقدم وأشرف دور العبادة في الدنيا، وهذا مذكور قبل الميلاد بخمسين سنة".

لو أن الكعبة كانت موجودة قبل المسيح ﷺ بفترة طويلة؛ فلابد أن تكون "مكة" مدينة من مدن تلك الفترة، لأن وجود أي دار للعبادة مشهورة في أي مكان، يتطلب وجود مدينة أو قرية مستعمرة حوله.

كتب "ياقوت الحموي" في كتابة "معجم البلدان": أن طول وعرض مكة المكرمة حسب "جغرافية بطليموس"[1] كالتالي:

" الطول ٧٨ درجة، والعرض ٦٣ درجة".

إن "بطليموس" مؤلف وعالم قديم جداً، ولو أنه ذكر مكة في جغرافيته، فأي سند يطلب أقدم من هذا.

وقد أنكر "مارجوليوث" قدم وعراقة مكة المكرمة. بسبب التصريح الذي ورد في كتاب "الإصابة"، وهو أن أول مبنى بُني في مكة، هو ذلك الذي شيده سعيد أو سعد بن عمرو. ولكن لا يعرف "مارجوليوث" أن المؤرخين قد صرحوا في مواضع عدة أنه لما كان أهل العرب يعتقدون في أن تشييد المباني أمام الكعبة أو حولها فيه سوء أدب وعدم تقديس، لذا لم يشيدوا المباني، بل كانوا يعيشون في خيام. وهكذا كانت مكة دائما مدينة واسعة للخيام.

بناء الكعبة

كان الظلام الحالك الذي يعم الدنيا بأسرها في إيران والهند ومصر وأوربا ظلاما عالميا، أما اعتناق الحق فكان في جانب واحد، إذ لم يكن هناك أي شخص يوحد الواحد القهار توحيداً خالصاً في أي بقعة من بقاع المعمورة على اتساع رقعتها. وحين أراد إبراهيم ﷺ أن يرفع هذا النداء عالياً في كلدان، استأنس بنار، وأتى إلى مصر. واجهت العزة والكرامة مخاطرا، ووصل إلي فلسطين، ولم يسأل أي أحد عن أي أمر. وحيثما كان يذكر اسم الله كان ينخفض الصوت الذي كان يرفع ضده في ضوضاء الشرك وعبادة

---

[1] تمت ترجمة جغرافية بطليموس في عهد العباسيين، واقتبس "المسعودى" وابن النديم كثيراً منها.

الأصنام، وكان الباطل قد رسم نقوشه علي صفحات الأرض كلها. والآن، كانت هناك حاجة إلى ورقة بيضاء خالية من أي نقش، والتي يكتب عليها طغراء الحق، وكانت هذه هي صحراء الحجاز القفر، والتي لم تشهد أي أثر من آثار التمدن والعمران.

أتى إبراهيم عليه السلام بالسيدة هاجر وإسماعيل عليه السلام إلي الجزيرة العربية وأسكنهم بها، وتوفيت السيدة سارة (كما ورد في التوراة بعد فترة وجيزة)، وذهب إبراهيم عليه السلام إلي مكة، وكان إسماعيل عليه السلام قد أصبح شاباً، وبهذا تهيأت اليد المساعدة لإعلان الحق، ورفع كلاهما قواعد بيت صغير مربع.[١]

" **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** " (البقرة: ١٢٧).

حين بني البيت فنزل الوحي الإلهي:

(وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) (٢٧) (الحج:٢٦-٢٧).

ولم يكن هناك في ذلك الوقت وسائل للإعلان والأذان، وكان المكان قفراً، ولم يكن هناك بشر حتى مسافات طويلة، وما تمكن صوت إبراهيم عليه السلام من الخروج خارج حدود الحرم، لكن هذا الصوت العادي عم الدنيا بأسرها من الشرق حتى الغرب، ومن الشمال حتى الجنوب، ومن الأرض حتى السماء.

كتب العلامة الأرزقي في تاريخ مكة، أن ما بناه إبراهيم عليه السلام كان طوله وعرضه كالتالي:

الارتفاع من الأرض حتى السقف:	٢٧ قدم
الطول من الحجر الأسود حتى الركن الشامي:	٩٦ قدم
العرض من الركن الشامي حتى الركن العربي:	٦٦ قدم

وحين تم البناء، قال إبراهيم عليه السلام لإسماعيل عليه السلام ائتني بحجر حتى أضعه في هذا المكان حيث يبدأ الطواف. وورد في تاريخ مكة المعروف "الإعلام بأعلام البيت الحرام:

فقال إبراهيم لإسماعيل عليهما الصلاة والسلام: يا إسماعيل آتيني الحجر أضعه، حتى يكون علما للناس يبتدئون منه الطواف.

---

(١) يري بعض الباحثين أن إبراهيم عليه السلام رفع قواعد مبني الكعبة المتهدم ثانية. للمزيد، ارجع إلي سيرة النبي، ج ٥، باب الحج، انظر في عنوان مكة المكرمة والكعبة. (سيد سليمان الندوى).

كان قد شُيد بيت الله تعالي هكذا بطريقة بسيطة، بدون سقف ولا باب ولا قوائم، وحين تولي "قصي بن كلاب" الكعبة، هدم المبني القديم وبناه من جديد، وجعل سقفها من جذوع النخل.(١)

وبدأ الناس يعيشون حول الكعبة أو بالقرب منها، بفضل بركتها وجاذبيتها، فأتت قبيلة جرهم أولاً واستوطنت بجوارها، وكان "مضاض بن عمرو الجرهمي" شخصية فاضلة في هذه القبيلة، وتزوج إسماعيل عليه السلام ابنته وأنجب منها ١٢ ولداً، وردت أسمائهم في التوراة. ومن بينهم "قيدار" الذي ينتمي إليه أكثر أهل العرب. وبعد وفاة إسماعيل عليه السلام، تولى ابنه الأكبر "نابت" الكعبة، وحصل جده لأمه "مضاض" علي هذا المنصب بعد وفاته. بهذا انتقلت ولاية الكعبة من بني إسماعيل إلى قبيلة جرهم، ثم استولت قبيلة خزاعة علي الكعبة، وظل هذا المنصب زمناً في أيدي هذه الأسرة، وكان بنو إسماعيل موجودين، إلا أنهم لم يحاولوا الحصول علي هذا المنصب بالقوة. ثم جاء عهد قصي بن كلاب، فأعاد حق آبائه، وسوف يأتي ذكره تفصيلاً فيما بعد.

وكان اسعد تبع ملك حمير اليمني أول من كسي حرم الكعبة، وكان في اليمن يُنسج نوع خاص من القماش يطلق عليه "برو يماني"، كان يصنع منه هذا الكساء. وكان قد فرض رسماً علي القبائل كلها من أجل كساء الكعبة، وهذا منذ عهد قصي بن كلاب. كتب العلامة الأرزقي أن النبي ﷺ أيضًا كان قد كسي (الكعبة) كساءً يمنياً، ولكن الواقدي راوٍ لسلسلة هذه الرواية.(٢)

لم يكن بيت الله تعالى في حاجة إلى نقش وزخرفة بالذهب والفضة، ولكن هذا كان من دواعي الثروة ورقي الدولة، لذا حين فاز عبد الله بن الزبير بالخلافة فوضع

---

(١) الأعلام، نقلا عن كتاب النسب بكار وابن الماوردي.

(٢) كان عمر بن الخطاب قد كسي الكعبة كساءاً قباطياً في عهده والذي كان يصنع في مصر، وجري العرف من بعده علي أن كل خليفة كان يكسى الكعبة إبَّان خلافته، وقد كسي بنو أمية كساء الديباج، وكان المأمون الرشيد يكسى الكعبة ثلاث مرات في السنة بكساء الديباج الأحمر في الحج والقباطي في رجب والديباج الأبيض في عيد الفطر. وحين جلس السلطان الصالح بن السلطان قلاوون علي عرش مصر فأوقف قريتين من أجل الإنفاق على كساء الكعبة. وحين حكمت الأسرة التركية القسطنطينية فأضاف السلطان سليمان عدة قرى أخرى (الإعلام بأعلام بيت الله الحرام)ورد تاريخ ستار حرم الكعبة تفصيلاً في فتوح البلدان للبلاذري وفي تاريخ مكة للأزرقي وفي معجم البلدان. ونحن قد اعتمدنا على كتاب الإعلام بإعلام بيت الله الحرام باعتباره أنه جامع وظهر بعد هذه المؤلفات كلها.

سبائك ذهبية على أعمدة الكعبة. وأرسل عبد الملك بن مروان ٣٦٠٠٠ دينار لمثل هذا العمل. وتصدق أمين الرشيد بـــ ١٨٠٠٠ دينار لطلاء قوائم الباب وغيرها. ورد تفصيلاً في كتاب تاريخ مكة عن طلاء الكعبة في مختلف العصور، ولكن هذه الأحداث تتعلق بفترة ما بعد عهد النبوة، وهذا ليس موضوع كتابنا، ولكني أقول لك: إن أردت الصدق، فالشمس ليست في حاجة إلى طلاء الذهب.

تضحية إسماعيل

حين بُنى بيت الله، كان لابد أن تبتعد أي نفس عن كل المشاغل، وتنذر حياتها لخدمته ورعايته، وكان يعبر عن مثل هذا النوع من النذر في الشريعة الإبراهيمية بالذبح، وقد ورد هذا المسمى بكثرة في التوراة.

ذكرنا سابقًا أن الوحي الذي ينزل على الأنبياء له أنواع مختلفة، والتي من بينها الرؤيا. وورد في صحيح البخاري في باب بدء الوحي، أن الوحي الذي ينزل أولاً على رسول الله ﷺ نزل عن طريق الرؤيا. وهذه الرؤيا تكون أحياناً تمثيلية كما رأى يوسف عليه السلام الشمس والقمر والنجوم ساجدين له. خلاصة القول هو أن إبراهيم عليه السلام تراءى له في الرؤيا أنه يذبح ابنه بيده، واعتبر أن هذه الرؤيا رؤيا عينية، وأستعد لتنفيذها بعينها.

كان إبراهيم عليه السلام واثق بتضحيته واستقلاله التام، لكن هذا الأمر كان يحتاج إلى تحقيق، وهل يمكن للفتى أن ينظر إلى السكين وهي تذبح رقبته أم لا ؟

يخاطب إبراهيمُ الابنَ ويقول:

" قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى " (الصافات:١٠٢).

فأجاب الابنُ بكل رضا:

" قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ " (الصافات: ١٠٢).

والآن نرى أنه كان شيخاً ضعيفاً في التسعين من عمره، والذي قد منح بسبب دعائه عين ومصباح أسرة النبوة، وهو أحب إليه من الدنيا كلها، وقد استعد الآن وشمر عن ساعديه، وفي يده السكين ليذبح حبيبه هذا.

وعلى الصعيد الآخر، نرى ابناً صبياً، والذي منذ طفولته وحتى تلك اللحظة قد تربى في حضن عيون حب الأب، يبدو الأب له الآن بأنه ذابحه. وكانت الملائكة والكون وما به ينظرون إلى هذا المشهد العجيب، وفجأة يأتي الصوت من الله تعالى:

" وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ "

(الصافات ١٠٤، ١٠٥)

ويقول الشاعر: قدم الابن بكل رضا وبكل عزم وإرادة وإيثار نفسه للتضحية؛ ولذا كانت التضحية تذكارا له في الدنيا حتى يوم القيامة.[1]

---

[1] طغيان نازبين كه جكر كوشه خليل در زير تيغ رفت وشهيدش نمى كنند.(أشكر الشكر الجزيل للأخ الأستاذ عرفات على تفضله بنقل الأشعار الفاسية إلى العربية.المترجم)

سرد نسب النبي (ﷺ)

سرد النسب

وهذه هي سلسلة نسب محمد ﷺ: هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وتمتد سلسلته إلى هذا الحد فقط في صحيح البخاري (باب مبعث النبي)، ولكن الإمام البخاري قد عد الأسماء من عدنان حتى إبراهيم عليه السلام في تاريخه، وهي: عدنان بن عدد[١] بن مقوم بن تارح[٢] بن يشجب بن يعرب بن ثابت بن إسماعيل بن إبراهيم.

كان لإسماعيل عليه السلام اثنى عشر أبناً، والذين ورد ذكرهم في التوراة،[٣] ومن بينهم استوطن أولاد قيدار في الحجاز، وانتشروا، وعدنان من أولاده، ومحمد ﷺ من أولاده. وكان النسابون العرب لا يحفظون الأجيال كلها، لذا ورد في الأنساب ثمان أو تسع أجيال فقط من عدنان حتى إسماعيل عليه السلام. ولكن هذا ليس بصحيح، إذ أنه لو كان هناك تسع أو عشرة أجيال فقط من عدنان حتى إسماعيل عليه السلام، فلن يزيد هذا العهد عن ثلاثمائة سنة وهذا يخالف الشواهد التاريخية تماماً. يكتب العلامة السهيلي في روض الأنف (ص ٨):

---

[١] بالرجوع إلى السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق الشيخ محمد بيومي، ص٩ نجد أن اسمه أدد. (المترجم).

[٢] ورد هذا الاسم في سيرة بن هشام " تيرح " (المترجم).

[٣] ورد ذكر أبناء إسماعيل عليه السلام الاثنى عشر في التوراة، سفر التكوين، إصحاح ٢٥، الفقرات ١٢ - ١٨. وهذا نصه بالعبرية:

ואלה תולדות ישמעאל בן - אברהם אשר ילדה הגר המצרית שפחת שרה לאברהם: ואלה שמות בני ישמעאל בשמותם לתולדותם בכר ישמעאל נבית וקדר ואדבאל ומבשם: ומשמע ודומה ומשא: חדד ותימא יטור נפיש וקדמה: אלה הם בני ישמעאל ואלה שמותם בחצריהם ובטירותם שנים - עשר נשיאם לאומותם: ואלה שני חיי ישמעאל מאת שנה ושלושים שנה ושבע שנים ויגוע וימת ויאסף אל - עמיו: וישכנו מחוילה עד - שור אשר על - פני מצרים באכה אשורה על- פני כל - אחיו נפל: (المترجم).

ويستحيل في العادة أن يكون بينها أربعة آباء أو سبعة كما ذكر بن إسحاق، أو عشرة أو عشرون، فإن المدة أطول من ذلك كلّه. وأثبت السهيلي بمَصادر وشهادات تاريخية كثيرة أنه كان هناك أربعون جداً من عدنان حتى إسماعيل. وأثبت السهيلى بمصادر وشهادات تاريخية كثيرة أنه كان هناك أربعون جداً من عدنان حتى إسماعيل. وقد أعطى هذا الخطأ الفرصة لبعض المؤرخين المسيحيين أن ينكروا تماماً أن الرسول ﷺ من أولاد إبراهيم عليه السلام.[1]

وكان من أكبر أسباب هذا الخطأ، هو أن أهل العرب كانوا يكتفون بذكر أسماء المشهورين على الأغلب، وكانوا يتركون الأسماء غير المشهورة، التي ترد في الوسط. هذا فضلاً عن أنه لما كان عند العرب يقين قطعي بأن عدنان يرجع إلى إسماعيل عليه السلام، لذا كانوا يحاولون فقط الوصول بسلسلة النسب إلى عدنان بطريقة صحيحة، وكانوا يرون أن ما سبق من أسماء شخصيات غير ضرورية. وعليه، كانوا يأخذون أسماء بعض المشهورين ويتركون الآخرين. ولكن هناك محققون في اللغة العربية، أيضاً كانوا على دراية بهذا التقصير والإهمال. كتب العلامة الطبري في كتاب" التاريخ " أن بعض النسابين كتبوا عني بأنني رأيت علماء في العرب، كهؤلاء الذين كانوا يذكرون أربعون جدا من معد حتى إسماعيل عليه السلام. وكانوا يقدمون أشعار العرب كدليل. كما ذكر هذا الشخص أيضاً بأنني حين خلطت هذه السلسلة بتحقيقات أهل الكتاب، كان عدد الأجيال متساوياً، ولكن كان هناك فرق في الأسماء.[2] كما كتب هذا المؤرخ نفسه في موضع آخر، بأنه كان في مدينة تدمر يهودي يدعى " أبو يعقوب "، وكان قد اعتنق الإسلام، ذكر بأن شجرة نسب عدنان التي كان قد كتبها كاتب النبي إرميا موجودة عندي.[3] ويوجد في

---

(1) أراد سروليم أن يثبت أن النبي ﷺ لم يكن من أولاد إسماعيل عليه السلام وهذه هي عبارته (هناك رغبة في أن يعتقد بأن نبي الإسلام من أولاد إسماعيل عليه السلام، وهذه المحاولة على الأرجح أي إثبات نسبه لإسماعيل قد وجدت في حياته نفسها وعليه فقد ظهرت سلاسل النسب الأولية الإبراهيمية لمحمد وألفت قصص لا حصر لها لإسماعيل عليه السلام وبني إسرائيل نصفها يهودي ونصفها الأخر عربي (ولكن سروليم يمثل فريقاً بمفرده في شكه هذا، أما الفريق الثاني فهو كثير من المؤرخين الأوروبيين واليهود، والذين لا يسلمون فقط بأن قبيلة قريش إبراهيمية النسب بل يقرون بأن شمال بلاد العرب والحجاز بأسره من نسل إبراهيم)، (انظر تاريخ جغرافية العرب لفار ستر).

(2) تاريخ الطبري، طبعة أوروبا، ج٣، صـــ ١١١٨.

(3) المرجع السابق، صـــ ١١١٥.

هذه الشجرة أربعون اسماً أيضاً من عدنان حتى إسماعيل‎ﷺ. على أية حال، الأمر اليقيني هو أن عدنان من ولد إسماعيل ‎ﷺ ومحمد ﷺ من نسل عدنان.

نشأة قبيلة قريش

كانت قبيلة النبي ﷺ معززة وممتازة أباً عن جد،[١] وكان النضر بن كنانة هو أول من لَقب هذه القبيلة بلقب قريش. ويرى بعض الباحثين أن "فهر" هو أول من لُقب بقريش، وأولاده هم القرشيون. ويكتب الحافظ العراقي في السيرة المنظومة:

أما[٢] قريش فالأصح فهر جماعها والأكثرون النضر

قصي

حصل فهر بعد النضر، وحصل قصي بن كلاب بعد فهر على عزة ونفوذ كبير، وكان في ذلك الوقت خليل [٣] الخزاعي متمتعاً بولاية البيت، وكان قد تزوج قصي من ابنة خليل. والتي كانت تدعى "حبي "، وعليه فقد أوصى خليل وهو يموت بتولية قصي

---

(١) يشهد على هذا كل حرف من حروف تاريخ العرب ولكن مارجوليوث بذل جهداً مضنياً حتى يثبت قلة شأن قبيلة النبيﷺ. وهذا هو قوله " ظاهر تماماً أن محمد كان من قبيلة فقيرة وقليلة الدرجة ". ثم استدل على هذا بما يلي:-

١- ورد في القرآن الكريم أن قريش تعجبت لما يبعث الله فيهم رسولاً من قبيلة عظيمة.

٢- شبهت قريش الرسول في وقت ظهور النبوة بشجرة تنبت في مزبلة

٣- حين خاطب رجل الرسول ﷺ بلفظ " مولي " فأنكر الرسول هذا اللقب.

٤- قال النبي ﷺ يوم فتح مكة اليوم نهاية شرفاء الكفار.

يقول الله تعالى:(وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)(الزخرف:٣١)

إن لفظي عظيم وشريف لفظان متغايران في المعنى، وفي القرآن يطلق لفظ عظيم على الأثرياء وذوي السلطة من العرب ولم ينكر بهما شرف النبي، بل إنكار الجاه والثراء، ولو أن الاستدلال الثاني صحيح فيجب التسليم بكل قول الأعداء. إذ قال الكفار أن الرسول ﷺ مجنون وساحر وشاعر فأي قول صحيح منهم، ولا شك في أن الرسول رفض لفظ المولى والسيد، ولكن ورد تصريح بين في أحاديث كثيرة أن النبي أشار إلى عدم مناداته ﷺ بالسيد أو المولى، فالمولى والسيد هو الله. وفي القرآن الكريم عامة أطلق لفظ المولى على الله وعليه كيف ينفي شرف قبيلته ﷺ ومكانتها؟

والاستدلال الأخير محير، فكيف يثبت عن طريقه دنو درجة قبيلته ﷺ ؟ والمراد من شرفاء مكة هنا هم جبارو ومتكبرو مكة، ونقل السيد مارجوليوث هذه الأدلة عن نولدكه المستشرق الألماني المعروف.

(٢) الزرقاني،ج١،صـ ٩٠.

(٣) أورده ابن هشام في سيرته "خليل"، وربما يكون الخطأ هنا من الكاتب وليس المؤلف.(المترجم).

خدمة الحرم وبهذه الطريقة فاز بهذا المنصب. أسس قصي دار المشورة، والتي تسمى بدار الندوة. وحين كانت قريش تعد لأي جلسة أو لأي حرب، كانوا يقيمونها في هذه الدار، كما كانت تخرج منها القوافل أيضاً، وتعقد فيها مراسم الزواج وأي حفلات أخرى.

وقام قصي بأعمال كبيرة. والتي ظلت خالدة لفترات طويلة من مثل السقاية[١] والرفادة، والتي كانت أكبر مناصب خدام الحرم، جمع أهل قريش وخطب فيهم بأنه يأتي الناس لزيارة الحرم من آلاف الأميال وفرض ضيافتهم على قوم قريش. وعليه، حددت قريش مبلغا سنوياً حتى يوزع الطعام على الحجيج في منى ومكة المكرمة. هذا بالإضافة إلى أنه بنى حوضاً جلدياً بالمياه في موسم الحج حتى يستفيد منه الحجاج، والمشعر الحرام من أعماله، والذي كانت تشعل المصابيح عليه في موسم الحج. وصرح العقد الفريد بهذا. ونال قصي قدراً كبيراً من الشهرة جعل البعض يقول إنه أول من لقب بلقب قريش.[٢] وكتب ابن عبد البر في العقد الفريد هذا أيضاً وصرح بأن قصي جمع القبائل وأسكنهم حول الكعبة، لذا أطلق عليه قريش. لأن لفظ تقريش يعني الجمع، وعليه كان يقال له المُجَمِع فيقول الشاعر:-

قصي أبوكم من يسمى مجمعاً به جمع الله القبائل من فهر

كان لقصي ستة أولاد؛ عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبد بن قصي وتخمر وبرة. وولي قصي قبل موته مناصب الحرم كلها لعبد الدار أكبر أبنائه، مع أنه لم يكن كفئا من بين جميع الأخوة، ولكن عبد مناف حصل على رياسة قريش بعد قصي، وإلى أسرته ترجع أسرة النبي ﷺ. وكان لعبد مناف ستة أبناء. وكان هاشم يكثرهم جميعاً صولة ونفوذاً، وهو الذي حث أخوته على استرجاع كل مناصب الحرم التي أعطيت لعبد الدار،

---

(١) والمقصود بالسقاية هنا هو سقي الحجيج ماء زمزم، وبالرفادة هو إعداد الطعام والشراب للحجيج.

(٢) يوجد ذكر مفصل عن قصي بن كلاب في طبقات ابن سعد في الجزء الأول، طبعة ليدن سنة ١٣٢٢هـ، من صـ٣٦ إلى صـ٤٢. وهناك خلاف في وجه تسمية قريش، يقول البعض أن لفظ قريش يعني الجمع، وقد جمع قصي الناس في قرابة رباط واحد،لذا أطلق لفظ قريش،ويقول البعض أن لفظ قريش يعني اسم سمكة تأكل كل السمك،ولما كان قصي زعيما ذو شأن عظيم؛ لذا شبه بهذا السمكة. وهناك اعتقاد عام وهو أن قريش اسم لقصى أو اسم لأي شخص أخر، ولكن تحقيق الإمام السهيلي هو أن هذا اسم قبيلة فكانت العرب يسمون القبائل بأسماء الحيوانات مثل أسد، ونمر وغيرها. ويرى المؤرخون الأوروبيون أن القبائل كانت تعبد الحيوانات، وكانت تعرف باسم هذه الحيوانات، ولكن لا يوجد أثر هذا في التواريخ العربية.

فهو ونسله ليسوا كُفئاً لهذا المنصب فرفضت أسرة عبد الدار، وبدأت العدة للحرب وفي النهاية انتهى الأمر بالصلح على أن تؤخذ السقاية والرفادة من بني عبد الدار وتعطي لهاشم.

هاشم

قام هاشم بواجبه كما يجب، فكان يطعم الحجيج بكل سخاء، وكان يملأ الأحواض الجلدية بالماء ويضعها سبيلاً عند زمزم ومنى، وارتقت التجارة في عهده ارتقاءً، وراسل قيصر الروم وحصل منه على تصريح ينص على أنه حين تمر قوافل قريش التجارية من بلاد الروم فلا تحصل منها أي ضريبة. كما حصل من النجاشي ملك الحبشة على مثل هذا التصريح أيضاً، لذا كان العرب يذهبون من أجل التجارة إلى اليمن شتاءً وإلى الشام حتى الروم صيفاً. وكانت انكوريه (أنقرة)؛ إحدى مدن الروم المشهورة، عاصمة لقيصر الروم في تلك الفترة. وحين كان يذهب تجار قريش إلى انكوريه (أنقرة)، كان القيصر يستقبلهم بترحاب وحفاوة بالغة.

لم تكن الطرق مأمونة في بلاد العرب، لذا زارت هاشم قبائل كثيرة، وعقد معها معاهدة على ألا يلحق قوافل قريش التجارية أي ضرر. وعليه، كانت قوافل قريش تأخذ ما تحتاجه هذه القبائل من مشتريات وتذهب إليها، وتبيع وتشتري منها، وكان هذا هو السبب في أن قوافل قريش التجارية كانت في أمن وأمان دائماً على الرغم من انتشار النهب في بلاد العرب.[1]

ذات مرة نزل القحط في مكة، فهشم هاشم الثريد وأطعم الناس إبّان فترة القحط، واشتهر منذ ذلك الوقت باسم هاشم، فهاشم لفظ عربي، وهو اسم فاعل للفعل هشم أي كسر وفتت.

ذات مرة ذهب هاشم إلى الشام بغرض التجارة، وأقام وهو في طريقه فترة في المدينة المنورة. وكان هناك سوق يقام عاماً بعد عام، فذهب إلى السوق، ورأى امرأة بدت له عفتها وشرفها من حركاتها وسكناتها، فضلاً عن حسنها، فاستخبر عنها، وعلم أنها سلمى من قبيلة بني النجار، فتقدم هاشم للزواج منها، وقبلت هي الأخرى هذا الزواج، وتم النكاح وبعده ذهب إلى الشام، ووصل إلى غزوة وتوفي بها. وكانت سلمى قد حملت منه، وأنجبت ولداً سمي شيبة، وعاش في المدينة حتى سن الثامنة، وحين عرف المطلب – أخ

---

[1] كتاب الأمالي لأبي علي القالي.

هاشم – بهذا، ذهب إلى المدينة وبحث عن ابن أخيه، وحين علمت سلمى بقدومه، استدعته وحل ضيفاً لثلاثة أيام وفي اليوم الرابع أصطحب شيبة وغادر إلى مكة المكرمة. وكان عمر الفتى ثمان سنوات، وأطلق عليه في مكة مسمى عبد المطلب.

ويعني مسمى عبد المطلب في اللغة غلام المطلب، لذا نقل أرباب السير أقوالاً كثيرة في وجه هذه التسمية، والتي أرجحها هو أن المطلب كان قد رباه، وكان هذا (الغلام) يتيماً؛ لذا أشتهر كما يطلق العرب أنه غلام (عبد) المطلب.[١] وكان من أكبر أعمال عبد المطلب هي أنه حفر بئر زمزم الذي كان أندثر وتاهت معالمه، فأُعلم عبد المطلب بمكانه، وحفره ثانية ورممه جيداً.

كان قد تمنى أنه إذا رزق بعشرة أبناء فسوف ينذر أحدهم لله، استجاب الله تعالى له، فأخذ العشرة أبناء وذهب إلى الكعبة، وقال للكاهن: اضرب القداح بينهم وانظر على اسم من تثبت القرعة، فخرج القداح على عبد الله، فأخذه وذهب إلى المذبح، فأخذت أخوات عبد الله يجهشن بالبكاء، وقلن: قدم عشرة إبل من الإبل مكانه واتركه. فطلب عبد المطلب من الكاهن أن يضرب القداح على عبد الله وعلى عشر من الإبل، فوقعت القرعة على عبد الله، فلم يزل يزيد من الإبل عشرًا عشرًا ولا تقع القرعة إلا عليه، إلى أن بلغت الإبل مئة فوقعت القرعة عليها، فنحر عبد المطلب مئة من الإبل، ونجا عبد الله. وهذه رواية الواقدي، ويذكر ابن إسحاق أن فكرة معاوضة الإبل كانت اقتراح زعماء قريش.[٢]

واشتهر خمسة من بين أبناء عبد المطلب العشرة، أو الاثني عشر بسبب ميزة الإسلام أو الكفر وهم: أبو لهب، وأبو طالب، وعبد الله، وحمزة، والعباس. وهناك اعتقاد سائد؛ وهو أن أبا لهب ليس الاسم الأصلي لأبي لهب، وهذا لقب كان النبي ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم قد لقبوه به، ولكن هذا خطأ، فقد صرح ابن سعد في " طبقات ابن سعد " أن عبد المطلب نفسه هو الذي كان قد لقبه بهذا اللقب، إذ كان أبو لهب جميل الصورة جداً، وكان العرب يطلقون "شعلة النار" على صاحب الوجه الأشقر، وفي الفارسية يوجد أيضاً لقب الوجه الناري.[٣]

---

[١] تاريخ الطبري، صـ ١٠٨٨-١٠٨٩،ج٣ " سيد سليمان الندوي ".

[٢] انظر الزرقاني، ج١، ص٨٥.

[٣] اتشين رخسار.

وحين نجا عبد الله من الذبح، بدأ عبد المطلب التفكير في زواجه، وكانت آمنة ابنة وهب بن عبد مناف من قبيلة زهرة لها سمعة طيبة بين كل قبائل قريش[1] وكانت في ذلك الوقت تعيش مع عمها وهيب فذهب عبد المطلب إلى وهيب وطلبها منه لابنه عبد الله، فوافق وتم النكاح، كما تزوج عبد المطلب نفسه بهالة ابنة وهيب والتي أنجب منها حمزة ﷺ، وعليه فكانت هالة خالة النبي ﷺ، وحمزة ابن خالة النبي ﷺ.

كان العرف يجري على أن يمكث الزوج ثلاثة أيام في بيت أهل العروس، فمكث عبد الله ثلاثة أيام، ثم عاد إلى بيته وكان عمره وقت ذاك يزيد قليلاً عن ١٧ سنه [2].

ذهب عبد الله إلى الشام للتجارة ونزل في المدينة وهو عائد، وأصيب بمرض فأستقر بها،وحين علم عبد المطلب بهذا أرسل أكبر أبنائه الحارث لتقضي الأمر،وحين وصل إلى المدينة كان قد توفي عبد الله، ولما كان عبد الله محبوباً في القبيلة حباً جماً،لذا أصيبت القبيلة بصدمة بالغة.

وترك عبد الله تركه عبارة عن إبل وماعز وأمه؛ والتي كانت تدعى أم أيمن، فورث النبي ﷺ هذه الأشياء كلها.[3] وكان "بركة" هو الاسم الأصلي لأم أيمن.

---

[1] سيرة أبن هشام (في حاشية زاد المعاد، مصر، ج١، صـ٨٥) " سيد سليمان الندوي "

[2] الزرقاني، ج١، صـ١٢٢، سطر ٧.

[3] طبقات ابن سعد، ج١، القسم الأول، ص٦٢ " سيد سليمات الندوي ".

مولد النبي ﷺ

المولد

يذكر أرباب السير أنه في ليلة ذلك اليوم سقطت أربع عشر شرفة من إيوان كسري، وخمدت النار التي يعبدها المجوس وجفت بحيرة ساوة، ولكن الحقيقة هي أنه لم يسقط إيوان كسري فقط؛ بل سقطت قصور شأن وجاه العجم، وشوكة الروم وعظمة الصين، ولم تخمد نار فارس فقط؛ بل خمد جحيم الشر ونار الكفر والضلال. وبدأ التراب يطير في المعابد والتصقت المعابد بالتراب، وتشتتت وتناثرت المجوسية، ووقعت أوراق خريف النصرانية واحدة تلو الأخرى.

وظهرت قوة التوحيد، وأتى الربيع في حدائق السعادة، وانتشرت أشعة شمس الهداية في كل مكان، وتلألأت القداسة والطهارة في مرآة الأخلاق الإنسانية.

أي يتيم عبد الله! فلذة كبد آمنة سيد الحرم، وسيد العرب، وسيد العالم، وسيد الكونيين، وخاتم الأنبياء والمرسلين؛ فهو أحمد ومحمد، مرسل للبشر كلهم، ولكنه فاق الفصاحة فصاحة وبلاغة من ألف آدم حتى ميم المسيح، فقد شرف عالم الدنيا بميلاده، اللهم صلي عليه وعلى آله وأصحابه وسلم.

تاريخ الميلاد

عن تاريخ ميلاده كتب عالم الفلك والمساحة المصري المشهور محمود باشا رسالة، والتي أثبت فيها بأدلة رياضية أن ميلاد النبي ﷺ كان في ٩ ربيع الأول يوم الاثنين الموافق ٢٠ابريل ٥٧١.(١)

---

(١) استدل العالم الفلكي على هذا في صفحات كثيرة، وخلاصتها:

أ ــ ورد في صحيح البخاري أن الشمس قد خسفت عند وفاة إبراهيم بن محمد ﷺ، وكان هذا في سنه ٢١٠ هــ وكان النبي حينئذ في عمر الثالثة والستين.

ب ــ يبدو من الحساب طبقاً للقواعد الرياضية أن الخسوف سنة ١٠هــ كان في ٧ يناير ٦٣٢ م في الساعة الثامنة والنصف.

ج- ويثبت من هذا الحساب أنه لو نرجع ١٣ سنة قمرية فتكون سنة ميلاده ﷺ ٥٧١م، وطبقاً للقواعد الرياضية يكون التاريخ هو غرة ربيع الأول الموافق ١٢ إبريل ٥٧١ م.

سمي محمد، ويُذكر عامة أن عبد المطلب هو الذي سماه بهذا الاسم.

الرضاعة

أرضعته أمه ﷺ يومين أو ثلاثة، وأرضعته بعدها ثويبة (جارية أبى لهب).[1]

حليمة السعدية

أرضعته حليمة السعدية بعد ثويبة، وكانت العادة في تلك الفترة عند رؤساء وشرفاء الحضر أن يرسلوا أولادهم الرضع إلى القرى والبوادي، وكانت هذه العادة بهدف أن يتربى الأولاد عند البدو فتتحقق فيه الفصاحة والبلاغة [2] وتصان خصائص العرب الخالصة.

وحفظ شرفاء العرب على هذه العادة فترة طويلة، بالرغم من أن بنو أمية أسسوا العاصمة في دمشق، وتساووا مع كسري الفرس وقيصر الروم في الأبهة والعظمة الملكية إلا أن أطفالهم كانوا يتربون في منازل البدو في الصحاري، ولم يستطع الوليد بن

ب- يوجد اختلاف في تاريخ الميلاد ولكن هناك اتفاق في أنه كان في شهر ربيع الأول، وكان في يوم الاثنين وينحصر ما بين اليوم الثامن والثاني عشر (من ربيع الأول – المترجم).

هـ- أن في هذه التواريخ المذكورة لربيع الأول يكون يوم الاثنين موافقاً للتاسع، وبناء على هذه الأسباب يكون تاريخ الميلاد قطعاً ٢٠ إبريل ٥٧١م.

(٢) البخاري، باب من يحرم من الرضاعة، ما يحرم من النسب " سيد سليمان الندوى". ورد في البخاري أن النبي ﷺ قال: "أرضعتني وأبا سلمة ثويبة"، وورد في صحيح مسلم: (٣٥٤١) حدثنا أَبُو كُرَيْبٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلاَءِ حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ: أَخْبَرَنَا هِشَامٌ: أَخْبَرَنِي أَبِي عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ فَقُلْتُ لَهُ: هَلْ لَكَ فِي أُخْتِي بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ؟ فَقَالَ: «أَفْعَلُ مَاذَا؟» قُلْتُ: تَنْكِحُهَا. قَالَ: «أَوَ تُحِبِّينَ ذَلِكِ؟» قُلْتُ: لَسْتُ لَكَ بِمُخْلِيَةٍ، وَأَحَبُّ مَنْ شَرِكَنِي فِي الْخَيْرِ أُخْتِي. قَالَ: «فَإِنَّهَا لاَ تَحِلُّ لِي». قُلْتُ: فَإِنِّي أُخْبِرْتُ أَنَّكَ تَخْطُبُ دُرَّةَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ. قَالَ: «بِنْتَ أُمِّ سَلَمَةَ؟» قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «لَوْ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ رَبِيبَتِي فِي حِجْرِي، مَا حَلَّتْ لِي. إِنَّهَا ابْنَةُ أَخِي مِنَ الرَّضَاعَةِ، أَرْضَعَتْنِي وَأَبَاهَا ثُوَيْبَةُ، فَلاَ تَعْرِضْنَ عَلَيَّ بَنَاتِكُنَّ وَلاَ أَخَوَاتِكُنَّ».(المترجم).

(٣) كتب الإمام السهيلي هذه الأحداث تفصيلاً، كما نقل هذا الحديث أيضاً أن النبي ﷺ كان يقول: أنا فصيح لأني تربيت في قبيلة بني سعد (الروض الأنف، ج١، صـ ١٠٩ " سيد سليمان الندوى) ويكتب سر وليم ميور في كتاب " حياة محمد "، أن الحالة الجسمانية لمحمد كانت جيدة جداً، وكانت أخلاقه طيبة، وكان ذو عزة، وهذا لأنه عاش حتى سن الخامسة في بني سعد، ولذا كان حديثه نموذجًا يوافق نماذج شبه الجزيرة العربية " الأصلية ".

عبد الملك لأسباب خاصة الذهاب إلى هنا - وتربى في القصر الملكي ونتج عن هذا أنه كان الشخص الوحيد في بني أمية الذي لا يستطيع أن يتحدث العربية بفصاحة [١]

خلاصة القول أنه حسب العرف المذكور كانت النساء تأتي مرتين في السنة من البادية إلى المدينة، وكان شرفاء الحضر يعطونهم أطفالهم الرضع، وعلى هذا جاءت بعض نساء من قبيلة هوازن تبحث عن أطفال بعد ولادة النبي ﷺ بعدة أيام، وكانت من بينهن السيدة حليمة السعدية [٢] والتي لم تحصل صدفة على أي رضيع

وأرادت أم النبي أن تعطيها رضيعها، لكن حليمة قالت (لنفسها) ما عسى أن أفعل بطفل يتيم، ولكنها لم تستطع الذهاب خالية اليدين، لذا قبلت طلب السيدة آمنة، واصطحبت النبي وغادرت. وكان لها ابنة تدعى الشيماء والتي ألفت وأنست بالنبي كثيراً وكانت تلاعبه ﷺ. ثم أحضرته ﷺ حليمة إلى مكة بعد سنتين، وأعطته لأمه ﷺ ولكن لما كان قد انتشر وباء في مكة في تلك الفترة، قالت لها أمه ﷺ عودي به، لذا اصطحبته إلى بيتها مرة ثانية. ويوجد خلاف في: كم سنة قضاها النبي ﷺ عند السيدة حليمة ؟ كتب ابن إسحاق بثقة ستة سنوات.

كانت قبيلة هوازن معروفة بفصاحتها وبلاغتها. وروى ابن سعد في كتابه " الطبقات " أن الرسول ﷺ كان يقول " أنا أفصحكم جميعاً، إذ أني من قبيلة قريش، ولغتي لغة بني سعد "[٣] ويطلق مسمى بني سعد على قبيلة هوازن ذاتها.

كان النبي ﷺ يحب السيدة حليمة كثيراً، وحين أتته في عهد النبوة، قال ﷺ " أمي أمي " وعانقها. وسيأتي فيما بعد ذكر هذه الأحداث الممتعة.

كتب ابن كثير رحمه الله أن السيدة حليمة توفيت قبل بعثة النبي ﷺ، لكن هذا ليس صحيحاً. فقد صرح " ابن أبي خيثمة في كتابه " التاريخ "، وابن الجوزي في " الحداء "، والمنذري في " مختصر سنن أبي داود "، وابن حجر في " الإصابة " باعتناقها الإسلام.

---

(١) ابن الأثير، ج٥، صـ ٦، طبعة ليدن " سيد سليمان الندوى".

(٢) كتب السهيلي: كان العرب ينظرون إلى الرضاعة وأخذ الأجرة عليها على أنها أمر غير طيب. وعليه، شاع هذا المثل بينهم "الحرة لا تأكل بثديها". ولذا يبين السهيلي السبب في (أمر السيدة حليمة) وهو أنه كان قد نزل القحط في تلك السنة، لذا اضطرت السيدة حليمة وقبيلتها إلى قبول هذا العمل، ولكن ورد في كتب التواريخ جميعها، أن النساء كن يأتين مكة سنوياً لهذا العمل.

وأرى أن اعتبار هذا العمل عيباً لم يكن اعتقاد عام لدى العرب، بل خص بأهل الحضر والأمراء.

(٣) طبقات ابن سعد، ج١، ص ٧١.

وكتب الحافظ المغلطائي رسالة مستقلة عن إسلامها بعنوان " التحفة الجسيمة في إثبات إسلام حليمة ".[1]

واسم زوج السيدة حليمة (والد النبي في الرضاعة) هو الحارث بن عبد العزى، وجاء مكة بعد بعثة النبي ﷺ واعتنق الإسلام. [2] إذ جاء الحارث النبي ﷺ وقال: أ أنت الذي تقول هذا ؟ قال النبي: أما والذي نفسي بيده لآخذن بيدك يوم القيامة ولأعرفنك، ثم أسلم الحارث.[3]

---

[1] الزرقاني،ج٣، ص ١٦٦.

[2] الإصابة في أحوال الصحابة، طبعة مصر، مطبعة السعادة، ج ١، ص٢٨٣.

[3] وهذه ترجمة الحارث بن عبد العزى كما وردت فى " الإصابة فى تمييز الصحابة": ١٤٤٠ الحارث بن عبدالعزى بن رفاعة بن ملان بن ناصرة بن قصبة بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن السعدي زوج حليمة مرضعة النبي صلى الله عليه وسلم قال بن سعد يكنى أبا ذؤيب ذكر بن إسحاق في السيرة حدثني أبي عن رجال من بني سعد بن بكر قالوا قدم الحارث أبو النبي صلى الله عليه وسلم مكة فقالت له قريش ألا تسمع ما يقول ابنك إن الناس يبعثون بعد الموت فقال أي بني ما هذا الذي تقول قال نعم لو قد كان ذلك اليوم أخذت بيدك حتى أعرفك حديثك اليوم فأسلم الحارث بعد ذلك وحسن إسلامه وكان يقول لو قد أخذ ابني بيدي لم يرسلني حتى يدخلني الجنة قلت وعند بن سعد حديث آخر مرسل أن هذه القصة وقعت لولد الحارث فأخرج من طريق يحيى بن أبي كثير عن إسحاق بن عبد الله قال كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أخ من الرضاعة فقال للنبي صلى الله عليه وسلم يعني بعد النبوة أترى أنه يكون بعث فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أما والذي نفسي بيده لآخذن بيدك يوم القيامة ولأعرفنك قال فلما آمن بعد بالنبي صلى الله عليه وسلم كان يجلس فيبكي ويقول أنا أرجو أن يأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيدي يوم القيامة ويحتمل أن يكون ذلك وقع للأب والابن وقد سماه بعضهم عبد الله وذكره في الصحابة وكذا سماه بن سعد لما ذكر أسماء أولاد حليمة وسيأتي في الشيماء في حرف الشين المعجمة من أسامي النساء وروى أبو داود من طريق عمر بن الحارث أن عمر بن السائب حدثه أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا فأقبل أبوه من الرضاعة فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه... الحديث. وذكر بن إسحاق أنه بلغه أن الحارث إنما أسلم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فالله أعلم وقد قيل أنه أبو كبشة حاضن النبي صلى الله عليه وسلم الآتي ذكره في الكنى. (المترجم).

إخوانه وأخواته ﷺ في الرضاعة:

كان للنبي ﷺ أربعة إخوة وأخوات في الرضاعة؛ وأسماؤهم هي: عبد الله، وأنيسة، وحذيفة، وحذافة، والتي كانت تعرف بلقب الشيماء. وثابت أن عبد الله والشيماء قد اعتنقا الإسلام، ولا يعرف أي شيء في هذا عن الاثنين الآخرين.

سفره ﷺ إلى المدينة

حين بلغ عمره ﷺ ٦ سنوات، ذهبت به أمه إلى المدينة، وأقامت عند بني النجار أخوال جده ﷺ. وصحبتها أم أيمن حاضنة النبي ﷺ فى هذا السفر. كتب المؤرخون أن أمه ﷺ بسبب قرابة الأخوال هذه ذهبت إلى المدينة. ولكن، أبسبب هذه القرابة البعيدة فقط تسافر هذا السفر الطويل؟ أرى أن ما ذهب إليه بعض المؤرخين صحيح؛ وهو أن السيدة آمنة كانت قد ذهبت إلى زيارة قبر زوجها المدفون في المدينة. على أي حال، أقامت شهراً في المدينة، ثم رجعت، وحين وصلت إلى الأبواء[1] توفيت ودفنت بها. اصطحبت أم أيمن الرسول ﷺ وواصلت طريقها إلى مكة.

وكان النبي ﷺ يتذكر كثيراً من فترة إقامته في المدينة، فحين مر ذات مرة ﷺ على منازل بني عدي بعد الهجرة، فأشار النبي ﷺ أنه أمه ﷺ كانت تقم فى هذا البيت، وأن هذه القناة هي التي تعلم ﷺ فيها السباحة، وأنه ﷺ كان يلعب فى هذا الميدان مع طفلة تدعى أنيسة.[2]

كفالة عبد المطلب

بعد وفاة أمه ﷺ تكفله عبد المطلب، وكان يصحبه معه دائماً.[3]

---

[1] اسم قرية والتي تقع على بعد ٢٣ ميلاً من الحجفة.

[2] طبقات ابن سعد، مجلد ١، ص١٧٣.

[3] إن حب عبد المطلب للرسول ﷺ أمر مسلم به، ولكن شفقة وعطف الجد على الحفيد أمر لا يستسيغه السيد مارجوليوث إذ يقول " لم تكن حالة الصبي اليتيم طيبة، وفي آخر أيامه قال له عمه حمزة وهو سكران على سبيل المزاح، إنه غلام أبيه " (حياة محمد لمارجوليوث ص٤٥ – ٤٩). استدل مارجوليوث بقول حمزة، فى حين أنه يسلم هو نفسه بأن حمزة كان في حالة سكر، وتفصيل هذا كما ورد في البخاري في (غزوة بدر – خمس) إن علي بن أبي طالب حصل على إبلين من غنائم بدر، ولم يكن الخمر قد حرم حتى ذلك الوقت، ومر حمزة مخموراً من هذه الناحية، وشق بطن الإبل وصنع كباباً من القلب والكبد. وحين علم النبي بهذا، ذهب إلى حمزة ولأمه، وكان حمزة مخموراً جداً، وخرجت من لسانه هذه الألفاظ وهو في هذه الحالة. وهل هناك أي دليل يقدم للشهادة أكثر من هذا

توفي عبد المطلب وهو في سن الثانية والثمانين من عمره، ودفن في الحجـون، وكان عمر النبي ﷺ وقتئذ ثمان سنوات. وحين سارت جنازة عبد المطلـب، اصـطحبها النبي ﷺ وكان يبكي بكاءً شديداً من فرط حبه إياه. وكان قد رأى عبد المطلب قبل وفاتـه أن يعهد بكفالة حفيده محمد ﷺ إلى عمه أبي طالب وسوف نتحدث تفصيلاً عن قيام أبـي طالب بهذا الواجب على أكمل وجه، وجدير بالذكر هنا أنه بعد وفاة عبد المطلـب، قلـت فجأة مكانة بني هاشم، وكان هذا هو اليوم الأول الذي يفوز فيه بنو أمية على هاشم مـن حيث السلطة الدنيوية. فقد تمكن حرب من كرسي عبد المطلب، وكان حرب ابناً مشهوراً لأمية، وبقت سقاية الماء للحجيج فقط في يد العباس من بين المناصب الأخـرى. وكـان العباس أصغر أبناء عبد المطلب.

كفالة أبو طالب

كان لعبد المطلب عشرة أبناء من عدة زيجات، وكان من بيـنهم عبـد الله والـد الرسول ﷺ وأبو طالب اللذان كانا أخوين شقيقين، لذا عهد عبد المطلب بكفالة حفيـده ﷺ إلى عمه أبى طالب (شقيق أبيه). وكان أبو طالب يحب محمداً ﷺ حباً جماً، ويقدمه علـى أولاده، فكان لا ينام حتى ينام الرسول ﷺ، كما كان يصطحبه في أي مكان يذهب إليه.

وعلى الأغلب حين بلغ النبي ﷺ عشراً أو أثنى عشر سنة، قام يرعى الغنم. كتب مؤرخ فرنسي معروف، أن أبا طالب كان يقلل ويحقر بمحمد ﷺ، لذا كان يجعله يرعـى الغنم. ولكن الحقيقة هي أنه لم يكن رعي الأغنام عيب عند العرب، وكان أولاد الأمـراء وأكابر الشرفاء يرعون الأغنام. وورد في القرآن الكريم نفسه، " وَلَكُمْ فِيهَا جَمَـالٌ حِـينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ " (سورة النحل، الآية٦). والحقيقة هي أن هذا كان مقدمة لحفظ وحراسة العالم. وكان النبي ﷺ يتحدث عن هذه الهواية اللطيفة البسيطة، فذات مرة ذهـب النبي ﷺ مع الصحابة إلي الغابة، وبدأ الصحابة يقطفون ثماراً ويأكلونها، فأشار النبي ﷺ بأن أكثرها سواداً، أكثرها حلاوة وطعماً، وأشار إلى أن هذه هي تجربته ﷺ في تلك الفترة

على هذه الحالة؟ (أي قال حمزة هذا الكلام وهو مخمور، واعترف بهذا مارجوليوث نفسه، وهذا دليل على اعتراضه. المترجم).

حين كان يرعى الغنم في صباه فى مكة؛ إذ يقول ﷺ : **«ما بَعثَ الله نبيّاً إلاّ رَعَى الغَـنمَ. فقال أصحابهُ: وأنتَ؟ فقال: نعم، كنتُ أرعاها على قَراريطَ لأهلِ مكةَ»** [١].

السفر إلي الشام

كان أبو طالب يشتغل بالتجارة، وكان من عادة قريش الذهاب إلي الشام بغـرض التجارة مرة في السنة. ولما بلغ الرسول ﷺ اثنتي عشرة سنة تقريباً، أراد أبو طالـب أن يرتحل تاجراً إلي الشام حسب العادة، ولم يكن يريد اصطحاب الرسول معه بسبب مشـقة السفر، أو لأي سبب آخر، ولكن الرسولﷺ كان يحب أبا طالب حباً جعله يتعلـق بـأبي طالب حين حان الرحيل، لذا لم يغضبه أبو طالب واصطحبه معه. وتَرد في هذا السـفر ذاته واقعة بحيرا [٢] المشهورة طبقاً لتصريح عامة المؤرخين. وتفصيل هذه الواقعة هـو أنه حين بلغ أبو طالب بصرى، نزل عند صومعته راهب مسيحي يدعى بحيرا، والـذي حين رأى الرسول ﷺ قال:" هذا سيد المرسلين " فقال الناس: وما أعلمك بذلك؟ فقال: إنكم حين نزلتم من الجبل، لم يبق حجر ولا شجر إلا وخر ساجداً.

وقد وردت هذه الرواية بروايات مختلفة. والعجيب هو أنه بقدر ما لدي المسلمين من شغف وحب لهذه الرواية بقدر ما يحبها المسيحيون بل وأكثـر، إذ يعتقـد "سـرووليام ميور"، و" دريبر" و" مارجوليوث" وغيرهم في أن هذه الواقعة، انتصار عظيم للمسيحيين، ويدعون أن الرسول ﷺ تعلم حقائق وأسرار الدين من هذا الراهب، وقد وضع النبي أساس

---

(١) طبقات ابن سعد، صـ ٨،ج ١، ونقل البخاري قول النبى ﷺ هذا في كتاب الإجارة "(٢٢٢٩) حدّثنا أحمدُ بنُ محمدٍ المكيُّ حدَّثنا عمرُو بنُ يحيىٰ عن جَدِّهِ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «ما بَعثَ اللهُ نبيّاً إلاّ رَعَى الغَنمَ. فقال أصحابهُ: وأنتَ؟ فقال: نعم، كنتُ أرعاها على قَراريطَ لأهلِ مكةَ»"(المترجم). ويختلف في معنى قراريط يرى" سويد بن سعيد" شيخ ابن ماجه أن قراريط جمع قيراط والقيراط أسم العملة ويشمل الدرهم أو الدينار، وعليه فهذا اللفظ يعني عنده أن النبيﷺ كان يرعى أغنام الناس بالأجرة، لذا نقل البخاري هذا الحديث في باب الإجازة، ولكن يقول إبراهيم حربي أن قراريط اسم مكان على مقربة من أجياد , وقد رجح ابن الجوزي هذا القول. وكتب العلامة العيني هذا البحث بتفصيل في شرح هذا الحديث وأثبت بالأدلة القوية أن رأى ابن الجوزي صحيح (العيني، ج٦،صـ٦٣١)، ويوجد هذا البحث مع توضيح أكثر في نور النبراس، ولذا رجح هذا الرأي.

(٢) وردت في سيرة ابن هشام" بحيري" طبعة مكتبة الإيمان، ١٩٩٥، القاهرة، صـ ١١٤. (المترجم).

تعاليم الإسلام على ما أخبر به هذا الراهب من أقوال ودقائق، وأركان الإسلام الأساسية شروح وحواشي لهذه الأقوال والنكات.[1]

ولو يعترف المؤلفون المسيحيون بصحة هذه الرواية؛ فلابد من الاعتراف بما ذكر في الرواية، إذ ليس بها ذكر لتعليم بحيرا، ولا يمكن للعقل أن يقبل أن يعلم صبي في سن العاشرة أو الثانية عشر من عمره كل دقائق الدين، ولو كان هناك أي خرق للعادة، فما الحاجة إلى تعب ومشقة بحيرا؟

ولكن الحقيقة هي أن هذه الرواية ليست جديرة بالثقة والاعتبار، لأن طرق رواياتها كلها مرسلة، أي لم يكن الراوي الأول موجودا بنفسه وقت الحدث كما أنه لم يذكر اسم هذا الراوي الذي كان شريكاً في هذه الواقعة.

وأن الطريقة الأكثر سنداً لهذه الرواية هى ما وردت في الترمذي.

وهناك ثلاثة أمور تتعلق بها جديرة بالعناية:

١. كتب الترمذي عن هذه الرواية أنها تدخل في باب الحسن والغريب، ونحن لا نعرف أي طريقة أخرى سوى هذه الطريقة عن هذا الحديث الحسن أقل من الصحيح، وحين يكون الحديث غريباً، تقل درجته أكثر وأكثر.

٢. وأحد رواة هذا الحديث عبد الرحمن بن غزوان، وبالرغم من أن الناس قالوا عنه بأنه ثقة، إلا أن أكثر علماء الحديث ذكروا أنه ليس بثقة. يكتب العلامة الذهبي في ميزان الاعتدال أن عبد الرحمن يروي أحاديث منكرة، وأكثر رواياته المنكرة هي التي ذكر فيها بحيرا.

٣. كتب الحاكم في" المستدرك" عن هذه الرواية، أن هذا الحديث مطابق لشروط البخاري ومسلم ونقل العلامة الذهبي في تلخيص المستدرك قول الحاكم هذا "أعتقد أن بعض وقائع هذا الحديث موضوعة وكاذبة ومصنوعة".[1]

---

[1] يكتب السيد دريبر في " معركة العلم والدين" إن الراهب بحيرا علم محمداًﷺ التعاليم النسطورية في صومعة بصري وتأثر محمدﷺ تأثرا كبيرا بتعاليم أستاذه الدينية بل بأفكاره الفلسفية بفضل فطنته بالرغم من أهميته، ويشهد علي ذلك عمله ومدي تأثيره بالتعاليم الدينية للنسطوريين (اسم لفرقة دينية مسيحية). وأراد" سروليام ميور" أن يثبت بأية طريقة أن نفور محمدﷺ من عبادة الأصنام، وتأسيسه لدين جديد كان كل هذا نتيجة لهذا السفر وتجاربه ومشاهداته المختلفة، ولكن الواضح والظاهر تماماً هو أنه لو فرض أن شارع الإسلام كان تلميذاً للأساتذة المسيحيين هؤلاء فما كان من الممكن أن يوجد في صدره حدة نفور التوحيد الخالص من التثليث الذي يتراءى في كل صفحة من صفحات القرآن.

٤. ورد في هذه الرواية أن بلال وأبا بكر كانا موجودين في هذا السفر؛ في حين أنه لم يكن هناك وجود لبلال في ذلك الوقت وكان أبو بكر طفلاً.

٥. وآخر راوٍ لهذا الحديث هو أبو موسى الأشعري ﷺ، ولم يكن شريكاً في الواقعة ولا يذكر الراوي الذي سبقه. وورد في سلسلة السند في طبقات ابن سعد[٢] فضلاً عن الترمذي أن هذا الحديث إما أن يكون مرسلا أومعضلا. والحديث المرسل هو الذي يرويه التابعي، ولكنه لم يكن شريكاً في الواقعة، ولا يذكر اسم أي صحابي. والحديث المعضل هو الذي يرويه راوٍ قبله راويان صحابي وتابعي ولا يذكر اسم أي أحد منهما.

٦. ويسلم الحافظ ابن حجر- بناء على حبه لفن الرواية- بصحة هذا الحديث، ولكن لما كان وجود أبو بكر وبلال في هذه الواقعة خطأً بداية، لذا اضطر إلي الإقرار بأن هذا الجزء لحق بالرواية خطأ، ولكن ادعاء الحافظ ابن حجر ليس صحيحاً أيضا، وهو أن كل رواة هذه الرواية ثقاة، وكتب الحافظ ابن حجر نفسه عن عبد الرحمن بن غزوان في تهذيب التهذيب" أنه كان يخطئ وبهذا السبب يولد الشك تجاهه في أنه نقل رواية المماليك". يعتقد المحدثون أن رواية المماليك كاذبة ومصنوعة.[٣]

المشاركة في حرب الفجار

كانت الحروب متواترة في بلاد العرب حتى ظهور الإسلام وكانت هذه الحرب أخطر هذه الحروب وأشهرها.

ووقعت هذه الحرب بين قريش وقبيلة قيس، وكانت قبائل قريش كلها قد أعدت كل واحدة منها جيشاً لها في هذه المعركة وكان الزبير بن عبد المطلب حاملا لواء آل هاشم وكان النبي ﷺ شريكاً مع هذا الفريق، واشتد وطيس المعركة وكان الظفر في البداية

---

(١) النبراس في شرح عيون السير لابن سيد الناس، والزرقاني، وميزان الاعتدال، والإصابة (ذكر عبد الرحمن بن غزوان والمستدرك للحاكم مع تلخيص ج٢، صـ ٦١٥) " سيد سليمان الندوي".

(٢) الجزء الأول، القسم الأول، ص٧٥" سيد سليمان الندوي".

(٣) درست ونقدت قصة بحيرا الراهب دراسة كاملة في الجزء الثالث من كتابة سيرة النبي في باب "حيثية رواية المعجزات والأدلة العامة المشهورة"، انظرها. " سيد سليمان الندوي".

لقيس، ثم كان لقريش، وانتهت المعركة بالصلح وكان حرب بن أمية قائد قريش، وهو والد أبي سفيان، وجد الأمير معاوية.

ولما كانت قريش على حق في هذه الحرب، وكان الأمر يتعلق بسمعة واسم القبيلة، لذا شارك فيها النبي ﷺ، وكتب ابن هشام أن النبي ﷺ لم يرفع يده على أحد، وقد صرح الإمام السهيلي بوضوح بأن النبي ﷺ لم يشارك في هذه الحرب وهذا قوله: "وإنما لم يقاتل رسول الله ﷺ مع أعمامه في الفجار وقد بلغ سن القتال؛ لأنها كانت حرب فجار، وكانوا أيضاً كلهم كفار، ولم يأذن الله لمؤمن أن يقاتل إلا لتكون كلمة الله هي العليا". وسميت بحرب الفجار، لانتهاك حرمات الحرم والأشهر الحرم فيها.

حلف الفضول

كانت قد تدمرت وتخربت بيوت لا حصر لها بسبب الحروب المستمرة، وأصبح القتل والسفك موروثاً أخلاقياً، الأمر الذي يخلق نزعة الإصلاح في بعض الطبائع، وحين رجع الناس لحرب الفجار قدم الزبير بن عبد المطلب – عم الرسول ﷺ وزعيم بني هاشم – هذا الاقتراح واجتمع بنو هاشم، وبنو زهرة، وبنو تيم في دار عبد الله بن جدعان، وتعاهدوا على ألا يَدَعُو بمكة مظلوماً من أهلها وغيرها إلا قاموا معه، ولا يبقون على أي ظالم في مكة.[١]

وشارك في هذا الحلف رسول الله ﷺ وكان يشير ﷺ بعد أن أكرمه الله بالرسالة إلى أنه ﷺ قد شاهدت حلفاً بمكة ما أحب أن له به حمر النعم.[٢] ولو دعي به في الإسلام لأجابه ﷺ.

وسمي هذا الحلف بـ " حلف الفضول"؛ لأن أول ما تبادرت إليهم فكرة هذا الحلف كانت أسماؤهم تشتمل علي مادة لفظ .(الفضيلة).[١] أي؛ الفضيل بن الحرث،

---

[١] طبقات ابن سعد، الجزء الأول، صـ٨٢.

[٢] المستدرك، الجزء السادس، ص ٢٢٠ "سيد سليمان الندوي". وقد ورد فى صحيح ابن حبان: (٤٢٩١) أخبرنا الحسنُ بنُ سفيانَ، حدثنا معلَّى بنُ مهدي، حدثنا أبو عَوَانَةَ، عن عُمَرَ بنِ أبي سَلَمَةَ، عن أبيه عن أبي هُريرة قال: قال رَسُولُ اللَّه : «ما شَهِدْتُ مِنْ حِلْفِ قُرَيْشٍ إلا حِلْفِ المطيَّبينَ، وما أُحِبُّ أنَّ لي حُمْرَ النَّعَمِ وإني كُنْتُ نَقَضْتُهُ» قالَ: والمطيَّبُونَ: هاشمٌ وأُميةُ وزهرةُ ومخزومٌ.
قال أبو حاتِمٍ: أَضْمَرَ في هٰذين الخبرين «مِن» يُرِيدُ به: شهدت مِنْ حلف المطيَّبين لأنه لم يشهد حِلْفَ المطيَّبين لأن حِلْفَ المُطَيَّبين كان قَبْلَ مولد رسول اللَّه، وإنما شَهِدَ رسولُ اللَّه حِلْفَ الفُضُولِ، وهم مِن المُطَيَّبِينَ. قد ذكرتُ الكلامَ على هٰذا الخبر بتفصيلٍ في كتاب «التوريث والحجب». (المترجم).

والفضيل بن واعة والمفضل وكانوا من قبيلتي جرهم وقطوراء. بالرغم من أن هذا الحلف قد تعطل ولم يتذكره أحد، إلا أن قريشاً كانت قد أسسته، وكانت هذه ثمرة النيــة الطيبــة لمؤسسه، وهي أنه ما زالت أسماؤهم باقية حتى الآن.

بناء الكعبة

كان مبني الكعبة يرتفع ارتفاع الرجل فقط، ولم يكن لها سقف، أي كانت مثل ساحات العيد في بلدنا. ولما كان المبني منحدراً، كان ماء المدينة ينزل في الحرم في موسم المطر. وكان قد شيد جزء مرتفع لمنع الماء، لكنه كان يتحطم، ويضر المبني في كل مرة. وفي النهاية توصل إلى هذا الأمر؛ وهو هدم المبني الموجود وبنائه من جديد بطريقة أكثر قوة. وبالصدفة كانت هناك سفينة تجارية في ميناء جدة ارتطمت بالشاطئ فتحطمت، وحين وصل خبرها إلي قريش، ذهب الوليد بن المغيرة إلى جدة واشتري أخشاب السفينة، كما اصطحب معه بَنَّاء رومي كان في السفينة واسمه "باقوم". واجتمعت قريش كلها وبدأت في بناء الكعبة، وقسمت أجزاء الكعبة علي مختلف القبائل، حتى لا يحرم أحد من هذا الشرف، ولكن حين جاء وقت وضع الحجر الأسود في مكانه، نشب نزاع كبير، إذ كان كل شخص يريد وضعة بيده، واشتد النزاع لدرجة أن السيوف أخرجت من أغمدتها.

وكان العرف في العرب هو أنه حين كان يقسم أي شخص بروحه، كان يملأ القدح بالدم ويغط فيه إصبعه، وقد أجري بعض المتنازعين علي وضع الحجر هذا العرف، واستمر النزاع لمدة أربعة أيام، وفي اليوم الخامس أشار أبو أمية بن المغيرة – أكبر قريش سناً – عليهم بأن الشخص الذي يأتي أولاً غداً صباحاً سيكون هو صاحب الحكم الثالث، فوافق الجميع علي هذا الرأي. وفي اليوم التالي وصل زعيم كل قبيلة للمكان، ولكن انظر إلى قدرة الخالق سبحانه، علي من وقعت أولاً أنظار الناس في هذا الصباح، إنه محمد ﷺ، ولكن من أُرسل رحمة للعالمين ﷺ لم يرض أن ينال بمفرده هذا الشرف، وطلب من القبائل المتنازعة بأن تختار كل قبيلة قائدها، وفرش الرسول ﷺ رداءً، ووضع فيه الحجر الأسود، وطلب من الزعماء أن يمسكوا جميعاً بأطراف الرداء، وأمرهم أن

---

(١) لكن الإمام السهيلي نقل حديثاً عن مسند الحارث بن أسامه، يثبت منه أن سبب تسمية هذا الاسم هو ورود هذه العبارة في هذا الحلف وهي" يرد الفضول على أهلها".

يرفعوه، وحين أوصلوه إلى موضعه، حمله ﷺ ووضعه في مكانه.[١] وكأن هذا كان إشارة إلى أن يوضع حجر بيت الله الأخير بيده ﷺ.[٢]

وهكذا منعت حرب ضروس بحله الحصيف ﷺ، والآن سقف مبني الكعبة، ولكن حين لم تكن مواد البناء كافية، تركت قطعة أرض ناحية ما، وأقيمت القواعد، وأحيط هذا الجزء بسور حتى ضمه للكعبة حين تحين الفرصة، وهذا هو الجزء الذي يطلق علية اليوم اسم حطيم، والذي بشأنه كان النبي ﷺ قد أراد – بعد بعثته – أن يهدم هذا السور ويبني المبني من جديد، إلا أنه ﷺ تخوف من أن يظن الناس سوءا بهدم جدار الكعبة، وهم حديثو عهد بالإسلام.[٣]

عمله ﷺ بالتجارة [٤]

كان معروفا لدي العرب وخاصة قريش أن بني إسماعيل تعمل بالتجارة[٥] قبل الإسلام بآلاف السنين، وكان جده الأكبر هاشم قد أقام معاهدات تجارية مع قبائل العرب، وبها قوّى من وسيلة الكسب هذه لقريش. وكان عم النبي ﷺ أبو طالب تاجراً، وعليه حين بلغ الرسول ﷺ سن الرشد وبدأ يفكر في وسيلة العيش، لم يجد أفضل من التجارة.

وكان الرسول ﷺ وهو في طفولته قد خرج مع أبي طالب في بعض القوافل التجارية، والتي اكتسب خبرات كثيرة منها، وذاع عنه حسن معاملته ﷺ في كل مكان. وكان الناس عموما يعطون رأس مالهم لشخص ذو خبرة وأمين ليتاجر به ويشاركونه في الربح، وكان النبي ﷺ يقبل مثل هذا العمل والشراكة بسعادة.

ويتضح من شهادة شركائه ﷺ في التجارة، والتي وردت في كتب الحديث والتاريخ، أنه كيف كان ﷺ يقوم بهذا العمل بأمانة وصدق.

---

(١) مسند الطيالسي، المجلد الأول، صـ ١٨، والمستدرك للحاكم، الجزء الأول، صـ ٤٥٧ " سيد سليمان الندوي ".

(٢) هذا إشارة إلى الحديث الشريف والذي يشير فيه ﷺ أنه متمم الدين وخاتم الرسل.

(٣) وردت هذه الوقائع في سيرة ابن هشام، طبقات ابن سعد، وتاريخ الطبري والزرقاني، الجزء الأول، صـ٢٣٦ حتى صـ ٢٤٠. ووردت الواقعة الأخيرة في صحيح البخاري أيضاً، كما ورد فيه أيضا أن النبي ﷺ كان شريكاً مع قريش في بناء الكعبة وكان يحمل الأحجار علي كتفه المبارك حتى احتك كتفه ﷺ.

(٤) الإضافة والزيادة.

(٥) التوراة: سفر التكوين، قصة يوسف.

إن أفضل ما يتميز به حسن أخلاق التاجر هو الوفاء بالوعد، وكان الأمين ﷺ قبل بعثته أفضل النماذج لهذا الخلق الكريم بين تجار مكة. ويروي الصحابيَ عبد الله بن أبي الحساء: كنت قد عاملت النبي ﷺ قبل بعثته معاملة تجارية، وكان قد تبقي جزء من هذه المعاملة، فوعدته بأنني سوف أعود ثانية، وبالصدفة لم أتذكر وعدي هذا حتى مرت ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث حين وصلتُ إلى المكان المتفق عليه، وجدته ﷺ منتظراً في نفس المكان، ولم يظهر على جبهته أي تكدر بسبب خلاف الوعد، سوى أنه ﷺ قال: يَا فَتىً لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ أَنَا هٰهُنَا مِنْذُ ثَلاَثٍ أَنْتَظِرُكَ.(١)

وكان النبي ﷺ حريص دائماً على وضوح معاملته التجارية، وكان يشهد بهذا من تعامل معه تجارياً قبل البعثة، وحين جاءه ﷺ الصحابي سائب حين أسلم، عرفه الناس به، فقال النبي ﷺ: أنا أعلمكم. فقال سائب: صدقت، بأبي وأمي يا رسول الله، لقد كنت شريكي (في التجارة) فنعم الشريك، كنت لا تداري ولا تماري(٢). وكان قيس بن سائب المحزومي صحابيًا آخر شريكاً للنبي ﷺ في التجارة، وشهد بهذه الألفاظ نفسها على حسن معاملته ﷺ.(٣)

وكان النبي ﷺ قد سافر عدة مرات إلى الشام والبصرة واليمن بغرض التجارة.

---

(١) سنن أبي داود، ج٢، صـــــ٣٢٦، المطبعة المحمدية ٢، كتاب الأدب، باب في الوعد. وهذا نص الحديث: ٤٩٩٢) حدثنا مُحَمَّدُ بنُ يَحْيَى بنُ فارسٍ النَّيسَابُورِيُّ أخبرنا مُحَمَّدُ بنُ سنانٍ أخبرنا إبْرَاهيمُ بنُ طهْمَانَ عنْ بُدَيْلٍ عنْ عَبْدِ الكريمِ عنْ عَبْدِ الله بن شقيقٍ عنْ أبيه عنْ عَبْدِ الله بن أبِي الحَمْسَاءِ، قالَ: « بَايَعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم ببَيْعٍ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ وبَقِيَتْ لَهُ بَقِيَّةٌ فَوَعَدْتُهُ أَنْ آتِيَهُ بِهَا في مَكَانِه، فَنسيتُ فَذَكَرْتُ بَعْدَ ثَلاَثٍ فَجِئتُ، فإذَا هُوَ في مَكَانه، فقَالَ يَا فَتىً لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ أَنَا هٰهُنَا مِنْذُ ثَلاَثٍ أَنْتَظِرُكَ». قَالَ أَبُو دَاوُدَ: قالَ مُحَمَّدُ بنُ يَحْيَى هٰذَا عِنْدَنَا عَبْدُ الْكَرِيمِ بنُ عَبْدِ الله بنِ شَقِيقٍ. قَالَ أَبُو دَاوُدَ: هٰكَذَا بَلَغَنِي عنْ عَلِيِّ بن عَبْدِ الله. قَالَ أَبُو دَاوُدَ: بَلَغَنِي أَنَّ بِشْرَ بنَ السَّرِيِّ رَوَاهُ عنْ عَبْدِ الْكَرِيمِ بنِ عَبْدِ الله بنِ شَقِيقٍ.(المترجم).

(٢) أبو داود، ج ٢، ص٣١٧.وهذا نص الحديث: (٤٨٣٢) حدثنا مُسَدَّدٌ أخبرنا يَحْيَى عن سُفْيَانَ حدَّثني إبْرَاهِيمُ بنُ المُهَاجِرِ عن مُجَاهِدٍ عن قَائِدِ السَّائِبِ عن السَّائِبِ، قال: « أَتَيْتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فَجَعَلُوا يُثْنُونَ عَلَيَّ وَيَذْكُرُونِّي، فقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: أَنَا أَعْلَمُكُمْ ــ يَعْني بِهِ ــ قُلْتُ: صَدَقْتَ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي كُنْتَ شَرِيكِي فَنِعْمَ الشَّرِيكُ، كُنْتَ لا تُدَارِي وَلا تُمَارِي». (المترجم).

(٣) الإصابة، ج٥، صـــــ٣٥٣ ترجمة قيس بن سائب.

زواج الرسول ﷺ بالسيدة خديجة

كانت السيدة خديجةؓ من أسرة عريقة وشريفة، ويلتقي نسبها مع الرسول ﷺ في الجد الخامس، وكانت بهذا ابنة عم الرسول ﷺ، وكانت قد تزوجت مرتين قبل هذا الزواج، وهي الآن أرملة. وكان الناس في الجاهلية يلقبونها بالطاهرة؛ لما عرفت به من العفة وطهارة النفس والأخلاق الكريمة وكانت ثرية. وورد في طبقات ابن سعد بأنه حين كانت تخرج أي قافلة تجارية من مكة، كانت بضاعة السيدة خديجة لوحدها تعادل قوافل قريش مكتملة.

بلغ النبي ﷺ سن الخامسة والعشرين، وكان قد شارك في كثير من الأعمال القومية، وتعامل معه الناس من خلال التجارة، لذا ذاعت شهرة حسن معاملته ﷺ، وطهارة أخلاقه وصدقه وأمانته ووفائه بالعهد، ولقبه الناس بلقب الأمين، ولذا أرسلت إليه السيدة خديجة، وعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً، وتعطي له ضعف ما يعطيه التجار الآخرين له، فقبل النبي ﷺ وخرج في مالها ذلك ووصل إلى البصرة.

وبعد عودته بثلاثة أشهر تقريباً، أرسلت له السيدة خديجة تطلب منه الزواج، وكان والدها قد توفي، ولكن عمها عمرو بن أسد ما زال حياً. وكانت المرأة في العرب لها الحرية في أن تتحدث عن أمور الزواج بنفسها، ولم يكن في هذا شرط البالغة من عدمه. وتحدثت السيدة خديجة بالرغم من وجود عمها في كل ما يتعلق بأمر هذا الزواج، ووصل في الوقت المحدد أبو طالب وزعماء القبيلة كلهم ومعهم حمزة منزل السيدة خديجة وخطبها أبو طالب للرسول ﷺ، وحدد لها مهراً خمسمائة درهماً ذهبياً، (فتزوجها الرسول ﷺ).

وورد في بعض الروايات أن والد السيدة خديجة كان حيًا، وتم النكاح في وجوده، لكنه كان مخموراً. وحين رجع إلي وعيه وعلم بالزواج ثار وقال: إن هذا الزواج ليس متكافئاً.

ولكن هذه الرواية ليست صحيحة، وأثبت الإمام السهلي بالأدلة وبالتصريح بأن والد السيدة خديجة كان قد توفي قبل حرب الفجار.

و مازال البيت الذي كانت تقيم فيه السيدة خديجة معروفاً باسمها حتى اليوم (حسب قول المؤرخ الطبري). واشترى الأمير معاوية هذا المكان، وبنى فيه مسجداً.

وكانت السيدة خديجة في الأربعين من عمرها وقت هذا الزواج ولها من الزوجين الأولين ولدان وابنة، وسيأتي الحديث عنهم تفصيلاً فيما بعد.[1]

وسوف يأتي الحديث تفصيلاً فيما بعد عن أولاد الرسول ﷺ من السيدة خديجة سوى إبراهيم ﷺ.[2]

أحداث متفرقة

إن الأحداث التي لها تسلسل تاريخي معلوم كتبت حسب تسلسلها، وإن الأحداث التي ليس لها تاريخ أو سنين معلومة سيكون من المناسب الكتابة عنها بشكل مستقل في مكان واحد.

أسفاره ﷺ

كان أهل مكة قد تعودوا السفر من أجل التجارة، لذا سافر النبي ﷺ أسفاراً عديدة من أجل هذا الغرض ذاته، وقد سبق الحديث عن سفره ﷺ إلى الشام والبصرى. وقد ثبت أن الرسول ﷺ قد سافر إلي أماكن التجارة الأخرى، وكانت هناك في بلاد العرب أماكن للتجارة متعددة، من بينها جعاشته، والتي ذكرها "ابن سيد الناس"، وكانت السيدة خديجة – رضي الله عنها – قد أرسلته ﷺ ليتاجر بمالها في أماكن تجارية مختلفة ومنها إلى جرش، والتي تقع في اليمن. وقد كتب الحاكم في المستدرك، وصدقه العلامة الذهبي، أن الرسول ﷺ قد سافر (بغرض التجارة) مرتين، وأعطته السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ جملاً في كل مرة كأجر.[3]

بعد البعثة، وفي السنة التي قدمت إليه ﷺ فيها وفود من مختلف بلاد العرب، كان من بينهما وفد عبد قيس من البحرين، وحين التقى به الرسول ﷺ ذكر له أسماء أماكن البحرين اسماً اسماً، وسأل عن حالها، فسأله الناس بحيرة: كيف تعرفت على أحوال بلدنا بطريقة تعجزنا نحن؟ فأشار النبي ﷺ إلى أنه كان قد شاهد هذا البلد مشاهدة جيدة.[4] أراد

---

(1) وردت أحداث نكاح السيدة خديجة في سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري مع اختلاف وإجمال وتفصيل وإثبات ونفي، ونقلت الرواية التي تطابق القرائن فقط، ومن يريد الإطلاع على هذا تفصيلاً يرجع إلى الزرقاني، ج١، من صـــ٢٣٢ وحتى صــ٢٣٦.

(2) ذكر الطبري فقط منزل السيدة خديجة، كما وردت هذه الأحداث في ابن حنبل (مسند ابن عباس).

(3) نور النبراس في شرح ابن سيد الناس.

(4) مسند الأمام أحمد بن حنبل، ج٤، صــ٢٠٦ "سيد سليمان الندوي".

مؤرخو أوروبا - والذين ينكرون العلوم الغيبية - إثبات (نعوذ بالله) أن كل علمه ومعرفة ﷺ أستمدهما من السياحة والسفر، ووسعت دائرة معرفته بالقياس. وكتب مؤرخ أن النبي ﷺ قد سافر بالبحر أيضاً، والدليل على هذا هو التصوير الصحيح الذي ورد في القرآن الكريم عن سرعة السفن وكيفية الطوفان، الأمر (نعوذ بالله) الذي تنبعث منه رائحة التجربة.[1]

كما يدعى المؤرخ نفسه أن الرسول ﷺ كان قد جاء إلى مصر، وشاهد البحر الميت، ولكن كتب التاريخ خالية من هذا.[2]

اجتنابه ﷺ كل ما فيه شرك

من الثابت قطعاً أنه ﷺ كان دائم الاجتناب والبعد عن كل ما فيه شرك وهو في طفولته وشبابه حتى فاز بمقام النبوة.

ذات مرة وضعت قريش أمامه ﷺ طعاماً كان لحيوان ذبح تقريباً لأحد الأصنام، فرفض النبيﷺ وابتعد عن الطعام.[3]

ادعى النصارى أن التغير الذي في معتقدات النبي ﷺ ظهر بعد بعثته ﷺ فقط، وكان نمط وأسلوب حياته ﷺ من قبل هو نفس نمط وأسلوب قبيلته وأهل بلده، لذا كان قد

---

(١) مارجوليوث ص٥٧.

(٢) إن صح مثل هذا النوع من الوقائع، والذي يشير إليه المؤرخين الأوروبيين، بناءً على القياس والظن فقط، فما العجب إذن ؟ ولكن ذهاب النبي ﷺ إلى مصر ما هو إلا رواية مضحكة لعهد أوروبا المظلم، ومن المؤكد أن النبي ﷺ ما سافر عن طريق البحر، ولو أن رواية سفره ﷺ إلى البحرين صحيحة، فربما رأي رسول اللهﷺ خليج فارس، ومن الممكن أيضاً أن يكون قد شاهد البحر الميت، لأنه يقع وسط بلاد العرب والشام، حيث مر رسول الله ﷺ أكثر من مرة أثناء أسفاره التجارية "سيد سليمان الندوي".

(٣) صحيح البخاري، باب المناقب، ذكر زيد بن عمرو بن نفيل. (وهذا نص الحديث كما هو في البخاري ج٢: قدمت إلى النبي سفرة فأبى أن يأكل منها.)(المترجم)، كما أورده الإمام البخاري في أبواب أخرى أيضاً وبقى الإجمال في قوله الذي اتضح في هذه الرواية، ووردت رواية في مسند الأمام أحمد بن حنبل،ج ١، ص١٨٩، والتي ذكر فيها أن النبيﷺ دعا زيد ـــ رضى الله عنه ـــ على هذا الطعام، فرفض زيد، ثم ما أكل النبي ﷺ منذ ذلك التاريخ أي طعام ذبح تقريباً لأي صنم. ولكن حال رواة هذه الرواية غير معروف، وما حيثيتها عند الإمام البخاري؟

سمي ابنه البكر بعبد العزي،[1] ووردت هذه الرواية في التاريخ الصغير للإمام البخاري. ولكن إذا كانت هذه الرواية صحيحة، فكيف يمكن الاستدلال بها على النبيﷺ ؟

كانت السيدة خديجة ﷺ تعبد الأصنام قبل الإسلام، وربما كانت هي التي أطلقت هذا الاسم، ولم يكن النبي ﷺ حتى ذلك الوقت كلف بالرسالة، لذا لم يعترض. والحقيقة هي أنه لم تثبت صحة هذه الرواية، والسلسلة الأكثر صحة لهذه الرواية هي ما رويت في التاريخ الصغير للإمام البخاري، فراويها الأول إسماعيل، واسمه كاملاً إسماعيل بن أبي اويس، ومع أن بعض المحدثين قالوا بأنه ثقة، لكن رأي الآخرين فيه كما يلي:-

يقول معاوية بن صالح	:	إن إسماعيل وأباه ضعيفان.
ويقول يحيى بن مخلط	:	بأنه يكذب، وهو لا يعني شيئاً.
ويقول الإمام النسائي	:	بأنه ضعيف وغير ثقة.
ويقول نصر بن سلمة الروزي	:	بأنه كذاب.
ويقول الدارقطني	:	أنا لا أفضله في الرواية الصحيحة.
ويقول سيف بن محمد	:	إنه يختلق أحاديث كاذبة.
ويقول سلمة بن شيب	:	ذكر لي بنفسه، أنه حين يكون هناك أي اختلاف في أي أمر فأختلق أنا الحديث.

من الثابت قطعاً أن النبيﷺ كان قد بدأ ينفر ويستاء من عبادة الأصنام قبل بعثته، كما كان يمنع من يثق فيهم من عبادتها.[2] (المستدرك للحاكم، المجلد الثالث، ذكر زيد بن حارثة، "سيد سليمان الندوي").

---

(1) العزي كان اسما لصنم.

(2) ادعى مارجوليوث ادعاء محيراً خلاف هذا، ويكذب كذباً يفوق الإدعاء غيره من أجل إثبات صحة ادعائه، وهو أن النبي ﷺ والسيدة خديجة كان كلاهما يعبدان صنماً قبل النوم، والذي كان يدعى العزى، وفي سنده قدمت رواية الإمام أحمد بن حنبل وهذه هي ألفاظ الرواية " حدثني جار لخديجة بنت خويلد أنه سمع النبي ﷺ وهو يقول لخديجة: أي خديجة، والله لا أعبد اللات والعزى، والله لا أعبد أبدا. قال: فتقول خديجة: جل اللات جل العزى. قال: كانت صنمهم التي كانوا يعبدون ثم يضطجعون ".

لقاؤه ﷺ بالموحدين

لاشك في أن أشعة الفيض الإلهي الخفيفة كانت قد بدأت تنتشر في بلاد العرب قبل بعثة النبي ﷺ، لذا كان قس بن ساعدة، وورقة بن نوفل، وعبد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل،[1] قد رفضوا عبادة الأصنام. وقد التقى الرسول ﷺ بزيد، والذي ورد ذكره في صحيح البخاري. وكان ورقة قد اعتنق المسيحية، ولما كان ابن عم السيدة خديجة ﵂، ويعيش في مكة، لذا يمكن القول بأن النبي ﷺ ربما التقى به أيضاً, وفي بعض الروايات جاء بأنه كانت هناك صداقة بينه وبين النبي ﷺ.

ورد في كتب الأدب والمحاضرات عموماً، وفي بعض كتب التاريخ، أن الخطبة التي كان ألقاها "قس بن ساعدة" في عكاظ، كان النبي ﷺ بين المشاركين بالحضور في هذه الخطبة. ونقل أهل الأدب أجزاء الخطبة. ولما كانت فقرات هذه الخطبة مقفاة وقصيرة تشبه في الظاهر سور القرآن الكريم الأولى، لذا ادعى المؤرخون المسيحيون بأن النبي ﷺ استمد هذا الأسلوب من هذه الخطبة. وهذه بعض فقراتها:-

"أيها الناس اسمعوا وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، أنه من عاش مات ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت، مطر ونبات، وأرزاق وأقوات، وآباء وأمهات، وأحياء وأموات، وجميع وأشتات، إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، ليل داج وسماء ذات أبراج، وبحار ذات أمواج، مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون. أرَضَوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا هناك فناموا، أين من بنى وشيد، وزخرف وبخل، وعد المال والولد، أين من بغى وطغى".

نقل البغوي والأزدي والبيهقي والجاحظ وغيرهم رواية قس بن ساعدة وخطبته بعبارات مختلفة وقصيرة وطويلة، ولكنها كلها مصنوعة، وموضوعة. ورواتها عمومًا غير ثقة بل وكذابون. فقد نقل السيوطي كل طرق هذه الرواية في "الموضوعات" ودرس رواتها، ونقل تفصيلاً أقوال العلامة الذهبي والحافظ ابن حجر وغيرهما. والأمر العجيب هو أن هذه الرواية مروية بطرق مختلفة، وفي كل طريقة يوجد راوٍ كان يختلق الأحاديث، ومن رواتها محمد بن الحجاج، ويقول "ابن معين" عنه "كذاب وخبيث"، وعنه كتب "ابن عدي" بأنه هو الذي وضع حديث الهريسة، وسعيد بن هبيرة راوٍ لطريقة من طرقها،

---

[1] ورد ذكر لأسماء وأحوال هؤلاء جميعاً في صـــ٧٦ من سيرة ابن هشام ما عدا قس بن ساعدة، وورد ذكر زيد في البخاري أيضاً، ويوجد قس بكثرة في كتب الأدب والتاريخ كلها.

وكتب عنه: ابن حبان "بأنه كان يروي أحاديث كاذبة بلسان ثقات، كما يختلق هو بنفسه أحاديث، وأحمد بن سعيد، وكلاهما سيئ السمعة بسبب وضع الأحاديث. ونقل البيهقي قصة طويلة عن هذه الرواية، والتي فيها ذكر أبو بكر خطبة قس بن ساعدة كلها من ذاكرته، وهذه الرواية كلها موضوعة.[1] كما نقل الحافظ ابن حجر طرق أخرى لرواية هذه الرواية، وضعّفها.[2]

---

(١) ورد هذا تفصيلاً في " اللآلئ المصنوعة"، طبعة مصر، ص٩٥-١٠٠.

(٢) وهذا أمر جدير بالذكر، وهو أنه قد ظهر اتجاه في عهد بني أمية والعباسيين، وهو استكتاب الشعراء والأدباء المعاصرين أشعاراً وخطبا، واشهارها بأسماء شعراء وخطباء في الجاهلية وصدر الإسلام. وكان محمد بن إسحاق من بين هؤلاء، وروى عنه الإمام البخاري في "جزء القراءة" ولكن هذه كانت طريقته السائدة. وروى العلامة الذهبي في ميزان الاعتدال(طبعة مصر، ص٩٢) عن الخطيب البغدادي بأن محمد بن إسحاق كان يعطي أحداث المغازي للشعراء المعاصرين، حتى يكتبوا عنها شعراء، وكان يكتب هذه الأشعار في كتابه. ونقل ابن هشام مئات الأشعار للسيدة خديجة وأبي بكر- رضي الله عنهما - وأمية بن أبي الصلت وأبي طالب. ويكتب في مواضع كثيرة بأن مهرة فن الشعر ينكرون هذه الأشعار. على سبيل المثال، نقل قصيدة لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وكتبها في سرية عبيدة بن الحرث (سيرة ابن هشام، الجزء الثاني، ص٣، طبعة مصر): وأكثر أهل العلم والشعر ينكر هذه القصيدة لأبي بكر. وكانت هذه الاختلافات تحدث لأغراض مختلفة، فكانت على الأغلب تحدث في الجلسات الشعرية للتنبؤ ببعثة النبي ﷺ، أو لتصديق الإسلام على أي أمر. مثلاً وردت هذه الجمل في خطبة قس بن ساعدة: نبياً قد حان حينه وأظلكم أوانه، فطوبى لمن آمن به فهداه، وويل لمن خالفه وعصاه. (الآلي المصنوعة، صـــ٢٨). والقصيدة اللامية لأبي طالب والتي نقلها ابن هشام وغيره (ابن هشام، صــ٩٣-٩٤) كلها موضوعة، وهذه أبياتها الأخيرة.

فأصبح فينا أحمد في ارومه ... تقص عنه سورة المتطاول

فأيده رب العباد بنصره ... وأظهر ديناً حقه غير باطل

(ذكر المؤلف أن هذه القصيدة كلها موضوعة، ولكنها صحيحة على الأغلب، لأنه قد ورد بيتان منها في الصحاح، مثل صحيح البخاري وصحيح مسلم وفي باب الاستسقاء. نقل ابن إسحاق نفسه هذه القصيدة، وكتب "وبعض أهل العلم ينكر أكثرها") "سيد سليمان الندوي". كان هناك أناس كثيرون يستكتبون أشعارا طبقاً لما جاء في القرآن الكريم فيما يتعلق بالتوحيد والمعاد، وكانوا يعتقدون بأن هذا سيكون فيه تأييد للإسلام. وبالنظر في الأشعار المنقولة عن أمية ابن أبي الصلت يتضح تماماً بأن أحداً ما كتب هذه الأشعار مقتدياً بالقرآن الكريم. علي سبيل المثال:

فقلت له أذهب بهارون فادعوا ... إلى الله فرعون الذي كان طاغياً

وقولا له أنت رفعت هذه ... بلا عمد أرفق إذا بك بنيا

أحباؤه ﷺ المقربون

كان أحبابه ﷺ المقربون قبل البعثة يتصفون جميعاً بالأخلاق الحسنة وبالمكانة العالية، وبالشأن العظيم، ويأتي في مقدمتهم أبو بكر -رضي الله عنه- والذي صادق الرسول ﷺ سنوات وسنوات،[١] وحكيم بن حزام ابن عم السيدة خديجة، والذي كان من أكبر زعماء قريش[٢] وكان منصب رفادة الحرم في يده، كما كان مالكاً لدار الندوة، وبعد الإسلام باعها للأمير معاوية بمئة ألف درهم، وتصدق بهذا المبلغ كله. وكان يكبر الرسول بخمس سنين في العمر، ومع أنه لم يدخل الإسلام حتى السنة الثامنة هجرياً، إلا أنه كان يكن كل حب وتقدير للنبي ﷺ. ذات مرة أقيم مزاد على أشياء في الكعبة، وكان من بينها كساء نفيس اشتراه بخمسين درهماً، وذهب به إلي المدينة وأهداه إلي النبي ﷺ، ولكن النبي ﷺ: رفضه بسبب عدم جواز قبول الهدية من مشرك، لذا دفع قيمته وأخذه.[٣]

وكان ضماد بن ثعلبة من قبيلة أزد، والذي كان يمتهن مهنة الطب والجراحة في الجاهلية من أحبابه ﷺ المقربين أيضا، وجاء إلي مكة قبل البعثة، ورأى النبي ﷺ سائر في الطريق وخلفه مجموعة من العبيد، وكان كفار مكة يقولون إن محمداً مجنونٌ، وحين رأى ضماد هذا الكم من العبيد، ظن هذا الزعم هو الآخر، وذهب إلى النبي ﷺ وقال يا محمد! إنني أعالج الجنون، فحمد الرسولُ اللهَ وأثنى عليه، وقال جملاً مؤثرة، فأسلم ضماد.

وقوله له أنت سويت وسطها   منيراً إذا ما جنه الليل هادياً

وهناك أمر عجيب وهو أن السير ماركيولوس صدق هذا في موضع ما، فيقول بأن أغلب الشعر القديم كان قد نظم بأسلوب القرآن (من ص٢٧ حتى٦٣). كان هؤلاء الناس قد قاموا بهذا العمل حسب علمهم بغرض خير ومصلحة الإسلام، واستفاد الأوربيون من هذا في ادعاءهم بأن محمد ﷺ لم يمكن نبياً، بل كان يقتبس تعليماته وأفكاره من خطباء وشعراء الجاهلية؛ بل وبأسلوبهم كذلك. ولكن من لديه معرفة بالأدب وفن الرواية يستطيع أن يدرك أن كل هذه الأشعار والخطب موضوعة، ومازال الأوربيون في حاجة إلى وقت حتى يتقنون فن الأدب والرواية، وحين يأتي ذلك الوقت فسيخجل الأوربيون آنذاك من سوء تذوقهم.

(١) الإصابة، ذكر أبى بكر، وكان أبو بكر هو عبد الله، وكتب في الإصابة عن أبى بكر تحت هذا الاسم (عبد الله)، الجزء الثانى، صـــ٣٤١ "سيد سليمان الندوى".

(٢) الإصابة، ذكر حكيم بن حزام، ج١،صـــ٣٤٩ "سيد سليمان الندوى ".

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٣، صـــ٤٠٣.

وكتب مسلم والنسائي هذه الواقعة بإيجاز، ولكنها توجد تفصيلاً في مسند الإمام أحمد بن حنبل (ج١،صـ٣٠٢). وكان قيس بن سائب المخزومي من بين أولئك الناس الذين شاركوا الرسول ﷺ في التجارة. وكان مجاهد بن جبر المفسر المعروف غلام له، والذي يقول إن معاملته ﷺ كانت واضحة تماماً مع شركائه في التجارة، ولم يكن هناك أبداً أي نوع من النزاع أو الجدل مع من شاركه في التجارة.[1]

---

[1] الاستيعاب، ج٢،صـ٥٣٧، والإصابة."سيد سليمان الندوي".

مبعث النبي ﷺ

ولد الرسول ﷺ في عصر كانت فيه مكة من أكبر مراكز عبادة الأصنام، وكان في الكعبة نفسها ٣٦٠ صنم. وكانت أسرة النبي ﷺ لها مكانة كبيرة لتوليها أمر خدمة مكان هذه الأصنام، وبالرغم من هذا لم ينحني الرسول ﷺ أبداً أمام أي صنم، ولم يفعل أي شيء من عادات الجاهلية الأخرى. وكانت قريش قد ابتدعت منهجاً حتى تميز نفسها في كل أمر عن عامة الناس، وهو عدم ذهابها إلي عرفات أيام الحج، وعلى من يأتي من خارج مكة من الحجاج أن يلبس ثياب قريش وألا يطوف الكعبة عرياناً.[1] ولذا راج الطواف عرياناً، ولكن النبي ﷺ لم يؤيد أسرته أبداً في أي أمر من هذه الأمور.[2]

كان إنشاد القصص أمر سائد بين العرب، فكان الناس يجتمعون ليلاً في أحد الأماكن بعد الانتهاء من كل أعمالهم، ويبدأ الحكاية شخص ذو مهارة في هذا الفن. وكان الناس يستمعون إليه بلهفة وشوق طوال الليل، وذات مرة أراد النبي ﷺ وهو في طفولته مشاركة الجلسات، وصادفه حفل زفاف في طريقة، فوقف ليشاهده، وهنا غلبه النوم ونهض في الصباح.[3] وحدث له هذا الأمر مرة أخرى واعتراه النوم صدفة في ذلك اليوم أيضًا، وما أراد النبي ﷺ فعل هذا سوى مرتين فقط طوال الأربعين سنة قبل بعثته، ولكن هداية الله أنقذته في كلا المرتين.

" عظمتك أفضل من هذه المشاغل ".[4]

كانت هناك حاجة إلى هذه الفطرة السليمة والأطوار الخيرة، وإلى من يليق بمقام قيادة وهداية الكونيين وتأسيس الشريعة الكبرى، وتشييد الدين الكامل. وبالقرب من هذه الفترة كان قد ورد في قلب أهل الحق (ورقة، وزيد، وعثمان بن الحويرث) أن السجود

---

(١) ابن هشام، طبعة مصر، ١٢٩٥هـ، ج١، صـ٦٧.

(٢) ابن هشام، صـ٦٩.

(٣) البزاز والمستدرك نقلاً عن نسيم الرياض، ج١، صـ ٦٠٩، والخصائص الكبرى للسيوطى ج١، ص ٨٨ " سيد سليمان الندوي ".

(٤) يكتب سر وليام ميور في كتابه " حياة محمد " تتفق مؤلفاتي كلها عن محمد ﷺ في عصمة سريرته وطهارة أطواله، الأمر الذي لم يكن له وجود في مكة.

أمام جماد لا يعقل، جهل وحماقة. لذا خرج الجميع، بحثًا عن الدين الحق، ولكن رؤوسهم ارتطمت بجدار الفشل، وأعتنق ورقة وعثمان المسيحية، وظل زيد يقولَ: (إلهي لو أعرف كيف أعبدك لعبدتك بما يجب به عبادتك).

كان النبي ﷺ يرتبط بأمور دنيوية كثيرة مثل التجارة والأولاد والاضطرار إلى السفر كثيراً بغرض التجارة، ولكن انشغاله بالكون وما فيه كان أكبر من هذه المشاغل والأعمال بأسرها، إذ كانت تبدو له الدنيا وأعمالها لا شئ، ولكنه لم يصل حتى ذلك الوقت إلى بغيته الحقيقية.

كان هناك غار يدعي " حراء " يبعد عن مكة ثلاثة أميال، وكان النبي ﷺ يذهب إليه ويقيم به شهورًا ويتدبر فيما حوله وكان يصطحب معه الماء والطعام، وحين ينفد كان يعود إلى البيت، ثم يرجع ثانية إلى الغار، ويقضي وقته في المراقبة والتدبر.

ورد في صحيح البخاري أن النبي ﷺ كان يتحنث؛ أي يتعبد في غار حراء، وما هي هذه العبادة، شرحها في البخاري: قيل ماذا كانت صفة تعبده ؟ أجيب بأن ذلك كان بالتفكر والاعتبار.

وكانت هذه هي تلك العبادة التي تعبدها جده إبراهيم عليه السلام قبل نبوته" فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) "(سورة الأنعام).

" إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)" (الأنعام).

وكتب مؤرخ غربي عن كيفية عبادة الرسول ﷺ يقول: " كان يدور في قلب محمد ﷺ ألف سؤال وسؤال في كل مكان في سفره وحضره من مثل من أنا ؟ وما هذا الكون الفسيح ؟ وما النبوة ؟ وأي شيء أعتقده ؟ هل أعتقد في صخور غار حراء أم في قمم جبل الطور العالية؟ الثقب أم الأفق؟ هل أجابه أحد على هذه الأسئلة؟ لا، ألف لا، بل لم يستطع مرور الليل والنهار ولا الكواكب اللامعة ولا الرياح الممطرة، ولا أي شئ استطاع أن يجيب على هذه الأسئلة ".[١]

---

[١] كارل إيل هيروز، تذكره رسول الله ﷺ.

وكانت هناك مقدمات للنبوة وهي أنه بدأت تتكشف له ﷺ أسرار في الرؤيا، فما كان يراه في رؤياه كان يحدث بعينه.[1] ذات يوم[2] حين كان النبي ﷺ حسب عادته مشغول في التفكر والاعتبار، تراءى له ملك الغيب (الوحي) وقال له: " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) "(العلق).

وحين رجع ﷺ إلى المنزل، كان قد امتلأ بالجلال الإلهي.

ذكر النبي ﷺ الواقعة كلها للسيدة خديجة، فأخذته ﷺ إلي ورقة بن نوفل، والذي كان يعرف اللغة العبرية، وذو دراية بالتوراة والإنجيل، فسمع الواقعة من النبي، وقال: لقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى عليه السلام.

وورد في الرواية أن الرسول ﷺ شعر بخوف، فقالت له السيدة خديجة كلا والله ما يخزيك الله أبدا، ثم اصطحبته ﷺ إلي ورقة بن نوفل، والذي صدق بنبوتهﷺ.[3]

---

[1] الرؤيا نوع من أنواع الوحي، وورد في بداية صحيح البخاري أن أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤية الصالحة. وعرضت هذه المسألة بوضوح في البخاري، كتاب التعبير.

[2] وردت هذه الرواية في صحيح البخاري، باب بدء الوحي، وكتاب التعبير عن السيدة عائشة، في حين أن السيدة عائشة قد ولدت في ذلك الوقت. وفي اصطلاح المحدثين يطلق على مثل هذه الرواية مصطلح مرسل. ومرسل الصحابة حجة عند المحدثين، لأن الراوي المتروك صحابي هو الآخر.

[3] (٤٨٣٤) - حدَّثنا يحيى حدَّثنا الليث عن عُقيل عن ابن شهاب.

وحدثني سعيد بن مَرْوان حدثنا محمدُ بن عبد العزيز بن أبي رِزْمَة أخبرنا أبو صالح سَلْمُوَيْه: حدثني عبد الله عن يونسَ بن يَزيدَ قال: أخبرني ابنُ شِهاب أنَّ عروةَ بن الزُّبير أخبره أن عائشة زوجَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قالت: «كان أوَّلُ ما بُدِىءَ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصَّادقة في النوم، فكان لا يرَى رُؤْيا إلا جاءَت مثلَ فَلَقِ الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخَلاءُ فكان يَلحقُ بِغارِ حِراءٍ فَيَتَحَنَّثُ فيه. قال: والتحنثُ: التعبُّدُ الليالي ذَواتِ العَدَد، قبلَ أن يرجع إلى أهله، ويتزوَّد لذلك، ثم يرجع إلى خَديجةَ، فيتزوَدُ بمثْلها، حتى فَجِئَهُ الحقُّ وهوَ في غارِ حِراءٍ. فجاءَهُ المَلَك فقال: اقرأ. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: ما أنا بِقارِىءٍ. قال: فأَخَذَني فَغَطَّني حتى بَلَغ مني الْجُهدُ، ثم أرسلَني فقال: اقرأ. قلتُ ما أنا بقارِىءٍ. فأخذَني فغطَني الثانيةَ حتى بلغ مِني الجُهد. ثم أُرسلَني فقال: اقرأ. قُلتُ: ما أنا بقارىء. فأخذني فَغَطني الثالثةَ حتى بلغ مِني الجهد، ثم أَرْسَلَني فقال {اقرأ باسْم ربِّكَ الذي خَلَق خَلَقَ الإنسانَ من عَلَق، اقرأ وربُّكَ الأكْرمُ الذي علَّم بالقلم} الآيات إلى قوله: {علم الإنسانَ ما لم يَعْلم}. (العلق: ١ ــ ٥) فرجع بها رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم تَرْجُف بوادرُهُ، حتى دخل على خَديجةَ فقال: زمِّلوني زمِّلوني. فزمَّلوه حتَّى ذهَب عنه الروْعُ. قالَ لخَديجة: أيْ خديجة، ما لِي لقد خَشِيت عَلَى نفسي؟

من المؤكد أن النبي ﷺ ارتجف خوفا، ولكن هذا الاضطراب وهذه الهيبة وهذا القلق بتأثير الجلال الإلهي (وتخيل عظمة النبوة). ماذا رأى النبي ﷺ ؟ وماذا قال الناموس الأكبر؟ وما الذي شاهده؟ فهذه هي تلك الأمور الدقيقة التي لا تستطيع الألفاظ تحملها أو التعبير عنها.

ورد في صحيح البخاري باب التعبير، أن الوحي توقف لعدة أيام، فكان النبي ﷺ يصعد على قمة الجبل ويريد أن يردي نفسه من فوقه، وفجأة ظهر له جبريل عليه السلام، وكان يقول: يا محمد! إنك رسول الله حقًا، وهنا شعر النبي ﷺ بالطمأنينة والأمان، ولكن حين توقف الوحي لعدة أيام أخرى، صعد النبي ﷺ على قمة جبل، وأراد أن يطرح نفسه منه، وهنا يظهر جبريل عليه السلام ويطمئنه ويقول له: أنت رسول الله.

نقل الحافظ " ابن حجر" اعتراض المعترضين في شرح الجزء الأول من هذا الحديث، وهو" كيف يشك نبي في النبوة، إذا كان الأمر كذلك، فما الطمأنينة التي يمكن أن يحصل عليها من مسيحي"، ثم ينقل رد محدث مشهور وهو: إن النبوة أمر عظيم، ولا يمكن تحملها مرة واحدة، لذا مُهد النبي ﷺ في البداية عن طريق الرؤيا، ثم حين ظهر له الملك فجأة فخاف حسب الطبيعة البشرية، وطمأنته السيدة خديجة، وحين صدقه ورقة بن نوفل، تيقن ﷺ (من نبوته). وهذه هي ألفاظ هذا المحدث المذكور: (فلما سمع كلامه أيقن

فأخبَرها الخَبر. قالت خديجة: كلا أَبشر. فوَالله لا يُخزيكَ اللَّهُ أبداً، فوَالله لا يُخزيكَ اللَّهُ أبداً، فوَالله إنك لَتَصِلُ الرَّحِمِ، وتَصدُقُ الحديثَ، وتحملُ الكَلَّ، وتكْسِبُ المعدُومَ، وتَقرِي الضَيف، وتُعين على نوائب الحق. فانطَلَقَتْ به خديجَةُ حتى أَتَتْ به ورَقَةَ بن نَوفلٍ، وهو ابنُ عمٍّ خَديجَةَ أخي أبيها، وكان امرءاً تنصَّر في الجاهليةِ، وكان يكتبُ الكِتابَ العَرَبي، ويكتُبُ مِن الإِنْجيل بالعربية ما شاءَ الله أنْ يَكتُب، وكان شيْخاً كبيراً قد عَميَ، فقالت خديجة يا ابْنَ عم، اسمَع من ابن أخيك، قال ورَقَة: يا ابنَ أخي ماذا تَرَى؟ فأَخبَرَهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم خَبَرَ مَا رَأَى، فقال ورَقَةُ: هذا الناموسُ الذي أُنزلَ على موسى، لَيتني فيها جَذَعاً. ليتني أكونُ حيّاً ــ ذكرَ حرفاً ــ قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: أوَمُخرجيَّ هُم؟ قال ورَقَة: نعَم، لم يأتِ رجُل بما جئْتَ به إلا أُوذيَ، وإنْ يُدرِكني يومُك حياً أَنْصُرْك نصراً مؤزَّراً. ثم لم يَنشَبْ ورقةُ أنْ تُوفيَ وَفَتَر الوحْي فتْرةً حتى حَزِنَ رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم».(المترجم، نقلا عن التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول، الشيخ منصور على ناصف، الجزء الثالث، ص ٢٥٢ــ ٢٥٣)

بالحق واعترف به) ثم يكتب المحدث المذكور بعد هذا: (كان الوحي يتوقف أحياناً حتى يتمكن الرسول ﷺ من تحمله تدريجياً).[1]

ولكن لما ورد هذا الحديث في الترمذي؛ وهو" أنه ﷺ في سفره إلى الشام قبل النبوة، وفي البصري حين جلس تحت الشجرة وسجدت له ﷺ كل فروعها، الأمر الذي أكد به بحيرا على نبوة محمد ﷺ. وورد هذا الحديث في صحيح مسلم وهو أن النبي ﷺ يقول: " إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن. ". وورد في الصحاح "أن الملائكة قبل نبوته قد شقوا صدره ﷺ واستخرجوا الخبائث الجسمانية وطرحوها؛ فكيف يقول الرواة هذه الروايات، أن ظهور الملك كان حدثًا أخافه ﷺ، لدرجة أنه يحتاج إلى طمأنينة ويضطرب كثيراً، ويريد طرح نفسه من الجبل، وحاجة جبريل عليه السلام إلى طمأنته مراراً، وهل حدث شك لأي نبي آخر في بداية نبوته؛ وحين سمع موسى عليه السلام الصوت من على الشجرة "إني أنا الله" فهل بدا له أي شك في هذا؟ ونحن لسنا في حاجة إلى إتباع الحافظ بن حجر وغيره، ولابد علينا أن ننظر أولاً في هل أصل الرواية متصل بسند مرفوع أم لا؟ وهذه الرواية من بين بلاغات الإمام الزهري؛ أي تنتهي سلسلة السند عند الزهري ولا تتقدم عن هذا، وقد صرح شارحو البخاري أنفسهم بهذا، وواضح أن السند المقطوع ليس كافياً لمثل هذه الواقعة ذا الشأن العظيم.

وحين أراد النبي ﷺ القيام بأداء فرض النبوة، اعترضته مشاكل صعبة، ولو أن الفرض الذي كلف به ﷺ كفرض المسيح عليه السلام وهو اكتفاء بالدعوة والتبليغ، أو ككليم الله موسى عليه السلام بأن يأخذ قومه ويهرب من مصر، لما كانت هناك أي مشكلة؛ ولكن فرض خاتم الأنبياء عليهم السلام هو أن يحفظ نفسه وينور بلاد العرب بل الدنيا بأثرها بنشر نور الإسلام. لذا كان هناك حاجة إلى تدبير بالغ وتدرج، وكانت المرحلة الأولى هي على من يكشف هذا السر الخطير والعظيم، فكان يختار له أولئك الناس فقط الذين سعدوا بصحبته ﷺ والذين عرفهم الرسول بأخلاقهم وعاداتهم وحركاتهم وسكناتهم، والذين يستطيعون الفصل في صدق دعواه بناء على تجاربهم معه ﷺ السابقة. وهؤلاء الناس هم السيدة خديجة زوجه المصون، وعلي رضي الله عنه، والذي تربى في حجره ﷺ، وزيد رضي الله عنه غلامه ﷺ المعتق وخادمه الخاص، وأبو بكر (رضي الله

---

[1] فتح الباري، شرح صيح البخاري. كتاب التعبير جزء ١٢، صـــ٣١٧، طبعة مصر.

عنه)[1] والذي صادقه منذ سنوات، والسيدة خديجة، هي أول من بلغ النبي ﷺ هذه الرسالة، فكانت أول من آمن به، ثم جاء دور الكبار الآخرين وكان جميعهم يثق فيه ﷺ.

كان أبو بكر ثرياً، ذا حسب ونسب، وصاحب رأي سديد، وسخياً. كتب ابن سعد: حين أسلم أبو بكر رضي الله عنه، كان عنده أربعين ألف درهم، والخلاصة هي أن أبا بكر رضي الله عنه كان صاحب نفوذ وافر في مكة بسبب هذه الصفات، وكان يستشيره كبار وشرفاء المدينة في كل أمر، ويذكر أرباب الرواية أن كبار الصحابة عثمان والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وفاتح إيران وطلحة كل هؤلاء دخلوا في الإسلام بسبب هدايته وترغيبه إياهم في الإسلام.[2] وبسببه ذاع هذا الأمر سراً بين أناس آخرين، فكان يتضاعف عدد المسلمين، وكان من بين هؤلاء السابقين الأولين عمار وخباب بن الأرت وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة والأرقم وسعيد بن زيد وعبد الله بن مسعود وعثمان بن مظعون وعبيده وصهيب الرومي، ولكن لما تم هذا سراً، كان يحتاط احتياطاً بالغاً حتى لا ينتشر هذا الخبر بين الناس سوى المقربين. وعند وقت الصلاة كان النبي ﷺ يذهب إلى وادي جبل ويصلي هناك. ويقول ابن الأثير: إن النبي كان يؤدي صلاة الضحى في الحرم ذاته، لأن هذه الصلاة كانت جائزة عند قريش،[3] وذات مرة كان النبي ﷺ يصلى مع علي (رضي الله عنه) في مضيق، وخرج عليه صدفة عمه أبو طالب، وتعجب من طريقة عبادته ﷺ الجديدة، فوقف وظل ينظر بإمعان، وسأل عن الصلاة، أي دين هذا؟ فأجابه النبيﷺ هذا هو دين جدنا إبراهيم عليه السلام، قال أبو طالب لا يمكن لي أن أختاره، ولكنه مباح لك ولن يضايقك أي شخص.

وهذه أكبر مسألة في تاريخ الإسلام وهي؛ كيف انتشر الإسلام. قال المعترضون أنه انتشر بحد السيف، وسوف نتحدث تفصيلاً عن هذا الأمر في أجزاء الكتاب الأخرى، ولكن يجب إلقاء الضوء هنا علي جانب خاص وهو من هؤلاء الناس الذين اعتنقوا الإسلام في بدايته، ومن أي صنف كانوا في الوقت الذى كان اعتناق الإسلام يعنى التضحية بالمال والنفس. كانت هناك أمور مشتركة بين من اعتنقوا الإسلام في تلك الفترة،

---

(١) يجب الرجوع إلى الحديث عن هؤلاء جميعاً في كتاب الإصابة في أحوال الصحابة.

(٢) انظر رياض النضرة لمحب الطبري، طبعة مصر، صـــ٥٧.

(٣) الكامل لابن الأثير، ج ٢، ص ٢١، ذكر الاختلاف في أول من أسلم "سيد سليمان الندوى".

وعلي العكس توجد خصائص مشتركة أيضا في أولئك الناس الذين خالفوا بشدة. وسيأتي ذكر هذا تفصيلاً فيما بعد.

١- إن أكثر من اعتنق الإسلام في البداية كانوا أناس يبحثون عن الحق ويتصفون بحسن الأخلاق وسلامة الفطرة، من مثل أبى بكر الصديق رضي الله عنه، الذي كان مشهوراً في الجاهلية بالعفة والصدق والأمانة والتقوى، وعثمان بن مظعون، الذي كان يتصف بالمزاج الصوفي، وكان قد ترك شرب الخمر قبل ظهور الإسلام، وكان يريد بعد الإسلام أن يصبح راهباً، ولكن النبي ﷺ منعه من هذا، وكان صهيب قد تربي علي أيدي عبد الله بن جدعان، والذي ترك شرب الخمر قبل ظهور الإسلام وتوفي, وأبو ذر وهو سادس أو سابع من دخل في الإسلام، وهذه واقعة عن اعتناقه الإسلام، وهي أنه كان قد ترك عبادة الأصنام منذ زمن بعيد، وكان يذكر الله بطريقة غير معروفة كما كان يتراءى له ويصلي. وحين سمع بأمر النبي ﷺ، أرسل أخاه ليأتي له بالخبر الصحيح، فجاءه أخوه إلى مكة وذهب إلي النبي ﷺ، وسمع منه القران الكريم ورجع، وقال لأبى ذر: رأيت شخصا يقول عنه الناس أنه مرتد، وهو يأمر بمكارم الأخلاق، وكلامًا ما هو بالشعر، وإنما هو شيء آخر، وطريقتك تشبهه كثيراً، ولم يكتفِ أبو ذر بهذا، فجاء بنفسه إلي مكة واستمع إلي النبي ﷺ واعتنق الإسلام. وظل منعزلاً عن كل متعلقات الدنيا طوال عمره، وكان يرى أن جمع المال للمسلم غير جائز، لذا كان قد أرسله عثمان بن عفان في عهد خلافته بعيداً عن المدينة.[1]

٢- بعض الصحابة الذين كانوا أحنافا؛ أي أولئك الصحابة الذين كانوا قد تركوا عبادة الأصنام قبل ظهور الإسلام، كانوا يطلقون علي أنفسهم أنهم " متبعو إبراهيم"، ولكنهم لم يكونوا يعرفون شيئا آخر سوى هذا الاعتقاد الإجمالي. ولذا كانوا في بحث عن الحق، وكان من بينهم زيد، والذي سبق ذكره، وتوفي قبل بعثة النبي ﷺ بخمس سنوات، ولكن ابنه سعيد كان موجوداً، وقد استمع إلى إرشادات أبيه، وحين التقى بالنبي ﷺ، وجد فيه ذلك المرشد الهادي الذي كان يبحث عنه أبوه قبل وفاته ولم يجده.

---

[1] وردت واقعة إسلام أبى ذر في البخاري ومسلم، ولكن باختلاف. وأخذت من كليهما أشياء بإيجاز وتركت أمور كثيرة.

٣- كان هذا الأمر يشترك فيه الجميع، وهو أن هؤلاء الناس لم يكن في أيديهم أي منصب من مناصب قريش الكبرى، ليس هذا فحسب بل كان أكثرهم من مثل عمار، خباب، أبو فكيهة، وصهيب وغيرهم، رضي الله عنهم أجمعين لا يتمتع بأي مكان في بلاط الثروة والجاه؛ لذا حين كان الرسول ﷺ يأخذ هؤلاء الناس ويذهب إلى الحرم، كان زعماء قريش يضحكون ويقولون " أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ " (الأنعام: ٥٣).

وكان إفلاس هؤلاء الناس وفقرهم سبباً في قلة شأنهم عند الكفار، ولكن هذا الفقر والإفلاس نفسه كان سبباً في تمكنهم من ثروة الإيمان قبل الجميع، فلم تكن قلوبهم اسودت بسبب المال والثروة، ولم يبعدهم الفخر والغرور عن إتباع الحق، ولم يكن لديهم خوف من أنهم لو تركوا عبادة الأصنام فسوف يفلت من أيديهم منصب كبير من مناصب الكعبة. وخلاصة القول هو أن قلوبهم كانت طاهرة نقية من كل أنواع الصدأ، ومهيئة لنزول أشعة نور الحق عليها في أي وقت، وكان هذا هو السبب في أن متبعي الأنبياء الأوائل عليهم السلام كانوا أناس فقراء ومفلسين، فكان السماكون هم أول من اعتنقوا المسيحية، وقال الكفار عن أتباع نوح عليه السلام المقربين بأنهم أراذل. يقول الله تعالي:

" وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ" (هود: ٢٧)

وسوف يأتي الحديث مفصلاً فيما بعد عن هؤلاء المسلمين الأوائل الراسخين في الإيمان، والذي يبدو منه أن ظلم قريش المتعدد وتعذيبهم إياهم، ووعدهم بالمال والثروة الباهظة لم يزلزل أي شيء في إيمانهم وعقيدتهم، وفي النهاية استطاعت الأيادي الضعيفة أن تزلزل عرش كسري وقيصر الروم.

بلغ الرسول ﷺ دعوته سراً لمدة ثلاث سنوات، ولكن ارتفعت شمس الدعوة الإسلامية ونزل الأمر من الله تعالي للرسول ﷺ:

" فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ " (الحجر: ٩٤)

وأمره الله تعالي بقوله:

" وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ " (الشعراء: ٢١٤).

فصعد النبي ﷺ جبل الصفا وصاح قائلا: يا معشر قريش! فاجتمع الناس قال لهم النبي: أرأيتَكُم لو أخبرتُكم أنَّ خيلاً بالوادي تريدُ أن تُغيرَ عليكم أكنتم مُصَدِّقيَّ؟ قالوا: نعم، ما

جرَّبنا عليك إلاّ صدِقاً. قال: فإني نَذيرُ لكم بينَ يَدَيْ عذابٍ شديدٍ. سمع الجميع هذا وغضبوا غضباً شديداً ورجعوا، وكان من بينهم أبو لهب (عم رسول الله ﷺ)، (صحيح البخاري، ج ٢، ص ٧٠٢) [1] وبعد بضعة أيام قال النبي لعلي بن أبي طالب ﷺ: جهز طعاماً، وكانت هذه في الحقيقة هي أول درة للدعوة الإسلامية، فدُعي بني عبد المطلب جميعهم، وكان من بينهم حمزة وأبو طالب والعباس، ثم وقف النبي ﷺ بعد الطعام وقال (حسب ظن الراوي): " إني جئتكم بذلك الشيء الذي يكفل الدين والدنيا معاً فمن يناصرني ويعاونني في هذا الحمل الثقيل؟

عم الصمت الجلوس كله، وفجأة وقف علي ﷺ وقال: مع أنى أرمد العين، وساقي رفيعة والأصغر سنا إلا أنى سأناصرك". [2]

اندهشت قريش واحتارت من أن رجلين (أحدهما فتي في الثالثة عشر من عمره) يفصلان في أمر الدنيا، وضحك الجميع ضحكا، ولكن الزمان أعلن بعد هذا، أن هذا كله كان حقيقة.

وصل عدد المسلمين إلى الأربعين، وحين زاد عند المسلمين عن الأربعين ذهب النبي ﷺ إلى حرم الكعبة وأعلن عن دعوة التوحيد، كان هذا عند الكفار أكبر إهانة للحرم، لذا صخبت فجأة علي هذا وتدفقت جموع الناس علي النبي ﷺ من كل صوب وحدب، وكان ربيبه ﷺ الحارث "ﷺ "ابن أبى هالة في المنزل، وحين وصلة هذا الخبر، عدا عدوًا وأراد إنقاذ النبي ﷺ، فانهالت عليه السيوف من كل ناحية وسقط شهيداً، وكان هذا هو أول دم يسيل في طريق الدعوة الإسلامية، تخضبت به الأرض. [3]

---

[1] وردت هذه الرواية في الرحيق المختوم، صـ ٦٩ هكذا " روي البخاري طرفاً من هذه القصة عن ابن عباس قال لما نزل قوله تعالى (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ) صعد النبي ﷺ علي الصفا، فجعل ينادي علي بني فهر! يا بني عدي! لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ؟ فجاء أبو لهب وقريش. فقال أرأيتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم. أ لهذا جمعتنا ؟ فنزلت (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ).

[2] روي الطبري في " تاريخ الطبري " ج ٣، ص ١٠٧١ وفي " تفسير الطبري ج ١٩، ص ٦٨. هذه الرواية عن عبد الغفار بن القاسم ومناهل بن عمرو، والأول شيعي ومرفوض، والثاني سيء الدين. وفي هذه الرواية وجوه ضعف أخري، ليس هذا فحسب بل وجوه وضع " سيد سليمان الندوي ".

[3] الإصابة في احول الصحابة ذكر حارث بن أبى هالة

مخالفة قريش وأسبابها

كانت مكة تنعم بمكانة كبيرة في نفوس الناس، وكانت قريش تنعم بالحكم الديني لبلاد العرب كلها، ولهذا أطلق عليها جيرانها آل الله، لأنهم فقط كانوا مجاورين للكعبة وفي أيدهم مفتاحها، ولهذا قد انتشرت تجارة قريش، حتى أسست هيئات ومناصب كبيرة وهذا تفصيلها: [1]

المنصب	وظيفة المنصب	القبيلة التي كانت حاصلة على هذا المنصب	الناس الحاصلين على هذا المنصب في عهد النبي ﷺ
الحجابة	ولاية الكعبة ومفتاحها		عثمان بن طلحة
الرفادة	رعاية الحجاج	بني نوفل	حرث بن عامر
السقاية	سقاية الحجاج	بني هاشم	العباس رضي الله عنه
الشورى		بني أسد	يزيد بن ربيعة الأسود
الدية والمغارم	القضاء في القتل	بني أمية [2]	أبو بكر رضي الله عنه
العقاب	حمل اللواء	بني أمية	أبو سفيان
القبة	رعاية الخيام وقيادة الجيش	بني مخزوم	الوليد بن المغيرة
السفارة والمنافرة	إرسال سفير إلى القبائل التي يقع نزاع بينها فيمن هو أفضل فيفصل السفير في هذا الأمر	بني عدي	عمر بن الخطاب
الأزلام والأيسار	هيئة المال	بني جمح	صفوان بن أمية
الأموال	اهتمام بالخزانة	بني سهم	حرث بن قيس

وهذه أسماء أكبر زعماء مكة في بداية الإسلام، والذين كان لهم رسوخ وسطوة كبيرة على مكة كلها:

---

(1) ورد هذا الفصل كله في العقد الفريد، الجزء الثاني، صـ ٣١ "سيد سليمان الندوي"

(2) لابد من الإشارة هنا إلى أن أبا بكر الصديق لم يكن من بني أمية كما ذكر المؤلف، إذ كان رضي الله عنه من بني تيم فاسمه عتيق بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر. وقد ورد هذا النسب في السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ١٥٨. (المترجم).

١- أبو سفيان بن حرب: (والد معاوية ﷺ) وكان أبوه قائد قريش في حرب الفجار.

٢- *أبو لهب: (عم الرسول).*

٣- أبو جهل: وكان ابن أخ الوليد بن المغيرة، وسيد قومه.

٤- الوليد بن المغيرة: (والد خالد ﷺ بن الوليد)، وكان زعيم قريش الأكبر.

٥- العاص بن وائل السهمي: (والد عمرو ﷺ بن العاص)، وكان ثرياً وذو أولاد كثيرين وصاحب نفوذ.

٦- عتبة بن ربيعة (جد الأمير معاوية من الأم) كان نبيل الطبع وذو مكانة عالية في قومه. هذا فضلاً عن الأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والنضر بن الحارث بن كلده، والأخنس بن شريق الثقفي، وأبي بن خلف، وعقبه بن أبي معيط، الذين كانوا يتمتعون بنفوذ وسطوة.

وجدير بالذكر أن بني هاشم وبني أمية كانا خصمين دائماً، فمنذ أمد كان كلاهما يحسد الأخر ويغار منه.

السبب الأول

إن الشعوب التي تتصف بالجهل والعادات والتقاليد الصارمة، تخالف وتثور بشدة على أي حركة أو أي شيء يخالف معتقدات وأعراف آبائهم، ولا يخالفون هذا الأمر مخالفة شفوية فقط، بل يرون أنه لا يوجد أي شيء يطفئ نار انتقامهم سوى الدم. واليوم نرى أن الهند بالرغم من وصولها إلى درجة عالية من التمدن، إلا أنه إذا حدث أي خلاف حول أي مسألة دينية عامة، تحدث ثورة وغضب شديد، وإن لم تكن الحكومة صاحبة جبروت، تمطر السحاب دمًا على الأرض.

أبتلي العرب منذ زمن بعبادة الأصنام فقد كان مكان تذكار الخليل محطم الأصنام (الكعبة) مزين بـ (٣٦٠) معبودًا، أفضلها المعبود " هبل "، وكانت هذه الأصنام مالكة لكل أنواع الخير والشر، كانت تمطر الأمطار، وتهب الأولاد، وتمنح النصر في الحروب، فلم يكن هناك أي تصور للإله، وإن كان فوجوده عدم.

السبب الثاني

كان الإسلام يفرض تحطيم هذا الوهم والطلسم فجأة، إذ سيصحب هذا نهاية وسقوط عظمة قريش وزوال سطوتها ونفوذها العالمي، لذا عارضت قريش هذا الأمر

بشدة، خاصة أولئك الناس الذين يتخوفون من أن الضرر والخسارة الكبرى ستعود عليهم أكثر من غيرهم، وعليه كانوا الأكثر مخالفة وعناداً.

كان حرب بن أمية زعيم قريش الأكبر، لذا كان هو قائدهم في حرب الفجار، ولكن بعد موته لم يكن ابنه أبا سفيان كفء لنيل هذا المنصب، لذا ناله الوليد بن المغيرة بفضل كفاءته ورسوخه، وكان أبو جهل ابن أخيه، والذي كان يتمتع بنفوذ ومكانة في قريش هو الآخر.

لم يستطع أبو سفيان الحصول على منصب أبيه، إلا أنه كان زعيماً لبني أمية، وكان أبو لهب (عم شقيق لرسول الله ﷺ) الأكبر سناً في بني هاشم، وكان العاص بن وائل الأكثر نفوذاً وسطوة في بني سهم، فضلاً عن ثرائه وكثرة أولاده

كان عنان حكومة قريش في يد هؤلاء الزعماء، وهؤلاء هم أنفسهم الذين خالفوا الإسلام مخالفة شديدة، وكان زعماء قريش الآخرين من مثل الأسود بن المطلب، والأسود بن يغوث، والنضر بن الحرث، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط تابعين لهؤلاء الزعماء، ولهذا السبب يأتي ذكر أسمائهم بوضوح في الحديث عن أعداء الإسلام دائماً. وكانت قريش ترى أنه إذا أعطي مقام النبوة العظيم لأي أحد، فيعطى لأي زعيم من زعماء مكة أو الطائف.[1]

"وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ" (الزخرف: ٣١)

وكان للزعامة والرياسة في بلاد العرب شرط أساسي وحتمي وهو الثروة والأولاد. وكان هناك اعتقاد عن الأولاد عند أمم وحشية كثيرة (من بينها الهند)، وهو أن الشخص الذي ليس له أولاد يظل محرومًا من بركات الآخرة. ويعتقد الهندوس أيضًا في أن الإنسان بدون الأولاد لا يمكن له أن يحصل على النجاة الكاملة.

وحسب الصفات المذكورة، كان الوليد بن المغيرة وأمية بن خلف، والعاص بن وائل السهمي، وأبو مسعود الثقفي هم الذين يستحقون مقام الرياسة والزعامة عند قريش. وكان النبي ﷺ خالٍ تمامًا من هذه الأوصاف، فقد كان طرف ردائه ﷺ طاهرٌ من غبار الثروة، ولم يعش أولاده الذكور أكثر من سنة أو سنتين.

---

[1] – أي الوليد بن ربيعة أو أبو مسعود الثقفي. (المترجم).

السبب الثالث

كانت قريش بطبعها تنفر من المسيحيين، وهذا لأن أبرهة الأشرم (ملك الحبشة)، والذي كان قد جاء لهدم الكعبة كان مسيحيًا، كما كان هذا سببًا أيضاً في أن قريش كانت تفضل الباريسيين على المسيحيين. وحين انتصر الإيرانيون في حربهم مع الروم أعلنت قريش عن سعادتها البالغة وحزن المسلمون، فنزلت هذه الآية الكريمة.

" غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ " (الروم: ٢-٥)

هناك أمور مشتركة كثيرة بين الإسلام والمسيحية، أهمها: كان بيت المقدس هو قبلة المسلمين في تلك الفترة وظل فترة قبلتهم وهم في المدينة أيضًا، لذا اعتقدت قريش في أن النبي ﷺ يريد تأسيس ونشر المسيحية ثانية.

السبب الرابع

كان العداء القبائلي الموروث سبب كبير (في عداء قريش للرسول ﷺ). إذ كان هناك عداء بين أسرتين كبيرتين في قريش وهما بنو هاشم وبنو أمية. كان عبد المطلب قد أعلى من درجة بني هاشم بفضل قوته ونفوذه، ولكن لم يظهر بعده في هذه الأسرة أي شخص ذو نفوذ مثله. لم يكن أبو طالب ثرياً، وكان العباس ثرياً، ولكنه لم يكن سخياً، وكان أبي لهب سيئ السمعة وعليه كان نفوذ وسلطة بني أمية تزداد، وكان بنو أمية يرون أن نبوة محمد ﷺ نصر لخصمهم بني هاشم، لذا خالف بنو أمية الرسول ﷺ مخالفة فاقت مخالفة القبائل الأخرى، فقد أثار أبو سفيان نفسه الحروب.

وكان عقبة بن أبي معيط ألد أعداء النبي ﷺ أموياً، وهو الذي وضع سلا جذور على كتف النبي ﷺ وهو يصلي[1]. وكان بنو مخزوم يرون أنهم مساويين لبني هاشم بعد

---

[1] ورد حديث عن هذا نصه: (٤٦٠٤) وحدثنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبَانِ الْجُعْفِيُّ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحِيمِ يَعْنِي ابْنَ سُلَيْمَانَ عَنْ زَكَرِيَّاءَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ الأَوْدِيِّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، وَقَدْ نُحِرَتْ جَزُورٌ بِالأَمْسِ. فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَىٰ سَلاَ جَزُورِ بَنِي فُلاَنٍ فَيَأْخُذُهُ، فَيَضَعُهُ فِي كَتِفَيْ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ فَأَخَذَهُ، فَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ. قَالَ: فَاسْتَضْحَكُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَىٰ بَعْضٍ، وَأَنَا قَائِمٌ أَنْظُرُ، لَوْ كَانَتْ لِي مَنَعَةٌ طَرَحْتُهُ عَنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ، وَالنَّبِيُّ سَاجِدٌ، مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى انْطَلَقَ إِنْسَانٌ فَأَخْبَرَ فَاطِمَةَ. فَجَاءَتْ، وَهِيَ جُوَيْرِيَةٌ، فَطَرَحَتْهُ عَنْهُ. ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَشْتِمُهُمْ، فَلَمَّا

بني أمية، وكان الوليد بن المغيرة رئيس هذه القبيلة، لذا خالفت هذه القبيلة أيضاً الرسول ﷺ مخالفة شديدة، ويصدق على هذا خطبة أبي جهل وقال: ما رأيك فيَ محمد ﷺ؟ فقال أبو جهل: نحن وبنو عبد مناف (يعني آل هاشم) خصمان متكافئان دائماً، إن كانوا أطعموا فنحن أيضاً أطعمنا، وإن كانوا أسالوا الدماء فنحن أيضاً أسلنا، وإن كانوا جوادون، فنحن أكثر منهم جودًا، وحين تساوينا كتفنا بكتفهم، ادعوا النبوة، فبالله لن نؤمن بهذا النبي أبدا.[1]

السبب الخامس

كان هناك سبب كبير وهو انتشار سوء الأخلاق في قريش، فقد كان هناك زعماء كبار ذو نفوذ قد ارتكبوا ما يسئ إلى الأخلاق إساءة بالغة، من مثل أبي لهب الذي كانت له مكانة مرموقة في بني هاشم، فكان قد سرق غزالة ذهبية من خزينة الحرم وباعها.[2]

وكان الأخنس بن شريق – والذي كان حليفًا لبني زهرة ويعد من زعماء العرب الكبار نماماً وكذاباً، وكان النضر بن الحارث كذاباً. وهكذا كان أثر أصحاب الجاه والنفوذ أسيرين في مختلف الأعمال الشنيعة. وكان النبي ﷺ يبين مساوئ عبادة الأصنام من ناحية، ومن ناحية أخرى كان الآخرون حريصون على سوء الأخلاق؛ الأمر الذي كان بسببه تزلزلت مملكة عظمتهم ونفوذهم. وكانت تنزل آيات في القرآن الكريم في شأن هؤلاء سيئوا الأخلاق علانية باستمرار، ومع أن أسلوب البيان كان عاماً، إلا أن الناس كانوا يعرفون من المقصود. يقول الله تعالى " **وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ** "(القلم: ١٠-١٤)

قَضَى النَّبِيُّ صَلاَتَهُ رَفَعَ صَوْتَهُ ثُمَّ دَعَا عَلَيْهِمْ، وَكَانَ إِذَا دَعَا، دَعَا ثَلاَثاً. وَإِذَا سَأَلَ، سَأَلَ ثَلاَثاً. ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ! عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ» ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ ذَهَبَ عَنْهُمُ الضّحْكُ، وَخَافُوا دَعْوَتَهُ. ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ! عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ» (وَذَكَرَ السَّابِعَ وَلَمْ أَحْفَظْهُ) فَوَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ سَمَّى صَرْعَى يَوْمَ بَدْرٍ ثُمَّ سُحِبُوا إِلَى الْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ (المترجم).

(١) ابن هشام صـ ١٠٨ طبعة مصر.

(٢) كان هناك غزالة ذهبية محفوظة في خزانة الكعبة منذ زمن، وسرقها أبو لهب وباعها، ووردت هذه الواقعة في كتب التاريخ، وقد ذكر ابن قتيبة في المعارف، صـ٥٥، طبعة مصر.

و قال تعالي " كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ"(العلق: ١٥-١٦)

كان من الممكن اختيار الأسلوب الرقيق والهادئ للوعظ، ولكن بسبب نخوة العرب والفخر بالثروة والنفوذ والزعامة لا ينتبهون إلي هذا طالما ليس هناك أي شدة، لذا خاطبهم الجبار تعالى بهذا الأسلوب:" ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً (١٢) وَبَنِينَ شُهُوداً (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً" (المدثر: ١١-١٦)

- كان هذا الخطاب للوليد بن المغيرة سيد قريش, كانت هذه الألفاظ تصدر على لسان هذا الرجل الذي لم يكن صاحب جاه ونفوذ ظاهري، ولكن السبب الأكبر لمخالفة قريش وعنادهم، والذي لم يكن أثره على قريش بأثرها، بل على العرب جميعاً، هو أن الإسلام كان يمحو اسم وأثر معبودهم الذي كان (كما يزعمون) يقضي حاجات العرب منذ السنين، والذي يسجد العرب أمامه كل يوم، ويقول الله تعالي في شأنهم وأصنامهم:

" إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ " (الأنبياء: ٩٨).

أسباب تحمل قريش

كانت هذه الأسباب كلها، بل إن واحد منها كاف لاشتعال قريش وإثارة غضبها، وكان من الممكن أن تبدأ إراقة الدماء بمجرد إعلان الدعوة الإسلامية، ولكن قريش تمسكت بالصبر لأسباب، حيث كانت قريش قد دمرت تماماً في الحروب الداخلية، وقد ضعفت تماماً بعد حرب الفجار حتى إنها تخاف من مسمى الحرب. وبسبب التعصب القبلي كانت تنشب الحروب لمجرد أن تقتل قبيلة رجلا من قبيلة أخرى، فتهب قبيلة المقتول بدون أي بحث أو مناقشة للانتقام ولا تنطفئ النار حتى تثأر لقتيلها. وكان الاستعداد لقتل الرسول ﷺ أمرًا يسيراً جداً بالنسبة لقريش، ولكنهم كانوا يعلمون أن بني هاشم لن تترك الثأر، وعليه ستبتلي مكة بسلسلة طويلة من الحروب، وكان أناس كثيرون قد اعتنقوا الإسلام. ومن ثم لو أن الإسلام جرم فلم يكن شخص واحد قد ارتكبه بل المئات، وبالتالي يستحيل استئصالهم جميعا. وكان هناك أشخاص من رؤساء قريش أصحاب نفوس شريفة، لا يخالفون (الدعوة الإسلامية) بسبب النفس السيئة، بل بناءً على نية حسنة في رأيهم. وعليه، فقد كانوا يريدون أن تنتهي القضية بالصلح والمودة.

ربيعة مندوباً عن قريش إلى النبي ﷺ، وقال: يا محمد! ماذا تريد؟ أتريد رياسة مكة؟ هل تريد الزواج من أي أسرة كبيرة؟ هل تريد الثروة الطائلة؟ نستطيع أن نهيئ لك كل هذه الأشياء، كما نرضى بأن تكون مكة كلها تحت سيطرتك، ولكن بشرط أن تبتعد عن هذا الأمر. وكان عتبة لديه يقين أكيد على نجاح هذا العرض، ولكن النبي ﷺ قرأ عدة آيات من الذكر الحكيم تجيب على كل هذه المغريات.

" قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ " (فصلت:٦).

-**" قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العَالَمِينَ (٩)(فصلت)**

حين رجع عتبة، ولكنه لم يكن عتبة الذي كان، ذهب إلى قريش وقال: إن ما سمعته من محمد ليس بشعر ولكنه شيء آخر، وإني أرى أن تتركوه وحاله وإن نجح واشتهر فهذا شرف لكم، وإلا سيفنيه العرب، ولكن قريشاً لم توافق على هذا الرأي.

إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما السنة السادسة من البعثة

كان حمزة رضي الله عنه من بين أعمام الرسول ﷺ يحب الرسول ﷺ حباً جماً، وكان يكبره بسنتين أو بثلاث سنوات فقط، وكانا قد لعبا سوياً، كما رضع كلاهما من ثويبة، ولهذا كانا أخوين من الرضاعة، ولم يكن حمزة رضي الله عنه حتى ذلك الوقت قد اعتنق الإسلام؛ لكنه كان ينظر بحب إلي النبيﷺ، وكان يهوى المبارزة والصيد، وكان معتادً على أن يأخذ السهم والقوس، ويخرج ليلاً ويبقى مشغولاً بالصيد طوال النهار، وحين يعود في المساء يذهب إلى الحرم ويطوف، وكان رؤساء قريش يجلسون على حدة كل مع حاشيته في صحن الحرم وكان حمزة رضي الله عنه يُحيي هؤلاء الناس، ويجلس مع بعضهم أحياناً، وبهذا كان له ود مع الجميع، وكان الناس يقدرونه ويحترمونه.

واجه النبي ﷺ مخالفة ومعارضة قاسية، فذات يوم أساء أبو جهل إليه ﷺ إساءة بالغة، وشتمه وجها لوجه؛ وكانت هناك جارية قد رأت هذا، وحين رجع حمزة رضي الله عنه من الصيد بلغته بما جرى كله، فغضب حمزة رضي الله عنه غضبًا شديدًا، فأخذ القوس والسهم وذهب إلى الحرم، وقال لأبى جهل: لقد اعتنقت الإسلام.

أعلن حمزة رضي الله عنه إسلامه في ثورة حماسه لمساندة النبي ﷺ، ولكنه حين وصل إلى البيت تردد: كيف أترك دين الآباء فجأة؟ وظل طوال يومه يفكر في هذا الأمر،

خلاصة القول أنه حين أعلن النبي ﷺ دعوته، وبدأ يذم عبادة الأصنام علانية، جاء بعض من زعماء قريش إلى أبي طالب واشتكوا له، فأقنعهم أبو طالب برفق وهدوء ورجعوا، ولما كان سبب النزاع ما زال قائما، وهو أن النبي ﷺ لم ينته عن أداء فرضه، لذا رجع هؤلاء ثانية إلي أبي طالب، وجاء في هذه المرة زعماء قريش كلهم من مثل عتبة بن ربيعة، وشيبة، وأبو سفيان، والعاص بن هشام، وأبو جهل، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وغيرهم. وقال جميعهم لأبى طالب: إن ابن أخيك يحقر من آلهتنا، ويقول إن آبائنا وأجدادنا كانوا ضالين، ويقول علينا إننا حمقى، لذا إما أن تبتعد عنه، أو تأتي أنت الآخر في الميدان، ليكون هناك قرار حاسم بيننا. رأى أبو طالب أن الأمر أصبح حرجاً، وأن قريش أصبحت غير قادرة على التحمل، فقال: لا أستطيع مواجهة قريش وحيداً، فقال بإيجاز للرسول ﷺ: "يا حبيب العم، لا تلق علي بمثل هذا الحمل الثقيل، الذي لا أستطيع تحمله". إن كان للرسول ﷺ سند وملاذ ظاهري فكان هو أبو طالب، ورأى الرسول ﷺ أن هناك عثرة الآن في ثبات قدم عمه قال النبي ﷺ دامعاً " يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته." وأثر هذا الصوت كثيراً في أبى طالب، وقال لرسول الله ﷺ:"اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا."[1]

وانشغل النبي ﷺ في الدعوة الإسلامية كما يجب، أو بالرغم من أن قريشاً لم ترد قتل النبي ﷺ، إلا إنها كانت تؤذيه بطرق مختلفة فكانوا يلقون بالأشواك في طريقه، ويلقون النجاسة على جسده وهو يصلي، وكانوا يسبونه. ذات مرة كان النبي ﷺ يصلي في الحرم، فلف عقبة بن أبي معيط رداءً حول عنقه ﷺ، وجره بقوة حتى كاد أن يختنق الرسول ﷺ. وكانت قريش تحتار في أمر النبي ﷺ، ولمَ يتحمل كل هذه المصائب والإيذاء؟ وتساءلت أيضا، هل هناك أي رغبة أخرى للعقل الإنساني كي يضحي بالنفس من أجلها سوى الحصول على الجاه والثروة والاسم والشهرة ؟ وعليه ذهب عتبة بن

---

[1] ابن هشام، ص ٨٩. وقد نقل الإمام البخاري هذه الواقعة في كتابه التاريخ بإيجاز. (وردت قال الألباني في "الضعيفة"(٣١١/٢) هذا إسناد ضعيف معضل، فيعقوب بن عتبة هذا من ثقات أتباع التابعين مات سنة ثمان وعشرين ومائة وقد وجدت للحديث طريقا أخرى بسند حسن لكن بلفظ:" ما أنا بأقدر على أن أدع لكم ذلك، على أن تستشعلوا لي منها شعلة" يعنى الشمس، وقد خرجته في " الأحاديث الصحيحة" (٩٢). المترجم، نقلا عن السيرة النبوية لابن هشام،تحقيق الشيخ محمد بيومي، الجزء الأول، حاشية ص ١٦٥).

وفي النهاية قرر أن الإسلام هو الدين الحق،[1] وبعد أيام قليلة اعتنق عمر رضي الله عنه الإسلام.

كان عمر[2] رضي الله عنه حين ظهر الإسلام في السابعة والعشرين من عمره حين بعث النبي ﷺ، كان صوت التوحيد غير مألوفٍ في أسرة عمر رضي الله عنه بسبب زيد، لذا كان سعيد رضي الله عنه بن زيد رضي الله عنه هو أول من اعتنق الإسلام،[3] وتزوج سعيد رضي الله عنه بفاطمة أخت عمر رضي الله عنه، ومن هنا أسلمت فاطمة هي الأخرى. كما أسلم نعيم رضي الله عنه بن عبد الله وكان ذا مكانة مرموقة في هذه الأسرة، أما عمر رضي الله عنه فكان حتى ذلك الوقت غير خبير بالإسلام، وحين وصل أذنيه هذا الصوت، غضب غضباً شديداً، ليس هذا فحسب بل عادى كل من أسلم في القبيلة. وكانت لبينة مولاة لأسرته والتي كانت قد اعتنقت الإسلام، لذا ضربها عمر رضي الله عنه ضرباً مبرحاً، حتى أنه كان يتعب من الضرب فيقول: "أستريح ثم أضربك"، وكان يؤذي كل من كان تحت سيطرته علاوة على لبينة، ولكن عشق الإسلام لا يترك من يصيبه، فلم يُغير أي شخص فى إسلامه رغم كل هذه الشدائد والتعذيب، وفي نهاية الأمر أراد عمر رضي الله عنه قتل الرسول ﷺ نفسه (نعوذ بالله)، ووضع السيف في غمده وذهب إلي الرسول ﷺ مباشرة، والتقى في الطريق صدفة بنعيم بن عبد الله، والذي حين رأى وجهه متكدراً سأل ما الأمر؟ قال: أنا ذاهب لأفصل في أمر محمد ﷺ. قال له: اهتم بأمر أسرتك أولاً، فلقد اعتنقت أختك وختنك الإسلام، وعلى الفور رجع عمر رضي الله عنه وذهب إلي بيت أخته، وكانت تقرأ القرآن الكريم، وسمعت وقع أقدامه فصمتت، واخفت صحائف القرآن، ولكن صوتها قد وقع في أذنيه، فسأل أخته: أي صوت كان هذا؟ قالت: لا شيء. قال: لقد سمعت، ولقد أرتد كلاكما. وبطش بختنه، فقامت إليه أخته فاطمة لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها، ولكن حب الإسلام كان أكثر من هذا فقالا: يا عمر اصنع ما شئت، ولكننا لن نترك الإسلام، وأثرت هذه الألفاظ في عمر رضي الله عنه،

---

(١) كتب الجميع واقعة إسلام حمزة رضي الله عنه عموماً، ولكن رأيت هذه الواقعة الأخيرة في"روض الأنف" فقط.

(٢) كتبت بالتفصيل عن اعتناق عمر رضي الله عنه بالتفصيل في كتاب الفاروق، وأنقل هنا بعض ما كتبته مع تعريف بسيط في الألفاظ والجمل.(كتبت الروايات الأخرى المتعلقة بإسلام عمر في الجزء الثالث من كتاب سيرة النبي في باب استجابة الدعاء، أنظرها" سيد سليمان الندوي").

(٣) في هذه الأسرة (المترجم).

ونظر إلي أخته بعين الحب والشفقة، وكان الدم يسيل من بدنها، فرق قلبه أكثر وقال: اسمعاني شيئاً مما كنتما تقرآن. فأحضرت فاطمة صحائف القرآن ووضعتها أمامه فرفعها ونظر فيها فوجد قوله تعالي:

"سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (الحديد: ١)

وكان قلبه يرق ويميل إلى الإسلام بسماع كل لفظ حتى وصل إلى هذه الآية " **آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ** "(الحديد: ٧)

- فصاح بتلقائية

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وفي هذه الفترة كان النبي ﷺ مقيماً في منزل الأرقم ﷺ عند أسفل جبل الصفا، فوصل عمر ﷺ إلي هناك وطرق الباب، ولما كان متوشحاً سيفه، تردد الصحابة رضوان الله عليهم، ولكن حمزة ﷺ قال: " ائذن له فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه "وحين دخل عمر ﷺ، تقدم النبي ﷺ بنفسه وامسك بردائه وقال: "ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة، فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله فصاح النبي ﷺ الله اكبر، وصاح الصحابة جميعاً بقوة الله اكبر حتى دوت جبال مكة كلها.(١)

وبإسلام عمر ﷺ بدأ عهد جديد في تاريخ الإسلام، فبالرغم من أنه حتى ذلك الوقت قد أسلم أربعين أو خمسين رجلاً، كما أسلم سيد الشهداء حمزة ﷺ البطل العربي المشهور، لكن المسلمين لم يستطيعوا أن يؤدوا فرائضهم الدينية علانية، وكانت الصلاة في الكعبة أمراً مستحيلاً تماماً، وتغير هذا الحال فجأة مع إسلام عمر ﷺ. إذا أظهروا الإسلام علانية وقاومهم الكفار في بداية الأمر بشدة، ولكنهم ظلوا يواجهون علي لسان عبد الله بن مسعود هكذا:ـ

" فلما أسلم عمر قاتل قريش حتى صلي عند الكعبة وصلينا معه "

ورد في البخاري أنه حين أسلم عمر حدثت ضجة كبيرة. وصدفة خرج العاص بن وائل وسأل، ما هذه الضجة ؟ قال الناس: ارتد عمر. قال العاص بن وائل: فيما الأمر؟ آويت عمر.

---

(١) انساب الأشراف، البلاذري، وطبقات ابن سعد، أسد الغابة،وابن عساكر، والكامل لابن الأثير.

تعذيب المسلمين

إن قوة الإرادة والعزيمة الراسخة، واتفاق العمل هي الجواهر الأصلية للإنسان، وتستحق الإشادة والاستحسان، وحين تتغير جهة هذه الأوصاف، تختار القوة والوحشية وسفك الدماء. حين بدأ الإسلام ينتشر تدريجياً وحافظت القبائل[1] علي الرسول ﷺ وكبار الصحابة، انصب طيش وغضب قريش كله علي هؤلاء الفقراء وقليلي الحيلة الذين لم يكن لهم أي معاون، وكان من بينهم العبيد والإماء، إضافة إلى الغرباء الذين كانوا قد جاءوا إلى مكة منذ جيل أو جيلين فقط، ورجال ينتمون إلى قبائل ضعيفة ليس لها أي درجة من درجات العظمة والنفوذ، فأخذت قريش تؤذي هؤلاء الناس بطريقة تحقرها وحدها في تاريخ الظلم.

كان من السهل أن تطهر أرض العرب فجأة من غثاء المسلمين، لكن رغبة انتقام قريش لم تكتف بهذا الحد. إن كان في هلاك المسلمين وهم قائمون على دينهم مدح لقريش، ففيه مدح يفوقه لصبر وقوة عزيمة هؤلاء الضعفاء. وكان من الممكن أن يعلو شأن قريش إذا ترك هؤلاء الناس الإسلام ورجعوا إلى دين قريش، أو ربما كانوا موافقين على اختبار المسلمين بإيذائهم إيذاء شديدا والثناء عليه.

كان في قريش أناس تحترق قلوبهم حقيقة على هذا الحال، وهو أن يدمر نظام حياتهم الممتد من سنوات وسنوات، ويحقر آباؤهم وأجدادهم وتسقط عظمة آلهتهم الموقرة (في زعمهم)، وكان هذا النوع من الناس يكتفي بالحسرة والتأسف، ويقول بأنه حدث خلل في أذهان بعض الناس. وكان عتبة والعاص بن وائل وغيرهما من بين هذا النوع من الناس، ولكن معيار أبي جهل وأمية بن خلف وغيرهما كان يفوق هذا بكثير.[2]

طرق تعذيب المسلمين

اتخذت قريش طرقًا عديدة لتعذيب المسلمين وظلمهم. إذا حميت الظهيرة كانوا يقيدون هؤلاء المسلمين الفقراء والضعفاء، أو يضعون طواجن على أرض رملية إذا

---

[1] حيث كانت القبائل تخشي أن تقتل أي شخص أسلم ينتمي إلى قبيلة مرموقة، فتأخذ الأخرى ثأرها من الأولي، ومن هنا اعتبر المؤلف أن القبائل كلها مجتمعه اشتركت في الحفاظ علي الرسول ﷺ وكبار الصحابة. (المترجم).

[2] يبين المؤلف هنا أن قريش كانت على نوعين من الناس نوع يعارض الدعوة الإسلامية دون الوقوف في طريقها، ونوع أخر يعارض الدعوة ويقف في طريقها بكل ما أوتي من وسائل.(المترجم).

حميت الظهيرة حتى تحترق ثم يرقدون هؤلاء الضعفاء في هذه الطواجن أو يضعون صخرة ثقيلة على الصدر لا تتيح فرصة التحرك والتقلب، أو يلقون برمال ساخنة على الجسد، أو يسخنون الحديد على النار ويكوونهم به، أو يغمسونهم في الماء،[1] وإن كانت هذه المظالم والشدائد وقعت عمومًا لكل ضعفاء المسلمين إلا أن هناك بعض منهم وقع عليهم ظلم وعذاب خاص من قريش.

وهذه هي أسماؤهم:-

خباب بن الأرت، وكان من قبيلة تميم، استعبد في الجاهلية وبيع، وكانت أم أنمار قد اشترته، واعتنق الإسلام في الفترة التي كان فيها النبي ﷺ مقيمًا في بيت الأرقم رضي الله عنه. ولم يكن وصل عدد المسلمين آنذاك سوى ستة أو سبعة أشخاص. عذبته قريش بطرق عديدة من العذاب، ذات يوم أحرقت الفحم وفرشته على الأرض وأرقدته عليه، ووضع رجل أقدامه على صدره كيلا يتحرك حتى برد الفحم تمامًا تحت ظهره. وبعد فترة حين ذكر خباب رضي الله عنه هذه الواقعة أمام عمر رضي الله عنه، كشف عن ظهره وتراءى له كيًا أبيضًا كالبرص تمامًا.[2] كان خباب رضي الله عنه يعمل حداد في الجاهلية، وحين أسلم كانت له أموال عند بعض الناس، وحين كان يطالب بها، يجيبون: لن تجد فلسا واحدًا طالما لا تكفر بمحمد، فيقول: كلا، حتى تموتوا ويكون لا دنيا.[3]

بلال رضي الله عنه، المعروف بلقب المؤذن، كان حبشي النسل، وعبد أمية ابن خلف. كان أمية إذا حميت الظهيرة يرقده على رمل حارق، ويضع صخرة عظيمة على صدره حتى لا يتحرك، ويقول له: ستبقى هكذا حتى تموت أو تكفر بالإسلام، فيقول وهو في ذلك: "أحد". وحين لم تتزلزل عقيدته بأية طريقة، ربط عنقه بحبل، ثم أسلمه للعبيد يطوفون به في المدينة كلها. ولكن بلال دائمًا يردد "أحدٌ أحدٌ.

كان عمار رضي الله عنه من اليمن، قدم والده ياسر مكة، زوَّجه أبو حذيفة المخزومي بجاريته سمية، أنجبت عمار رضي الله عنه، واعتنق عمار الإسلام وسبقه في

---

[1] كتب ابن سعد هذه الأحداث تفضيلا في حديثة عن بلال وصهيب رضي الله عنهما. انظر طبقات ابن سعد، الجزء ٣، ذكر صحابه بدر.

[2] طبقات ابن سعد، الجزء الثالث، ذكر خباب رضي الله عنه.

[3] صحيح البخاري، ج٢، صـــ ٦٩ " سيد سليمان الندوي".

ذلك ثلاثة رجال فقط. وكانت قريش ترقده على أرض محرقة وتضربه حتى يفقد الوعي، وتقوم بهذا العمل مع أبيه وأمه.

سمية والدة عمار رضي الله عنه، ضربها أبو جهل بسبب إسلامها حتى ماتت.

ياسر، والد عمار رضي الله عنهما، تحمل كثيراً من إيذاء وتعذيب الكفار حتى مات.

صهيب رضي الله عنه، يعرف بأنه رومي، ولكنه في الحقيقة لم يكن رومياً، فقد كان والده "سنان" حاكم "أبله" من قبل "كسرى"، وكانت أسرته تعيش في الموصل. وذات مرة هجم الروم على تلك البلاد، وأسروا أناسًا كان من بينهم صهيب رضى الله عنه. وتربى صهيب رضي الله عنه في بلاد الروم، لذا لم يكن يجيد العربية. اشتراه عربي وأتى به إلى مكة، واشتراه عبد الله بن جدعان وأعتقه.

وحين بدأ الرسول ﷺ بدعوة الإسلام، جاء صهيب وعمار بن ياسر رضي الله عنهما إلى الرسول فدعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام، فاسلما.[١] وكانت قريش تؤذيه إيذاءً كبيراً حتى يفقد الوعي، وحين أراد الهجرة إلى المدينة قالت له قريش: إن تترك كل ما تملك تستطيع الذهاب، فرضي بهذا بسعادة.

كان أبو فكيهة رضي الله عنه عبد صفوان بن أمية، وأعتنق الإسلام مع بلال رضي الله عنه، وحين علم أمية بهذا، قيد أقدامه وقال للناس: اسحبوه وأرقدوه على أرض محمومة. وذات مرة كان ذاهباً في طريق به روث كثير، فقال له أمية: "أليس هذا هو إلهك" قال: "إلهي وإلهك هو الله تعالي"، فخنقه ابن أمية بقسوة وأعتقد الناس أنه لفظ أنفاسه. وذات مرة وضع علي صدره حجراً ثقيلاً لدرجة أن لسانه قد خرج من فمه.

كانت لبينة مولاة، وكان يضربها عمر رضي الله عنه[٢] ضرباً مبرحاً حتى يتعب فيتوقف ويقول: تركتك لا شفقة عليك بل لأني قد تعبت، وكانت تجيبه بإباءٍ إن لم تسلم فسوف ينتقم منك الله.

وكانت زنيرة أمة أسرة عمر، لذا كان عمر رضي الله عنه (قبل الإسلام) يؤذيها إيذاءً شديداً، وكان أبو جهل يضربها ضرباً مبرحاً يفقدها الوعي.

---

[١] ابن الأثير، ذكر تعذيب المستضعفين. كتب ابن الأثير، أن عمار رضي الله عنه اعتنق الإسلام حين كان النبي ﷺ مقيماً في دار الأرقم، وكان أكثر من ثلاثين شخصاً قد اعتنقوا الإسلام.

[٢] لم يكن عمر رضي الله عنه قد أعتنق الإسلام حتى ذلك الوقت.

وكانت نهدية وأم عبيس رضي الله عنهما جاريتين، وتحملت كلتيهما إيذاءً شديداً لاعتناقهما الإسلام.

وكان هذا هو الباب الأول في سجل فضائل أبي بكر رضي الله عنه، وهو أنه أنقذ أرواح كثيرٍ من هؤلاء المظلومين، فقد اشترى بلال وعامر بن فهيرة، ولبينة، وزنيرة، وأم عبيس رضي الله عنهم وعنهن بأثمان باهظة، وأعتقهم. وكان هؤلاء الناس جميعاً هم الذين لاقوا أذية كبيرة من قريش، والأقل منهم إيذاءً هم أولئك الذين لاقوا إيذاء من نوعٍ آخر.

حين أسلم عثمان رضي الله عنه، كان كبير السن، وصاحب الجاه والعزة. فلم يؤذِه الآخرون؛ بل ربطه عمه[1] بنفسه بحبل وضربه. وأبو ذر رضي الله عنه سابع من أسلم، وحين أسلم وأعلن إسلامه في الكعبة، ضربته قريش ضربا مبرحا، وطرحوه أرضًا.[2] والزبير بن العوام رضي الله عنه خامس من أسلم، حين أسلم لفَّه عمه في حصيرة (ويشعل النيران بالقرب منه) حتى يدخل الدخان في أنفه.[3] وحين أسلم سعيد رضي الله عنه بن زيد، ابن عم عمر رضي الله عنه، ربطه عم عمر رضي الله عنه بالحبال.[4]

ولكن هذا الظلم الكبير وهذا التعذيب القاسي، وهذه الضراوة والوحشية لم تزلزل أي مسلم عن الطريق الحق. كتب مؤرخ نصراني حقًا:

"حسن أن يتذكر المسيحيون ذلك الأمر؛ أن صفات محمد ﷺ أوجدت عشقًا دينيًا قويًا لدى أتباع محمد ﷺ. والبحث عن هذا في أتباع عيسى عليه السلام الأوائل بلا جدوى؛ فحين صلب عيسى عليه السلام هرب أتباعه، وأخذ عشقهم الديني يقل، وتركوا قدوتهم أسيرًا في مخلب الموت ومشوا. وعلى العكس من هذا أتباع محمد ﷺ إذ التفوا حول نبيهم المظلوم، وعرضوا أنفسهم للمخاطر من أجل حمايته وإنقاذه، ونصروه ﷺ على كل الأعداء.[5]

---

(١) الطبقات، ترجمة عثمان بن عفان.

(٢) البخاري، ج ١، صـ ٥٤٤-٥٤٥، باب إسلام أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) رياض النضرة للحب الطبري.

(٤) البخاري صـ ١٠٢٧، لم يكن عمر رضي الله عنه قد أسلم في هذا الوقت. "سيد سليمان الندوي".

(٥) اپالوجي كاندفرى مينكس. الترجمة الأردية، ص٦٦-٦٧، طبعة بريلي، ١٨٧٣م.

الهجرة إلى الحبشة السنة الخامسة

حين اشتد ظلم قريش واستمر، أمر الرسول ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة. وكانت الحبشة مكاناً تجارياً قديماً لقريش، لذا كانوا علي معرفة بها وبأحوالها من قبل. وكان العرب يطلقون علي حاكم الحبشة اسم النجاشي،[١] والذي كان معروفاً بعدله.

والحقيقة هي أن أصحاب الرسول ﷺ كانوا يستطيعون تحمل كل أنواع العذاب من أجل دينهم، ولكن لم يكن من الممكن لهم أداء فرائض الإسلام بحرية وهم في مكة، إذ لم يكن أي أحد يستطيع قراءة القرآن الكريم بصوت مرتفع في حرم الكعبة. وحين اسلم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سوف أؤدي هذا الفرض، ومنعه الناس (الصحابة) من هذا، ولكنه لم يرجع عن بغيته، فذهب إلى الحرم، ووقف عند مقام إبراهيم (علية السلام) وبـــدأ يقرأ سورة الرحمن، والتف حوله الكفار التفافاً وبدءوا يلطمونه علي وجهه بجروح غائرة.[٢]

ولم يكن أبو بكر رضي الله عنه أقل من سادة قريش الآخرين جاهاً ونفوذا، لكنه لم يستطع قراءة القرآن بصوت مرتفع، لذا كان قد استعد للهجرة ذات مرة.[٣]

هذا فضلاً عن أنه كانت هناك فائدة كبيرة أخري من الهجرة؛ وهي أن نور الإسلام كان ينتشر بنفسه في الأماكن التي هاجر إليها هؤلاء المسلمون. خلاصة القول هو أن أحد عشر رجلاً من بينهم أربع نسوة هاجروا بإيعاز من الرسول. وهذه هي أسماء أول المهاجرين:

١- عثمان بن عفان رضي الله عنه، هاجر مع زوجته السيدة رقية رضي الله عنها ابنة الرسولﷺ.

---

[١] والنجاشي تعرب للفظ الحبشي "تجوس"، والذي يعني في اللغة الحبشية الملك، وكان النجاشي يدعي اصحمة. (البخاري، باب موت النجاشي) "سيد سليمان الندوي ".

[٢] الطبري، ج٣ صـــ ١١٨٨ " سيد سليمان الندوى ".

[٣] البخاري، باب الهجرة إلى المدينة. " سيد سليمان الندوي ". وهذا نص الحديث: " تجهز أبو بكر قبل المدينة، فقال له رسول الله: "على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي" فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: نعم، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ليصحبه." (البخاري، ج٢، ص٤٩١، المترجم).

٢- أبو حذيفة بن عتبة رضي الله عنه. هاجر مع زوجه والتي كانت تدعي باسم سهلة بنت سهيل وكان أبوه عتبة من أشهر سادة قريش، إلا أن أبا حذيفة اضطر لترك المنزل بسبب كفر عتبة الشديد.

٣- الزبير بن العوام رضي الله عنه. ابن عمة الرسول ﷺ وصحابي جليل معروف.

٤- مصعب بن عمير رضي الله عنه. وهو حفيد هاشم

٥- عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، صحابي جليل معروف، وواحد من العشرة المبشرين بالجنة، وكان من قبيلة زهرة، وعليه، كانت قرابته للرسولﷺ قرابة الخال.

٦- أبو سلمة (بن عبد الأسد) المخزومي رضي الله عنه، هاجرت معه زوجته أم سلمة بنت أبى أمية. وأم سلمة رضي الله عنهما هذه هي أم المؤمنين التي تزوجت النبي ﷺ بعد وفاة أبى سلمة.

٧- عثمان بن مظعون الجمحي رضي الله عنه، الصحابي الجليل المعروف.

٨- عامر بن ربيعة رضي الله عنه، هاجر مع زوجته ليلي بنت أبى حشمة. وهو من السابقين الأولين. وكان شريكا في بدر، وولاه عثمان رضي الله عنه حكم المدينة المنورة حين سافر إلى الحج.

٩- أبو سبرة رضي الله عنه بن أبى رُهم.[1] كانت أمه برة عمة النبي ﷺ وكان أبو سبرة من السابقين في الإسلام. وكتب الحافظ ابن حجر في الإصابة أنه قد هاجر في الهجرة الثانية.

---

[1] هناك اختلاف فيمن هاجر إلي الحبشة وعددهم. ذكر ابن إسحاق أسماء هؤلاء الرجال العشر. ويقول وهو على يقين عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: إنه لم يكن في الهجرة الأولى، بل كان ممن هاجر في الهجرة الثانية.(فتح الباري،ج ٧، ص١٤٣)، وذكر الواقدي هجرة أحد عشر رجلاً من الصحابة. وحقيقة الأمر هي أنه عد أبا سبرة وأبا حاتم رضي الله عنهما من بين المهاجرين. ويسلم ابن إسحاق بواحد من كليهما. وفي هذا الأمر سهو كبير من الواقدي؛ وهو أنه ذكر أحد عشر رجلاً هاجروا إلى الحبشة، لكنه حين أدرج قائمة المهاجرين، كتب أسماء اثنى عشر رجلاً، أي أضاف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أيضا. (الزرقاني على المواهب، ج١، صـ٣١٤). وقد أمسك الحافظ ابن حجر بسهو الواقدي هذا. (فتح الباري، ج٧، صـــ١٤٣). ذكر ابن سعد هؤلاء المهاجرين جميعاً، والذين ذكرهم الواقدي. (ابن سعد،ج١،صـ١٣٦). وذكر بن سيد الناس أيضًا اثني عشر رجلاً نقلاً عن الزهري، ولكنه ذكر اسم سليط بن عمرو رضي الله عنه بدلاً من الزبير رضي الله عنه (عيون الأثر، ج١،صـ١٥). وهناك بعضٌ آخر من كتاب السيرة يسلم بأن عدد الرجال اثنا عشر رجلاً.

١٠- أبو حاطب رضي الله عنه بن عمرو، وسهيل بن بيضاء. اشتركا في غزوة بدر. ويكتب الإمام الزهري أنهما كانا أول من هاجر. (الإصابة).

١١- عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، صحابي جليل مشهور، وواحد من الصحابة المجتهدين.

هاجر هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم في شهر رجب سنة خمسة من البعثة، ومن حسن الطالع أنه حين وصلوا إلى الميناء كانت هناك سفينة تجارية مبحرة إلي الحبشة، وحملهم أصحاب السفينة بأجر قليل، إذ دفع كل شخص خمس دراهم فقط. وحين علمت قريش بهذا، لاحقتهم حتى الميناء، ولكن السفينة كانت قد أبحرت.(١)

يري عامة المؤرخين أن هؤلاء الصحابة الذين هاجروا لم يكن لهم أي حام أو مساند، ولكن يبدو أنه كان هناك أناس ذوى درجات مختلفة في قائمة المهاجرين؛ فكان عثمان رضي الله عنه من بني أمية، صاحبة السلطة والنفوذ القوي، وأيضاً كان هناك صحابة كبار من مثل الزبير، ومصعب رضي الله عنهما، وكان من أسرة النبي ﷺ، وكان عبد الرحمن بن عوف وأبو سبرة رضي الله عنهما أصحاب مكانة معروفة. وعليه، يتضح تماماً أن ظلم وقهر قريش لم يكن مقصوراً على الفقراء والضعفاء فقط، بل لم ينجُ رجال من أسر عريقة من ظلمهم وقهرهم.

وهناك أمر عجيب، وهو أن الصحابة الذين كانوا يعانون كثيراً من ظلم وإيذاء قريش لا تبدو أسماؤهم في قائمة المهاجرين إلى الحبشة، من مثل بلال وعمار وياسر رضي الله عنهم، وربما يكون السبب في هذا قدرتهم المادية التي تمكنهم من السفر، أو أنهم كانوا قد تعودوا على الإيذاء واعتبروه شيئاً محبباً لا يستطيعون تركه (حباً في طاعة الله).

بدأ المسلمون يعيشون بأمن وسلام في الحبشة بفضل النجاشي، الأمر الذي أزعج قريش حين علمت به، وقررت في النهاية إرسال بعثة إلي الحبشة تقول له: اطرد مجرمينا

ويذكرون اسم حاطب بن حارث وهاشم بن عمرو بدلاً من حاطب بن عمرو وسهيل بن بيضاء رضي الله عنهم. (الزرقاني، الجزء الأول، صـــ٣١٤). ويضيف بعض كتاب السيرة زوجة أبي سبرة رضي الله عنه أم كلثوم بنت سهيل ومربية الرسول أم أيمن ﷺ إلي النسوة اللاتي هاجرن رضي الله عنهن أجمعين. "سيد سليمان الندوي".

(١) ورد هذا كله تفصيلاً في الطبري.

هؤلاء من بلدك، وانتخب عبد الله بن ربيعة وعمرو بن العاص (فاتح مصر) لهذه المهمة،[1] ووفروا هدايا قيمة للنجاشي ولكل واحد في بلاطه،[2] واتجهت هذه البعثة إلى الحبشة بهدايا وعطايا كثيرة. والتقي هذان السفيران باديء ذي بدء بقساوسة البلاط قبل النجاشي، وقدموا لهم الهدايا، وقالوا: اخترع بعض سفهاء بلدتنا ديناً جديداً، لذا طردناهم، فهربوا إلى بلدكم، لذا سنقدم غداً طلباً للملك بشأنهم، فساعدونا في مهمتنا. وفي اليوم التالي ذهب هذان السفيران إلى الملك وطلبا منه: رد إلينا مجرمينا، وساندهم رجال البلاط في طلبهم، واستدعى النجاشي المسلمين وقال:" أي دين هذا، أوجدتموه يخالف المسيحية وعبادة الأصنام؟"

رشح المسلمون جعفر رضي الله عنه (أخو علي رضي الله عنه) ليتحدث عنهم، وهكذا بدأ قوله:-

"أيها الملك! كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونسيء الجوار ونقطع الأرحام ويأكل منا القوي الضعيف، فكنا علي ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله، وأن نخلع ما كنا نعبد من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن آكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا بالصلاة والصوم والزكاة فصدقناه وآمنا به وتركنا الشرك وعبادة الأصنام، وابتعدنا عن كل الأعمال السيئة، فعادانا قومنا، وأخذوا يجبروننا على العودة إلى هذا الضلال ثانية.

قال النجاشي: اقرأ بعضاً من كلام الله مما أنزل على نبيك، فقرأ جعفر آيات من سورة مريم، فرق قلب النجاشي، وبكي ثم قال: بالله إن هذا الكلام والإنجيل ليخرج من مشكاة واحدة، قال هذا، وقال لسفيري قريش: انطلقا فلا أسلم هؤلاء المظلومين إليكما أبدا. وفي اليوم التالي تمكن عمرو بن العاص من الوصول إلي البلاط ثانية، وقال للنجاشي: سيدي! أتعلم أنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً؟ فأرسل إليهم النجاشي يسألهم عن قولهم في المسيح، ففزعوا من أنهم لو أنكروا بنوة عيسى عليه السلام لله فسوف

---

[1] مسند أحمد،ج١،صـ٢٠٢"سيد سليمان الندوي".

[2] كتب ابن هشام أن الجلد كان أئمة الهدايا في مكة، ويثبت من الكتب أن البضاعة التي كان يأخذوها أهل مكة بغرض التجارة إلي الشام وغيرها كانت جلود (وفي مسند الإمام أحمد ابن حنبل تصريح بأن هذه الهدايا كانت جلداً- مسند أهل البيت).

يغضب النجاشي لأنه مسيحي، فقال جعفر رضي الله عنه: لابد علينا أن نقول الصدق في أي حال من الأحوال.

خلاصة القول هو أنه عندما حضر المسلمون في البلاط، سألهم النجاشي: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟ قال جعفر: أخبرنا نبينا ﷺ أن عيسى عبد الله ورسوله وكلمة الله، فأخذ النجاشي عوداً من الأرض، ثم قال: "والله ماعدا عيسى بن مريم عليه السلام ما قلت هذا العود"،[١] فتناحرت بطاركته، ولم يبال النجاشي بتناحرهم وغضبهم. وهكذا فشل سفيري قريش تماماً.[٢]

وفي هذه الفترة تعرض ملك الحبشة لهجوم أحد الأعداء، فخرج النجاشي نفسه لمواجهته، وتشاور الصحابة فيما بينهم وقالوا يذهب منا رجل، ويخبرنا بالوضع أولاً بأول، وإن دعت الحاجة إلى مدد النجاشي فلنمده ونقف بجواره. ورغم أن الزبير رضي الله عنه كان أصغرهم سناً، إلا أنه قدم نفسه لهذه المهمة، وبالسقاء عبر النهر ووصل إلي ميدان المعركة، وعلي صعيد آخر كان الصحابة يدعون الله لنصر النجاشي. وبعد عدة أيام رجع الزبير رضي الله عنه، وبشر بأن الله تعالي نصر النجاشي.[٣]

---

[١] المستدرك للحاكم، ج٢، صـــ٣١٠، كتاب التفسير" سيد سليمان الندوي".

[٢] اختلق مارجوليوث سببًا للهجرة، إذ يقول إن محمدًا ﷺ: "حين رأي أنه لم يستطع القيام بمهمته مع قريش، وكان قد سمع أن أبرهة الأشرم الذي كان قد جاء لهدم الكعبة كان حبشياً، لذا أراد أن يتآمر مع ملك الحبشة ويرغبه في الهجوم على مكة، حتى تضعف قوة قريش، ولهذا الغرض نفسه أرسل أصحابه إلى الحبشة بحجة الهجرة، ولكنه حين أدرك أن النجاشي إن أتي إلى مكة، فسوف يستولي عليها هو نفسه، ولن يحصل محمد على أي شيء، وعليه؛ رجع عن هذا المراد. وهذا الأمر لا صحة له على الإطلاق.

وقد شك السيد مارجوليوث في كلام جعفر وحواره مع النجاشي بناءً علي أن النجاشي لم يكن عارفاً بالعربية، في حين أن الناس في الحبشة عامة كانوا يستطيعون فهم العربية دون أدنى مشقة في تلك الفترة، لأن كلا اللغتين قريبة جداً من الأخرى، وهذا أولاً، ثانياً كان في البلاط مترجمون، كما هو وارد في الحوار بين أبي سفيان وقيصر الروم (البخاري باب بدأ الوحي). "سيد سليمان الندوي"".

[٣] وردت هذه الأحداث كلها في مسند بن حنبل، ج١، صــــ٢٠٢ وكتبها هشام تفصيلاً ولكن الطبري وابن سعد لم يذكرا خطبة وحديث جعفر رضي الله عنه مع النجاشي. وهذه سلسلة رواية الإمام ابن حنبل وبن هشام وهي محمد بن إسحاق والزهري وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام المخزومي، وأم سلمة وهؤلاء الرواة جميعاً ثقة خاصة، وأن الراوي الأخير أم سلمة زوج الرسول ﷺ كانت شريكة في هذه الواقعة بنفسها، ولم تكن تزوجت النبي ﷺ في ذلك الوقت، بل كانت قد هاجرت

هاجر إلى الحبشة ٨٣ مسلما تقريباً، وقضوا فترة باطمئنان وراحة ولكنهم حين سمعوا هذا النبأ المشهور؛ وهو أن الكفار قد اعتنقوا الإسلام، اتجه أكثرهم إلى مكة المكرمة، ولكنهم حين وصلوا على مقربة منها، أتضح لهم أن هذا الخبر كذب، لذا رجع بعضهم، ودخل أكثرهم مكة في الخفاء.

وردت هذه الرواية في الطبري وأكثر كتب التاريخ ومن الممكن أن يكون هذا صحيحاً، ولكن سبب كتابة هذا الخبر المشهور في تلك الكتب هو أن النبي ﷺ صلى ذات مرة في الحرم، في وجود الكفار، وحين قرأ ﷺ هذه الآية " **وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى**"(النجم: ٢٠) أخرج الشيطان هذه الألفاظ عن لسانه:

تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترجى. وبعدها سجد النبي ﷺ وتبعه الكفار جميعاً، وهذا هو الجزء الأخير في هذه الرواية؛ وهو أن الجن والأنس كلهم سوى بعض الكفار سجدوا مرة مع النبي ﷺ، والصحيح هو ما ورد في صحيح البخاري في باب[1] **(فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا)** (النجم: ٦٢)، والجزء الأخير من الرواية كذب وغير جدير بالذكر، وأبطله وكذّبه أغلب كبار المحدثين، من مثل البيهقي، والقاضي عياض، والعلامة العيني، والحافظ المنذري، والعلامة النووي.[2] ولكن من المؤسف أن محدثين كثيرين قد نقلوا هذه الرواية بسند، ومن بينهم الطبري، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن إسحاق، وموسى بن عقبة، وأبو معشر.[3]

و الأكثر دهشة هو أن الحافظ ابن حجر الذي أُجمع على مكانته في علم الحديث -يؤكد على صحة هذه الرواية فيكتب:[4]

مع زوجها الأول أبو سلمة بن الأسد رضي الله عنه، وكتب المؤرخ اليعقوبي هذه الواقعة تفصيلاً أيضاً.

(١) كتاب التفسير سورة النجم "سيد سليمان الندوى". (عن ابن عباس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ سجد بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس. ج٣، ص٢٧٨). (المترجم).

(٢) انظر الزرقاني في المواهب اللدنية، والشفاء للقاضي عياض، والعيني، وشرح البخاري، تفسير صورة النجم، ونور النبراس. وهذه هي جملة العلامة النووي "لا يصح فيه شيء لا من جهة النقل ولا من جهة العقل". ويكتب العلامة العيني: "فلا صحة له نقلاً ولا عقلاً".

(٣) انظر المواهب اللدينة، والزرقاني؛ واقعة الهجرة إلى الحبشة.

(٤) الزرقاني، المواهب اللدينة، ج١، صـــ ٣٣٠.

"وقد ذكرنا أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح؛ وهي مراسيل يحتجب بمثلها من يحتج بالمراسيل".

والحقيقة هي أنه كان من عادة الكفار أن يثيروا ضجة عندما يتلوا النبي ﷺ القرآن، ويخلطون له بعض الجمل من عندهم، والآية الكريمة التالية تشير إلى هذه الواقعة:

"وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ"(فصلت:٢٦).

وكانت عادة قريش حين تطوف بالكعبة أن تقول هذه الجملة:[١] واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فإنهن الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى.

حين قرأ النبي ﷺ تلك الآيات من صورة النجم، خلط شيطان (كافر) هذه الألفاظ بصوت النبي وقرأها، وظن من كان بعيداً من الكفار أن النبي محمد ﷺ قد نطق هذه الألفاظ. وربما حين انتشر هذا الأمر بين المسلمين قال الناس: إن شيطاناً ما قال هذه الألفاظ على لسانه. وقد حدث تبديل وتغيير في روايات هذه الواقعة حتى أخذت هذه الصورة؛ وهي أن الشيطان يستطيع أن يتحدث بلسان شخص آخر، لذا سلّم الرواة بهذه الرواية، ليس هذا فحسب؛ بل صرح بهذا أيضاً التابعون من الدارسين، وورد في المواهب:-

قيل أنه لما وصل إليه قوله: **" وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى"(النجم:٢٠)**، خشي المشركون أن يأتي بعدها بشيء يذم آلهتهم، فبادروا إلى ذلك الكلام، فخلطوه في تلاوة النبي ﷺ على عادتهم في قولهم "لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه، أو المراد بالشيطان شيطان الإنس.

والصحابة الذين رجعوا من الحبشة لاقوا إيذاءً وقهرًا أكبر مما سبق بأهل مكة، لدرجة أنهم اضطروا إلى الهجرة ثانية؛ ولكن الهجرة الآن لم تكن بأمر سهل فقد ضايقهم الكفار مضايقة شديدة، حتى هاجر من مكة حوالي مئة صحابي، وفضلوا الإقامة في الحبشة، وحين هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، رجع بعض أولئك الصحابة. وفي السنة السابعة من الهجرة استدعى الرسول البقية منهم.[٢]

وفي تلك الفترة، لم يقتصر إيذاء وقهر الكفار على الضعفاء والفقراء فقط، فقد كان أبو بكر رضي الله عنه من قبيلة لها مكانتها ونفوذها، كما كان له أنصار، وبالرغم

---

(١) معجم البلدان، لفظ عزى.

(٢) ورد هذا تفصيلاً في طبقات ابن سعد، ولم يذكر بعض المؤرخين هذه الهجرة الثانية، وذكرها بعض آخر بإيجاز شديد.

من هذا ضاق ذرعاً هو الآخر من ظلم الكفار، وأُجبر على الهجرة إلى الحبشة في نهاية الأمر، وحين وصل إلى "بُرك الغماد" - والتي تبعد عن مكة المكرمة بمسافة سير خمسة أيام تجاه اليمن،[1] التقى به ابن الدغنة - رئيس قبيلة قارة -، فسأله أين تريد الذهاب يا أبا بكر؟ قال أبو بكر: "إن قومي يمنعونني من العيش بأمان، لذا أريد الابتعاد عنهم، والعيش في مكان ما، وأعبد الله تعالى". قال ابن الدغنة: ليس من الممكن أن يخرج شخص مثلك من مكة، أنت في جواري.[2] ورجع بأبي بكر رضي الله عنه، وحين وصل ابن الدغنة مكة، التقى بكافة زعماء قريش وقال: "أتطردون رجلاً سخي مثل هذا، ومساعد للفقراء، ويصل الرحم، ويعين في المصائب".[3] قالت قريش: نوافق على إقامته بمكة؛ لكن بشرط ألا يجهر بالقرآن وهو يصلي، فجهره بالقرآن يؤثر في نسائنا وأطفالنا. التزم أبو بكر عدة أيام بهذا الشرط؛ لكنه بنى مسجداً بجوار بيته فظل يقرأ القرآن بصوت عال بكل خشوع. وكان أبو بكر رضي الله عنه رقيق القلب جداً، لذا حين كان يجهر بالقرآن يجهش بالبكاء، فيرونه النساء والأطفال ويتأثرون به، واشتكت قريش لابن الدغنة فقال لأبي بكر:[4] لا أستطيع الآن حمايتك. قال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل.[5]

الحصار في شعب أبي طالب في المحرم سنة سبعة من البعثة

رأت قريش أنه بالرغم من وقوفها في طريق الإسلام إلا أنه ينتشر، فقد أسلم عمر وحمزة رضي الله عنهما، وأوى النجاشي المسلمين، وعاد السفراء من بلده مهزومين وزاد عدد المسلمين، لذا قرروا حصار النبي ﷺ وقبيلته وهلاكهم، فتعاهدت القبائل كلها على ألاّ

---

[1] الزرقاني عن المواهب، ج١، صـــ٣٣٤، ذكر الهجرة الثانية للحبشة.

[2] وهذا هو النص العربي كما ورد في صحيح البخاري: " أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي. قال ابن الغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يُخرج فأنا لك جار" (المترجم).

[3] ورد هذا النص في صحيح البخاري هكذا: " إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يُخرج، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم، ويحمل الكل ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق؟" (المترجم).

[4] ورد هذا النص في صحيح البخاري هكذا: "إما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إلى ذمتي" (المترجم).

[5] يوجد تفصيل كامل في صحيح البخاري، باب الهجرة إلى المدينة.

يتزوج أي أحد من بني هاشم، وألا يباع أو يشترى منهم، وألا يلتقي بهم، وألا يسمح بذهاب الطعام أو الشراب إليهم، طالما أنهم لا يسلمون محمداً ﷺ للقتل.[١]-

وأجبر أبو طالب على اللجوء إلى شعب أبى طالب[٢] مع بني هاشم كلهم، وقضى بنو هاشم ثلاثة سنين في هذا الحصار، عانوا فيها معاناة قاسية حتى أنهم كانوا يعيشون على أكل أوراق نبات الطلح، وورد في الأحاديث عن الصحابة رضوان الله عليهم: إننا كنا نعيش على أكل أوراق الطلح، وكان هذا حالهم فى تلك الفترة. وصرح السهيلى في روض الأنف أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ذكر ذات ليلة حصلت على جلد جاف، فغسلته بالماء ثم جففته على النار جيداً، ووضعته في الماء وأكلته.[٣]

روى ابن سعد أن الأطفال حين كانوا يبكون من الجوع فيخرج صوتهم، ويسمعه القرشيون، يفرحون. ولكن كان هناك بعضا من أصحاب القلوب الرحيمة يشفق علي هذا، فذات يوم أرسل حكيم بن حزام – ابن أخو السيدة خديجة – غلامه بقمح إلى السيدة خديجة، فرآه أبو جهل في الطريق وأراد أن يسلبه منه, وبالصدفة كان أبو البحتري قادماً من مكان ما، ومع أنه كان كافرا إلا أن قلبه رق وقال: إن رجلاً يرسل طعاما لعمته فلم تمنعه؟

تحمل الرسول ﷺ وكل بني هاشم هذه المصائب والمتاعب لمدة ثلاث سنوات كاملة، وفي النهاية رق قلب الأعداء أنفسهم ونقضوا هذه المعاهدة بأنفسهم. كان هشام العامري قريب لبني هاشم وذو مكانة في قبيلته، كان يصل بني هاشم في الشعب مستخفيا ويرسل لهم القمح والطعام، وذات مرة ذهب مفيد عبد المطلب إلى زهير، وقال: يا زهير، أرضيت أن تأكل الطعام وتشرب الشراب، وأخوالك في حاجة إلى حبة قمح؟ فقال: ويحك ماذا اصنع وأنا رجل واحد؟ أما لو كان معي رجل آخر لقمت في نقض هذه المعاهدة الظالمة. قال هشام: قد وجدت رجلا. قال: فمن هو؟ قال: أنا. وذهب كلاهما إلى المطعم بن عدي ثم أيدهم في هذا أبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود. وفي اليوم الثاني ذهب جمعهم إلى الحرم، وقال زهير: مخاطباً الناس جميعاً: يا أهل مكة أي عدل هذا؟ أن نعيش

---

[١] ذكر الطبري وابن سعد وغيرهم هذه المعاهدة تفصيلاً، ولكن جملة حتى يسلموا محمداً (صلى الله عليه وسلم) للقتل وردت في المواهب اللدنية فقط.

[٢] مضيق في جبل، كان لبني هاشم.

[٣] روض الأنف.

نحن مستريحين وبنو هاشم هلكي. والله لا أقعد حتى تشق هذه المعاهدة الظالمة. قال أبو جهل: لا تستطيع أي أيد أن تلمس هذه المعاهدة أبداً. قال زمعة: أنت كاذب، ما رضينا كتابتها حيث كتبت. وفي النهاية رفع المطعم يده وشق هذه الصحيفة. وذهب المطعم بن عدي بن قيس وزمعة بن الأسود وأبو البختري وزهير شاهرين سيوفهم إلى بني هاشم قائلين: أخرجوهم من المضيق،[1] وكانت هذه الواقعة سـنة ١٠ من البعثة النبوية حسب قول ابن سعد. وفي هذه الفترة ذاتها وقعت قصة المعراج والتي سيأتي ذكرها تفصيلاً فيما بعد، وفرضت الصلاة أيضا.

وفاة السيدة خديجة وأبى طالب سنة ١٠ من البعثة

حين خرج الرسول ﷺ من شعب أبى طالب، وتنفس الصعداء عدة أيام من ظلم وقهر قريش، توفي أبو طالب والسيدة خديجة.

جاء النبي ﷺ إلى أبى طالب وهو في النزع الأخير، وكان قد سبقه إليه أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية، فقال النبي ﷺ: قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله. فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية، يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ وفي النهاية قال أبو طالب: أموت علي ملة عبد المطلب. ثم قال للنبي ﷺ: إن قلت هذه الكلمة فسوف تقول قريش أنى خفت من الموت قال النبي: "أما والله لاستغفرن لك ما لم أُنه عنك".[2]

هذه رواية البخاري ومسلم، ويروي ابن إسحاق أن شفاه أبى طالب كانت ترتعش وقت موته فأصغي العباس رضي الله عنه (كان كافرا في ذلك الوقت) وقال للنبي ﷺ : إن أبا طالب يردد تلك الكلمة التي طلبت منه أن يقولها.[3] وعليه، فهناك اختلاف حول إسلام أبى طالب، ولكن لما كان هناك اعتقاد بصحة رواية البخاري عموماً، لذا يقول المحدثون بكفره علي الأغلب. ولكن رواية البخاري هذه باعتبار علم الحديث ليست حجة، فالراوي الأخير هو المسيب والذي دخل الإسلام في فتح مكة، ولم يكن موجوداً وقت وفاة أبى طالب. وعليه، كتب العلامة العيني في شرح هذا الحديث أن الرواية مرسلة.[4] وذكر ابن إسحاق أن العباس بن عبد الله بن معبد وعبد الله بن عباس ﷺ في سلسلة الرواية وهما

---

[1] ورد هذا تفصيلاً في سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري وغيرهما، وكتب الطبري واقعة ابن سعد فقط.

[2] صحيح البخاري، باب الجنائز ومسلم، وورد قول أبى طالب الأخير في مسلم ولم يرد في البخاري

[3] سيرة ابن هشام، طبعة مصر، ص ٤٦.

[4] العيني، كتاب الجنائز ج ٤ ص ٢٠، "سيد سليمان الندوي".

ثقة، ولكن هناك راو سقط في الوسط. وعليه، ليس هناك فرق في درجة سند كلتا الروايتين.[1]

من ينكر تضحية أبى طالب من أجل الحفاظ على الرسول ﷺ وحمايته، فقد كان يفديه ﷺ بنفسه، واتخذ من العرب جميعا عدواً له محبة في الرسول ﷺ، وحوصر من أجله، وتحمل الفقر والطرد من المدينة، وقضي ثلاث سنوات متواصلة دون وفرة وسائل الحياة، فهل يضيع كل هذا الحب والحماس والتضحية؟

كان أبو طالب يكبر الرسول بخمسة وثلاثين سنة، وكان يحب الرسول حباً جماً، وذات مرة مرض فذهب النبي ﷺ لعيادته، فقال له: يا ابن أخي ادعو الله الذي بعثك نبياً أن يشفيني، فدعا له النبي ﷺ، فشفي، فقال للنبي: هل يقبل الله كلامك، قال النبي: "وأنت إن تؤمن بكلام الله يقبل كلامك".[2]

وبعد وفاة أبي طالب بأيام قليلة، توفيت السيدة خديجة. وورد في بعض الروايات أنها توفيت قبل أبي طالب. والآن توفي من كانا يساندان ويعاونان ويواسيان الرسول ﷺ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم مبتلين بحالهم، وهذه الفترة هي أصعب فترة للإسلام، وأطلق النبي ﷺ نفسه على هذه السنة عام الحزن.[3] توفيت السيدة خديجة في رمضان سنة ١٠ من البعثة، وهي في الخامسة والستين من عمرها، ودفنت في الحجون، ونزل النبيﷺ في قبرها، ولم تكن صلاة الجنازة قد شرعت حتى ذلك الوقت.[4]

---

(١) لا اتفق مع المؤلف في هذا الرأي؛ لأن المسيب رضي الله عنه أخبر راو في رواية البخاري وهو صحابي، ويبدو أن رواية الصحابي كانت عن صحابي آخر، فمراسيل الصحابة حجة، ورواية ابن إسحاق منقطعة، والراوي الساقط ليس صحابياً. وسند ابن إسحاق نفسه ليس له درجة عالية، لذا لا يمكن الإقرار بأن كلتاً الروايتين متساويتان. هذا فضلاً عن أن رواية العباس تلك تؤيد رواية السيب هذه، والتي وردت في صحيح البخاري على رواية المسيب هذه، والتي ذكر فيها أن العباس رضي الله عنة سأل: ما أغنيت عن عمك فوا الله كان يحوطك ويغضب لك، قال الرسول: هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار". ويبدو من هذا أن العباس كان يعلم أن موته (أبو طالب) لم يكن علي التوحيد. وورد مضمون هذه الرواية ذاتها عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه في صحيح البخاري باب قصة أبى طالب. "سيد سليمان الندوي".

(٢) الإصابة في أحوال الصحابة. ذكر أبي طالب.

(٣) المواهب اللدنية.

(٤) ورد تفصيل هذا في كتاب ابن سعد.

و بعد وفاة أبي طالب والسيدة خديجة اشتد ظلم وقهر وإيذاء قريش للنبي ﷺ. ذات مرة كان ﷺ سائرا في طريق، فجاء شقي والقي على رأسه تراباً وذهب النبي ﷺ إلي بيته وهو في حالته هذه، فحين رأته إحدى بناته هكذا، أحضرت الماء، وأخذت تغسل رأسه ﷺ وهي تبكي، فقال النبي ﷺ: "لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أباك".[١]

وحين فقد النبي ﷺ الأمل في أهل قريش، أراد أن يذهب إلي الطائف ويدعو أهله إلى الإسلام. وكان في الطائف كثير من كبار الأمراء وأصحاب النفوذ، ومن بينهم أسرة عمير رئيس القبائل؛ وهم ثلاثة أخوة: عبد ياليل ومسعود وحبيب. ذهب النبي إليهم، ودعاهم إلى الإسلام، فأجابه ثلاثتهم: "أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟ وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي لي أن أكلمك.

و لم يكتف هؤلاء الكفار المنحوسون بهذا فقط، بل أغروا به سفهائهم كي يسبونه ويصخبون به، حتى اجتمع عليه أوباش وسفهاء المدينة كلها، وألجؤوه إلى حائط، وحين كان النبي يريد المرور من أي ناحية، كانوا يلقون بالحجارة على أقدامه، حتى امتلأ حذائه بالدماء، وحين كان ينهك من نزف الدم ويجلس، كان يقف معتمداً على سواعده، ثم حين كان يمشي، ينزل عليه الوابل من الحجارة، كما كانوا يسبونه ويصفقون.[٢] وفي النهاية لاذ النبي ﷺ بتعريشة عنب في حديقة، وكانت هذه الحديقة لعتبة بن ربيعة، والذي كان يعرف بشرف أصله وطيب نفسه بالرغم من كفره. وحين رأى النبي ﷺ في هذه الحالة أرسل إليه غلامه "عداس" بقطف من عنب في طبق. وكان زيد بن حارثة رضي الله عنه في هذا السفر أيضاً.[٣]

---

[١] الطبري وابن هشام، ذكر وفاة السيد خديجة.

[٢] ورد هذا تفضيلاً في المواهب اللدنية نقلاً عن موسى بن عقبة والطبري وابن هشام.

[٣] أمر عجيب أن تبدو واقعة واحدة مختلفة أمام وجهتي نظر، فقد أدخل مرجوليوث- نعوذ بالله- سفر الرسولﷺ هذا في باب سوء التدبير، إذ يقول بأن الطائف قريبة جداً من مكة، كما كانت تحت سيطرتها، فكان هناك بساتين لسادة مكة، وبالتالي كانوا يترددون عليها، ولذا حين عادى سادة مكة كلهم الرسولﷺ، عقد الأمل على أهل الطائف. وفي الوقت نفسه يكتب سر وليم ميور أن محمداً ﷺ كان قوي العقيدة والثقة بالنفس، فالبرغم من كل الفشل، ذهب وحيداً إلى مدينة مخالفة له، وقام بواجب تبليغ الدعوة. (يقول الشاعر): والفضل ما شهدت به الأعداء.

وبعد الطائف أقام النبي ﷺ عدة أيام في نخلة، ثم ذهب إلى غار حراء، وأرسل إلى المطعم بن عدي يطلب منه إجارته. وكان دستور العرب أنه حين يستجير أي شخص بهم يجيرونه حتى ولو كان عدوا، فوافق المطعم علي هذا الطلب، واستدعي أبنائه وقال لهم: البسوا السلاح وكونوا عند الحرم. وجاء النبي ﷺ إلى مكة، وكان المطعم معه راكبا علي الجمل، وحين وصل إلى الحرم صاح، إني قد أجرت محمدًا. وانتهي النبي ﷺ إلى الركن، وصلي، وانصرف إلى بيته، والمطعم بن عدي وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته.[١]

توفي المطعم وهو علي كفره قبل غزوة بدر، ورثاه حسان بن ثابت رضي الله عنه شاعر الرسول ﷺ، ونقل الزرقاني هذا الرثاء في الحديث عن بدر.[٢] وكتب ليس فيه حرج، إذ لا ريب فى أن عمل المطعم هذا كان يستحق المدح. ولكن مسلمي اليوم أكثر عشقا للإسلام من حسان رضي الله عنه والزرقاني، لذا لا يُعرف هل فِعْلُ حسان هذا يُقبل اليوم أم لا ؟.

عرض الإسلام علي القبائل

كان الرسول ﷺ يلتقي بالقبائل واحدة بعد الأخرى، ويدعوهم إلى الإسلام، وذلك حين كانت تأتي هذه القبائل إلى مكة في موسم الحج من أماكن مختلفة من بلاد العرب. كما كانت تعقد أسواق في أماكن مختلفة في بلاد العرب، وكانت تأتي إليها القبائل من أماكن بعيدة، وكان النبي ﷺ يذهب إلى هذه الأسواق ويدعو إلى الإسلام.

وكان عكاظ؛ أحد هذه الأسواق، وكان بمثابة منافسة علمية وقومية لأهل العرب، وذكر المؤرخون أسواق مجنة وذا المجاز بصفة خاصة. ومن قبائل العرب المشهورة قبيلة بني عامر، ومحارب، وفزارة، وغسان، ومرة، وحنيفة، وسليم وعلس، وبنو نضر، وكندة، وكلب، والحارث بن كعب، وعذرة، والحضارمة.[٣] ذهب النبي إلى هذه القبائل

---

[١] أضاف ابن سعد في صـ١٤٢ بعضاً من التفصيل من المواهب اللدنية، وهو ما روي عن ابن إسحاق. والعجيب أن ابن هشام قد ذكر هذه الأمور.

[٢] الزرقاني، ج ١، صـ ٥١٦.

[٣] ذكر ابن سعد هذه القبائل كلها.

كلها، ولكن أبا لهب كان يصاحبه في كل مكان، فحين كان النبي يخطب في أي مجمــع، كان أبو لهب يقاطعه ويقول: "انحرف عن الدين، ويقول كذبا".[1]

وكان بنو حنيفة قاطنين اليمامة، والذين ردوا ردا قبيحا عليه ﷺ.[2] وكان مسيلمة الكذاب رئيس هذه القبيلة، والذي أدعي النبوة فيما بعد.

وحين ذهب النبي ﷺ إلى قبيلة ذهل بن شيبان كان معه أبو بكر "رضي الله عنه". قال أبو بكر "رضي الله عنه" لمفروق: إن هذا هو ذلك النبي الذي سمعتم عنـــه، فاتجـــه مفروق إلى النبي ﷺ وقال: "أخ قريش! إلى ماذا تدعو"، أجاب النبي ﷺ: "الله واحد وأنـــا نبيه، ثم قرأ هذه الآيات:

" قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألاّ تشركوا به شيئا وبالوالدين إحســانا، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون". (الأنعام: ١٥١)

وكان مفروق، ومثني، وهاني بن قبصة سادة هذه القبيلة، وكان جميعهم موجودون في هذا المقام، ومدحوا هذا الكلام، لكنهم قالوا: إن ترك دين الآباء والأجداد فجأة اعتقـــاد سريع، هذا بالإضافة إلى أننا خاضعين لنفوذ كسري، وتعاهدنا معه علي أننا لا نخضـــع لسواه. واستساغ النبي ﷺ صدقه وصراحته وقال: "سينصر الله دينه".[3]

وحين ذهب النبي ﷺ إلى قبيلة بن عامر، فاستمع رجل يدعي "بحيرة بن فـــراس" إلى حديث النبي ﷺ وقال: والله لو أني أخذت هذا الفتي من قريش لأكلت به العرب كلهم، ثم سأل الرسول ﷺ: أرأيت إن نحن بايعناك علي أمرك، ثم أظهرك الله علي من خالفك، أ يكون لنا الأمر من بعدك؟ قال الرسول: الأمر إلى الله، فقال له: أ فنهدف نحورنا للعـــرب دونك ويكون الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك.[4]

إيذاء النبي ﷺ

للأسباب المذكورة سابقا عادت قريش النبيَ ﷺ معاداة شديدة، وأرادت أن تؤذيـــه إيذاء يجبره علي ترك دعوة الإسلام، ومن سوء الطالع أن الكفار جيران النبي ﷺ كـــانوا

---

(١) المستدرك للحاكم، ج ١، ص ١٥، طبعة حيدر آباد " سيد سليمان.

(٢) ابن هشام.

(٣) روض الأنف نقلا عن قاسم بن ثابت.

(٤) الطبري، ج ٢، ص ١٣٠٥ " سيدنا سليمان الندوي".

جميعا سادة قريش، وهم: أبو جهل وأبو لهب والأسود بن عبد يغوث والوليد بن المغيـرة وأمية بن خلف والنضر بن الحارث ومنبه بن الحجاج وعقبة بن أبي معيط والحكم بن أبى العاص. وكان جميعهم ألد أعداد النبي ﷺ.[١] وكانوا ينشـرون الأشـواك فـي طريقـه، ويستهزئون به وهو يصلي، ويلقون بسلا الجزور علي رقبته وهو ساجد، ويربطون عنقه برداء ويجرونه بشدة حتى تترك آثار علي رقبته الشريفة، ويرون قوتـه ﷺ الروحانيـة ويقولون ساحر، ويستمعون إلي دعوة النبوة ويقولون مجنون، وكان حين يخرج، يمشـي خلفه الصبية الأشقياء بأعداد كبيرة.[٢] وحين كان يجهر بالقرآن في صلاة الجماعة، كانوا يسبونه هو ومنزّل القرآن.[٣]

ذات مرة كان النبي يصلي في الحرم في وجود سادة قريش، فقال أبو جهل: ليت يأتي أي أحد الآن ويحمل سلا جزور ونجاسة ويلقي بها علي رقبة محمد ﷺ وهو ساجد، فقال عقبة: سأقوم أنا بهذه المهمة، فجاء بالسلا وألقي به علي رقبته ﷺ، وفرح الكفار بهذا فرحا كبيرا. وذهب أحد وأخبر فاطمة " رضي الله عنها " بهذا، وبالرغم من أنها "رضـي الله عنها" كانت في الخامسة أو السادسة من عمرها فقط في ذلك الوقت، إلا أنهـا عـدت مسرعة وأزاحت بالسلا بعيدا، ودعت علي عقبة بالسوء.[٤]

وحين كان النبي ﷺ يدعو إلى الإسلام في أي مجمع عام كان أبو لهـب يقاطعـه دائما ويقول "أنه يقول كذب". ويروي صحابي انه ذات مرة قبل إسلامه ذهب النبي ﷺ إلى سوق ذي المجاز، ودخل بين الناس وقال لهم قولوا: لا إله إلا الله، وكان أبو جهل يلقـي عليه ﷺ بالتراب ويقول: لا تنخدعوا بكلامه، لأنه يريد أن يبعدكم عـن عبـادة الـلات والعزى،[٥] وما لاقاه النبي ﷺ من إيذاء في الطائف قد مر ذكره سابقا.

---

(١) ابن سعد، ج ٢١ ص ١٣٤.

(٢) مسند ابن حنبل، ج١، ص٣٠٢.

(٣) صحيح البخاري ص ٦٨٦.

(٤) صحيح البخاري، باب الطهارة والصلاة والجزية والجهاد، وصحيح مسلم والزرقاني ج١، ص ٢٩٤.

(٥) مسند الامام أحمد بن جنبل، ج ٤، صـ٢٣.

ذات مرة كان النبي ﷺ يصلي في حرم الكعبة، فلف عقبة رقبته ﷺ برداء وجره بقوة، وجاء أبو بكر "رضي الله عنه" صدفة وأمسك بكتف النبي وخلصه من يد عقبة وقال: أتقتل هذا الرجل لأنه فقط يقول إن الله واحد!!.(١)

وهذه أسماء أولئك الذين عادوا النبي ﷺ عداء شديدا، وكانوا ليل نهار يفكرون في إيذائه وعدائه، حسبما ذكرها ابن سعد في كتاب الطبقات:-

أبو جهل، أبو لهب، أسود بن عبد يغوث، الحارث بن قيس بن عدي، الوليد بن المغيرة، أمية، أبي بن خلف، أبو قيس بن فاكهة بن المغيرة، العاص بن وائل، النضر بن الحارث، منبه بن الحجاج، زهير بن أبي أمية، السائب بن سيفي، الأسود بن عبد الأسد، العاص بن سعيد بن العاص، العاص بن هاشم، عقبة بن أبي معيط، ابن الأصدى، هزلي، الحكم بن أبي العاص، عدى بن حمراء.

كان جميع هؤلاء الكفار جيرانا للنبي ﷺ، وكان أكثرهم صاحب جاه ونفوذ، وبالرغم من أن ما قد حدث من إيذاء يدعو إلى الألم والحسرة، لكنه لم يكن مثيرا للدهشة والتعجب، فلا يوجد أي مثال في تاريخ الدنيا قد استمع بشوق ورغبة للنداءات غير المألوفة والأجنبية، فقد واجه نوح عليه السلام نفور قومه ووحشيتهم لمئات السنين، وبالرغم من أن اليونان هي المعلم الأول لتمدن العالم، لكن سقراط اضطر لشرب كأس السم في عقر دار الحكمة نفسها، وتعرض عيسى عليه السلام للسجن.(٢) وعليه، فإن ما صدر من العرب وقريش لم يكن حلقة غير عادية من السلسلة، ولكن ما يدعو إلى الإمعان والتدبر هو أن النبي ﷺ ماذا فعل لمواجهة هذا الإيذاء؟

---

(١) صحيح البخاري، باب ما لقي الرسول ﷺ وأصحابه بمكة. وهذا هو نص العبارة بالعربية: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله. (المترجم).

(٢) توجد قصة صلب المسيح عليه السلام في الأناجيل الأربعة؛ ولكن القرآن الكريم نفاها تماما، وقال إن هذا في الحقيقة سوء فهم، فلقد رفع عيسى حيا إلى السماء. ومع تقدم العلم الإنساني يتضح صدق القرآن الكريم نفسه، فقبل قرون قليلة وجدت نسخة لإنجيل برنابا، وفيها ذكر برنابا هذه الحقيقة بصراحة ووضوح تام، وهي أن عيسى لم يصلب، بل صلب مكانه يهودا الاسكربوطي. وظهرت نسخة جديدة للإنجيل في وقتنا الحالي، والمنسوبة إلى بطرس الحواري، وكتب فيها بوضوح أن عيسى كان قد رفع إلى السماء قبل الصلب. مقدمة ملخص حاشية من الإنجيل إلى القرآن ص ٦٦، ٦٧ – ١٢ – من جانب المصحح محمد محي الدين سواتي.

شرب سقراط كأس السم ومات، وتضايق نوح عليه السلام من مخالفيه ودعا بطوفان عظيم، وفني جزء كبير من العالم، ر... عيسى عليه السلام جماعة من ثلاثين أو أربعين رجلا وصعد على المشنقة حسب رواية النصارى، ولكن فرض النبي ﷺ كان يفوق هذا كله بكثير. قال خباب بن الأرت للرسول ﷺ حين اشتد إيذاء قريش ووصل مبلغه: ألا تدعو الله (عليهم). فاحمر وجهه ﷺ وقال: "لقد كان من قبلكم ليُمشط بمشاط الحديد، ما دُون عظامه من لحمٍ أو عَصَب، ما يَصرفهُ ذلك عن دِينه، ويوضَع المِنشارُ على مفرِق رأسهِ فيُشَقّ باثنين، ما يصرِفه ذلكَ عن دِينه. ولَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هذا الأمرَ حتى يَسيرَ الراكبُ مِن صنعاءَ إلى حَضرمَوتَ ما يَخافُ إلاَّ اللَّه». [1]

---

[1] صحيح البخاري، باب ما لقي النبي وأصحابه من المشركين، ذكر أيام الجاهلية. وهذا نص الحديث كاملا: (٣٧٦٥) حدَّثنا الحُميديُّ حدَّثنا سُفيانُ حدَّثنا بَيانٌ و إسماعيلُ قالا: سَمعنا قَيساً يقولُ: سمعت خَباباً يقول: «أتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وهو مُتوسِّدٌ بُردةً وهو في ظل الكعبة ــ وقد لقينا منَ المشركينَ شِدَّة ــ فقلت: يا رسولَ اللَّهِ، ألا تَدْعو اللَّه لنا؟ فقعَد وهو محمرٌ وجهه فقال: لقد كان من قبلكم ليُمشَط بمشاطِ الحديد، ما دُون عظامِهِ من لحمٍ أو عَصَب، ما يَصرفهُ ذلك عن دِينه، ويوضَع المِيشارُ على مفرِق رأسهِ فيُشَقُّ باثنين، ما يصرِفه ذلكَ عن دِينه. ولَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هذا الأمرَ حتى يَسيرَ الراكبُ مِن صنعاءَ إلى حَضرمَوتَ ما يَخافُ إلاَّ اللَّه».
زاد بَيانٌ «والذِّئبَ على غَنمه». (المترجم).

المدينة المنورة والأنصار

ينتشر ضوء الشمس بعيدا ويزيد، ويفوح عبير الورد من الحديقة ويصبح عطراً، فأشرق الإسلام في مكة، لكن أشعته تلألأت في سماء المدينة. اسمها الأصلي يثرب، وحين جاءها النبي ﷺ أقام بها، فأصبح اسمها مدينة الرسول ﷺ، ثم اختصر فيما بعد وأصبحت تعرف باسم المدينة. وهذه المدينة عامرة منذ مئات السنين، جاءتها اليهود في القديم، وسكنوها، وانتشر نسلهم بكثرة، حتى أصبحت نواحي المدينة في قبضتهم، وبنوا قلاع صغيرة في المدينة وما حولها، واستقروا بها. (وسيأتي الحديث تفصيلا عن اليهود فيما بعد).

كان الأنصار في الأصل من سكان اليمن من قبيلة قحطان، وحين أصيبت بالسيل المشهور والذي يطلق عليه اسم "السيل العرم"، هجر هؤلاء الناس اليمن، وجاءوا إلى المدينة واستوطنوا بها وكانا أخوين؛ الأوس والخزرج، والأنصار من نسلهما،[1] وحين جاءت هذه القبيلة إلى يثرب كان اليهود هنا يتمتعون ببالغ السلطة والنفوذ، وكانت المناطق التي حول المدينة في قبضتهم، كما كانوا ينعمون بالثراء، ولكثرة أولادهم أصبحوا حوالي عشرين أو واحد وعشرين قبيلة، لذا سكنوا قري كثيرة وممتدة خارج المدينة بكثير، وعاش الأنصار فترة من الزمن بعيدين عنهم، ولما رأوا قوتهم ونفوذهم أصبحوا حلفاء[2] لهم في النهاية. واستقر علي هذا الحال فترة ثم أصبحت قبيلة الأنصار تزداد وتنتشر ويقوي نفوذهم وأثرهم، وهنا نقض معهم اليهود - ببعد نظرهم - المعاهدة معهم.

ظهر في اليهود أحد سادتهم "فطيون"، والذي كان يعرف بسوء السلوك والعربدة، فأمر بأن الفتاة البكر التي تتزوج لابد أن يلتقي بها هو أولاً (عند زواجها) وقبل اليهود هذا الأمر، ولكن حين جاء الدور على الأنصار رفضوا تماماً، فكان في تلك الفترة قائد أنصاري، وحين تم زواج أخته خرجت من البيت في يوم الزواج أمام أخيها مالك بن عجلان دون أي حجاب، أخذت مالك الغيرة والحمية، فنهض وجاء إلى البيت ولام أخته

---

(١) ورد نسب الأنصار واستيطانهم المدينة تفصيلاً في وفاء الوفاء، ج ١، صـ١١٦-١٥٢.

(٢) إن القبائل التي كانت تتعاهد فيما بينها على المساندة والتعاون، كان يطلق على الواحدة منها اسم حليف.

لوما شديدا، فقالت: "أجل! ولكن ما سيحدث غدا أكبر من هذا بكثير". وفي اليوم التالي حين تزينت العروس أخت مالك وذهبت حسب ذلك الأمر إلى خلوة فطيون، تنكر مالك في زي النساء، وذهب هو الآخر مع صديقاتها وقتل فطيون، وفر إلى الشام، حيث حكم الغساسنة، وكان أبو جبلة حاكمًا في ذلك الوقت، والذي حين سمع بهذا الحال أخذ جيشا جرارا واستدعي سادة الأوس والخزرج وأعطاهم الهدايا والصلات، ثم استدعي سادة اليهود بالحيلة، وقتلهم واحدًا تلو الآخر، وهنا ضعفت قوة اليهود، وقوي الأنصار.[1]

بني الأنصار قلاعًا صغيرة بكثرة في المدينة وما حولها، وظل الأوس والخزرج متحدان لفترة، ثم بدأت الحروب الأهلية حسب عادة العرب، وأريقت الدماء، وكانت آخر هذه الحروب " بعاث "، والتي ظل فيها أشهر سادة هاتين القبيلتين يتحاربون حتى ماتوا. وهنا ضعف الأنصار ضعفا كبيرا، حتى أنهم أرسلوا سفراء إلى قريش يطلبون منهم أن يتخذونهم حلفاء لهم، ولكن أبا جهل خرب الأمر.

مع أن الأنصار كانوا عبدة أصنام، لكن اختلاطهم باليهود عرفهم بالنبوة والكتب السماوية. وكانوا يكنون العداء لليهود، لكنهم كانوا معترفين بعلمهم وفضلهم. إذ كان اليهود قد أسسوا مدراس علمية في المدينة، والتي كان يقال لها بيت المدراس [2](ورد هذا في البخاري وغيره).[3] وكان يدرس فيها تعاليم التوراة، وكان الأنصار جهلة، لذا كان اليهود يتفوقون عليهم علميا، ووصل الأمر إلى أنه لو أن أحد الأنصار لا يعيش له ولد،

---

(1) وفاء الوفاء. وذكرت هذه الواقعة بروايات مختلفة، ووردت هذه الرواية كلها في وفاء الوفاء.

(2) مسماه العبري بيت هامدراش، وهو نوع من أنواع المدارس الدينية، تعلم طلابها الوعظ الديني والتفاسير المتعلقة بالعهد القديم، كما يطلق هذا المسمى(مدراس) على العالم الذي يقوم بالتدريس الديني.(المترجم).

(3) البخاري، ج٢، صـ ١٠٢٧ كتاب الإكراه. باب في بيع المكره. وهذا نص الحديث: ١٠٢٤ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ إِذْ خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ انْطَلِقُوا إِلَى يَهُودَ فَخَرَجْنَا مَعَهُ حَتَّى جِئْنَاهُمْ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَادَاهُمْ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ يَهُودَ أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا فَقَالُوا قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ أُرِيدُ أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا فَقَالُوا قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ أُرِيدُ فَقَالَ لَهُمُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْأَرْضُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنِّي أُرِيدُ أَنْ أُجْلِيَكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ فَمَنْ وَجَدَ مِنْكُمْ بِمَالِهِ شَيْئًا فَلْيَبِعْهُ وَإِلَّا فَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ * (المترجم).

كان ينذر أنه لو عاش هذا الطفل فسوف أجعله يهوديا.[1] كان اليهود عامة يؤمنون بــأن هناك نبي سيبعث الآن، وعليه تعرف الأنصار أيضا علي اسم هذا النبي الموعود.

حصل سويد بن صامت أحد شعراء ومحاربي الأنصار علي نسخة "حكم لقمان" والذي كان يعتبرها كتابا سماويا، وذهب ذات مرة إلى الحج وسمع عنه النبي ﷺ فــذهب بنفسه إليه، وقرأ سويد عليه ﷺ حكم لقمان، فقال النبي ﷺ: معي أفضل منها؛ وقرأ آيــات من القرآن الكريم، واستحسنها سويد،[2] ومع أنه رجع المدينة وقتل في حرب بعــاث، إلا أنه كان قد اعتنق الإسلام.

كان سويد ذو مكانة مرموقة في الشجاعة وصناعة الشعر، وكان العرب يطلقون علي مثل هذا الشخص " الكامل "، وعليه لقب سويد بهذا اللقب.[3] وكان قد أثــر إســلام سويد علي الأنصار.

وحين هزمت الأوس علي أيدي الخزرج، ذهب سادة الأوس إلى قريش يطلبــون منهم أن يحالفونهم ضد الخزرج. وكان إياس بن معاذ أحد أعضاء هذا الوفد. وحين علــم النبي ﷺ بمجيء هذا الوفد، التقي به وتلا عليه بعض آيات الذكر الحكــيم، قــال إيــاس لرفاقه: والله إن هذا أفضل مما جئتم به، ولكن قائد الوفد، أبو الحيس أخذ حفنة من تراب البطحاء، ورمي بها وجه إياس وقال: لقد جئنا لغير هذا. ثم وقعت بعد ذلك حرب بعــاث وتوفي إياس قبل هجرة النبي ﷺ، ويذكر الناس أن إياس كان يهلل ويكبر عند موته.[4]

بداية اعتناق الأنصار الإسلام سنة ١٠ من البعثة

كما ذكر سابقا أن النبي ﷺ كان يذهب إلى سادة القبائل في موسم الحج ويدعوهم إلى الإسلام. وفي هذه السنة "رجب سنة ١٠ من البعثة" التقي ﷺ بعدد من القبائل؛ فالتقي ببعض رجال من الخزرج عند العقبة حيث يوجد مسجد العقبــة الآن، وســألهم ﷺ عــن

---

(١) انظر تفسير " لا إكراه في الدين " في كتب التفسير " سيد سليمان الندوي ".

(٢) البداية والنهاية – ابن كثير – ج ٣ – صــ١٤٧ " سيد سليمان الندوي.

(٣) ورد ذكر سويد في سيرة ابن هشام، ولكنه ورد تفصيلا في روض الأنف وورد ذكره أيضا في الإصابة، ولكن هناك اختلاف في نسبه، ولا يوجد ذكر لحكم لقمان. وذكر في الطبري حال سويد كله مع أشعار له. انظر ٢٠٧.

(٤) وردت هذه الواقعة تفصيلا في الطبري والإصابة، جاء في الإصابة أن أمر إياس أورده الأمام البخاري في التاريخ الكبير، و(البداية والنهاية، ابن كثير) ج ٢٣ ص ١٤٨ "سيد سليمان الندوي".

أسمائهم وأنسابهم فقالوا: نحن من الخزرج، فدعاهم النبي إلى الإسلام، وتلي عليهم بعض آيات القرآن الكريم، ونظر هؤلاء الرجال بعضهم إلى بعض وقالوا: "انظروا! فلا تسبقوا اليهود إليه" فاعتنق جميعهم الإسلام.

وكان عدد هؤلاء ٦ رجال.[١]

وأسمائهم كالتالي [٢]:-

١- أبو الهيثم بن تيهان.

٢- أبو إمامة أسعد بن زراره (كان أول من توفي من الصحابة سنة ١ هجرية).

---

(١) هؤلاء هم أول من أسلم من أهل المدينة، ويذكر بعض أرباب السيرة واقعة إسلامهم هذه بعنوان بيعة العقبة الأولي، وبسبب هذا العنوان يحتار كتّاب السيرة، إذ أنهم حين ينظرون في الكتب الأخري؛ مثل المستدرك للحاكم، ج ٢، ص ٦٢٤ وابن كثير علي حاشية فتح البيان، ج ٩، ص ٤٤٣: أن بيعة العقبة الأولي كانت تضم ١٢ رجلا، وبسبب اختلاف هذه الرواية يذكر بعض مؤلفي السيرة أن بيعة العقبة الثانية كان بها ١٢ رجلا، ويذكر البعض الآخر أنها كانت تشتمل علي ٧٣ رجلا، في حين أن حل المسألة، هو أن الرجال الستة أو الثمانية الذين هم أول من دخل في الإسلام (من أهل المدينة) ليس عنوان واقعة اعتناقهم الإسلام بيعة العقبة الأولي؛ بل يجب أن يكون بداية إسلام الأنصار، وفي السنة الثانية حين جاء ١١، ١٢ رجلا (والتقوا بالرسول)، فهذه هي العقبة الأولي (السيرة الحلبية). وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه صراحة: كنا أحد عشر في العقبة الأولي من العام المقبل (المستدرك، ج ٢، ص ٦٢٤، حيدر آباد الدكن) يذكر عبادة بن الصامت رضي الله عنه في هذه العبارة " كنا أحد عشر في العقبة الأولى من العام المقبل ". فيذكر صراحة أنها كانت تضم أحد عشر رجلا، وهذا يعني أن أولئك الرجال الذين أسلموا قبل هذا، ليس لهم أي علاقة ببيعة العقبة الأولي.

أطلق الناس علي واقعة بداية دخول الأنصار الإسلام مسمي بيعة العقبة الأولي، ويقولون بأن هناك بيعات للعقبة، الأولي بيعة العقبة الأولي، والثانية هي بيعة العقبة التي أسلم فيها ١١ أو ١٢ رجلا، والثالثة هي بيعة العقبة التي اسلم فيها ٧٣ فردا، وتمت هذه البيعات الثلاث واحدة تلو الأخرى في موسم الحج، وعن الواقعة التي يطلق عليها مسمي بداية دخول الأنصار الإسلام هي البيعة الأولي، التي أسلم فيها أحد عشر رجلا، والبيعة التي أسلم فيها ٧٣ رجلا تسمي بيعة العقبة الثانية (انظر تاريخ خميس، ج١، ص ٣٠٦، ٣١٦، ٣١٧. الزرقاني علي المواهب ج١، ص ٣٦٢، ٣٦٧) " سيد سليمان الندوي.

(٢) وردت هذه الوقائع في كل مصادر التاريخ، واعتمدنا علي الزرقاني؛ لأنه جمع الروايات كلها، وذكر البعض أن عدد هؤلاء الناس كان ثمانية، كتب ابن سعد في الطبقات أن سعد بن زرارة رضي الله عنه، وأبو الهيثم، كانا موجودين من قبل. انظر المرجع المذكور، الجزء الثالث أنصار بدر ص ٢٢. وذكر الواقدي أن سعد بن زرارة كان قد ذهب إلى مكة قبل هذه الواقعة، وأعلن إسلامه علي النبي ﷺ، ويذكر البعض الآخر اسم عبادة بن الصامت بدلا من جابر بن رباب " سيد سليمان الندوي ".

٣- عوف بن الحارث (استشهد في بدر).

٤- رافع بن مالك بن عجلان (أمره الرسول ﷺ بكتابة ما نزل من القرآن حتى ذلك الوقت واستشهد في غزوة أحد).

٥- قطبة بن عامر بن حديدة (اشترك في بيعات العقبة الثلاث).

٦- جابر بن عبد الله بن رئاب (هذا صحابي مشهور وليس هو جابر بن عبد الله بن عمرو) وشارك في غزوة بدر وغيرها.

بيعة العقبة الأولي في السنة الحادية عشر من البعثة النبوية

وفي السنة التالية جاء من المدينة ١٢ شخصا وبايعوا النبي ﷺ، ورغبوا في أن يذهب معهم معلم يعلمهم الإسلام وأحكامه، وكلف النبي ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه بهذه المهمة. وكان مصعب حفيدا لهاشم بن عبد مناف، ومن السابقين في الإسلام، وفاز بمنصب حمل لواء جيش المسلمين في غزوة بدر. وجاء مصعب بن عمير المدينة، وأقام في بيت اسعد بن زرارة، أحد زعماء وشيوخ المدينة المنورة. وكان يذهب يوميا إلى بيوت الأنصار بيتا بيتا، ويدعو الناس إلى الإسلام، ويتلو عليهم القرآن، وكان يدخل في الإسلام يوميا واحدا أو اثنين. وانتشر الإسلام تدريجيا في كل بيت من المدينة حتى قباء، وما بقي سوي بني خطمة، ووائل، وواقف، وكتب ابن سعد في كتابه الطبقات هذه الأحداث تفصيلا.

كان سعد بن معاذ رضي الله عنه قائد قبيلة الأوس، وكان له نفوذ راسخ بين أفرادها جميعا وكانوا يعملون حسب مشورته في كل أمر. وحين جاءه مصعب بن عمير رضي الله عنه يدعوه إلى الإسلام، أبدي نفوره في بداية الأمر، ولكن حين تلي عليه مصعب رضي الله عنه بعض آيات الذكر الحكيم، رق قلبه وأسلم وأسلمت قبيلة الأوس كلها.

بيعة العقبة الثانية في السنة الثانية عشر من البعثة النبوية

وفي السنة التالية جاء ٧٢ شخص في موسم الحج وبايعوا النبي ﷺ في منى (العقبة) خفية عن رفقائهم عبدة الأصنام، وهنا خطب العباس رضي الله عنه -والذي لم يكن قد أسلم حتى ذلك الوقت - قائلا: "يا معشر الخزرج! إن محمدا ﷺ ذو عزة ومكانة في أهله، وكنا نفديه بصدورنا دائما من الأعداء، والآن يريد الهجرة إليكم، فان كنتم تستطيعون مناصرته حتى آخر نفس، فهذا أمر عظيم، وإلا أجيبوا الآن

قال البراء مخاطبا الرسول: "إنا أناس قد تربينا في أحضان السيوف". وبمجرد أن قال هذا قاطعة أبو الهيثم وقال " يا رسول الله بيننا وبين اليهود معاهدات، والتي ستنقطع بعد هذه البيعة، ولا نريد أن تتركنا وتعود إلى بلدك حين تشتد قوتك ويقوي ساعدك"، تبسم النبي ﷺ وقال: " بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم."

واختار النبي ﷺ من هذه المجموعة ١٢ نقيبا، والذي يعد الأنصار أنفسهم أسمائهم. وكان من بينهم ٩ من الخزرج و٣ من الأوس. وهذه هي أسماؤهم حسب رواية ابن سعد:

١- أسيد بن حضير (كان أبوه قائد الأوس في حرب بعاث).
٢- أبو الهيثم بن تيهان.
٣- سعد بن حيثمه (استشهد في غزوة بدر).
٤- اسعد بن زرارة (ورد ذكره سابقا وكان يؤم الناس في الصلاة).
٥- سعد بن الربيع (استشهد في غزوة أحد).
٦- عبد الله بن رواحة (شاعر معروف، واستشهد في غزوة مؤتة).
٧- سعد بن عبادة (صحابي جليل وأول من أدعي الخلافة في سقيفة بن ساعدة).
٨- المندر بن عمرو (استشهد في بئر معونة).
٩- البراء بن عرور (كان مندوب الأنصار في بيعة العقبة، وتوفي قبل هجرة النبي).
١٠- عبد الله بن عمرو (استشهد في غزوة أحد).
١١- عبادة بن الصامت)صاحبي جليل، وروي أحاديث كثيرة).
١٢- رافع بن مالك (استشهد في غزوة أحد).

وبايع النبي ﷺ الأنصار علي " ترك الشرك والسرقة والزنا وقتل الأولاد والافتراء وطاعة الرسول". [١]

---

[١] وهذه رواية البخاري وورد في كتب السيرة أن هذه هي شروط العقبة الأولي وفي البيعة الأخيرة تم تعاهد علي أن الأنصار يحافظون علي حياة النبي (ﷺ). وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: ٩٨٦ حَدِيثُ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجْلِسٍ فَقَالَ تُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَسْرِقُوا وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ.(المترجم).

وحين كان الأنصار يبايعون النبي، وقف أسعد بن زرارة وقال: "أيها الأخوة! أتعرفون على أي شيء تبايعون؟ فهذه حرب مع العرب والعجم، الأنس والجن". أجاب الجميع: "نعم ! ونحن نبايع على هذا".

والاثنى عشر رجلا الذين أختارهم النبي ﷺ كانوا زعماء القبائل، وكان اعتناقهم الإسلام يعني اعتناق الأنصار كلهم الإسلام. وفي الصباح ذاع خبر هذه البيعة، وجاءت قريش إلى الأنصار شاكية، ولم يكن عبدة الأصنام المصاحبين للأنصار قد علموا بهذا الأمر، لذا كذبوه وقالوا: لو حدث هذا فلم أخفوه عنا؟

- حين وجد الإسلام الملاذ في المدينة، أذن النبي ﷺ لأصحابه بالهجرة من مكة، وحين علمت قريش بهذا، بدأت تضع العراقيل والمعوقات في طريقهم، ولكن المسلمين أخذوا يهاجرون خلسة وخفية، وهاجر كثير من الصحابة تدريجيا، وما بقي في مكة سوي النبي ﷺ وأبو بكر وعلي رضي الله عنهما أما المفلسون من المسلمين، فقد اضطروا إلى البقاء بها فترة.

ونزلت هذه الآية الكريمة في شأنهم:

" وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِياً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً (٧٥) (النساء).

السنة الأولي من الهجرة

الهجرة

(حين ارتفعت أصوات السيوف من كل جانب ضد دعوة الحق، أمر النبي ﷺ المسلمين بالهجرة إلى دار الأمان؛ المدينة. أما هو ﷺ فكان منتظرا الأمر الإلهي (بالهجرة)، رغم أنه ﷺ كان هو الهدف الحقيقي والأصلي لهؤلاء الظالمين. عرض عليه المسلمون أصحاب النفوذ من ضواحي مكة حمايته بكل تضحية، إذ كانت قبيلة دوس مالكة لقلعة آمنة، فقدّم رئيسها " الطفيل بن عمرو " قلعته ليهاجر إليها النبي ﷺ، ولكنه ﷺ رفض هذا.[1] كما كان هناك رجل من بني همدان يرغب في هذا، قال فيما بعد بأنه سيطلع أهل قبيلته بهذا الأمر وسيأتي في العام المقبل.[2] ولكن القدر كان قد خص هذا الشرف للأنصار فقط، فقد رأي النبي ﷺ قبل الهجرة في المنام أن دار الهجرة مكان جميل ونضر، واعتقد أن ذلك المكان ربما يكون اليمامة أو مدينة الهجر، ولكن اتضح فيما بعد أنه المدينة)[3]

بدأ العام الثالث عشر للبعثة النبوية، وكان أكثر الصحابة رضوان الله عليهم قد هاجروا إلى المدينة، وعزم النبي ﷺ حسب الوحي الإلهي الهجرة إلى المدينة. وهذه القصة مؤثرة جدا، لذا كتبها الإمام البخاري باستفاضة، رغم أنه يحب الاختصار. وكتب أقوال

---

[1] **صحيح مسلم، ج١، ص ٥٨، باب الدليل علي أن قاتل نفسه لا يكفر.** (روي عن جابر أن الطفيل أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هل لك في حصن حصين ومنعة، قال: حصن كان لدوس في الجاهلية، فأبى ذلك النبي ﷺ. المترجم).

[2] المستدرك، ج٢ ص ٦١٣ والزرقاني علي المواهب، ج١، ص ٣٥٩.

[3] صحيح البخاري باب هجرة النبي ﷺ " سيد سليمان الندوي ". وهذا نص الحديث: ١٣٠٨ حَدِيثُ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أُهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ فَذَهَبَ وَهَلِي إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجَرُ فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ وَرَأَيْتُ فِي رُؤْيَايَ هَذِهِ أَنِّي هَزَزْتُ سَيْفًا فَانْقَطَعَ صَدْرُهُ فَإِذَا هُوَ مَا أُصِيبَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ ثُمَّ هَزَزْتُهُ أُخْرَى فَعَادَ أَحْسَنَ مَا كَانَ فَإِذَا هُوَ مَا جَاءَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْفَتْحِ وَاجْتِمَاعِ الْمُؤْمِنِينَ وَرَأَيْتُ فِيهَا أَيْضًا بَقَرًا وَاللَّهُ خَيْرٌ فَإِذَا هُمُ النَّفَرُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ وَإِذَا الْخَيْرُ مَا جَاءَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ بَعْدُ وَثَوَابُ الصِّدْقِ الَّذِي آتَانَا اللَّهُ بَعْدَ يَوْمِ بَدْرٍ.(المترجم).

السيدة عائشة " رضي الله عنها ". وكانت السيدة عائشة (رضي الله عنها) ابنة سبع سنوات في هذا الوقت، ولكن قولها في الحقيقة كان بمثابة قول الرسول ﷺ نفسه وقول أبي بكر، إذ أنها سمعته منهما وروته، وكانت هي بنفسها موجودة في الواقعة الأولي.

رأت قريش أن المسلمين هاجروا إلي المدينة وبدأوا يزدادون قوة، وأخذ الإسلام ينتشر هناك. وعليه، عقدوا اجتماعا عاما في دار الندوة (والتي كانت دارا للشورى)، وشارك فيه رؤساء القبائل كلهم؛ أي عتبة، وأبو سفيان، وجبير بن مطعم، والنضر بن الحارث بن كلدة، وأبو البختري، وابن هشام، وزمعة بن الأسود بن المطلب، وحكيم بن حزام، وأبو جهل، ونبيه ومنبه، وأمية بن خلف، وغيرهم. قدم الناس آراء مختلفة من بينها: أشار رجل بربط أيدي وأقدام محمد ﷺ بجنزير وحبسه في مكان، وقال آخر: يكفي نفيه من البلاد. قال أبو جهل: يختار رجل من كل قبيلة، ثم يقتلونه جميعا بالسيوف، وبهذا يتفرق دمه في القبائل، ثم يقتلونه جميعا بالسيوف. وبهذا يتفرق دمه في القبائل كلها، ولن يستطيع آل هاشم وحدهم أن يواجهوا القبائل كلها، واتفق الجميع علي هذا الرأي الأخير، وحاصروا منزل النبي ﷺ من غروب الشمس. وكان العرب يعدون اقتحام منزل النساء عيبا، لذا بقوا خارج المنزل حتى يخرج النبي ﷺ، فيقومون بالمهمة التي كلفوا بها.

وبالرغم من عداء قريش الشديد للنبي ﷺ، إلا أنهم كانوا يثقون في أمانته، فحين كان أي أحد يريد إيداع أي مال أو شيء علي سبيل الأمانة، كان يودعها عنده ﷺ، وبالتالي كان عند النبي في ذلك الوقت أمانات كثيرة، وكان قد عرف بنية قريش من قبل؛ لذا استدعي عليًا رضي الله عنه وقال له: إني أمرت بالهجرة وسوف أهاجر اليوم إلى المدينة، فنم اليوم علي سريري وتلحف بلحافي، وفي الصباح أعط الأمانات لأصحابها.

وكان في هذا خطورة شديدة، إذ كان قد علم علي رضي الله عنه بأن قريش قد قررت قتل النبي ﷺ، واليوم منام النبي ﷺ هو مكان القتل، ولكن مكان القتل كان بمثابة مناما من الورد لفاتح خيبر.

وقبل الهجرة بأيام قليلة ذهب النبي ﷺ إلى منزل أبي بكر "رضي الله عنه" في وقت الظهيرة، وطرق الباب حسب العادة واستأذن ودخل، وقال لأبي بكر: أخرج من عندك، قال أبو بكر إنما هم أهلك بأبي أنت وأمي (كان النبي ﷺ قد تزوج في ذلك الوقت بالسيدة عائشة) قال النبي ﷺ : فإني قد أذن لي في الخروج. قال أبو بكر " رضي الله عنه " وهو مضطرب: الصحابة بأبي أنت يا رسول الله. قال النبي ﷺ: " نعم ". وكان أبو بكر

رضي الله عنه قد أعد ناقتين سراوتين قبل الهجرة بأربعة أشهر، وعرض علي النبي ﷺ أن يختار ما تعجبه منهما، ولم يك النبي ﷺ يستثيغ الإحسان من أي أحَد، فقال: "بالثمن "فاضطر أبو بكر إلى قبول هذا الأمر، وكانت السيدة عائشة "رضي الله عنها" صغيرة السن في هذا الوقت، أما أسماء "رضي الله عنها" – أم عبد الله بن الزبير "رضي الله عنه" – أكبرها سنا، والتي أعدت أمتعة السفر، فقد جهزت طعام بضعة أيام ووضعته في إناء، وربطت هذا الإناء بنطاقها، لذا لقبت حتى يومنا هذا بلقب ذات النطاقين.(١)

حين حاصر الكفار منزل النبي ﷺ، ومضى وقت طويل من الليل، أخذهم النعاس، وخرج عليهم النبي ﷺ وهم نائمون، وغادر، ونظر إلى الكعبة وقال:"والله يا مكة إنك لأحب بقاع الأرض إلي ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت." وكان قد (تعهد) اتفق مع أبي بكر " رضي الله عنه " من قبل، فذهب كلاهما في البداية إلى غار جبل ثور، اختبئا فيه، وهذا الغار موجود حتى يومنا، ويقبله الناس.(٢)

كان عبد الله بن أبي بكر " رضي الله عنهما " في مقتبل شبابه، ونام معهما ليلا في الغار، وحين طلع الصباح رجع إلى مكة حتى يستخبر عما يتشاور فيه أهل قريش، وما كان يستطلعه من أخبار في نهاره يذهب ويخبرها للبني ﷺ في المساء، مضت ليال وابن أبى بكر " رضي الله عنهما " يرعى الأغنام، يأتي بها، ويشرب النبي ﷺ وأبو بكر لبنها، وكان هذا غذاؤهما لثلاثة أيام، ولكن ابن هشام كتب أن أسماء "رضي الله عنها" كانت تطهي الطعام في المنزل، وتأخذه وتذهب به إلى الغار مساء كل يوم، وهكذا مضت ثلاث ليال في الغار.(٣)

وحين تفتحت أعين قريش صباحا؛ وجدت أن علي " رضي الله عنه " على السرير بدلا من الرسول ﷺ، فقبض عليه الظالمون وأخذوه إلى الحرم وحبسوه قليلا ثم تركوه.(٤)

---

(١) صحيح البخاري، باب الهجرة " سيد سليمان الندوي ".

(٢) يقع هذا الغار في الناحية اليمني لمكة علي مسافة ٣ أميال، وترتفع قمة الجبل نحو ميل تقريبا، ومن قمته يبدو البحر. انظر: الزرقاني ج ١، ص ٣٨٠ " سيد سليمان الندوي ".

(٣) ورد هذا تفصيلا في صحيح البخاري باب الهجرة، وقد أوردت أيضا بعض الأحداث من باب مناقب المهاجرين.

(٤) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ١٢٣٤ " سيد سليمان الندوي ".

ثم خرجوا بحثا عن النبي ﷺ، وظلوا يبحثون حتى وصلوا إلى فتحة الغار. سمع أبو بكر " رضي الله عنه " وقع الأقدام، وأشار إلى النبي ﷺ وقال: لقد أقترب الأعداء جدا لدرجة أنهم لو نظروا تحت أقدامهم لرأونا. فقال النبي ﷺ: " **لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** " (التوبة ٤٠)

معروف أنه حين اقترب الكفار من الغار، كان أمر الله تعالي بأن تنبت شجرة شوك فجأة وتمتد أغصانها وتستر البني ﷺ، فضلا عن أن حمامتين جاءتا وبنتا عشا ووضعتا البيض فيه، وحمام الحرم من نسل هاتين الحمامتين، وقد وردت هذه الرواية تفصيلا في المواهب اللدنية، وذكر الزرقاني أن البزاز وغيره مصدرها، في حين أن هذه الروايات جميعها خاطئة، إذ أن راوي هذه الرواية هو عون بن عمرو، وعنه يقول إمام فن الرجال يحيي بن معين: " لا شئ ". وعنه قال الإمام البخاري إنه منكر الحديث ومجهول. ومن رواتها أيضا أبو مصعب المكي، وهو مجهول أيضا. وكتب العلامة الذهبي – رحمه الله – في كتاب ميزان الاعتدال كل هذه الأقوال عن عون بن عمرو، وذكر هو بنفسه هذه الرواية [1].

على أي حال، خرج النبي ﷺ وصاحبه من الغار في اليوم الرابع، استأجرا عبد الله بن أريقط – أحد الكفار – حتى يرشدهم إلى الطريق، وتقدما في السير لمدة يوم وليلة دون انقطاع مهتدين بهذا الدليل.

وفي اليوم الثاني، وفي وقت الظهيرة حيث الشمس الحارقة أراد أبو بكر "رضي الله عنه " أن يستريح النبي ﷺ تحت أي ظل، فنظر حوله ورأي ظلا تحت صخرة، فنزل من على ناقته ونظف المكان وفرش ردائه واستراح النبي ﷺ ثم خرج باحثا عن أي طعام، وكان علي مقربة راعي يرعى أغنامه، فقال له نظف ثدي أي ماعزه، ثم أمره بتنظيف يده، وجعله يحلبها، ووضع قماشا علي فم الإناء حتى لا يقع أي غبار، وأخذ اللبن وذهب إلى النبي ﷺ وقال: ألم يحن الآن وقت السير، فقد زالت الشمس، لذا غادرا هذا المكان.[2]

---

[1] ورد نقد مفصل عن هذه الروايات في الحديث عن حيثيات رواية المعجزات والدلائل المعروفة العامة في كتاب سيرة النبي ج ٣ ص ٣٠٧ " سيد سليمان الندوي ".

[2] ورد هذا التفصيل كله حرفا حرفا في صحيح البخاري، باب مناقب المهاجرين، ونقلت هنا كل شئ حتي الثانوي، كي يتضح مدي حرص أبي بكر رضي الله عنه على النظافة.

أعلنت قريش عن أن من يمسك بمحمد ﷺ أو أبي بكر ويأتي به فسوف يحصل على جائزة قدرها ١٠٠ جمل، حين علم سراقة بن جعشم[١] بهذا فخرج طمعا في الجائزة، وفي الوقت نفسه كان الرسول ﷺ قد بدأ رحلته، ورآه سراقة، وأسرع بفرسه واقترب منه ﷺ، ولكن الفرس تعثر، وسقط سراقة من فوقه، وأخرج السهم وتردد في هل يهجم أم لا ؟ فآتاه الجواب بلا، ولكن جائزة المائة إبل لم تكن قليلة حتى يستمع إلى قول السهم، فامتطي فرسه ثانية وتقدم في سيره، ولكن غاصت أقدام الفرس في الأرض حتى ركبته، فاضطر إلى النزول من فوق الفرس ثم نظر إلى فأل السهم، وجاءه أيضا ذلك الجواب وهو لا، وكرر التجربة كثيرا ولكنه فشل. وبالتالي ضعفت عزيمته وقوته وتيقن بأن هذا ما هو إلا أثر لشيء ما، لذا جاء إلى النبي ﷺ وأخبره عن قصة إعلان قريش هذا، وطلب منه أن يكتب له وثيقة الأمان، وكتب عامر بن فهيرة غلام أبي بكر وثيقة الأمان على قطعة من الجلد.[٢]

ومن حسن الطالع أن الزبير " رضي الله عنه " كان قادما من الشام بقافلته التجارية، وقدم بعضا من نفيس القماش للرسول ﷺ وأبي بكر " رضي الله عنه ".

عد ابن سعد في كتابه "الطبقات" كل منازل وأماكن هذا السفر (الهجرة) المقدس، ومع أن آثارها لا توجد اليوم في خريطة بلاد العرب أي أن أصحاب العقيدة يجدون اللذة من ذكر مسمياتها فقط. وهذه المنازل هي خرار، وثنية المرة، ولقف، والمدلجة، والمرحج، والحدائد، والأزاخر، والرابغ، ومازال هذا المكان موجود في طريق الحاج حتى اليوم، وفيه صلي النبي ﷺ المغرب، وذا سلم، عثانية، وقاحة، وعرج، وجداوات، وركوبة، والعقيق، والحجاة.

وكان خبر قدومه ﷺ قد وصل المدينة من قبل، وكانت المدينة كلها تنتظره بلهف، وكان الأطفال الأبرياء يقولون بفخر وحماس إن الرسول ﷺ لقادم، وكان الناس يخرجون

---

(١) بعد دخول سراقة الإسلام، تم فتح إيران وأحضرت غنائم كسري من جواهر وغيرها فألبسه عمر رضي الله عنه تلك الجواهر ورأي فيه منظر سحر العالم.

(٢) صحيح البخاري، باب هجرة النبي ﷺ ويثبت من هذا أن الدواة والقلم كانا موجودين دائما حتي في وقت القلق والاضطراب. (فلقد روي عن سراقة أنه قال: " إن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزاني ولم يسألاني إلا أن قال: أخف عنا، فسأله أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة، فكتب في رقعة من أديم، ثم مضى رسول الله ﷺ. البخاري، ج٢، ص٤٩٢، المترجم).

إلى خارج المدينة ويجتمعون وينتظرون حتى الظهيرة ثم يعودون. وذات يـوم انتظـروا كثيرا ورجعوا بينما كان هناك يهودي قد رأي من القلعة، وعرفه من القـرائن، وصـاح قائلا: يا أهل العرب ! لقد جاء من تنتظرونه، ودوي صوت التكبير في المدينـة كلهـا، وتزين الأنصار بالسلاح وخرجوا من بيوتهم فرحين.

وعلي مسافة ثلاثة أميال من المدينة المنورة، كانت هناك منطقة مرتفعة عـامرة، يقال لها العالية وقباء، وبها يقيم كثير من قبائل الأنصار، وكانت قبيلة عمرو بن عـوف أكثر هذه القبائل رفعة. وكان كلثوم بن هدم قائد هذه القبيلة، وحين وصل الرسول ﷺ هذا المكان، كبرت وهللت هذه القبيلة كلها بفرح وسرور، إذ قدر لها هـذا الفخـر أن يقبـل الرسول ﷺ ضيافتها، وكان الأنصار يأتون في مجموعات من كل صوب وحدب ويسلمون علي النبي ﷺ بإيمان وصدق.[١]

وكان أكثر الصحابة رضوان الله عليهم، والذين كانوا قد هاجروا إلي المدينة قبله ﷺ قد نزلوا في بيوت هذه القبيلة فكان أبو عبيده، والمقداد، وخباب، وسهيل، وصـفوان، وعياض، وعبد الله بن المخزومة، ووهب بن سعد، ومعمر بن أبي صرح، وعميـر بـن عوف، مازالوا ضيوفها حتى الآن.[٢] وكان علي " رضي الله عنه " قد غادر مكـة بعـد هجرة الرسول ﷺ بثلاثة أيام، وقد وصل هو أيضا إلى هناك، أقام هنـاك. ويكتـب كـل المؤرخين وأرباب السير أن النبي ﷺ أقام في هذا المكان أربعة أيام فقط، ولكن ورد فـي صحيح البخاري أنه ﷺ أقام ١٤ يوم، وهذا هو الصحيح، حيث بني هنـا النبـي ﷺ أول مسجد، ففي أرض بور لكلثوم بن هدم ــ حيث كان يجفف البلح بهـا ــ بنـي النبـي ﷺ مسجدا، وهذا هو المسجد الذي قال الله تعالي في شانه في القرآن الكريم:

" لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨)" (التوبة)

كان النبي ﷺ يشارك بنفسه العمال في بناء المسجد، وكان يحمل الأحجار الثقيلة، لذا كان يأتيه الصحابة ويقولون له فداك أبي وأمي يا رسول الله، اتـرك هـذه الأحجـار ونحملها نحن، فكان النبي ﷺ يلبي رغبتهم، ولكنه يحمل حجرا آخر بنفس الوزن.[٣]

---

(١) صحيح البخاري، ص٢٥٦ وطبقات ابن سعد، والسيرة النبوية ص ١٥٨.

(٢) ابن سعد، تذكرة كلثوم بن هدم.

(٣) وفاء الوفاء، نقلا من الطبراني الكبير ج١، ص ١٨٠.

كان عبد الله بن رواحة " رضي الله عنه " شاعرا، وكان يشارك العمال هو الآخر، كما كان ينشد الأشعار التالية حتى يبعد تعب وإرهاق العمال وهم يعملون:ـ

أفلح من يعالج المساجد

ويقرأ القرآن قائما وقاعدا

ولا يبيت الليل عنه راقدا

وكان النبي ﷺ يشاركه بصوته مع كل قافية.[١]

إن دخول الإسلام في قباء، بداية مرحلة مهمة في تاريخ الإسلام، لذا أهتم المؤرخون بهذا التاريخ اهتماما بالغا وحفظوه. ويتفق معظم المؤرخين على أن هذا كان في ٨ ربيع الأول – ١٣ من البعثة النبوية، الموافق ٢٠ سبتمبر ٦٢٢ م. كتب (محمد بن) موسى الخوارزمي أن هذا كان يوم الخميس الرابع من شهر تير الفارسي، في شهر أيلول الرومي سنة ٩٢٣ ويوافق اليوم العاشر في التقويم السكندري.[٢]

نقل المؤرخ اليعقوبى هذا الطالع عن علماء الفلك:ـ

الشمس في برج السرطان ٢٣ درجة في ست دقائق.

زحل في برج الأسد ٢ درجة.

المشتري في برج الحوت ٦ درجات.

الزهرة في برج الأسد ١٣ درجة.

عطارد في برج الأسد ١٥ درجة.

(وفي يوم الجمعة)[٣] وبعد أربعة عشر يوماً وهو في طريقه ﷺ إلى المدينة، حان وقت الصلاة وهو ﷺ في حي بني سالم، لذا صلي صلاة الجمعة هنا، وخطب خطبة قبل الصلاة، وكانت هذه أول صلاة جمعة له ﷺ، والتي بها أول خطبة صلاة، وحين علم الناس بخبر قدومه ﷺ، جاءوا لاستقباله من كل جانب بفرح وسرور، وجاء أخواله ﷺ بني

---

(١) وفاء الوفاء، نقلا عن ابن شيبة ج ١، ص ١٨١، مصر.

(٢) العيني، شرح البخاري ج٢، ص ٣٥٤ (حدث خطا مطبعي في طبعة القسطنطينية للعيني إذ كتب سنة ٧٣٣، والصحيح أنه سبعمائة، وحسب طريقة الحساب الجديدة ثبت أن العشرين من أيلول الرومي بدلا من العاشر. وذكر الخوارزمي أن اليوم كان يوم الجمعة، وحسب الحساب الجديد ثبت يوم الاثنين.

(٣) وردت هذه الواقعة في كثير من أبواب البخاري مثل باب المسجد، والهجرة، وغيرهما.

النجار مزينين بالسيوف.[1] وكان الناس قد اصطفوا علي جانبي الطريق من قباء حتى المدينة. وكانت قبائل الأنصار تأتى في الطريق، وكانت كل قبيلة تأتى أمامه وتقول له:" يا رسول الله هذا منزل، وهذا مال، وهذه روح فداءك". وكان النبي ﷺ يشكرهم ويدعو لهم بالخير. وحين اقترب من المدينة، صعد النساء علي البيوت وبدأن ينشدن:

طلع البدر علينا.

وجب الشكر علينا.[2]

وكانت الفتيات يضربن علي الدف ويغنين:

نحن جوار من بني النجار.

يا حبذا محمداً من جار.

وقال النبي ﷺ مخاطباً هذه الفتيات: " أ تحبونني" ؟ قلن: "نعم" قال: "والله يعلم إن قلبي يحبكن ". وصل ركب النبي ﷺ منزل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه - وهو المتصل بالمسجد النبوي الآن، ووقع صراع كبير حول من ينال شرف ضيافته ﷺ ؟، فاقترعوا علي هذا، وفي النهاية كان هذا الشرف من نصيب أبى أيوب رضي الله عنه.[3]

---

(1) وردت هذه الواقعة في كثير من أبواب البخاري، مثل باب المسجد، والهجرة، وغيرهما. (فقد روي أن يهوديا صاح بأعلى صوته: يا معشر العرب! هذا جدكم الذي تنظرون. فثار المسلمون إلى السلاح. البخاري، ج٢، ص٤٩٢. المترجم).

(2) وفاء الوفاء، ج١ ص١٨٧ بحث الزرقاني الأشعار الأولى بدقة بالغة، ورد علي اعتراض ابن القيم؛ وهو أن ثنية الوداع تجاه الشام، وليس تجاه مكة، وورد في المواهب أن هذه الأشعار رواها الحلواني بشرط الشيخين، ووردت هذه الأشعار أيضا في البخاري ولكن في الحديث عن غزوة تبوك، ولا يوجد أي تناقض بين هاتين الروايتين، ومن الممكن أن تكون هذه الأشعار قد أنشدت في كلتا الواقعتين.

(3) كان أبو أيوب رضي الله عنه يدعي خالداً، وورد ذكره في كتاب الإصابة في أحوال الصحابة بهذا الاسم، حيث دونت هذه الواقعة. وورد في أكثر كتب السيرة والتاريخ أنه لما طلب كل شخص نزول النبي (ﷺ) عنده في بيته، قال النبي ﷺ : خلوا سبيلها، فإنها مأمورة، لذا أقام النبي ﷺ في بيته. ولكن ورد في صحيح مسلم في باب الهجرة، أنه حين تنازع الناس حول ضيافته (ﷺ) أشار النبي (ﷺ) إلى أنه سينزل عند بني النجار أخوال عبد المطلب. ويثبت من هذا أن النبي (ﷺ) فعل هذا متعمداً. وكان أبو أيوب رضي الله عنه من بني النجار. وصرح الإمام البخاري في التاريخ الصغير أن نزول النبي (ﷺ) في بيت أبى أيوب رضي الله عنه كان بسبب هذه القرابة. ورد هذا الحديث فى صحيحي البخاري ومسلم، باب الهجرة: ٢٧٤ حَدِيثُ أَنَسِ بْنِ مَالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَنَزَلَ فِي عُلْوِ الْمَدِينَة فِي حَيٍّ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْف فَأَقَامَ فِيهِمْ أَرْبَعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً ثُمَّ إِنَّهُ

كان بيت أبي أيوب رضي الله عنه من طابقين، لذا عرض الطابق العلوي على الرسول ﷺ، وكان أبو أيوب رضي الله عنه يرسل الطعام مرتين للنبيَ ﷺ، ثم يأكل وزوجه ما يبقيه النبي ﷺ، وكان أبو أيوب رضي الله عنه يأكل من نفس المكان الذي أكل منه النبي ﷺ تبركاً.

وذات يوم انكسر إناء الماء في الطابق العلوي صدفة، وكان في البيت محاقا واحداً، فوضعه أبو أيوب علي الماء حتى لا يتسرب إلى أسفل ويؤذي النبي ﷺ.[1]

أقام النبي ﷺ هنا سبعة أشهر، وفي هذه الفترة حين شيد المسجد النبوي وبنيت حجرات بجانبه، انتقل النبي ﷺ. وسوف يأتي ذكر هذا تفصيلاً فيما بعد.

بعد مجيء النبي ﷺ إلى المدينة، أعطى زيدًا رضي الله عنه (وغلامه أبا رافع) جملين وخمسمائة درهم، وأرسلهما إلى مكة ليحضروا بنات النبي وحرمه ﷺ. وكتب أبو بكر رضي الله عنه لابنه عبد الله رضي الله عنه أن يصطحب أمه وإخوانه هو أيضا ويأتي إلى المدينة. وكانت رقية رضي الله عنها ابنة النبي ﷺ مع عثمان رضي الله عنه في الحبشة، ولم يسمح زوج السيدة زينب رضي الله عنها بالخروج من مكة، فأحضر زيد رضيَ الله عنه السيدة فاطمة الزهراء (والسيدة أم كلثوم) وأم المؤمنين سودة ـ رضي الله عنهن أجمعين ـ فقط، وجاءت السيدة عائشة رضي الله عنها مع أخيها عبد الله رضي الله عنه.[2]

أَرْسَلَ إِلَى مَلَإِ بَنِي النَّجَّارِ فَجَاءُوا مُتَقَلِّدِينَ بِسُيُوفِهِمْ قَالَ فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَأَبُو بَكْرٍ رِدْفُهُ وَمَلَأُ بَنِي النَّجَّارِ حَوْلَهُ حَتَّى أَلْقَى بِفِنَاءِ أَبِي أَيُّوبَ قَالَ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي حَيْثُ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ وَيُصَلِّي فِي مَرَابِضِ الْغَنَمِ ثُمَّ إِنَّهُ أَمَرَ بِالْمَسْجِدِ قَالَ فَأَرْسَلَ إِلَى مَلَإِ بَنِي النَّجَّارِ فَجَاءُوا فَقَالَ يَا بَنِي النَّجَّارِ ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هَذَا قَالُوا لَا وَاللَّهِ لَا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ قَالَ أَنَسٌ فَكَانَ فِيهِ مَا أَقُولُ كَانَ فِيهِ نَخْلٌ وَقُبُورُ الْمُشْرِكِينَ وَخِرَبٌ فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّخْلِ فَقُطِعَ وَبِقُبُورِ الْمُشْرِكِينَ فَنُبِشَتْ وَبِالْخِرَبِ فَسُوِّيَتْ قَالَ فَصَفُّوا النَّخْلَ قِبْلَةً وَجَعَلُوا عِضَادَتَيْهِ حِجَارَةً قَالَ فَكَانُوا يَرْتَجِزُونَ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَهْ فَانْصُرِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَهْ *(المترجم).

(١) الإصابة، ذكر أبى أيوب عنه كان سببه هذه القرابة (الحاكم ووفاء الوفاء).

(٢) ابن سعد (جزء النساء ص ٤٣).

بناء المسجد النبوي وحجرات أمهات المؤمنين (أزواج النبي ﷺ)

بعد الإقامة في المدينة كان أول عمل هو بناء بيتٍ لله، إذ كان المعهود حتى الآن هو أن النبي ﷺ كان يصلي في أي مكان مناسب.[١] وكانت هناك أرض لبني النجار قريبة لمقام الرسول ﷺ عليها بعض القبور والأشجار والنخيل، فاستدعي النبي ﷺ هؤلاء الناس وقال: " يَا بَنِي النَّجَّارِ ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هَذَا "[٢] ولما كانت الأرض في الأصل ليتيمين، استدعي الرسول ﷺ بنفسه هذين اليتيمين، وأراد اليتيمان أن يهديا هذه الأرض إياه، ولكن النبي ﷺ لم يقبل هذا، ودفع أبو أيوب رضي الله عنه قيمتها. نبشت القبور وسويت الأرض وبدأ العمل في بناء المسجد. وكان النبي ﷺ يشارك العمال، والصحابة يحملون الأحجار ويرددون هذه الألفاظ ويشاركهم النبي ﷺ بصوته ويقول: [٣]:ـــ

اللهم لا خير إلا خير الآخرة

فاغفر للأنصار والمهاجرة

وكان هذا المسجد صورة تدل علي بساطة الإسلام، إذ بنيت جدرانه بالطوب اللبني، وأعمدته من النخيل، واتخذ من بيت المقدس قبلة، ولكن حين بدلت القبلة تجاه الكعبة، أسس بابا جديدا تجاه الكعبة في الجانب الشمالي، ولما كانت أرض المسجد نيئة لذا

---

(١) أبو داود، باب بناء المسجد. (كان رسول الله ﷺ يصلي حيث أدركته الصلاة. أبو داود، ج١، ص١٠٧، المترجم).

(٢) ورد هذا الحديث فى صحيحي البخاري ومسلم، باب الهجرة: ٢٧٤ حَدِيثُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَنَزَلَ فِي عُلْوِ الْمَدِينَةِ فِي حَيٍّ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ فَأَقَامَ فِيهِمْ أَرْبَعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً ثُمَّ إِنَّهُ أَرْسَلَ إِلَى مَلَإِ بَنِي النَّجَّارِ فَجَاءُوا مُتَقَلِّدِينَ بِسُيُوفِهِمْ قَالَ فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَأَبُو بَكْرٍ رِدْفُهُ وَمَلَأُ بَنِي النَّجَّارِ حَوْلَهُ حَتَّى أَلْقَى بِفِنَاءِ أَبِي أَيُّوبَ قَالَ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي حَيْثُ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ وَيُصَلِّي فِي مَرَابِضِ الْغَنَمِ ثُمَّ إِنَّهُ أَمَرَ بِالْمَسْجِدِ قَالَ فَأَرْسَلَ إِلَى مَلَإِ بَنِي النَّجَّارِ فَجَاءُوا فَقَالَ يَا بَنِي النَّجَّارِ ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هَذَا قَالُوا لَا وَاللَّهِ لَا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ قَالَ أَنَسٌ فَكَانَ فِيهِ مَا أَقُولُ كَانَ فِيهِ نَخْلٌ وَقُبُورُ الْمُشْرِكِينَ وَخَرِبٌ فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّخْلِ فَقُطِعَ وَبِقُبُورِ الْمُشْرِكِينَ فَنُبِشَتْ وَبِالْخَرِبِ فَسُوِّيَتْ قَالَ فَصَفُّوا النَّخْلَ قِبْلَةً وَجَعَلُوا عِضَادَتَيْهِ حِجَارَةً قَالَ فَكَانُوا يَرْتَجِزُونَ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَةْ فَانْصُرِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةْ *(المترجم).

(٣) البخاري: باب المسجد وباب الهجرة والحج وباب البيوع، والعيني: شرح البخاري ج٢،ص٣٥٢ والزرقاني. (ورد هذا البيت في البخاري، ج٢، ص٤٩٣ هكذا:
اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة) (المترجم).

كانت تصير وحلا عند المطر. وذات مرة جاء الصحابة إلى الصلاة ومعهم حصوات كي يفرشونها حيث يجلسون، لذا رأى النبي ﷺ أنه من الأفضل تحجير أرض المسجد. وكانت هناك ناحية من نواحي المسجد مثقفة يطلق عليها الصفة، وكانت هذه لهؤلاء الناس الذين يعتنقون الإسلام وليس لهم بيتا.

حين بني المسجد النبوي، بني النبي ﷺ حجرات لأزواجه أمهات المؤمنين. وكان في عصمته في ذلك الوقت السيدة سودة والسيدة عائشة " رضي الله عنهما "، لذا بني حجرتين فقط، ثم بعد ذلك بني حجرات لأمهات المؤمنين اللاتي تزوجهن ﷺ فيما بعد. وكانت هذه الحجرات من الطوب اللبن وكان من بينها خمس مبنية من عرش النخيل، والحجرات التي كانت مبنية من الطوب اللبني كانت حجراتها الداخلية مبنية من عرش النخيل أيضا. وكانت حجرات السيدة أم سلمة، والسيدة أم حبيبة، والسيدة زينب، والسيدة جويربة، والسيدة ميمونة، والسيدة زينب بنت جحش " رضي الله عنهن أجمعين" في الجانب الشامي، ويقابلها حجرات السيدة عائشة، والسيدة صفية، والسيدة سودة " رضي الله عنهن " أجمعين.[1]

وكانت هذه الحجرات متصلة بالمسجد لدرجة أن الرسول ﷺ وهو معتكف في المسجد كان يخرج رأسه من المسجد، وأزواجه أمهات المؤمنين يغسلن شعره ﷺ وهن جالسات في المنزل.

وكانت هذه الحجرات حوالي ستة أو سبعة أذرع عرض، وعشر أذرع طول، وكان السقف مرتفعًا لدرجة أنه إذا رفع أحد يده لمسه. **وكانت توضع ستارة دائماً علي الأبواب**[2]

ولم يكن يضيء فيها مصابيح في الليل،[3] وكان من جيران الرسول ﷺ سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ، وعمارة بن حزم، وأبو أيوب رضي الله عنهم أجمعين. وكان جميعهم يتمتعون بنفوذ وثراء، وكانوا يرسلون اللبن إلى النبي ﷺ. وعليه، كان يعيش النبي ﷺ. وكان سعد ابن عبادة رضي الله عنه قد حرص علي إرسال مائدة (صينية) كبيرة من

---

(1) طبقات بن أسعد، السيرة الذاتية، صـ ١٦١.

(2) ورد ذكر أحوال بيوت النبي ﷺ في طبقات ابن سعد ج٨ ص١١، وفي كتاب وفاء الوفاء تفصيلاً.

(3) البخاري باب الصلاة علي الفراش.

بيته يومياً في العشاء إلى النبي ﷺ، تحتوي أحيانا علي الخضار، وأحيانا علي اللبن، وأخرى علي سمن.[1]

وقدمت أم أنس رضي الله عنها ما تملكه للنبي ﷺ، فقبله النبي وأعطاه لمربيته أم أيمن رضي الله عنها[2] وفضلت حياة الفقر لنفسها.

بدء الأذان

الوحدة والجماعة هي المركز الأصلي لعبادات الإسلام كلها، وبسبب عدم وجود أي رمز خاص حتى ذلك الوقت لم يكن هناك شئ يعلن عن صلاة الجماعة (كان الناس يخمنون الوقت ويذهبون إلى الصلاة). ولم يفضل النبي ﷺ هذا لذا أراد أن يعين أناسًا يذهبون في وقت الصلاة إلى الناس ويحضروهم من بيوتهم، ولكن كان في هذا مشقة، وطلب الصحابة رضوان الله عليهم واستشارهم، فأشاروا عليه بآراء مختلفة؛ فمنهم من قال برفع علم في المسجد وقت الصلاة حتى يراه الناس ويأتون إلى المسجد، ولم يقتنع النبي ﷺ بهذه الطريقة. وأشار البعض عليه باتخاذ طرق الإعلان عن الصلاة عند اليهود والنصارى، ولكنه ﷺ أخذ برأي عمر رضي الله عنه، وأمر بلال رضي الله عنه بالأذان.[3] وبهذه الطريقة كان يعلن عن الصلاة من جانب، ومن جانب آخر كان يعلن عن الدعوة الإسلامية خمس مرات في اليوم الواحد.

ورد في بعض كتب الصحاح الستة، أن اقتراح الأذان قدمه عبد الله بن زيد رضي الله عنه، والذي كان قد رآه في منامه. وفي رواية أخرى أن الأذان قد جاء عمر في المنام، ولكن لا يمكن ترجيح أي رواية أخرى مقابل رواية صحيح البخاري.[4]

---

[1] طبقات ابن سعد جزء كتاب النساء ص١١٦.

[2] صحيح البخاري ص ٣٥٧ باب فضل المنحية. (أعطت أم أنس رسول الله ﷺ عذاقا، فأعطاهن النبي ﷺ أم أيمن مولاته أم أسامة بن زيد)، (البخاري، ج٢، ص١٥٣)(المترجم).

[3] أبو داود باب بدء الآذان، والبخاري باب بدء الأذان. ولم يرد ذكر لواقعة زيد في صحيح البخاري.

[4] وردت هذه الروايات في صحيح مسلم والنسائي والترمذي أيضاً، فضلاً عن صحيح البخاري. ولكن يبدو من كل الروايات ومن تحقيقات العلماء، أن عمر رضي الله عنه كان قد قدم اقتراحًا مقابل اقتراحات الآخرين، وكما ورد في رواية البخاري: أو لا تبعثون رجلا ينادي بالصلاة، فأعجب النبي برأيه وأعلن عنه بلفظ "الصلاة جامعة". ثم رأى النبي بنفسه وبعض الصحابة ألفاظ الأذان في المنام، وأعتبره النبي من عند الله وقبله وأمر بالأذان كما نعرفه الآن. وورد هذا تفصيلاً نقلاً وبسند عن فتح الباري والنووي والزرقاني والروض الأنف. في باب بدء الأذان " سيد سليمان الندوي".

وصرح في البخاري فقط بأنه كان قد اقترح علي النبي ﷺ بالبوق والناقوس، لكن عمر رضي الله عنه أشار بالآذان. وبناءً عليه، أمر النبي ﷺ بلالاً رضي الله عنه بالأذان، ولم يرد ذكر للرؤيا (في صحيح البخاري).

المؤاخاة

قدم المهاجرون (المدينة) من مكة المكرمة معوزين، بالرغم من أنه كان من بينهم أثرياء، إلا أنهم كانوا قد خرجوا خفية من الكفار، لذا لم يحضروا أي شيء معهم مما كانوا يملكونه.

ومع أن منازل الأنصار كانت مكاناً عاماً لاستضافة المهاجرين؛ إلا أنه كانت هناك حاجة إلي تنسيق وتدبير مستقل، فكان المهاجرون لا يفضلون العيش علي الهدايا والصدقات، إذ كانوا متعودين علي العمل بأيدهم وسواعدهم، ولما كانوا لا يملكون البيت ولا حبة قمح، لذا رأى الرسول ﷺ أن يؤاخي بينهم وبين الأنصار. وحين اقترب الانتهاء من بناء المسجد، استدعي الرسول ﷺ الأنصار، واجتمع الناس في بيت أنس بن مالك رضي الله عنه، والذي كان في العاشرة من عمره آنذاك. وكان عدد المهاجرين ٤٥ مسلماً، وخاطب النبي ﷺ الأنصار " تآخوا فى الله أخوين أخوين "، ثم أخذ يستدعي اثنين من المهاجرين والأنصار ويقول (فيما بلغنا، ونعوذ بالله أن نقول عليه مالم يقل) لهما: "إنك وهذا أخوان"، فصارت الأخوة رباطهم. وأخذ الأنصاريُ المهاجرَ إلى بيته، وأطلعه على كل شئ فيه، وأخذ نصفه وقال له: هذا نصف لك وهذا نصف لي، فكان لسعد بن الربيع رضي الله عنه والذي آخى عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه زوجتان، فقال لعبد الرحمن رضي الله عنه: أطلق إحداهما وتزوجها أنت ولكن عبد الرحمن رفض هذا.(١)

وما كان يملكه الأنصار من ثروة كان عبارة عن مزارع نخيل، ولم يكن هناك في ذلك العصر نقود وغيرها، لذا طلبوا من الرسول ﷺ أن يقسم بينهم وبين إخوانهم هذه المزارع بالتساوي. وكان المهاجرون تجارا، لذا لم تكن لديهم معرفة بفن الزراعة، وعليه رفض الرسول ﷺ هذا بناء علي رغبتهم، قال الأنصار سنقوم نحن بكل أعمال الزراعة وما يخرج من ثمر فسوف يكون للمهاجرين نصفه، ووافق المهاجرون علي هذا.(٢)

---

(١) ورد ذكر المؤاخاة واسم كل واحد في كتاب سيرة ابن هشام ص ١٧٨، ووردت واقعة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه في صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب إخاء النبي.

(٢) صحيح البخاري صـ٣١٣.

وأصبحت هذه القرابة قرابة حقيقية وواقعية بالمعني الصحيح، فكان إذا مات الأنصاري، يأخذ المهاجر تركته وماله يقول الله تعالي: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (الأنفال:٧٢)
ونزلت الآية التالية حين لم تبق هناك حاجة لمساعدة المهاجرين عقب غزوة بدر (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ)(لأنفال: من الآية٧٥)

وبدأ تنفيذ هذا التشريع منذ ذلك الوقت ويُعملُ به في كتب الحديث والتفسير.

وفي السنة ٤ هـ حين نُفي بنو النضير وملك المسلمون أرضهم ومزارع نخيلهم، طلب النبي ﷺ الأنصار وأشار عليهم بأن المهاجرين مفلسون، وعرض عليهم هل يرضون أن يأخذ المهاجرون وحدهم هذه الأرض الجديدة، ويسترد الأنصار مزارع نخيلهم؟" أجاب الأنصار: لا ! بل أبقِ مزارع نخيلنا في أيدي إخواننا المهاجرين واعطهم المزارع الجديدة أيضاً.(١)

ستفتخر الدنيا مدي الدهر بإيثار الأنصار هذا، ولكن انظر ماذا فعل المهاجرون هم الآخرون؟ حين عرض سعد بن الربيع رضي الله عنه ما بمنزله علي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وقال له: خذ نصفه، فقال له: بارك الله تعالى في أهلك ومالك، دلني فقط على السوق، فدله على سوق قينقاع المشهور، فاشترى قليلاً من السمن والجبن، وظل يبيع ويشتري حتى المساء، وفي أيام قليلة جمع ثروة مكنته من الزواج.(٢) ازدهرت تجارته تدريجياً، وكان يقول: " إذا وضعت يدي على التراب سيصبح ذهبا". وكانت تجارته تُحمل على سبعمائة جمل، وتحدث ضجة كبيرة في المدينة كلها يوم تصل تجارته إليها.(٣) فتح بعض الصحابة محلات تجارية وكان لأبي بكر رضي الله عنه مصنعاً في " سخ " حيث كان يتاجر في الأقمشة.(٤) وكان عثمان رضي الله عنه يتاجر في البلح في

---

(١) صحيح البخاري صـ٣١٢.

(٢) وردت هذه الواقعة في موضعين مختلفين في صحيح البخاري (كتاب البيوع، وباب كيف آخى النبي ﷺ، وباب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، باب الوليمة ولو بشاة) "سيد سليمان الندوي ".

(٣) وردت هذه الواقعة في أسد الغابة، ج٣، صـ٣١٤-٣١٥ وغيرها.

(٤) ابن سعد، ج٣، صـ١٣٠.

سوق بني قينيقاع.[١] كما عمل عمر رضي الله عنه بالتجارة أيضـا.[٢] وربمـا اتسـعت تجارته وازدهرت حتى وصلت إيران.[٣] وهناك صحابة آخرون رضوان الله عليهم بدءوا يتجاورون في تجارات صغيرة. ورد في صحيح البخاري أنه حين اعترض الناس علـى أبي هريرة رضي الله عنه بسبب كثرة رواياته أمام غيره من الصحابة رضوان الله عليهم، قال: ما ذنبي في هذا ؟ إذا كان الناس يتاجرون في الأسواق، أما أنا فكنت دائمًا حاضـراً في مجلس النبي ﷺ ليل نهار. وحين تم فتح خيبر أعاد المهاجرون كلهم مزارع النخيـل للأنصار. ورد في صحيح مسلم، باب الجهاد " إن رسول الله ﷺ لما فرغ من قتال أهـل خيبر وانصرف إلى المدينة، رد المهاجرون إلي الأنصار مِنَحَهم التي كانوا منحوهم إياها من ثمارهم.

وتم بناء بيوت للمهاجرين حيث أعطاهم الأنصار الأراضي الملحقة ببيوتهم، أمـا من كان لا يملك أرض (بجوار بيته)، فقد أعطي جزء من بيته للمهاجر. وكان حارثة بن النعمان هو أول من قدم أرضه. وأقام بنو زهرة خلف المسجد النبوي، وبنا بنـى عبـد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قلعة (والتي من المناسب أن يقال عنها قلعة صـغيرة) وحصل الزبير بن العوام رضي الله عنه علي قطعة ارض واسعة، وأعطـي الأنصـار عثمان والمقداد وعبيد رضوان الله عليهم قطع الأراضي الملحقة ببيوتهم.[٤] وهؤلاء بعض الصحابة رضوان الله عليهم الذين آخي بينهم الرسول ﷺ :

المهاجر	الأنصاري
أبو بكر	خارجة بن زيد الأنصاري
عمر	عتبان بن مالك الأنصاري
عثمان	أوس بن ثابت الأنصاري
أبو عبيدة بن الجراح	مسعد بن معاذ الأنصاري
الزبير بن العوام	سلامة بن دقش
مصعب بن عمير	أبو أيوب

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج١، صـ٦٢.
(٢) مسند الإمام أحمد، ج ٤، صـ٤٠.
(٣) ابن حنبل ج ٣، صـ ٣٤٧.
(٤) ورد هذا تفصيلاً في معجم البلدان في ذكر المدينة المنورة.

عمار بن ياسر	حذيفة بن اليمان
أبو ذر الغفاري	المنذر بن عمرو
سلمان الفارسي	أبو الدرداء
بلال	أبو رويحة
أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة	عباد بن بشر
سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل	أُبى بن كعب

إن كانت صلة المؤاخاة قد حدثت لحاجة عارضة في الظاهر وهي تـدبير سـكن للمهاجرين لعدة أيام، لكن هذا الأمر في الحقيقة كان تكميلاً لأغراض إسـلامية عظيمـة الشأن.

الإسلام مملكة تهذيب الأخلاق وإتمام الفضائل، وهذه المملكة في حاجة إلي وزراء وساسة وقادة جيش وأُناس ذو كفاءة عالية، وكان قد وجد فريق يتسم بهذه الكفاءة من بين المهاجرين ببركة شرف الصحبة، وكانوا بمثابة معلمين يتخرج أُناس ذو استعداد وتربيـة من حلقات دروسهم. وعليه، حين تم الإخاء بين المهاجرين والأنصار روعـي ضـرورة وجود توافق في المزاج بين الأستاذ والتلميذ، الأمر الضروري للتربية والتعليم , ويبدو من الاستقصاء والتفحص والتمحيص أن الشخصين الذين آخي بينهما الرسول ﷺ قد روعـي توافق المزاج بين كليهما، وإذا قيل بأنه كيف يمكن معرفـة المـزاج الصـحيح لمئـات الأشخاص في مدة قليلة، لكن لابد من التسليم هنا بأن هذا كان من بين خصـائص شـأن النبوة.

كان سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة، وكان والده زيد قـد اتبـع ملـة إبراهيم قبل بعثة النبي، وكان في مقدمة جيش الإسلام. وكان سعيد قد تربي في حضـنه، لذا آمن بالإسلام بمجرد سماعه به، كما آمنت أمه معه أو قبله بقليل، وفـي بيتـه هـو وبترغيب منه أسلم عمر رضي الله عنه. وكان سعيد من فضلاء الصحابة علماً وفضـلاً، وأُخي بينه وبين أبي بن كعب رضي الله عنه، والذي حصل علي مرتبة عالية بأن لقبـه عمر رضي الله عنه بلقب سيد المسلمين، كما كان أول من فاز بمنصب كاتب في حضرة النبوة وسلّم بأنه إمام فن القراءة.[١]

---

[١] الإصابة، ذكر أبى بن كعب.

كان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، زعيم قريش الأكبر، ومن هنا آخي بينه وبين عباد بن بشر الذي كان زعيم قبيلة أشهل.

أما أبو عبيدة بن الجراح، والذي لقبه الرسول ﷺ بلقب أمين الأمة، فكان من ناحية يتمتع بكفاءة فاتح الشام، كان يضحي بكل ما هو نفيس وعزيز من أجل الإسلام؛ لذا حين واجهه أبوه في غزوة بدر كان قد راعي حقوق الأبوة، لكنه في النهاية اضطر إلى التضحية بالأب من أجل الإسلام. وآخي بينه وبن سعد بن معاذ رضي الله عنه، والذي كان شيخ قبيلة أوس الأكبر، وكان يبدو فيه أيضاً صفة التضحية والإيثار هذه فكان حليف بني قريظة، وكانت صلة الحليف في العرب تساوي صلة الأخوة والأبوة، ولكنه ضحي بأربعمائة حليفٍ حين عودي الإسلام في بني قريظة.

وكانت توجد تلك الوحدة وذلك التوافق بين بلال وأبي رويحة وسلمان الفارسي وأبي الدرداء وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان ومصعب وأبي أيوب، والتي بسببها لم يؤثر الأستاذ علي التلميذ بل تأثر هو الآخر وحين قدم عبد الرحمن بن عوف المدينة، كان يحمل الجبن علي رأسه ويبيعه. وما حصل عليه من ثروة في صحبة سعد بن الربيع أمير الأمراء تحدثنا عنه سابقاً.

إن ضيافة الأنصار للمهاجرين ومساعدتهم إياهم أمر لا نظير له في تاريخ الدنيا. وحين تم فتح البحرين، دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين، فقال الأنصار: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها.[1]

ذات مرة أتي رجل فقير النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، أصابني الجهد فأرسل النبي ﷺ إلى نسائه، فلم يجد عندهن شيئا. فقال النبي للحاضرين (من الصحابة): ألا رجل يضيفه هذا الليلة يرحمه الله ؟ فقال أبو طلحة: أنا يا رسول الله، وأخذه إلي بيته، وكانت في ذلك البيت بركة أيضاً، وقالت الزوجة: والله ما عندي إلا قوت الصبية، فقال أبو طلحة لزوجته: هيئي طعامك وأطفئي سراجك ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاء. فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين. ونزلت هذه الآية الكريمة حول[2] هذه الواقعة:

(وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ

---

(١) صحيح البخاري، فضائل أنصار.

(٢) صحيح البخاري وفتح الباري، فضائل أنصار.

هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الحشر:٩)

الصفة وأهل الصفة

إن أصحاب الصفة لفظ متداول في المعجم الإسلامي، مع أن الناس يعرفون حقيقته كما يجب، والصفة يقال لها الخيمة، فقد كانت هناك خيمة قد نصبت في ناحية بجوار المسجد النبوي. وكان هناك كثير من الصحابة رضوان الله عليهم يعمل بالتجارة والزراعة وغيرهما بجانب المشاغل الدينية، ولكن كان هناك أناس قد أوقفوا حياتهم علي العبادة وعلي التربية علي يد النبي ﷺ، ولم يكن لهؤلاء الناس أهل وعيال، وحين كان يتزوج الواحد منهم يخرج من هذه الحلقة، وكان من بينهم من يخرج إلى الغابة ويجمع الحطب ويبيعه ويوفر الطعام لإخوانه.

وكان هؤلاء الصحابة يجلسون دائماً مع النبي ﷺ نهاراً، ويستمعون إلي أحاديثه الشريفة، ويقضون ليلهم في هذه الصفة. وكان أبو هريرة من بين هؤلاء الصحابة، أحيانا لم يكن يتهيأ لأي أحد منهم الثوب والإزار معاً، وكان أكثر الأنصار يقطع فروع أشجار النخيل الممتدة ثم يضعها علي السقف، وما كان يتساقط من البلح يلتقطه هؤلاء ويأكلونه، وأحيانا كانوا لا يجدون الطعام لمدة يومين، وكثيراً ما كان هؤلاء الصحابة يأتون المسجد وهم جوعى. وحين كان يأتي الرسول ﷺ ويصلي بالمسلمين، يسقط هؤلاء الصحابة وهم في صلاتهم بسبب الجوع والوهن. وحين يأتي الناس من الخارج وينظرونهم، يعتقدون أنهم مجانين.[1] ولما كان يأتي النبي ﷺ أي صدقة من طعام، كان يرسل إليهم منها، وحين كان يدعى إلي طعام، كان يستدعيهم ويجلسهم معه. وكثيراً ما كان النبي ﷺ يقسمهم بين الأنصار والمهاجرين ليلاً كل حسب استطاعته، فكل شخص كان يأخذ واحداً أو اثنين معه ويطعمه في بيته.

كان سعد بن عبادة رضي الله عنه ثرياً وسخياً جداً، فكان أحيانا يأخذ إلي بيته ٨٠ ضيفاً،[2] وكان النبي ﷺ يعتني جداً بهؤلاء الصحابة، فحين طلبت فاطمة الزهراء رضي الله عنها من النبي ﷺ قائلة: لقد تفقأت يدي من الرحى، فاحضر لي جارية. قال النبي ﷺ لا والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ولكن أبيع

---

(١) صحيح الترمذي، باب معيشة أصحاب النبي (ﷺ).

(٢) الزرقاني، ج١، ص ٤٧ مصر، ذكر أصحاب الصفة والمسجد النبوي.

وأنعق عليهم أثمانهم.[١] وكان هؤلاء الصحابة يعبدون الله ليلاً ويقرءون القرآن، وكان لهم معلم يذهب إليهم ويقرأ عليهم القرآن.[٢] وعليه، كان يطلق علي كثيرَ منهم لقب قارئ. وكان يرسل منهم إلي أي مكان يراد نشر الدعوة الإسلامية فيه. وقد أرسل سبعين رجلاً من بينهم لتعليم الإسلام في غزوة معونة.

وكان عددهم يزيد أو يقل، ويبلغ عددهم الإجمالي أربعمائة رجل. وأحياناً كان يصل العدد إلى لا شئ. وكتب ابن الأعرابي أحمد بن محمد البصري المتوفي ٣٠٤هـ (أستاذ ابن منده) كتاباً مستقلاً في أحوال أصحاب الصفة. كما كتب سلمي كتاباً مستقلاً في أحوالهم أيضاً.[٣]

يهود المدينة والمعاهدة معهم

يذكر المؤرخون العرب أن يهود المدينة من نسل يهودي، وجاءوا إلى بلاد العرب حين أرسلهم موسى عليه السلام لمواجهة العمالقة، ولكن القرائن التاريخية لا تصدق علي هذا الرأي، فبالرغم من انتشار اليهود في العالم أجمع، إلا أنهم لم يغيروا اسمهم، حتى أنهم اليوم يسمون أنفسهم بالإسرائيليين في أي مكان هم فيه. وعلي العكس من هذا يهود العرب، والذين أسماؤهم أسماء عربية خالصة، من مثل النضير وقينقاع ومرحب وحارث وغيرهم. واليهود عموماً يتصفون بالجبن ودنو الطبع، فحين دعاهم موسى عليه السلام للحرب، قالوا له:

(قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) (المائدة: ٢٤)

وعلي العكس من هذا[٤] يهود المدينة، فقد كانوا يتصفون بالشجاعة والإقدام. وعلاوة

---

[١] الزرقاني، ج١، ص٤٧ مصر، ذكر أصحاب الصفة.

[٢] مسند ابن حنبل، ج٣ ص ١٣٧.

[٣] ورد ذكر أحوال أصحاب الصفة في باب المغازي في أماكن متفرقة في صحيح البخاري وصحيح مسلم وغيرهما. وأخذ الزرقاني من كتب أخري وأضاف إلي ما ذكر وكتب هذه الأحداث نقلاً عن الزرقاني إضافة إلي صحيحي البخاري ومسلم (وأيضا عن مسند بن حنبل، ج٣، ص١٨٧).

[٤] كتب السيد مارجوليوث بحثا مفصلا علي اليهود، ويميل إلى رأي – وهو الصحيح غالبا- وهو أن عدد اليهود الكبير هذا يرجع في الأصل إلى قبيلتين يهوديتين. ويهود العرب يرجعون إلى هذا الأصل أيضا.

- على هذه القرائن العقلية، صرح اليعقوبي المؤرخ الكبير أن قريظة والنضير كانتا عرباً ثم تهودوا.

ثم كانت واقعة بني النضير وهم فخذ من جذام، إلا أنهم تهودوا وكذلك قريظة.[1]

كتب المؤرخ المسعودى رواية أيضاً في كتابه الأشراف والتنبيه،[2] أن هؤلاء كانوا من قبيلة جذام، ثم استاءوا من العمالقة وعبادة أصنامهم، فآمنوا بموسى عليه السلام، وهاجروا من الشام إلى الحجاز، وكانوا ثلاث قبائل هم: بنو قينقاع وبنو النضير وقريظة، وسكنوا في أطراف المدينة، وبنو قلاعًا وأبراجًا قوية.

- ضعفت قوة الأنصار ضعفًا بينًا بسبب حرب بعاث التي دارت رحاها بين قبيلتي الأنصار؛ أي الأوس والخزرج. وكان اليهود دائماً يعملون علي عدم اتحاد الأنصار دائماً.

وبناءً علي هذه الأسباب حين قدم النبي ﷺ المدينة عمل أولا علي توضيح وضبط العلاقات بين المسلمين واليهود، وطلب ﷺ الأنصار واليهود، وعقد بينهما معاهدة تتضمن البنود التالية، والتي وافق عليها كلا الفريقين. ووردت هذه المعاهدة كاملة في سيرة ابن هشام، وأهم هذه البنود ما يلي:-

١- أن تبقي بنود الفدية التي كانت سائدة بينهما من قبل.

٢- تمتع اليهود بالحرية الدينية، وعدم التعرض لأمورهم الدينية.

٣- أن تكون هناك علاقة صداقة وود بين المسلمين واليهود.

٤- إذا تعرض اليهود أو المسلمين لأي قتال فلابد علي الفريق الآخر أن يساعد الفريق المحارب.

٥- ألا يعطي أي فريق من الفريقين الأمان لقريش.

٦- إذا حدث هجوم علي المدينة فلابد من اشتراك الفريقين معاً في الدفاع عنها.

٧- إذا عقد أي فريق معاهدة صلح مع أي عدو، يكون الفريق الثاني شريكاً في هذا الصلح أيضاً، ويستثني من هذا الحرب الدينية.

---

[1] اليعقوبي، ج ٢، صـ٤٩.

[2] طبعة أوروبا، صـ ٢٤٧.

أحداث متفرقة

وفي هذه السنة توفيت شخصيتان كبيرتان ومقربتان من الأنصار وهما: كلثوم بن هدم رضي الله عنه، وأسعد بن زرارة رضي الله عنه. وكلثوم رضي الله عنه هو ذلك الرجل الذي أقام النبي ﷺ في بيته حين جاء إلى قباء، كما نزل كبار الصحابة أيضًا في بيته. وكان أسعد بن زرارة رضي الله عنه من بين هؤلاء الرجال الستة الذين كانوا أول من ذهبوا إلى مكة وبايعوا النبي ﷺ. وطبقاً لرواية ابن سعد، كان أسعد رضي الله عنه هو أول من مد يده لمبايعة النبي ﷺ من بين هؤلاء الرجال الستة، كما نال شرف وفخر أنه أول من أقام صلاة الجمعة في المدينة المنورة.

كان أسعد رضي الله عنه نقيب قبيلة بني النجار، لذا بعد وفاته طلب النبي ﷺ من هذه القبيلة أن ينصبوا نقيباً آخر مكانه، ولما كان هناك احتمال في حسد الآخرين لو حصل شخص علي هذا المنصب، لذا قال النبي ﷺ: " أنا نقيبكم [١] لأن أخواله كانوا في هذه القبيلة. لذا لم يكن هناك فرصة للنزاع والحسد من القبائل الأخرى.

حزن النبي ﷺ حزناً شديداً علي وفاة أسعد رضي الله عنه، وبدأ المنافقون واليهود يطعنون في أنه إذا كان محمد ﷺ نبي فلم فجع إلي هذا الحد؟ فذكر النبي ﷺ أنه ﷺ لا يملك لنفسه ولا لصاحبه من الله شيئاً.

ومن أعجب الصدف أنه توفي اثنان كبيران من رؤساء الكفار في الوقت نفسه، وهما الوليد بن المغيرة، والد (خالد) رضي الله عنه، والعاص بن وائل السهمي والذي من بنيه عمرو بن العاص فاتح مصر ورئيس وزراء الأمير معاوية رضي الله عنه.

وفي هذه الفترة ولد عبد الله بن الزبير رضي الله عنه وكان والده الزبير رضي الله عنه ابن عمة الرسول ﷺ، وأمه أسماء رضي الله عنها بنت أبي بكر وأخت السيدة عائشة رضي الله عنها من الأب، وحتى ذلك الوقت لم يكن قد ولد ولد للمهاجرين، لذا اشتهر بأن اليهود قد سحروا لهم. لذا فرح المهاجرون بمجيء عبد الله بن الزبير رضي الله عنه.

وكانت الصلاة حتى الآن تؤدى في ركعتين، والآن أصبح الظهر والعصر والعشاء تؤدي في أربع ركعات، وفي السفر ركعتان.

---

[١] الطبري، ص ١٢٦١، ١٢٦٢.

ورد في صحيح البخاري في كتاب الجهاد، أن النبي ﷺ قال ذات مرة أنه: ": ليتَ رجُلاً من أصحابي صالحاً يَحْرُسني الليلةَ "[١]، فلبس سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه السلاح وقام بحراسته ﷺ طوال الليل، فاستراح النبي ﷺ. والأكثر من هذا رواية الحاكم هذه، والتي يقول فيها: –

عن أبي بن كعب قال: لما قدم الرسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه.[٢]

يبدأ مؤرخو المغازي من هذه الأحداث، ويقولون بأن الله تعالي أذن بالجهاد في هذه السنة، ولننظر في تصريحاتهم عن أصل الواقعة، فقد جاء في المواهب اللدنية والزرقاني أن الله تعالي أذن بالجهاد في ١٢ صفر سنة٢ هـ، ونقل في سنده قول الإمام الزهري: أول آية نزلت في الإذن بالقتال: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) (الحج:٣٩) (الزرقاني، نقلا عن صحيح النسائي، ج ١،ص٤٤٨).

وجاء في تفسير ابن جرير أن الآية التالية هي أول آية نزلت عن القتال: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (البقرة:١٩٠) تدبر في أن الآيتين فيهما إذن بقتال هؤلاء الناس الذين هم يبدعون قتال المسلمين. ويتضح من هذا أن المسلمين في حقيقة الأمر يجبرون على القتال.

على أي حال، الحقيقة هي أن خطة الحفاظ على الحكم المطلق وصيانته كان أول عمل للرسولﷺ في المدينة، ليس حفظ ووقاية نفسه والمهاجرين فقط، بل حماية وصون الأنصار أيضاً، الذين اتهموا بجريمة إيوائهم للمسلمين، فقررت قريش تدمير المدينة، وحرضت كل القبائل المتحالفة معها على هذا. وعليه، اختار النبي ﷺ خطتين:–

---

[١] وهذا نص الحديث كما ورد صحيح البخاري" (٢٨١٩) حدّثنا إسماعيلُ بنُ خليلٍ أخبرنا عليُّ بنُ مُسْهِرٍ أخبرَنا يحيى بنُ سعيدٍ أخبرَنا عبدُ الله بنُ عامرِ بنِ ربيعةَ قال: سمعتُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها تقول: «كانَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم سَهِرَ، فلمّا قَدِمَ المدينة قال: ليتَ رجُلاً من أصحابي صالحاً يَحْرُسني الليلةَ، إذْ سمعنا صوتَ سلاحٍ، فقال: من هذا؟ فقال: أنا سعدُ بنُ أبي وقّاصٍ جئتُ لأحرُسَكَ. فنامَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم» "(المترجم).

[٢] لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي، ووردت هذه الآية في سند الدارمى " وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ... "(النور٥٥).

الأولى:- قطع طريق تجارة قريش إلى الشام ـ والتي كانت سبباً في غرورهم ـ حتى يفضلون الصلح، وذكرنا آنفاً أن سعد بن معاذ ﷺ كان قد ذكر هذا الأمر لأبي جهل في مكة.

والخطة الثانية هي: معاهدة القبائل القريبة والمجاورة للمدينة المنورة علي الأمن والأمان.

السرايا قبل غزوة بدر

(خلاصة القول هو أنه بسبب هذه الظروف ذهبت تجاه مكة تشكيلات عسكرية قبل غزوة بدر. ذكر أرباب السير ثلاث سرايا قبل غزوة الإبواء والتي وقعت في صفر سنة ٢ هـ. وشارك فيها النبيﷺ بنفسه، وهي سرية حمزة وسرية عبيده بن الحارث وسرية سعد بن أبي وقاص، ولكن لم يحدث أي قتال أو إراقة للدماء في أي سرية من هذه السرايا. وذكر أرباب السير أن هدف هذه السرايا هو أن هذه السرايا كانت ترسل من أجل مضايقة قافلة قريش التجارية، أي كان الهدف منها هو قطع تجارتهم إلى الشام كما هدد سعد ﷺ من قبل. ويقول المعترضون أن الهدف كان تعليم الصحابة الإغارة. وهذا الإدعاء لكم هو مبني على جهل؛ فأول شيء هو أن هذا ذنب عظيم في شريعة الإسلام، الأمر الثاني هو ماذا تقص الواقعة؟ هل ورد في ذكر أي سرية أن الصحابة رضوان الله عليهم نهبوا القافلة؟ ثالثاً: لو أن هدف هذه السرايا كان النهب وقطع الطريق، فلم لم يحدث هذا مع غير قافلة قريش التجارية؟)

قبيلة جهينة

إن قبيلة جهينة هي أول قبيلة من بين القبائل المجاورة أرسلت إليها بعثة من أجل عقد معاهدة معها، كانت مساكن هذه القبيلة علي ثلاثة مراحل من المدينة، وكان جبلهم يمتد إلى مسافة بعيدة، وتم التعاهد معهم على أنهم يقيمون علاقة مساوية مع الفريقين؛ أي يبتعدون عن كليهما.[1] وفي صفر سنة ٢ هـ خرج النبي ﷺ مع ستين مهاجراً من المدينة وذهبوا إلي الأبواء (والتي وقعت على مقربة منها غزوة الأبواء أو غزوة ودان) حيث قبر أم النبي ﷺ. وفرع بلد كبير وهو المكان الرئيسي لمنطقة الأبواء وبها تسكن قبيلة مزينة وتبعد عن المدينة بحوالي ثمانين ميلا تقريباً، وهي آخر حدود المدينة، وكانت قبيلة بني ضمرة تعيش في هذه الأطراف، وكانت هذه المنطقة تدخل ضمن حدود حكومتها، وهناك

[1] لم يذكر المؤرخون هذه الواقعة ذكراً مستقلاً ؛ بل ذكروها حيث جاء ذكر أول سرية وهي ضمرة، وكتبوا عن مجد الجهيني بأنه (زعيم القبيلة) "كان موادعاً للفريقين".

أقام النبي ﷺ عدة أيام وتعاهد مع بني ضمرة ــ والتي كان مخش بن عمــرو الضــمري سيدهاــ معاهدة هذا نصها:-

هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة، فإنهم آمنون علي أموالهم وأنفســهم، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا في دين الله ما بلّ بحرُ صوفة وإن النبــي إذا دعاهم لنصره أجابوه... الخ (روض الأنف ج٢ صــ ٥٨، الزرقانى، ج١،صــ ٤٥٦).

يبدأ كل المحدثين المغازي من هذه الغزوة، وورد في صحيح البخاري أيضاً على أنها هي أول الغزوات.

وبعد شهر تقريباً هجم كرز بن جابر الفهري ــ أحد سادة مكة[١] ــ على مرعى المدينة، ونهب مواشي النبي ﷺ، وتم تعقبه ولكنه فر.(أسلم كرز بعد ذلك وأستشهد في فتح مكة وهو سائر وحده في الطريق).

وفي جمادى الثاني؛ أي بعد هذه الغزوة بثلاثة أشهر، خرج النبي ﷺ من المدينــة مع مائتين من المهاجرين، ووصل ذي العشيرة وعقد معاهدة مع بني مدلج. ويقــع هــذا المكان على مسافة تسع مراحل من المدينة أطراف ينسبوع.

كان بنو مدلج حلفاء بني ضمرة، وقد دخل بنو ضمرة في معاهدة مع الإسلام من قبل، لذا وافق بنو مدلج على هذه الشروط بسهولة.[٢]

وبعد عدة أيام في شهر رجب سنة ٢ هــ، أرسل النبي ﷺ عبدالله بن جحش مع اثني عشر رجلاً إلى نخلة، ويقع هذا المكان بين مكة والطائف وعلى مسافة يوم وليلة من مكة. وأعطاه النبي ﷺ كتاباً وأمره بالسير يومين ثم ينظر فيه. وحين نظر عبدالله ﷺ في الكتاب، إذا فيه أمر بالمضي حتى النزول بنخلة، ورصد بها أحوال قريش والاطلاع على أخبارهم. وبالصدفة ظهر بعض رجال من قريش عائدين من الشام ومعهم تجارتهم؛ فهجم

---

(١) الإجابة ذكر كرز الفهري.

(٢) أعترف بأن المؤرخين قد كتبوا عن الغزوتين الأوليين، أن الهدف منهما كان نهب قوافــل قــريش، ولكن لم يتمكن من هذه القوافل، وبالتالي نجت وهربت، ولكنني مقيد بالوقائع وملتزم بها وليس بــالآراء والقياس. والواقعة هي أن النبيﷺ ذهب إلى هذه الأماكن، وتعاهد مع قبائلها، وقياس المؤرخين هنا هــو أن هذا كان بهدف الهجوم على قوافل قريش، ولكن لم يتحقق هذا الهدف ولو أن ــ لا قدر الله ــ نهب القوافل هو المقصود لافتراض أن النبي ﷺ ــ والعياذ بالله ــ ليس حسن التدبير لأنه فشل في كل مــرة وتنجو القافلة وتهرب، حتى بعد تكرار التجربة حدث هذا النوع من الفشل في بدر أيضاً وهربت القافلــة صحيحة سالمة.

عليهم عبدالله ﷺ وقتل أحدهم وهو عمرو بن الحضرمي وأسر اثنين، وحصلوا على الغنيمة وجاء عبدالله ﷺ المدينة وقص هذه الواقعة، وقدم الغنيمة. فقال النبي: ما أمرتكم بهذا، ورفض ﷺ قبول الغنيمة. فغضب الصحابة من عبدالله وقالوا: **صنعتم ما لم تؤمروا به، وقاتلتم في الشهر الحرام ولم تؤمروا بقتال.** (الطبري، صـ ١٢٧٥).

إن الذين تم أسرهما ومن قتل كانوا من قبائل لها مكانتها، فقد كان عمرو بن الحضرمي ـ الذي قتل ـ ابن عبد الله الحضرمي، والذي كان حليفا[1] لحرب بن أمية (جد الأمير معاوية)، وكان حرب سيد قريش الأكبر، وهو الذي حصل على السيادة والزعامة المطلقة بعد عبد المطلب. أما اللذان قبض عليهما؛ أي عثمان ونوفل، فكان كلاهما حفيد المغيرة.[2] والمغيرة هو أب الوليد وجد خالد بن الوليد، ونال درجة السيادة الثانية بعد حرب. وعليه، أشعلت هذه الحادثة غيظ قريش بأثرها، ووجدوا أن هذا سبباً للانتقام وأخذ الثأر. وترتبط غزوة بدر بهذه الحادثة ذاتها، فقد ذكر عروة بن الزبير ﷺ ـ ابن أخت السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ـ أن قتل الحضرمي كان سبباً مباشراً لغزوة بدر وغيرها من الغزوات التي وقعت بين المسلمين وقريش. يكتب العلامة الطبري:ـ[3]

وكان الذي هاج واقعة بدر وسائر الحروب التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين مشركي قريش فيما قال عروة بن الزبير ما كان من قتل واقد بن عبدالله السهمي عمرو بن الحضرمي.

إن غزوة بدر هي السبب الرئيسي لكل الغزوات، لذا نكتب عن هذه الغزوة بشكل بسيط أولاً ثم نتحدث عنها بشيء من التفصيل.

---

(1) الإصابة ترجمة علاء الحضرمي.

(2) الطبري، صـ ١٢٧٤.

(3) الطبري، صـ ١٢٨٤، "سيد سليمان الندوي".

غزوة بدر

"وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " (آل عمران: ١٢٣).

رمضان سنة ٢ هـ

إن بدر اسم لقرية، حيث كان يقام بها سوق سنوي، وهذا المكان على مقربة من تلك النقطة التي يمر بها الطريق المؤدي من الشام إلى المدينة والتي بها انحدار شديد، وبدر على مسافة ثمانين ميلاً من المدينة تقريباً.

ذكرنا سابقاً أن قريشاً كانت قد بدأت استعداداتها للهجوم على المدينة منذ الهجرة، فقد أرسلوا رسالة إلى عبدالله بن أبي يأمرونه فيها إما أن تقتل محمدًا ﷺ، وإما نأتي نحن ونفصل في أمرك وأمره. كما كانت هناك سرايا صغيرة لقريش تطوف بالقرب من المدينة، حتى أغار كرز الفهري على مراعي المدينة. وكان لابد من تدبير نفقات من أجل الهجوم، لذا فإن قافلة قريش التجارية التي ذهبت إلى الشام في ذلك الحين محملة بكثير من البضائع كان قد اشترك فيها كل سكان مكة كلٌ بما لديه من أموال.[1] وأشترك الجميع في أموال هذه القافلة التجارية من نساء ورجال، وصدفة وقعت حادثة قتل الحضرمي قبل عودة القافلة من الشام، الأمر الذي أشعل غضب قريش أكثر وأكثر ـ وفي هذه الأثناء ذاع الخبر الكاذب في مكة المكرمة وهو أن المسلمين يتربصون لنهب هذه القافلة، فازداد غيظ وغضب قريش، وعم العرب جميعاً.

حين أطلع النبي ﷺ بهذه الظروف، جمع أصحابه، وقص عليهم ما حدث، فألقي أبو بكر وآخرون خطباً فدائية، ولكن النبي ﷺ كان ينظر تجاه الأنصار، وذلك لأنهم كانوا قد أقروا فقط وقت البيعة على أنهم يحملون السلاح إذا هجم العدو على المدينة، فنهض سعد بن عبادة (سيد الخزرج) وقال: " لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ فوالله يا رسول الله لو تأمرنا بخوض البحر لخضناه".

---

(١) ورد في ابن سعد قول أبي سفيان قائد القافلة: **"والله ما بمكة من قريش ولا قرشية له نش وصاعدا إلا بعث به معنا"**. لا يبحث المؤرخون عن الأسباب والنتائج، لذا كتبوا عن هذه الواقعة باعتبارها واقعة محصنة، ولم يدركوا ما الدافع والحاجة التي أدت بأهل مكة إلى جمع هذه الأموال الكثيرة؟

وهذه رواية صحيح مسلم. وورد في البخاري أن المقداد قال: لن نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، ولكننا نقول اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون، عن يمينك وعن يسارك ومن أمامك ومن خلفك وتلألأ وجه الرسول ﷺ من قوله هذا.

خلاصة القول هو أن النبي ﷺ في ١٢ رمضان سنة ٢ هـ خرج من المدينة مع ثلاثمائة مقاتل تقريباً، وبعد مسيرة ميل تفقد الجيش، وأعاد صغار السن،[١] إذ لا مكان للأطفال في هذا المقام الخطير. وكان عمير بن أبي وقاص ﷺ صغير السن، وحين أُمر بالرجوع أجهش بالبكاء، وفي النهاية أذن له النبي ﷺ. وعلق سعد بن أبي وقاص — أخو عمير — السيوف في عنق الجندي صغير السن.[٢] ووصل الآن عدد الجيش ٣١٣ مقاتلاً، من بينهم ستون من المهاجرين والبقية من الأنصار. وكان هناك تخوف من المنافقين واليهود في حالة الغياب عن المدينة، لذا استخلف النبي ﷺ أبا لبابة بن عبد المنذر على المدينة وأمره بالعودة، كما استخلف عاصم بن عدى على العالية (المنطقة العليا من المدينة). وبعد هذا التدبير والتخطيط تقدم النبي ﷺ نحو بدر حيث علم بمجيء أهل مكة، وأرسل جاسوسان بسيبة وعدى لاستطلاع حركة وأحوال قريش، وفي ١٧ رمضان وصل المسلمون على مقربة من بدر مارين بروحاء ومنصرف وذات وإحلال ومعلات وأثير، وأخبر الجاسوسان بأن قريش قد وصلت الجانب الآخر من الوادي، وتوقف النبي ﷺ هناك وأمر الجيش بالنزول.

كانت قريش قد خرجت من مكة في أعداد كبيرة، يصل عددها ١٠٠٠رجل من بينهم مائة فرس، كما كان من بينهم سادة قريش جميعاً، ولم يستطع أبو لهب المشاركة بسبب أمر قهري، لذا أرسل نائباً عنه. وكان أمراء قريش يقومون بتموين الجيش؛ وهم العباس (بن عبد المطلب) وعتبة بن ربيعة، والحارث بن عامر، والنضر بن الحارث، وأبو جهل، وأمية وغيرهم. وكانوا يذبحون يومياً عشرة من الإبل ويطعمونها للجيش[٣] وكان عتبة بن ربيعة — أكبر سادة قريش — قائداً للجيش.

---

[١] ابن أسعد، صـ٦.

[٢] منتخب كنز العمال برواية بن عساكر، بدر.

[٣] معارف بن قتيبة، باب أسماء المطعمين من قريش في غزوة بدر، وسيرة بن إسحاق برواية ابن هشام غزوة بدر .

وصلت قريش على مقربة من بدر، وعلموا أن قافلة أبي سفيان قد مرت بسلام ولم تتعرض لأي خطر، وهنا قال قادة قبيلة زهرة وعدى: إذن لا داعي للحرب الآن، ولكن أبا جهل لم يسلم بهذا وأصر على الحرب، ورجع رجال قبيلتي زهرة وعدى وواصل بقية الجيش سيره نحو هدفه، ووصلت قريش قبل المسلمين، وبالتالي سيطروا على الموقع المناسبة (للحرب)، وعلى العكس من هذا لم يكن في الموقع الذي نزل فيه المسلمون عين ماء أو بئر، كما كانت الأرض رملية تغوص فيها أقدام الإبل، فقال الحباب بن المنذر للرسول ﷺ: أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال النبي ﷺ: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. قال الحباب: يا رسول الله انهض بالناس حتى نأتي على بئر ونخرب ماعداه من الآبار الأخرى.[1] ففضل النبي ﷺ هذا الرأي وأخذ به. ومن حسن الطالع أن هطل المطر وثبت الغبار، وبُنيت أحواض لجمع المياه حتى يستفاد منها في الغسل والوضوء، وتحدث القرآن الكريم عن هذا الكرم الإلهي الطبيعي:

(وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ)(لأنفال: من الآية١١)

وبالرغم من أن المسلمين قد سيطروا على المياه، إلا أن كرم ساقي الكوثر ﷺ كرم عام، لذا سمح للأعداء بأخذ الماء من البئر.[2] حل الليل واستراح الصحابة رضوان الله عليهم طوال الليل، ولكن الرسول ﷺ ظل مستيقظاً حتى الصبح يدعو ربه، وحين طلع الصباح، نادى المسلمين للصلاة وصلى بهم وحدثهم عن الجهاد وفضله.[3]

كانت قريش متشوقة للحرب، ولكن كانت هناك قلوب طيبة ترتعد من إراقة الدماء، وكان من بينهم حكيم بن حزام (أسلم فيما بعد) والذي ذهب إلى عتبة قائد الجيش وقال له: هل لك إلى خير اليوم تذكر به إلى آخر الدهر؟ قال عتبة: وما ذاك يا حكيم، قال حكيم: إن قريش يطالبون فقط بدم الحضرمي، فاحمل أنت أمر حليفك الحضرمي، وكان عتبة رجل طيب النفس، ووافق على هذا بكل سعادة، ولكن كان لابد من اتفاق أبي جهل في الرأي. وبلَّغ حكيم رسالة عتبة لأبي جهل وكان أبو جهل يُخرج سهامًا من جرابها واستمع إلى رسالة عتبة، وكان أبو حذيفة ﷺ ابن عتبة قد اعتنق الإسلام، وجاء مع

---

[1] ابن هشام، ج ٢، ص ١٠.

[2] ابن هشام، ج ٢، صـ ١٦.

[3] منتخب كنز العمال، غزوة بدر، برواية مسند ابن حنبل وابن شيبه.

الرسول ﷺ مشاركًا في هذه الغزوة، لذا أساء أبو جهل الظن في أن عتبة ينسحب من الحرب لأنه يخاف على ولده.

طلب أبو جهل أبا عامر، أخ الحضرمي، وقال: هذا حليفك (يريد أن يرجع بالناس) وقد رأيت ثأرك بعينك، فقام عامر ومزق ملابسه حسب عرف العرب وأثار التراب وصرخ واعمراه واعمراه، فحمى الجيش. وحين سمع عتبة بطعن أبي جهل فأخذته الحمية فغضب غضبًا شديدًا وقال: ميدان الحرب هو الذي سيظهر الحقيقة، ثم طلب مغفرًا ولكنه لم يجد أي مغفر يناسبه بسبب كبر حجم رأسه، فأجبر على لف رأسه بقماشة ولبس سلاحه.

لم يكن النبي ﷺ يفضل تلويث يده بالدماء، لذا أعد الصحابة رضوان الله عليهم عريشًا من ناحية من ميدان الحرب حتى يجلس فيه النبي ﷺ ووقف سعد بن معاذ مشهرًا سيفه على الباب حتى يحرس الرسول ﷺ، بالرغم من أن الله تعالى كان وعد بالنصر، وعاونت الطبيعة المسلمين، وكانت هناك جنود من الملائكة، إلا أن النبي ﷺ خطط لجيشه وأعده حسب أصول القتال. وأعطى لواء المهاجرين لمصعب بن عمير ﷺ، وعين الحباب بن المنذر ﷺ لحمل لواء الخزرج وسعد بن معاذ ﷺ لحمل لواء الأوس.

وبمجرد أن أشرق الصباح صف النبي ﷺ صفوف جيشه، وفي يده المباركة سهم وبه كان يُعدل الصفوف حتى لا يتقدم ولا يتأخر أحد عن الآخر شيئاً، ومن المعروف أن الحرب يعمها الضجيج والصخب، لكن المسلمين مُنعوا من إصدار أي أصوات. وفي هذا المقام حين كان يتقدم أي رجل ناحية المسلمين أمام جيش العدو الغفير، كان المسلمون يفرحون. كان النبي ﷺ كله وفاء، وكان حذيفة بن اليمان وحسيل رضوان الله عليهما قادمان من مكان ما، وفي الطريق أستوقفهما الكفار وسألوهما: هل أنتما ذاهبان لمناصرة محمد؟ فأنكرا، ووعدا بعدم المشاركة في الحرب وحين جاءا النبي ﷺ وقصا له ما حدث قال: انصرفا نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم.[1] والآن تقابل الجيشان جيش الحق وجيش الباطل، النور والظلام، الكفر والإسلام.

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ)(آل عمران: من الآية١٣)

---

(١) صحيح مسلم، باب الوفاء بالعهد، كتاب الجهاد والسير " سيد سليمان الندوي ".

من العجيب أن يكون هذا العدد المحدود من الفدائيين هو نصيب التوحيد فقط في هذا العالم الواسع. ورد في الصحيحين أن النبي ﷺ طرأت عليه حالة من الخضوع الكامل، وكان يرفع يده ويدعو الله تعالى "اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك "، وبالغ في الابتهال حتى سقط رداؤه عن منكبيه وهو لا يدري، وأحياناً كان يسجد ويدعو الله " اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد، اللهم إن شئت لا تعبد بعد اليوم أبدًا"، فتأثر أبو بكر وقال: يا رسول الله إنه سيفي بوعده، وفي النهاية وجد نبوءة النصر على شفاهه المباركة وهو يقرأ بطمأنينة قوله تعالى: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) (القمر:٤٥)

اقتربت جنود قريش تمامًا، لكن النبي ﷺ منع الصحابة من التقدم للأمام، وقال: حين يقترب العدو، أوقفوهم بالسهام. كان مشهد الفداء والتضحية في هذه المعركة هو أكبر مشهد محير للعقول، فحين تقابل الجيشان تراءى للناس أن فلذة أكبادهم أمام السيوف وبينما يتقدم ابن أبي بكر (الذي كان كافراً حتى ذلك الوقت) في الميدان إذ بأبي بكر يشهر سيفه.[١] وحين نزل عتبة في الميدان، وجد أمامه ابنه حذيفة، كما تخضب سيف عمر بدماء خاله.[٢]

بدأت الحرب بأن تقدم عامر الحضرمي والذي يثأر لأخيه، فخرج مهجع غلام عمر ﷺ لمقابلته وقتله.

ثم خرج عتبة ــ قائد قريش والذي كان غاضباً بسبب طعن أبى جهل ــ ومعه أخوه وابنه وطلب المبارزة. وقد اعتاد العرب على أنه إذا خرج أي رجل معروف إلي ميدان الحرب، يضع علامة مميزة، لذا وضع عتبة ريشة نعامة على صدره، وخرج لمبارزتهم عوف ومعاذ وعبدالله بن رواحه رضي الله عنهم، فقال عتبة: من أنتم؟ قالوا: نحن من الأنصار، فقال عتبة: لا حاجة لنا فيكم، إنما أردنا بنى عمنا.[١] فابتعد الأنصار بناء على أمر النبي ﷺ وتقدم حمزة وعلى وعبيدة رضي الله عنهم (وكانوا ملثمين)[٢] فسأل عتبة: من أنتم. فأخبر كل واحد عن اسمه ونسبه. قال عتبة: " أجل أنتم أكفاء لنا ".

وتقابل عتبة مع حمزة والوليد مع على، وقُتل كلاهما ولكن شيبة أخ عتبة أصاب عبيدة فتقدم على وقتل شيبة وحمل عبيدة على كتفه وجاء به إلى النبي ﷺ. فسأل عبيدة

---

(١) الاستيعاب، ذكر عبد الرحمن بن أبي بكر.

(٢) سيرة ابن هشام، صـ٣٨٨، مطبعة محمد علي، مصر.

النبي ﷺ: "هل حرمت من ثروة الشهادة"، فأجابه النبي ﷺ: بلا. قال عبيدة: لو أن أبا طالب حي اليوم لاعترف بأني مستحق لهذا البيت من الشعر:[٣]

ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

خرج (عبيدة) بن سعيد بن العاص مدجج بالحديد وصاح أنا أبو كرش فخرج الزبير ﷺ لملاقاته، ولما كان مدججًا بالحديد ولا يبدو منه سوى عيناه، رماه الزبير برمح في عينه، فسقط على الأرض ومات.[٤] وارتشق الرمح رشقة قوية حتى اضطر الزبير أن يضع أقدامه على جثته وينزعه، فخرج الرمح بصعوبة بالغة والتوى. وظل هذا الرمح تذكاراً خالداً؛ أي أخذه النبي ﷺ من الزبير ﷺ ثم انتقل إلى الخلفاء الراشدين الأربعة، ثم جاء إلى عبد الله بن الزبير ﷺ.[٥]

وأصيب الزبير ﷺ إصابات عديدة في هذه الغزوة، وكان في كتفه جرح غائر حتى أنه كان يسمح بوضع الإصبع بداخله حين تم شفاؤه، وكان ابنه عروة يلعب في طفولته بأثر هذه الجروح الغائرة, والتي ظل يحارب بسيفه متكبلا بها حتى سقط على

---

(١) ورد هذا في كتب الحديث بعبارات مختلفة فورد في أبي داود في كتاب الجهاد: أن عتبة قال إنما نريد بني عمنا وما لنا بكم حاجة. وقال المحدثون للأنصار إن هذا لا يعني إهانة الأنصار بل كان يهدف إلى أخذ الثأر من قريش وليس من الأنصار. ومع هذا لا يمكن أن ننكر بأن أهل مكة كانوا يعتقدون بأن الأنصار ليسوا أكفاء لهم. وورد في صحيح الروايات أن أبا جهل حين قتل بيد الأنصار، قال وهو يموت ليتني قتلت بأيد أحد غير الفلاحين، فكان الأنصار يعملون بالزراعة وكانت قريش تعتقد بأن هذا عيباً.

(٢) الزرقاني. وهناك روايات مختلفة حول هذه الأحداث وكلها في مراتب متقاربة؛ لذا فالرواية التي تختار ليست ملزمة.

(٣) الزرقاني. وهناك روايات مختلفة حول هذه الأحداث، وكلها في مراتب متقاربة لذا فالرواية التي تختار ليست ملزمة.

(٤) صحيح البخاري، غزوة بدر، عن الزبير" لقيت يوم بدر عبيدة بن سعيد بن العاص وهو مدجج لا يُرى منه إلا عيناه وهو يكنى: أبو ذات كرش، فقال: أنا أبو ذات كرش، فحملت عليه بالعنزة فطعنته في عينه، فمات" (ج٣، ص١٥). (المترجم).

(٥) ورد هذا تفصيلاً في الحديث عن غزوة بدر في صحيح البخاري. يقول الزبير" لقد وضعت رجلي عليه ثم تمطأت فكان الجهد أن نزعتها وقد انثنى طرفاها، قال عروة: فسأله إياها رسول الله فأعطاه، فلما قبض رسول الله أخذها، ثم طلبها أبو بكر فأعطاه، فلما قبض أبو بكر سألها إياه عمر، فلما قبض عمر أخذها، ثم طلبها عثمان فأعطاه إياها، فلما قتل عثمان وقعت عند آل علي فطلبها عبد الله بن الزبير فكانت عنده حتى قتل". (ج٣،ص١٥). (المترجم).

الأرض. وحين استشهد عبدالله بن الزبير ﷺ، قال عبد الملك لعروة: هل يمكنك التعرف على سيف الزبير؟ قال: نعم. سأل عبد الملك: كيف؟ قال: به فلول من غزوة بدر، فصدقه عبد الملك وقرأ هذا المصراع من الشعر:

بهن فلول من قراع الكتائب

أعطى عبد الملك السيف لعروة، وحين حدد قيمته بلغت ثلاثة آلاف وكانت قبضته مطعمة بالفضة.[١]

والآن وقد بدأت المعركة، والمشركون يحاربون معتمدين على قوتهم، لكن الرسول ﷺ ساجد يطلب الاعتماد على قوة الله فقط.

كان قد ذاع شر أبى جهل وعداوته للإسلام، لذا تعاهد أخوان من الأنصار؛ معوذ ومعاذ رضي الله عنهما بأنه إذا تراءى لأي أحد منهما هذا الشقي فسوف يقضي عليه أو يموت. ويقول عبد الرحمن بن عوف: إني لفي الصف إذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن إذ قال لي أحدهما سراً من صاحبه: أرني أبا جهل؟ فقلت: يا ابن أخي فما تصنع به؟ قال: لقد عاهدت الله على أنني إذا رأيته في أي مكان فإما أن أقتله أو أقاتل حتى أموت. وقبل أن أجيب غمزني الآخر وقال لي مثلها، فأخبرتهما بالإشارة: هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه، وبمجرد أن قلت لهما هذا فإذا هما صقرين يقضيان عليه وكان الفتيان من ولد عفراء.[٢] وجاء عكرمة بن أبي جهل من الخلف وضرب بسيفه كتف معاذ الأيسر، فانقطع ذراعه، ولكن بقت متعلقة بجلدة من جنبه، وتعاقب معوذ عكرمة، الذي تمكن من الفرار. وظل معاذ يحارب وهو في هذه الحالة، ولكن تعلق ذراعه كان يضايقه في حربه، فاضطر أن يدعه تحت قدميه وينزعه وتحرر منه.

كان النبي ﷺ قد ذكر سابقًا أن هناك أناس جاءوا مجبرين مع الكفار، وذكر ﷺ أسماء هؤلاء الناس، والذين كان من بينهم أبو البختري، وحين وقع نظر مجذر (الذي كان حليفاً للأنصار)على أبي البختري قال: يا أبا البختري إن رسول الله ﷺ قد نهانا عن قتلك،

---

[١] ورد هذا تفصيلاً في صحيح البخاري في الحديث عن غزوة بدر. عن هشام عن عروة " قال لي عبد الملك بن مروان حين قتل عبد الله بن الزبير: يا عروة، هل تعرف سيف الزبير، قلت: نعم. قال: فما فيه؟. قلت : فيه فلة فُلَّها يوم بدر. قال: صدقت (بهن فلول من قراع الكتائب) ثم رده على عروة، قال هشام: فأقمناه بيننا ثلاثة آلاف ولآخذه بعضنا ولوددت أني كنت أخذته. (المترجم).

[٢] ورد في بعض الروايات أنهما معاذ بن عمرو ومعوذ بن عفراء.

لذا أتركك، وكان مع أبي البختري زميل له فقال أبو البختري: وزميلي؟ فقال مجذر: لا ما نحن بتاركي زميلك، فقال أبو البختري: لا أستطيع أن أسمع طعن نساء العرب حين يقلن بأن أبا البختري ترك زميله لينجو بنفسه، ثم قرأ هذا الشعر وهجم على مجذر وقُتل.

لن يُسلم ابن حرة زميله حتى يموت أو يرى سبيله

وتزلزلت أقدام قريش بسبب قتل عتبة وأبي جهل، وأصيب الجيش بالذعر. اشترك أمية بن خلف عدو الرسول ﷺ اللدود في غزوة بدر، وكان عبد الرحمن بن عوف ﷺ قد تعهد معه في وقت ما بأنه إذا قدم المدينة، فسوف يضمن له حياته، وكانت بدر فرصة عظيمة للانتقام من عدو الله هذا ولكن الالتزام بالعهد شعار إسلامي، لذا أراد عبد الرحمن بن عوف ﷺ أن ينجو أمية ويهرب فاصطحبه إلى جبل، وبالصدفة رأي بلال ﷺ أمية، فأخبر الأنصار وعلى الفور تدفق جمع من الناس، وقدم عبد الرحمن بن عوف ابن أمية فقتله الناس ولكنهم لم يقنعوا بهذا، وتعاقبوا أمية، فقال عبد الرحمن لأمية: أبرك على الأرض فبرك فألقى نفسه عليه حتى لا يضربه الناس، ولكنهم ضربوه بالسيف من تحته وأصاب بعض السيف رجل عبد الرحمن بن عوف، وتركت هذه الإصابة أثر لمدة.[1]

بعد قتل أبي جهل وعقبة وغيرهما استسلمت قريش وبدأ المسلمون في أسرهم، أُسر العباس وعقيل (أخو علي) ونوفل واسود بن عامر وعبد الله بن زمعة وكثيرون من كبار قريش.

وأمر النبي ﷺ بذهاب أي أحد ليعرف ما الذي حدث لأبى جهل, فذهب عبدالله بن مسعود ﷺ وبحث في الجثث فوجده مصاباُ وبه آخر رمق، فسأله: أأنت أبو جهل؟ قال: وهل فوق رجل قتله قومه،[2] لطمه أبو جهل لطمة، فوضع عبد الله بن مسعود أقدامه على

---

(١) توجد هذه الواقعة بأكملها في صحيح البخاري في كتاب الوكالة وليس في كتاب المغازى، لذا لم يراها أرباب السير .عن عبد الرحمن بن عوف قال: " كاتبت أمية بن خلف كتابا بأن يحفظني في صياغتي بمكة وأحفظه في صياغته بالمدينة، فلما ذكرت "الرحمن" قال: لا أعرف الرحمن، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية،فكاتبته (عبد عمرو). فلما كان في يوم بدر خرجت إلى جبل لأحرزه حتى نام الناس، فأبصره بلال، فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار، فقال: أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا أمية. فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا، فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم فقتلوه، ثم أبوا حتى يتبعونا ــ وكان رجلاً ثقيلاً ــ فلما أدركونا قلت له: ابرك، فبرك فألقيت عليه نفسي لأمنعه فتخللوه بالسيوف من تحتي حتى قتلوه، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه"(المترجم)

(٢) صحيح البخاري، غزوة بدر.

رقبته انتقامًا منه، فقال أبو جهل: لقد ارتقيت مرتقًا صعبًا يا رويعي الغنم، فقطع عبد الله بن مسعود رأسه، وجاء وألقاها تحت أقدام النبي ﷺ.[1]

إن مؤرخي الغرب الذين يرون أن ما بعالم الأسباب من شيء ما هو إلا نتاج لأسباب ظاهرية فقط يتعجبون من كيف ينتصر ٣٠٠ مقاتل مترجلين على ألف مقاتل بينهم مائة فارس، ولكن التأييد السماوي قد أظهر كثيرًا من مثل هذه المناظرة المحيرة والمدهشة، ولكن هناك عوامل واضحة في هذه الغزوة تطمئن القائلين بالظاهر، الأول: عدم اتفاق قريش، فلم يكن عتبة قائد الجيش راضيًا بالحرب وجاء مقاتلو قبيلة زهرة حتى بدر ورجعوا، وهطل المطر وجعل الأرض غير صالحة للحرب، خاصة وأن الموقع الذي اصطف فيه القرشيون كان قد أصبح وحلا مما يصعب السير والتجوال فيه. وقد زعرت قريش وكانوا يخطئون في تخمينهم لتعداد الجيش الإسلامي، فكانوا يعتقدون أن عدده يضاعف عددهم، إذ يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

(يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ)(آل عمران: من الآية١٣).

لم يكن في جيش الكفار أي إعداد أو تنظيم صفوف، وعلى العكس من ذلك فقد صف النبي ﷺ وفي يده المباركة سهمًا المسلمين بطريقة منظمة وكان المسلمون قد ناموا مستريحين نومًا عميقًا طوال الليل، وبالتالي أصبحوا على أهبة الاستعداد. وعلى العكس من هذا لم يستطع الكفار النوم بالليل بسبب عدم الاطمئنان والقلق.

واجتماع هذه الأسباب والإعداد ما هو إلا تأييد إلهي، ثم إنك إن تعقد مقارنة بين جيش قريش وجيش المسلمين، يبدو لك ما رأي المقاتل العادي في أن النصر حليف المسلمين. وكان في جيش قريش كثيرون من الأثرياء الذين كان يقومون بتموين الجيش، ولم يكن عند المسلمين أى شيء. كان عدد القرشيين ألفًا، بينما لا يزيد عدد المسلمين عن ثلاثمائة. كان في جيش قريش مائة فارس، بينما كان في جيش المسلمين فارسان فقط. كان في جيش المسلمين عدد قليل جداً من المقاتلين مدجج بالأسلحة في حين أن كل مقاتل في جيش قريش غارق في الحديد.

وانتهت الحرب باستشهاد ١٤ مقاتل فقط من المسلمين، من بينهم ٦ من المهاجرين والباقية من الأنصار، في حين أن قوة قريش الأصلية قد تحطمت، وقتل سادة قريش الذين كانوا يعرفون بشجاعتهم، كما قتل قادتهم واحدًا تلو الآخر من مثل شيبة وعتبة وأبو جهل

---

[1] المرجع السابق.

وأبو البختري وزمعة بن الأسود والعاص بن هشام وأمية بن خلف ومنبه بن الحجاج وكان جميعهم من سادة قريش. وكان عدد قتلاهم ٧٠ مقاتلا تقريبًا, وتم أسر هذا العدد أيضا، وقتل من الأسرى عقبة والنضر. وسيق الآخرون إلى المدينة وكان من بينهم العباس وعقيل (أخو على) وأبو العاص (صهر النبي ﷺ).

وكان دستور النبي ﷺ في حروبه هو أنه إذا تراءت له أي جثة في أي مكان، كان يقوم بتدفينها.[1] ولكن في غزوة بدر كثر عدد القتلى, لذا كان من الصعب تدفين كل واحد على حدة, فأمر النبي ﷺ أن تدفن الجثث كلها في القليب، لكن جثة أمية كانت قد تورمت وتنفخت لدرجة لا يمكن معها حملها من هذا المكان, لذا ووريت بالتراب في مكانها.

حين جاء أسرى الحرب أمام الرسول في المدينة، وكانت السيدة سودة رضى الله عنها (زوج الرسول) جالسة هي الأخرى، كان من بين هؤلاء الأسرى قريبًا لها وهو سهيل بن عمرو، فحين نظرته قالت: ألبست الخلاخيل كالنساء أنت الآخر، ألم تستطع أن تحارب حتى تموت.[2] قسم الأسرى اثنان اثنان وأربعة أربعة على الصحابة، وأمرهم النبي ﷺ بأن يحسنوا معاملتهم، فأحسن الصحابة معاملتهم حتى أنهم كانوا يطعمونهم الطعام ويكتفون هم أنفسهم بأكل التمر. وكان أبو عزيز أحد هؤلاء الأسرى وهو أخ مصعب بن عمير قال عن هذه المعاملة: إن الأنصار الذين أسرت في بيتهم كانوا حين يقدمون لي الطعام في الصباح والمساء فيضعون أمامي الخبز ويكتفون هم أنفسهم بالتمر، فكنت استحى وأعطيهم الخبز في أيديهم، لكنهم لا يلمسونه بيدهم ويردوه علي هذا، لان النبي ﷺ أكد على حسن معاملة الأسرى.[3]

(كان سهيل بن عمرو أحد الأسرى، ويتمتع بفصاحة اللسان، لذا كان يخطب في الجموع ضد النبي ﷺ، فقال عمر: يا رسول الله، انزع ثنيتي سهيل بن عمرو، يدلع لسانه. قال النبي ﷺ: لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبيا) [4]

لم يكن لدى العباس ﷺ رداء، وكان طويلا لدرجة أن رداء أي أحد لم يوافقه تمامًا، وطلب عبد الله بن أبى (زعيم المنافقين) ثوبه لأنه كان يضاهيه في الطول. ورد في

---

(1) الروض الانف.

(2) ابن هشام.

(3) تاريخ الطبري ص ١٣٣٨.

(4) المرجع السابق.

صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان قد كفن عبد الله بردائه ﷺ لذا كان ردائه (عبد الله بن أبى) هذا عوضًا.[1] وهناك رواية مشهورة وهى أن النبي ﷺ حين رجع إلى المدينة (بعد بدر) تشاور مع الصحابة في أمر الأسرى. فقال أبو بكر ﷺ: إنهم جميعًا أعزائنا وأقاربنا، لذا تأخذ الفدية منهم ونطلق سراحهم، ولكن الأمر يختلف تماماً عن هذا عند عمر ﷺ فعنده لا يوجد تمييز بين الصديق والعدو والعزيز والقريب والبعيد والقريب في أمور الإسلام لذا أشار: أن نقتلهم جميعاً، وأن يمكن كل واحد منا من قريبه فيقتله، وأخذ الرسول ﷺ برأي الصديق الأكبر وأخذ الفدية وأطلق سراحهم ونزل عتاب الله علي هذا فنزلت هذه الآية الكريمة:

(لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (الأنفال:٦٨).

وردت هذه الرواية في كتب التاريخ والحديث أيضا، ولكن مع اختلاف في بيان سبب العذاب - وهذه هي خلاصة رواية الترمذى؛ وهي أنه لم ينزل حتى الآن الأحكام المتعلقة بأموال الغنيمة، وانشغل الصحابة رضوان الله عليهم بالغنيمة حسب عادة العرب. وعليه، جاء العتاب، ولم يعاقب علي هذا الجرم لأنه لم يكن نزل أي حكم عنه من قبل، ونزل حكم يحلل مال الغنيمة، يقول الله تعالي في القرآن الكريم بعد العذاب:

(فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً)(الأنفال: من الآية٦٩) ففي هذه الآية تصريح واضح بأن مال الغنيمة حلال، والخلاصة هي أنه يثبت من صحيح مسلم والترمذى أن العتاب كان علي أخذ الفدية أو نهب مال الغنيمة. ورد في صحيح مسلم أنه حين نزلت آية العذاب، بكي النبيﷺ، وحين سأل عمر عن السبب، قال النبي ﷺ **ابكي الذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء** ففهم الناس خطئا أن هذا العتاب نزل في لِمَ تقتلون أسري الحرب؟ استدلوا بهذا الآية:

(مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ)(الأنفال: من الآية٦٧)

ولكن خلاصة هذه الآية هو أنه لا يفضل الأسر طالما لم يحدث قتال كاف في ميدان الحرب، ومن هذا يمكن ثبوت أنه لو تم الأسر قبل القتال، فبعد الحرب يباح القتل.

---

(١) صحيح البخاري ص ٤٢٢ باب الكسوة للأسرى. (روى عن جابر بن عبد الله أنه قال:" لما كان يوم بدر أُتى بالأسرى وأُتى بالعباس ولم يكن عليه ثوب، فنظر النبي ﷺ إياه فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه"ج٢،ص٢٦١). (المترجم).

وفي النهاية أخذ أربعة آلاف درهم فدية من كل أسير من أسرى بدر، ولكن أطلق سراح أولئك الناس الذين لم يكن في استطاعتهم أداء الفدية بسبب إفلاسهم، وأمر من كان يعرف القراءة والكتابة من بينهم بتعليم عشرة أطفال من أبناء المسلمين ثم يطلق سراحهم.[1] ومن هنا تعلم زيد بن ثابت ﷺ القراءة والكتابة.[2]

اقترح الأنصار على النبي ﷺ أن العباس ﷺ ابن أختنا، لذا لا نأخذ منه الفدية، ولكن النبي ﷺ رفض هذا بناء على المساواة.[3] ودفع العباس ﷺ هو الآخر الفدية. وكانت الفدية عامة أربعة آلاف درهم تأخذ (من كل أسير)، ولكنه أخذ من الأثرياء أكثر من هذا. وكان العباس ﷺ ثرياً، لذا أخذ منه أكثر من عامة الأسرى، فاشتكى للنبي ﷺ لأنه لم يكن يعرف أن الإسلام أرسى المساواة بين الجميع ومحي التفرقة والتمييز بين القريب والأجنبي والعزيز والغريب والعام والخاص، (ولكن كانت هذه المساواة وعدم التفرقة في أداء الفرض من ناحية، وكان الحب من ناحية أخرى يقتضي أن النبي ﷺ بعد أن استمع لأنين العباس لم يهدأ طوال الليل فحل المسلمون عقدته فاستراح النبي ﷺ).

كان أبو العاص صهر الرسول ﷺ أحد الأسرى كذلك، ولم يكن معه مبلغ الفدية فأرسل إلى السيدة زينب رضي الله عنها ابنة الرسول ﷺ (والتي كانت زوجته ولا تزال في مكة حتى الآن) بأن ترسل مبلغ الفدية، وكانت السيدة خديجة رضي الله عنها قد أعطت عقداً نفيساً في جهاز السيدة زينب وقت زواجها، فخلعت السيدة زينب هذا العقد من عنقها وأرسلته إياه مع مال الفدية، وحين رأى النبي ﷺ هذا تذكر حب ٢٥ سنة، وبكى ﷺ وقال للصحابة: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذي لها، فوافق الجميع وردوا لها ذلك العقد.[4]

(أطلق سراح أبي العاص، ورجع إلى مكة ثم أرسل السيدة زينب إلى المدينة. كان أبو العاص تاجراً كبيراً، وبعد بضع سنين خرج في تجارة كبيرة إلى الشام، وفي عودته

---

[1] مسند ابن حنبل ج صـ٢٤٧.

[2] طبقات بن سعد صـ١٤.

[3] صحيح البخاري، كتاب المغازي، جـ ١، صـ٥٧٢. (روى عن أنس أن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا أن نترك لبن اختنا عباس فداءه؟. قال: "والله لا تذرون منه درهما"). (البخاري، ج٣، ص١٩.) (المترجم).

[4] تاريخ الطبري، صـ١٣٤٨، وأبو داود.

قبضت عليه كتائب المسلمين مع ماله وتجارته، وقسمت التجارة علـى الجنـود، فـذهب متخفياً إلى السيدة زينب، فآوته، فاستشار النبي ﷺ المسلمين في رد تجارة أبـي العـاص عليه، فوافق الجمع وأحضر الجنود كل شئ أخذوه وردوه على أبي العاص. وذهب أبـو العاص إلى مكة وحاسب شركاءه جميعاً وفاز بنعمة الإسلام وقال: جئت هنـا وأنهيـت الحساب وأذهب إلى المدينة الآن حتى لا تقولوا أن أبا العاص أكل أموالنا وأسلم رهبة).[١]

حين وصل نبأ بدرٍ مكةَ، عم الحزن كل بيوتها، ولكن بسبب الحمية نادت قـريش ألا يبكي أي أحد، فلقد أصيب ثلاثة من أبناء الأسود في هذه الحرب وكان يجب أن يبكى عليهم، ولكنه ما استطاع بسبب الحمية والغيرة، وصدفة سمع صوت بكاء يأتيه من ناحية ما ذات يوم، فاعتقد أن قريشاً سمحت بالبكاء وقال للخادم: انظر من يبكي؟ هـل سُـمح بالبكاء فإن جوفي يحترق لعلي أبكي فاستريح، فقال الغلام: إنما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلته، فلم يتمالك الأسود نفسه وقال:

أتبكي أن يضل لها بعير ويمنعها من النوم السهود
ولا تبكي على بكر ولكن على بدر تقاصرت الحدود
فبكى أن بكيت على عقيل وبكى حارثا أسد الأسود

(كان عمير بن وهب عدوًا لدودًا في قريش للإسلام، جلس هو وصفوان بن أمية في الحجر، وبكيا قتلى بدر، فقال صفوان: "والله لا خير في العيش الآن". فقـال عميـر: صدقت أما والله لولا دين علي، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمـد ﷺ حتى أقتله، فابني أسير في أيدهم، فقال صفوان: علي دَيْنك، وعيالك في مسئوليتي. فجـاء عمير بيته فشحذ السيف وسممه، ثم انطلق حتى وصل المدينة، فما أن رآه عمر ﷺ امسك بتلابيبه وأتى به إلى النبي ﷺ، قال النبي ﷺ: أرسله يا عمر، ادن يا عمير، فدنا، وسـأله: فما جاء بك يا عمير؟ أجاب: جئت لابني الأسير الذي في أيديكم لأطلق سراحه، قال ﷺ: فما بال السيف في عنقك؟ قال عمير: وهل أغنت عني السيوف شيئًا في بدر؟ قال ﷺ: بل قعدت أنت وصفون ابن أمية في الحجر وتآمرتما على قتلي؟ وبمجرد أن سمع عمير هذا من رسول الله ﷺ غرق في صمته، وقال بدون أدنى تفكير: أيا محمد ﷺ: أشهد أنك رسول الله، والله لم يطلع أي أحد على هذا الأمر إلا أنا وصفوان. وبدلاً من أن تسمع قريش نبـأ قتل الرسول ﷺ استمعت إلى نبئ إسلام عمير.

---

[١] تاريخ الطبري.

ورجع عمير إلى مكة بعد إسلامه بكل شجاعة، حيث كانت كل ذرة في ذلك الوقت متعطشة لدماء المسلمين، وتحولت عداوته اللدودة للمسلمين إلى أعداء الإسلام، وأخذ يدعو إلى الإسلام وأسلم على يديه أناس كثيرون).[1]

بيان غزوة بدر في القرآن

(تمتاز هذه الغزوة عن غيرها من الغزوات بمميزات كثيرة، منها: أن الله تعالى تحدث عنها تفصيلاً في كتابه الحكيم، وأخص سورة الأنفال للحديث عن نعم وفضل بدر ولتوضيح المسائل المتعلقة بها. ولا يوجد أي مصدر صحيح أفضل منه تحت السماء لمعرفة أصل حقيقة هذه الواقعة. يقول الله تعالى:-

١- إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبْطِلَ البَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ (٨) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ (١٣) ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ المُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِينَ

---

[1] وردت هذه الأحداث كلها في تاريخ الطبري نقلاً عن عروة بن الزبير رضي الله عنه ص ١٣٥٤.

(١٨) إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ. (١٩) (سورة الأنفال).

٢- وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتَّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ (٤٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧)(الأنفال: ٤١-٤٧)

٣- مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٩) (الأنفال: ٦٧ ــ ٦٩)

٤- يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠) وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٧١) (الأنفال: ٧٠-٧١)

ذكر الله سبحانه وتعالى بهذا الإحسان والفضل في غزوة أحد:

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)(آل عمران:١٢٣)

نظرة ثانية على غزوة بدر

وبعد الحديث عن الأهداف العادية حان الآن البحث في هذا الأمر بأسلوب تحقيقي، وهو هل كان الهدف من غزوة بدر كما ذكر عامة المؤرخين هو نهب القافلة التجارية، أم الدفاع إزاء هجوم قريش؟

أعرف جيدًا أن هناك فرق بين التاريخ ومحكمة العدل، كما أعرف أيضًا أن طريقة كتابة التاريخ مختلفة تمامًا عن كتابة الحكم العسكري أو الحكم القضائي، وأعترف أن عملي هو تدوين الواقعة وليس تدوين الحكم فيها، ولكن جاء مقام فيه حظيت الواقعة التاريخية بحيثية الدعوى القضائية، لذا أضطر إلى الانحراف عن هدفي وأمسك بقلم الفصل في الدعوى. ولا أخشى أن عامة المؤرخين وأرباب السيرة منافسون لي في هذا الحكم، وبسرعة سيتضح أن الحق وحده سينتصر على العالم أجمع. ومن أجل مراعاة تسلسل الأحداث جيدًا لابد لنا أن نتحدث أولاً (من وجهة دراستنا وتحقيقنا) من أجل الواقعة.

والواقعة هي أن قتل الحضرمي أشعل نار انتقام مكة، ولهذا حدثت مناوشات، وكان كل فريق يحذر ويحتاط من الآخر. وكما هو معروف أنه في مثل هذه الظروف تشاع بعض الأنباء الخاطئة بذاتها وتذاع بين الناس، ففي هذه الأثناء ذهب أبو سفيان في قافلة تجارية إلى الشام، وذاع هذا الخبر وهو ما زال في الشام أن المسلمين يريدون الهجوم على القافلة، فأرسل أبو سفيان وهو في الشام رجلاً إلى مكة ينبئ قريش بهذا الخبر، فأخذت قريش تعد للحرب، وذاع نبأ في المدينة، وهو أن قريشًا قادمة إلى المدينة في جيش عظيم، فأراد النبي ﷺ الدفاع، ووقعت غزوة بدر.

وقبل الفصل في هذا الأمر لابد من كتابة هذه الأحداث معًا، والتي يتفق كلا الفريقين عليها، حتى تفيد في الفصل في الأمر كأصول موضوعة وهي كما يلي:

١- إن ورد ذكر واضح لأي واقعة في القرآن الكريم، لا يعتد بأي رواية أو تاريخ أمامها.

٢- يجب مراعاة مراتب الفرق بين الأحاديث الصحيحة من غيرها في كتب الأحاديث.

من المسلم به عموما، أن النبي ﷺ حين علم أن قريشًا قد خرجت من مكة بجيش جرار، تحدث مع الصحابة واستشارهم، فأظهر المهاجرون استعدادهم بكل حماس، لكن النبي ﷺ كان يريد معرفة رأي الأنصار، وحين أدرك سعد ﷺ هذا الأمر، قام هو أو أي سيد آخر من الأنصار وقال: لكأنك تريدنا يا رسول الله، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، فوالله الذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك. ومن المسلَّم به أيضًا أن بعض الصحابة

رضوان الله عليهم كانوا مترددين في المشاركة في هذه الحرب، لذا جاء هذا التصريح في القرآن الكريم، إذ يقول الله تعالى: وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ المُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) (سورة الأنفال، الآية ٥)

ويذكر أرباب السيرة والمحدثون عامة أن السبب الذي جعل النبي ﷺ يتبين رأي الأنصار خاصة، هو أن الأنصار حين بايعوه ﷺ في مكة المكرمة بايعوه فقط على أنه لو هجم أي عدو على المدينة يواجهه الأنصار، ولم يكن هناك إقرار بأنهم يخرجون من المدينة ويحاربون.

وبعد الحديث عن هذا نركز في بحثنا عن مكان وقوع هذه الأحداث؟ يكتب أرباب السير أن النبي ﷺ خرج من المدينة من أجل الهجوم على القافلة التجارية فقط، وبعد أن سار أربعة أميال، علم أن قريشا قد خرجت في جيش لملاقاته. وهنا جمع النبي ﷺ المهاجرين والأنصار ليستشيرهم. وما وقعت من أحداث فيما بعد حدثت هناك، ولكن لدينا مصدر يفوق كتب السير والتاريخ وغيرها من المصادر الأخرى في هذا (وهو القرآن الكريم)، والذي يجب أن ننحني جميعًا أمامه:

(كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۞ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ۞وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ) (الأنفال:٥-٧)

١- إن حرف الواو في قوله " وإن " حسب القاعدة النحوية حال، ويعني أن فريقًا من المؤمنين كره الحرب، وكان قد حدث هذا حين كان النبي ﷺ يخرج من المدينة وليس بعد خروجه ﷺ من المدينة، لأنه طبقًا لواو الحال يجب أن يكون زمن الخروج من البيت وزمن تكاسل هذا الفريق واحدًا.

٢- ورد صراحة في الآية السابقة، أنه في زمن الواقعة كانت هناك طائفتان؛ الأولى: القافلة التجارية، والثانية: أن جيش قريش قادم من مكة. يقول أرباب السير أنه ورد في الآية الكريمة أن هذه الواقعة حدثت حين اقترب الرسول ﷺ من بدر، ولكن حين وصل الرسول ﷺ على مقربة من بدر، كانت قد مرت بسلام، كيف يمكن أن يكون هذا صحيح في ذلك الوقت، وهو "أن هناك وعد بإحدى الطائفتين " لذا يبدو واضحًا من النص القرآني أنه يجب أن تكون هذه الواقعة قد حدثت في ذلك الوقت الذي يمكن

فيه الحصول على كلا الطائفتين، وهذا الوقت فقط هو حين كان النبي ﷺ في المدينة ووصل نبأ كلا الطائفتين وهو أن أبا سفيان قد ذهب بقافلته التجارية، وأن قريش قد خرجت من مكة بعد الحرب.

٣- والأجدر بالذكر هو أن الله تعالى قد تحدث في الآية القرآنية السابقة عن طائفتي الكفار، الأولى: القافلة التجارية، والثانية: أصحاب القوة والشكيمة؛ أي كفار قريش الذين هم قادمون من مكة من أجل الحرب. وصرحت الآية الكريمة بأن طائفة من المسلمين كانت تريد الهجوم على القافلة التجارية. وبين الله تعالى غضبه على هذه الطائفة وقال سبحانه:(وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ)(الأنفال: من الآية٧)

(نرى) طائفة في ناحية الهجوم على القافلة التجارية، وفي الناحية الأخرى يريد الله سبحانه وتعالى إحقاق الحق وقطع دابر الكافرين، والسؤال الآن هو مع أي فريق كان النبي ﷺ ؟ ماذا تكون الإجابة على هذا السؤال طبقًا لعامة الروايات؟ إني أرتعد من هذا التصور.

٤- تدبر الآن في نوعية الواقعة. فالواقعة هي أن الرسول ﷺ يخرج من المدينة المنورة بهذه العدة مع ٣٠٠ فدائي من المهاجرين والأنصار من بينهم فاتح خيبر ؓ والأمير حمزة سيد الشهداء ؓ والذي يعد كل واحد منهما جيشًا بنفسه. وبالرغم من هذا (كما ورد في القرآن الكريم) فإن فريقًا من المؤمنين كره الحرب خوفًا، وكأنما يساقون إلى الموت. يقول الله تعالى:

(وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ۞ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ) (الأنفال:٥، ٦).

إن كان الهدف هو فقط الهجوم على القافلة التجارية، فلِمَ كان هذا الخوف والذعر والاضطراب والقلق؟ وكانت قبل ذلك قد أرسلت سرايا أكثر من مرة (حسب قول أرباب السيرة) للهجوم علي قافلة قريش ولكنها لم تلحقها (القافلة) أي ضرر. وفي هذه المرة كيف يكون هذا الخوف والذعر من هذه القافلة مع وجود ثلاثمائة مجاهد وجيش منتخب، ويخاف المسلمون بهذا الحد. فهذا دليل قاطع ودامغ على أن النبأ كان قد جاء في المدينة ذاتها وهو أن قريشاً قادمة من مكة إلى المدينة في جيش جرار.

٥- نزلت آية أخرى في القرآن الكريم عن واقعة بدر هذه، وكان النبي ﷺ آنذاك يقيم في المدينة، كما ورد صريحًا في صحيح البخاري في تفسير سورة النساء، والآية هي قوله تعالى:

(لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً)(النساء: من الآية٩٥)

ورد في صحيح البخاري قول ابن العباس رضى الله عنهما عن هذه الآية، وهو أنه لا يستوي الذين شاركوا في بدر بالذين لم يشاركوا. كما ورد في صحيح البخاري أيضا أنه حين نزلت هذه الآية لم يكن بها قوله تعالى: "غير أولى الضرر"، وحين سمعها عبدالله بن مكتوم ؓ ذهب للنبي ﷺ واعتذر للنبي ﷺ فنزل قوله تعالى:(غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ)(النساء: من الآية٩٥) وهذا دليل واضح تماما على أنه كان قد عُرف في المدينة ذاتها أنهم خارجون لا من أجل الهجوم على القافلة التجارية، بل من أجل القتال.

٦- ويقول القرآن الكريم عن كفار قريش الذين خرجوا من مكة من أجل القتال في بدر:

(وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)(الأنفال: من الآية٤٧)

لو أن قريشًا تخرج من أجل إنقاذ القافلة التجارية فقط؛ فلِمَ يقول الله تعالى أنهم خرجوا صادين الناس عن سبيل الله من أجل إظهار الشأن والرياء؟ وما يعني البطر والرياء هنا، وماذا كان صد الناس عن سبيل الله؟ إنهم في الحقيقة كانوا قد خرجوا من أجل الهجوم على المدينة المنورة بهدف إعلان وإظهار قوتهم ومنع انتشار الإسلام؛ لذا قال الله تعالى عن هدفهم هذا بأنه بطرٌ ورئاءٌ وصدٌ عن سبيل الله.

تأتي الأحاديث النبوية في الدرجة الثانية بعد القرآن الكريم، وورد ذكر مفصل ومجمل عن غزوة بدر في كثير من كتب الحديث، ولكن لم يقع نظري على هذه الواقعة في أي حديث سوى حديث كعب، وهو أن النبي ﷺ كان قد خرج في بدر لنهب قافلة قريش التجارية.

وهذه هي رواية كعب:

"عن عبد الله بن كعب قال لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا غزوة تبوك غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها، إنما خرج النبي ﷺ يريد غير قريش حتى جمع الله بينه وبينهم على غير ميعاد".

وعلى العكس حديث أنس الذي ورد في صحيح مسلم:

١- "عن أنس أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، قال: فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد يا رسول الله، والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا، قال: فندب رسول الله ﷺ الناس فانطلقوا حتى نزلوا بدر".

٢- ووردت عليهم روايا قريش وفيهم غلام أسود لبني الحجاج فأخذه أصحاب النبي ﷺ، فكانوا يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه، فيقول: ما لي علم بأبي سفيان، ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف. فإذا قال ذلك ضربوه فقال: نعم أنا أخبركم، هذا أبو سفيان فإذا تركوه فسألوه فقال: مالي بأبي سفيان علم ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف في الناس، فإذا قال هذا أيضاً ضربوه ورسول الله ﷺ قائم يصلي. فلما رأى ذلك انصرف وقال: والذي نفسي بيده لتضربوه إذا صدقكم وتتركوه إذا كذبكم. (صحيح مسلم باب غزوة بدر)

يبدو من الجزء الأول من الحديث الشريف أنه حين علم بمجيء أبي سفيان كان النبي ﷺ قد استشار الأنصار والمهاجرين في ذلك الوقت، ورغب في مساعدة الأنصار، وهذا ثابت أن مجيء أبي سفيان كان قد عُلم في المدينة ذاتها. وعليه، اتضح وضوحاً محققاً أنه في المدينة ذاتها، كان النبي ﷺ قد رغب في مناصرة الأنصار للاشتراك في غزوة بدر، ولو أن هذا الأمر حدث بعد خروجه ﷺ من المدينة - كما ورد في كتب السيرة - فأين يوجد الأنصار في ذلك الوقت؟ كما ورد في هذا الجزء من الحديث أيضاً أن النبي ﷺ بعد استشارته للصحابة دعا الناس إلى المشاركة، في حين أنه طبقا لأرباب السيرة يجب أن يكون الواقع هو أن الأنصار خرجوا للمشاركة خلافاً للمعاهدة والمعهود سابقاً، ثم استشارهم النبي ﷺ، وبعد ذلك حبب إليهم المشاركة في الحرب. وهذا أمر غير معقول يستطيع أي شخص أن يفهمه.

وفي الجزء الثاني من الحديث، يتضح تماما أن النبي ﷺ كان قد عرف مسبقاً عن طريق الوحي أو بأي طريقة أخرى أن الأمر ليس القافلة التجارية وإنما هو القتال، وإن لم يتضح هذا للناس. وفي هذا الحديث تنحل عقدة أخرى، وهي أنه لو كان قد علم بمجيء أبي سفيان فقط مسبقًا. ولم يكن هناك نبأ عن هجرة قريش فلِمَ يهتم النبي ﷺ بهذا الجمع

وبهذا الإصرار وبهذه العدة؛ لذا فالمقام يقتضي هذا حين عُلم بنبأ مجيء مشركي مكة بدلاً من مجيء أبي سفيان. وأورد أحمد بن حنبل في مسنده[1] هذه الواقعة بهذه الألفاظ، كما أوردها ابن أبي شيبة في المصنف، [2] وابن جرير في التاريخ،[3] والبيهقي في الدلائل، وقالوا: إن هذه الرواية صحيحة، وراويها هو بطل غزوة بدر، أسد الله علي بن أبي طالب:

عن علي قال: لما قدمنا المدينة أصبنا من ثمارها فاجتويناها وأصابنا بها وعك وكان النبي ﷺ يتخير عن بدر، فلما بلغنا أن المشركين قد أقبلوا، سار رسول الله ﷺ إلى بدر؛ وبدر بئر، فسبقنا المشركين إليها.

(ثم ترد بعد ذلك أحداث بدر كلها)

ففي هذا تصريح واضح بأن الرسول ﷺ كان قد سمع بنبإ حملة مشركي مكة، وخرج حتى بلغ بدر وقام بها. ولم يرد أي ذكر لقافلة أبي سفيان التجارية في هذا الحديث الشريف، وبالرغم من أنه لم تبق هناك حاجة لأي استدلال بعد هذه النصوص القطعية، ولكن ليطمئن قلبي لابد من النظر في الأمور التالية:ـ

١- إن السرايا التي أرسلها النبي ﷺ في البداية للهجوم على قوافل قريش، والتي كانت تضم من عشرين أو ثلاثين رجلاً وحتى مئة أو مائتين لم يُرسل فيها أي أنصاري أبدًا. يكتب أرباب السير هذا الأمر صراحة، ويرون أن الحاجة في هذا التصريح هو أن الأنصار لم يقروا وقت البيعة على الخروج من المدينة. وعليه، لو أن الهجوم على القافلة التجارية وقت الخروج من المدينة في هذه المرة هو المقصود فقط، فلم يكن الأنصار ضمن هذا الخروج، في حين أن عدد الأنصار في هذه الغزوة كان يزيد عن المهاجرين، فكان الجيش كله ٣٠٥ مجاهدًا يشتمل على ٧٤ مهاجرًا والبقية كلها من الأنصار.

وهذا دليل قطعي على أن النبي ﷺ حين خرج من المدينة، كان قد أتاه هذا الخبر، وهو أن قريشًا قادمة إلى المدينة. وعليه، خاطب النبي ﷺ الأنصار، إذ حان الوقت للاستفادة من الأنصار طبقًا لمعاهدة البيعة.

(١) ج ١، صـ ١١٧.
(٢) منتخب كنز العمال غزوة بدر.
(٣) ج ٣، صـ ١٢٨٩.

٢- إن القوافل التجارية التي كانت تذهب من مكة إلى الشام كانت تمر بالمدينة، وكانت القبائل التي تقع بين مكة والمدينة تحت نفوذ وسيطرة قريش، وعلى العكس من هذا لم يكن هناك أثر أو نفوذ لقريش في الحدود من المدينة حتى الشام. وعليه، لو أن الهجوم على القافلة التجارية كان هدفًا، كان لابد من التقدم ناحية الشام. ويخالف القياس تمامًا أن تكون القافلة التجارية من الشام، ويعلم بها النبي ﷺ، وبدلاً من السير ناحية الشام يسير ويتقدم باتجاه مكة، وبعد سيره خمسة أميال تجاه مكة يأتيه نبأ بأن القافلة نجت وهربت، وتقع الحرب مع قريش.

٣- وهذا هو ترتيب الأحداث:ـ

١- كتبت قريش كتابًا لعبد الله بن أبي " أُطرد محمد وأصحابه من المدينة؛ وإلا نأتي المدينة ونقضي عليه وعليك" (نقلا عن سنن أبي داود وقد مر سابقًا)

٢- قال أبو جهل لسعد بن معاذ ﷺ. "إنكم آويتم مجرمينا، إن لم تكن مع أمية لقتلتك ".

٣- في جمادى الثاني سنة ٢ هـ أغار كرز بن جابر على مراعي المدينة واستولى على إبل النبي ﷺ.

٤- وبعد ذلك مباشرة أي في رجب سنة ٢ هـ، أرسل النبي ﷺ عبدالله بن جحش ﷺ ليستخبر عن أحوال وتنقلات قريش.

٥- استولى عبد الله بن جحش ﷺ على قافلة صغيرة لقريش بدون إذن النبي ﷺ وأسر اثنين.

ضع في الاعتبار ما فعلته قريش مع بعض المسلمين في مكة، ثم تدبر كم يكون حجم انتقامهم، ويكتبون إلى عبد الله بن أبي، سنأتي المدينة ونقضي عليك وعلى محمد. يغير كرز الفهري على المدينة، وفي هذه الأثناء، يزيد غضب قريش حين استولى عبد الله بن جحش ﷺ على قافلتهم، وأسر اثنين من كبارهم. كانت قريش مع هذه الأمور كلها تتمسك بالصبر، ولا تريد أي نوع من أنواع الانتقام. وحين يخرج النبي ﷺ للاستيلاء على قافلتهم، التي كانت بها كل ثروة مكة، يجبرون على الخروج للدفاع. وعليه، يصلون على مقربة من بدر، وحين يخبرون بأن القافلة نجت ومرت بسلام، يشير أكابرهم وقائد جيشهم عتبة بأنه لا حاجة إلى الحرب الآن، وعلينا أن نعود. هل هذه الأحداث موافقة لعداوة قريش وشأن نبوة محمد ﷺ ؟

٤- ويكتب أرباب السير عمومًا أنه حين حث النبي ﷺ وهو في المدينة الصحابة على الهجوم على القافلة التجارية، لم يبدِ بعض الرجال فاعلية؛ لأن الناس اعتبروا أن أي مهمة أو معركة ليست جهادًا، بل هي للحصول على الغنيمة فقط، لذا ذهب أولئك الناس الذين كانوا في حاجة إلى مال الغنيمة. ولكننا نرى أن بالجيش قدر من أعيان الأنصار، ولو كان أحد في حاجة إلى المال لكان المهاجرون، ولكن كان عدد الأنصار في الجيش يزيد عن عدد المهاجرين إلى ضعفين أو ثلاثة.

كان من بين المؤمنين الذي أجابوا الرسول ﷺ حين استشارهم أبو بكر وعمر وَالمقداد رضي الله عنهم من المهاجرين، وسعد بن عباده[١] ﷺ من الأنصار، ولم يستطع سعد بن عبادة المشاركة في غزوة بدر، كما أنه لم يكن يستطيع الخروج من المدينة، لذا لابد من التسليم قطعًا بأن سعد ﷺ أجاب بهذه الإجابة في المدينة نفسها، وبها أيضًا عُلم نبأ حملة قريش، ولذا لابد أن تكون الحاجة قد دعت إلى استشارة الأنصار في المدينة نفسها.

٥- ورد في كتب السيرة؛ بل في كتب الأحاديث أيضًا، أن الرسول ﷺ حين حث الناس على الخروج في غزوة بدر، لم يرضَ البعض وكره هذا بسبب أنهم كانوا يعرفون أن هذا ليس جهادًا وغزوة، بل نهب قافلة، لذا فهذا يرجع إلى رغبتهم، فمن يريد الخروج فليخرج ومن لا يرد فلا يخرج. ورد هذا في الطبري **قالوا لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم، وقال هذه عير قريش فيها أموالهم فأخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها. فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله يلقي حرب. (ص١٢٩٢).**

ولكن هذه الأحداث مخالفة تمامًا لصريح آيات القرآن الكريم، فقد ورد في القرآن الكريم أن الناس كانوا كارهين وهم خارجين من المدينة، ولم يكن كرههم هذا بسبب عدم الحاجة إلى هذا الخروج، بل كان سببه هو أنه بدا لهم بأنهم خارجون لمواجهة الموت. يقول الله تعالى:

(وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ۞ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ)(الأنفال:٥،٦)

ورد في كل كتب الحديث والسيرة أن النبي ﷺ بعد مسيرة ميل من المدينة تفقد الجيش (عند بير أبي غبته). وردَّ عبد الله بن عمر ﷺ وغيره لصغر سنهم، فكان جميعهم

---

[١] صحيح مسلم وصحيح البخاري، غزوة بدر.

يقل عن خمسة عشر سنة، أو أنهم لم يصلوا سن البلوغ. ولو أن الهدف كان فقط نهب القافلة فمثل هذا العمل يقوم به الفتية الصغار جيدًا، ولكن لما كان الهدف والقصد في الحقيقة الجهاد وهو فريضة إلهية، والبلوغ شرط من شروطه، لذا رد غير البالغين لأنهم ليسوا أهلاً للجهاد.

٧- روى الحافظ ابن عبد البر في الاستيعاب[١] أنه حين حث النبي ﷺ الناس على الهجوم على قافلة قريش، قال خيثمة الأنصاري لأبنه سعد ﷺ: سأخرج أنا، وابق أنت هنا لرعاية النساء. فقال سعد: أبتي! لو أن المقام مقام آخر لفضلتك للذهاب بدلاً مني، ولكن المقام هنا هو مقام الشهادة فكيف أتركك، واقترعا، فخرجت القرعة على سعد، واشترك سعد في الحرب واستشهد.

يثبت من هذا جليًا، أن الأمر لم يكن نهب قافلة؛ بل كان جهادًا، وكان الناس يأملون في الحصول على ثروة الشهادة.

السبب الرئيسي لغزوة بدر

كانت للعرب قومية خاصة، فكان حين يقتل أي أحد من أي قبيلة بأي طريقة أو عن طريق أي أحد، تشتعل حرب ضارية، ويسيل الدم أنهارًا. وكانت تستمر هذه الحروب لفترات طويلة، وكانت تنتهي القبائل تماماً. ولكن هذا العرف وهذه السلسلة من الحروب لا تنتهي. وكان العرب أميين، لكنهم كانوا يكتبون اسم المقتول علي ورقة ويورثونها في الأسرة، حتى يتذكر الأطفال هذا الاسم حين يكبرون ويثأرون له. استمرت حروب داحس والبسوس أربعين سنة، وراحت آلاف الأرواح ضحية بسبب هذا الثأر. والثأر من أهم وأوضح ألفاظ تاريخ القومية العربية.

ذكرنا أن عمرو بن الحضرمي كان قد قتل في واقعة عبدالله بن جحش ﷺ، وكان الحضرمي حليفاً[٢] لعتبة بن ربيعة سيد وزعيم قريش. كانت غزوة بدر وغيرها من الغزوات انتقامًا وثأرًا لقتل الحضرمي. ذكر عروة بن الزبير ﷺ (ابن أخت السيدة عائشة رضي الله عنها) هذه الواقعة صراحة:

---

[١] الاستيعاب، ذكر سعد بن خيثمة، كما وردت هذه الواقعة بألفاظ مختلفة في الإصابة والطبقات.

[٢] ورد في النص الأردي: "حريف" بمعنى منافس أو خصم ولكن يبدو أن هذا خطأ مطبعي فالمقصود "حليف" والمستخدم في الأردية بنفس دلالته العربية. (المترجم).

وكان الذي هاج واقعة بدر وسائر الحروب التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين مشركي قريش، **فيما قال عروة بن الزبير: ما كان من قتل واقد**[1] **بن عبدالله التميمي** عمرو بن الحضرمي. (تاريخ الطبري، ص١٢٨٤)

هناك خطأ عام تسبب في وجود الخطأ في هذه المسألة موضوع البحث؛ وهو أن غزوة بدر كانت أول حرب مع الكفار؛ في حين أن الحروب مع الكفار كانت قد بدأت قبل بدر. كتب عروة بن الزبير رضي الله عنه كتابًا لعبد الملك عن غزوة بدر، يقول في بدايته:

إن أبا سفيان بن حرب أقبل من الشام في قريب من السبعين راكبًا من قبائل قريش، فذكروا رسول الله ﷺ وأصحابه وقد كانت الحرب بينهم فقتلت قتلى وقتل ابن الحضرمي في أناس بنخلة، وأسرت أسرى من قريش. وكانت تلك الواقعة هاجت الحرب بين رسول الله ﷺ وبين قريش. وأول ما أصاب به بعضهم بعض من الحرب، وذلك قبل مخرج أبي سفيان وأصحابه إلى الشام. (الطبري ص ١٢٨٥).

في الاقتباس السابق تصريح بأن الحرب كانت قد بدأت قبل مغادرة أبي سفيان الشام، ووقعت غزوة بدر بعد عودة أبي سفيان من الشام. إن أكبر وسيلة لتحقيق أصل الواقعة هي الوصول إلى شهادة خصمي الحرب، ومثل هذا النوع من الشهادة قليل الوجود، ولكن من حسن الحظ أنه توجد شهادة من مثل هذا النوع من الشهادة، فقد كان حكيم بن حزام (ابن أخ السيدة خديجة) شريكًا في غزوة بدر وكان حتى ذلك الوقت كافرًا، وكان يكبر النبي ﷺ في العمر بخمس سنوات، وكان يحب النبي ﷺ حبًا جمًا في الجاهلية، واستمر هذا الحب أيضًا بعد النبوة، ولكنه لم يعتنق الإسلام حتى فتح مكة، وكان من سادة قريش، كما كان في يده منصبٌ كبيرٌ من مناصب الحرم؛ وهو الرفادة، وكان مديرًا لدار الندوة ومالكًا لها،[2] وعمر حتى عهد خلافة مروان بن الحكم، وذات مرة ذهب للقاء

---

(٢) كان عبدالله بن جحش – والذي وقعت حادثة القتل هذه تحت قيادته – ابن أخت حمزة رضي الله عنه وابن خال النبي ﷺ وكان القاتل واقد بن عبد الله حليفاً لبني عمرو، وعاش حتى بداية خلافة عمر الفاروق رضي الله عنه. انظر طبقات بن سعد ذكر عبدالله بن جحش وواقد بن عبد الله . (ذكر المؤلف هنا أن عبد الله بن جحش كان ابن خال النبي؛ في حين أنه كان ابن عمته صفية رضي الله عنها. المترجم).

(١) كتاب الإصابة في أحوال الصحابة، ذكر بن حزام.

٢- الطبري، صـ١٣١٣ وسيرة ابن هشام، ذكر غزوة بدر " سيد سليمان الندوي".

١- ورد هذا تفصيلاً في كتاب الطبري من صـ ١٣١٤ إلى صـ١٣١٦.(لا توجد إشارة برقم هذه الحاشية في النص الأردي بأعلى الصفحة، وبالرجوع إلى الكتب المتعلقة بموضوع الكتاب، تبين أن مكان

بمروان، فاستقبله خير استقبال، ونهض من مجلسه وجلس بجواره وقال له: حدثنا عن بدر. فتحدث عن ظروفها وأحوالها الأولى ثم قال: حين نزلت قواتنا في الميدان ذهبت إلى عتبة وقلت له:

يا أبا الوليد هل لك أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت. قال أفعل ماذا؟ قلت إنكم لا تطلبون من محمد إلا دم ابن الحضرمي وهو حليفك فتحمل ديته فترجع بالناس[٢]

فضل عتبة هذا الاقتراح، ولكن أبا جهل اعترض واستدعى عامر الحضرمي أخ الحضرمي وقال له: الثأر أمامك، قم واستغث بالقوم، فتعرى عامر طبقا لعادة العرب وصاح:

واعمراه واعمراه[٣]

و حين بدأت المعركة كان عامر الحضرمي هو أول شخص خرج إلى الميدان.

كان حكيم بن حزام وعامر الحضرمي كافران حتى غزوة بدر، أما عتبة وأبو جهل سادة قريش، فماتا على كفرهما. ولو أن هؤلاء الناس الذين يتمتعون بدرجة مرموقة كانوا يعتبرون أن غزوة بدر ثأر لدم الحضرمي، لظلوا يعتقدون في هذا، فلا حاجة لنا في أن نهتمّ بهذا الأمر، ولكن الآخرين والذين جاءوا من بعدهم بمئات السنين اعتبروا أن سبب هذه الغزوة هو إنقاذ القافلة التجارية. **وشتان بينهما**

أمر جدير بالذكر

وبالرغم من أنه قد ثبت الآن قطعاً أن سبب غزوة بدر لم يكن الهجوم على القافلة التجارية، ولكن لابد من حل هذه العقدة وهي لِمَ أخطأ أرباب السيرة متفقين جميعاً في مثل هذه الواقعة الواضحة والصريحة؟ ولم توجد هذه التصريحات في صحيح البخاري وغيره؟ وهي أن غزوة بدر كانت في البداية بهدف الهجوم على القافلة.

والحقيقة هي أنه طبقاً لأصول وقواعد الحرب، لم يكن يتضح تماماً في أكثر الغزوات أين الذهاب، ولأي غرض وهدف؟ ورد في صحيح البخاري (غزوة تبوك) قول كعب بن مالك ﷺ الصحابي الجليل:

ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّي بغيرها.

الإشارة إلى الرقم يأتي بعد قوله واعمراه واعمراه، إذ يوجد هذا تفصيليا في تاريخ الطبري، كما ذكر المؤلف في الحاشية التي دونها أسفل الصفحة دون الإشارة إليها برقم في أعلى الصفحة. المترجم.

كتب شارحو البخاري في معنى" تورية" أن النبي ﷺ كان في مثل هذا المقام يستخدم ألفاظًا مبهمة ومحتملة لمعنيين. وبالرغم من أن هذه القاعدة ليست صحيحة من وجهة نظري في هذا المعنى، لكن باستقصاء الواقع للأحداث لابد أن يثبت أنه كان هناك إبهام في بعض المواقع، جعل الناس يوجدون قياسات مختلفة؛ وهذا هو السبب في أن سعد بن خيثمة ﷺ كان قد علم في البداية عن بدر أن الهجوم ليس هجوم على القافلة بل هو هجوم على الجيش. وعلى العكس من ذلك ورد قول كعب بن مالك ﷺ في صحيح البخاري أن الهدف من غزوة بدر كان من أجل التعرض للقافلة.

- ذكرنا في المقدمة سابقاً أن الواقعة التي يذكرها الراوي (والصحابة داخلون هنا أيضاً) في كثير من المواضع ليست واقعة في الحقيقة بل هي استنباطه هو، أي أنه فهمها هكذا كما رواها. وحدث هذا نفسه أيضاً في بدر، ليس هناك ما يدعو إلي التعجب من أن الصحابة رضوان الله عليهم استنبطوا استنباطات مختلفة، وذاع الاستنباط الذي يوافق الذوق العام.

نتائج غزوة بدر

كان لبدر نتائج وآثار متنوعة من الناحية الدينية والسياسية، وهي في الحقيقة بمثابة الخطوة الأولي في تقدم الإسلام. وفيها قضى على سادة قريش الكبار جميعاً والذي كان واحد منهم سداً حديدياً مانعاً في طريق الدعوة الإسلامية، وأصبح أبو سفيان الزعيم الأكبر لقريش بعد مقتل عتبة وأبي جهل، وبه بدأت الدولة الأموية وضعفت قوى قريش الأصلية.

كان عبد الله بن أُبي ابن سلول حتى ذلك الوقت كافراً علانية في المدينة، ولكنه بعد هذه الغزوة دخل ظاهرياً في دائرة الإسلام، ولكنه قضى عمره كله منافقاً ومات عليه. ومع أنه لم تتم السيطرة على القبائل العربية التي كانت قد شاهدت هذه الأحداث، إلا أنها أصيبت بخوف (من قوة الإسلام).

ومع هذه الظروف المواتية بدأ تمرد من جانب المخالفين، فكانت قد تمت معاهدة مع اليهود على أنهم سيكونون محايدين في أي حال من الأحوال؛ ولكن هذا النصر العظيم أشعل نار الحسد والحقد في صدورهم، ولم يستطعوا ضبطه. وسوف يأتي ذكر هذا تفصيلاً في الحديث عن اليهود فيما بعد.

كانت قريش في البداية تبكي الحضرمي وحده فقط، ولكن بعد بدر أصبحت البيوت كلها مأتماً واضطر كل طفل من أطفال مكة أن يأخذ الثأر لقتلى بدر، لذا كانت غزوة السويق وغزوة أحد مظهراً من مظاهر هذا الاضطراب والرغبة في الانتقام.

غزوة السويق في ذي الحجة سنة ٢ هـ

أصبح أبو سفيان الآن زعيماً لقريش وكان أكبر فرض لهذا المنصب وهذه الزعامة هو الانتقام لقتلى بدر، لذا عاهد المشركين بعد عودتهم من بدر بأنه لن يمس رأسه ماء من جنابة حتى يثأر لقتلى بدر، فخرج في مئتي راكب جمل من قريش، وتقدم نحو المدينة، وكان معروف عن اليهود بأنهم سيساعدونه ضد المسلمين، لذا ذهب في البداية إلى حي بن أخطب، لكنه أبى أن يفتح له بابه، فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم، وكان سيد بني النضير في زمانه وصاحب كنزهم التجاري، فاستأذن عليه فأذن، فقراه وسقاه وبطن له من خبر الناس في المدينة، وفي الصباح هجم أبو سفيان بقواته على العريض؛ وهي على مسافة ثلاثة أميال من المدينة، وقتلوا أنصارياً يدعى سعد بن عمرو وأحرقوا بعض المنازل والنخيل واعتبر أبو سفيان أنه بهذا بر قسمه، وحين علم النبي ﷺ بهذا خرج في طلبهم. ولم يكن مع أبي سفيان (وقواته) من زواد وتموين سوى السويق وبسبب الخوف والاضطراب طرحوا سويقا كثيراً (وهربوا).[1] وحمله المسلمون، لذا سميت هذه الواقعة بغزوة السويق.

زواج السيدة فاطمة رضي الله عنها في ذي الحجة سنة ٢ هـ

كانت السيدة فاطمة رضي الله عنها أصغر بنات النبي ﷺ، والآن بلغت الثامنة عشر من عمرها، وبدأ يطلب زواجها الكثير. روى ابن سعد أن أبا بكر ﷺ أول من طلبها من الرسول، فأجابه النبي ﷺ بأن الأمر بيد الله. ثم طلبها عمر ﷺ، ولم يجب عليه النبي ﷺ بشيء هو الآخر، مكتفيا بأن الأمر بيد الله تعالى. ولكن هذه الرواية تبدو غير صحيحة. وقد روى الحافظ ابن حجر في الإصابة روايات كثيرة لابن سعد في الحديث عن فاطمة رضي الله عنها، ولكنه رفضها.

وحين تقدم لها علي ﷺ، استأذن النبي ﷺ السيدة فاطمة رضي الله عنها، فصمتت وكأن هذا رضا منها، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: هل عندك من شيء؟ قال: لا.

---

[1] المترجم.

قال ﷺ : فما فعلت الدرع التي أصبتها ؟[1] قال: موجود. قال النبي ﷺ " أعطها (فاطمة) درعك الحطمية."

وقيمة هذا الدرع تساوي ١٢٥ روبية، ولم يكن على ﷺ يملك ثروة سوى الدرع ورداء يمنى بالٍ وجلد شاة. أعطى على ﷺ هذه الثروة كلها للسيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها وكان علي ﷺ يقيم مع النبي ﷺ حتى ذلك الوقت، والآن بعد الزواج دعت الحاجة إلي إيجاد منزل مستقل. وكان حارثة بن النعمان الأنصاري يملك بيوتًا كثيرة، وكان قد أهدى بعضها للنبي ﷺ فطلبت فاطمة رضي الله عنها من النبي ﷺ أن يوفر لها بيتًا آخر عن طريق حارثة، فسمع حارثة بهذا فأسرع إلى النبي ﷺ وقال: إني وما أملكه ملك لك يا رسول الله، والله أسعد كثيرًا بالبيت الذي تأخذه مني أكثر بكثير من بقائه في حوزتي. خلاصة القول هي أن حارثة ﷺ وفّر بيتًا، وأقامت فيه السيدة فاطمة رضي الله عنها.

إن الجهاز الذي أعطاه النبي ﷺ لابنته السيدة فاطمة كان عبارة عن سريرٍ من البان، ومرتبة من الجلد بداخلها سعف النخيل بدلاً من القطن، وحلية الرجل وسقاء، والرحى، وجرتين.

وحين ذهبت السيدة فاطمة رضي الله عنها إلى بيتها الجديد ذهب إليها النبي ﷺ ووقف على الباب واستأذن، ثم دخل وطلب إناء به ماء ووضع فيه يده ورش الماء على صدر وذراعي علي ﷺ، ثم طلب فاطمة فجاءت تمشي على استحياء. ورش الماء عليها هي الأخرى وأخبرها بأنه زوجها بأفضل رجل في أسرته صلى الله عليه وسلم.[2]

أحداث متفرقة سنة ٢ هـ

فرض صوم رمضان في هذه السنة طبقًا لبيان المؤرخين، كما فرضت زكاة الفطر في هذه السنة، ففي البداية ألقى النبي ﷺ خطبة تحدث فيها عن فضل هذه الصدقة، ثم أصدر حكمها.

صليت صلاة عيد الفطر في جماعة في ميدان كبير في هذه السنة أيضاً ولم تقم صلاة العيد قبل ذلك.

كان من الواجب ذكر غزوة بنى قينقاع ضمن أحداث هذه السنة أيضاً طبقًا لترتيب أرباب السيرة، ولكنها ستذكر فيما بعد حسب اتصال وتسلسل الأحداث.

---

(١) الذي كان قد حصل عليه من غنائم غزوة بدر.(المترجم)

(٢) نقلاً عن طبقات ابن سعد والإصابة وفيهما تفصيل عن هذا.

السنة الثالثة من الهجرة

غزوة أحد[1]

" ولا تهنوا [2] ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إنْ كنتم مؤمنين " (آل عمران: ١٣٩).

حين كان يُقتل رجل واحد فقط من العرب، كانت تشتعل سلسلة كبيرة من الحروب، وتمتد حتى مئات السنين، والفريق الذي ينهزم لا يمكن له أن يعيش حتى يثأر لنفسه ولقتلاه، ويعتبر أن هذا فرضًا مؤبدًا. قتل في غزوة بدر سبعون رجلاً من قريش، وكان أغلبهم من ساداتها وكبارها؛ لذا كانت مكة كلها ترغب في الانتقام وأخذ الثأر، وقُسم رأس مال قافلة قريش التجارية التي عادت إليها من الشام إبَّان غزوة بدر مع أرباح كثيرة على أصحاب رؤوس المال، وحفظت الأرباح كأمانة.

حين أفاقت قريش من غفوة حزن قتلى بدر، أرادوا الثأر لهم فذهب بعض من سادة قريش من بينهم عكرمة بن أبي جهل وأقارب قتلى بدر إلى أبي سفيان، وقالوا : إن محمد ﷺ قد قضى على قومنا، والآن حان وقت الانتقام، ونريد أن ينفق ربح مال التجارة والذي هو محفوظ حتى الآن في هذه المهمة. وقد وافق على هذا الطلب بمجرد تقديمه. وكانت قريش قد تعرفت الآن على قوة المسلمين، لذا أدركوا أنه لابد الآن من سلاح وعدة حرب أكثر مما كانوا يتمتعون به في بدر، وكان الشعر هو أكبر قوة مُحفزة على إثارة الحمية وإشعال الحماس لدى العرب. كان في قريش شاعران مشهوران، أحدهما عمرو الجمحي والآخر مسافع، ووقع عمرو الجمحي أسيراً في غزوة بدر، ولكن الرسول ﷺ أشفق عليه وأطلق سراحه. خرج الشاعران بطلب من قريش من مكة وأشعلا نار الحماس والحمية بين قبائل قريش كلها بشعرهما المؤثر.

كانت النساء وسيلة كبيرة لإثارة الحماس والصمود في الحروب، وأي حرب كانت فيها النساء، حارب فيها العرب بكل فداء وتضحية خوفاً من انتهاك حرمات هذه النساء إذا حلت بهم الهزيمة. وكانت هناك نساء كثيرات قتل أولادهن في غزوة بدر، لذا كن يرغبن

---

[1] اسم جبل على مسافة ميل ونصف أو ميلين تقريباً شمال المدينة المنورة.

[2] ورد في صحيح البخاري في باب غزوة أحد أن هذه الآية نزلت في غزوة أحد.

رغبة شديدة في الانتقام، ونذرن أنهن سيشربن من دماء قاتلي أولادهن. وخلاصة القول هو أنه حين استعد جيش قريش، صحبته نساء كثيرات من أسر عريقة وهذه أسماء بعضهن[1] :-

١- هند: ابنة عتبة وأم الأمير معاوية ﷺ.

٢- أم حكيم: زوجة عكرمة (ابن أبي جهل).

٣- فاطمة بنت الوليد: أخت خالد بن الوليد ﷺ.

٤- برزة: ابنة مسعود الثقفي والذي كان سيد الطائف.

٥- ريطة: زوجة عمرو بن العاص ﷺ.

٦- خناس: أم مسعد بن عمير ﷺ.

كان حمزة ﷺ قد قتل عتبة أبو هند في غزوة بدر، كما قتل عم جبير بن مطعم على يد حمزة ﷺ أيضاً، لذا حرضت هند وحشي ـ عبد حبشي، وكان ماهراً في رمي الحربة ـ على قتل حمزة ﷺ، وعاهدته على أنه سيصبح حراً إذا قام بهذه المهمة.

كان العباس ﷺ عم الرسول ﷺ قد اعتنق الإسلام، ولكنه كان مقيماً في مكة حتى ذلك الوقت، لذا أرسل رسولاً سريعاً إلى النبي ﷺ ليخبره عن استعدادات قريش، وأكد على هذا الرسول أن يصل المدينة المنورة في مدة لا تزيد عن ثلاثة أيام ولياليهن.

حين وصلت هذه الأنباء إلى النبي ﷺ ، أرسل أنس ومؤنس للاستطلاع في الخامس من شوال سنة ٢ هـ، فأطلعاه ﷺ على أن جيش قريش اقترب من المدينة، وأكلت خيولهم مراعي المدينة (العريض)، فأرسل النبي ﷺ الحباب بن المنذر ليستعلم عن عدد الجيش، فذهب وعاد وأخبر بالعدد الصحيح، وعين حراسًا حول المدينة كلها تخوفاً من هجوم قريش عليها، وكان سعد بن عبادة وسعد بن معاذ رضي الله عنهما واقفين حراسًا مسلحين على باب المسجد النبوي طوال الليل.

تشاور النبي ﷺ في الصباح مع الصحابة رضوان الله عليهم، وأشار المهاجرون عموماً وسادة الأنصار بإرسال النساء إلى القلاع خارج المدينة، ويبقون هم في المدينة

---

[1] الطبري، ج٣، صـ١٣٨٥، ذكر الزرقاني في ج ٤، صـ٣٠ أسماء سلافة بنت سعد وعميرة بنت علقمة إضافة لهذه النساء الستة. وقد أسلمت هذه النساء جميعهن فيما بعد، سوى خناس وعميرة . وليس هناك أي شيء عن إسلام خناس وعميرة. (الزرقاني على المواهب. سيد سليمان الندوي).

ليواجهوا قريش. كما أشار عبدالله بن أبي بن سلول[١]- والذي لم يكن قد أستشير قبل ذلك حتى الآن- بهذا الرأي أيضاً، ولكن الصحابة الجدد[٢] الذين لم يشاركوا في بدر، أصروا على ضرورة الخروج من المدينة والهجوم على قريش. ذهب النبي ﷺ إلى بيته ولبس درعه وجاء، فندم المسلمون وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ على الخروج، وقال جميعهم: يا رسول الله ما كان لنا أن نخالفك. فقال ﷺ:إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيَ إذا لَبِسَ لأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقاتِلَ.[٣]

وصلت قريش قرب المدينة في يوم الأربعاء، ونزلوا على جبل أحد. صلى النبيﷺ صلاة الجمعة وخرج من المدينة مع ألف من الصحابة. وكان عبد الله بن أبى مع ثلاثمائة من أتباعه، ولكنه رجع إلى المدينة بحجة أن محمد ﷺ لم يقتنع برأيه. فبقى سبعمائة صحابي فقط مع الرسول ﷺ، من بينهم مائة دارع. وبعد الخروج من المدينة استعرض الرسول ﷺ الجيش ورد صغار السن، وكان من بينهم زيد بن ثابت، والبراء بن عازب، وأبو سعيد الخدري، وعبد الله بن عمر، وعرابة الأوسى، وكان هؤلاء لديهم حب ورغبة التضحية والفداء، فحين قيل لرافع بن خديج ارجع لأنك صغير في العمر، وقف على أطراف أصابعه حتى يبدو طويلاً؛ لذا ضم للجيش.[٤] وكان سمرة شاب في سن رافع، لذا قدم دليلاً هو الآخر على حقه في المشاركة فقال: أنا أقوى من رافع، أنا

---

(١) الطبري، ج ٣، صـ١٣٨٩ ، مطبعة أوربا (سيد سليمان الندوي).

(٢) الزرقاني، ج٢، صـ٢٥ (سيد سليمان الندوي).

(٣) وهذا نص الحديث كما ورد في مسند الإمام أحمد"(١٤٤٩٤) حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا عبد الصمد و عفان قالا: حدثنا حماد قال عفان في حديثه: أنا أبو الزبير وقال عبد الصمد في حديثه: حدثنا أبوالزبير عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «رَأَيْتُ كَأَنِّي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ، وَرَأَيْتُ بَقَراً مُنَحَّرَةً، فَأَوَّلْتُ أَنَّ الدِّرْعَ الحَصِينَةَ المدينةُ، وَأَنَّ البَقَرَ هُوَ واللهِ خَيْرٌ» قال: فقال لأصحابه: «لو أنّا أَقَمْنا بالمدينةِ فإنْ دَخَلُوا عَلَيْنا فِيها قَاتَلْنَاهُمْ» فقالوا: يا رسول الله ما دخل علينا فيها في الجاهلية، فكيف يدخل علينا فيها في الإسلام؟ قال عفان في حديثه فقال: «شأنَكُمْ إذاً» قال: فلبس لأمته قال: فقالت الأنصار: رددنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيه، فجاءوا فقالوا: يا نبيّ الله شأنك إذاً فقال: «إنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيَ إذا لَبِسَ لأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقاتِلَ»(المترجم).

(٤) الطبري، ج٢، صـ ١٣٩١ (هذه رواية الطبري، ولكن يتضح من بعض الروايات الأخرى أن السبب في إعطاء الأذن لرافع ﷺ هو أنه كان بارعاً في الرماية مع صغر سنه، وحين علم الرسول ﷺ بهذا أذن بانضمامه للجيش. ابن هشام ذكر غزوة أحد، والزرقاني ج٢، صـ ٢٩، والهداية لابن كثير، ج ٤، صـ١٥).

أصرعه؛ لذا يجب انضمامي إلى الجيش مثله تماماً، وتصارعا وأوقع سمرةُ رافعَ على الأرض، لذا أذن له بالقتال.

صف النبي ﷺ جيشه متخذاً جبل أحد ظهرًا له، وأنعم على مصعب بن عمير ﷺ باللواء، وعين الزبير بن العوامﷺ قائد كتيبة الفرسان، وعين حمزة ﷺ على المجاهدين غير الدارعين.[1] وكان هناك احتمال هجوم الأعداء من الخلف، لذا عينت فصيلة من الرماة قوامها خمسون مقاتلاً، وأعطيت قيادتها لعبد الله بن جبير وأمرهم الرسول بالوقوف على الجبل دائمًا، وإن تم النصر للمسلمين فلا يتركوه.

حصلت قريش على خبرة في بدر، لذا صُفت جنودهم بعناية بالغة، فكان خالد بن الوليد على الميمنة، وعكرمة بن أبي جهل على الميسرة، وكانت هناك فصيلة من الرماة يقودها عبدالله بن ربيعة، وكان طلحة حامل اللواء. وكان من الفرسان مائتا فرس جنبوها طوال الطريق حتى يستفاد منها جيداً وقت الحاجة.

وفي البداية وبدلاً من قرع طبول الحرب، تقدمت نساء قريش يضربن على الدف وينشدن شعرًا يحث على الانتقام لقتلى بدر والحزن عليهم، وكانت هند (زوجة أبي سفيان) تتقدم الجميع ومعها أربعة عشر امرأة ينشدن الأشعار:

نحن بنات طارق نمشي على النمارق

إن تقبلوا نعانق أو تُدبـــروا نفارق

بدأت الحرب بأن جاء أبو عامر في الميدان - والذي كان من مشاهير المدينة المنورة، وتركها وعاش في مكة - مع مئة وخمسين مقاتلاً، وكان قبل الإسلام ينعم باحترام ومكانة بالغة بين أهل المدينة جميعاً بسبب زهده ورهبانيته، لذا كان يعتقد أن الأنصار حين يرونه يتركون النبي ﷺ، فجاء في الميدان وصاح قائلاً: "أتعرفونني؟ أنا أبو عامر"، قال الأنصار: "نعم يا فاسق! نعرفك لا أنعم الله بك عيناً".

خرج طلحة حامل لواء قريش من الصف وصاح: "أيها المسلمون! أفيكم أحد يدخلني جهنم بسرعة أو أدخله أنا الجنة بيدي"،[2] فخرج على من الصف وقال: "أنا" ثم

---

(1) المرجع السابق، صـ ١٣٩٤.

(2) يستهزأ علي أن المسلمين يعتقدون بأن الشهيد يدخل الجنة. وكذلك يستهزأ بأن المسلمين يعتقدون بالجنة والنار.

أطاح بسيفه فوقع طلحة جثة على الأرض، فحمل اللواء أخوه عثمان وتقدم للقتال وخلفه النساء ينشدن وهو يقول:

إن على أهل اللواء حقًا   أن تخضب الصعدة أو تندقا

فحمل عليه حمزة ﷺ فضربه بسيفه على عاتقه ضربة بترت يده مع كتفه وهو يقول: "أنا ابن ساقي الحجاج".

بدأت المعركة، وأقتحم حمزة وعلي وأبو دجانة رضي الله عنهم قلب جيش المشركين وشتتوا الصفوف، وكان أبو دجانة ﷺ بطل عربي مشهور وأخذ النبي ﷺ بيده الكريمة سيفًا وقال: "مَنْ يَأْخُذُ مِني هَذَا السَيْفَ بِحَقِّه؟" فقام إليه رجال ليأخذوه، ولكن هذا الفخر والشرف كان من نصيب أبي دجانة، وكان لهذا أثره القوي في شجاعته وقتاله، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل حتى الموت. فلما أخذ السيف عصب رأسه بتلك العصابة، وجعل يتبختر بين الصفين، وحينئذ قال رسول الله: "إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن"، وظل أبو دجانة يقاتل الأعداء ويسقط جثثهم على الأرض حتى جاءت أمامه هند، فحمل عليها بالسيف، فأكرم سيف رسول الله ﷺ أن يضرب به امرأة.

كان وحشي؛ العبد الحبشي، يرقب حمزة ﷺ ويرصده، إذ كان سيده جبير بن مطعم قد وعده من قبل بأنه إذا قتل حمزة فسوف يحرره.[1] فحين جاء أمامه فرماه بحربة صغيرة فوقعت في سرته حتى خرجت من جسمه فأراد حمزة الهجوم عليه ولكنه أهتز ووقع على الأرض شهيدًا.[2]

إن حملة لواء الكفار كانوا يحاربون حتى يقتلون، ولكن لم يسقط اللواء؛ فقبل سقوط الواحد كان يأتي فدائي آخر ويحمل اللواء بين يديه. وكان هناك رجل يدعى صواب حمل اللواء بقوة، فهجم عليه أحد المسلمين وضربه بسيفه ضربه قوية قطعت يداه معًا، ولكنه لم يستطع أن يرى بعينه لوائه الوطني على الأرض، فحمله بصدره وهو يسقط على الأرض وهو يقول: لقد أديت واجبي[3]. وظل اللواء مطروحاً على التراب لفترة حتى

---

(1) صحيح البخاري، باب قتل حمزة، صـ ٥٨٣.

(2) صحيح البخاري، باب قتل حمزة، صـ ٥٨٣. (يقول وحشي: كمنت لحمزة تحت صخرة فلما دنا مني رميته بحربتي، فأضعها في ثُنته حتى خرجت من بين وركيه)(البخاري، ج٣، ص٣٤)(المترجم).

(3) ابن هشام والطبري ج ٣ صـ ٥٨٣ "سيد سليمان الندوي".

جاءت امرأة شجاعة (عمرة بنت علقمة) وأمسكت باللواء ورفعته، فتجمع جيش قريش من كل جانب وثبت أقدامه. وكان أبو عامر يقاتل مع الكفار، وكان ابنه حنظلة قد اعتنق الإسلام، فاستأذن من الرسول أن يقاتل أباه؛ ولكن النبي ﷺ لم يرض أن يحمل الابن بسيفه على أبيه، فهجم حنظلة على قائد الكفار (أبو سفيان) وكاد يقضي عليه بسيفه، وفجأة جاءه شداد بن الأسود من جانب ومنحه الشهادة. وكانت كفة المسلمين راجحة، واهتزت أقدام جيش المشركين بسبب قتل حملة اللواء وبقتال علي وأبي دجانة الشديد، وتقهقرت النساء الشجيعات إلى الخلف دون وعي؛ تلك النساء اللاتي كن ينشدن شعراً يثير حماس جيش الكفار، واتضحت المقدمة تماماً أمام المسلمين، ولكن مع هذا بدأ المسلمون يجمعون الغنائم، وقلدهم الرماة أيضاً في هذا بعد أن تركوا أماكنهم.

حاول عبد الله بن جبير ﷺ منعهم، لكنهم لم يمتنعوا.[1] وحين رأى خالد بن الوليد مكان الرماة خالياً، هجم على المسلمين من الخلف، وثبت عبد الله بن جبير مع مجاهدين آخرين وقاتلوه، لكنهم استشهدوا جميعاً وأصبح الطريق الآن ممهداً أمام الأعداء، فهجم خالد مع فصيلة من الفرسان بكل ضراوة، وكان المسلمون منهمكين في جمع الغنائم، وفجأة أدركوا أن السيوف كالمطر على رؤوسهم، والتحم الجيشان التحاماً جعل المسلم يضرب أخاه المسلم، وجاء ابن قمئة وأهدى الشهادة لمصعب بن عمير ﷺ والذي كان يشبه الرسول ﷺ في الشكل وحامل اللواء، فأذيع أن النبي ﷺ قد أستشهد، فطار صواب المسلمين، وانهارت الروح المعنوية، واختلطت الصفوف المتقدمة بالمتأخرة، ولم يعد يفرق بين العدو والأخ. وفي أثناء هذا جاء والد حذيفة (اليمان) وانهالت عليه السيوف، وأخذ حذيفة يصيح إنه أبي، ولكن من يسمع، فوقع شهيداً وقال حذيفة ﷺ: أيها المسلمون يغفر الله لكم.[2] وحين نظر الرسول ﷺ حوله فلم يجد معه سوى أحد عشر مسلماً، من بينهم علي وأبو بكر وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام وأبو دجانة وطلحة. وفي صحيح البخاري رواية تقول: إنه لم يبق مع النبي ﷺ سوى طلحة وسعد رضي الله عنهما.

وفي وسط هذا الاضطراب والفوضى انهارت همة الكثيرين، ولكن كانت هناك طائفة من المجاهدين لم تثبط عزيمتهم فصمدوا في أماكنهم. ولم يكن أحد يعرف أي شيء

---

(1) صحيح البخاري، غزوة أحد، صـ٥٧٩. (قال عبد الله: عهد إليَّ النبي ﷺ أن لا تبرحوا فأبوا.)(البخاري، ج٣، ص٢٨.) (المترجم).

(2) المرجع السابق، صـ٥٨١.

عن النبي ﷺ ، فتقدم علي ﷺ صائحاً بسيفه يقلب صفوف الأعداء، لكنه لم يجد أي أثـر للنبي ﷺ وظل عم أنس ﷺ ابن النضر يقاتل حتى خرج من الميـدان تمامـاً، فوجـد أن عمر ﷺ يئس والقي بسلاحه فسأله: ماذا تفعل هنا؟ فقال عمر: ما فائدة الحرب الآن وقـد أستشهد النبي ﷺ. فقال النضر: ماذا نفعل بحياتنا بعده. قال هذا ثم أقتحم جـيش الأعـداء وظل يقاتل حتى استشهد، وحين شوهدت جثته بعد الحرب، وُجد أنها أكثر جثة أصـيبت بسهام وسيوف ورماح، لدرجة أنه لم يتعرف عليها أي شخص، ولكن أخته رأت الخـاتم فعرفته.[1]

ظلت الفئة المقاتلة تحارب بنضال، وتبحث بأنظارها عن النبي ﷺ حتـى رآه أول من رآه كعب بن مالك ﷺ، وكان على وجهه ﷺ مغفرا لا يبدو منه سوى عيناه، وحـين تعرف عليه كعب صاح: "أيها المسلمون! هذا هو رسول الله"، فانهال عليـه المسـلمون جميعًا، وهنا ترك الكفار القتال في أي جانب آخر، وركزوا حملتهم على النبي وطمعـوا في القضاء عليه. وذات مرة حدث هجوم على النبي ﷺ فقال ﷺ: من يردهم عنـا؟ فتقـدم زياد بن السكن مع خمسة من الأنصار فظلوا يحاربون حتى استشهدوا واحد تلو الأخر.[2] وأمر النبي ﷺ بإحضار جثة زياد إليه، فأدناها الناس منه فوسده قدمه، فمات وخده علـى قدم رسول الله.[3]

---

[1] هذه رواية عامة أرباب السير، ووردت هذه الواقعة في صحيح البخاري؛ ولكن دون ذكر اسم عمر ﷺ.

[2] صحيح البخاري، غزوة أحد، صـ ٥٧٩، وصحيح مسلم، ج ٢، صـ ١٣٨. " سيد سليمان الندوي ". وهذا نص الحديث: (٤٥٩٦) وحدثنا هَدَّابُ بْنُ خَالِدٍ الأَزْدِيُّ : حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ وَ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللّهِ أُفْرِدَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي سَبْعَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ وَرَجُلَيْنِ مِـنْ قُرَيْشٍ. فَلَمَّا رَهِقُوهُ قَالَ: «مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ، أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّـةِ؟» فَتَقَـدَّمَ رَجُـلٌ، مِـنَ الأَنْصَارِ، فَقَاتَلَ حَتَّىٰ قُتِلَ، ثُمَّ رَهِقُوهُ أَيْضاً. فَقَالَ: «مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ، أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ؟» فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ، مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَاتَلَ حَتَّىٰ قُتِلَ، فَلَمْ يَزَلْ كَذٰلِكَ حَتَّىٰ قُتِلَ السَّبْعَةُ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ لِصَاحِبَيْهِ: «مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا». (المترجم).

[3] ورد في صحيح مسلم في الحديث عن غزوة بدر، أن هؤلاء المناضلين كانوا سبعة مـن الأنصـار وناضل سبعتهم حتى ماتوا جميعًا.

وفي أثناء هذا كان هناك مسلم يأكل التمر دون مبالاة، فتقدم وسأل: أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ فقال النبي: في الجنة. ففرح بهذه البشرى وهجم على الكفار حتى استشهد.[١]

وجاء فارس قرشي عنيد؛ وهو عبد الله بن قمئة، وشق الصفوف ودنا من النبي فضرب بسيفه على وجه النبي ﷺ وتسبب هذا في أن دخلت حلقتان من حلق المغفر وجنته، وكانت السيوف، والسهام تمطر من كل جانب، فأحاط المسلمون بالنبي ﷺ ، فاتخذ أبو دجانة من نفسه ترسًا للنبي ﷺ، فكان يتلقى السهام التي كانت تنهمر على النبي ﷺ بظهره، ومنع طلحة السيوف بيديه فانقطعت إحدى يديه وسقطت على الأرض، وظلت السهام تنهمر على النبي ﷺ والنبي ﷺ يقول:

" رب[٢] اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون "

كان أبو طلحة ﷺ أخ من الأب لأنس ﷺ، وكان مشهورًا بمهارته في فن الرماية، وظل يرمي وابلا من السهام حتى تحطمت ثلاثة أقواس في يديه وجعل نفسه ترسًا للنبي ﷺ حتى لا يصاب ﷺ بأي شئ مما يرميه الكفار. وكلما كان النبي ﷺ يرفع عنقه ناحية جيش الأعداء، كان يقول: بأبي أنت وأمي لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك.[٣] وكان سعد بن أبي وقاص مشهورًا بمهارته في الرماية هو أيضًا، وكان في هذا الوقت موجودًا في ركب النبي ﷺ فقد نثل له رسول الله ﷺ كنانته وقال: "ارم فداك أبي وأمي".[٤]

وفي هذا الحال قال النبي ﷺ: "لن يفلح قوم أدموا وجه نبيهم"، فلم يرض الله سبحانه وتعالى بهذا القول ونزلت هذه الآية الكريمة:(لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ)(آل عمران: من الآية١٢٨)

وقد وردت هذه الواقعة في غزوة أحد في صحيح البخاري وهي:

---

[١] البخاري، غزوة أحد، صـ ٥٧٩، " سيد سليمان الندوي ".وهذا نص الحديث: (٣٩٥٨) حدَّثنا عبدُاللَّه بن محمدٍ حدَّثنا سفيانُ عن عمروٍ سمعَ جابرَ بن عبد اللَّهِ رضيَ اللَّهُ عنهما قال: «قال رجلٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم يومَ أُحد: «أرأيتَ إن قُتِلْتُ فأينَ أنا؟ قال: في الجنة . فألقى تمراتٍ في يدهِ، ثمَّ قاتلَ حتى قُتِل».(المترجم).

[٢] صحيح مسلم، غزوة أحد، ج ٢، صـ ٩٠.

[٣] صحيح البخاري، غزوة أحد، صـ ٥٨١.

[٤] المرجع السابق، صـ ٥٨٠.

أن النبي ﷺ صعد على قمة الجبل وهو ثابت الأقدام، ولم يكن الأعداء يستطيعون الوصول إليه وهو في ذلك المكان، وحين رآه أبو سفيان أخذ جنده وصعد الجبل، ولكن عمر وبعض الصحابة رضوان الله عليهم رموهم بالحجارة، ومنعوهم من التقدم.(١)

وحين وصل نبأ وفاة النبي ﷺ المدينة، جاء المؤمنون عَدْوًا، فجاءت فاطمة الزهراء رضي الله عنها، ورأت أن الدم مازال يسيل من وجهه المبارك ﷺ، وعلي ﷺ يسكب الماء، فأخذت السيدة فاطمة رضي الله عنها تغسل الدم، فلما رأت أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير، فأحرقتها وألصقتها، فاستمسك الدم.(٢)

أشرف أبو سفيان على الجبل فنادى: أفيكم محمد؟ فأمر النبي ﷺ بألا يجيبه أي أحد. فقال: أفيكم أبو بكر أو عمر؟ وحين لم يجاب بأي إجابة، نادى وقال: ماتوا جميعًا. فلم يملك عمر نفسه أن قال: "إن الذين ذكرتهم أحياء".

قال أبو سفيان: **أعل هبل.**(٣)

فقال الصحابة بأمر من الرسول ﷺ: **الله أعلى وأجل.**

قال أبو سفيان: **لنا العزى ولا عزى(٤) لكم.**

قال الصحابة: **الله مولانا ولا مولى لكم.**

قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال، وتجدون مُثلة لم أمر بها، ولم تسؤني.(٥)

كان النبي ﷺ قد أرسل ذوات الحجر والأطفال في حماية اليمان وثابت رضي الله عنهما إلى القلاع بجوار المدينة، وحين علم هؤلاء الناس بنبإ الهزيمة، تركوا كل شئ وتقدموا نحو أحد، وقتل ثابت ﷺ بأيد المشركين، ولم يتعرف أحد من المسلمين على اليمان ﷺ أثناء الهجوم، لذا نزلت عليه السيوف كالمطر، وصاح ابنه حذيفة: إنه أبي، ولكن من يسمع في مثل هذا الموقف ثم قال حذيفة: " أيها المسلمون، ليغفر الله لكم". وأراد

---

(١) الطبري، صـ ١٤١١، ١٤١٠.

(٢) صحيح البخاري، غزوة أحد، ج ٢، صـ ٥١٤.

(٣) اسم لصنم.

(٤) العزى اسم لصنم ويعني في اللغة العزة والكرامة.

(٥) ورد هذا تفصيلاً في الحديث عن غزوة أحد في صحيح البخاري.

النبي أن يؤدي المسلمون دية قتل اليمان؛ ولكن حذيفة عفا عنهم". وردت هذه الواقعة تفصيلاً في كتاب سيرة ابن هشام، كما وردت أيضاً في صحيح البخاري ولكن بإيجاز.

وانتقمت نساء قريش من جثث المسلمين ثأرًا لما حدث في بدر، فأخذوا يقطعون الأذن والأنوف ومنها صنعت هند (أم الأمير معاوية) عقدًا ووضعته في عنقها، كما بقرت بطن حمزة واستخرجت كبده فلاكتها. وحين لم تستطع أن تسيغها، لفظتها. وعليه، لقبت هند في كتب التاريخ بلقب آكلة الأكباد. ثم أسلمت (هند) في فتح مكة. وسوف نتحدث تفصيلاً فيما بعد عن كيف اعتنقت هند الإسلام، الأمر الذي فيه عبرة وعظة.

شارك كثير من نساء المسلمين في هذه الغزوة، فكانت السيدة عائشة وأم سليم وأم أنس رضي الله عنهن جميعا يسقين الماء للجرحى. ورد في صحيح البخاري أن أنس ﷺ قال: لقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما، تنقزان القرب على متونهما، تفرغانه في أفواه القوم ثم ترجعان فتملأنهما.[١] وفي رواية أخرى ورد أن أم سليط – أم أبي سعيد الخدري – قامت أيضا بهذا العمل.[٢]

وفي الوقت الذي هجم فيه الكفار هجومًا ضاريًا علي المسلمين وكان مع النبي ﷺ بعض الصحابة فقط، وصلت أم عمارة رضي الله عنها إلى النبي ﷺ وقاتلت، وكانت تدافع عن الرسول ﷺ بالسيف والسهام حين كان الكفار يحملون عليه ﷺ. وحين وصل ابن قمئة إلى النبي ﷺ ، تصدت له أم عمارة وأوقفته؛ لذا ضربها على عاتقها ضربة تركت جرحًا أجوفًا، وضربت هي ابن قمئة عدة ضربات بسيفها، لكن كانت عليه درعان فنجا.[٣]

حين علمت السيدة صفية رضي الله عنها (أخت حمزة) بنبإ الهزيمة، خرجت من المدينة تريد أن تنظر أخاها، فأمر رسول الله ﷺ أبنها الزبير أن يصرفها حتى لا ترى ما بأخيها، فأخبرها الزبير بأمر النبي ﷺ فقالت: ولم؟ وقد بلغني أنه قد مُثّل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، فأذن لها النبي ﷺ، فأتته، فنظرت إليه وقالت: **إنا لله وإنا إليه راجعون** واستغفرت له.[٤]

---

[١] كتاب المغازي، غزوة أحد، ٥٠١.

[٢] صحيح البخاري، ذكر أم سليط صـ ٥٨٢. (قال عمر بن الخطاب: "فإنها كانت تزفر لنا القرب يوم أحد."(البخاري، ج٣، ص٣٤). (المترجم).

[٣] ابن هشام، صـ ٨٤، (صـ ٧٨، طبعة محمد علي مصر).

[٤] تاريخ الطبري، صـ ١٤٢١.

وقد استشهد لامرأة من الأنصار أبوها وأخوها وزوجها في هذه الغزوة، وكانت كلما يصلها خبر هذه المصائب واحدًا تلو الأخر، كانت في كل مرة تسأل فقط: ما حال رسول الله؟ قالوا لها: إنه بخير. قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير إليها، حتى إذا رأته قالت[1]: **كل مصيبة بعدك جلل.**

فداك أنا والأب والزوج والأخ فما نحن بدونك يا رسول الله.

استشهد من المسلمين سبعون رجلاً، كان أغلبهم من الأنصار، ووصل الإفلاس مداه مع المسلمين لدرجة أنه لم يكن لديهم قماش كاف لستر الشهداء. استشهد مصعب بن عمير الصحابي الجليل وكفن ببردة إن غُطيت رأسه بدت رجلاه، وإن غُطيت رجلاه بدا رأسه، وفي النهاية غطت رأسه وغطت رجلاه بالأذخر. فكان هذا المشهد العجيب يجعل المسلمين يذرفون الدمع حين كانوا يتذكرونه فيما بعد. ودفن الشهداء بدون غسل وهم غرقى في الدم كل اثنين في قبر واحد، وكان يقدم مَنْ كان يحفظ أكثر من القرآن الكريم، ولم تصلِّ الجنازة على هؤلاء الشهداء.[2] وبعد ثمان سنوات، وقبل وفاته ﷺ بسنة أو سنتين، مر النبي من هذا المكان وتأثر بشدة وتحدث بكلمات ملأها الحزن والألم، وكأن أي شخص يستأذن من الأحياء والأموات، ثم خطب النبي ﷺ: "... **وإني واللّهِ ما أخافُ عليكم أن تُشرِكوا بعدي، ولكني أخافُ عليكم أن تَنافَسوا فيها.** "[3]

---

(1) الطبري، صـ ١٤٢٥.

(2) هذا هو ما جاء في صحيح البخاري؛ ولكن توجد بعض الروايات في غيره من الكتب تثبت أن النبي ﷺ صلى صلاة الجنازة على حمزة خاصة وعلى الشهداء عامة. وكان هؤلاء الشهداء يُحضرون واحدًا واحدًا، وعشرًا عشرًا، فيصلي عليهم النبي ﷺ صلاة الجنازة. وكان يصلي على حمزة مع كل جماعة؛ أي أنه صلى عليه سبعين مرة أو سبع مرات. شرح معاني الآثار للطحاوي، باب الصلاة على الشهداء، ونصب الراية للزيلعي، باب أحاديث الصلاة على الشهيد، والمغازي للواقدي، صـ ٣٠٠ طبعة كلكته (سيد سليمان الندوي).وود حديث فى البخاري يفيد أنه لم يصل على شهداء أحد ولم يغسلوا . وهذا نصه: (١٣٢٣) حدَّثنا ابنُ مُقاتِلٍ أخبرنَا عبدُ الله أخبرنَا اللَّيثُ بن سَعدٍ حدَّثني ابنُ شهابٍ عن عبدِ الرحمنِ بن كعبِ بن مالكٍ عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهما «أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم كان يَجمعُ بين الرجُلينِ من قَتلى أُحُدٍ في ثوبٍ واحدٍ، ثمَّ يَقول: أيُّهم أكثَرُ أخْذاً للقرآنِ؟ فإذا أُشيرَ لهُ إلى أحدهما قدَّمَهُ في اللَّحدِ وقال: أنا شهيدٌ على هؤلاء. وأمَرَ بدفنِهم بدمائهم، ولم يُصلِّ عليهم، ولم يُغَسِّلْهم». (المترجم).

(3) وردت هذه الأحداث كلها في صحيح البخاري في أبواب متفرقة عن غزوة أحد.وهذا نص الحديث كاملا كما ورد فى صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب أحد يحبنا ونحبه: (٣٩٩٦) حدّثني عمرُو بن

حين أنسحب الفريقان من الميدان، كان المسلمون مكبلين بالجروح، ولكنهم كانوا متخوفين من أن يعتقد أبو سفيان أن المسلمين منغلبون ويحمل عليهم ثانية، لذا قال النبي ﷺ للمسلمين: من يذهب في إثرهم؟ وعلى الفور استعدت طائفة من سبعين رجلاً لهذه المهمة، وكان أبو بكر والزبير رضي الله عنهما من أعضاء هذه المهمة.(١)

حين ترك أبو سفيان أحد ووصل إلى روحاء. اعتقد أن المهمة لم تكتمل تماماً، وكان النبي ﷺ قد اعتقد هذا من قبل، فأمر ﷺ في اليوم الثاني ألا يعود أي أحد، لذا ذهب إلى حمراء الأسد على مسافة ثمانية أميال من المدينة، وكانت قبيلة خزاعة حتى ذلك الوقت لم تدخل في الإسلام، ولكنها كانت مؤيدة للمسلمين سرًا، وحين علم زعيمها معبد الخزاعي بهزيمة المسلمين هذه، جاء إلى النبي ﷺ ثم رجع والتقى بأبي سفيان، فسأله أبو سفيان عن سبب مجيئه، فقال معبد: إني قد رأيت أن محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لا يمكن مواجهته، فرحل أبو سفيان.(٢)

هذه هي الواقعة التي جعلها المؤرخون غزوة جديدة؛ شوقًا في تكثير الغزوات، وأوجدوا عنوانًا جديدًا وهو غزوة حمراء الأسد.

حين رجع النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، كانت مأتمًا، فكلما كان يمشي كانت تأتيه أصوات البكاء من البيوت. فرأى أن كل الأقارب والأهل يبكون شهدائهم سوى حمزة ليس له من باك فقال ﷺ: **أمّا حمزة فلا بواكي له**

سمع الأنصار هذا فانزعجوا وأرسلوا زوجاتهم إلى منزله ﷺ يبكون حمزة، فرأى النبي ﷺ ذوات حجز الأنصار مزدحمين على بابه يبكون حمزة، فدعا لهم النبي بالخير وشكر لهم سعيهن، وأخبرهن أن النواح على الموتى غير جائز (كان في عرف العرب أن تنوح النساء على الموتى نواحًا شديدًا ويشقون الجيوب ويلطمن الخدود ويصرخن)، وقد

خالدٍ حدَّثَنا الليثُ عن يزيدَ بن أبي حبيبٍ عن أبي الخير عن عُقبةَ: «أنَّ النَبيَّ صلى الله عليه وسلم خرَج يوماً فصلَّى على أهل أحُدٍ صلاتَهُ على الميِّت، ثمَّ انصرَفَ إلى المنبرِ فقال: إني فَرَطٌ لكم، وأنا شهيدٌ عليكم، وإني لأنظرُ إلى حَوضي الآنَ، وإني أُعطيتُ مَفاتيحَ خزائن الأرض ــ أو مَفاتيحَ الأرض ــ وإني واللّهِ ما أخافُ عليكم أن تُشرِكوا بعدي، ولكني أخافُ عليكم أن تَنافَسوا فيها». (المترجم).

(١) صحيح البخاري، صـ ٥٨٤ " سيد سليمان الندوي ". تروى عائشة فتقول: لما أصاب رسول الله ما أصاب يوم أحد وانصرف المشركون، خاف أن يرجعوا، فقال:" من يذهب في إثرهم "فانتدب منهم سبعون رجلاً، قال:" كان فيهم أبو بكر والزبير"(البخاري، ج٣،ص٣٦).(المترجم).

(٢) تاريخ الطبري، صـ ١٤٢٨، ١٤٢٩.

قُضى تماما على هذه العادة السيئة منذ ذلك اليوم وأمر بألا يُنوح على الميت من اليوم.[1]
كما ورد عن النبي ﷺ فيما بعد أن هذا النواح ليس من شأن المسلمين.[2]

(يوجد ذكر مفصل عن غزوة أحد في سورة آل عمران).

أحداث متفرقة في السنة الثالثة من الهجرة

في هذه السنة أي ٣ هـ ولد الإمام الحسن ﷺ في الخامس عشر من شهر رمضان. وفي السنة نفسها أيضًا تزوج النبي ﷺ من السيدة حفصة بنت عمر رضي الله عنها والتي استشهد زوجها في غزوة بدر. وتزوج عثمان ﷺ من السيدة أم كلثوم ابنة الرسول في هذه السنة.

كما نزلت أحكام الميراث في نفس السنة أيضًا، فلم يكن لذوي الأرحام أي إرث في التركة حتى الآن، وورد ذكر مفصل عن حقوقهم. ونزل تحريم زواج المسلم من المشركة في هذه السنة أيضًا، الأمر الذي كان مباحًا حتى ذلك الوقت.

---

[1] مسند الأمام أحمد بن حنبل، ج ٢، صـ ٨٤.

[2] ابن هشام، غزوة أحد، ومسند أحمد، ج ٢، صـ ٨٢، صحيح البخاري، كتاب الجنائز "سيد سليمان الندوي".(عن أم عطية قالت: أخذ علينا النبي ﷺ عند البيعة أن لا ننوح... الحديث)(البخاري، ج١، ص٣٤٨)(المترجم).

السنة الرابعة من الهجرة
سلسلة الغزوات والسرايا[1]

كانت قبائل العرب بأسرها مناهضة للإسلام، سوى قبيلة أو قبيلتين، ويرجع سبب هذا العداء إلى أنه كان لكل قبيلة صنمها الذي تعبده وتتخذ منه دستوراً لحياتها. وكان الإسلام يقضي على هذا كله، أضف إلى هذا أن قريشًا كانت ذات سطوة على العرب جميعاً، وحين كانت تأتي القبائل إلى مكة في موسم الحج كانت قريش تشعل عدائهم ضد الإسلام. وهناك سبب آخر، وهو أن السلب والنهب كان وسيلة الكسب لعامة القبائل، والإسلام يمنع هذا قولاً وفعلاً، لذا كانوا يعتقدون أن انتشار الإسلام يسد باب وسائل كسبهم. وإن كان نصر المسلمين في بدر قد ألقي الرعب في قلوب عامة القبائل، وبالتالي التزمت بالصمت، إلا أن الهزيمة في غزوة أحد غيرت من هذا الوضع، فبدأت القبائل ثانية ترفع من رأسها. والسرايا في السيرة النبوية - والتي توجد بكثرة - حلقة من حلقات هذه السلسلة. وإن كان عامة المؤرخين حسب عادتهم لم يبحثوا في أسباب هذه السرايا، إلا أن ابن سعد في كتابه الطبقات، وأيضًا أئمة الفن كتبوا سبب كل واقعة تقريبًا. وهو أنه إذا أرادت أي قبيلة الهجوم على المدينة أرسل النبي ﷺ الجيوش للدفاع.

سرية أبي سلمة

في غزوة المحرم سنة ٤ هـ حرض طلحة وخويلد قبيلتهما - واللتان كانتا تعيشان في منطقة فيد الجبلية - على الهجوم على المدينة المنورة، وحين علم النبي ﷺ بهذا أرسل أبو سلمة مع مائة وخمسين مقاتلاً من المهاجرين والأنصار إليها. وحين علمت القبيلة بهذا تشتت شملها وتفرقت.[2]

---

[1] يختلف علماء السيرة في الفرق بين الغزوة والسرية، وأغلب الرأي هو أن الواقعة التي اشترك فيها النبي ﷺ تُسمى الغزوة، أما الواقعة التي كانت تحت قيادة الصحابة ولم يشارك فيها النبي ﷺ، تُسمى سرية.

[2] ابن سعد ج ٢، صـ ٣٥، القسم الأول، وهذا هو نص العبارة: **بلغ رسول الله ﷺ أن طلحة ومسلمة حتى خويلد قد سارا في قومهما ومن أطاعها يدعونهم إلى حرب رسول الله ﷺ.**

سرية ابن أنيس

وفي المحرم سنة ٤هـ أراد سفيان بن خالد من قبيلة لحيان ورئيس المنطقة الجبلية عُرنة الهجوم على المدينة، فأرسل النبي ﷺ عبد الله بن أنيس لمواجهته، والذي استطاع بذكائه أن يقتل سفيان.(١)

وفي صفر سنة ٤هـ جاء أبو براء الكلابي(٢)رئيس قبيلة كلاب إلى النبي ﷺ وطلب منه أن يرسل بعض المسلمين لدعوة قبيلته إلى الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: إني أخاف عليهم أهل نجد.(٣) فقال أبو براء: أنا جار لهم. فوافق النبي ﷺ وبعث معه سبعين أنصاريًا، وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وأغلبهم كان من أصحاب الصفة، فساروا يحتطبون بالنهار ويبتاعونه في المساء ويشترون ببعضه طعامًا لأهل الصفة ويحتفظون بالباقي لأنفسهم.

بئر معونة

نزل هؤلاء الصحابة بئر معونة ثم بعثوا حرام بن ملحان ﷺ بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل (بن مالك بن جعفر الكلابي العامري) زعيم القبيلة، فقتل عامرُ حراما، واستنفر ما حوله من قبائل للقتال فأجابته عصية ورعل وذكوان، فجُهز جيش كبير وتقدم بقيادة عامر، وكان الصحابة ينتظرون رجوع حرام وحين تأخر رجعوا. وواجههم جيش عامر في الطريق وأحاط بهم الكفار وقتلوهم جميعًا.(٤)وترك عامر عمرو بن أمية

---

(١) طبقات ابن سعد، صـ٣٦ وهذا هو نص العبارة: "**وذلك أنه بلغ رسول الله ﷺ أن سفيان بن خالد الهذلي قد جمع الجموع لرسول الله ﷺ**".

(٢) هناك اختلاف في هل اعتنق أبو براء الإسلام فيما بعد أم لا ؟ يقول الذهبي: الصحيح هو أنه لم يعتنق الإسلام، وليس في الإصابة أي رواية عن إسلامه، ولكن هناك من يقول اعتمادًا على بعض الروايات أنه اعتنق الإسلام. الزرقاني، ج٢، صـ ٨٦.

(٣) وفي هذا شئ غير صحيح؛ فقد قال عامر بن الطفيل رئيس هذه المنطقة للرسول ﷺ بيننا وبينك ثلاثة أمور وهي: أن تكون أنت مالك البادية وأنا مالك للمدن أو تجعلني خليفة لك وإلا غطفان.

(٤) كان كعب بن زيد أحد هؤلاء الصحابة، واعتقد الكفار أنه استشهد إلا أنه ارتث من بين القتلى فعاش حتى قتل يوم الخندق. الزرقاني، ج٢،صـ٨٨ " سيد سليمان الندوي ".

فقط،[1] وقال: إن أمي كانت قد نذرت أن تعتق عبدًا؛ لذا فأنا أعتقك. وحين علم النبي ﷺ بما حدث للصحابة أصيب بصدمة، وظل يدعو في صلاة الفجر لمدة شهر دعاء سوء على هؤلاء الظالمين، وقتل عمرو بن أمية (في عودته) رجلان من بني عامر (واللذان كان النبي ﷺ قد أعطاهما الأمان، ولكن لم يكن عمرو بن أمية على علم بهذا)، ولم يكن قد أدرك أننا انتقمنا من بني عامر بسبب عدم وفائهم بالعهد الذي عقدوه مع صحابة الرسول ﷺ.[2] (وحين علم النبي ﷺ بهذا) أظهر عدم رضاه بهذا، وانشغل بجمع ديتهما.[3]

واقعة الرجيع

قدم على رسول الله ﷺ قوم من عضل وقارة القبيلتين المشهورتين، وذكروا أن فيهم إسلامًا. وسألوا النبي ﷺ أن يبعث معهم من يعلمهم الدين فبعث معهم عشرة رجال بقيادة عاصم بن ثابت، فذهبوا معهم، فلما كانوا بالرجيع ــ بين عسفان ومكة ــ فغدر القوم بالعهد، واستصرخوا بني لحيان حتى يقضوا على هؤلاء الصحابة، فجاء بنو لحيان في مائتي مقاتل من بينهم مائة رام، واقتصوا آثارهم حتى لحقوا بهم، فتقدم المسلمون ولجؤوا إلى فدفد، فقال لهم الرماة: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً. فأما عاصم فأبى النزول وقال: لا ألجأ إلى كافر ودعا الله تعالى بأن يُعلم رسوله بهذا، وقاتلهم في أصحابه، فأُستشهد سبعة منهم بالنبل (وبعثت قريش إلى عاصم ليؤلتوا بشيء من جسده يعرفونه، فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر فحمته من رسلهم فلم يقدروا منه على شيء) وبقي ثلاثة من المسلمين؛ منهم خبيب وزيد (بن الدثنة)،[4]فأعطاهم الكفار العهد والميثاق مرة أخرى فنزلوا إليهم، ولكنهم غدروا بهم وربطوهم بأوتار قيسهم وباعوا خبيب وزيد بمكة. وكان خبيب قد قتل حارث بن عامر يوم أحد، لذا اشتراه وزيد أولاد

---

(1) كان عمرو بن أمية والمنذر بن محمد عقبة الأنصاري في الخلف، وحين وصلا مكان الحادثة، استشهد المنذر وأُسر عمرو بن أمية وأطلق سراحه فيما بعد. الزرقاني، ج٢، صـ ٨٩ " سيد سليمان الندوي".

(2) البداية والنهاية، ابن كثير، ج ٤، الزرقاني، ج ٢، صـ ٩٣.

(3) من المسلمين واليهود. (المترجم).

(4) لم يرد في البخاري (كتاب المغازي) اسم الصحابي الثالث، وذكر ابن إسحاق أن اسمه عبد الله بن طارق. ويبدو من بعض الروايات أن عبد الله كان قد استشهد في هذا المقام في ذلك الوقت ولكن في روايات أخرى ورد أنه استشهد فيما بعد مغادرته "إيان" في طريق مكة بمنطقة الظهران. الزرقاني، ج ٢، صـ ٧٨.

حارث ليقتلوه ثأرًا لأبيهم[1] وقضى عدة أيام في بيتهم، وذات يوم كان يطعم حفيدة الحارث وصدفة كانت السكين في يده[2]. وجاءت أم الطفلة ورأت السكين في يد خبيب فارتعدت وقال خبيب: أتظنين أنني أقتلها؟ إن هذا ليس من شيمتنا، فأخذه أبناء الحارث خارج حدود الحرم وأرادوا قتله فقال: دعوني حتى أركع ركعتين فتركوه فصلاهما، فلما سلم قال: والله لولا أن تقولوا إن ما بي جزع لزدت، ثم أنشد هذين البيتين[3]

وما أن أبالي حتى أقتل مسلمًا   على أي شق كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشاء   يبارك على أوصال شلو ممزع

ومنذ ذلك الوقت تعارف أنه حين يقتص من أي أحد، يصلي المقتول ركعتين أولاً.[4] (ويعتقد أن هذا مستحب).[5]

واشترى صفوان بن أمية زيدًا ﷺ رغبة في قتله، وجاء سادة قريش لمشاهدة قتله، وقال أبو سفيان:" اصدقني القول، لو أن محمدًا عندنا بدلاً منك الآن. أيسرك أن نقتله؟" قال:" لا والله ما يسرني أني في أهلي وأن محمدًا في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه". وقتله نسطاس[6] عبد صفوان.

---

(1) قتل أبو سروعة بن الحارث خبيب، والذي أسلم فيما بعد ونال شرف صحبة الرسول. الزرقاني ج٢ صـ ٧٨.

(2) ورد في البخاري أنه كان بيده موسى.

(3) ورد هذان البيتان في كتاب الرحيق المختوم بهذه الصيغة:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا   على أي شق كان في الله مضجعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ   يبارك على أوصال شلو ممزعِ

(4) الطبري، صـ ١٤٣٥، وطبقات ابن سعد، اقتبست الأشعار وكثير من الجزيئات المتعلقة بالواقعة من صحيح البخاري، في الحديث عن غزوة الرجيع. كما ورد في البخاري: **هل يستأسر ومن لم يستأسر وصلي ركعتين عند القتل.**

(5) والسبب في استحباب هذه الصلاة هو أنه حين أُطلع الرسول ﷺ بفعل خبيب هذا، أعجب به (شرح السير الكبير للسرخسي، ج ١، صـ ١٥) وبالتالي أعطاها استحسان الرسول هذا درجة المستحب (الروض الأنف، ج ٢، صـ ١٧١). ويُطلق على هذا في اصطلاح المحدثين إقرار الرسول وهو أن أي فعل فُعِل أمام الرسول ﷺ أو في عدم وجوده ﷺ وأطلع به ولم يرفضه ﷺ، يعتبر هذا الفعل مسنون ومستحب. "سيد سليمان الندوي".

(6) أسلم نسطاس فيما بعد. الزرقاني ج٢ صـ٨٤ " سيد سليمان الندوي ".

تزامنت سلسلة هذه الغزوات مع حروب المسلمين واليهود، ولكننا سنكتب عن أحداث ووقائع اليهود بصفة مستقلة فيما بعد؛ ولذا سنضطر إلى الحديث عن سنوات مضت.

أحداث متفرقة في سنة ٤هـ

ولد الإمام الحسين ﷺ في شعبان من هذه السنة.

توفيت أم المؤمنين زينب بنت خزيمة رضي الله عنها في هذه السنة، والتي كان قد تزوجها النبي في هذه السنة أيضًا.

وفي هذه السنة أمر النبي زيد بن ثابت ﷺ بأن يتعلم اللغة العبرية، وأشار ﷺ إلى عدم اطمئنانه ﷺ لليهود. دُون في كتب التاريخ أن زيدًا تعلم العبرية في خمسة عشر يومًا فقط، مما يدل على أن الناس في المدينة كانوا يعرفون كثير من اللغة العبرية.

وفي شوال من السنة نفسها تزوج النبي من أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها.

وفي السنة نفسها قدم اليهود قضية يهودي أمام الرسول ﷺ، وأمر ﷺ برجمه طبقًا للتوراة. (وسنكتب تفصيلاً عن هذه الأحداث فيما بعد).

يرى بعض المؤرخين أن تحريم الخمر نزل في هذه السنة أيضًا، ولكن هناك روايات مختلفة في هذا، وسنكتب عن هذا تفصيلاً في الحديث عن الأحكام الشريعة.

المعاهدات مع اليهود ومحاربتهم
في السنة الثانية والثالثة والرابعة من الهجرة

ذكرنا سابقًا أن اليهود كانوا يحكمون المدينة منذ زمن بعيد، وجاء الأنصار وأقاموا معهم علاقات، ثم قوى شأنهم تدريجيًا وأصبحوا خصمًا لليهود، ولكن حرب بعاث أنهكتهم تمامًا وأصبحوا في وضع لا يمكنهم من دعوى مساواتهم لليهود.

كان اليهود في ثلاثة قبائل؛ وهي قينقاع والنضير وقريظة، وكانت هذه القبائل كلها تعيش في المدينة وما حولها، وكانوا عامة إقطاعين، وأثرياء، وتجار وصناع. وكان يهود بني قينقاع صاغة وكانوا أكثر اليهود شجاعة وقوة، لذا كانوا يكنزون ذخيرة حربية كثيرة، وكان الأنصار عمومًا مدينين؛ بل مثقلين بالدين لهم. وكان لهذه القبيلة نفوذ ديني وعلمي فضلاً عن نفوذهم التجاري والسياسي. أما الأنصار فكانوا عموماً عبدة أصنام وجهلة. وعليه، كانوا ينظرون إلى اليهود بعين الاحترام والعزة، ويعتبرونهم أكثر منهم تمدناً ومعرفة، وكان الأنصاري الذي لا يعيش له ولد ينذر: إن عاش ابني، فسوف أجعله يهودياً. وبهذا وُجد كثير من اليهود الجدد من هذا النوع في المدينة.[1]

ظهرتْ أخلاق سيئة ومذمومة في اليهود بسبب تقادم الزمن وطوله، وكانت هذه بعض خصالهم: نشر معاملاتهم في كل مكان، وإثقال الناس جميعاً بالدين، ولما كانوا هم وحدهم ينعمون بالثروة، لذا كانوا يغالون في الربا بقسوة بالغة، كما كانوا يأخذون الأطفال والنساء كرهن للدين. وطلب كعب بن الأشرف نفسه من أصدقائه الأنصار،[2] كما كانوا يسيطرون على أموال الناس وثرواتهم بمختلف الطرق.

---

(١) أبو داود، كتاب الجهاد، باب الأسير (ج٢، صـ ٩).

(٢) صحيحي البخاري ومسلم، ذكر قتل كعب بن الأشرف. وهذا نص الحديث كما ورد فى البخاري، كتاب المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف: (٣٩٤٩) حدَّثنا عليُّ بن عبدِ اللّه حدّثنا سفيانُ قَالَ عمرٌو سمعتُ جابرَ بن عبدِ اللّه رضيَ اللّه عنهما يقول: «قال رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم: مَن لكعبِ بن الأشرف؟ فإنه قد آذى اللّهَ ورسولَه . فقام محمدُ بن مَسلمةَ فقال: يا رسولَ اللّه، أتحبُّ أن أقتلَه؟ قال: نعم . قال: فأْذنْ لي أن أقولَ شيئاً. قال: قل. فأتاهُ محمدُ بن مَسلمةَ فقال: إنَّ هذا الرجلَ قد سألَنا صدَقةً، وإنه قد عنّانا، وإني قد أتيتُكَ أستَسلِفُك. قال: وأيضاً واللّهِ لتملُّنّه. قال: إنا قد اتبَعْناهُ، فلا نحبُّ

وبسبب شدة الطمع والحرص وصل بهم الحال إلى أنهم كانوا يقتلون الأطفال الأبرياء رمياً بالحجارة من أجل مصاغ يصل قيمته بعض الدراهم،[1] وبسبب الثروة الطائلة، شاع بينهم الزنا والفحشاء. ولما كان الأمراء هم أكثر مرتكبي هذه الجريمة؛ لذا لم يكن يقام عليهم الحد. ذات مرة سأل النبي ﷺ يهوديًا: أنشدك بالله الذي على موسى أ هكذا تجدون حد الزاني فى كتابكم؟ قال: لا؛ بل الرجم، ولكن الزنا شاع بين خاصتنا، ولم يقم الحد على أي شريف، اذا تركنا هذا الحد، وكان يقام على عامة الناس. وفي النهاية تقرر تغيير الحد من الرجم إلى الجلد، حتى يتساوى الشريف والدنيء معاً في هذا الحد.[2]

أن نَدَعَهُ حتىْ ننظرَ إلى أيِّ شيءٍ يصيرُ شأنه، وقد أردنا أن تُسلفَنا وَسقاً أو وَسقَين ــ وحدَّثنا عمرٌو غيرَ مرَّة فلم يذكر «وسقاً أو وَسقَين» أو فقلت له: فيه «وسقاً أو وسقين»؟ فقال: أرى فيه «وسقاً أو وسقين» ــ «فقال: نعم؛ ارهَنوني. قالوا: أيَّ شيءٍ تريد؟ قال: ارهنوني نساءكم. قالوا: كيف نَرهنُكَ نساءَنا وأنتَ أجملُ العرب؟ قال: فارهنوني أبناءكم. قالوا: كيف نرهنُكَ أبناءَنا فيُسَبُّ أحدُهم فيقال: رُهِنَ بوسق أو وسقَين، هذا عارٌ علينا، ولكنّا نرهَنك اللأمةَ. قال سفيانُ: يعني السلاحَ. فواعَدَه أن يأتيَه. فجاءهُ ليلاً ومعه أبو نائلةَ ــ وهو أخو كعب منَ الرضاعة ــ فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ فقال: إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة وقال غير عمرو: قالت أسمعُ صوتاً كأنهُ يَقطُرُ منه الدَّم. قال إنما هو أخي محمدُ بن مَسلمةَ ورضيعي أبو نائلة، إنَّ الكريمَ لو دُعِيَ إلى طعنةٍ بليلٍ لأجاب. قال: ويُدخِلُ محمدُ بن مَسلمةَ معهُ رجلَين ــ قيل لسفيان: سماهم عمرٌو؟ قال: سَمى بعضهم. قال عمرٌو: جاء معه برجلَين، وقال غيرُ عمرو: أبو عَبسِ بن جَبر والحارثُ بنِ أوسٍ وعبّادَ بن بشر ــ قال عمرٌو جاء معه برجلَين فقال: إذا ما جاء فإني قائل بشعره فأشَمُّه، فإذا رأيتموني استمكَنْتُ من رأسه فدونكم فاضربوه. وقال مرَّةً: ثم أُشِمُّكم. فنزلَ إليهم متوشّحاً وهو ينفَحُ منه ريحُ الطيب فقال: ما رأيتُ كاليوم ريحاً ــ أي أطْيبَ ــ وقال غيرُ عمرو: قال عندي أعطرُ نساءِ العرب وأكملُ العرب. قال عمرٌو فقال أتأذنُ لي أن أشَمَّ رأسك؟ قال: نعم. فشمَّهُ، ثم أشَمَّ أصحابَه ثم قال: أتأذنُ لي؟ قال: نعم. فلما استمكَنَ منهُ قال: دونَكم. فقتَلوه. ثمَّ أتَوُا النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأخبروه». (المترجم).

[1] صحيح البخاري ج٢ صـ ١٠١٦، كتاب الديات باب إذا قتل بحجر أو بعصا. (عن أنس أن جارية خرجت فرماها يهودي بحجر. (البخاري، ج٤، ص٢٨٥). (المترجم).

[2] أسباب النزول، الواحدي، صـ ١٤٥، مصر، وصحيح مسلم، ص٤٩، ذكر رجم اليهود. "سيد سليمان الندوي". (روى أن النبي قال: "أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزانى في كتابكم" قال: لا ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم؛ ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد."). (مسلم، ج١١، ص٢٠٩،٢١٠). (المترجم).

حين جاء الإسلام المدينة المنورة، بدا لليهود أن نفوذهم الأناني والظالم لن يدوم، وكلما كان ينتشر الإسلام في المدينة يوماً بعد يوم، كلما يقل ويزول وقارَ اليهود الديني الذي كانوا يتمتعون به منذ أزمان، وفجأة توقف الانتشار اليهودي التدريجي بين مشركي المدينة، وبفضل انتصار المسلمين بدأ الأنصار ينعمون بشيء من الثراء، ويتحررون من مخالب وبراثن ديون اليهود، وبدأ ينكشف للناس سوء الأخلاق المنتشر بين اليهود، والذي حجبه ثرائهم ورجال دينهم.

وبالرغم من أن النبي ﷺ كان قد تعاهد معهم على عدم التعرض لأنفسهم وأموالهم ومنحهم الحرية الدينية الكاملة، إلا أن مقام نبوته كان يفرض عليه وعظهم ونصحهم بالابتعاد عن الأخلاق الذميمة، ونزلت آيات من الذكر الحكيم في شأن ستر أخلاق اليهود هذه. يقول الله تعالى:

" سماعون للكذب أكالون للسحت " (المائدة :٤٢)

" وترى كثيرًا منهم يسارعون في الإثم والعدوان" (المائدة : ٦٢)

" وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل " (النساء : ١٦١)

فكانت هذه الأسباب سببًا مباشرًا في عداوة اليهود اللدودة للإسلام، وبدءوا يعملون على إيذاء الرسول ﷺ ومناهضة الإسلام بطرق عديدة، وقد أُمر الرسول ﷺ بالصبر على إيذائهم المتعدد. يقول الله تعالى:

" ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور"(آل عمران :١٨٦)

اعتاد اليهود على أنهم حين يلقون التحية على النبي ﷺ يقولون: **السام عليكم**، بدلاً من **السلام عليكم**. وهذه التحية تعني الموت لكم. وذات مرة قالوا هذا في وجود السيدة عائشة رضي الله عنها. فسمعته وغضبت غضبًا شديدًا وقالت:" بل السام عليكم أنتم" فأمرها النبي ﷺ بالتحلي باللين. قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: أو سمعت ما قالوا. فأخبرها النبي ﷺ بأنه سمع، ولكن كافٍ أن قال: عليك.[1]

لم يكن النبي ﷺ يكتفي بالصفح ومجاملة اليهود فقط، بل كان يشارك اليهود في كثير من الأمور الاجتماعية، ويحترم دينهم. كان من عادة العرب أن يفرقون شعر الرأس، وعلى العكس منهم كان اليهود يتركونه هكذا، وكان النبي ﷺ يوافق اليهود في هذا.

---

(١) وردت هذه الواقعة في كثير من أبواب صحيح البخاري.

ورد في صحيح البخاري:

"وكان يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء"

(البخاري، ج٢، صـ ٨٧٧، كتاب اللباس باب الفرق)

حين جاء النبي ﷺ المدينة، ورأى أن اليهود يصومون يوم عاشوراء، أمر النبي ﷺ الناس بصيام يوم عاشوراء.[1] وحين كانت تمر جنازة أي يهودي كان النبي يقف لها تعظيمًا.[2]

ذات مرة تحدث يهودي عن فضل موسى بطريقة يبدو فيها أن موسى عليه السلام أفضل من محمد ﷺ، فغضب أنصاري ولطمه لطمة، فأشتكى اليهودي للنبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: لا تخيروني من بين الأنبياء، فإن الناس يُصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى عليه السلام آخذ بقائمة من قوائم العرش.[3]

إن الأحكام الإلهية التي كانت تنزل في القرآن الكريم كانت كلها تُرغب في معاملة أهل الكتاب. يقول الله تعالى:

" وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم" (المائدة : ٥)

وكان القرآن الكريم يُذكِّر بقدرهم ومنزلتهم عمومًا. يقول الله تعالى :

" يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين" (البقرة :٤٧)

كانوا يُدعون إلى الإسلام في هذا الوقت بهذا القدر فقط:

" قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون " (آل عمران : ٦٤)

---

[1] *البخاري، (باب إتيان اليهود النبي ﷺ حين قدم المدينة. "سيد سليمان الندوي" ج١، ص ٥٢٢.- دخل* النبي ﷺ المدينة وإذا أناس من اليهود يعظمون عاشوراء ويصومونه، فقال النبي ﷺ: "نحن أحق بصومه، فأمر بصومه." (البخاري، ج٢، ص٥٠٣.). (المترجم).

[2] البخاري، ج١، صـ ١٧٥، كتاب الجنائز "سيد سليمان الندوي "." عن أبي سعيد الخدري قال: مرت بنا جنازة فقام لها النبي ﷺ وقمنا به، فقلنا: يا رسول الله، إنها جنازة يهودي قال: " إذا رأيتم الجنازة فقوموا" (البخاري، ج١، ص٣٤٩). (المترجم).

[3] البخاري، ج٢، صـ ٦٦٨، تفسير سورة الأعراف.

ولم يكن هناك أي مناهضة لأي معتقد من معتقداتهم أو مزاعمهم، ولكنه ما كان منهم مقابل هذا اللين والمدارة سوى أنهم عزموا على النيل من الإسلام بأي طريقة، وعلى التقليل من عظمته؛ فكانوا يقولون للمشركين: إنكم أفضل وأهدى من المسلمين في الدين. يقول الله تعالى:

" ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين أمنوا " (النساء : ٥١)

كما أنهم أرادوا نشر عدم الثقة في الإسلام، فأشارت طائفة منهم بقبول الإسلام ثم الارتداء عنه ثانية، حتى يعتقد الناس أنه لو أن الإسلام دين صادق فلِمَ يعتنقه الفرد ثم يتركه؟ يقول الله تعالى:-

" وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون " (آل عمران : ٧٢)

هذا فضلاً عن أنهم اتخذوا خططًا سياسية من أجل القضاء على الإسلام، كانوا يعرفون جيدًا أن قوة الإسلام تكمن في قبيلتي الأنصار؛ " الأوس والخزرج " واللتان كانتا تتحاربان معًا دائمًا، ووحد بينهما الإسلام، وإذا لم يكن هناك عمل يعمل على تحاربهما ثانية، فسوف يُعنى الإسلام بنفسه. وكان تجديد الغضب والحقد القديم في العرب أمر بسيطًا للغاية. ذات مرة كان هناك جمع من كلا القبيلتين يتحدثون فيما بينهم في مجلس، فذهب بعض اليهود وأثاروا ذكر حرب بعاث في هذه الصحبة، تلك الحرب التي تحاربت فيها قبيلتا الأنصار هاتان، وأنهكت هذه الحرب قواهما تمامًا. وذكّر حديث هذه الحرب كلاهما بالأحداث القديمة، وفجأة اشتعلت نار العداوة الخامدة، وأخذ الفريقان يتلاعنان ويطعنان حتى وصل الأمر إلى سحب السيف مِّن غمده، ومن حسن الطالع أن علم النبي ﷺ بهذا، فوصل بسرعة إلى المكان وهدأ الفريقان بوعظه ونصحه ﷺ[1]، ونزلت هذه الآية الكريمة :-

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ) (سورة آل عمران: ١٠٠)

كان هناك فريق من المنافقين موجودٌ منذ البداية، مسلم في الظاهر ولكنه عدو لدود للإسلام في الباطن. كان عبد الله بن أبي ابن سلول زعيم هذا الفريق قد التقي به

---

[1] الإصابة في أحوال الصحابة للحافظ ابن حجر العسقلاني، طبعة، مصر ج ١، صـــ ٨٨.

اليهود سرًا بسهولة بالغة، واتحدوا معه وبدؤوا يكيدون المكائد والمــؤامرات، وبالصـــدفة كان عبد الله بن أبي من قبل حليفًا لبني النضير ومواليًا لهم.

كانت قريش قبل بدر قد كتبت لعبد الله بن أبي: إما أن تطرد المسلمين وإما نأتي نحن ونستأصلكم. ولكن حين فشل هذا الأمر الذي مر ذكره، كتبوا كتابًا إلى اليهود بعــد بدر يقولون فيه:-

" إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم تقاتلن صاحبنا أو لنفعلن كذا ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء".[1]

ذكر أبو داود هذه الواقعة في الحديث عن بني النضير، لذا ذكر اسم بني النضير فقط، ولكن كان كتاب قريش لعامة اليهود، وكانت النتيجة عامة أيضًــا. وعليــه، اعتقــد المحدث المعروف الحاكم أن واقعة بني النضير وبني قينقاع واحدة. خلاصة القول، وصل الحال إلى وجود مخاطر على رسول الله ﷺ في خروجه من منزله ليلاً بسبب اليهود، لذا كان طلحة بن البراء الصحابي الجليل قد أوصى وهو يموت: لو أني مــت بالليــل، فــلا تخبروا الرسول ﷺ لأني أخاف عليه من اليهود فلا أريد أن يصاب الرسول ﷺ بأي شيء بسببي. ونقل الحافظ ابن حجر في كتابه "الإصابة" الواقعة كاملة. بسند أبي داود وغيره.[2]

شوال سنة ٢ هــ، غزوة بني قينقاع

جعل نصر بدر اليهود أكثر تخوفًا، فقد بدا لهم علانية أن الإسلام الآن قــد أخــذ يزداد قوة. وكانت قبيلة بني قينقاع أكثر قبائل اليهود جرأة وشجاعة،[3] لذا كانت هي أول من تجرأ بإعلان الحرب، وكانت أيضًا أول من نقد المعاهدة التي كانت قد عقــدتها مــع الرسول ﷺ من قبل. نقل ابن هشام والطبري برواية ابن إسحاق عن عاصم بــن قتــادة الأنصاري

" إن بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ وحــاربوا[4] فيمــا بين بدر وأحد.

---

[1] سنن أبو داود، ذكر النضير، كتاب الخراج والإمارة " سيد سليمان الندوي ".

[2] انظر كتاب الإصابة، ترجمة طلحة بن البراء.

[3] ابن سعد، ج ٢، القسم الأول، صــ ١٩.

[4] كتبها المؤلف وهاربوا إلا أنها وحاربوا المسلمين، وهذا بدا لي من الترجمة الأردية التي قــام بهــا المؤلف.(المترجم).

كتب ابن سعد في الحديث عن غزوة بني قينقاع

" **فلما كانت وقعة بدر أظهروا البغي والحسد وبددوا العهد والمرة** ".

(الزرقاني، ج١، صـ، ٥٣٦)

وكان هناك سببٌ عرضَ صدفة أزاد في إشعال النار، وهو أن زوجة أنصاري قدمت منقبة إلى دكان يهودي في سوق المدينة، فهتك اليهود حرمتها، ورأى مسلم هذا فأشتعل غيظًا وقتل اليهودي، فقتل اليهود المسلم. وحين علم النبي ﷺ بهذا ذهب إليهم وقال: "يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشا." (في بدر)، قالوا: نحن لسنا قريش، ولو قاتلتنا فسوف نريك ما الحرب؟ ولما نقضوا العهد وأعلنوا الحرب اضطر الرسول ﷺ إلى محاربتهم، فتحصنوا في حصونهم، وحوصروا خمسة عشر يومًا، وفي النهاية وافقوا على أنهم سينزلون على حكم رسول الله ﷺ . وكان عبد الله بن أبي حليفًا لهم، فطلب من النبي ﷺ أن يجليهم من المدينة.[١] فخرجوا إلى أذرعات الشام وكانوا في سبعمائة رجل من بينهم ثلاثمائة دارع. وكان هذا في شهر شوال سنة ٢ هـ.

---

(١) يثبت من أقوال عامة أرباب السير أن النبي ﷺ كان يريد قتلهم، وبإصرار من عبد الله بن أبي لم يفعل هذا. ولكن حسبما وردت هذه الواقعة في سنن أبي داود، يثبت خطأ هذا القياس.

قتل كعب بن الأشرف في ربيع الأول سنة ٣هـ[1]

كان كعب بن الأشرف شاعرًا مشهورًا في اليهود، وكان أبوه الأشرف من قبيلة طي، وتحالف مع بني النضير في المدينة، ونال شرفًا ومكانة جعلته يتزوج بابنة أبي رافع بن أبي الحقيق قدوة اليهود، والذي كان يلقب بتاجر الحجاز،[2] وولد كعب من هذه الزوجة،[3] ولذا كان كعب يتمتع بقرابتين؛ قرابة مع اليهود والأخرى مع العرب. وكان له نفوذ عام على القوم بفضل الشعر، وأصبح تدريجياً سيد يهود العرب بفضل الثراء، وكان يحدد رواتب علماء اليهود ورجال الدين، وحين جاء النبي ﷺ المدينة، وجاء علماء اليهود

---

(١) وهذا نص الحديث الذي ورد في كيفية قتله حسبما ورد في صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف: (٣٩٤٩) حدَّثنا عليُّ بن عبدِ اللّه حدَّثنا سفيانُ قَالَ عمرٌو سمعتُ جابرَ بن عبدِ اللّه رضيَ اللّه عنهما يقول: «قال رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم: مَن لكعبِ بن الأشرف؟ فإنه قد آذى اللّهَ ورسولَه . فقام محمدُ بن مَسلمةَ فقال: يا رسولَ اللّه، أتحبُّ أن أقتُلَه؟ قال: نعم . قال: فأْذنْ لي أن أقولَ شيئاً. قال: قل. فأتاهُ محمدُ بن مَسلمةَ فقال: إنَّ هذا الرجلَ قد سألَنا صَدَقةً، وإنه قد عنَّانا، وإني قد أتيتُكَ أستَسلِفُك. قال: وأيضاً واللّه لتملُّنَّه. قال: إنا قد اتبَعْناهُ، فلا نحبُّ أن نَدَعَهُ حتىٰ ننظرَ إلى أيِّ شيءٍ يصيرُ شأنه، وقد أردْنا أن تُسلِفَنا وَسقاً أو وَسقَين ــ وحدَّثنا عمرٌو غيرَ مرَّة فلم يذكر «وسقاً أو وَسقَين» أو فقلت له: فيه «وسقاً أو وسقين»؟ فقال: أرى فيه «وسقاً أو وسقين» ــ «فقال: نعم؛ ارهَنوني. قالوا: أيَّ شيءٍ تريد؟ قال: ارهنوني نساءكم. قالوا: كيف نَرهنُكَ نساءَنا وأنتَ أجملُ العرب؟ قال: فارهنوني أبناءكم. قالوا: كيف نرهنُكَ أبناءَنا فيُسَبُّ أحدُهم فيقال: رُهِنَ بوسق أو وسقَين، هذا عارٌ علينا، ولكنّا نرهَنك اللأمةَ. قال سفيانُ: يعني السلاحَ. فواعدَه أن يأتيَه. فجاءهُ ليلاً ومعه أبو نائلةَ ــ وهو أخو كعب منَ الرضاعة ــ فدعاهم إلى الحصن فنزلَ إليهم فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ فقال: إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة وقال غير عمرو: قالت أسمعُ صوتاً كأنهُ يَقطُرُ منه الدَّم. قال إنما هو أخي محمدُ بن مَسلمةَ ورضيعي أبو نائلة، إنَّ الكريمَ لو دُعِيَ إلى طعنةٍ بليلٍ لأجاب. قال: ويُدخلُ محمدُ بن مَسلمةَ معهُ رجلَين ــ قيل لسفيانَ: سماهم عمرٌو؟ قال: سَمى بعضَهم. قال عمرٌو: جاء معه برجلَين، وقال غيرُ عمرو: أبو عَبسٍ بن جَبر والحارثُ بن أوسٍ وعبّادَ بن بشر ــ قال عمرٌو جاء معه برجلَين فقال: إذا ما جاء فإني قائل بشعره فأشُمه، فإذا رأيتموني استمكَنْتُ من رأسه فدونكم فاضربوه. وقال مرَّةً: ثم أُشِمُّكم. فنزلَ إليهم متوشّحاً وهو ينفَحُ منه ريحُ الطيب فقال: ما رأيتُ كاليوم ريحاً ــ أي أطْيبَ ــ وقال غيرُ عمرو: قال عندي أعطرُ نساءِ العرب وأكملُ العرب. قال عمرٌو فقال أتأذنُ لي أن أشَمَّ رأسك؟ قال: نعم. فشمَّهُ، ثم أشَمَّ أصحابَه ثم قال: أتأذنُ لي؟ قال: نعم. فلما استمكَنَ منهُ قال: دونَكم. فقتَلوه. ثمَّ أتَوُا النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأخبروه». (المترجم).

(٢) صحيح البخاري، باب قتل الغائم المشرك.

(٣) الخميس، صـ ٤٦٤.

ليتقاضوا راتبهم الشهري منه (كعب)، استفسر منهم عن النبي ﷺ وحين أقنعهم برأيه، أعطاهم راتبهم.[1]

كان كعب يكره الإسلام كرهًا شديدًا، ولما بلغه قتل صناديد قريش في غزوة بدر؛ أصيب بصدمة شديدة، وركب إلى مكة ليعزي قريش وجعل ينشد الأشعار ويبكي فيها على أصحاب القليب من قتلى المشركين في بدر، يثير بذلك حفائظهم من أجل الانتقام، ويجمع الناس وينشد الأشعار بأسلوب مؤلم ويبكي ويُبكيهم. كتب ابن هشام هذه الأحداث مع نقل الأشعار أيضًا، ومع أن أغلب هذا النوع من الأشعار موضوع، إلا أنها تُعرّفُ بلغة تلك الفترة. ونحن هنا ننقل بيتين من الشعر:

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ولمثل بدر تستهل وتدمع

كم قد أصيب به من أبيض ماجد ذي بهجة تأوي إليه الضُيع

ثم رجع كعب إلى المدينة وأخذ يهجو النبي ﷺ، ويحرض الناس ضد النبي ﷺ[2]. وكان للشعر أثر قوى في نفوس العرب بقدر ما لخطب السياسيين الكبار ومقالات أشهر الجرائد من أثر في نفوس أوروبا اليوم، فكان الشاعر الواحد يُشعل النار في القبيلة بأسرها بشعره.

وقد ورد في رواية أنه ذهب إلى مكة في أربعين رجلاً والتقى بأبي سفيان، وحرضه على الانتقام لبدر، فاصطحبهم أبو سفيان وجاء إلى الحرم وأمسك الجميع بستار الكعبة وتعاهدوا على أنهم سينتقمون لبدر.[3]

ولم يكتف بهذا الحد، بل عمل على قتل النبي ﷺ. يكتب العلامة اليعقوبي في كتابه التاريخ عن واقعة بني النضير:-

كعب بن الأشرف اليهودي الذي أراد أن يمكر رسول الله ﷺ

---

(1) الزرقاني، ج٢ صـ ٩ نقلا عن إسحاق وغيره.

(2) ورد في أبي داود **وكان كعب بن الأشرف يهجو النبي ﷺ يحرض عليه كفار قريش.** (أبو داود، ج٢، باب كيف كان الخراج لليهود، كتاب الخراج والإمارة) " سيد سليمان الندوي ". وورد في طبقات بن سعد "**كان رجلاً شاعرًا يهجو النبي وأصحابه ويحرض عليه**" (ورد في تفسير بن جرير الطبري ج٥، صـ٧٩، "**إن كعب بن الأشرف انطلق إلى المشركين من كفار قريش فاستجاشهم على النبي ﷺ وأمرهم أن يغزوه**) " سيد سليمان الندوي".

(3) خميس، صـ ٥١٧. وغالبًا هذه هي تلك الواقعة الأولى التي تحدث عنها ابن خميس تفصيلاً.

وهذه الرواية تؤيدها تلك الرواية التي نقلها الحافظ ابن حجر في كتابه فتح الباري[1] (في ذكر كعب بن الأشرف) بسند عكرمة، وهي أن كعبًا دعا النبي ﷺ إلى طعام وعين رجالاً حتى يقتلوا الرسول غدرًا حين يجيء. ومع أن الحافظ ابن حجر قد كتب أن هناك ضعفًا في سند هذه الرواية، لكن وجود قرائن وشواهد أخرى يرفع هذا الضعف.

ولزيادة الخطر والتخوف من إثارة الفتنة اشتكى النبي ﷺ لصحابته، وذهب محمد بن مسلمة ﷺ بموافقة الرسول ﷺ وبمشورة صناديد الأوس[2] إلى كعب وقتله في ربيع الأول سنة ٣هـ. وكتب أرباب السيرة أن محمد بن مسلمة ﷺ كان قد قال للنبي ﷺ : فأذن لي أن أقول شيئًا ". يفسر أرباب السيرة أن معنى هذا القول هو أنه استأذن الرسول ﷺ في قول الكذب، وأذن له الرسول ﷺ لأن **الحرب خدعة** ولكن ورد في البخاري هذا القول فقط وهو:-

فأذن لي أن أقول

هل يتضح من هذا الإذن قول الكذب ؟ (ولكن تتضح من الحديث الذي تم أخلاق كعب واليهود عمومًا وما تكنه صدورهم). قال محمد بن مسلمة ﷺ : إنَّ هذا الرجلَ قد سألَنا صَدَقَةً، وإنه قد عنَّانا، وإني قد أتيتُكَ أستَسلِفُك. قال كعب: وأيضاً واللّهِ لتملُّنّه. قال محمد بن مسلمة: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب. قال: حسنًا فأرهنوني أبنائكم. قال محمد بن مسلمة: كيف نرهنك أبناءنا، فيسب أحدهم، ولكنا نرهنك اللأمة[3]، وأنت تدرك كم الحاجة إليه الآن.[4]

وردت واقعة القتل في رواية صحيح البخاري، أن هؤلاء الناس استدعوه من بيته بأسلوب فيه ود وصداقة، ثم بخديعة شم شعره أمسكوا برأسه وقتلوه،[5] ولكن لم يرد في الرواية أن النبي ﷺ لم يأذن بهذه الأمور، ولم يكن القتل بهذه الطرق معيبًا بين العرب

---

[1] ج٧، صـ ٢٥٩.

[2] ابن سعد، المغازي صـ ٢١.

[3] السلاح.

[4] الزرقاني، ج ٢، صـ١٣، وصحيح البخاري، قتل كعب بن الأشرف " سيد سليمان الندوي ".

[5] صحيح البخاري، باب قتل كعب (كتاب المغازي) "سيد سليمان الندوي ". (قال محمد بن مسلمة لأصحابه" إذا ما جاء فإني قائل بشعره فأشمه فإذا رأيتموني استكمنت من رأسه فدونكم فاضربوه"(البخاري، ج٣، ص٢٥.)(المترجم).

حتى ذلك الوقت. وسوف نتحدث تفصيلاً فيما بعد تحت عنوان مستقل عن كيفية إصــلاح الرسول ﷺ لهذه الطرق تدريجيًا عند العرب .

غزوة بني النضير ربيع الأول سنة ٤هـ

قتل عمرو بن أمية رجلين من قبيلة عامر ووجب أداء ديتهما، وكان على يهــود بني النضير جزء من هذه الدية طبقاً للمعاهدة معهم. فذهب إليهم النبي لمطــالبتهم بهــذا الجزء,[١] فقبلوا، ولكنهم تآمروا سراً على أن يصعد رجل خفية على بيت مرتفــع ويلقــى بحجر على النبي ﷺ. وبالصدفة كان النبي ﷺ واقفاً في ظل جدار البيت المرتفع في ذلــك الوقت.

وصعد عمرو بن جحاش اليهودي على قلعة لهذا الغرض، وعلم النبي ﷺ بقصده هذا، ورجع على الفور إلى المدينة.[٢]

ذكرنا سابقاً أن قريش كانت قد أرسلت إلى بني النضير تقول: اقتلوا محمــد، وإلا نأتي إليكم ونستأصلكم معه. وكان بنو النضير أعداءً للإسلام من قبل، وبالتالي أزاد كتاب قريش إليهم عدائهم هذا. أرسل بنو النضير رسالة إلى النبي ﷺ: اخرج إلينا فــي ثلاثــين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبراً حتى نلتقي بمكان المنصف فيسمعوا منــك، فإن صدقوك وآمنوا بك، آمنا بك. ولما كان بنو النضير قد أخذوا يعدون للبغي والتمــرد، لذا أرسل إليهم النبي ﷺ يقول: "إنكم والله لا تأمنون عندي إلا بعهــد تعاهــدوني عليــه"، ولكنهم لم يوافقوا على هذا، وذهب النبي ﷺ إلى يهود بني قريظة وطلــب مــنهم تجديــد المعاهدة، فأخذوا بكلامه. وكان أمام بني النضير هذا المثال: وهو أن إخوانهم في الدين قد كتبوا معاهدة، ولكنهم لم يوافقوا على عقد المعاهدة بأية طريقة.[٣] خلاصة القول، أرســل

---

(١) فسر الحوار الذي أجراه النبي ﷺ مع بني النضير عن الدية تفسيرين؛ أحدهما: ما اختاره المؤلــف، والثاني: هو أن خلاصة حديث الرسول مع بني النضير هو كيفية أداء الدية لبني عامر، ومــا عُــرف الدية عندهم؟ وكانت هناك علاقات طيبة لبنى النضير مع قبيلة عامر؟ لذا كان الحديث معهم في هــذه القضية أمر طبيعي. (سيرة الحلبية، ج٢، صـــــ٣٧٧) "سيد سليمان الندوي".

(٢) وردت هذه الرواية في سيرة ابن هشام وغيره. ونقل الزرقاني هذه العبارة مــن كتــاب المغــازي لموسى بن عقبة وهو أصح المغازي: **وكانوا قد وسّوا إلى قريش في قتاله ﷺ فحضوهم على القتال ودلوهم على العورة.** (الزرقاني، ص٩٣، ج ٢).

(٣) ورد هذا تفصيلاً في سنن أبى داود(خبر النضير، كتاب الخراج والإمارة. سيد سليمان الندوي) ومن العجيب أن أرباب السيرة في غفلة تماماً عن رواية أبى داود هذه.

بنو النضير إلى النبيﷺ قائلين: تعال مع ثلاثة رجال ونأتي نحن مع ثلاثة علماء، فإذا آمن هؤلاء العلماء بك، فسوف نؤمن نحن أيضاً. وافق النبيﷺ على هذا ولكنه عـرف مـن مصدر صحيح وهو في طريقه إليهم بأن اليهود شحذوا سـيوفهم وحـين تصـل إلـيهم يقتلونك.[1]

كانت هناك أسباب متعددة لتمرد بني النضير، فكانوا متحصنين في حصون قوية من الصعب الانتصار عليها، كما أن عبد الله بن أبي كان قـد أرسـل إلـيهم يقـول: لا تخضعوا، فسوف تنصركم قريظة وسوف أناصركم بألفي رجل. يقول الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)(الحشر:١١)

ولكن خاب ظن بني النضير فاعتزلتهم قريظـة، وخـانهم عبـد الله بـن أبـي، وحاصرهم النبي خمسة عشر يوماً، وأمر الرسول ﷺ بقطع بعض أشجار النخيـل حـول حصونهم. وكتب السهيلي في روض الأنف أن النخيل لم يقطع كله، بل قطع النخيل اللينة فقط والذي لم يكن تأكله العرب. وجاء ذكره في القرآن الكريم في الآية التالية:(مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ) (الحشر:٥)

ومن الممكن أن النخيل كان ككمين لهم، لذا قُطِّع حتـى لا يكـون حـائلاً فـي محاصرتهم.[2]

وفي النهاية وافق بنو النضير على أن يخرجوا عن المدينة بنفوسهم وذراريهم وأن لهم ما حملت الإبل، فخرجوا تاركين بيوتهم كلها ورحل أكابرهم كسلام بن أبي الحقيـق

---

[1] فتح الباري، واقعة غزوة بني النضير، ج ٧، صـ٢٥٥. ونقلت هذه الرواية في فتح الباري عـن ابن مردويه، وكتب أن سندها صحيح. ويتضح من صحيح البخاري أيضاً أن بني النضير كـانوا قـد أرادوا الغدر بالرسولﷺ . وهذا في باب بني النضير وخروج الرسول ﷺ إليهم في دية، ومـا أرادوا من الغدر برسول الله ﷺ.

[2] ويؤيد رأى المؤلف في هذا أن تقطيع الشجر وغيره في الحرب عنـد الإمـام أحمـد جـائز عنـد الضرورة. وكتب المحدثون هذا الرأي للإمام أحمد في هذه الواقعة، كما كتبوا قول إسحاق أيضاً فـي هذا المقام وهو لو أن الأعداء يتحصنون بحاجز الأشجار، فإشعال النار بها سُنة. يتضح من هـذا أن قطع الأشجار في هذا المقام عند هـؤلاء الأئمـة أمـر تقتضـيه الحـرب. عمـدة القـاري، ج ٨، صـ١٩١."سيد سليمان الندوي".

وكنانة بن الربيع وحيي بن أخطب إلى خيبر وأكرمهم الناس هناك وجعلوهم سادة خيبر.[(١)] ويجب ذكر هذه الواقعة على أنها كانت مقدمة لقصة غزوة خيبر.

وبالرغم من أن بني النضير خرجوا تاركين وطنهم إلا أنهم خرجوا بأبهة راكبين الإبل مع دق الطبول، وكانت النساء يضربن الدفوف وتغنين ومعهن زوجة الشاعر المشهور عروة بن الورد العبسي، والتي كان قد اشتراها يهودي. ويروي أهل المدينة أنهم ما رأوا قبل ذلك ركب بهذا الشأن والأبهة.[(٢)] ترك اليهود ذخيرة كبيرة من الأسلحة من بينها خمسين درعًا وثلاثمائة وأربعين سيفًا وخمسين خوذة. وبعد خروجهم حدثت مشكلة؛ وهي أن الأنصار منعوا أولادهم من الذهاب مع اليهود والذين قد اعتنقوا اليهودية وأخذهم اليهود معهم لاتحادهم في الدين، فنزلت هذه الآية :(لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (البقرة:٢٥٦)

نقل أبو داود هذه الواقعة برواية عبد الله بن عباس ﷺ في كتاب الجهاد بعنوان باب الأسير يكره على الإسلام.[(٣)]

---

(١) الطبري، صـ١٤٥٢.

(٢) ورد هذا التفصيل في الطبري، ص،١٤٥٢ "سيد سليمان الندوي".

(٣) وهذا نص الحديث الذي ورد فى سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب الأسير يكره على الإسلام: (٢٦٨٣) ـــ حدثنا مُحَمَّدُ بنُ عُمَرَ بن عَلِيٍّ المَقْدمِيُّ قال حدثنا أَشْعَثُ بنُ عَبْدِ الله يَعْني السِّجِسْتَانِيَّ ح. وحدثنا ابنُ بَشَّارٍ حدثنا ابنُ أبي عَدِيٍّ وَهَذَا لَفْظُهُ ح. وحدثنا الْحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ حدثنا وَهْبُ بنُ جَرِيرٍ عن شُعْبَةَ عنْ أبي بِشْرٍ عنْ سَعيد بن جُبَيْرٍ عن ابنِ عَبَّاسٍ، قال: « كَانَتْ المَرْأَةُ تَكُونُ مِقْلاَتاً فَتَجْعَلُ عَلَى نَفْسِهَا إنْ عَاشَ لَهَا وَلَدٌ أنْ تُهَوِّدَهُ، فَلَمَّا أُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ كَانَ فِيهِمْ مِنْ أبْنَاءِ الأَنْصَارِ فقَالُوا لاَ نَدَعُ أبْنَاءَنَا. فَأنْزَلَ الله عَزَّوَجَلَّ: {لاَ إكْرَاهَ في الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} . قَالَ أبُو دَاوُدَ: المِقْلاَةُ الَّتي لا يَعيشُ لَهَا وَلَدٌ. (المترجم).

السنة الخامسة من الهجرة

غزوة المريسيع، وحادثة الإفك، وغزوة الأحزاب

الآن أشعلت مؤامرة قريش واليهود النار من مكة إلى المدينة، فأخذت كل القبائل استعدادها للهجوم على المدينة المنورة، وفي مقدمتها أنمار وثعلبة، وحين علم النبي ﷺ بهذا خرج في ١٠ محرم سنة ٥ هـ من المدينة في أربعمائة من الصحابة ووصل ذات الرقاع، وما أن سمعت الأنمار وثعلبة بمجيئه ﷺ فروا إلى الجبال[١].

وفي ربيع الأول سنة ٥ هـ جاء خبر بأن هناك جيش جرار من الكفار يتجمع في دومة الجندل، فخرج النبي ﷺ من المدينة في ألف مجاهد، وحين علم الأعداء بهذا لاذوا بالفرار.

---

[١] ابن سعد، غزوة ذات الرقاع، صـ٤٣. يتضح من صحيح البخاري أن غزوة ذات الرقاع حدثت بعد الخندق، وأديت صلاة الخوف لأول مرة في هذه الغزوة. كانت غزوة الرقاع بنخل وهو مكان على يومين من المدينة في واد يسمى شدخا به طوائف من بني فزارة، وأشجع وأنمار، وسميت بهذا لأنهم لفوا على أرجلهم الرقاع من شدة الحر والحفاء، وهي الغزوة السابعة من الغزوات التي وقع فيها قتال. وهذا نص الحديث الذي يتعلق بها: (١٠٥٧) حَدِيثُ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزَاةٍ وَنَحْنُ سِتَّةُ نَفَرٍ بَيْنَنَا بَعِيرٌ نَعْتَقِبُهُ قَالَ فَنَقِبَتْ أَقْدَامُنَا فَنَقِبَتْ قَدَمَايَ وَسَقَطَتْ أَظْفَارِي فَكُنَّا نَلُفُّ عَلَى أَرْجُلِنَا الْخِرَقَ فَسُمِّيَتْ غَزْوَةَ ذَاتِ الرِّقَاعِ لِمَا كُنَّا نُعَصِّبُ عَلَى أَرْجُلِنَا مِنَ الْخِرَقِ * وعن صلاة الخوف بها ورد هذا الحديث النبوي: عن صالح بن خوات رضي الله عنه عمن شهد النبي ﷺ يوم ذات الرقاع صلى صلاة الخوف أن طائفة صفت معه وطائفة تجاه العدو فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائمًا وأتموا لأنفسهم ثم انصرفوا فصفوا تجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت من صلاته ثم ثبت جالسا وأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم. رواه الثلاثة. (المترجم).

غزوة المريسيع[1] أو بني المصطلق في شعبان سنة ٥ هـ

كانت قبيلة خزاعة حليفة لقريش وموالية لها، وفي فترة ما اعتقدت قريش: إننا من نسل إبراهيم ﷺ، لذا يجب أن نكون مميزين على الآخرين في كل باب. كان المكوث في ميدان عرفات ركن كبير من أركان الحج، ولما كان هذا الميدان خارج حدود الحرم، لذا قررت قريش هذه القاعدة؛ وهي أن الناس يذهبون إلى عرفات، أما نحن فيجب علينا المكوث في المزدلفة بدلاً من عرفات والتي هي داخل حدود الحرم، كما أوجدوا امتيازات أخرى من مثل هذا النوع، وبسبب هذه الخصائص والمميزات لقبوا أنفسهم بالحمس، وبلغ كرمهم إلى أن من كانوا يقبلون هذه الفروض والمميزات كانوا يمنحونهم هذا اللقب أيضًا، ويتزوجون منهم وحصلت قبيلة خزاعة على هذا الشرف هي الأخرى.[2]

كان مسمى " بنو المصطلق " يطلق على إحدى بطون قبيلة خزاعة، وكان بنو المصطلق هؤلاء يعيشون في المريسيع على مسافة تسعة أميال من المدينة المنورة وكان الحارث بن أبي ضرار سيد هؤلاء، وهو الذي أخذ يعد العدة للهجوم على المدينة برغبة منه هو نفسه أو بتحريض من قريش، وحين علم النبي ﷺ بهذا، أرسل زيد بن خصيب لمزيد من تقصي الحقائق، فرجع وصدق الخبر، فأمر النبي ﷺ الصحابة بالاستعداد، وخرج الجيش من المدينة في ٢ شعبان، وبمجرد وصوله المريسيع تفرق جيش الحارث، ولاذ هو نفسه بالفرار، ولكن سكان المريسيع اصطفوا وتثبتوا وظلوا يمطرون بالسهام فترة، وحين حمل عليهم المسلمون حملة رجل واحد، كانت النصرة وقتل عشرة رجال، وأسر بقيتهم والذين يصل عددهم إلى ستمائة أسير، وكان من بين الغنائم التي حصل عليها المسلمون ألفين من الإبل وأربع أو خمسة آلاف شاة.[3]

---

(١) ذكر ابن إسحاق والذي يتبعه الطبري وابن هشام أن هذه الغزوة كانت في سنة ٦ هـ، ويذكر موسى بن عقبة أنها وقعت في سنة ٥ هـ، وذكر الإمام البخاري في صحيحه هذا الاختلاف، ولكنه أخطأ في نسبة سنة ٤ هـ إلى ابن عقبة بدلاً من سنة ٥ هـ، ورجع العلامة ابن حجر في كتابه فتح الباري (ج٧، صـ ٣٦٦) سنة ٥ هـ برواية البيهقي والحاكم وموسى بن عقبة وأبو معشر، كما كتب ابن سعد أنها وقعت في سنة ٥ هـ، لمزيد من التفصيل انظر فتح الباري " سيد سليمان الندوي ".

(٢) كتب ابن هشام عن هذه الأحداث بالتفصيل.

(٣) ١٠٠٢ حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: عَنْ نَافِعٍ قَالَ أَغَارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى الْمَاءِ فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ وَسَبَى سَبْيَهُمْ وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ جُوَيْرِيَةَ وَحَدَّثَنِي هَذَا الْحَدِيثَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَكَانَ فِي ذَاكَ الْجَيْشِ * (المترجم).

وهذه رواية ابن سعد، أما صحيحي البخاري[١] ومسلم [٢] فقد ورد فيهما أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غافلون تمامًا وكان يسقون مواشيهم، كما نقل ابن سعد هذه الرواية أيضًا، ولكنه كتب أن الرواية الأولى أكثر صحة[٣]، وعليه كتب الحافظ ابن حجر فتح الباري، لا يمكن ترجيح روايات السيرة على رواية الصحيحين. ولكن الحقيقة هي أن رواية الصحيحين أيضًا ليست حجة حسب أصول الحديث، فسلسلة هذه الرواية تنتهي عند نافع ولم يرَ نافع الرسول ﷺ، لذا فهذه الرواية منقطعة في اصطلاح المحدثين.[٤]

كانت هذه الغزوة غزوة عادية، ولكن حدثت وقائع مشهورة صدفة جعلت لهذه الغزوة عنوانًا خاصًا. ومن خصائص هذه الغزوة أن اشترك في الجيش كثير من المنافقين طمعًا في الغنيمة، وكان هؤلاء يحاولون دائمًا إثارة الفتنة في كل موضع، فذات يوم تقاتل مهاجر وأنصاري على أخذ الماء من البئر، فصرخ الأنصاري حسب طريقة العرب القديمة: يا معشر الأنصار. وصرخ المهاجر أيضًا: يا معشر المهاجرين. وهنا استل القرشيون والأنصار السيوف وكاد أن يقع بينهما قتال، ولكن بعض الناس حال دون ذلك. وبلغ ذلك عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين، فقال للأنصار: "هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، والآن ينافرونكم، ومازالت هناك فرصة حتى الآن فإن أمسكتم (عنهم) ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دارکم". ذكر الناس هذه الواقعة للنبي ﷺ وكان عمر ﷺ موجودًا، والذي غضب غضبًا شديدًا وقال للنبي ﷺ: مر أي أحد فليقتل هذا المنافق. فقال الرسول ﷺ: **فَقَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاس أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي** .[٥]

---

(١) باب العتق.

(٢) كتاب الجهاد والسير.

(٣) طبقات ابن سعد، ج ٤؛ المغازي، صـــ ٤٥، ٤٦.

(٤) يبدو أن المؤلف رأى بداية السند وقرر أن هذه الرواية منقطعة، وأصل الحديث هو "**حدثني هذا الحديث عبد الله بن عمر وكان في ذلك الجيش**" (صحيح مسلم، كتاب الجهاد وصحيح البخاري، كتاب العتق) (وبعد هذا التصريح تعد هذه الرواية غير منقطعة) (سيد سليمان الندوي).

(٥) انظر صحيح البخاري، صـــ ٧٢٨. وهذا نص الحديث: ٥٨١ حَدِيثُ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ بِالْجِعْرَانَةِ مُنْصَرَفَهُ مِنْ حُنَيْنٍ وَفِي ثَوْبِ بِلالٍ فِضَّةٌ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْبِضُ مِنْهَا يُعْطِي النَّاسَ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ اعْدِلْ قَالَ وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَقْتُلَ هَذَا الْمُنَافِقَ

عجيب هذا الأمر، وهو أنه بقدر ما كان عبد الله بن أبي منافقًا وعدوًا للإسلام، بقدر ما كان ابنه عبدا لله رجلاً صالحًا فدائيًا للإسلام، فبسبب غضب النبي ﷺ، ذاع خبر أن النبي ﷺ سيأمر بقتل عبد الله بن أبي، فجاء عبد الله الابن إلى النبي ﷺ وقال: الدنيا تعرف كم أقوم بحق الأب، ولكن لو أن هذا يرضيك فامرني أن أقتله أنا الآن حتى لا تأمر أي أحد آخر بقتله، وأقتل أنا هذا الآخر غيرة وحَميّه. فطمأنه النبي ﷺ وقال: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا.[1] وتم هذا العفو فعلاً فحين مات عبد الله بن أبي كفنه النبي ﷺ بردائه المبارك وصلى عليه صلاة الجنازة، وأمسك عمر ﷺ برداء النبي ﷺ وقال: أتصلي صلاة الجنازة على منافق!؟ ولكن لم يستطع وقف جريان نهر الكرم.

حادثة جويرية رضي الله عنها

كانت جويرية رضي الله عنها ابنه الحارث بن أبي ضرار من حملة السبي، حسب رواية ابن إسحاق والتي توجد أيضًا في بعض كتب الحديث أن أسرى الحرب أصبحوا إماء وعبيدًا وقسموا على (المجاهدين المسلمين) فوقعت جويرية في سهم ثابت بن قيس ﷺ فطلبت منه أن يكاتبها: أي خذ مني بعض الأموال واتركني فوافق ثابت ﷺ ولكن لم يكن لدى جويرية رضي الله عنها أي مال، فأرادت أن تجمع تبرعًا من الناس وتعطيه إياه، وجاءت إلى النبي ﷺ (تطلب منه تبرعًا)، في وجود السيدة عائشة رضي الله عنها.

ذكر ابن إسحاق رواية السيدة عائشة رضي الله عنها الشفوية، والتي كانت بالتأكيد رأيها الشخصي: لما كانت جويرية رضي الله عنها جميلة جدًا، فحين رأيتها تذهب عند النبي ﷺ، اعتقدت أن حسنها وجمالها سيؤثر في النبي ﷺ كما أثر في. الخلاصة هي أنها ذهبت إلى النبي ﷺ (وقال لها:" فهل لك إلى ما هو خير منه؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك" قالت: قد فعلت". فأدى عنها النبي ﷺ هذا المبلغ كله وحده، وتزوج بها.

فَقَالَ مَعَاذَ اللَّه أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ * (المترجم).

[1] كتب ابن سعد والطبري هذه الأحداث جميعها بتفصيل، كما وردت في أبواب مختلفة من الصحيح البخاري.

وهذه رواية ابن إسحاق والتي توجد في ابن هشام وأبي داود أيضًا، ولكن بأسلوب أكثر وضوحًا.[1]

والحقيقة هي أنه كان الحارث أبو جويرية سيد القوم، وحين سُبيت جويرية، جاء الحارث إلى النبي ﷺ وقال: لا يمكن لابنتي أن تصبح جارية، فشأني أفضل من هذا، لذا حررها، فأرشده النبي ﷺ إلى أن الأمر بيد جويرية نفسها، فذهب الحارث إلى جويرية وقال لها: إن محمد ترك الأمر حسب رضاك، فلا تفضحيني. فقالت: أفضل البقاء في خدمة الرسول ﷺ وتزوجها النبي ﷺ.

نقل الحافظ ابن حجر هذه الرواية في الإصابة عن ابن منده وكتب أن سندها صحيح كما وردت هذه الرواية أيضًا في كتاب ابن سعد. وروى ابن سعد هذه الرواية في كتابه الطبقات، أن والد جويرية قد أدى فديتها، وحين تحررت تزوجها النبي ﷺ.

أثر هذا الزواج

حين تزوج النبي ﷺ بالسيدة جويرية رضي الله عنها حرر المسلمون أسرى الحرب كلهم، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ.[2]

---

(1) أبو داود كتاب العتق. وهذا نص الحديث كاملا: (٣٩٣٠) حدثنا عَبْدُ الْعَزِيزِ بنُ يَحْيَى أبو الأصْبغِ الْحَرَّانيُّ قال حدثني مُحمَّدٌ ـ يَعني ابنَ سَلَمَةَ ـ عن ابنِ إسْحَاقَ عن مُحمَّدِ بنِ جَعْفَرِ بنِ الزُّبَيْرِ عن عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ عن عَائِشَةَ، قالَتْ: «وقَعَتْ جُوَيْرِيةُ بِنْتُ الْحَارِثِ بنِ الْمُصْطَلِقِ في سَهْمِ ثَابِتِ بنِ قَيْسِ بنِ شمَّاسٍ، أو ابنِ عَمٍ لَهُ، فَكَاتَبَتْ عَلَى نَفْسِهَا، وكَانَتْ امْرَأَةً مَلَّاحَةً تَأْخُذُهَا الْعَيْنُ. قالَتْ عَائِشَةُ: فَجَاءَتْ تَسْأَلُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم في كِتَابَتِهَا، فلَمَّا قَامَتْ عَلَى الْبَابِ فرَأَيْتُهَا كَرِهْتُ مكَانَها وَعَرَفْتُ أنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم سَيَرَى مِنهَا مِثْلَ الَّذِي رَأَيْتُ، فقالَتْ: يَارَسُولَ الله أنا جُوَيْرِيةُ بِنْتُ الْحَارِثِ وَإِنَّمَا كَانَ مِنْ أمْرِي مالاَ يَخْفَى عَلَيْكَ، وَإِنِّي وقَعْتُ في سَهْمِ ثَابِتِ بنِ قَيْسِ بنِ شَمَّاسٍ، وَإِنِّي كَاتَبْتُ عَلَى نَفْسِي فَجِئْتُكَ أسْأَلُكَ في كِتَابَتِي، فقالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: فَهَلْ لَكِ إلَى ما هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ؟ قالتْ: وما هُوَ يَارَسُولَ الله؟ قال: أُؤَدِّي عَنْكِ كِتَابَتَكِ وَأَتَزَوَّجُكِ. قالَتْ: قَدْ فَعَلْتُ. قالَتْ: فَتَسَامَعَ ـ تَعْنِي ـ النَّاسُ أنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قدْ تَزَوَّجَ جُوَيْرِيةَ فأَرْسَلُوا ما في أيْدِيهِمْ مِنَ السَّبْيِ فأَعْتَقُوهُمْ وقَالُوا أصْهَارُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فمَا رَأَيْنَا امْرَأَةً كَانَتْ أعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا، أُعْتِقَ في سَبَبِهَا مِائَةُ أهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ». قالَ أبُو دَاوُدَ: هذَا حُجَّةٌ في أنَّ الْوَلِيَّ "(المترجم).

(2) سنن أبي داود، كتاب العتق (باب في بيع المكاتب إذا فسخت المكاتبة) "سيد سليمان الندوي".

حادثة الإفك(١)

---

(١) وردت في الصحيحين: ١٥٨٢ حديثُ عائشةَ زوجِ النبيِّ رضيَ اللهُ عنها قالت. كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ إذا أرادَ أنْ يخرُجَ سفرًا أقرَعَ بيْنَ نسائِهِ فأيَّتُهُنَّ خرَجَ سهْمُها خرَجَ بها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ معَهُ قالتْ عائشةُ فأقْرَعَ بيْنَنا في غزْوةٍ غزاها فخرَجَ فيها سهْمِي فخرَجْتُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ وذلكَ بعْدَ ما أُنْزِلَ الحِجابُ فأنا أُحْمَلُ في هوْدَجِي وأُنْزَلُ فيه مسيرَنا حتَّى إذا فرَغَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ منْ غزْوِهِ وقفَلَ ودنَوْنا منَ المدينةِ آذنَ ليْلةً بالرَّحيلِ فقُمْتُ حينَ آذنُوا بالرَّحيلِ فمشَيْتُ حتَّى جاوَزْتُ الجيْشَ فلمَّا قضَيْتُ منْ شأْني أقْبَلْتُ إلى الرَّحْلِ فلمَسْتُ صدْرِي فإذا عِقْدِي منْ جزْعِ ظَفارِ قد انقَطَعَ فرجَعْتُ فالْتمَسْتُ عِقْدِي فحبَسَني ابْتِغاؤُهُ وأقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذينَ كانُوا يرْحَلُونَ لي فحمَلُوا هوْدَجِي فرحَلُوهُ على بعيرِيَ الَّذي كُنْتُ أركَبُ وهُمْ يحْسِبُونَ أنِّي فيه قالتْ: وكانتِ النِّساءُ إذْ ذاكَ خِفافًا لمْ يُهبَّلْنَ ولمْ يغْشَهُنَّ اللَّحْمُ إنَّما يأْكُلْنَ العُلْقةَ منَ الطَّعامِ فلمْ يستنْكِرِ القوْمُ ثِقَلَ الهوْدَجِ حينَ رحَلُوهُ ورفَعُوهُ وكُنْتُ جاريةً حديثةَ السِّنِّ فبعَثُوا الجمَلَ وسارُوا ووجَدْتُ عِقْدِي بعْدَ ما استَمَرَّ الجيْشُ فجئْتُ منازِلَهُمْ وليْسَ بها داعٍ ولا مُجيبٌ فتيَمَّمْتُ منْزِلِي الَّذي كُنْتُ فيه وظنَنْتُ أنَّ القوْمَ سيَفْقِدُونِي فيرْجِعُونَ إليَّ فبيْنا أنا جالسةٌ في منْزِلِي غلبَتْني عيْنِي فنِمْتُ وكانَ صفوانُ بنُ المُعطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوانيُّ قدْ عرَّسَ منْ وراءِ الجيْشِ فادَّلَجَ فأصبَحَ عندَ منْزِلِي فرأى سوادَ إنسانٍ نائمٍ فأتاني فعرَفَني حينَ رآني وقدْ كانَ يراني قبْلَ أنْ يُضْرَبَ الحِجابُ عليَّ فاستيْقَظْتُ باسترْجاعِهِ حينَ عرَفَني فخمَّرْتُ وجْهِي بجِلْبابي وواللهِ ما يُكلِّمُني كلِمةً ولا سمِعْتُ منْهُ كلِمةً غيْرَ استرْجاعِهِ حتَّى أناخَ راحِلَتَهُ فوطِئَ على يدِها فركِبْتُها، فانطَلَقَ يقُودُ بي الرَّاحلةَ حتَّى أتيْنا الجيْشَ بعْدَ ما نزَلُوا مُوغِرينَ في نحْرِ الظَّهيرةِ فهلَكَ منْ هلَكَ في شأْني. وكانَ الَّذي تولَّى كِبْرَهُ عبْدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سلُولَ فقدِمْنا المدينةَ فاشتكَيْتُ حينَ قدِمْنا المدينةَ شهْرًا والنَّاسُ يُفيضُونَ في قوْلِ أهْلِ الإفكِ ولا أشْعُرُ بشيْءٍ منْ ذلكَ وهُوَ يريبُني في وجَعِي أنِّي لا أعْرِفُ منْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ اللُّطْفَ الَّذي كُنْتُ أرَى منْهُ حينَ أشتكي إنَّما يدْخُلُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ فيُسلِّمُ ثُمَّ يقولُ كيْفَ تِيكُمْ فذاكَ يريبُني ولا أشْعُرُ بالشَّرِّ حتَّى خرَجْتُ بعْدَ ما نقَهْتُ وخرَجتْ معِي أُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المناصِعِ وهُوَ مُتبرَّزُنا ولا نخْرُجُ إلا ليْلًا إلى ليْلٍ وذلكَ قبْلَ أنْ نتَّخِذَ الكُنُفَ قريبًا منْ بُيُوتِنا، وأمْرُنا أمْرُ العرَبِ الأُوَلِ في التَّنزُّهِ، وكُنَّا نتأذَّى بالكُنُفِ أنْ نتَّخِذَها عندَ بُيُوتِنا، فانطلَقْتُ أنا وأُمُّ مِسْطَحٍ وهيَ بنتُ أبي رُهْمِ بنِ المُطَّلِبِ بنِ عبْدِ منافٍ وأُمُّها ابنةُ صخْرِ بنِ عامرٍ خالةُ أبي بكْرٍ الصِّدِّيقِ، وابنُها مِسْطَحُ بنُ أُثاثةَ بنِ عبَّادِ بنِ المُطَّلِبِ، فأقبَلْتُ أنا وبنتُ أبي رُهْمٍ قِبَلَ بيْتِي حينَ فرَغْنا منْ شأْنِنا، فعثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ في مِرْطِها فقالتْ تعِسَ مِسْطَحٌ فقُلْتُ لها بئْسَ ما قُلْتِ أتسُبِّينَ رجُلًا قدْ شهِدَ بدْرًا قالتْ: أيْ هنْتاهْ أوَلمْ تسْمَعي ما قالَ قُلْتُ وماذا قالَ قالتْ فأخبرَتْني بقوْلِ أهْلِ الإفكِ فازْدَدْتُ مرَضًا إلى مرَضِي، فلمَّا رجَعْتُ إلى بيْتِي، فدخَلَ عليَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ فسلَّمَ ثُمَّ قالَ كيْفَ تِيكُمْ قُلْتُ أتأْذَنُ لي أنْ آتيَ أبوَيَّ قالتْ وأنا حينئذٍ أُريدُ أنْ أتيقَّنَ الخبَرَ منْ قِبَلِهِما فأذِنَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ فجئْتُ أبوَيَّ فقُلْتُ لأُمِّي يا أُمَّتاهْ ما يتحدَّثُ النَّاسُ فقالتْ يا بُنيَّةُ هوِّني عليْكِ فواللهِ لقلَّما كانتِ امرأةٌ قطُّ وضيئةٌ عندَ رجُلٍ يُحِبُّها ولها ضرائرُ إلا كثَّرْنَ عليْها قالتْ قُلْتُ سُبْحانَ اللهِ وقدْ تحدَّثَ النَّاسُ بهذا قالتْ فبكيْتُ تلكَ اللَّيْلةَ حتَّى أصبحْتُ

لا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ قَالَتْ فَأَمَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ وَبِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ لَهُمْ مِنَ الْوُدِّ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هُمْ أَهْلُكَ وَلا نَعْلَمُ إِلا خَيْرًا وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ وَإِنْ تَسْأَلِ الْجَارِيَةَ تَصْـــدُقْكَ قَالَتْ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ بَرِيرَةَ فَقَالَ أَيْ بَرِيرَةُ هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ مِنْ عَائِشَةَ قَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ وَالَّـــذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنْ رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ قَالَتْ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَـــيٍّ ابْنِ سَلُولَ قَالَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَ أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلا خَيْرًا وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلا مَا عَلِمْتُ عَلَيْـــهِ إِلا خَيْرًا وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلا مَعِي فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الأَنْصَارِيُّ فَقَالَ أَنَا أَعْذِرُكَ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ قَالَتْ فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَـــادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ وَكَانَ رَجُلا صَالِحًا وَلَكِنِ اجْتَهَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لا تَقْتُلُـــهُ وَلا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّـــهِ لَنَقْتُلَنَّهُ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ فَثَارَ الْحَيَّانِ الأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا وَرَسُولُ اللَّـــهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّـــى سَـــكَتُوا وَسَكَتَ قَالَتْ وَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ لا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ ثُمَّ بَكَيْتُ لَيْلَتِي الْمُقْبِلَةَ لا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ وَأَبَوَايَ يَظُنَّانِ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي فَبَيْنَمَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي اسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْـــرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا فَجَلَسَتْ تَبْكِي قَالَتْ فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ قَالَتْ وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ لِي مَا قِيلَ وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ قَالَتْ فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ جَلَسَ ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ ثُـــمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ قَالَتْ فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً فَقُلْتُ لأَبِي أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا قَالَ فَقَالَ وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ لأُمِّي أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ بِهَذَا حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي نُفُوسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ فَإِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُونَنِي وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلاً إِلا كَمَا قَالَ أَبُو يُوسُفَ (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) قَالَتْ ثُمَّ تَحَوَّلْتُ فَاضْطَجَعْتُ عَلَـــى فِرَاشِي قَالَتْ وَأَنَا وَاللَّهِ حِينَئِذٍ أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ يُنْزَلَ فِي شَأْنِي وَحْيٌ يُتْلَى وَلَشَأْنِي كَانَ أَحْقَرَ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا قَالَتْ فَوَاللَّهِ مَا رَامَ رَسُـــولُ اللَّـــهِ

وفي العودة من هذه الغزوة وقعت حادثة الإفك والتي افترى فيها المنافقون على السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها. نقلت كتب الحديث والسير هذه الحادثة بتفصيل كبير، ولكن لم يقل الناس بمجرد استماعهم إلى ما جاء في القرآن الكريم واضحًا عن هذه الحادثة (بأن هذا افتراء)، فهي لا تحتاج إلى كتابة تفصيلية. ومن هذه الحادثة يجب التدبر في كيفية انتشار وإذاعة النبأ الكاذب المحض؟ فالمنافقون هم الذين كانوا قد أذاعوا هذا النبأ، وانخدع به بعض المسلمين أيضًا، والذين عوقبوا بعقوبة القذف كما ورد في صحيح مسلم وغيره.

وفي بعض الآونة كتب المؤرخون المسيحيون أيضًا هذه الحادثة بفرح وسرور كالمنافقين قديمًا، وكنا نتوقع منهم هذا. وكانت هذه الغزوات والحروب مقدمة لتلك الغزوة التي اتحد فيها العرب واليهود وتُعرف باسم غزوة الأحزاب.

غزوة الأحزاب ذو القعدة سنة ٥ هـ

حين خرج بنو النضير من المدينة المنورة،[1] أخذوا يدبرون مكيدة خطيرة، إذ ذهب من صناديدُهم سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن الربيع وغيرهم إلى

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجْلِسَهُ وَلا خَرَجَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ أَحَدٌ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ عِنْدَ الْوَحْيِ حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنَ الْعَرَقِ فِي الْيَوْمِ الشَّاتِ مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ قَالَتْ فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَضْحَكُ فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ فَقَالَتْ لِي أُمِّي قُومِي إِلَيْهِ فَقُلْتُ وَاللَّهِ لا أَقُومُ إِلَيْهِ وَلا أَحْمَدُ إِلا اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي قَالَتْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) عَشْرَ آيَاتٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَؤُلاءِ الآيَاتِ بَرَاءَتِي قَالَتْ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ وَاللَّهِ لا أُنْفِقُ عَلَيْهِ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى) إِلَى قَوْلِهِ (أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ) قَالَ حِبَّانُ بْنُ مُوسَى قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ هَذِهِ أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ وَقَالَ لا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا، قَالَتْ عَائِشَةُ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَمْرِي مَا عَلِمْتِ أَوْ مَا رَأَيْتِ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلا خَيْرًا قَالَتْ عَائِشَةُ وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ تُحَارِبُ لَهَا فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ ." (المترجم).

[1] ورد في الطبري "**فإن الذي جر غزوة رسول الله الخندق فيما قيل ما كان من إجلاء رسول الله بني النضير عن ديارهم**" (ج٣، صـ ١٤٦٣). ونقل الحافظ ابن حجر في فتح الباري (ج٧. صـ ٣٠١) في

مكة المكرمة، والتقوا بقريش وقالوا لهم: إذ ناصرتمونا فيمكن استئصال الإسلام وكانت قريش مستعدة دائمًا لهذا العمل، ثم ذهب هؤلاء اليهود إلى قبيلة غطفان بعد تحريض قريش، وأغروهم في أنهم سيعطونهم نصف محاصيل خيبر على الدوام، وكان هؤلاء هم الآخرون مستعدين لهذا العمل من قبل، ربما تذكر قصة واقعة بئر معونة حين حرض عامر سيد القبيلة الغطفانين على الهجوم على المسلمين، لذا استعدت هذه القبيلة على الفور لمحاربة المسلمين. وكان بنو أسد حلفاء قبيلة غطفان فكتب الغطفانيون وأرسلوا إليهم يقولون: جهزوا الجيوش وتعالوا. وكانت قريش ذات قرابة بقبيلة بني سليم، لذا ساعدتهم قبيلة بني سليم، وكانت قبيلة بني سعد حليفة لليهود، لذا حرضهم اليهود أيضًا. خلاصة القول هو أن قبائل العرب كلها قد جهزت جيشًا جرارًا وتقدمت به نحو المدينة. وورد في فتح الباري أن عدده كان عشرة آلاف.(١)

قُسِّم هذا الجيش الجرار إلى ثلاثة أقسام مستقلة:(٢) جيش غطفان،(٣) ويقوده عينية بن حصن الغزاري أحد قواد العرب المشهورين، وكانت قبيلة بني أسد يقودها طليحة، وكان أبو سفيان بن حرب القائد العام.(٤)

ذكر غزوة الأحزاب هذه العبارة من كتاب المغازي لموسى بن عقبه والذي يعتبر أكثر كتب المغازي سندًا: "**خرج حيي بن أخطب بعد قتل بني النضير إلى مكة يحرض قريشًا على حرب رسول الله ﷺ وخرج كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق يسعى في بني غطفان ويحضهم على قتال رسول الله ﷺ أن لهم نصف تمر خيبر فأجابه عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الغزارى إلى ذلك وكتبوا إلى حلفائهم من بني أسد، فأقبل إليهم طلحة ابن خويلد يمن إطاعة ...... الخ**".

(١) صحيح البخاري، غزوة ذات الرجيع؛ طبقات ابن سعد، ج٢ القسم الأول، صـ ٤٧؛ وفتح الباري، ج ٧، صـ ٣٠١ " سيد سليمان الندوي ".

(٢) طبقات ابن سعد، ج ٢، القسم الأول، صـ٤٧ " سيد سليمان الندوي ".

(٣) إن ذكر القُوَّاد هنا ليس هو ذكر للجيش كله، فقد اكتفى شبلي النعماني بذكر قواد جيش القبائل المشهورة. وذكر المؤرخون أسماء قواد جيوش القبائل الأخرى، فخرجت بني سليم في قيادة سفيان بن عبد شمس، وقبيلة أشجع يقودها مسعود بن رخيلة وقبيلة بني مرة يقودها الحارث بن عوف، وقد أسلم الحارث وطليحة فيما بعد. الزرقاني، ج٢، صـ١٢١، طبقات بن سعد، ج٢، القسم الأول، صـ٤٧. " سيد سليمان الندوي " = وقد ذكر صفي الرحمن المباركفوري أن مسعر كان يقود قبيلة أشجع وليس مسعود كما ذكر سيد سليمان. (صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، صـ ٢٧٥. المترجم).

(٤) المرجع السابق.

تشاور النبي ﷺ مع صحابته حين علم بهذا، وكان سلمان الفارسي على دراية بطريقة الخندق إذ كان فارسيا، فقد أشار بأن الخروج إلى الكفار في ميدان مفتوح ومواجهتهم ليس فيه خيرًا للمسلمين، بل يجب أن يتجمع الجيش في مكان آمن ويُحفر خندق. والخندق في الأصل تعريب للفظ الفارسي كنده والذي يعني خندق فتبدل صوت الكاف إلى خاء، والهاء إلى قاف مثلما تحول صوت بياده إلى بيدق.

فضل جميع المسلمين هذا الرأي، وبدأ الاستعداد لحفر الخندق. وكانت المدينة محاطة من ثلاث جوانب بسلسلة من النخيل والبيوت، والتي كانت بمثابة منعة للمدينة، وكان الجانب الشامي فقط من المدينة هو المفتوح دون حماية طبيعية. خرج النبي ﷺ من المدينة في ثلاثة آلاف من الصحابة وأخذ يستعد لحفر الخندق في هذا الجانب. وكان هذا في الثامن من ذي القعدة سنة ٥ هـ. وعين الرسول بنفسه حدود الخندق، وبدأ بالحفر فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعًا. وكان عمق الخندق خمسة أمتار تقريبًا، وأتم الجيش هذه المهمة في عشرين يومًا.

لعلك تذكر حين شُيد المسجد النبوي كان النبي ﷺ يعمل مع الصحابة جنبًا إلى جنب، ويتكرر هذا المشهد الذي يدعو إلى العبرة مرة أخرى، فهنا ليال الشتاء، والمجاعة لمدة ثلاثة أيام، وبالرغم من هذا يحمل المهاجرون والأنصار الرمال على ظهورهم ويلقون بها ويقولون في صوت واحد بحب وأخلاص:

نحن الذين بايعوا محمد على الجهاد ما بقينا أبدًا

وكان رسول الله ﷺ ينقل من تراب الخندق حتى وارى الغبار جلد بطنه، وهو يرتجز بهذه الأشعار:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فانزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الآلي قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا[1]

---

[1] وردت هذه الأشعار في الصحيحين هكذا: (١٠٥٠) حَدِيثُ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الأَحْزَابِ يَنْقُلُ مَعَنَا التُّرَابَ وَلَقَدْ وَارَى التُّرَابُ بَيَاضَ بَطْنِهِ وَهُوَ يَقُولُ وَاللَّهِ لَوْلا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا إِنَّ الأُلَى قَدْ أَبَوْا عَلَيْنَا
قَالَ وَرُبَّمَا قَالَ إِنَّ الْمَلا قَدْ أَبَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا وَيَرْفَعُ بِهَا صَوْتَهُ * (المترجم).

وحين يأتي لفظ أبينا يرفع الصوت ويكرره،[1] كما كان يدعو للأنصار أيضًا بهذه الكلمات:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فبارك في الأنصار والمهاجرة

عرضت للمسلمين صخرة لا تأخذ منها المعاول، فجاء النبي ﷺ وكان معصوب بحجر، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب فعاد كثيباً أهيل أهيم.[2]

اصطف المسلمون وجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع فتحصنوا به، وأمر النبي ﷺ بالنساء والذراري فجعلوا في حصون المدينة، واستخلف سلمة بن أسلم ومعه مائتين من المسلمين على المدينة خوفًا من مهاجمة بني قريظة.

كان يهود بني قريظة مستقلين حتى الآن، وذهب قائد بني النضير حيي بن أخطب (والد السيدة صفية رضي الله عنها) بنفسه إلى قائد قريظة كعب بن أسد محاولاً أن يضم بني قريظة إلى الحرب، ولكن كعب بن أسد رفض هذا، فقال حيي: جئتك بجيش جرار، بسادة وقادة قريش وقبائل العرب جميعاً، وكل واحد متشوق لشرب دم محمد، و يجب ألا تضيع هذه الفرصة، فحان وقت استئصال الإسلام. فلم يوافقه كعب أيضًا وقال: لم أر من محمد إلا صدقًا ووفاءً. ونقض العهد معه ضد المروءة، ولكن ما كان من الممكن أن يذهب سحر حيي سُدى.[3]

وانتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ فبادر إلى تحقيقه، حتى يستجلي موقف قريظة، فأرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضي الله عنهما لتقصي الحقيقة وأمرهما بأنه إن كان بنو قريظة قد نقضوا العهد فعلاً، فألحنوا لي لحناً أعرفه كي لا يدب الجبن في نفوس

---

[1] صحيح البخاري، غزوة الأحزاب. (ورفع بها صوته " أبينا أبينا" (البخاري، ج٣، ص٤٤). (المترجم).

[2] صحيح البخاري، غزوة الأحزاب. (ورفع بها صوته " أبينا أبينا" (البخاري، ج٣، ص٤٤). (المترجم).

[3] فلم يزل حيي بن كعب يفتله في الذروة والغارب حتى سمح له على أن أعطاه عهدا من الله وميثاقاً: لئن رجعت قريش وغطفان، ولم يصيبوا محمدًا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده، وبرأ مما كان بينه وبين المسلمين، ودخل مع المشركين في المحاربة ضد المسلمين. (صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، ص ٢٨٣ ،نقلاً عن ابن هشام ٢/٢٢١،٢٢٠). (المترجم).

الناس، وحين ذكر هذان الصحابيان بني قريظة بالمعاهدة التي كانت بينهم وبين المسلمين، قالوا: " من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد، ولا عقد ".

وخلاصة القول، هو أن انضم بنو قريظة إلى جيش الكفار الجرار، وانقسم جيش قريش واليهود والقبائل العربية والذي بلغ عشرة آلاف إلى ثلاثة أقسام: وهجموا بقوة على المدينة من ثلاثة جوانب، بطريقة تزلزل أرض المدينة وصور الله تعالى هذه الغزوة في القرآن الكريم في قوله تعالى:

" إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ۞ هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدًا " (الأحزاب ١٠،١١)

وكان المنافقون الذين يظهرون إسلامهم ضمن جيش المسلمين، ولكن شدة البرودة وقلة المؤن والمجاعة والليالي غير الحالمة وجيش الكفار الجرار، كل هذه الأمور أزاحت الستار عنهم. فجاءوا الرسول ﷺ يطلبون الإذن منه بالرجوع إلى المدينة، يقولون إن بيوتنا عورة. يقول الله تعالى:

" يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرار " (الأحزاب: ١٣)

ولكن لما رأى المؤمنون الأحزاب، أعلنوا عن إخلاصهم وصدقهم.

يقول الله تعالى:

" ولما رأي المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادوهم إلا إيمانًا وتسليمًا " (الأحزاب: ٢٢)

ودام الحصار بهذه الشدة قرابة شهر، حتى أصيب المسلمون بمجاعة شديدة، وذات يوم جاء أحد الصحابة إلى الرسول، وكشف عن حجر قد عصبه على بطنه من الجوع، ولكن حين كشف النبي ﷺ عن بطنه، وجد أن النبي ﷺ قد اعتصب بحجرين بدلاً من واحد.[1] كان الحصار شديدًا وخطيرًا لدرجة أن نَدَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

[1] ورد في شمائل الترمذي أنه كان من عادة العرب عصب الحجر على البطن في الجوع الشديد، وبالتالي لا يمكن ثني الوسط.

النَّاسَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ ثُمَّ نَدَبَهُمْ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ ثُمَّ نَدَبَهُمْ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ (١).

كان الكفار قد أحكموا من محاصرتهم على الخندق، ومن ناحية أخرى أرادوا الهجوم على المدينة للنيل من نساء النبي ﷺ وبناته المتحصنات في قلاع المدينة.

لم يستطع المحاصرون عبور الخندق، لذا كانوا يرمون المسلمين بالسهام والحجارة، وكان النبي ﷺ قد قسم الجيش على مواقع الخندق المختلفة التي كان المحاصرون يرمونها بسهامهم.

فلما اشتد الحصار تخوف النبي ﷺ من أن تفتر عزيمة الأنصار، لذا أراد أن يصالح غطفان على ثلث ثمار المدينة، فاستدعى سعد بن عبادة وسعد بن معاذ سيد الأنصار واستشارهما في الأمر فقال كلاهما: يا رسول الله إن كان الله أمرك بهذا فسمعًا وطاعة، وإن كان شيئًا تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه، فلم يستطع أي أحد أن يطلب منا الخراج ونحن في حالة الكفر، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ وحين رأى النبي ﷺ هذه العزة وهذه الثقة اطمأن قلبه وأخذ سعد ورقة المعاهدة بيده فمحا ما فيها من الكتاب(٢) وقال: ليجهزوا علينا.

وعندئذ نظم المشركون طريقة هجومهم، وهي أن يعين قائد من قادة قريش المعروفين كل يوم؛ أي أبا سفيان وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وضرار بن الخطاب وجبيرة، فكان كل قائد في يومه يحارب بالجيش كله ولم يستطعوا عبور الخندق. وبسبب عدم اتساع عرض الخندق كانوا يمطرون على المسلمين السهام والحجارة، وحين لم تنجح

---

(١) صحيح البخاري، ذكر غزوة الأحزاب، (روى أن النبي ﷺ قال: " إن لكل نبي حوارياً وإن حواري الزبير"(البخاري، ج٣، ص٤٦). (المترجم). (وصحيح مسلم، كتاب الفضائل)، ولكن ورد في ابن هشام اسم حذيفة بن اليمان في هذا الأمر، لذا يختلف المحدثون في هذين الاسمين الزبير وحذيفة بن اليمان. وأثبت الحافظ ابن حجر والزرقاني بأدلة أن حذيفة أرسل للاستطلاع عن حال قريش، أما الزبير فقد أرسل للاستطلاع عن بني قريظة، وذكر الواقدي والنسائي هذا التفصيل بروايتهما. فتح الباري، ج ٧، صـ٦١٢ ؛ الزرقاني، ج ٢ صـ١٣٨ ." سيد سليمان الندوي ". وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري:(١٣٩٢) حَدِيثُ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: نَدَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ ثُمَّ نَدَبَهُمْ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ ثُمَّ نَدَبَهُمْ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ .(المترجم).

(٢) الطبري، ج٣، صـ٤٧٤.

طريقتهم هذه، عندئذ قرروا أنه لابد من الهجوم العام، فاتحدت القوات كلها، وتقدم سادة القبائل جميعًا، واختاروا مكاناً في الخندق يقل عرضه يهجمون من خلالة، وحث أبطال العرب المشهورين؛ أي ضرار وجبيرة ونوفل وعمرو بن عبد وُد خيولهم على عبور الخندق من هذا المكان. وكان عمرو بن عبد ود أكثرهم بطولة وشجاعة، فكان يعد بمثابة ألف فارس، وكان قد جرح في غزوه بدر ورجع، لذا أقسم أنه لن يمس طيبا حتى ينتقم، وكان في التسعين من عمره، ولكنه أول من تقدم وصاح حسب عرف العرب: هل من مبارز؟ فبرز له علي بن طالب وقال له: أنا، ولكن النبي ﷺ منع علي وقال له: إنه عمرو بن عبد ود، فجلس علي. ولم يأت أي صوت من أي ناحية رداً علي طلب عمرو، فصاح عمرو ثانية فنهض له علي وقال: أنا، وفي المرة الثالثة حين قال النبي ﷺ لعلي: إنه عمرو. قال علي: نعم أعرف إنه عمرو، فأذن له النبي ﷺ وأعطاه السيف بيديه، وعممه.

كان عمرو قد قال من قبل: لو أن أي شخص يدعونني إلى ثلاثة أمور في الدنيا فلابد أن أقبل أحدها. فسأل عليٌ عمرو: هل هذا قولك حقا. ثم دار بينهما هذا الحوار :

علي: أدعوك إلي الإسلام ؟

عمرو: هذا لا يمكن.

علي: أرجع من حيث أتيت؟

عمرو: لا أستطيع أن أتحمل طعن نساء قريش.

علي: فإني أدعوك إلى النزال.

ضحك عمرو وقال: ما كنت أتمني أن يُعرض عليَّ هذا الطلب تحت السماء. كان علي مترجلا، فأخذت عمرو الغيرة والحمية ونزل من علي فرسه وأول سيف ضربه كان على أقدام فرسه فانقطعت، ثم اقبل على وقال: من أنت ؟ فقال: علي ﷺ، قال عمرو: ما أحب أن أقتلك. قال علي ﷺ: أجل، ولكني أحب أن أقتلك، فاغتاظ عمرو غيظًا شديدًا وتنازلا فضربه علي على صدره فارتشق السيف في درع عمرو، وحين نزعه علي أصاب جبهته، ومع إنه لم يكن جرحا عميقا, ولكن هذا الطغراء بقي كتذكار على جبهته. كتب في المعجم أن علي ﷺ يقال له ذو القرنين بسبب أن بجبهته أثر لجرحين، واحد بيد عمرو والآخر بيد ابن ملجم، وحين حمل العدو حمل عليه علي ﷺ وقتله وصاح: الله أكبر. ثم حمل ضرار وجبيرة ولكن حين حمل عليهم ذو الفقار، تقهقر إلى الوراء، وتعاقب عمر ضرار وأراد أن يحمل عليه برمح؛ لكنه توقف وقال: يا عمر تذكر هذا الإحسان.

سقط نوفل في الخندق وهو يهرب، وأخذ الصحابة يرمون السهام، فقال: أيها المسلمون! أريد أن أموت موتًا شريفًا، فوافق علي ﷺ ونزل الخندق وقتله.[1]

وكانت الحرب في هذا اليوم حربًا ضارية، استمرت طوال اليوم، فكان الكفار يمطرون السهام والحجارة من كل جانب لا يتوقفون للحظة واحدة، وهذا هو اليوم الذي ورد ذكره في الأحاديث، أن الرسول ﷺ صلى أربع فروض متصلة قضاء،[2] فلم يكن من الممكن التزحزح عن مكان رمي السهام المستمر والحجارة.

إن القلعة التي كانت تتحصن فيها نساء المسلمين كانت بجوار مساكن بني قريظة، وحين رأى اليهود أن الصحابة جميعًا مع النبي ﷺ، هجموا على القلعة، وتمكن يهودي من الوصول إلى باب القلعة، فأخذ يبحث عن مكان يهجم من خلاله على القلعة، فرأته السيدة صفية رضي الله عنها (عمة النبي ﷺ)، وطلبت من حسان (الشاعر) – والذي كان قد عُيّن لحماية النساء – أن ينزل لهذا اليهودي ويقتله حتى لا يذهب ويطلع الأعداء، وكان حسان قد أصيب بحادثة خلقت فيه جبنًا كبيرًا، لدرجة أنه لم يكن يستطيع النظر إلى الحرب، لذا أعلن عن عذره هذا وقال: إن كنت لائقًا لهذا العمل فلم أنا هنا؟ فنزعت السيدة صفية رضي الله عنها عمود خيمة ونزلت من الحصن إلى اليهودي وضربته ضربة قوية فانفجرت رأسه، ثم جاءت وقالت لحسان: انزل إليه واسلبه سلاحه وملابسه. فقال حسان: اسمحي لي بالذهاب، مالي بسلبه من حاجة. قالت السيدة صفية: اذهب واقطع رأسه والق

---

(1) وردت هذه الأحداث إجمالاً في كل الكتب، غير أني كتبتها تفصيلاً نقلاً عن ابن سعد والخميس.

(2) يختلف المحدثون في هذا الأمر اختلافًا شديدًا، هل أدى الرسول أربع صلوات قضاءً أم صلاة واحدة، وهل الأربع صلوات التي أداها الرسول كانت قضاءً ليوم واحد أم لعدة أيام. وفي الزرقاني يوجد تفصيل هذا البحث. ورد في البخاري: (٣٣٥) حَدِيثُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ الأَحْزَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَلأَ اللَّهُ قُبُورَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ نَارًا كَمَا حَبَسُونَا وَشَغَلُونَا عَنِ الصَّلاةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ * (المترجم). كما ورد في البخاري أيضا:(٣٣٦) حَدِيثُ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ جَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ وَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّه وَاللَّه مَا كِدْتُ أَنْ أُصَلِّيَ الْعَصْرَ حَتَّى كَادَتْ أَنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَاللَّهِ إِنْ صَلَّيْتُهَا فَنَزَلْنَا إِلَى بُطْحَانَ فَتَوَضَّأَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَوَضَّأْنَا فَصَلَّى رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَصْرَ بَعْدَ مَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهَا الْمَغْرِبَ * (المترجم).

بها أسفل الحصن حتى يرتعد اليهود، ولكن السيدة صفية هي التي قامت بهذا العمل، فأيقن اليهود بأنه لابد من أن يكون في الحصن رجال، لذا لم يجرؤا على الهجوم ثانية.(١)

وفترت عزيمة المحاصرين بطول فترة الحصار, ولم يكن من السهل توصيل مؤن عشرة آلاف مقاتل, ثم جاءت ريح عاتية فضلاً عن البرد القارس, فجعلت تُقوض خيامهم, ولا تدع لهم قدراً إلا كفأتها, ولا طنباً إلا قلعته. وفعل هذا بهم أكثر مما فعله الجيش, وعبر القرآن الكريم عن هذه الريح الصرصر بجند الله تعالى. قال الله تعالى :

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً "(الأحزاب:٩)

كان نعيم بن مسعود الأشجعي أحد سادة غطفان, وكان اليهود وقريش يثقون به ويقدرونه, وكان قد أسلم ولم يعلم الكفار بإسلامه, فذهب إلى اليهود وقريش كل على حده وتحدث معهم بكلام أدى إلى التفرقة بينهما.

يروى ابن إسحاق أن نعيم بن مسعود نجح في التفرقة بين الفريقين، وتحدث في أمور مع كليهما جعلت كل واحد منهما يشك في الآخر ويسئ الظن به, وقال: إن النبي ﷺ قال بنفسه إن **الحرب خدعة**،(٢) ولكن ابن إسحاق لم ينقل سند هذه الرواية, ولو أنه نقل سندها أيضاً فهو ليس صاحب هذه المكانة التي تمكنه من قبول سنده في هذه الرواية. هذا فضلاً عن أنه كانت هناك وقائع وأحداث توقع التفرقة بين الفريقين وتحول بين اتحادهما ولم تكن هناك حاجة إلى أي تصريح خاطئ. وورد في رواية ابن إسحاق أن نعيم قال لليهود: إن قريشاً سترحل من هنا بعد أربعة أيام, فالبلد بلدكم أنتم والمسلمون؛ لذا لِمَ توقعون بأنفسكم في حرب دائمة؟ ولو تصرون على هذا الأمر فلا تقاتلوا مع قريش حتى يعطوكم رهائن من سادتهم حتى إن أرادت قريش الذهاب والمغادرة دون الفصل في الحرب فتحتجزون هذه الرهائن.

وهذا واضح أيضاً بأن يهود بنى قريظة كانوا في بداية الأمر غير راضين بنقض العهد (مع الرسول) وكانوا يقولون: لِمَ نُنقض عهدنا مع محمد ؟ ولكن حيي بن أخطب

---

(١) انظر الزرقاني، نقلاً عن الطبراني والبزاز وأبو يعلي بسند حسن، ج ٢ صـ١٢، سيرة ابن هشام.

(٢) ورد فى صحيح مسلم : (٤٤٩٤) وحدثنا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَهْمٍ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَك : أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «الْحَرْبُ خُدْعَةٌ» (المترجم).

جعلهم يوافقون على نقض العهد، بشرط أنه لو رحلت قريش فأترك خيبر وأدخل في حصنكم ولم تكن قريش تستطيع أن توافق على مثل هذا النوع من الضمان (الرهائن)؛ لذا حين رفضت قريش ذلك وقع الشقاق بينها وبين اليهود. وبالتالي لم تكن هناك حاجة لأن يصرح صحابي تصريحاً كاذباً.[1]

على أي حال كان البرد القارس، وطول فترة الحصار، والريح القوية، وقلة المؤنة، ومخالفة اليهود وانفصالهم. كانت هذه أسباب وعوامل مؤثرة لم تستطع أقدام قريش على الثبات معها. فقال أبو سفيان للجيش: لقد نفذت المؤن تماماً، وهذا هو حال الجو، وأخلفتنا بنو قريظة، ولا فائدة الآن في الحصار. ثم أمر بقرع طبول الرحيل، ورحلت معه غطفان، كما ترك بنو قريظة الحصار وغادروا إلى قلاعهم. وصفت سماء المدينة من الغبار الذي دام عشرين أو اثنتان وعشرين يوماً. يقول الله تعالى: " **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِياً عَزِيزاً**" (الأحزاب: ٢٥)

استشهد عدد قليل من جيش المسلمين في هذه الغزوة، من بينهم سعد بن معاذ سيد قبيلة الأوس ومن أكبر سادة الأنصار، فقد أصيب إصابة بالغة لم تمكنه من العيش. وواقعة إصابته مؤثرة جداً وبها عبرة. فقد كانت أمه رضى الله عنه تلوذ بالقلعة التي كانت تلوذ بها السيدة عائشة رضى الله عنها، فتقول السيدة عائشة: كنت أسير خارج القلعة، فسمعت وقع أقدام من الخلف، فألتفت ورأيت أنه سعد وفى يده حربة ويقول هذا البيت من الشعر وهو يعدو عدواً سريعاً وذو حماس شديد:

لبث قليلاً تدرك الهيجا جمل لا بأس بالموت إذا الموت كزل[2]

---

[1] تأييد قياس المؤلف هذا يتضح من رواية مغازي موسى بن عقبة، والتي نُقلت بإيجاز في مصنف ابن أبي شيبه ونقلها تفصيلاً ابن كثير في كتابه التاريخ. ويثبت من هذه الرواية أن بنى قريظة وافقت على الدخول في الحرب بشرط أن تدفع لهم قريش رهائن من سادتهم ، ولكن لم يتحقق الشرط، وعليه تولد الشك في نفوسهم تجاه قريش، وأرسلوا خفية إلى رسول الله ﷺ رسالة الصلح بشرط الإذن لعودة بنى النضير إلى المدينة ثانية والذين كانوا قد أُجلوا إلى خيبر. وكان نعيم بن مسعود الثقفي – والذي أسلم في هذه الفترة – رجلاً لا يحفظ السر، فذكر له الرسول رسالة بنى قريظة السرية هذه على سبيل الاختبار، فذهب نعيم إلى قريش وبلغها هذه الرسالة، لذا شكت قريش في بنى قريظة وأخذت تسيء الظن بها، وهكذا وقع الشقاق ودبت التفرقة بين قريش وبنى قريظة. انظر مصنف ابن أبي شيبه كتاب المغازى باب غزوة الخندق، وكتاب البداية والنهاية لابن كثير، ج ٤ .

[2] ابن هشام والطبري وخميس. وقد ورد هذا البيت في سيرة ابن هشام، صـ١٣٦، ج ٣ هكذا:

سمعت أم سعد هذا البيت وصاحت: أي بُنى! اعدو سريعاً فقد والله أخرت. وكان درع سعد صغيراً لدرجة أن يديه كانتا خارجتين منه, فقالت السيدة عائشة رضي الله عنها لأم سعد: ليت درع سعد كان طويلاً، وصدفة رصده ابن العرقة، ورماه بسهم في يده العارية, فقطع منه الأكحل. وأقام له الرسول ﷺ خيمة في صحن المسجد وبدأ علاجه.[1] وكانت "رفيدة" سيدة مشاركة في هذه الغزوة، فكانت تحمل الأدوية وتداوى الجرحى، وكانت تملك خيمة للعلاج كما كانت تشرف على العلاج بنفسها. وكوى النبي ﷺ سعدًا بنفسه, ولكن جرحه تورم ثانية، ثم كواه مرة أخرى، ولكن دون فائدة. وبعد عدة أيام؛ أي بعد هلاك بنى قريظة، انفتح الجرح ومات.

نهاية بنى قريظة

ذُكر سابقاً أن النبي ﷺ كان قد عقد معاهدة مع اليهود في بداية إقامته بالمدينة, وذلك على النفس والمال وحرية الدين والأمن وفى كل شئ آخر، ولكن حين أرسلت لهم قريش كتاباً يُهددونهم ويُحرضونهم على رسول الله ﷺ، تمردوا وبغوا. وأراد النبي ﷺ تجديد المعاهدة معهم, فرفض بنو النضير, وأُجلوا من المدينة, ولكن بنى قريظة جددوا المعاهدة ثانية بأكملها.[2] لذا مُنحوا الأمن والأمان كاملاً. وقد ذُكرت هذه الأحداث بإيجاز في صحيح مسلم:-

عن ابن عمر أن يهود بنى النضير وقريظة حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجلى رسول الله ﷺ بنى النضير وأقر قريظة, ومَنّ عليهم.

(صحيح مسلم ذكر إجلاء اليهود من الحجاز)

حين أُجلي بنو النضير من المدينة، ذهب زعمائهم؛ حيي بن أخطب وأبو رافع، وسلام بن أبى الحقيق إلي خيبر وأقاموا بها, كما حصلوا على الزعامة بها أيضاً. وكانت

لبث قليلاً يشهد الهيجا جمل   لا بأس بالموت إذا حان الأجل

[1] وهذا قول خميس. ونقل الحافظ ابن حجر في كتاب الإصابة (ذكر رفيدة) عن الأدب المفرد للإمام البخاري، أن رفيدة كانت سيدة تعالج الجرحى, وأُخذ سعد رضى الله عنه إليها لعلاجه. وذكر ابن سعد في الحديث عن رفيدة بأنها كانت لها خيمة بجوار المسجد النبوي، وكانت تداوى الجرحى والمرضى فيها. وورد ذكر لخيمة رفيدة ومعالجتها للمرضى في صحيح البخاري أيضاً.

[2] بيّن الواقدى مؤامرة واقعة تجديد معاهدة بنى قريظة هذه على لسان حيي بن أخطب. يقول حيي بن أخطب: أنهم جدّدُوا هذه المعاهدة إلى أن تحين فرصة اتحادهم مع الكفار فيهجمون على المسلمين. المغازى للواقدي، صـ٣٦٢، كلكتا الهند. " سيد سليمان الندوى ".

غزوة الأحزاب نتيجة لمكائدهم ومحاولاتهم (للنيل من الإسلام)، إذ التقوا بقبائل العرب جميعاً وأشعلوا النار في البلد بأسره، واتحدوا مع قريش وهجموا على المدينة وكان بنو قريظة ما زالوا على عهدهم حتى ذلك الوقت، ولكن حيي بن اخطب ما زال بهم حتى نقضوا عهدهم، ووعدهم بأنه: لو أن قريشاً لا قدر الله انسحبت من الحرب، وتركت الهجوم على المدينة فسوف أترك خيبر وأعود إليكم هنا وأعيش معكم، وقد وفّى بهذا العهد.

اشتركت قريظة علانية في غزوة الأحزاب،[١] ومنيت بهزيمة، فتراجعت وعادت إلى قلاعها مصطحبة معها ألد أعداء الإسلام؛ حيي بن أخطب.[٢]

والآن لم يكن هناك أي حل سوى الفصل النهائي في أمر بني قريظة، وحين انتهت غزوة الأحزاب أمر الرسول ﷺ المسلمين بألا يضعوا السلاح، ويتوجهوا إلى قريظة. ولو أن بنى قريظة استعدوا للصلح لأُعطى لهم الأمن والأمان، ولكنهم كانوا قد قرروا المواجهة. وحين تقدم علي ﷺ الجيش، ووصل إلى قلاعهم، سمع منهم علانية مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ.[٣] خلاصة القول إنهم حوصروا قرابة شهر، حتى قالوا في النهاية إننا سنرضى بما يقوله سعد بن معاذ في هذا الأمر.

كان سعد بن معاذ وقبيلته " الأوس " حليفة لبنى قريظة ولها معها عهداً. وكان هذا يفوق قرابة النسب عند العرب، فوافق النبي ﷺ على طلبهم.

كان النبي ﷺ يلتزم بما جاء في التوراة في أي شئ لم ينزل بشأنه أي حكم خاص في القرآن الكريم، وهناك أمثلة كثيرة على هذا، من بينها القبلة في الصلاة، والرجم والقصاص وغيرها من المسائل الدينية الأخرى، فعمل الرسول ﷺ بما جاء في التوراة طالما لم ينزل وحي بشأنها. وحكم سعد بقتل الرجال المحاربين، وسبى النساء والأطفال،

---

[١] لا يسلم السير وليم ميور برواية أرباب السير هذه؛ وهى أن بنى قريظة اشتركوا فعلاً في هذه الغزوة ، ويستدل على هذا بأنه لو أن لليهود دور في هذه الغزوة لكان من الضروري أن يأتي ذكرهم في القرآن الكريم في الحديث عن الأحزاب. ولكن جاء في القرآن بوضوح " وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب "، فأي لفظ يحتاج إليه أوضح من "مظاهرة".

[٢] الطبري، ج ٣، صـ١٤٨٧، وابن هشام صـ ١٤٦ ج ٢.

[٣] ورد في الطبري ج ٣ صـ ١٤٨٥ " **حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ منهم** (سيد سليمان الندوى).

وتقسيم أموالهم على أنها غنائم.[1] وهذا طبقاً للتوراة. ورد في التوراة، سفر التثنية، الإصحاح ٢٠، الفقرات ١٠ ــ ١٤.[2]

" حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح. فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك. "

ورد في كتب الحديث أنه حين حكم سعد ﷺ بهذا الحكم قال النبي ﷺ: لقد حكمت فيهم. بحكم الله من فوق سبع سماوات. وكان هذا القول إشارة إلى حكم التوراة المذكور. وحين أُسمع هذا الحكم لليهود، أثبتت الجمل التي خرجت من ألسنتهم أنهم أنفسهم كانوا يعتقدون أن هذا الحكم موافق للحكم الإلهي ومطابق له.

وحين أُخذ حيي بن أخطب – أساس الفتن كلها – إلى مكان القتل، نظر إلى الرسول ﷺ وقال: **أما والله ما لُمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل.**

ثم قال مخاطباً الناس:

أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل.[1]

---

[1] صحيح مسلم ج ٧ صــ٧٧، باب جواز قتل من نقض العهد، وجواز إنزال أهل الحصون على حكم حاكم عدل، أهل للحكم " سيد سليمان الندوى ". وقد رُوى عن أبي سعيد الخدري أنه قال: نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد فأتاه على حمار فلما دنا قريباً من المسجد، قال رسول الله ﷺ للأنصار: قوموا إلى سيدكم "أو خيركم"، ثم قال: إن هؤلاء نزلوا على حكمك. قال: تُقتل مقاتلتهم وتسبى ذريتهم. فقال النبي ﷺ قضيت بحكم الله". (صحيح مسلم، ج١٢، ص٩٢،٩٣). (المترجم). كما ورد في صحيح البخاري أيضاً، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب " سيد سليمان الندوي "؛ ففي هذا الباب ذكر مفصل لهذه الواقعة. ويذكر السير مارجوليوث أن رجلاً من بنى قريظة رمى سعد بن معاذ في هذه الغزوة بسهم فأصيب إصابة بالغة توفى على أثرها, لذا حكم على بنى قريظة بهذا الحكم القاسي. في حين أن ابن العرقة رامى هذا السهم كان قرشياً ليس قريظياً. وورد تصريح واضح بهذا في صحيحي البخاري ومسلم.

[2] ـ التوراة، سفر التثنية، إصحاح ٢٠، الفقرات ١٠ ـ ١٤. وهذا نصه بالعبرية:

כי - תקרב אל - עיר להלחם עליה וקראת אליו לשלום: והיה אם - שלום תענך ופתחה לך והיה כל - בעם הנמצא - בה יהיו לך למס ועבדוך: ואם - לא תשלים עמך ועשתה עמך מלחמה וצרת עליה: ונתנה יהוה אלוהיך בידך והכית את - כל - זכורה לפי - חרב: רק הנשים והטף והבהמה וכל אשר יהיה בעיר כל - שללה תבוז לך ואכלת את - שלל אויביך אשר נתן יהוה אלוהיך לך: (المترجم).

وهناك أمر جدير بالذكر يتعلق بحيي بن أخطب، وهو أنه كان قد تعاهد وهو يرحل من المدينة إلى خيبر على أنه لن يناصر أي أحد ضد رسول الله ﷺ.[٢] وكان قد جعل الله تعالى وكيلاً في هذه المعاهدة، ولكنه نقض هذه المعاهدة تماماً في غزوة الأحزاب كما مر عليك سابقاً.

اعترض أعداء الإسلام اعتراضاً شديداً على ما جرى لبنى قريظة، وقالوا بأن هذا ظلماً وقسوة ولكن الأحداث هي:

١- جاء النبي ﷺ المدينة المنورة وعقد معهم معاهدة صداقة وود, وفيها أعطاهم حرية الدين الكاملة وأقر الحفاظ على أنفسهم وأموالهم.

٢- كان بنو قريظة أقل من بنى النضير في المكانة؛ أي أنه حين كان يقتل أحد من بنى النضير رجلاً من بنى قريظة، كان يعطى نصف الدية فقط, وإذا حدث العكس من هذا فكان القاتل من بنى قريظة يعطى الدية كاملة. وأحسن النبي ﷺ إلى بنى قريظة وجعل مكانتهم مساوية لبنى النضير.[٣]

٣- جدد النبي ﷺ معاهدته مع بنى قريظة ثانية حين أجلى بنى النضير من المدينة.

٤- وبالرغم من كل هذا نقض بنى قريظة العهد وشاركوا في غزوة الأحزاب.

٥- أرسلت أمهات المؤمنين رضي الله عنهن إلى القلعة حفاظاً عليهن, وأراد بنو قريظة الهجوم عليهن.

٦- اصطحب بنو قريظة حيي بن أخطب ثانية إلى المدينة، والذي كان قد أُجلى عنها بجريمة تمرده وبغيه, وهو الذي أشعل النار في نفوس العرب جميعاً وجهز لغزوة الأحزاب، وبالتالي كان رأس أسباب هذه الغزوة واشتعال نار القتال.

فأي سلوك غير هذا كان يجب أن يتبع مع بنى قريظة وأعمالهم هذه.

وجدير بالذكر أن المعاهدة كانت عند العرب بمثابة الأخوة الحقيقية تماماً, وكان بنو قريظة حلفاء للأنصار. وعليه، توسط الأنصار جميعاً (الأوس) نتيجة لإلحاحهم

---

[١] وردت هاتان العبارتان في كتاب سيرة ابن هشام (غزوة بنى قريظة), كما وردتا في كتاب تاريخ الطبري أيضاً بهذه الألفاظ تقريباً.

[٢] البلاذري طبعة أوروبا صـ٢٢، كما وردت هذه الرواية أيضا في كتاب المصنف لابن أبي شيبه, وكتاب المغازى باب بنى قريظة. " سيد سليمان الندوى ".

[٣] أبو داود (ج ٢, كتاب الديات, باب النفس بالنفس). (سيد سليمان الندوى).

الشديد, وكان سعد بن معاذ سيد الأوس, كما كان هو المسئول عن هذه المعاهدة في الحقيقة, وبالتالي كان ﷺ في صراع شديد, فالقضية هي قضية موت أو حياة حلفائه, وكان الأنصار (الأوس) يصرون على مناصرتهم، ولكن لم يكن أمام سعد بن معاذ سوى هذا الحكم العادل.

ذكر أرباب السيرة أن عدد القتلى يزيد عن ستمائة قتيل, ولكن ورد في الصحاح أن عدد القتلى أربعمائة قتيل كان من بينهم امرأة واحدة فقط، والتي قتلت قصاصاً لأنها كانت قد طرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته.[1] وورد في سنن أبى داود[2] عن جرأة وشجاعة هذه المرأة حين أُقتص منها:-

كانت قد علمت بأن اسمها مدرج في قائمة من سيقتلون. وكان المجرمون يأتون إلى مكان القتل، وينادى على كل أحد باسمه، فكانت تسمع بأذنها وترى ما يحدث, ولكنها بالرغم من هذا كانت تتحدث دون أي خوف أو تكلف مع السيدة عائشة رضي الله عنها وتضحك, وفجأة هتف القاتل باسمها فنهضت دون خوف أو تردد, فسألتها السيدة عائشة: إلى أين ؟ قالت: لجرم ارتكبته وذاهبة الآن لتحمل عقابه, فذهبت إلى مكان القتل وهي سعيدة ووضعت رأسها تحت السيف. وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها تقص هذه الواقعة بحيرة وتعجب بالغ من أمر هذه المرأة.

حادثة ريحانة الخاطئة

كتب عدد من أرباب السير أن النبي ﷺ أمر بعزل سيدة يهودية من سبايا بني قريظة تدعى ريحانة، وبعد عدة أيام ضمها إلى حرمه, لذا كتب المؤرخون أن النبي ﷺ كان يتمتع هو أيضاً بالجواري وقدموا مثالين لهذا. أحدهما هو ريحانة هذه والثاني هو مارية القبطية.

وسلم المؤرخون المسيحيون بهذه الحادثة وعرضوها بصورة سيئة تماماً.

---

[1] ابن هشام , غزوة بنى قريظة.

[2] أبو داود , كتاب الجهاد , باب قتل النساء. روى عن عائشة أنها قالت: لم تقتل من نسائهم إلا امرأة، إنها لعندي تحدّث تضحك ظهراً وبطناً، ورسول الله ﷺ يقتل رجالهم بالسيوف إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت:"أنا". قلت: وما شانك؟ قالت: حدث أحدثته. قالت: فانطلق بها فضُربت عنقها. قالت: فما أنسى عجباً منها أنها تضحك ظهراً وبطناً وقد علمت أنها تُقتل. (أبو داود، ج ٢، ص ٥٠).(المترجم).

يكتب مؤرخ بافتراء بيّن، أن مؤسس الإسلام حين رأى منظر تقلب وتلوى جثث القتلى السبعمائة، ذهب إلى البيت ومن أجل المتعة قام بـ...

ولكن الحقيقة هي أن هذه الحادثة بأكملها خاطئة تماماً.

إن الروايات المتعلقة بضم ريحانة إلى نسائه ﷺ كلها مأخوذة من الواقدى أو ابن إسحاق, وذكر الواقدى صراحة أن النبي ﷺ كان قد تزوج بها. ونقل ابن سعد رواية الواقدى وفيها نقل ألفاظ ريحانة نفسها: **فاعتقني وتزوج بي**

وهذا هو نص الرواية التي نقلها الحافظ ابن حجر في كتاب الإصابة من كتاب تاريخ المدينة لمحمد بن الحسن: **وكانت ريحانة القريظية زوج النبي ﷺ تسكنه.**

إن كتاب طبقات الصحابة للحافظ ابن منده يعد مصدرًا لكل المحدثين المتأخرين ورد فيه.[1]

واشترى ريحانة من بنى قريظة ثم أعتقها, فلحقت بأهلها, واحتجبت وهى عند أهلها.

وينقل الحافظ ابن حجر هذه العبارة ويكتب ويقول: **وهذه فائدة جليلة أغفلها ابن الأثير.**

ويتضح تماماً من عبارة الحافظ ابن منده أن النبي ﷺ كان قد أعتقها, وذهبت إلى أهلها, واحتجبت كالزوجات.

هذه هي الحادثة الصحيحة عندنا، وهى أنه لو يسلم بأنها ضُمت إلى نساء النبي ﷺ فقطعاً ضُمت على أنها زوجة ﷺ وليست جارية.[2]

---

(1) انظر كتاب الإصابة في أحوال الصحابة, ذكر ريحانة, ج ٤, صـ ٣٠٩.

(2) توجد ثلاثة أنواع من الروايات في كتب السيرة عن السيدة ريحانة رضي الله عنها، الأولى: هي أن الرسول ﷺ أعتقها, فلحقت بأهلها واحتجبت وهى عند أهلها. وهذه رواية ابن منده؛ ولكن لا توجد أي رواية أخرى تؤيدها. والنوع الثاني من الرواية هو أن النبي ﷺ أعتقها وأراد أن يجعلها كبقية أمهات المؤمنين؛ ولكنها شعرت بمسئولية غير عادية ورضيت بأن تصبح جارية وتبقى في خدمة النبي ﷺ، وهذه رواية ابن إسحاق. والنوع الثالث من الرواية هو أن النبي ﷺ خيرها فاعتنقت الإسلام وأعتقها النبي ﷺ وتزوجها. وهذه رواية الواقدى .وذكر ابن سعد هذه الرواية ذاتها نقلاً عن الواقدى بأسانيد مختلفة, وكتب الواقدى أن هذه أصح الروايات. أنظر كتاب البداية لابن كثير ج ٥ صـ ٣٠٥. وأيد الإمام الزهري أيضاً زواجها من النبي ﷺ. لمزيد من التفصيل أنظر الإصابة. ذكر ريحانة.

الزواج بالسيدة زينب رضى الله عنها

وفى هذه السنة تزوج النبي ﷺ بالسيدة زينب رضي الله عنها والزواج أمر عادى، وسوف نتحدث عنه تفصيلاً تحت عنوان **أزواج النبي** ﷺ رضي الله عنهن أجمعين. ولكن في هذه الواقعة توجد ظروف جعل منها المخالفون مشكلة كبرى, فقد كتب المؤرخون المسيحيون واقعة هذا الزواج بحروف ساطعة وملونة وافتروا على الرسول ﷺ افتراءً.

ونكتب هنا عن هذه الواقعة بالتفصيل حتى نُوضح اللبس الذي اتخذ منه الأعداء وسيلة للافتراء والإدعاء على أخلاق النبي ﷺ.

تبنى النبي ﷺ زيدًا – الذي كان مولى له ﷺ وحرره – وحين وصل سن البلوغ, أراد النبي ﷺ أن يزوجه بالسيدة زينب رضي الله عنها – ابنة عمة النبي أميمة بنت عبد المطلب – ولكن زينب رضي الله عنها لم توافق بهذا الزواج لأن زيد كان في البداية عبداً **وكان رسول الله ﷺ أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه فكرهت ذلك.**[1]

ولكن السيدة زينب رضي الله عنها وافقت على ما أمر به النبي ﷺ في نهاية الأمر, وأمضت سنة في عقد زيد ﷺ تقريباً, وكان كثيراً ما يقع بينهما الخلاف والشقاق, حتى جاء زيد ﷺ النبي ﷺ واشتكى له منها رضي الله عنها، وأراد أن يُطلقها **جاء زيد بن حارثة فقال يا رسول الله عن زينب اشتد على لسانها وأنا أريد أن أطلقها.**[2]

ولكن النبي ﷺ نصحه مراراً بألا يُطلقها. يقول تعالى:" وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله... " (الأحزاب: ٣٧)

ولكن زيد لم يحتمل صحبتها رضى الله عنها, فطلقها. كانت السيدة زينب رضي الله عنها ابنة عمته ﷺ. فكانت بمثابة الأخت بالنسبة له, وتربت في كنفه, ومن هنا كانت قد وافقت على هذا الزواج تنفيذاً لرأيه ونصحه ﷺ. في حين أنها كانت كارهة لهذا الزواج, ولكن النبي ﷺ كان قد أراد بهذا الزواج أن يُرسى مبدأ المساواة في الإسلام وعدم التفرقة بين الحر والعبد. وحين طُلقت، أراد النبي ﷺ أن يتزوجها هو نفسه جبراً لخاطرها, وكان الابن المتبنى عند العرب حتى ذلك الوقت كالابن الصلب تماماً دون أي تفرقة في شيء, لذا خشى النبي ﷺ من هذا الاعتقاد الراسخ في أذهان الناس, في حين أن هذا عُرف جاهلي محض وكان الهدف هو محوه وإزالته, وعليه نزلت هذه الآية:

---

(١) فتح البارى, تفسير سورة الأحزاب, نقلاً عن ابن أبى حاتم.

(٢) فتح البارى, تفسير سورة الأحزاب, نقلاً عن رواية عبد الرازق عن معمر عن قتادة.

"وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا"(الأحزاب: ٣٧)

خلاصة القول أن النبي ﷺ تزوج بالسيدة زينب, ومحى بهذا الزواج اعتقاد الجاهلية؛ وهو أن الابن المتبنى يأخذ حكم الابن الصلب، وهنا طعن المنافقون وسيئو الظن طعنات كثيرة، ولكن الرسول ﷺ لم يخشاهم وخشي الله تعالى.

إن أصل الواقعة وحقيقتها أمر بسيط جداً, وبيّنها الأعداء والمعترضون بكل افتراء وكذب, ولكن في الوقت نفسه يجب علينا أن نعترف بأنهم استعاروا منا نحن اللون الأسود من أجل تلوين هذه الواقعة.

ورد في تاريخ الطبري أن النبي ﷺ ذهب ذات مره للقاء زيد ﷺ في بيته ولم يكن زيد موجوداً, وكانت السيدة زينب ترتدى ملابسها، ورآها النبي ﷺ وهى في هذه الحالة وقال: **سبحان الله العظيم سبحان الله مصرف القلوب.**[١]

وحين علم زيد رضى الله عنه بهذا، قال للنبي ﷺ لو أن زينب رضي الله عنها تعجبك فأُطلقها أنا.

قسوت على قلبى وأجبرته على نقل هذه الرواية الفاحشة السيئة فنقل الكفر كفر. وهذه هي الرواية التي استند عليها المؤرخون المسيحيون, ولكن هؤلاء المساكين لا يعرفون درجة هذه الرواية وصحتها من عدمه طبقاً لأصول علم الرواية فقد نقل المؤرخ الطبري هذه الرواية عن طريق الواقدى, والذي يُشتهر بأنه كذاب وأفاك والذي كان هدفه من مثل هذا النوع من الروايات الفاحشة أن يجد سنداً للهو ومتعة العباسيين.

وفضلاً عن الطبري، نقل آخرون مثل هذا النوع من الروايات الفاحشة واعتبرها علماء الحديث أنها روايات غير جديرة بالتشاغل بها. والحافظ ابن حجر متبحر في رواية الحديث وصعب جداً, ويكتب في فتح الباري (في تفسير سورة الأحزاب) في البحث عن أمر هذه الواقعة **ووردت آثار أخرجها ابن أبى حاتم والطبري, ونقلها كثيرٌ من المفسرين لا ينبغي التشاغل بها.**

ويكتب الحافظ ابن كثير المحدث المشهور في تفسيره:-

---

[١] تاريخ الطبرى بداية أحداث سنة ٥ هـ.

ذكر ابن أبى حاتم وابن جرير هاهنا آثار عن بعض السلف رضى الله عنهم أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها. وقد روى الإمام أحمد هاهنا أيضاً من رواية حماد بن زيد عن ثابت عن أنس ﷺ فيه غرابة تركنا سياقه أيضاً.

وحقيقة الأمر هي أن المنافقين كانوا يتمتعون بقوة في ذلك الوقت. فإن الافتراء الذي افتراه الناس على السيدة عائشة قد حدث في هذه السنة ذاتها أيضاً. فكان المنافقون ينشرون هذه الأخبار حتى تصير على لسان كل طفل, لدرجة أن بعضاً من المسلمين أنفسهم وقعوا في جرم التهمة التي ألصقت بالسيدة عائشة, والذين وقع عليهم حد القذف طبقاً للشريعة الإسلامية, وبقيت هذه الروايات كما هي في كتب كتبها أصحابها دون احتياط وتحر للصحة, ولكن لا يوجد ذكر لهذه الروايات عند علماء الحديث المعتبرين، من مثل الإمام البخاري والإمام مسلم وغيرهما.

أحداث متفرقة في سنة ٥ هـ

(نزلت أحكام إصلاحية كثيرة عن النساء في هذه السنة, فكانت النساء المسلمات حتى ذلك الوقت تسير وتطوف بطريقة جاهلية, مرتدية ملابس مزينة بزينة (مخالفة للإسلام)، فنزل الحكم أنه إذا خرجت النساء من بيوتهن فلابد أن يدنين عليهن من جلابيبهن، وأن يضربن على جيوبهن، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن. ولا يتحدثن إلا من وراء حجاب, ولا يخضعن بالقول.

كان الزواج بزوجة الابن المتبنى غير جائز في الجاهلية، وتم إصلاح هذا العرف الخاطئ في هذه السنة. وفى هذه السنة أيضاً نزل حد الزنا وهو مائة جلدة, كما نزل أيضاً حد القذف، فكان قذف النساء العفيفات في الجاهلية أمر عادى، فنزل حد القذف كحماية قانونية لمنع الهجوم على النساء, والذي لابد له من شهود حتى تثبت الجريمة؛ وإلا يقع على من يقوم بهذا حد القذف. كما أُعلن عن طريقة اللعان في حالة عدم وجود الشهود؛ أي يحلف[1] الزوج والزوجة على صدقهما ثم يفرق بينهما.[1]

---

[1] يقول الله تعالى: " والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ۝ والخامسة أن لعنت الله عليه إن كان من الكاذبين ۝ ويدرؤوا عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ۝ والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ۝" (النور: ٦- ٩)

كان هناك نوع من الطلاق مشهور عند العرب يقال له الظهار, أعلن الإسلام في هذه السنة أن مثل هذا النوع من الطلاق لا أثر له وحددت له كفارة.

كما شُرع التيمم في هذه السنة في حالة عدم وجود الماء, كما نزل حكم صلاة الخوف في القرآن الكريم في هذه السنة أيضاً, والتي سنتحدث عنها تفصيلاً في حينه.

[1] البخارى, ج ٢, صـ ٢٧٠٧، روى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً رمى امرأته، فانتفى من ولدها في زمن رسول الله، فأمر بهما رسول الله فتلاعنا كما قال الله، ثم قضى بالولد للمرأة وفرق بين المتلاعنين. (البخاري، ج٣، ص٢٣٤). (المترجم). وورد في سيرة الكازرونى، ولابد من النظر في أبى داود ج ٢ صـ ٢١٢ وأيضاً فتح البارى ج ٢ صـ ١٠٦ وهذه الأحكام كلها نزلت في سورة النور سنة ٥ هـ، قريبة من حادثة الإفك".

سنة ٦ هـ

صلح الحديبية وبيعة الرضوان في ذى القعدة سنة ٦ هـ

كان هناك بئر على مسافة منزل من مكة المكرمة يُسمى بالحديبية، واشتُهرت القرية التي بها هذا البئر بهذا المسمى أيضاً, ولما عقدت معاهدة الصلح في هذا المكان أُطلق عليها صلح الحديبية.

ولهذه الواقعة أهمية بالغة في تاريخ الإسلام, إذ كانت بمثابة مقدمة لنجاح وانتشار الإسلام كله فيما بعد؛ ولهذا – وبالرغم من أن هذه كانت معاهدة صلح فقط، وكان الصلح في الظاهر يعنى الانهزام – أطلق الله تعالى في القرآن الكريم على هذا مسمى الفتح, وكانت الكعبة المركز الأصلي والرئيسي للإسلام, وكان إبراهيم عليه السلام هو الذي أسس الإسلام, كما أنه أوجد لقب الإسلام هذا أيضاً:

" هو سمَّاكم المسلمين " (الحج: ٧٨)

إن الشريعة التي نزلت على محمد ﷺ لم تكن بشريعة جديدة بل هي الشريعة الإبراهيمية:

" ملة أبيكم إبراهيم " (الحج: ٧٨)

وبالرغم من طول وامتداد فترة الزمن وتحول أولاده إلى عبادة الأصنام إلا أن الكعبة – التذكار الإبراهيمي – كانت قبلة للعرب يأتمون بها في كل شئونهم, كما كانوا جميعاً يعتبرونها تركة آبائهم المشتركة, ليس فقط العرب الذين كانوا من نسل إبراهيم؛ بل القحطانيين أيضاً, الذين لا ينتمون إلى سلسلة نسب إبراهيم عليه السلام. وكانت قبائل العرب تتقاتل فيما بينها طوال السنة، كما كانت غاراتهم وما يقومون به من سلب ونهب وسيلة لاستمرار حياتهم؛ إذ كان كسب معاشهم ينحصر في ذلك, ولكن كانت الحروب والقتال بكافة أنواعه، يُوقف ويُحرم لمدة أربعة أشهر يُطلق عليها مسمى الأشهر الحرم, وكانت قبائل العرب تأتى مسافرة من أماكن بعيدة وتؤدى طقوس العبادة في مكان القبلة هذا, وفيه تجتمع القبائل المتناحرة والمتقاتلة معاً في آن واحد, ويختلطون فيما بينهم وكأنهم جميعاً أخوة. وقد أُخرج المسلمون جبراً وقصراً من مكة المكرمة ولم ينسوا أبداً أن لهم

على الأقل حقاً في الكعبة بقدر ما لقبائل العرب الأخرى, هذا فضلاً عن ارتباط المسلمين المتعدد بمكة المكرمة بجانب أنها وطنهم القديم الحبيب.

كان تذكر مكة بمثابة شوكة تؤثر في قلوبهم في كل لحظة, فبمكة أُذي بــلال ﷺ إيذاءً كبيراً, ولكنه كان يبكي حين يذكر مكة ويصيح وينشد هذه الأبيات[1]:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بــواد وحولي أذخــر وجليل

وهــل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل[2]

نجى أكثر المهاجرين بأنفسهم وهاجروا إلى المدينة، تاركين أسرهم وعيالهم بمكة.

- وحج البيت ركن أساسي من أركان الإسلام, ولهذا كانت هناك أســباب مختلفــة جعلت النبي ﷺ يقصد مكة المكرمة, وأحرم بالعمرة[3] هو ومن معه, آخذين معهــم إبــل الهدى, وأمر من معه بألاّ يخرج أحد بسلاح, إلا سلاح المسافر الذي كان يعتبره العــرب شيئاً ضرورياً في السفر, كما اشترط أن يكون هذا السلاح في غمده.

ولما كان المهاجرون بصفة خاصة وأكثر الأنصار منتظرين منذ زمن لهذا الحظ العظيم, لذا ضم هذا السفر ١٤٠٠ مسلماً, فلما كانوا بزي الحليفة قلدوا الهدى وأشــعروه. أي علقوا نعلا من حديد كعلامة للهدى في رقاب إبل الهدي.

وعلى سبيل الاحتياط أُرسل رجل من قبيلة خزاعة، كان قد أسلم ولم تعرف قريش بإسلامه – حتى يخبر الرسول عن قريش، وحين وصلت قافلة المسلمين على مقربة مــن عسفان أتاه عينه فقال: إني تركت قريشاً قد جمعت لك الأحابيش وقالوا لن يستطيع محمد ﷺ أن يدخل مكة أبداً. وخلاصة القول أن قريشاً استعدت استعداداً قوياً للمواجهة، وأرسلت حلفائها من القبائل كي يأتوا مع جيوشهم الكبيرة، وتجمع جيش الكفار عند بلد في خــارج مكة, وقاد خالد بن الوليد – والذي لم يكن قد أسلم بعد – مائتي فارس من بينهم عكرمة بن أبى جهل, وتقدم كطليعة للجيش، ووصل الغميم بين رابغ والجحفة.

---

(١) وردت هذه الأبيات في صحيح البخاري (باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة "سيد سليمان الندوي ".

(٢) وردت هذه الأبيات في صحيح البخارى بهذه الصيغة:

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بواد وحولى أذخــر وجــليل

وهل أردن يوما مياه مجنــة وهل يبدون لى شامة وطفيل

(٣) **وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه.** ابن هشام.

علم النبي ﷺ أن قريشاً قد أرسلت خالداً طليعة للجيش وقد وصل إلى الغميم, لـــذا سلك وأصحابه ذات اليمين، وحين وصلوا قرب الغميم، تراءى لخالد غبارَ الخيول يتطاير, فعدا بفرسه وأعلن قريشًا بأن جيش الإسلام وصل إلى الغميم, وتقدم النبي ﷺ حتى وصل الحديبية ونزل بها. وكان الماء يقل بهذا المكان, إذ كان به بئر قد نضُب ماؤه، ونزلـــوا, لكن البئر فاض بالمياه بفضل الإعجاز النبوي.

لم تكن قبيلة خزاعة قد اعتنقت الإسلام، لكنها كانت حليفة المسلمين، ومحل ثقتهم, وكانت تُطلع الرسول ﷺ دائما بما يكيده الكفار وقريش من مكائد ومؤامرات ضد الإسلام. وكان بديل بن ورقاء سيد هذه القبيلة الأكبر (والذي أسلم في فتح مكة) وحين علم بمجيء النبي ﷺ، جاءه في رجال من خزاعة, وقالوا له ﷺ: إن قريشًا قادمة بجيش جرار, ولـــن يسمحوا لك بالذهاب إلى الكعبة. قال النبي ﷺ: إنا لم نجيء لقتـــال أحـــد، ولكـــن جئنـــا معتمرين[1]، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم، ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن أبوا إلا القتال، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن الله أمره.[2] ذهب بديل إلى قريش وقال لها: جئتكم برسالة من محمد, وإن تأذنوا لي أقولها. فنهض بعض الأشرار وقالوا: لا حاجة لنا في الاستماع لرسالة محمد, ولكن العقلاء منهم سمحوا له. فعرض بديل شروط سيدنا محمد ﷺ. نهض عروة بن مسعود الثقفي وقال: يـــا أهـــل قريش ألست أنا بأبيكم وأنتم أولادي؟ قالوا: نعم. قال عروة: أتظنون بي أي سوء؟ قالوا: ما أنت عندنا بمتهم. فقال عروة: إذن اسمحوا لي أن أذهب بنفسي إليه وأفصل في الأمر, فإن محمداً قد قدم شروطًا معقولة. جاء عروة إلى النبي ﷺ وأبلغه برسالة قريش وقال: يا محمد! افترض أنك استأصلت قريشاً فهل هناك مثال لهذا بأن أحداً أهلك قومـــه بنفســـه، وفضلاً عن هذا، لو تغيرت دفة الحرب فسوف ينكشف عنك أصحابك هؤلاء، فغضب أبو بكر ﷺ من سوء الظن هذا وسبه وقال: أنحن ننكشف عن محمد ﷺ ونتركه؟ قـــال عروة

---

[1] العمرة: حج صغير تُؤدَّى فيها أكثر شعائر الحج (أي فيها الإحرام مـــن الميقـــات خـــارج الحـــرم، والطواف حول الكعبة، والسعي بين الصفا والمروة، والتحلل من الإحرام بالحلق أو بقص الشعر).

[2] صفحة العتق (المترجم: نقلاً عن سيرة ابن هشام صـــ ١٩٧ ج ٣).

الرسول ﷺ: من هذا؟ فقال النبي ﷺ: أبو بكر. قال عروة: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت عندي لم أجزك بها لأجبتك.[1]

كان عروة يتحدث مع النبي ﷺ دون تكلف, وكلما كلمه - كعادة العرب - أخذ بلحيته, وفعل هذا أكثر من مرة؟ مما أثار غيظ المغيرة بن شعبة الذي كان يقف خلف النبي ﷺ وفى يده السيف, وقال لعروة: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ وإلا إذا قدمتها فلن تصل إليك ثانية. تعرف عروة على المغيرة ﷺ وقال: أي غدر, أو لست أسعى في غدرتك؟ (كان المغيرة قد قتل عدداً من الرجال, وأدى عروة ديتهم عنه).

- رأى عروة منظر عقيدة الصحابة رضوان الله عليهم برسولهم ﷺ، وأثّر هذا في نفسه كثيراً, وذهب إلى قريش وقال لها: لقد وفدت على الملوك، ورأيت بلاط قيصر وكسرى والنجاشي, ولكنى ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه كما يعظم أصحاب محمد محمداً , فإذا تكلم محمد ساد الصمت وخفضوا أصواتهم عنده, وما يحدون إليه النظر تعظيماً له, وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه, وإذا تنخم نخامة أو بصق، يأخذها محبوه بأيديهم ويدلكون بها الوجه واليد.[2]

حين احتدم الأمر, أرسل النبي ﷺ خراش بن أمية إلى قريش، ولكن قريشاً ضربت ناقة ركوبته التي كانت خاصة بالنبي ﷺ، وهموا على ضربه هو الآخر، ولكن أصحاب القبائل المتحالفة معهم أنقذوه ﷺ من أيديهم , فنجا بنفسه ورجع.

أرسلت قريش فصيلة من الجيش للهجوم على المسلمين، ولكن تم أسر أفرادها جميعاً, ولكن النبي ﷺ عفا عنهم رغم سوء ما فعلوه، وأطلق سراحهم.

وفى ذلك أنزل الله[3] قوله تعالى:

"وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم"(الفتح: ٢٤)

---

(١) كما وردت هذه العبارة في سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٠٠ هكذا: **" أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها , ولكن هذه بها"** (المترجم) .

(٢) البخاري, كتاب الشروط, باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (سيد سليمان الندوي). "... ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه. قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيما له". (البخاري، ج٢، ص١٨٩). (المترجم).

(٣) هناك اختلاف شديد في سبب نزول هذه الآية, ولكن هذه الرواية هي أصح الروايات.

بيعة الرضوان

وفى النهاية رشح الرسول ﷺ عمر ﷺ للذهاب إلى قريش كي يفاوضهم في الصلح, ولكن عمر ﷺ اعتذر وقال: يا رسول الله ليس لي بمكة أحد من عشيرتي يغضب لي إن أُوذيت, وقد عرفت قريش عداوتي لها. فأرسل النبي ﷺ عثمان ﷺ وذهب إلى مكة في حماية عزيز له (إبان بن سعيد), وبلّغ قريش برسالة الرسول ﷺ, ولكن قريش احتبسته عندها, وذاع خبر بأن عثمان قد قتل, وحين علم النبي ﷺ بهذا الخبر، قال لأصحابه: لا نبرح حتى نناجز القوم, ثم جلس تحت شجرة طلح ودعا أصحابه إلى البيعة، فسارعوا إليه جميعاً رجلاً وامرأة يبايعونه. وهذه واقعة لها شأن في التاريخ الإسلامي, وسميت ببيعة الرضوان. وورد ذكر هذه الواقعة وهذه الشجرة في سورة الفتح بقول الله تعالى:" **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم وأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً** "(الفتح: ١٨)

وعرف فيما بعد بأن هذا الخبر لم يكن صحيحاً.

اتخذت قريش سهيل بن عمرو سفيراً لها وأرسلته (إلى النبي), وكان سهيل خطيباً فصيح اللسان ومفوهً, لذا لَقَّبَهُ الناس بلقب خطيب قريش.[1] وقالت قريش بأننا نوافق على الصلح بشرط أن يعود محمد هذا العام (دون عمرة).

جاء سهيل إلى النبي ﷺ وظل يفاوضه ﷺ في شروط الصلح فترة طويلة، وفي النهاية تم الاتفاق على عدة شروط, واستدعى الرسول ﷺ علياً ﷺ, وأمره بتدوين شروط وبنود المعاهدة، فكتب على ﷺ **بسم الله الرحمن الرحيم** في البداية.

كانت طريقة العرب القديمة هي أن يكتبوا في بداية رسائلهم وكتاباتهم عبارة **باسمك اللهم** ولم يكن يعرفوا **بسم الله الرحمن الرحيم**, لذا قال سهيل بن عمرو: اكتبوا تلك العبارة القديمة (**باسمك اللهم**) بدلاً من بسم الله **الرحمن الرحيم** فوافق النبي ﷺ. ثم تأتى بعد ذلك **هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله** فقال سهيل: لو نشهد بأنك رسول الله ما قاتلناك, فاكتب فقط اسمك واسم أبيك, فقال النبي ﷺ: إني رسول الله وإن كذبتموني، ثم أمر على ﷺ اسمه ﷺ فقط.[2] ومن يطع الرسول أكثر من على؟ ولكن هناك مواقف في

---

[1] الزرقانى, ج ٢, صـــ ٢٢٣. "سيد سليمان الندوى ".

[2] ورد فى سيرة ابن هشام ج ٣، ص ٢٠٢:" فقال الرسول ﷺ : أكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو."(المترجم).

عالم الحب والعشق أيضاً تستدعى عدم تنفيذ الأمر, فقال على: لن أمحوَ اسمك أبداً, فطلب منه النبي أن يريه مكان اسمه، فوضع على ﷺ إصبعه على المكان الذي به اسم الرسول, فمحا الرسول ﷺ عبارة **رسول الله.**[1]

لم يكن الرسول ﷺ يعرف القراءة والكتابة, لذا أُطلق عليه لقب **أُمــيّ**. وورد فــي صحيح مسلم أن النبي ﷺ محا عبارة رسول الله وكتب **ابن عبد الله**، ولمــا كانــت هــذه الواقعة في صحيح البخاري خلافاً لعامة الروايات؛ لذا أصبحت محل خلاف وبحث, ولكن الحقيقة هي أنه حين تمر أمور الكتابة والقراءة يومياً أمام نظر الأمــي، فــيمكن لــه أن يتعرف على حروف اسمه, ولا يؤثر هذا شيئاً في أميته. ولا شك في أن الأمية فخر للنبى ﷺ، وقد استُخدم هذا الوصف في القرآن الكريم في موضع الشــرف والعــزة. يقــول الله تعالى:

" **الذين يتبعون الرسول النبي الأميّ** " (الأعراف: ١٥٧)

أما عن شروط الصلح فكانت كما يلي[2]:-

١- أن يرجع الرسول ﷺ ومن معه من عامه، فلا يدخل مكة.

٢- وفى العام القادم يدخلها المسلمون لمدة ثلاثة أيام فقط ويغادرونها.

٣- ومعهم سلاح الراكب فقط, ولا بد أن تكون في القرب.

٤- ألا يأخذ المسلمون أي مسلم معهم كان مقيماً في مكة من قبل, ولا يمنع أي مسلم أراد العيش والبقاء في مكة.

٥- إذا ذهب أي أحد من الكافرين أو المسلمين إلى المدينة يُرد, ولكن لو يــذهب أي مسلم إلى مكة فلا يُرد.

٦- لقبائل العرب الخيار في الفريق الذي يريدون الانضمام إليه والمعاهدة معه.

كانت هذه الشروط في ظاهرها معارضة ومخالفة لما كان يطمع فيه المســلمون، وبالصدفة حين كانت تكتب هذه المعاهدة، كان أبو جندل ﷺ بن سهيل, الذي كان قد أسلم وحبسه الكفار في مكة وآذوه إيذاء شديداً قد استطاع الفرار وفى أقدامــه القيــود، وجــاء وسقط أمام الجميع. فقال سهيل: يا محمد! إن هذا هو أول موقف لتنفيذ معاهــدة الصــلح,

---

[1] لم يرد في صحيح البخارى في هذه الرواية اسم على ﷺ، وورد هذا التصريح في رواية البخــاري في كتاب المغازى باب عمرة القضاء. كما وردت هذه الواقعة أيضاً في صحيح مسلم.

[2] وردت هذه الشروط كلها في صحيح مسلم (بعنوان صلح الحديبية) نقلاً عن كتب السيرة.

فرُدَّه إليَّ طبقاً لشروط معاهدة الصلح. فقال النبي ﷺ: إنا لم نقض الكتاب بعد. قال سهيل: إذن لا أقاضيك على شئ أبداً. فقال النبي ﷺ: فأجزه لي. قال سهيل: ما أنا بمُجيزه لـك. فأصر النبي ﷺ عدة مرات على إبقاء أبى جندل معه ﷺ, ولكن لم سهيل يوافق أبداً, واضطر النبي ﷺ إلى التسليم، ورد أبي جندل، وكان الكافرون قد ضربوا أبا جندل ضرباً مبرحاً ترك آثاراً غائرة في جسمه، وكشف عن جراحه أمام الجميع وقال: يا معشر المسلمين، أتريدون أن تروني ثانية في هذه الحالة؟ إني قد اعتنقت الإسلام أتردوني ثانية إلى أيدي الكفار؟ فثار المسلمون جميعاً, ولم يستطع عمر ضبط نفسه، وجاء إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله! ألست نبي الله حقا؟ قال: بلى. قال عمر: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال النبي ﷺ: بلى. قال عمر. فعلام نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال النبيﷺ: "إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري"، فقال عمر: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال النبي ﷺ: بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟", فنهض عمر وذهب إلى أبى بكر وتحدث في نفس الحديث معه, فقال أبو بكر: إنه رسول الله ولا يعصي ربه وما يفعله يفعله بأمر الله.(١)

وظل عمر طوال عمره يصلى ويصوم ويتصدق ويعتق الرقاب تكفيراً عما صنعه يومئذ، مخافة كلامه الذي تكلم به.

ورد في البخاري ذكر إجمالي لهذه الأعمال كلها, ولكن أوردها ابن إسحاق تفصيلاً.

كان هذا الموقف الصعب وتقبله امتحاناً صعبًا لطاعة الصحابة لنبيهم ﷺ, فمن ناحية (ظاهريا) كان في هذا الصلح إهانة للإسلام, وهذا أبو جندل مكبل الأقدام يستغيث بألف وأربعمائة مجاهد من المسلمين, وجميعهم يرتعد غيظاً وحمية, ولو يومئ الرسول ﷺ إيماءً بسيطاً لفصلت السيوف في الأمر, ومن ناحية أخرى كان قد تم التوقيع على هذه المعاهدة، ولا بد من الإيفاء بالعهد. نظر الرسول إلى أبى جندل وقال **يا أبا جندل اصبر واحتسب, فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا, إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا وإنا لا نغدر بهم.** (ابن هشام).

خلاصة القول أن أبا جندل اضطر إلى الرجوع وهو مقيد.

---

(١) صحيح البخارى، كتاب الشروط. ورد بعد ذلك أن عمر قال: لا. قال النبي ﷺ: " فإنك آتيه ومطوف به"(البخاري،ج٢، ص١٩١). (المترجم).

أمر النبي ﷺ صحابته: "قوموا فانحروا"، ولكن قلوبهم كانت منكسرة إلى درجة كبيرة, لذا ما قام منهم أحد. وورد في صحيح البخاري[1]: أن الرسول ﷺ كرر هذا القول ثلاث مرات ولم يقم أي أحد, فذهب ﷺ إلى بيته، واشتكى إلى أم المؤمنين السيدة أم سلمة فقالت: لا تأمر أي أحد بأي شئ, بل اخرج أنت وانحر بنفسك, واحلق الشعر للتحلل من الإحرام. فخرج النبي ﷺ ونحر بنفسه وحلق الشعر. وهنا تيقن المسلمون بأنه لا تبديل في هذا القرار, ونحروا جميعاً وتحللوا من الإحرام وأقاموا ثلاثة أيام في الحديبية بعد عقد هذا الصلح, وفى طريق عودتهم نزلت هذه السورة:

- "إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً" (الفتح: ١)

إن ما اعتبره المسلمون جميعاً هزيمة، قال الله تعالى عنه إنه فتح, واستدعى النبي ﷺ عمر ﷺ وقال: لقد نزلت هذه الآية.

فسأل عمر بتعجب وحيرة أو فتح هو ؟ قال النبي ﷺ نعم. ورد في صحيح مسلم بأن عمر ﷺ اطمئن حينئذ وشعر بالسكينة،[2] وحلت النتائج فيما بعد عقدة هذا السر, ولم يكن هناك حتى ذلك الوقت أي تعاملات بين المسلمين والكفار, وبسبب هذا الصلح بدأ مجيء وذهاب المسلمين والكفار فيما بينهم, وبسبب القرابة والعلاقات التجارية بدأ الكفار يأتون إلى المدينة ويقومون بها شهوراً ويختلطون بالمسلمين، وكان يأتي ذكر بعض الأمور الإسلامية بين ثنايا الحديث. وبجانب هذا كان المسلمون صورة حية للأخلاق الطاهرة والإخلاص وحسن العمل والسلوك، كما كان المسلمون الذين يذهبون إلى مكة يقدمون هذه الصورة الحية أمام الكفار، الأمر الذي جعل قلوب الكفار تتجه بنفسها إلى

---

[1] كتاب الشروط " سيد سليمان الندوى ". ورد في البخاري، ج ٢، ص١٩١. " قال رسول الله لأصحابه: " قوموا فانحروا ثم احلقوا"، قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدنك وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بُدنه، ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً". (المترجم).

[2] وردت أحداث صلح الحديبية في صحيح البخارى بتفصيل, ولكن ليس في موضع الحديث عن الغزوات, بل في كتاب الشروط, وعليه غابت هذه الأحداث عن أنظار أرباب السيرة, وفى الغزوات بعض الأحداث استفدنا منها أيضاً, أما دقائق الأحداث وتفاصيلها رجعنا فيها إلى صحيح مسلم وابن هشام.

الإسلام. ويذكر المؤرخون أن أعداداً كثيرة من الكفار دخلت الإسلام في الفترة ما بين صلح الحديبية وفتح مكة, فقد أسلم خالد (فاتح الشام) وعمرو بن العاص (فاتح مصر) في هذه الحقبة من الزمان. وكان من بين شروط معاهدة الصلح هذه أن المسلم الذي يخرج من مكة لابد أن يُرد إليها ثانية, وكان هذا الشرط يتعلق بالرجال فقط, ولم تدخل النساء في هذا, ونزلت آية خاصة عن النساء في هذا الأمر. يقول الله تعالى:" **يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وءاتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا ءاتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر..**" (الممتحنة:١٠)

إن المسلمين الذين أُجبروا على البقاء في مكة المكرمة، كانوا يفرون فراراً إلى المدينة المنورة، حين تحين لهم الفرصة بسبب إيذاء الكفار الشديد لهم، وكان عتبة بن أُسيد (أبو بصير) هو أول من جاء إلى المدينة فاراً؛ فأرسلت قريش رجلين إلى النبي ﷺ وقالا: رُد علينا رجلنا. فقال النبي ﷺ لعتبة: ارجع. فقال عتبة: أتردني إلى المشركين يفتنوني في ديني؟. قال النبي: سيجعل الله لك ولمن معك فرجاً ومخرجاً، فاضطر عتبة ﷺ إلى العودة إلى مكة في حراسة هذين الكافرين، ولكنه حين وصل إلى ذي الحليفة قتل أحدهما وهرب الثاني، ونجا بنفسه وجاء إلى المدينة واشتكى إلى النبي ﷺ، ووصل أبو بصير إلى المدينة في الوقت ذاته وقال: يا نبي الله! قد رددتني إليهم طبقاً للعهد، والآن قد وفت ذمتك، ثم خرج من المدينة، وأقام في العيص على ساحل البحر عند ذي المروة. وحين علم المسلمون الذين يعانون من إيذاء الكفار في مكة بهذا، وجدوا فيه وسيلة للنجاة بأنفسهم فأخذوا يهربون سراً وخلسة ويأتون إلى العيص، وزاد عددهم بعد عدة أيام فقط، وأصبحت لهم قوة تمكنهم من عرقلة ومنع قوافل قريش التجارية إلى الشام، وكانوا يعيشون على أموال الغنيمة التي يحصلون عليها من حملاتهم هذه.

فأرسلت قريش مضطرة إلى الرسول ﷺ تخبره: بأننا نسقط هذا الشرط من المعاهدة التي بيننا، وللمسلم الآن الحق في الهجرة إلى المدينة إن يشاء، ولن نتعرض له بشيء. فكتب النبي ﷺ إلى المسلمين يدعوهم إلى المجيء إلى المدينة، فجاء أبو جندل ومن معه إلى المدينة واستقر بها وفُتح طريق قوافل قريش التجارية.[١]

---

[١] نقل خميس هذا تفصيلاً عن اكتفاء الكلاعي.

وهاجرت من النساء إلى المدينة أم كلثوم رضي الله عنها ابنة (عقبة بن أبي معيط) سيد مكة ــ والتي كانت قد اعتنقت الإسلام ــ وجاء معها أخواها عمارة والوليد، وطلب من النبي ﷺ أن يردها ؟ فرفض النبي ﷺ. وطلق الصحابة رضوان الله عليهم زوجاتهم اللاتي رفضن الإسلام ومكثن في مكة.

دعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام
في أواخر سنة ٦ هـ أو بداية سنة ٧ هـ

" أُدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة "

نعمَ الإسلام بقدر من الأمن والأمان بعد صلح الحديبية، فحان الوقت لنشر الإسلام وتعاليمه في كل بقاع الدنيا، لذا جمع النبي ﷺ كل صحابته ذات يوم وخطب فيهم بأن الله تعالى أرسله بشيرا ونذيرا ورحمة ونبياً ورسولاً للناس كافة، ويجب عليهم ألا يختلفوا كحواري عيسى، وأمرهم بتبليغ رسالة الحق عنه.

كتب النبي ﷺ إلى قيصر الروم، وكسرى ملك فارس، وإلى حاكم مصر، وإلى سادة العرب يدعوهم إلى الإسلام. وهذه أسماء الصحابة الذين كلفوا بتوصيل هذه الرسائل، وأسماء من أُرسلت إليهم هذه الرسائل أيضاً:[١]

دحية الكلبي	قيصر الروم
عبد الله بن جذافة السهمى	خسرو برويز ملك فارس
حاطب بن (أبى) بلتعة	حاكم مصر
عمرو بن أمية	النجاشي ملك الحبش
سليط بن عمر بن عبد شمس	رؤساء اليمامة
شجاع بن وهب الأسدي	حاكم حدود الشام، والحارث الغساني

كان الإيرانيون قبل عدة سنيين قد أغاروا على الشام وهزموا الروم، وهذه هي الهزيمة التي ورد ذكرها في القرآن في آية " **غلبت الروم** "(الروم:٢) وعليه، جهّز هرقل جيشاً جراراً للانتقام منهم، وحمل على الإيرانيين وهزمهم هزيمة ساحقة، ومن أجل صلاة الشكر على هذا النصر قدم إلى بيت المقدس من حمص قدم بأُبّهة بالغة الشأن، إذ كان يُفرش البساط، وتُنثر الورود في أي مكان تطأه قدماه.[٢]

---

[١] الطبري (ج٣ صـ ١٥٥٩) " سيد سليمان الندوي"، وابن هشام.

[٢] نُقلت واقعة هرقل كلها من فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج١ صـ٣١ " سيد سليمان الندوي ". وفي أصل صحيح البخاري مجمل هذه الواقعة (في باب كيف كان بدء الوحي وكتاب الجهاد باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة " سيد سليمان الندوي ". وأضاف الحافظ ابن حجر تفاصيل زائدة من كتب أخرى).

كان الغساسنة في الشام تحت سيطرة القيصر، وكانت بصرى عاصمتهم، وتقع في منطقة دمشق، ويقال لها اليوم حوران. وكان الحارث الغساني يجلس على عرش هذه الأسرة في تلك الفترة، وذهب إليه دحية الكلبي وأعطاه رسالة النبي ﷺ في بصرى، فأرسلها إلى القيصر في بيت المقدس، وحين وصلت الرسالة إلى القيصر، أمر بإحضار أي عربي في المنطقة إليه، وبالصدفة كان أبو سفيان مقيماً في غزة عند تجار العرب، فأحضره رجال قيصر من غزة إليه.

عقد القيصر مجلساً كبيراً، وارتدى التاج الملكي وجلس على العرش، واصطف حوله البطارقة والقساوسة والرهبان، وقال مخاطباً للعرب: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ أجاب أبو سفيان: أنا، ثم دار بينهما الحوار التالي:-

القيصر: كيف نسبه فيكم ؟

أبو سفيان: هو فينا ذو نسب شريف.

القيصر: هل قال هذا القول من قبيلتكم أحد قط قبله؟

أبو سفيان: لا.

القيصر: فهل كان من آبائه من ملك؟

أبو سفيان: لا.

القيصر: هل اتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟

أبو سفيان: بل ضعفاؤهم.

القيصر: أيزيدون أم ينقصون؟

أبو سفيان: بل يزيدون.

القيصر: فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

أبو سفيان: لا.

القيصر: فهل يغدر؟

أبو سفيان: لا، ولنا معه معاهدة صلح لا ندري ما هو فاعل فيها.

القيصر: فهل قاتلتموه ؟

أبو سفيان: نعم.

القيصر: فكيف كان قتالكم إياه ؟

أبو سفيان: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه.

القيصر: ماذا يأمركم ؟

أبو سفيان: يقول اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف وصلة الرحم.

وبعد هذا الحديث قال القيصر لترجمانه: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث دائماً في نسب من قومها، وذكرت أنه ما قال أحد منكم هذا القول قبله، ولو أن أحداً قال هذا القول قبله لقلتُ: إنه رجل يأتسي بقول قيل قبله، وتعترف بأنه لم يكن من آبائه من ملك، فلو كان من آبائه ملك، لقلتُ إنه رجل يطلب ملك أبيه، وتعترف بأنه ما كذب قط، فكيف لا يكذب الرجل على الناس ويكذب على الله؟ وذكرت أن ضعاف الناس اتبعوه، ودائماً يكون الضعفاء اتباع الرسل، وذكرت بأنهم يزيدون وينتشر دينه وهذا هو حال الدين الحق، يزدهر دائماً. وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك بماذا يأمر؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله وألاّ تشركوا به شيئاً ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف. فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه من الخارج ولم أكن أظنه أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

وبعد هذا الحوار أمر بقراءة كتاب رسول الله عليه.[1]

وهذا هو نص الكتاب:-

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، " يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون".

غضب البطارقة ورجال البلاط من حديث القيصر مع أبي سفيان، وازداد غضبهم وسخطهم بعد قراءة كتاب رسول الله ﷺ، وعليه أخرج القيصر العرب من البلاط، وكان نور الإسلام قد دب في قلبه؛ ولكن ذلك النور قد انطفأ في ظلمة التاج والعرش.[2]

---

[1] ورد هذا الحوار كاملاً في أبواب متعددة في صحيح البخاري، وفي بداية الكتاب وباب الجهاد أيضاً.

[2] ورد في مسند ابن حنبل في ج٤ صـ ٧٤ أن قيصر الروم أرسل كتاباً مع سفير له في صحبة دحية ﷺ إلى النبي ﷺ، وسأل عدة أسئلة عن النبوة عن طريق سفيره، فأجابه عليها النبي ﷺ، وفي النهاية

وهذا كتاب رسول الله ﷺ الذي أرسله مع عبد الله بن حذافة إلى كسرى عظيم فارس:-

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس.

كان كسرى ملكاً ذو شأن وشوكة، كما كان لبلاطه شأن كبير، وكان من طريقة العجم في كتاباتهم إلى الملوك كتابة اسم الملك أولاً، وكان كتاب رسول الله بادئاً باسم الله ثم باسم الرسول طبقاً لطريقة العرب، فاعتبر كسرى أن هذا تحقيراً له، وقال: "عبد من رعيتي يكتب اسمه قبلي"، ثم مزق كتاب رسول الله، وبعد عدة أيام فقط تطايرت سلطنة العجم نفسها.

كتب نظامي هذه القصة تفصيلاً في شيرين وخسرو بحمية كبيرة، ونحن هنا ننقل بعضاً من أشعارها:-

فى ذلك العصر كان العالم مطيع له وكان اسمه من المشرق إلى المغرب

فظهرت النبوة فى العالم وقهر رسولنا الناس بالحجج

فأحيانا كان يدعو الناس خُفية وأحيانا أخرى جهرا

وعندما آمن الناس بالدعوة دعا عامة الناس فى كل بلد

فأمر بأن يخلطوا من هبته العطرة ويكتبوا رسالة باسم كل ملك

وحينما أنجزت الجماعة رسالة النجاشي كتب رسالة باسم خسرو

وعندما عرض الرسول رسالتك تلك غلَيَ جسد خسرو من الغضب

وصار جميع شعره ذو سن بسبب الحدة والغضب وأصبحت كل عروقه بركانا بسبب غليانه

رجع دون إسلام. ولكن هذا الحديث ليس صحيحاً؛ ففيه أن النبي ﷺ استدعى معاوية ﷺ لقراءة كتاب قيصر، فقرأه معاوية على النبي ﷺ، في حين أن معاوية ما كان قد اعتنق الإسلام حتى ذلك الوقت. (وورد في الجامع حسب تحقيق ابن حجر في فتح الباري ج٨ صـ ٩٧ وفي الزرقاني ج٣ صـ ٨٨-٨٩ أن هذه واقعة أخرى وورد في الحديث نفسه تصريح بأن هذه واقعة تبوك، ووقعت غزوة تبوك بعد فتح مكة في رجب ٩ هـ، وكان معاوية ﷺ قد اعتنق الإسلام قبلها بسنة أو سنتين في فتح مكة أو في صلح الحديبية، ولا يوجد ذكر لمشاركة معاوية في غزوة تبوك.) وردت هذه الرواية بهذا السند في كتاب الأموال لأبي عبيدة القاسم بن سلام صـ ٢٥٥. طبعة مصر.

ورأى الفارس نور ذي هيبة فقد رأى مكتوبا من محمد إلى برويز

وعندما رأى الرسالة المضيئة للعالم قلتَ أنت رأى الكلب الماء

وقد بلغ به غرور السلطنة أن يقول من له هذه الوقاحة مع سلطان مثلي

لعله يبدي لي احتراما أيكتب اسمه أعلى من اسمي؟

وصار وجهه من الغضب كنار معبده ووقعت في نفسه فكرة سيئة فأساء

ومزق الجلاد تلك الرسالة بل إنه محا اسمه من الرسالة

وعندما رأى الرسول ذلك الغضب الجامح استعد للرجوع إلى مكانه

وأطلع مصباح العلم (الرسول ﷺ) عن تلك النار التي لا دخان لها

وبسبب حرارة ذلك المصباح دعا مثل الفراشة الطائرة

وقد سقط عجم كسرى بسبب سر ذلك الدعاء ووقع التاج من رأس كسرى

فما أجمل سلطان العالم الذي من الخوف والرجاء يكتب على افريدون وجمشيد [١]

والخلاصة أنه بعد ما تلقى كسرى عظيم فارس كتاب النبي ﷺ أرسل إلى حاكم اليمن، الذي كان يدعى باذان، وأمره بإرسال رجل إلى الحجاز، كي يتبض على مدعي النبوة الجديد هذا، ويحضره إلى بلاطه، فأرسل باذان رجلين وهما " بابويه وخرخسرة " إلى المدينة المنورة فجاء كلاهما إلى حضرة النبي ﷺ وقالا: إن ملك الملوك كسرى قد استدعاك، وإن لم تمتثل للأمر؛ فسوف يقضي عليك وعلى ملكك. قال النبي ﷺ: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى! وينتهي إلى منتهى الخف والحافر.[٢] فبلّغا هذان الرجلان الرسالة، وبمجرد وصولهما إلى اليمن جاء نبأ بأن شيرويه (ابن كسرى) قد قتل كسرى.

كتب النجاشي (ملك الحبشة) كتاباً يرد فيه على كتاب رسول الله ﷺ الذي يدعوه فيه إلى الإسلام يقول فيه: أشهد أنك رسول الله حقاً. وكان جعفر الطيار قد هاجر إلى الحبشة من قبل ومازال يقيم بها، فأعلن النجاشي إسلامه على يديه. روى ابن إسحاق أن النجاشي أرسل ابنه مع ستين مرافقاً إلى النبي ﷺ لإعلان العجز والسعادة، ولكن السفينة غرقت في البحر، وهلك هذا الوفد.[٣]

---

[١] وردت هذه الأشعار باللغة الفارسية في الجزء الأول من سيرت النبي، ص ٢٨١ .

[٢] الطبري ج ٣ صـ ١٥٧٢.

[٣] الطبري ج ٣ صـ ١٥٦٩.

يكتب عامة أرباب السير أن النجاشي توفى في ٩ هـ، وكان النبي ﷺ في المدينة آنذاك وحين علم بهذا الخبر صلى صلاة الغائب عليه. ولكن هذا خطأ؛ فقد صُرح في صحيح مسلم أن النجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ صلاة الجنازة لم يكن هو ذلك النجاشي. (ويصدق ابن القيم رواية أرباب السيَّر، وذكر أن هذا الجزء من رواية مسلم وهم الراوي).[١]

كان من بين من هاجروا إلى الحبشة السيدة أم حبيبة (أخت الأمير معاوية). وكان قد توفى زوجها، لذا كتب النبي ﷺ إلى النجاشي وأرسل له طالبا زواج أم حبيبة، ثم يرسل إليه نتيجة الطلب. فعين النجاشي خالد بن سعيد بن العاص (لهذه المهمة)، وقام هو بأداء الإيجاب والقبول من قبل الرسول ﷺ، وأدى النجاشي المهر عن الرسول ﷺ والذي كان مقداره أربعمائة ديناراً. وبعد النكاح ركبت السيدة أم حبيبة في السفينة وغادرت الحبشة ونزلت في ميناء المدينة وكان النبي ﷺ في ذلك الوقت في خيبر. وكان النبي ﷺ يستفسر كثيراً عن أحوال النجاشي من السيدة أم حبيبة.[٢]

كتب ملك مصر (المقوقس) كتاباً باللغة العربية يرد فيه على كتاب الرسول ﷺ إليه يقول فيه:-

لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك أما بعد فقد قرأتُ كتابك وفهمتُ ما ذكرتَ فيه وما تدعوا إليه وقد علمتُ أن نبياً بقى وكنتُ أظن أن يخرج من الشام وقد أكرمتُ رسولك وبعثته إليك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم وكسوة وأهديتُ إليك بغلة لتركبها والسلام عليك.

ومع هذا لم يدخل ملك مصر في الإسلام، وأما عن البنتين اللتان أرسلهما إلى الرسول ﷺ فأحدهما مارية القبطية رضي الله عنها، والتي تزوجها النبي ﷺ. والثانية هي سيرين، والتي أُعطيت لحسان بن ثابت، وكان اسم البغلة دُلدُل، ويأتي ذكرها في معظم كتب الحديث، وامتطاها النبي ﷺ في غزوة حنين. وقد كتب الطبري أن مارية وسيرين كانتا أختين شقيقتين، وقد اعتنقتا الإسلام قبل الوصول إلى النبي ﷺ بأثر من تعليم حاطب بن بلتعه، الذي كان قد حمل كتاب الرسول ﷺ إلى المقوقس. ولابد من النظر إلى هذه

---

(١) زاد المعاد (سيد).

(٢) تاريخ الطبري ج٣ صـ ١٥٧٠.

الواقعة على أن كلتا المرأتين لم تكونا جاريتين[1]، وقد قبلتا الإسلام، لذا تزوج النبي ﷺ من السيدة مارية رضي الله عنها ولم يضمها إلى زوجاته كجارية.

وجاءت ردود مختلفة عن الرسائل التي أُرسلت إلى سادة وزعماء العرب.[2] كتب هوذة بن علي صاحب اليمامة يقول: ما أحسن ما تدعوا إليه وأجمله، ولكن إن تجعل لي نصيباً من الملك أتبعك. والحقيقة هي أن الإسلام ما جاء من أجل الطمع والحرص في الملك؛ لذا قال النبي: " لو سألني قطعة من الأرض ما فعلت ".

أما عن الحارث الغساني صاحب حدود الشام والحاكم على بلاد العرب الخاضعة للروم، فقد غضب غضباً شديداً حين قرأ كتاب الرسول ﷺ، وأمر بتجهيز الجيش، وعليه كان المسلمون ينتظرون بشوق، الحمل عليه بسبب جرمه هذا، ثم وقعت فيما بعد غزوة مؤتة وتبوك وغيرهما.

أحداث متفرقة في سنة ٦ هـ

إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص رضي الله عنهما

عبر الله تعالى عن صلح الحديبية بالنصر والفتح، فتح ونصر للقلوب وليس للأجساد، فقد كان الإسلام في حاجة إلى الأمان والسلام حتى ينتشر، وحصل على هذا من ذلك الصلح. وكان الأعداء أنفسهم يعتبرون أن هذا الصلح فتحاً. وكان خالد بن الوليد قائداً معروفاً له مكانته في صفوف قريش في كل المعارك التي دارت بين المسلمين وقريش، كما كان يُبعث في الجاهلية كرئيس وفد في أي سفارة. وكانت قريش في غزوة أحد قد اهتزت أقدامها، ولكنها ثبتت وجمعت شملها بفضل جهوده، كما كان قائداً لجيش حراسة قريش في صلح الحديبية، ولكن قائد قريش الأعظم هذا لم ينجُ في نهاية الأمر من حملة الإسلام.

---

[1] ترجم شبلي لفظ جاريتين في ترجمته لكتاب المقوقس إلى رسول الله إلى " دولڑكياں " أي بنتان، ولم يترجمه إلى " لونڈياں " أي جاريتين، إذ يعلق على هذا بأن لفظ جارية يطلق على الفتاة أيضاً، كما يطلق على الجارية. كما يذكر: أن أرباب السير يطلقون على السيدة مارية القبطية لفظ جارية، ولكن اللفظ الذي استخدمه المقوقس لها يعني " أن لهما مكانة كبيرة عند المصريين " ولا يستخدم هذا في شأن الجواري. (المترجم).

[2] سنتحدث تفصيلاً في الجزء الثاني عن سادة القبائل وأمراء العرب الذين أُرسلت إليهم رسائل تدعوهم إلى الإسلام.

خرج خالد ﷺ من مكة بعد صلح الحديبية قاصداً المدينة المنورة ولقي وهو في طريقه عمرو بن العاص، فسأله عمرو: إلى أين العزم؟ قال: ذاهب لاعتناق الإسلام، فإلى متى (نبتعد عن الحق)؟ قال عمرو بن العاص: هذا هو هدفي ومقصدي أنا الآخر. وحضر كلاهما معاً في حضرة النبوة وأعلنا إسلامهما،[١] وأخذا ينفقان كل ما منحهما الله تعالى من كفاءات وقدرات في حب الإسلام، بدلاً من إنفاقها ضده.

وفي فتح مكة حين مر خالد يقود كتيبة من جيش المسلمين أمام النبي ﷺ، فسأل النبيﷺ: من هذا؟ فقال المسلمون: إنه خالد. فقال ﷺ: " نِعْمَ عَبْدُ اللَّهِ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّه".[٢]

وفي غزوة مؤتة حين حمل خالد لواء الإسلام بعد جعفر، وزيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة، رضي الله عنهم، أنقذ المسلمين من خطر عظيم.

وفي عهد الخلفاء الراشدين أخذ إحداهما (خالد) الشام من قيصر الروم، وفتح الثاني (عمرو بن العاص) مصر.

---

(١) الإصابة، ابن حجر، نقلاً عن ابن إسحاق ج١ صـ٤١٣ " سيد سليمان الندوي ".

(٢) الترمذي، المناقب. وهذا نص الحديث: (٤٠١٠) حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ حدثنا اللَّيْثُ عن هِشَامِ بنِ سَعْدٍ عن زَيْدِ بنِ أَسْلَمَ عن أَبي هُرَيْرَةَ، قالَ: «نَزَلْنَا مَعَ رسولِ اللَّهِ مَنْزِلاً، فَجَعَلَ النَّاسُ يَمُرُّونَ، فَيَقُولُ رسولُ اللَّهِ مَنْ هَذَا يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ فَأَقُولُ فُلاَنٌ، فَيَقُولُ نِعْمَ عَبْدُ اللَّهِ هَذَا. يَقُولُ مَنْ هَذَا ؟ فَأَقُولُ فُلاَنٌ، فَيَقُولُ: بِئْسَ عَبْدُ اللَّهِ هَذَا. حَتَّى مَرَّ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قُلْتُ هَذَا خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ قالَ: نِعْمَ عَبْدُ اللَّهِ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّه».

قال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غريبٌ. ولاَ نَعْرِفُ لزَيْدِ بنِ أَسْلَمَ سَمَاعاً مِنْ أَبي هُرَيْرَةَ وَهُوَ عِنْدِي حَدِيثٌ مُرْسَلٌ.

قال: وفي البابِ عن أَبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (المرجم).

سنة ٧ هـ

غزوة خيبر

في أواخر سنة ٦ هـ أو أوائل سنة ٧ هـ

" خيبر " لفظ عبري على الأغلب، يعني القلعة، وكانت على بعد ثمانين ميلاً من المدينة. ومن الرحالة الأوربيين الذين أقاموا بها " داؤتي " والذي أقام عدة شهور بها سنة ١٨٧٧م، وكتب أنها على بعد ٢٠٠ ميلاً من المدينة المنورة. ومنطقة النخيل - التي على مشارفها خيبر - خصبة جداً، وهنا كان اليهود قد شيدوا قلاعاً عديدة ومحكمة، يوجد آثار بعضها حتى الآن.[١] وكانت خيبر هي أكبر مركز لقوة اليهود في بلاد العرب. وحين أُجلي بنو النضير من المدينة وأقاموا في خيبر، أخذوا يثيرون العرب جميعاً ضد الإسلام، وكانت غزوة الأحزاب أول مظهر لهذا. ومن زعمائهم حيي بن أخطب، والذي قُتل في غزوة بني قريظة، وخلفه في السيادة أبو رافع سلام بن أبي الحقيق، وكان تاجراً كبيراً وصاحب نفوذ وشوكة، وكانت قبيلة غطفان- من أكبر قبائل العرب نفوذاً وسطوة- تجاور خيبر، وكانت دائماً حليفة وعلى عهد مع يهود خيبر.[٢] وفي سنة ٦ هـ ذهب سلام بنفسه إلى قبيلة غطفان وما حولها من قبائل أخرى يحرضهم على مناهضة الإسلام، حتى أعد جيشاً جراراً وأخذ يعد العدة للهجوم على المدينة المنورة.[٣] وحين علم النبي ﷺ بهذا، قُتل سلام وهو نائم في قلعته بإيعاز منه ﷺ. بخيبر في رمضان سنة ٦ هـ على يد عبد الله بن عتيك الأنصاري الخزرجي. فأسند اليهود الزعامة والسيادة من بعده إلى أسير بن رزام، فجمع قبائل اليهود وخطب فيهم وقال: إن ما قام به الزعماء الذين سبقوني من سياسات

---

(١) مارجوليوث ص ٣٥٦.

(٢) ابن خلدون ج ٢ ذكر قبائل العرب، وتاريخ خميس ج ٢ صـ ٤٣ باب غزوة خيبر. "سيد سليمان الندوى".

(٣) ابن سعد صـ٦٦، وهذا هو نص الاقتباس:- **كان أبو رافع بن أبي الحقيق قد أجلب في غطان ومن حوله من مشركي العرب، وجعل لهم الحقل العظيم لحرب رسول الله ﷺ.**
وجاء في صحيح البخاري في باب قتل أبو رافع، **وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ ويعين عليه.**
وورد ذكر مفصل لهذا برواية عروة في فتح الباري ج ٧ ص ٣٦٣: "سيد سليمان الندوي".

وتدابير لمناهضة محمد ومواجهته ﷺ كانت خاطئة؛ فالتدبير والسياسة الحكيمة هي الهجوم على عاصمة محمد ﷺ ذاتها، سأتبع هذه الطريقة،[١] لهذا الغرض قام أسير بزيارة إلى قبيلة غطفان وغيرها من القبائل وجهز جيشاً كبيراً. وحين وصل هذا النبأ إلى الرسول؛ لم يأخذ بما سمعه من أقوال فقط؛ بل أرسل عبد الله بن رواحة وفي رفقته بعض الرجال على خيبر. وتخفوا واستمعوا إلى تدابير ومشاورات أسير من لسانه نفسه. ثم رجعوا وعرضوا الأمر كله على النبي ﷺ، فأعطى ﷺ عبد الله بن رواحة ثلاثين رجلاً، فذهب بهم إلى خيبر، وقالوا لأسير: إن الرسول ﷺ أرسلنا نبلغك: لو تأتني؛ أمنحك ملك خيبر. فأصطحب أسير الثلاثين رجلاً وخرج من خيبر وعلى سبيل الاحتياط خرج في قافلة مختلطة؛ أي يمتطي الرجلان شيئاً واحداً، أحدهما يهودي والآخر مسلم. وحين وصل الركب إلى قرقرة؛ دب سوء الظن في قلب أسير، فمد يده وأراد أن يخطف السيف من عبد الله بن أنيس، فقال عبد الله بن أنيس: أيا عدو الله! أتريد الغدر؟[٢] ثم أسرع بمطيته، وحين لحق بأسير، ضربه بالسيف وقطع فخذه، فسقط من على الفرس، وأصاب عبد الله ﷺ وهو يسقط. وأنهال المسلمون على اليهود ضرباً وقتالاً، حتى لم ينجُ أحد من اليهود سوى واحد في هذه المعركة. ووقعت هذه الأحداث في أواخر سنة ٦ هـ أو في محرم سنة ٧ هـ.

كانت خيبر أكبر عدو للإسلام، وأخطر قوة في طريقه، فقد ذهب اليهود إلى مكة وأثاروا حمية العرب جميعاً بواسطة قريش (ضد الإسلام) ونتج عنه غزوة الأحزاب التي زلزلت مركز الإسلام (المدينة المنورة)، وبالرغم من أن هذه المحاولة قد باءت بالفشل، إلاّ أن الأيدي والسواعد التي كانت تعمل لهذا مازالت باقية حتى الآن، ومن العشائر التي كان لها أثر قوي في إثارة حقد وعداوة العرب ضد الإسلام قبيل غزوة الأحزاب هي عشيرة ابن أبي الحقيق، التي كانت من بني النضير. وحين طُردت من المدينة المنورة وجاءت إلى خيبر، استولت على حصن القموص المشهور بخيبر. كان سلام بن أبي الحقيق ــ والذي مر ذكره آنفا ــ زعيم هذه العشيرة وبعد مقتله تولى ابن أخيه كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق زعامة هذه العشيرة. ومن ناحية أخرى كان يهود خيبر يدبرون

---

[١] الزرقاني على المواهب ج ٢ ص١٩٧، مصر: سيد سليمان الندوي " .

[٢] نقلت هذه الأحداث من ابن سعد، ودُوِّن في كتب كثيرة أن عبد الله بن أنيس هو الذي بدء، وقتل أسير بن رزام، ولكن الصحيح هو ما نُقل عن ابن سعد، وكان هذا هو سبب هذه المعركة.

ويكيدون المكائد مع قبيلة غطفان لمناهضة الإسلام. وكان المنافقون في المدينة المنورة يطلعونهم على أخبار المسلمين، ويحفزونهم قائلين بأن المسلمين لا قبل لهمَ بمواجهتكم.

وأراد النبي ﷺ أن يعقد معاهدة مع هؤلاء اليهود، لذا كان قد أرسل عبد الله بن رواحة، ولكن اليهود كانوا أصحاب قلوب متحجرة وسيئ الظن من ناحية، ومن ناحية أخرى كان المنافقون يحرضونهم ويحفزونهم على مناهضة الإسلام، ففي تلك الفترة أرسل عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين إلى أهل خيبر يقول لهم: إن محمداً(ﷺ) يريد الهجوم عليكم، ولكن لا تخشوه، فهل له من قوة يقابلكم بها؟ وقوم محمد شرذمة قليلون، عزل لا سلاح معهم. أخذ اليهود بهذه النصيحة وأرسلوا كنانة وهوذة بن قيس إلى قبيلة غطفان يقولون: تحالفوا معنا في الهجوم على المدينة، وسنعطيكم نصف ثمار نخيل خيبر. (وفي رواية) فوافقت قبيلة غطفان.[1]

كانت بنو فزارة من قبيلة غطفان تنعم بقوة كبيرة، وحين علموا بأن الخيبريين يريدون الهجوم على محمد ﷺ، جاءوا خيبر بأنفسهم يقولون: إننا سنكون معكم مشاركين في هذه الحرب، وحين علم النبي ﷺ بهذا؛ كتب إلى بني فزارة يطلب منهم الرجوع عن مساعدتهم لأهل خيبر، وحين تفتح خيبر فسوف يكون لهم نصيب فيها، ولكن بني فزارة رفضوا.[2]

غزوة ذي قرد المحرم سنة ٧ هـ

إن أول ما قامت به قبيلة غطفان مؤكدة على مشاركتها في حرب المسلمين، هو أن بعض من رجالها أغاروا بقيادة عبد الرحمن " ابن عيينة " على مرعى ذي قرد، والذي كانت ترعي فيه إبل رسول الله ﷺ، واستولوا على عشرين ناقة، كما قتلوا ابن أبي ذر الذي كان مكلفاً بحراسة هذه الإبل، وسبوا زوجته، (وحين تعاقبهم المسلمون، دخلوا دُرة). حيث عيينة بن حصن قائد قبائل غطفان. (والذي كان موجوداً لمساعدتهم). وكان سلمة بن

---

(١) تاريخ خميس ج ٢ صـ ٤٣. مع أنه ورد في عامة الروايات أن الغطفانيين لم يوافقوا على هذا خوفاً من المسلمين، ولكن الواقع هو أنه لم يكن من الممكن الوثوق برفضهم.(سيد سليمان الندوي).

(٢) وردت هذه الواقعة في معجم البلدان منقولة بألفاظها من مغازي موسى بن عقبة تحت عنوان جنفاء. وهي كما يلي "روى موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال كانت بنو فزارة ممن قدم على أهل خيبر ليعينوهم فراسلهم رسول الله ﷺ أن لا يعينوهم وساء لهم أن يخرجوا عنهم . . . " ج٣ صـ ١٥٢ مصر.

الأكوع الصحابي الجليل هو أول من علم من المسلمين بهـذه الغـارة، فهتـف قـائلاً: واصباحاه، وعدا ولحق بالمغيرين وهم يسقون الإبل، وأخـذ يُمطـرهم بالسـهام، ففـر المغيرون، فتعاقبهم وقاتلهم حتى أعاد الإبل كلها. وجاء إلى حضرة النبوة وقـال: جئـت وتركت الأعداء عطشى، فلو بعثتني في مائة رجل لأمسكن بهم واحداً واحداً وآتي بهـم، فقال النبي ﷺ وهو رحمة للعالمين: (١) ملكت فأسجحْ.

ووقعت غزوة خيبر بعد هذه الواقعة بثلاثة أيام(٢).

تمتاز بداية غزوة خيبر عن بقية الغزوات بميزة تخصها، ولم تقع أنظار أربـاب السير على هذه الحكمة وهذه الميزة، وما هي أسباب ودواعي هذه الصفة المميزة لها؟ في حين أن بعض ما يميز هذه الغزوة خرج بلا قصد من ألسنتهم وهم يروون الأحداث. وأول

---

(١) وردت هذه الواقعة في البخاري ومسلم: (٤١٠١) حدَّثنا قُتيبةُ بن سعيدٍ حدثنا حاتمٌ عن يَزيدَ بن أبي عُبيدٍ قال: سمعتُ سلمةَ بن الأكوعِ يقول: «خَرجتُ قبلَ أن يُؤذَّنَ بالأولى، وكانت لِقَاحُ رسول الله صلى الله عليه وسلم تَرعى بذي قَرَد. قال: فلقيَني غلامٌ لعبدِ الرحمنِ بن عوفٍ فقال: أُخِذَت لِقاحُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم. قلتُ: من أخذها؟ قال: غطفان. قال: فصرختُ ثلاثَ صرخاتٍ: يا صَباحاه. قال: فأسمعتُ ما بين لابتَي المدينة. ثم اندفعتُ على وَجهي حتى أدركتهم وقد أخذوا يَستقونَ مـن المـاء، فجعلت أرميهم بنبلي ــ وكنتُ رامياً ــ وأقول:

أنا ابن الأكْوع،

اليومَ يومُ الرُّضَّع

وأرتجز حتى استنقذتُ اللِّقاحَ منهم، واستَلَبْت منهم ثلاثين بُردةً. قال: وجاء النبيُّ صلى الله عليه وسلم والناسُ، فقلت. يا نبيَّ الله، قد حَميتُ القومَ الماءَ وهم عطاش، فابَعث إليهمُ الساعة. فقـال: يـا ابـن الأكوع، ملَكتَ فأسْجِحْ. قال: ثم رجَعنا، ويُردِفني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على ناقتِه حتى دخلنا المدينة». (المترجم).

(٢) ذكر أرباب السير متفقين في أن هذه الواقعة قد حدثت قبل غزوة خيبر بسنة؛ ولكن (الطبري وأيضاً الإمام البخاري قد كتبا بوضوح برواية سلمة ــ بطل هذه الغزوة ــ أن هذه الواقعة حدثت قبل غـزوة خيبر بثلاثة أيام. وكتب الحافظ ابن حجر ما كتبه أرباب السير يقول: **فعلى هذا ما في الصحيح مـن التاريخ لغزوة ذي قرد أصح مما ذكره أهل السير.**

ووافق الحافظ ابن حجر بين كلا الروايتين وهي أن عيينة بن حصن كان قد أغـار علـى ذي قـرد مرتين. وإن ما يذكره عامة أرباب السير هي الغارة الأولى، وهذا قرين القياس تماماً. (فـتح البـاري ج٧ صـ٣٥٢ باب غزوة ذي قرد) " سيد سليمان الندوي ". لم يبحث عامة أرباب السير عن أسـباب غزوة خيبر؛ بل والغزوات كلها؛ لأنهم لم يعتنوا بأسباب الغزوات وتسلسل الأحداث، ولكن يثبت مـن التحقيق والتدقيق أن هذه الأحداث كلها كانت حلقات لسلسلة واحدة.

ما يميز هذه الغزوة هو أن النبي ﷺ حين قصد خيبر أعلن على عامة المسلمين: **لا يخرج معنا إلا راغب في الجهاد** (ابن سعد).

إن ما وقع من حروب وغزوات حتى الآن كان من أجل الدفاع فقط، وهذه هي الغزوة الأولى التي جُعل فيها غير المسلمين رعايا. وكان تبليغ الدعوة وتأسيس نظام ومنهج الحكومة هو الهدف الحقيقي والأصلي للإسلام، ولو كان هناك أي قوم لا يقفون في طريق هذه الدعوة ويناهضونها، فليس للإسلام حاجة في محاربتهم أو جعلهم من رعاياهم، بل كانت معاهدة الصلح وحدها فقط كافية، وأمثلتها كثيرة في الإسلام، ولكن حين يأتي قوم ويعملون دائماً على مناهضة الإسلام وعدائه، ويريدون هدمه والقضاء عليه، حينئذ يضطر الإسلام إلى حمل السلاح للدفاع عن نفسه، ويخضعه له، وكانت خيبر هي أول بلد فتحه الإسلام مُطبّقاً لهذه القاعدة.

بعد الحديث عن الغزوات سيأتي باب نتحدث فيه تفصيلاً عن أن الناس[1] لمدة كانوا يعتقدون فيها أن الجهاد طبقاً لطريقة العرب القديمة سبباً ووسيلة لكسب الرزق، وظل هذا الاعتقاد الخاطئ قائماً أيضاً حتى هذه الغزوة (خيبر)، وكانت هذه هي الغزوة الأولى التي أزيح فيها هذا الستار، لذا قال النبي ﷺ:"لا يخرج معنا إلا راغب في الجهاد ".

خلاصة القول هو أن النبي ﷺ خرج في المحرم[2] سنة ٧ هـ من المدينة لدفاع غزو وهجوم الغطفانيين واليهود، وعيَّن سباع بن عرفطة الغفاري عاملا على المدينة. وخرجت معه من أمهات المؤمنين السيدة أم سلمة رضي الله عنها وكان تعداد جيش المسلمين ألف وستمائة مقاتل، مائتان فارس والبقية مشاة، ولم يكن رواج للعلم في الحروب حتى ذلك الوقت سوى رايات صغيرة، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يُجهز فيها الرسول ﷺ ثلاثة أعلام، أعطى اثنان فيها للحباب بن المنذر وسعد بن عبادة رضي

---

(١) المقصود بالناس هنا المنافقون، إذ كانوا يشاركون في الغزوات طمعاً في الغنائم فقط، لذا كانوا يمتنعون عن المشاركة في الغزوات التي يُظن قلة الغنائم بها أو ضراوة الحرب فيها، وعليه لم يشتركوا في الحديبية لهذين السببين، وأعلن الله سخطه عليهم في سورة الفتح وقال أنهم لم يشاركوا أيضاً في الغزوة التالية كثيرة الغنائم، لذا أعلن الرسول ﷺ في هذا المقام ألا يشارك أحد فيها إلا من هو راغب في الجهاد وإعلاء كلمة الله، وليس له غرض في المتاع الدنيوي. الزرقاني وابن سعد باب غزوة خيبر " سيد سليمان الندوي ".

(٢) إن ما أورده ابن سعد في جزء المغازي صـ ١٧٧ أن النبي ﷺ خرج في جمادى الأولى سنة ٥ هـ ليس صحيحاً حسب ما ذُكر أعلاه " سيد سليمان الندوي "

الله عنهما، وبقى معه العلم النبوي الذي أُعد من رداء السيدة عائشة رضـــي الله عنهـــا، وحين خرج الجيش تقدم عامر بن الأكوع (الشاعر المشهور) وهو يرتجز

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداء لك ما اتقينا وألقين سكينة علينا
إنا إذا صيح بنا أتينا وثبت الإقدام إن لاقينا
وبالصياح عولوا علينا

وردت هذه الأشعار في صحيحي (مسلم) والبخاري كما وردت بعـض الأشـعار الزائدة في مسند ابن حنبل[1] (ووردت أيضاً في صحيح مسلم (خيبر) مع اخـتلاف فـي المصارع الأولى)

إن الذين قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا
ونحن عن فضلك ما استغنينا

وجاء ميدان في الطريق فكبر الصحابة بصوت عال، ولما كان سلسـلة التعلـيم والتلقين متواصلة ومستمرة في كل لحظة وآن، وتصدر تعليمات الشريعة حسب الأمـور والأحداث؛ قال الرسول ﷺ: اربعوا على أنفسكم أنكم لا تدعون أصـمَّ ولا غائبـاً، إنكـم تدعون سميعاً قريبا، وهو معكمً.[2]

انضمت بعض النساء أيضاً برغبتهن إلى جيش المسلمين في هذه الغزوة، وحـين علم النبي ﷺ بهذا استدعاهن وسألهن مغاضبا مع من جئن وبأمر من أتين؟ قلن: يا رسول الله، جئنا لندير رحى الطعام ونضع شيئاً، ونساعد في هذا الأمر، ومعنـا أدويـة لعـلاج

---

[1] ورد في هذه الأشعار صراحة أن بداية التعدي والهجوم كان من قبل الأعداء، وهناك اختلاف فـي روايات بعض ألفاظ الأشعار.

[2] وهذا نص الحديث كما ورد فى صحيح البخاري غزوة خيبر: (٤١٠٩) ـــ حـدَّثنا موسـى بـنُ إسماعيلَ حدَّثنا عبدُ الواحدِ عن عاصمٍ عن أبي عثمانَ عن أبي موسى الأشعريِّ رضيَ اللّهُ عنه قال: «لما غَزا رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم خيبرَ ـــ أوقال: لما توجَّهَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ـــ أشرف الناسُ على وادٍ فرفَعوا أصواتَهم بالتكبير، اللّهُ أكبرُ، اللّهُ أكبر. لا إلهَ إلاّ الله. فقال رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم اربَعوا على أنفسِكم، إنكم لا تدعونَ أصمَّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم. وأنا خَلفَ دابةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسمعني وأنا أقول: لا حَولَ ولا قوةَ إلاّ بـــالله. فقال لي: يا عبدَالله بن قيس. قلت: لبيكَ رسول الله. قال: ألا أدُلُّكَ على كلمةٍ من كنزٍ من كنوزِ الجنة؟ قلتُ: بلى يارسولَ الله، فداك أبي وأمي. قال: لا حَولَ ولا قوةَ إلاّ بالله». (المترجم).

الجرحى، هذا فضلاً عن أننا نحمل الهمام ونحضرها. وحين قسم الرسول ﷺ الغنائم بعد النصر أعطاهن نصيبهن، ولكن ماذا كان هذا النصيب؟ لم يكن ذهب أو جواهر، ولم يكن أموالا ومتاعاً، ولم يكن درهما وديناراً، بل تمراً فقط وهذا هو ما غنمه كل المجاهدين، وغنمته أيضاً هذه النسوة.

وردت هذه الواقعة في أبي داود (باب في المرأة والعبد يأخذان من الغنيمة).[1] ويثبت من كل كتب الحديث والسيرة أن النساء كن يصحبن جيش المسلمين في أكثر الغزوات، وكن يعالجن الجرحى ويسقين العطشى، وقد مر سابقاً الحديث عن ملء السيدة عائشة رضي الله عنها الماء في السقاء وسقيها للجرحى في غزوة أحد، ولكن أمر وجود النساء في ميدان القتال وحملهن للسهام وإحضاره إلى المجاهدين ذكره فقط أبو داود بسند صحيح متصل، لذا لا مجال للشك في هذا، إذ يتوقع هذا من نساء العرب.

كان من المعلوم أن قبائل غطفان ستعين أهل خيبر، لذا أمر رسول الله ﷺ بنزول القوات في الرجيع والتي تقع فيما بين غطفان وخيبر وحُملت الأمتعة وتُركت الخيام والنساء في هذا المكان.[2] وتقدمت القوات نحو خيبر، وحين سمعت غطفان، تقدم الجيش الإسلامي تجاه خيبر؛ فلبسوا السلاح وخرجوا، ولكنهم حين تقدموا وأدركوا أن منازلهم في خطر رجعوا.[3]

كانت في خيبر ٦ حصون هي:

سالم، وقموص، ونطاة، وقطارة، وشق، ومربط. وكان بها عشرين ألف مقاتل كما صرح بهذا اليعقوبي، وكانت قموص أكثر هذه الحصون قوة وأمناً، وكان مرحب زعيمها.[4] وهو ذلك البطل العربي المشهور. الذي كان يُعتقد بأنه يضارع ألف فارس كما كانت تقيم بهذا الحصن أيضاً عشيرة ابن أبي الحقيق الذي طُرد من المدينة وحصل على زعامة وسيادة خيبر.

---

[1] كتبها المؤلف "يخدمان" والصحيح يأخذان (المترجم).

[2] ورد هذا تفصيلاً في معجم البلدان ج٤ صـ ٢٢٩ في ذكر الرجيع.

[3] وهذا هو أصل الرواية كما ورد في الطبري ج٣ صـ ١٥٧٥: **فبلغني أن غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله ﷺ خيبر جمعوا له، ثم خرجوا ليظاهروا اليهود عليه حتى إذا ساروا. . . الخ.**

[4] تاريخ اليعقوبي ج٢ صـ ٥٢

حين وصل جيش المسلمين على مقربة من خيبر؛ أي في الصهباء وقت صلاة العصر، نزل الرسول ﷺ هنا، وصلى بالمسلمين العصر، ثم دعا بالأزواد، ولم يكن يوجد من طعام سوى السويق فثرّاهُ النبي ﷺ في الماء وشربه.[1] ووصل المسلمون ليلاً على مقربة من خيبر، وحين بدت مبانيها أمر الرسول ﷺ صحابته رضوان الله عليهم بالنزول ثم سمي الله تعالى ودعا هذا الدعاء. **إنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها.(ابن هشام)**

كتب ابن هشام إن هذا كان نهج النبي ﷺ عامة؛ أي حين كان يدخل أي مكان، فيدعوا بهذا الدعاء. وكان من سنة النبي ﷺ أنه لا يُهاجم أي مكان، لذا بات الجيش ليلته هذه في هذا المقام، وفي الصباح كان اليهود قد أرسلوا نساءهم إلى مكان آمن، وجمعوا المؤن والغلال كلها في حصن ناعم، وأعدوا قواتهم في حصني نطاة وقموص، وكان سلام بن مشكم مريضاً، ولكنه كان أكثر المشاركين استعداداً، إذ جاء إلى حصن نطاة واشترك في الجيش.

لم يكن هدف الرسول ﷺ القتال، ولكن حين جهز اليهود للحرب وأعدوا جيشاً كبيراً، خطب الرسول ﷺ في أصحابه ووعظهم، وحثهم على الجهاد. كتب في تاريخ خميس في هذا الأمر:- **ولما تيقن النبي ﷺ أن اليهود تحارب وعظ أصحابه ونصحهم وحرضهم على الجهاد.**

تقدم جيش المسلمين في البداية إلى حصن ناعم، وبشجاعة بالغة هجم محمود بن مسلمة، وظل يحارب بحماس وبشجاعة لفترة طويلة، وكان الجو شديد الحرارة، لذا تعب وجلس في ظل جدار الحصن يلتقط أنفاسه، وجاء كنانة بن الربيع وأسقط على رأسه حجر الرحى من أعلى سور الحصن، فاستشهد،[2] ولكن الحصن تم فتحه بسرعة.

---

[1] صحيح البخاري. وهذا نص الحديث: (٤١٠٢) ـــ حدَّثنا عبدُ اللَّهِ بن مَسلمةَ عن مالكٍ عن يحيى بن سعيدٍ عن بُشيرِ بن يَسارٍ أنَّ سُوَيدَ بن النعمان أخبرَهُ «أنه خرجَ مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم عامَ خَيبرَ حتى إذا كنَّا بالصَّهباء ـ وهي من أدنى خَيبَر ـ صلَّى العصرَ، ثم دَعا بالأزوادِ فلم يُؤتَ إلاَّ بالسَّوِيق، فأمرَ به فثُرِّي، فأكلَ وأكلنا، ثمَّ قام إلى المغربِ فمضمضَ ومضمَضْنا، ثمَّ صلَّى ولم يَتوضَّأ». (المترجم).

[2] كتب ابن هشام فقرتين منفصلتين لهذه الواقعة في موضعين، واستمد هذا التفصيل من خميس.

وتم فتح حصون أخرى بعد ناعم بسهولة ويسر، ولكن حصن قموص كان على عرشه مرحب، لذا أرسل النبي ﷺ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما للقيام بهذه المهمة، ولكنهما رجعا دون تحقيق الهدف. روي في الطبري أنه حين خرج الخيبريون من الحصن، لم تثبت أقدام عمر رضي الله عنه وجاء إلى النبي ﷺ واشتكي جبن الجيش، في حين أن الجيش اشتكى من عمر هذه الشكاية ذاتها.

وسلسلة السند التي روى بها الطبري هذه الرواية بها عوف، وقال كثير من الناس انه ثقة، ولكن حين يتحدث بندار عن روايته كان يقول: إنه كان رافضياً وشيطاناً. وهذا لفظ قاس جداً، ولكن يُسلم الجميع بتشيعه، ومع أن كونه شيعياً ليس دليلاً على عدم ثقته، لكن الظاهر هو أن الرواية التي تُذكر فيها واقعة فرار عمر رضي الله عنه، فماذا يتبقى من درجة هذه الرواية من لسان الشيعة، هذا فضلا عن أن عبد الله بن بريدة راوي الرواية السابقة، كان يروي عن والده، ولكن المحدثين يشكون في صحة الروايات المنقولة عن أبيه من عدمها.

ولكن لابد من أن يكون هناك قدراً من الصحة في أنه كان قد أُرسل صحابة كبار في البداية من أجل هذه المهمة، ولكن كان فخر النصر من نصيب صحابي آخر سواهم، وحين استُغرق وقت طويل في هذه المهمة، قال النبي ذات مساء: لأُعطِينَّ الرايةَ غداً ــ أو ليأخُذَنَّ الراية غداً ــ رجلٌ يُحبُّهُ اللّهُ ورسوله يَفتَح عليه.[1] كانت هذه الليلة ليلة الأمل الكبير والانتظار، إذ بات الصحابة رضوان الله عليهم ليلتهم في عدم استقرار ينتظرون من سيحظى بتاج الفخر هذا؟ ما تمنى عمر رضي الله عنه الإمرة والقيادة بسبب قناعته وبعد نظره، كما ورد في صحيح مسلم في باب فضائل على رضي الله عنه: أنه اعترف بنفسه بأن غيرته لم تستقر في تمني هذا الأمر. وفجأة في الصباح دوى هذا الصوت في كل الآذان (أين علي)؟ ولم يكن هذا الصوت متوقعاً تماماً، إذ كان علي رضي الله عنه يشتكي عينه وكان الجميع يعرف بأنه معذور من القتال. خلاصة القول أنه جاء تلبية للأمر النبوي، فوضع النبي من لعابه على

---

[1] صحيح البخاري.وهذا نص الحديث: (٤١١٦) حدَّثنا عبدُ اللّهِ بن مَسلمةَ حدَّثنا حاتمٌ عن يزيدَ بن أبي عُبَيدٍ عن سلَمة رضيَ الله عنه قال: «كان عليُّ بنُ أبِي طَالِبٍ رضيَ اللّهُ عنه تخلَّفَ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في خيبرَ، وكان رَمِداً، فقال: أنا أتخلَّفُ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم؟ فلَحِقَ به. فلما بِتْنا الليلةَ التي فُتِحَت قال: لأُعطِينَّ الرايةَ غداً ــ أو ليأخُذَنَّ الراية غداً ــ رجلٌ يُحبُّهُ اللّهُ ورسوله يَفتَح عليه. فنحنُ نرجوها. فقيلَ: هذا عليٌّ، فأعطاهُ، ففُتِحَ عليه». (المترجم).

عينيه ودعا له بالشفاء، وحين أنعم عليه بالعلم فقال علي ﷺ: يا رسول الله! أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا. قال الرسول:" انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحد خير من أن يكون لك حمر النعم".[1] ولكن اليهود لم يرضوا باعتناق الإسلام أو بالصلح، وخرج مرحب من الحصن يرتجز هذا البيت:

قد علمت خيبر أني مرحب　　　شاكي السلاح بطل مجرب

جاء مرحب بعظمة وتكبر، ولكن علي ﷺ ضربه بسيفه ضربة قوية فشج رأسه حتى أسنانه، وسمع الجيش دوي صوتها،[2]وكان قتل مرحب أمراً عظيماً، لذا أشاع محبو الغرائب عن هذا الأمر إشاعات مبالغ فيها جداً؛ فقد ورد في معالم التنزيل أن عليّاً ﷺ حين ضرب بسيفه، منعه مرحب بترسه ولكن ذا الفقار شج الرأس حتى وصل الأسنان، فأقتلع ﷺ باب الحصن - والذي كان قطعة من الحجر - وترس به نفسه. وبعد هذه الواقعة أراد أبو رافع ومعه سبعة رجال حمل هذا الباب، لكنهم ما استطاعوا تحريكه من مكانه. روى ابن اسحاق والحاكم هذه الروايات؛ ولكنها أنباء سوقية. وقد صرح العلامة السخاوي في المقاصد الحسنة بأنها **كلها واهية.**

نقل العلامة الذهبي في ميزان الاعتدال: هذه الرواية في حال أحمد بن علي فروخ، وكتب: إن هذه الرواية منكرة. وسلسلة هذه الروايات التي نقلها ابن هشام من بينها رواية ترك اسم راوٍ في الوسط تماماً، وفي الأخرى يوجد بجانب هذا النقص الراوي بريدة بن سفيان، والذي يعده الإمام البخاري وأبو داود والدارقطني غير ثقة.[3]

ذكر ابن إسحاق وموسى بن عقبة والواقدي أن محمد بن مسلمة هو الذي قتل مرحب، ووردت رواية أيضاً عن هذا الأمر في مسند ابن حنبل وشرح صحيح مسلم للنووي، ولكن وردت رواية في صحيح مسلم (والحاكم ج٢ صـ ٣٩) تقول إن عليّاً ﷺ هو نفسه قاتل مرحب وفاتح خيبر، وهذه أصح الروايات. خلاصة القول أنه تم فتح هذا الحصن (قموص) بعد حصار دام عشرين يوماً، قُتل فيه ٩٣ يهودياً من أشهرهم الحارث،

---

(١) وردت هذه الواقعة حسب التفصيل المذكور في صحيح البخاري.

(٢) الطبري صـ ١٥٧٩. وردت هذه الأشعار وأحداث موجزة في صحيح مسلم غزوة خيبر.

(٣) ميزان الاعتدال، ترجمة بريدة بن سفيان.

ومرحب، وأسير، وياسر، وعامر. واستشهد من الصحابة ١٥ صحابياً، كتب ابـن سـعد أسمائهم تفصيلاً.

استولى المسلمون على الأراضي المفتوحة بعد النصر، ولكن اليهود طلبوا: ابقوا هذه الأرض معنا، ونعطيكم نصف ثمارها، فوافق المسلمون على هذا الطلب، وكان النبي ﷺ يرسل عبد الله بن رواحة في وقت الحصاد ليقسم الغلة إلى قسمين، ويقـول لليهـود: خذوا القسم الذي تشاءونه من القسمين. فكان اليهود يندهشون من هذا العدل ويقولون: هذا الحق وبه تقوم السماء والأرض.(١)

وقسمت أرض خيبر على كل المجاهدين الذين اشتركوا في هذه الغزوة، وحظـى النبي ﷺ بالخمس أيضاً.

يُروى عامة أنه فضلاً عن خمس مال الغنيمة، كان هناك نصيب قد خُصص للنبي ﷺ يقال له صفى، وعليه أخذ الرسول ﷺ صفية (زوجة كنانـة بـن الربيـع) وأعتقهـا، وتزوجها.

التحقق من واقعة السيدة صفية

ورد في بعض كتب الحديث عن السيدة صفية رضي الله عنها أن النبي ﷺ بـادئ ذي بدء كان قد أعطاها لدحية الكلبي ﷺ، ثم حين أثنى أحد على جمالها وحسنها، طلبهـا منه ثانية، وأعطاه عوض عنها سبع جاريات. نقل المعارضون هذه الرواية بطريقة سيئة جداً. وحين يوجد شيء من هذا في أصل الرواية، فالظاهر أن المعارضين يستفيدون منه جيدًا.

والحقيقة هي أن واقعة السيدة صفية رضي الله عنها منقولة عن أنس ﷺ، ولكـن هناك روايات متعددة عن أنس ﷺ تختلف فيما بينها، وصُرح في رواية البخاري في ذكر غزوة خيبر بأنه حين فتحت حصون خيبر، ذكر الناس حسن صفية أمام النبي ﷺ، فأخذها النبي ﷺ لنفسه. وهذه هي أصل الرواية. **فلما فتح الله عليه الحصن ذكر له جمال صفية بنت حيى بن أحطب وقد قتل زوجها وكانت عروساً فاصطفاها النبي ﷺ لنفسه.**

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري، صـ ٢٧، فتح خيبر والطبري صـ ١٥٨٩ (ويوجد أصلُ الرواية في أبي داود باب المسقاة)

ولكن البخاري روى رواية أنس هذه ذاتها في كتاب الصلاة (باب ما يذكر في الفخذ).[1](وصحيح مسلم باب فضل عتق الأمة) بهذه الطريقة، وهي أنه حين جمع الأسرى بعد انتهاء القتال، طلب دحية الكلبي من الرسول ﷺ أن ينعم عليه بجارية من الأسرى، فأذن له النبي ﷺ بأن يذهب بنفسه ويأخذ أي جارية يشاءها، فاختار السيدة صفية، ولكن الناس اعترضوا، وجاء أحدهم إلى النبي ﷺ وقال: **يا نبي الله أعطيت دحية صفية بنت حيى سيدة قريظة والنضير لا تصلح إلا لك.**

ثم أعتق النبي ﷺ السيدة صفية وتزوج بها.[2] وردت هاتين الروايتين في أبي داود، وكلتاهما مروية عن أنس ﷺ، وورد هذا القول للبلاذري (المحدث المشهور) وهو أن النبي ﷺ أخذ السيدة صفية من دحية ﷺ وعقد عليها: **لما فيه من انتهاكها مع مرتبتها[3] وكونها بنت سيدهم.**

وهذا ما كتبه الحافظ ابن حجر في فتح الباري تقريباً.

من الواضح أن السيدة صفية رضي الله عنها كان يمكن لها أن تبقى جارية أو زوجة بعد مقتل أسرتها، فقد كانت ابنة سيد خيبر، وكان زوجها سيد بني النضير، والآن قد قتل كلاهما الأب والزوج، لذا لم تكن هناك أي وسيلة سوى أن الرسول ﷺ يعقد عليها ليحفظ مرتبتها، ويدفع الحزن عنها، وتطييباً لخاطرها وهي في هذه الحالة. وكان من الممكن أن تبقى جارية، ولكن النبي ﷺ أعتقها لمنزلة أسرتها، ثم تزوجها. (ورد في مسند ابن حنبل أن النبي ﷺ خَيَّرها في أن يعتقها وترجع إلى بيتها، أو تقبل الزواج منه، ففضلت الاختيار الثاني وهو أن تتزوج النبي ﷺ).[4] وكان هذا العمل صحيحاً ومناسباً جداً من الناحية الدينية والسياسية، فضلاً عن حسن الخلق والمواساة والرحمة والعطف، فكان لهذا

---

(1) صحيح مسلم ج١ صـ ٥٤٦ باب فضل عتق الأمة ثم التزوج بها. حيث روى عن أنس أنه قال: أعتق رسول الله ﷺ صفية وجعل عتقها صداقها".(صحيح مسلم، ج٩، ص٢٢٣).وورد في البخاري: (٤١٠٨) ـــ حدَّثنا آدمُ حدثنا شُعبة عن عبد العزيز بن صُهَيب قال: سمعتُ أنسَ بن مالكٍ رضي الله عنه يقول: «سَبى النبيُّ صلى الله عليه وسلم صفيةَ فأعتقها وتزوَّجَها، فقال ثابت لأنسٍ: ما أصدقَها؟ قال: أصدقَها نفسَها فأعتقها». (المترجم).

(2) أبو داود باب ما جاء في سهم الصفي. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:" صارت صفية لدحية الكلبي، ثم صارت لرسول الله ﷺ" (أبو داود، ج٢،ص١٣٧)(المترجم).

(3) كتبها المؤلف "مرقبتها" والصحيح هو ما قمنا به (المترجم).

(4) مسند ابن حنبل ج٣ صـ ١٣٨ مصر " سيد سليمان الندوي ".

العمل دور في ميل العرب إلى الإسلام، إذ رأوا سلوك الإسلام مع نساء أعدائه وأولادهم، وكيف يعاملهم بالحسنى ويساندهم

وحدث مثل هذا مع السيدة جويرية في غزوة بني المصطلق، وقد مر الحديث في صفحات سابقة عن أثر هذا السلوك.

وبعد فتح خيبر أقام النبي ﷺ بها عدة أيام، ومع أن اليهود حصلوا على الأمن والأمان الكامل، وتم مراعاة كل أمور حياتهم بشتى الطرق، ولكن أسلوب بغيهم وفسادهم بقي كما هو، فأول مثال على هذا هو أن زينب زوجة سلام بن مشكم وزوجة أخ مرحب دعت النبي ﷺ وبعض صحابته رضوان الله عليهم إلى الطعام، فقبل النبي ﷺ دعوتها كرما منه، ووضعت زينب السم في الطعام. تناول النبي ﷺ لقمة ورفع يده من الطعام، ولكن بشر بن البراء أكل أكلاً كثيراً، وتوفي بسبب هذا الطعام المسموم. واستدعى النبي ﷺ زينب وسألها، واعترفت بجريمتها، وقال اليهود: لقد وضعنا السم حتى يتبين لنا الأمر فإن كنت نبياً فلن يؤثر فيك هذا السم، وإن كنت ملكاً فنستريح منك. ولم يكن النبي ﷺ يثأر لنفسه أبدا من أي أحد، لذا تجاوز ﷺ عن زينب، ولكن بعد مرور أيام قليلة توفى بشر بسبب هذا السم، لذا قُتلت زينب قصاصاً.

ذهب بعض الصحابة من بينهم عبد الله بن سهيل ومحيصة رضي الله عنهما إلى خيبر ذات مرة في سنة قاحطة، وبمكيدة قتل اليهود عبد الله، ألقوا به في اليم فجاء محيصة، وأخبر النبي ﷺ بهذه الواقعة، فقال النبي ﷺ: أتقسم على أن اليهود قتلوه؟ قال: يا رسول الله! إنهم يقتلون الخمسين من المسلمين ويحلفون كذباً. خلاصة القول أن النبي ﷺ تجاوز عن اليهود، ودفع دية المقتول من بيت المال.

وفي خلافة عمر أسقط اليهود عبد الله بن عمر ﷺ وهو نائم من أعلى المنزل فانكسرت يده وقدماه. وهكذا كان اليهود دائماً يثيرون الفتن والفساد. فاضطر عمر إلى إجلائهم إلى مناطق في بلاد الشام.[1] (وردت هذه العبارة كجملة اعتراض وسط الكلام).

---

(1) فتوح البلدان. البلاذري ص٢٨، وصحيح البخاري طبعة المصطفائي ج١ ص٣٧٧ (باب إذا اشترط في المزارعة إذا شئت أخرجتك). وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري، ج٢،ص ١٨٧." لما فدع أهل خيبر عبد الله بن عمر قام عمر خطيباً، فقال: إن رسول الله ﷺ كان عامل يهود خيبر على أموالهم وقال:" نقركم ما أقركم الله" وإن عبد الله بن عمر خرج إلى ماله هناك فعدي عليه من الليل ففدعت يداه ورجلاه وليس لنا هناك عدو غيرهم هم عدونا وتهمتنا وقد رأيت إجلاءهم".

نقل أرباب السير رواية خاطئة كل الخطأ عن أحداث خيبر، ونقلت هذه الرواية في أكثر الكتب وتم تداولها (بين الناس) وهي أن الرسول ﷺ في بداية الأمر منح اليهود الأمن والأمان بشرط ألا يخفوا شيئاً ولكن حين رفض كنانة بن الربيع الإخبار عن كنز،[1] أمر النبي ﷺ الزبير أن يطلع منه على الخزانة بالقوة، فكان الزبير يقدح بزند في صدره، حتى أشرف على الموت.[2] وفي نهاية الأمر أمر النبي ﷺ بقتل كنانة، وجعل نساء اليهود جميعهن سباياً.[3]

والصحيح في هذه الرواية هو أن كنانة كان قد قُتل؛ ولكن ليس سببه هو أنه جحد معرفة مكان الكنز، ولكن السبب هو أن كنانة كان قد قتل محمود بن مسلمة. ورد في الطبري صراحة **ثم دفعه رسول الله إلى محمد بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة** (صـ١٥٨٢).[4]

وردت هذه الرواية في تاريخ الطبري وسيرة ابن هشام نقلاً عن ابن إسحاق، ولكن ابن إسحاق لم يذكر اسم أي راوٍ أعلى (أي من الصحابة)، وصرح المحدثون في كتب الرجال أن ابن إسحاق كان يروي أحداث المغازي النبوية عن اليهود، فيجب اعتبار هذه الرواية أيضاً من بين هذه الروايات، وهذا هو السبب في أن ابن إسحاق لا يذكر أسماء هؤلاء الرواة.

لا شك في أن تعذيب أي شخص وكي صدره بالنار أمر بعيد كل البعد عن خلق من هو رحمة للعالمين، فهذا هو ذلك الرجل نفسه الذي تجاوز تجاوزاً كاملاً عمن دست له السم، فهل يأمر بكي أحد بالنار طمعاً في بعض المال؟

وحقيقة الأمر هو أن كنانة بن أبي الحقيق قد مُنح الأمن والأمان بشرط ألا يفعل أي شيء من الغدر، والافتراء[5](بل ورد في رواية) أن القتل كان عقاباً له[6].

---

(١) بني النضير، كما ورد في الرحيق المختوم ص٣٤٢ (المترجم).

(٢) ورد هذا تفصيلاً في تاريخ الطبري، وهذا ما ورد في ابن هشام تقريباً.

(٣) فتوح البلدان، البلاذري ص٢٤.

(٤) أي قتله محمد بن مسلمة قصاصاً لأخيه محمود بن مسلمة (المترجم).

(٥) أبو داود باب حكم أرس خيبر (كتبها المؤلف أرس والصحيح أرث خيبر) (المترجم)

(٦) طبقات ابن سعد غزوة خيبر، صـ٨١، سطر ٢٤.

نقض كنانة بالعهد، وعليه هُدر أمنه وأمانه، إذ أنه قتل محمود بن مسلمة وقُتل الآن قصاصاً له، كما سبق أن نقلنا هذا عن طريق الطبري.

انظر الآن إلى الأحداث التي أُضيفت إلى هذه الرواية.

١- كانت واقعة القتل خاصة بكنانة وكان كنانة نفسه هو مجرم إخفاء الخزانة أو الكنز، وكان هو نفسه قاتل محمود بن مسلمة، لذا تم قتله هو أيضاً، وأول إضافة هنا هي أن ابن سعد نقل رواية متصلة عن بكر بن عبد الرحمن، أضاف فيها اسم أخيه[١] مع كنانة؛ أي قتل كلاهما **فضرب أعناقهما وسبى أهليهما**[٢].

٢- كان الأمر إلى هذا الحد هيناً، ولكن ابن سعد قد نقل رواية عن عفان بن مسلم بها إضافات أكثر من هذا، ففيها أنه مع قتل الأخوين أسر اليهود جميعاً وسُبيت نساءهم **فلما وجد المال الذي غيبوه في مسك**[٣] **الجمل سبى نساءهم.**[٤]

ولكن حين ينظر في هذه الروايات طبقاً لأصول نقد وتحقيق علم الحديث، فتتقشر وتبقى حقيقتها فقط، فأما عن اليهود وسبي نساءهم وأطفالهم، فقد ثبت من صحيح البخاري ذاته أن أخا كنانة لم يُقتل، وعاش حتى عهد خلافة عمر ﷺ. ورد في صحيح البخاري **فلما أجمع عمر على ذلك أتاه أحد بني أبي الحقيق فقال يا أمير المؤمنين أتخرجنا وقد أقرنا محمد وعاملنا على الأموال**[٥].

صرح الحافظ ابن حجر في فتح الباري أن هذا هو أخ كنانة بن أبي الحقيق، وقد قلل الحافظ ابن القيم في زاد المعاد من سعة عامة الروايات وجعلها تصل إلى هذا الحد فقط وهو أن:

لم يقتل رسول الله ﷺ بعد الصلح أحد إلا ابني أبي الحقيق.(ذكر غزوة خيبر)

ولو أن الحافظ ابن القيم وقع نظره على عبارة صحيح البخاري سالفة الذكر لقلل هذا العدد على الأغلب.

---

(١) أخ كنانة (المترجم).

(٢) المرجع السابق سطر ٢٤.

(٣) جلد.

(٤) طبقات ابن سعد، غزوة خيبر صـ٨٠.

(٥) صحيح البخاري ج١ طبعة المصطفائي صـ٣٧٧، باب إذا اشترط في المزارعة إذا شئت أخرجتك.

وحيثما عَنْوَن أبو داود في كتابه أرض خيبر، كتب فقط عن مقتل ابن أبي الحقيق، كما يجب أيضاً ملاحظة هذا الأمر، وهو أنه ورد في أبي داود أن النبي ﷺ كان قد سأل سعية (عم حيي بن أخطب) عن ذلك الكنز، فأجابه بأنه قد أنفق في الحروب، وبالرغم من هذا أمر الرسول ﷺ بقتل كنانة فقط. وهذا دليل واضح على أن قتل كنانة كان قصاصاً لقتل محمود بن مسلمة، وإلا فإن كان سبب القتل هو جريمة الإخفاء وجحد المعرفة عن الكنز، فهناك مجرمون آخرون مشتركون في هذه الجريمة.

أول خطأ وقع فيه المؤرخون هو اعتبارهم إخفاء حقيقة الكنز سبب لقتل كنانة، ولما كان هناك أناس آخرون مشتركون في هذه الجريمة، لذا بدا هذا التعميم بنفسه وهو قتل أسرة كنانة كلها.

أمر جدير بالذكر

من المسلم به أن غزوة خيبر وقعت في شهر المحرم، أي حين خرج النبي ﷺ من المدينة لهذا الغرض، كان في أواخر محرم، والقتال حرام شرعاً في شهر المحرم، لذا حدث اختلاف بين المحدثين والفقهاء حول هذا التعليل، ويذهب أغلب الفقهاء إلى أن القتال في هذه الأشهر كان حراماً شرعاً في البداية، ثم نسخ هذا الحكم. كتب العلامة ابن القيم أن الحكم الأول الذي نزل بتحريم القتال كان طبقاً لهذه الآية:

" قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله " (البقرة: ٢١٧)

ثم نزلت هذه الآية في سورة المائدة:

" يا أيها الذين أمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام" (المائدة: ٢)

نزلت هذه الآية بعد الآية السابقة بثمان سنوات، وكان الأمر بالتحريم قائماً كما هو في هذه الفترة الزمنية الطويلة، والآن ما هي الآية الكريمة أو الحديث الشريف الذي نسخ هذا الحكم؟

وليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ناسخ لحكمها.

ويستدل الذين يجيزون هذا بأن فتح مكة ومحاصرة الطائف وبيعة الرضوان كانت كلها في شهر المحرم، وعليه لو أن القتال غير جائز في شهر المحرم؛ فكيف يجيزه الرسول ﷺ؟ أجاب الحافظ ابن القيم على هذا بأن القتال كان حراماً في البداية في شهر المحرم، ولو كان القتال بهدف رد هجوم الأعداء ودفاعاً عن النفس فهو جائز. وكانت هذه الأحداث كلها دفاعاً وردًا لهجوم الأعداء، والرسول ﷺ لم يبادر بالقتال بل كان مدافعاً.

وتمت بيعة الرضوان لما أُذيع بأن الكفار قتلوا عثمان ﷺ (الذي كان سفير رسول الله إليهم)، كما لم يكن حصار الطائف حرباً مستقلة بل كان بقية لغزوة حنين، والتي احتشد الكفار أنفسهم فيها من كل مكان، وأخذوا يهجمون على المسلمين، وكان فتح مكة نتيجة لنقض صلح الحديبية، والذي بدأه القرشيون.[1] أجاب الحافظ ابن القيم جواباً صحيح تماماً، ولكنه لم يستطع حل عقدة خيبر، وبقى البحث غير واضح. واشتبه هذا الأمر أيضاً على العلامة ابن تيمية أستاذ الحافظ ابن حجر، فقد كتب في "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح" أن الغزوات التي قام بها الرسول ﷺ كانت كلها دفاعاً ورداً لهجوم الأعداء، ويستثنى من هذا فقط بدر وخيبر ولو أن العلامة ابن تيمية استقصى الأمر جيدًا لثبت له أن بدر وخيبر ليستا مستثنيتين من هذا الأمر أيضاً، وقد سبق الحديث عن غزوة بدر، ولو تُرتِّب ما ذكر سابقاً من أحداث عن خيبر وتتأمل فيها، يتضح لك جليا أن اليهود والغطفانيين كانوا قد أعدوا العدة للهجوم على المدينة.

تقسيم الأرض

قسمت أرض خيبر إلى قسمين متساويين: قسم لبيت المال يُصرف في الضيافة والسفارة وغيرها. والقسم الآخر يوزع على المجاهدين الذين اشتركوا في هذه الغزوة. كان تعداد الجيش ١٤٠٠ مجاهد، وكان معهم ٢٠٠ فارس، وحصل كل فارس على نصيب ضعف الرجل كى ينفق على الفرس، وعليه كانت الأسهم ١٨٠٠ سهما متساوياً، لذا قسمت الغنائم إلى ١٨٠٠ سهما، كل مجاهد سهم، وحصل النبي ﷺ على سهم واحد مثل سهم واحدهم،[2] **ولرسول الله ﷺ** مثل سهم واحدهم.[3]

حالة الدولة والأحكام الفقهية

بفتح خيبر يبدأ دور جديد لدولة وسياسة الإسلام؛ فكانت للإسلام عدوان لدودان فقط، المشركون واليهود. ومع أنهما متباعدان ومختلفان في الدين، إلا أن الأسباب السياسية أوجدت بينهما إتحاداً وتحالفاً. كان يهود المدينة عموماً خلفاء الأنصار، وكان يهود خيبر حلفاء الغطفانيين، والآن اجتمع مشركو مكة والمدينة والمنافقين كنفس واحدة

---

(١) زاد المعاد. ذكر غزوة خيبر.

(٢) فتوح البلدان، البلاد زى، ذكر غزوة خيبر

(٣) ورد في ابى داود في حكم أرض خيبر **النبي ﷺ معهم له سهم كسهم أحدهم** " سيد سليمان الندوي".

لمناهضة محمد ﷺ، وبفتح خيبر ضعف قوة اليهود تماماً، وفُقد ساعد من سواعد المشركين.

كان الإسلام منذ بدايته حتى الآن محاط بالصعاب من كل جانب، لذا لم تكن هناك فرصة لتأسيس وتعليم الأحكام سوى العقائد وشرائع العبادات الضرورية، وكانت أحكام الشريعة كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: إنها نزلت تدريجياً حسب مقتضيات الحاجة. وسوف نتحدث عن هذا تفصيلاً فيما بعد. وبفتح خيبر تنفس المسلمون الصعداء من فتن ومكائد اليهود من ناحية، وبصلح الحديبية استراحوا من حرب المشركين من ناحية أخرى، وعليه أصبح المسلمون الآن مؤهلين لتنفيذ الأحكام الفقهية الجديدة. ذكر أرباب السيرة في الحديث عن غزوة خيبر أنه نزلت أحكام فقهية جديدة متعددة في هذا المقام،[١] وبلغها الرسول ﷺ وهذه الأحكام هي:-

١- حُرم كل ذي مخلب من الطيور.

٢- حُرمت الحيوانات المفترسة.

٣- حُرم الحمار والبغل.

٤- كان يعتقد حتى الآن بجواز التمتع فوراً بالجواري، والآن شُرع الإستبراء، أي لو أن الجارية حُبلى فلا يُتمتع بها، حتى تضع حملها وإلا يحرم التمتع بها حتى يمضي شهر.

٥- حُرم شراء الفضة بالذهب بزيادة.

ورد في بعض الروايات أن زواج المتعة حُرم في هذه الغزوة أيضاً.

وادي القرى وفدك

يقع بين تيماء وخيبر واد فيه قرى كثيرة عامرة، يقال له وادي القرى، وقديماً كانت تقيم به عاد وثمود. كتب ياقوت في معجم البلدان أن آثار عاد وثمود ما زالت باقية حتى الآن. جاء اليهود قبل الإسلام إلى هذه القرى وأقاموا بها، وقاموا بتطوير الزراعة وتوفير المياه، وأصبح هذا المكان مركزاً خاصاً لليهود[٢].

قصد رسول الله ﷺ وادي القرى بعد فتح خيبر ليس بنية القتال، ولكن كان اليهود قد استعدوا لقتاله ﷺ من ذي قبل وأخذوا يرمون بالسهام، وبينما كان(مدعم) عبد رسول الله

---

[١] المقصود من النزول هنا الوحى المتلو، وليس القرآن.

[٢] معجم البلدان، لفظ قرى، ج ١٧ صـــ٧٣ " سيد سليمان الندوي"

ﷺ ينزل محمل النبي ﷺ، إذ أصابه سهم فتوفى. لم يـذكر عامـة المـؤخرين اسـتعداد اليهود[1] ولكن الإمام البيهقي ذكر صراحة أن **وقد استقبلتنا يهود بالرميّ ولم نكن علـى تصبيه**[2]

على أية حال بدأ القتال، ولكن اليهود بعد نزال قليل ألقوا بالسيوف ونزلوا علـى شروط صلح خيبر.

أداء العمرة

تمت المعاهدة مع قريش في صلح الحديبية على أن الرسول سيأتي مكة في العام القادم ويؤدي العمرة، ويقيم بها ثلاثة أيام ثم يرجع، لذا أراد النبي ﷺ أن يؤدي العمرة في هذه السنة، وأمر بأن يعلن على كل من شارك في الحديبية بألاّ يخرج معه إلى مكة سوى من ماتوا في تلك الأثناء، فحظي الجميع بهذه السعادة وكان من بين شروط المعاهدة أنـه على المسلمين إذا أتوا مكة يأتون عُزل السلاح، لذا ترك المسلمون أسلحتهم فـي بطـن " باحج " على بعد ثمانية أميال من مكة، وعينت كتيبةً قوامها ٢٠٠ فارس لحراسة الأسلحة.

تقدم النبي ﷺ نحو البيت الحرام وهو يقول " لبيك "، وكان عبد الله بن رواحة أخذاً بخطام[3] ناقته ﷺ في المقدمة ويرتجز هذه الأشعار:[4]

خلوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله

ضربا يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

كان الصحابة رضوان الله عليهم في جم غفير يؤدون عمرتهم بحماس وقوة ولهف على تحقيق أمنية تمنوها منذ سنين، وكان أهل مكة يظنون أن مناخ المدينة قد أضعف من المسلمين، لذا أمر النبي ﷺ صحابته أن يرملوا في الثلاثة أشواط الأولى مـن الطـواف، وعليه التزم المسلمون بهذه السُنة حتى الآن.

أذن أهل مكة (للمسلمين) بأداء العمرة مجبرين، لذا ما كانت أعينهم تقوى علـى النظر إلى هذا المشهد العظيم؛ فترك سادة قريش مكة وذهبوا إلى الجبال، وبعد ثلاثة أيام جاءوا إلى علي ﷺ وقالوا: قل لمحمد إنه قد تحقق شرط المدة، فأخرج مـن مكـة الآن.

---

(1) للقتال(المترجم).

(2) الزرقاني نقلاً عن الموطأ، البيهقي باب الجهاد، ذكر غلول صـ٢١٣ " سيد سليمان الندوي ".

(3) حبل تقاد به الناقة (المترجم)

(4) دون الترمذي في كتاب الشمائل هذه الأشعار.

عرض علي ﷺ على الرسول ﷺ، فغادر النبي ﷺ مكة في نفس الوقت، وأتته تعدو أمامة صغيرة السن ابنة حمزة ﷺ والتي كانت تقيم في مكة وهي تقول: " عماه عماه[١] فرفعها علي ﷺ بيديه ولكن جعفر" أخ علي رضي الله عنهما وزيد بن حارثه قدما أن كل واحد منهما أحق من صاحبه بها فكان جعفر ﷺ يقول: أنها ابنة عمي.

وكان زيد يقول: إن حمزة كان أخي في الدين وعليه فهي ابنة أخي.

وقال علي : إنها شقيقتي أيضاً وأتت في حضني أنا الأول.

فساوى النبي ﷺ بين درجة قرابتهم إليها جميعاً، ونظر وأعطاها في حضن أسماء رضي الله عنها إذ أنها كانت خالة أمامة ثم أخبر بأن الخالة كالأم تماماً.[٢]

---

(١) كانت أمامة بمثابة أختا للنبي ﷺ (طبقاً لقرابة حمزة ﷺ للنبي ﷺ)ولكنها نادت الرسول ﷺ بلفظ "عماه " تعظيماً له. (وربما نادته بيا عماه باعتبار أن الرسول ﷺ وحمزة ﷺ كانا أخوان في الرضاعة).

(٢) أخذ جزء كبير من هذه الواقعة من صحيح البخاري. وأخذت تفاصيل أخرى من الزرقاني وهي تلك التفاصيل التي نقلها الزرقاني من كتب الحديث.

سنة ٨ هـ

غزوة مؤتة

جمادى الأولى ٨ هـ

" مؤتة " اسم بلد بأدنى بلقاء الشام، وبها كانت تُصنع السيوف الشرقية المشهورة عند العرب.[١] يقول كثير الشاعر المشهور **صوارم يجلوها بمؤتة صيقل**

كتب النبي ﷺ كتاباً إلى عظيم بصري أو قيصر الروم مع الحارث بن عمير فاعترضه شرحبيل وقتله، وشرحبيل أحد حكام العرب في المناطق الحدودية لبلاد العرب والشام، وكان عاملا على البلقاء وكانت هذه الأسرة العربية تدين بالمسيحية منذ زمن، وتحكم البلاد الواقعة على حدود الشام. وللقصاص من شرحبيل جهز النبي ﷺ جيشاً قوامه ثلاثة ألف مقاتل، وأرسله إلى الشام تحت قيادة مولاه زيد بن حارثة ﷺ وأمر النبي ﷺ: إن حظي زيد بالشهادة فالقيادة من بعده لجعفر وإن حظي جعفر بالشهادة هو أيضاً، فالقائد حينئذ يكون عبد الله بن رواحة.[٢] كان زيد بن حارثة عبداً لرسول الله، واعتقه النبي ﷺ، وكان جعفر الطيار أخ شقيق لعلي بن أبي طالب ومقرب جداً للنبي ﷺ، وإن عبد الله بن رواحة سيد من الأنصار وشاعر مشهور، لذا تعجب المسلمون كيف يحظى زيد بن حارثة ﷺ بقيادة الجيش مع وجود جعفر وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهما؟ لذا تحدث الناس في هذا كثير،[٣] ولكن الإسلام جاء لتأسيس وإرساء مبدأ المساواة بين الناس جميعاً وكانت هناك حاجة لمثل هذا النوع من المساواة. وفي مهمة أسامة الحربية والتي اشترك فيها عامة المهاجرين، عين النبي ﷺ أسامة بن زيد ﷺ قائداً لجيش المسلمين وتحدث الناس حول الموضوع كثيراً، وحين سمع النبي ﷺ بهذا خطب في المسلمين وقال: أيها الناس كنتم قد اعترضتم على تولي أبوه القيادة من قبل في حين أنه كان كفئا للقيادة. ووردت هذه الواقعة تفصيلاً في صحيح البخاري في (باب المغازي) **بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد**

---

(١) معجم البلدان لفظ مؤتة ج ٨ صـ١٩٠.

(٢) صحيح البخاري، غزوة مؤتة، ونص الحديث كما ورد في البخاري: " إن قُتل زيد فجعفر وإن قُتل جعفر فعبد الله بن رواحة ". (البخاري، ج٣، ص٨١). (المترجم).

(٣) فتح الباري ج ٧ صـ٣٩٣ " سيد سليمان الندوي ".

في مرضه الذي توفى فيه وبالرغم من أن هذه المهمة العسكرية كانت للقصاص من قتلى الحارث بن عمير، إلا أن المسلمين أُمروا بتبليغ دعوة الإسلام أولاً، إذ كان الهدف الأصلي من هذه المهمات والغزوات العسكرية كلها هو تبليغ الدين الإسلامي ونشره[١] ولو قبلوا الإسلام فلا حاجة للحرب إذن، كما أُمروا كذلك بالذهاب إلى المكان الذي قتل فيه الحارث بن عمير وهو يؤدي المهمة التي كلفه بها الرسول ﷺ كمواساة. وخرج النبي ﷺ لتوديع الجيش حتى ثنية الوداع، وصاح الصحابة ودعوا الله تعالى: صحبكم الله بالسلامة، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين غانمين.

وعند خروج الجيش من المدينة أطلع الجواسيس "شرحبيل" على الأمر، فأعد من فوره مائة ألف مقاتل تقريباً لمواجهة المسلمين، ومن ناحية أخرى كان قيصر الروم بنفسه (هرقل) قد اصطحب جيشاً جراراً من قبائل العرب وعسكر في مآب،[٢] وهي من أرض البلقاء، وحين علم زيد بهذا الأمر أراد أن يطلع النبي ﷺ بهذا الأمر، وينتظر أوامره ﷺ، ولكن عبد الله بن رواحة قال: إن الفتح ليس هدفنا الأصلي، بل الفوز بالشهادة[٣] والتي يمكن أن يُحصل عليها دائماً في أي وقت.

خلاصة القول أن تقدمت هذه المجموعة الصغيرة وهجمت على جيش قوامه مائة ألف، وأُصيب زيد ﷺ بحراب كثيرة فسقط شهيداً وحمل العلم من بعده جعفر ﷺ، ونزل من على فرسه وضرب أقدام فرسه بسيفه فانقطعت ثم حارب بضراوة وشجاعة حتى سقط شهيداً. ويقول عبد الله بن عمر ﷺ: حين رأيت جثته وجدت بها ٩٠[٤] جرحاً من الرماح والسيوف، وكانت جميعها من الأمام، ولم يجرح من ظهره، وحينئذ أخذ الراية عبد الله بن رواحة فحارب بشجاعة حتى استشهد. والآن قاد خالد الجيش وحارب بشجاعة بالغة. وورد في صحيح البخاري أن ثمانية سيوف قد تحطمت بيده.[٥]

---

(١) طبقات ابن سعد (جزء المغازي صـ٣٩) " سيد سليمان الندوي ".

(٢) كتبها المؤلف: " تاب " (المترجم).

(٣) ابن هشام، غزوة مؤتة " سيد سليمان الندوي "

(٤) صحيح البخاري. قال عبد الله بن عمر: " كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية" (البخاري، ج٣، ص٨١).(المترجم).

(٥) صحيح البخاري، غزوة مؤتة. " سيد سليمان الندوي ". " عن خالد بن الوليد: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية" (البخاري، ج٣، ص٨٢). (المترجم).

ولكن كيف يفعل جيش قوامه ثلاثة آلاف أمام عدو قوام جيشه مئة ألف مقاتل. وأفضل تفوق لخالد هو أنه أنقذ جيشه من قتل الأعداء، وحين رجع هذا الجيش المنهزم[1] ووصل على مقربة من المدينة، وخرج أهل المدينة لاستقباله، فأخذ الناس يحثون عليه التراب بدلا من مواساته، ويقولون: يا فرار! فررتم من سبيل الله ورجعتم.

حزن النبي ﷺ حزناً شديداً لاستشهاد جعفر ﷺ إذ كان يحبه حباً كثيراً، وذهب إلى المسجد وجلس حزيناً، وجاءه رجل وقال له: إن نساء جعفر يبكين ويولولن. فأرسله النبي ﷺ إليهن يمنعهن، فذهب ورجع وقال: لقد منعتهن، ولكنهن أبين، فأرسله النبي ﷺ ثانية فذهب إليهن الرجل ثم عاد وقال للنبي ﷺ: إنهن أعيننا ولا يمكن لنا أن نمنعهن من هـذا. فقال النبي ﷺ:" أحث في أفواههن التراب". وردت هذه الرواية في صحيح البخاري عن السيدة عائشة قالت لذلك الرجل: فوالله إن لم تفعل هكذا (إحثاء التراب في أفواه النساء) فما أنت بمطيع رسول الله.

---

(1) اعتمد مولانا شبلي هنا على رواية ابن إسحاق وكتب " هذا الجيش المنهزم " وأظهر أنهم يستحقون بلا تفرقة لفظ الفار بسبب عودتهم، ولكن ورد في صحيح البخاري في غزوة مؤتة أن رسـول الله ﷺ قال على سبيل الوحي: ثم أخذ سيف الله (أي خالد) راية المسلمين في يديه ونصر الله المسلمين على عدوهم **فتح الله عليهم** ويختلف أرباب السير والرواة وشُرّاح الحديث في تفسير هذا الفتح، فيرى فريق أن المسلمين فازوا بالفتح الكامل، ويرى الآخر أن غلبة المسلمين وفتحهم هو أن المسلمين مـع قلـة عددهم أنهكوا الكفار مع كثرة عددهم وأصبحت الحرب سجال تتساوى فيها الخسائر فتباعد الجيشـان وانتهت الحرب. ويرى الفريق الثالث أن المسلمين انتصروا على كتيبة من جيش الكفار وحصلوا منها على غنائم أيضاً. ويرى فريق رابع أن نصر المسلمين يعني أن جيش المسلمين بقيادة خالد يصد هجوم جيش الكفار الجرار ويعود مسالماً. يجب مراجعة فتح الباري والروض الأنف للسهيلي والبداية لابـن كثير في هذا المقام. وهكذا ظن جيش المسلمين أنه فار أو أطلق عليهم المسلمون الفارين، وواسـاهم النبي ﷺ وقال: لستم بالفرار ولكنكم الكرار إن شاء الله تعالى. والرسـول هنـا لا يخاطـب الجـيش الإسلامي كله بل يخاطب الكتيبة التي عادت بسرعة إلى المدينة. للمزيد: انظر فتح الباري والـروض الأنف للسهيلي والبداية لابن كثير، باب غزوة مؤتة . "سيد سليمان الندوي".

فتح مكة

رمضان سنة ٨هـ / يناير سنة ٦٣٠ م

" إنا فتحنا لك فتحا مبيناً "

كان إحياء التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى وتطهير بيت الله الحرام من النجاسة أول فرض على خليفة إبراهيم (عليهما الصلاة والسلام)، ولكن حملات قريش المستمرة ومناهضة العرب جميعاً منعته ﷺ من أداء هذا الفرض لمدة ٢١ سنة كاملة، وبفضل صلح الحديبية استتب الأمن والأمان فترة، وجاء محبو الحرم مرة ونظروا إلى ذكرى إبراهيم، ولكن قريش لم تف بصلح الحديبية وبلغ الحلم والعفو والصبر منتهاه، والآن حان ذلك الوقت الذي فيه تشق شمس الحق كل الحجب المناعة وتشرق.

أصبحت قبيلة خزاعة من بين قبائل العرب الحليفة للنبي ﷺ بناء على صلح الحديبية، وتحالف بنو بكر عدوها اللدود مع قريش، وكانت قد دارت رحي الحرب بين هاتين القبيلتين مدة طويلة، وجاء الإسلام وصرف أنظار العرب إليه، فتوقفت رحي هذه الحروب حتى هذه الفترة، إذ كانت قريش والعرب جميعاً ينفقون كل قوتهم في مناهضة الإسلام والوقوف في طريقة، وجاء صلح الحديبية ومنح الناس اطمئناناً وأمناً؛ فاعتقد بنو بكر أن وقت الانتقام قد حان الآن، وهجموا فجأة على قبيلة خزاعة وعاونهم سادة قريش علانية، ليس هذا فحسب بل غَيَّر عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وغيرهم من صورتهم،[1] وقاتلوا مع بني بكر، فلاذت خزاعة إلى الحرم مجبرة، فتوقف بنو بكر احتراماً للحرم، ولكن نوفل سيدهم الأكبر قال: لن تنعموا بمثل هذه الفرصة ثانية أبداً. وفي النهاية أريقت دماء خزاعة داخل الحرم. وبينما النبي ﷺ جالس في المسجد إذ به يسمع فجأة هذا الصوت العالي:

لاهم إني ناشد محمد حلف أبينا وأبيه الأتلدا[2]

فأنصر رسول الله نصراً اعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا[1]

---

(١) وردت في الطبري صـ١٦٢٠ ج٣، وابن سعد جزء المغازي صـ٩٩ أسماء أخرى. " سيد سليمان الندوي ".

(٢) القديم (المترجم) .

اتضح أن رجالاً من خزاعة ممتطين ٤٠ ناقة،[٢] يتقدمهم عمرو بن سالم جاءوا يستغيثون، وحين علم النبي ﷺ بما حدث لهم، غضب غضباً شديداً، وأرسل رسولاً إلى قريش يعرض عليهم ثلاثة شروط كي يختاروا شرطاً واحداً من بينها:-

١- دفع دية القتلى.

٢- تمتنع قريش عن معاونة بني بكر.

٣- الإعلان عن نقض صلح الحديبية.

أجاب قرطة بن عمر متحدثاً عن قريش " قبلنا الشرط الثالث فقط"،[٣] ولكن قريش ندمت بعد مغادرة الرسول، وجعلت أبا سفيان سفيراً لها، وأرسلته كي يجدد صلح الحديبية، فجاء أبو سفيان المدينة وأتى رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يرد عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كي يتشفعا له عند النبي ﷺ، ولكنهما رفضا. فاضطر إلى الذهاب إلى فاطمة الزهراء، وكان الحسن ﷺ ابن خمس سنوات، فقال أبو سفيان مشيراً إليه: " لو أن هذا الطفل يقول بلسانه: إني أُجير بين كلا الفريقين، فيكون سيد العرب من اليوم "، فقالت السيدة فاطمة:" ما دخل الأطفال في هذه الأمور؟ " وفي النهاية أعلن أبو سفيان بتوجيه من علي ﷺ: أني جددت العهد بصلح الحديبية.[٤]

رجع أبو سفيان إلى مكة وقص ما حدث لقريش، فقال جميعهم: إن هذا ليس بصلح حتى نأمن ونجلس، كما أنه ليس بحرب حتى نعد العدة لها.

أخذ النبي ﷺ يجهز لمكة، وأرسل الرسل إلى حلفائه من القبائل حتى يجهزوا للحرب، وأخذت كل الاحتياطيات الأمنية حتى لا يصل هذا الخبر إلى أهل مكة.

كان حاطب بن أبي بلتعة صحابياً جليلاً، وكتب كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله من الأمر في السير إليهم، وعلم النبي ﷺ بصنيعه هذا، فأرسل علي (والزبير والمقداد وأبا مرثد الغنوي رضي الله عنهم) حتى يأخذوا هذه الرسالة من رسول حاطب.[٥] وحين عُرضت الرسالة أمام النبي ﷺ، تعجب المسلمون جميعاً من إفشاء

---

(١) وردت هذه الأبيات كاملة في ابن هشام ج٤ صـ٢١ في ثمانية أبيات (المترجم).

(٢) طبقات ابن سعد، جزء المغازي، صـ٩٧." سيد سليمان الندوي ".

(٣) نقل الزرقاني في ج ٢ صـ٣٣٦ هذه الأحداث عن مغازي ابن عائذ، ومن الغريب أن المؤرخين وأرباب السير ما كتبوا عن مثل هذه الأمور المهمة.

(٤) الزرقاني على المواهب ج ٢ صـ٣٣٧ " سيد سليمان الندوي ".

(٥) المرجع السابق صـ٣٣٩ " سيد سليمان الندوي "

حاطب للسر، وغضب عمر ﷺ غضباً شديداً، وقال: يا رسول الله دعني فلاضرب عنقه، ولكن الرسول لم يغضب وقال: وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع على من شهد بدرا، فقال: أعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم.

كان أقارب وأحباب حاطب ما زالوا في مكة حتى ذلك الوقت، وليس لهم أي معاون، لذا أراد (حاطب) الإحسان لأهل قريش حتى لا يصاب أقاربه وأحبابه بأي أذى أو ضرر، وعرض هذا العذر أمام النبي ﷺ، وقبله النبي ﷺ.

خلاصة القول، سار النبي ﷺ إلى مكة في ١٠ رمضان سنة ٨ هـ ومعه جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل، وكانت تنضم إليه قبائل العرب (حلفاء الرسول) في الطريق، وصل الجيش إلى مر الظهران ونزل بها، وانتشرت القوات حتى مسافات بعيدة، وهذا المكان على مسافة منزل واحد من مكة المكرمة أو يقل. وبأمر من الرسول ﷺ أشعل كل مقاتل ناراً فأوقدت عشرة آلاف نار وبها أصبحت الصحراء كلها وادي أيمن. وصلت أخبار قدوم جيش المسلمين إلى قريش؛ فأرسلوا حكيم بن حزام (ابن أخ السيدة خديجة) وأبا سفيان وبديل ابن ورقاء يتحققوا من الأمر، وحين رأت المجموعة الحارسة للخيمة النبوية أبا سفيان،[١] لم يستطع عمر ﷺ ضبط رغبة الانتقام منه، فتقدم بسرعة وقال للنبي ﷺ: لقد حان وقت استئصال الكفر، ولكن العباس ﷺ طلب إجارته، وعرض عمر ثانية (على رسول الله ﷺ).[٢] قال العباس: مهلاً يا عمر، لو كان هذا الرجل من قبيلتك[٣] ما كنت قاسياً إلى هذا الحد. فقال عمر ﷺ: لا تقل مثل هذا، فوالله لإسلامك يوم أسلمت أحب إليَّ من إسلام أبي الخطاب لو أسلم[٤].

وكانت أعمال أبي سفيان الماضية كلها ماثلة الآن أمام المسلمين جميعهم، وكان كل عمل من أعماله يستدعي قتله: عدواته للإسلام، هجومه أكثر من مرة على المدينة المنورة، إثارة قبائل العرب ضد الإسلام، مؤامرته لقتل النبي ﷺ سراً، فكان كل فعل من

---

(١) يوجد أصل الواقعة بتفصيل واف في صحيح البخاري، ولكن الحافظ ابن حجر كتب مزيداً من التفصيل في شرح البخاري نقلاً عن موسى بن عقبة وابن عائذ، اقتبسته أنا الآخر، وهناك أحداث مأخوذة من الطبري.

(٢) يريد قتل أبي سفيان (المترجم).

(٣) قبيلة عدي بن كعب (المترجم).

(٤) الطبري ج ٣ صـ١٦٣٢.

هذه الأفعال يستحق قتله، ولكن كان هناك شيء آخر يفوق هذا كله بكثير وهــو (العفــو النبوي)، فهمس في أذن أبي سفيان: "لا تخف".

ورد في صحيح البخاري أن أبا سفيان أعلن إسلامه وهو يُمْسِك به؛ ولكن الطبري وآخرون كتبوا هذا الحوار كما يلي:

رسول الله ﷺ : ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا اله إلا الله.

أبو سفيان : إنه لو كان مع الله إله غيره لأغني عني شيئاً اليوم.

رسول الله ﷺ : ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟

أبو سفيان : مال زال في النفس منها شك قليل.

على أي حال أعلن أبو سفيان إسلامه وإن كان إيمانه غير راسخ في هذا الوقت، ويكتب المؤرخون أنه أصبح مسلماً حقاً في نهاية الأمر، ففي غزوة الطائف أصيبت عين له، وقضى عليها تماماً في غزوة اليرموك.

حين تقدم جيش الإسلام نحو مكة أمر الرسول ﷺ العباس ﷺ أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها. وبعد فترة وجيــزة بــدأ تلاطم الأمواج في نهر الإسلام، فتقدمت أمواج قبائل العرب بحمــاس وقــوة، وأول مــا تراءى منها راية قبيلة غفار، ثم ظهرت قبائل جهينة و(سعد بن هزيم) وســليم مدججــة بالسلاح تهتف قائلة الله أكبر، وفي كل مرة كان أبو سفيان يرتعد خوفاً، وجــاءت قبيلــة الأنصار في النهاية بقوة تغشاها العيون، فاندهش أبو سفيان وقال: من هــؤلاء. فــأخبره العباس.[1] وفجأة مر قائد الجيش سعد بن عبادة ماسكاً الراية بيده ونظر إلى أبي ســفيان وصاح: **اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الكعبة**[2] ثم ظهر النبي ﷺ وأشرق نوره علــى الأرض، وكان الزبير بن العوام حاملاً الراية وحين نظر أبو سفيان لرسول الله ﷺ فصاح قائلاً: (ألَمْ تعلم ما قال سعد بن عبادة ؟) قال النبي ﷺ: كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ويوم تكسي فيه الكعبة، ثم أمر بأخذ راية الجيش من سعد بن عبادة وأعطاهــا

---

(١) هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار. الرحيق المختوم صـــ٣٦٩ (المترجم).

(٢) هذه رواية صحيح البخاري.(ج٣، ص٨٥)(المترجم).

لابنه. وصل النبي ﷺ مكة المكرمة وأمر بنصب العلم النبوي في الحجون وأمر خالد بأن يدخل مكة مع جيشه من أعلى مكة من كداء.[1]

أعلن أن من يلقي السلاح أو يدخل دار أبي سفيان أو يغلق عليه بابه (أو يدخل المسجد الحرام) فهو آمن، ولكن مجموعة من قريش أخذت تقاتل المسلمين، وتمطر السهام على قوات خالد ﷺ، واستشهد ثلاثة من الصحابة (وهم كرز بن جابر الفهري وحبيش بن أشعر وسلمه بن الميلي)[2] فأجبر خالد ﷺ على الهجوم، فلاذ الأعداء بالفرار تاركين ثلاث عشرة جثة، وحين رأى النبي ﷺ وميض السيوف، منع خالدًا ﷺ، ولكنه حين علم بأن الأعداء هم الذين بدءوا بالقتال أخبر بأن هذا هو ما قدره الله".

سأل المسلمون النبي ﷺ:" أين نقيم يا رسول الله؟ " هل في بيوتنا القديمة؟ وحسب الشريعة الإسلامية لا يمكن للمسلم أن يكون وارثاً لكافر، فحين توفى أبو طالب (عم النبي ﷺ) كان ابنه عقيل كافراً في ذلك الوقت، لذا ورثه، وباع هذه البيوت إلى أبي سفيان، وعليه قال الرسول ﷺ: "وهل ترك لنا عقيل من منزله[3]، لذا أقام ﷺ في خيف (حيث اجتمعت قريش وتعاهدوا على تأييد الكفر ضده). كان بالبيت الحرام ٣٦٠ صنماً، حطمها النبي ﷺ كلها وهو يتلو قول الله تعالى " جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)(الإسراء: من الآية٨١) "جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ"(سبأ:٤٩) [4].

---

(١) اقتبس مولانا شلبي هنا رواية عروة، والتي بالرغم من ورودها في صحيح البخاري، إلا أنها مرسلة، وطبقاً لصحيح ومرفوع الروايات التي وردت في صحيح البخاري أن خالداً دخل مكة من أسفلها ودخلها النبي ﷺ من أعلاها. فتح الباري ج٨ صـ٨.

(٢) ورد استشهادهم أيضاً في صحيح البخاري.

(٣) صُرح في الرواية التي وردت في صحيح البخاري عن أسامة بن زيد ﷺ في فتح مكة أن النبي ﷺ قال هذا في فتح مكة، ولكنه لا يوجد فيها ذكر الإقامة في خيف. وصُرح في الرواية التي رويت عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال هذا في حجة الوداع، وفيها ذكر خيف. وطابق ابن حجر بين الروايتين وقال إنه من الممكن أن يكون النبي ﷺ قال هنا في كلا الواقعتين رداً على استفسار المسلمين فتح الباري ج ٨ صـ١٣، ج ٢ صـ٣٦ ." سيد سليمان الندوي ".

(٤) ذكر ابن سعد في فتح مكة تلاوة هذه الآية كاملة في هذا المقام، وورد في صحيح البخاري في فتح مكة: جاء الحق وزهق الباطل، وما يبدئ الباطل وما يعيد." سيد سليمان الندوي ".

وكانت هناك أصنام داخل الكعبة نفسها، كانت قريش تعتقد في أنها آلهة وقبل دخول الكعبة أمر النبي ﷺ بإخراج كل هذه الأصنام،[1] فدخل عمر ﷺ وأخرج الأصنام كلها ومحى كل ما كان بالداخل من صور، وحين طُهر البيت الحرام من هذه النجاسة كلها، أخذ النبي ﷺ مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة ــ حامل مفتاح الكعبة ــ وأمر بفتح الباب، ودخل النبي ﷺ ومعه بلال وطلحة رضي الله عنهما، وصلوا. ورد في البخاري رواية أن النبي ﷺ كبر بداخل الكعبة، ولكنه لم يصل.

خطبة الفتح

كان هذا هو أول بلاط لإمبراطورية الإسلام، وخطب النبي ﷺ في الناس ولم يوجه خطابه لأهل مكة فقط بل للعالم أجمع:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبد وهزم الأحزاب وحده ألا كل مأثره أو دم أو مال يُدّعى فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحجاج، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالأباء، الناس من دم وآدم من تراب.

ثم قرأ الآية الكريمة

"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير" (الحجرات: ١٣) (كتب ابن هشام بإيجاز) إن الله ورسوله حرم بيع الخمر. (البخاري)

إن التوحيد أصل رسالة الدعوة الإسلامية، وأصل أصول الأعمال، والقائد كلها، لذا بدء به رسول الله ﷺ.[2]

مطالب الخطبة الرئيسية

كان في عرف العرب أنه حين يقتل أحد آخرًا، يصير الأخذ بالثأر (من القاتل) ميراثاً أسريا؛ أي إن لم يستطع الوصول إلى القاتل؛ فيكتب اسم المقتول في سجل الأسرة

---

(١) صحيح البخاري فتح مكة. (روى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة فأمر بها، فأخرجت فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما من الأزلام، فقال النبي ﷺ: "قاتلهم الله، لقد علموا ما استقسما بها قط"، ثم دخل البيت، فكبر في نواحي البيت وخرج ولم يُصل فيه.). (البخاري، ج٣، ص٨٦). (المترجم).

(٢) بدء الرسول ﷺ خطبته بكلمة التوحيد" لا إله إلا الله وحده لا شريك له. (المترجم).

حتى يؤخذ بثأره (من القاتل) ولو بعد مرور مئات السنين، وإذا توفى القاتل، فيقتلون أي رجل من قبيلته. وهكذا كان الثأر والانتقام ميراث العرب أبا عن جد، كما كان العرب يفتخرون بأخذ الثأر. وهكذا نرى أنهم كانوا يفخرون بأمور كثيرة من اللغو والعبث، وجاء الإسلام لمحو واستئصال كل هذه الأمور، لذا قال النبي ﷺ عن الثأر وإراقة الدماء، وكل ما كان يفخر به العرب من أمور خاطئة وواهية بأنه قد استأصل هذا كله من جذوره. كان التمييز والتفرقة بين الناس من حيث العرق والنسب في العرب وبلاد العرب أجمع، مثلما أقام الهندوس أربعة طبقات وأعطوا درجة الحيوانات لطبقة الشودر، ومنعوهم من الترقي في الدرجة حتى لو كان مثقال ذرة، وجاء الإسلام وأحسن على البشرية جمعاء مبدأ المساواة فلا فرق بين العربي والعجمي والشريف والوضيع والملك والغفير، كلهم سواء لا فرق بين أحد وآخر، ويستطيع أي شخص أن يصل إلى أعلى درجات الرقي، لذا تلى النبي ﷺ الآية القرآنية سالفة الذكر، وقال: الناس من آدم وآدم من تراب.

وبعد الانتهاء من الخطبة نظر النبي ﷺ إلى هذا الجمع الكبير، فوجد أمامه جبابرة قريش كلهم، أي أولئك الذين كانوا في مقدمة من يريدون القضاء على الإسلام، ومن كانوا بألسنتهم يمطرون النبي ﷺ بشتائم وسباب كثيرة، ومن كانت تسول له أنفسهم أن يقتلوا الرسول ﷺ بسيوفهم، ومن كانوا ينشرون الأشواك في طريق النبي ﷺ، ومن كانوا يؤذونه ﷺ وهو يعظ الناس، ومن كانوا يعتقدون أن عطشهم لن يُروى إلا بدم الرسول ﷺ، ومن كانوا حاربوه ووصلوا حتى مدينته المنورة، ومن كانوا يُلقون بالمسلمين على الرمال الحارقة ويكْوون صدورهم بالنار.

نظر إليهم من هو رحمة للعالمين، وقال بلهجة مخيفة: ما ترون أني فاعل بكم؟

ومع أن هؤلاء الناس يتصفون بالظلم والشقاء والضراوة والقسوة، إلا أنهم كانوا ماهرين في معرفة الطبائع، فصاحوا قائلين **أخ كريم وابن أخ كريم** . قال الرسول ﷺ: **لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء.**

كان كفار مكة قد استولوا على بيوت المهاجرين كلها، وحان الوقت كي يستردوا حقوقهم، ولكن النبي ﷺ أمر المهاجرين أن يتخلوا عن ممتلكاتهم أيضاً.

حان وقت الصلاة، فصعد بلال ﷺ على سقف الكعبة وأذّن، فاشتعلت نار الغيرة ثانية في نفوس قريش الذين كانوا الآن يلتمسون العفو. قال عتاب ابن أسيد: لقد أكرم الله

أبي أنه قد ذهب من الدنيا قبل أن يسمع هذا النداء.[١] وقال سيد قرشي آخر: " لا فائدة من العيش الآن ".[٢]

جلس النبي ﷺ على مكان مرتفع في جبل الصفا، وأخذ من دخلوا في الإسلام يأتونه ويبايعونه، جاء الرجال أولاً ثم النساء، وكانت هذه طريقة أخذ البيعة من النساء وهي إقرارهن بأركان الإسلام ومحاسن الأخلاق، ثم كان النبي ﷺ يغمس بيده في إناء مليء بالماء ويخرجها[٣] ثم تغمس النساء من بعده يديها في هذا الماء مؤكدة على مبايعتها.

وكان من بين النساء هند، وهي هند التي كانت ابنة عتبة سيد العرب وأم الأمير معاوية ﷺ، عن طريقها قُتل حمزة ﷺ ثم شقت صدره وأخرجت كبده ومضغتها، ارتدت هند النقاب وجاءت (لتبايع النبي ﷺ)، وكانت النساء الفضليات يرتدين عموماً النقاب، لكنها كانت تقصد من هذا أيضاً في ذلك الوقت ألا يتعرف عليها أي أحد، وتحدثت مع النبي ﷺ وهي تبايعه بشجاعة بالغة بل بأسلوب سيء، وهذا حوارها مع الرسول ﷺ [٤]:-

رسول الله: أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً.

هند: لم تقر الرجال على هذا، ولكني على أي حال أبايعك على هذا.

رسول الله: ولا تسرقن.

هند: أحياناً آخذ من مال زوجي (أبو سفيان) هنات، أهذا حلال أم حرام؟

رسول الله: ولا تقتلن أولادكن.

هند: ربيناهم صغار، وقتلتهم[٥] كبار، فأنتم وهم أعلم[٦].

هرب عشرة من سادة قريش من بينهم صفوان بن أمية إلى جدة، وجاء عمير بن وهب إلى النبي ﷺ وقال: " إن سيد العرب قد هاجر من مكة. فأمَّنه الرسول ﷺ، وأعطاه

---

(١) ابن هشام. (أسلم عتاب ﷺ فيما بعد) " سيد سليمان الندوي ".

(٢) الإصابة، ذكر عتاب بن أسيد (ج ٢ صـ٤٥١) " سيد سليمان الندوي ".

(٣) الطبري ج ٣ صـ١٦٤٤.

(٤) الطبري ج ٣ صـ١٦٤٣ " سيد سليمان الندوي ".

(٥) وردت في الرحيق المختوم صـ٣٧٦ " وقتلتموهم ". (المترجم).

(٦) ذكر المؤلف حاشية وردت في ترجمته. أن أبناء هند كانوا يحاربون في غزوة بدر ضمن جيش الكفار وقُتلوا.

عمامته التي دخل بها مكة، فلحقه عمير بجدة وأعاده، ولم يدخل في الإسلام حتى غـزوة حنين.[1] (وأسلم فيما بعد).

هاجر عبد الله بن زبعرى إلى نجران، وهو من كان يهجو النبـي ﷺ والقـرآن، ولكنه أسلم فيما بعد.[2]

هاجر عكرمة بن أبي جهل إلى اليمن، ولكن حرمه " أم حكيم " أخذت له الأمـان من النبي ﷺ وذهبت إلى اليمن ورجعت به.[3] وهذه الواقعة غير جديرة بالذكر لأبي جهل؛ وهي أن فلذة كبده يخرج من دار الكفر، ويدخل في دار الإسلام ونطلق عليه الآن عكرمة رضي الله عنه.

الأمر بهدر دم (رجال من أكابر مجرمي مكة)

يكتب أرباب السيرة أن النبي ﷺ عفى عن أهل مكة وأعطاهم الأمان، إلا أنه أمر بهدر دم عشرة نفر من أكابر المجرمين بها.[4] وكان من بينهم عبد الله بن الأخطل ومقيس بن صبابة اللذان ارتكبا جريمة القتل، وقتلا قصاصاً، أما عن جرم بعض هؤلاء، فـإنهم كانوا يؤذون النبي ﷺ وهو بمكة، أو ينشدون أشعاراً في هجائه ﷺ ومن بينهم قتلت امرأة بهذه الجريمة؛ لأنها كانت تغني أشعاراً تهجو النبي ﷺ.

---

(1) الطبري ج٢ صـ١٦٤٥ " سيد سليمان الندوي "، والإصابة " ذكر صفوان بن أمية "

(2) ابن هشام " سيد سليمان الندوي "

(3) الطبري ج٢ صـ١٦٤٦. " سيد سليمان الندوي "

(4) كتب الحافظ المغلطائي ١٥ أسماً نقلاً عن مصادر مختلفة، الأمر الذي يعتبره المحدثون غير محتاط فيه، وكتب أرباب السيرة عامتهم ١٠ أسماء " كتب ابن اسحاق أربعة أسماء، وروى عـن أبـي داود والدار قطني ٦ فقط، وورد في صحيح البخاري واقعة ابن الأخطل فقط، ويتضح منها أن العدد يقـل كلما تتسع دائرة التحقيق والبحث.

إن العشرة الذين أهدرت دمائهم طبقاً للرواية السائدة بسبب أنهم كانوا كبار المجرمين، ولكن آمن سبعة منهم إيماناً خالصاً وأعفى عنهم، وقتل أربعة فقط ثلاثة رجال وامرأة وهم عبد الله بن الأخطل ومقيس بن صبابة وحويرث بن نقيذ وقريبة جارية ابن الأخطل. وكان ابن الأخطل وابن صبابة قاتلان؛ فـابن الأخطل كان قد أسلم وقتل خادمه المسلم ثم ارتد عن الإسلام، أما مقيس بن صبابة فكان له أخ قتلـه أنصاري خطأ. ودفع النبي ﷺ ديته، ولكن مقيس اعتنق الإسلام منافقاً وبغدر قتـل الأنصـاري. أمـا الحويرث فكان قد تعرض لكريمتي النبي ﷺ وهما مهاجرتان وأراد اسقاطهما من على إبليهما، وقتـل علي بن أبي طالب الحويرث. وكانت قريبة جارية ابن الأخطل مغنية مكة، وكانت تغني أشعاراً فـي هجاء النبي ﷺ. (انظر الزرقاني وابن هشام، فتح مكة). " سيد سليمان الندوي ".

ولكن هذا الأمر ليس صحيحاً حسب أصول نقض المحدثين، إذ كانت هذه الجريمة جريمة مكة كلها، فمَنْ مِنْ كفار قريش (سوى عدد ضئيل) لم يؤذ النبي ﷺ إيذاءً شديداً، وفي الوقت ذاته هؤلاء هم أولئك الذين استمعوا إلى بشرة أنتم الطلقاء، والناس الذين كتب عن قتلهم كانوا أقل إجراماً نسبياً؛ فورد في الصحاح الستة رواية السيدة عائشة الصديقة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ لم يثأر لنفسه أبداً من أي أحد، والمرأة اليهودية التي دست له ﷺ السم في الطعام، وسأل الصحابة عن أمر قتلها، فقال النبي ﷺ: لا. فكيف يمكن لمن أرسل رحمة للعالمين أن يعفو عن امرأة يهودية في خيبر أرض الكفر دست له السم، ولا يعفو في الحرم المكي عن مجرمين أقل إجراماً نسبياً؟

إن لم يقتنع بعلم الدراية، فهذه الواقعة غير صادقة طبقاً لعلم الرواية، فقد ورد في صحيح البخاري قتل ابن الأخطل فقط،[١] ومن المسلم به عموماً أنه قُتل قصاصاً، كما كان قتل مقيس أيضاً قصاصاً شرعياً، أما ما يذكر في سبب الأمر بقتل البقية وهو أنهم كانوا يؤذون النبي ﷺ في فترة ما، فهي روايات تصل إلى ابن إسحاق فقط وتنتهي. أي أن هذه الرواية منقطعة طبقاً لأصول علم الحديث، غير جديرة بالاعتبار. أما عن درجة ابن إسحاق فقد تحدثنا عنها سابقاً في مقدمة الكتاب.

وأصدق رواية يمكن تقديمها في هذا الأمر هي رواية أبي داود،[٢] والتي ورد فيها أن النبي ﷺ أمر يوم فتح مكة بقتل أربعة أشخاص ولو وجدوا في أي مكان. ولكن أبي داود روى هذا الحديث وكتب: لم أجد سند هذه الرواية كما يجب[٣] ثم نقل رواية ابن

---

(١) البخاري، فتح مكة " سيد سليمان الندوي "

(٢) أبو داود، باب قتل الأسير. وهذا نص الحديث كما ورد في (سنن أبي داود، ج٢، ص٥٤) "أربعة لا أؤمنهم في حل ولا حرم". (المترجم).

(٣) كتب أبو داود في باب قتل الأسير ثلاث روايات في هذا المعنى، الأولى: هي الرواية الأخيرة التي ذكرها مولانا شبلي، وهي عن أحمد بن المفضل أسباط بن أسدي كبير ومصعب بن سعد، وسعد بن أبي وقاص ﷺ وورد في هذا الأمر بإهدار دم أربعة رجال وامرأتين، من بينهم ابن أبي سرح الذي أتى به عثمان دون رضا النبي ﷺ في حضرته ﷺ، وبعد تفكير قليل أمّنه الرسول ﷺ، ودخل الإسلام. جَرّح علماء الرجال أحمد بن مفضل، وأسباط بن نصر، وأسدي في هذه الرواية، وخاصة أنهم أكثروا من تجريح أسباط بن نصر. نقل النسائي هذه الرواية بهذه سلسلة في باب قتل المرتدين، ونقلها أيضاً الحاكم في المستدرك في كتاب المغازي، وثلاثة رواة هذه السلسلة شيعة، وكتب الحاكم في المستدرك رأيه (عن هذه الرواية) من خلال هذا الأمر. والرواية الثانية لأبي داود: رواها عن عمرو بن عثمان

الأخطل. وأحمد بن مفضل أحد رواة (الرواية التي وردت في البداية)، والذي كتب عنه الأسدي بأنه منكر الحديث، وأحد رواته أيضاً أسباط بن نصر والذي قال عنه النسائي." إنه ليس قوياً "، ومع أن هذا القدر فقط من التجريح ليس كافياً لعدم تصديق أي رواية، ولكن الواقعة ذات أهمية، لذا فهذا القدر من تجريح الراوي أيضاً كاف للشك في الرواية.

لا ريب في أن بعضاً من سادة قريش الذين كانوا في مقدمة المناهضين للإسلام. فروا من مكة حين سمعوا بنبأ قدوم النبي ﷺ، أما عن سبب فرارهم وهو الأمر بإهدار دمهم هو ما ذهب إليه ابن إسحاق فقط. (ولكن ابن إسحاق هو فقط من رأى أن السبب في فرارهم هو الأمر بإهدار دمهم). ويعد ابن إسحاق عكرمة بن أبي جهل من بين هؤلاء الفارين المهدور دمهم، ولكن وردت هذه الواقعة هكذا في موطأ الإمام مالك ـ والذي قال في شأنه الأمام الشافعي ـ بأنه لا يوجد أي كتاب يفوقه صحة (سوى القرآن) تحت السماء. وهذا ترجمة ما كتبه.

" كانت أم حكيم ابنة الحارث بن هشام زوجة عكرمة بن أبي جهل، اعتنقت الإسلام يوم فتح مكة، ولكن زوجها عكرمة بن أبي جهل فر من الإسلام وذهب إلى اليمن، فلحقت به أم حكيم باليمن، ودعته إلى الإسلام، فأسلم ورجع إلى مكة، وحين رآه النبي ﷺ نهض من شدة فرحه وتقدم نحوه بسرعة وأخذ منه البيعة".[1] (كتاب النكاح).

بن عبد الرحمن بن سعيد المخزومي، وهي أنه روى عن أبيه عن جده: أن النبي ﷺ أمر بإهدار دم أربعة رجال وامرأتين، والمرأتان جاريتان مغنيتان أسلمت أحداهما وقتلت وقتلت الأخرى. كتب أبو داود عن هذه الرواية: ما اعتبرت أن سندها جيداً من شيخي أبي العلاء. ووردت هذه الرواية بهذه السلسلة ذاتها في الدار قطني في نهاية كتاب الحج، وفيها ورد في آخر السند أن عمرو بن عثمان سمع هذه الرواية من أبيه عن جده. يتضح من هذا أن أبي داود يشك في سند هذا الجزء. والرواية الثالثة لأبي داود، ورد فيها ذكر قتل ابن الأخطل فقط، الأمر الذي يثبت أيضاً من رواية صحيح البخاري. روى البيهقي رواية عن الحكم بن عبد الملك وقتادة وأنس بن مالك فيها إهدار دم ثلاثة رجال وامرأة؛ أي أربعة أشخاص. والرجال الثلاثة هم: ابن الأخطل، ومقيس بن صبابة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح. والمرأة كانت تدعى أم سارة. وكان أنصاري قد نذر قتل عبد الله بن سعد، ولكنه أُنقذ بفضل شفاعة عثمان بن عفان ﷺ. وأم سارة هي تلك المرأة التي كلفت بإرسال رسالة سرية بخروج المسلمين إلى مكة قبل الفتح. الحكم بن عبد الملك غير قابل الاعتبار إطلاقاً في هذه الرواية، وكتب العقيلي بأنه لا يوجد أي أحد من رفاقه يؤكده. (تهذيب ابن حجر) " سيد سليمان الندوي".

(١) فتح الباري، ذكر فتح مكة.

وجدير بالذكر هنا أن من منحوا الأمان لم يجبروا على اعتناق الإسلام، وصرح المؤرخون جميعاً وأرباب السيرة أن في غزوة حنين، والتي وقعت بعد فتح مكة، كان ضمن جيش الإسلام كثير من كفار مكة والذين كانوا على كفرهم حتى ذلك الوقت. وكان هذا هو السبب على الأغلب في الهزيمة، ففي بداية الحرب لم تثبت أقدام هؤلاء الكفار، وبالتالي ما ثبتت أقدام المسلمين.

خزائن الكعبة

كانت قد تجمعت خزانة للنذور والهدايا منذ مدة، وقد حفظها المسلمون ولكنهم حطموا التماثيل والصور وكان من بينها صورة لإبراهيم وصورة لإسماعيل (عليهما السلام)، كما كانت توجد صورة لعيسى عليه السلام[1]، الأمر الذي قاس الناس عليه أن أثر ونفوذ المسيحية كان قد غلب في زمن ما وبقيت آثار لألوان التصاوير التي كانت على الجدران، حتى تجديد بناء عبد الله بن الزبير للكعبة. أقام النبي ﷺ خمسة عشر يوماً في مكة المكرمة. وحين خرج عَيَّن معاذ بن جبل حتى يُعلِّم الناس الإسلام والأمور الفقهية.

فتح مكة وتحطيم الأصنام

كان الهدف الأساسي من فتح مكة نشر التوحيد وإعلاء كلمة الله تعالى، إذ كان في الكعبة مئات الأصنام، ومن بينها هبل الذي كان يعده عبدة الأصنام أنه إلههم الأعظم. كان هبل في صورة إنسان، وصُنع من الياقوت الأحمر، وكان خزيمة بن مدركة هو أول من جاء به ووضعه في الكعبة. وخزيمة حفيد مضر ومن أحفاد عدنان. وكان أمام هبل سبعة أزلام[2] مكتوب عليها " لا " و " نعم "، وحين كان العرب يريدون القيام بأي عمل، يستقسمون بها[3]، ويعلمون على ما يخرج منها سواء أكان نعم أو لا[4]. وكان أبو سفيان

---

[1] فتح الباري، ذكر فتح مكة. (وردت هذه الأحداث تفصيلاً فى الأرزقي في أخبار مكة).

[2] سهام. (المترجم).

[3] يقترعون عليها. (المترجم).

[4] معجم البلدان ذكر هبل نقلاً عن هشام بن محمد الكلبي.

قد هتف بحياة هبل هذا في غزوة أحد.[١] كان هبل في جوف الكعبة ذاتها، لذا حين دخلها النبي ﷺ حطمه وما بها من أصنام أخرى.

كانت هناك أصنام كبيرة وكثيرة في ضواحي مكة، وكانت تقام لها شعائر الحج، وأكبر الأصنام اللات ومناة والعشري. كان صنم العزى معبود قريش. واللات معبود أهل الطائف. وكان هناك بلد تدعى نخلة على مسافة منزل واحد من مكة المكرمة، وبها كـان صنم العزى، وكان بنو شيبان حجابه، وكان أهل العرب يعتقدون في أن الإله يقيم عنـد اللات في الشتاء وعند العزى في الصيف، وما كانوا يؤدونه من مناسـك وشـعائر فـي الكعبة، كانوا يؤدونها كاملة أمام العزى ويطوفون حوله، ويترقبون إليه[٢].

كان الإله مناة منصوباً في مشلل، على مقربه من قديد وعلى مسافة سبعة أميـال من المدينة المنورة، وكانت قبائل أزد وغسان والأوس والخزرج يحجون إليه، وكان هذا الصنم أعلى الأصنام، وكان عمرو بن لحي ــ جالب الأصنام ــ أعلاه من الأصنام كلها، وعنده كانت الأوس والخزرج يتحللون من الإحرام (حلق الشعر) حين كانوا يحجون إلى الكعبة[٣]. واتخذت قبيلة هذيل صنم سواع والذي كان برهاط ناحية ينبع. وكان عبارة عن حجر، وكان بنو لحيان حجابه.

والآن حان وقت هدم عبادة الأصنام هذه، التي أسرت العرب جميعاً، وفجأة بـدأ يطير التراب في كل مكان.

---

(١) حين قال أبو سفيان: أعل هبل شماتة بعد نهاية الحرب والمشركون ينصرفون، فقال النبي لأصحابه: ألا تجيبونه؟ فقالوا: فما نقول؟. قال: قولوا: الله أعلى وأجل. (المترجم نقلاً عن الرحيق المختوم صـ٢٥٣).

(٢) ورد هذا تفصيلاً في الزرقاني، الجزء الأول صـ٤٠٠.

(٣) معجم البلدان، ذكر مناة.

هوازن وثقيف

غزوة حنين وأوطاس والطائف

شوال سنة ٨هـ

"ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم"

حنين

" حنين " اسم لوادٍ يقع بين مكة والطائف. ويدخل ضمن شِعابه سوق العرب الشهير ذو المجاز, الذى يبعد عن عرفة ثلاثة أميال.[١] كما يطلق على هذه المنطقة أيضا "مسمى أوطاس"[٢] أما هوازن فهو اسم لقبيلة كبيرة متشعبة.

رغم أن دائرة الفتوحات الإسلامية كانت تتسع يوما بعد الآخر إلا أن العرب كانوا يرون أن قبلتهم العظمى "مكة " ما تزال فى مأمن حتى ذلك الوقت. وكانت تسيطر عليهم الفكرة القائلة بأنه إذا انتصر محمد ﷺ على قريش وتمكن من فتح مكة فهو بلا أدنى ريب نبي حقا". ولما تم فتح مكة بادرت سائر القبائل بنفسها، وبدأت تعتنق الإسلام[٣] ولكن ذلك الفتح كان له أثر

---

(١) هناك إبهام في جملة مولانا شبلى هذه، أي أن حنين ــ وفقاً لما صرح به الزرقاني ــ تقع بين مكة والطائف وعلى مقربة من سوق العرب الشهير ذو المجاز الذى على مسافة ثلاثة أميال من عرفة، ولكن ابن سعد قد صرح بأن حنين تقع على مسيرة ثلاثة أيام من مكة.

(٢) هذا هو رأى القاضى عياض، ولكن الحافظ ابن حجر قد كتب بأن أوطاس ــ وفقاً لما صرح به إبن إسحاق ــ اسم لوادٍ آخر، غير حنين، فى ديار هوازن. فتح البارى والزرقانى، ذكر غزوة هوازن وأوطاس. "سيد سليمان الندوى".

(٣) صحيح البخارى، ذكر فتح مكة (بعد) باب مقام النبى ﷺ بمكة. وهذا نص الحديث كاملاً كما ورد في صحيح البخاري (٤٢٠٢) حدَّثنا سليمانُ بن حرب حدَّثنا حمَّادُ بن زيد عن أيوب عن أبي قِلابةَ عن عمرو بن سَلِمَةَ قال: «قال لي أبو قِلابةَ ألا تَلقاهُ فتسألَهُ؟ قال: فلقيتُهُ فسألتُهُ فقال: كنّا بماءٍ ممرِّ الناس، وكان يَمرُّ بنا الرُّكبان فنسألُهم: ما للناس، ما للناس؟ ما هذا الرجلُ؟ فيقولون: يَزعمُ أنَّ الله أرسلَهُ، أوحى إليه، أو أوحى اللَّهُ بكذا، فكنتُ أحفظُ ذلكَ الكلام فكأنما يقرُّ في صدري، وكانتِ العربُ تَلوَّمُ بإسلامهم الفتحَ فيقولون اتركوهُ وقومهُ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبيٌّ صادق. فلما كانت وقعة أهلِ الفتح بادرَ كلُّ قوم بإسلامهم، وبدَرَ أبي قَومي بإسلامهم، فلما قَدِمَ قال: جئتُكم واللَّهِ من عند النبيِّ صلى الله عليه وسلم حقّاً، فقال: صلُّوا صلاةَ كذا في حينِ كذا، وصلُّوا صلاةَ كذا في حينِ كذا، فإذا حَضَرَتِ

عكسى على هوازن وثقيف. فكانت هاتان القبيلتان أهل قتال وعلى دراية كبيرة بفنونه، وبقدر ما كان يتسنى للإسلام من نفوذ وسطوة كانت تتزايد مخاوفها من أن سيادتهما وامتيازاتهما فـى طريقها إلى السقوط، [١] وعليه ظن زعماء هوازن (وثقيف)، بعد فتح مكة, أنه قد حان دورهما. لذلك اتحدا وتشاورا وقررا بأن يشنا هجوماً مشتركاً (على المسلمين الذين كانوا متمركزين فـى مكة وقتئذ).

(ووفقاً لهذا القرار) تحركت هاتان القبيلتان فى تحفز شديد, عازمتين على الهجوم. وقـد بلغ بهما الحماس إلى أن اصطحبت كل قبيلة منهما سائر أهلها وعيالها لكـي يتأهـب النـاس للتضحية بأرواحهم حفاظا على نسائهم وأطفالهم.

رغم أن كل فروع ثقيف وهوازن قد شاركت فى هذه المعركة, إلا أن كعب وكلاب قد نأيا بنفسهما عنها. وقد اختير مالك بن عوف[٢] قائداً للجيش، وكان الرئيس الأكبر لقبيلة هوازان (كما اصطحب معه) دُريَد بن الصِمّة (كمستشار). وكان دُريَد فيما مضى شاعراً عربياً معروفاً وزعيماً لقبيلة جُشم ومازالت ملاحم شعره وبسالته من المآثر الخالدة فى تاريخ العرب لكنه فـى ذلك الوقت كان قد تجاوز المائة عام من عمره وأمسى هيكلاً عظيماً فقط. ونظراً لأن العـرب كانوا يُذعنون له، ويثقون جميعاً برأيه وتدبيره، لذا سعى مالك بن عوف بنفسـه ملتمسـاً منـه المشاركة. ولما أحضره إلى ميدان القتال محمولاً على مخدعه، تسائل دريد: أى منطقة هـذى؟ فقال الناس:"أوطاس"، قال:- حسناً إنها منطقة ملائمة للحرب فلا هي بشديدة الصلابة ولا هـى باللينة بحيث تتزلق فيها الأقدام. ثم سأل: كيف يتناهى إلى سمعنا صوت بكاء الأطفـال؟ فقـال القوم: لقد اصطحبنا النساء والأطفال حتى لا يتراجع أحدنا أو يتقهقر عن القتال. قال: حين تقـع الهزيمة فى النفوس فلا شيء يمنعها، إن السيف وحده هو الذى يُجدى فى سـاحة القتـال. وإذا

الصلاةُ فلْيُؤذنْ أحدُكم، وليؤُمُكم أكثرُكم قرآناً، فنظَروا، فلم يكن أحدٌ أكثرَ قرآناً مني، لِما كنتُ أتلقَّى منَ الرُكبانِ، فقدَّموني بينَ أيديهم وأنا ابنُ ستٍ أو سبع سنينَ، وكانت عليَّ بُردةٌ كنتُ إذا سجدتُ تَقلصت عني، فقالتِ امرأةٌ منَ الحيّ: ألا تَغطّون عنّا استَ قارئِكم، فاشترَوا، فقطعوا لي قميصاً، فما فرِحتُ بشيءٍ فرَحي بذلكَ القميص». (المترجم).

(١) يكتب السيد مارجوليوث: كانت قبائل البدو التي كانت تعتز كثيراً بحرية البادية، تخاف أشد الخوف من استحكام الحكومة الإسلامية واتساع رقعتها.

(٢) أسلم مالك بن عوف بعد غزوة الطائف، وفى عهد عمر بن الخطاب ﷺ شارك في المعركة القادسية، وعُين والياً على دمشق، الزرقانى ج ٣ص٦. "سيد سليمان الندوى".

ساء الحظ ووقعت الهزيمة، فسيلحق بنا الذل والعار الأكبر بسبب النساء. ثم سأل هل انضمت إلينا كعب وكلاب أم لا؟ ولما علم أنه ما من رجل من هاتين القبيلتين الكبيرتين في ساحة القتال، قال: لو كان هذا اليوم يوم الشرف والكرامة ما كان لكعب وكلاب أن تغيبا عنه.

كان يرى أنه ينبغى أن تتراجع الجيوش من الميدان وتجتمع فى منطقة آمنة، وهناك يتم الإعلان عن الحرب، لكن مالك بن عوف الذى كان شاباً فى الثلاثين من عمره، وقد أخذه حماس الشباب رفض هذا الرأى وقال له : لقد أصابك خرف الشيخوخة، وفسد عقلك.(١)

تناهت هذه الأخبار إلى الرسول ﷺ (فى مكة) فبعث عبد الله بن أبى حدرد ﷺ ليتبين الأمر. فذهب بدوره كجاسوس إلى حنين وإنضم إلى الجيش هناك لعدة أيام تحقق خلالها من كل التفاصيل، فاضطر رسول الله ﷺ أن يعد العدة للمجابهة. فتحتم الإقتراض لتوفير مؤونة الحرب وعتادها. كان عبد الله بن الربيعة – أخو أبو جهل لعلات– ثرياً جداً، فاقترض منه الرسول ﷺ ثلاثين ألف درهم. (٢) كما استعار رسول الله ﷺ الأسحة من صفوان بن أمية الذي كان أكبر سادة مكة المعروف بحسن ضيافته وكرمه. ولكنه لم يكن قد اعتنق الإسلام بعد، فأبدى لهفته لذلك وقدم إلى الرسول ﷺ المستلزمات التي طلبها.(٣)

وفى شوال سنة ٨هـ الموافق يناير وفبراير سنة ٦٣٠م تقدمت الجيوش الإسلامية في اثنى عشر ألف مقاتل إلى حنين بكل هذه العدة والعتاد لدرجة أن خرجت هذه الجملة من لسان بعض الصحابة رضوان الله عليهم بدون قصد وهي: "من يستطيع أن يهزمنا اليوم؟" ولكن الله سبحانه وتعالى لم يرض بهذا الغرور، فقال تعالى:

---

(١) ورد هذا تفصيلا في الطبري جـ٣ من صـ١٦٥٥ إلى صـ١٦٥٧."سيد سليمان الندوى".

(٢) مسند بن حنبل جـ٤ صـ ٣٦، وقد وردت هذه الرواية أيضاً عن الإمام البخارى فى الإصابة، ولكن جاء فيها أن الرقم كان عشرة آلاف.

(٣) ورد فى الموطأ أنه لما طلب منه الرسول ﷺ الأسلحة. قال : جبراً أم طوعاً (أى إذا كنت تطلبها جبراً فلن أعطيك إياها) فقال رسول الله ﷺ : لا بل عارية مضمونة. (ورد في أبي داود، باب الضمانة مثل هذه الرواية).وهذا نص الحديث كاملاً كما ورد في سنن أبي داود: (٣٥٦٣) حدثنا الْحَسَنُ بنُ مُحَمَّدٍ وَ سَلَمَةُ بنُ شَبِيبٍ قالاَ أخبرنا يَزِيدُ بنُ هَارُونَ أخبرنا شَرِيكٌ عن عَبْدِ العَزِيزِ بنِ رُفَيْعٍ عن أُمَيَّةَ بنِ صَفْوَانَ بنِ أُمَيَّةَ عن أبيهِ، أنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم اسْتَعَارَ مِنْهُ أَدْرَاعاً يَوْمَ حُنَيْنٍ فقالَ: أَغَصْبٌ يَا مُحَمَّدُ؟ فقالَ: لاَ بَلْ عَارِيَةٌ مَضْمُونَةٌ». قَالَ أَبُو دَاوُدَ: هَذِهِ رِوَايَةُ يَزِيدَ بِبَغْدَادَ، وَفِي رِوَايَتِهِ بِوَاسِطَ تَغَيُّرٌ عَلَى غَيْرِ هذَا. (المترجم).

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ۞ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ۞﴾ (التوبة:٢٥-٢٦)

وبدلا من النصر خلى الميدان فى الوهلة الأولى من كل المقاتلين وحين نظر الرسول ﷺ حوله لم يجد بجواره أحدا من صحابته المقربين.[١]

---

[١] لكن ورد في روايات أخرى أن رهطاً من الصحابة قد ثبتت أقدامهم. والتوفيق بين هاتين الروايتين المختلفتين أن كلاً منهما قد وقعت فى وقفة مغايرة. وأن كل راوٍ قد كتب ما رآه بنفسه، وسيرد التفصيل فيما بعد (إن شبلي لم يستطع أن يفي بالوعد الذى أخذه على نفسه بالتفصيل فيما بعد ولذا يتعين علينا التفصيل هنا حيث يعترى هذه المسألة بعض الأمور الجديرة بالتوضيح. أولاً: سلم المؤلف بهزيمة المسلمين فى الوهلة الأولى وهذا رأى ابن إسحاق وغيره من كتاب السيرة، ولكن نص الحديث الصحيح يشير إلى أن المسلمين قد أحرزوا النصر في البداية فانقض الناس وتهافتوا على الغنيمة. فانتهز رماة السهام من الأعداء هذه الفرصة وأخذوا يصوبون سهامهم.مما أشاع الفوضى والتشتت فى صفوف المسلمين وهذا ما قاله البراء ﷺ في صحيح البخاري: **وإن لما حملنا عليهم انكشفوا فاكسبنا على الغنائم فاستقبلنا بالسهام.(البخاري-غزوة حنين)**. ثانياً : أنه كان من أحد الأسباب الظاهرية للهزيمة، أن بعضاً من الناس لم يشاركوا فى هذه الغزوة إلا ليغدروا بالمسلمين فى خضم القتال. ولذلك ورد فى صحيح مسلم أن السيدة أم سليم رضي الله عنها والتي شهدت هذه الغزوة قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله ! أُقتل هؤلاء الطلقاء فقد لحقت بنا الهزيمة بسببهم, وهذا نص ما قالته:- "**اقتل مَن بعدنا من الطلقاء انهزموا بك". (غزوة النساء مع الرجال)**.

وقد كتب الإمام النووى فى شرح هذه العبارة التالي:

لم يحصل الفرار من جميعهم وإنما فتحه عليهم من فى قلبه مرض من مسلمة أهل مكة المؤلفة ومشركيها الذين لم يكونوا أسلموا؛ وإنما كانت هزيمتهم فجأة لانصبابهم عليهم دفعة واحدة ورشقهم بالسهام ولإختلاط أهل مكة معهم ممن لم يستقر الإيمان فى قلبه، وممن يتربص بالمسلمين الدوائر وفيهم نساء وصبيان خرجوا للغنيمة. (غزوة خيبر).

والعبارة التي نقلها المؤرخ الطبرى عن لسان هولاء الطلقاء المكيين فى هذه المناسبة, تكشف الستار أيضاً عن هذا السر, وهو أن أهل مكة لم يخلصوا فى مشاركتهم للمسلمين في هذه الغزوة. (ج ٣ ص ١٦٦٠. لاندن).

ومن بين المفسرين الأوائل كتب ابن جرير الطبري: " **إن الطلقاء إنجفلوا يومئذ الناس وجلوا عن النبي ﷺ** " (ابن جرير الطبرى جـ ١٠ صـ ٦٢). وقال أبو حيان الأندلسي من الجيل الثاني للمفسرين: **يقال إن الطلقاء من أهل مكة فروا وقصدوا إلقاء الهزيمة فى المسلمين. (البحر المحيط جـ ٥ صـ ٢٤)**.

ومن المفسرين المتأخرين كتب صاحب روح المعاني في تفسير سورة التوبة ما يلي:- **وكان أول إنهزم الطلقاء مكراً منهم وكان ذلك سبباً لوقوع الخلل وهزيمة غيرهم (جـ ١٠، صـ ٦٦٠).**

٣- ثالثاً أن جماعة من المسلمين قد ثبتت أقدامها مع رسول الله ﷺ عند تقهقر الأغلبية. فقد وردت رواية لأنس ﵁ في صحيح البخاري تثير الاشتباه في هذه المسألة. حيث جاء فيها: " **فأدبروا عنه حتى بقي وحده".**

لقد وضع مولانا شبلي هذه الكلمات نصب عينيه، ولكن يبدو أنه كان يقصد أنه لم يكن هناك أحد في المكان الذي كان فيه رسول الله ﷺ، ولذا يقول أنس﵁ في هذه الرواية ذاتها أنه لما نادى رسول الله ﷺ على الأنصار أجابوه بقولهم: **لبيك يا رسول الله، أبشر نحن معك.** كما أن هناك رواية لأنس ﵁ في هذا الباب نفسه تسبق الرواية، ورد فيها قول الأنصار:

لبيك يا رسول الله وسعديك نحن بين يديك. (صحيح البخاري، غزوة الطائف).

وفق الحافظ ابن حجر بين رواية ثبات الرسول الله ﷺ وحده وبين الرواية التي تقول بأنه قد ثبت معه الصحابة المقربين. حيث قال: **ويجمع بين قوله حتى بقي وحده وبين الأخبار الدالة على أنه بقي معه جماعة بأن المراد بقي وحده متقدماً على العدو والذين ثبتوا معه كانوا وراءه. (جـ٨، صـ ٢٤، مصر).** هذا فضلاً عن أن البراء ﵁ ينص في الرواية التي وردت له في صحيح البخاري، أن أبا سفيان بن الحارث كان بجوار رسول الله ﷺ في ذلك الوقت، ممسكاً بلجام مطيته عليه الصلاة والسلام. (غزوة حنين، صحيح البخاري) .ووردت في صحيح مسلم مقولة العباس ﵁ القاطعة:- **فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ فلم نفارقه. صحيح مسلم، (غزوة حنين).** فضلا عن هذه الروايات التي وردت في الصحيحين، ينبغي أن نضع في اعتبارنا أيضاً الروايات التالية: ١- ورد في رواية مرسلة لابن أبي شيبة، رُويت عن الحكم بن عتيبة أنه قد مكث مع رسول الله ﷺ أربع رجال. (فتح الباري جـ٨ صـ٢٣). ٢- روى الترمذي عن ابن عمر (رضي الله عنهما) أنه لم يبق مع رسول الله ﷺ في ذلك الوقت مائة رجل. (الترمذي، أبواب الجهاد، باب ما جاء في الثبات عند القتال). ٣- ورد في مسند أحمد جـ١ صـ ٤٥٣، وفي المستدرك للحاكم رواية عن عبد الله بن مسعود ﵁ فيها أنه قد بقي مع رسول الله ﷺ في ذلك اليوم ثمانون رجلاً. (فتح الباري ٨، ص ١). ٤- روى البيهقي عن حارثة بن النعمان أنه قد بقي مائة رجل (الزرقاني جـ٣صـ٢٢) وبين أبو نعيم في الدلائل أن هذه المائة كان بها ما يزيد عن ثلاثين مهاجراً وبقيتها من الأنصار. (فتح الباري جـ٨صـ٢٣).

٥- (أما رواية ابن إسحاق فتقول: إن الذين بقوا بجوار رسول الله ﷺ في ذلك الوقت من المهاجرين والأنصار وآل البيت هم هؤلاء الصحابة: أبو بكر، و عمر، وعلي، والعباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث، والفضل بن العباس، وربيعة، وأيمن بن زيد، وأيمن بن أم أيمن (رضوان الله عليهم أجمعين). وخلاصه هذا التفصيل هو أنه لا يمكن أن يُؤخذ قول انس ﵁: "**بقي وحده** " على

يقول أبو قتادة ﷺ، الذي شارك في هذه الغزوة: خرجنا مع النبي ﷺ عام حنين فلما التقينا كانت للمسلمين جولة، فرأيت رجلاً من المشركين قد علا رجلاً من المسلمين فضربته من ورائه على حبل عاتقه بالسيف فقطعت الدرع، وأقبل علي فضمني ضمة وجدت منها ريح الموت، ثم أدركه الموت، فأرسلني. فلحقت عمر فقلت: ما بال الناس؟ قال: أمر الله عز وجل. (١)

كان للهزيمة أسباب عديدة. فمقدمة الجيش التي كان يتولى قيادتها خالد ﷺ،كانت أغلبها من المسلمين حديثى العهد بالإسلام (الذين أسلموا إثر فتح مكة)، وقد امتلكهم غرور الشباب فلم يأتوا متسلحين بعتاد الحرب.(٢) كما كان ضمن الجيش ألفين من الطلقاء، وهم الذين لم يكونوا قد

معناه الظاهري. وقد وجهه الحافظ ابن حجر على أن المراد منه أن رسول الله ﷺ كان فى الأمام وبقية الناس خلفه، ولكن التوجيه الصريح له أن المراد منه التعبير عن قلة الذين ثبتت أقدامهم، وإلا فلا أساس له من الحقيقة. أما الاختلاف حول الذين ثبتوا فى الرواية الأخرى فله توجيهات عديدة (انظر الزرقانى جـ٣صـ٤٢)، ولكن نتبين أن الناس كانوا قرب رسول الله ﷺ وبدأوا يدنون منه فى أعداد قليلة حتى اجتمعت مجموعة كبيرة حول رسول الله ﷺ. وهذا هو السبب فى اختلاف الأعداد التي ذكرها كل راوٍ. "سيد سليمان الندوى".

(١) صحيح البخارى، غزوة حنين جـ١صـ٦١٨. وهذا نص الحديث كاملاً كما ورد في صحيح البخاري (٤٢١٨) حدَّثنا عبد الله بن يوسف: أخبرنا مالك، عن يحيى بن سعيد عن عمر بن كثير بن أفلَحَ عن أبي محمد مولى أبي قتادة، عن أبي قتادة قال: خرجنا مع النَّبي صلى الله عليه وسلم عامَ حُنَيْنٍ، فلمَّا التقينَا كانتْ للمسلمِين جولةٌ، فرأى رجلاً من المشركين قدْ علا رجُلاً منَ المسلمينَ، فضربتُه مِنْ ورائِي على حبْلِ عاتِقه بالسيف فقطعتُ الدِّرْعَ، وأقبل عليَّ فضمَّن ضمَّةً وجدْتُ منها ريح الموتِ، ثُمَّ أدركَهُ الموتُ فأرسلني، فلحقتُ عمر بن الخطّاب فقلتُ: ما بالُ النَّاسِ؟ قال: أمْرُ الله عزَّ وجلَّ ثمَّ رجعوا، وجلس النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً له عليه بيِّنَةٌ فلهُ سَلَبُهُ»، فقلتُ: مَنْ يشهَدُ لي ثم جلسْتُ قال: ثمَّ قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مثله، فقلتُ: مَنْ يشهد لي، ثم جلستُ، قال: ثم قال النَّبي صلى الله عليه وسلم مثلهُ فقُمتُ، فقالَ: «مالك أيا أبا قتادة»، فأخبرتُه، فقال رجلٌ، صدق، وسلبُه عندي، فأرضِه مِنْهُ، فقال أبو بكر: لاها اللهِ إذا، لا يعمِدُ إلى أسَدِ اللهِ، يُقاتِلُ عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فيعطيكَ سلبَهُ. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «صدق، فأعْطِه». فأعطانِيه، فابْتَعْتُ بِهِ مَخْرفاً في بني سلمة، فإنّه لأَوَّلُ مالٍ تأثَّلْتُهُ في الإسلام.(المترجم).

(٢) صحيح البخارى، باب الجهاد وباب من صف اصحابه عند الهزيمة، ونزول عن الدابة. "سيد سليمان الندوى".

اعتنقوا الإسلام حتى ذلك الحين[١]. هذا ولم يكن لهوازن مثيل بين العرب في فن الرماية، إذ لم يكن لأحد سهامها أن يخطئ مرماه [٢] فى ساحة القتال. وصل المشركون أولاً إلى أرض القتال واستولوا على المواقع الإستراتيجية فيها وتمركزت كتائب رماتهم فى أماكن متفرقة من مضائق ومغارات ووديان الجبال.

شن المسلمون هجومهم فى الصباح قبل أن يتجلى ضوء النهار, وكان ميدان القتال فى وهدة من الأرض لم تستطع الأقدام أن تثبت بها. بلغ تزايد المهاجمون إلى أن تدفق آلاف الجنود من الأمام. ثم خرجت كتائب الرماة من مكامنها وانهالت ترمى وابلاً من السهام. فعمت الفوضى فى مقدمة الجيش ومن ثم فقدت سيطرتها وتقهقرت للوراء الأمر الذى تلاه إنسحاب الجيش كله, ورد فى صحيح البخارى **(فأدبروا عنه حتى بقى وحده)**.[٣]

بينما كان وابل السهام ينهال, وقد فر على أثره جيشا من اثني عشر مقاتلاً, بقي ذو الوجه المقدس ثابت القدم إذ كان وحده جيشاً كاملاً, وبلداً, وإقليماً, وعالماً؛ بل كان يمثل وحده الكون كله.

نظر رسول الله ﷺ إلى يمينه ونادى: **يامعشر الأنصار!** فتناهى إليه الرد " لبيك "، ثم التفت رسول الله ﷺ إلى يساره ونادى، فتجاوب إليه نفس الصوت, فنزل من على دابته وقال فى لهجة يحدوها جلال النبوة: " إني عبد الله ورسوله".

وورد في رواية أخرى للبخاري: **أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب.**

---

(١) إن عبارة شبلي هذه غير واضحة، فالمراد أنه رغم تشهدهم بالشهادتين، حسبما ورد فى عمدة القارئ جـ٨ صـ٣٥٩ مصر وشرح مسلم للنووي، في غزوة النساء مع الرجال، إلا أنهم كانوا ما يزالون حديثى العهد بالإسلام، ولم يكن الإسلام قد رسخ فى قلوبهم بعد، ومن ثم لم تكن قد تكونت لديهم حتى ذلك الوقت نزعة الثقة والثبات التي اتسم بها المهاجرون والأنصار. "سيد سليمان الندوى".

(٢) صحيح البخارى، باب الجهاد الباب المذكور. "سيد سليمان الندوى ". ٤٢١٥) ـــ حدَّثني محمدُ بن بشَّار حدَّثنا غُندَرٌ حدَّثنا شعبةُ عن أبي إسحاقَ سمعَ البراء ـ وسأله رجلٌ من قيس ـ أفرَرتم عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يومَ حنين؟ فقال: لكنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لم يَفِرَّ، كانت هَوازنُ رُماة، وإنّا لما حملنا عليهم انكشَفوا فأكبَبْنا على الغَنائم، فاستُقبِلْنا بالسهام. ولقد رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على بَغلتهِ البَيضاءِ، وإنَّ أبا سُفيانَ بن الحارث آخذٌ بزِمامِها وهو يقول أنا النبيُّ لاكذب».

قال إسرائيل وزهير «نزل النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) عن بغلتهِ».. (المترجم).

(٣) صحيح البخارى، جـ٢صـ٦٢١ (غزوة الطائف).

كان العباس ﷺ جهوري الصوت, فأمره رسول الله ﷺ أن ينادى المهاجرين والأنصار فهتف فيهم:

يا معشر الأنصار، يا أصحاب الشجرة

كان لهذا الصوت وهذا النداء وقع مؤثر فى الآذان، جعل الجيش كله يعود أدراجه دفعةً واحدة. والذين لم تستطع خيولهم أن تلتف بسبب التناحر والقتال العنيف, ألقوا دروعهم وقفزوا من فوق الخيل, وفجأة انقلبت أحوال المعركة, وفر المشركون ومن بقى منهم كان مقيداً بالأغلال. ثبتت بنو مالك (أحد فروع ثقيف) وواصلت القتال, ولكن قُتل منها سبعين رجلاً وما أن قُتل حامل لوائها عثمان بن عبد الله لم تستطع الثبات أيضاً. تجمع بعض الجيش المهزوم في أوطاس والبعض الأخر ذهب إلى الطائف كلاجئين وكان فى صحبتهم قائد الجيش (مالك بن عوف).

أوطاس

جهّز دريد بن الصمة عدة آلاف وذهب إلى أوطاس, فبعث رسول الله ﷺ جيشاً صغيراً (تحت قيادة أبي عامر الأشعري ﷺ لاستئصالهم, (فقُتل أبو عامر على يد ابن دريد الذى أمسك بعلم الإسلام. ولما رأى أبو موسى الأشعري هذا الوضع تقدم إلى الأمام. وقتل عدو الإسلام وانتزع من يده العلم.[1] كان دريد يجلس فى هودجٍ فوق جمل. فهاجمه ربيعة بن رفيع "ﷺ" لكن سيفه نبا. فقال دريد: " إن أمك لم تعطك سلاحاً جيداً ." ثم قال: "فى محملي سيف، أخرجه وحين تعود إلى أمك أخبرها أنك قتلت دريد ". وذهب ربيعة إلى أمه وأخبرها بمقتل دريد، فقالت: والله إن دريداً كان قد حرر أمهاتك الثلاثة.[2]

زادت أعداد الأسرى عن الآلاف. وكانت من بينهم أيضاً السيدة الشيماء (رضي الله عنها) أخت رسول الله ﷺ فى الرضاع. حين أسرها المسلمون قالت. " إننى أخت نبيكم". فأحضروها إلى رسول الله ﷺ. ليتأكدوا من صدقها. فكشفت له عن ظهرها لتريه أثر قضمة قضمها رسول الله ﷺ فى صباه. فاغرورقت عيني رسول الله ﷺ. من فرط محبتها، وبسط لها ردائه لتجلس عليه. وتحدث إليها بأحاديث الود والمحبة. وأهداها بضعة جمال وشياة، وأخبرها

---

(١) مسند الإمام إبن حنبل، جـ ٤ صـ ٣٩٩.

(٢) الطبري، جـ ٣ صـ ١٦٦٦ طبعة أوربا.

با، لها مطلق الحرية فى الذهاب إلى بيته والسكنى فيه أو ردها إلى بيتها إن شاءت. [1] ففضلت الذهاب إلى وطنها حباً فى أهلها. ولذا تم توصيلها إليه بكل توقير وإحترام.

حصار الطائف

لجأت بقية الجيش المهزوم فى حنين إلى الطائف وبدأت تستعد للحرب. كانت الطائف منطقة حصينة جداً. وتسمى بالطائف لأنها كانت محاطة بأربعة حوائط كأسوار لها. وتتسم قبيلة ثقيف التي كانت تستوطنها بالشجاعة البالغة، ولها مكانتها المتميزة بين العرب، حيث كادت تعادل قريش. أما عروة بن مسعود الذى كان يرأسها، فهو زوج لابنة أبى سفيان (أبو معاوية ﷺ). كان مشركو مكة يقولون لو كان القرآن يُوحى، فسيوحى إلى سادة مكة أو الطائف. كما كان أهل الطائف على دراية بفنون الحرب والقتال. فقد كتب الطبرى وابن إسحاق أن عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة كانا قد ذهبا إلى جُرش (أحد أقاليم اليمن) وتعلما بها فن صناعة واستخدام معدات تدمير الحصون أي الدبّابة، والصنبّور، والمنجنيق. [2]

كانت بالطائف قلعة آمنة رممها أهل المدينة والجيش المهزوم فى حنين، وادخروا بها مؤونة عام كامل، ووزعوا مدافع المنجنيق فى جهاتها الأربع، كما حددوا أماكن متفرقة لرمى الرماة. [3]

أمر رسول الله ﷺ أن تُصان غنيمة حنين وأسراها فى الجعرانة وقصد بنفسه الطائف. ثم تحرك خالد ﷺ أولاً كمقدمة للجيش. موجز القول أنه قد تم الحصار، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يواجه فيها المسلمون استخدام معدات تحطيم الحصون أي الدبابة والمنجنيق. واصل أهل القلعة قصف قضبان الحديد الساخنة باستخدام الدبابة كما انهالوا رمياً بالسهام بحدة أجبرت المهاجمين على التقهقر، وتسببت فى إصابة أعداد كبيرة من الناس. استمر الحصار عشرون يوماً ومع ذلك لم يتمكن المسلمون من فتح المدينة. فاستدعى سيدنا محمد ﷺنوفل بن معاوية، وسأله: عن رأيه؟ قال: لقد دخل الثعلب فى الجحر، إذا واصلنا الجهد فسنمسك به وإذا أغفلناه فلا مخافة أيضاً. وحيث أن الهدف كان الدفاع فقط، أمر رسول الله ﷺ برفع الحصار. فقال

---

[1] طبقات ابن سعد، والإصابة، والطبري، جـ٣ صـ ١٦٦٨.

[2] الطبري، جـ٣ صـ١٦٦٩، طبعة أوربا.

[3] تاريخ خميس، جـ٢ صـ ١٢٢ و ابن سعد

الصحابة (رضوان الله عليهم): ادع عليهم يا رسول الله. فدعا رسول الله ﷺ [1]: **اللهم اهد ثقيفا وأت بهم**

تقسيم الغنائم

ترك رسول الله ﷺ الحصار وذهب إلى الجعرانة. وكانت الغنيمة ذخيرة لا تحصى، ستة آلاف أسير، وأربع وعشرون ألف ناقة، و(أكثر من) أربعين ألف شاة، وأربع آلاف أوقية من الفضة.[2] بالنسبة للأسرى فقد ترقب رسول الله ﷺ أن يأتى أقاربهم حتى تتم المفاوضة معهم، ولكن رغم مرور عدة أيام لم يأت أحد منهم. أما أموال الغنيمة فقد قسمت إلى خمسة أسهم. وُزعت أربعة منها – وفقاً للشرع – على هذا الجيش. أما الخمس الأخير فكان لبيت المال والفقراء والمساكين.

كان أغلب سادة مكة الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام، ما يزالوا مذبذبى العقيدة. وقد اسماهم القرآن الكريم المؤلفة قلوبهم. وقد ورد ذكرهم فى آية مصارف الزكاة.

منح الرسول الله ﷺ هؤلاء القوم مكافآت بالغة السخاء تبيانها كما يلى

أبو سفيان وأولاده ٣٠٠ ناقة و ١٢٠ أوقية من الفضة

حكيم ين حزام ٢٠٠ ناقة

النضر بن الحارث بن كلدة الثقفي ١٠٠ ناقة

صفوان بن أمي ١٠٠ ناقة

قيس بن عدى ١٠٠ ناقة

سهيل بن عمرو ١٠٠ ناقة

حويطب بن عبد العزى ١٠٠ ناقة

(وبالإضافة إليهم استحق ثلاثة سادة آخرين (حديثي العهد بالإسلام وغير مكيين) هذه المكافآت وهم :

الأقرع بن الحابس (التميمى) ١٠٠ ناقة

عيينة بن حصن(الفزاري) ١٠٠ ناقة

مالك بن عوف(النصرى) ١٠٠ ناقة

---

[1] ابن سعد، جزء المغازى، ص١١٥."سيد سليمان الندوى".

[2] – طبقات ابن سعد (جزء المغازى ص ١١٠). "سيد سليمان الندوى".

فضلاً عن هؤلاء السادة أعطى رسول الله ﷺ خمسين ناقة لكل فرد لقطاعٍ كبير من الناس. ووفقاً للتقسيم العام وزع الجزء الذى كان من نصيب الجيش بواقع أربعة نياق وأربعون شاة للمقاتل الواحد، ولكن لأن الفرسان كانوا يأخذون ثلاثة أضعاف، لذا كان من نصيب كل فارس منهم إثنى عشر ناقة ومئة وعشرون شاة. [١]

كان الذين حظوا بغيث المكافآت هم أهل مكة على العموم، وأغلبهم حديثي العهد بالإسلام. ومن ثم غضب الأنصار. فقال بعضهم: يَغفِرُ اللهُ لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، يُعطي قُريشاً ويَدَعُنا، وسُيوفنا تقطرُ من دِمائهم.[٢] وقال البعض الآخر: إذا كانت شديدة فنحن ندعى ويعطى الغنيمة غيرنا[٣]

سمع رسول الله ﷺ هذه الضجة الشائعة، فاستدعى الأنصار. ونصبت قبة من أدم ولم يدع معهم غيرهم. فلما اجتمعوا قام النبي ﷺ فقال: "ما حديث بلغني عنكم" فقال فقهاء الأنصار: أما رؤساؤنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً. بل قال تلك العبارة ناس منا حديثة أسنانهم.[٤] ووردت رواية عن أنس رضي الله عنه في باب مناقب الأنصار بصحيح البخاري أنه حين استدعى رسول الله ﷺ الأنصار سألهم عن هذا الأمر ؟ ونظرًا لأن الكذب لم يكن من شيم الأنصار، قالوا: إن ما سمعته يا رسول الله، صحيح.

ألقى رسول الله ﷺ خطبة ذات بلاغة منعدمة النظير، خاطب الأنصار، فقال:

"ألم آتكم ضلالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم".

كان رسول الله ﷺ يقول ذلك، والأنصار يجيبون عند كل جملة: بلى الله ورسوله أمنّ وأفضل.[٥]

فقال رسول الله ﷺ: " ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلا فآسيناك".

---

[١] طبقات ابن سعد، جزء المغازى صـ ١١٠، والزرقاني على المواهب جـ٣ صـ٤٣."سيد سليمان الندوى".

[٢] صحيح البخاري، غزوة الطائف. (البخاري، ج٣، ص٩٧)(المترجم).

[٣] صحيح البخاري، طبعة مطبعة نظامى صـ٦٢١. (البخاري، ج٣، ص٩٨)(المترجم).

[٤] صحيح البخاري، صـ ٦٢٠. غزوة الطائف. "سيد سليمان الندوى". (البخاري، ج٣، ص٩٧)(المترجم).

[٥] صحيح البخاري, صـ ٦٢٠ باب غزوة الطائف, فتح الباري جـ ٨ صـ ٤١. "سيد سليمان الندوى".

ثم قال ﷺ :" ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟".

فصاح الأنصار: " رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً. وبكى أكثرهم حتى ابتلت لحاهم. وأوضح رسول الله ﷺ للأنصار أن أهل مكة حديثو العهد بالإسلام، وأن ما أعطاه لهم ليس عن حق بل لتأليف قلوبهم.[1]

كان أسرى غزوة حنين ما يزالون محتجزين في الجعرانة حتى الآن، وقدم إلى رسول الله ﷺ وفدٌ من الأشراف من أجل إطلاق سراحهم. وكان هذا الوفد يمثل القبيلة التي تنتمى إليها السيدة حليمة (رضي الله عنها). أم سيدنا محمد ﷺ فى الرضاع. وقف رئيس القبيلة (زهير بن صُرد)، فخطب موجهاً حديثه إلى رسول الله ﷺ : إن النساء المحبوسات فى الأكواخ بينهن عماتك وخالاتك. والله ! لئن شرب أحد سلاطين العرب من لبن عشيرتنا لرجونا منه الكثير ورجائنا فيك أكبر. فقال رسول الله ﷺ: إن لكم ما لبنى عبد المطلب، ولكن مسألة إطلاق سراح الأسرى تتطلب أن تقدموا التماسها أمام الجميع فى مجمع الناس بعد الصلاة. بعد صلاة الظهر قدم هؤلاء القوم التماسهم أمام مجمع الناس. فقال رسول الله ﷺ : لا كلمة لي إلا على عشيرتى ولكننى أطلب الشفاعة لهم من كل المسلمين. فقال المهاجرون والأنصار: إن نصيبنا أيضاً رهن إشارتكم. وهكذا تم تحرير ستة آلاف أسير دفعة واحدة.[2]

أحداث متفرقة

ولدت السيدة مارية (رضي الله عنها) فى تلك السنة ولداً أسماه رسول الله ﷺ إبراهيم ؓ. كان رسول الله ﷺ يحب هذا الطفل حباً جماً، وقد عاش عاماً ونصف (١٧ أو ١٨ شهراً) وفى اليوم الذى توفى فيه إبراهيم ؓكسفت الشمس. وكان العرب يعتقدون أن كسوف الشمس دلالة على موت إنسان عظيم. فظن الناس أن هذا الكسوف نتيجة لموت إبراهيم ؓ. فجمع

---

(١) صحيح البخارى وفتح البارى ورد هذا تفصيلا في فتح البارى. حيث يقول رسول الله:" فإني أعطى رجالاً حديثى عهد بكفر أتألفهم". (البخاري، ج٣، ص ٩٧). (المترجم).

(٢) الطبرى، جـ ٣صـ ١٦٧٦." سيد سليمان الندوى".

رسول الله ﷺ المسلمين وخطب فيهم :" **إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّـــهِ لَـــا يَنْكَسِـــفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ** ". ثم صلى النبي ﷺ بالمسلمين صلاة الكسوف.(١)

وفي هذه السنة نفسها توفيت السيدة زينب (رضي الله عنها) ابنة رسول الله ﷺ.

---

(١) صحيح البخاري، باب الكسوف. وهذا نص الحديث : ٤٩٣ حَدِيثُ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : انْكَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَادْعُوا اللَّهَ وَصَلُّوا حَتَّى تَنْكَشِفَ * (المترجم).

سنة ٩ هـ

حادثة الإيلاء والتخيير وغزوة تبوك

الإيلاء والتخيير[1] سنة ٩هـ

كان رسول الله ﷺ يعيش حياةً زاهدةً تخلو من زخرف الدنيا. فكانت تمضـــى شـــهوراً دون أن يُوقد فى بيته نار. وكان دائما يظل على جوعه، فلم يأكل حتى يشبع مرتين متتالين على مدار عمره كله. كانت زوجاته المطهرات (رضي الله عنهن) من بين هذا الجنس اللطيف الـــذى يميل عموماً إلى تفضيل الزينة والدلال والرفاهية ومع أن شرف صحبته ﷺ قد كـــرمهن علـــى سائر بنات جنسهن. إلا أنه لم يكن من الممكن للطبيعة البشرية أن تنعدم عندهن تماماً. خاصـــة أنهن رأين استمرار اتساع دائرة الفتوحات الإسلامية وازدياد ثروات الغنائم إلى الحد الذى يجعل أدنى جزء منها يكفى لتوفير رغد العيش لهن. بيد أن هذه الوقائع كانت تقتضي أن يمتلئ كـــأس صبرهن وقناعتهن.

كانت بين الزوجات الطاهرات (رضي الله عنهن) سيدات من بنـــات أشـــراف القـــوم. فكانت السيدة أم حبيبة (رضي الله عنها) ابنة سيد قريش، وكانت السيدة جويريـــة (رضـــي الله عنها) ابنة سيد قبيلة بنى المصطلق، كما كانت السيدة صفية (رضي الله عنها) ابنة سيد خيبـــر. وكانت السيدة عائشة (رضي الله عنها) ابنة أبيبكر الصديق ﷺ. وكانت السيدة حفصة (رضـــي الله عنها) ابنة عمر بن الخطاب ﷺ. واقتضت طبيعتهن البشرية أن يتنافسن فيمـــا بيـــنهن، وأن تعتد كل منهن بمكانتها ومقامها تجاه الأخرى، وكانت كل واحدة منهن تحب الرســـول ﷺ حبـــاً جماً.

---

[1] يرى بعض المحدثين أن هذه الحادثة قد وقعت فى ذي الحجة سنة ٥هـ، والسبب في هذا الاشتباه هو أنه قد ورد في بعض الروايات أن هذه الحادثة قد وقعت قبل نزول آية الحجاب، ولكن ورد فيما بعد في رواية عمر ﷺ أنه لما رأى الاضطراب يعم المسلمين بسبب الخبر المبهم لهذه الحادثة ظن أن ملك غسان قام بالهجوم الذى كان عمر ﷺ قد علم بأمره قبل ذلك. وكان من المتوقع أن يقع هجوم غسان فى سنة ٩هـ. وقد أثبت الحافظ ابن حجر والمحدث الدمياطي بالأدلة والبراهين أن هذه الحادثة قد وقعت فى أوائل سنة ٩هـ (أنظر فتح البارى جـ ٩صـ ٢٥). "سيد سليمان الندوى".

ذات مرة احتبس رسول الله ﷺ لعدة أيام عند السيدة زينب (رضي الله عنها) أكثر مما كان يحتبس، وكان السبب فى ذلك أن السيدة زينب (رضي الله عنها) كان لديها عسل وقدمته لرسول الله ﷺ، وكان ﷺ يحبه حباً جماً، فشربه. وخلال ذلك تأخر عن الوقت المحدد. فأصابت الغيرة السيدة عائشة (رضي الله عنها)، وقالت للسيدة حفصة (رضي الله عنها): أيتنا ما دخل عليها النبى ﷺ فلتقل: أجد ريح مغافير من فمك (يمتص النحل رحيق أزهار مغافير) حتى أقسم رسول الله ﷺ أنه لن يأكل العسل. ومن ثم نزلت هذه الآية الكريمة:[1]

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (التحريم: ١)

كتب العلامة العينى فى شرح البخارى :-

فإن قلت كيف جاز لعائشة وحفصة الكذب والمواطأة التي فيها إيذاء رسول الله ﷺ: قلت كانت عائشة صغيرة مع أنها وقعت منها من غير قصد الإيذاء؛ بل على ما هو من جبلة النساء فى الغيرة على الضرائر. (تفسير سورة التحريم)

ولكن من الصعب التسليم بما ذهب إليه العلامة العيني؛ فأول شئ هو أن السيدة عائشة (رضي الله عنها) كانت قد بلغت من العمر سبعة عشر عاماً من عمرها فى سنة ٩هـ والتي فيها حادثة الإيلاء.

ثانياً أن السيدة عائشة (رضي الله عنها) كانت صغيرة السن، ولكن الزوجات الطاهرات اللاتى شاركن فى هذا الأمر كن قد بلغن سن النضج. فكان عمر السيدة حفصة (رضي الله عنها) نفسها ٣٥ عاماً عند زواجها من رسول الله ﷺ.

ونرى أن قولهن عن رائحة مغافير لم يكن كذباً. فقد ثبت من سائر الروايات جميعها أن رسول الله ﷺ كان نزيه الطبع، ولم يكن يتحمل أية رائحة كريهة مهما كانت طفيفة.[2] فلا غرو

---

(١) صحيح البخارى، تفسير سورة التحريم. وهذا نص الحديث : ٨٣٦ حَدِيثُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَمْكُثُ عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ فَيَشْرَبُ عِنْدَهَا عَسَلًا قَالَتْ فَتَوَاطَيْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ أَنَّ أَيَّتَنَا مَا دَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلْتَقُلْ إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ أَكَلْتَ مَغَافِيرَ فَدَخَلَ عَلَى إِحْدَاهُمَا فَقَالَتْ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ وَلَنْ أَعُودَ لَهُ فَنَزَلَ (لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ) إِلَى قَوْلِهِ (إِنْ تَتُوبَا) لِعَائِشَةَ وَحَفْصَةَ (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا) لِقَوْلِهِ بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا * (المترجم). وكتب البخارى هذه الحادثة بمزيد من التفصيل فى كتاب الطلاق، حيث ذكر أن زوجات أخريات لرسول الله قد شاركن فى هذه الخطة أيضاً وكانت أول من أفصحت عنها السيدة سودة رضي الله عنها.

(٢) مسند الإمام أحمد، جـ٦، صـ٢٤٩. "سيد سليمان الندوى".

إذا كان فى نبات المغافير أى نوع من الخشونة.[1] اللهم إنه يبدو أن مسألة إتحاد الزوجات الطاهرات (رضي الله عنهن) محل إعتراض، ولكن لا يعتقد أحد أن أمهات المؤمنين كن معصومات أو أنهن لم يكن يستخدمن الوسائل المشروعة لتنفيذ أهدافهن. فى غضون تلك الفترة التي وقعت فيها هذه الحادثة أسرّ النبى ﷺ بحديث السيدة حفصة (رضي الله عنها) وأكد عليها ألا تخبر أحداً لكنها أخبرت السيدة عائشة(رضي الله عنها).فنزلت هذه الآية الكريمة :

(وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ) (التحريم:٣)

زاد الشقاق وتظاهرت السيدة عائشة والسيدة حفصة (رضي الله عنهما)؛ أي اتفقت كلتاهما بأنهما تتحدان وتؤكدان على هذا الأمر، وعليه نزلت هذه الآيات الكريمة بشأن السيدة عائشة والسيدة حفصة (رضي الله عنهما):

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) (التحريم:٤)

كانت المسائل التي احدثت بسببها السيدة عائشة (رضي الله عنها) والسيدة حفصة(رضي الله عنها) مسائل خاصة، ولكن مسألة زيادة النفقة شاركت فيها سائر أمهات المؤمنين (رضي الله عنهن). أفسد الإلحاح فى هذا الطلب راحة بال رسول الله ﷺ حتى أنه قطع على نفسه عهداً بألا يلتقى بزوجاته الطاهرات(رضي الله عنهن) لمدة شهر.

وتصادف في تلك الفترة أن سقط رسول الله ﷺ من فوق حصانه وأصيبت ساقه المباركة. وفضل رسول الله ﷺ العزلة في المشربة،[2] فظن الناس من واقع القرائن أن رسول الله ﷺ طلق كل زوجاته.

---

[1] عمدة القارئ، جـ٩، صـ٢٢٦."سيد سلمان الندوى".

[2] ورد فى الأحاديث لفظ مشربة وصفاً للطابق العلوى. وأشهر مشربة هي مشربة أم إبراهيم (مارية). ولذا اختلط الأمر على بعض الناس وظنوا أنها كانت في هذا الطابق العلوي إلا أن هذا خطأ تماماً. إذ كانت مشربة أم إبراهيم تقع خارج المدينة. ومن خلال رواية عمر رضي الله عنه الورادة في سائر كتب الصحاح والتي نقلها مولانا شبلي في الصفحات القادمة، يتبادر إلى الذهن أنها كانت متصلة تماماً بحجرة السيدة حفصة رضي الله عنها وبالمسجد النبوى، حيث كان عمر يذهب مسرعاً أحياناً إلى هنا وأحيانا إلى هناك. وقد ورد تصريح فى أبو داود أن هذه المشربة كانت هى الطابق العلوى لحجرة السيدة عائشة رضي الله عنها، التي كانت متصلة بالمسجد النبوي ذاته وموازية لحجرات أمهات المؤمنين الأخرى. (أبو داود، باب الإمام يصلى من قعود)."سيد سليمان الندوى".

أما الأحداث التي وقعت فيما بعد فننقلها عن لسان عمر ﷺ حيث أنه بيّن هذه الحادثة بتفصيل شيق ومؤثر. وقد تضمن بيانه هذا بعض الوقائع الأولى التي تُلقى الضوء على أصل المسألة.[1]

يقول عمر ﷺ: كنت جار لأحد الأنصار (أوس بن الخولى أو عتبان بن مالك) وقد اعتدنا أن نذهب بالتناوب إلى رسول الله ﷺ بعد أن نُنهي بيعنا.

كان القريشيون يسيطرون على النساء ويفوقونهم، ولكن حين جئنا إلى المدينة وجدنا نساء الأنصار يفقن الرجال، فلما رأت نساؤنا نهجهم بدأن يقلدنهن، وذات يوم وبّختُ زوجتى عن أمر ما، فراجعتنى كلمة بكلمة قلت: أتراجعيننى؟ قالت: ما تريد أن تراجَع أنت ؟ إن زوجات رسول الله ﷺ ليراجعنه حتى يظل يومه غضبان ؟ فقلت فى نفسي، استياء ونهضت فذهبت إلى حفصة (رضي الله عنها) ابنة عمر ﷺ وزوجة رسول الله ﷺ، فقالت لها : إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غُضبان، فأقرت حفصة (رضي الله عنها) بذلك. فقلت: تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله. والله إن رسول الله ﷺ يضعني فى اعتباره وإلا لكان مطلقك. ثم ذهبت إلى السيدة أم سلمة (رضي الله عنها) وشكوت منها هذه الشكوى ذاتها، فقالت: أيا عمر ﷺ! لقد تدخلت فى كل شأن حتى بلغ بك الأمر الآن أن تتدخل فى شئون رسول الله ﷺ وزوجاته. فالتزمت الصمت ورحلت.

فى ساعة متأخرة من الليل أتى جارى الأنصاري وقرع بابي بقوة، فنهضت فزعاً، وفتحت الباب متسائلاً: ما الخطب ؟ فقال: وقع أمر جلل. فقلت: أهاجم الغساسنة[2] المدينة ؟ فقال :لا، بل أفدح من ذلك، طلق رسول الله ﷺ زوجاته.

فجئت المدينة فجرًا، وصليت مع رسول الله ﷺ صلاة الفجر – وبعد أن فرغ رسول الله ﷺ من الصلاة ذهب بمفرده وجلس فى المشربة (الطابق العلوي). ولما ذهبت إلى حفصة (رضي الله عنها) وجدتها جالسة تبكى، قلت: حذرتك هذا من قبل. ثم خرجت من عند حفصة إلى المسجد النبوى، فوجدت الصحابة جالسين قرب المنبر يبكون، فجلست بجوارهم، ولكن لم

---

[1] وردت هذه الحادثة بعبارات مختلفة في أبواب عديدة بصحيح البخاري؛ أي كتاب النكاح، والطلاق، وكتاب العلم. كما وردت أيضاً بطرق عديدة في باب النكاح من صحيح مسلم، وهناك اختلاف في تفاصيل كل هذه الروايات فقمنا بجمع كل الروايات قدر المستطاع.

[2] كان الغساسنة أحد قبائل العرب، وكانت تحكم الشام تحت سيادة الروم. وكانوا يعدون العدة بإيعاز من الروم للهجوم على المدينة.

يهدأ لى بال: فنهضت وصعدت إلى الطابق العلوي وقلت لرباح؛ (الخادم الخاص لرسول الله ﷺ): اطلب الإذن لى. لكن رسول الله ﷺ لم يجب بشيء. فهممت إلى المسجد مرة أخرى. بعد قليل ذهبت مضطرباً إلى أسفل المشربة والتمست الإذن مرة أخرى من رباح. ولما لم أجد رداً، صحت قائلاً اطلب لى الإذن يا رباح! ربما يعتقد رسول الله ﷺ أنى جئت لأتوسط لحفصة(رضي الله عنها)، والله ! لو أمرنى رسول الله صلى الله لقطعت عنقها. فأذن لى رسول الله ﷺ. ولما دخلتُ وجدته مضطجعاً على سرير خال من الفراش[١] وقد ظهرت على جسده المبارك آثار نسيج السرير. تلفت حولى فوجدت فى ناحية حفنة شعير، وفى زاوية أخرى جلد حيوان معلق على معلاق فانسابت الدموع من عيني. فسألني رسول الله ﷺ عن السبب، قلت: أي شيء يبعث على البكاء أكثر من هذا ؟ إن قيصر وكسرى يغتنمان ملذات الدنيا وأنت نبي الله، وتعيش على هذا الحال ؟ فقال رسول الله ﷺ : **يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا. فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَطَلَّقْتَهُنَّ قَالَ لَا**، فكبرت. ثم قلت: إن الصحابة جميعاً يجلسون فى المسجد مهمومين. ائذن إن أذهب إليهم حتى أخبرهم أن الخبر خاطيء. ولأنه كان قد مضى على الإيلاء شهراً كاملاً، نزل رسول الله ﷺ من المشربة.[٢] وسمح بمقابلة الناس بعد ذلك نزلت آية التخيير، قال تعالى :

---

(١) ورد فى بعض الروايات لفظ حصير كما ورد فى البعض الآخر سرير. وقد وفق ابن حجر بينهم فقال كان سريراً، لكنه مصنوع من الحصير فتح البارى جـ ٩ صـ ٢٥. "سيد سليمان الندوى".

(٢) أجمع العلماء على أن رسول الله أقام بالمشربة ٢٩ يوماً. أما الرواية التي اختلف فيها عما إذا كان هذا الحوار الذى أداره عمر ﷺ مع رسول الله ﷺ قد تم في اليوم الأول أم فى اليوم الأخير، فإنه يبدو فى الجزء الأول منها أن هذا الحوار قد تم فى اليوم الأول، ويثبت فى كلماتها الأخيرة أن الحوار قد تم فى اليوم التاسع والعشرين. أخذ شبلي (رحمه الله) بما ورد فى العبارات الأخيرة من هذه الرواية واقتنع بأن الحوار تم فى اليوم التاسع والعشرين، ولكن يترتب على ذلك أن عمر والصحابة رضي الله عليهم لم يعلموا بحادثة الإيلاء على مدار ٢٨ يوماً، في حين أنه لا يستطيع أحد التسليم بذلك. وعليه أوّل المحدثون بأن أغلب أجزاء الحوار قد تمت فى اليوم الأول بيد أن بيان نزول الرسول ﷺ فقط هو الذى تم فى اليوم الأخير. أغفل الراوى مسألة وقوع الحوار فى منتصف المدة، الأمر الذى ورد به تصريح شاف فى رواية البخارى التي وردت في كتاب النكاح، باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها. وكتاب اللباس، باب ما كان يتجوز رسول الله من اللباس. وعليه ينبغي أن تقرأ هذه العبارة: "**حين انقضت مدة الإيلاء يعنى شهراً** ". **وهذا نص حديث الإيلاء كاملا:** ٨٤٠ حَدِيثُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لَمَّا اعْتَزَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ قَالَ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا النَّاسُ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى وَيَقُولُونَ طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرْنَ بِالْحِجَابِ فَقَالَ

عُمَرُ فَقُلْتُ لَأَعْلَمَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ قَالَ فَدَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَقُلْتُ يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ أَقَدْ بَلَغَ مِنْ شَأْنِكِ أَنْ تُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ مَا لِي وَمَا لَكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ عَلَيْكَ بِعَيْبَتِكَ قَالَ فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ فَقُلْتُ لَهَا يَا حَفْصَةُ أَقَدْ بَلَغَ مِنْ شَأْنِكِ أَنْ تُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُحِبُّكِ وَلَوْلَا أَنَا لَطَلَّقَكِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَكَتْ أَشَدَّ الْبُكَاءِ فَقُلْتُ لَهَا أَيْنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ هُوَ فِي خِزَانَتِهِ فِي الْمَشْرُبَةِ فَدَخَلْتُ فَإِذَا أَنَا بِرَبَاحٍ غُلَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاعِدًا عَلَى أُسْكُفَّةِ الْمَشْرُبَةِ مُدَلٍّ رِجْلَيْهِ عَلَى نَقِيرٍ مِنْ خَشَبٍ وَهُوَ جِذْعٌ يَرْقَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَنْحَدِرُ فَنَادَيْتُ يَا رَبَاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَظَرَ رَبَاحٌ إِلَى الْغُرْفَةِ ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ثُمَّ قُلْتُ يَا رَبَاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَظَرَ رَبَاحٌ إِلَى الْغُرْفَةِ ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ثُمَّ رَفَعْتُ صَوْتِي فَقُلْتُ يَا رَبَاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظَنَّ أَنِّي جِئْتُ مِنْ أَجْلِ حَفْصَةَ وَاللَّهِ لَئِنْ أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِضَرْبِ عُنُقِهَا لَأَضْرِبَنَّ عُنُقَهَا وَرَفَعْتُ صَوْتِي فَأَوْمَأَ إِلَيَّ أَنْ ارْقَهْ فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ فَجَلَسْتُ فَأَدْنَى عَلَيْهِ إِزَارَهُ وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ وَمِثْلِهَا قَرَظًا فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ قَالَ فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ قَالَ مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَفْوَتُهُ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ فَقَالَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمْ الدُّنْيَا قُلْتُ بَلَى قَالَ وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ حِينَ دَخَلْتُ وَأَنَا أَرَى فِي وَجْهِهِ الْغَضَبَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا يَشُقُّ عَلَيْكَ مِنْ شَأْنِ النِّسَاءِ فَإِنْ كُنْتَ طَلَّقْتَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَكَ وَمَلَائِكَتَهُ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَأَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَكَ وَقَلَّمَا تَكَلَّمْتُ وَأَحْمَدُ اللَّهَ بِكَلَامٍ إِلَّا رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يُصَدِّقُ قَوْلِي الَّذِي أَقُولُ وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ آيَةُ التَّخْيِيرِ (عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ) (وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) وَكَانَتْ عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ وَحَفْصَةُ تَظَاهَرَانِ عَلَى سَائِرِ نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَطَلَّقْتَهُنَّ قَالَ لَا قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ وَالْمُسْلِمُونَ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى يَقُولُونَ طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ أَفَأَنْزِلُ فَأُخْبِرَهُمْ أَنَّكَ لَمْ تُطَلِّقْهُنَّ قَالَ نَعَمْ إِنْ شِئْتَ فَلَمْ أَزَلْ أُحَدِّثُهُ حَتَّى تَحَسَّرَ الْغَضَبُ عَنْ وَجْهِهِ وَحَتَّى كَشَرَ فَضَحِكَ وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ ثَغْرًا ثُمَّ نَزَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَزَلْتُ فَنَزَلْتُ أَتَشَبَّثُ بِالْجِذْعِ وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَأَنَّمَا يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا يَمَسُّهُ بِيَدِهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كُنْتَ فِي الْغُرْفَةِ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ قَالَ إِنَّ الشَّهْرَ يَكُونُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ فَقُمْتُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي لَمْ يُطَلِّقْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (وَإِذَا جَاءَهُمْ

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴿﴾ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴿﴾) (الأحزاب:٢٨،٢٩)

على ضوء هذه الآية أُمر رسول الله ﷺ أن يقول لزوجاته المطهرات (رضي الله عنهن) إن أمامكن اختيارين، الدنيا والآخرة. فإن كنتن تردن الدنيا فتعالين أمتعكن وأسرحكن بكل توقير وإجلال، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدَّ للمحسنات أجراً عظيماً.

مضى الشهر ونزل رسول الله ﷺ من المشربة، وحيث أن السيدة عائشة كانت على رأس هذه الأمور، ذهب إليها رسول الله ﷺ و عرض عليها هذا التخيير. قالت: إني زهدت كل شيء واخترت الله ورسوله، وهذا ما وردت به سائر أمهات المؤمنين.

قُدمت وقائع الإيلاء، والتخيير، ومظاهر السيدة حفصة والسيدة عائشة (رضي الله عنهما) على العموم، وكأنها وقائع لأزمنة مختلفة، مما قد يترتب عليه أن يخطئ الظن من يأخذ بالظاهر أن رسول الله ﷺ كان يعيش مع زوجاته الطاهرات (رضوان الله عليهن) حياةً ملؤها الضجر والاستياء، ولكن واقع الأمر أن هذه الوقائع قد حدثت فى فترة واحدة، وأنها حلقات فى سلسلة واحدة. فقد ورد فى صحيح البخارى، كتاب النكاح (باب موعظة الرجل ابنته) رواية شفهية مفصلة لابن عباس رضي الله عنهما، صُرح فيها بوضوح بأن مظاهرة الزوجات المطهرات (رضي الله عنهن) واعتزال الرسول لهن، وإفشاء سره، وسبب نزول آية التخيير كلها وقائع لسلسلة واحدة من الأحداث.

ويكتب الحافظ ابن حجر أسباب اعتزال (رسول الله ﷺ لزوجاته) فيقول : **وهذا هو اللائق بمكارم أخلاقه ﷺ وسعة صدره وكثرة صفحه وإن ذلك لم يقع منه حتى تكرر موجبه منهن (فتح الباري، جـ ٩، صـ ٢٥٤)**

يُفهم من ظاهر الآية الكريمة التي نزلت بشأن المظاهرة أنها كانت مؤامرة بالغة الإيذاء ذات أثر خطير جداً وإليك هذه الآية الكريمة، يقول تعالى:

أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) فَكُنْتُ أَنَا اسْتَنْبَطْتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آيَةَ التَّخْيِيرِ . **(المترجم).**

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) (التحريم:٤)

في هذه الآية تصريح بأنه لو استمر تظاهر زوجتيه ﷺ هاتين فإن الله هو مولاه وصالح المؤمنين، وليس هذا فقط بل الملائكة أيضاً على أتم الاستعداد لإعانته.

يبدو من خلال الروايات أن السبب الوحيد للمظاهرة أنهن كن يردن بها زيادة النفقة فقط، ولو سلمنا براوية مارية القبطية، لكان السبب الوحيد أيضاً أنهن كن يردن إبعادها، ولكن أمثل هذه الأمور بمبلغ من الأهمية، وهل يمكن أن يكون للسيدتين عائشة وحفصة (رضي الله عنهما) أي نوع من المؤامرات على نحو ما من الخطورة يستلزم معونة الملأ الأعلى لدرءه. وعليه قاس البعض أن هذه المظاهرة لم تكن أمراً هيناً. كان بالمدينة المنورة جماعة كبيرة من المنافقين، وورد أن عددها ٤٠٠ فرداً. وكان شرار الأنفس هؤلاء يترصدون أية مكيدة يفرقون بها بين آل بيت رسول الله ﷺ وصحابته المقربين.

(كتب ابن حجر فى الإصابة عن أم جلدح، قال: وكانت تحرش بين أزواج النبى ﷺ وكان وميض النجاح قد تراءى لها فى حادثة الإفك. فحزن رسول الله ﷺ من السيدة عائشة (رضي الله عنها) لمدة خمسة عشر يوماً. وكان حسان ﷺ قد شهد حادثة الإفك. كما كانت حمنة ختنة رسول الله ﷺ، والتي كانت أخت السيدة زينب (رضي الله عنها)، قد تورطت فى هذه الدسيسة حيث تولت الإذاعة العلنية لتلك الرواية. هذا وكان أبو بكر ﷺ قد حرم أحد أقاربه الأعزاء (مسطح) الذى كان مشاركاً فى هذا البهتان، من المعونة المالية.

موجز القول أنه لو لم يكن الوحي قد تنزل ببراءة السيدة عائشة (رضي الله عنها) لكادت فتنة عظيمة أن تقع. نتبين أنه لما علم المنافقون بما كانت عليه أمهات المؤمنين (رضي الله عنهن) من إلحاح وحزن وتوتر أرادوا تأجيج نار الإثارة والتحريض، وحيث أن السيدتين عائشة وحفصة (رضي الله عنهما) كانت الدعامتين الأساسيتين للمظاهرة، بدا لأشرار النفوس(المنافقين) أنه بوسعهم أن يورطوا والديهما (أبو بكر وعمر رضي الله عنهما) فى هذه المكيدة، ولكنهم لم يكونوا مدركين أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما) والسيدة عائشة والسيدة حفصة (رضي الله عنهما) كانوا على استعداد أن يضحوا بأرواحهم فداء التراب الذى يسير عليه رسول الله ﷺ، ولذلك حين لم ينل عمر ﷺ إذن الدخول على رسول الله ﷺ صاح قائلاً: لو أن رسول الله ﷺ يأمرني لقطعت رأس حفصة وجئت بها. إن الخطاب فى الآية موجه إلى

المنافقين. أي إذا كانت عائشة وحفصة (رضي الله عنهما) سُتدبران المكائد وسيستخدمها المنافقون، فإن الله هو المغين لرسوله ﷺ ومع الله جبريل والملائكة والكون كله.

الروايات الكاذبة

أدخل الكاذبون من الرواة قدراً من اللبس والخداع على هذه الأحداث بحيث تورط كبار المؤرخين وكتاب السيرة فى إدراج هذه الروايات الكاذبة فى مؤلفاتهم على سبيل الاستناد؛ لذا يتعين علينا أن نكتب هذا المبحث بشيء من التفصيل.

إن الأمر المسلم به على وجه العموم والذي ذكره القرآن الكريم، هو أن سيدنا محمد ﷺ كان قد حرم على نفسه شيئاً ما ابتغاء مرضاة زوجاته (رضي الله عنهن). أما وجه الاختلاف فهو فى الشيء نفسه الذي ورد فى كثير من الروايات، وهو أن الجارية مارية القبطية ــ التي كان عزيز مصر قد أهداها إلى رسول الله ﷺ ــ ذُكرت روايتها بتفصيل وبطرق مختلفة، وورد فيها أن سر الرسول ﷺ الذي أفشته السيدة حفصة (رضي الله عنها) كان خاصاً بمارية القبطية.

مع أن هذه الروايات موضوعة برمتها وغير جديرة بالذكر، ولكن حيث أنها الاختيار الأمثل للمؤرخين الأوربيين الذين نزعوا إلى القدح فى المستوى الأخلاقى لرسول الله ﷺ فإنه من الضرورى أن يعرضوا لها. وعلى الرغم من الاختلاف الشديد الذى يشوب تفاصيل هذه الروايات إلا أن هناك قاسماً مشتركاً بين جميعها؛ وهو أن مارية القبطية كانت ضمن سرارى رسول الله ﷺ وحرمها الرسول ﷺ على نفسه نظراً لاستياء السيدة حفصة (رضي الله عنها)

يكتب الحافظ ابن حجر فى تفسيره لسورة التحريم بشرح صحيح البخاري:

ووقع عند سعيد بن منصور بإسناد صحيح إلى مسروق قال: حلف رسول الله ﷺ لحفصة لا يقرب أمته... الخ (جـ ٨، ص ٥٠٣)

بعد ذلك أورد الحافظ ابن حجر روايات عديدة عن الطبرانى ومسند (هيثم بن كليب)، منها هذه الرواية:

وللطبرانى من طريق الضحاك عن ابن عباس قال دخلت حفصة بيتها فوجدته يطأ ماريه فعاتبته. (فتح الباري، طبعة مصر جـ ٨ صـ ٥٠٣)

وقد أورد ابن سعد والواقدى هذه الرواية فى أسلوب أشد قبحاً، أغفلنا ذكره فى المقام. لكن الأصل فى ذلك أن كل هذه الروايات إفتراء بيّن وبهتان محض.

يكتب العلامة العيني في باب النكاح بشرح صحيح البخارى جـ ٥ صـ ٥٤٨ ما يلي :

ـ والصحيح في سبب نزول الآية أنه فى قصة العسل لا فى قصة مارية المروى فى غير الصحيحين وقال النووى ولم تأت قصة مارية من طريق صحيح.

روى هذا الحديث بروايات مختلفة في تفسير ابن جرير، والطبراني، ومسند الهيثم وتحتوى هذه الكتب عامة على الصالح والطالح من الروايات التي لا يجدر النظر إليها مادامت تفتقر إلى نص صريح يثبت صحتها. لقد وثق الحافظ ابن حجر أحد هذه الطرق وهى الرواية التي كان راويها الأخير مسروق [١]، ولكن أولاً لم يرد فيها اسم مارية القبطية على الإطلاق، فما ورد فيها إلا أن سيدنا محمد ﷺ قد أقسم أمام السيدة حفصة (رضي الله عنها) أنه لن يذهب إلى جاريته وأنها حرام عليه، وعلاوة على ذلك فإن مسروق تابعى أى أنه لم ير رسول الله ﷺ ولذلك فإن هذه رواية منقطعة، وفقاً لأصول وضوابط مصطلح الحديث، أى أن تواتر سندها لايصل إلى صحابى. وقد قال الحافظ ابن كثير في تفسيره بصحة هذا الحديث عن طريق آخر إلا أن هذا الطريق له راوٍ آخر هو عبد الملك الرقاشى الذى كتب عنه الدار قطنى مايلى:

كثير الخطأ فى الأسانيد والمتون يحدث عن حفظه.

من المسلم به أن رواية مارية لم ترد فى كتب [٢] الصحاح الستة. كما أنه من المسلم به أيضاً أن سبب نزول سورة التحريم الوارد فى صحيحي البخاري ومسلم (واقعة العسل) ثابت عن طريق قاطع. وقد نص الإمام النووى ــ أحد الأئمة المحدثين ــ صراحةً أنه لا توجد أية رواية صحيحة فى مسألة مارية. أما الطريقان اللذان أقر الحافظ ابن حجر وابن كثير بصحتهما فأحدها منقطع وراوي الآخر كثير الخطأ. بعد كل هذه الوقائع من ذا يمكنه القول بأن هذه الرواية أهل للاستناد إليها.

تحدثنا هنا بناءً على أصول الرواية، أما إذا أخذنا بالدراية فلسنا فى حاجة إلى بذل أى جهد على الإطلاق فكل واقعة ركيكة ذكرت فى هذه الروايات وبخاصة التفاصيل الواردة فى الطبرى وغيره لا يمكن نسبتها إلى أى إنسان عادى، فما بالك بنسبتها إلى ذاته المباركة ﷺ الذى كان مثالاً للعفة والنزاهة.

---

(١) فتح البارى، تفسير سورة التحريم

(٢) أي أنها لم تذكر باسم مارية متضمنة وقائع اللغو الشائعة فما ذُكر فى باب الغيرة بالنسائى يقتصر على أن الرسول ﷺ حرم على نفسه إحدى جواريه بإلحاح من السيدة عائشة والسيدة حفصة (رضي الله عنهما) ولكن هناك جرح فى أحد رواة هذا الحديث. "سيد سليمان الندوى".

غزوة تبوك

رجب سنة ٩ هـ الموافق نوفمبر سنة ٦٣٥ مـ

تبوك منطقة شهيرة تقع في منتصف الطريق بين المدينة ودمشق على بعد أربعة عشر منزلاً من المدينة.

بعد غزوة مؤتة عزمت دولة الروم على الهجوم على العرب وكان آل الغساسنة - الذين كانوا يحكمون الشام تحت سيادة الروم - يدينون بالنصرانية لذلك نصبهم قيصر الروم للقيام بهذه الحملة. كانت هذه الأخبار تشيع في المدينة. ففي أثناء حادثة إيلاء رسول الله ﷺ قدم عتبان بن مالك فجأةً إلى عمر ﷺ. وقال: "قد حدث اليوم أمر عظيم". قال عمر ﷺ: ما هو؟ أجاء غسان.[1]

كان تجار الشام النبطيون قد اعتادوا المجئ لبيع زيوت الزيتون. فأبلغوا [2] الناس أن الروم قد جهزوا جيشاً جراراً في الشام وادخروا رواتب الجند لعام كامل. وأن هذا الجيش قد ضم كل عرب لخم وجذام وغسان، وأن مقدمة الجيش قد وصلت إلى البلقاء. وردت رواية في المواهب اللدنية نقلاً عن الطبراني أن مسيحيي العرب كانوا قد أرسلوا خطاباً إلى هرقل أن محمدًا ﷺ توفي، وأن العرب يموتون جوعاً بسبب القحط الشديد. وعلى هذا الأساس أرسل هرقل جيشاً في أربعين ألف مقاتل.

على أية حال انتشرت هذه الأخبار في سائر بلاد العرب وبلغت قرائنها من القوة ما لم يدع مجالاً للظن بعدم صحتها، وعلى ذلك أمر رسول الله ﷺ بإعداد الجيش. ولسوء الطالع كان من عظيم [3] المشقة على الناس أن يخرجوا من بيوتهم بسبب القحط الشديد ولهيب القيظ الحاد.

---

[1] صحيح البخاري، ذكر واقعة الإيلاء. (ج٣، ص٣٧١).(المترجم).

[2] المواهب اللدنية مع الزرقاني جـ٣ صـ ٧٢.

[3] يقول السيد مارجوليوث: لأن الأنصار كانوا قد حرموا من غنائم حنين لذا أصيبوا بالإحباط قائلين (في أنفسهم) لن نحارب ما دامت ثمار الحرب سيحصدها الآخرون، ولكن هذا من حسن ظن السيد مارجوليوث (فمادام القرآن قد تحدث عن أصل الواقعة ما حاجتنا للقياس). "سيد سليمان الندوى". (ورد اسم هذا المستشرق في بعض الكتب العربية هكذا مارجيولوث. المترجم).

فانكشف ستر المنافقين الذين كانوا يتظاهرون بالإسلام، حيث كانوا يتقاعدون [1] عن الجهاد وينهون الآخرين عنه، قال تعالى: (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ) (التوبة:٨١).

كان هناك يهودياً يدعى سويلم، جمع المنافقين في بيته وجعلوا ينهون الناس عن الخروج للقتال. ولما كانت هناك مخاوف من هجوم الروم على البلاد، طلب رسول الله ﷺ الجيوش والمعونات المالية من سائر قبائل العرب.[2] ومن بين الصحابة (رضوان الله عليهم) تطوع عثمان ﷺ بمئتي أوقية من الفضة ومئتى ناقة.[3] كما تبرع أغلب الصحابة أيضاً بمبالغ طائلة. ومع ذلك اضطر كثير من المسلمين إلى التقاعد عن الخروج لأنهم لم يجدوا ما يعينهم على السفر، وقدم هؤلاء إلى رسول الله ﷺ وفاضت أعينهم من الدمع حزناً أثار شفقة رسول الله ﷺ. إلا أنه لم تتوفر أية إمكانيات أو أمتعة لخروجهم. فنزلت فيهم هذه الآيات الكريمة من سورة التوبة، يقول تعالى:-

(وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ) (التوبة:٩٢)

اعتاد رسول الله ﷺ حين كان يغادر المدينة أن يعين حاكماً عليها. وحيث أنه لم يصطحب أمهات المؤمنين (رضوان الله عليهن) في هذه الغزوة على خلاف الغزوات الأخرى، كان من الضروري أن يبقى أحد المقربين لرعاية آل البيت وحراستهم، فنال شرف هذا المنصب علي ﷺ، لكنه شكى إلى رسول الله ﷺ: أتخلفني في الصبيان والنساء. فقال رسول الله ﷺ: ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى.[4]

موجز القول هو أن الرسول ﷺ خرج من المدينة في جيش تعداده ثلاثون ألف مقاتل، كان من بينهم عشرة آلاف فارس،[5] ومروا في الطريق بآثار تبعث على العبرة ورد ذكرها في القرآن الكريم؛ أي بيوت قوم ثمود التي كانوا ينحتونها من الجبال، وحيث أن منطقتها هذه كان

---

(١) ابن هشام.

(٢) ابن سعد، جزء المغازى، صـ ١١٩. "سيد سليمان الندوى".

(٣) الزرقانى جـ٣، صـ٧٢. "سيد سليمان الندوى".

(٤) صحيح البخارى، غزوة تبوك.(ج٣، ص١١٩). (المترجم).

(٥) طبقات ابن سعد، جزء المغازى ص١١٩. "سيد سليمان الندوى".

قد نزل عليها عذاب الله، أمر رسول الله ﷺ بألا يقيم فيها أحد أو يشرب فيها الماء أو يستفيد منها في أي غرض من الأغراض.

لما وصل الجيش إلى تبوك علموا أن هذا الخبر لم يكن صحيحاً إلا أنه لم يخلُ تماماً من الحقيقة. فقد كان سيد الغساسنة يتآمر على بلاد العرب. حيث كُتب في (غزوة تبوك) بصحيح البخاري، في الموضع الذي وردت فيه واقعة كعب بن مالك ﷺ، أنه أتى رسول من الشام وأعطى كعب بن مالك ﷺ رسالة من سيد الغساسنة التي جاء فيها: سمعت أن محمد ﷺ لا يقدرك، فأت إليّ فسأعاملك بما يناسب مقامك. ومع أن كعب ﷺ كان معاتباً من رسول الله ﷺ إلا أنه ألقى هذه الرسالة في التنور.

وصل رسول الله ﷺ إلى تبوك وأقام بها عشرون يوماً. قدم إليه فيها زعيم أيلة،[1] الذي كان يدعى يوحنا، ووافق على دفع الجزية، كما أهدى إليه بغلاً أبيضاً وجازاه رسول الله ﷺ بردائه المبارك.[2]

كما قدم أيضاً إلى رسول الله ﷺ مسيحيو جربا وأذرح وعبروا عن موافقتهم على الجزية. كان بدومة الجندل ــ على مسافة خمسة منازل من دمشق ــ زعيم عربي يدعى أكيدر، تحت سيادة القيصر. فبعث رسول الله ﷺ خالداً ﷺ في جماعة من أربعمائة (وعشرون) رجلاً لمجابهته. فأسره خالد ﷺ ثم أطلق سراحه شريطة أن يمتثل بين يدى رسول الله ﷺ ويعرض شروط الصلح، لذا قدم المدينة مع أخيه.

حين عاد رسول الله ﷺ من تبوك ووصل على مقربة من المدينة، خرج الناس مشتاقين لاستقباله، حتى أن ذوات الحجر خرجن من بيوتهن بلهفة، وخرجت الفتيات تتشدن هذه الأبيات:[3]

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

مسجد ضرار

كان المنافقون يفكرون دائماً كيف يفرقون بين المسلمين. إذ كانوا يفكرون منذ فترة في بناء مسجد آخر على أنقاض مسجد قباء بحيلة أن من لا يستطيع الوصول إلى المسجد النبوي لضعف أو لأي علة أخرى، يعتاد الصلاة فيه. كان أبو عامر الذي كان من الأنصار وتنصر،

---

(١) تقع هذه المنطقة على مقربة من خليج العقبة. مارجيولوث.

(٢) الزرقاني نقلاً عن ابن أبي شيبه. جـ٣ صـ٨٦. "سيد سليمان الندوى".

(٣) الزرقاني، جـ٣ صـ٩٢. "سيد سليمان الندوى".

قد قال للمنافقين: أعدوا أنتم العدة، وسأذهب أنا إلى قيصر لأحضر الجيوش حتى نطهر هذا البلد من الإسلام.[1]

لما شرع رسول الله ﷺ في الذهاب إلى تبوك قدم إليه المنافقون وقالوا: قد أقمنا مسجداً للمرضى والمعاقين فأتِ معنا لتصلى فيه مرةً واحدة حتى يصير مقبولاً ومباركاً. فأجابهم النبي بأنه ذاهب فى غزوة الآن. وحين عاد من تبوك أمر مالك بن معن بن عدى أن يذهب إلى المسجد فيشعل فيه النار. وقد نزلت في شأن هذا المسجد هذه الآيات الكريمة، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ۞﴾ (سورة التوبة: ١٠٧، ١٠٨).

حج الإسلام وإعلان البراءة

فتحت مكة سنة ٨ هـ، ولكن لأن الأمن لم يكن قد استتب في البلاد بصورة مثلى؛ لذا أُقيمت شعائر الحج ذلك العام بإشراف المشركين. أدى المسلمون فريضة الحج مع عتاب بن أسيد رضي الله عنه الذي كان قد تولى إمارة مكة. أما سنة ٩ هـ فقد شهدت للمرة الأولى الكعبة وهي تتطهر من ظلمات الشرك، وتصير مركزاً للعبادة الإبراهيمية. فبعد العودة من تبوك وفي ذي القعدة أو ذو الحجة سنة ٩ هـ بعث رسول الله ﷺ من المدينة المنورة قافلة في ثلاثمائة مسلم إلى الحج كانت تضم أبا بكر رضي الله عنه قائداً للقافلة، وعلى رضي الله عنه نقيب الإسلام، والمعلمين سعد بن أبي وقاص، وجابر، وأبو هريرة[2] (رضوان الله عليهم) وغيرهم. وكان معهم عشرون ناقة (من قبل رسول الله ﷺ للأضحية).

لقد سمى القرآن هذا الحج بالحج الأكبر[3] حيث أنها كانت المرة الأولى التي تتجلى فيها شعائر الحج وفقاً لسنة إبراهيم الأصلية، كان هدف هذا الحج أن يعلن في بيت الخليل عن سقوط

---

(١) الزرقاني، نقلاً عن ابن جرير جـ ٣ صـ٩١. "سيد سليمان الندوى".

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناسك، باب لا يطوف بالبيت عريان، وباب حج أبي بكر رضي الله عنه بالناس، وتفسير سورة براءة."سيد سليمان الندوى".

(٣) ورد في سورة التوبة يوم الحج الأكبر، ومع أن التوجيه الذي كتبه شبلي لتسمية هذا الحج بالحج الأكبر قد ذهب إليه بعض العلماء أيضاً، ولكن الاعتقاد الشائع انه لا يُطلق على حج تلك السنة فقط

عصر الجاهلية وبدء الدولة الإسلامية. وأن تعلم مناسك وشعائر الحج على وجه العموم. وتُبطل عادات وطقوس الجاهلية.

علّم أبو بكر ﷺ الناس مناسك الحج، وفي يوم النحر خطب فيهم خطبةً بيّن فيها مسائل الحج. بعد ذلك نهض علي ﷺ وتلا ٤ آيات من سورة التوبة، وأعلن أنه لا يجوز لأي مشرك أن يدخل الكعبة بعد اليوم، ولا أن يطوف بالبيت عريان، وأن كل المعاهدات التي كانت مع المشركين سوف تفض بعد أربعة أشهر من اليوم، نظراً لنقضهم ميثاقهم. نادى أبو بكر ﷺ وغيره بهذا الإعلان في قوة وشدة حتى تحشرجت الأصوات.[١]

- وإليك الآيات الأولى من سورة التوبة التي أمر فيها الله (سبحانه وتعالى) بهذا الإعلان، يقول تعالى:[٢]

"بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۞وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ إِلا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۞". (التوبة: ١-٤).

يقول تعالى:

الحج الأكبر بل أن كل حجة حج أكبر بالنسبة إلى العمرة، والعمرة حج أصغر (انظر روح المعاني، جـ ١٠ صـ٤٢) "سيد سليمان الندوي".

(١) ابن حنبل صـ٢٩٩ جـ٢، وورد التفصيل العام في الزرقانى جـ ٣، صـ٢. أو غيره. "سيد سليمان الندوى".

(٢) تضمنت هذه الآيات بياناً يشير إلى أنه قد قضت المعاهدات التي كانت أبرمت عند المسجد الحرام في صلح الحديبية؛ ولكن هذه المعاهدات كانت قد فضت قبل فتح مكة ولم تُبرم بعدها أية معاهدة مع المشركين. وعليه، عبّر شبلي في أحد رسائله ٤٠-٧٢ عن هذا الرأي؛ الذي يقول إنه ربما تكون هذه الآيات قد نزلت عند فتح مكة في سنة ٨ هـ، ولعل هذا هو السبب الذي جعل شبلي يغفل هذه الوقائع. ولكن العبد الفقير جامع هذه السطور يرى أنه من الممكن القول إنه رغم نزول هذه الآيات الخاصة بشأن المعاهدة في سنة ٨ هـ، إلا أن إعلانها العام مقترنةً بالأحكام الضرورية الأخرى قد تم في موسم الحج سنة ٩ هـ حسبما ورد في الروايات المسندة بكتب الصحاح الستة. "سيد سليمان الندوى".

"يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا" (التوبة: ٢٨).

(روى الطبرى عن طريق السدى أنه بعد ذلك الإعلان أسلم المشركون عموما)[١]

أحداث متفرقة

بعد تسعة أعوام بدأت البلاد عهد الأمن والأمان. وتيسرت سبل الحصول على الثروات. وعليه، نزل الأمر بإيتاء الزكاة في ذلك العام، وعيّن عمالٌ بين القبائل لجباية الزكاة.[٢]

كانت بعض الأقوام غير الإسلامية قد دخلت أيضاً في ظل الإسلام، فنزلت فيهم آية الجزية التالية، قال تعالى:

" حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ " (التوبة: ٢٩).

نزل تحريم الربا في نفس ذلك العام أيضا، وفي العام التالي عمم رسول الله ﷺ إعلانه في حجة الوداع سنة ١٠هـ.

وفي نفس ذلك العام أيضا توفى النجاشي، الذي عاش المسلمون في حماه لعدة سنوات بالحبشة. وقد أعلن خبر وفاته رسول الله ﷺ بنفسه، وطلب من المسلمين الدعاء له بالمغفرة، ثم صلىعليه صلاة الغائب.[٣]

---

(١) جـ٤، صـ ١٧٢١ "سيد سليمان الندوى".

(٢) الطبري، جـ ٤، صـ ١٧٢٢ "سيد سليمان الندوى".

(٣) وهذا نص الحديث: ٥١٣ حَدِيثُ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى عَلَى أَصْحَمَةَ النَّجَاشِيِّ فَكَبَّرَ عَلَيْهِ أَرْبَعًا * (المترجم).

نظرة ثانية على الغزوات

يقتصر هذا الجزء من الكتاب على سرد وقائع الحياة العادية. أما بقية الأجزاء فتختص بالبحث والتمحيص ورد الشبهات. وعليه، كان من المناسب أن تُكتب الأبحاث التي تتعلق بالغزوات في تلك الأجزاء الأخرى لكن الغزوات هي أكثر الأحداث وضوحاً في كتب السيرة سواء من ناحية الكثرة أو الأهمية. ولو وضعنا نصب أعيننا مؤلفات السيرة فقط لتراءى لنا أن رسول الله ﷺ قد قضى أغلب مراحل عمره في الغزوات. ولهذا فإن الكتب التي كتبت عن السيرة قبل ذلك لم تشتهر باسم سيرة؛ بل اشتهرت باسم المغازى. من مثل مغازى ابن عقبة، والمغازى لابن إسحاق، والمغازى للواقدي. وما زال هذا الأسلوب مستساغاً حتى اليوم، ولذلك إذا تم تغيير هذا الأسلوب تماماً فربما يظن قارئ المؤلفات القديمة أن هذه المؤلفات الحديثة التي يقرؤها إنما هي أي شيء آخر خلاف السيرة، وهذه هي الأسباب التي حدت بنا نحن أيضاً إلى كتابة الغزوات بشيء من التفصيل. إلا أن إرجاء الأسئلة التي تثيرها قراءة الغزوات في النفوس إلى مقام آخر سيبعث على اضطراب القراء.

ارتكب أهل الديانات الأخرى أخطاءً جسيمة في فهم أسباب وأهداف الغزوات، ولم يقع في ذلك سيئو النية فقط بل أصحاب النوايا الحسنة أيضاً. وليس هذا مما يثير العجب، فثمة أسباب كثيرة ربما تبعث على التماس الأعذار للأصدقاء والأعداء لوقوعهم في مثل هذه الأخطاء.

العرب والحرب والإغارة

إن الغرض المتصدر والأهم في هذا الصدد هو استقصاء ما كان من علاقة لقومية العرب بالحرب والإغارة! إن الأخلاق والمعاملات، والعادات والتقاليد، والمميزات والسمات، والنقائص والمثالب، وسائر الطباع الحياتية المميزة لأي أمة من الأمم إنما ترتكز على أساس خاص، تنشأ منه كل الأشياء، وتستمد منه حيويتها ونموها. كان هذا الأساس لدى العرب هو الحرب والإغارة. التي نشأت تدريجياً حيث أن بلاد العرب كانت قاحلة وتخلو من أي نوع من المحاصيل. كما كان الناس أميين وجهلاء. وكانت النياق والشياه والأغنام فقط هي المصادر الطبيعية للكساء والغذاء، حيث كانوا يشربون لبنها ويأكلون لحومها ويغزلون أغطيتهم وكسوتهم من صوفها ووبرها، ولكن هذه الممتلكات أيضاً لم تكن متوفرة لدي كل فرد، أو إن توفرت لا

تكفى الاحتياجات الضرورية. ومن هنا بدأت عمليات السلب والنهب، وتقررت الإغـارة كـأهم مورد للكسب إن لم يكن الوحيد. كتب أبو على القالي في كتاب الأمالى:

وذلك [١] أنهم كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر لا تمكنهم الإغـارة فيهـا، لأن معاشهم كان من الإغارة.

لما كانت الشياة هي أكثر ما تقع عليه الأيدى في عمليات السلب والنهب، ويطلق عليها في اللغة العربية "غنم"، سميت الأموال المنهوبة في اللغة العربية "غنيمة".[٢] ثم اتسع معنى هـذا اللفظ فيما بعد فأطلق على غنائم الحرب مع قيصر وكسرى. وبالتدريج صار هذا اللفظ أكثر لفظ محبب، وبارزٍ، وبالغِ الأثر في التاريخ العربي، واللغة العربية، والأمة العربية. وفـي الوقـت الحالي أيضاً حين يستأذن سلطان أو رئيس، أو شيخ قبيلة أهله للخروج إلى السفر يقولون لـه: **سالماً غانماً**. إن الغنيمة التي نسمى بها أعز الأشياء في لغتنا، فتقول علـى سـبيل المثـال: إن تشريفك لبيتنا لهو أكبر غنيمة لنا، هو نفس اللفظ الذي نحن بصدده، وقد ورد لنـا مـن اللغـة العربية. انتشرت الحرب والإغارة في سائر بلاد العرب نظراً لاحتياجات المعيشة الضـرورية. فكانت جميع القبائل دائماً ما تُغير على الأخرى فتسلبها وتنهبها. وفي موسم الحج فقط خصصوا -وفقاً لاعتبارات دينية- أربعة شهور أسموها الأشهر الحرم. كان يحرم فيهـا القتـال، ولكـن تعطيل الكسب لثلاثة أشهر متتالية كان شديدة الوطأة عليهم، لذلك ابتدعوا عادة النسيء؛ أي أنهم كانوا يستبدلون هذه الأشهر بأخرى وفقاً لما تقتضيه الحاجة.

يكتب الحافظ ابن حجر في (تفسير سورة التوبة) شرح صحيح البخاري:

كانوا يجعلون المحرم صفراً ويجعلون صفراً المحرم لئلا يتوالى عليهم ثلاثة أشهر لا يتعاطون فيها القتال.. الخ (جـ٨، صـ٢٤٣).

عقيدة الثأر

كان هذا هو السبب البدائي والأصلى للقتال، ولكن حين تخلصوا من هذه السلسلة تولدت أسباب عديدة أخرى. لم تكن في أهميتها واتساعها أهون من السبب الأصلي. وكـان ممـا لـه الصدارة في هذه الأسباب وأشدها تأثراً قانون الثأر؛ أي حين يُقتل أحد أفراد قبيلة مـا فـي أي حال من الأحوال يصبح الانتقام له فرضاً على كل فرد من قبيلته.

---

[١] كتاب الأمالى، ج ١، ص ٦ طبعة مصر.

[٢] هذا اجتهاد من شبلي الذي لم يضع يده على معاجم اللغة لتأييده. "سيد سليمان الندوى".

ورغم مرور مئات السنين وانتشار اسم القاتل، بل وبنيه أيضاً، إلا أنه ما دام لم يتسن لقبيلة المقتول قتل رجل من قبيلة القاتل، يظل هناك تقصير في أداء الواجب القومي، وهذا ما أسموه بالثأر. ونتج عنه أن جريمة قتل واحدة كانت تليها سلسلة من القتال تمتد لمئات بل لآلاف السنين. وقد أعلن رسول الله ﷺ إبطال هذه العادة في حجة الوداع وعفا عن دماء قاتلي قبيلته. لكن ما زالت هذه العادة شائعة حتى اليوم عند عرب الصحراء وتمثل الجزء الأكبر لخصائصهم القومية.

شاعت عندهم معتقدات عجيبة حول الثأر. فعلى سبيل المثال أنه حين يموت القتيل تتحول روحه إلى طائر، وما دام لم يؤخذ له بالثأر، يظل هذا الطائر يثير ضجةً عند موضع القتل فيقول: اسقوني إني ظمآن" وكانوا يسمون هذا الطائر الصدى أو الهامة.

يقول أبو دوا الأيادي:

سلط الموت والمنون عليهم　　　فلهم في صدى المقابر هام

وهذا بيت لذي الإصبع العدواني، يقول:

يا عمرو إن لا تدع شتمى ومَنقصتى　　　أضربك حيث تقول الهامة اسقوني

كما كان هناك اعتقاد سائر بأن قبر القتيل الذي لم يؤخذ ثأره يظل مظلماً على الدوام. تقول أخت عمرو بن معد يكرب على لسان المقتول: **واترك في قبر بصعدة مظلم.**

وبناء على ذلك كانوا يعتبرون قبول الدية مثلبة. فلهذه الشاعرة شطرة أخرى، تقول: **رمشوا بآذان النعام المصلّم**

وبناء على هذه الغيرة والحمية أيضاً كانوا يستعيبون النواح والبكاء على القتيل:

ولا تواهم وإن جلت مصيبتهم　　　مع البكاة على من مات يبكونا

ويقول عمرو بن كلثوم:

معاذ الإله أن ينوح نساءنا　　　على هالك أو أن نضجّ من القتل

فكانوا لا ينوحون على القتيل إلا إذا أخذ بالثأر له:

من كان مسروراً بمقتل مالكٍ　　　فليأت نسوتنا بوجه نهار

ليجد النساء حواسرا يندبنه　　　يلطمن اوجهن بالأسحار

كما كان هناك اعتقاد أيضاً أن من يموت مجروحاً تخرج روحه من جرحه، وإن لم يكن مجروحاً تخرج من أنفه. وكان ذلك يعد عيباً شائناً.

وعليه، كانوا يسمون من يتوفى من أثر المرض "**حتف أنف**". وكان الموت على هـذا النحو يعدُّ عاراً بالغاً. يقول الشاعر:

وما مات منا سيد حتف أنفه　　　ولا طُلّ منا حيث كان قتيل

وبالتدريج صارت الحرب محوراً أساسياً لسائر العادات والأخلاق والمفاخر القبلية لدى العرب؛ أي أنه إذا بحثنا عن العلة الأصلية لطبائع العرب وصفاتهم وأخلاقهـم. لوجـدنا هـذا الشيء، الذي منع قبائل العرب من الإسلام لفترة من الزمان. فحين أسلم عمرو بن مالـك فـي حضرة المصطفى ﷺ، وعاد إلى قبيلته فدعاها إلى الإسلام قائلا: إن لنا ثأراً عند بنى عقيـل إذا أخذناه اعتنقنا الإسلام". ولذلك خرج لقتال بنى عقيل كل الذين كانوا قد أسلموا وكان بينهم أيضـاً عمرو بن مالك ﷺ نفسه. هذا رغم أن الندم قد لحق به فيما بعد لمقتل أحد المسلمين على يده.[1]

أموال السلب

ذكرنا آنفا أن النواة الأساسية للقتال كانت قـد نشـأت بسـبب احتياجـات المعيشـة الضرورية. لهذا لم يكن شيءٌ محببٌ عند العرب أكثر من مال الغنيمة، كمـا كـانوا يعتبرونـه أطيب وأحل موارد الكسب. وقد ترسخ هذا الاعتقاد في القلوب وسرى فيها سريان الـدم فـي العروق لدرجة أنه استمر لفترة حتى بعد ظهور الإسلام، وبنفس النهج الذي راعاه الشارع فـي نهى تحريم المحرمات الشرعية، توخى أيضاً بالغ التدرج والهوادة في شأن الغنيمة.

لما أراد الشارع تحريم الخمر نزلت أولاً هذه الآية الكريمة، قال تعالى:

" يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ".

(سورة البقرة: ٢١٩)

فقال عمر ﷺ: **اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافياً**

فنزلت هذه الآية الكريمة، يقول تعالى:

" لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى " (سورة النساء: ٤٣).

ولذلك لما حان وقت الصلاة أمر رسول الله ﷺ رجلاً أن ينادي[2] في الناس ويقول: لا يقرب الصلاة سكران. ثم نزلت هذه الآية الكريمة، فقال تعالى:

---

(١) الإصابة في أحوال الصحابة، ذكر عمرو بن مالك ج٣ ص١٣. "س".

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ـــ طبعة مصر ج ١ ص٥٣ـــ وأبو داود، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر. "سيد سليمان الندوي". وهذا نص الحديث كما ورد في أبي داود، ج٢، ص٢٩٢" عن أنس قال:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۞) (سورة المائدة: ٩٠-٩١)

بالرغم من أن رسول الله ﷺ راعى ضرورة التأكيد والتصريح بشأن تحريم الخمر، حتى أنه أمرهم أن يتخلصوا من الآواني التي كانوا يشربون فيها الخمر. قال الناس: فلنستخلص خل الخمر، فنهاهم عن ذلك أيضاً. ومع كل هذه الأمور شرب بعض الناس الخمر في عهد عمر ﷺ ولما آخذهم على ذلك، قالوا بنية حسنة: كيف تحرم الخمر على الطيبين والصالحين من الناس؟ وقد ورد في القرآن الكريم نفسه بعد تحريم الخمر هذا النص، حيث قال تعالى:

" لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا " (سورة المائدة:٩٣)

كان كثير من الصحابة (رضوان الله عليهم) يشهدون هذه الواقعة. فنظر عمر ﷺ على عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) قائلاً: ما المراد من هذه الآية؟ قال: إنها في شأن أولئك الصحابة (رضوان الله عليهم) الذين ماتوا قبل نزول الوحي بتحريم الخمر. فاقتنع عمر ﷺ وعاقب هؤلاء الناس. وقد ورد هذا تفصيلاً في تاريخ الطبرى.

إن المراد من هذا التفصيل هو أنه حين يدخل أي شئ في إطار العادات والتقاليد لفترة طويلة من الزمن، تمتد آثاره ونتائجه المستترة لأزمنة متتالية، وهذا ما كانت عليه الغنيمة.

كان أول شيء هو أن الناس في غزوة بدر تهافتوا على الغنيمة، قبل جمعها، فنزلت فيهم هذه الآية الكريمة:

" لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ " (سورة الأنفال: ٦٨).

فإنه قد ورد نص صريح بهذه الواقعة في تفسير سورة الأنفال بصحيح الترمذي. كان رسول الله ﷺ قد أعلن أن من يقتل مشركاً فله ما له وأمتعته. وعليه، طالب الناس بمال السلب، وادَّعى الصحابة الذين لم يقاتلوا بل كانوا حراساً للراية أن لهم فيها حق أيضاً،[1] فنزلت فيهم هذه الآية الكريمة، قال تعالى: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ" (سورة الأنفال:١).

كنت ساقي القوم حيث حرمت الخمر في منزل أبي طلحة، وما شربنا يؤمئذ إلا الفضيخ، فدخل علينا رجل فقال: إن الخمر قد حرمت، ونادى منادي رسول الله ﷺ فقلنا: هذا منادى رسول الله". (المترجم).

(١) سنن أبي داود، باب النفل. وهذا نص الحديث كما ورد في أبي داود، ج٢، ص٧٠. عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ " من قتل قتيلاً فله كذا وكذا، ومن أسر أسيرًا فله كذا وكذا"(المترجم).

إن المراد من هذه الآية أنه لا يصح للمجاهدين أن يطالبوا بمال الغنيمة، وأن سلطة تقسيمها في يد رسول الله، فيخاطبه الله (سبحانه وتعالى)، قسمها حسبما شئت. وكل ما ترتب على ذلك هو الإقلاع عما اعتادوا عليه من أن كل رجل كان يأخذ ما تقع عليه يده في المعارك أو الغزوات، ولكن لم ينقطع السلب في ظروف أخرى خارج ساحة القتال لفترات متعاقبة. ورد في سنن [١] أبي داود رواية عن أنصاري، يقول: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصاب الناس حاجة شديدة وجهد، وأصابوا غنماً فانتهبوها، فإن قدورنا لتغلي إذ جاء رسول الله ﷺ يمشي على قوسه فأكفأ قدورنا بقوسه، ثم جعل يرمل اللحم بالتراب ثم قال: " إن النهبة ليست بأحل من الميتة"

وقعت غزوة خيبر سنة ٨ هـ وكان الناس ما يزالون يسلبون حيوانات وثمار اليهود حتى بعد شيوع الأمن. فاشتد غضب رسول الله ﷺ من ذلك. وجمع سائر الصحابة فقال:

إن الله تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضرب نساءهم ولا أكل ثمارهم إذا أعطوكم الذي عليهم (سنن أبي داود، باب تعشير الذمة إذا اختلفوا في التجارة).

كان رسول الله ﷺ يريد أن يهدأ الشغف الذي كان يسيطر على الناس تجاه الغنيمة، ولكن هيام الناس بالغنيمة وعشقهم لها لم ينقطع لفترة من الزمان. ولم تقع الهزيمة في غزوة أحد إلا لأنه رغم التأكيد الحاد لرسول الله ﷺ على رماة السهام بألا يتزحزحوا من مواقعهم مهما كانت حالة القتال، إلا أنه لما أحرز النصر لم تتمالك الناس أنفسها وتهافتت على السلب. وبتخليهم عن مواقعهم انتهز العدو الفرصة فهاجمهم من الخلف. كما كان السبب الرئيسي للهزيمة في حنين هو أن الناس بدأت في استلاب الغنيمة قبل الوقت المناسب.

كانت الغنيمة محببة إلى النفوس لدرجة أن بعض السادة كانوا يصابون بالحزن لإسلام مشرك ما حيث أنه بإسلامه لا يمكن الحصول على ماله. فقد ورد في سنن أبي داود أن صحابياً أراد الهجوم بإحدى السرايا. فجاءته القبيلة تبكي. فقال: قولوا لا إله إلا الله تعصمون أرواحكم وأموالكم، فقالوا: لا إله إلا الله، فأعطاهم الأمان. ولما عاد هذا الصحابي إلى من كانوا معه عاتبه الناس فقالوا: **أحرمتنا الغنيمة.**[٢]

---

[١] كتاب الجهاد، باب في النهي عن النهب. (أبو داود، ج٢، ص٦٠)(المترجم).

[٢] أبو داود، باب ما يقول إذا أصبح، كتاب الأدب. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري، ج٢، ص٦١٥" عن علي بن سهل وابن المصفي: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فلما بلغنا المغار استحثثت

ولما ذهب هؤلاء الناس إلى رسول الله ﷺ أثنى على هذا الصحابي وقال: ستثابون على كل رجل (تركتموه).

كان أكثر ما يدعو على العجب أن الناس ظلوا لفترة يظنون بأن اغتنام الغنائم مما يُثاب عليه. فورد في سنن أبي داود أن صحابياً يريد الجهاد في سبيل الله سأل رسول الله ﷺ: يا رسول الله، رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا، فقال النبي ﷺ :"لا أجر له" فأعظم ذلك الناس، وقالوا للرجل: عد لرسول الله فلعلك لم تفهمه. فقال: يا رسول الله، رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغى عرضاً من عرض الدنيا. قال: " لا أجر له" فقالوا للرجل: عد لرسول الله ﷺ فقال له الثالثة، فقال له:" لا أجر له".(١)

وهناك الكثير من مثل هذه الوقائع.

الأفعال الوحشية

كان من شأن بأس الحروب واتساعها في بلاد العرب أن شاعت عادات وطباع غاية في الوحشية. نتناول بعضها تفصيلا فيما يلي:

(١) حين كانوا يقتلون أسرى الحرب كانوا يقتلون النساء وصغار الأطفال أيضاً، ليس هذا فحسب؛ بل كانوا يحرقونهم.(٢)

(٢) كانوا ينقضون على العدو بغتة حين يكون في ساعة الغفلة أو النوم ويبدءون عمليات القتل والإغارة. وكان هذا النهج سائداً ومتبعاً بكثرة على وجه العموم. كما كان هناك كثير من الشجعان البارعين في هذا المنهج الخاص وكان يطلق على كل منهم الفاتك أو الفتاك فمن أمثالهم تأبط شراً، وسليك، وابن السلكة.

(٣) كانوا يحرقون الناس أحياء، فلما قتلت بنو تميم أخا عمرو بن هند (أحد ملوك العرب) نذر أنه ليقتلن مائة رجل جزاء قتل أخيه وحده. فهاجم بني تميم، وفروا منه، ولم تبق إلا امرأة عجوز كان اسمها حمراء فأسروها وألقوها في النار حية. وتصادف أن خرج فارس كان يدعى عمار. فسأله عمرو: لم أتيت؟ قال: كنت جائعاً لعدة أيام. فلما رأيت

فرسي فسبقت أصحابي وتلقاني الحي بالرَّنين، فقلت لهم: قولوا: لا إله إلا الله تُحرروا فقالوها، فلامني أصحابي وقالوا: حرمتنا الغنيمة، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبروه بالذي صنعت، فدعاني فحسّن لي ما صنعت وقال:" أما إن الله قد كتب لك من كل إنسان منهم كذا وكذا"(المترجم).

(١) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في من يغزو ويلتمس الدنيا.(أبو داود، ج٢، ص١٣)(المترجم).

(٢) مجمع الأمثال، الكرماني – طبعة إيران صـ ٣٤٢.

الدخان يتصاعد ظننت أنه ربما يكون طعاماً. فأمر عمرو أن يلقى عمار هو الآخر في النار. وتم تنفيذ أمره. وقد أشار جرير إلى هذه الحادثة في أحد أبياته حيث قال:

وأخزاكم عمرو كما قد خزيتم   وأدرك عماراً شقى البراجم

(٤) كانوا يجعلون الأطفال مرمى للسهام. ففي معارك داحس والغبراء استودع قيس أطفاله لدى بنى ذبيان على سبيل الضمان، فاصطحبهم حذيفة سيد بنى ذبيان، إلى أحد الوديان حيث أوقفهم وجعلهم مرمى ثم أخذ يرمى عليهم السهام. وإن تصادف ألا يموت أحد الأولاد أبقاه لليوم التالى، حيث يبدأ [1] تمرين الرماية (من جديد. وكان الناس يشاهدون هذا اللهو).

(٥) كان من صنوف القتل أن تقطع الأيدى والأرجل وسائر الأعضاء حتى يموت القتيل متملماً من الألم. ففي معركة غطفان وعامر خنق الحكم بن الطفيل نفسه خوفاً من هذا. حسبما ورد تفصيلاً في العقد الفريد.

وكان أهل عرينة الذين كانوا قد تظاهروا بالإسلام في حضرة المصطفى ﷺ، قد قبضوا على غلام رسول الله ﷺ فقطعوا أيديه وأقدامه ثم رسوا الشوك في عينيه ولسانه حتى مات من أثر الآلام.[2]

(٦) بعد الموت أيضاً كانت تظهر حدة الانتقام في أشكال شتى مثيرة للاستنكار. فكانوا يمثلون بالجثث فيقطعون أيديها وأرجلها وأنفها وأذنها وغير ذلك. ووفقاً لهذه العادة مثلت هند بجثث شهداء غزوة أحد فقطعت أعضاء حمزة ﷺ وغيره من الشهداء وصنعت منها عقداً ارتدته فى عنقها.

(٧) كانوا ينذرون بأنهم إذا استولوا على العدو فسوف يشربون الخمر فى جماجمه. فقد قتل ولدين لسلافة في غزوة أحد على يد عاصم. وعلى ذلك نذرت سلافة لتصبن الخمر[3] فى جمجمة عاصم وتحتسيها. كان من المعتاد لديهم أيضا أنهم كانوا ينتزعون كبد القتيل ويأكلونه. وقد تحدثنا فيما سبق عن هند التي انتزعت كبد سيدنا حمزه ﷺ ومضغتها.

---

(١) المرجع السابق صـ ٤٧٧.

(٢) ذكرت هذه الحادثة في سائر كتب الحديث لكن هذا التفصيل مقتبس من طبقات ابن سعد (جـ٢ القسم الأول صـ٦٧). أما في صحيح مسلم فلم يرد إلا مسألة كف البصر.

(٣) طبقات ابن سعد، جـ٢، صـ٣٩مرثية مرثد بن أبى مرثد. "سيد سليمان الندوى".

(٨) كانوا يبقرون بطون الحوامل من النساء ويفتخرون بذلك. يقول عامر بن الطفيل أحد شجعان العرب المشهورين وسيد هوازن:

بقرنا الحبالى من شنؤة بعدها خبطن بفيف الرمح نهداه خثعما

أسباب وأنواع الغزوات النبوية[١]

بعد التفصيل المذكور أعلاه ننتقل الآن إلى الحديث عن أسباب الغزوات النبوية، وما قام به النبي ﷺ من إصلاحات في أسلوب الحرب. توسع المؤرخون فى استخدام كلمة "غزوة" حتى أنه إذا كان قد بعث رجل أو رجلين لتوطيد الأمن فى مكان ما، لصنفوا ذلك ضمن "الغزوة". وفضلاً عن الغزوة هناك لفظ آخر هو "السرية". ويرى الناس أن الفارق بين الغزوة والسرية هو أن الغزوة تستلزم حداً أدنى لعدد معين من الرجال. أما السرية فلا قيد لعددها. فإذا أرسل رجل واحد لاستطلاع القتال فإنه سرية. كما يرى البعض أنه يشترط للغزوة أن يكون رسول الله ﷺ قد شارك فيها بنفسه.

والحقيقة هي أن ما يُطلق عليه المؤرخون لفظ "سرية" ينقسم إلى عدة أقسام:

١. هيئة الاستطلاع؛ أي استخبارات حركة وتنقلات العدو.
٢. التقدم للدفاع بعد سماع الأخبار بهجوم العدو.
٣. عرقلة تجارة قريش حتى يضطروا إلى السماح للمسلمين بأداء الحج والعمرة.
٤. إرسال قوات تأديبية لدعم استتباب الأمن.
٥. أرسل الناس لنشر الإسلام مصحوبين بعدد من أفراد الجيش بغرض حراستهم، على أنه قد تم التأكيد عليهم بألا يستعينوا بالسيف.

أما الغزوة فكان لها وجهان فقط:

١. هجوم الأعداء على دار الإسلام وتمت مجابهتهم.
٢. عُلم بأن العدو يعد العدة للهجوم على المدينة فتم التقدم لمقابلته ومواجهته.

إن كل ما وقع من غزوات وما حدث من مثل هذه الوقائع فى عهد رسول الله ﷺ، كان لتلك الأغراض المختلفة.

حين هاجر رسول الله ﷺ من مكة قررت قريش أن تستأصل الإسلام لأنها كانت تدرك أنه لو استمر قيام الحركة الإسلامية. فستحل المأساة بدينهم من ناحية، وسيضيع تفوقهم ونفوذهم

---

[١] يجب أن يراعى أن هذا البحث يتناول فى مجمله الناحية التاريخية. أما البحث فى حقيقة الجهاد الجوهرية فسيرد فى الأجزاء الأخرى من الكتاب.

ومركزيتهم بين سائر بلاد العرب أدراج الرياح من ناحية أخرى. وعليه بدأت قريش تتأهب بنفسها للهجوم على المدينة من ناحية، ومن ناحية أخرى تثير سخط القبائل العربية كلها على أنه إذا نجحت هذه الفئة الجديدة فستعدم حريتهم بل حياتهم.

وفى بيعة العقبة حين كان الأنصار يبايعون رسول الله ﷺ قال أنصارى: ألا أيها الأخوة! أتعلمون علام تبايعون؟ إنه إعلان حرب للعرب والعجم. ذكرنا آنفاً نقلاً عن مسند الدارمى أنه لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة كان العرب جميعاً قد استعدوا لمهاجمة المدينة. حتى بلغ الأمر أن المهاجرين والأنصار فى المدينة كانوا لا ينامون ليلاً إلا وهم متسلحين وعلى أهبة القتال. وذكرنا فيما سبق (نقلاً عن أبى داود)[1] أن قريشاً بعثت رسالةً إلى عبد الله بن أُبى تقول: أخرج محمد ﷺ من هناك. وإلا فسنأتي إلى المدينة ونقضي عليك وعلى محمد ﷺ.

هيئة الاستطلاع

كان من الضروري في ظل هذه الأحداث أن تتخذ الإجراءات اللازمة للحفاظ على الإسلام ودار الإسلام. وكان الإجراء الأول فى هذا الصدد هو أن تدار على نطاق واسع شبكة من المخابرات والجاسوسية. لذلك اهتم سيدنا محمد ﷺ منذ البدء بهذه الإدارة، فكان يعد بكثرة تشكيلات صغيرة ويبعثها إلى المناطق المختلفة بين فينة وأخرى. ورغم أن هذه التشكيلات كانت تخرج بهدف الاستخبار والاستطلاع فقط إلا أنها كانت فى صورة جماعة مسلحة بغرض الدفاع عن نفسها.

هذه هى الوقائع التي يعبر عنها المؤرخون بـ"السرايا" ويرون أنها كانت تخرج لسلب قافلة ما أو للانقضاض على جماعة ما فى ساعة غفلتها. إن هناك قرينة هامة تؤكد على أن إرسال هذه الكتائب لم يكن بغرض الهجوم؛ وهى أن هذه الكتائب لم تكن تزيد فى عدد أغلبها عن عشرة أو أثنى عشر رجلاً، مما يوضح أنه لا يمكن إرسال مثل هذا العدد القليل من أجل القتال. فعلى سبيل المثال، بعث سيدنا محمد ﷺ في سنة ٢هـ[2] عبد الله بن جحش ﷺ فى صحبة إثنى عشر رجلاً إلى مكة وأعطاه خطاباً مختوماً على ألا يفضه إلا بعد يومين. وبعد يومين فضه فوجد فيه هذه العبارة:

---

(١) باب فى خبر النضير. وهذا نص الحديث كما ورد في أبي داود، ج٢، ص١٤٠ قول المشركين هذا: " إنكم آويتم صاحبنا وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نسائكم"(المترجم).

(٢) سرية ابن جحش

فسر حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا مـــن أخبـــارهم. (الطبرى ١٢٧٤)

الدفاع

نتج عن هذه الإدارة أنه لما كان يعزم أحد على مهاجمة المدينة يتنـــاهى الخبـــر علـــى الفور(إلى دار الإسلام) وتتم الاستعدادات وإرسال الجيوش. كانت أغلب السرايا من هذا النـــوع ،وحيث أننا أغفلنا كثيراً الحديث عن السرايا؛ لذا نذكر هنا بعض السرايا على ســـبيل المثـــال، ونثبت بنصوص كتاب السيرة القدامى أن هذه السرايا كانت بغرض الدفاع.

سرية غطفان

وذلك أنه بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من بني ثعلبة ومحارب بذى أمـــر قـــد تجمعـــوا يريدون أن يصيبوا من أطراف رسول الله ﷺ جمعهم رجل منهم يقال له دُعثور بـــن الحـــارث إلخ.(طبقات صـــ٢٣)

سرية أبو سلمة سنة ٢هـــ:-

وذلك أنه بلغ رسول الله ﷺ أن طليحة وسلمة ابنى خويلد قد سارا فـــى قومهـــا ومـــن اطاعهما يدعونهم إلى حرب رسول الله ﷺ إلخ.(ابن سعد صـــ٣٥)

سرية عبد الله بن أنيس بهدف قتل سفيان بن خالد سنة ٣هـــ

وذلك أنه بلغ رسول الله ﷺ أن سفيان بن خالد الهذلى ثم اللحيانى وكان ينزل عرنة وما والاها فى ناس من قومه وغيرهم قد جمع الجموع لرسول الله ﷺ.

غزوة ذات الرقاع:-

فاخبر أصحاب رسول الله ﷺ أن أنمار وثعلبة قد جمعوا لهم الجموع فمضى.

غزوة دومة الجندل :-

قالوا بلغ رسول الله ﷺ إن بدومة الجندل جمعاً كثيراً وإنهـــم يريـــدون أن يـــدنوا مـــن المدينة. (ابن سعد صـــ٤٤)

غزوة مريسيع سنة ٥هـــ :-

إن بنى المصطلق من خزاعة وهو من حلفاء بنى مدلج وكان رأسهم وسيدهم الحـــارث بن أبى ضرار فسار في قومه ومن قدر عليه من العرب فدعاهم إلـــى حـــرب رســـول الله ﷺ فأجابوه. (ابن سعد صـــ٤٥)

سرية على بن أبى طالب ﷺ إلى فدك سنة ٦ هـ:

بلغ رسول الله ﷺ أن لهم جمعاً يريدون أن يمدّوا يهود خيبر.

سرية عمرو بن العاص ذات سلاسل سنة ٨هـ، تبعد هذه المنطقة عن المدينة ٨ منازل.

بلغ رسول الله عليه وسلم أن جمعاً من قضاعة قد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله ﷺ.

التعرض لتجارة قريش

أوردنا فيما سبق نقلاً عن البخاري أنه(قبل نشوب الحرب بين قريش والمسلمين) قال أبو جهل لمعاذ الأنصاري ﷺ في الكعبة: إن لم تطردوا محمداً ﷺ فلن تستطيعوا الطواف بالكعبة. فرد قائلاً: إذا منعتمونا من دخول الكعبة فسوف نعترض تجارتكم إلى الشام (إذ كانت المدينة تقع على طريق القافلة التي تخرج من مكة إلى الشام). كانت الكعبة تمثل قيمة عظمى وفريدة لدى المسلمين، لأن من بناها كان من أتباع الملة الإبراهيمة الحنيفة. وبالرغم من ذلك منعت قريش أداء الحج والعمرة على وجه العموم ومن ثم لم يكن أمام المسلمين إلا أن يفرضوا القيود على قافلة التجارة حتى يضطر القرشيون إلى السماح للمسلمين بدخول الكعبة.

بعض السرايا قبل صلح الحديبية

يكتب أهل السيرة في أغلب مواضع الحديث عن السرايا "**يتعرض لعير قريش**"؛ أى أن القوات كانت تُرسل أو يخرج بها سيدنا محمد ﷺ بنفسه من أجل التعرض لقافلة قريش. وكانت هذه الحملات كلها لهذا الغرض ذاته، ولكن لما كانت قوافل قريش التجارية تخرج بأسلحتها وكانوا يخرجون في جماعة لا تقل عن مائة أو مئتين، لذا كانت تقع بعض المجابهات أحياناً في عملية التعرض هذه، ولما كانت الهزيمة تلحق بالقرشيين كانوا يلوذون بالفرار فتقع تجارتهم غنيمة للمسلمين. كتب أهل السيرة خطأً هذه الوقائع فى قالب يوحى بأن سلب القافلة كان هو الهدف الحقيقي.

هذا التعرض هو الذى ترتب عليه أن عقدت قريش فى النهاية صلح الحديبية، الذي سُمح للمسلمين على ضوئه بأداء الحج وفقاً لعدة شروط خاصة. كان التعرض لقافلة التجارة يؤثر على قريش لدرجة أنه (لما أعلن أبو ذر الغفاري إسلامه في مكة وبدأت قريش تضربه زجراً له عن هذا الفعل، قال العباس ﷺ إن قبيلة غفار تقع على الطريق الرئيسي لقافلتكم التجارية، وإن فعلتكم هذه ستثير حنقهم ولن تسمح لكم بالمرور من ذلك الطريق. فكان لهذا

التبيير فعاليته حيث أنهم وجلوا وتركوا أبا ذر ﷺ). وبعد صلح الحديبية تقرر وفقاً لرغبة قريش أن يُعيد رسول الله ﷺ إليهم مسلمي مكة التسعة. الذين ما لبثوا أن فروا من مكة وأقاموا مستقراً لهم على طريق الشام. (وهددوا طريق تجارة قريش) حتى سمحت قريش في النهاية لمن يشاء من المسلمين بالذهاب من مكة إلى المدينة، على ألا يلحق به أي تعرض من جانبها. بعد ذلك لم يتعرض المسلمون لقافلة قريش التجارية على الإطلاق؛ بل كانوا يرسلون إليها القوات للزود عنها.[1]

استقرار الأمن

مر سابقاً أن بلاد العرب من أولها إلى آخرها كانت تفتقد تماماً إلى الأمن والاستقرار. فكانت القبائل كلها على قتال متواصل فيما بينها، حتى أنهم ابتدعوا استبدال أسماء الشهور وراحوا يقاتلون فى الأشهر الحرم أيضاً. كما كانت التجارة غير آمنة على وجه الإطلاق. إذ كان من الشائع لديهم سلب القوافل مثلما يسلب البدو القوافل للأسف حتى يومنا هذا .

أرسل الله (سبحانه وتعالى) نبيه الكريم ﷺ لإرشاد الناس وهدايتهم ونشر الأمن والأمان فى سائر بلاد العرب بل فى كافة ربوع العالم لأنه ما من شيء أبغض عند الله من القتل وسفك الدماء يقول تعالى :-

(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ) (المائدة:٣٢)

قال تعالى :-

(وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ) (البقرة:٢٠٥)

كما قال تعالى :-

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (المائدة:٣٣)

ورد في الأحاديث أنه لما أسلم عدى ﷺ (ابن حاتم الطائى) قال له رسول الله ﷺ: **وليتمن الله**

---

[1] فتح البارى جـ ٨ صـ ١٢.

هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله[1]. وهذا هو ما جاء في أبي داود، أما ما ورد في صحيح البخارى[2] فهو كالتالي "سوف يقضى الله في هذا الأمر حتى لتسافر الظعينة (المرأة) من الحيرة حتى تطوف الكعبة لا تخاف إلا الله (سبحانه وتعالى) يقول عدى ﷺ: فرأيت الظعينة (المرأة) ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله.

هناك الكثير من الأحداث التي يعدها أهل السيرة سرايا. فيما كانت لدعم استتباب الأمن العام والاستقلال التجاري. ندرج منها فيما يلي ثلاثة أمثلة:

سرية زيد بن حارثة

إنه في سنة ٦ هـ خرج زيد ﷺ في تجارة إلى الشام. وفي طريق عودته اقترب من وادي القرى فخرج إليه أهل بنى فزارة وانهالوا عليه ضرباً، وسلبوا كل ما معه من أموال وبضائع. فبعث رسول الله ﷺ عدداً قليلاً من الجيش لتدارك الأمر فما كان منه إلا أن ردع أولئك القوم.[3]

وقبل ذلك من العام نفسه كان رسول الله ﷺ قد أرسل دحية الكلبى ﷺ برسالة إلى القيصر، وبينما كان عائداً من الشام وصل إلى حمص فأغار عليه هنيد ورهط من الرجال وسلبوه كل ما كان معه. فلم يتركوا له إلا ما على جسده من ثياب (التي كانت قديمة وبالية). فبعث رسول الله ﷺ سيدنا زيد ﷺ.[4]

في سنة ٤ هـ بلغ رسول الله ﷺ أنه قد اجتمعت جماعة كبيرة في دومة الجندل التي تقع على بعد خمسة عشر منزلاً من المدينة المنورة باتجاه الشام. وأن هذه الجماعة تؤذى التجار وتتحرش بهم فذهب إليهم رسول الله ﷺ بنفسه ليتداركهم. فكان الجمع قد تشتت، ولكن رسول

---

(١) صحيح البخارى، باب ما لقى النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة. "س". وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري، ج٢، ص٤٧٥" وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله". (المترجم).

(٢) باب علامات النبوة.(البخاري، ج٢، ص٤١٣). (المترجم).

(٣) باب علامات النبوة.

(٤) ابن سعد صـ ٦٣.

الله ﷺ أقام هناك لعدة أيام وعلى سبيل التنسيق والترتيبات أرسل ﷺ تشكيلات صغيرة من الجيش إلى سائر أنحاء البلاد.[1]

(لم يختص ذلك الإجراء ببعض التجار المسلمين فقط؛ بل امتد بعد صلح الحديبية ليشمل القوافل التجارية لمشركي قريش حيث صارت تتمتع هي الأخرى بمثل هذا النوع من الدفاع).

سرية خبط أو سيف البحر.

في سنة٨ هـ كانت قافلة قريش التجارية عائدة من الشام. ولم تشعر بالاطمئنان تجاه قبيلة جهينة، فبعث رسول الله ﷺ جماعة من ثلاثمائة مسلم كان بينهم عمر ﷺ، تحت قيادة أبي عبيدة بن الجراح ﷺ إلى ما يقع على مسيرة خمسة أيام من المدينة. وقد أصر المسلمون على أداء هذا الواجب حتى أنهم حين نفذ طعامهم كان كل منهم يقضي يومه على تمرة واحدة.[2]

لقد وردت هذه الواقعة تفصيلاً في صحيح مسلم،[3] إلا أن الرواة قد اختلفوا في الحديث عن غرض هذه السرية. والراوي الأصلي هو جابر ﷺ الذي كان قد شهد هذه الواقعة. وقد ورد في رواية أن هذه البعثة قد أرسلت لقتال جهينة. وهذا هو ما ورد أيضاً في كتب المغازي. وفيما يلي نص الروايات الأخرى:

١. نتلقى عير قريش.

٢. نرصد عير قريش.

ربما يُفهم أن المراد من ذلك على وجه العموم أن تلك السرية كانت لسلب قافلة قريش؛ لكن هذا خطأٌ بينٌ؛ لأن هذه الحادثة قد وقعت في عهد صلح الحديبية. وعليه، فإن المعنى الواضح لهذه العبارات أن هذه السرية كانت قد أرسلت للزود عن قافلة قريش وردع جهينة. وهذا ما حققه أيضًا الحافظ ابن حجر.[4]

---

(١) نفس المصدر السابق صـ٤٤ جزء الغزوات.

(٢) ابن سعد، جزء الغزوات، سرية خبط.

(٣) صحيح مسلم، باب إصابة ميتة البحر، كما وردت هذه الروايات أيضا في باب غزوة سيف البحر بصحيح البخاري. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري، ج ٣، ص ١٠٥. (روى عن جابر بن عبد الله: فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمرة.)(المترجم).

(٤) فتح الباري جـ٨ صـ ٦١، ٦٢.

غزوة غابة

كانت طبائع الجسارة وقطع الطريق متغلغلةً في نفوس العــرب لدرجــة أنهــم كــانوا يُعاقبون في كل مرة بأشد صنوف العقاب، إلا أنهم لم يكونوا يتناهون عن ارتكاب أي نوع مــن الجرائم. وحتى أنهم كانوا يغيرون على غابة، التي كانت مرعى المدينة. ألمَّ القحط بسكان قبيلــة فزارة في سنة ٤ هـــ. فأذن رسول الله ﷺ من فرط كرمه لرأسهم عيينة بن حصن برعي البعير في الريان الذي كان داخل الحدود الإسلامية. لكنه في سنة ٦ هـــ. قام عيينة هذا بالهجوم علــى غابة (مرعى المدينة) ونهب عشرين ناقة من نياق رسول الله ﷺ. فقتله ابن أبى ذر ﷺ حــارس هذا المرعى. ولهذا يعبر أهل السيرة عن هذه الحادثة بغزوة غابة.

إن كل الغزوات والمعارك التي استمرت مع مشركي سائر بلاد العرب الذين صــاروا أعداءً للإسلام وإنتهاءً بفتح مكة كان سببها الرئيسى هو أن القتل وقطع الطريق والسلب والنهب كان أهم موارد الكسب لدى العرب فيما كان الإسلام يستأصل في طريقه كل هذه الطبائع، ممــا جعل العرب لا يعتبرون أحداً أشد عداءً لهم من الإسلام.

سبب الهجوم في ساعة الغفلة

كانت قبائل العرب صنفان: إحداها هي تلك التي كانت تعيش بصفة دائمة فــي منطقــة معينة. والأخرى، هم البدو وأهل الخيام الذين لم يكن لهم مستقراً معيناً. فأينما وجــدوا بئــراً أو أرضاً نصبوا خيامهم. وحين تجف المياه أو تنعدم هناك أيضــاً. يســتطلعون منطقــة أخــرى ويرحلون إليها. وتسمى هذه القبائل في العربية أصحاب الوبر، وكانت مثل هذه القبائل هي أكثر القبائل التي كانت تقوم بعمليات الإغارة والسلب والنهب، كما كان تنظيمها والتعرض لها أمــراً شديد الصعوبة. فإذا ما أرسلت إليهم الجيوش لتعزيزهم يفرون إلى الجبال فتصــعب الســيطرة عليهم، ولذلك كانت الجيوش التي تبعث عليهم تُبعث إليهم اضطرارا في ساعة الغفلــة حتــى لا يتمكنوا من الفرار.

كتب أهل السيرة في حديثهم عن أغلب السرايا أن رسول الله ﷺ قد أرسل عدة جيــوش كانت تسير ليلاً لتصل إلى مواقعها وتشن هجموها في ساعة الغفلة وتسلب القبائل. وقد تناقلــت سائر الكتب بكثرة مثل هذه الوقائع وهذه هي الوقائع التي بنى عليها الأوربيون اعتقــادهم بــأن الإسلام قد شرع الإغارة على الأعداء ونهبهم. وعلى هذا الأساس دلل مارجوليوث بأنــه لمــا انعدم مورد الكسب لدى المسلمين لفترات طويلة، ارتضى لهم سيدنا محمد ﷺ أن يعتادوا علــى مهاجمة القبائل في ساعة غفلة ونهب أموالهم وبضائعهم.

لكن حين يتوفر على كل هذه الوقائع بتدقيق واستقراء وجهد أكبر سوف يثبت أن الهجوم المفاجئ كان يُشَن على تلك الأقوام التي يحتمل في شأنها أنه إذا بلغها الخبر فستفر إلى قمم الجبال أو إلى أي مكان آخر، لأنه غالباً ما حدث أن بلغ الخبر مثل أولئك الناس فرحلوا إلى أي مكان آخر. ونورد في هذا المقام بعضاً من مثل هذه الوقائع التي شارك رسول الله ﷺ في بعضها، وأرسل عدة كتائب في البعض الآخر.

غزوة بني سليم سنة ٣ هـ:

واغذّ السير فوجدهم قد تفرقوا في مياههم فرجع.

غزوة ذات الرقاع سنة ٤هـ:

وهربت الأعراب إلى رؤوس الجبال.

سرية عكاشة ﷺ سنة ٦ هـ

وجه رسول الله ﷺ عكاشة بن محصن إلى الغمر فى أربعين رجلاً، فخرج سريعاً يغذّ السير فهربوا. (ص٦).

سرية على بن أبي طالب ﷺ إلى بنى سعد سنة ٦هـ:

فبعث إليهم علىَّ بن أبي طالب في مائة رجل فسار الليل وكمن النهار حتى انتهى على الهمج فأغاروا عليهم فأخذوا خمس مائة بعير وألفي شاةٍ وهربت بنو سعد بالظعن.

غزوة بني لحيان سنة ٦هـ:

فسمعت بهم بنو لحيان فهربوا في رؤوس الجبال.

سرية عمر بن الخطاب ﷺ إلى تربة سنة ٧هـ

فكان يسير الليل ويكمن النهار فأتى الخبر هوازن تهربوا وجاء عمر بن الخطاب محالهم فلم يلقى منهم احداً.

سرية كعب بن عمير ﷺ ربيع الأول سنة٨ هـ:

إن واقعة هذه السرية هي أن رسول الله ﷺ بعث خمسة عشر رجلاً إلى الشام. ولما وصلوا على ذات الأطلاح وجدوا جماعة كبيرة، فدعوها إلى الإسلام. فاستنكروه وأخذوا يرمونهم بالسهام، فاضطر أولئك الرجال إلى قتالهم حتى استشهدوا جميعاً ولم ينج منهم إلا رجلٌ واحدٌ، ما لبث أن قدم وبلغ الأمر. فأراد رسول الله ﷺ الانتقام منهم. لكنهم تركوا مقامهم ورحلوا إلى مكان آخر. وقد ورد في ابن سعد:

وهم بالبعث إليهم فبلغه أنهم قد ساروا إلى موضع آخر.

نشر الإسلام

فضلاً عن هذه الأغراض أرسلت سرايا أخرى كان هدفها نشر الإسلام، ولكن لأن البلاد كانت تفتقر إلى الأمن والأمان، علاوة على أن الأعداء كان يأججون نار الفتنة بطول البلاد وعرضها، لهذا كان من نصيب السرايا التي كانت تخرج من أجل الدعوة إلى الإسلام أن تتعرض حياتها دوماً للخطر.

سرية بئر معونة

في صفر سنة ٣هـ أُرسلت جماعة من سبعة عشر داعية إسلامي بهدف نشر الإسلام في قبيلة كلاب إثر دعوة من سيدها، لكنهم استشهدوا عن بكرة أبيهم على يد قبيلتي رعل وذكوان قرب بئر معونة. ونجى منهم رجلٌ واحدٌ فقط، والذي جاء المدينة وقص ما حدث للسرية.

سرية مرثد

في هذه الفترة نفسها أي في صفر سنة ٣هـ طلبت قبيلتي عضل وقارة إرسال دعاة الإسلام إليها للوعظ والإرشاد فيها. فبعث رسول الله ﷺ لهذا الغرض عشرة من الصحابة من بينهم عاصم، وحبيب، ومرثد بن أبي مرثد (رضوان الله عليهم) وغيرهم. وما أن وصلوا إلى منطقة الرجيع حتى هاجمتهم بنو لحيان واستشهدوا جميعاً إلا رجلٌ واحدٌ منهم. وفي سنة ٦هـ خرجت سرية لتأديب بنو لحيان. لكنها لم تحرز نجاحاً. وفر رجالها مذهولين.

سرية ابن أبي العوجاء

في سنة ٧هـ أرسل سيدنا محمد ﷺ إلى قبيلة بنى سليم جماعة من الدعاة كانت تضم خمسين رجلاً. وكان قائد هذه الجماعة ابن أبي العوجاء. فدعا بنو سليم إلى الإسلام لكنها استنكرته وجعلت ترميهم بالسهام. فحاربت هذه الجماعة أيضًا، ولكن كيف لجماعة من خمسين رجلاً أن تجابهة قبيلة بأسرها؟ ونتج عن ذلك أن استشهدوا جميعاً عدا ابن أبي العوجاء.

سرية كعب بن عمير

إنه في ربيع الأول سنة ٨هـ أرسل سيدنا محمد ﷺ كعب بن عمير الغفارى في جماعة من خمسة عشر رجلاً إلى ذات الأطلاح للدعوة إلى الإسلام. وتقع هذه المنطقة على حدود الشام من ناحية وادى القرى. دعا هؤلاء القوم الناس إلى الإسلام؛ ولكن الرد كان بتلك السيوف والرماح. حتى استشهدت هذه الجماعة كلها أيضاً. ونجى أحدهم فقدم إلى المدينة وبلغ الخبر.

بناء على ذلك كانت أغلب السرايا التي ترسل لنشر الإسلام تكون مصحوبة بعدد من أفراد الجيش لحراستها والزود عنها. على أنه كان يتم التأكيد صراحة على قادتها بأن الهدف هو نشر الإسلام فحسب، وأنه غير مسموح بالقتال أو المناوشات. فعلى سبيل المثال، حين أرسل رسول الله ﷺ بعد فتح مكة -خالد بن الوليد ﷺ إلى بنى جزيمة في جماعة من ثلاثين رجلاً، قال ﷺ صراحة: إن الهدف هو الدعوة إلى الإسلام، وليس القتال. يكتب ابن سعد:

بعثه إلى بنى جزيمة داعياً إلى الإسلام ولم يبعثه مقاتلاً. (صـ١٠٦)

كما يكتب العلامة الطبري في هذا المقام:

- **قد كان رسول الله ﷺ بعث فيما حول مكة السرايا تدعوا إلى الله عز وجلّ ولم يأمرهم بقتال.**

على الرغم من ذلك اعمل خالد ﷺ السيف وسمع رسول الله بذلك فهب واقفاً واستقبل القبلة ثم قال: "اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد"، وكرر هذه الجملة ثلاث مرات.[1] ثم أرسل على ﷺ فدفع الفدية عن كل صبى، حتى الكلاب وضاعف فيها.[2] وقد وردت هذه الحادثة في كتب الحديث بعبارات مختلفة.

وهكذا حين بعث سيدنا محمد ﷺ على ﷺ إلى اليمن في ثلاثمائة فارس قال:
فإذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك. (ابن سعد المغازى صـ١٢٢)

يدخل ضمن هذا الإطار أيضاً تلك السرايا التي بعثت بعد فتح مكة لتقويض الأصنام والمعابد في كافة أرجاء البلاد. وبيان ذلك أن بلاد العرب كانت بها معابد خاصة لكل قبيلة على حدة. وبعد فتح مكة حين اعتنقت القبائل الإسلام بوجه عام، لم ينمح دفعة واحدة من بعض القبائل الاعتقاد الوثني والجاهلي بعظمة وجبروت الأصنام فمع أنهم قد أصبحوا لا يعتبرونها مستحقة للعبادة إلا أن الهيبة التي تورثت لهذه الأصنام وتمكنت من نفوسهم لفترة من الزمن، لم تكن لتدعهم يجرؤون على تحطيم مراكزها. كان الجاهليون يوقنون أنه إذا أزيحت ذرة في هذه الأحجار المقدسة من موضعها، فستتحطم السماء وتنشق الأرض، وسينفجر طوفان من الوبال والمصائب.

---

(1) ورد هذا النص فى البخاري ج٣، ص٩٩ أن رسول الله رفع يده وقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد مرتين. (المترجم).

(2) تاريخ الطبري، جـ٣، ص ١٦٥١.

اشترط أهل الطائف عند مبايعتهم لرسول الله ﷺ ألا تهدم معابدهم لعام كامل، ولما لم يوافق رسول الله ﷺ، عرضوا شرطاً آخر وهو ألا يهدموها بأيديهم، كما كانت بعض القبائل الأخرى حديثة العهد بالإسلام تتردد في أداء هذا الواجب. وعليه، أرسل إلى تلك المناطق بعض المسلمين راسخي العقيدة وذوي الفهم الصحيح ليقوموا بهذا الواجب نيابة عنهم. لذلك أرسلت سرية خالد بن الوليد ﷺ لهدم معبد العزى، وسرية عمرو بن العاص ﷺ لهدم معبد سواع، وسرية سعد بن زيد الأشهلي ﷺ لتقويض معبد مناة، وسرية أبى سفيان ﷺ والمغيرة بن شعبة ﷺ لتحطيم معبد اللات، وسرية جرير ﷺ لهدم معبد ذي الخلصة [١] وسرية الطفيل بن عمرو الدوسي ﷺ لهدم ذي الكفين، وسرية على بن أبى طالب ﷺ لهدم معبد فلس.[٢]

الإصلاحات العسكرية

الحرب أبشع صور الأعمال الإنسانية. كانت حرب العرب مسرحاً للقهر والوحشية والجبروت والبطش وسفك الدماء والقسوة والهمجية. إلا أنها تطهرت من كل هذه المثالب بفيض إعجاز البعثة النبوية، وصار واجباً إنسانياً مقدساً. حين يتُوارث الظلم والإغارة في بلدها لآلاف السنين، تضطر أكثر حكوماتها تحضراً أن تستعين في بداية عهدها بنفس المبادئ والإستراتيجيات القديمة لفترة ما، وهذا ما يسمونه في الاصطلاح الطبي العلاج بالمثل. وفي بدء الإسلام أحياناً ما نجد عند القيام بحرب هجومية مثل هذه الطباع والعادات التي كانت شائعة من قبل. فعلى سبيل المثال كان في الجاهلية عرف بأن ينقضوا على العدو في ساعة الغفلة فيقتلوه ويأسروه. مَحَق الإسلام هذه العادة، ولكن إذا عمل بذلك في البداية لكانت النتيجة أن يعتاد العدو أن يقوم بهجوم مفاجئ دائماً فيقتل المسلمين ولا يستطيعون مجابهته، وإن عملوا على أن يخبروه قبلها فسيمكنه من المرواغة. فكان ذلك يضمن للمسلمين حماية أنفسهم، ولكن بقدر ما تسنى للإسلام من قوة وبأس بعد ذلك بقدر ما بدأت كل هذه العادات والأعراف القديمة تتلاشى شيئاً

---

[١] صحيح البخاري،غزوة ذي الخلصة. وهذا نص الحديث : (٤٢٥٠) حدَّثنا محمدُ بن المثنى حدَّثنا يحيى حدَّثنا إسماعيلُ حدَّثنا قَيس قال: قال لي جرير رضيَ اللّهُ عنه «قال لي النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ألا تُريحُني من ذي الخَلَصَة ــ وكان بيتاً في خَثْعَمَ يُسمى الكعبةَ اليمانية، فانطلقتُ في خمسين ومائة فارس من أحمسَ وكانوا أصحابَ خيل وكنتُ لا أثبتُ على الخيل، فضربَ في صدري حتى رأيتُ أثرَ أصابعهِ في صدري وقال: اللهمَّ ثَبِّتْهُ واجعَلْهُ هادياً مَهديّاً. فانطلقَ إليها فكسَرَها وحَرَّقَها، ثم بعث إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسولُ جرير: والذي بعثَك بالحقّ ما جئتُكَ حتى تركتُها كأنها جملٌ أجرَب. قال: فبارَكَ في خيلِ أحمسَ ورِجالها خمسَ مرات». (المترجم).

[٢] اقتبست أغلب وقائع هذا الباب من ابن سعد، جزء المغازى.

فشيئاً حتى انعدمت تماما. ولقد ذكرنا بالتفصيل فيما سبق الأسلوب الذي كان متبعاً في الحروب قبل الإسلام وما كان يتم ارتكابه من أعمال وحشية. اطلع على تلك الصفحات ثانية وانظر مقارناً لها ما قام به الإسلام من تعديلات؟ فقد حرم تماماً قتل النساء والشيوخ والأطفال وصغار السن، والغلمان، والخدام في الحروب. فكان من عادة رسول الله ﷺ أنه حينما كان يرسل جيشاً في إحدى الحملات كان يجعل ذلك أمر ضرورياً ضمن الأمور التي يصدرها إلى قائد الجيش.[1] وورد هذا الأمر في أبى داود بهذه العبارة: **لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً ولا صغيراً ولا امرأة.**[2]

وفي الغزوات أيضاً حين كانت تمر على رسول الله ﷺ جثة امرأة، كان يمنع قتل النساء منعاً باتاً. فقد وردت في صحيح مسلم عدة أحاديث في هذا الشأن.

كان من المعتاد قبل الإسلام أنهم حين كانوا يأسرون العدو كانوا يقيدونه بأي شيء ويجعلونه مرمى للسهام أو يقتلونه بالسيف. وكانوا يسمون هذا الأسلوب في اللغة العربية بالصبر. فمنع رسول الله ﷺ ذلك بتشديد صارم.

وذات مره أسر (عبد الرحمن ﷺ) بضعة رجال وقتلهم بذلك الأسلوب. وسمع أبو أيوب الأنصاري بذلك فقال: « سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَنْهَى عن قَتْلِ الصَّبْرِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَتْ دَجَاجَةٌ ما صَبَرْتُهَا، فَبَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ خَالِدِ بنِ الْوَلِيدِ، فَأَعْتَقَ أَرْبَعَ رِقَابٍ».[3]

---

(١) صحيح مسلم، باب الجهاد. وهذا نص الحديث: (٤٥٠٢) حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بِشْرٍ وَ أَبُو أُسَامَةَ قَالاَ حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ عَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: وُجِدَتِ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةٌ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْمَغَازِي، فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ. (المترجم).

(٢) كتاب الجهاد في باب في دعاء المشركين. وفي أبي داود كرر هذا الباب في كتاب الجهاد والمراد هنا هو الباب الأول.وهذا نص الحديث: (٢٦١٥) ــ حدثنا عُثْمَانُ بنُ أبي شَيْبَةَ أخبرنا يَحْيَى بنُ آدَمَ وَ عُبَيْدُالله بنُ مُوسَى عن حَسَنِ بنِ صَالِحٍ عن خَالِدِ بنِ الْفِزْرِ حدثني أَنَسُ بنُ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «انْطَلِقُوا باسْمِ الله وَبالله وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ الله، وَلا تَقْتُلُوا شَيْخاً فَانِياً وَلاَ طِفْلاً وَلا صَغِيراً وَلا امْرَأَةً، وَلا تَغُلُّوا وَضُمُّوا غَنَائِمَكُم وَأَصْلِحُوا وَأَحْسِنُوا إنَّ الله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»(المترجم).

(٣) أبو داود، جـ٢ صـ١٠ باب قتل الأسير بالنبل. "سيد سليمان الندوى". وهذا نص الحديث: (٢٦٨٨)حدثنا سَعِيدُ بنُ مَنْصُورٍ حدثنا عَبْدُ الله بنُ وَهْبٍ قال أخبرني عَمْرُو بنُ الْحَارِثِ عنْ بُكَيْرِ بنِ الأَشَجِّ عنْ ابنِ تعلي، قال: « غَزَوْنَا مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ خَالِدِ بنِ الْوَلِيدِ فَأُتِيَ بِأَرْبَعَةِ أَعْلاَجٍ مِنَ الْعَدُوِّ فَأَمَرَ بِهِمْ فَقُتِلُوا صَبْراً». قَالَ أَبُو دَاوُدَ: قال لَنَا غَيْرُ سَعِيدٍ عن ابنِ وَهْبٍ في هَذَا الْحَدِيثِ، قال بالنَّبْلِ

لم يكن هناك أي وفاء بالعهود في الحروب. وهذا ما نهجه المشركون مع المسلمين في موقعة معونة وغيرها. أي أنهم أقسموا للمسلمين واصطحبوهم إلى ديارهم ثم قتلوهم فيها. وقد وردت في القرآن الكريم الإشارة إلى هذه الوقائع، فقال تعالى:

" لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلا وَلا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ" (التوبة: ١٠).

أكد رسول الله ﷺ بشدة على أن الميثاق أو العهد الذي يؤخذ، يجب أن يلتزم به في أي حال من الأحوال. وقد وردت في مواضع عديدة من القرآن الكريم تأكيدات وأحكام صريحة بشأنه. وهناك أمثلة حية للوفاء بالعهد في عهد رسول الله ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين. حين هاجر النبي ﷺ إلى المدينة؛ كان هناك صحابة كثيرون اضطروا إلى البقاء في مكة، وكان من بينهم حذيفة بن اليمان ﷺ ووالده أيضاً. وبينما كان حذيفة بن اليمان ﷺ ووالده عائدين من مكان ما أثناء غزوة بدر قبض عليهم المشركون قائلين: أستذهبون إلى المدينة ثم تجابهوننا فيما بعد. فقالا: إننا نبغى الذهاب إلى المدينة فقط. فعاهدهما المشركون على ذلك وتركوهما. وحين وصلا إلى حضرة رسول الله ﷺ في منطقة بدر ووجداه على قتال مع المشركين، تمنى كلاهما المشاركة، لكن رسول الله ﷺ منعهما وقال: لقد تعاهدتهما.

كانت قريش قد أرسلت أبا رافع كرسول إلى رسول الله ﷺ فكان لدخوله إلى حضرة النبوة أثر فى نفسه جعله يعتنق الإسلام، وقال لرسول الله يَارسُولَ الله إنيِّ والله لا أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَبَداً، فقال رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: إِنِّي لا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ وَلا أَحْبِسُ الْبُرُدَ وَلَكِن ارْجِعْ فإِنْ كانَ في نَفْسِكَ الَّذِي في نَفْسِكَ الآنَ فارْجِعْ.[1]

صَبْراً، فَبَلَغَ ذلكَ أبَا أيُّوبَ الأنْصارِيَّ فقالَ: « سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَنْهَى عن قَتْلِ الصَّبْرِ، فوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَتْ دَجَاجَةٌ ما صَبَرْتُهَا، فبَلَغَ ذلكَ عَبْدَ الرَّحْمٰنِ بنَ خَالِدِ بنِ الْوَلِيد، فَأَعْتَقَ أرْبَعَ رِقَابٍ». (المترجم).

(١) أبو داود، جـ٢صـ٢٣(باب في الإمام يستجن به فى العهود) ."سيد سليمان الندوى". وهذا نص الحديث : (٢٧٥٩) حدثنا أَحْمَدُ بنُ صَالِحٍ أخبرنا عَبْدُ الله بنُ وَهْبٍ أخبرَني عَمْرٌو عن بُكَيْرِ بنِ الأشَجِّ عن الْحَسَنِ بنِ عَلِيِّ بنِ أبي رَافِعٍ أنَّ أبَا رَافِعٍ، أخْبَرَهُ قال: « بَعَثَني قُرَيْشٌ إلى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فَلَمَّا رَأيْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم أُلْقِيَ في قَلْبِيَ الإسْلاَمُ فَقُلْتُ: يَارسُولَ الله إنيِّ والله لا أرْجِعُ إلَيْهِمْ أبَداً، فقال رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: إنِّي لا أخِيسُ بالْعَهْدِ وَلا أحْبِسُ الْبُرُدَ ولَكِن ارْجِعْ فإنْ كانَ في نَفْسِكَ الَّذِي في نَفْسِكَ الآنَ فارْجِعْ. قَالَ: فَذَهَبْتُ ثُمَّ أتَيْتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فأسْلَمْتُ. قال بُكَيْرٌ وأخبرني أنَّ أبَا رَافِعٍ كانَ قِبْطِيًّا». قَالَ أبُو دَاوُدَ: هٰذَا كانَ في ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَالْيَوْمَ لا يَصْلُحُ. (المترجم).

وأثناء صلح الحديبية حين قدم أبو جندل ﷺ مكبلاً بالأصفاد وكشف عن آثار التعـذيب على جسده قائلاً : إن قريشاً تقيدني و تعذبني هكذا. فقال رسول الله ﷺ: حسن! لكننا تعاهدنا مع قريش على أنه إذا هرب أي مسلم من مكة وقدم إلينا نرده ثانية إلى قريش. وعليـه بكـى أبـو جندل وخاطب المسلمين جميعاً. فهفا الناس من شدة تعاطفهم وكادوا أن يفقدوا أعصابهم. تـوتر عمر ﷺ وذهب أبو بكر مراراً إلى رسول الله ﷺ. وحدث كل هذا، ولكن قيمة الوفـاء بالعهـد كانت أشد من كل هذه المخاطر. واضطر أبو جندل إلى العودة فى أغلاله.

لم يكن قتل الرسل محرماً قبل الإسلام. فقبل صلح الحديبية كان رسول الله ﷺ قد بعث رسولاً إلى قريش فقتلت ناقة ركوبته وأرادت قتله أيضاً لكن خلصه آخرون.

أمر رسول الله ﷺ ألا يقتل الرسل أبداً. فلما بعث مسيلمه رسولاً وتحـدث بسـوء أدب قال رسول الله ﷺ: " أَمَا وَاللهِ لَوْلاَ أَنَّ الرُّسُلَ لا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُما».(١) ويسرد المؤرخون هذه الواقعة ويكتبون بأنه منذ ذلك اليوم تقرر مبدأ عدم قتل الرسل.

كان العرب يعاملون الأسرى بأسوأ الطرق، وكان هذا هو السائد فى سائر الأمم. فحين أسرت الأمم الأوربية المسلمين خلال الحروب الصليبية كانت تعاملهم كالحيوانات.

وحين مر العلامة ابن جبير بسلى إبان الحروب الصليبية انتابه الألم لما رأى من مثل هذه الأحوال. ولذلك يكتب :

ومن الفجائع التي يعانيها من حلّ بلادهم أسرى المسلمين يرمضون فى القيود ويصرفون فى الخدمة الشاقة والأسيرات المسلمات كذلك فى أسواقهن خلاخل الحديد فتنفطر لهم الأفئدة.(٢)

أكد رسول الله ﷺ ألا ينال أسرى العرب أي نوع من الأذى والضـرر. ولمـا أحـال أسرى بدر إلى صحابته الكرام أكد عليهم بعدم إلحاق أي أذى بهم في الطعام والشراب، ومن ثم كان الصحابة (رضوان الله عليهم) يعيشون على التمر وغيره ويطعمون الأسرى الطعام. وكان

---

(١) وهذا نص الحديث كاملا: (٢٧٦٢) حدثنا مُحمَّدُ بنُ عَمْرِو الرَّازِيُّ أخبرنا سَلَمَةُ ــ يَعني ابنَ الْفَضلِ عن مُحمَّدِ بنِ إسْحَاقَ، قال: «كَانَ مُسَيْلِمَةُ كَتَبَ إلى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، قال: وَقَدْ حدَّثني مُحمَّدُ بنُ إسْحَاقَ عن شَيْخٍ مِنْ أَشْجَعَ يُقَالُ لَهُ سَعْدُ بنُ طَارِقٍ عن سلَمَةَ بنِ نُعَيْمِ بنِ مَسْعُودٍ الأشْجَعِيِّ عن أَبِيهِ نُعَيْمٍ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ لَهُمَا حِينَ قَرَأَ كِتَابَ مُسَيْلِمَةَ: مَا تَقُولاَنِ أَنْتُمَا، قالاَ: نَقُولُ كَمَا قالَ، قالَ: أَمَا وَالله لَوْلاَ أَنَّ الرُّسُلَ لا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا». (المترجم).

(٢) رحلة ابن جبير، طبعة ١٩٠٧م، صـــ٣٠٧.

في غزوة حنين ستة آلاف أسير، حُرروا جميعًا وأهداهم رسول الله ﷺ ستة آلاف رداء (ثياب مصر) ليرتدوها. وقد نص ابن سعد على هذه الواقعة.

وحين أُسرت بنت حاتم الطائي، أسكنها النبيﷺ في زاوية من المسجد بكل إعزاز واحترام وقال: إذا جاء أحد عشيرتك فسآذن لك بالذهاب معه. فبعد عدة أيام هيأ لها عتاد السفر وأمر بتوصيلها إلى اليمن مع أحد الرجال.

يقول الله (سبحانه وتعالى) في وصف العباد الصالحين في القرآن الكريم:

(وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً) (سورة الإنسان: ٨)

كان من العرف أنه حين يهاجم قوم من الأقوام كان أهل الجيش ينتشرون عن بعد في كل الجهات مما كان يتسبب في سد الطريق ويصعب الذهاب والإياب إلى البيوت. كما تُسلب بضائع وأمتعة عابري السبيل. وقد تواترت هذه العادة منذ أمد بعيد. وفي إحدى الغزوات صدر من الناس مثل هذه الأفعال التي تتوافق مع العرف القديم. فأمر رسول الله ﷺ منادياً أن ينادي: من سيفعل ذلك فليس له جهاد. وقد وردت في أبي داود رواية عن (معاذ بن أنس) جاء فيها :

غزوت مع النبي ﷺ غزوة كذا وكذا فضّيق الناس المنازل وقطعوا الطريق فبعث النبي ﷺ منادياً ينادي في الناس أنّ من ضيق منزلاً وقطع طريقاً فلا جهاد له[1]

ورد في أبي داود أن النبي ﷺ حين أمر بألا ينتشر الجيش في كل الجهات، اجتمع المقاتلون في مكان واحد حتى لو نصبت خيمة لكانوا تحتها جميعاً.[2]

إن من أكبر المشاكل آنذاك هو أن الناس جميعاً لديهم شغف وحب كبير للغنائم لدرجة أن الغنائم نفسها هي أكبر أسباب المشاركة في الحرب، لذا كانت هناك حاجة في إصلاح هذا

---

[1] أبو داود، كتاب الجهاد،جـ١، صـ٣٥٤.(باب ما يؤمر بانضمام العسكر)"سيد سليمان الندوى". وهذا نص الحديث: (٢٦٢٩) حدثنا عَمْرُو بنُ عُثْمَانَ الْحِمْصِيُّ وَ يَزِيدُ بنُ قُبَيْسٍ مِنْ أَهْلِ جَبَلَةَ سَاحِلِ حِمْصَ وَهٰذَا لَفْظُ يَزِيدَ قالاَ أخبرنا الْوَلِيدُ بنُ مُسْلِمٍ عن عَبْدِ الله بنِ العَلاَءِ أَنَّهُ سَمِعَ مُسْلِمَ بنَ مِشْكَمٍ أَبَا عُبَيْدِالله يَقُولُ حَدَّثَنا أَبُو ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيُّ، قال: « كَانَ النَّاسُ إِذَا نَزَلُوا مَنْزِلاً قالَ عَمْرٌو وكَانَ النَّاسُ إِذَا نَزَلَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم مَنْزِلاً تَفَرَّقُوا في الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم إنَّ تَفَرُّقَكُمْ فِي هٰذِهِ الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ إِنَّمَا ذٰلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ. فَلَمْ يَنْزِلْ بَعْدَ ذَلِكَ مَنْزِلاً إلاَّ انْضَمَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ حَتَّى يُقَالُ لَوْ بُسِطَ عَلَيْهِمْ ثَوْبٌ لَعَمَّهُمْ». (المترجم).

[2] أبو داود، كتاب الجهاد،باب (ما يؤمر بانضمام العسكر) "سيد سليمان الندوى". وهذا نص الحديث كما ورد في أبي داود، ج٢، ص٣٩.(إن تفرقكم في هذه الشعاب والأودية إنما ذلكم من الشيطان فلم ينزل بعد ذلك منزلاً إلا انضم بعضهم إلى بعض حتى يقال: لو بسط عليهم ثوب لعمهم)(المترجم).

تدريجياً. كانت الغنيمة هي أحب الأشياء في الجاهلية لدى المحارب، ومن العجيب أن بعض المسلمين كان يعتقد لفترة أنها ثواب. ورد في أبى داود « **أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَارَسُولَ اللهِ رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضاً مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا؟ فقال النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: لاَ أَجْرَ لَهُ، فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ وَقَالُوا لِلرَّجُلِ: عُدْ لِرَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فَلَعَلَّكَ لَمْ تُفَهِّمْهُ، فقال يَارَسُولَ الله رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ الله وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضاً مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا؟ قال: لاَ أَجْرَ لَهُ، فَقَالُوا لِلرَّجُلِ عُدْ لِرَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فقالَ لَهُ الثَّالِثَةَ فقال لَهُ لاَ أَجْرَ لَهُ**». " {أبو داود،جـ ١، صـ ٣٤٢، باب فيمن يغزو ويلتمس الدنيا} (سيد سليمان الندوى)[1]

وعليه أرسل المسلمون ثانية للاستفسار عن هذا الأمر من رسول الله، ولكنهم لا يصدقون بأن النبي ﷺ ربما ما أمر بمثل هذا. وفي النهاية حين أجاب النبي ﷺ في المرة الثالثة **لا أجر له** فأمن الناس وصدقوا.

وفي ذات مرة أرسل النبي ﷺ بعض صحابته لمواجهة قبيلة، وخرج صحابي من الصف وتقدم، فجاء أهل القبيلة وهم يبكون فقال لهم: قولوا لا إله إلا الله تنجون بأنفسكم. فاعتنق هؤلاء الناس الإسلام ونجوا بأنفسهم من القتال، وهنا لامه رفاقه (رضوان الله عليهم): إنك حرمتنا من الغنيمة. وورد في أبى داود قول الصحابي هكذا:

فلامني أصحابي وقالوا حرمتنا الغنيمة (أبو داود، باب ما يقوله إذا أصبح، كتاب الأدب)

وحين رجع الصحابة (رضوان الله عليهم) وشكوه إلى الرسول ﷺ، امتدح فعله وقال: ستمنح ثواباً مقابل كل رجل تركته. (أبو داود)

كما ورد لفظ " المتاع الدنيوي " وصفاً للغنيمة في القرآن الكريم، كما ورد ذم الانهماك والافتتان بها. ووقعت الهزيمة في غزوة أحد بسبب أن بعض المسلمين تركوا قتال الكفار وانصرفوا إلى الغنائم، نزلت هذه الآية الكريمة:

---

(١) وهذا نص الحديث: (٢٥١٧) حدثنا أَبُو تَوْبَةَ الرَّبِيعُ بنُ نَافِعٍ عن ابنِ المُبَارَكِ عن ابنِ أَبِي ذِئْبٍ عن الْقَاسِمِ عن بُكَيْرِ بنِ عَبْدِ الله الأَشَجِّ عن ابنِ مِكْرَزٍ ــ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ــ عنْ أبي هُرَيْرَةَ ،: « أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَا رَسُولَ الله رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ في سَبِيلِ الله وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضاً مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا؟ فقال النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: لاَ أَجْرَ لَهُ، فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ وَقَالُوا لِلرَّجُلِ: عُدْ لِرَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فَلَعَلَّكَ لَمْ تُفَهِّمْهُ، فقال يَا رَسُولَ الله رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ في سَبِيلِ الله وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضاً مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا؟ قال: لاَ أَجْرَ لَهُ، فَقَالُوا لِلرَّجُلِ عُدْ لِرَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فقالَ لَهُ الثَّالِثَةَ فقال لَهُ لاَ أَجْرَ لَهُ». (المترجم).

(وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) (آل عمران:١٥٢).

وفى غزوة بدر لما بدأ الناس يسلبون الغنيمة دونما استئذان (أو) كما يقول بعض المفسرين أسروا الناس طمعاً فى الفدية، نزلت هذه الآية:

(مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (لأنفال:٦٧).

ورغم كل هذه النصوص والتأكيدات المتتالية وقعت الهزيمة فى غزوة حنين التي وقعت في سنة ٨هـ، وذلك بسبب أن الناس أقبلوا متهافتين على سلب الغنيمة. وقد ورد فى ذكر غزوة حنين بصحيح البخاري:

فاقبل المسلمون على الغنائم واستقبلونا بالسهام.

وبناءً عليه، كان رسول الله ﷺ يبّين هذه المسألة بنصوص أكثر وضوحاً كلما سنحت الفرصة أو اقتضى المقام ذلك. سأل رجل رسول الله ﷺ. إن رجلاً يقاتل من أجل الغنيمة، وآخر فى سبيل السمعة، وآخر فى سبيل استعراض البطولة فأيهم يجاهد فى سبيل الله. قال رسول الله ﷺ :

من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا.[1]

وفى النهاية أشار رسول الله ﷺ إلى الرجل بأن المجاهد الذى يقبل الغنيمة ينقص ثلثي ثوابه. فينال المجاهد الثواب كاملاً حين لا تمس يده الغنيمة على الإطلاق.[2] فوردت فى صحيح مسلم عبارة رسول الله ﷺ الخاصة حيث قال:**ما من غازية تغزو فى سبيل الله**

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا وصحيح مسلم الإمارة. "سيد سليمان الندوى".

(٢) وورد فى صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا: (٢٧٤٩) حدّثنا سليمانُ بنُ حربٍ حدَّثنا شُعبةُ عن عمرو عن أبي وائلٍ عن أبي موسى رضيَ اللهُ عنه قال: «جاءَ رجُلٌ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: الرجُلُ يُقاتلُ للمَغنم، والرجُلُ يُقاتلُ للذِّكر، والرَّجلُ يقاتِلُ ليُرَى مكانهُ، فمَنْ في سبيلِ الله؟ قال: مَن قاتَلَ لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العُليا فهو في سبيلِ الله». (المترجم).

فيصيبون الغنيمة إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة، ويبقى لهم الثلث، وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم.[١]

كان من أثر هذه التعليمات أن الغنيمة التي كانت أحب الأشياء إلى النفوس، لم تعد ذات قيمة وصار الجهاد مقتصراً على إعلاء كلمة الله ويمكن ملاحظة هذا من الواقعة التالية.

كان هناك صحابي يدعى واثلة بن الأسقع الذى لم يكن لديه أي عتاد إبّان خروج رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك. فنادى فى المدينة: " هل هناك من يعطى رجلاً مطية على أن يشاركه بالتساوي ما سوف تقع عليه يده من غنيمة". فتعهد له أنصاري بركوبته وطعامه. وتيسر له فى هذه الحملة عدة نياق. ولما عاد واثلة ﷺ أخذ النياق كلها وأعطاها للأنصارى وقال: هذه هي النياق التي كنت قد اشترطُت بأن لك فيها نصيب. فقال: " خذها أنت أيضاً، فقال كان لشركتى نية أخرى" (أي المراد أن الشركة لم تكن فى النياق بل كانت فى ثواب الجهاد).[٢]

كان من الشائع أيضاً سلب أموال العدو وممتلكاته في الحرب. وخاصةً حين تنفذ المؤنة ويتعذر الحصول على الطعام والشراب. عندئذ كانوا يعتبرون هذا السلوك مشروعاً على أيه حال. فنهى عنه رسول الله ﷺ بحزم شديد. وأبطل هذه العادة من جذورها وقد وردت رواية فى أبى داود عن أنصارى قال :" خرجنا مع رسول الله ﷺ فأصاب الناس حاجة شديدة وجهد،

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب بيان ثواب من غزا فغنم وأبو داود باب في السرية ."سيد سليمان الندوى".

(٢) أبوداود، كتاب الجهاد، جـ ٢، باب الرجل يكرى دابته على النصف أو السهم. "سيد سليمان الندوى".وهذا نص الحديث : (٢٦٧٧) حدثنا إِسْحَاقُ بنُ إِبْرَاهِيمَ الدِّمَشْقِيُّ أَبُو النَّضْرِ قال حدثنا مُحَمَّدُ بنُ شُعَيْبٍ قال أخبرني أَبُو زُرْعَةَ يَحْيَى بنُ أَبِي عَمْرٍو السَّيْبَانِيُّ عن عَمْرِو بنِ عَبْدِ الله أَنَّهُ حَدَّثَهُ عن وَاثِلَةَ بنِ الأَسْقَعِ، قال: « نَادَى رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم في غَزْوَةِ تَبُوكَ فَخَرَجْتُ إلى أَهْلِي فَأَقْبَلْتُ وَقَدْ خَرَجَ أَوَّلُ صَحَابَةِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فَطَفِقْتُ في المَدِينَةِ أُنَادِي: أَلاَ مَنْ يَحْمِلُ رَجُلاً لَهُ سَهْمُهُ، فَنَادَى شَيْخٌ مِنَ الأَنْصَارِ قال لَنَا سَهْمُهُ عَلَى أَنْ نَحْمِلَهُ عَقَبَةً وَطَعَامُهُ مَعَنَا؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قال: فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ الله تَعَالَى قال: فَخَرَجْتُ مَعَ خَيْرِ صَاحِبٍ حَتَّى أَفَاءَ الله عَلَيْنَا فأَصَابَنِي قَلاَئِصُ، فَسُقْتُهُنَّ حتى اتيته فخرج فقعد على حَقِيبةِ من حقائب أبله ثم قال سُقْهُنَّ مُدْبِرَات، ثُمَّ قالَ سُقْهُنَّ مُقْبِلاَت، فقالَ مَا أَرَى قَلاَئِصَكَ إِلاَّ كِرَاماً قالَ إِنَّمَا هِيَ غَنِيمَتُكَ الَّتِي شَرَطْتُ لَكَ، قالَ خُذْ قَلاَئِصَكَ يابْنَ أَخِي فَغَيْرَ سَهْمِكَ أَرَدْنَا». (المترجم).

وأصابوا غنماً فانتهبوها، فإن قدورنا لتغلى إذ جاء رسول الله ﷺ يمشى على قوسه فأكفأ قدورنا بقوسه، ثم جعل يُرَمّل اللحم بالتراب، ثم قال:" إن النهبة ليست بأحل من الميتة."[١]

صار القتال عبادة

لقد طهر الإسلام الجهاد الذى يبدو فى ظاهره عملاً اضطهادياً إلى الحد الذى جعله أفضل العبادات. تقرر أن المراد من الجهاد تخليص المظلومين من الظلم وعدم السماح ليد القهر والعدوان الغاشمة أن تمتد إلى الضعفاء من الناس, قال تعالى:

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ(٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٤٠)) (الحج:٣٩،٤٠)

إن كل ما كانت تعاني منه البلاد من إثارة الفتنة والفساد وعدم استطاعة أهلها أن ينعموا بحياة آمنة من أجل ذلك كله كان الجهاد لاستئصال الفساد ونشر الأمن والسلام في البلاد. يقول تعالى :

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ). (الأنفال:٣٩).

إن الذين كانوا لا يؤمنون بالله ولا بالثواب والعقاب، كانوا يستحلون كل صنوف الظلم والاضطهاد، ولم يكونوا ليميزوا بين الشرعي وغير الشرعي. فشُرع الجهاد لإخضاعهم وتخليص الناس من شرهم. قال تعالى :

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) (التوبة:٢٩)

إنه لم يُشرع الفتح والاستيلاء على الأرض فى الجهاد من أجل أن يتمتع الفاتح بالجاه والسلطان، وإنما شُرع لتعليم الناس العبادة والرياضة الروحية ومساعدة الفقراء والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. قال تعالى :

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) (الحج:٤١)

---

(١) أبو داود، كتاب الجهاد، جـ٢، باب في النهى إذا كان فى الطعام قلة. "سيد سليمان الندوى"

إن الأموال والثروات التي كانت تتسنى لأي بلد من البلاد عن طريق الفتح، كانت تصير جزءاً خاصاً للفاتح الذى كان يبذلها فى مصارف اللهو والعبث كما كان أمراء البلاط يستفيدون منها كل حسب درجته، أما فى الجهاد فقد تقررت مصارف هذه الثروات كالتالي، قال تعالى:

(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (الأنفال:٤١)[١]

لم يكن الجهاد عبادة فى المضمون فقط بل فى الشكل أيضاً. إذ كان يتم التأكيد على المجاهدين بأن يذكروا الله في أوج الحرب. قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(الأنفال:٤٥)

ومثلما يُكبّر ويُسبح فى القعود والقيام من الصلاة؛ أي **الله أكبر وسبحان ربى الأعلى**، أمر بذلك فى الجهاد أيضاً. يقول جابر ابن عبد الله ﷺ: حين كنا نصعد أي مرتفع من الأرض نقول : **الله أكبر**، وحين كنا نهبط إلى أسفل نقول سبحان الله. ووردت في صحيح البخاري رواية تقول: حين كان يصعد رسول الله ﷺ هضبة فى الجهاد كان يقول الله أكبر ثلاث مرات. وذات مرة كان رسول الله ﷺ خارجًا للجهاد، وكان الصحابة يكبرون ويهللون بقوة. فقال رسول الله ﷺ: يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمّ.[٢] وبنفس الأسلوب نهى رسول الله ﷺ عمر ﷺ ذات مرة من تلاوة القرآن بصوت مرتفع فى الصلاة.

حكمة

وردت في أبى داود رواية عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) أنه في الجهاد حين كان يصعد على مرتفع فكان يكبر، ولما كان يهبط كان يسبح، والصلاة هي الأخرى تقوم على هذه الأركان. فحين ترفع رأسك تقول : **الله أكبر** وحين تسجد تقول : **سبحان الله**، وهناك فارق بسيط فى التعبير عن المعنى فى هذه الرواية. فالصلاة لم تأسس على أصول الجهاد؛ بل إنه قد روعي فى الجهاد طريقة الصلاة.

---

[١] وكل الباقي من مال الغنيمة بعد هذه الأنصبة الخمسة من حق المجاهدين.

[٢] كتاب الجهاد، باب التكبير عند الحرب.(البخاري، ج٢، ص٢٥٧، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير)(المترجم).

لأنه من الطبيعي أن الصلاة قد ظهرت منذ بدء الإسلام فيما بدأ تاريخ الجهاد بعد الهجرة. على أية حال فإن هذه الرواية تثبت قطعياً أنه قد كان بين الصلاة والجهاد أموراً متشابهات، جعلتهم يعتبرون الأصل محاكاة والمحاكاة أصلاً.[1]

موجز القول هو أن تلك الحرب التي كانت مجموعة من شتى صنوف الظلم والجهل والوحشية، قد حولتها تعاليم الإسلام الربانية إلى أن صارت إعلاء لكلمة الله، واستتباباً للأمن، ورفعاً للمفاسد، ونصرة للمظلوم، وتسبيحاً وتهليلاً.

الفارق بين الفاتح والنبي

رغم أن رسول الله ﷺ كان يحمل سيفاً ودرعاً ويرتدى مغفراً في غزواته، إلا أن الفارق بين النبى والقائد الحربي لم يكن ليغيب حتى فى تلك اللحظات، إنما كان يتجلى واضحاً بكل المعايير. ففي ذروة احتدام القتال، وفيما وابل السهام يهطل هطول الأمطار، فيكتسي ميدان القتال كله باللون الأحمر، وتتساقط الأذرع والأرجل وتتطاير أوراق الأشجار. وجيوش الأعداء تتدفق كفيضان عارم. فى ذروة ذلك كله كان رسول الله ﷺ يرفع أكف الضراعة إلى السماء. وبينما يتناجر المقاتلون كان يصلي صلاة الحاجة. فى غزوة بدر قدم على ﷺ ثلاث مرات فى أوج اشتداد المعركة ليتلقى المعونة، وفى كل مرة كان يرى ذلك الجبين المبارك ساجداً. وبينما يمطر الجيشان وابل سهامهم، وأمرُ القتال لم يُحسم بعد. يرفع الفاتح الأعزل حفنة تراب من الأرض ويلقيها فى وجه العدو، فتشق غيوم الجيش وتصفو منها سماء المعركة فجأة.

هجم العدو فى حنين بقوة أجبرت الجيش كله على الفرار. ولم يبق بجانبه ﷺ أحد[2] من اثني عشر رجلاً. وفى مواجهته كان عشرة آلاف من الرماة يُهطلون وابل السهام، ولكن مركز الحق ثبت فى مواضعه وهو يقول بصوت مفعم بالجلال: **أنا النبى لا كذب**

وفى الوقت الذي كان يتقاتل فيه الصفان، وتشهر السيوف من كل جانب، وتقطع الأرجل فتفرش بها الأرض، وتتراءى صور الموت فى كل اتجاه. يتصادف أن يحين وقت الصلاة، فتصطف فجأةً صفوف الصلاة، يؤمها قائد الجيش. وفى الصلاة يرفع الجيش نداءات " الله اكبر" بدلاً من أناشيد الرجز، وتتحول الحماسة والحرارة، والبسالة والفداء، والغيظ والغضب إلى عجز وحاجة، وتضرع وعويل، وخضوع وخشوع. تصلى الصفوف ركعتين ثم تقف فى

---

(1) أبو داود، كتاب الجهاد (باب ما يقول إذا سافر) جـ١، صـ٢٥٧ طبعة المجتبائى. والعبارة الأصلية هي وكان النبي ﷺ وجيوشه **إذا علوا الثنايا كبّروا وإذا هبطوا سبّحوا فوضعت الصلاة على ذلك.**

(2) بضعة من المقربين. "سيد سليمان الندوى".

مواجهة العدو لتستبدل في الصلاة بالمجموعة التي كانت تقاتل، فتؤدي بدورها ركعتين، ثم تنهض لأداء مهامها ليحل محلها المحاربون الآخرون فيتموا صلاتهم أيضاً. لكن هذه التغيرات تتم في الجيش فقط، أما الإمام (رسول ﷺ) فيظل منشغلاً بعبادة ربه من البداية وحتى النهاية.

كان وعظ الناس وإرشادهم، وهداهم ونصحهم، وتزكية نفوسهم وتهذيبها أعمالاً متواصلة لا ينقطع في أي وقت كان. ففي ذروة النصر ولشد ما كان المجاهدون يشعرون بنشوته، وبينما تُباع الغنائم فينال كل منهم آلاف المبالغ يأتي صحابي يفيض وجه بالبشر والسعادة ويقول في لهجة ملؤها البهجة: يا رسول الله ﷺ! لَقَدْ رَبِحْتُ رِبْحاً ما رَبِحَ الْيَوْمَ مِثْلَهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْوَادِي قالَ وَيْحَكَ وَمَا رَبِحْتَ؟ قالَ مَا زِلْتُ أَبِيعُ وَأَبْتَاعُ حَتَّى رَبِحْتُ ثَلاثمائَةِ أُوقِيَّة، فقالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أَنَا أُنَبِّئُكَ بِخَبَرِ رَجُلٍ رَبِحَ. قالَ مَا هُوَ يَارَسُولَ الله؟ قالَ رَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الصَّلاَةِ». [1]

تم الجزء الأول من السيرة النبوية على صاحبها الصلاة والتحية. (شبلي النعماني)

---

[1] أبو داود، كتاب الجهاد، باب التجارة في الغزو. وهذا نص الحديث: (٢٧٨٦) حدثنا الرَّبِيعُ بنُ نَافِعٍ أخبرنا مُعَاوِيَةُ يَعني ابنَ سَلاَّمٍ عنْ زَيْدٍ يَعْنِي ابنَ سَلاَّمٍ أنَّهُ سَمِعَ أبَا سَلاَّمٍ يَقُولُ حدَّثني عُبَيْدُالله بنُ سَلْمَانَ، أنَّ رَجُلاً مِنْ أصْحَابِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم حَدَّثَهُ قالَ: « لَمَّا فَتَحْنَا خَيْبَرَ أخْرَجُوا غَنَائِمَهُمْ مِنَ المَتَاعِ وَالسَّبْيِ فَجَعَلَ النَّاس يَتَبَايَعُونَ غَنَائِمَهُمْ فَجاءَ رَجُلٌ حِينَ صَلَّى رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم، فقَالَ يَارَسُولَ الله لَقَدْ رَبِحْتُ رِبْحاً ما رَبِحَ الْيَوْمَ مِثْلَهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْوَادِي قالَ وَيْحَكَ وَمَا رَبِحْتَ؟ قالَ مَا زِلْتُ أبِيعُ وَأبْتَاعُ حَتَّى رَبِحْتُ ثَلاثمائَةِ أُوقِيَّة، فقالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أَنَا أُنَبِّئُكَ بِخَبَرِ رَجُلٍ رَبِحَ. قالَ مَا هُوَ يَارَسُولَ الله؟ قالَ رَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الصَّلاَةِ». (المترجم)

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديـــم (بقلم المترجم)	**١ - ٢٦**
مقدمة المؤلف (شبلي)	٢٧
مقدمة الطبعة الرابعة لكتاب " سيرة النبي " ﷺ (الجزء الأول)	٢٨
مقدمة الطبعة الثانية	٣١
مقدمة الطبعة الأولى	٣٢
فن السيرة	**٣٤ - ٩٨**
بداية فن السيرة ومؤلفاته	٤١
المغازي	٤٤
بداية التأليف بأمر من الخلافة	٤٥
اهتمام بالغ بالمغازي	٤٧
صحة المصادر	٥٨
نشأة علم الدراية	٦١
تعليـــق	٦٤
نتائج المباحث المذكورة	٨٦
المؤلفات الأوربية	٨٧
القرن السابع والثامن عشر الميلادي	٨٨
أواخر القرن الثامن عشر	٨٩
الأصول والضوابط المشتركة بين المؤلفات الأوروبية	٩٦
منهج تأليف الكتاب	٩٦
أجزاء الكتاب	٩٧
الإسناد والاقتباسات	٩٨
العـــــــرب	**٩٩ - ١١٦**
وجه التسمية	٩٩
جغرافية العرب	٩٩
مصادر التاريخ القديم	١٠٠

الفهرس

الموضوع	الصفحة
قبائل وأقوام العرب	١٠١
اليهود: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة	١٠٣
حكومات العرب القديمة	١٠٣
الحضارة والتمدن	١٠٦
أديان العرب	١٠٩
الاعتقاد في وجود الله	١١١
النصرانية واليهودية والمجوسية	١١٢
الدين الحنيفي	١١٣
هل أصلحت هذه الأديان شيئاً في العرب ؟	١١٥
أولاد إسماعيل	**١١٧ - ١٣٢**
أين استوطن إسماعيل عليه السلام ؟	١١٨
من الذبيح ؟	١٢١
مقام الذبح	١٢٦
ذكرى الذبح	١٢٨
حقيقة القربان (الفداء)	١٣٠
مكة المكرمة	**١٣٣ - ١٤٠**
بناء الكعبة	١٣٦
تضحية إسماعيل	١٣٩
سرد نسب النبي (ﷺ)	**١٤١ - ١٤٧**
سرد النسب	١٤١
نشأة قبيلة قريش	١٤٣

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مولد النبي (ﷺ)	**١٤٨ - ١٦٨**
المولد	١٤٨
تاريخ الميلاد	١٤٨
الرضاعة	١٤٩
إخوانه وأخواته ﷺ في الرضاعة	١٥٢
سفره ﷺ إلى المدينة	١٥٢
كفالة عبد المطلب	١٥٢
كفالة أبو طالب	١٥٣
السفر إلي الشام	١٥٤
المشاركة في حرب الفجار	١٥٦
حلف الفضول	١٥٧
بناء الكعبة	١٥٨
عمله ﷺ بالتجارة	١٥٩
زواج الرسول ﷺ بالسيدة خديجة	١٦١
أحداث متفرقة	١٦٢
أسفاره ﷺ	١٦٢
اجتنابه ﷺ كل ما فيه شرك	١٦٣
لقاؤه ﷺ بالموحدين	١٦٥
أحباؤه ﷺ المقربون	١٦٧
مبعث النبي ﷺ	**١٦٩ - ٢٠٨**
مخالفة قريش وأسبابها	١٧٨
إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما السنة السادسة من البعثة	١٨٣

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تعذيب المسلمين	١٨٨
الهجرة إلى الحبشة (السنة الخامسة من البعثة)	١٩٢
الحصار في شعب أبي طالب في المحرم سنة سبعة من البعثة	١٩٩
وفاة السيدة خديجة وأبى طالب سنة ١٠ من البعثة	٢٠١
عرض الإسلام علي القبائل	٢٠٤
إيذاء النبيّ ﷺ	٢٠٥
المدينة المنورة والأنصار	**٢٠٩ - ٢١٥**
بداية اعتناق الأنصار الإسلام سنة ١٠ من البعثة	٢١١
بيعة العقبة الأولي في السنة الحادية عشر من البعثة النبوية	٢١٣
بيعة العقبة الثانية في السنة الثانية عشر من البعثة النبوية	٢١٣
السنة الأولي من الهجرة	**٢١٦ - ٢٤٠**
الهجرة	٢١٦
بناء المسجد النبوي وحجرات أمهات المؤمنين (أزواج النبي ﷺ)	٢٢٥
بدء الأذان	٢٢٧
المؤاخاة	٢٢٨
الصفة وأهل الصفة	٢٣٢
يهود المدينة والمعاهدة معهم	٢٣٤
أحداث متفرقة	٢٣٦

الفهرس

الموضوع	الصفحة
السرايا قبل غزوة بدر	١٣٨
قبيلة جهينة	٢٣٨
غزوة بدر	٢٤١ - ٢٦٩
بيان غزوة بدر في القرآن	٢٥٤
نظرة ثانية على غزوة بدر	٢٥٥
السبب الرئيسي لغزوة بدر	٢٦٤
أمر جدير بالذكر	٢٦٦
نتائج غزوة بدر	٢٦٧
غزوة السويق في ذي الحجة سنة ٢ هـ	٢٦٨
زواج السيدة فاطمة رضي الله عنها في ذي الحجة سنة ٢ هـ	٢٦٨
أحداث متفرقة سنة ٢ هـ	٢٦٩
السنة الثالثة من الهجرة (غزوة أحد)	٢٧٠ - ٢٨٢
أحداث متفرقة في السنة الثالثة من الهجرة	٢٨٢
السنة الرابعة من الهجرة (سلسلة الغزوات والسرايا)	٢٨٣ - ٢٨٧
سرية أبي سلمة	٢٨٣
سرية ابن أنيس	٢٨٤
بئر معونة	٢٨٤
واقعة الرجيع	٢٨٥
أحداث متفرقة في سنة ٤هـ	٢٨٧
المعاهدات مع اليهود ومحاربتهم في السنة الثانية والثالثة والرابعة من الهجرة	٢٨٨ - ٣٠٠
شوال سنة ٢هـ، غزوة بني قينقاع	٢٩٣
قتل كعب بن الأشرف في ربيع الأول سنة ٣هـ	٢٩٥

الفهرس

الموضوع	الصفحة
غزوة بني النضير ربيع الأول سنة ٤هـ	٢٩٨
السنة الخامسة من الهجرة	**٣٠١ - ٣٢٧**
غزوة المريسيع، وحادثة الإفك، وغزوة الأحزاب	
غزوة المريسيع أو بني المصطلق في شعبان سنة ٥ هـ	٣٠٢
حادثة جويرية رضي الله عنها	٣٠٤
أثر هذا الزواج	٣٠٥
حادثة الإفك	٣٠٦
غزوة الأحزاب ذو القعدة سنة ٥ هـ	٣٠٨
نهاية بنى قريظة	٣١٨
حادثة ريحانة الخاطئة	٣٢٢
الزواج بالسيدة زينب رضى الله عنها	٣٢٤
أحداث متفرقة في سنة ٥ هـ	٣٢٦
سنة ٦ هـ	**٣٢٨ - ٣٣٧**
صلح الحديبية وبيعة الرضوان في ذى القعدة سنة ٦ هـ	
بيعة الرضوان	٣٣٢
دعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام	**٣٣٨ - ٣٤٥**
في أواخر سنة ٦ هـ أو بداية سنة ٧ هـ	
أحداث متفرقة في سنة ٦ هـ	٣٤٤
سنة ٧ هـ (غزوة خيبر)	**٣٤٦ - ٣٦٥**
غزوة ذي قرد المحرم سنة ٧ هـ	٣٤٨
التحقق من واقعة السيدة صفية	٣٥٦

الموضوع	الصفحة
أمــر جــدير بالذكــر	٣٦١
تقسيم الأرض	٣٦٢
حالة الدولة والأحكام الفقهية	٣٦٢
وادي القرى وفدك	٣٦٣
أداء العمرة	٣٦٤
سنة ٨ هـ	**٣٦٦ - ٣٦٨**
غزوة مؤتة جمادى الأولى ٨ هـ	
فتح مكة	**٣٦٩ - ٣٨١**
رمضان سنة ٨هـ / يناير سنة ٦٣٠ م	
خطبة الفتح	٣٧٤
خزائن الكعبة	٣٨٠
فتح مكة وتحطيم الأصنام	٣٨٠
هوازن وثقيف	**٣٨٢ - ٣٩٤**
غزوة حنين وأوطاس والطائف (شوال سنة ٨هـ)	
حنين	٣٨٢
أوطاس	٣٨٩
حصار الطائف	٣٩٠
تقسيم الغنائم	٣٩١
أحداث متفرقة	٣٩٣
سنة ٩ هـ	**٣٩٥ - ٤٠٤**
حادثة الإيلاء والتخيير وغزوة تبوك	
الإيلاء والتخيير سنة ٩هـ	٣٩٥
الروايات الكاذبة	٤٠٣

الفهرس

الموضوع	الصفحة

غزوة تبوك	٤٠٥ - ٤١٠
رجب سنة ٩ هـ الموافق نوفمبر سنة ٦٣٥ مـ	
مسجد ضرار	٤٠٧
حج الإسلام وإعلان البراءة	٤٠٨
أحداث متفرقة	٤١٠
نظرة ثانية على الغزوات	٤١١ - ٤٤١
العرب والحرب والإغارة	٤١٢
عقيدة الثأر	٤١٢
أموال السلب	٤١٤
الأفعال الوحشية	٤١٧
أسباب وأنواع الغزوات النبوية	٤١٩
هيئة الاستطلاع	٤٢٠
الدفاع	٤٢١
سرية غطفان	٤٢١
سرية أبو سلمة سنة ٢هـ	٤٢١
سرية عبد الله بن أنيس بهدف قتل سفيان بن خالد سنة ٣هـ	٤٢١
غزوة ذات الرقاع	٤٢١
غزوة دومة الجندل	٤٢١
غزوة مريسيع سنة ٥هـ	٤٢١
سرية على بن أبى طالب ﷺ إلى فدك سنة ٦هـ	٤٢٢
سرية عمرو بن العاص ذات سلاسل سنة ٨هـ	٤٢٢
التعرض لتجارة قريش	٤٢٢
بعض السرايا قبل صلح الحديبية	٤٢٢
استقرار الأمن	٤٢٣
سرية زيد بن حارثة	٤٢٤

الموضوع	الصفحة
سرية خبط أو سيف البحر	٤٢٥
غزوة غابة	٤٢٦
سبب الهجوم في ساعة الغفلة	٤٢٦
غزوة بنو سليم سنة ٣ هـ	٤٢٧
غزوة ذات الرقاع سنة ٤هـ	٤٢٧
سرية عكاشة ﷺ سنة ٦ هـ	٤٢٧
سرية على بن أبي طالب ﷺ إلى بنى سعد سنة ٦هـ	٤٢٧
غزوة بنو لحيان سنة ٦هـ	٤٢٧
سرية عمر بن الخطاب ﷺ إلى تربة سنة ٧هـ	٤٢٧
سرية كعب بن عمير ﷺ ربيع الأول سنة٨ هـ	٤٢٧
نشر الإسلام	٤٢٨
سرية بئر معونة	٤٢٨
سرية مرثد	٤٢٨
سرية ابن أبي العوجاء	٤٢٨
سرية كعب بن عمير	٤٢٨
الإصلاحات العسكرية	٤٣٠
صار القتال عبادة	٤٣١
حكمة	٤٣٩
الفارق بين الفاتح والنبي	٤٤٠

دائرة معارف فى ســـيرة النـــبي ﷺ

الجزء الثـــاني

تأليــف

العلامة شبلى النعماني

العلامة سيد سليمان الندوي

تــرجمه وقدم له وعلق عليه

د. يــوسف عــامر

قسم اللغة الأردية وآدابها

كلية اللغات والترجمة

جامعة الأزهر

تقديم (المترجم)

فى هذا الجزء كتب المؤلف عن السنوات الثلاث الأخيرة فى حياة النبي ﷺ، ويبدأ بالحديث عن الأمن والأمان الذي عم شبه الجزيرة العربية بمجيء الإسلام، ثم عن قدوم وفود العرب وإعلان إسلامها، كما يكتب عن بقية الأحداث والأمور حتى وفاته ﷺ. ثم عن أخلاقه وشمائله وأولاده وأزواجه ﷺ.

فى هذا الجزء أيضا ترجم المؤلف معاني الأحاديث النبوية إلى اللغة الأردية دون إدراج نص الحديث باللغة العربية، ومن ثم حرصت فى ترجمتي على كتابة نص الحديث كما ورد فى كتب الصحاح، خاصة إذا أورد المؤلف فى المتن جملة "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" حتى يحفظه القارئ أو يطلع عليه كما هو فى نصه العربي. أما إذا أشار إلى معنى الحديث ومضمونه دون ذكر جملة "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" فى النص؛ فاكتفيت بترجمة ما كتبه فى شرح مضمون الحديث، ودونت نصه فى الحاشية، حتى يسهل حفظه بنصه.

يقتبس المؤلف آيات من الذكر الحكيم، ولكن توجد أخطاء فى تخريجها، وهو ما حرصت على تصحيحه فى هذه الترجمة.

هناك أخطاء كثيرة فى أرقام الحواشي فى النص عما ورد فى الحاشية، وهو ما قمت بالبحث عنه فى كتب السيرة والأحاديث ووافقت بين ما ذكر فى الحاشية والنص. أضف إلى هذا أنه أحيانا يذكر رقما فى النص دون حاشية له، وهو ما قمت بتحقيقه حسب المستطاع.

وفى النهاية لابد أن أشير إلى أن أي عمل بشري يعتريه النقص الغير مقصود، لذا أدعو الله تعالى أن يغفر لي أي خطأ أو سهو، وأن ينفع قراء هذا الكتاب، وأن يضيف شيئا فى معرفتهم بالسيرة النبوية، على صاحبها الصلاة والسلام .

ذو القعدة ١٤٢٥هـ / ديسمبر ٢٠٠٤م

المترجم. يوسف السيد عامر

مقدمة الجزء الثاني

نُشر الجزء الأول من كتاب "سيرة النبي ﷺ" سنة ١٣٣٦هـ (١٩١٨م)، والآن يُنشر الجزء الثاني في منتصف سنة ١٣٣٨هـ (١٩٢٠م). يرغب القراء في نشر الأجزاء واحدا تلو الآخر مباشرة، ولكنهم ربما لا يعرفون تلك المشاكل التي أوجدتها الحرب العالمية في كل مجلات الحياة؛ فمع أن الحرب قد انتهت عمليا منذ أكثر من سنة تقريبا، إلا أن السلام لم يبدأ في حقيقة الأمر؛ فبانتهاء هذه الحرب لم تقل مشاكل الحياة وقضاياها. وبعد خوض تجربة الجزء الأول المضنية قررنا طباعة الجزء الثاني في مطبعة المعارف ذاتها، ولكن المشكلة التي واجهتنا هي أنه لم يكن لدينا آلة، وبعد بحث مضني حصلنا عليها، ولكن حين وجدناها، لاقتنا مشكلة قلة الورق؛ فكان من الصعب وجود نوعية الورق الذي استخدمناه في الجزء الأول، كما لم نجد ورق ٢٠٠ جراما في نفس الوقت، وحين زالت هذه المشكلة واجهتنا مشكلة ورق الغلاف، وحاولنا الحصول عليه من مصانع لكناؤ وكلكته وممباي، ولكن دون جدوى. وفي نهاية الأمر استخدمنا ما وجدناه من أوراق حتى طبع هذا الجزء.

يتحدث الجزء الأول (من الكتاب) عن فترة غزوات النبوة، أما الجزء الثاني (الذي بين أيدينا) يتحدث عن تاريخ ثلاث سنين من الحياة الآمنة من حياة النبي ﷺ، فقد تحدثنا في الجزء الأول عن أعماله ﷺ في عشرين سنة من النبوة، وفي هذا الجزء نتحدث عن أحداث الثلاث سنين الأخيرة، ثم نتحدث عن أخلاقه وخصاله ﷺ، وأزواجه أمهات المؤمنين وأولاده ﷺ.

حين حصلت على النسخة المخطوطة (بيد المؤلف) لهذا الجزء بعد وفاة المؤلف رحمه الله (شبلي النعماني)؛ أدركت بأن هناك أبوابًا لا بد من إضافتها وبدونها لا يكتمل هذا الجزء، ولكن لم أجرؤ على إضافة شيء إلى مسودة المؤلف، وفي النهاية بعد حيص بيص قررت أن أكتب هذه الأبواب وأضيفها، وبعد عدة أيام حصلت على مفكرة لمولانا شبلي صدفة، وكان قد دون معظمها وهو في سفينة قبل وفاته بخمسة أشهر، وعنوانها " المفكرة الأخيرة "، وحين قرأتها سررت كل السرور لأن المؤلف رحمه الله كان قد أشار

بها إلى أهمية إضافة تلك الأبواب التي اعتقدت أنا أهمية إضافتها، فاعتبرت أن هذا بمثابة وصية منه، أملتها عليه ملائكة الغيب بيده وقلمه من قبل، حتى تكون سببًا لاطمئناني.

لم يُكمل المؤلف رحمه الله (شبلي) باب أخلاق النبي ﷺ، فكانت هناك أبواب كثيرة في حاجة إلى إضافات، كما كانت هناك عناوين قد بدأها ولم يكملها، لذا كتبت كـل هـذا كتكملة للكتاب، وقمت بإضافة حواش كثيرة مهمة في أماكن متفرقة. وكما ذكرت آنفا في مقدمة الجزء الأول أني قمت بإضافة هذه الإضافات والحواشي بين قوسين ()، حتـى لا تختلط عباراتي أنا المحرر بعبارات المؤلف.

المحرر

سيد سليمان الندوي

بسم الله الرحمن الرحيم

حياة الإسلام الآمنة

سنة ٩ هـ، سنة ١٠ هـ، وسنة ١١هـ

استتباب الأمن ـ نشر الإسلام ـ تأسيس الخلافة ـ إتمام الشريعة

• استتباب الأمن

بعد قراءة الأبواب[١] السابقة، بات من البديهي أن بلاد العرب آنذاك كانت تنعم بكل نجوم الطالع فيما يتعلق بالإمكانيات الطبيعية، بيد أن تلك النجوم لم تكن تابعة لنظام شمسي واحد. وكانت الجزيرة العربية كلها بلدًا واحدًا وأمة واحدة، ولكن في الوقت ذاته لم يذكر التاريخ أبدًا علامة لاتحاد وقومية هذا البلد، ومن الناحية السياسية لم نعم العرب أبدًا باجتماعهم تحت ظل علم ولواء واحد، وكما كانت البيوت منفصلة ومستقلة كانت الآلهة كذلك متعددة، وكان لكل قبيلة أيضاً رئيسها الخاص، فكانت هناك إمارات صغيرة لبني حمير والإذواء وبني قَيْلة في جنوب شبه الجزيرة العربية. أما في شمالها فكانت هناك جماعات مستقلة لبكر، وتغلب، وشيبان، وأزد، وقضاعة، وكنده، ونحم، وجذام، وبني حذيفة، وطيئ، وأسد، وهوازن، وغطفان، والأوس، والخزرج، وثقيف، وقريش، وغيرها، التي كانت تعاني جميعًا من وطأة الحروب الأهلية المستمرة ليل نهار. فبمجرد انتهاء القتال بين بكر وتغلب الذي استمر أربعين سنة، تقاتلت قبيلتي كنده وحضرموت قتالاً عنيفًا حتى أفنتهم الحرب. أما الأوس والخزرج فقد ظلا يتحاربان حتى فقدا زعماءهما واحدًا تلو الأخر. أما في الحرم فقد وقعت سلسلة " حرب الفجار " بين بني قيس وقريش في الأشهر الحرم، وهكذا كانت سائر البلاد ميدانًا للقتال المستمر. أما الجبال والصحاري فكانت مستوطنًا لقبائل المجرمين المستقلة فكانت البلاد دائماً عرضة لمخاطر القتل والسلب والنهب. وكانت القبائل كلها مكبلةً بسلسلةٍ من المعارك المتواصلة، ولم يكن قتل المئات والآلاف من البشر يكفي لإرواء ظمأ الانتقام، والثأر، والقصاص. وكانت التجارة هي مورد الكسب الوحيد للبلاد بعد السلب والنهب، ولكن كان من الصعب جداً مرور قوافل

---

(١) بداية من ص ١ وحتى ص ١٠ هذا ما قمت بإضافته أنا سيد سليمان الندوى.

التجارة من مكان لآخر. كان ملك الحيرة يتمتع بنفوذ وسطوة على شمال بلاد العرب، لذا كانت تصل قوافله التجارية بسهولة إلى أسواق عكاظ. كانت أشهر الحج مقدسة عمليًا عند العرب، ولكن رغم هذا التقديس كانوا أحيانا يزيدون فى المدة وينقصون فيها من أجل إجازة الحرب. كتب أبو علي القالي في كتاب الأمالي :-

ذلك لأنهم كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر لا تمكنهم الإغارة فيها لأن معاشهم كان من الإغارة (ج١ ص ٦)

كان فصل الربيع موسماً لانتعاش الكسب لدى كثير من قبائل المجرمين، فكان يقيم حول مكة قبائل أسلم وغفار وغيرهما من القبائل التي اشتهرت بسرقة أمتعة الحجاج.(١) ورغم أن طيئ كانت من القبائل ذات المكانة المشهورة، إلا أن لصوصها لم يكونوا أقل منها شهرة.(٢) فمنهم سليك بن السلكه وتأبط شراً شاعرا العرب المشهوران، واللذان كان

---

(١) صحيح البخاري، ذكر أسلم وغفار.وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري(٣٤٣٩) حدّثنا محمدُ بن بشارٍ حدَّثنا غُندرٌ حدثنا شُعبةُ عن محمدِ بن أبي يَعقوبَ قال: سمعت عبدَ الرحمنِ بنَ أبي بكرةَ عن أبيه: «أَن الأقرعَ بنَ حابسٍ قال للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: إنما بايعكَ سُرّاقُ الحجيج من أسلمَ وغِفار ومُزَينة ــ وأحسبه وجُهَينةَ، ابن أبي يعقوبَ شك ــ قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: أ رأيتَ إن كان أسلمُ وغِفارُ ومُزَينةَ وأحسبهُ وجُهينة خيراً من بني تميمٍ وبني عامرٍ وأسدٍ وغَطفانَ خابوا وخَسِروا ؟ قال: نعم. قال: والذي نفسي بيدهِ إنهم لأخْيَرُ منهم. (المترجم).

(٢) صحيح البخاري، باب علامات النبوة. وهذا نص الحديث: (٣٥١٧) حدّثني محمدُ بن الحكَم أخبرَنا النَّضرُ أخبرَنا إسرائيلُ أخبرَنا سعدٌ الطائيُّ أخبرَنا مُحلُّ بن خَليفةَ عن عَديِّ بن حاتمٍ قال: «بَينا أنا عندَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم إذا أتاهُ رجُلٌ فشكا إليهِ الفاقَةَ، ثمَّ أتاهُ آخَرُ فشكا إليه قَطعَ السبيل، فقال: يا عَديُّ، هل رأيتَ الحِيرةَ ؟ قلت: لم أرَها، وقد أُنبِئتُ عنها. قال: فإن طالتْ بكَ حَياةٌ لتَرَيَنَّ الظَّعينةَ تَرتحلُ منَ الحِيرةِ حتى تَطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ أحداً إلا اللهَ ــ قلتُ فيما بيني وبينَ نفسي فأين دُعّارُ طَيِّيء الذينَ قد سَعَّروا البلادَ ؟ ــ ولئنْ طالَتْ بكَ حياةٌ لتُفْتَحنَّ كُنوزُ كسرَى،. قلتُ: كِسرَى بن هُرمُزَ ؟ قال: كِسرَى بنِ هُرمُزَ. ولئنْ طالت بكَ حياةٌ لَتَرَيَنَّ الرجلَ يُخرجُ مِلْءَ كفِّه من ذهبٍ أو فضةٍ يَطلُبُ مَن يَقبلهُ منهُ فلا يَجدُ أحداً يَقبلهُ منه. ولَيلقَيَنَّ اللهَ أحدُكم يومَ يَلقاهُ وليسَ بينَهُ وبينهُ ترجمانٌ يُترجمُ لهُ، فيقولَنَّ: ألم أبعَثْ إليكَ رسولاً فيُبلِّغك ؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أُعطِكَ مالاً وأُفْضِلْ عليك ؟ فيقول: بلى. فيَنظرُ عن يَمينه فلا يَرى إلا جهنَّم، وينظرُ عن يَسارِهِ فلا يَرى إلا جهنَّم. قال عَديٌّ: سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: اتَّقُوا النارَ ولو بشِقِّ تمرةٍ، فمن لم يَجِدْ شقَّ تمرةٍ فبكلمةٍ طيِّبةٍ. قال عَديٌّ: فرأيتُ الظعينةَ ترتحلُ منَ الحِيرةِ حتى تطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ إلا اللهَ، وكنتُ فيمن افتتحَ كنوزَ كسرَى

إنتاجيهما الشعري عبارة عن قصائد رائعة في نفخر بمهارتهما في السرقة والاحتيال.

بلغ تفشي الاضطراب والفوضى في البلاد إلى الحد الذي جعل عبد القيس إحدى قبائل البحرين القوية حتى سنة ٥هـ، لم تكن تجرأ على التوجه إلى الحجاز في أي شهر من الشهور عدا الأشهر الحرم،[١] خشية بطش القبائل المصرية، وبعد فتح مكة أيضاً لما بدأ الاستقرار يسود البلاد، كان السفر من مكة إلى المدينة محفوفاً بالمخاطر، فكان ما يزال هناك من يسلبون الناس أشيائهم.[٢] وبعد الهجرة بخمس أو ست سنوات كانت قوافل الشام التجارية تُسلب وتُنهب في وضح النهار.[٣]حتى بلغ الأمر إلى أن عمليات السطو

بن هُرمُزَ، ولئنْ طالت بكم حياةٌ لَتَرَوُنَّ ما قال النبيُّ أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: يُخرجُ مِلءَ كفه.(المترجم).

[١] صحيح البخاري، كتاب الإيمان. (١٣٨٠) حدثنا حَجّاجٌ حدثَنا حَمّادُ بنُ زيدٍ حدثَنا أبو جَمْرة قال: سَمِعْتُ ابنَ عبّاسٍ رضيَ اللّهُ عنهما يقول: «قَدِمَ وَفدُ عبدِ القَيسِ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسولَ اللّه، إنّا هذا الحيَّ مِن ربيعةَ، قد حالتْ بيننا وبينَكَ كفّارُ مُضَرَ، ولسنا نَخلُصُ إليكَ إلاّ في الشهرِ الحرامِ، فمرْنا بشيءٍ نأخذُهُ عنكَ ونَدْعو إليهِ مَن وراءَنا. قال: آمُرُكم بأربعٍ، وأنهاكم عن أربعٍ الإيمَانِ باللّهِ وشَهادَةِ أنْ لا إلهَ إلاّ اللّهُ ــ وعقدَ بيدِهِ هكذا ــ وإقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، وأن تُؤدُّوا خُمُسَ ما غنِمتم. وأنهاكم عن الدبّاءِ والحَنْتَمِ والنّقِيرِ والمُزَفَّتِ. (المترجم).

[٢] أبو داود، كتاب الأدب، باب الحذر. وهذا نص الحديث: (٤٨٥٧) حدثنا مُحَمَّدُ بنُ يَحْيَى بن فَارِسٍ أخبرنا نُوحُ بنُ يَزِيدَ بن سَيَّارٍ المُؤدِّبُ أخبرنا إبْرَاهِيمُ بنُ سَعْدٍ قال حَدَّثَنِيهِ ابنُ إسْحَاقَ عن عِيسَى ابنِ مَعْمَرٍ عن عَبْدِ الله بنِ عَمْرِو بنِ الْفَغوَاءِ الْخُزَاعِيِّ عن أبيه، قالَ: « دَعَانِي رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وقَدْ أرَادَ أنْ يَبْعَثَنِي بِمَالٍ إلَى أبِي سُفْيَانَ يَقْسِمُهُ في قُرَيْشٍ بِمكَّةَ بَعْدَ الْفَتْحِ فقَال: الْتَمِسْ صَاحِباً. قالَ: فَجَاءَنِي عَمْرُو بنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ فقَال: بَلَغَنِي أنَّكَ تُرِيدُ الْخُرُوجَ وتَلْتَمِسُ صَاحِباً. قال قُلْتُ: أجَلْ. قال: فأَنالَكَ صاحبٌ وقال فَجِئْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قُلْتُ: قَدْ وَجَدْتُ صَاحِباً. قالَ فقَالَ: مَنْ؟ قُلْتُ: عَمْرَو بنَ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيَّ. قال: إذَا هَبَطْتَ بِلاَدَ قَوْمِهِ فاحْذَرْهُ فإنَّهُ قدْ قَالَ الْقَائِلُ: أخُوكَ الْبَكْرِيُّ ولا تَأْمَنْهُ. فَخَرَجْنَا حَتَّى إذَا كُنْتُ بالأبْوَاءِ قال: إنِّي أُرِيدُ حَاجَةً إلَى قَوْمِي بوَدَّانَ فَتَلَبَّثْ لي؟ قُلْتُ رَاشِداً. فَلمَّا وَلَّى ذَكَرْتُ قَوْلَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فَشَدَدْتُ عَلَى بَعِيرِي حَتَّى خَرَجْتُ أُوضِعَهُ حَتَّى إذَا كُنْتُ بالأصَافِرِ إذَا هُوَ يُعَارِضُنِي في رَهْطٍ. قال: وَأوْضَعْتُ فَسَبَقْتُهُ، فَلمَّا رَآني أنْ قَدْ فُتُّهُ انْصَرَفُوا وَجَاءَنِي فقَالَ: كانتْ لِي إلَى قَوْمِي حَاجةٌ. قال قُلْتُ: أجَلْ. وَمَضَيْنَا حَتَّى قَدِمْنَا مَكَّةَ فَدَفَعْتُ الْمَالَ إلَى أبِي سُفْيَانَ. (المترجم).

[٣] طبقات (الطبقات الكبرى) ابن سعد، جزء المغازي ص ٦٣،٦٤،٦٥.

وقطع الطريق كانت تتم أحياناً في مراعي دار الإسلام ذاتها.[1] ولقد كان الناس يتعجبون، عندما كان يبشرهم الرسول صلوات الله عليه بما سيعم البلاد من أمنٍ واستقرار، وأنه سيأتي زمانٌ تسافر فيه المرأة من الحيرة، وحيدة في محملها ولا تخشى إلا الله[2] (سبحانه وتعالى). وفي سنة ٩ هـ جاء إلى الرسول ﷺ رجل يشكو: لقد سلب قطاع الطرق أمتعتي. فأخبره ﷺ بأنه قريباً سيأتي زمنٌ تسافر فيه القافلة إلى مكة دون حارس.[3] وهكذا لم يكن الأمن والاستقرار ميسراً للناس في هذا البلد المترامي الأطراف سوى في أرض الحرم فقط، لذا ذكر الله (سبحانه وتعالى) أعظم ما أنعم به على أهل مكة في الآيتين الكريمتين :

"فليعبدوا رب هذا البيت ۞ الذي أطعمهم من جوعٍ وءامنهم من خوف" (قريش :٣-٤)
"أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويُتخطف الناسُ من حولهم" (العنكبوت :٦٧)

ماذا كان حال الإسلام نفسه ؟ ظل محمد ﷺ يعرض نفسه على جميع القبائل طيلة ثلاث سنين متتالية بعد عام الحزن أملاً منهم أن يعطوه الأمان ويتيحوا له تبليغ صوت الحق إلى الناس، لكنه ﷺ لم يجد من يناصره، ولم يكن المسلمون جميعاً يستطيعون التنفس في فضاء شبه الجزيرة العربية، لذا هاجروا إلي صحارى إفريقيا والحبشة بحثاً عن الأمن والاستقرار، أما من بقى منهم في شبه الجزيرة العربية فكان هدفاً لكافة أنواع الظلم والاضطهاد. وقد ذكر القرآن الكريم حال المسلمين هذا في قوله تعالى:-

"واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس" (الأنفال:٢٦)

نتج عن سوء الأمن والفوضى الداخلية هذا أنه لم يكن بمقدور أية حركة أن تقوم لها قائمة في البلاد دون إستراتيجية عسكرية للدفاع عن نفسها، ولقد كانت المهمة الأساسية لدى محمد ﷺ هي الدعوة إلى الإسلام، التي لم تكن بحاجة إلى سيف و خنجر أو إلى جيش وعسكر، ولكن كانت هذه الوسائل كلها ضرورية لمواجهة العدو من ناحية ولما كانت تتعرض له أرواح دعاة الإسلام من مخاطر ومهالك في شتى البقاع من ناحية

---

[1] انظر غزوة سويق وغزوة غابة.

[2] صحيح البخاري، باب علامات النبوة. وهذا هو النص كما ورد في الحديث: " فإن طالتْ بكَ حَياةٌ لتَرَيَنَّ الظَّعينةَ تَرتحِلُ منَ الحيرةِ حتى تَطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ أحداً إلا الله." (المترجم).

[3] البخاري، ص ١٩٠.

أخرى. كما كانت قوافل التجارة، التي يرتكز عليها اقتصاد البلاد غير آمنة، وقد سبق الحديث عن هذه الأحداث في أسباب غزوات النبي ﷺ.

المخاطر الخارجية

على أي حال، كانت هذه هي الحالة الداخلية للبلاد. أما المخاطر الخارجية فلم تكن أقل منها سوءاً، فكانت كل الأقاليم الخصيبة والخضراء في قبضة القوتين العظيمتين آنذاك الروم والفرس إذ كانوا يسيطرون على اليمن الإيرانية وعمان والبحرين منذ ستين سنة تقريباً، فيما كان يحكمها زعماء العرب صورياً تحت سيادتهما. هذا وكانت جحافل الإيرانيين قد بدأت الزحف إلى داخل البلاد بعد إسقاطها لدولة المناذرة على حدود العراق. كذلك كانوا يعتبرون الحركة الإسلامية التي كانت تنتشر في الحجاز ضمن حدودهم أيضا، ومن ثم أرسل شاه إيران سنة ٦هـ مرسوماً ملكياً للحاكم الإيراني على اليمن جاء فيه "اقبض على عبدي الذي يدعي النبوة في الحجاز وأرسله إلي".

أما الروم فكانت قد استولت على حدود الشام وخضع لها بني غسان وصغار زعماء العرب الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية من قبل. وبعد سنة ٨هـ كانت الروم تتأهب لغزو المدينة بدعم من هؤلاء الزعماء العرب المسيحيين، الأمر الذي تجلى في غزوتي تبوك ومؤتة وغيرهما.

قوة اليهود

كانت الروم قد سلبت من اليهود حكومتهم الصورية على الشام وفلسطين في القرن الثاني الميلادي فاضطروا إلى التقهقر من حدود الشام إلى داخل الحجاز، وشيدوا حصوناً تمتد من المدينة إلى الشام، واتخذوها تحصينات عسكرية ومستودعات تجارية أيضاً وكانت قريظة، وقينقاع[١]، وخيبر، وفدك، وتيماوادى[٢] القرى وغيرها كبرى ثكناتهم العسكرية. وقد أشار القرآن الكريم في الآيتين التاليتين إلى قلاع اليهود هذه:

"لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قُرى محصنة أومن وراء جدر" (الحشر:١٤).

"وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم" (الأحزاب:٢٦).

مثلما كان ثراء تجارتهم سبباً جعلهم أخطر عنصر سياسي للبلاد في إسبانيا وأوروبا في العصور القديمة، كان هذا هو حالهم أيضاً في بلاد العرب. فبفضل قراهم

---

(١) للمزيد ارجع إلى معجم البلدان لـ ياقوت الحموي، ففيه تفصيل عن هذه المناطق.

(٢) انظر أحوالها في كتب المغازي والسير، وفي البخاري، باب قتل كعب بن الأشرف ورافع بن خديج.

المحصنة لم يألوا بالاً لقوة الإسلام، ومن ثم اضطر محمد ﷺ أن يغزوهم عدة مرات بسبب عنادهم ومكائدهم. وحين انتصر المسلمون في غزوة بدر كانوا يقولون بافتخار:"ماذا يعرف مساكين قريش بمكة عن القتال؟ فلو يواجه المسلمون حصوننا فسيعرفون ما الحرب".

موجز القول أن بلاد العرب كانت تعاني من شتى أنواع المخاطر الخارجية منها والداخلية بدرجة فشلت الوسائل الإنسانية المتاحة في معالجتها. فكانت يد الله المستترة كامنةً في يد محمد ﷺ: **وما رَميت إذ رَميت ولكن الله رمى.** ونتج عن الإصلاحات المتواصلة والجهود المستمرة لمدة ثمان سنوات بعد الهجرة أن تحول المستحيل إلى ممكن بل إلى واقع؛ فقد كان سر الضعف السياسي في بلاد العرب هو الخصومة والتنازع فيما بينهم، وكان السبب الوحيد لهذه الفُرقة والحرب الأهلية هو أن العرب جميعاً كانوا منقسمين إلى قبائل وأنساب وعروق، ولم يكن هناك رابطٌ قويٌ يجمعهم ويوحدهم. فجاء رسول الله ﷺ برباط وقرابة الإسلام لتوحيد صفوف العرب جميعاً. يقول الله تعالى: " **إنما المؤمنون أخوة** "(**الحجرات: ١٠**) وفجأة، مزقت هذه القرابة الروحانية نسيج الدم والقرابة والنسل، وصارت كلمة "**لا اله إلا الله محمد رسول الله** "وحدها هي التي تحرك روح وحدة بلاد العرب كلها ولقد وصف جل شأنه هذه الوحدة في القرآن الكريم بنعمته الخاصة على العرب:-

واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألَّفَ بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً (آل عمران: ١٠٣)

ولقد قال سبحانه وتعالى مخاطباً رسوله الكريم محمد ﷺ: يا محمد! لم يكن هذا عملك. فقد قامت به يد الله تعالى مقلب القلوب:-

هو الذي أيَدَك بنصره وبالمؤمنين وألّف بين قلوبكم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألَّفَ بينهم إنه عزيز حكيم (الأنفال: ٦١، ٦٢)

بعد الهجرة آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار فكانت هذه هي الحلقة الأولى فيَ تلك السلسلة، أما الحلقة الأخيرة فكانت تلك الخطبة التي ألقاها النبى ﷺ بعد فتح مكة؛ وأكد القرآن الكريم في كثير من آياته أن الفتنة والفساد في الأرض أبشع الجرائم الإنسانية، كما حدد عقوبات رادعة لمرتكبيها؛ فكانت عقوبة قطع اليد للسارق، وعقوبات النفي وقطع اليد والصلب والقتل لقطع الطريق. وللقضاء على سفك الدماء نزل قانون

القصاص في سورة المائدة، وأرسل الرسول ﷺ قواته عدة مرات لتدعيم استتباب الأمن في البلاد عملياً وشن غارات على قبائل المجرمين.[1] أما القبائل التي كانت تمتهن السرقة في الحجاز فقد تابت وأسلمت،[2] وتم تشريع قوانين للفصل في القضايا الجنائية والمدنية كما تم تعيين عمالاً في كل مكان.

ولكن كان هذا كله بمثابة قيد لطبيعة البشر الظاهرية، فمهمة النبي أسمى من أن تكون مجموعة الواجبات التي يقوم بها مُشَرِّع ومخطط عام؛ فإن ما قام به قانون العقوبات الإسلامي، قد سبقه الأثر الروحي للقرآن الكريم وفيض إرشاد خاتم النبيين ﷺ اللذان استأصلا كل دوافع الاتهام بالجرائم. فالقانون ورهبة العقاب يمكنهما أن يحدا من الجرائم في الأسواق وأماكن التجمعات العامة فقط، لكن فيض أثر الدعوة الإسلامية قد جعل القلوب ممتثلة أمام الله البصير العليم؛ فعم الأمن والأمان البلاد. وهذا عدى بن حاتم شهد أنه رأى بأم عينه الناس وهم يسافرون فرادى من صنعاء إلى الحجاز ولا يساورهم الخوف في الطريق إلا من الله،[3] كما تنبأ الرسول ﷺ. وهاهو المؤرخ الأوربي مارجوليوث، الذي قلما اهتز قلمه لمدح رسول الإسلام ﷺ، معترفاً بهذه الحقيقة قائلاً :-

"حين توفى محمد ﷺ ما كان عمله السياسي قد اكتمل؛ فقد أسس دولةً لها عاصمتها السياسية والدينية. ووحد قبائل العرب المشتتة في أمة واحدة، ومنح العرب ديناً واحداً، وخلق بينهم رابطة أشد قوة من روابط القرابة والدم" [4].

لقد أوجد الله سبحانه وتعالى أسباباً عجيبة للقضاء على المخاطر الخارجية، فحين أراد اليهود أن يقضوا على الإسلام بإثارة قريش ومنافقي المدينة، كانت النتيجة أن أبيدوا هم أنفسهم؛ إذ وقعت غزوات متتالية من سنة ٣ هـ إلى سنة ٧ هـ حتى قُضى على قوتهم السياسية في فتح خيبر، وأخذ الروم ومسيحو العرب في حدود الشام على عاتقهم

---

(١) الق نظرة أخرى على غزوات الرسول ﷺ .

(٢) صحيح البخاري، ذكر غفار وأسلم. وهذا نص الحديث: (٣٤٣٦) حدّثني محمدُ بن غرَيرٍ الزُّهريُّ حدَّثنا يَعقوبُ بن إبراهيمَ عن أبيهِ عن صالحٍ حدَّثنا نافعٌ أنَّ عبدَ الله أخبرَهُ: أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال على المنبر: «غِفارُ غَفرَ اللهُ لها وأسلَمُ سالَمها اللهُ، وعُصَيَّةُ عصَتِ اللهَ ورسولَه. (المترجم).

(٣) صحيح البخاري. يقول عدى: فرأيتُ الظعينة ترتحلُ منَ الحيرةِ حتى تطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ إلا اللهَ. (المترجم).

(٤) حياة محمد لـ مارجوليوث، ص ٤٧١.

مسئولية استئصال الإسلام. وكان الغساسنة أقوى زعماء العرب المسيحيين أداة طيعة في يد الروم إذ كانت تحت إمرتهم بهرار، ووائل، وبكر، ونحم، وجذام، وعاملة وغيرها من القبائل العربية، إضافة إلى أنهم كانوا يتزعمون دومة الجندل، وآيلة، وجربا، وأذرح، وقبالة، وجرش وغيرها من صغار الزعماء المسيحيين واليهود. وفيما سبق ذكرنا كيف بدأ هجوم الغساسنة، كان حارث بن عميرة ﷺ قد ذهب إلى بلاط عامل بُصْرَى يحمل إليه رسالة الدعوة إلى الإسلام فقتله الغساسنة في الطريق. فأرسل محمد ﷺ كتيبةً من المسلمين قوامها ثلاثة آلاف مقاتل للثأر من الغادرين وتأديبهم. فخرج جيش جرار من الغساسنة قوامه مائة ألف مقاتل إلى الميدان وكان هناك نبـأ بأن الروم قد خرجوا أيضا فى جيش بهذا العدد هم الآخرون ونزلوا فى مآب على مقربة من مؤتة، ومع ذلك لم ينزعج المسلمون على قله عددهم من هذه الجموع الغفيرة انسحبوا بالجيش بمهارة من ميدان المعركة بعد أن استشهد عدد منهم. وتسمى هذه الغزوة " غزوة مؤتة ".

ثم وقعت غزوة تبوك فى سنة ٩هـ فقد كانت تأتى الأخبار دوماً بأن الروم تعد جيشاً جراراً من مسيحيي العرب للهجوم على المسلمين، وقد أعطت راتب عام كامل للجيش مقدماً، كما جاء نبأ بأن الغساسنة يبذلون قصارى جهدهم فى تجهيز الجيش وينعلون الخيل. ومن ثم خرج النبى ﷺ فى ثلاثين ألفاً من الصحابة رضوان الله عليهم وطفقوا ينتظرون قدوم العدو قرابة عشرون يوماً، ولكن لم يأت أحد، ونتج عن هذا الزحف الإسلامي أن كثيراً من الزعماء فضلاً عن الغساسنة قد تركوا الرومان وأخذوا يناصرون الإسلام.(١) وفى سنة ١١هـ أرسل محمد ﷺ إبان مرض موته، الجيش لمجابهة الروم بقيادة أسامة بن زيد؛ ولكن هذه المهمة نفذت في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

كانت دولة الفرس قد بلغت منتهاها؛ فبمجرد وصول دعاة الإسلام سنة ١٠هـ إلى اليمن، وعمان، والبحرين تفككت دولتها دون مواجهة أو قتال.

موجز القول هو أن الأمن قد استتب في البلاد كليا بفضل الجهود المتواصلة، والتي استمرت حوالي تسع أو عشر سنوات، وبفضل العناية الإلهية، وتحطم سحر مؤامرات قريش واليهود، كما قضى على الحروب الأهلية بين القبائل، واهتدى قطاع

---

(١) وقد مر الحديث عن هذا كله تفصيلا في غزوتي مؤتة وتبوك.

الطريق واللصوص، وتم القضاء على المخاطر الخارجية؛ وأصبح الحال عندئذ مهيأً للاهتمام بالغاية المنشودة حسب الأمر الإلهي.

نشر الإسلام

كانت المهمة الجوهرية لمحمد ﷺ هي نشر الدعوة الإسلامية في كافة أرجاء العالم، ليس نشرها فحسب، بل السعي إلي دفع الناس جميعاً بكافة الوسائل المشروعة إلى اعتناق الإسلام، ومن ثم لم يكن النبي ﷺ بحاجة إلى سيف وخنجر أو جيش وعسكر لتحقيق ذلك بل كان يكفيه أن يصل نداء الحق إلى كل بقعة من بقاع الدنيا، ولكن أعداء الإسلام وقفوا حائلاً دون ذلك قرابة ثلاثة عشر سنة في مكة. كانت سائر قبائل العرب تتوافد من أقاصي البلاد في موسم الحج. وكان صلوات الله وسلامه عليه يذهب إلى كل منها على حدة بغية أن يتيحوا له تبليغ رسالته التي تعيقه قريش عن تبليغها، ولكن بسبب نفوذ ومناهضة قريش لم يجد له نصيراً واحداً من بين تلك الآلاف من الناس، ومع ذلك كان الحق ينتصر لنفسه ويصل إلي القلوب فينيرها وما حولها. كان الإسلام بحاجة إلي الدعاية والإعلان فقط، وهذا ما قام به أعداء الإسلام أنفسهم، ففي موسم الحج كان زعماء قريش ينصبون خيامهم في الطريق العام حيث يزورهم الوافدون، وكان قد انتشر أمر البعثة النبوية، فكانوا يستفسرون عن حقيقة هذه البعثة، وإن لم يفعلوا هم بأنفسهم، فكانت قريش تقول لهم: ولد في مدينتنا رجل صابئ يسيء إلى آلهتنا، وبلغ به التطاول إلي سب اللات والعزى.

يُطلق على سيئ العقيدة في اللغة العربية "صابئ"، لذا لقبت قريش محمدا ﷺ بهذا اللقب، لأن بعض الفرائض الإسلامية كهيئة الصلاة مثلاً كانت تتشابه مع طقوس الصابئين، ومن ثم اشتُهر محمد ﷺ بهذا اللقب في سائر بلاد العرب.[1] وورد في صحيح البخاري، كتاب المغازي رواية عن صحابي وهي: حين كنت صغيراً كنت من المترددين

---

[1] صحيح البخاري، كتاب التيمم.وهذا نص الحديث:(... ثمَّ سارَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فاشتكى إليه الناسُ من العَطَش، فنزَلَ فدعا فُلاناً ــ كان يسمِّيه أبو رجاءٍ نَسيَهُ عَوفٌ ــ ودَعا علياً. فقـال: اذْهَبـا فابتَغيا الماء، فانطلقا فتلقَّيا امرأةً بين مَزادَتَين ــ أو سَطيحتَين ــ من ماءٍ علَى بَعيرٍ لها فقالا لها: أيـنَ الماءُ؟ قالتْ: عَهدِي بالماءِ أمسِ هذهِ الساعةَ، ونَفَرُنا خُلُوفٌ. قالا لها: انطَلِقي إذاً. قالت: إلى أينَ؟ قالا: إلى رسولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم. قالتِ الذي يُقالُ له الصابئ؟ قالا: هو الذي تَعْنينَ، فـانْطَلِقي... الحديث). (المترجم).

على مكة؛ فكنت أسمع أنه قد ولد بها رجلٌ يدعي النبوة.[1] وحين اشتهر اسم محمد ﷺ في البلاد شهرة كبيرة، بالرغم من أثره السيئ على الناس، لم يقبل عليه ﷺ أي أحد؛ إلا أنه لم يخل هذا البلد المترامي الأطراف من أناس يرغبون في معرفة حقيقة الأمر، فكان قد ظهر في العرب أناس يكرهون عبادة الأصنام ويتحسسون الحق. وتسامى بعضهم إلى أن صاروا حنفاء، وقد سبق الحديث عنهم في بداية الكتاب. أورد حافظ ابن حجر في "الإصابة" عدة أسماء من الصحابة الذين وفدوا من اليمن وغيرها من أقاصي البلاد على رسول الله ﷺ في مكة ليستكشفوا أمره وعادوا إلى بلادهم بعد ما أسلموا سراً.[2] فقد بدأ انتشار الإسلام بين قبيلتي أبي موسى الأشعري اليمني (وطفيل بن عمرو الدوسي اليمني) إبان إقامته ﷺ في مكة.

إسلام طفيل بن عمرو

كان طفيل بن عمرو الدوسي شاعراً عربياً مشهوراً، ولأن الشعراء كانوا ذوي شأن كبير عند العرب؛ أي كانت القبيلة تمتثل لأوامره؛ حاولت قريش بشتى الصور أن تحول دون وصوله إلى حضرة النبي ﷺ، ولكن تصادف لطفيل ذات مرة أن سمع محمد ﷺ يتلو القرآن الكريم فأسلم على الفور،[3] وبإسلامه هذا بدأ الإسلام ينتشر بين قبيلة دوس[4] آنذاك. وحين لم تقبل القبيلة كلها دعوة طفيل، يأس وجاء إلى الرسول ﷺ وقال: يا نبي الله، إن دوساً قد هلكت عصيت وأبت، فادع الله عليهم؛ فرفع ﷺ يديه ودعا: اللهمَّ اهدِ دَوساً وأْتِ بهم، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم، وبعدها أسلمت القبيلة كلها.[5]

إسلام عمرو بن عنبسة

كان عمرو بن عنبسة السلمي ممن سمعوا على ألسنة الناس أنه قد ولد رجل في مكة يتحدث عن أمور شتى؛ فوفد إلى مكة بلهفة، وكان رسول الله ﷺ يستتر آنذاك تجنباً لأذى قريش. واستطاع عمرو بن عنبسة ﷺ الوصول إلى النبي ﷺ وقال: من أنت؟ فقال عليه الصلاة والسلام: "أنا نبي" قال: وما نبي ؟ " فقال الرسول الكريم ﷺ :"أرسلني الله" ثم

---

(1) كتاب المغازي صـــ٦١٥.

(2) أضفت من هنا حتى قصة أبو ذر ﷺ

(3) الزرقاني.

(4) صحيح مسلم، يُفهم هذا من سياق الحديث في كتاب الإيمان.

(5) صحيح البخاري، قصة دوس.

سأل :"وبأي شيء أرسلك" فرد عليه ﷺ: أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يُشرك به شيء. سأل عمرو: فمن معك على هذا؟ قال ﷺ: رجل حر (أبو بكر رضي الله عنه) وعبد (بلال رضي الله عنه) فقال عمرو: وإني متبعك فقال ﷺ :إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني، فأقفل عمرو عائداً حيث أتى، ولما سمع عن انتصاره ﷺ بعد الهجرة امتثل بين حضرته الشريفة[1].

إسلام ضماد بن ثعلبه

كان ضماد بن ثعلبه رضي الله عنه زعيماً لقبيلة أزدشنوه، وصديقاً للنبي الكريم ﷺ قبل البعثة. سمع حين وفد إلى مكة أن محمداً ﷺ قد أصابه الجنون ولأنه كان يجيد الرقية، ذهب إلى المصطفى ﷺ وقال: دعني أعالجك، فقال عليه الصلاة والسلام: **الحمد لله نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل، ومن يضلله فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.** فأثرت هذه الكلمات أثراً قوياً في ضماد، فطلب من الرسول ﷺ أن يكررها فكررها ﷺ وفى الثالثة أقرأها ﷺ لضماد، فأعجب بما سمع إعجاباً شديداً وقال: سمعت قول الكهنة (المنجمين) وتعاويذ السحرة وقصائد الشعراء، ولكنني ما سمعت قط كلاماً مثل هذا، ولو كان في قاع البحر لغصت إليه حتى آتي به، مد إلى يدك، فإني أبايعك على الإسلام، فبايعه الرسول ﷺ.

إسلام قبيلة أزد

ثم قال: بايعني أيضاً بالأصالة عن قبيلتي. ومن ثم أخذ البيعة من قبيلته كلها، وأسلمت على يديه. وذات مرة حين مر جيش المسلمين في إحدى الغزوات على قبيلة أزد سأل القائد: هل أخذ أحد أي شيء من هذه القبيلة. فقال جندي: لقد أخذت إبريقاً، فأمره القائد بإعادته حيث كان.

إسلام أبي ذر رضي الله عنه

إن قصة إسلام أبي ذر جديرة بالذكر هنا على وجه الخصوص.

حين ذاع هذا الخبر بين قبيلة غفار التي كانت تقيم على طريق التجارة إلى الشام قال أبو ذر– للذي كره ونفر معه من عبادة الأوثان وانشغل بالبحث عن الحقيقة –

(١) صحيح مسلم، باب الأوقات التي نُهي عن الصلاة فيها. (ج٦).(المترجم).

لأخيه(أنيس): اذهب إلى مكة واطلع على تعاليم الرجل الذي يدعي النبوة هناك ! فذهب أنيس إلى مكة وعاد منها يقول: إنه يدعو إلى مكارم الأخلاق، وكلامه-ليس بشعر، فلم يكتف أبو ذر بهذه الإجابة الموجزة، وذهب بنفسه، يحمل بعض الطعام وفي سقايته بعض الماء زاداً لسفره، ولما وفد على مكة خشي أن يسأل أحداً عن اسم رسول الله ﷺ والتقى بعلي في الحرم، فاستضافه ولكنه لم يجرؤ أن يسأله عن شيء طيلة ثلاثة أيام. وفي النهاية سأله علي بنفسه: "ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ "فأخبره في توجس بعد أن قطع عليه عهداً بالا يُفشي سره لأحد، واصطحبه علي ﷺ إلى رسول الله ﷺ، وعلمه النبي الكريم ﷺ الإسلام وقال: ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري، لكنه أخذته حماسه الإسلام، وقال: سأعلن إسلامي. الخلاصة أنه ذهب إلى الحرم وصاح بقوة "**أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمّداً رسول الله**" وما أن سمع الناس هذا الصوت حتى أقبل عليه الناس من كل صوب وحدب يضربونه، فجاء العباس وخلصه منهم، وقال للناس: ألا تعرفون أن طريق تجارتكم يمر على أهالي غفار وهذا رجل منها، تركه الناس حينئذ، ولكن في اليوم التالي أيضاً ذهب أبو ذر إلى الحرم وأعلن إسلامه بنفس الطريقة، وكانت النتيجة أيضاً كالتي كانت بالأمس. وتصادف اليوم أيضاً أن جاء العباس وخلصه منهم.(١)

إسلام قبيلة غفار

حين عاد أبو ذر من مكة ودعا القبيلة إلى الإسلام، أسلم نصفها وقتئذ.

وقال الآخرون: سنعلن إسلامنا حين يهاجر رسول اللهﷺ إلى المدينة. لذا حين هاجر الرسول الكريم ﷺ إلى المدينة أسلم بقية أهلها.(٢)

---

(١) اقتسبت هذه الرواية بأكملها من صحيح البخاري، ووردت في صحيح مسلم بشيء من التفصيل، إذ بها كثير من الكلمات غير الواردة في صحيح البخاري، يكتبُ الحافظ بن حجر في فتح البـــاري أنـــه يمكن التطابق بين هاتين الروايتين.

(٢) صحيح مسلم، إسلام أبي ذر. وهذا نص هو الحديث: (... فَاحْتَمَلْنَا حَتَّىٰ أَتَيْنَا قَوْمَنَا غِفَاراً. فَأَسْـلَمَ نِصْفُهُمْ. وَكَانَ يَؤُمُّهُمْ إِيمَاءُ بْنُ رَحَضَةَ الْغِفَارِيُّ. وَكَانَ سَيِّدَهُمْ. وَقَالَ نِصْفُهُمْ: إِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللّهِ الْمَدِينَةَ أَسْلَمْنَا. فَقَدِمَ رَسُولُ اللّهِ الْمَدِينَةَ. فَأَسْلَمَ نِصْفُهُمُ الْبَاقِيَ. وَجَاءَتْ أَسْلَمُ. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ إِخْوَتُنَا. نُسْلِمُ عَلَىٰ الَّذِي أَسْلَمُوا عَلَيْهِ. فَأَسْلَمُوا. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ : «غِفَارُ غَفَرَ اللّهُ لَهَا: وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللّهُ.(المترجم).

إسلام قبيلة أسلم

كانت قبيلة أسلم تقع على مقربة من قبيلة غفار وكانت تربطهما علاقات قديمة، فأسلم أهلها تأثراً بغفار[1] (في حين أن كلتا القبيلتين كانتا مشهورتين بالسرقة قبل الإسلام، وكانتا تعلمان بالطبع أن الإسلام عدو هذا السلوك الشنيع).

إسلام الأوس والخزرج

كانت أغلب قبائل العرب تجتمع في موسم الحج. وكان الرسول ﷺ يذهب إلي كل قبيلة في مقرها ويدعوها إلى الإسلام، وهكذا أسلمت طائفة كبيرة من قبيلتي الأوس والخزرج.

نشر الإسلام إبَان الإقامة في المدينة

بعد ذلك أُرسل مصعب بن عمير إلى المدينة المنورة ليدعو أهلها إلى الإسلام، فأسلموا جميعاً على يديه في غضون عدة أشهر فقط عدا عشيرتين، وبعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة أسلم من القبائل المجاورة لها قبيلتي غفار وأسلم كما ذُكر آنفاً .

إسلام بعض القريشيين في بدر

بعد فترة وقعت "غزوة بدر" التي انهزمت فيها قريش وأسر منها المسلمون سبعين رجلاً. فبدأت قريش تتردد على المدينة سعيًا لإخلاء سبيل هؤلاء الأسرى. ومن ثم حدث نوع من العشرة والاختلاط بينهم وبين المسلمين مما أدى ببعضهم إلى الإسلام.

كان من بينهم الكثير ممن تناهى إلى سمعهم تلاوة القرآن الكريم فلانت قلوبهم الصلدة، رغم ما كانت تكنه من عداء شديد للإسلام. فهاهو جبير بن مطعم قد أتى يدفع فدية تحرير أسرى بدر وقد كان ذات يوم واحدا منهم، فسمع محمد ﷺ يتلو هذه الآيات:-

" أم خُلِقوا من غير شيء أم هم الخالقون ۞ أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون " (الطور ٣٥-٣٦)

---

(١) صحيح البخاري، ذكر اسلم وغفار. وهذا هو نص الحديث: (٣٤٣٩) حدّثنا محمدُ بن بشارٍ حـدَّثنا غُندَرٌ حدثنا شُعبةُ عن محمدِ بن أبي يَعقوبَ قال: سمعت عبدَ الرحمنِ بنَ أبي بكرةَ عـن أبيـه: «أن الأقرعَ بنَ حابسٍ قال للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: إنما بايعَكَ سُرّاقُ الحجيج من أسلمَ وغِفار ومُزَينة ـ وأحسِبه وجُهَينةَ، ابن أبي يعقوبَ شك ـ قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: أرأيتَ إن كان أسلمُ وغِفـارُ ومُزَينةَ وأحسِبهُ وجُهينة خيراً من بني تميمٍ وبني عامرٍ وأسدٍ وغَطفانَ خابوا وخَسِروا ؟ قال: نعم. قال: والذي نفسي بيدهِ إنهم لأخْيَرُ منهم. (المترجم).

إسلام جبير بن مطعم

ويصف جبير بن مطعم ما انتابه حين سمع هذه الآيات فيقول: شعَرت وكأن قلبي يُحلق في الآفاق. وردت هذه الواقعة في صحيح البخاري. تفسير سورة الطور (إن النبوءة التي تنبأ بها الرسول صلوات الله وسلامه عليه في مكة عن حرب الروم والفرس تحققت تماماً بانتصار بدر. وطبقاً لنبوءة القرآن الكريم أحرزت الروم نصراً كاسحاً على الفرس بعد سبع سنوات. وكان من نتيجة هذه المعجزة العظيمة أن أقر الكثيرون بصدق الإسلام)

أثر نبوءة الروم

موجز القول أن الإسلام كان ينتشر هكذا تلقائياً برفق تام. وفي سنة ٥هـ تحالفت قريش، وكنانة، وغطفان، وأسد، وقبائل أخرى، وهاجمت المدينة، إلا أنهم مُنيوا بهزيمة، وتسمى هذه الغزوة بـ " الأحزاب " والتي سبق الحديث عنها بالتفصيل. قللت هذه الهزيمة من تأثير قريش على المحيطين بها. وبدأت القبائل، التي كانت على استعداد لدخول الإسلام، ولم تكن تجرؤ على الجهر بالإسلام خشية بطش قريش، في إرسال وفودها إلى حضرة المصطفى ﷺ.

إسلام قبيلة مزينة

كان أول هذه الوفود هو وفد قبيلة مزينة، الذي كان يضم أربعمائة رجل. وعبروا عن رغبتهم، وهي أنه إن يأمرهم الرسول الكريم ﷺ، بالهجرة إلى المدينة لهاجروا، ولكنه ﷺ قال: أنتم مهاجرون حيث كنتم.[١]

إسلام قبيلة أشجع

وفي الفترة ذاتها جاء وفد قبيلة أشجع يضم مائة رجل إلى المدينة وقالوا لرسول الله ﷺ إنا لا نريد محاربتك، فليُعقد بيننا ميثاق صلح فوافق النبي ﷺ. كان هؤلاء القوم ما زالوا على كفرهم حتى ذلك الحين، ولكن حين أُبرمت "معاهدة الصلح" دخلوا في الإسلام طواعية.[٢]

---

(١) طبقات ابن سعد، الجزء الأول المتعلق بالوفود.

(٢) جزء طبقات ابن سعد السابق.

إسلام قبيلة جهينة

كانت جهينة إحدى القبائل المجاورة لهذه القبائل، دعاهم الرسول ﷺ للإسلام فوفدوا من فورهم على المدينة في جماعة بلغت ألف رجل وأسلموا جميعاً، ثم شاركوا المسلمين في أكثر الغزوات[(١)] (لقد كان لغفار، وأسلم، ومزينة، وجهينة من الطاعة والمبادرة بالإسلام ما جعل الرسول ﷺ يدعوا لهم بالخير.[(٢)]

أثر صلح الحديبية

في عهد صلح الحديبية كان المسلمون والكفار، حسبما أشرنا آنفاً في حديثنا عن الحديبية، يلتقون ويتعاملون فيما بينهم بحرية بالغة، ومن ثم سنحت الفرصة للمعترضين أن يستمعوا لتعاليم المسلمين سراً وجهراً.[(٣)] نتج عن ذلك أن عدد الذين دخلوا الإسلام قبل ذلك رغم وجود الغزوات والسرايا، قد تضاعف في غضون عامين فقط، ولذلك حين خرج الرسول الكريم ﷺ من المدينة المنورة قاصداً أداء العمرة في عام الحديبية، كان بصحبته الكريمة ألف وخمسمائة رجل. وحين تقدم ﷺ إلى فتح مكة بعد عامين كان على رأس جيش جرار من المسلمين بلغ عشرة آلاف مقاتل.

لم يمتد نطاق صلح الحديبية إلى سائر بلاد العرب، إذ لم يشارك فيه سوى قبيلتي قريش وكنانة لذا ظل من لا يخضعون لقريش مباشرة، أو ليسوا من حلفائها، يتأهبون لغزو المدينة، وبالتالي كان عليه الصلاة والسلام يضطر إلى إرسال بعض الجيوش للدفاع. ومع ذلك كله بدأ إيفاد دعاة الإسلام إلى المناطق التي يُظن بها خيراً، كي يدعو

---

(١) الإصابة، تذكرة بشير بن عرفطة.

(٢) صحيح البخاري، ج١، ذكر غفار وأسلم وجهينة. وهذا نص الحديث (٣٤٣٥) حدثنا أبو نُعَيم حدّثنا سُفيان عن سعدِ بنِ إبراهيمَ عن عبدِ الرحمنِ بنِ هُرمُزَ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «قُرَيشٌ والأنصارُ وجُهَينة ومُزَينة وأسلَم وغفارُ وأشجَعُ مَوالِيَّ، ليس لهم مَولًى دُونَ اللهِ ورسوله. (المترجم).

(٣) ورد في الطبري قول الإمام الزهري:-

فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس كلهم بعضهم بعضاً فالتقوا وتقاضوا في الحديث في المنازعة، فلو يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه فلقد دخل في تنيك السنين في الإسلام مثل ما كان في الإسلام وأكثر. (ص ١٠٥٥).

الناس إلى الإسلام، فكان طبيعياً أن يرافقهم مجموعة من الحراس تؤمن جانبهم، ولكن يؤثر أرباب السير أن يصفوا هذه الجماعات التبليغية بالسرايا أيضاً.

أثر فتح مكة

كان العرب جميعاً يعتبرون قريشاً متوجهاً دينياً لتوليها شئون الكعبة، ولذا كانوا يترقبون مصيرها. كان الصحابي عمرو بن سلمة ﷺ يقيم فوق ممر عام يبعُد عن المدينة. وقد ورد قوله التالي في صحيح البخاري:-

كانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح فيقولون اتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق فلما كانت واقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم.[1]

وكتب ابن هشام بتفصيل أوضح:-

وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش وأمر رسول الله ﷺ وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم أهل البيت والحرم وضريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وقادة العرب أو ينكرون ذلك وكانت قريش هي التي نصبت الحرب رسول الله ﷺ وخلافه فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودخلها الإسلام عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوة فدخلوا في دين الله كما قال الله عز وجل. الخ[2]

خلاصة القول أن السبب الراجح لتأخر انتشار الإسلام، رغم صدقه وبساطته وفطنة العرب وألمعيتهم، كان على الأغلب هو العداء القبلي. ولذا بمجرد أن زالت عقبة الباطل الكذاء لم يتمهل الحق في تقدمه.

بعد فتح مكة زال الخطر الذي كان يهدد الدعوة الإسلامية بقتل دعاتها بلا هوادة أينما ارتحلوا، ومن ثم أرسل الرسول ﷺ الدعاة إلى سائر بلاد العرب لنشر فضائل الإسلام وترغيب الناس فيه ودعوتهم إليه، وتقرر مشروع الدعاة كالآتي:

(١) أن يصاحبهم عدد من الجيش للحفاظ على استقلالهم وعدم تعرضهم للأذى من أية جهة حتى يستطيعوا نشر الإسلام في حرية تامة. حين أرسل ﷺ خالد ﷺ أرفق معه عدداً من الجيش، ولكن أكد عليه ألا يسلك سبيل العنف. لذا لم يهتم أحد بدعوته إلى الإسلام طيلة ستة أشهر كاملة ولم يتمكن من إنجاز شيء. فقد كان خالد بن الوليد ﷺ

---

(١) صحيح البخاري، فتح مكة.

(٢) سيرة ابن هشام، ذكر أحداث سنة ٩هـ والوفود.

قائداً مظفراً، ولم يكن واعظاً أو مرشداً. وأرسل صلوات الله وسلامه عليه علي ﷺ الذي ما لبث يدعو القبائل إلى الإسلام حتى أسلمت البلاد جميعاً. وهؤلاء هم الدعاة الذين ذكرهم العلامة الطبري في قوله التالي:-

قد كان رسول الله ﷺ بعث فيها حول مكة السرايا تدعو إلى الله عز وجل ولم يأمرهم بقتال.

وبنفس هذا المبدأ أُرسل خالد إلى قبيلة بني جذيمة ليدعوهم إلى الإسلام، ولكنه حين سفك فيها الدماء، وعلم الرسول ﷺ بهذا، نهض من مجلسه ورفع يديه مستقبلاً القبلة وقال: اللهمَّ إني أبرأ إليك مما صنع خالد. ثم أرسل علي ﷺ فدفع دية القتلى جميعاً حتى قتلى الكلاب أيضاً.

كان الرسول ﷺ يختبر أحياناً كل أفراد الجماعة المسلمة المتجهة إلى سائر أنحاء البلاد لنشر الإسلام فيها، فيعين أكثرهم حفظاً للقرآن أميراً عليهم. ومن ذلك أنه أراد ذات مرة أن يرسل جيشاً كهذا [1] فاستمع إلى تلاوتهم للقرآن واحداً واحداً فكان من بينهم شاب صغير السن فذهب إليه الرسول الكريم ﷺ وسأله كم يحفظ من القرآن قال: أحفظ سورة البقرة وسورة كذا وكذا. فعينه الرسول ﷺ أميرا على الجمع(الترغيب والترهيب ج ٢ صـــ٢٥٩ـــ برواية الترمذي.

(٢) كان العمال، الذين يُرسلون لجباية الزكاة والخراج من البلاد الخاضعة للإسلام، ممن يُشهد لهم بعفتهم وزهدهم ونزاهتهم . وكانوا يصطحبون العلماء والوعاظ أيضاً كي يدعو إلى الإسلام بجانب جباية المال وفيما يلي أسماء بعضهم:-

الاسم	البلدة	بيان حال
مهاجر بن أبي أُميّة	صنعاء- اليمن	أخو السيدة أم المؤمنين أم سلمة (رضي الله عنها).
زياد بن لبيد ﷺ	حضرموت	كان أحد الصحابة الذين شاركوا في غزوة بدر.

---

(١) بالرغم من أن هذه الرواية تخلوا من التصريح بأن هذا الجيش كان قد أُرسل لنشر الإســلام علــى وجه التحديد، فلم يرد بها سوى هذه الكلمات فقط والتي تعني بأن الرسول ﷺ قد بعث جماعة كبيــرة جداً. ولكن يتبين من القرائن أن هدفها كان نشر الإسلام فقط، إذ أنه لو كان الهدف الحرب فلما كانت الحاجة إلى حفظة القرآن ولما كان الرسول ﷺ حريصاً على اختبارهم في حفظ القرآن.

خالد بن سعيد	صنعاء- اليمن	من أوائل المسلمين، وممن هاجروا إلى الحبشة وأول من كتب بسم الله الرحمن الرحيم على الورق.
عدي بن حاتم ﷺ	قبيلة طي(اليمن)	صحابي جليل، وهو ابن حاتم الطائي.
علاء بن الحضرمي ﷺ	البحرين	
أبو موسى الأشعري ﷺ	زبيد وعدن	أسلم أهل زبيد وعدن جميعاً على يديه. وهو صحابي جليل معروف بعلمه.
معاذ بن جبل ﷺ	جند	
جرير بن عبدالله بجلي	ذو القلاع الحميرية	جرير صحابي معروف، يمتد نسبه إلى سلاطين ذو القلاع الحميرية اليمنية وقد سجد له ذات مره مئة ألف رجل. ولما أسلموا جميعاً على يديه اعتنق أربعة آلاف رقبة فرحاً بإسلامهم.

(٣) كان هناك أناس معينون يرسلون لنشر الإسلام، وأسماء هؤلاء الدعاة على وجه الدقة كما يلي:-

الإسم	بلد الدعوة	الإسم	بلد الدعوة
علي بن أبي طالب	قبيلة همدان وخذيمة ومذجح	خالد بن الوليد	أجوار مكة
المغيرة بن شعبة ﷺ	نجران	عمرو بن العاص ﷺ	عمّان
وبر بن النخيس ﷺ	أنباء فارس	مهاجرين أبي أميّة	إلى الحارث بن عبد الكلال أمير اليمن.
محيصة بن مسعود ﷺ	فدك		
الأحنف	قبيلة سليم (المسند ج٥، ص٣٧٢)		

(٤) كان رؤساء القبائل يفدون إلى النبي ﷺ ليعلنوا إسلامهم، ويقيمون في المدينة عدة أيام ثم يرجعون إلى قبائلهم بهدف دعوتهم إلى الإسلام. وهذه هي أسماء هؤلاء السادة:-

الاسم	البلدة	بيان حال
طفيل بن عمرو الدوسي	قبيلة دوس	
عروة بن مسعود	ثقيف	
عامر بن مشهر	همدان	
ضمام بن ثعلبه	بني سعد	
منقذ بن حبان	البحرين	
تمامه بن اثال	أجوار نجد	

كان الإسلام ينتشر بسرعة في كل مكان بفضل هؤلاء الدعاة والمبلغين. وبعد فتح مكة -كما أشرنا آنفاً- تم إيفاد الدعاة إلى البلاد المتاخمة لها، فكان الناس يُقبلون على الإسلام عن تراض. وتشير هذه الآيات القرآنية الكريمة إلى هذه الواقعة:-

إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. (النصر، الآية ١،٢).

بعد فتح مكة بثلاثة أشهر نزلت سورة التوبة في موسم الحج سنة٩ هـ وبعدها أسلمت الحجاز كلها دون إستثناء.[١]

لم يُتح للإسلام الانتشار خارج نطاق الحجاز خلال إحدى وعشرين سنة من البعثة النبوية بسبب العراقيل التي وضعتها قريش واليهود في طريقه، وبدأ المسلمون قلة هنا وهناك. لكن بمجرد سقوط تلك الأسوار، امتد تأثير الإسلام- في غضون ثلاث سنوات فحسب ٨،٩،١٠ - إلى اليمن والبحرين، ويمامة، وعمان من ناحية، وحتى حدود الشام والعراق من ناحية أخرى. وقد كان بهذه الأقاليم إمارات عربية كبيرة قبل الإسلام، كما كانت خاضعة للروم والفرس أعظم قوتين في العالم آنذاك، ومع هذا كله أخذ الإسلام يعلو بصوته بدون السيف ومستظلاً بالسلام، فتجاوبت له طواعية هتافات " لبيك " من كل فج عظيم.

اليمن

اليمن أكثر بلاد العرب خصوبة ونماءً، كما أنها مركز حضاري وتجاري قديم. إذ قامت على أرضها دولتان عظيمتان هما سبإ وحمير. وقد كان أهالي الحبشة المسيحيين

---

(١) الطبري، الوقائع سنة ٩ هـ.

يحكمون اليمن منذ سنة ٥٢٥م، أي قبل ميلاد الرسول ﷺ بخمسين عاماً تقريبا. بعد ذلك حكمها الفرس، بعد ميلاد الرسول ﷺ بعدة أعوام، وذلك بتعيين حاكمٍ عليها من قِبَلهم. كانت هناك عدة معوقات للحركة الإسلامية في اليمن، منها الاختلاف في(الأنساب) وقد كان أهل اليمن قحطانيين، ودعاة الإسلام إسماعليين. كان اليمنيون يفتخرون بسلطانهم وحضاراتهم القديمة، كما كان العرب أنفسهم يشهدون بريادة اليمنيين ويعتبرونهم جديرين بحكم كافة بلاد العرب. وأي سلطة منتظمة في البلاد يمتد نسبها إلى اليمنيين. لذا حين قدم من اليمن وفد قبيلة كنده التي كانت أسرة حاكمة في اليمن، سأل رئيس ذلك الوفد الرسول ﷺ ظناً منه أنه أمير عربي قائلاً :- يا رسول الله، إنا نزعم أنكم منا قال: نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمّنا ولا ننتفي من أبينا.[١].

ربما كان العائق الأساسي لنشر الإسلام في اليمن هو أنها كانت خاضعة لإيران سياسياً ولليهودية أو النصرانية دينياً على وجه العموم، لكنه ما من عامل من تلك العوامل، حال دون قبول الحق، فلقد وصلت الدعوة الإسلامية لليمن قبل الهجرة بفترة طويلة. كان باليمن قبيلة (عظيمة) تدعى دوس، وقد تصادف لرئيسها طفيل بن عمرو أن جاء إلى مكة وأسلم. وفي تلك الفترة أيضاً زارت قبيلة كندة مكة للحج، فدعاهم الرسول ﷺ الى الإسلام، لكنهم رفضوا.[٢] في سنة ٧ هـ ذهب الرسول ﷺ إلى خيبر. وأسلمت قبيلة دوس ودخلت في دار الإسلام، كما كانت قبيلة أشعر اليمنية المعروفة، في صحبة مهاجري الحبشة فأسلمت طواعيةً آنذاك، وقدمت إلى النبي ﷺ ووفد أيضاً إلى رسول الله ﷺ في صحبة هذه القبائل أبو هريرة الدوسي ﷺ، وأبو موسى الأشعري ﷺ.

كانت همدان أكثر عشائر اليمن عدداً وأعظمها شأناً. أرسل إليهم الرسول ﷺ خالدًا (في أواخر سنة ٨هـ) ليدعوهم إلى الإسلام. ظل خالد ﷺ يدعوهم إلى الإسلام طيلة ستة أشهر كاملة، ولكنهم لم يسلموا. في نهاية المطاف استدعى الرسول الكريم ﷺ خالد وأرسل إليهم علي، فجمعهم وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت القبيلة عن بكرة أبيها. ولما

---

(١) بن حنبل، حديث أشعث بن قيس وزاد المعاد، ج١، ص٣٢، مصر.

(٢) بن هشام، ذكر عرض الإسلام على القبائل .

أبلغ علي رضي الله عنه عن هذه الواقعة في حضرة النبوة، سجد رسول الله ﷺ ورفع رأسه مرتين وقال: السلام على همدان.[1]

وتذهب بعض الروايات إلى أن همدان حين سمعت عن خبر الإسلام أرسلت عامر بن شهر إلى حضرة المصطفى ﷺ وقالت: إذا راق لك هذا الدين فنحن على استعداد أن نعتنقه جميعاً، وإذ لم يرق لك فنحن أيضاً نوافقك. ولما عاد عامر بن شهر من عند رسول الله ﷺ كان قلبه قد عمر بنور الإسلام، فأسلمت القبيلة كلها. ربما تكون هاتان واقعتان بالفعل، وأن هذا التوفيق قد تم بجهود كليهما(علي ﷺ وعامر بن شهر).

- ألف الناس في اليمن علي ﷺ، لذا رشحه الرسول ﷺ في ربيع الأول سنة ١٠ هـ للدعوة إلى الإسلام في قبيلة مذجح اليمنية بصحبة ثلاثمائة فارس لحراسته، وأكد عليه أنه إن لم يعتدوا عليك فلا تعتدي عليهم. حين وصل علي (ﷺ) إلى أرض مذجح عين بعض الناس لجباية المال. أثناء ذلك رأى جماعة من قبيلة مذجح فعرض عليهم دعوة الإسلام، ولكن كان جزاء هذا الإحسان أن رموه بالسهام والحجارة. فما كان من علي ﷺ إلا أنه صف رفاقه، ففرت جماعة مُذجح تاركين قتلاهم العشرين رجلاً، ولم يتعقبهم المسلمون، إذ كان هدفهم الدفاع عن أنفسهم فقط. وبعد ذلك وفد أشراف القبيلة بأنفسهم واعتنقوا الإسلام، وأعلنوه بالأصالة عن الآخرين.[2]

أُطلق على حكام الفرس الذين كانوا يقيمون في اليمن لقب " أنباء ". أرسل إليهم الرسول ﷺ سنة ١٠ هـ وبر بن النخيس ﷺ ليدعوهم إلى الإسلام. ونزل ضيفاً في بيت النعمان بن برزك وأرسل من عنده رسائل الدعوة إلى الإسلام. إلى كل من فيروز

---

(١) الزرقاني بسند صحيح عن البيهقي(ورد أصل الواقعة في البخاري جزء الغزوات، لكنها لم تخصص همدان ولم يذكر فيها الحديث إسلامها) وهناك روايات أخرى عن هذه الواقعة ولكنها غير صحيحة، أقرت بذلك"المواهب اللدنية" نفسها بأن مجمل هذه الروايات أن أهل همدان قد اعتنقوا الإسلام خوفاً من علي، إلا أن هذا كان من حسن ظن الرواة وليس الواقعة نفسها. (وفي رواية أخرى أنه ﷺ قد أمر همدان أن تقاتل ثقيف للأبد وتشن عليها الغارات بصفة مستمرة. لكن الحافظ ابن القيم قد صرح بأن هذه الرواية خاطئة تماماً، لأن همدان كانت قبيلة يمنية، أما ثقيف فكانت بالطائف قرب مكة، وإن مثل هذا الأمر إنما يصدر من قبيلتين متجاورتين.

(٢) وردت بعثة علي ﷺ إلى اليمن في سائر كتب الحديث، ولكننا اقتبسنا هذه التفاصيل من ابن سعد، جزء المغازي.

الديملي، ومركيود، ووهب بن منبه فأسلموا جميعاً. وكان أول من حفظ القرآن الكريم في صنعاء ابنا مركيود عطاء ووهب بن منبه.[1]

(عيّن الرسول ﷺ معاذ بن جبل ﷺ وأبي موسى الأشعري لنشر الإسلام في أرجاء اليمن كلها،[2] وأرسل كليهما إلى اليمن إقليماً إقليماً. كانت التعاليم التي أملاها الرسول ﷺ لهما وقت رحيلهما تمثل في الحقيقة المبادىء العامة لنشر الإسلام. قال النبيﷺ : يَسِّرا ولا تُعَسِّرا. وبَشِّرا ولا تُنَفِّرا، إنَّكَ(معاذ بن جبل) تَأْتِي قَوْما مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله. وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ. فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ. وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ. فسأل أبو موسى الأشعري: يا رسول الله إن شراباً يُصنع بأرضنا يقال له المزر، وشراب يقال له البِتْعُ مِنَ العسل فقال : «كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ..[3]

نجران

يقع إقليم نجران على مقربة من اليمن، وكان مركزاً خاصاً بالمسيحيين في بلاد العرب. أرسل محمد صلوات الله وسلامه عليه المغيرة بن شعبة ﷺ -الذي اعتنق الإسلام قبل صلح الحديبية سنة ٧هـ - إلى نجران ليدعوا أهلها إلى الإسلام. ولما أبدى المسيحيون اعتراضهم على القرآن، لم يتمكن من الرد عليهم وأقفل عائداً.[4] بعد ذلك كتب لهم رسول الله ﷺ يدعوهم إلى الإسلام مخبرا إياهم أنهم إذا لم يرضوا بالإسلام فليرضوا

---

(١) الطبري ص ١٧٦٣.

(٢) أضفت هذا إلي الكتاب حتى الحديث عن الإسلام في البحرين "سيد سليمان الندوى".

(٣) وردت هذه الواقعة بكاملها في صحيح البخاري، جزء الغزوات. وقمنا بجمع كل الروايات الواردة في البخاري عنها:

(٤) الترمذي، تفسير سورة مريم. وهذا هو نص الحديث: (٣٢٦٨) حدثنا أَبُو سَعِيدٍ الأَشَجُّ وَأَبُو مُوسَى مُحمَّدُ بنُ المُثَنَّى، قالا: أخبرنا ابنُ إدْرِيسَ عن أبيهِ عن سِمَاكِ بنِ حَرْبٍ عن عَلْقَمَةَ بنِ وَائِلٍ عن المُغيرَةِ بنِ شُعْبَةَ، قال: «بَعَثَنِي رَسولُ الله إِلَى نَجْرَانَ، فقالُوا لِي: أَلَسْتُمْ تَقْرَأُونَ: {يَا أُخْتَ هَارُونَ} وَقَدْ كَانَ بَيْنَ مُوسَى وعِيسَى مَا كَانَ؟ فلَمْ أَدْرِ مَا أُجِيبُهُمْ. فَرَجَعْتُ إِلَى النَّبِيِّ فَأَخْبَرْتُهُ، فقال: «ألا أَخْبَرْتَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ» . قال أبو عيسَى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ لا نَعْرِفهُ إلاّ من حديثِ ابنِ إدْرِيسَ.(المترجم).

بسياسة الإسلام ويعطوا الجزية،[1] فأرسل أهل نجران جماعة من الرهبان ورجال الدين إلى المدينة لتقصي الأمر. وسترد التفاصيل عن هذا الوفد لاحقاً.

فضلاً عن النصارى كان بنجران مجموعة من السكان المشركين، كان بينهم قبيلة بني الحارث بن زياد، التي كانت تعبد الصنم مدان، مما جعلها تشتهر بعبد المدان. وقد أرسل لهم الرسول ﷺ خالد بن الوليد ﷺ في ربيع الآخر سنة ١٠هـ ليدعوهم إلى الإسلام، وما أن وصل إليهم أسلمت القبيلة كلها، وأقام خالد معهم عدة أيام علمهم خلالها القرآن الكريم وأحكام الإسلام.[2]

- ما من واقعة لاعتناق اليمنيين الإسلام عن طيب خاطر وبلا أي نوع من الترهيب، لم تستوجب العناية الإلهية. حين شاع الخبر بقدوم الأشعريين، بشر الرسول ﷺ المسلمين: أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة وألين قلوباً.[3] ولما أسلمت همدان سجد ﷺ شكراً لله، ودعا لهم بالسلام. وحين قدما وفدا حمير وتميم خاطب ﷺ الأول فقال: أبشِروا يا بني تميم، قالوا: أما إذ بَشَّرتَنا فأعطِنا. فتغيَّرَ وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم. فجاء ناسٌ من أهلِ اليمنِ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اقبَلوا البُشرَى إذ لم يَقبَلها بنو تميم. قالوا: قد قَبلنا يا رسول الله.[4] فقال رسول الله ﷺ بصفة عامة: الإيمانُ يَمان، والحكمة يَمانية. رجع من الدعاة الذين كانوا في اليمن علي وأبو موسى رضي الله عنهما

---

[1] الزرقاني نقلاً عن البيهقي.

[2] الزرقاني ج٣ صـ١١٩.

[3] البخاري قدوم الأشعريين أهل اليمن. وهذا نص الحديث: (٤٢٨١) حدَّثنا محمدُ بن بشار حدَّثنا ابنُ أبي عديٍّ عن شعبةَ عن سليمانَ عن ذكوانَ عن أبي هريرة رضيَ اللَّهُ عنه عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم «أتاكم أهلُ اليمنِ هم أرقُّ أفئدةً وألْينُ قلوباً. الإيمانُ يَمان، والحكمة يَمانية. والفخرُ والخيلاءُ في أصحابِ الإبل، والسَّكينة والوَقار في أهل الغَنَم».
وقال غُندَرٌ عن شعبةَ عن سليمانَ سمعت ذكوانَ عن أبي هريرةَ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم. (المترجم).

[4] صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق وقدوم الأشعريين.وهذا هو نص الحديث: (٤٢٧٩) حدَّثني عمروُ بن علي حدَّثنا أبو عاصم حدَّثنا سفيانُ حدَّثنا أبو صخرةَ جامعُ بن شدّاد حدَّثنا صفوانُ بن محرزٍ المازنيُّ حدَّثنا عمرانُ بن حُصَين قال: «جاءت بنو تميم إلى رسولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم فقال: أبشِروا يا بني تميم، قالوا: أما إذ بَشَّرتَنا فأعطِنا. فتغيَّرَ وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم. فجاء ناسٌ من أهلِ اليمنِ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اقبَلوا البُشرَى إذ لم يَقبَلها بنو تميم. قالوا: قد قَبلنا يا رسول الله. (المترجم).

في موسم حجة الوداع، حيث أدوا مناسك الحج مع الرسول ﷺ. وكان في صحبتهما عدد كبير من اليمنيين حديثي العهد بالإسلام الذين حجوا أو اعتمروا.

الإسلام في البحرين سنة ٨ هـ

كانت البحرين ضمن حدود دولة الفرس، وكانت القبائل العربية هناك تستوطن الوديان، ومن أشهرها وأجلها شأناً بني عبد القيس، وبكر بن وائل، وتميم. خرج منقذ بن حبان من قبيلة عبد القيس قاصداً التجارة. وكانت المدينة تقع في طريقه فمكث بها، وعلم الرسول ﷺ بذلك فذهب إليه ودعاه إلى الإسلام، فأسلم. وتعلم سورتي الفاتحة والعلق. ثم أعطاه الرسول ﷺ أمراً كتابياً، لكنه لم يُطلع أحدًا عليه لعدة أيام بعد عودته من سفره، إلا أن زوجته لما رأته يصلي، شكت إلى والده منذر بن العائذ. فاستفسر عن ذلك من منقذ، وبعد جدالٍ بينهما اعتنق منذر هو الآخر الإسلام. ولما قرأ منقذ بن حبان كتاب رسول الله ﷺ على الناس، أسلموا جميعاً.[١]

رُوى في صحيح البخاري (كتاب الجمعة) أن أول مسجد أقيمت فيه شعائر صلاة الجمعة بعد المسجد النبوي، كان مسجد البحرين الذي يقع في جواثي. يتبين من ذلك أن الإسلام قد انتشر في البحرين في بداياته الأولى. بعد اعتناق الإسلام أرسل هؤلاء القوم وفداً من أربعة عشر رجلاً إلى محمد ﷺ، على رأسهم المنذر بن الحارث. ما إن اقتربت قافلتهم من بيت الرسول ﷺ حتى أصابتهم حالة من التهافت جعلتهم يقفزون من فوق مطياتهم ويقبلون أيدي رسول الله ﷺ، إلا أن المنذر كان يتسم بالأدب الجم. فذهب أولاً إلى مقر إقامته وأبدل ثيابه ثم امتثل أمام المصطفى ﷺ وقبل يده الشريفة.[٢]

---

[١] ورد في صحيح البخاري ذكر أحد وفود قبيلة عبد القيس للزرقاني نقلاً عن الكرماني وهي في فترة لاحقة للفترة التي نتحدث عنها. وبقدر ما تثبُت رواية البخاري من أن عبد القيس قد اعتنقت الإسلام قبل هذا الوفد. ورغم أن الرواية التي وردت في الإصابة عن ابن شاهين تختلف عن رواية الزرقاني، ويوجد بينهما خلاف أيضاً حول اسم رئيس الوفد، إلا أنه مع ذلك كله تُثبت الروايات كلها أن الوفد الأول لهذه القبيلة قد قدمَ سنة ٦ هـ.

[٢] الزرقاني برواية البيهقي بسند جيد.

في سنة ٨ هـ أرسل الرسول ﷺ علاء الحضرمي ﷺ إلى البحرين لتبليغ الإسلام فيها. وكان حاكمها من قبل الفرس آنذاك هو المنذر بن ساوي فأسلم وأسلم معه جميع العرب وبعض الأعاجم الذين كانوا يقيمون هناك.[١]

كان في البحرين منطقة تدعى " هجر " كان يحكمها من قبل الفرس أيضاً الحاكم سيبخت. أرسل إليه الرسول ﷺ كتاباً باسمه فاعتنق الإسلام.[٢]

الإسلام في عمان سنة ٨هـ

كانت قبيلة أزد تحكم قبضتها على هذه المدينة وكان عبيد وجعفر رئيساها، وفي سنة ٨هـ أرسل إليهم الرسول ﷺ أبا زيد الأنصاري ﷺ -أحد حفظة القرآن- وعمرو بن العاص برسالة الدعوة إلى الإسلام، فأسلم عبيد وجعفر، ثم أسلم على أيديهما جميع من كان هناك من العرب.[٣]

الإسلام في حدود الشام سنة ٩هـ

كان للعرب المقيمين على تخوم الشام إمارات عديدة منها معان وأقاليمها التي كان يحكمها فروه[٤] بن عمرو ﷺ من قبل دولة الروم، والذي ما لبث أن عرف بالإسلام حتى أسلم وأرسل إلى الرسول ﷺ إعلان إسلامه مرفقاً ببغلٍ هدية. لما علم الروميون (المسيحيون) بإسلامه قبضوا عليه وحكموا عليه بالشنق. فجرى على لسانه هذا البيت :-

بلغ سراة المسلمين بأنني　　　مسلم لربي أعظمي ومقامي

(كان يقيم بين الشام وشبه الجزيرة العربية قبائل عذره، وبلّى، وجذام وغيرها. وكان لعمرو بن العاص ﷺ أخوال في قبيلة بلى، ومن ثم أرسل مع جماعة إلى هناك، وحين وصل إلى بئر جذام توجس منهم الهجوم، وأطلع الرسول ﷺ بهذا، فأرسل ﷺ إليه أبو عبيدة على رأس عدد من الجيش لحراسته. ويُطلق على هذه الواقعة "غزوة ذات السلاسل " في اصطلاح كتاب السيرة)

---

(١) فتوح البلدان.

(٢) المرجع السابق، ذكر البحرين.

(٣) المرجع السابق، ذكر فتح عمان.

(٤) ابن هشام، إسلام فروه ﷺ، ذكر الوفود.

وفـــود العـــرب

(يُطلق كتّاب السيرة كلمة " الوفود " على الذين قدموا بأنفسهم إلى حضرة النبوة لإعلان الإسلام بعد اعتناقهم له على أيدي الدعاة. وتبلغ هذه الوفود عدداً كبيراً. كتب ابن إسحاق عن خمسة عشر وفداً منهم فقط. بينما ترجم ابن سعد لسبعة عشر وفداً. وهو نفس العدد الذي تحدث عنه كلٌّ من الدمياطي، والمغلطائي، والزين، والعراقي, أما مؤلف سيرة الشامي فلم يألُ جهداً في جمع التراجم لمائة وأربعة وفداً؛ ورغم ما تخلل هذه التراجم من روايات ذات سند ضعيف، وما اتسمت به أغلب أسماء الوفود من غموض، يبقى من المسلم به أن عدد الوفود الحقيقي يفوق ما ورد في رواية ابن إسحاق. أما الحافظ ابن القيم والقسطلاني فقد اكتفيا بالحديث تفصيلياً، وبدقةٍ بالغة عن ٣٤ (أربعة وثلاثين) وفداً منهم فقط)

والحقيقة هي أن بلاد العرب جميعاً كانت تترقب مصير مكة. ولما تم فتحها صار هذا الترقب بلا جدوى، فعزمت القبائل على القدوم بنفسها إلى دار الإسلام كي تحسم أمرها هناك. وكان العرب يدركون جيداً أنه لم يعد بوسعهم أن يطغوا على الإسلام لكنهم علموا أيضاً من خلال غزوة خيبر وغيرها أنهم ليسوا مكرهين على دخول الإسلام؛ بل يمكنهم إبرام الصلح على أن يدفعوا الجزية أو على أي صيغةٍ أخرى، ويظلوا على حالتهم السالفة.

بعد فتح مكة أقبلت الوفود تترى من كل صوب وحدب، وباستثناء بعضها عادت جميعاً إلى بلادها بقلوبٍ عامرةٍ بنور الإيمان، بعد ما رأت من إعجاز في حضرة النبوة.

كانت بنو تميم، وبنو سعد، وبنو حنيفة، وبنو أسد، وكنده، وملوك حمير، وأزد، وطي أقوى قبائل العرب؛ إذ امتد نفوذها إلى أقاصِ البلاد. وقد أرسلت كلها وفوداً إلى حضرة النبوة بعضاً منها بصفة أهلية، أي كان هدفها فقط هو اتفاق مع رسول الله ﷺ بصفته فاتحاً، ولكن أغلب هذه الوفود قد جاءت للاطلاع على حقيقة الإسلام والدخول في حلقته، وقدِم معظمها بعد فتح مكة أيِ في سنة ٨ هـ، سنة ٩هـ، سنة ١٠ هـ، ولكن من الجدير بنا هنا أن نتحدث عن بعض الوفود التي سبقتها مراعاةً لتسلسل الأحداث.

مزينة

كانت قبيلة كبيرة تمتد من قريش إلى مصر، وكان منها الصحابي الجليل النعمان بن المقرن[1] الذي حمل لواءها في فتح مكة، وهو أيضاً الذي فتح اصفهان. في سنة ٥ هـ أقبل على رسول الله ﷺ من هذه القبيلة وفدٌ يضم أربعمائة رجلٍ، اعتنقوا الإسلام. كتب العراقي في السيرة المنظومة:

أوّل وفد وفد المدينة   سنة خمس وفد مزينة

بنو تميم

قدمت وفود بني تميم في عظمةٍ وخيلاء، وضمت سائر أشراف هذه القبيلة كالأقرع بن الحابس، والزبرقان، وعمرو بن الأهتم، ونعيم بن يزيد، كما كان في صحبتهم أيضاً عُيينة بن حصن الفزاري، والذي كان يغير على حدود المدينة. ورغم أن هؤلاء القوم قد قَدِموا لاعتناق الإسلام، إلا أن طابع الفخر والخيلاء العربي كان ما يزال يملك عليهم أنفسهم؛ فحين دخلوا إلى حضرة النبوة أي المسجد النبوي كان الرسول ﷺ جالساً في بيته فنادوه ﷺ من وراء الحجرات أن أخرج ألينا يا محمد ﷺ، فخرج إليهم، فقالوا: جئناك نفاخرك، فأذن لهم، فقام عطارد بن الحاجب- الخطيب المشهور، والذي نال[2] خِلعة (الحرير) من بلاط أنو شيروان لبلاغته في الخطابة- وخطب خطبة بليغة عن مفاخر قوم، موجزها ما يلي:

"الحمد لله الذي جعلنا ملوكاً، ووهب لنا أموالاً عظاما وجعلنا أعز أهل المشرق فمن مثلنا في الناس؟ فمن فاخر فليعدد مثل ما عددنا".[3]

حين انتهى عطارد من الخطبة وجلس، أشار الرسول ﷺ إلى ثابت بن قيس بأن يجيب. وخلاصة خطبته ما يلي:

---

(1) الإصابة في أحوال الصحابة(ترجمة النعمان بن المقرن وابن سعد، جزء الوفود ص٣٨.

(2) الإصابة في أحوال الصحابة.

(3) وورد هذا النص هكذا في سيرة ابن هشام ص ١٤٠ جـ٤:" الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن، وهو أهله، الذي جعلنا ملوكا ووهب لنا أموالا عظاما، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عددا، وأيسره عدة، فمن مثلنا فى الناس وأولى فضلهم؟! فمن فاخر فليعدد مثل ما عددنا."(المترجم).

"الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً واصطفى من خير خلقه رسولاً، أكرمه نسباً، وأصدقه حديثاً، وأفضله حسباً، فأنزل عليه كتابه وأتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه، واستجاب لله حين دعاه رسول الله ﷺ نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله"

ولما انتهت الخطب وحان دور الشعر، قام الشاعر التميمي المعروف الزبرقان بن بدر، فأنشد قصيدة له بالأصالة عن وفده، والتي مطلعها:-

نحن الكرام فلا حي تعاد لنا منا الملوك وفينا تنصب البيع(١)

تذهب بعض الروايات إلى أن رجلاً قَدِم إلى المدينة فألقى بها خطبة أدهشت الحضور لروعة بلاغتها، فقال الرسول ﷺ: **إن من البيان لسحرا**. ويتبين من كتاب "الإصابة في أحوال الصحابة" أن الرسول ﷺ، قد قال هذه العبارة تعليقاً على خطبة للزبرقاني هذا. موجز القول أنه لما فرغ الزبرقاني، أشار رسول الله ﷺ إلى شاعر الإسلام حسان بن ثابت، فأنشد ارتجالا القصيدة التي مطلعها:-

إن الذوائب من فهر واخوتهم قد بيّنوا سنة للناس تُتبع(٢)

كان من بين أعضاء الوفد الأقرع بن حابس قاضى بلاد العرب الشهير، إذ كانت تُرفع إليه القضايا القومية، ويخضع الناسُ لكل أحكامه وقد كان مجوسياً قبل اعتناقه الإسلام، يزعم أنه حين جاء مع الوفد إلى النبي ﷺ قال النبي ﷺ :-

إن حمدي لذين وإن ذمي لشين.

حين إنتهت المبارزتان الشعرية والنثرية اعترف الوفد بأن خطيب الإسلام أخطب من خطيبهم وأن شاعر الإسلام أشعر من شاعرهم وأسلموا جميعاً.

بنو سعد

بعث بنو سعد ضمام بن ثعلبة سفيراً لهم. ولنا أن نتصور بساطة العرب وتلقائية فطرتهم من خلال الأسلوب الذي قدِم به هذا الرجل على رسول الله ﷺ والهيئة التي أدى بها وفادته.

---

(١) كتبها المؤلف تعادلنا وبالرجوع الى المصادر العربية، والتي من بينها ابن هشام، وجدنا أنها يعادلنا.

(٢) بالرجوع إلى المصادر العربية، وجدنا أنها تتبع وليس كما كتبها المؤلف يتبعوا.

قد ورد ذكرها في مواضع متعددة في صحيح البخاري، وإليك الرواية التي وردت في كتاب العلم.

يقول أنس ﷺ «بَيْنما نحنُ جُلوسٌ معَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في المسجدِ، دَخَلَ رَجُلٌ على جَمَلٍ فأناخَهُ في المسجدِ ثمَّ عَقَلَهُ ثم قال لهم: أَيُّكُمْ محمد؟ ــ والنبيُّ صلى الله عليه وسلم مُتَّكِىءٌ بَيْنَ ظَهْرَانيهمْ ــ فقلنا: هذا الرجُلُ الأبيضُ المُتَّكِىءُ، فقال له الرجُل: ابنَ عبدِ المطَّلب؟. فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: قدْ أَجَبْتُكَ. فقال الرجلُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: إِني سائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عليكَ في المَسْأَلة، فلا تَجِدْ عليَّ في نَفْسِكَ. فقال: سَلْ عَمَّا بدا لك، فقال: أَسأَلُك بربِّك وربِّ من قَبْلَكَ، آللّهُ أرسلَكَ إلى الناسِ كلِّهمْ؟ فقال: اللهُمَّ نَعم. قال: أَنْشُدُكَ باللّه، آللّهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ الصلَواتِ الخمْسَ في اليومِ والليلة؟ قال: اللهُمَّ نَعم. قال: أَنْشُدُكَ باللّه، آللّهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصومَ هذا الشهرَ منَ السَّنَة؟ قال: اللهُمَّ نَعم. قال: أَنْشُدُكَ باللّه، آللّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هذه الصَّدَقةَ منْ أَغْنيائنا فتَقْسِمَها على فُقَرائنا؟ فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: اللهُمَّ نَعم. فقال الرَّجُلُ: آمَنْتُ بما جِئْتَ به، وأنا رسولُ مَنْ وَرائي مِن قَومي، وأنا ضِمامُ بنُ ثَعْلبةَ، أخو بني سَعْدِ بنِ بَكر». [١]

حين قَدِم ضمام على قومه قال: بئست اللات والعزى. قالوا: مه، اتق البرص، اتق الجنون! قال: إنهما والله لا يضران ولا ينفعان، وإني أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. فوالله ما أمسى من ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً [٢].

الأشعريون سنة ٧ هـ

كانت قبيلة الأشعريين من أشرف قبائل اليمن. وهي التي ينتمي إليها أبو موسى الأشعري. حين سمع أهلها عن بعثة النبي ﷺ خرج منهم ثلاثة وخمسون رجلاً قاصدين المدينة، وكان بينهما أبو موسى الأشعري. بعد أن أقلعوا بالسفينة، دفعها اتجاه الرياح إلى الحبشة حيث جعفر الطيار (ﷺ)؛ فاصطحبهم إلى شبه الجزيرة العربية، وكان قد تم فتح خيبر فى ذلك الوقت, وبها كان الرسول ﷺ؛ فنال هؤلاء القوم شرف المثول بين يديه الكريمة.

---

(١) وردت هذه الرواية في أبواب عديدة في صحيح البخاري.

(٢) ابن هشام.

كانت هذه هي الرواية التي وردت في صحيح مسلم بعنوان (فضائل الأشعريين). أما الرواية التي وردت في صحيح البخاري، هي أنه لما قَدِم وفد الأشْعريين قال الرسول ﷺ لصحابته الكرام: أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً. كما رُوى في مُسند الأمام أحمد بن حنبل عن أنس ﷺ أنه حين قَدِم وفد الأشاعرة، كانوا يرتجزون هذا البيت.

غداً نلقي الأحَبّة　　محمداً وحزبه

حين وصلوا إلى حضرة النبوة قالوا: يا رسول الله! جئناك نتلقى أمور ديننا، ونسأل عن بدء الخلق. فقال ﷺ "كان اللهُ ولم يكُنْ شيءٌ غيرُه. وكان عرشُهُ على الماء".[1]

دوس سنة ٧هـ

دوس قبيلة عربية مشهورة. ينتمي إليها أبو هريرة ﷺ، وكان طفيل بن عمرو شاعرها المشهور ورئيسها قد ذهب إلى مكة قبل الهجرة، ونهته قريش عن أن يذهب إلى محمد ﷺ، ولكن تصادف له ذات مرة أن ذهب إلى الحرم، والرسول ﷺ يصلي هناك، فتأثر بتلاوة القرآن الكريم، وجاء إلى محمد ﷺ وقال: وضح لي حقيقة الإسلام، فبين له النبي تعاليم الإسلام، وتلا عليه آيات الذكر الحكيم، فأسلم، وحسن إسلامه، وعاد طفيل إلى وطنه ودعا قومه إلى الإسلام، ولكن الزنا كان شائعاً بين قبيلته مما جعلهم يترددون في اعتناق الإسلام مغبة الحرمان من حريتهم. فجاء طفيل إلى الرسول ﷺ وأوضح له ذلك فدعا له الرسول ﷺ ": اللهمَّ اهدِ دَوساً وائْتِ بهم ".[2] بعد ذلك اعتنق هؤلاء القوم الإسلام

---

(١) صحيح البخاري، باب بدء الخلق. وهذا نص الحديث كاملا: (٣١٢١) حدّثنا عمرُ بن حفص بن غياث حدَّثنا أبي حدَّثنا الأعمشُ حدّثنا جامعُ بن شدّاد عن صفوانَ بن مُحرِزٍ أنهُ حدّثهُ عن عِمرانَ بن حُصَين رضيَ الله عنهما قال: «دَخلتُ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم وعقَلْتُ ناقتي بالباب. فأتاهُ ناسٌ من بني تميم فقال: اقبلوا البُشْرى يا بني تميم. قالوا: قد بَشَّرتنا فأعطنا (مرَّتين). ثمَّ دخلَ عليه ناس من أهلِ اليَمنِ فقال: اقبلوا البشرى يا أهلَ اليمن أن لم يَقبَلْها بنو تميم. قالوا: قد قبِلْنا يا رسولَ الله. قالوا: جئنا نسألكَ عن هذا الأمرِ. قال: كان اللهُ ولم يكُنْ شيءٌ غيرُه. وكان عرشُهُ على الماء. وكَتَبَ في الذِّكر كلَّ شيء. وخَلَقَ السماواتِ والأرضَ. فنادَى مُنادٍ: ذهبتْ ناقتُكَ يا ابنَ الحصَين. فانطلَقتُ فإذا هيَ يقطَعُ دونَها السَّراب. فوالله لوَدِدْتُ أني كنتُ ترَكتها». (المترجم).

(٢) وهذا نص الحديث كما ورد فى البخاري، باب فضل الجهاد والسير: (٢٨٧٠) ــــ حدّثنا أبو اليمانِ أخبرَنا شُعيبٌ حدَّثنا أبو الزِّناد أنَّ عبدَ الرحمنِ قال: قال أبو هريرةَ رضي اللهُ عنهُ «قَدِمَ طُفَيلُ بنُ عمرو الدَّوسيُّ وأصحابهُ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسولَ اللهِ إنَّ دَوساً عَصَتْ وأبَتْ، فادْعُ اللهَ عليها، فقيل: هلَكَتْ دَوسٌ. قال: اللهمَّ اهدِ دَوساً وائْتِ بهم». (المترجم).

على يد طفيل وهاجرت منهم ثمانون عشيرةً إلى المدينة، كان من بينهم أبي هريرة ﷺ[1].

بنو الحارث بن كعب سنة ٩ هـ

كانت من أشرف قبائل نجران. أرسل الرسول ﷺ إليهم خالد بن الوليد ليدعوهم إلى الإسلام؛ فأسلموا وحسن إسلامهم، واستدعاهم الرسول ﷺ إلى المدينة؛ فقَدِم إلى حضرته ﷺ قيس بن الحصين ويزيد بن عبد المدان، ولأنهم كانوا ينتصرون على القبائل العربية في أغلب الحروب؛ سألهم محمد ﷺ: ما الذي تغلبون به الناس وتقهرونهم قالوا لم نقل فنذل ولم نكثر فنتحاسد ونتخاذل ونجتمع ولا نفترق ولا نبدأ بظلم أحد ونصبر عند البأس فقال صدقت .وأمَّر رسول الله ﷺ عليهم قيس (بن الحصين).[2]

قبيلة طي سنة ٩هـ

كانت طي قبيلة بالغة الشهرة في اليمن. وكان يتزعمها زيد الخيل وعدى بن حاتم الطائي، وكانت حدود ملكهم مستقلة. أما زيد فكان شاعراً مشهوراً في الجاهلية، وخطيباً مفوهاً، وشجاعا، وسخيا، وحسن الطلعة. قدم فى سنة ٩ هـ إلى الرسول بصحبة بعض

---

(١) الإصابة، وزاد المعاد وابن سعد، جزء الوفود.

(٢) الإصابة وزاد المعاد.وهذا النص كما ورد فى الإصابة، ترجمة قيس بن الحصين: قيس بن الحصين بن يزيد بن شداد بن قنان ذي الغصة المازني وفد على النبي صلى الله عليه وسلم قاله بن إسحاق وقال بن حبان والدارقطني له صحبة وهو من مذحج واخرج بن شاهين من طريق المدائني عن أبي معشر عن يزيد بن رومان ومسلمة بن علقمة عن خالد بن الحذاء عن أبي قلابة وعن أبي ريحانة وغيرهم قالوا أسلم بنو الحارث فاوفدهم خالد بن الوليد ومنهم قيس بن الحصين ذي الغصة ويزيد بن عبد المدان وعبد الله بن عبد المدان وشداد بن عبد الله وعبد الله بن قراد ويزيد بن المحجل وعمرو بن عبدالله قال وقال بعضهم لما وفدوا وشهدوا شهادة الحق قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم ما الذي تغلبون به الناس وتقهرونهم قالوا لم نقل فنذل ولم نكثر فنتحاسد ونتخاذل ونجتمع ولا نفترق ولا نبدأ بظلم أحد ونصبر عند البأس فقال صدقت وذكرها بن إسحاق في المغازي بغير هذا السياق كما سيأتي في ترجمة يزيد بن عبدالمدان وقال بن الكلبي رأس الحصين والد قيس بني الحارث مائة سنة وكان له أربعة أولاد كان يقال لهم فوارس الارباع كانوا إذا حضر الحرب ولى كل منهم ربعها ولما وفد قيس كتب له النبي صلى الله عليه وسلم كتابا على قومه. (المترجم).

الأشراف، فدعاهم النبي إلى الإسلام، فأسلم ومن معه، وحسن إسلامهم. وكان زيد معروفا بلقب الخيل لفروسيته، ولكن الرسول لقبه بزيد الخير بدلا من زيد الخيل.[1]

عدى بن حاتم سنة ٩ هـ

عدى هو ابن حاتم الطائي المعروف، وقد كان زعيماً لقبيلة طي ويدين بالنصرانية، واعتاد أن يأخذ ربع الدخل كبقية أمراء العرب. وقد لاذ بالفرار إلى الشام إبّان زحف الجيوش الإسلامية إلى اليمن. أما أخته فقد قَدِمت إلى المدينة ضمن السبايا. فأعتقها الرسول ﷺ في إجلالٍ وتقدير وذهبت إلى أخيها وقالت: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرّجل نبياً فللسابق إليه فضله فى أي حال. الخلاصة هي أن عدى قَدِم المدينة، ودخل على رسول الله ﷺ، وهو في مسجده، وسلم عليه. فرد عليه التحية وقال ﷺ: " من الرجل؟ "، ثم قام رسول الله، فانطلق به إلى بيته، فلقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها. كان عدى نفسه رئيساً، وقد رأى بلاط الروم في الشام، لذا اندهش من أن ملك ملوك العرب يساوي نفسه بامرأةٍ عجوز. وقال في نفسه: ما هذا بملك، ثم دخل به رسول الله ﷺ بيته، وتناول وسادة من أُدم، وقدمها إلى عدى، وأصر عليه حتى جلس عليها. ثم قال ﷺ: "لَمَ يا عدى! " أولم تكن تسير في قومك بالمرباع، فإن ذلك لم يكن لك في دينك (النصرانية)،[2] ثم قال: لقد حل غضب الله باليهود وضل النصارى.[3]

موجز القول أن عدى أسلم، وثبت إسلامه، إلى الحد الذي لم يدع لعصر الردة أثراً في نفسه. وكان له مسحة من سخاء أبيه. ذات مرة طلب رجل منه مائة درهم فقال: أتطلب من ابن حاتم مبلغاً ضئيلاً كهذا، والله لا أعطيك قط.[4]

وفد ثقيف

(لعلك تذكر) أنه لما رفع رسول الله ﷺ حصار الطائف وشرع في الرحيل، قال الصحابة (رضوان الله عليهم): أدع عليهم بالسوء، فدعا الرسول ﷺ:

اللهم اهد ثقيفاً وأت بهم

---

(١) الإصابة، وزاد المعاد.

(٢) ابن هشام، إسلام عدى بن حاتم.

(٣) مسند الإمام أحمد، حديث عدى، الترمذي، تفسير سورة الفاتحة.

(٤) الإصابة في أحوال الصحابة، ذكر عدى.

(فكان من إعجاز هذا الدعاء النبوي أن هذه القبيلة التي لم تخضع بالسيف. قد أخضعها جلال النبوة فجأة، وقدمت إلى المسجد النبوي، فأسلمت عن بكرة أبيها).

كان يحكم الطائف زعيمان أحدهما عروة بن مسعود الذي قال عنه كفار مكة: إذا كان شعر مكة يتنزل فإنما يتنزل عليه. رغم أن عروة لم يكن قد دخل الإسلام حتى ذلك الحين إلا أنه كان لديه استعداد لهذا وكان صلح الحديبية تتويجاً لجهود سفارته. وحين رجع رسول الله ﷺ من الطائف هدى الله عروة إلى الإسلام؛ فلحق برسول الله ﷺ قبل أن يصل المدينة، وأسلم ورجع، ثم أعلن إسلامه بعد عودته وأخذ يُرغّب الناس في الإسلام، ولكنهم أساءوا إليه كثيرا. حتى أنه لما صعد إلى علية بيته ليؤذن لصلاة الفجر انهالت عليه السهام من كل اتجاه، حتى أُستشهد، وأوصى وهو في النزع الأخير بدفنه بجانب من استشهد من المسلمين في حصار الطائف.

(لم يكن لدماء عروة أن تهدر؛ فلما سمع صخر بن عيلة رئيس أحمس أن الرسول ﷺ يحاصر الطائف خرج إليه في بعض فرسانه، ولكن تصادف وصوله بعد رحيل النبي ﷺ عن الطائف وعودته إلى المدينة. فأقسم صخر بأنه لن يتنازل عن محاصرة القلعة، ما لم يُذعن أهل الطائف للرسول ﷺ. وفي النهاية أستسلم أهل الطائف، وزف صخر البشرى إلى رسول الله ﷺ، فجمع الرسول ﷺ الناس جميعاً في المسجد النبوي وجعل يدعو عشر مرات لأحمس).[1] بعد عدة أيام تشاور أهل الطائف فيما بينهم بأنه لم يعد بوسعهم شئ بعد ما أسلمت سائر بلاد العرب، خلاصة القول أنهم قرروا بعثة وفد إلى النبي ﷺ.

حين توجه وفدهم إلى المدينة ابتهج المسلمون إلى الحد الذي جعل المغيرة بن شعبه ﷺ يسبقهم جميعاً مسرعاً إلى رسول الله ﷺ يزف إليه البشرى، فالتقي في طريقة بأبي بكر الذي ما إن علم بالأمر فاستحلفه أن يسمح له بتبليغ هذه البشرى. كان المغيرة قد أرشد هؤلاء القوم إلى التحية اللائقة برسول الله ﷺ لكنهم ألقوا التحية وفقاً لأعرافهم القديمة.

كان أمير الوفد عبد ياليل أحد أشراف الطائف المشهورين. أدخله الرسول ﷺ إلى المسجد النبوي (رغم أنه كان ما يزال كافراً) (فتأثر برؤية مدى خشوع واستغراق

---

[1] أبو داود، باب إقطاع الأرضيين. يروى عن صخر أن النبي ﷺ قال: " اللهم بارك لأحمس في خيلها ورجالها". (أبو داود، ج٢، ص١٥٦). (المترجم).

المسلمين)[1] نصب هؤلاء القوم خيامهم في صحن المسجد وأقاموا بها. ورغم وجودهم وقت الصلاة والخطبة إلا أنهم لم ينضموا إلى المصلين. جرت عادته ﷺ ألا يذكر اسمه أثناء الخطبة. فقال هؤلاء القوم فيما بينهم: إن محمداً ﷺ يطلب منا أن نقر بنبوته بينما لم يُقر هو بها في خطبته. فلما سمع الرسول ﷺ بذلك شهد بأنه محمد رسول الله.

كان عثمان بن أبي العاص أصغر السفراء سناً. وكانوا يتركونه في مقرهم حين يذهبون إلى حضرة النبوة، على أنه طفل. إلا أنه برغم صغر سنه كان أكثرهم فطنه ونزوعاً إلى البحث والتدقيق، فاعتاد أن يتسلل سراً، حين يخلد السفراء إلى الراحة وقت القيلولة، ويذهب إلى حضرة النبي المصطفى ﷺ يتلقى تعاليم الإسلام ويدرس القرآن الكريم، حتى تعلم أغلب التعاليم الضرورية.

كان الرسول ﷺ يدعو هؤلاء القوم دائماً إلى الإسلام (فكان يذهب إليهم بعد صلاة العشاء فيتحدث إليهم بعد صلاة العشاء، ويتحدث إليهم بعض الوقت واقفاً. وكان أغلب حديثه لهم عما تعرض له في مكة من أذى على أيدي قريش، وما وقع من غزوات في المدينة)[2] فأعربوا عن استعدادهم لقبول الإسلام وفقاً لهذه الشروط:-

١- أن يُباح لنا الزنا؛ إذ أن أغلبنا يعيش دون زواج ولا غنى لنا عنه.

٢- أن يُباح لنا الربا؛ إذ أنه يمثل كل موارد الكسب والتجارة لدى قومنا.

٣- ألا تُمنع الخمر، إذ ينبت العنب في بلدتنا بوفرة، ويمثل لنا تجارةً كبرى.

لكن لم تتم الموافقة على أي من الالتماسات الثلاثة. وفي النهاية قالوا: إننا نرجع عن هذه الشروط، ولكن ما قولك في إلهنا؟ (كان اللات أكبر أصنام الطائف) فأمر النبي بهدمه. وهنا أصابتهم دهشةً بالغة بأنه هل هناك من يجرؤ على أن يمس إلههم الأعظم. فقالوا: إذا علم إلهنا بعزمك هذا فسيدمر المدينة كلها. عندئذٍ لم يتمالك عمر نفسه، وقال: ما أشد جهلكم، إن منات حجر محض، فقالوا: يا عمر! ما جئنا إليك، ثم قالوا للرسول ﷺ:

---

(١) أبو داود، باب ما جاء في خبر الطائف. يُروى عن عثمان بن أبي العاص أن وفد ثقيف لما قدموا على رسول الله ﷺ، أنزلهم المسجد ليكون أرق لقلوبهم". (أبو داود، ج٢، ص١٤٦). (المترجم).

(٢) أبو داود، باب تحزيب القرآن. روى عن أوس بن حذيفة قال: "كان كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا قائما على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام، وأكثر ما يحدثنا ما لقي من قومه من قريش". (أبو داود، ج١، ص٣٢٢). (المترجم).

ليس بوسعنا أن نمس منات. افعل ما بدا لك، واعفنا من هذا التطاول. فلبى لهم الرسول ﷺ هذا الرجاء.[1]

طالب هؤلاء القوم أيضاً بإعفائهم من الصلاة، والزكاة، والجهاد. بالطبع لم يكن من الممكن اعفاؤهم من الصلاة بأية صورة إذ أنها تقام خمس مرات في اليوم، أما الزكاة فتجب في العام مرة واحدة، والجهاد فرض كفاية، وليس فرضاً على الجميع، ويفرض في أحوال معينة فقط. ومن ثم لم يتم إجبارهم على هذين الأمرين، لأنه كان من المتوقع أن تتهيأ طبيعتهم لذلك تدريجياً بعد أن يعتنقوا الإسلام. ويروي جابر: سمعت رسول الله ﷺ إثر هذه الواقعة يقول: سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا.[2] لما حان موسم حجة الوداع بعد سنتين فقط، في الحجة لم يكن ثمَّ ثقيفي لم يعتنق الإسلام.[3]

حين عاد الوفد، بعث الرسول ﷺ أبا سفيان، والمغيرة بن شعبه، وفقاً للشرط، لهدم أكبر أصنام الطائف(اللات). لما وصل المغيرة إلى الطائف، وأراد أن يهدم المعبد، خرجت النساء من بيوتهن عاريات الرأس تبكين، وينشدن هذه الأبيات:-[4]

ألا أبكين دفاع

أسلمها الرضاع

لم يحنوا المصاع

كان تعدد الزوجات من العادات الشائعة بين العرب، فكان لغيلان بن مسلمة- أحد أشراف ثقيف المشهورين- عشرة زوجات، ولما أسلم، طلق سائر زوجاته، عدا أربعة منهن طبقاً للشريعة الإسلامية.[5]

وفد نجران سنة ٩هـ

نجران إقليم مترام الأطراف يقع على بعد سبعة منازل من مكة في اتجاه اليمن، وكان يستوطنه مسيحيو العرب. وكانت به كنيسة شاهقة يسمونها الكعبة، ويعتبرونها بديلاً عن البيت الحرام، وكان يسكن بها كبار الزعماء الدينيين الذين يُلقبون بالسيد وبالعاقب.

---

(١) زاد المعاد، نقلاً عن مغازي موسى بن عقبة.

(٢) أبو داود، كتاب الخراج والإمارة، باب ما جاء في خبر الطائف.

(٣) الإصابة، ترجمة جبير بن حيه الثقفي.

(٤) تاريخ الطبري.

(٥) جامع الترمذي وأبو داود، كتاب النكاح.

ولم يكن في بلاد العرب برمتها مركزاً دينياً للمسيحيين يضاهي هذه الكنيسة. يقول الأعشى في شأنها:-

وكعبة نجران حتم عليك حتى تناخي بأبوابها

تزور يزيد أو عبد المسيح وقيسا هم خير أوبابها

شُيدت هذه الكعبة على شكل ثلاثمائة قبة من الجلد، وكل من يدخلها فهو أمن، أما أوقاف هذه الكعبة فكانت تُدر مئتي ألف سنوياً.[1]

كتب لهم رسول الله ﷺ رسالة الدعوة إلى الإسلام، فقَدِم حُماة هذه الكعبة وأئمتها في صحبة ستين رجلاً إلى المدينة. وأنزلهم الرسول ﷺ المسجد، وبعد قليل حانت الصلاة، فأراد هؤلاء الناس الصلاة، ومنعهم الصحابة (رضوان الله عليهم)، لكن النبي ﷺ أمر أصحابه بأن يتركوهم يصلوا. فولوا وجوههم شطر الشرق وصلوا. كان أبو حارثة كبير الأساقفة رجلاً وقوراً وفاضلاً. وقد ولاه قيصر الروم هذا المنصب، وأقام له الكنائس والمعابد.[2]

سأل هؤلاء القوم الرسول ﷺ عن قضايا عديدة، فأجابهم عليه الصلاة والسلام بما أنزل الوحي، حيث نزلت ثمانون أية من سورة آل عمران إبان إقامتهم هذه. وكانت هذه الآيات تتضمن الرد على أسئلتهم. ومن هذه الآيات الكريمة، الآية التالية والتي تشرح جوهر الدعوة الإسلامية:-

"قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون"(آل عمران الآية ٦٤)

حين دعاهم الرسول ﷺ إلى الإسلام؛ قالوا: إنا مسلمون منذ البداية، فسألهم عليه الصلاة والسلام كيف يكونوا مسلمين وهم يعبدون الصليب ويقولون بأن عيسى ابن الله. وحين لم يؤمنوا بهذا؛ قال لهم النبي طبقاً للوحى: فلنبتهل، أي يصطحب كلانا أبنائه ونسائه ثم ندعو بأن لعنة الله على الكاذبين:-

" فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبنائنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين " (آل عمران: ٦١)

---

[1] وردت كل هذه التفاصيل في معجم البلدان، والعبارة الأولى نقلاً عن فتح الباري في ذكر وفد نجران.

[2] زاد العاد.

ولكن حين أصطحب الرسول ﷺ السيدة فاطمة الزهراء والإمامين الحسن والحسين (رضي الله عنهم)، وخرج ليبتهل، أشار على هؤلاء القوم رجل منهم بألا يبتهلوا إذ لو كان هذا الرجل نبياً حقاً، فستكون هذه هي نهايتنا. موجز القول أنهم عقدوا صلحاً على أن يدفعوا الخراج سنوياً.

بنو أسد سنة ٩ هـ

هذه هي تلك القبيلة التي كانت حليفة قريش في الغزوات، وينتمي إليها طليحة بن خويلد، الذي ادعى النبوة في عهد أبي بكر ﷺ. اعتنق هؤلاء القوم الإسلام سنة ٩ هـ، وبعثوا وفدهم، ولكن نزعة الفخر كانت ما تزال تسيطر عليهم. قَدِم سفرائهم إلى حضرة النبوة، وقالوا بلهجةٍ يشوبها المن: إنك لم تبعث لنا أية رسالة، بل إننا أسلمنا من تلقاء أنفسنا، فنزلت هذه الآية:

يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين. (سورة الحجرات: ١٧)

بنو فزاره سنة ٩هـ

كانت قبيلة طاغية وشديدة البأس. ينتمي إليها عيينة بن حصن، وقد أرسلت وفدها في رمضان سنة ٩هـ إبان عودة الرسول ﷺمن تبوك، وأسلمت.[١]

كنده سنة ١٠ هـ

كانت مدينة في إحدى أقاليم حضرموت (اليمن) بها دولة بني كنده. التي كان حاكمها آنذاك الأشعث بن قيس. قدموا سنة ١٠هـ على رسول الله ﷺ في ثمانين راكب بشوكة وعظمة، فدخلوا على الرسول ﷺ مسجده، وعليهم جبب الحيرة، وقد كففوها بالحرير. وكانوا قد اعتنقوا الإسلام من قبل، فلما رآهم الرسول ﷺ (وهم فى هذه الحال) قال: "ألم تسلموا؟" قالوا: "بلى" قال: " فما بال هذا الحرير في أعناقكم ؟ قال: فشقوه منها، وألقوه على الأرض.[٢]

زوّج أبو بكر ﷺ في عهد خلافته الأشعث بن قيس من أبنته أمّ فرده، ولما عُقد النكاح نهض على الفور وذهب إلى سوق الإبل، وكلما رأى ناقة قطع سنامها بالسيف،

---

[١] الزرقاني.

[٢] ابن هشام، وفد كنده.

حتىّ سقطت عشرات النياق على الأرض في فترة وجيزة. أندهش الناس، لو أنني كنت في إماراتي لفعلت أكثر من ذلك ثم دفع ثمن النياق، وقال للناس: هذه وليمتكم[1]. وقد شهد موقعتي القادسية واليرموك، وكان في صفوف علي في موقعة صفين.

عبد القيس

كانت هذه القبيلة تستوطن البحرين كما ذكرنا آنفاً. وقد دخلها الإسلام منذ أمد بعيد. أول من قدم من هذه القبيلة إلى المسجد النبوي ثلاثة عشر رجلاً في حوالي سنة ٥ هـ. سألهم الرسول ﷺ: من أنتم؟ قالوا: يا رسول الله ! نحن من بني ربيعة. فقال: **مرحباً لا خزايا ولاندامى**. فقالوا: يا رسول الله! إن بلدنا (البحرين) قصية وبيننا وبينها ضوال من ضوال الناس. ولا يمكننا أن نأتي إلا في الأشهر الحرم، فعلمنا أموراً نعمل بها دائماً ونعلمها لأهل بلدنا أيضاً. قال: إني آمركم بأربع أن توحدوا الله، وتصلوا، وتصوموا، وتؤدوا الخمس، وأنهاكم عن أربع: الدباء، والحنتم، والنقير، والمزفت.

كانت الدبا، والحنتم، والنقير، والمزفت أربعة أنواع من القدور تُعتّق بها الخمر في بلاد العرب. كان من عادته ﷺ أن يربط موعظته وإرشاده بالعيوب التي تختص بها القبيلة التي يعظها. تعجب القوم لماذا اختص الرسول ﷺ هذه القدور بالذكر. فسألوه: يا رسول الله ! ما علمك بالنقير ؟ قال: "بلى، جذع تنقرونه فتقذفون فيه من القطيعاء ثم تصبون فيه من الماء. حتى إذا سكن غليانه شربتموه، حتى إن أحدكم ليضرب ابن عمه بالسيف." وتصادف أن كان ضمن هذا الوفد رجلاً تعرض لمثل ذلك وما زالت جبهته موسومةً بأثر السيف، فكانوا يستترون عليه استحياءً.[2]

تذهب بعض الروايات إلي أن قبيلة عبد القيس هي التي سألت:[3] ففيم نشرب يا رسول

---

(١) الإصابة.

(٢) صحيح البخاري وصيح مسلم, باب الإيمان.

(٣) صحيح مسلم, باب الإيمان. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم، ج١، ص١٨٢" عن ابن عباس قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنا عذا الحي من ربيعة وقد حالت بيننا وبينك كفار مضرْ، فلا نخلص إليك إلا في شهر الحرام، فمرنا بأمر نعمل به وندعو إليه مَنْ وراءنا. قال: آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: الإيمان بالله ثم فسرها لهم فقال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن تؤدوا خمس ما غنمتم. وأنهاكم عن الدباء والحنتم والنقير والمقير". (المترجم).

الله ؟ فرد ﷺ: في أسقية الأدم.[١]

بنو عامر سنة ٩ هـ

كانت [٢] قبيلة بني عامر فرعاً لقبيلة العرب المشهورة قيس بن عيلان. وكان لبني عامر ثلاثة رؤساء آنذاك هم عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس، وجبار ابن سلمي. كان عامر وأربد طلاب جاه فقط، إذ كان عامر هذا هو الرجل الذي تسبب في العديد من الفتن قبل ذلك، وها هو الآن قَدِم، وهو يريد الغدر. أما جبار وسائر أفراد القبيلة فكانوا يريدون المودة بنية خالصة.

وصل عامر المدينة ونزل ببيت امرأة من بني سلول. وكانا جبار والصحابي الجليل كعب بن مالك ﷺ يتّبعان العادات القديمة، فنزل الأول مع ثلاثة عشر رجلاً في بيت الثاني، واحتفالا بهذه المناسبة صحبهم كعب إلى النبي. وأثناء الحديث خاطب بنو عامر الرسول ﷺ وقالوا: **أنت سيدنا**. فقال: السيد الله تبارك وتعالى. فقالوا: أنت أفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً. فقال: قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان.[٣]

قال عامر بن طفيل: يا محمد هناك ثلاثة أمور:- إما أن تقاسمني فتحكم أنت البدو وأحكم أنا الحضر، وإما أن تجعلني خليفة لك، وان لم توافق على هذا فآتى بغطفان وأهاجمك. كان عامر قد قال لأربد: إني سأشغل عنك محمداً، فإذا فعلت ذلك، فاعلُه بالسيف. فجعل عامر ينتظر، فإذا بأربد لا يحير شيئاً. حيث زاغ بصره. فلما خرجا قال رسول الله ﷺ:" اللهم اكفني عامر بن الطفيل" فأصيب عامر بالطاعون. وكان التزام الفراش أمراً مخزياً عند العرب، فقال عامر: ارفعوني على الفرس، فرفعوه، فمات عليه. أما جبار وعامة رجال القبيلة فقد عادوا من دار الإسلام أثرياء بثروة الإيمان.[٤]

---

[١] ورد ذكر وفد عبد القيس هذا في صحيح مسلم وسائر كتب الصحاح الأخرى. وتحدث أبن منده والدولابي وغيرهما عن وفد آخر لهذه القبيلة ضم أربعين رجلاً. ولذا أقر القسطلاني بأن هذه القبيلة كان لها وفدان. الأول حوالي سنة ٥ هـ والثاني سنة ١٠ هـ. وهذا بالضبط ما أورده الحافظ بن حجر في كتاب المغازي؛ إلا أنه حاول أن يثبت في شرح الإيمان أن كلتا الروايتين رواية واحدة.

[٢] قمت بإضافة هذا. "سيد سليمان الندوى".

[٣] المشكاة، باب المفاخرة نقلاً عن أبي داود.

[٤] أُقتبست عامة الوقائع من ابن إسحاق والزرقاني. أما خطبة عامر وواقعة موته، فقد وردتا في صحيح البخاري.

وفود حمير وغيرها

لم تكن في حمير إمارة مستقلة. بل أقام فيها أحفاد ملوك بنيَ حمير دويلات صغيرة، وأُطلق على هؤلاء الأحفاد مجازاً لقب "الملوك"، وكانوا يلقبون في اللغة العربية بلقب "قيل". وهم لم يفدوا بأنفسهم بل بعثوا رسلاً عنهم تقول: لقد اعتنقنا الإسلام.

وقَدِمت في تلك الفترة أيضاً وفود بهرا، وبني بكار وغيرها.

تأســـيس الدولـــة الإلهـــية

الاستخلاف في الأرض

" وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ " (النور: ٥٥)

(ينبلج[1] الفجر المنير بعد الليالي الحالكة، وتُرسل الشمس ضيائها بعـد انقشـاع الغيوم. كان العالم غارقاً في ظُلمات القهر والهوان والآثام، وإذا بفجر الخير والمحبة يشق هذه العتمة ويُفسح الطريق لأشعة شمس الحقيقة والوئام كي تملأ الدنيا بنورها الفيّـاض. وكما أن العرب أخذوا يعبدون إلها واحداً أصبحوا الآن تحت لواء دولة وحكومة واحـدة. فلقد وعدهم الله سبحانه وتعالى باستخلافهم في الأرض، كما في الآية الكريمة:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَـا اسْـتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْـدِ خَـوْفِهِمْ أَمْنـاً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً)(النور: من الآية٥٥)

لم تكن الدولة الإلهية والاستخلاف في الأرض من حتميـات النبـوة، ولكـن إذا اصطدمت الدعوة الإلهية بسياسة البلاد أو تعرقلت مسيرة البشرية الروحية بسبب تفشـي الفوضى والاضطراب في البلاد. عندئذ تنشد هذه المسيرة من ينجو بهـا مـن كبوتهـا ويمضي بها قدماً، فيبعث الله أنبيائه مكلفاً إياهم بهذه المهمة ومثـال ذلـك أن أرسـل الله إبراهيم[2] وموسى فخلصا قومهما من عبودية النمرود وفرعون. كان من الأنبياء من لـم

---

(١) أضفت هذا الباب كله. (سيد سليمان الندوي).

(٢) جدير بالذكر أن إبراهيم عليه السلام لم يكن محاربا فى يوم من الأيام؛ بل كان مسالمًا، ولم يرد في كتب التفاسير الإسلامية أو اليهودية أنه عليه السلام خاض أي نوع من أنواع الحروب، كما أنه عليه السلام لم يدخل فى حرب مباشرة مع ملوك الشام، وإنما ذهب لفك أسر لوط ابن أخيه فور سماعه خبر سبيه هو وقومه، وفقا لما ورد فى التوراة، سفر التكوين، إصحاح ١٤، الفقرات ٨ - ٢٤. وهذا نصه بالعبرية:

ויהי בימי אמרפל מלך - שנער אריוך מלך אלסר כדרלעומר מלך עילם ותדעל מלך גוים : עשו מלחמה את - ברע מלך סדום ואת - ברשע מלך עמורה שנאב מלך אדמה ושמאבר מלך צביים ומלך בלע היא - צוער : כל - אלה חברו אל - עמק השדים הוא ים המלח : שתים עשרה שנה

עבדו את – כדרלעומר ושלוש – עשרה שנה מררו : ובארבע עשרה שנה בא כדרלעומר והמלכים אשר אתו ויכו את – רפאים בעשתורת קרנים ואת – הזוזים בהם ואת – האימים בשוה קריתים : ואת החורי בהררם שעיר עד איל פארן אשר על – המדבר : וישובו ויבואו אל – עין משפט הוא קדש ויכו את – כל – שדה העמליקי וגם את – האמורי הישב בחצצון תמר : ויצא מלך – סדום ומלך עמורה ומלך אדמה ומלך צביים ומלך בלע הוא – צוער ויערכו אתם מלחמה בעמק השדים : את כדרלעומר מלך עילם ותדעל מלך גוים ואמרפל מלך שנער ואריוך מלך אלסר ארבעה מלכים את – החמשה : ועמק השדים בארות בארות חמר וינוסו מלך – סדום ועמורה ויפלו – שמה והנשארים הרה נסו : ויקחו את – כל – רכוש סדום ועמורה ואת – כל – אכלם וילכו : ויקחו את – לוט ואת – רכושו בן – אחי אברם וילכו והוא ישב בסדום : ויבוא הפליט ויגד לאברם העברי והוא שוכן באלוני ממרא האמורי אחי אשכול ואחי ענר והם בעלי ברית – אברם : וישמע אברם כי נשבה אחיו וירק את – חניכיו ילדי ביתו שמונה עשר ושלוש מאות וירדוף עד – דן : ויחלק עליהם לילה הוא ועבדיו ויכם וירדפם עד – חובה אשר משמואל לדמשק : וישב את כל – הרכוש וגם את – לוט אחיו ורכושו השיב וגם את – הנשים ואת – העם : ויצא מלך – סדום לקראתו אחרי שובו מהכות את – כדרלעומר ואת – המלכים אשר אתו אל – עמק שוה הוא עמק המלך : ומלכי – צדק מלך שלם הוציא לחם ויין והוא כוהן לאל עליון : ויברכהו ויאמר ברוך אברם לאל עליון קונה שמים וארץ : וברוך אל עליון אשר – מגן צריך בידך ויתן – לו מעשר מכל : ויאמר מלך – סדום אל – אברם תן – לי הנפש והרכוש קח – לך : ויאמר אברם אל – מלך סדום הרמותי ידי אל – יהוה אל עליון קונה שמים וארץ : אם – מחוט ועד שרוך – נעל ואם – אקח מכל – אשר – לך ולא תומר אני העשרתי את – אברם : בלעדי רק אשר אכלו הנערים וחלק האנשים אשר הלכו אתי ענר אשכול וממרא הם יקחו חלקם :

جدير بالذكر أيضا أن المؤلف ذكر أن عدد جيش إبراهيم عليه السلام هو ٤٠٠ جندى، فى حين أن إبراهيم عليه السلام لم يكن لديه جيش، وإنما عدد من الغلمان المتمرنين الذين يعملون على خدمته ويبلغ عددهم ٣١٨ غلام، وفقا لما ورد فى التوراة، إصحاح ١٤، فقرة ١٤. وهذا نصه بالعبرية:

וישמע אברם כי נשבה אחיו וירק את – חניכיו ילדי ביתו שמונה עשר ושלוש מאות וירדוף עד – דן :

أما فيما يتعلق بوعد الرب لإبراهيم عليه السلام بالأرض فقد ورد فى التوراة، سفر التكوين، إصحاح ١٥، الفقرات ٧، ١٨. وهذا نصه بالعبرية:

ויואמר אליו אני יהוה אשר הוצאתיך מאור כשדים לתת לך את – הארץ הזואת לרשתה : ביום ההוא כרת יהוה את – אברם ברית לאמור לזרעך נתתי את – הארץ הזואת מנהר מצרים עד – הנהר הגדול נהר – פרת :

يكن له نصيب في الحكم مثل عيسى ويحيى وكان منهم من كان في نصيبه امتلاك مقاليد الأمور في بلادهم مثل موسى وداود وسليمان عليهم السلام، ولكن رغم أن محمد ﷺ وعيسى ويحي فضلاً عن موسى وداود(عليهم جميعاً السلام) أيضاً كانوا يمتلكون زمام خزائن بلاد العرب، إلا أن بيت النبوة لم يكن عامراً بفراش وثير أو طعام شهي، ولم يكن على بدنه الكريم خلعةُ ملكية أو درهماً أو ديناراً، وفي ذلك الوقت نفسه كان كسري وقيصر ينخدعان بذلك كله، كان قد ظهر ذلك الملاك السماوي المعصوم البريء، يتيم مكة ذو الملابس الخشنة.

- وفيما يلي الحكمة من إقامة الدولة الإسلامية كما عبر عنها سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:-

" أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ" (سورة الحج ٣٩-٤١)

يوضح مجمل هذه الآيات علة وكيفية الغزوات في الإسلام، وواجبات الاستخلاف في الأرض وأهداف الدولة الإسلامية ومميزاتها عن سائر دول العالم. وسيرد الحديث بالتفصيل عن كل هذه النقاط في الجزئيين التاليين لهذا الكتاب. أما في هذا المقام فنحن بصدد الحديث إجمالياً وتفصيلياً عن أنظمة بلاد العرب.

تبين مما سبق أن الأمن قد استتب وقتئذ في سائر بلاد العرب. وانتهت الأزمات السياسية، كما انتشر دعاة الإسلام في جميع أرجاء البلاد. وصارت القبائل تتوافد من أقاص البلاد إلى المسجد النبوي. وكان فتح مكة، الذي تم في سنة ٨ هـ، بمثابة اليوم الأول للدولة الإسلامية. بعد ذلك عيّن الرسول ﷺ جُباةً للزكاة بين القبائل، بيد أن عناصر الخلافة الإلهية لم يكتمل تمامها إلا في أواخر سنة ١٠ هـ قبيل حجة الوداع.

ربما تظن بعض العقول الأوربية غير الفاحصة أن تلك المرحلة الجديدة من حياته ﷺ كانت نموذجًا مبهراً لحياة الملوكية الآسيوية. أما أصحاب العقول الدقيقة العارفون بالحقيقة، يعلمون جيدًا أن ملك العرب كان يسير في طرقات المدينة بملابس بالية، ويقوم

(المترجم).

بما يقوم به العبيد والمساكين، فقد كان يملك القلوب بلا حاجة إلى خدم أو حشم أو إلى جاه أو مال، لا يَعنيه أن يقف على بابه حاجب أو بواب، في غنى عن القصر وبمنأى عن السلطان. لم يكن في دولته ﷺ هيئة للشرطة أو مكاتب إدارية عليا، أو عدد كبير من المسئولين، أو وزراء للشورى، أو سياسيين، أو قضاه متخصصين. لقد كان هو ﷺ بذاته كياناً واحداً مسئولاً عن كل الواجبات والمهام، ولكن برغم ذلك كله لم يكن يعتبر نفسه جديراً بأن يزيد عن عامة المسلمين مثقال شعرةٍ إبل، فأمام عدله تتساوى فلذة كبده فاطمة رضي الله عنها مع أي مجرم عادي.

كانت الغاية الجوهرية لبعثته ﷺ هي الدعوة إلى الدين، وتهذيب الأخلاق، وتزكية النفوس؛ أما بقية المهام والواجبات فكانت ضمنيةً فحسب. ومن ثم نظّم ﷺ شئون البلاد الداخلية بقدر ما كان هناك من عوائق تعرقل دعوة التوحيد بسبب اضطرابات البلاد الداخلية. ومع ذلك لم يكن هذا الأمر أيضاً على جانب كبير من الأهمية.

شئون البلاد الداخلية

رغم أن عمره ﷺ كان قد بلغ ستون عاماً آنذاك إلا أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم بنفسه بكل مهام هذه الحكومة وهو في هذا السن. فيعّين الولاة والعمال، ويحدد المؤذنين والأئمة، ويرشح جباة الزكاة والجزية، ويعقد الصلح مع الأقوام الأخرى، ويوزع الضياع والممتلكات على قبائل المسلمين، ويُعد الجيش، ويبُت في القضايا، ويقضي على الحروب الأهلية بين القبائل، ويتخذ القرارات بشأن وضع منح للوفود، ويُنسّق أمور حديثي العهد بالإسلام، ويُصدر الفتاوى الشرعية، ويُطبق حدود الجرائم، ويقوم بأعمال الرقابة الإدارية على كبار المسئولين السياسيين في البلاد، فقد كان يولي بعض الصحابة على الأقاليم البعيدة، ويقوم هو ﷺ بنفسه بمهام ومسئوليات المدينة وما حولها.

كان من شأن الضغوط الجسيمة التي شكلتها أعمال ومهام هذه الحكومة الإلهية على ذهنه وقلبه ﷺ أن انهارت صحته ﷺ تماماً؛ إذ نستوضح من عامة الروايات أن الرسول ﷺ كان يصلي التهجد قاعداً في أخريات حياته ﷺ نظراً لضعف بدنه، ولكن ما الذي تسبب في هذا الضعف البدني. يجيب على ذلك ما صدر على لسان السيدة عائشة، والذي لا يفوقه أي تعبير عن حجم أعماله ﷺ الحياتية:-

إن عبدالله بن شقيق قال سألت عائشة أفكان يصلي قاعداً قالت حين حطمه الناس.(١)

قيادة الجيش

كان كبار الصحابة يقودون الجيش أو السرايا في الغزوات الصغيرة، لكنه ﷺ كان يقود الجيش بنفسه الطاهرة في الغزوات الكبرى. ومن ثم كان ﷺ قائداً للجيش في بدر، وأحد، وخيبر، وتبوك، وفي فتح مكة. هذا ولم يقتصر هدف قيادته ﷺ هذه على حث الجند على القتال والظفر بالنصر فقط بل كان هدفه ﷺ أيضاً من هذه القيادة أن يكون حارساً روحانياً وأخلاقياً للجيش. فالملاحظات التي أخذها على أدق تجاوزات مجاهدي الإسلام، قد وردت صريحة في الأحاديث، وصارت نواةً لقانون الحرب في الإسلام.

الإفتاء

(كان العديد من الصحابة يُصدرون الفتاوى بأنفسهم في عهد رسول الله، ولكن في الغالب الأعم كان رسول الله ﷺ هو الذي يقوم بهذه المهمة ولم يكن يحدد وقتاً معيناً لإصدار فتواه، بل كان يصدرها في كل حين وفي جميع الأحوال، أي أنه كان يجيب على الناس كلما سألوه عن أحكام الإسلام وتعاليمه، ولذلك أورد الإمام البخاري هذه الفتاوى في كتاب العلم مصنفاً إياها في أبواب عديدة (حسب موضوعها). وهكذا كانت الفتوى إحدى مهام الخلافة، وطورها عمر رضي الله عنه في عهده إلى حد كبير، وأقام لها شعبة مستقلة بذاتها).

الفصل في القضايا

تأسس منصب القضاء في عهد رسول الله ﷺ فعين ﷺ بنفسه علي رضي الله عنه و معاذ بن جبل قضاةً على اليمن، فيما كان ﷺ يفصل هو بنفسه في سائر قضايا المدينة وما حولها، ولم يكن هناك ما يحول بينه وبين الناس، فقد أورد الإمام البخاري باباً خاصاً بهذا الصدد بعنوان:– **باب ما ذكر أن النبي ﷺ لم يكن له بوّاب.**

وبناء عليه، لم يكن بوسعه ﷺ أن ينعم بالسكينة في بيته. كانت قضايا النساء تُقدم عموماً في حجرات النساء. وتزخر كتب الحديث بعدد كبير من الأحكام التي أصدرها ﷺ، بحيث إذا جُمعت فستملأ صفحات مجلد ضخم. وعلى أي حال فقد وردت القضايا المدنية

(١) أبو داود، كتاب الصلاة، باب صلاة القاعد.

في أحاديث في كتاب البيوع، كما وردت القضايا الجنائية في كتاب القصاص والديات وغيرهما.

التوقيعات والفرمانات

(كانت هذه المسألة على جانب كبير من الأهمية لدرجة أنه رغم عدم إنشاء ديوان خاص بصيغ جديدة في عهد رسول الله ﷺ، إلا أن الفرمانات قد ظلت على صورتها الأولى، وعُهد بها إلى زيد بن ثابت ثم تلاه معاوية. علاوةً على أن بقية الصحابة كانوا يقومون بها أيضاً بين حين وآخر. ويندرج بصددها:- خطابات الدعوة إلى الإسلام التي كان الرسول ﷺ يرسلها إلى السلاطين والملوك، والمعاهدات التي أبُرمت مع الأقوام الأخرى والتعاليم التي أُرسلت إلى قبائل المسلمين والفرمانات للعمال والجُباة، ودفتر الجند وبعض الأحاديث التي أملاها ﷺ على بعض الصحابة. وقد أفرد الزرقاني وغيره باباً خاصاً لأحكامه ﷺ وفرماناته.)

الضيافة

انمحت تقريباً الصفة الشخصية لرسول الله ﷺ بعد توليه منصب النبوة (إن جاز هذا التعبير) لأن الناس الذين كانوا يأتون إليه ﷺ بشأن ما يتعلق بالبعثة أو الدولة الإلهية وكان الرسول ﷺ يقوم باستضافتهم. كان أغلب الضيوف من المُقبلين على اعتناق الإسلام الذين تكلّف باستضافتهم بلال ﷺ منذ بدء البعثة بأمر من رسول الله ﷺ، لذا حين كان يدخل على رسول الله ﷺ مسلمٌ فقيرٌ ويتراءى بدنه شبه العاري أمام رسول الله ﷺ، كان صلوات الله وسلامه عليه يأمر بلال ﷺ بأن يقترض بعض المال ويُدبر لباساً وطعاماً لهذا الفقير. ولما يتيسر له ﷺ مالاً فيما بعد يُسدد به هذا القرض، حتى أنه ﷺ كان يُنفق ما يُهدى إليه في هذا المضمار.[1] كان الرسول ﷺ يحضّ الصحابة رضوان الله عليهم على تصدق لهذا الغرض، فتُجمع منهم الأموال وتنفق على مساعدة فقراء المهاجرين. ومن ذلك أن دخل على محمد ﷺ ذات مرة جماعة حفاة عراة من المهاجرين، يحمل كل منهم في

---

(١) أبو داود، كتاب الخراج والإمارة، باب في الإمام يقبل هدايا المشركين.وهذا نص الحديث كما ورد في أبي داود، ج٢، ص١٥٢،١٥٣.(عن عبد الله الهوزني قال: لقيت بلالا مؤذن الرسول بحلب، فقلت: يا بلال حدثني كيف كانت نفقة رسول الله ﷺ؟ قال: ما كان له شيء، كنت أنا الذي ألي ذلك منه منذ بعثه الله تعالى إلى أن توفي رسول الله ﷺ، وكان إذا أتاه الإنسان مسلماً فرآه عارياً يأمرني فأنطلق فأستقرض فأشترى له البردة فأكسوه وأطعمه... الحديث). (المترجم).

عنقه جراب سيف، ولا يكتسي بدنه إلا برداء واحد. فتغير وجه رسول الله ﷺ حين رأى حالتهم الرثة هذه، وأمر بلال أن يؤذن بالصلاة، وبعد أن فرغ من الصلاة، خطب في صحابته وحثهم على أن يمدوا يد العون لهؤلاء القوم، فقام رجل أنصاري بسرة كادت كفه أن تسقط بها وأفرغه أمام رسول الله ﷺ، فتحمس بقية الحاضرين، حتى رأيت كومتين من طعام وثياب أمام هؤلاء المهاجرين المعوزين.(١)

بعد فتح مكة بدأت الوفود القومية والدينية تترى من جميع أنحاء البلاد، فكان الرسول ﷺ يستضيفهم بنفسه، ويوفر لهم الرواتب وتكاليف السفر وفق الضرورة، مما كان له عظيم الأثر على القبائل. وقد بلغت عنايته ﷺ بالوفود إلى أن أحد الوصايا الأخيرة التي أوصى بها حال وفاته هذه الوصية:-

أجيزوا الوفود بنحو ما كنت أجيزهم.(٢)

عيادة المرضى

(كانت عيادة المرضى والمشاركة في تجهيز وتكفين الموتى فرضاً دينياً، ومن ثَم لما هاجر محمد ﷺ إلى المدينة، بات من المعتاد لأهل المحتضر أن يخبروا رسول الله ﷺ، فيذهب إليه ويستغفر له الله.(٣) ولكن عيادة المرضى كانت تدخل أحياناً ضمن مهام الخلافة، لأنه لما كان بعض الصحابة يريدون أن يتصدقوا أو يوقفوا ممتلكاتهم حال احتضارهم أو مرضهم، كان الرسول ﷺ يوجههم إلى الأسلوب الأمثل للقيام بذلك، ولما كان ﷺ لا يتبع جنازة المدينين، يضطر ورثتهم أو الصحابة الآخرون إلى سداد تلك الديون، وهكذا كان يتم البت في بعض المعاملات وفض بعض المنازعات. وقد وردت في الأحاديث أمثلة عديدة لذلك.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل، ج ٤، ص ٣٥٨.

(٢) صحيح البخاري، ج١، باب إخراج اليهود من جزيرة العرب. وهذا نص الحديث. ٩٤١ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَوْمُ الْخَمِيسِ وَمَا يَوْمُ الْخَمِيسِ ثُمَّ بَكَى حَتَّى بَلَّ دَمْعُهُ الْحَصَى فَقُلْتُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ وَمَا يَوْمُ الْخَمِيسِ قَالَ اشْتَدَّ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَعُهُ فَقَالَ ائْتُونِي أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لا تَضِلُّوا بَعْدِي فَتَنَازَعُوا وَمَا يَنْبَغِي عِنْدَ نَبِيٍّ تَنَازُعٌ، وَقَالُوا مَا شَأْنُهُ أَهَجَرَ اسْتَفْهِمُوهُ قَالَ دَعُونِي فَالَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ أُوصِيكُمْ بِثَلاثٍ أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَأَجِيزُوا الْوَفْدَ بِنَحْوِ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُمْ قَالَ وَسَكَتَ عَنِ الثَّالِثَةِ أَوْ قَالَهَا فَأُنْسِيتُهَا *(المترجم).

(٣) المسند ج ٣ صـ ٦٦.

الاحتساب

كان للاحتساب إدارة مستقلة بذاتها في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية. وكانت هذه الإدارة تقوم بمراقبة شتى معاملات التقايض والبيع والشراء والأخلاق والأعراف بين كافة الفصائل والأعراق أي على نطاق واسع، ولكن هذه الإدارة لم تكن قائمةً في عهد رسول الله ﷺ، فقد كان ﷺ يقوم بمهامها بنفسه، فكان يؤاخذ الناس فيما يتعلق بواجباتهم الدينية وسلوكياتهم الأخلاقية بين الوقت والآخر، كما كان ﷺ يراقب المعاملات التجارية، إذ كانت المعاملات التجارية في بلاد العرب بحاجة قصوى إلى التعديل والإصلاح، وبمجرد أن هاجر ﷺ إلى المدينة قام بتنفيذ ما تراءى له من تعديلات، ومن هنا يرجع الفضل في تطبيق الناس لهذه التعديلات إلى منهج الاحتساب. فكان الرسول ﷺ يراقب جميع الشئون والمعاملات بحزم بالغ، ويأمر الناس بتنفيذ التعديلات التي أُجريت عليها، ويفرض العقوبات على من لا يراعي منهم فقد ورد في كتاب البيوع بصحيح البخاري ما يلي:-

"لقد رأيتُ الناسَ في عهدِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يَبْتَاعونَ جزافاً ـ يَعني الطعامَ ـ يُضربونَ أن يَبيعوهُ في مكانِهم حتى يُؤْوُوهُ إلى رحالِهم»[1] كان ﷺ يذهب أحياناً إلى السوق بنفسه ليستطلع أحوال الناس. وذات مرة كان يمر بالسوق فرأى صُبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال: ما هذا يا صاحب الطعام؟ قال: أصابته السماء يا رسول الله. قال: أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من غش فليس مني.[2]

كانت محاسبة العمال من أهم مهام الاحتساب، فلما كان العمال يأتون لتسديد أموال الزكاة والصدقات التي جمعوها، كان ﷺ يسألهم كيف جمعوها، ليطمئن أنهم لم ينتهجوا سلوكاً جائراً في ذلك. ومن هذا أنه ﷺ كلّف ابن اللتبية بتحصيل الصدقات، فقام بمهمته، ثم عاد إلى رسول الله ﷺ، فسأله ﷺ كيف قام بها، فقال: هذا مال المسلمين، أما هذا فقد أُهدى إليّ؛ فقال ﷺ: " مَا بَالُ عَامِلٍ أَبْعَثُهُ فَيَقُولُ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي أَفَلا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ فِي

---

(١) وهذا نص الحديث، باب من رأى إذا اشترى طعاما جزافا: (٢١١٣) ـــ حدثنا يحيى بنُ بُكَير حدثنا الليثُ عن يونُسَ عنِ ابنِ شهابٍ قال: أخبرَني سالمُ بنُ عبدِ الله أنَّ ابنَ عمرَ رضيَ الله عنهما قال: «لقد رأيتُ الناسَ في عهدِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يَبْتَاعونَ جزافاً ــ يَعني الطعامَ ــ يُضربونَ أن يَبيعوهُ في مكانِهم حتى يُؤْوُوهُ إلى رحالِهم». (المترجم).

(٢) صحيح مسلم، ج١، صـ ٥٣، كتاب الإيمان.

بَيْتِ أُمِّهِ حَتَّى يَنْظُرَ أَيُهْدَى إِلَيْهِ أَمْ لا ؟! ثم أتبع ﷺ ذلك بخطبة عامة، أدان فيها هذا السلوك بشدة.[1]

الإصلاح بين الناس

جاء الإسلام للقضاء على التفرقة بين عامة الناس بصفة عامة ومحو الخلافات بين العرب بصفة خاصة. وعليه، عتبر الرسول ﷺ أن هذا فرض من الفروض الواجبة عليه، فكان إذا تناهى إلى علمه ﷺ شيئاً عن مثل هذه المنازعات, قدَّم تسويتها على جميع المهام الدينية الأخرى. ومثال ذلك أنه حين نشب نزاع بين عدة رجال من قبيلة بني عمرو بن عوف، وعلم الرسول ﷺ به، ذهب إليهم في بعض أصحابه (رضوان الله عليهم) للإصلاح بينهم، واستغرق هذا الأمر وقتاً طويلاً حتى حان وقت الصلاة، فأذن بلال ﷺ، ولكن الرسول ﷺ لم يأت حتى بعد اختتام الآذان، فانتظر الحاضرون قليلاً، ائتموا بأبي بكر ﷺ. فإذا برسول الله ﷺ يدخل عليهم ويخترق الصفوف حتى وقف في الصف الأول، ورغم أن أبا بكر ﷺ لم يكن يلتفت في الصلاة إلا أن الناس أخذت تصفق بقوة؛ فاضطر أن ينظر وراءه، فوجد الرسول ﷺ واقفا، وبالرغم من أن النبي ﷺ أشار إليه بأن يظل واقفاً كما هو؛ إلا أنه اعتبر أن إمامته الناس في وجود النبي ﷺ سوء أدب، لذا تراجع للخلف، وتقدم النبي ﷺ ووقف مكانه إماما.[2]

---

(1) البخاري، ج٢ صـ ١٦٨، كتاب الأحكام. وهذا نص الحديث (١٠٦٥): حَدِيثُ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلا مِنَ الأَسْدِ يُقَالُ لَهُ ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ عَمْرٌو وَابْنُ أَبِي عُمَرَ عَلَى الصَّدَقَةِ فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا لِي أُهْدِيَ لِي قَالَ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ مَا بَالُ عَامِلٍ أَبْعَثُهُ فَيَقُولُ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي أَفَلا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ فِي بَيْتِ أُمِّهِ حَتَّى يَنْظُرَ أَيُهْدَى إِلَيْهِ أَمْ لا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لا يَنَالُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْهَا شَيْئًا إِلا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةٌ لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةٌ تَيْعِرُ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتَيْ إِبْطَيْهِ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ مَرَّتَيْنِ * (المترجم).

(2) البخاري، ج١، صـ٣٧، كتاب الصلح. وهذا نص الحديث. ٢٢٤ حَدِيثُ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَهَبَ إِلَى بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ لِيُصْلِحَ بَيْنَهُمْ فَحَانَتِ الصَّلاةُ فَجَاءَ الْمُؤَذِّنُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ أَتُصَلِّي بِالنَّاسِ فَأُقِيمُ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَصَلَّى أَبُو بَكْرٍ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالنَّاسُ فِي الصَّلاةِ فَتَخَلَّصَ حَتَّى وَقَفَ فِي الصَّفِّ فَصَفَّقَ النَّاسُ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ لا يَلْتَفِتُ فِي الصَّلاةِ فَلَمَّا أَكْثَرَ النَّاسُ التَّصْفِيقَ الْتَفَتَ فَرَأَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَشَارَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنِ امْكُثْ مَكَانَكَ فَرَفَعَ أَبُو بَكْرٍ يَدَيْهِ فَحَمِدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ

ونشب خلاف ذات مرة بين أهل قباء، بلغ من احتدامه أن تراشق الناس بالحجارة، ولما علم الرسول ﷺ بذلك ذهب إليهم وصحابته الكرام (رضوان الله عليهم) ليصلحوا بينهم.[١] ومع أن البخاري قد كتب هاتين الواقعتين منفصلتين، إلا أن شارحي الحديث يذهبون في تحقيقاتهم إلى أن هذين جزءين لواقعة واحدة. وورد في روايات أخرى للبخاري أن الرسول ﷺ قد قطع تلك المسافة البعيدة مشياً على الأقدام.

كان لكعب بن مالك ﷺ ديناً عند ابن أبي حدرد، فطالبه به في المسجد، فأراد حدرد أن يعفيه من بعض القرض، لكنه أبى، فاحتدم النقاش بينهما وعلت أصواتهما، فخرج إليهم الرسول ﷺ، ونادى كعب ﷺ، فلباه، فَأَشَارَ إِلَيْهِ بِيَدِهِ أَنْ ضَعِ الشَّطْرَ مِنْ دَيْنِكَ قَالَ كَعْبٌ قَدْ فَعَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُمْ فَاقْضِهِ.[٢]

وهكذا كانت تقع أحداث يومية لا حصر لها من هذا النوع من الأحداث. عيّن ﷺ كبار الصحابة وذوى الكفاءات منهم في مناصب عديدة للقيام بالمهام الأخرى في المدينة وخارجها. وكانت وظيفة الكتابة هي أهم الوظائف من أجل كتابة الوحي، والرسائل، والأحكام والفرمانات. ولم يكن التعليم رائجاً بصفة عامة بين العرب قبل الإسلام، ولكنه كان من بين الأشياء التي أنعم بها الإسلام على العرب. وتقرر أن تكون فدية أسرى بدر هي تعليم أطفال المدينة، ومن هنا تعلم زيد بن ثابت الذي أُسندت إليه مهمة كتابة الوحي. ويثبت من رواية لأبي داود أن تعليم الكتابة كان من بين ما يتعلمه أصحاب الصفة.

عَلَى مَا أَمَرَهُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ اسْتَأْخَرَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى اسْتَوَى فِي الصَّفِّ وَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَلَّى ثُمَّ انْصَرَفَ فَقَالَ يَا أَبَا بَكْرٍ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَثْبُتَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ مَا كَانَ لابْنِ أَبِي قُحَافَةَ أَنْ يُصَلِّيَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لِي رَأَيْتُكُمْ أَكْثَرْتُمُ التَّصْفِيقَ مَنْ نَابَهُ شَيْءٌ فِي صَلَاتِهِ فَلْيُسَبِّحْ فَإِنَّهُ إِذَا سَبَّحَ الْتُفِتَ إِلَيْهِ وَإِنَّمَا التَّصْفِيحُ لِلنِّسَاءِ *(المترجم).

[١] البخاري.

[٢] وهذا نص الحديث: ٨٨٧ حَدِيثُ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ تَقَاضَى ابْنَ أَبِي حَدْرَدٍ دَيْنًا كَانَ لَهُ عَلَيْهِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا حَتَّى سَمِعَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى كَشَفَ سِجْفَ حُجْرَتِهِ وَنَادَى كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ فَقَالَ يَا كَعْبُ فَقَالَ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله فَأَشَارَ إِلَيْهِ بِيَدِهِ أَنْ ضَعِ الشَّطْرَ مِنْ دَيْنِكَ قَالَ كَعْبٌ قَدْ فَعَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُمْ فَاقْضِهِ * (المترجم).

الكتّاب

كانت الكتابة بمثابة مهمة نيابة عن رسول الله ﷺ، ولذا كان يُعهد بها إلى كبار الصحابة في أي أوقات متباينة كان أول من شُرف بهذا المنصب شرحبيل ﷺ بن حسن الكندي الذي كان من أوائل المسلمين، وهو أول من قام بكتابة الوحي في مكة. أما عبد الله بن أبي سرح ﷺ فكان أول كاتب في قريش. كما نال شرف هذا السبق في المدينة أُبي بن كعب. هذا وقد عُهد بهذا المنصب في أوقات متباينة إلى كلٍ من أبي بكر، وعمر، وعلي، وعثمان، والزبير بن العوام، وعامر بن فهيره، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن الأرقم، وثابت بن قيس بن شماس، وحنظلة، وابن الربيع الأسدي، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن رواحه، وخالد ابن الوليد، وخالد بن سعيد بن العاص، وعلاء بن الحضرمي، وحذيفة بن اليمان، ومعاوية بن أبي سفيان، وزيد بن ثابت (رضوان الله عليهم). وكانوا أحياناً يقومون جميعا بهذه المهمة. فمن ذلك أن كتب على رضى الله عنه بيده ميثاق صلح الحديبية، وكان عامر بن فهيرة يكتب الرسائل إلى الملوك، فيما كتب أبي بن كعب الرسالة التي بعثها الرسول ﷺ إلي أمراء عمان، وكتب ثابت بن قيس الخطاب الذي أُرسل إلى قطن بن حارثة، ولكن زيد بن ثابت كان يتولى هذه المهمة في الغالب حيث ذاع اسمه بين الصحابة مقترناً بها.[١]

امتاز زيد بن ثابت عن سائر هؤلاء الصحابة الكرام (رضوان الله عليهم) بأنه تعلم اللغة العبرية بأمر من رسول الله ﷺ، إذ اقتضت الضرورة ذلك حيث زادت علاقات ومعاملات الرسول ﷺ مع اليهود -الذين كانت العبرية لغتهم الدينية- بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، ومن ثم أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت تعلم العبرية، وتمكن زيد ﷺ من إجادتها في خمسة عشر يوماً.

الحكام والولاة

كانت مهام مثل الفصل في القضايا، وإقامة العدل، وإقرار الأمن، ورفع النزاع، تستلزم بالطبع العديد من الولاة والحكام، ومن ثم قام الرسول ﷺ بتعيين العديد من الصحابة حكاماً وولاة على مختلف أنحاء البلاد. وفيما يلي أسماء من شَرُف بهذا المنصب:

---

(١) وردت أسماء هؤلاء الصحابة الكرام (رضوان الله عليهم) وأحوالهم تفصيلا في "الزرقاني" ج١ صـ٣٧٣.

باذان بن سامان ﷺ	يرجع نسبه إلى بني بهرام كور، وهو أول من شُرف بالإسلام من ملوك العجم، ثم عينه الرسول ﷺ والياً على اليمن.
شهر بن باذان ﷺ	عينه النبي ﷺ والياً على صنعاء بعد باذان بن سامان.
خالد بن سعيد بن العاص	عينه النبي ﷺ والياً على صنعاء بعد وفاة شهر بن باذن.
مهاجر بن أُمية المخزومي ﷺ	عينه النبي ﷺ والياً على كنده وصدف، لكنه ما كاد أن يرحل حتى وافته المنية.
زياد بن لبيد الأنصاري ﷺ	كان والياً على حضرموت.
أبو موسى الأشعري ﷺ	كان والياً على زبيد، وعدن، وزمعة، وغيرها.
معاذ بن جبل ﷺ	والي جند.
عمرو بن حزم ﷺ	والي نجران.
يزيد بن أبي سفيان ﷺ	والي تيما.
عتاب بن أسيد ﷺ	والي مكة
علي بن أبي طالب ﷺ	تولى أخماس اليمن
عمرو بن العاص ﷺ	والي عمان
علاء بن الحضرمي ﷺ	والي البحرين

كان يتم تعيين هؤلاء الولاة؛ أي الحكام، مع أتساع رقعة البلاد، ووفقاً لما تقتضيه الضرورة. كانت اليمن أكثر بلاد العرب اتساعا وتحضرا التي استظلت بلواء الإسلام في عهد النبي ﷺ، حيث كان هذا البلد قد نعم بمملكة لفترة طويلة من قبل، ومن ثم قسّمها رسول الله ﷺ إلى خمسة قطاعات وجعل على كل واحد منها حاكمه الخاص. فكان خالد بن سعيد حاكماً على صنعاء، ومهاجر بن أبي أمية حاكماً على كندة، وزياد بن لبيد حاكماً على حضرموت، ومعاذ بن جبل حاكماً على جند، وأبي موسى الأشعري حاكماً على زبيد، وزمعة، وعدن، والمدن الساحلية.[١]

---

[١] الاستعاب، تذكرة معاذ بن جبل ﷺ.

على أية حال، اقتضت حكمته ﷺ أنه كلما عين مهاجراً عاملا على أي بلدٍ ما عَين معه أنصارياً أيضاً،[١] وفضلاً عن إدارة البلاد، والفصل في القضايا، وجباية الخراج، وغيرها من الأمور الأخرى كان نشر الإسلام، وتعليم سننه وفرائضه أكثر المهام، التي كانت منوطة بهولاء العمال، أولويةً. ونظراً لذلك كما ذكرنا سابقاً كان هؤلاء الرجال دعاة للدين ومعلمين للأخلاق في نفس الوقت الذي كانوا فيه حكاماً وولاة على الأقاليم. ورد في الاستيعاب في الحديث عن معاذ بن جبل رضي الله عنه:ــ

وبعثه رسول الله ﷺ قاضياً إلى الجند من اليمن يعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام ويقضيَ بينهم وجعل إليه قبض الصدقات من العمّال الذين باليمن

لذا حين كان هؤلاء الولاة يهمون بالرحيل إلى حيث وُلوا، كان رسول الله ﷺ يخبرهم بكل هذه المهام والواجبات. ومن ذلك أنه ﷺ أوصى معاذ بن جبل رضي الله عنه بهذه الوصية:ــ

إنَّكَ(معاذ بن جبل) تَأْتِي قَوْما مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إلاَّ الله. وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ. فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ. وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ. "[٢]

كان القيام بمثل هذه الواجبات يستلزم إطلاعاً واسعاً، وبُعد نظر، وقدرةً على الاجتهاد. ومن ثم كان النبي ﷺ يختبر منهج هؤلاء الرجال في الحياة ومدى ما لديهم من معرفة علمية. ومن هذا أن محمد ﷺ اختبر معاذ حين تأهب للرحيل لمعرفة كفاءته ومقدرته على الاجتهاد. فورد في الترمذي:-

---

[١] مسند ابن حنبل ج٥ صــ ١٨٦.

[٢] وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: ٩ حَدِيثُ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّه فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ *(المترجم).

قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن «كيف تصنع إن عرض لك قضاء قال: أقضي بما في كتاب الله. قال: فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فإن لم يكن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: أجتهد رأيي لا آلو. قال: فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدري ثم قال: الحمد لله الذي وفق رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يرضي رسول الله صلى الله عليه وسلم».[1]

لكن السعي إلى الاستحواذ على قلوب العرب كان يتطلب فوق كل ما سبق الرفق والسماحة والهوادة واللين التي يستحيل تقريباً اقترانها بما تتطلبه السلطة السياسية من سلطة وسطوة، ولذا كان رسول الله ﷺ يُلفت انتباه الحكام مراراً إلى كل تلك الأمور. فحين أمر ﷺ معاذ بن جبل ﷺ وصحابياً آخر بالرحيل لتولى حكم اليمن، أوصاهما أولاً بوصية عامة قال فيها: «يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا».(مسلم ج٢ ص٦٣ كتاب الإيمان).[2]

ولم يكتف بذلك، فلما وطأ معاذ بن جبل ﷺ ركاب المسافرين، اختصه النبي ﷺ بقوله:ـ

أحسن خلقك للناس. (ابن سعد، تذكرة معاذ بن جبل)

---

[1] وهذا نص الحديث: (٢١٦٣٠) ـــ حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي عون عن الحارث بن عمرو بن أخي المغيرة بن شعبة عن ناس من أصحاب معاذ من أهل حمص عن معاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن فقال: «كيف تصنع إن عرض لك قضاء قال: أقضي بما في كتاب الله. قال: فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فإن لم يكن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: أجتهد رأيي لا آلو. قال: فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدري ثم قال: الحمد لله الذي وفق رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يرضي رسول الله صلى الله عليه وسلم». (المترجم).

[2] وهذا نص الحديث: (٤٤٨٠) حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ : حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ شُعْبَةَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ بَعَثَهُ وَمُعَاذاً إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ: «يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا». كما ورد عنه ﷺ ١٠٠٣ حَدِيثُ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا بَعَثَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِي بَعْضِ أَمْرِهِ قَالَ بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا ".(المترجم).

إذا صح أن أية حكومة أو سلطة مهما بلغت من العطف والرحمة، تضطر حين تستولي على بلدٍ ما أن تنتهج العنف رغماً عنها لإخضاع المتمردين، فإنه من الطبيعي أن العرب كانوا أحق الناس بذلك، ولكن هذه التعاليم المقدسة التي أوصى بها رسول الله ﷺ لم تدع مجالاً لعنف الولاة في أية بقعة من بقاع العرب. لدرجة أن الصحابة (رضوان الله عليهم) كانوا يتعجبون بشدة حين شهدوا مظالم عمال الدولة فيما بعد، وكانوا يمنعوها حسب تعليمات رسول الله ﷺ، ومن ذلك أن هشام بن حكيم بن حزام، رأى ذات مرة بعض أنباط الشام وقد أُرغموا على الوقوف في قيظ النهار، فسأل الناس عن علة ذلك، فقالوا: إنما يُعاملون بهذه القسوة كي يدفعوا الجزية، فلما سمع ذلك، قال:

أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا.[1]

جباة الزكاة والجزية

رغم أن حسن إسلام العرب وقوة إيمانهم قد حفزهم على القدوم بأنفسهم لسداد الزكاة والصدقة، فبمجرد اعتناق أية قبيلة للإسلام كانت تفد إلى حضرة رسول ﷺ لتقدم بنفسها صدقات قومها وتنعم ببركة دعائه ﷺ، ولكن لم يكن هذا النهج كافياً لبلد تترامى أطرافه، وتتشعب حكومته، لذلك عيّن الرسول ﷺ . فضلا عن الولاة في غرة المحرم سنة ٩ هـ صيارفة، يختص كل منهم بإحدى القبائل فيسافر إليها بنفسه ويطوف بها فيجمع من أهلها زكاتهم وصدقاتهم ثم يعود فيقدمها إلى رسول الله ﷺ. وعلى كلٍ فقد كان أشراف القبائل هم جباتها ونتبين من الأحاديث أنهم كانوا يعينون بصفة مؤقتة.

على أي حال عين الرسول ﷺ هؤلاء المندرجة أسماؤهم للقيام بهذه المهمة في بلدان[2] وقبائل شتى:-

الاسم	منطقة التعيين	الاسم	منطقة التعيين
عدي بن حاتم	طيئ وبني أسد	أبو جهم بن حذيفة	بنو ليث
صفوان بن صفوان[1]	بنو عمرو	رجل هذيمي	بنو هذيم

---

(١) صحيح مسلم، باب الوعد الشديد لمن عذب الناس بغير حق.

(٢) وردت أغلب أجزاء هذا الفهرس في الطبقات الكبرى لابن سعد، جزء المغازي صـ١١٥. أما عمر بن الخطاب وأبي عبيده بن الجراح رضي الله عنهما فقد ورد ذكرهما في كتاب الصدقات، بصحيح البخاري، كما ورد ذكر بعض هؤلاء الصيارفة في كتاب الخراج، بصحيح أبي داود، أما بقيتهم فقد ورد ذكرهم في ذكر المصدقين وأمراء النبي ﷺ، في زاد المعاد، فتوح البلدان للبلاذري.

مالك بن نويره	بنو حنظلة	عمر بن الخطاب ﷺ	المدينة المنورة
بريده بن حضيب الأسلمي	غفار وأسلم	أبو عبيدة بن الجراح	مدينة نجران
عباد بن بشر الأشهلي	سليم ومزينة	عبدالله بن رواحة	مدينة خيبر
رافع بن مكيث الجُهني	جهينة	زياد بن لبيد	حضرموت
الزبرقان بن بدر	بنو سعد	أبو موسى الأشعري	إقليم اليمن
قيس بن عاصم	بنو سعد	خالد ﷺ	إقليم اليمن
عمرو بن العاص	بنو فزارة	ابان بن سعيد	البحرين
ضحاك بن سفيان الكلابي	بنو كلاب	محمد بن جزء الأسدي	جبابة الخمس
بسر بن سفيان الكلابي	بنو كعب	عمرو بن سعيد بن العاص	تيماء
عبدالله بن اللتيه	بنو ذبيان	عيينة بن حسن الفزازي	بنو تميم

كان النبي ﷺ يحرص على الأمور التالية في تعيين هؤلاء الجباة:-

١- يتم تسليمهم فرماناً موضحاً به الأنصبة الشرعية للزكاة حسب حجم الممتلكات! ولم يكن مسموحاً بانتقاء هذه الأنصبة من بين الممتلكات أو جباية ما يزيد عنها، إذ كان هناك أمر مطلق: **إياك وكرائم أموالهم** يطبقه هؤلاء العمال بحزمٍ شديد، ولا يستبيحون التجاوز عنه. فلما أراد بعض الناس أن يدفعوا ما يزيد عن الحق الشرعي عن تراض منهم، أبى هؤلاء العمال ذلك. يقول سويد بن غفلة: جاءنا صيرفي رسول الله ﷺ، و حين ذهبت إليه وجلست بجواره ذكر لي أولاً أنواع الحيوانات التي لا يُسمح بأخذها في الفرمان، وفي الوقت نفسه حين دخل رجل ومعه مجموعة من أجود سلالات الإبل، وقدمها له، أبي أن يأخذها. وهكذا أيضاً قدم له رجل عنزةً عشراء، فقال له: حرام علينا أخذها.[٢]

٢- اقتصرت ثروة العرب على قطعان الإبل والغنم، التي كانت ترعى على سفوح الجبال والبوادي، وكان صيارفة الدولة الإسلامية يتجشمون مشقة الذهاب إلى تلك

---

(١) الإصابة، باب صفوان.

(٢) النسائي صـ ٣٩٣.

الوديان ليجمعوا الزكاة بأنفسهم، ولا يُجبرون الناس على إحضار أنصبة الزكاة من الأموال أو الحيوانات إليهم، مثلما تجبر الحكومات الدنيوية الناس. يقول صحابي: بينما كنت أرعى الغنم في إحدى شعاب الجبل، جاءني رجل يمتطي ناقته، وقال: إني مبعوث رسول الله ﷺ، وجئتك هنا لجباية صدقة غنمك، فقدمت له شاةً ذات صغار، وحلوب، فقال: نهيت عن أخذها، فأعطيته حملاً آخر، فوضعه على ناقته ورحل.[1]

٣- رغم أن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم كانوا يبتعدون بأنفسهم عن أخذ كل أنواع المال الحرام بسبب عفتهم ونزاهتهم. ومن ذلك، فإنه لما بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة إلى يهود خيبر ليناصفهم محصولهم الزراعي وفق الميثاق المبرم بينهم وبين المسلمين، حاول اليهود أن يعطوه رشوةً، فقال مستنكراً:" يا أعداء الله! أتريدون إطعامي المال الحرام".[2] رغم كل هذه النزاهة التي اتسم بها الصحابة الكرام(رضوان الله عليهم) كان رسول الله ﷺ يحاسب الصيارفة منهم بعد عودتهم بنفسه. ومن ذلك أنه ﷺ بعث ذات مرة ابن اللتبية ليجمع الصدقات، ولما عاد وحاسبه ﷺ، قال: هذا مالكم، وهذا هدية أُهديت لي، فقال رسول الله ﷺ «فهلا جلستَ في بيتِ أبيك وبيتِ أمك حتى تأتيكَ هديتكَ إن كنتَ صادقاً؟ ولم يكتف ﷺ بذلك، فخطب خطبة عامة شدد فيها على نهي الناس جميعاً عن أخذ مثل هذا المال.[3]

---

(1) النسائي صـ٣٩٣.

(2) فتوح البلدان صـ٣١.

(3) صحيح مسلم ج ٢ صـ١١٣. وهذا نص الحديث كما ورد فى البخاري، باب محاسبة الإمام وعماله: (٧٠٣٧) حدَّثنا محمدٌ أخبرنا عَبدة حدَّثنا هشام بن عُروةَ عن أبيه عن أبي حُمَيد الساعديِّ «أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم استعملَ ابن الأُتبيَّةِ على صدقاتِ بني سُلَيم، فلما جاء إلى رسولِ اللَّه صلى الله عليه وسلم وحاسبه قال: هذا الذي لكم، وهذه هدية أهديتْ لي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فهلا جلستَ في بيتِ أبيك وبيتِ أمك حتى تأتيكَ هديتكَ إن كنتَ صادقاً؟ ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناسَ وحمِدَ اللَّه وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإني أستعمل رجالاً منكم على أمور مما ولا ني اللَّه، فيأتي أحدكم فيقول: هذا لكم وهذه هدية أهديت لي، فهلا جلسَ في بيت أبيه وبيت أمه حتى تأتيهُ هديته إن كان صادقاً؟ فواللَّه لا يأخذُ أحدكم منها شيئاً ــ قال هشام: بغيرِ حقه ــ إلا جاء اللَّه يَحمله يومَ القيامة. ألا فلأعرفن ما جاء اللَّهَ رجلٌ ببعير له رُغاء، أو ببقرةٍ لها خوار، أو شاةٍ تَيعر ــ ثم رفع يدَيهِ حتى رأيت بياضَ إبطَيْه ــ ألا هل بلَّغتُ؟». (المترجم).

٤- كان النبي ﷺ يحرم أموال الزكاة والصدقات على آل بيته، لذا لم يُعين صيرفيا منهم. فذات مرة دخل عليه ﷺ عبد المطلب بن زمعة بن الحارث وفضل بن العباس- ابن عمه ﷺ وابن أخيه ﷺ - وقالوا: قد صرنا في سن الزواج، ونرجو أن نتكرم بتعييننا صيارفة كبقية الناس حتى يمكننا أن ندخر من راتبها بعض المال فندبر مؤونة النكاح. لكنه ﷺ قال: إنَّ الصَّدَقَةَ حَرامٌ على محمدٍ وعلى آهل محمد.[1]

٥- كان النبي ﷺ يختار العمال بنفسه، ومن يتقدم بنفسه هذا المنصب، لا يُقبل طلبه. ومن ذلك أن جاء رجلان مع أبي موسى الأشعري وطلبا أن يكونا عاملين، قال رسول الله ﷺ لأبي موسى الأشعري:" ما تقول يا أبا موسى؟ "، قال: والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما وما شعرت أنهما يطلبان العمل، ورفض النبي ﷺ طلبهما معاً قائلاً: لن نستعمل على عملنا من أراده ولكن اذهب أنت يا أبا موسى فبعثه على اليمن.[2]

٦- كان العمال ينالون رواتبهم وفق احتياجاتهم الضرورية. فكان الرسول ﷺ يعلن على الملأ قوله: من يكتسب أكثر من النسبة التي حددناها، فهو خائن للأمانة، وبين ﷺ بنفسه نصاب الحاجة فقال:[3]

من كان لنا عاملاً فليكتسب زوجة، فإن لم يكن له خادم؛ فليكتسب خادماً، وإن لم يكن له مسكن، فليكتسب مسكناً ومن اتخذ غير ذلك فهو غال.

وقد حصل عمر بن الخطاب ﷺ على مثل هذه المكافأة في عهد رسول الله ﷺ، ولذا لما كان الصحابة رضوان الله عليهم لا يقبلونها في عهد خلافته من قبيل الزهد والورع والتنزه عنها كان عمر ﷺ يستدل بمنهج رسول الله ﷺ هذا.

القضاة

(فضلا عن كل هذه المناصب، قامت بعض المناصب الأخرى على صورتها البدائية. فعلى سبيل المثال كان رسول الله ﷺ يقوم بنفسه بالفصل في القضايا في الغالب الأعم، ولكنه ﷺ أحياناً ما كان يُسند هذه المهمة إلى هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم التالية أسماؤهم:- أبو بكر، عمر، عثمان، علي، عبد الرحمن بن عوف، ابن كعب، معاذ

---

[1] الصحاح، كتاب الصدقات.

[2] صحيح مسلم ج٢ صـ ١٠٩.

[3] ورد كلا الحديثين في باب أرزاق العمال، أبو داود ج ٢.

بن جبل رضى الله عنهم). وعلى الرغم من أن الشرطة لم تقم لها إدارة مقننة في عهد الخلفاء الراشدين، وأن بدايتها الفعلية كانت في عهد بني أمية،[1] إلا أن نموذجها الأول قد ظهر في عهد رسول الله ﷺ، وكان يقوم بمهامها قيس بن سعد ﷺ، ولذلك كان ملازماً لرسول الله ﷺ على الدوام.[2]

السياف

تولى مهمة إعدام المجرمين كلاً من:- الزبير ﷺ، علي ﷺ، والمقداد بن الأسود ﷺ، ومحمد بن سلمة، وعاصم بن ثابت، والضحاك بن سفيان الكلابي.[3]

المعاهدة مع الأقوام الأخرى

لم يعد للشرك وجود في بلاد العرب آنذاك، ولم يتبق سوى بضعة مستوطنات مجوسية، ونصرانية، ويهودية في مناطق متفرقة. كان بها مجموعة كبيرة من أولئك الذين أشرقت قلوبهم بنور الإيمان، لكنهم ما زالوا في مجملهم في غياهب الظلمات. إلا أنهم لم يستطيعوا التمرد على القوة الكاسحة للدولة الإلهية. فاستسلمت كل القبائل العربية للإسلام طواعيةً عدا يهود الحجاز. ولذا أخذ الإسلام على عاتقة كافة مسئوليات الحفاظ على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وأديانهم لقاء إلزامهم بدفع جزية رمزية(ديناراً واحداً سنوياً على كل رجل قادر عاقل بالغ)، ولا يلزم هذه القيمة أن تكون في صورة أموال نقدية، بل غلب على الجزية أن تتحدد وفقاً لمحاصيل ومنتجات المنطقة التي تجبى منها.[4]

كانت أولى مواثيق الصلح التي عقدها رسول الله ﷺ مع الأقوام الأخرى هي تلك التي عقدها ﷺ مع يهود خيبر، وفدك، ووادي القرى، وتيماء في سنة ٧ هـ فيما لم تكن آية الجزية قد نزلت بعد. وعليه، استقرت الشروط التي ارتضاها الطرفين، بعد نزولها

---

(١) فتح البخاري ج ١٣ صـ ٦١٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأحكام. روى عن أنس أن قيس بن سعد كان يكون بين يدي النبي ﷺ بمنزلة صاحب الشرط من الأمير. (البخاري، ج٤، ص٣٥٧)(المترجم).

(٣) زاد المعاد، ابن القيم.

(٤) المصدر السابق ج١ فصل الجزية.

أيضاً.[1] وكان الشرط الأساسي أن تُعامل تلك الأقوام كرعايا، ويحتفظوا بنصف محاصيلهم، ويعطون النصف الأخر للمسلمين.[2]

نزلت آية الجزية سنة ٩هـ فأجريت كل المعاهدات طبقاً لما تضمنته، وقَدِم مسيحيو نجران إلى المدينة يطلبون الصلح، فوافقهم رسول الله ﷺ. كانت شروط هذا الصلح كالتالي:- أن يعطوا المسلمين ألفي قطعة من الملابس سنوياً على أن يكون ذلك على قسطين، أحدهما في شهر رجب. وإذا نشبت ثورة أو فتنة في اليمن يُعيرون المسلمين هناك ثلاثين كيساً من الذهب، وثلاثين فرساً، وثلاثين عدداً من كل أنواع الأسلحة على أن يتكفل المسلمون بردها. وذلك كله لقاء ألا تُهدم كنائسهم، ولا يُطرد قساوستهم أو أساقفتهم، ولا يُكرهون على الخروج عن دينهم، ماداموا لا يتعاملون بالربا، ولا يشقون عصا الطاعة للمسلمين.[3]

كان كثير من المسيحيين واليهود يستوطنون القرى على حدود الشام. وفي غزوة تبوك تقرر في رجب سنة ٩هـ ديناراً سنوياً على كل رجل بالغ من الملاك المسيحيين واليهود في دومة الجندل، وأيلة، ومقناء جربا، وأذرح، وتباله، وجرش الذين لم يعتنقوا الإسلام، ورضوا بدفع الجزية، كما ألزموا باستضافة المسلمين حين يمرون عليهم[4] وهم مسافرين. ومن التسهيلات التي حظوا بها أن يسددوا الجزية في صورة أقمشة معافرية إذا

---

(١) زاد المعاد، ابن القيم ج١.

(٢) صحاح البخاري ومسلم وأبي داوود، ذكر خيبر. وهذا نص الحديث كما ورد في أبي داود، ج٢، ص١٤١" عن عبد الله بن عمر قال:لما افتتحت خيبر سألت يهود رسول الله ﷺ أن يقرهم على أن يعملوا على النصف مما خرج منها، فقال رسول الله: " أقركم فيها على ذلك ما شئنا" فكانوا على ذلك"(المترجم). وفتوح البلدان للبلاذري، ذكر فدك ووادي القرى وتيماء.

(٣) أبو داود، كتاب الخراج، باب أخذ الجزية. وهذا نص الحديث كما ورد في أبي داود، ج٢، ص١٤٩.(عن ابن عباس قال: صالح رسول الله ﷺ أهل نجران على ألفي حُلة، النصف في صفر والبقية في رجب يؤدونها إلى المسلمين، وعارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً، وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها، والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم إن كان باليمن كيد أو غدرة على أن لا تهدم لهم بيعة، ولا يخرج لهم قس، ولا يفتنوا عن دينهم ما لم يحدثوا حدثا أو يأكلوا الربا)(المترجم).

(٤) فتوح البلدان، للبلاذري.

لم يستطعوا سدادها نقداً.[1] هذا وقد عُقد الصلح مع مجوس البحرين على جزيةٍ بنفس هذا النصاب.[2]

أنواع الوارد والصادر

بناءً على الأغراض والمصالح المختلفة، اقتصرت موارد الدخل في الإسلام على خمسة أنواع فقط هي ١-الغنيمة ٢-الفيء ٣-الزكاة ٤- الجزية ٥- الخراج. وكانت جميعها سنوية عدا الموردين الأول والثاني. فكانت الغنيمة تُكتسب عند إحراز النصر فقط، وكان من السائد بين العرب أن يأخذ قائد الجيش ربع الغنيمة، والذي يطلق عليه المرباع، أما بقية الغنيمة فكان يأخذ منها كل رجل ما يقع تحت يده، ولم يكن ثمَّ نظام مقنن لتوزيعها. بعد غزوة بدر اختص الله سبحانه وتعالى نفسه بالغنيمة، وحددَّ خمسها لُينفق على مصالح المسلمين في الدولة الإلهية بسم الله ورسوله فقال تعالى:-

" **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول** " (**سورة الأنفال: ١**)

ومعنى ملكية الله ورسوله، أن الغنيمة ليست ملكية خاصة للجنود؛ بل لأمير المؤمنين أن ينفقها وفق ما يتراءى له، بما يناسب المصلحة العامة. وقسّم الله سبحانه وتعالى نصاب الخمس[3]، في هذه الآية الكريمة:-

" **واعلموا أنما غنمتم من شئٍ فإن لله خمسه وللرسول ولذي القُربى واليتامى والمساكين وابن السبيل** " (**سورة الأنفال: ٤١**)

بخلاف واقعةً أو واقعتين استثنائيتين، أعطى رسول الله ﷺ في إحداهما أموال الغنيمة للمهاجرين وفي الأخرى لحديثي العهد بالإسلام في مكة، كان منهجه ﷺدائما هو أنه يقسم بعد الخمس كمية قليلةً تلو الأخرى بالتساوي على الجنود للفرسان منهم ثلاثة أسهم وللمشاة سهم واحد. وورد في بعض الروايات أن الفرسان كانوا يحصلون على

---

[1] أبو داود، باب أخذ الجزية.

[2] أبو داود، باب أخذ الجزية من المجوس فقد روى عن معاذ أن النبي ﷺ لما وجهه إلى اليمن أمره أن يأخذ من كل حالم ديناراً،أو عدله من المعافري.(أبو داود، ج٢، ص١٤٩)(المترجم)، وتاريخ البلاذري، ذكر البحرين.

[3] أبو داود، حكم أرض خيبر، متفق عليه.

سهمين فقط[1]. وكان لا يدخل في المصاريف الشخصية عموماً إلا نصاباً ضئيلاً جداً من الخمس، وكان يُنفق في الغالب على مستحقيه المذكورين بالآية السابقة.

الزكاة

كانت فرضاً على المسلمين فقط، وكانت تُجبى من أربعة وجوه:- ١- الأموال النقدية، ٢- الثمار والمحاصيل، ٣- الماشية(عدا الخيل)، ٤- عروض التجارة. ولا تجب الزكاة على ما يقل عن مائتي درهم من الفضة، أو عشرين مثقالاً من الذهب، أو خمسة من الإبل. ويلزم للمحاصيل التي تُدفع عنها الزكاة أن يكون وزنها خمسة أوسق (٣٠٠صاعاً حسبما حقق ذلك الإمام الترمذي) فأكثر. كان يُجبى نصف الخمس عن الذهب والفضة. أما نصاب الزكاة عن الماشية فكان يحدد حسب أعدادها وأنواعها التي وردت بالتفصيل في سائر كتب الحديث والفقه. أما الأراضي فنوعان:- إحداهما التي تُروى بماء المطر أو بالماء الجاري فقط،[2] فيجبى عنها عشر محصولها. أما الأخرى فهي التي تسقي بالري، فيجبى نصف العشر من المحصول[3] ولم تُفرط الزكاة على الخضراوات.[4]

كانت للزكاة ثمانية مصارف، ذكرها القرآن الكريم بالتفصيل وهي: ١ـ الفقراء. ٢ـ والمساكين. ٣ـ والمؤلفة قلوبهم. ٤ـ وفي الرقاب. ٥ـ والغارمين. ٦ـ وابن السبيل. ٧ـ والعاملين عليها. ٨ ـ وفي سبيل الله. على أي حال كانت أموال الزكاة تنفق على مستحقيها في ذات الأماكن التي جُمعت منها. وقد اعتاد الصحابة الكرام(رضوان الله عليهم) على هذا الفرض لدرجة أنه لما ولى زياد صحابياً آخر عاملاً على إحدى البلاد، وعاد منها بعد أن قام بمهامه، طالبه زياد بالنقود التي جمعها، فقال: وضعناها حيث كنا نضعها على عهد رسول الله ﷺ [5]. ولما بُعث معاذ بن جبل عاملاً على اليمن، أوصاه رسول الله ﷺ عن أصول جمع الزكاة.

---

(١) أبو داود، كتاب الزكاة، باب العروض إذا كانت للتجارة. فعن سمرة بن جندب قال: أما بعد، فإن رسول الله كان يأمرنا أن نخرج الصدقة من الذي نُعد للبيع. (أبو داود، ج١، ص٣٥٧). (المترجم).

(٢) صحيح البخاري، ج١ صـــ٢٠١.

(٣) الترمذي، كتاب الزكاة.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) أبي داود، كتاب الزكاة، باب الصدقة تحمل في البلد إلى بلد.

تُؤخذ الجزية من الرعايا غير المسلمين لتأمينهم والسهر على راحتهم، ولم يكن لها في البداية نصاباً محدداً، فأمر رسول الله ﷺ أن يجبي دينار واحد عن كل رجل قادر بالغ ولم يكن على الصبيان أو النساء من جزية، كان نصاب جزية أيله ٣٠٠ ديناراً، أما أكبر نصاب للجزية في عهد رسول الله ﷺ فهو الذي كان يجبي من البحرين.

الخراج هو النسبة المتفق عليها(بين الدولة والمزارع) التي تؤخذ من محصول المزارع غير المسلم لقاء حق ملكية الدولة. كان هذا الخراج يجبى من خيبر وفدك، ووادي القرى، وتيماء وغيرها، فلما كان يحين وقت حصاد الفواكه والزروع كان رسول الله ﷺ يرسل صحابياً، فيقدر نصاب الخراج بعد معاينته للحدائق والحقول، ويكون التقدير بأقل من ثلث المحصول رداً للشبهات.[1] كان الخراج يجبى من الآخرين وفق الشروط المنصوص عليها، أما في خيبر وغيرها فقد عُقد الصلح على أن يدفعوا نصف محاصيلهم. كانت أموال الجزية والخراج تنفق على مرتبات الجند والنفقات الحربية، إذ كان جميع الصحابة (رضوان الله عليهم) جنوداً متطوعين عند الضرورة. وعندئذ كان رسول الله ﷺ يقسم كل ما جُمع من أموال الجزية والخراج على الجميع. في بادئ الأمر كان رسول الله ﷺ يعطي جزء من هذه الأموال للموالي، فكان هناك دفتر مسجل فيه أسماء الرجال، وينادي عليهم بحيث يكون للمتزوج نصابان وللعازب نصاب واحد.

الضياع والأراضي البور

كانت أغلب أراضي العرب صحراوية جرداء، وما كان فيها من مساحات خضراء كان تحت وطأة الاستعمار الأجنبي. أما بقية الأراضي فكانت بوراً، فلم تمارس الزراعة إلا في المدينة والطائف، أما بقية بلاد العرب فكانت تعيش على الاكتساب من التجارة أو السلب والنهب. كان سر حياة العرب غير الآمنة أنهم لم يحترفوا أية مهنة بعينها؛ لذا كان استتاب الأمن يستلزم الاهتمام بالأرض وخصوبتها، فقد أصبح هناك الكثير من الأراضي الخالية، بعد جلاء الأقوام الأجنبية عن الحجاز واليمن، التي كان إصلاحها أمراً ضرورياً.

ومن ثم حث الرسول ﷺ الصحابة الكرام(رضوان الله عليهم) على ذلك فقال:-

من أحيا أرضاً ميتة فهي له، من أحاط حائطاً على أرض فهي له.

---

[1] نقلاً عن المصدر السابق، باب في الحرص.

وتدعيماً لهذا الترغيب، قام رسول الله ﷺ بعد ترتيبات خاصة، وقرر بأن حقول وأراضي نخيل بني النضير وقريظة تابعة لملكية الدولة الإسلامية، ووزّعها ﷺ من جهته على المهاجرين والأنصار. أما أرض خيبر فكانت بعضها خالصة لهم ووُزعت بقيتها على المهاجرين والأنصار الذين شاركوا في صلح الحديبية، فيما ظل اليهود عملياً يساهمون معهم في زراعتها، وكانوا يأخذون نصف محصولها ويعطون النصف الآخر للملاك المسلمين. أما الأراضي التي كانت عامرة فقد أبقى ﷺ ملكيتها في يد صاحبها الأصلي وفق عدة شروط. ومن ذلك ما تم الاتفاق عليه في عك، وذى خيوان وأيله، وأذرح، ونجران وغيرها. منح الرسول ﷺ الصحابة الكرام(رضوان الله عليهم) الأرض البور كضياع فأعطى ﷺ وائل قطعة أرض في حضرموت. وأعطى ﷺ بلال بن الحارث المازني ﷺ قطعة أرض تصلح للزراعة وعدة عيون. وأعطى ﷺ الزبير بن العوام ﷺ ضيعةً قرب المدينة وأخرى لعمر بن الخطاب ﷺ في خيبر. كما منح بني رفاعة مساحة أرض قرب دومة الجندل.

كانت الضياع تُعطى بسخاءٍ وتوسع بحيث يأخذ كل رجل، وفق إمكانياته، المساحة التي يتخيرها ويمكنه تحديد رقعتها. فذات مرة أمر الرسول ﷺ الزبير ﷺ أن يعدو بفرسه في أرض ما، وحيثما أمكنه أن يصل تصير الأرض ضمن ضيعته، فعدا ﷺ فرسه، ولما توقف الفرس عند حد معين، قذف ﷺ سوطه عليه وتقررت مساحة ضعيفة حتى هذه النقطة التي سقط عليها السوط. كانت آبار المياه أشد حاجة تستلزمها أرض العرب الجافة. ولذلك حين قال ﷺ ذات مرة:- **من سبق إلى ما لم يسبقه إليه مسلم فهو له**، أسرع الناس جميعاً فخططوا وحددوا آبارهم.

أُشتهر هذا السخاء إلى الحد الذي جعل أهالي البلاد البعيدة يقبلون على رسول الله ﷺ يلتمسون منه، امتلاك الضياع. فقِدم إليه ﷺ الأبيض بن حمال من اليمن, وطلب منه ﷺ عين ملح، فأجاب ﷺ طلبه إلا أن صحابياً قال: إن ما أعطيته يا رسول الله إياه من ضياع يوجد بها بئر كبير للمياه. فاستعاده الرسول ﷺ منه لأن البئر كان بمثابة مرفقاً عاماً.

كان كل هذا السخاء والجود خاصاً بالأشياء التي لا تمت بصلة للمرافق العامة. فكان الرسول ﷺ يستبقى جميع الأشياء التي كانت تفيد المصلحة العامة على وضعها السالف. درج العرب منذ القدم على أن يحددوا مراعياً لماشيتهم، وأسموها "الحمى".

وكانت الإبل في بلاد العرب تتغذى على شجرة الأراك التي لم يكن عليها أي نوع من مثل هذه المحاذير والحدود، ولما أراد الأبيض بن الحمال أن يضمها إلى حماه منعه الرسول ﷺ قائلاً: **لا حمى في الأراك**. كان شائعاً أيضاً لدى العرب أن يخصص الأشراف وذوو النفوذ منهم مراعياً معينة لترعى فيها ماشيتهم، ولا يسمحون للآخرين باجتيازها مما تسبب في عناء عامة الناس لذا أبطل رسول الله ﷺ هذه العادة أيضاً.(١)

هكذا أيضاً كانت في بلاد العرب منطقة اُعتبرت مرعى عام، وكانت تتاخمها قبيلة بكر بن وائل من جهة، وبني تميم من الجهة الأخرى، وطلب حريث بن حسان هذه الأرض لبكر بن وائل، فقال: يَارَسُولَ الله ﷺ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَنِي تَمِيمٍ بِالدَّهْنَاءِ أَنْ لاَ يُجَاوِزْهَا إِلَيْنَا مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلاَّ مُسَافِرٌ أَوْ مُجَاوِزٌ فقالَ اكْتُبْ لَهُ يَاغُلاَمُ بِالدَّهْنَاءِ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ قَدْ أَمَرَ لَهُ بِهَا شُخِصَ بِي وَهِيَ وَطَنِي وَدَارِي، فَقُلْتُ: يَارَسُولَ الله إِنَّهُ لَمْ يَسْأَلْكَ السَّوِيَّةَ مِنَ الأَرْضِ إِذْ سَأَلَكَ إِنَّمَا هٰذِهِ الدَّهْنَاءُ عِنْدَكَ مُقَيَّدُ الْجَمَلِ ومَرْعَى الْغَنَمِ وَنِسَاءُ بَنِي تَمِيمٍ وَأَبْنَاؤُهَا وَرَاءَ ذَلِكَ، فَقَالَ أَمْسِكْ يَاغُلاَمُ صَدَقَتِ المِسْكِينَةُ المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ يَسَعُهُمَا المَاءِ وَالشَّجَرُ، وَيَتَعَاوَنونَ عَلَى الْفَتَّانِ».(٢)

---

(١) وردت كل هذه الوقائع في أبواب كتاب الخراج، أبو داود. كما ورد في أبي داود، ج٢، ص١٦٠: أن رسول الله قال: " لا حمى إلا لله ولرسوله". (المترجم).

(٢) وهذا نص الحديث كا ملا كما ورد فى سنن أبي داود: (٣٠٧٢) ــــ حدثنا حَفْصُ بْنُ عُمَرَ وَ مُوسَى بنُ إسْمَاعِيلَ ــ المَعنى وَاحِدٌ ــ قالاَ أخبرنا عَبْدُ الله بنُ حَسَّانَ الْعَنْبَرِيُّ قال حَدَّثَتْنِي جَدَّتَايَ صَفِيَّةُ وَ دُحَيْبَةُ ابْنَتَا عُلَيْبَةَ، ، وكَانَتَا رَبِيبَتَيْ قَيْلَةَ بِنْتِ مَخْرَمَةَ، وكَانَتْ جَدَّةَ أبِيهِمَا، أنَّها أخْبَرَتْهُمَا قَالَتْ: « قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، قَالَتْ، تَقَدَّمَ صَاحِبِي ــ تَعْنِي حُرَيْثَ بنَ حَسَّانَ وَافِدَ بَكْرِ بن وَائِلٍ ــ فَبَايَعَهُ عَلَى الإسْلاَمِ عَلَيْهِ وَعَلَى قَوْمِهِ، ثُمَّ قالَ: يَارَسُولَ الله اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَنِي تَمِيمٍ بالدَّهْنَاءِ أنْ لاَ يُجَاوِزْهَا إلَيْنَا مِنْهُمْ أحَدٌ إلاَّ مُسَافِرٌ أوْ مُجَاوِزٌ فقالَ اكْتُبْ لَهُ يَاغُلاَمُ بالدَّهْنَاءِ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ قَدْ أمَرَ لَهُ بِهَا شُخِصَ بِي وَهِيَ وَطَنِي وَدَارِي، فَقُلْتُ: يَارَسُولَ الله إنَّهُ لَمْ يَسْأَلْكَ السَّوِيَّةَ مِنَ الأرْضِ إذْ سَأَلَكَ إنَّمَا هٰذِهِ الدَّهْنَاءُ عِنْدَكَ مُقَيَّدُ الْجَمَلِ ومَرْعَى الْغَنَمِ وَنِسَاءُ بَنِي تَمِيمٍ وَأَبْنَاؤُهَا وَرَاءَ ذَلِكَ، فَقَالَ أمْسِكْ يَاغُلاَمُ صَدَقَتِ المِسْكِينَةُ المُسْلِمُ أخُو المُسْلِمِ يَسَعُهُمَا المَاءِ وَالشَّجَرُ، وَيَتَعَاوَنونَ عَلَى الْفَتَّانِ». (المترجم).

الشئـــون الـدينية

كان تنسيق الشئون الدينية للمسلمين أمراً ذا حتمية قصوى بين كل المهام الإدارية التي كانت ممارستها ضرورية لتوطيد استتباب الأمن في البلاد. كان لدى اليهود عشـيرة معينة للقيام بمهامهم الدينية، بحيث لم يكن لأية جهة أخرى الحق في القيـام بهـا. أمـا النصارى فلم تكن لديهم عشيرةٌ محددةٌ لذلك، بيد أنه قد انبثقت من بينهم طبقـة خاصـة أقرت المهام الدينية حقاً لها. أما الهندوس، فكل الطبقات لديهم ليست جـديرةً بالمناصـب والمهام الدينية عدا البراهمة، ولكن الشريعة التي أرسى محمد رسول الله ﷺ دعائمها فـي العالمين، لم تكن بحاجة إلى تحديد طبقةٍ أو أفراد عشيرةٍ بعينها للقيـام بهـذه الخـدمات الدينية، بل لكل امرئٍ نطق شهادة الإسلام الحق الكامل في ذلك.

دعاة الإسلام

كتب مؤرخ غربي مشهور أن الإسلام حين جاء المدينة، ترك منصب ومقام النبوة واتجه إلى الملوكية والسلطنة، وأصبح يعنى وقتئذ، التسليم والإقرار بحكومة محمد (صلى الله عليه وسلم)[1] بدلا من الإيمان بالله تعالى. كان هدف الإسلام هـو الـذي ذكـره الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة:-

" **الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر". (الحج: ٤١)**

وعليه، كان كل مسلم واعظاً ومحتسباً، داعيةً للدين وعالما بأمور الشريعة، وبعد أن بلغ الجهل بين العرب قبل الإسلام إلى اعتبار القراءة والكتابـة مثلبـةً عنـد أغلـب الأشراف، سار كل بيت مدرسة للفقه والحديث والتفسير. مع ذلك، ولأنه لم يتوفر الوقـت الكافي للتفقه والتدريس لدى كل فرد، تقرّر أن يكون بين كل جماعة وقبيلة مجموعة مـن الناس كي تقوم بمهمة الدعوة والتعليم. ومن ثم جاء في القرآن الكريم:-

"وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون" (التوبة: ١٢٢)

---

[1] انظر مقالة السيد فلهاوزن عن الإسلام (دائرة المعارف).

ولأن الغاية المنشودة كانت هي إعداد جماعة لا تكتفي بمعرفتها لأوامر ونـــواهي الشريعة فقط بل يغلب عليها الطابع الإسلامي بفضل ملازمتها الدائمة للرسول ﷺ، ولأنها تتحلى بكامل الصفات النبوية من قول وعمل وطريقة الحديث، والسلوك والخلـــق، وآداب المجلس؛ حتى يمكنها أن تمثل أسوة حسنة ونموذجاً حياً للأمة بأسرها. لذا كانـــت تـــأتي جماعة بذاتها من كل قبيلة عربية إلى رسول الله ﷺ، لتنعم بتعاليمه النورانية.

كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة فيأتون النبيﷺ فيسألونه عمّا يريدون من أمر دينهم ويتفقهوا في دينهم.[1]

كان الرسول ﷺ يرشد دعاة الإسلام – الذين كان يُرسلهم إلى سائر العرب- إلـــى أن يُحفزوا الناس على التخلي عن أوطانهم والسفر إلى المدينة للإقامة بها، وذلك ما سُمي بالهجرة. ومن ثم كانت البيعة نوعان، بيعة الأعراب، وبيعة الهجرة. فكانت بيعة الأعراب للبدو الذين كانوا يقيمون في المدينة عدة أيام فقط لتلقي العلم. وقد ورد في مختصر مشكل الآثار: أنه حين أسلم عقبة الجهني سأله الرسول ﷺ أيبايع بيعة الأعراب أم بيعة الهجرة؟ ثم كتب المؤلف يقول:-

إن البيعة من المهاجر توجب الإقامة عنده ﷺ ليصرف فيما يصرف فيه مـــن أمـــور الإسلام وبخلاف البيعة الأعرابية.

وعليه كانت عشائر عربية كثيرة تهاجر من أوطانها إلى المدينة. فلما قَدِم أبو موسى الأشعري ﷺ كان في صحبته ثمانون رجلاً، استوطنوا جميعاً المدينة. هذا ويتبين من خلاصة الوفاء أنه كان يوجد بالمدينة مساجد خاصة بقبيلة جهينة وغيرها من القبائل التي كانت قد هاجرت إلى المدينة وشيدت لنفسها مساجد مستقلة بعد أن كان المسجد النبوي لم يعد يسع الجميع.

وكانت هناك طرقاً عديدة للتعليم والإرشاد.

إحداها أنهم كانوا يتعلمون المسائل الضرورية في الفقه والعقائد في غضون عشرة أو عشرين يوماً أو شهراً أو شهرين، ثم يعودون إلى قبائلهم ليعلموهم. ومن ذلك أن مالك بن الحويرث قَدِم في رفقة وفد فأقاموا عشرون يوماً، تلقوا خلالها التعاليم الضرورية، ولما همّوا بالرحيل قال لهم الرسول ﷺ:

---

[1] تفسير خازن، سورة التوبة، وما كان المؤمنون لينفروا كافة.... الآية.

ارجعوا إلى أهليكم فعلّموهم ومروهم وصلوا كما رأيتموني أصلي.(البخاري، باب رحمة البهائم)

والطريقة الثانية كانت خاصة بالتدريس؛ وهى أن أناس كانوا يقيمون بالمدينة بصفة دائمة يتلقون قواعد الشريعة ومكارم الأخلاق. فكانت لهم صُفةً خاصة يدرسون فيها، وكان أكثر هؤلاء من الذين تحرروا من أسر كل ما يربطهم بالحياة الدنيوية الزائفة، ووهبوا أغلب أوقاتهم للزهد والعبادة وخدمة العلم.

ورد في المشكاة، كتاب العلم، أن الرسول ﷺ دخل المسجد ذات مرة وكان به حلقتان، حلقة ذكر وحلقة درس، فذهب عليه الصلاة والسلام وجلس في حلقة الدرس. كان يطلق على طلاب العلم في اصطلاح ذلك الزمان "القراء". ومن ثم يرد هذا الاسم في مواضع عديدة بالبخاري. وكان الرجال- الذين ذهبوا إلى عرينة للتعليم والإرشاد واستشهدوا[١] غدراً على أيدي المشركين- ممن تلقوا العلم في تلك الحلقات التعليمية. وأقترن ذكرهم في كتب الحديث بلقب (القراء) هذا. كتب أرباب السيرة أن الرجل الذي يتزوج من بين هؤلاء الناس كان يخرج منها وينضم إليها آخرون بدلاً منه.

على الرغم من أهل الصُفة كانوا معدمين لدرجة أنه لم يكن لدى أحدهم أكثر من ثوب واحد، كانوا يربطونه من العنق ويسدلونه إلى الركبتين بحيث يصلح رداءً وإزاراً في آن واحد، ومع ذلك لم يكن هؤلاء الرجال يألون جهداً، بل كانوا يجمعون الحطب من الغابات ويبيعونه، فيتصدقون بنصف ثمنه فيما يُوزع النصف الآخر فيما بينهم. ومن ثم كان الليل وقتاً للدرس وتحصيل العلم. يتضح من بعض الروايات أن عبادة بن الصامت ﷺ كان من بين معلمي هذه الفصول الدراسية إذ كان يُعرف بعلمه، وهو من أرسله عمر ﷺ إبان خلافته إلي فلسطين من أجل تعليم الناس هناك الفقه والقرآن الكريم. روى

---

(١) صحيح البخاري، غزوة بئر معونة. وهذا نص الحديث (٣٩٩٩) حدَّثنا أبو مَعْمر حدَّثنا عبدُ الوارث حدَّثنا عبدُ العزيز عن أنسٍ رضيَ اللّه عنه قال: «بعثَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم سبعينَ رجُلاً صالحاً لحاجةٍ يُقالُ لهم القرّاء، فعَرَض لهم حيّانِ من بني سُليم، رِعلٌ وذكوانَ، عندَ بئر يقال لها بئرُ مَعونة، فقال القومُ: واللّه ما إياكم أردنا، إنما نحن مجتازون في حاجة للنبي صلى الله عليه وسلم، فقتلوهم، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم عليهم شهراً في صلاةِ الغداة، وذلكَ بَدءُ القُنوت، وما كنّا نَقنتُ». قال عبد العزيز: وسألَ رجلٌ أنساً عن القنوت: أبعدَ الركوع، أو عندَ فراغٍ من القراءةِ؟ قال: لا. بل عند فراغٍ من القراءة. (المترجم).

عن عبادة بن الصامت في أبي داود:ـــ **علّمت أناساً من أهل الصفة القرآن والكتاب فاهدى إلىّ رجل منهم قوساً (صـــ١٢٩ ج٢)**

وفي رواية أخرى أن الرسول ﷺ لم يأذن لعبادة ﷺ بقبول هذه الهدية. ويتبين أيضاً من بعض الروايات أنه فضلاً عن حلقات أصحاب الصفة العلمية، كان ثمَّ مكان آخر يأوي إليه أصحاب الصفة ليتعلموا فيه ليلاً، فقد ورد في مسند الإمام ابن حنبل:-

عن انس، كانوا سبعين فكانوا إذا جهم الليل انطلقوا إلى معلّم لهم بالمدينة فيدرسون الليل حتى يصحبوا (٣٤٠صـــ١٣٧٧)

ندر شيوع القراءة والكتابة عند العرب، ولكن حين ظهر الإسلام بدا مقترناً بفن الكتابة. فكان تدوين القرآن الكريم من آجلّ الضروريات شأناً. وعليه اهتم الرسول ﷺ منذ البداية بتوسيع نطاق الكتابة. وقد ذكرنا فيما سبق عند الحديث عن غزوة بدر أن من لم يستطع دفع الفدية من الأسرى، أُطلق سراحه على أن يمكث في المدينة فترة يُعلم خلالها عدداً من المسلمين الكتابة. ويُؤكد حديث أبى داود المذكور آنفاً أن الكتابة كانت ضمن ما كان يتعلمه أصحاب الصفة. إذ أن عبادة بن الصامت ﷺ كان يقوم بتعليم الكتابة بجانب القرآن الكريم.

بناء المساجد

كان الرسول ﷺ ينفر بطبعه من الجاه والخيلاء، ولذا لم يكن يحبذ إنفاق المال على الطين والحجارة، ولكن لأن ذكر الله والتسبيح بحمده كان الغاية المنشودة لكل الأمور الإسلامية. لذا كان المسجد أول ما تُعنى به القبائل بمجرد إسلامها، علاوة على أنه لم يكن مقراً لإقامة الصلاة فحسب، بل كان في الحقيقة أيضاً أداةً تُسهم بصورة فعّالة في تأصيل أواصر الوحدة والعلاقات الاجتماعية بين أفراد القرية أو الحي من المسلمين، إذ كانوا يلتقون فيه خمس مرات يومياً، ومن ثم كان الرسول ﷺ يؤكد بشدة على صلاة الجماعة وكان في المدينة ذاتها قبائل كثيرة، وكان لكل منها حيها الخاص بها وبه مسجدها.

كتب أبو داود في كتاب المراسيل بسندٍ أن المدينة وحدها كانت تُعمر في عهد رسول الله ﷺ بتسعة مساجد، يتصدر كل مسجد منها حياً من الأحياء. وأسمائها كالتالي:- مسجد بني عمر، مسجد بني ساعده، مسجد بني عبيد، مسجد بني سلمة، مسجد بني رايح، مسجد بني زريق، مسجد غفار، مسجد أسلم، مسجد جهينة، وبالإضافة إلى ذلك ورد في روايات متفرقة أسماء مساجد لقبائل عديدة من بينها: مسجد بني خدارة، مسجد بني أمية

(قبيلة أنصارية)، مسجد بني بياضة، مسجد بني الحبلى، مسجد بني عصية، مسجد أبي فيصلي، مسجد بني دينار، مسجد أبي بن كعب، مسجد النابغة، مسجد بن عدي، مسجد بلحارث بن خزرج، مسجد بني حطمة، مسجد الفضيح، مسجد بني الحارثة، مسجد بني ظفر، مسجد بني عبد الأشهل، مسجد واقم، مسجد بني معاوية، مسجد بني قريظة، مسجد بني وائل، مسجد الشجرة.[١]

يثبت من الروايات أيضاً أن بناء المساجد خارج نطاق المدينة المنورة قد اقترن بنشر الإسلام، ومن ثم عمُرت ربوع العرب ببيوت الله التي يرفع فيها اسمه خمس مرات في اليوم والليلة. لذلك اعتاد الرسول ﷺ في غزواته أن ينتظر طوال الليل فإذا ما سمع آذان الفجر، يشن الهجوم. ومن هذا أنه في غزوة، تناهى إلى سمعه الكريم ﷺ نداء الله أكبر فقال ﷺ : عَلَى الْفِطْرَةِ، ولما سمع بعدها **أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله** قال ﷺ : «خَرَجْتَ مِنَ النَّارِ» فَنَظَرُوا فَإِذَا هُوَ رَاعِي مِعْزًى[٢].وهذا أيضاً ما أُمر به كل مجاهدي الإسلام، ففي ذات مرة أرسل النبي ﷺ إحدى السرايا موصياً إياها بـــ:ـــ **إذا رأيتم مسجداً أو سمعتم صوتاً فلا تقتلوا أحداً.**[٣]

نستنتج من هذه الروايات أمرين أحدهما: مدى اتساع رقعة الإسلام في عهد النبوة، والثاني: أن القبائل التي كانت تدخل الإسلام، كانت تبني مساجد خاصة بها، وكان يرفع فيها الأذان خمس مرات في اليوم والليلة .

على الرغم من أن المساجد التي بنيت في ذلك الحين لم تصمد طويلاً أمام عوامل التعرية نظراً لما شاع وقتئذ من شظف العيش الذي ترتب عليه بالطبع بساطة بناء هذه المساجد. وبذا اندثر جزء كبير من هذه الباقيات الصالحات، ودفن معها اسمها وتاريخ

---

(١) اقتبست كل هذا التفاصيل نصياً من شرح البخاري،ج٢،صـــــ٤٢٨.

(٢) صحيح مسلم، الجزء الأول، كتاب الأذان، باب الإمساك عن الإغارة على قوم في دار الكفر إذا سُمع فيهم الأذان. وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح مسلم: (٧٩٨) وحدثني زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ. حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ يَعْنِي ابنَ سَعِيد، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ حَدَّثَنَا ثَابِتٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يُغِيرُ إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ، وكَانَ يَسْتَمِعُ الأَذَانَ، فَإِنْ سَمِعَ أَذَاناً أَمْسَكَ، وَإِلاَّ أَغَارَ، فَسَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ: الله أَكْبَرُ الله أَكْبَرُ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «عَلَى الْفِطْرَةِ» ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «خَرَجْتَ مِنَ النَّارِ» فَنَظَرُوا فَإِذَا هُوَ رَاعِي مِعْزًى. (المترجم).

(٣) أبو داود، كتاب الجهاد في دعاء المشركين.

بناءها. إلا أن تواريخ إنشاء المساجد التي صمدت لفترة طويلة تُبين أن سائر أنحاء العرب لم تكن تخلو من هذه الآثار الدينية.[١]

حين أسلمت قبيلة عبد القيس البحرينية، بنت مسجدها الذي شهد أول صلاة للجمعة بعد مسجد رسول الله ﷺ . فورد في كتاب الجمعة بالبخاري:-

عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: إن أوّل جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ في مسجد عبد القيس بجواثي من البحرين.

ولما أسلم أهل الطائف، أشار عليهم الرسول ﷺ أن يقيموا مسجدهم في الموضع الذي كان فيه إلههم.[٢] روي عن ناطق بن علي أنه قال: حين امتثل قومي بين يدي رسول الله ﷺ وقلنا ! أنَّ بِأَرْضِنَا بَـيْعَةً لَنَا، فأعطانا ﷺ ماء وضوئه، وقال: «اخرجوا فَإِذَا أَتَيْتُمْ أَرْضَكُمْ فَاكْسِرُوا بِـيعَتَكُمْ وَانْضَحُوا مَكَانَهَا بِهَذَا الْمَاءِ وَاتَّخِذُوهَا مَسْجِدا».. فعاد هؤلاء القوم إلى بلدهم، وبنوا مسجداً وفق ما أرشدهم إليه الرسول ﷺ.[٣]

رغم أن بلاد العرب جميعاً كانت تعمُر بالكثير من مِثل هذه المساجد إلا أننا لا نستبين أية معلومات من كتب الحديث إلا عن المساجد التي بُنيت في المدينة وما حولها. ورد في صحيح مسلم أن قرية الأنصار التي كانت تتاخم المدينة، قد أُرسل إليها منادياً من قبل رسول الله ﷺ، في إحدى أيام عاشوراء فنادى فيهم: من كان صائماً فليتم صومه، ومن أفطر فليصم بقية يومه.

---

(١) النسائي، كتاب المساجد، ج١ ص١١٨

(٢) زاد المعاد، ج١ صـــــ٤٨٥ برواية أبي داود الصياصي.

(٣) سنن النسائي، كتاب المساجد ص١١٨. وهذا نص الحديث: (٦٩٩) أَخْبَرَنَا هَنَّادُ بْنُ السَّرِيِّ عَنْ مُلاَزِمٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بَدْرٍ عَنْ قَيْسِ بْنِ طَلْقٍ عَنْ أَبِـيهِ طَلْقِ بْنِ عَلِيٍّ، قَالَ: خَرَجْنَا وفدا إِلَى النَّبِـيِّ صلى الله عليه وسلم فَبَايَعْنَاهُ وَصَلَّيْنَا مَعَهُ وَأَخْبَرْنَاهُ أَنَّ بِأَرْضِنَا بَـيْعَةً لَنَا فَاسْتَوْهَبْنَاهُ مِنْ فَضْلِ طَهُورِهِ فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ وَتَمَضْمَضَ ثُمَّ صَبَّهُ فِي إِدَاوَةٍ وَأَمَرَنَا فَقَالَ: «اخرجوا فَإِذَا أَتَيْتُمْ أَرْضَكُمْ فَاكْسِرُوا بِـيعَتَكُمْ وَانْضَحُوا مَكَانَهَا بِهَذَا الْمَاءِ وَاتَّخِذُوهَا مَسْجِدا». قُلْنَا: إِنَّ الْبَلَدَ بَعِيدٌ وَالْحَرَّ شَدِيدٌ وَالْمَاءَ يَنْشُفُ فَقَالَ: «مُدُّوهُ مِنَ الْمَاءِ فَإِنَّهُ لاَ يَزِيدُهُ إِلاَّ طيبا». فَخَرَجْنَا حَتَّى قَدِمْنَا بَلَدَنَا فَكَسَرْنَا بِـيعَتَنَا ثُمَّ نَضَحْنَا مَكَانَهَا وَاتَّخَذْنَاهَا مَسْجِدا فَنَادَيْنَا فِيهِ بِالأَذَانِ قَالَ: وَالرَّاهِبُ رَجُلٌ مِنْ طَيِّءٍ فَلَمَّا سَمِعَ الأَذَانَ قَالَ: دَعْوَةُ حَقٍّ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ تَلْعَةً مِنْ تِلاَعِنَا فَلَمْ نَرَهُ بَعْدُ. (المترجم)

بعد ذلك طبق الصحابة الكرام الأمر الذي ورد في هذا الإعلان بجزم تام فصاموا، وأمروا أولادهم بالصيام، حتى أنهم كانوا يصطحبوهم إلى المساجد، فإذا ما بكوا من الجوع حاولوا إرضائهم بالحلوى.(١)

أفرد الإمام البخاري في صحيحه باباً كاملاً بعنوان: "هل من الممكن نسبة المساجد إلى أفراد أم لا ؟ وذُكر صراحةً في الأحاديث التي أوردها في هذا الباب مسجد بني الزريق. كان أنس بن مالك ﷺ يصلي العصر مع رسول الله ﷺ ثم يذهب إلى قريته فيجد الناس ينتظرونه في مسجدهم. فيقول لهم: لقد قُضيت الصلاة في المسجد النبوي عندئذ كانوا يقيموا الصلاة.(٢) يتضح جلياً من هذه الروايات أن مساجد هذه القبائل كانت مستقلة بذاتها. كما يثبت أيضاً من روايات كُتب الصحاح أن بعض الناس كانوا يصلون في جماعة رسول الله ﷺ ثم يذهبون إلى مساجد أحيائهم فيؤمون قومهم فيها. وهذا ما كان يفعله معاذ بن جبل. فضلاً عن القبائل التي كانت تستوطن المدينة، كانت قبائل المهاجرين تبني مساجد لها أيضاً. ورد في طبقات ابن سعد هذا القول:ـــ

ولجهينة مسجد بالمدينة(٣)

فضلاً عن استيفاء الاحتياجات الدينية لدى القبائل كان السبب الرئيسي الآخر وراء بناء المساجد، هو أن الصحابة (رضوان الله عليهم) كانوا يتبركون ببناءها في المواضع التي صلى فيها رسول الله ﷺ. وقد أفرد الإمام البخاري في صحيحه بابا مستقلاً بعنوان " **باب المساجد التي على طريق المدينة والمواضع التي صلى فيها النبي ﷺ**" وأدرج فيها أسماء المساجد العديدة التي بنيت بصدد ذلك، وعدّدها الحافظ ابن حجر كالتالي:ـــ

مسجد قباء، مسجد الفصيح، مسجد بني قريظة، مشربه أم إبراهيم، مسجد بني ظفر أو مسجد بغله، مسجد بني معاوية، مسجد فتح، مسجد القبلتين. كما كتب الحافظ ابن

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب من أكل في عاشوراء فليكف بقية يومه. وهذا نص الحديث (٢٦٢٢) ـــ وحدّثني أَبُو بَكْرِ بْنُ نَافِعٍ الْعَبْدِيُّ. حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ الْمُفَضَّلِ بْنِ لاَحِقٍ. حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ ذَكْوَانَ عَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذِ بْنِ عَفْرَاءَ، قَالَتْ: أَرْسَلَ رَسُولُ اللّهِ غَدَاةَ عَاشُورَاءَ إِلَىٰ قُرَىٰ الأَنْصَارِ، الَّتِي حَوْلَ الْمَدِينَةِ: «مَنْ كَانَ أَصْبَحَ صَائِماً، فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ. وَمَنْ كَانَ أَصْبَحَ مُفْطِراً، فَلْيُتِمَّ بَقِيَّةَ يَوْمِه». فَكُنَّا، بَعْدَ ذَلِكَ، نَصُومُهُ. وَنُصَوِّمُ صِبْيَانَنَا الصِّغَارَ مِنْهُمْ، إِنْ شَاءَ اللّهُ، وَنَذْهَبُ إِلَى الْمَسْجِدِ. فَنَجْعَلُ لَهُمُ اللُّعْبَةَ مِنَ الْعِهْنِ. فَإِذَا بَكَىٰ أَحَدُهُمْ عَلَىٰ الطَّعَامِ، أَعْطَيْنَاهَا إِيَّاهُ عِنْدَ الإِفْطَارِ. (المترجم).

(٢) مسند ابن حنبل ج٣ صـــ٢٣٢.

(٣) طبقات ابن سعد، ج٤ صـــ١٧

حجر[1] أيضاً أن المساجد المبنية بأحجار منقوشة سواء كانت في المدينة أو ما جاورها، قد شرُفت جميعاً بصلاة رسولُ الله ﷺ فيها، إذ أن عمر بن عبد العزيز قد تحقق هذا الأمر من أهل المدينة أنفسهم وقتما كان يجدد هذه المساجد.[2]

تعيين أئمة الصلاة

كان من الطبيعي أيضاً أن يقترن بناء المساجد بتعيين أئمة يختص كل منهم بإحدى القبائل، وبصفة عامة فقد جرت عادته ﷺ أن يقوم بتعيين الإمام من بين القبيلة التي كانت تدخل الإسلام ذاتها، على أن يكون أكثرهم حفظاً للقرآن الكريم، ويتساوى جميعهم في نيل هذه الشرف صغيراً كان أو كبيراً، عبداً أو سيداً. وقبل أن يهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة كان إمام المهاجرين فيها "سالم" مولى أبي حذيفة ﷺ. ولما أسلمت قبيلة جرم كان عمرو بن سلمة الجرمي صبياً صغيراً لا يتعدى السبع أو الثمان سنوات من عمره، ولكنه كان أكثر أهل قبيلته حفظاً للقرآن الكريم، ومن ثم عُين إماماً. وضع الرسول ﷺ عدة أصول وضوابط لاختيار الإمام منها ما جاء في هذه الرواية:-

عن أبي مسعود الأنصاري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا في القراءة سواء، فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء، فأقدمهم هجرة فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سناً. (مسلم)

كان رسول ﷺ يسأل أية قبيلة تمتثل بين يديه عن أكثرهم حفظاً للقرآن الكريم، فإن كان بينهم من ينعم بهذه الصفة كانوا يذكرون اسمه فيوليه الرسول ﷺ شرف هذا المنصب، فهكذا تعيّن عثمان بن أبي العاص ﷺ إماماً على أهل الطائف. أما إذا تساوي الجميع في المنزلة الدينية، كان ﷺ يأمرهم بأن يأتموا بأكبرهم سناً، فهذا ما أمر به محمد ﷺ مالك بن الحويرث ﷺ حين قدم إلى المسجد النبوي من قبل قومه.

يبدو أنه تم تعيين أئمة في كل المساجد التي بنيت سواء كانت في المدينة أو على حدودها أو في أي من الأقاليم العربية. أما القبائل التي كان يتعين فيها عمالاً فأئمتها هم عمالها أنفسهم،[3] باستثناء المناطق الكبيرة، إذ كان كل منصب منهما مستقلاً بذاته، فكان

---

[1] فتح الباري،ج١ صـ٤٧١.

[2] المرجع السابق.

[3] مسند بن حنبل ج٤ صـ ٢١٨.

عمرو بن العاص عاملاً على عمان، فيما كان أبو زيد الأنصاري[1] إماماً عليها، ولكن من المؤسف أن أسماءهم لم ترد تفصيلياً في كتب الحديث والسير. وهذه أسماء بعضهم، والتي اقترنت بوقائع معينة:-

الاسم	منطقة التعيين	بيان حال
مصعب بن عمير ﷺ	المدينة المنورة	كان يؤم الأنصار قبل الهجرة النبوية. (ابن هشام، ذكر بيعة العقبة).
سالم مولى أبي حذيفة ﷺ		كان إمام المهاجرين قبل مجيء الرسول ﷺ المدينة (البخاري وأبو داود).
ابن أم مكتوم ﷺ	المدينة المنورة	لما كان الرسول ﷺ يخرج من المدينة في غزوات كان يصحبه معظم الصحابة، إلا أن عبد الله بن أم مكتوم كان يمكث في المدينة نظراً لكفاف بصره، ولذا كان الرسول ﷺ يعينه إماماً على المدينة خلال هذه الفترة. (أبو داود).
أبو بكر الصديق ﷺ	المدينة المنورة	كان يؤم الناس بالمسجد النبوي إذا لم يحضر الرسول ﷺ (صحيح البخاري).
عثمان بن مالك ﷺ	بنو سالم	كان إمام قبيلته (أبي داود والنسائي).
معاذ بن جبل ﷺ	بنو سلمة	كان إمام قبيلته (البخاري وغيره).
أنصاري ﷺ	مسجد قباء	كان إمام قبيلته (البخاري).
عمرو بن سلمة ﷺ	بنو جرم	كان إمام قبيلته (أبي داود والنسائي).
أسيد بن حضير ﷺ	بنو جرم	كان إمام قبيلته (أبي داود).
أنس بن مالك ﷺ	بنو النجار	كان إمام قبيلته (هناك في شك في اسم الإمام).
الصحابة الآخرون	بنو النجار	كان إمام قبيلته(المسند ج٣صـــ ٢٣٢).
مالك بن الحويرث ﷺ	بنو النجار	كان إمام قبيلته(أبي داود).
عتاب بن أسد ﷺ	مكة المكرمة	كان إمام قبيلته (النسائي) [1]

[1] فتوح البلدان، للبلاذري.

عثمان بن أبي العاص	الطائف	كان إمام قبيلته (ذكر وفد الطائف).
أبو زيد الأنصاري ﷺ	عمان	كان إمام قبيلته(البلاذري، ذكر عمان).

المؤذنون

لم يكن يتم اختيار رجل معين لرفع الأذان، ولكن قياساً على عدة أمثلة يتبين أن الرسول ﷺ قد جعل رفع الآذان منصباً مستقلاً بذاته في المساجد الكبرى. ومن ذلك أنه ﷺ قد أولى شرف هذا المنصب في مكة المكرمة والمدينة المنورة لهؤلاء الصحابة التالية أسمائهم:-

الاسم	المنطقة	المسجد
بلال بن رباح ﷺ	المدينة المنورة	مؤذن المسجد النبوي
عمرو بن أم كلثوم القرشي ﷺ	المدينة المنورة	مؤذن المسجد النبوي
سعد القرط ﷺ	صعيد المدينة	مؤذن مسجد قباء
أبو محذورة[٢]الجمحى القرشي ﷺ	مكة الكرمة	مؤذن المسجد الحرام

(١) وردت هذه الأسماء في كتاب الصلاة في الكتب المذكورة.

(٢) النسائي صـــ ١٨٠.

تأسيس وإتمام الشريعة

" **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** " (المائدة: ٣)

لم يكن كل هذا التنسيق والتنظيم غاية الإسلام الحقيقية، بل كان ذلك كله -كما ذكرنا سابقاً- سعياً لنشر الأمن في ربوع البلاد وبناء دولة منتظمة ومقننة تتيح للمسلمين أداء واجباتهم الدينية دون قيدٍ أو عناء. ورد في صحيح البخاري أن رجلاً سأل عبد الله بن عمر عن تفسير قوله تعالى:-

وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله (البقرة : ١٩٣)

فقال: قد فعلنا على عهد رسول الله، إذ كان الإسلام قليل، فكان الرجل يُفتن في دينه، إما يقتلوه وإما يوثقوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة.[1]

قضيت السنوات الثماني التالية للهجرة في رد هذه الفتن، والتصدي لجلبة وفوضى المعترضين، وتدعيم استتاب الأمن في البلاد، ومن ثم كان الجهاد أبرز الفرائض الإسلامية التي تجلت في كل زمان ومكان طوال تلك الفترة الطويلة التى استمرت ثمان سنوات. ولعل هذا هو السبب في اشتمال التاريخ على مئات الصفحات التي تسرد أدق تفاصيل الغزوات. بينما لم ترد إلا عدة سطور فقط عن الصلاة والصيام والزكاة؛ فيقال مثلاً عن اختتام إحدى السنوات أن عدد ركعات الصلاة قد زاد في هذه السنة فصار أربع ركعات بدلا من اثنتين.

لا يرجع ذلك بالطبع إلى أن كُتاب السيرة (لا سمح الله) لم يألوا بالاً لأهمية وعظمة الفرائض الأخرى، بل واقع الأمر هو أن أغلب الفرائض قد فُرضت في فترةٍ متأخرة نظراً للانشغال بالجهاد (وما كانت عليه البلاد من فوضى)، أما ما فُرض قبل ذلك فقد تم إتمامه تدريجياً في فترةٍ قُضى القسط الأوفر من ليلها ونهارها في صد سهام المعترضين المتعاقبة.

لم تنزل في تلك الآونة الأحكام التشريعية المرتبطة بقانون الدولة ودستورها لأن الإسلام لم يكن يمثل حتى ذلك الحين قوة السطوة، أما الفرائض والتعاليم الدينية البحتة

---

[1] البخاري، ج١ صـ ٦٧٠، تفسير سورة الأنفال.

فكانت تتنزل تباعاً في رفق وهوادة، مما أدى إلى إتمام معالمها وإتمام صورتها مرتبطة بالوقائع اليومية التي كانت تتنزل بسببها. كانت أعظم حكمة في نزول الأحكام تدريجياً أن الهدف منها لم يكن مقتصراً على إخبار العرب بها فقط؛ بل كان الهدف منها تهيئتهم للالتزام بها في حياتهم العملية، ولذا كان تدرجها بالغ الدقة والترتيب والهوادة في آن واحد. وما أجمل ما عبرت به السيدة عائشة عن هذه الحكمة، حيث قالت: نزلت آيات العقاب، والثواب أولاً، ولما لانت القلوب نزلت الأحكام، وإلا ما كان أحد لينصاع لتحريم[1] الخمر إذا نزل في بادئ الأمر.

- موجز القول أنه نظراً لكل العلل السابقة لم تصل أغلب الفرائض والأحكام الإسلامية إلى منتهاها إلا حين استتب الأمن في سائر أرجاء البلاد. فمثلاً لم يفرض الصيام أصلاً طوال فترة الإقامة في مكة المكرمة، وفرض في المدينة المنورة. أما الزكاة فلم تفرض إلا بعد ثمان سنوات. وكان السبب في ذلك أن القتال المستمر قد أدى إلى تدهور أحوال المسلمين التي لم تكن تتناسب مع وجوب الزكاة آنذاك. هذا ولم يُفرض الحج أيضاً حتى ذلك الحين، لأن المسلمين لم يكن بوسعهم أن يطئوا الأرض الحرام قبل فتح مكة. أما الصلاة فهي فرض يومي اقترن بظهور الإسلام، إلا أن إتمامه قد تم تدريجياً بعد ست أو سبع سنوات من الهجرة، إذ أنه حتى سنة ٥ هـ كان يجوز التحدث في الصلاة، وكان المصلي يرد السلام على أي قادم يلقى عليه التحية أثناء صلاته، حسبما ورد من روايات في أبي داوود وغيره.[2]

---

[1] صحيح البخاري، باب تأليف القرآن. وهذا نص الحديث كامل: (٤٨٧٣) حدثنا إبراهيمُ بن موسى أخبرنا هشام بن يوسُفَ أنَّ ابن جُرَيج أخبرهم قال: وأخبرني يوسفُ بن ماهَكٍ قال: إني عِندَ عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها إذ جاءها عِراقيٌّ، فقال: أي الكَفَنِ خيرٌ؟ قالت: ويحك وما يضرك، قال: يا أمَّ المؤمنين أريني مُصحفك، قالت: لمَ؟ قال: لَعَلِّي أؤلف القرآنَ عليه، فإنه يُقرأ غير مؤلف قالت: وما يَضُرُّكَ أيهُ قرأتَ قبلُ إنما نَزَلَ أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذِكرُ الجنةِ والنار، حتى إذا ثاب الناسُ إلى الإسلام نَزَلَ الحلالُ والحرامُ، ولو نزل أوَّلَ شيءٍ لا تشربوا الخمرَ لقالوا لا نَدَعُ الخمر أبداً، ولو نزل لاتزنُوا لقالوا لا نَدَعُ الزِّنا أبداً، لقد نَزَلَ بمكَّةَ على محمد صلى الله عليه وسلم وإنِّي لجاريةٌ ألْعبُ، بل الساعةُ موعِدُهُم والساعةُ أدهَى وأمَرُّ. وما نَزَلت سورة البقرة والنساءِ إلا وأنا عنده. قال: فأخْرجت له المصحف، فأملَّت عليه آيَ السُّور. (المترجم).

[2] أبو داود، باب رد السلام في الصلاة. وهذا نص الحديث: (٩٢٣) حدثنا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ الله بن نُمَيْرٍ أخبرنا ابنُ فُضَيْلٍ عن الأعمَشِ عن إبْرَاهِيمَ عن عَلْقَمَةَ عن عَبْدِ الله، قال: « كُنَّا نُسَلِّمُ عَلَى رسولِ الله

خلاصة القول هو أنه حين قضى على قوة الشرك بعد فتح مكة، واستتب الأمر في شتى ربوع البلاد، آن الأوان لإتمام الشريعة وأدق تفاصيل الأحكام الدّينية. وكان هناك كثير من الأحكام التي لم تكن قد فُرضت بعد؛ مثل الزكاة والحج، وتحريم الربا وغيره. كما كان هناك كثير منها أيضاً قد فُرضت دعائمها الأساسية ولم تبلغ منتهاها.[1]

صلى الله عليه وسلم وَهُوَ في الصَّلاَةِ فَيَرُدُّ عَلَيْنَا، فَلَمَّا رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِ النَّجَاشِيِّ سلمْنَا عَلَيْهِ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْنَا وقال: إنَّ في الصَّلاَةِ لَشُغلاً».(المترجم).

[1] سبق الحديث ضمنياً عن نزول بعض أحكام الإسلام وتاريخ إتمامها التدريجي في وقائع متفرقة من الجزء الأول. وسيجد القراء اختلافا في التواريخ والسنوات التي نزلت فيها الأحكام بين ما سبق وبين هذا المقام في موضع أو موضعين، وسبب ذلك أننا نقلنا في الجزء الأول عن جمهور المؤرخين وأرباب السيرة، وقمنا هنا بسرد تفاصيل ما حققناه بعد استنباطه من كتب الحديث وكتب أسباب النزول. والسبب في ذلك هو أن تاريخ وسنوات نزول الأحكام لم ترد صراحةً في كتب الحديث بل إنها قياسات واستنباطات المحدثين والرواة، ومن ثم حاولنا هنا، رغم ما يشوب هذه الاستنباطات من اختلاف، أن نجزم في هذا الأمر استدلالا بالأدلة الصحيحة والمعتبرة منها. والعصمة بيد الله (سيد سليمان الندوي).

الإيمان[1] وأركان الإسلام الأساسية

العقائد هي أولى فروض الإسلام، وتعني الإيمان بالله، وملائكته، ورسله، واليوم الآخر، والحشر والنشر وغيرها، فأول ما نزل من القرآن على محمد ﷺ قوله تعالى:- اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِيْ خَلَقْ الذي لم يشتمل على أية عقيدة معينة سوى عظمة الله سبحانه وتعالى، أما ما نزل من القرآن في المرة الثانية، فهو قوله تعالى[2]:-

يا أيها المدثر۞ قم فأنذر۞ وربك فكبر۞ وثيابك فطهر۞ والرجز فاهجر۞ (سورة المدثر: ١-٥)

أما الآيات الكريمة التي نزلت بعد ذلك على مدار الإقامة في مكة، فكان أغلبها عن الإيمان والعقيدة، فكانت تتحدث عن نقائض وذم الشرك وعبادة الأوثان، وعظمة وجلال الله، وأهوال يوم القيامة ونعيم الجنة وجحيم النار، وخصائص بعثة رسول الله ﷺ وأدلة حتميتها.[3] موجز القول هو أنه رغم معرفة الناس لكل أركان الإيمان منذ بداية الإسلام، إلا أنه يبدو أيضاً من خلال تقصّ الآيات المكية أن الحديث عن كل ركن منها منفصلاً عن الآخر، إذ أن الحديث المتتابع عن الإيمان والعقائد قد ورد في سورتي البقرة والنساء اللتان نزلتا بالمدينة. وبينما ركزّت السور المكية على الإيمان بالله ورسوله واليوم

---

[1] أضفت من هنا حتى نهاية باب التيمم "سيد سليمان الندوي".

[2] صحيح البخاري، تفسير سورة المدثر.

[3] البخاري، باب تأليف القرآن.وهذا نص الحديث: (٤٨٧٣) حدّثنا إبراهيمُ بن موسى أخبرنا هشام بن يوسُفَ أنَّ ابن جُرَيج أخبرهم قال: وأخبرَني يوسفُ بن ماهكٍ قال: إني عِندَ عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها إذ جاءها عِراقيّ، فقال: أي الكَفَنِ خيرٌ؟ قالت: ويحك ومايضرك، قال: ياأمَّ المؤمنين أريني مُصحفك، قالت: لِمَ؟ قال: لَعَلّي أؤلف القرآنَ عليه، فإنه يُقرأ غير مؤلف قالت: ومايَضُرُّك أيهُ قرأتَ قبلُ إنما نَزَلَ أول مانزل منه سورة من المفصل فيها ذِكرُ الجنةِ والنار، حتى إذا ثاب الناسُ إلى الإسلام نَزَلَ الْحلالُ والحرامُ، ولو نزل أوّلَ شيءٍ لاتشربوا الخَمرَ لقالوا لانَدَعُ الخمر أبداً، ولو نزل لاتزنُوا لقالوا لانَدَعُ الزِّنا أبداً، لقد نَزَلَ بمكّةَ علَى محمد صلى الله عليه وسلم وإنّي لجاريةٌ ألْعبُ، بل الساعةُ موعدُهُم والساعةُ أدهَى وأمَرُّ. ومانَزلت سورة البقرة والنساءِ إلا وأنا عندَه. قال: فأخْرجت له المصحف، فأملَت عليه آيَ السُور.. (المترجم).

الآخر وزخرت السور المدنية بمجموعة التعاليم الخاصة بكل الأركان الأولى لكل من الإيمان والإسلام.

وإليك أولى آيات سورة البقرة التي ذكرت أركان الإيمان والإسلام الأولى، قال تعالى:ـ

الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم يُنفقون ۞ والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ۞. (البقرة:٣-٤)

ثم تكرر الحديث عن هذه الأركان في منتصف السورة فقال تعالى:ـ

" لكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنَّبِيِّنَ " (البقرة : ١٧٧)

بعد ذلك ذُكرت الصلاة والصيام والزكاة وبعض التعاليم الأخلاقية. فنزلت آياتها مع آية تحويل القبلة سنة ١هـ . ثم ورد تفصيلها في الآيات الأخيرة من السورة، والتي نزلت في الغالب بعد عدة سنوات من الهجرة حسب روايتي السيدة عائشة(رضي الله عنها)، وابن عباس ﷺ، قال تعالى:-

" آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله " (البقرة:٢٨٥)

وإليك آية سورة النساء التي عرضت تفصيلا أركان الإيمان الذي يجب أن يتحلى به المسلم، قال تعالى:ـ

يا أيها الذين آمنوا أمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نَزّلَ على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً۞. (النساء:١٣٦)

وردت وقائع كثيرة في أحاديث كتاب الإيمان، جاء فيها أن الناس كانوا يستفسرون من رسول الله ﷺ عن معنى الإسلام والإيمان، وأنه ﷺ قد أجاب عليهم بإجابات مختلفة الصيغة وفقاً لطبيعة السائل أو طبيعة الفترة أو المناسبة التي سأل فيها، قال رسول الله ﷺ : «أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ الناسَ حتّى يَشْهَدوا أَنْ لا إلهَ إلاّ اللّهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللّهِ، ويُقِيموا الصلاةَ، ويُؤْتوا الزَّكاةَ.[1]

---

[1] وهذا نص الحديث كاملا: (٢٥) حدَّثنا عبدُ اللّهِ بنُ محمد المُسْنَديُّ قال: حدَّثنا أبو رَوْحٍ الْحَرَمِيُّ بنُ عُمَارة قال: حدَّثنا شُعبةُ عن واقدِ بنِ محمدٍ قال: سَمِعْتُ أبي يحدِّثُ عن ابنِ عُمَرَ أنَّ رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم قال: «أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ الناسَ حتّى يَشْهَدوا أَنْ لا إلهَ إلاّ اللّهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللّهِ،

ذات مرة دخل علي رسول الله ﷺ مسلم أعرابي، وسأل: ما الإسلام ؟ فأخبره الرسول ﷺ بثلاثة أمور:" خمس صلوات في اليوم والليلة، صوم رمضان، وإيتاء الزكاة." وقدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ في سنة ٥هـ وقال: لا يسعنا الحضور دائماً بسبب مناهضة الأعداء لنا، لذا علمنا بعض الأحكام والتعاليم لنعلمها للذين لا يستطيعون الحضور، فقال ﷺ:ـ

شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا الخُمس من المغنم(١)

وبينما كان الرسول ﷺ جالساً بين جماعة من أصحابه (رضوان الله عليهم) دخل عليه رجل وقال : ما الإيمان؟. فقال ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». فقال الرجل : وما الإسلام؟ فقال ﷺ : «الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّدا رَسُولُ اللّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُـؤْتِي الزَّكَاةَ،وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ، إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً». قال الرجل: وما الإحسان ؟ فقال ﷺ : «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ. فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ».(٢)

ويُقِيموا الصلاةَ، ويُؤْتوا الزَّكاةَ. فإذا فَعَلوا ذلكَ عَصَموا مِنِّي دِماءَهُم وأموالَهُم إلاَّ بِحَقِّ الإسلام، وحسابُهم عَلَى اللّه».(المترجم)

(١) وهاذ نص الحديث كاملا كما ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل: (٢٠٢٩) حدثنا عبد الله حدَّثني أبي ثنا يحيى عن شعبة حدَّثني أبو جمرة و ابن جعفر قال : حدَّثنا شعبة عن أبي جمرة قال : سمعت ابن عباس يقول : « إن وفد عبد القيس لما قدموا المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ممن الوفد ــ أو قال ــ القوم ؟ قالوا : ربيعة قال : مرحباً بالوفد ــ أو قال : القوم ــ غير خزايا ولا ندامى، قالوا : يا رسول الله، أتيناك من شقة بعيدة، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، ولسنا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر حرام، فأخبرنا بأمر ندخل به الجنة ونخبر به من وراءنا ؟ وسألوه عن أشربة ؟ فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع، أمرهم بالإيمان بالله، قال : أتدرون ما الإيمان بالله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم، قال : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا الخُمس من المغنم، ونهاهم عن الدبّاء والحنتم والنقير والمزفت، ــ قال : وربما قال : والمقيّر ــ قال : احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم » . (المترجم)

(٢) وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح مسلم: (٥٩) ـــ حدّثني أَبُو خَيْثَمَةَ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ. حَدَّثَنَا وَكِيعٌ. عَنْ كَهْمَسٍ عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ يَعْمَرَ ح وَحَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللّهِ بْنُ مُعَاذٍ الْعَنْبَرِيُّ. وَهٰذَا حَدِيثُهُ: حَدَّثَنَا أَبِي. حَدَّثَنَا كَهْمَسٌ عَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ يَعْمَرَ، قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ بِالْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ

هذه هي الصورة الكاملة لأركان الإسلام على وجه التقريب. والأرجح أن هذه الأسئلة والأجوبة كانت قُبيل فتح مكة أي قبل سنة٧ هـ، إذا لم يرد فيها الحديث عن الحج، ومع ذلك يبدو أيضاً أن السكينة بين المسلمين وقتئذ قد بلغت المدى الذي سمح بإعلاء شرط الخضوع والخشوع كشرط جوهري لإتمام كمال العبادة. وكان آخر إعلان عن أركان الإسلام، قوله ﷺ :-

بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان.

وبالتدريج تلى الحديث عن أركان الإيمان والإسلام إجمالاً، بالحديث عنها وعما يتعلق بها من مسائل أخرى تفصيلاً، فقال رسول الله ﷺ: «الإيمانُ بِضْعٌ وستُّونَ شُعْبَةً، والحياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمانِ». وقال ﷺ أيضاً: "المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ ويَدِهِ."

فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللّه فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلاَءِ فِي الْقَدَرِ. فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللّه بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلاً الْمَسْجِدَ، فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي. أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ. فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلاَمَ إِلَيَّ. فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمٰنِ! إِنَّهُ قَد ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ. ــ وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ ــ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لاَ قَدَرَ. وأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ. قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أُولٰئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللّه بْنُ عُمَرَ! لَوْ أَنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبا فَأَنْفَقَهُ، مَا قَبِلَ الله مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ. ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللّه ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ . فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلاَمِ؟. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ : «الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّدا رَسُولُ اللّه، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ، إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً» قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ فَعَجِبْنَا لَهُ، يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ!. قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلاَئِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ؟. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ. فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟. قَالَ: «مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا. قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا. وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ، الْعَالَةَ، رِعاءَ الشَّاءِ، يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ». قَالَ ثُمَّ انْطَلَقَ. فَلَبِثْتُ مَلِيّا. ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ! أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ. أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ». (المترجم).

كما أخبر ﷺ أيضاً رداً على رجل آخر اطعام المساكين والقاء السلام على من يعرف ومن لا يعرف. وقال ﷺ أيضاً : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.[١]

خلاصة القول أن أركان الإسلام وفروعها قد بلغت كمالها بهذه الصورة التدريجية إلى أن حانت تلك الساعة من يوم ٩ ذي الحجه سنة ١٠هـ، التي قال فيها الله سبحانه وتعالى:ـ[٢]

" اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي " (المائدة:٣)

---

[١] وردت كل هذه الأحاديث في صحيح البخاري، كتاب الإيمان.

[٢] صحيح البخاري، تفسير هذه الآية.

العبادات

مر في الحديث أن الإسلام بنى على خمس، أي أنه علاوة على التوحيد تدخل الأركان الأربعة الأخرى أي الصلاة والصوم والحج والزكاة في العبادات، وتأتى الصلاة في مقدمتها ولصحة الصلاة شروط أولها وأهمها شرط الطهارة.

الطهارة

والطهارة تعنى طهارة الجسم والملبس من كل نجس ظاهريا ومعنويا وللطهارة أهمية بالغة في الإسلام فجاء حكمها بعد حكم التوحيد مباشرة في المرة الثانية للوحي يقول الله تعالى:-

يا أيها المدثر ۞ قم فأنذر۞ وربك فكبر ۞ وثيابك فطهر ۞ والرجز فاهجر ۞ (سورة المدثر: ١-٥)

ذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد من طهارة الثياب هنا طهارة القلب، كما أن المراد من الرُّجز هنا عبادة الأوثان، ولكن يمكننا مع ذلك أن نُقدر مدى أهمية الطهارة من واقع هذه الآيات الكريمة. فالوضوء قبل الصلاة فرض، وقطع الدليل على وجوبه هذا منذ بدء البعثة الإسلامية، فورد في كتب التاريخ والسير وبعض روايات الحديث أن جبريل عليه السلام قد علّم النبي ﷺ الوضوء مع بدء الوحي.[1] وأورد الحاكم في المستدرك رواية عن ابن عباس ﷺ يتبين منها أن الرسول ﷺ، كان يتوضأ قبل الهجرة،[2] ولكن الأمر بالوضوء في القرآن الكريم قد نزل في المدينة بإجماع المحدثين، فقال تعالى:-

" يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين " (المائدة:٦)

وردت هذه الآية الكريمة في سورة المائدة، التي نزلت أغلب آياتها بعد الهجرة بأربع أو خمس سنوات. وهناك تصريح في صحيح البخاري بأن هذه الآية الكريمة قد نزلت مع آية التيمم، التي نزلت سنة ٥ هـ. وعليه، يرى أغلب العلماء أن الوضوء كان

---

(١) ابن هشام وفتح الباري نقلاً عن مغازي ابن المعية والإمام أحمد ج٤ صـ١٦١ وابن ماجه.

(٢) فتح الباري ج١ صـ٢٠٥ والطبراني في الأوسط.

معمولاً به منذ بدء الإسلام، ولكنه لم يُفرضَ في القرآن الكريم إلا بعد الهجرة بأربع أو خمس سنوات، ويبدو أن الناس في بادئ الأمر كانوا يتعجلون في الوضوء، فيبللون بعض العضو ولا يبللون البعض الآخر، فبينما كان الرسول ﷺ عائداً من إحدى أسفاره في سنة ٦ هـ أو ما بعدها، أقبل بعض الناس على بئر فغسلوا وجوههم وأيديهم بتعجل، فابتلت بعض أعقابهم، وظل بعضها جافاً، فقال رسول ﷺ:ـ[١]

ويل للأعقاب من النار، أسبغوا الوضوء.

منذ تلك اللحظة صار إسباغ الوضوء؛ أي تأدية جميع فرائض الوضوء بطمأنينة وتأن، أمراً واجباً. وذكر رسول الله ﷺ فضائل إسباغ الوضوء. في بادئ الأمر كان الناس يجددون وضوءهم وقت الصلاة سواء كان منتقضاً أم لا، ولكن في النهاية انتفت فكرة وجوب الوضوء[٢] مع كل صلاة من أذهان المسلمين حيث أعلن الرسول ﷺ عن ذلك عملياً عند فتح مكة.[٣]

التيمم

يستلزم الوضوء ماءً غير مستعمل، ولكن من الصعب وفرته في كل أوقات السفر، فضلاً عن أن استخدام المياه أحياناً يكون ضاراً في حالة المرض؛ لذا نزلت آية التيمم سنة ٥ هـ.

" ... وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حَرَجٍ ولكن يُريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون." (سورة المائدة:٦)

وسبب نزول هذه الآية هو أن النبي ﷺ كان عائداً من غزوة بني المصطلق سنة ٥ هـ، وكانت في صحبته أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها)، فلما دنت القافلة من المدينة، تصادف سقوط عقد أم المؤمنين (رضي الله عنها) في مكان ما، فاضطرت القافلة بأسرها أن تنزل بهذا المكان، وحان وقت الصلاة فلم يجدوا ماءً، واضطرب الصحابة جميعاً، وعلم الرسول ﷺ بذلك، فنزلت هذه الآية الكريمة، وسعد المسلمون كثيراً بهذه

---

[١] صحيح مسلم، باب وجوب غسل الرجلين.

[٢] فتح الباري نقلاً عن أبي داود وأحمد.

[٣] صحيح المسلم.

الرخصة الربانية، فقال الصحابي أسيد بن حضير ﷺ :"يا آل أبي بكر، قد حلت عليكم البركة."

الصلاة

فُرضت مع بدء بعثة رسول الله ﷺ، فنزل الأمر بها في المرة الثانية من نزول الوحي، قال تعالي

" ورَبَّكَ فَكَبِّرْ " (سورة المدثر:٣)

فماذا يمكن أن يُقصد بهذا التكبير غير الصلاة ؟ ولكن نظراً لأن الدعوة الإسلامية قد ظلت سرية لثلاث سنوات، ولم يكن من الممكن إقامة الصلاة جهراً خشية أذى المشركين؛ لذا كان الأمر بمداومة الصلاة بالليل فقط، ولم تفرض أية صلاة في النهار. وقد ورد هذا الأمر صريحاً في سورة المزمل، إحدى أوائل السور التي نزلت في القرآن الكريم، قال تعالى:-

يا أيها المزمل ۞ قم الليل إلا قليلاً ۞ نصفه أو انْقُص منه قليلاً ۞ أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً ۞ انَّا سنُلقي عليك قولاً ثقيلاً ۞ إنَّ ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا ۞ إن لك في النهار سبحاً طويلاً ۞ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ۞ (سورة المزمل[1] :١-٨)

بعد ذلك فُرضت ركعتان في الصباح وأخرتان في المساء، فقال تعالى:-

واذكر اسم ربك بكرةً وأصيلاً۞ ومن الليل فاسجد له وسَبِّحْهُ ليلاً طويلاً۞ (سورة الإنسان : ٢٥، ٢٦)

---

(١) هناك خلاف بين المحدثين حول تاريخ بيان الصلاة، فقد أورد ابن حجر في فتح الباري (ج١ صـ٣٩٣) خلاصة هذا الأمر حول هذه المسألة، وترجمتها الحرفية كما يلي: ذهبت جماعة منهم أنه لم تفرض صلاة أخرى قبل الإسراء والمعراج مع صلاة الليل غير المؤقتة. ويرى الحربي أنه قد فرضت ركعتان في الصباح وأخرتان في المساء. وروى الإمام الشافعي عن بعض أهل العلم أن الصلاة كانت مفروضة في بادئ الأمر بالليل كله، ثم نُسخ هذا الحكم بقوله تعالى: " **فاقرءوا ما تيسر من القرآن**" وظلت الصلاة مفروضة في قسط قليل من الليل فقط، ثم نُسخ هذا الحكم أيضاً بالصلوات الخمس. إن ما أوردناه حول تحديد تاريخ الصلاة إنما هو سرد لتفاصيل بعض آيات القرآن الكريم، وبهذا التفصيل يتضح السبب في اختلاف بيانات أوقات الصلاة في القرآن الكريم. (سيد سليمان الندوي).

ظل الأمر بصلاة الليل فرضاً واجباً لمدة سنة كاملة، إذ تقول السيدة عائشة (رضي الله عنها): لا تدع قيام الليل، فإن رسول الله ﷺ كان لا يدعه، وكان إذا مرض أو كسل صلى قاعداً، ثم نسخ هذا الفرض، وفرض الأمر الذي يتضمنه قوله تعالى:[1]

" إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثُلُثَه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرؤوا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ " (المزمل: ٢٠)

يُطلق على صلوات النوافل بالليل " صلاة التهجد " . وبعدها فرضت ثلاث صلوات في الليل أيضاً هي :- صلاة الفجر، صلاة المغرب، صلاة العشاء، فقال تعالى:ـــ

" أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل " (سورة هود: ١١٤)

أما الصلوات الخمس فقد فُرضت[2] حين عُرج برسول الله ﷺ في السنة الخامسة[3] من بعثته ﷺ وتضمنت سورة الإسراء وصف المعراج، ونزلت بها هذه الآية الكريمة:ـــ

" أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ۞ ومن الليل فتهجد به نافلةً لك " (الإسراء : ٧٨-٧٩)

لكن ظل عدد الركعات في الصلاة الواحدة ركعتين كما هو، ولما عمت السكينة نسبياً بعد الهجرة إلى المدينة، فُرضت أربع ركعات بدلاً من اثنتين.[4]

مع ذلك كله، لم تتوفر لديهم على مدار فترة من الزمن، تلك الطمأنينة اللازمة لأركان الصلاة الأساسية كالخشوع والوقار وما إلى ذلك، ولذا لم تُفرض عليهم هذه الأركان والآداب في بادئ الأمر بل تدرج وجوبها حتى بلغت كمالها. فكان الناس في بدء البعثة، يرفعون بصرهم إلى السماء في صلاتهم. حتى قال رسول الله ﷺ:

ما بال أقوام يرفعون البصر إلى السماء في صلواتهم.[5]

---

(١) أبو داود، باب في الصلاة بالليل، مسند أحمد ج ٦، صـــ٥٤.

(٢) فتح الباري صـــ٥٥، مصر.

(٣) نرى من واقع بحثنا أن المعراج كان في السنة التاسعة من البعثة النبوية. (سيد سليمان الندوي).

(٤) صحيح البخاري، باب الهجرة.

(٥) كتاب الصلاة، باب رفع البصر إلى السماء في الصلاة

حتى أن الناس ظلوا زمناً يتحدثون في صلواتهم، فإذا ما تذكر أحدهم شيئاً وهو يصلي، تحدث به لغيره، وإذا حيّاه أحد رد عليه التحية وهو يصلي أيضاً. كما كان المصليان المتجاوران يتبادلان أطراف الحديث في صلاتهما. ولكن لما قدم مهاجرو الحبشة سنة ٦ هـ ودخلوا المسجد النبوي فيما كان الرسول ﷺ يصلي فيه، ألقوا عليه التحية كالمعتاد، فلم يرد ﷺ عليهم. وبعد أن فرغ ﷺ من صلاته قال: «إِنَّ فِي الصَّلاَةِ شُغْلاً». [1] ومنذ ذلك الوقت حُرِّم الكلام أو رد السلام في الصلاة بتاتاً.

يقول معاوية بن الحكم: صليت مع رسول الله ﷺ فعطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه! ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فعرفت أنهم يصمتوني، فالتزمت الصمت. ولما فرغ رسول الله ﷺ من الصلاة، لم يعاقبني أو يوبخّني أو يسبني بفضل خلقه العظيم، وإنما قال: إن هذه الصلاة لا يحل فيها شيء من كلام الناس هذا؛ إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن. [2]

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (١١٥٣) ـــ حدّثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ. وَ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ وَ ابْنُ نُمَيْرٍ وَ أَبُو سَعِيدٍ الأَشَجُّ وَأَلْفَاظُهُمْ مُتَقَارِبَةٌ قَالُوا: حَدَّثَنَا ابْنُ فُضَيْلٍ : حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللّهِ، قَالَ: كُنَّا نُسَلِّمُ عَلَى رَسُولِ اللّهِ وَهُوَ فِي الصَّلاَةِ. فَيَرُدُّ عَلَيْنَا. فَلَمَّا رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِ النَّجَاشِيِّ، سَلَّمْنَا عليْه فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْنَا. فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللّهِ كُنَّا نُسَلِّمُ عَلَيْكَ فِي الصَّلاَةِ، فَتَرُدُّ عَلَيْنَا، فَقَالَ: «إِنَّ فِي الصَّلاَةِ شُغْلاً». (المترجم).

[2] أبو داود، كتاب الصلاة.وهذا نص الحديث كاملا: (٩٣٠) حدثنا مُسَدَّدٌ أخبرنا يَحْيَى ح. وأخبرنا عُثْمَانُ بنُ أبي شَيْبَةَ أخبرنا إسْمَاعِيلُ بنُ إبْرَاهِيمَ المَعْنَى عن حَجَّاجٍ الصَوَّافِ حدثني يَحْيَى بنُ أبي كَثِيرٍ عن هِلاَلِ بنِ أبي مَيْمُونَةَ عن عَطَاءِ بنِ يَسَارٍ عن مُعَاوِيَةَ بنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ، قال: « صَلَّيْتُ مَع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فَعَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ الله، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمَيَّاهُ، مَا شَأْنُكُم تَنْظُرونَ إلَيَّ. قال: فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أفْخَاذِهِمْ فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ يُصَمِّتُونِي. قال عُثْمَانُ: فلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُسكِّتُونِي لَكِنّي سكَتُّ. فَلَمَّا صَلَّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بأبِي وَأُمِّي مَا ضَرَبَنِي وَلا كَهَرَنِي وَلا سَبَّنِي، ثُمَّ قال: إنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لا يَحِلُّ فيها شَيْءٌ مِنْ كَلامِ النَّاسِ هَذَا إنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ، أو كما قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم. قُلْتُ: يارسولَ الله إنَّا قَوْمٌ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، وَقَدْ جَاءَنَا الله بِالإسلاَمِ، وَمِنَّا رِجَالٌ يَأْتُونَ الْكُهَّانَ. قال: فلا تَأْتِهِمْ. قال قُلْتُ: وَمِنَّا رَجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ. قال: ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ في صُدُورِهِمْ فلا يَصُدُّهُم قال قُلْتُ: وَمِنَّا رِجَالٌ يَخُطُّونَ. قال: كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الأنْبِيَاءِ يَخُطُّ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ. قال قُلْتُ جَارِيَةٌ لِي كَانَتْ تَرْعَى غُنَيْمَاتٍ قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ إذْ اطَّلَعْتُ عَلَيْهَا اطِّلاَعاً فإذَا الذِّئْبُ وَأَنَا مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا

لم يكن التشّهد على الصورة التي هو عليها الآن. فقد كان يُذكر فيه أسماء العديد من الناس، فيقال: السلام على فلان وفلان، ثم تلى ذلك تعليم ألفاظ التحيات التي نردّدها الآن في صلواتنا.[1]

ورد في الأحاديث أن الرسول ﷺ كان يرفع الصبيان على كتفه وهو واقف في الصلاة، وينزلهم عند سجوده، ثم يعاود رفعهم حين يقف في الركعة الثانية، وأن السيدة عائشة (رضي الله عنها) كانت تأتي من خارج البيت، وتطرق الباب، فيتجه إليه رسول الله ﷺ ويفتحه وهو يصلي والصبيان على كتفه.[2] وفقاً لهذه الأحاديث يرى كثير من الفقهاء أن كل هذه الأفعال تجوز في صلاة النوافل، واختصوا النوافل لأن الصلوات التي كان يقوم فيها رسول الله ﷺ بمثل هذه الأفعال كانت كلها نوافل وليست فروضاً، لكننا نرى أن هذا التأويل ليس صحيحاً. فقد جاء حديث صراحةً أن الرسول ﷺ دخل المسجد حاملاً إمامة بنت أبي العاص على كتفه وصلى.[3] ولكننا مع ذلك أيضاً نرى كل هذه الروايات تتعلق بتلك الفترة التي كان يجوز فيها الكلام والقيام بمثل هذه الأفعال في الصلاة. وبالتدريج بلغ من كمال الصلاة إلى أن صارت في معظمها خضوعاً وخشوعاً ومراقبة واستغراقاً.

ونزلت في القرآن الكريم هذه الآية: " **قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلواتهم خاشعون** " ومن ثم حُرّم التلفت في الصلاة أو أي فعل يتنافى مع الخضوع والخشوع. ووجب القيام بكل أركان الصلاة في طمأنينة وسكون إلى أن بلغ الأمر برسول الله ﷺ أن قال لرجل- دخل المسجد، وصلى دون أن يعطي لكل ركن حقه- ارجعْ فصلِّ فإنكَ لم تُصلِّ،، فصلّى الرجل كما صلى في المرة الأولى، فقال رسول الله ﷺ: ارجِعْ فصلِّ فإنكَ لم تُصلِّ (ثلاثاً)، وفي المرة الثالثة قال الرجل: والذي بَعثكَ بالحقّ ما أُحسِنُ غيرَه،

يَأسَفُونَ لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً فَعَظَّمَ ذَاكَ عَلَيَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فَقُلْتُ: أفَلاَ أعْتِقُهَا؟ قال: أئْتِنِي بِهَا، قال فَجِئْتُهُ بِهَا، فقال: أيْنَ الله؟ قالت: في السَّمَاءِ، قال: مَنْ أنَا؟ قالت: أنْتَ رسولُ الله، قال: أعْتِقْهَا فإنَّهَا مُؤْمِنَةٌ». (المترجم).

(١) أبو داود، كتاب الصلاة،، باب التشهد.

(٢) أبو داود، كتاب الصلاة، باب العمل في الصلاة. يقول أبو قتادة: رأيت رسول الله ﷺ يصلى للناس وأمامه بنت أبي العاص على عنقه، فإذا سجد وضعها. (أبو داود، ج١، ص٢١١). (المترجم).

(٣) المصدر السابق. وورد في أبي داود، ج١،ص٢١١." روى عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصلى والباب عليه مغلق، فجئت فاستفتحت فمشى ففتح لي، ثم رجع إلى مصلاه.". (المترجم).

فعلّمني، فقال: إذا قُمتَ إلى الصلاةِ فكبِّرْ، ثمَّ اقرأْ ما تَيسَّرَ معَك منَ القرآنِ، ثمَّ اركعْ حتى تطمئنَّ راكعاً، ثمَّ ارفعْ حتى تَعدلَ قائماً، ثمَّ اسجُدْ حتى تطمئنَّ ساجداً، ثمَّ ارفعْ حتى تطمئنَّ جالساً، وافعلْ ذلكَ في صَلاتِكَ كلِّها». وقد وردت هذه الرواية في صحيح البخاري وغيره[١] بشيء من التفصيل.

موجز القول هو أنه يمكننا أن نتصور ما كانت عليه الصلاة من خلال هذه الرواية: كان رسول الله ﷺ يصلي في مسجده ذات مرة، وصدفة جاءت قافلة تجارية من الشام، فانفض إليها كل المصلون عدا اثنتا عشر رجلاً منهم فقط، فنزلت فيهم هذه الآية الكريمة[٢]:-

" وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة " (سورة الجمعة: ١١)

كما يمكننا أيضاً أن نقدّر الحال الذي آلت إليه الصلاة بفضل تعاليم رسول الله ﷺ حين نعلم أن أنصارياً كان يُطعن بالسهام ثلاث، مرات، فلا يختم صلاته لأن استمتاعه الروحي بتلاوة السورة التي بدأها كان يفوق ألم الجراح التي أُثخن بها. وأبلغ من ذلك أن يسقُط عمر بن الخطاب ﷺ مثُخناً بجراحه ويتململ ألماً، ويتراءى هذا المشهد المهيب للجميع، فلا يلتفت إليه أحد، ذلك لأن القلوب قد اعترتها خشية إلهية واستغراق لم تسمح لها أن تعير انتباهها لأحد آخر.

---

[١] صحيح البخاري، باب أمر النبي ﷺ من لا يتم الصلاة، باب الإعادة.وهذا نص الحديث كاملا: (٧٤٨) حدّثنا محمدُ بنُ بَشّارٍ قال: حدَّثَنا يحيىٰ عن عُبيدِ اللهِ قال: حدَّثني سعيدُ بنُ أبي سعيدٍ عن أبيهِ عن أبي هُريرةَ «أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم دخلَ المسجدَ، فدخلَ رجُلٌ فصلَّىٰ، فسلَّم عَلَى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فردَّ وقال: ارجعْ فصلِّ فإنكَ لم تُصلِّ، فرَجَعَ يُصلِّي كما صلَّى، ثم جاءَ فسلَّم عَلَى النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فقال: ارجعْ فصلِّ فإنكَ لم تُصلِّ (ثلاثاً). فقال: والذي بَعثَكَ بالحقِّ ما أُحسنُ غيرَه، فعلِّمني: فقال: إذا قُمتَ إلى الصلاةِ فكبِّرْ، ثمَّ اقرأْ ما تَيسَّرَ معَك منَ القرآنِ، ثمَّ اركعْ حتى تطمئنَّ راكعاً، ثمَّ ارفعْ حتى تَعدِلَ قائماً، ثمَّ اسجُدْ حتى تطمئنَّ ساجداً، ثمَّ ارفعْ حتى تطمئنَّ جالساً، وافعلْ ذلكَ في صَلاتِكَ كلِّها» (المترجم).

[٢] صحيح البخاري، كتاب البيوع، تفسير الآية المذكورة.روى عن جابر قال: بينما نحن نصلى مع النبي ﷺ، إذ أقبلت من الشام عير تحمل طعاماً فالتفتوا إليها حتى ما بقي مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً فنزلت: " وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها". (البخاري، ج٢،ص٦).(المترجم).

صلاة الجمعة والعيدين

كان من المستحيل إقامة الصلاة في جماعةٍ من أربعة أفراد في مكة. ومن ثم لم تُفرض فيها صلاة الجمعة (لأن الجماعة هي أولى شروط صلاة الجمعة)، أما في المدينة المنورة فقد أسلمت جماعة كبيرة من الأنصار، لم يكن أحد منهم ليُخلّ في أداء الصلاة، ولذا أدى المسلمون الذين هاجروا إلى المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ إليها أول صلاة جمعة بإيعاز من أسعد بن زرارة في منطقة بياضة،[1] وأمهم مصعب بن عمير ﷺ، وكان عدد المصلين أربعين مسلماً. ثم هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، أقام بقباء أولاً. وحدّد عن عمد يوم الجمعة للرحيل منها. فلما وصل إلى حي بني سالم حان وقت الصلاة فأقام بها أول صلاة للجمعة، وكان ذلك في أواخر ربيع الأول سنة ١ هـ.[2] كان أكبر تجمع للمسلمين في بلاد العرب خارج نطاق المدينة متمركزاً في جواثي، التي كانت تقع في البحرين. ويروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن جواثي كان بها أول مسجد أقيمت فيه صلاة الجمعة بعد المسجد النبوي.[3] ولكن يبدو أن صلاة الجمعة لم يكن لها لدى المسلمين الاهتمام اللائق، فقد ذكرنا في السطور السابقة أن الرسول ﷺ ذات مرة كان يؤم الناس في صلاة الجمعة بالمسجد، وفي رواية أخرى كان يلقي خطبة الجمعة، وتصادف قدوم تجار غلال من الشام، فانفض الناس جميعاً ولم يتبق في جماعة المسجد سوى اثنا عشر رجلاً. وفي رواية أخرى تبقى في المسجد أربعون رجلاً.[4] ولذا نزلت هذه الآيات الكريمة:ـ

يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذِكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ۞ فإذا قضيت الصلاةُ فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون۞ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين ۞

(سورة الجمعة ٩-١١)

---

(١) أبو داود، وابن ماجة، والدار قطني، كتاب الجمعة علاوة على عبد الرازق وأحمد وخزيمة وفق ما نُقل في فتح الباري.

(٢) الطبري صـ١٣٥٦.

(٣) صحيح البخاري، باب الجمعة.ورد في البخاري، ج١، ص٢٤٨.(عن ابن عباس قال: إن أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ، في مسجد عبد القيس بجواثي من البحرين). (المترجم).

(٤) الدار القطني، كتاب الجمعة.

بعد ذلك بلغ إجلالهم وحبهم للصلاة أن صارت كل كنوز العالم عندهم لا تساوي شيئاً أمامها. وأثنى الله تعالى عليهم فقال تعالى:ـ

" **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله " (سورة النور:٣٧)**

أُقيمت صلاة العيد أيضاً بعد دخول المدينة، ولكنها لم تُسن في ذات السنة التي قَدِم فيها رسول الله ﷺ إلى المدينة، بل في السنة الثانية من الهجرة[1] وذلك لأن صلاة العيد تلي صوم رمضان الذي لم يُفرض إلا في السنة الثانية من الهجرة.

صلاة الخوف

(لا يمكن أن تفوت الصلاة في أي حال من الأحوال. فهناك حكم بأنه في حالة الخوف أي في الحرب مثلاً ينقسم الجيش كله إلى مجموعتين، تقف إحداهما أولاً مسلحةً خلف الإمام وتصلي صلاة القصر، ثم تعقبها الأخرى التي كانت تقف في مواجهة العدو فتتراجع عن الخطوط الأمامية، لتحل الأولى مكانها وتصلى هي أيضاً الصلاة قصراً. أما الإمام فيظل في مكانه. ورد في عدد من الروايات أنه إما أن تصلي كل جماعة منهما الركعتين خلف الإمام أو أن تصلي ركعةً خلف الإمام وأخرى فرداً فرداً. أو أن الأصل فيها أنه لا تجب في هذه الحالة إلا ركعة واحدة. وقد كتب أبو داود جميع هيئات صلاة الخوف برواية الصحابة (رضوان الله عليهم) وروى كل منها على حدة. أما نحن فنرى أنه لا يوجد اختلاف بينهم جميعاً، فالأمر هنا يتوقف على حالة الحرب، وما يتراءى للإمام في حينها، فإذا كانت الحرب على أشدها يصلى كل جندي في موقعه بالإشارات، وقد وردت صيغة صلاة الخوف تفصيلاً في سورة النساء. وقد نزل الأمر بصلاة الخوف في غزوة ذات الرقاع سنة ٥ هـ، ويُطلق بعض الرواة على هذه الغزوة مسمى غزوة نجد. ووردت رواية في أبى داود عن أبى عباس الزرقي، يتبين منها أن آية صلاة الخوف قد نزلت في منطقة عسفان إبان وقت صلح الحديبية أي في سنة ٦ هـ، ولكن أغلب رواة الحديث وأرباب السيرة يذهبون إلى أن هذا الأمر قد نزل في غزوة ذات الرقاع.[2]

---

[1] الطبري صـ١٢٨١ طبعة أوربا.

[2] انظر كتب أحاديث صلاة الخوف، والطبري: ج٣ صـ٤٥، وابن سعد: ج٢ صـ٤٣.

كانت قريش تصوم يوم عاشوراء قبل ظهور الإسلام، وفيه كان يسدل كساء[1] على الكعبة، وكان الرسول ﷺ يصوم هذا اليوم أيضاً، ولا غرو في أن يتبعه الصحابة(رضوان الله عليهم) فيصومون هذا اليوم. وفي الغالب أن الصوم الذي ذُكر في الخطبة التي ألقاها جعفر ﷺ عن الإسلام أمام نجاشي الحبشة في السنة الخامسة من البعثة النبوية- أي قبل الهجرة بثمان سنوات- هو صوم يوم عاشوراء هذا، ولما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة؛ ووجد اليهود أيضاً يصومون هذا اليوم، سأل ﷺ الناس عن علة ذلك، فقالوا: إنه اليوم الذي نجا فيه موسى من يد فرعون. فقال ﷺ نحن أحق بموسى منكم، ومن ثم واصل رسول الله ﷺ صيام يوم عاشوراء(في المدينة أيضاً) وأمر صحابته الكرام(رضوان الله عليهم) بذلك. ولما فُرض صوم رمضان في سنة ٦ هـ صار صوم عاشوراء مستحباً، أي من شاء صيامه صامه ومن لم يشأ لم يصم[2]، ولكن رسول الله ﷺ واصل بنفسه الطاهرة صيام هذا اليوم على الدوام. وفي سنة ١١ هـ قال المسلمون: يا رسول الله! إن اليهود يقدسون هذا اليوم تقديساً فأخبر ﷺ: بأنه سيصوم فى السنة القادمة اليوم التاسع. ولكن ﷺ توفى في السنة ذاتها.

كان الصوم عند اليهود هو الامتناع عن الطعام ومعاشرة النساء بعد صلاة العشاء، وهذه هي طريقة الصوم التي كُلفَ بها المسلمون في بدء الإسلام. وظلت أكثر المبادئ مراعاةً في فرض أحكام الإسلام ما ورد في هذه الآية الكريمة:ـ

يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر (سورة البقرة: ١٨٥)

وما ورد أيضاً في هذا الحديث الشريف: **لا ضرورة في الإسلام (أبو داود، أحمد بن حنبل)**

---

[1] مسند ابن حنبل: ج١ صـ٢٢٤ (معجم كبير الطبراني)

[2] أبو داود، كتاب الصوم. عن ابن عمر قال: كان عاشوراء يوما نصومه في الجاهلية، فلما نزل رمضان قال رسول الله ﷺ:" هذا يوم من أيام الله، فمن شاء صامه ومن شاء تركه"(أبو داود، ج١، ص٥٦٩)(المترجم).

وعلى ذلك نزلت هذه الآية الكريمة: " **أحل لكم ليلة الصيام الرَّفَث**[١] **إلى نساءكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يَتَبيَّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر**" (سورة البقرة: ١٨٧)

لم يكن العرب معتادين على الصوم، فكان شاقاً عليهم في بدء وجوبه. ولذلك لم يُفرض الصوم دفعة واحدة بل اكتملت صورته تدريجياً، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أمر الناس في بادئ الأمر بصوم ثلاثة أيام في السنة، وحين فُرض الصوم كان للناس الخيار بين أن يصوموا أو يستعيضوا عن الصوم بإطعام مسكين. وبالتدريج اعتاد الناس على الصيام فنزلت هذه الآية:ـ

" **فمن شهد منكم الشهر فلْيَصُمْه** ".[٢] **(البقرة: ١٨٥)**

بذلك قطع بفرضية الصيام، وبقيت الكفارة. اللهم إلا من كان مريضاً أو على سفر فعليه قضاء صومه في أيام أُخر. ولما كانت الرهبانية فضيلةً عظمى عند الأمم الأخرى وبخاصة النصارى، كان المتقون من المسلمين يتجشمون المشقة في الصيام أكثر من غيرهم، إلا أن رسول الله ﷺ كان يمنعهم عن ذلك بين فينة وأخرى. ومن ذلك أن كان رسول الله ﷺ في إحدى أسفاره، ورأى رجلاً يتوسط زحاماً من الناس وقد رفعوا فوقه ظلة، فسأل ﷺ عن علة ذلك، وأُخبر أن هذا الرجل قد صام فى الحرّ. فقال " ليس من البرّ الصيام في السفر ".[٣] وأراد بعض الناس أن يواصلوا الصوم، أي يصوموا ليلهم ونهارهم، ولا يفطرون بينهما، فمنعهم رسول الله ﷺ من ذلك.

---

[١] أبو داود، كتاب الصوم، باب مبدأ فرض الصيام، (وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أن صرمة بن قيس الأنصاري أتى امرأته وكان صائما فقال: عندك شيء؟ قالت: لا، لعلي أذهب فأطلب لك شيئاً، فذهبت وغلبته عينه، فجاءت فقال: خيبة لك، فلم ينتصف النهار حتى غشى عليه، وكان يعمل يومه في أرضه، فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت: أُحل لكم ليلة الصيام... الآية). (أبو داود، ج١،ص٥٤١). (المترجم). وأسباب النزول للسيوطي. صـ٢٧.

[٢] أبو داود، كتاب الصلاة، باب كيفية الأذان. وهذا نص الحديث كما ورد في أبي داود، ج١، ص١٢١.(روى أن رسول الله ﷺ كان يصوم ثلاثة أيام من كل شهر ويصوم يوم عاشوراء، فأنزل الله تعالى: "كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم" إلى قوله: "طعام مسكين" فكان من شاء أن يصوم صام، ومن شاء أن يفطر ويطعم كل يوم مسكيناً أجزاه ذلك). (المترجم).

[٣] صحيح البخاري، كتاب الصوم.

كان المفهوم السائد عن الصوم هو الإفراط في إلحاق المشقة بالنفس طلباً للثواب، وهذا ما جعل رسول الله ﷺ يوجب كل الرخص المتاحة في الصيام، فلم يُفرض الصيام في السفر أو المرض.

وكان مسموحاً بتناول الطعام والشراب وممارسة كافة الأعمال والأفعال طوال الليل حتى الفجر الصادق، كما بين الرسول ﷺ فضل السحور وبركته فقال: إن تناول الطعام قبيل الفجر يشد العود طول النهار.

كانت الغاية من الصوم هي كف النفس عن المعاصي فقط، فالصوم مما يعين على ذلك، ولهذا قال رسول الله ﷺ : "من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه".[1]

الزكاة

كان حض المسلمين وحثهم على الصدقة أمراً نافذاً منذ بدء الإسلام. فقد ورد في السور المكية لفظ الزكاة صريحاً، ولُوم من امتنع عن إعطاء الصدقات، قال تعالى:

" أرأيت الذي يكذب بالدين ۞ فذلك الذي يدع اليتيم ۞ ولا يَحِضُّ على طعام المسكين "(سورة الماعون:١-٣)

كما نزلت في المدينة المنورة آيات كريمة تضاعف من التأكيد على ذلك. وفرضت زكاة الفطر في السنة الثانية من الهجرة،[2] وكان عامة المسلمين وبخاصة المهاجرين منهم مبتلون بعوز وفقر شديد في بدء العهد بالهجرة. فكل الوقائع الواردة في الأحاديث، عن شظف العيش لدى الصحابة رضوان الله عليهم، وضيق ذات أيديهم، على كثرتها تنتمي إلى هذه الفترة. ومن ثم نزل الأمر بوجوب التصدق بكل ما يزيد عن الاحتياجات الضرورية وإلا فالويل لمن يفعل ذلك. وبصدد ذلك نزلت هذه الآية الكريمة:[3]

" والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله " (سورة التوبة:٣٤)

وبنفس هذا المعنى، نزلت هذه الآية الكريمة أيضاً:

" يسألونك ماذا ينفقون قل العفو " (سورة البقرة:٢١٩)

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الصوم.

(٢) الطبري، طبعة أوربا.

(٣) صحيح البخاري، مقولة عبد الله بن عمر ﷺ.

كان كثير من الناس يتصدقون، ولكنهم كانوا يحتفظون بكرائم أموالهم، ويتصدقون بأتلفها وأردئها، فنزل هذا الأمر الإلهي:

"يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم مـــن الأرض" (ســورة البقرة: ٢٦٧)

ولمزيد من التوكيد، نزل الأمر بأن من لا يتصدق بما يجب، فلا مثوبة له، قال تعالى:

" لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تُحِبونَ " (سورة آل عمران :٩٢)

بلغ حب الناس للصدقات، ورغبتهم في أعمال الخير، أن المعوزين أنفسهم لــم يذهبوا إلى الأسواق ويقومون بالأعمال الشاقة؛ كنقل أمتعة وأثقال الناس على أكتافهم إلا ليتصدقوا بالأجر الذي يتقاضوه لقاء ذلك.[١]

ومع ذلك كله لم تُفرض الزكاة كما هي الآن حتى سنة ٨ هـــ، ولما فرضت بعــد فتح مكة تحددت مصارفها الشرعية وعيّن[٢] رسول الله ﷺ صيارفةً (فــي محــرم ســنة ٩هـــ) لجباية الزكاة من كل البلاد الخاضعة للدولة الإســلامية. وهــذه هــي مصــارف الزكاة:ـــ

" إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلــوبهم وفــي الرقــاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم "(ســــــــورة التوبة: ٦٠).

وردت أنصبة الزكاة بالتفصيل في الأوامر النبوية، التي اقتبس منها كتاب الزكاة في الفقه الإسلامي.

الحج

كان إبراهيم عليه السلام أول من بنى بيتاً لعبادة الله ودعا إليه الناس جميعاً، قال سبحانه وتعالى:

" وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقــائمين والركع السجود. وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فــج عميق، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات " (سورة الحج: ٢٨)

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الزكاة.

(٢) الطبري، طبعة أوربا ج٤صـــ١٧٢٢, (ابن سعد، جزء المغازي، صـــ ١١٥).

لبىّ العالم بأسره الدعوة العامة التي نادى بها إبراهيم ﷺ، فكان الناس يفدون كل سنة من أقاصي بلاد العرب ليقيموا شعائر الحج، ولكن حدث تغيير مؤسف، فتحول البيت الذي أقيم خصيصاً لإعلاء كلمة التوحيد إلى معبد لثلاثمائة وستين صنماً. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى طُرد من هذا البلد أحق الناس بالإشراف عليه، وظلوا لثمـان سـنوات كاملة لا يجرؤن على رفع أبصارهم تجاهه، إلى أن حان الوقت لظهور الحـق ففتحـت مكة، وسنحت الفرصة لخليفة إبراهيم وأتباعه أن يعيدوا إحياء الشعائر الإبراهيمية، لـذا فُرض الحج سنة ٩هـ.[1] ومع ذلك لم يؤدِ رسول الله ﷺ هذا الفرض في هذه السـنة؛ إذ كان العرب يطوفون بالكعبة عرايا وكان رسول الله ﷺ لا يستطيع أن يطيق رؤيـة هـذا المشهد المخزي بعينه، لذا أرسل أبا بكر، وعليًا ﷺ في أيام الحج إلى الكعبة كي ينادوا في الناس بألا يطوف أحدهم بالكعبة عرياناً بعد ذلك.[2]

وهناك سبب آخر، وهو أن شهر الحج كان قد تراجع إلى ذي القعدة وفقاً لضابطة النسيء. فتوافق أداء الحج في سنة ٩ هـــ مع هذا الشهر، بينما أن الشهر الحقيقي للحج هو ذي الحجة. لذا انتظر رسول الله ﷺ سنة وأقام شعائر الحج في ميعادها الأصلي.[3]

تعديلات الحج

رغم أن المشركين قد حافظوا على أداء شعائر الحج, إلا أنهم أيضاً قد حرفوهـا تماماً وألحقوا بها قدراً هائلاً من البدع جعلها سبباً للعذاب بدلاً مـن الثـواب. إن أكثـر الأمور صدارة في الإسلام هو أن الغاية من الحج وسائر العبادات هي ذكر الله والتوجـه إليه، ولكن العرب كانوا يجتمعون في الحج فيتفاخرون بأنسابهم وعظائم أعمال أسـلافهم بدلاً من أن يذكروا الله. وبناء عليه، نزلت هذه الآية:

" فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدَّ ذِكْراً "[4] (سورة البقرة : ٢٠٠)

---

[1] زاد المعاد، ج١ صـــ١٨٠.

[2] صحيح مسلم، كتاب الحج، باب لا يحج البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان.

[3] وقول رسول الله ﷺ في خطبة حجة الوداع: **الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السموات والأرض أثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان**، إشارة إلى هذا.

[4] أسباب النزول للواحدي.

كانت طريقة الحج عند أهل المدينة على وجه الخصوص هي أن يطوفوا بمنات، ومن ثم، حين كانوا يحجون إلى الكعبة كانوا لا يطوفون بين الصفا والمَروة، في حين أنه من بين أهداف الحج إحياء ذكرى إبراهيم عليه السلام، فالسعي بين الصفا والمروة تذكار لهـذا العهد، ومن ثم نزل قوله تعالى:

" إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطـوف بهما "(سورة البقرة:١٥٨)[1]

ومن الطرق التي كانت شائعة أيضاً وقتئذ، أن أغلب الناس الذين لم يكـن لـديهم زاداً للسفر (كاليوم)، كانوا يذهبون إلى الحج هكذا دون أن يتزودوا بشيء، ويقولون إنـا متوكلون. فكانوا في الغالب يضطرون إلى التسول والافتقار إلى إعالة الأصـدقاء لهـم، فنزلت هذه الآية الكريمة، قال تعالى:

" وتزودوا فإن خير الزاد التقوى "[2] **(سورة البقرة: ١٩٧)**

يَحرُم حلق الرأس أو تشذيب الشعر في الإحرام، ولكـن أهـل الجاهليـة كـانوا يتشددون في ذلك، لدرجة أن بعض الناس كانوا مصابون بأذى بالغ في رؤوسهم يهددهم بفقدان بصرهم، ومع ذلك لم يجرءوا على حلق شعرهم. أما الإسلام فإنـه يراعـي أولاً وقبل كل شيء ألا تكون عباداته وأحكامه تكليفاً لما لا يطاق، لذلك نزل قوله تعالى:

" فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صـيام أو صـدقة أو نسك " (البقرة: ١٩٦)

كما كانوا يلطخون الكعبة بدماء ما يقدمونه قرباناً ظناً منهم أن ذلك مثوبة لهـم، وعليه نزلت هذه الآية الكريمة[3]:

---

[1] إن الترجمة الشائعة لكلمة جناح في القرآن الكريم هي "هزح" أو الخسارة. وعليه تكون الترجمة: لا هزح في الطواف بالصفا والمروة، ولكن كلمة لا جناح قد وردت بمعنى الواجب والمستحب أيضاً.

[2] صحيح البخاري، كتاب الحج، باب تزودوا فإن خير الزاد التقوى. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري، ج١، ص٤٠٤. (كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى "وتزودوا فإن خير الزاد التقوى"). (المترجم).

[3] تفسير البيضاوى (أخذت هذه الشعيرة عن اليهود، لاويين ١٧:٦، أخبار الأيام الثاني ٢٩-٢٢). التوراة، سفر اللاويين، إصحاح ١٧، فقرة ٦ . وهذا نصه بالعبرية:

וזרק הכוהן את – הדם על – מזבח יהוה פתח אוהל מועד והקטיר החלב לריח ניחח ליהוה :

الكتاب المقدس، سفر أخبار الأيام الثاني، إصحاح ٢٩، فقرة ٢٢ . وهذا نصه بالعبرية:

" لن ينالَ الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم "(سورة الحج: ٣٧)

لا تقتصر هذه الآية الكريمة على تحريم هذا الفعل فحسب؛ بل تخبر أيضاً بأن القرابين ليست شيئاً مقصوداً في ذاته؛ بل إن الأصل فيها، والذي يقبله الله سبحانه وتعالى هو مدى تقوى وصلاح من يقوم بها.

كان أعظم ما خالفت فيه قريش مبادئ الإسلام في شعائر الحج هو أنهم كانوا لا يذهبون إلى عرفات، الذي كان بمثابة مقر العبادة الأساسي للحج وكانوا يقولون نحن أهل الحرم وليس بوسعنا أن نذهب خارج حدوده ففي ذلك إهانة وتحقير لأسلافنا، ومن ثم، كانوا يذهبون إلى المزدلفة فقط ويمكثون بها، فيما كان العرب جميعاً يجتمعون في عرفات ثم يعودون منه إلى منى والمزدلفة، ولما كان الإسلام دين المساواة وكل الناس سواسية في عبادته،[1] نزل قوله تعالى:

" فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم " . (سورة البقرة: ١٩٨ــ ١٩٩).

ولأنهم كانوا يعتقدون بأن حيوان القربان مقدم لله (تعالى الله عن ذلك) لذا كانوا لا يمتطوه، متحملين مشقة السير على أقدامهم، وظل هذا العرف رائجاً حتى ظهور الإسلام. وذات مرة رأى رسول الله ﷺ رجلاً في رحلة الحج مصطحباً ناقة الضحية، ويسير هو مترجلاً، فقال له رسول الله ﷺ: "اركبها"، فقال: " إنها بدنة"، فكرر رسول الله ﷺ الأمر، فاعتذر الرجل بنفس العذر، فأمره رسول الله ﷺ بشيء من التوبيخ: " اركبها"[2]

هذا وكانوا قد ابتكروا نوعاً من الحج أسموه الحج المصمت، وهو أن من يحج لا يتفوه بشيءٍ من بدء حجته حتى نهايتها. أما الإسلام فقد حرّم ما لا يطاق. فورد في صحيح البخاري أن أبا بكر ﷺ رأى ذات مرة امرأةً من بني أحمس تدعى زينب، لا

וישחטו הבקר ויקבלו הכוהנים את - הדם ויזרקו המזבחה וישחטו האלים ויזרקו הדם המזבחה וישחטו הכבשים ויזרקו הדם המזבחה :(المترجم).

(١) صحيح البخاري،ج١، كتاب الحج. وهذا نص الحديث: (٦٧٩ حَدِيثُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَتْ قُرَيْشٌ وَمَنْ دَانَ دِينَهَا يَقِفُونَ بِالْمُزْدَلِفَةِ، وَكَانُوا يُسَمَّوْنَ الْحُمْسَ. وَكَانَ سَائِرُ الْعَرَبِ يَقِفُونَ بِعَرَفَةَ، فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلاَمُ أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْتِيَ عَرَفَاتٍ فَيَقِفَ بِهَا ثُمَّ يُفِيضَ مِنْهَا فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ). (البخاري، ج١، كتاب الحج. المترجم).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الحج.

تتحدث مع أحد. ولما استفسر عن الأمر، علم أنها نوت الحج المصمت، فقال أبو بكر ﷺ: هذا لا يجوز، فهو عادة جاهلية.[1]

كانت أشد الأمور خزياً أن كافة العرب، عدا قريش وأحمس كانوا يطوفون بالكعبة وهم عرايا رجالاً ونساءً، فبمجرد أن يدخلوا نطاق الحرم كانوا جميعاً يخلعون ثيابهم ويستعيرون ثياباً من أي قرشي، فإن لم يجدوا يطوفون بالكعبة عرايا، وهكذا أيضاً كانت النساء يطفن وهن عاريات، وينشدن هذا البيت:

اليوم يبدو بعضه أو كُلّهُ وما بدا منه فلا أحلّه

وعليه نزلت هذه الآية الكريمة[2]:

" **يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد** " **(سورة الأعراف:٣١)**

ومن ثم بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق ﷺ في سنة ٩ هـ وأعلن في ذروة موسم الحج بألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان.[3]

---

[1] صحيح البخاري، ج١ صـ٥٤١.

[2] وردت هذه الواقعة كاملة، وسبب نزول الآية الكريمة في كتاب سنن النسائي، مناسك الحج.

[3] ورد باب لا يطوف بالبيت عرياناً في صحيح مسلم، والبخاري وسائر كتب الحديث. وهذا نص الحديث:(٧٦٣ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ فِي الْحَجَّةِ الَّتِي أَمَّرَهُ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ فِي رَهْطٍ يُؤَذِّنُونَ فِي النَّاسِ يَوْمَ النَّحْرِ لا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ وَلا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ). (المترجم).

وفقاً للتدرج المتبع في إتمام الشريعة نزلت أحكام الميراث، والنكاح والطلاق، والقصاص، والتعزيرات (وغيرها) بعد البعثة بفترة طويلة. وسبب ذلك أن تطبيق مثل هذه الأحكام كان يحتاج إلى قوة نافذة لم تكن قد تيسرت للإسلام بعد. بدأت قوة الإسلام السياسية تكتسب قوتها بعد غزوة بدر. كانت الأحكام التي نزلت في السنة الأولى والثانية من الهجرة هي تحويل القبلة، وفرض الصوم وزكاة الفطر، وصلاة العيد، والأضحية. ولما بدأت أعمال التجارة الإسلامية تتوسع في السنة الثالثة، كان قانون الميراث هو أول ما نزل في القرآن الكريم في هذا الصدد.

الميراث

(كان أفراد الأسر الإسلامية في بادئ عهدهم بالمدينة متبايني الديانة، فربما كان الأب مسلماً والابن كافراً، أو أحد الأخوة مسلماً والآخر مشركاً. كيف كان يمكن تنفيذ قانون الميراث بين الأقارب في ظل هذا الوضع ؟ لهذا حين هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة آخى بين المهاجرين والأنصار، وطبقاً لهذه المؤاخاة تقررت الضابطة التي تقول بأنه إذا توفي أنصاريٌ يرثه أخاه المهاجر.[1] وقد جرى العرف قديماً لدى العرب بأن يتعاهد الرجلان فيما بينهما أنه إذا مات أحدهما يرثه الآخر. وبالفعل كان إذا مات أحدهما ورثه الآخر، ولكن في سنة ٣ هـ نزلت هذه الآية القرآنية الكريمة فنسخت هذا العُرف)، يقول تعالى:

" **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض "(سورة الأنفال: ٧٥)**

وعلى ضوء ذلك أيضاً مُنع الميراث بناء على المؤاخاة، واقتصر الميراث على الأهل وذوي الأرحام. (كان القرآن الكريم قد أمر بتطبيق قاعدة الوصية قبل نزول آية الميراث، وهي أن يوصي المرء قبل وفاته بالأنصبة التي توزع بها ممتلكاته بعد وفاته)

---

[1] هذا ما قاله المفسرون، ولكن وردت رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما في صحيح البخاري وغيره تقول بأن، هذا الحكم قد نسخ بالآية الكريمة المذكورة.

وبالفعل كانت ممتلكاته توزع بعد وفاته بنفس الطريقة التي أوصى بها. وكانت كتابة هذه الوصية قبيل الوفاة فرضاً على كل مسلم، قال تعالى:

" كُتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين"(سورة البقرة: ١٨٠)

وُضح في القرآن الكريم قانون الشهادة على من يموت في السفر. وكان إخفاء هذه الشهادة أو تزويرها جريمة من الناحية القانونية. وورد في سورتي البقرة والمائدة الحديث عنها تفصيلا. زاد عدد المسلمين بدرجة كافية بعد غزوة بدر، إذ اعتنقت الأسـر جميعـاً بسائر أفرادها الإسلام، ومن ثم أصبحت الحاجة ملحة لوضع قانون خـاص بـالميراث. فضلاً عن أنه كانت هناك صعوبة بالغة في قاعدة الوصية، حيث لم يكن مـن الممكـن إجراء أي ضوابط أخرى لتوزيع التركة في حالة الموت المفاجئ للمورث. فعلى سـبيل المثال، كان مئات المسلمين يشاركون في الجهاد، فمن سيعرف من، ومن سيشـهد علـى من. في مثل هذه الحالات وبعدم تنفيذ الوصية يستولي على التركة من له الكلمة العليا بين الأقارب. وهذا ما حدث بالفعل إثر غزوة أحد، فكان الصحابي سعد بن الربيع ﷺ، الـذي كان بالغ الثراء، (قد استشهد في هذه الغزوة، ولجأت زوجته إلى رسول الله ﷺ تقول: لقد استشهد سعد في سبيلكم، وخلف ورائه بنتيّن، ولكن أخيه قد استولى على تركته كلها، فقال رسول الله ﷺ: سيقضي الله أمره، وفي الغالب تلي ذلك نزول[١] هذه الآية الكريمة، سنة ٤ هـ، والتي ورد فيها سائر أحكام الميراث، قال تعالى:

" يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين " الخ(النساء:١١)

---

[١] روُيت ثلاث وقائع في كتب الحديث عن سبب نزول آية الميراث، أولها أن هذه الآية قد نزلت حين مرض جابر ﷺ في السنة العاشرة من الهجرة. وردت هذه الرواية في كتب الصحاح الستة، ولكن في الحقيقة قد حدث قدرٌ ما من التسامح مع رواة هذه الرواية لأن الميراث قد طُبق قبل سنة ١٠ هـ فضلاً عن أن جابرﷺ لم يكن له ولد حتى ذلك الحين مما يدعم صحة القول بأن واقعة جابر تتعلق بإحدى حالات الميراث وهي (الكلالة) حسبما تصرح بذلك روايات مسلم الأخرى في (كتاب الفرائض). أما الرواية الثانية حول سبب نزول هذه الآية، أنها نزلت أثر أم كحبة بعد وفاة زوجها عبد الرحمن أخو حسان بن ثابت ﷺ، وقد روى هذه الرواية الطبري وغيره، ومع أنها ضعيفة، إلا أنه من الممكن أن تحدث وقائع عديدة مثل واقعة سعد بن الربيع. أما الرواية الثالثة حول نزول هذه الآية الكريمة، فهي واقعة سعد بن الربيع التي وردت في أبو داود، والترمذي، والحاكم، والمستدرك.(سيد سليمان الندوي).

فاستدعى رسول الله ﷺ أخو سعد وقال: أعط ثلثي تركة سعد لابنته، وثمنها لزوجته، وما يتبقى بعد ذلك فهو حقك.

كان العرب يحرمون النساء من الميراث زعماً بأن الميراث حق لمن يحمل السيف. وكان هذا هو العرف السائد بين أغلب أمم العالم الأخرى. فكان هذا هو اليوم الأول الذي تُنصف فيه القوارير.

الوصية

بعد نزول أحكام الميراث، ظلت الوصية جائزة كما هي، ولكن لما كان هناك تخوف من ضياع حق الورثة بسببها؛ لذا كانت هناك حاجة لتحديد الوصية. وفي سنة ١٠هـ مرض سعد (والد عاد)، فجاء النبي ﷺ لعيادته، فقال لرسول الله ﷺ: إنني أحتضر وليس لي إلا بنت واحدة فقط، وأريد أن أتصدق بثلثي مالي، فلم يجز له الرسول ﷺ ذلك، فقال: فليكن النصف، فلم يرض رسول الله ﷺ بذلك أيضاً، فقال: فليكن الثلث، فقال رسول الله ﷺ: الثلث والثلث كثير، إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالةً يتكففون الناس.[1] ومع ذلك أباح له أن يتصدق بهذا النصاب، ومنذ ذلك الحين حُرمت الوصية بأكثر من الثلث.

الوقف

الوقف إحدى القضايا بالغة الأهمية في الشريعة، وقد نقّح الإسلام هذه المسألة إلى الحد الذي ليس له مثيل في قوانين الديانات الأخرى. ومن ثم، قال السيد شاه ولي الله في كتابه "حجة الله البالغة": إن الإسلام هو مؤسس طريقة الوقف. وتاريخ الوقف في الإسلام موغل في القدم، ففي السنة الأولى من الهجرة أسس رسول الله ﷺ المسجد النبوي في المدينة المنورة على أرض كان يمتلكها يتيمين، وأراد رسول الله ﷺ أن يعطيهم ثمنها، فقالوا: **لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله**

كان ذلك أول وقف في الإسلام، وكان في أبسط صورة. وقد أورد الإمام البخاري هذا الحديث دليلاً على الوقف المشاع. وفي سنة ٤ هـ أو سنة٥ هـ نزلت هذه الآية الكريمة، فقال تعالى: **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**

---

[1] صحيح البخاري، ج١، كتاب الوصايا.

فذهب الصحابي الجليل أبو طلحة ﷺ إلى رسول الله ﷺ، وقال: يا رسول الله ! إن بيرحا[١] أحب الأراضي إلى قلبي، وأنا متصدق بها في سبيل الله، وأسأل الله الأجر والثواب، فانفق ريعها في أي المصارف شئت. فأوقف ريعها على أقاربه وفق نصيحة رسول الله ﷺ.

ظل المصطلح المستخدم تعبيراً عن الوقف حتى ذلك الحين يعني فقط مجرد الإقرار بسحب الممتلكات من حيز التصرف الشخصي إلى الملكية العامة في سبيل الله. ولكن في سنة ٧ هـ وبعد غزوة خيبر، أصبحت حقيقة الوقف واضحة جلية. فلما حصل عمر ﷺ على أرض في خيبر، وأراد وقفها، ذهب إلى رسول الله ﷺ فقال له:

إن شئت جلست[٢] أصلحها وتصدق بها.

لذلك تم وقف تلك الممتلكات وفقاً للشروط التالية:[٣]

إنه لا يباع أصلها ولا يوهب ولا يورث.

النكاح والطلاق

إن أحكام التعديل التي نزلت بشأن النكاح سيرد تفصيلها تحت عنوان التعديلات، ونحن هنا نكتب فقط عن صور النكاح في العرب قبل الإسلام، والتي كانت كلها مشابهة للزنا عدا واحدة فقط، وهى التي أجازها الإسلام في بادئ الأمر. كان زواج المتعة[٤] الذي ينحدر إلى عصر الجاهلية يحرم أحياناً ويحلل في أحيان أخرى، إلى أن قُطع بتحريمه في غزوة خيبر سنة ٧ هـ. ومع ذلك أيضاً اقتضت الضرورة أن يقول عمر ﷺ في عهد خلافته على المنبر: إني أحرّم زواج المتعة، أي إنني أعلن اليوم تحريم زواج المتعة الذي لم يُشَع في البلاد حتى الآن بالقدر الكافي.

أما الأحكام الأخرى المتعلقة بالنكاح والطلاق مثل بيان المحارم الشرعية، عدم تحريم زوجة الابن المتبني، وتحديد تعدد الزوجات، وعدد مرات الطلاق، ومدة العدة، وضرورة الصداق، والظهار– وهو إحدى طرق الطلاق–، وفيه يُشبه الرجل زوجته بالمحرمات من النساء عليه، واللعان –أي اشتباه الزوج في عفة زوجته– وإدعاء كلاً

---

(١) اسم أرض تقع في المدينة المنورة.

(٢) أي إن شئت أبقيت أصلها وتصدق بمنافعها.(المترجم).

(٣) وردت كل هذه الأحاديث في صحيح البخاري، باب الوقف.

(٤) الزواج المؤقت.

منهما بصدقه وتكذيب الآخر. وسترد كل هذه التفاصيل ضمن حديثنا عن التعديلات. أما هنا فيكفي فقط أن نقول بأن هذه الأحكام كلها مذكورة في القرآن الكريم وكان نزولها في سنة ٤،٥هـ.

الحدود والتعزيرات[١]

ما من شئ بين كل كنوز العالم أثمن من روح النفس البشرية. نزلت أغلب قوانين الحدود والتعزيرات بعد الهجرة بعدة سنوات، ولكن الأمر بتحريم قتل النفس البشرية كان قد نزل بمكة. حيث كان إحدى الأحكام الأخلاقية التي تلقاها رسول الله ﷺ من ربه حين عُرج به إلى السماوات العلا، قال تعالى:

" **ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً** " (سورة الإسراء: ٣٣)

كان لدى العرب أيضاً بعض قوانين القتل والقصاص قبل ظهور الإسلام، كما كان لدى اليهود، الذين كانوا يتمتعون بمكانة رفيعة في هذه البلاد، مجموعة الحدود والتعزيرات التي وردت في التوراة. لكنه في الواقع لم يكن العرب يتمتعون بسلطة مقننة أو بروح أخلاقية، ومن ثم لم يستطيعوا تنفيذ هذه الأحكام. بمجرد دخول المسلمين إلى المدينة لجأ اليهود إلى مقر رسول الله ﷺ ليفصل لهم في قضاياهم. فكان صلوات الله وسلامه عليه يفصل في قضاياهم عموماً وفقاً لأحكام التوراة.

كان مقتل رجل واحد من العرب يثير سلسلة من مئات الحروب الأهلية بين القبائل لذلك لما صار للإسلام قوة وشكيمة بعد غزوة بدر، نزل حكم القصاص، ولعلك تذكر أن يهود بنى قريظة وبنى النضير كانوا يقيمون على حدود المدينة، وكان بنو النضير يعدون أشراف من بنى قريظة، ومن ثم إذا قتل قريظي نضيري قتلته بنو النضير أما إذا قتل نضيري قريظي، فإنهم يدفعون فدية عبارة عن مائة وسق من التمر. وقعت حادثة من هذا النوع بعد قدوم رسول الله ﷺ. فنزلت فيها بعض آيات سورة المائدة، منها هذه الآية الكريمة،[٢] يقول تعالى:

---

[١] أضفت من هنا حتى نهاية باب الحلال والحرام."سيد سليمان الندوى".

[٢] أبو داود، كتاب الديات. عن ابن عباس قال: كان قريظة والنضير، وكان النضير أشرف من قريظة، فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلا من النضير قُتل به، وإذا قتل رجل من النضير رجلا من قريظة فودي بمائة وسق من تمر، فلما بعث النبي ﷺ قتل رجل من النضير رجلا من قريظة فقالوا: ادفعوه

" **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس و العين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص " (المائدة: ٤٥)**

ومع أن هذا الأمر كان لليهود، إلا أنه قد نزلت آيه أخرى أوضحت هذه المسألة تماماً، يقول تعالي:

" **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى " (البقرة:١٧٨)**

أقر هذا الحكم قانون العدل والمساواة في الدنيا إلى أبد الآبدين.

لم يكن عند اليهود قانون الفدية[1] (الدية)، ولكنه كان لدى العرب، وأقره الإسلام بعد أن أدخل بعض التعديلات، يقول تعالى:

" **فمن عُفي له من أخيه شئ فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان "(سورة البقرة:١٧٨)**

لم يكن هناك حتى ذلك الحين تفريقاً بين القتل العمد والقتل الخطأ. وفي سنة ٦ هـ قُتل مسلم بيد مسلم آخر خطأً، كما قُتل قرشيٌ على يد مسلم أنصاري، وأرضى رسول الله ﷺ أخ القتيل بإعطائه الدية، ولكن بعد ذلك أسلم أخو القتيل هذا نفاقاً وقتل هذا الأنصاري وفر إلى قريش. وبناء على هذه الأحداث، نزلت عدة أحكام بشأن القتل الخطأ، يقول تعالى:

" **وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً ومن قَتَلَ مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يَصدَّقُوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبةً من الله وكان الله عليماً حكيماً ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدَّ له عذاباً عظيماً " (النساء: ٩٢-٩٣)**

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن هذا كان آخر أحكام القتل والقصاص.

أما تحريم النفس فقد أُعلن عند فتح مكة، حين قال رسول الله ﷺ: إن كل دماء الجاهلية

إلينا نقتله. فقالوا: بيننا وبينكم النبي ﷺ فأتوه، فنزلت (وإذا حكمت فاحكم بينهم بالقسط... الآية). (أبو داود، ج٢، ص٤٧٧). (المترجم).

[1] صحيح البخاري، كتاب التفسير، آية : كتب عليكم القصاص. يقول ابن عباس: "كان في بني إسرائيل القتل ولم تكن فيهم الدية"(البخاري، ج٣، ص١٤٢)(المترجم).

تحت قدمي هاتين، وبعدها حدد[1] رسول الله ﷺ دية للقتل الخطأ تشابه دية القتل العمد. فكانت دية القتل الخطأ أربعمائة دينار لأهل القرية.[2]

لم يتعين حد على قطاع الطرق حتى سنة ٦ هـ، قدِم بعض أهالي قبيلتي عكل وعرينه إلى المدينة وأعلنوا إسلامهم، ولم يلائمهم مناخ المدينة، فسمح لهم رسول الله ﷺ بالإقامة في مرعى خارج المدينة. وفي واقعة ما قتل هؤلاء القوم بعض الرعاة المسلمين بضراوة بالغة بعد أن لقنوهم شتى صفوف العذاب وسلبوا بعيرهم ثم لاذوا بالفرار. ولما تم ضبطهم وإحضارهم إلى رسول الله ﷺ، أمر ﷺ بقتلهم بنفس التعذيب الذي قتلوا به الرعاة المسلمين. ومع أن ذلك كان قصاصا إلا أنه كان مشوباً بقدر من القسوة. ولذا نزل عتاب من الله وأنزل[3] أحكامه الخاصة بقطاع الطرق والمجرمين، يقول تعالى:

" إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض " (سورة المائدة: ٣٣)

يأتي المال في الدرجة التالية للنفس. كانت عقوبة قطع يد السارق نافذةً عند العرب قبل ظهور الإسلام، ولما ظهر الإسلام أقرّها أيضاً، فقال تعالى: **السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما.** في فتح مكة، سنة ٨ هـ ارتكبت هذه الجريمة امرأة مخزومية، ولأنها كانت تنتمي من أسرة من الأشراف، أُصيب المسلمين بحالة من الهلع والاضطراب. وشُفع لها عند رسول الله ﷺ بأسامة بن زيد رضي الله عنه الذي كان يحبه حبا جما. فغضب رسول الله ﷺ، وجمع الناس وخطب فيهم خطبةً قال فيها: إنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده لو أن

---

[1] أبو داود، كتاب الديات، باب في دية الخطأ شبه العمد. قال رسول الله: "ألا إن دية الخطأ شبه العمد ما كان بالسوط والعصا مائة من الإبل منها أربعون في بطونها أولادها."(أبو داود، ج٢، ص٤٩٢) (المترجم).

[2] أبو داود، ديات الأعضاء. كما ورد في أبي داود، ج٢، ص٤٩٥." كان رسول الله يُقوّم دية الخطأ على أهل القرى أربعمائة دينار". (المترجم).

[3] أبو داود، كتاب الحدود، باب المحاربة. ورد في أبي داود، ج٢، ص٤٤٤(عن ابن عمر أن أناسا أغاروا على إبل النبي ﷺ فاستقوها وارتدوا عن الإسلام، وقتلوا راعى رسول الله ﷺ مؤمنا فبعث في آثارهم، فأخذوا فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم)(المترجم).

فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها. وكان من أثر هذه الخطبة أن كان الناس ينفذون هذا الحكم كما هو.[١]

لم يوضع عند العرب عقاب للزنا. أما اليهود فكان محدداً لديهم "الرجم" كعقاب للزاني وفقاً لما جاء في التوراة، ولكنهم لم يستطيعوا تطبيق هذا الحكم نظراً لضعف نفوسهم. فكان اليهود الذين يستوطنون حدود المدينة قد استبدلوا الرجم بوضع سواد على فم المذنب ويطوفون به في الأسواق والحواري للتشهير به، ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة، رفعوا إليه قضية لأحد المخطئين. كان ذلك في السنة الثالثة من الهجرة في الغالب. فسألهم الرسول ﷺ: مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الزِّنَا؟ فأخبروه بعُرفهم هذا، فطلب الرسول ﷺ التوراة وأقرأهم إياها، فأخفوا آية الرجم بأصابعهم، ولكن أحد اليهود الذين أسلموا أخرج هذه الآية وتلاها. فقال رسول الله ﷺ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَى مَا أَماتُوا مِنْ كِتَابِكَ».[٢] ولذلك أمر الرسول ﷺ برجم هذا الرجل، وبالفعل تم رجمه.

في سنة ٥ هـ نزلت سورة النور التي تحدد فيها مائة جلدة جزاءً للزاني أو الزانية. يقول عمر ﷺ إن القرآن الكريم أقرّ جزاء الرجم ثم نُسخت تلاوته[٣] بعد ذلك. على أي حال يثبت من الأحاديث أن على الزاني الأعزب مائة جلدة وعلى المتزوج الرجم.[٤] ومن ذلك أن مسلماً اقترف هذا الإثم في سنة ٧ هـ، ورغم عدم معرفة الناس بذلك إلا أنه فضل عقاب الدنيا على عذاب الآخرة وأتى إلى رسول الله ﷺ وهو في جمعٍ من الناس وقال: يا رسول الله ! إنني آثم فطهرني، فاستقصى رسول الله ﷺ الأمر، وأمر برجمه.[٥]

---

[١] صحيح البخاري.غزوة الفتح.

[٢] أبو داود، في رجم اليهوديين.

[٣] صحيح البخاري، رجم المحصن. عن جابر بن عبد الله أن رجلا من أسلم أتى رسول الله ﷺ فحدثه أنه قد زنى، فشهد على نفسه أربع شهادات، فأمر به رسول الله ﷺ فرجم وكان قد أحصن. (البخاري، ج٤، ص٢٦٩). (المترجم).

[٤] ورد ذلك في سائر كتب الحديث.

[٥] لم ترد أية تفاصيل في أي من الكتب بشأن تحديد سنة ٧ هـ، وقد فضلها شراح الحديث قياساً على أن أبا هريرة ﷺ كان في المدينة في ذلك الوقت، ومن الثابت أنه كان قد قَدِم إلى المدينة في نفس السنة التي شُهدت فتح خيبر.

وقد تم تحريم الخمر سنة ٥ هـ. ولم يكن هناك عقاب خاص بشرب الخمر في عهد رسول الله ﷺ. يُجلد مقترفي هذا الإثم أربعون جلدة. وقد جعلها عمر ﷺ في عهده ثمانين جلدة.[١]

نزل جزاء القذف أي رمي المحصنات، سنة ٥ هـ[٢]، يقول تعالى:

والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً. (سورة النور: ٤)

إن كل هذه الحدود والتعزيرات التي ذكرناها قد وُضعت للحفاظ على أغلى ثلاثة أشياء في الحياة: النفس، والمال، والعرض. ومن ثم، بعد نزول هذه الحدود، قال رسول الله ﷺ في الشهر الحرام وداخل ربوع الحرم، إبان حجة الوداع سنة ١٠ هـ: " أيها المسلمون ! كل المسلم على المسلم حرام ماله وعرضه ودمه، كحرمة يومكم هذا من شهركم هذا في حرمكم هذا".

---

[١] أبو داود، إذا تتابع في الخمر. ورد في أبي داود،ج٢،ص٤٧٥ "أن عمر رضي الله عنه ضرب أربعين صدرا من إمارته ثم جلد ثمانين في آخر خلافته". (المترجم).

[٢] وقعت حادثة الإفك في هذه السنة، فنزلت فيها هذه الآية، ومن هنا تحدد لها سنة ٥ هـ.

الحــلال والحــرام

الحلال والحرام من الأطعمة

لم يكن العرب يخشون شيئاً في مسألة الطعام والشراب، كما لم يكن عندهم أصنافاً محرمةً أو محللةً، فقد كانوا يأكلون حتى الميتة أو حشـرات الأرض. اللهـم إلا بعـض الحيوانات التي كانوا يتركونها لأنها تحمل اسم آلهتهم، ولاعتقادهم بأن ذبحها إثـم، كمـا كانوا ينذرون بعض الحيوانات، ويبيحون أكلها للرجال دون النساء. وإذا أنجبت صـغيراً ميتاً فيأكله الرجال والنساء، وأما إذا كان حياً يأكله الرجال فقط. وكانـت هنـاك أيضـاً طقوساً وثنية أخرى من هذا النوع، تناولتها بالتفصيل سورة الأنعام التي نزلت في مكـة. ومع أن أغلب أحكام الإسلام قد نزلت بالمدينة المنورة إلا أن أحكـام تحـريم وتحليـل الأطعمة قد بدأ نزولها في مكة، ومن ذلك أنه بعد دحض طقوس المشركين هذه في سورة الأنعام، ورد بها هذا الحكم، يقول تعالى:

" قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسـفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به فمن أضطر غير باغٍ أو عادٍ فإن ربك غفور رحيم " (الأنعام : ١٤٥)

كان أكثر ما أثار عجب المشركين هو أن يقال على ما يموت بنفسه حـرام ومـا تقتله بيدك حلال، مع أنه لا يوجد فرق بينهما، فنزلت فيهم هذه الآية الكريمة، قال تعالى:

" فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين وما لكم ألاّ تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم " (سورة الأنعام:١١٨-١١٩)

بعد ذلك نزلت بمكة المكرمة أيضاً آية سورة النحل: **فكلوا مما رزقكم الله.. إلـى** آخر الآية، حيث تكرر فيها نفس هذا الحكم السالف، وحُرمت فيها هذه الأشـياء الأربعـة ذاتها: الميتة، الدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به. ثم أُعيد تكرار الحديث عن هـذه المحرمات الأربعة في سورة البقرة، وهي أول سورة نزلت بالمدينة المنورة، وذلك فـي قوله تعالى: **إنما حَرَمَّ عليكم الميتة.** وقلما ميزّ العرب بين الحلال والحرام، وكان السبب في ذلك فقرهم وعوزهم فضلاً بالطبع عن بداوتهم وجهلهم، ولذلك كان وعي المسـلمين بالتفريق بين الحلال والحرام يتنامى مع تحسنّ أحوالهم الاقتصادية، كان الناس على وجه

العموم يظنون بأن الميتة هي الحيوان الذي يمرض فيموت، ولذلك كانوا لا يحرمون أي حيوان يموت بأي سبب آخر. وبعد الهجرة بأربع أو خمس سنين نزل تفصيل في صورة المائدة عن الميتة: **المنخنقة، والموقودة، والمتردية، والنطيحة وما أكل السبع،** موضحاً أنه لا يحل منها **إلا ما ذكيتم.**

وفي سنة ٧ هـ حين انتصر المسلمون في خيبر وآلت إليهم ضياعها تم التفريق بين الحلال والحرام، وأعلن أنه يحرم من اليوم أكل الحمير، السباع والوحوش، والجوارح. وبعد فتح مكة سنة ٨ هـ اعتنقت قبيلة طي التي كانت تدين بالنصرانية- الإسلام، كما أسلم بعض مسيحيو الشام أيضاً. وكان هؤلاء القوم يربون كلاب الصيد ويصطادون بها. وبإسلامهم علموا أن الميتة حرام، فذهبوا إلى رسول الله ﷺ وعرضوا عليه أمرهم، فنزلت فيهم هذه الآية الكريمة، قال سبحانه وتعالى:

" يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات " (المائدة:٤)

وبعد ذلك ورد أنه إذا كان حيوان الصيد مروضاً ويذكر اسم الله عليه حال إطلاقه للصيد فإن صيده حلال أكله.[١]

تحريم الخمر

يرى المعترضون أن أكبر سبب لانتشار الإسلام هو أن أغلب أحكامه، (مثل حكم تعدد الزوجات وغيرها) كانت تؤيد الأنانية؛ ولذا لم يجد العرب غضاضةً في قبوله، إذ أنه كان يُعبر عما يجيش في نفوسهم من رغبات. وسوف نتحدث عن هذا الأمر فيما بعد. وهنا نتحدث فقط عن واقعة تحريم الخمر من الناحية التاريخية. لم يكن هناك شئ أحب إلى نفوس العرب أكثر من الخمر، ومن ثم كان جميعهم مصابًا بهذا المرض. والخمر أهم موضوعات الشعر العربي، وقد نزلت سائر أحكام الإسلام تدريجياً ووفقاً للمصلحة العامة، ومن ثم حُرمت الخمر تدريجياً.

كان شرب الخمر يشيع بالمدينة المنورة أكثر من غيرها، فكان علية القوم والسادة يشربون الخمر علانية. وفي الوقت ذاته كان بين العرب أيضاً أناس صالحين قد تركوا شرب الخمر واعتبروه منافياً للتقوى، وحتى ذلك الوقت لم يكن الإسلام قد أصدر حكمه بصدد هذا الأمر، فبدأ الناس يتساءلون عن حكم شرب الخمر، فقال عمر ﷺ:

اللهم بين لنا في الخمر بياناً شفاءً.

---

[١] للإطلاع على أسماء المصادر، انظر في التفاسير عن أسباب نزول هذه الآيات.

فنزلت هذه الآية الكريمة:

" **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما** " (سورة البقرة: ٢١٩).

ظل الناس يشربون الخمر أيضاً حتى بعد نزول هذه الآية الكريمة. وذات مرة دعا أنصاري علي ﷺ وعبد الرحمن بن عوف إلى وليمته التي كان بها خمرٌ أيضاً، وبعد الطعام حان وقت صلاة المغرب، وصلى علي ﷺ بالناس، ولكنه أخطأ في التلاوة بسبب الثمالة. فكرر عمر دعاءه وقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شفاءً. فنزلت هذه الآية الكريمة:-

" **لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون** " (سورة النساء: ٤٣)

بعد نزول هذه الآية الكريمة، كان كلما حان وقت الصلاة، ينادي المنادي، بأمر من رسول الله ﷺ، بألا ينضم إلى الصلاة سكران.[1] ولكن لأن هذا الحكم لم يكن معمماً، كان الناس يشربون الخمر ويتشاربونها بدون حرجٍ في كل حين عدا وقت الصلاة. فكرر عمر ﷺ دعاءه مرة ثالثة. وكان بعض الناس في ذلك الحين يشربون الخمر ويثملون إلى الحد الذي يجعلهم يتقاتلون فيما بينهم.[2] فنزلت هذه الآية الكريمة:[3]

" **يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون** " (سورة المائدة: ٩٠،٩١)

---

[1] وردت هذه الواقعة كاملة في كتاب الأشربة، أبو داود. وهذا نص الحديث (٣٦٧١) حدثنا عَبَّادُ بنُ مُوسَى الْخُتَّلِيُّ قالَ أخبرنا إِسْمَاعِيلُ ـ يَعني ابنَ جَعْفَرٍ ـ عن إِسْرَائِيلَ عن أبي إِسْحَاقَ عن عَمْرٍو عن عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ، قالَ: «لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ قالَ عُمَرُ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا في الْخَمْرِ بَيَاناً شِفَاءً، فَنَزَلَتْ الآيَةُ الَّتي في الْبَقَرَةِ: {يَسْأَلُونَكَ عن الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ} الآيَةَ، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، قالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا في الْخَمْرِ بَيَاناً شِفَاءً، فَنَزَلَتْ الآيَةُ الَّتي في النِّسَاءِ {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى} فَكَانَ مُنَادِي رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ يُنَادِي: أَلاَ لا يَقْرَبَنَّ الصَّلاَةَ سَكْرَانٌ. فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فقالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا في الْخَمْرِ بَيَاناً شِفَاءً، فَنَزَلَتْ هٰذِهِ الآيَةُ {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} قالَ عُمَرُ: انْتَهَيْنَا». (المترجم).

[2] صحيح مسلم ج ٢ صـ ٣٢٨ ذكر سعد بن أبي وقاص ﷺ.

[3] لم ترد الآيات كاملة في أبي داود؛ بل ذُكر بعضها وأُشير إلى الآية كلها.

بعد نزول هذه الآيات الكريمة قُطع بتحريم الخمر، وفي الوقت ذاته كلف رسول الله ﷺ منادياً بأن يطوف في أزقة وطرقات المدينة كلها معلناً بأن الخمر حرام من اليوم، ومع ذلك كله استمرت تجارة الخمر وتم تداول بيعها وشرائها، حتى حُرم ذلك أيضاً في سنة ٨ هـ، حيث جمع رسول الله ﷺ الناس في المسجد النبوي، وأعلن لهم ذلك في حينه.[١] بعد ذلك، وإبّان فتح مكة من نفس العام، حرم رسول الله ﷺ على الملأ تجارة هذه الأشياء، التي يَحْرم أكلُها أو اقتنائها. فقال ﷺ:

إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام.[٢]

- تدبر أن هذا كله يوضح كيف اقترن التطبيق العملي لتحريم الخمر بالإعلام العام عنه، ومع ذلك لم تتحدد حتى الآن السنة التي حدث فيها ذلك؟ فهناك اختلاف كبير بين المحدثين وأهل الرواية في هذا الأمر.[٣]

كتب الحافظ ابن حجر في فتح الباري، كتاب التفسير، سورة المائدة، باب ليس على الذين آمنوا التالي:

والذي يظهر أن تحريمها كان عام الفتح منه ثمان كما روى أحمد من طريق عبد الرحمن بن وعلة قال: سألت ابن عباس عن بيع الخمر فقال: كان لرسول الله ﷺ صديق من ثقيف أو دوس فلقيه يوم الفتح براوية خمر يهديها إليه، فقال: يا فلان أما علمت أن الله حرمها. الخ

نرى أن رأى الحافظ ابن حجر وبرهانه يفتقدان الصواب؛ فما يثبت من هذه الرواية فقط هو أن هذا الرجل لم يكن قد تدارك إلى علمه تحريم الخمر حتى فتح مكة.[٤]

---

[١] صحيح البخاري (تفسير آية الربا، روى في باب تحريم بيع الخمر بصحيح مسلم عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: بعد نزول الآيات الأخيرة من سورة البقرة التي ورد بها حكم تحريم الربا، أعلن رسول الله ﷺ أن هذه الآيات قد نزلت في سنة ٨ هـ. " سيد سليمان الندوي ".

[٢] صحيحا البخاري ومسلم، باب تحريم بيع الخمر والميتة والأصنام.

[٣] ذُكر في عدة مواضع من الجزء الأول لكتاب سيرة النبي ﷺ تاريخان لتحريم الخمر، الأول لجمهور كتاب السيرة، والثاني وفق تحقيق العلامة ابن حجر. أما التحقيق الأصلي لمؤلفي سيرة النبي ﷺ فهو ما ذُكر هنا مع آراء جمهور المحدثين في هذا الباب كما سيتبين فيما بعد. " سيد سليمان الندوي ".

[٤] إن هذا القياس الذي يذهب إليه المؤلف صحيح تماماً، فالرجل الذي تتحدث عنه في هذه الواقعة كان من قبيلة ثقيف أو من قبيلة دوس، وأسلمت قبيلة ثقيف في سنة ٨ هـ، ومع أن دوس كانت قد أسلمت قبل ذلك، إلا أنها كانت تقع على مسافة بعيدة جداً من المدينة، هذا فضلاً عن أن هناك مفارقةً أخرى

فمن أين يثبت إذن أن التحريم بدوره لم يكن قد نزل حتى ذلك الوقت أيضاً، فهناك كثير من الأحكام لم يتناهى خبرها إلى أهالي البلاد القصيّة إلا في فترةٍ متأخرةٍ. وفضلاً عن أنه قد تبين من خلال بعض رواياته هو نفسه، أن تحريم الخمر قد نزل قبل فتح مكة. فإنه لا يمكن بأية صورة أن يظل شيئاً نجساً كالخمر محللاً حتى سنة ٨ هـ، ويتم تحريمه قبل وفاة الرسول ﷺ بسنتين فقط، والأصل في ذلك أن الخمر قد حُرمت في السنة الثالثة أو الرابعة من الهجرة.[١]

لم يلتفت إليها المحدثون وهي أنه حسبما أوردنا سابقاً في المتن، فإنه رغم تحريم الخمر سنة ٤ هـ إلا أن تجارتها لم تُلغَ. وكان هذا الرجل تاجر خمر، وقد تزامن حظر تداول الخمر مع تحريم الربا، الذي كان من آخر ما نزل من الأحكام، أي أنه قد تم تحريم شرب الخمر في المدينة المنورة سنة ٨ هـ؛ ولكن النبي ﷺ قد أعلن عنه إبّان فتح مكة، حسبما ورد صراحة في الصحيح من الأحاديث (انظر صحيح البخاري، تفسير آية الربا، وباب بيع الميتة والأصنام. صحيح مسلم، باب تحريم بيع الخمر) والحافظ ابن حجر هو الذي يؤيد أن تحريم الخمر قد نزل في سنة ٨ هـ، فقد كتب ذلك بنفسه في الجزء الأول صـ ١٦١ رداً على القاضي عياض. **قلت ومن الممكن أن يكون تحريم التجارة فيها تأخر عن وقت تحريمها والله أعلم**. وورد في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ رواية (باب تحريم الخمر، يتضح منها أن تحريم شرب الخمر وحظر تداولها قد نزلا معاً. ولكن ما ورد من روايات بعد ذلك عن السيدة عائشة رضي الله عنها وعن جابر بن عبد الله ﷺ، تثبت أنه قد حدث قدرٌ من التسامح في الرواية الأولى، إما مع أبي سعيد الخدري أو مع من تلاه من الرواة، وهذا هو الحق. فضلاً عن أن حديث الإمام أحمد الذي استدل به الحافظ بن حجر على أن تحريم شرب الخمر قد نزل في فتح مكة، قد ورد أيضاً في صحيح مسلم (باب تحريم بيع الخمر)؛ ولكن لم يتحدد فيه فتح مكة.

(١) أكبر دليل على ذلك هو أنه لما نزل تحريم شرب الخمر، تسائل الناس: وما بال إخواننا المسلمين الذين شاركوا في غزوة أحد وهم شاربو خمرٍ واستشهدوا على حالتهم هذه؟ فنزل فيهم قول الله تعالى: "**ليس على الذين آمنوا**"، ويتبين من هذا أن واقعة تحريم الخمر كان له وطيد الصلة بغزوة أحد، وقد نزلت في زمانها. وردت رواية عن جابر ﷺ في تفسير الآية المذكورة بصحيح البخاري:

صبح ناس غداة الخمر فقتلوا من يومهم جميعاً شهداء وذلك من قبل تحريمها.

ولْتربط هذه الرواية برواية أنس ﷺ التي وقعت بعدها:-

فقال بعض القوم قتل قوم وهي في بطونهم قال فانزل الله وليس على الذين آمنوا. . الخ

تحريم الربا[1]

كان الربا أيضاً إحدى مساوئ الأخلاق الذميمة التي كانت تسري في طبيعة العرب مسري الدم في العروق. ومن ثم نزلت أحكام تحريمه بتدريج بالغ. كانت قريش على عمومها تمتهن التجارة. وكان أمراؤهم وأثرياؤهم التجار يُقرضون الفقراء والمزارعين بفائدة ربوية معينة، وإذا لم يستردوا القرض، يزداد رأس المال الأساسي كل عام.[2] وقد كان العباس عم النبي ﷺ نفسه (قبل الإسلام) صاحب تجارة وأعمال ربوية على مستوى كبير.[3] وحين هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وجد أنواعاً رائجةً من الربا بسبب التجار اليهود. وكان أول ما أطلق عليه رسول الله ﷺ وصف الربا هو تجارة النسيء في الذهب والفضة.[4] ثم حُرّمت فائدة الضعفين والأربعة أضعاف ونزلت هذه الآية الكريمة:

" يا أيها الذين أمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون "(آل عمران: ١٣٠)

بعد ذلك حظر رسول الله ﷺ التقايض بالنقص أو بالزيادة بين الأشياء المتماثلة النوع.[5] وفي سنة ٧ هـ بدأ المسلمون يتعاملون مع التجار اليهود عقب غزوة خيبر. وفي غضون ذلك أعلن رسول الله ﷺ أن بيع قيمة الدراهم والدنانير الذهبية بالنقص أو بالزيادة[6] رباً أيضاً. أما الأحكام التفصيلية بشأن تحريم الربا، فقد نزلت سنة ٨ هـ. فكانت أول آية تنزل في سورة البقرة بعد آل عمران، قوله تعالى: " **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف " (البقرة : ٢٧٥)**

---

[1] أضفت هذا الموضوع من أوله إلى أخره " سيد سليمان الندوي ".

[2] موطأ الإمام مالك، باب الربا.

[3] ابن جرير الطبري، آية الربا.

[4] صحيح مسلم، باب الصرف.

[5] كتاب البيوع، كتب الصحاح.

[6] صحيح مسلم، باب بيع القلادة فيها خرز.

كان الناس يعترضون لاعتبارهم أن الربا نوع من أنواع التجارة، وما دامت التجارة حلال، فلمَ الربا حرام؟ وسيرد الرد على هذا السؤال في الأجزاء التالية لهذا الكتاب. ونحن هنا بصدد تاريخ تحريم الربا فقط. على أي حال لم تكن الآية السابقة تحريماً قطعياً للربا. ففي النهاية وبعد فترة وجيزة نزلت الآية الكريمة سنة ٨ هـ تقريباً (على الأغلب)، يقول الله تعالى:-

" يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون "
(سورة البقرة : ٢٧٨-٢٧٩)

حين نزلت هذه الآية جمع رسول الله ﷺ سائر المسلمين في المسجد وتلى عليهم هذا الحكم.[١] وفي سنة ٩ هـ عقدت معاهدة صلح مع أهل نجران، كان من بين بنودها ألا يتعاملوا بالربا.[٢] وفي حجة الوداع ذي الحجة سنة ١٠ هـ ألغى رسول الله ﷺ كل المعاملات الربوية التي كانت شائعةً في بلاد العرب قبل نزول هذه الآية الكريمة.

يقول ابن عباس ﷺ: إن تحريم الربا كان الحلقة الأخيرة من سلسلة الأحكام الإسلامية[٣].

---

[١] صحيح البخاري ومسلم، باب تحريم بيع الخمر. وهذا نص الحديث: (٢١٩٨) حدثنا مُسلم حدَّثنا شُعبةُ عنِ الأعمشِ عن أبي الضُّحىٰ عن مَسْروقٍ عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها : «لمّا نَزَلَتْ آياتُ سورةِ البقرةِ عن آخرِها خَرجَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقال: حُرِّمَتِ التجارةُ في الخَمرِ» (المترجم).

[٢] أبو داود، باب أخذ الجزية. وهذا نص الحديث: (٣٠٤٣) حدثنا مُصَرِّفُ بنُ عَمْرٍو الْيَامِيُّ أخبرنا يُونُسُ يَعْنِي ابنَ بُكَيْرٍ أخبرنا أسْبَاطُ بن نَصْرٍ الْهَمْدَانِيُّ عن إسْمَاعِيلَ بنِ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ الْقُرَشِيِّ عن ابنِ عَبَّاسٍ، قالَ: « صَالَحَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أهْلَ نَجْرَانَ عَلَى أَلْفَيْ حُلَّةٍ. النِّصْفُ في صَفَرٍ وَالبقية في رَجَبٍ يُؤَدُّونَهَا إلَى المُسْلِمِينَ وَعَارِيَةَ ثَلاَثِينَ دِرْعاً وَثَلاَثِينَ فَرَساً وَثَلاَثِينَ بَعِيراً وَثَلاَثِينَ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أصْنَافِ السِّلاَحِ يَغْزُونَ بِهَا وَالمُسْلِمُونَ ضَامِنُونَ لَهَا حَتَّى يَرُدُّوهَا عَلَيْهِمْ إنْ كَانَ بِالْيَمَنِ كَيْدٌ ذَاتُ غَدْرَةٍ عَلَى أنْ لاَ تُهْدَمَ لَهُمْ بَيْعَةٌ، وَلاَ يُخْرَجَ لَهُمْ قَسٌّ، وَلاَ يُفْتَنُوا عن دِينِهِمْ، مَا لَمْ يُحْدِثُوا حَدَثاً، أوْ يَأْكُلُوا الرِّبَا». قال إسْمَاعِيلُ: فَقَدْ أكَلُوا الرِّبَا. قَالَ أَبُو دَاوُدَ: إذَا نَقَضُوا بَعْضَ ما اشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ فَقَدْ أحْدَثُوا. (المترجم).

[٣] تفسير آية: **"واتقوا الله". (سورة البقرة).**

السنة الأخيرة، حجة الوداع، اختتام البعثة النبوية
ذي الحجة سنة ١٠ هـ الموافق سنة ٦٣٢ م

" إذا جاء نصر الله والفتح ۞ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ۞ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ۞ " (النصر: ١-٣)

يبدو أن أول ما يتبادر إلى الذهن، أنه كان يجب أن يُنصح بالشكر على النصر والفتح، فما هي مناسبة تسبيحه واستغفاره سبحانه وتعالي؟ لذا سأل عمر ﷺ الصحابة عن معنى هذه الآية، وهم في صحبة، فقال الحضور معان متباينة. فنظر عمر ﷺ إلى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، وكان صغير السن فتردد في الإجابة، ولكن عمر ﷺ شجّعه عليها، فقال: إن هذه الآية إعلان[١] عن قرب وفاة رسول الله ﷺ لأن الاستغفار خاص بالموت.

بعد نزول هذه السورة علم رسول الله[٢] ﷺ بقرب حلول وقت الرحيل. ولذا كان من الضروري إعلان كل المبادئ الأساسية للشريعة والأخلاق أمام العالم أجمع. وكان

---

[١] صحيح البخاري، تفسير سورة إذا جاء. وهذا نص الحديث: (٤٨٥٠) حدَّثنا عبدُالله بن أبي شيبةَ حدَّثنا عبدُالرحمن عن سُفيانَ عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس «أنَّ عُمرَ رضي الله عنه سألهم عن قوله تعالى: {إذا جاء نصرُ الله والفتح} قالوا: فتح المدائن والقصور، قال: ما تقول يا ابن عباس؟ قال: أجلٌ، أو مَثَلٌ ضُرِب لمحمد صلى الله عليه وسلم، نُعيَتْ له نفسُهُ». (المترجم).

[٢] كتب الواحدي في أسباب النزول أن هذه السورة قد نزلت قبل وفاة رسول الله ﷺ بسنتين، ولكن ابن القيم قد كتب في زاد الميعاد أنها نزلت في سنة ١٠ هـ وفي أيام التشريق بعينها. وهذه الرواية الثانية في الحقيقة للبيهقي وقد صرح ابن حجر والزرقاني بأن سندها ضعيف. ولذا فإن رواية الواحدي صحيحة. وقد أورد السيوطي في أسباب النزول أيضاً، نقلاً عن عبد الرازق، هذه الرواية والتي تقول بأن سورة الفتح قد نزلت إثر فتح مكة مباشرةً. وفضلاً عن تصريحات الأئمة وإشارات الأحاديث، فإن ما جاء في هذه السورة نفسه يوضح أنها نزلت مقترنة بفتح مكة؛ أي قبل سنتين أو سنتين وتسعة أشهر تقريبا قبل حجة الوداع، والروايات التي تقول بأن هذه السورة قد نزلت قبل وفاة الرسول ﷺ بعدة أيام، ضعيفة من حيث الرواية والدراية. (سيد سليمان الندوي).

رسول الله ﷺ لم يؤد فريضة الحج منذ هجرته[1] إلى المدينة. فقد وقفت قريش حائلاً دون ذلك لفترة من الزمن. وسنحت الفرصة بعد صلح الحديبية، ولكن اقتضى الصالح العام أن يؤدي هذا الفرض آجلاً.

على أي حال، أُعلن في ذي القعدة[2] أن الرسول ﷺ ذاهب إلى مكة بنية الحج. وبسرعة انتشر هذا الخبر وتدفقت جموع العرب من كل صوب وحدب لتشرف برفقة الحبيب ﷺ في رحلته هذه، وفي (يوم السبت) الموافق ٢٦ ذي القعدة اغتسل[3] رسول الله ﷺ وارتدى ملابس الإحرام، وخرج من المدينة بعد صلاة الظهر، وأمر أمهات المؤمنين (رضوان الله عليهن) جميعاً بصحبته. ولما وصل ﷺ إلى منطقة ذي الحليفة (ميقات المدينة)، والتي تبعد عنها نحو ستة أميال، (أقام الليل كله فيها، ثم اغتسل ثانية في اليوم الثاني، وعطرت[4] السيدة عائشة (رضي الله عنها) بدنه الشريف بيدها) ثم صلى رسول الله ﷺ ركعتين وامتطى القصواء بملابس الإحرام وقال بصوت عالٍ:

لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك، والملك لك، لا شريك لك.

ويقول جابر راوي هذا الحديث: حين رفعت بصري رأيت على مدده زحاماً شديداً[5] من الناس، عن يميني ويساري وأمامي ومن خلفي. وكلما قال رسول الله ﷺ لبيك؛ تتجاوب أصداء هذا النداء المهيب فترتعد به الصحاري والجبال.

---

[1] ورد في سنن ابن ماجة (باب حجة النبي ﷺ) أن الرسول ﷺ قد حج قبل الهجرة حجتين. أما ما ورد في بعض الأحاديث بأن النبي ﷺ قد حج حجةً واحدة (الترمذي، باب كم حج النبي ﷺ، وأبو داود، وقت الإحرام) فالمقصود به بعد الهجرة.

[2] وردت حجة الوداع تفصيلاً في أبي داود وصحيح مسلم، وعنها أن الإمام باقر ﷺ لما كان قد فقد بصره، سأل جابر ﷺ عن أمر حج رسول الله ﷺ، ففتح جابر ﷺ نحر قميص الإمام باقر ﷺ ووضع كفه بلطفٍ على صدره، حباً في آل بيت رسول الله ﷺ، وقال : ابن أخي سل عما بدا لك؟ ثم ذكرت كل تفاصيل حجة الرسول ﷺ . أما تحديد الأوقات فقد ورد أيضاً في البخاري ومسلم بروايات عن ابن عباس رضى الله عنهما، و أنس ﷺ، والسيدة عائشة رضي الله عنها وقد أفرد الإمام النسائي باباً خاصاً في كتاب المناسك عن أوقات الرسول ﷺ بعنوان: باب الوقت الذي خرج فيه النبي ﷺ .

[3] صحيح البخاري ومسلم.

[4] ورد ذكر الغسل في طبقات ابن سعد، ذكر حجة الوداع صـ ١٢٤.

[5] شارك في هذه الحجة مائة ألف مسلم على الأقل.

كان الناس قد بنوا مساجد في المواضع التي كان رسول الله ﷺ قد صلى فيها إبّان فتح مكة تبركاً. فكان رسول الله ﷺ يذهب إلى المساجد ويصلي بها، ولما وصل إلى سرف اغتسل، ودخل إلى مكة المكرمة في صبيحة اليوم الثاني الذي وافق يوم الأحد الرابع من ذي الحجة. وفي هذه الرحلة المباركة قُطعت المسافة من المدينة المنورة إلى مكة في تسعة أيام، ولما علم بنو هاشم بخبر قدوم رسول الله ﷺ خرجوا فرحين، ومن فرط حب رسول الله ﷺ لهم، أجلس[1] أحدهم أمامه وآخر خلفه فوق ناقته. وحين وقع نظره على الكعبة، دعا الله تعالى أن يزد في إجلال وتعظيم هذا البيت ". ثم طاف بالكعبة الشريفة، ولما فرغ من الطواف صلى ركعتين في مقام إبراهيم وتلا هذه الآية الكريمة:

" واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى "

ولما بلغ الصفا قال:

«نَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ ثُمَّ قَرَأَ قوله تعالى: " إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ».[2]

ولما رأى الكعبة من هناك، قال:

" لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شئ قدير لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده "

نزل رسول الله ﷺ من الصفا إلى المروة فدعا فيه ولبىّ أيضاً، وكان العرب يعتقدون أنه لا يجوز أن تقام العمرة في أيام الحج، فلما فرغ رسول الله ﷺ من الطواف بين الصفا والمروة أمر الناس الذين لم يكن لديهم أضحية، بأن يتموا شعائر العمرة ثم يخلعوا ملابس الإحرام، فاعتذر بعض الصحابة عن الإذعان لهذا الأمر وفقاً للتقاليد الشائعة، فقال رسول الله ﷺ: وَلَوْلاَ الْهَدْيُ لَحَلَلْتُ[3]. وكان علي ﷺ قد بُعث إلى اليمن من

---

[1] النسائي، باب استقبال الحج. وهذا نص الحديث: (٢٨٩٦) أَخْبَرَنَا قُتَيْبَةُ قَالَ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ وَهُوَ ابْنُ زُرَيْعٍ عَنْ خَالِدٍ الْحَذَّاءِ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، : أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم لَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ اسْتَقْبَلَهُ أُغَيْلِمَةُ بَنِي هَاشِمٍ قَالَ: فَحَمَلَ وَاحِدا بَيْنَ يَدَيْهِ وَآخَرَ خَلْفَهُ.(المترجم).

[2] وهذا نص الحديث كما ورد في سنن الترمذي: (٢٩٧٢) أَخْبَرَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: أَنْبَأَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا جَابِرٌ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى الصَّفَا وَقَالَ: «نَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ ثُمَّ قَرَأَ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ».(المترجم).

[3] وهذا نص الحديث كما ورد في سن الترمذي: (٢٨٠٦) أَخْبَرَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ عُلَيَّةَ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَطَاءٌ عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: أَهْلَلْنَا أَصْحَابَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بِالْحَجِّ خَالِصا لَيْسَ مَعَهُ غَيْرُهُ خَالِصا وَحْدَهُ فَقَدِمْنَا مَكَّةَ صَبِيحَةَ رَابِعَةٍ مَضَتْ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ فَأَمَرَنَا

قبل ذلك، فقَدِم إلى مكة في هذا الوقت مستصحباً الحجاج اليمنيين، ولأنــه كــان لــديهم الأضاحي، لذا لم يخلعوا ملابس الإحرام. وفي الخميس الموافق الثامن من ذي الحجة أقام رسول الله ﷺ مع سائر المسلمين في منى. وفي اليوم التالي التاسع من ذي الحجة صــلى معهم الفجر ثم انطلق من منى.

كان من عادة أهل قريش أنهم إذا خرجوا من مكة للحج أن يقيموا بعرفات بــدلا من يقيمون بالمزدلفة ـ والتي كانت على حدود الحرم ـ فكــانوا يــرون أنهــم إذا أدوا مناسك الحج في أية منطقة أخرى عدا الحرم فستختل عظمة تفردهم. لكن الإسلام الــذي جاء لإرساء مبادئ المساواة العامة لم يكن ليُحلِّل هذا التخصيص. لذلك (أمر الله تعــالى:) "ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس". وقَدِم رســول الله ﷺ مــع جمــوع المســلمين إلــى عرفات.[١] (وأمر أحدهم أن يقول في الناس:[٢])

قفوا على مشاعركم فإنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم

أي أن وقوف الحجيج بعرفة إحياء لذكرى إبراهيم عليه السلام فهو الذي خصصه لهــذا الغرض. وفي منطقة نمره بعرفات، أقام رسول الله ﷺ في خيمة. ولما حان وقت الظهيرة امتطى ناقته (القصواء) وجاء في الميدان وخطب وهو على ناقته.

كان هذا هو أول يوم يتجلى فيه الإسلام بكامل رفعته وجلاله ويمحق كل طقوس الجاهلية الواهية، فقال رسول الله ﷺ:

ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع (صحيح مسلم وأبو داود[٣])

النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: «أَحِلُّوا وَاجْعَلُوهَا عُمْرَةً» فَبَلَغَهُ عَنَّا أَنَّا نَقُولُ لَمَّا لَمْ يَكُنْ بَيْنَنَــا وَبَــيْنَ عَرَفَةَ إِلاَّ خَمْسٌ أَمَرَنَا أَنْ نَحِلَّ فَنَرُوحَ إِلَى مِنًى وَمَذَاكِيرُنَا تَقْطُرُ مِنَ الْمَنِيِّ فَقَامَ النَّبِيُّ صــلى الله عليــه وسلم فَخَطَبَنَا فَقَالَ: «قَدْ بَلَغَنِي الَّذِي قُلْتُمْ وَإِنِّي لأَبَرُّكُمْ وَأَتْقَاكُمْ وَلَوْلاَ الْهَدْيُ لَحَلَلْتُ وَلَوِ اسْــتَقْبَلْتُ مِــنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا أَهْدَيْتُ» قَالَ: وَقَدِمَ عَلِيٌّ مِنَ الْيَمَنِ فَقَالَ: «بِمَا أَهْلَلْتَ؟» قَالَ: بِمَا أَهَلَّ بِهِ النَّبِــيُّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «فَأَهْدِ وَامْكُثْ حَرَاما كَمَا أَنْتَ» قَالَ: وَقَالَ سرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جَعْشَــمٍ: يَــا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ عُمْرَتَنَا هَذِهِ لِعَامِنَا هَذَا أَوْ لِلأَبَدِ قَالَ: «هِيَ لِلأَبَدِ». (المترجم).

(١) صحيح البخاري، باب الوقوف بعرفه.

(٢) أبو داود، موضع الوقوف بعرفه.

(٣) هذه الجمل وما تلاها من جمل عربية مقتطفات من خطبة رسول الله ﷺ (وهذه الجمل لم ترد مجموعة في حديثٍ واحد ولذلك اضطررنا لجمعها من عدة مصادر) وقد وردت هــذه الخطبــة فــي صــحيح البخاري وصحيح مسلم(باب حجة النبي وباب الديات، وفي أبي داود (باب الأشهر الحرم وحجة النبي

كانت أكبر عقبة كدّاء في رحلة الكمال الإنساني هي التمييز بين الطبقات، التي كانت تدعمها جميع الأمم والدول والديانات في العالم بشتى الصور. فكان هناك أباطرة الدولة المجوسية التي لم يكن لأحد كلمة أمامهم، كما لم يكن مباحاً لأحدٍ أن يتحدث مع سدنة الديانات في أمور الدين. وكان يُنظر للأشراف على أنهم كائن أسمى من بسطاء الناس. وبالطبع كان يستحيل مساواة العبيد بأسيادهم، أما اليوم، فقد سقطت كل هذه الفروق والامتيازات والحدود، فقال ﷺ:

«يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيٍّ على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى.[1](مسند أحمد)

ﷺ) وغيرها بروايات ابن عباس ﷺ، و ابن عمر ﷺ، و أبي إمامه الباهلي، و جابر ﷺ، و أبي بكر ﷺ، وغيرهم من الصحابة الكرام. وهناك بعض عبارات مشتركة بين هذه الروايات مثل قوله ﷺ: **إن مالكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة... الخ**، وبعضها مختلف. فضلاً عن ذلك هناك عبارات أخرى غير هذه أو ذاك واردة في كتب السيرة والغزوات. والأصل في ذلك أنها كانت خطبة طويلة. فكل راو منهم روى العبارة التي تذكرها، وهذا ما دفعنا إلى جمع هذه الأجزاء والقطع من مصادر مختلفة، أشرنا إليها في مواضعها، هذا ولم يذكر المؤلف بعض العبارات الهامشية للخطبة. وهناك اختلاف آخر في الروايات. نبينما يذكر جابر ﷺ في روايته، و ابن عباس ﷺ في إحدى الروايات، أن الخطبة كانت يوم عرفة أي ٩ ذي الحجة، يذكر أبو بكر ﷺ وابن عباس ﷺ في روايات أخرى أنها كانت يوم النحر أي ١٠ ذي الحجة. كما قالت بعض الروايات أن الخطبة كانت في أيام التشريق، وقد أوردها ابن إسحاق على أنها خطبة مسلسلة، ووردت عدة فقرات من خطبة حجة الوداع في ابن ماجه، والترمذي ومسند أحمد، والتي لم يُصرح فيها بالتاريخ الذي ألقى فيه الرسول ﷺ هذه الخطبة. على أي حال يثبت من كل سائر الروايات والمسانيد والصحاح الستة أن الرسول ﷺ قد خطب عدة مرات في هذه الحجة. الأولى في يوم عرفة ٩ ذي الحجة، والثانية في يوم النحر ١٠ ذي الحجة، والثالثة في أيام التشريق ١١ أو ١٢ ذي الحجة، وفي هذه الخطب بعض الأمور المشتركة وأمور أخرى ذات مقام خاص. ومن الممكن جداً أن يكون كما صرّح بعض المحدثين أنه لما كان الزحام شديداً للغاية وكانت الرسالة التي كان يبغي رسول الله ﷺ إبلاغها لأمته بالغة الأهمية، كرر رسول الله ﷺ بعض عبارات خطبته. "سيد سليمان الندوي".

[1] أورد الإمام أحمد هذه العبارات عن طريق التابعي أبو نضرة، الذي روى بدوره عن صحابي سمع بنفسه خطبة حجة الوداع من الرسول ﷺ. نقلاً عن منتقى الأخبار، ابن تيميه مع نيل الأوتار.

إن كل مسلم أخو المسلم وإن المسلمين أخوة. (مستدرك الحاكم ج١ صـ٩٣ والطبري وابن إسحاق)

أرقاءكم أرقاءكم أطعموهم مما تأكلون وأكسوهم مما تلبسون. (ابن سعد بسند).

كان في بلاد العرب، إذا قتل أحدٌ آخرًا وجب على القبيلة كلها جيلاً بعد جيل الثأر لهُ، لدرجة أنه مع مرور مئات السنين، يظل هذا الواجب كما هو، مما كان ينتج عنه سلسلة غير نهائية من المعارك تلوث أراضي العرب بالدماء على الدوام. أما اليوم فقد حان الوقت الذي تُلغى فيه هذه العادة القبلية التي كانت أدعى ما يبعث على الفخر عند القبائل من بين أعتق التقاليد العربية. (وأول من يقدم نفسه نموذجاً لهذا هو منادى البعثة النبوية نفسه) فقال رسول الله ﷺ :-

وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ[1] الْحَارِثِ. (صحيح البخاري ومسلم وأبو داود برواية جابر)

كانت تنتشر في بلاد العرب شبكة من المعاملات الربوية تُشد بها أعصاب الفقراء ويظلون دائماً عبيداً لدائنيهم. أما الآن فقد حان هذا اليوم الذي تُفكك فيه خيوط هذه الشبكة. ولإتمام هذا الواجب أيضاً، يُطبقه معلم الحق على عشيرته قبل الجميع، فقال ﷺ:

وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِباً أَضَعُ رِبَانَا، رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.[2] (صحيح مسلم وأبو داود)

كانت النساء حتى ذلك اليوم ممتلكات منقولة يمكن المقامرة بها في الميسر. أما اليوم فهو أول يوم يُتوج فيه هذا الكائن المقهور، هذا الجنس الضعيف، هذا الجوهر الرصين بتاج التقدير والإجلال، فقال ﷺ:

فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ (صحيح مسلم وأبو داود)

وقال أيضاً:

---

[1] كان ربيعة من بني قريش وكان الثأر لدمه يتوارث كواجب عصبي (كان ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ وتذكر بعض الروايات أن الحديث هنا عن مقتله، ولكن هذا غير صحيح، فلقد ظل ربيعة حي يرزق حتى عهد خلافة الفاروق ﷺ، وتوفي في سنة٢٣ هـ. أما الصحيح أنه كان للربيعة ولدّ اسمه إياس، وكان يتربى في قبيلة بني سعد فقتلته هذيل. انظر أبو داود، صحيح مسلم باب حجة النبي ﷺ، والزرقاني ج٨ صـ٢٠١.

[2] كان العباس ﷺ عم الرسول ﷺ يتعامل بالربا قبل إسلامه، وكانت له فوائد ما تزال عالقة في رقاب كثير من الناس، انظر تفسير آية الربا.

إن لكم على النساء حقاً ولهن عليكم حقاً[1] (الطبري، ابن هشام وغيره)

لم يكن لدى العرب أي اعتبار للأرواح ولا الأموال، فمن أراد قتل امرئ قتله، ومن أراد مال أحد سلبه، أما اليوم فهذا أمير الأمن والسلام يتلو على العالم أجمع رسالة السلام، قال ﷺ :

إنَّ دِمَاءَكُم وَأَمْوَالَكُم عَلَيْكُم حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُم هَذَا فِي شَهْرِكُم هَذَا فِي بَلَدِكُم هَذَا.[2]

ظهر في العالم ديانات عظمى قبل الإسلام، إلا أن دعائمها لم تؤسس على المبادئ التحريرية لرب الشريعة نفسه، فقد أضاع هوس العباد حقائق الإرشادات التي أرسلها رب العباد. أما نبي الديانة الأبدية، فهاهو اليوم بعد انقضاء حياته يُسلم بيده مجموعة التعاليم الربانية التي تلقاها إلى أمته مؤكداً، قال ﷺ:

وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ. كِتَابُ اللَّهِ. (الصحاح)

بعد ذلك أعلن رسول الله ﷺ عدة أحكام أصولية، فقال:

إن الله عز وجل قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث. الولد للفراش، وللعاهر الحجر، وحسابهم على الله. من دعى إلى غير أبيه وانتهي إلى غير مواليه فعليه لعنة الله. ألا لا يحل لامرأة أن تعطي من مال زوجها شيئاً إلا بإذنه. الدين مقضيٌّ، والعارية مؤداة، والمنحة (مردودة والزعيم غارم).[3]

قال هذا، ثم خاطب الجموع، فقال: وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي. فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ (صحيح مسلم، أبو داود)

فقال الصحابة (رضوان الله عليهم) إنا سنقول أنك بلغت رسالة الله وأديت أمانتك، فرفع ﷺ إصبعه إلى السماء وقال ثلاث مرات:

«اللَّهُمَّ اشْهَدْ. اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ (صحيح مسلم وأبو داود)

---

[1] بعد ذلك سرد ﷺ واجبات الزوج والزوجة بالتفصيل.

[2] صحيح البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم.

[3] ورد هذا في سنن ابن ماجه، باب الوصايا ومسند أبو داود و الطيابسي، برواية أبي إمامة الباهلي، وبإيجاز في أبي داود، كتاب الوصايا. كما روى ابن سعد وابن إسحاق بسندٍ أن الرسول ﷺ قال هذا في خطبة عرفات.

وفي ذلك الوقت ذاته، حيث كان رسول الله ﷺ يقوم بأداء هذا الواجب النبوي، نزلت هذه الآية الكريمة:[1]

" **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** "

كان المشهد الباعث على الدهشة والعبرة أنه في الوقت الذي كان يعلن فيه سيد العالم أوامر ربه لحشد من مئات آلاف الناس كان مسند عرشه (عبارة عن رحل ومنشفة عرقٍ) لا يزيد ثمنه عن درهم واحد.[2]

فرغ النبي ﷺ من الخطبة وأمر بلال رضي الله عنه برفع الآذان وصلى الظهر والعصر جمعاً، ثم امتطى ناقته ودخل إلى موقف عرفات، وهنا وقف واستقبل القبلة ثم أخذ يدعو الله لفترة طويلة. ولما أوشكت الشمس على الغروب، تأهب الرسول ﷺ للرحيل من هناك، فأجلس أسامه بن زيد رضي الله عنه خلفه على الناقة. شد رسول الله ﷺ خطام الناقة حتى كاد عنقها أن يصل إلى رحلها، وأصيب جموع الناس بالهلع، فأشار الرسول ﷺ بساعده الأيمن، وفي البخاري، بالسوط فيما يعني التهدئة وقال بلسانه الشريف:

السَّكِينَةُ أيُّهَا النَّاسُ، السَّكِينَةُ أيُّهَا النَّاسُ،.[3]

نزل رسول الله ﷺ في الطريق فتطهر، وقال أسامة: يا رسول الله ! إن وقت الصلاة يوشك على الانقضاء، فأشار رسول الله ﷺ إلى أن وقت الصلاة يأتي لاحقاً.

وبعد فترة وجيزة وصل الرسول ﷺ مع سائر القافلة إلى مزدلفة، فصلوا فيها المغرب. بعد ذلك ذهب الناس إلى محط ركابهم وأجلسوا الركاب، فما كادوا يفتحون أمتعتهم حتى نودى على الفور لصلاة العشاء. ولما فرغ النبي ﷺ اضطجع واستراح حتى الصباح، ولم ينهض للعبادة ليلا حسب عادته اليومية. وقد كتب المحدثون أن هذه هي الليلة الوحيدة التي لم يصل فيها رسول الله ﷺ صلاة التهجد. وفي الصباح الباكر نهض ﷺ فصلى صلاة الفجر جماعةً. ولما كان مشركو قريش يرحلون عن المزدلفة حين يكتمل شروق الشمس وتلتمع أشعتها ونورها على صخور الجبال المحيطة. وكانوا يقولون حينئذ بصوت عالٍ ألا جبل شبيرا تلألأ بالشمس، رحل الرسول ﷺ قبل شروق الشمس لكي يُبطل هذه العادة. وكان هذا يوم السبت الموافق العاشر من ذي الحجة.

---

(1) صحيح البخاري ومسلم،وأبو داود وغيرهم وبتصريح خاص في ابن سعد.

(2) طبقات ابن سعد، صـ١٢٧ (كتاب الشمائل للترمذي وابن ماجه).

(3) البخاري ومسلم وأبو داود.

كان الفضل بن عباس ﷺ ابن عم رسول الله ﷺ معه على الناقة. وكان أهل الحاجة يقبلون عن اليمين وعن اليسار مستفسرين عن أمور الحج، وكان الرسول ﷺ يجيبهم ويعلمهم مناسك الحج بكل دقة. ومن طريق وادي محشر قدم رسول الله ﷺ إلى موضع رمي الجمرات، وقال لابن العباس ﷺ، الذي كان صغير السن وقتئذ: «أُلْقُطْ لِي حَصًى، ورمى رسول الله ﷺ الجمرات وهو يقول للناس:[١]

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ [٢]الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ (ابن ماجة والنسائي)[٣]

وفي غضون ذلك قال رسول الله ﷺ أيضاً:

«لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ. فَإِنِّي لاَ أَدْرِي لَعَلِّي لاَ أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هٰذِهِ». (مسلم وأبو داود)[٤]

ولما فرغ رسول الله ﷺ من رمي الجمرات ذهب إلى باحة منى، فكان يحيطه من كل جانب حوالي مائة ألف مسلم، عن يمينه المهاجرون، وعن يساره الأنصار وفي الوسط صفين لعامة المسلمين. وكان الرسول ﷺ ممتطياً ناقته، فيما كان زمامها في يد بلال ﷺ وكان أسامة بن زيد يلحق بهم في الخلف مستظلاً بثوب. ولما رفع رسول الله ﷺ بصره ورأى هذا الحشد العظيم تجسدت أمام ناظريه نتائج ٢٣ سنة قضاها في القيام بواجبات البعثة. فهاهو نور الاعتراف والإذعان للحق ينير العالم من الأرض إلى السماء. وهاهو ختم ختام النبوة يُصكّ، في ديوان القضاء، على جلائل دعوات الأنبياء السابقين، وهاهي

---

(١) النسائي.

(٢) كتبها المؤلف " فإنما أهلك قبلكم " والصحيح ما قمنا به في المتن بعد الرجوع إلى المصادر العربية. (المترجم).

(٣) وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في سنن ابن ماجه: (٣١٠٣) حدثنا عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ. حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ عَنْ عَوْفٍ، عَنْ زِيَادِ بْنِ الْحُصَيْنِ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، غَدَاةَ الْعَقَبَةِ. وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ: «أُلْقُطْ لِي حَصًى» فَلَقَطْتُ لَهُ سَبْعَ حَصَيَاتٍ، هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ. فَجَعَلَ يَنْفُضُهُنَّ فِي كَفِّهِ وَيَقُولُ: «أَمْثَالَ هٰؤُلاَءِ فَارْمُوا» ثُمَّ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ».(المترجم)

(٤) وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح مسلم: (٣٠٩١) حدثنا إِسْحَـٰقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ وَ عَلِيُّ بْنُ خَشْرَمٍ. جَمِيعاً عَنْ عِيسَى بْنِ يُونُسَ. قَالَ ابْنُ خَشْرَمٍ: أَخْبَرَنَا عِيسَىٰ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ. أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِراً، يَقُولُ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ يَرْمِي عَلَىٰ رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ، وَيَقُولُ: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ. فَإِنِّي لاَ أَدْرِي لَعَلِّي لاَ أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هٰذِهِ». (المترجم)

الدنيا بعد آلاف السنين من إبداعها تسمع على لسان كل ذرة في الكون بشارة إتمام ديــن الفطرة. وفي ذروة هذه الأجواء الروحانية حلقت على لسان الحق تمتمــات وتســبيحات بأعمال محمد رسول الله ﷺ.

والآن قد حان بدء شريعة جديدة ونظام جديد وعالم جديد، ومن ثم قال ﷺ:

«إنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدارَ كهيئته يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ والْأَرْضَ، (برواية أبي بكرة)

كان تقويم الخليل إبراهيم لموسم الحج قد تراجع عن موعده، والسبب في ذلك أنه لم يكن مباحاً في ذلك العهد أي نوع من سفك الدماء.[1] ولذا كانت أهواء العرب الدمويــة تُخَفِّض عدد أيامه أحياناً وتزيدها في أخرى وفقاً للاستراتيجية الحربية. أما الآن فقد حان اليوم الذي تتحدد الأشهر الحرم أمام هذا الجمع العظيم، فقال رسول الله ﷺ:

السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً، مِنها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ: ثَــلاثٌ مُتَوالِيَــاتٌ: ذو القَعْــدَةِ، وذو الحِجَّــةِ، والمُحَرَّمُ، ورَجَبُ مُضَرَ الذي بَيْنَ جُمَادى وَشَعْبَانَ».. (برواية أبي بكرة)[2]

ثمة ثلاثة أشياء يتمحور حولها العدل والظلم في الــدنيا بأســرها هــم: المــال، والعرض، والدم. ومع أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قد تحدث عنهم في خطبة الأمس، إلا أن صدأ القرون الذي اعتلى العرب يحتاج على تكرار التوكيد. وهو اليوم قــد انتقى لهم أسلوباً بيانياً بليغاً وطريفاً أيضاً.

---

(1) يرجع احترام العرب وتقديسهم لأشهر الحج هذه إلى زمن موغل في القدم، فقد كانت كل فرق العرب سواء كانت يهودية أو نصرانية أو من اتباع أية ديانة أخرى تُكن جميعاً وبالتساوي كل إجلال وتقــدير لها، ولذا كانوا يحرمون الحروب والمنازعات في هذه الشهور، ويحفل الشعر العربي القديم بالحــديث عنها. كما ورد ذكر هذه العقيدة العربية في تاريخ الروم؛ ففي سنة ٥٤١ م كان الروم يقومون بتجهيز هجوم على الشام وفلسطين، وفي الوقت نفسه كانوا يخافون من هجوم العرب. فــأخبرهم قائــد بــن رومي، كان على دراية بأحوال العرب الداخلية، بأنه لا خطر من العرب في هذه الفترة لأنــه قريبــاً سيحل عليهم شهرين ينشغلون فيهما بالعبادة ولا يتسلحون بأي نوع من الأسلحة. نتائج الإفهام، محمود باشا الفلكي صـــ٣٥ نقلاً عن الجمعية الأسيوية العامة (إبريل سنة ١٨٤٣ م). "سيد سليمان الندوي".

(2) وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح ابن حبان: (٥٨٧٣) أخبرنا الحســينُ بــنُ عبــدِ الله القَطَّانِ، حَدَّثنا عبدُ الله بنُ هانىء، حَدَّثنا عَبْدُ الوهَّاب الثقفيُّ، حَدَّثنا أيوبُ، عن محمد بنِ سيرينَ، عــن ابنِ أبي بَكْرَةَ عن أبي بَكْرَةَ، عَنِ النبيِّ قالَ : «إنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدارَ كهيئته يَوْمَ خَلَقَ اللَّــهُ السَّــماواتِ والْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً، منها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ: ثَلاثٌ مُتَوالِيَاتٌ: ذو القَعْدَةِ، وذو الحِجَّةِ، والمُحَرَّمُ، ورَجَبُ مُضَرَ الذي بَيْنَ جُمَادى وَشَعْبَانَ». (المترجم).

خاطب رسول الله ﷺ الناس فسألهم: أَتَدْرونَ أيُّ يوم هذا؟ فقال الناس: اللّهُ ورسولهُ أعلمُ، فصمت قليلاً. فظن الناس أنه سيسمى هذا اليوم اسماً آخر. وبعد فترة صمت، قال: فإنَّ هذا يومٌ حرام. فقال الناس: نعم بلا ريب، ثم قال: أ فتدرون أيُّ شهرٍ هذا؟ فردوا بنفس الطريقة، وصمت رسول الله ﷺ بعض الوقت أيضاً ثم قال: شهرٌ حرام. فقالوا: نعم بلا ريب. ثم سألهم: أ فتدرون أيُّ بلدٍ هذا؟ فأجابوا بنفس الإجابة، وصمت رسول الله ﷺ بنفس الطريقة أيضاً، ثم قال: بلدٌ حرام. فقالوا: نعم ولا ريب. ولما تيقن الاعتقاد في قلوب السامعين أن لهذا اليوم، ولهذا الشهر، ولهذه البلدة قداسة التحريم، أي أنه لا يجوز في هذا اليوم وفي هذا المكان القتال وسفك الدماء، عندئذ قال رسول الله ﷺ:
فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا.[1] **(برواية أبي بكرة)**

لقد ظل هلاك الأمم وضياعها دائماً نتيجةً لاقتتالها وتناحرها وتبادلها لإراقة الدماء فيما بينها. وهاهو النبي الذي جاء لإرساء دعائم أمةٍ أبدية، يقول لأتباعه بصوت مرتفع:
ألا لا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم. (برواية أبي بكرة)

كان الملمح المشترك للظلم والجور في كافة أرجاء العالم أنه إذا بدر إثماً من أحد أفراد قبيلة ما، كان كل فرد في هذه القبيلة يُعد مجرماً مسئولاً عن هذا الإثم، وفي الغالب كان الملك يعاقب من يستطع أن يتسلط عليه من أفراد القبيلة بلا ذنب، خاصة إذا كان المجرم الحقيقي قد تمكن من الاختباء أو لاذ بالفرار. فكان الابن يشنق في جريمة ارتكبها أباه، كما كان الأب يتعرض للجزاء في جريمة لابنه، كان هذا القانون المفرط في العسف

---

[1] وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري: (١٧٢٢) حدَّثنا محمدُ بنُ المُثنَّى حدَّثنا يَزيدُ بنُ هارونَ أخبرَنا عاصمُ بنُ محمدِ بن زيدٍ عن أبيهِ عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللّهُ عنهما قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم بمِنًى: أتَدْرونَ أيُّ يومٍ هذا؟ قالوا: اللّهُ ورسولهُ أعلمُ، فقال: فإنَّ هذا يومٌ حرام. أ فتدرون أيُّ بلدٍ هذا؟ قالوا: اللّهُ ورسولهُ أعلم، قال: بلدٌ حرام. أ فتدرون أيُّ شهرٍ هذا؟ قالوا: اللّهُ ورسولهُ أعلم، قال: شهرٌ حرام. قال: فإنَّ اللّهَ حرَّم عليكم دِماءكم وأموالَكم وأعراضكم كحُرمة يومِكم هذا، في شهركم هذا، في بلدِكم هذا» وقال هِشامُ بنُ الغاز: أخبرَني نافعٌ عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللّهُ عنهما «وقف النبيُّ صلى الله عليه وسلم يومَ النحرِ بينَ الجَمَراتِ في الحجةِ التي حجَّ بهذا، وقال: هذا يومُ الحجِّ الأكبر. فطَفِقَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقولُ: اللّهمَّ اشهدْ. وودَّعَ الناسَ فقالوا: هذه حَجَّةُ الوَداع». (المترجم)

والجور هو الذي تُجرى به الأحكام في شتى بقاع الدنيا. ومع أن القرآن الكريم كان قد استأصل هذا الظلم للأبد، على ضوء من القانون الرحب الذي سنه قوله تعالى: **ولا تزر وازرة وزر أخرى**، إلا أنه لما كان خاتم النبيين يُنسق في ذلك الوقت نظاماً سياسياً جديداً كان لا يمكن أن ينسى هذه المبادئ، فقال ﷺ:

أَلاَ لاَ يَجْنِي جَانٍ إِلاَّ عَلَى نَفْسِهِ، أَلاَ لاَ يَجْنِي جَانٍ عَلَى وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ عَلَى وَالِدِهِ.(ابن ماجه والترمذي)

كان أكبر سبب في تفشى الفوضى بين العرب والفشل في وضع نظام مقنن للحكم فيها، هو أن كل شخص منهم يدعى ألوهيته وفوقيته، ويعتبر إذعانه وانقياده لأي أحد آخر من باب العار والمذلة. فقال ﷺ:

«إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ أَسْوَدُ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا» (صحيح مسلم)[1]

في ذلك الوقت كانت شتى بقاع صحارى العرب قد أشرقت بنور الإسلام، وصارت الكعبة مركزاً لملة إبراهيم عليه السلام إلى أبد الآبدين، وقد قوضت كل قوى الفساد والفتن، ومن ثم قال النبي ﷺ:

أَلاَ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يُعْبَدَ فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَبَداً. وَلَكِنْ سَيَكُونُ لَهُ طَاعَةٌ فِي بَعْضِ مَا تَحْتَقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَيَرْضَىٰ بِهَا.(ابن ماجه والترمذي)

وفي النهاية، ذكرهم البني ﷺ بأركان الإسلام الأساسية، فقال:

اعبدوا ربكم، وصلّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأطيعوا ذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم. (مسند أحمد، ج٥، صـ ٢٥١، ومستدرك الحاكم، ج١، صـ ٣٩٨، صـ ٤٧٣).[1]

---

[1] وقد ورد هذا الحديث في صحيح ابن حبان وهذا نصه كاملا: (٤٤٧٤) أخبرنا أبو يعلى، قال: حدّثنا عبدُ الجبَّارِ بنُ عاصم أبو طالب، قال: حدَّثنا عُبَيْدُ اللَّه بنُ عمرو، عن زيدِ بنِ أبي أُنيسة، عن يحيى بنِ الحُصين عن أمّ الحُصين أنَّها حَدَّثته، قالت : حَجَجْتُ مَعَ رسولِ اللَّه حَجَّةَ الوداع، فرأيتُ أُسامة أو بلالًا يَقُودُ بِخِطَامِ ناقةِ رسولِ اللَّه، والآخرُ رَافِعٌ ثوبهُ يَسْتُرُهُ بِهِ من الحَرّ حتَّى رمى جَمْرَةَ العقبة، ثم انصرف، فوقفَ النَّاسُ، وقد جعلَ ثوبَه من تحتِ إبطهِ الأيمنِ على عاتقهِ الأيسرِ، قال: فرأيتُ تَحْتَ غُضروفِهِ الأيمنِ كهيئةِ جُمْعٍ، ثم ذكرَ قولًا كثيراً وكانَ فيمَا يقولُ : «إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ أَسْوَدُ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، فاسْمَعُوا وأَطِيعُوا» ثم قالَ: «هَلْ بَلَّغْتُ».(١٢:١) (المترجم).

قال هذا وأشار إلى جموع الناس فقال:

ألا هل بلغت

فقال الجميع: نعم! فقال:

اللهم اشهد.

ثم خاطب الناس فقال:

فليبلغ الشاهد الغائب.

وفي نهاية الخطبة ودَّع رسول الله ﷺ سائر المسلمين.[٢]

بعد ذلك ذهب رسول الله ﷺ إلى موضع الأضاحي، وقال: إن منى لم تخصص للأضاحي بل يجوز التضحية في كل أحياء منى ومكة. كان مع رسول الله ﷺ مائة ناقة للأضحية، ذبح بعضها بيديه، ووكل علي ﷺ بذبح بقيتها، وأمره أن يتصدق بلحمها وجلدها وكل ما فيها حتى أنه أمره أيضاً ألا يدفع أجرة الجزار منها بل بمنأى عنها.

ولما فرغ ﷺ من الأضحية، استدعى معمر بن عبد الله وحلق رأسه، ومن فرط محبته أهدى بيده الشريفة بعض شعره إلى أبي طلحة الأنصاري ﷺ وزوجته أم سليم وبعض ممن كانوا بجواره،[٣] وقام أبو طلحة ﷺ بتوزيع الباقي على سائر المسلمين لكل منهم شعرتين. بعد ذلك ذهب رسول الله ﷺ إلى مكة المكرمة، وطاف بالكعبة. ثم ذهب إلي بئر زمزم.

كان بنو عبد المطلب هم المسئولون عن سقاية الحجيج من بئر زمزم. ولذلك كان أفراد هذه القبيلة في ذلك الوقت يستخرجون الماء ويسقونه للناس. فقال رسول الله ﷺ: انزعوا بني عبد المطلب، فلولا أن تغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم ".

---

(١) يتبين أن هذه الخطبة كانت طويلة جداً، فورد في صحيح مسلم في (الحج) أنه **قال قولاً كثيراً**. وقد ورد في (حجة الوداع) بصحيح البخاري أن الرسول ﷺ تحدث في هذه الخطبة عن الدجال أيضاً، ولكنه لم يُعين أنه ﷺ قال هذا في خطبة أي يوم.

(٢) صحيح البخاري، باب الخطبة أيام منى.

(٣) صحيح مسلم، أبو داود. وهذا نص الحديث (١٩٨٣) حدثنا مُحمَّدُ بنُ الْعَلاَءِ أخبرنا حَفْصٌ عن هِشَامٍ عن ابنِ سِيرِينَ عن أَنَسِ بنِ مَالِك، : «أنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ يَوْمَ النَّحْرِ، ثُمَّ رجَعَ إلى مَنْزِلِهِ بِمِنًى فَدَعَا بِذِبْحٍ فَذَبَحَ، ثُمَّ دَعَا بالْحَلاَّقِ فأَخَذَ بِشِقِّ رَأْسِهِ الأيْمَنِ فَحَلَقَهُ فَجَعَلَ يَقْسِمُ بَيْنَ مَنْ يَلِيهِ الشَّعْرَةَ وَالشَّعْرَتَيْنِ، ثُمَّ أَخَذَ بِشِقِّ رَأْسِهِ الأيْسَرِ فَحَلَقَهُ ثُمَّ قال: هٰهُنَا أبُو طَلْحَةَ، فَدَفَعَهُ إلى أبي طَلْحَةَ». (المترجم).

استخرج العباس ﷺ بعض الماء في الدلو وقدمه لرسول الله ﷺ، فاستقبل القبلة وشرب الماء واقفاً. ثم عاد من هناك إلى منى فصلى بها الظهر.[١]

أقام رسول الله ﷺ بمنى بقية أيام التشريق؛ أي حتى يوم ١٢ ذي الحجة. فكان يخرج منها بعد الزوال من كل يوم لرمي الجمرات ثم يعود إليها. وورد حديث في أبي داوُد (باب الخطبة بمنى)، يتضح منه أن الرسول ﷺ قد خطب خطبة بمنى في ١٢ ذي الحجة أيضاً، بنفس الألفاظ التي مرت سلفاً في الخطبة الأولى بإيجاز. وبعد الزوال من يوم الثلاثاء الموافق ١٣ ذي الحجة خرج رسول الله ﷺ من منى وأقام بوادي محصب،[٢] وبه أقام الليلة، نهض ﷺ في الجزء الأخير من السحر، وذهب إلى مكة المكرمة وطاف بالكعبة الطواف الأخير وصلى صلاة الفجر. ثم أخذت كل قافلة تنطلق إلى بلدها، ورجع الرسول ﷺ مع المهاجرين والأنصار إلى المدينة. وفي الطريق كانت تقع منطقة تدعى خُم، تبعد عن الجحفة ثلاثة أميال، وبه غدير. وتُذكر هذه المنطقة في عموم الروايات " بغدير خم". وهناك جمع النبي ﷺ سائر أصحابه، وخطب فيهم خطبة موجزة:-

«أَمَّا بَعْدُ. أَلاَ أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ. وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللّهِ فِيهِ الْهُدَىٰ وَالنُّورُ. فَخُذُوا بِكِتَابِ اللّهِ. وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ وَأَهْلُ بَيْتِي. أُذَكِّرُكُمُ اللّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي."

كرر رسول الله ﷺ الجملة الأخيرة ثلاث مرات. هذه هي رواية صحيح مسلم (مناقب علي ﷺ) أما في النسائي، ومسند الإمام أحمد، والترمذي، والطبراني، والطبري، والحاكم وغيرها) فقد وردت عبارات أخرى ذُكرت فيها منقبة علي ﷺ، وأكثر عبارة مشتركة بين هذه الروايات، هذه العبارة:-

مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاَهُ، اللهُمَّ وَالِ مَنْ وَالاَهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ».

---

(١) ورد حديث ابن عمر ﷺ في صحيحي البخاري ومسلم وهو أن رسول الله ﷺ صلى الظهر كما هو في منى بهذا اليوم، ولكن الحديث المطول إلى جابر الذي ورد في قصة حجة الوداع، تحدد فيه أنه ﷺ صلى الظهر في مكة، وهذا أيضاً ما يتبين من رواية للسيدة عائشة، وعلى ذلك يوجد اختلاف بين المحدثين في ترجيح إحدى القولين على الآخر وأسبابه. وقد رجح العلامة ابن حزم الرواية الثانية، فيما أثبت العلامة ابن القيم في زاد المعاد ترجيح القول الأول، وبعد مقارنتنا لأدلة الفريقين سلمنا برأي ابن القيم." سيد سليمان الندوي ".

(٢) ولهذا الوادي مسميات أخرى؛ مثل بطح وخيف بن كناد.

لم يُصرّح في الأحاديث عن المناسبة التي قيلت فيها هذه العبارة، وقد ورد في صحيح البخاري أن علي ﷺ كان قد أُرسل إلى اليمن في تلك الفترة ورجع منها لأداء فريضة الحج. وكان قد قام بعمل ما من واقع سلطته في اليمن ولم يستحسنه بعض رفاقه في السفر. وذهب أحدهم إلى رسول الله ﷺ فشكي إليه الأمر، فقال ﷺ: " فإن له الخمس أكثر من ذلك".[١] ولا غرو في أن يرد رسول الله ﷺ بمثل هذه العبارة على شكوى من هذا النوع تُرفع في هذا المقام.

ولما وصل رسول الله ﷺ قرب المدينة، قضى الليل في ذي الحليفة. وحين طلع الصباح وأشرقت الشمس من ناحية، ودخلت قافلة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة من الناحية الأخرى، وحين وقع نظره ﷺ على المدينة، قال:[٢]

الله أكبر، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

---

[١] صحيح البخاري، بعث على إلى اليمن، والترمذي، مناقب علي ﷺ.

[٢] نقلت جميع وقائع حجة الوداع من صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبو داود والنسائي. وللمزيد عن كل واقعة على حدة، انظر: الأبواب المختلفة لكتاب الحج في هذه الكتب المذكورة.

الوفـــاة

قال الله تعالى "إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ" (الزمر: ٣٠)

ربيع الأول سنة ١١ هجرية الموافق مايو سنة ٦٢٣ ميلادية

كانت روح النبي ﷺ الطاهرة في حاجة للبقاء في عالم الأبدان حتى تؤدى فرضها في إتمام الشريعة وتزكية النفوس على الوجه الأكمل، وهذا ما قد تم فعلاً في حجة الوداع؛ حيث أُعلن على الملأ في عرفات بعد إقامة التوحيد الكامل وأصول مكارم الأخلاق بطريقة عملية أن

"الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً "(المائدة:٣)

ولقد أنبأ نزول سورة الفتح بعض الصحابة بقرب وفاة النبيﷺ،[١] وكان ﷺ طبقاً لما جاء في سورة النصر "**فسبح بحمد ربك واستغفره**" (سورة النصر: ٣) يقضى أكثر أوقاته في التسبيح والتهليل.[٢] فكان من عادته ﷺ اعتكاف العشرة أيام الأُخر من رمضان في كل عام. لكنه ﷺ اعتكف في رمضان عام ١٠هـ عشرين يوماً، وكان يراجع القرآن الكريم كاملاً كل رمضان مع جبريل مرة واحدة، لكنه ﷺ حصل على هذا الشرف مرتين عام الوفاة،[٣] كما أنه ﷺ أعلن في حجة الوداع أثناء تعليمه مناسك الحج قوله: لَعَلِّي لا أَرَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هذَا. وقد ورد في بعض الروايات أشار إلى أنه ربما لا يستطيع الحج بعد ذلك.[٤] وقد قال ﷺ ألفاظاً من هذا القبيل في خطبة غدير خم أيضاً.

مر في الحديث عن غزوة أحد أنه لم تُصلَّ صلاة الجنازة على شهداء أُحد، ولأن غزوة أحد كانت هي الغزوة التي استشهد فيها كثير من المسلمين، لذا كان يتذكرها النبي ﷺ حتى هذه اللحظة أيضاً.

---

(١) صحيح البخاري، تفسير إذا جاء.

(٢) ورد هذا النوع من الروايات في الطبري وابن خزيمة وابن مردويه، وورد بإيجاز في صحيح البخاري في تفسير إذا جاء.

(٣) صحيح البخاري، باب الاعتكاف وباب تأليف القرآن.

(٤) مسلم وأبو داود والنسائي، كتاب الحج.

وفي حجة الوداع شرَّف الرسول ﷺ المسلمين جميعاً برؤيته. وودَّعهم بحزن، كما أنه ﷺ زار ــ للمرة الأخيرة بعد ثمانية أعوام ــ شهداء أُحد، الذين سعدوا بالبشرى التي بُشروا بها في قوله تعالى: "بل هم أحياء عند ربهم". (سورة آل عمران: ١٦٩) لذا شرفهم النبي ﷺ بزيارة قبورهم ودعا لهم بالمغفرة.

وودعهم بتلك الطريقة الحزينة التي يودع بها المحتضر أحباءه.[1] وبعد ذلك ألقى خطبة قال فيها: إني سابقكم إلى الحوض وإن سعته كسعة ما بين "ايله" و"الحجفة". وأُعطيت مفاتيح خزائن الدنيا كلها، وإني لا أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، لكني أخشى عليكم أن تُفتنوا بالدنيا وتتناحروا عليها فيما بينكم، فتهلكوا كما هلكت الأمم من قبلكم. يقول الراوي: كانت تلك هي المرة الأخيرة التي سمعت فيها رسول الله ﷺ يخطب.[2]

مر في الحديث عن الغزوات أن زيد بن حارثة ﷺ كان قد أُستشهد على يد عرب حدود الشام، وكان النبي ﷺ يريد القصاص منهم، لذا أمر قبل مرضه بيوم واحد أسامة بن زيد بقيادة الجيش والذهاب للثأر لأبيه من هؤلاء الأشرار،[3] وفي منتصف ليل ١٨ أو ١٩ صفر سنة ١١ هجرية.[4]

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، وصحيح مسلم، باب إثبات الحوض.

(٢) وهذا نص الحديث(١٣٢٠) حدَّثنا عبدُ اللهِ بنُ يوسفَ حدَّثنا الليثُ حدَّثني يزيدُ بنُ أبي حبيبٍ عن أبي الخيرِ عن عُقبةَ بنِ عامرٍ «أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم خَرجَ يوماً فصلَّى على أهلِ أُحُدٍ صَلاتَهُ على الميّتِ، ثمَّ انصرفَ إلى المنبرِ فقال: إني فرَطٌ لكم، وأنا شهيدٌ عليكم، وإني واللهِ لأنظُرُ إلى حَوضِي الآنَ، وإني أُعطيتُ مَفاتيحَ خَزائنِ الأرضِ، أو مفاتيحَ الأرضِ. وإني واللهِ ما أخاف عليكم أنْ تُشرِكوا بَعدِي، ولكنْ أخافُ عليكم أنْ تنافَسوا فيها». (المترجم)

(٣) ويروى الواقدي وابن إسحاق أن رسول الله ﷺ كان قد أمر كلاً من أبي بكر و عمر رضي الله عنهما بالمشاركة في تلك الغزوة، ولكن هذه الروايات لا سند لها، ومن ثم رفضها العلامة ابن تيميه بشدة، إذ أنه لا يمكن أن يقال مثل هذا عن عمر. أما أبو بكر فقد عينه رسول الله ﷺ إبَّان مرضه إماماً للناس في الصلاة. وهذا ما ثبت برواية صحيحة. وعليه، فلو يُسلم أن أبا بكر كان قد أُمر بالذهاب والمشاركة في الغزوة في بداية الأمر، فإن رسول الله ﷺ قد استثناه فيما بعد.

(٤) وتختلف الروايات في تحديد أيام المرض الأولى للنبي ﷺ ومدته وتاريخ وفاته ﷺ. وقبل الحديث عن هذا الأمر المختلف فيه، لا بد لنا أن نوضح تلك الأمور التي اتفقت عليها كل الروايات، وأجمع عليها المحدثون وأرباب السير وهي كالتالي:-

١- إن سنة الوفاة هي سنة ١١هـ.

٢- كانت الوفاة في شهر ربيع الأول.

٣- وقعت الوفاة ما بين ١ و ١٢.
٤- كانت يوم الاثنين (صحيح البخاري، ذكر الوفاة، كتاب الجنائز).

ويثبت من أكثر الروايات أنه ﷺ مرض لمدة ثلاثة عشر يوماً. وعليه، إذا أردنا تحديد تاريخ وفاة رسول الله ﷺ بأسلوب دراسي محقق، فسوف يتضح أيضاً تاريخ بداية مرضه. وطبقاً لرواية صحيحة ظل رسول الله ﷺ مريضاً في بيت السيدة عائشة لمدة ثمانية أيام (من يوم الاثنين إلى الاثنين من الأسبوع التالي)، وتوفى هناك، لذا فأيام مرضه ثمانية أيام. وطبقاً لما ورد في أكثر الروايات، يجب أن تكون هناك خمسة أيام أخر. وهذا ما يتضح أيضاً من القرائن، لذا فأيام مرضه هي ١٣ يوماً. قضى منها رسول الله ﷺ الخمسة أيام الأخر في حجرات أزواجه الأخريات. وطبقاً لهذا فإن مرض رسول الله ﷺ يبدأ من يوم الأربعاء. ويوجد اختلاف بين الرواة حول تحديد تاريخ وفاته ﷺ. كما أنني لم أحصل على أية رواية تتعلق بتاريخ وفاته ﷺ رغم مطالعتي لكل كتب الحديث النبوي. أما أرباب السير فلديهم ثلاث روايات:
١- الرواية الأولى تقول الأول من ربيع الأول. ٢- الثانية تقول الثاني من ربيع الأول. ٣- الثالثة تقول الثاني عشر من ربيع الأول.

ولترجيح إحدى هذه الروايات الثلاث، لا بد من الاستفادة بضوابط وأصول علم الدراية والرواية. الرواية التي تقول بأن وفاته ﷺ كانت في الثاني من ربيع الأول رواية هشام بن محمد بن سائب الكلبي والتي رويت عن أبى مخنف (الطبري ص ١٥ – ١٨). ومع أن أكثر المؤرخين القدامى من مثل اليعقوبي والمسعودى وغيرهما قد قبلوا هذه الرواية. إلا أن هذين الراويين معروفان بالكذب وغير ثقة عند المحدثين. وقد نقل ابن سعد والطبري أيضاً هذه الرواية عن الواقدى (جزء الوفاة)، ولكن أشهر رواية للواقدى والتي نقلها عن أشخاص كثيرين هي رواية ١٢ من ربيع الأول. إلا أن البيهقي نقل في الدلائل عن مسند صحيح سليمان التيمي رواية الثاني من ربيع الأول (نور النبراس لابن سيد الناس، الوفاة). لكن رواية غرة ربيع الأول مروية عن أفضل ثقاة أرباب السيرة؛ موسى بن عقبه، وعن المحدث المشهور؛ الإمام الليث المصري (فتح الباري، والوفاة). وكتب الإمام السهيلي في روض الأنف أن هذه الرواية هي الأقرب إلى الحق (جـ ٢، الوفاة). وكان الإمام السهيلي هو أول من اكتشف بالدراية هذا الأمر وهو أن الرواية القائلة بـ ١٢ ربيع الأول غير صحيحة قطعاً لثبات صحة أمرين: الأول: أن يوم الوفاة كان يوم الاثنين (صحيح البخاري، ذكر الوفاة، وصحيح مسلم، كتاب الصلاة). وقبله بثلاثة أشهر تقريباً كان اليوم التاسع من شهر ذي الحجة سنة عشرة هجرية يوم جمعة (الصحاح، قصة حجة الوداع، وصحيح البخاري تفسير اليوم أكملت لكم دينكم) وإن تحصي المدة من يوم جمعة شهر ذي الحجة سنة ١٠ هـ إلى ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ فلن تجد إطلاقاً أن تاريخ ١٢ من ربيع الأول يوم الاثنين، سواء كانت شهور ذي الحجة ومحرم وصفر ٢٩ يوماً أو ثلاثين يوماً. لذا فهذا التاريخ ليس صحيحاً إطلاقاً حسب علم الدراية. والثاني من ربيع الأول يمكن بالحساب أن يوافق يوم الاثنين حينذاك إذا ما كانت الشهور الثلاثة ٢٩ يوماً لكن هاتين الحالتين لم تقعا. وبقيت الحالة الثالثة الأكثر وقوعاً وهي أن يكون شهران ٢٩ يوما وشهر ثلاثين. وفي هذه الحالة سيكون يوم التاسع والعشرين من ربيع الأول يوم

ذهب رسول الله ﷺ إلى جنة البقيع التي كانت بها مقابر عامة المسلمين. وأثناء عودته تكدرت طبيعته. وكان هذا يوم نوبة السيدة ميمونة،[1] وكان يوم أربعاء، فظل رسول الله ﷺ لمدة خمسة أيام محافظاً على الذهاب إلى حجرات أزواجه المطهرات كل في يومها التزاماً بالعدل والإنصاف رغم مرضه الشديد. وحين اشتد عليه المرض يوم الاثنين، استأذن النبي ﷺ أزواجه المطهرات أن يقيم عند السيدة عائشة رضي الله عنها. علماً بأن صاحب الخلق الرفيع ﷺ لم يجهر بطلب الإجازة بل قال: أين أنا غداً؟ أين أنا غداً؟ وكان اليوم التالي

اثنين. وهو ما رواه رجال ثقاة. وسيتضح من الجدول التالي أنه لو كان التاسع من ذي الحجة يوم جمعة فمتى سيكون يوم الاثنين طبقاً لهذا الحساب من أوائل ربيع الأول

العدد	الحالة الافتراضية	الاثنين	الاثنين	الاثنين
١-	لو أن ذا الحجة ومحرم وصفر ثلاثون يومًا	٦	١٣	
٢-	لو أن ذا الحجة ومحرم وصفر ثلاثون يومًا	٢	١٩	١٦
٣-	لو أن ذا الحجة ٢٩ ومحرم ٢٩ وصفر ٣٠ يومًا	١	٨	١٥
٤-	لو أن ذا الحجة ٣٠ يوما ومحرم ٢٩ وصفر ٢٩	١	٨	١٥
٥-	لو أن ذا الحجة ٢٩ ومحرم ٣٠ وصفر ٢٩	١	٨	١٥
٦-	لو أن ذا الحجة ٣٠ يوماً ومحرم ٢٩ وصفر ٣٠	٧	١٤	
٧-	لو أن ذا الحجة ٣٠ ومحرم ٣٠ وصفر ٢٩ يومًا	٧	١٤	
٨-	ذو الحجة ٢٩ ومحرم وصفر ٣٠ يومًا	٧	١٤	

في ضوء تلك التواريخ المقترحة يخرج عن البحث يوم (٦، ٧، ٨، ١٣، ١٩، ١٤، ١٥) لأنه إضافة لأسباب أخرى لا توجد أي رواية تؤكدهم. ويبقى تاريخان الأول والثاني. والثاني ليس له إلا احتمال واحد. وهو ما لا يقبل. أما يوم الأول فاحتمالاته ثلاثة. والاحتمالات الثلاثة كثيرة الوقوع. ويؤيدهم الثقات من الرواة، لذا فإن التاريخ الصحيح حسبما أرى هو (أن الوفاة كانت) غرة ربيع الأول سنة ١١ هجرية.

ويعتبر في هذه الرواية برؤية الهلال فحسب التي على أساسها تكون الأشهر القمرية الإسلامية، ويمكن التشكيك فيها من ناحية الأصول الفلكية. وروى في كتب التفسير عن ابن عباس في تفسير آية: اليوم أكملت لكم دينكم" (المائدة: ٣) أن بين نزول هذه الآية ٩ ذي الحجة سنة ١٠هـ وبين يوم الوفاة ٨١ يوماً (انظر ابن جريد، وابن كثير والبغوي وغيرهم). وبحسابنا نحن فالمدة من ٩ ذي الحجة سنة ١٠ هـ حتى غرة ربيع الأول ــ شهرين ٢٩ وشهر ٣٠ يوم ــ (وهي الحالة التي افترضناها) هي ٨١ يوما تماماً. هذا وقد نقل أبو نعيم بالسند في الدلائل صـ ١٤٦ أيضاً أن تاريخ الوفاة هو غرة ربيع الأول. "سيد سليمان الندوى".

[1] ابن سعد وعبد الرازق بسند صحيح، وصحيح مسلم باب الإمامة.

يوم السيدة عائشة، فقالت زوجاته المطهرات بطيب خاطر: قم عند من ترغب[1] وكان ﷺ قد ضعف لدرجة أنه كان لا يستطيع أن ينتقل بنفسه، لذا حمله علي والعباس رضي الله عنهما بين أيديهما وذهبا به إلى حجرة السيدة عائشة بصعوبة.

وكان رسول الله ﷺ محافظا على الصلاة في المسجد طيلة فترة قدرته على الحركة، وكانت آخر صلاة أم فيها النبي ﷺ المسلمين كانت صلاة المغرب،[2] وكان ﷺ يتـألم مـن رأسه لذا عصب رأسه وتقدم فصلى. وقرأ في صلاته سورة المرسلات، ثم سأل حينما حان وقت العشاء: أصلى الناس؟ فأجاب الناس: لا يا رسول الله، هم ينتظرونك. فأمر رسول الله ﷺ بماء فأغتسل. وحينما أراد أن ينهض أغمى عليه، وبعد أن أفاق سأل ثانية:أصلى الناس؟ فأجاب الناس بنفس ما أجابوا به في المرة الأولى، فاغتسل ﷺ ثانية وحينمـا أراد أن يقـوم أُغمى عليه. وبعد أن أفاق كرر سؤاله فأجاب الناس نفس الجواب. وفي المرة الثالثة اغتسل

---

[1] صحيح البخاري، ذكر الوفاة، ونقل ابن سعد بروايات صحيحة أن السيدة فاطمة الزهراء هي التي طلبت الإذن نيابة عن أبيها ﷺ.

[2] جاء هذا التخصيص برواية السيدة عائشة رضى الله عنها في صحيح البخاري ومسلم، انظر كتاب الصلاة والوفاة (ورد هذا الحديث في البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي باب القراة. وستأتي لاحقاً رواية السيدة عائشة التي ورد فيها أن آخر صلاة أمها رسول الله بالمسجد كانت صلاة الظهر. وقد وافق الحافظ ابن حجر في فتح الباري بين الروايتين بقوله: إن واقعة صلاة المغرب هي واقعة الحجرة النبوية الداخلية. كما ورد في النسائي (جـ ٢، صـ ١٤٥)، ولكن فيما بعد وقع نظر الحافظ على رواية الترمذي التي ورد فيها أن رسول الله ﷺ خرج وأم الناس، لذا اضطر لتأويل ذلك بقوله إن المقصود بذلك أنه ﷺ قام من مضجعه (جـ٤ صـ ٢٠٤). لكنني لا أُسلم بصحة هذا التأويل لأسباب أولها أنه لم يكن بالحجرة مكان يكفي لصلاة جماعة، والثاني أنه لم يكن هناك مكان ثانٍ في الحجرة النبوية إضافة لمكان نومهﷺ. علاوة على ذلك، ورد في الأحاديث في معنى "صلى بنا" أنه ﷺ صلى بجموع المسلمين ولا تصلح هذه الجملة لصلاة البيت. وعليه، فالصحيح أن الصلاة كانت في المسجد النبوي كما تشير إلى ذلك معظم الروايات.

أما فيما يتعلق بالصلاة الأخيرة، أكانت المغرب أم الظهر؟ فيمكن التطابق بينهما، حيث أن انقطاعه ﷺ عن الإمامة الدائمة في الصلاة كان في صلاة المغرب السالف ذكره، كما سيأتي في ذكر صلاة العشاء لاحقاً، وصلاة الظهر التي كان النبي ﷺ قد أداها في المسجد كانت صدفة، حيث كان أبو بكر هو الإمام في البداية ثم جاء النبي ﷺ بعد ذلك وشاركه، فكانت هذه هي آخر صلواته ﷺ بالمسجد. وروى بعض الصحابة أن صلاة الفجر كانت آخر صلاة. ولكن الحقيقة هي أن هذه كانت آخر صلاتهم مع النبي ﷺ). "سيد سليمان الندوى".

ﷺ وحينما أراد أن يقوم أُغمي عليه مرة أخرى، فلما أفاق أمر أبا بكر أن يؤم الناس، فقالت السيدة عائشة: يا رسول الله إن أبا بكر رقيق القلب ولن يستطيع أن يأخـذ مكانـك، إلا أن النبي ﷺ كرر أمره لأبي بكر أن يؤم الناس في الصلاة، لذا أَم أبو بكر الناس بضع أيام في الصلاة.(١)

وقبل وفاته ﷺ بأربعة أيام (يوم الخميس) أمر النبي ﷺ بورقة ودواة (٢) وقال: هلموا أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده.

---

(١) ورد في صحيح البخاري باب الإمامة جـ١ صـ ٩٤ عن أنس أن النبي ﷺ لم يؤم الناس في الصلاة لمدة ثلاثة أيام. وخلفه أبو بكر الصديق في الإمامة منذ صلاة عشاء ليلة الجمعة (البخاري ومسلم كتاب الصلاة) حتى صلاة فجر يوم الاثنين اللاحق (البخاري باب رجع القهقرى في الصلاة صـ ٦٠). وقد صُليت في هذه الأيام الثلاثة سبع عشرة صلاة. وقد نقل ابن سعد هذه الروايات كما هي عن الواقدي. قال في إحداها: أنه أم لمدة ثلاثة أيام. وفي رواية ثانية أنه أم ١٧ صلاة. "سيد سليمان الندوى".

(٢) جاءت هذه الرواية في صحيح البخاري في ذكر الوفاة، وورد هذا الحديث في صحيح البخاري في أبواب متعددة. ويختلف نص الحديث بعض الشيء في كل موضع. وهذه الروايات مجموعة في صحيح مسلم كتاب الوصية. ولم يرد اسم الصحابي الذي تكلم عن إحضار القلم والدواة في البخاري، لكن صُرح باسم عمر ﷺ في كتب الحديث الأخرى (كصحيح مسلم). وقوله هو: "**قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله**".

وهذا نص الروايات الأخرى في صحيح مسلم: ١- **فقالوا إن رسول الله ﷺ يهجر**، ٢- **فقالوا اهجر استفهموه**.

وعليه، أصبحت هذه الرواية محور جدل كبير بين الشيعة والسنة. يقول الشيعة: إن رسول الله ﷺ كان يريد كتابه وصية بخلافة علي كرم الله وجهه. ويقول أهل السنة: إن رسول الله ﷺ كان مريضاً. وكان معلوماً أن الشريعة كانت قد اكتملت لأن قوله تعالى: "اليوم أكملت لكم دينكم" (المائدة: ٣) كان قد نزل؛ لذا لم يرد عمر ﷺ أن يثقل على رسول الله. وإن كان هناك حكم ما ضروري فكيف لرسول الله ﷺ أن يمتنع عنه بمنع أي أحد له. إضافة إلى أنه ﷺ ظل حياً لمدة أربعة أيام بعد هذه الواقعة فلو لم يتمكن حينذاك من إملاءها لكان قد أملاها فيما بعد. وكيف عرف أنه ﷺ كان يريد أن يملي وصية؟ وورد في البخاري: أن رسول الله ﷺ استدعى عبد الله ابن أبي بكر ﷺ وكان يريد أن يمليه وصية بخلافة أبي بكر الصديق. لكنه ﷺ عزف عن ذلك وقال: إن الله والمسلمين أنفسهم لن يرضوا بأحد غير أبي بكر الصديق. ثم أوصى رسول الله ﷺ بعد هذا الاختلاف شفهياً بثلاث وصايا ربما تكون هي نفسها الأمر الضروري الذي كان الرسول ﷺ يريد أن يمليه. ولو كانت شيء آخر لتمكن الرسول ﷺ من إيضاحه ضمن هذه الوصايا الشفهية. أو كان يستطيع أن يبينه في الخطبة التي خطبها على الملأ وعليٌّ أن التزم الحذر حتى لا يخرج

قال بعض الصحابة للمسلمين: إنَ رسول الله ﷺ قد **(أغلبه الوجع)** من شدة المرض، وعندكم كتاب الله يكفينا. لكن الناس اختلفوا على ذلك. فكان بعضهم يقول: لا بد من تنفيذ أمر رسول الله ﷺ، والآخرون يقولون شيئاً آخر، فلما زاد الضجيج والصخب قال بعضهم: أهجر استفهموه[١]. وحينما بدأ الناس سؤاله ﷺ، قال: "دَعوني، فالذي أنا فيه خيرٌ مما تدعونني إليه.".

ثم أوصى رسول الله ﷺ بعد ذلك (بثلاث وصايا) فقال أولاً: "أخرجوا المشركينَ من جزيرة العرب". ثانياً: "وأجيزوا الوفدَ بنحو ما كنتُ أُجيزُهم". أما الوصية الثالثة فقد نسيها الراوي[٢]. وفي وقت صلاة ظهر[٣] هذا اليوم، تحسنت صحة النبي ﷺ بعض الشيء، فأمر بسبعة أباريق مياه فاغتسل، ثم حمله علي والعباس رضي الله عنهما إلى المسجد، وكانت قد أقيمت الصلاة، وكان أبو بكر يؤم الناس، فلما سمع وقع أقدامه ﷺ هَم أن يتأخر فأشار له النبي ﷺ أن اثبت. ثم جلس رسول الله ﷺ جانبه وأم الناس، فكان أبو بكر يصلي بصلاة النبي ﷺ وكان الناس يصلون بصلاة أبي بكر.

وبعد الصلاة خطب رسول الله ﷺ خطبة ــ كانت آخر خطبة ــ قال فيها:

الكتاب عن الموضوع التاريخي ويدخل في إطار علم الكلام. لكنني دونت ما وصلت إليه من دراسة في كتابي "الفاروق".

[١] أي استفهموا عن هذا الأمر من الرسول ﷺ نفسه. (المترجم)

[٢] صحيح البخاري، ذكر الوفاة. وصحيح مسلم كتاب الوصية. وهذا نص الحديث (٤٣٢٣) حدَّثنا قُتيبة حدَّثنا سفيانُ عن سليمانَ الأحول عن سعيدِ بنُ جُبير قال: «قال ابن عباس: يومُ الخميس وما يومُ الخميس. اشتدَّ برسول الله صلى الله عليه وسلم وَجَعُهُ فقال: ائتوني أكتُب لكم كتاباً لن تَضلوا بعدَه أبداً. فتَنازعوا، ولا ينبغي عندَ نبيٍّ تنازع، فقالوا ما شأنهُ؟ أهَجَرَ، استَفهِموه. فذَهبوا يردُّون عليه. فقال: دَعوني، فالذي أنا فيه خيرٌ مما تدعونني إليه. وأوصاهم بثلاثٍ قال: أخرجوا المشركينَ من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفدَ بنحو ما كنتُ أُجيزُهم، وسكتَ عن الثالثة أو قال فنسيتُها».. (المترجم).

[٣] لم يرد في الروايات صراحة بأن هذه الواقعة كانت في ظهر أي يوم، لكن ورد في صحيح مسلم في باب النهي عن بناء المساجد على القبور عن جندب أن ما قاله النبي ﷺ في شأن أبي بكر الصديق والذي سيرد ذكره لاحقاً. كان قد قاله قبل وفاته بأكثر من خمسة أيام، ولأن خطبة مرض الموت كان ﷺ قد ألقاها بعد صلاة الظهر ذاك ــ كما ورد في صحيح البخاري وصحيح مسلم عن السيدة عائشة رضي الله عنها ــ لذا كانت واقعة يوم الخميس ذاك أسبق من هذه الرواية بخمسة أيام، وهذا ما أقره الحافظ ابن حجر في فتح الباري. "سيد سليمان الندوى".

"إنَّ اللّهَ سبحانه خَيَّرَ عَبداً بينَ الدُّنيا وبينَ ما عِندَهُ، فاختارَ ما عندَ اللّهِ". فحينما سمع أبو بكر هذا الحديث غلبه البكاء. فنظر الناس إليه متعجبين من أن رسول الله يحكي عن شخص ما وهذا يبكي؟ إلا أن عالم سر النبوة (أبي بكر) علم أن المقصود بالعبد النبي محمد ﷺ نفسه. واصل النبي خطابه وقال: يا أبا بكر لا تَبك، إنَّ أَمَنَّ الناسِ عليَّ في صُحبَتِه ومالِه أبو بَكرٍ.[1] ولو كنتُ مُتَّخذاً خَليلاً مِن أُمَّتي لاتَّخَذْتُ أَبا بكر، ولكنْ أُخُوَّةُ الإسلامِ ومَوَدَّتُهُ. لا يَبقينَّ في المسجدِ بابٌ إلاّ سُدَّ، إلاّ بابُ أبي بكرٍ لَعَنَ اللّهُ اليهودَ والنَّصارَى اتَّخَذوا قبورَ أنبيائهم مسجداً.[2]" ونهي ﷺ عن تقليدهم.

كانت الأنصار تذكر عطف وكرم النبي ﷺ أيام مرضه فتبكي، في ذات مرة مر أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بالأنصار وهم يبكون. فسألهم عن سبب بكاءهم فقالوا: تذكرنا صحبة رسول الله ﷺ. فذهب أحدهما لرسول الله ﷺ وأخبره بحالهم. وكان اليوم فرصة استدراك هذا، لذا خطب رسول الله ﷺ بعد ذلك في الناس وقال في شأن الأنصار: **أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعيبتي، وإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام فمن ولى منكم أمراً يضُرُ فيه أحداً أو ينفعه، فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم".[3]**

---

[1] صحيحي البخاري ومسلم، مناقب أبي بكر الصديق، الفقرة الأخيرة. وصحيح مسلم، باب النهي عن بناء المساجد على القبور. وهذا نص الحديث: عن أبي سعيد الخدري قال: "خطب رسول الله ﷺ الناس، وقال: إن الله خيّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله قال: فبكى أبو بكر فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خُير فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا، فقال رسول الله ﷺ: إن من أَمَنَّ الناس علي في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلا غير ربي، لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته لا يبقى في المسجد باب إلا سُدّ إلا باب أبي بكر" (صحيح البخاري، باب مناقب أبي بكر.) (المترجم).

[2] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (١٣٠٦) حدَّثَنا عُبَيدُ اللّهِ بنُ موسىَ عن شَيبانَ عن هلالٍ هوَ الوَزّانُ عن عُروةَ عن عائشةَ رضيَ اللّهُ عنها «عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال في مَرَضهِ الَّذي ماتَ فيه لَعَنَ اللّهُ اليهودَ والنَّصارَى اتَّخَذوا قبورَ أنبيائهم مسجداً. قالت: ولولا ذلك لأبرَزُوا قبرهُ، غيرَ أنِّي أخشى أن يُتَّخذ مسجداً». (المترجم).

[3] صحيح البخاري، مناقب الأنصار. وهذا نص الحديث: عن ابن عباس قال" أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعيبتي، وإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام فمن ولى منكم أمراً يضُرُ فيه أحداً أو ينفعه، فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم" (صحيح البخاري، باب قول النبي ﷺ اقبلوا من محسنهم وتجاوزا عن مسيئهم). (المترجم).

مر سابقاً أن النبي ﷺ قد أمر أسامة بن زيد ﷺ بقيادة الجيش الذي يريد إرساله إلى الروم، ومن ثم اشتكى بعض الناس من ذلك (صرح ابن سعد بأنهم المنافقون) وقالوا لماذا خُوّل هذا الشرف لشاب رغم وجود المسنين والكبار، فقال النبي ﷺ في هذا: إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله، إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس بعده".[١] إن الفرق الدقيق بين الإسلام والأديان الأخرى أن الإسلام يعتبر الله تعالى الحاكم الواضع لكل أحكام الشريعة المحمدية مباشرة، ورسالة النبي ﷺ ما هي إلا مجرد إيصال الأحكام الإلهية للناس بواسطة القول والعمل. لذا أدى سوء الفهم هذا في الأديان الأخرى إلى الشرك والإلحاد. ونتائج هذا واضحة أمام أعين الجميع، لذا أخبر النبي ﷺ أنه لا يحل ولا يحرم من تلقاء نفسه ﷺ؛ بل إنه يحل ما أحله الله تعالى في كتابه، ويحرم ما حرمه. وثواب الإنسان وعقابه يكون على أساس عمله، لذا أمر ﷺ فاطمة ابنته وصفية عمته ﷺ بأن تعملا لما عند الله فإنه ﷺ لن يجيرهما من الله.[٢] وحين انتهى النبي ﷺ من خطبته ذهب إلى حجرة السيدة عائشة.

وكان النبي ﷺ يحب السيدة فاطمة الزهراء حباً جما. أرسل في طلبها(أثناء مرضه). فلما جاءته أسرَّ إليها حديثا. فغلبها البكاء، فنادها ثانية وأسرَّ إليها بحديث أفرحها. وحينما سألتها السيدة عائشة على ذلك قالت: سارني رسول الله ﷺ فأخبرني إنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه، فبكيت ثم سارني فأخبرني أني أول أهله يتبعه فضحكت.[٣]

---

[١] صحيح البخاري، بعث أسامة ومناقب زيد بن حارثة. وهذا نص الحديث: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: " بعث النبي ﷺ بعثاً، وأمَّر عليهم أسامة بن زيد فطعن بعض الناس في إمارته، فقال النبي ﷺ: إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله، إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس بعده" (البخاري، باب مناقب زيد بن حارثة ﷺ). (المترجم).

[٢] روى هذا الحديث والحديث الذي سبقه بسند حسن في مسند الإمام الشافعي باب استقبال القبلة، كتاب الإمام الشافعي وابن سعد في جزء الوفاة. لكن ورد في هاتين الروايتين أن رسول الله ﷺ قال هذا بعد صلاة الفجر، ولكن وورد نقلا عن صحيح البخاري أن النبي ﷺ كان قد شارك في صلاة الظهر، وألقى خطبة بعدها. والخطأ الثاني هو ما ورد في المسند وفي رواية ابن سعد إذ يقولون إن هذه الواقعة كانت في صباح يوم الاثنين أي يوم الوفاة، في حين أنه ثبت برواية صحيحة أن النبي كان قد رفع الستارة، ونظر إليهم فقط صباح يوم الاثنين، ولم يخرج، كما لم يشارك في الصلاة.

[٣] صحيح البخاري، ذكر الوفاة. وهذا نص الحديث: عن عائشة رضي الله عنها قالت: "دعا النبي ﷺ فاطمة ابنته في شكواه الذي قبض فيها فسَارَّها بشئ فبكت، ثم دعاها فسارها، فضحكت قالت: فسألتها عن ذلك

كان إفراط اليهود والنصارى في تعظيم مزارات وأضرحة الأنبياء قد وصل إلى عبادة الأصنام. أما الإسلام فكان هدفه الأسمى تطهير الناس من عبادة الأوثان، لذا كان هذا الأمر محط اهتمام النبي ﷺ وشغله الشاغل أثناء مرضه ﷺ، ذات مرة ذكرت أزواج النبي — اللاتي كن قد زرن الحبشة — كنائس [1] الأقباط هناك وأصنامهم وتماثيلهم، فقال ﷺ "إِنَّ أُولَئِكَ، إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَىٰ قَبْرِهِ مَسْجِداً، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ."[2] وحينما اشتد المرض على النبي ﷺ كانوا يغطون وجهه أحياناً بالبردة وأحياناً يرفعونها خشية الحر. في ذلك الحين سمعت السيدة عائشة رسول الله ﷺ يقول: لَعَنَ اللَّهُ اليهودَ والنَّصارَى اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مسجداً.[3]

(وتذكر رسول الله ﷺ وهو في شدة مرضه أن لدى السيدة عائشة بعض الدراهم، فسألها عن هذه الدراهم وأمرها بأن تتصدق بها)[4].

(ويذكر أنه ﷺ قبل وفاته بيوم واحد)[5] أي (يوم الأحد) كان النبي ﷺ قد رفض الدواء الذي كان الناس يريدون إعطاءه إياه لأنه لم يستسغه. وفي هذه الأثناء أُغمي على رسول الله ﷺ ففتح الناس فمه الشريف واسقوه الدواء، وبعد إفاقته ﷺ وشعر بهذا، أمر أن يسقى كل من سقاه الدواء الدواء كراهية. ولم يكن العباس ضمن هؤلاء الناس لذا استثنى من الحكم[6] ويكتب المحدثون عن هذه الواقعة بأنها الجبلة البشرية، بمعنى أنه ﷺ كبقية المرضى ضيق المزاج؛ لذا أمر بهذا، ولكني لا أعتبر ذلك ضيق أفق منه ﷺ بل مداعبة.

وكان المرض يشتد ويقل على رسول الله ﷺ، وكانت صحته ﷺ قد تحسنت بعض الشيء في اليوم الذي توفى فيه (أي يوم الاثنين). وكانت حجرته متصلة بالمسجد لذا رفع ﷺ الستار (وقت صلاة الفجر) ونظر فرأى الناس منشغلين بالصلاة (صلاة الفجر) فتبسم من

فقالت: سارني النبي ﷺ فأخبرني أنه يقبض في وجعه الذي توفى فيه، فبكيت ثم سارني فأخبرني أني أول أهل بيته أتبعه فضحكت."(صحيح البخاري، باب مناقب قرابة رسول الله.) (المترجم).

[1] إحدى كنائس الكاثوليك الرومان التي توجد فيها تماثيل وأصنام لعيسى والسيدة العذراء والقساوسة والشهداء.

[2] صحيحي البخاري ومسلم، باب النهي عن بناء المساجد على القبور.

[3] صحيح البخاري، ذكر الوفاة وصحيح مسلم نفس الباب.

[4] مسند ابن حنبل، جـ٢، صـ ٤٩، وابن سعد جزء الوفاة، بروايات متعددة.

[5] ابن سعد، الوفاة.

[6] صحيح البخاري، ذكر الوفاة، وصحيح مسلم، التداوي بالدواء.

فرط فرحه. وحينما سمع الناس وقع أقدامه ﷺ اعتقدوا أن النبي ﷺ يريد أن يخرج إليهم فلم يسيطروا على أنفسهم جميعاً من شدة الفرح. حتى كادوا يخرجون من الصلاة، أراد أبو بكر الذي كان يؤم الناس أن يتأخر إلا أن النبي ﷺ أشار له أن اثبت، ثم دخل حجرته الشريفة وأسدل الستار.(١) (روى في صحيح مسلم أنه ﷺ كان قد وهن لدرجة أنه لم يستطع أن يسدل الستار جيداً).(٢) وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي زار فيها الصحابة خير البشر محمد ﷺ. يقول أنس بن مالك: كان وجه النبي ﷺ يبدو وكأنه ورقة(٣) من مصحف" أي ابيضَّ وجهه.

وبينما كان اليوم ينقضي كان النبي ﷺ يغمى عليه ثم يفيق، فلما رأته السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها قالت: "**واكرب أباه**"، فقال لها النبي ﷺ: ليس على أبيك كرب بعد اليوم. وتقول السيدة عائشة إن النبي ﷺ كان يقول وهو صحيح معاف: "ما من نبي يموت حتى يخير". وكان النبي ﷺ يقول وهو في هذه الحالة: "**مع الذين أنعم الله عليهم**" وأحياناً يقول: "**اللهم في الرفيق الأعلى**".(٤) ففهمت أنه لا يريد الآن إلا الرفيق الأعلى.

وقُبيل وفاته ﷺ جاءه عبد الرحمن بن أبي بكر. وفي يده سواك، وكان النبي ﷺ واضعاً رأسه على صدر السيدة عائشة. فنظر إلى السواك، ففهمت السيدة عائشة أن النبي ﷺ يريد أن يستاك. فأخذت السواك من عبد الرحمن أعطته النبي ﷺ. فاستاك به كما يستاك

---

(١) صحيح البخاري، ذكر الوفاة، وكتب الصحاح، كتاب الصلاة.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، صـ١٦٧.

(٣) صحيح مسلم، باب الصلاة. وورد في رواية أنس بن مالك التي وردت في صحيح مسلم وكتاب الصلاة، صـ ١٦٧ أن النبيﷺ كان قد جاء وقت صلاة الفجر في نفس الموعد بعد ثلاثة أيام. لكنه لم يستطع أن ينضم للجماعة فرجع، وروى الإمام الشافعي في كتاب الأم وابن سعد في جزء الوفاة عن ابن أبي سبرة أن النبي ﷺ اشترك في جماعة هذه الصلاة. لكن هذا في الحقيقة سهو من الراوي. فقد ورد صراحة في صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما أنه ﷺ لم يتمكن من المشاركة في الجماعة ورجع. وهنا التبست على الراوي صلاة الظهر السابقة، والمراد بقوله بعد ثلاثة أيام يوم الخميس الذي خطب فيه رسول الله، والمراد بما بعده أيام الجمعة والسبت والأحد.

(٤) وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٤٣٢٨) حدَّثنا أبو اليمان أخبرَنا شعيبٌ عنِ الزُّهريِّ قال عروةُ بن الزُّبير إن عائشة قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو صحيح يقول: إنه لم يُقبَضْ نبيٌّ قطُّ حتى يرَى مَقعَدَهُ من الجنة، ثم يُحيّا ـ أو يُخيَّر ـ فلما اشتكى وحضرَهُ القبضُ ورأسُهُ علَى فخذِ عائشة، غُشِيَ عليه، فلما أفاقَ شخصَ بَصرُهُ نحوَ سقفِ البيتِ ثمَّ قال: اللهمَّ في الرفيق الأعلى. فقلتُ: إذاً لا يجاورُنا، فعرفتُ أنه حديثه الذي كان يحدِّثُنا وهو صحيح». (المترجم).

الأصحاء تماماً. كان وقت وفاته يقترب، وحان وقت العصر.[1] فكان النبي ﷺ يشعرنا باضطراب أنفاسه في صدره. وفي تلك الأثناء سمعه الناس يقول:[2] الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم".[3]

كان بالقرب من رسول الله ﷺ إبريق ماء فكان يضع يديه فيه مراراً ويرش منه على وجهه. (أحياناً كان يضع الرداء على فمه وأحياناً يرفعه). وفي تلك الأثناء رفع يديه وأشار بإصبعه وقال ثلاث مرات: **بل الرفيق الأعلى**. وسقطت يده وهو يكرر هذه الجملة. وتجمدت عيناه وهو ناظر إلى السقف. ثم فاضت روحه إلى الرفيق الأعلى [4].

التجهيز والتكفين:

بدأ عمل تجهيز وتكفين النبي ﷺ في اليوم الثاني أي يوم الثلاثاء الموافق الثاني من ربيع الأول، وكان لهذا التأخير أسباب عديدة منها:

١- إن أحباب وصحابة النبي ﷺ لم يصدقوا أن النبي ﷺ فارق الحياة. لذا قال عمر ﷺ بعد أن استل سيفه: لأقطعن عنق من يقول إن النبي قد مات. لكن أبا بكر ﷺ جاء وخطب في الصحابة مؤكداً لهم خبر انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى سبحانه، وتلا عليهم بعض آيات القرآن الكريم حتى عاد الناس إلى صوابهم وصدقوا وفاة النبي ﷺ.

٢- إن الوقت الذي كان متبقياً بعد الوفاة وحتى غروب الشمس لم يكن كافياً للانتهاء من أعمال التجهيز والتكفين.

٣- إن العمل في إعداد القبر كان قد بدأ بعد الغسل والتكفين لذا تحتم الانتظار.

٤- إن الناس كانوا يدخلون أفواجاً متناوبة متتالية إلى الحجرة التي توفى بها النبي لصلاة الجنازة، لذا استغرق هذا أيضاً وقتا. فلم ينتهوا من ذلك إلا بعد مرور نهار يوم

---

[1] كتب ابن إسحاق في السيرة أن النبي ﷺ توفى ظهراً، ولكن ورد في صحيحي البخاري ومسلم عن انس بن مالك أنه ﷺ توفى آخر نهار يوم الاثنين. وقد وافق الحافظ ابن حجر بين هاتين الروايتين بقوله إن الظهر كان قد انقضى وحان وقت العصر.

[2] الأدب المفرد، الإمام البخاري.

[3] مصر، سنن ابن ماجه كتاب الوصايا، وابن سعد جزء الوفاة بسند صحيح.

[4] وردت هذه الوقائع كلها في صحيح البخاري في أبواب مختلفة عن الوفاة.

الثلاثاء.[١] ولقد قام الخاصة من أحباب وأقارب النبي ﷺ بتجهيزه وتكفينه. فظل معه الفضل بن العباس وأسامة بن زيد رضي الله عنهما. وغسله علي كرم الله وجهه برفقة العباس رضى الله عنهما، وورد في بعض الروايات أن العباس أيضاً ظل معهم بالداخل. ولأن كل واحد من الناس كان حريصاً على نيل هذا الشرف لذا أغلق علي ﷺ الباب من الداخل، فنادى عليه الأنصار قائلين: بالله لا تحرمنا حقوقنا، فلنا حق في خدمة رسول الله ﷺ. إلا أن أبا بكر قال ــ كما ذكر الواقدى ــ أنه ليس لأحد حق في رسول الله ﷺ. لأننا لو سمحنا للجميع فلن ننتهي من الغسل، لكن علي ﷺ نادى على أوس بن خولى الأنصاري أحد أصحاب بدر بعد أن ألح الأنصار. فكان يملأ آنية الماء ثم يناولهم إياها. وكان علي كرم الله وجهه قد ضم جسد النبي ﷺ الشريف إلى صدره. وكان العباس وابنيه القسم والفضل يقلبون جسده ﷺ وأسامة بن زيد ﷺ يصب الماء من أعلى.[٢]

(والقماش الذي كان قد اُختير في البداية للتكفين كان رداءً لعبد الله بن أبي بكر مصنوع باليمن، إلا أنه نُزع[٣]فيما بعد). وكفن ﷺ في قماش ثلاثة أردية بيض من القطن، كانت من مصنوعات سحول، ولم يكن من بين ما كفن فيه النبي ﷺ قميصاً ولا عمامة.[٤] وبعد أن تم الغسل والتكفين طرح هذا السؤال نفسه: أين يُدفن رسول الله ﷺ؟ قال أبو بكر الصديق: إن النبي يدفن حيث يموت، لذا اقترح رفع النعش والفراش من المكان الذي توفى فيه رسول الله في حجرة السيدة عائشة وأن يحفر مكانهما قبر.[٥] تقول السيدة عائشة: لم يدفن النبي في أي ساحة لأنه ﷺ كان حريصاً قُبيل وفاته على أن لا يتخذ الناسُ قبره داراً للعبادة. وكان يصعب منع ذلك إذا ما دفن النبي ﷺ في أي ساحة،[٦] لذا دفن داخل الحجرة.

---

[١] وردت في بعض روايات ابن سعد وغيره أن الدفن تم يوم الأربعاء ولكن هذا كله كذب، لأن الرواية الصحيحة ذكرت في ابن سعد نفسه وهي أن الدفن تم يوم الثلاثاء، إلا أن ليل يوم الأربعاء كان قد دخل، وفي رواية ابن ماجه (كتاب الجنائز) **فلما فرغوا من جهازه يوم الثلاثاء.**

[٢] طبقات ابن سعد، صـ ٦٢، ٦٣، والطبري جزء الوفاة (ورد ذكر أسماء هؤلاء الصحابة بإيجاز في أبي داود، كتاب الجنائز وفي ابن ماجه، كتاب الجنائز).

[٣] صحيح مسلم، صـ ٢٠، كتاب الجنائز.

[٤] صحيح البخاري ومسلم ومسند أبي داود، كتاب الجنائز.

[٥] ابن سعد، جزء الوفاة بروايات صحيحة، وابن ماجه، كتاب الجنائز، ذكر وفاة النبي.

[٦] صحيح البخاري، كتاب الجنائز باب الوفاة.

كان في المدينة اثنانِ من المهرة في حفر القبور هما أبو عبيدة بن الجــراح وأبــو طلحة. كان أبو عبيدة يحفر القبور بشكل صندوقي طبقاً لما تعارف عليه أهل مكة. أما أبــو طلحة فقد كان يحفر لحداً على عادة أهل المدينة. واختلف الناس في نوعية القبر الذي سيُعد للنبي ﷺ. فقال عمر: لا حاجة للاختلاف. سنرسل لهذين الصحابيين[١] وسيتولى الأمر مــن سيسبق منهما. فاقتنع الناس بهذا الرأي. فأرسل العباس ﷺ رسلاً إلى الصحابيين. فلم يكــن أبو عبيدة بالبيت فجاء أبو طلحة، وحفر للنبي ﷺ قبراً على هيئة لحد. ولأن الأرض كانــت رطبة لذا فُرش في القبر الفراش الذي كان النبي ﷺ قد توفى عليه.

أُعدت الجنازة، وانقسم الناس لصلاة الجنازة (كانت صلاة الجنازة في الحجرة وكان الناس يدخلون جماعات قليلة متتالية لأداء الجنازة) فدخل الرجال أولاً، ثم النساء ثم الأطفال وأدوا الجنازة التي كانت بلا إمام.[٢] ثم وضع كل من علي و الفضل بن العباس (وأسامة بن زيد و عبد الرحمن بن عوف) جسد النبي ﷺ الطاهر في القبر).[٣]

---

[١] ابن ماجه، كتاب الجنائز.

[٢] ابن سعد، برواية صحيحة جزء الوفاة.

[٣] ورد في أبي داود، كتاب الجنائز وفي ابن ماجه وابن سعد اسم قثم بن عباس وشقعران بدلاً من اسم أسامة بن زيد وعبد الرحمن بن عوف، ولا تخفى الرواية الصحيحة على المطلعين.

التركـــة

ما هي الأشياء التي تركها النبي ﷺ من ممتلكات وغيرها في تركته بعد وفاته ﷺ ؟ للإجابة على هذا السؤال يجب أن نعرف أولاً ما كان يمتلكه النبي ﷺ أثناء حياته ثم تركــه بعد وفاته، علماً بأنه وإن كان هناك شيء فقد قال عنه النبي ﷺ علانية: **«لا نُورَثُ ما تركنا صدقةٌ»**.[1]

روى عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لا يقتَسِمُ ورَثَتي دِيناراً، ما تركتُ بعدَ نفقةِ نِسائي ومُؤنَةِ عاملي فهو صدَقَةٌ»[2]؛ أي لن تكون هناك تركة، ومن ثم لن يقسموا. ولهــذا أمر النبي ﷺ عند احتضاره السيدة عائشة أن تتصرف ببعض الدراهم التي كانت عندها في سبيل الله.

روي فى البخاري عن عمرو بن حويرث شقيق أم المؤمنين جويريـــة رضـــي الله عنها أنه قال: **ما ترك رسول الله ﷺ عند موته درهماً ولا ديناراً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئا إلا بغلته البيضاء وسلاحه وأرضاً جعلها صدقةً**.[3]

ورد في سنن أبي داود عن عائشة رضي الله عنها: **"ما ترك رسول الله ﷺ دينــاراً ولا درهماً ولا بعيراً ولا شاة"**. وعلى أي حال إن كانت هناك تركة، فلن تتعدى هذه الأشياء الثلاثة؛ وهى قطعة أرض وراحلة وسلاح.

---

(1) وردت هذه العبارة في سائر كتب الحديث، كما وردت في مواضع مختلفة في صحيح البخاري، كتاب الوصايا وكتاب الفرائض باب فرض الخمس.وهذا نص الحديث: (٦٥٧٩) حدّثنا إسماعيلُ بن أبانَ أخْبرَنا ابنُ المباركِ عن يونسَ عن الزُّهري عن عُروةَ عن عائشةَ أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا نُورَثُ ما تركنا صدقةٌ». (المترجم)

(2) وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٦٥٨١) حدّثنا إسماعيلُ قال: حدثني مالكٌ عن أبي الزِّناد عن الأعرج عن أبي هريرةَ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يقتَسِمُ ورَثَتي دِيناراً، ما تركتُ بعدَ نفقةِ نِسائي ومُؤنَةِ عاملي فهو صدَقَةٌ». (المترجم).

(3) صحيح البخاري، كتاب الوصايا.

الأرض:

الأرض التي تحدث عنها عمرو بن حويرث كانت عبارة عن بعض حدائق المدينة وخيبر وفدك والمقصود بممتلكات المدينة ممتلكات بني النضير أو تلك الحدائق التي كان مخيريق اليهودي قد أوصى بها هبة للنبي ﷺ سنة ٣ هجرية (إبان غزوة أحد). ولكن ثبت من صحيح الروايات أن النبي كان قد قسم هذه الحدائق في ذلك الوقت على مستحقيها.[١]

واختلف أهل السنة والشيعة منذ البداية حول ممتلكات فدك وخيبر؛ فتقول الشيعة إن هذه الممتلكات كانت ملكاً خاصاً للنبي ﷺ لذا كان يجب أن تقسم على أهل البيت بصفتهم ورثة، أما أهل السنة فيقولون إنه ﷺ تملكها بصفته قائداً للمسلمين، حتى وإن كانت ملكاً خاصاً به فقد قال ﷺ في هذا الشأن: "«لا نُورَثُ ما تركنا صدقةٌ».[٢]

والحقيقة هي أن هذا الاختلاف كان قد ظهر منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم، فقد طالب العباس (عم النبيﷺ) والسيدة فاطمة (ابنتهﷺ)، وأكثر أزواجه المطهرات، أن تقسم هذه الممتلكات على الورثة. لكن أبا بكر و عمر وآخرين من أكابر الصحابة قالوا: إنها وقف للمسلمين، ولن يكون هناك تغيير في الطرق أو المصارف التي كان النبي ﷺ ينفقها فيها قبل وفاته.[٣] حيث إن النبي ﷺ كان قد خصص إيراد تلك الممتلكات الثلاثة لأوجه مختلفة؛ فكانت إيرادات أملاك بني النضير مخصصة للاحتياجات الطارئة. وكانت إيرادات فدك وقفا على المسافرين، أما إيرادات خيبر فكان ﷺ يقسمها إلى ثلاثة أقسام؛ قسمين لعامة المسلمين، وثالث كان يعطي لأزواج النبي كمصاريف سنوية. وما كان يتبقى منه كان ينفق في مساعدة الفقراء والمهاجرين.[٤] وفي النهاية ولى عمر إبان خلافته على والعباس رضى الله عنهما على أملاك المدينة بناء على إصرارهما، إلا أن علي ﷺ استولى عليها. أما أملاك خيبر وفدك فظلت حتى عهد عمر بن عبد العزيز بحوزة الخلفاء الراشدين.[٥]

---

[١] ورد في صحيح البخاري باب فرض الخمس. وصدقة بالمدينة وهذه هي الحدائق. للمزيد انظر فتح الباري جـ٦ صـ ١٤٠ وصحيح البخاري، كتاب المغازي، ذكر بني النضير.

[٢] صحيح البخاري، كتاب الفرائض.

[٣] ورد في أبواب عديدة من صحيح البخاري، انظر كتاب الفرائض.

[٤] سنن أبي داود، باب صفايا رسول الله ﷺ.

[٥] ورد في الحاشية أن عمر بن عبد العزيز كان قد أعطى حديقة فدك لأبناء علي ﷺ.

الدواب:

أسهب أرباب السيرة في الكتابة عن الدواب والماشية والخيل التي كانت عند النبي ﷺ بطريقة توهم أن النبي ﷺ كان يمتلك حظيرة بلد بأكمله.

كتب الطبري عن أسماء هذه الدواب وما يتعلق بها تفصيلا، وإن كان ما كتبه صحيحا فهذا أمر طيب؛ ولكن الحقيقة هي أن كل ما كتبه من روايات عن هذه الدواب مأخوذة جميعها عن الواقدى. وهو ما كتبه المؤلفون السابقون بتفصيل، ومن بينهم أكابر المحدثين من مثل اليعمرى، والمغلطانى والحافظ العراقي وغيرهم. ومع أن هؤلاء المؤلفين غالباً لا يكتبون سلسلة السند، لكن أكثر الناس يعتقد بصحة قولهم لكونهم ثقات. ولكن حين يحقق في الأمر يتضح أن مثل هذا النوع من الروايات لا تتعدى سلسلة سندها الواقدى.

وقد مرت رواية السيدة عائشة هذه آنفاً: "**ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهما ولا بعيراً ولا شاة**". ورواية عمرو بن حويرث شقيق جويرية أم المؤمنين المذكورة في صحيح البخاري كتاب الجهاد: "**ما ترك رسول الله ﷺ إلا بغلته البيضاء وسلاحه وأيضاً تركها صدقة**".

يتضح في هذه الروايات أنه لم يكن بتركة النبي ﷺ الخاصة إلا راحلة واحدة؛ إذاً فكيف يمكن أن نُسلِّم بالفهرس الطويل الذي أعده الطبري عن دواب وأمتعة النبي الذي يبدو وكأنه كان لأحد الملوك المتوجين.

ويثبت من مطالعة الأحاديث الصحيحة أنه كانت هناك أشياء أخرى إضافة لما ذكره عمرو بن حويرث عند رسول الله ﷺ. لكن هذا لا يؤثر على رواية عمرو، لأن عمرو قال: إن هذه الأشياء كانت موجودة حال وفاة النبي ﷺ. فمن الممكن أن تكون هذه الأشياء الفائضة قد تبرع النبي ﷺ بها وأنفقها قبل وفاته حسب عادته ﷺ. وعلى كل حال (طبقاً للروايات الصحيحة) فقد كان النبي يمتلك الدواب التالية:

لخيف: فرس يربط في حديقة أبي بن عباس. وقد ذكره البخاري في كتاب الجهاد.

عقيرة: حمار، يقول معاذ رضي الله عنه أردفني النبي ﷺ خلفه عليه (البخاري، كتاب الجهاد).

العضباء والقصواء: ناقة سريعة جداً، وكانت تسمى أيضاً بالقصواء (ورد في الطبري، صـ ١٧٨٤ أن النبي ﷺ كان قد اشتراها من أبي بكر وقت الهجرة. وركب عليها مهاجراً، وهي نفسها التي كانت قد توقفت أمام بيت أبي أيوب الأنصاري[1] بعد ما وصل النبي ﷺ المدينة.

---

[1] صحيح مسلم، ذكر الهجرة.

كما أن رسول الله ﷺ كان قد خطب من على ظهرها خطبة الوداع.[١] وكانت تفوق غيرها عدواً في كل الغزوات. ويروى أن أعرابياً قدم ذات مرة من الخارج راكباً جملاً صغيراً، وأراد أن يسابق به العضباء، فسبق. فحزن الصحابة لذلك لكن رسول الله ﷺ قال: «حقٌّ على اللهِ أن لا يرتفعَ شيءٌ منَ الدُّنيا إلا وضعَه». (البخاري، باب الجهاد).[٢]

تيه: وهي البغلة(دلدل) التي ورد ذكرها في أكثر الروايات، والتي ذكرت في رواية عمرو بن حويرث. وقد صرح أكثر شارحي صحيح البخاري أن مقوقس مصر كان قد أهدى هذه البغلة للنبي ﷺ. وفي صحيح البخاري أن ابن العلماء (حاكم أيله) كان هو الآخر قد أهدى النبي ﷺ بغلة بيضاء إبان غزوة تبوك.[٣] أما البغلة البيضاء التي ركبها النبي ﷺ في غزوة حنين فقد أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي وهي التي اعتبرها أصحاب السير أنها البغلة دلدل، ولكن هذا خطأ.[٤] وهو ما صرح به في صحيح مسلم.[٥]

الأسلحة:

كان النبي ﷺ رغم قناعته وزهده يمتلك الأسلحة التالية في بيته للحاجة إليها في الجهاد، وهي تسعة سيوف، وهذه أسماؤها: المأثور، والعصب، وذو الفقار، والقلعي، والبتار، والحتف، والمخذم، والقاضية، وماثور.

ورث النبي ﷺ الماثور عن والده، وحمل النبي ﷺ ذا الفقار في غزوة بدر وكان سيف ذا مقبض فضي، أما السيف الذي حمله النبي ﷺ يوم فتح مكة فكان ذا مقبض ذهبي، وكان للنبي ﷺ سبعة دروع هي ذات الفضول، وذات الوشاح، وذات الحواشي، وسعدية، وفضة، وبتراء، والخزنق. وذات الفضول هو ذلك الدرع الذي كان النبي ﷺ قد رهنه لمدة

---

[١] صحيح مسلم، وسنن أبي داود، ذكر حجة الوداع.

[٢] وهذا نص الحديث:(٢٨٠٧) حدَّثنا مالكُ بنُ إسماعيلَ حدَّثنا زُهيرٌ عن حُميدٍ عن أنسَ رضي الله عنه قال: كان للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ناقةٌ تُسمَّى العَضْباءُ لا تُسبَقُ ــ قال حميد: أو لا تكاد تسبق ــ فجاءَ أعرابيٌّ على قعودٍ فسبقَها، فشقَّ ذلك على المسلمينَ حتى عرفَهُ فقال: «حقٌّ على اللهِ أن لا يرتَفعَ شيءٌ منَ الدُّنيا إلا وضعَه». (صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب ناقة النبي ﷺ) (المترجم).

[٣] كتاب الجهاد بغلة النبي ﷺ.

[٤] فتح الباري، ذكر غزوة حنين، جـ٨، صـ ٢٤.

[٥] باب غزوة حنين.

عام كامل عند يهودي على ثلاثين صاعاً.[1] وكانت هذه الدروع كلها من الحديد، علماً بأن العرب كانت تستخدم دروع الجلد أيضاً.

كما كان لديه ﷺ ستة أقواس هي زوراء، وروحا، وصفراء، وبيضاء، وشداد وكتوم الذي كان قد تكسر في غزوة أحد وأعطاه النبي ﷺ لقتادة. هذا فضلاً عن أنه ﷺ كان يمتلك جعبةً يقال لها الكافور، وحزام من جلد يضم ثلاث حلقات فضية. لكن ابن تيميه كتب أنه لم يتضح لي من أي حديث أن النبي ﷺ كان قد استعمل الحزام. وكان له ﷺ ترس يقال له زلوق. وخمسة رماح ومغفراً[2] حديدياً يقال له موشح. كما كان له مغفرٌ آخر يقال له سبوع. وكان ﷺ يمتلك ثلاث جبب كان ﷺ يرتديها ﷺ في الحرب ويقال إن إحداهن كانت من الحرير الأخضر. كما كان يمتلك راية سوداء يقال لها عقاب، وراية صفراء وأخرى بيضاء.

الآثار المباركة:

إضافة لما سبق ذكره كانت هناك بعض الأشياء التذكارية التي احتفظ الناس بها تبركاً. ففي حجة الوداع أعطى النبي شعره الشريف لأحبابه. وكان أبو طلحة الأنصاري[3] قد أخذ أكثره. كما كان عند أنس بن مالك بعضاً من شعره ﷺ إضافة لشيئين آخرين هما النعلين وقدح خشبي مكسور ملئوم بأسلاك فضية. وكان السيف ذو الفقار عند علي ثم ورثه أبناءه من بعده، وبعد استشهاد الإمام الحسين ؓ أخذه علي بن الحسين ؓ. ويُذكر أن بعض الصحابة كانوا قد عرضوا عليه أن يأخذوه خشية سرقته منه إلا أنه رفض ذلك.

وكانت الملابس التي توفى فيها النبي ﷺ عند السيدة عائشة،[4] أما الخاتم والعصا المباركة التي ورد ذكرها في الأحاديث فقد أعطيا للخلفاء لأبي بكر أولاً ثم لعمر ثم لعثمان ؓ. إلا أنهما ضاعا كلاهما في عهده. فقد سقط الخاتم من يد عثمان في بئر، وكسر

---

[1] صحيح البخاري، كتاب البيوع، وكتاب الرهن.

[2] ما يشبه الخوذة في زماننا. (المترجم).

[3] صحيح مسلم، حجة الوداع.

[4] صحيح البخاري، كتاب الطهارة.

جهجاه الغفاري العصا المباركة.[1] (أفرد البخاري باباً مستقلاً للحديث عن هذه الآثار المباركة).[2]

مسكنه الشريف:

توفى والد الحبيب محمد ﷺ وهو ما يزال صغيراً؛ لذا عاش في بيت جده ثم بيت عمه إلى أن بلغ رشده. ثم تزوج وهو في الخامسة والعشرين من عمره السيدة خديجة رضي الله عنها. وليس معلوم بطريقة قاطعة بأنه ﷺ عاش بعد زواجه في بيته الذي ورثه أم في بيت السيدة خديجة. على كل حال كان للنبي بيت ورثه في مكة. واستولى عليه عقيل – ابنَ عم رسول الله وشقيق علي– قبل أن يعتنق الإسلام؛ لذا حينما فتح رسول الله ﷺ مكة، سأله الناس: أين ستقيم يا رسول الله؟ هل ستقيم في بيتك ؟ فقال النبي ﷺ: وهل ترك لنا عقيلٌ مِن منزلٍ؟[3]

وبعد قدومه ﷺ المدينة المنورة أقام في بيت أبى أيوب الأنصاري لمدة ستة أشهر كان خلال تلك الفترة بمفرده، وكان أهله وأولاده بمكة. وحينما وضع النبي ﷺ أساس المسجد النبوي جهز بجانبه حجرات صغيرة ثم أرسل رسولاً إلى مكة فأحضر أهله وعياله ثم أنزلهم في تلك الحجرات.[4]

كان للنبي ﷺ في آخر أيامه تسع نسوة؛ كن يعشن كل في حجرة مستقلة، ولم يكن لتلك الحجرات فناء ولا أروقة ولا حُجيرات ملحقة بها. كما لم تزد سعة كل حجرة عن ستة أو سبعة اذرع تقريباً، وكانت جدرانها من الطين لذا كانت ضعيفة تملئها الشقوق وتخترقها أشعة الشمس. وكان سقفها مسقوفاً بالجريد وأوراق الشجر مغطى بأغطية من الصوف كي تحجب المطر. ولم يكن ارتفاع الحجرة شاهقاً بل كان الشخص يتمكن من أن يلمس السقف

---

[1] ورد ذكر هذه الآثار جميعها في صحيح البخاري، كتاب الخمس.

[2] ورد ذكر الخاتم في صحيح البخاري، كتاب اللباس، إضافة لذكره في كتاب الخمس. واخذ وصف العصى المباركة من فتح الباري جـ٦ صـ ١٤٨."سيد سليمان الندوي".

[3] البخاري، فتح مكة.وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (٤١٨٣) حدَّثنا سليمانُ بن عبدِ الرحمنِ حدَّثنا سَعدانُ بن يحيى حدَّثنا محمدُ بن أبي حفصةَ عنِ الزُّهريِّ عن عليِّ بن حسين عن عمرِو بن عثمانَ «عن أُسامَةَ بن زيد أنهُ قال زمنَ الفتح: يا رسولَ الله، أينَ ننزلُ غداً؟ قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: وهل ترك لنا عَقيلٌ مِن منزلٍ؟».(المترجم).

[4] ابن سعد.

بيده وهو واقف. وكان أمام أبواب الحجرات ستائر معلقة،[1] وكان النبي ﷺ يقضي في كل حجرة ليلة بالتناوب، أما النهار فغالباً ما كان يقضيه في مجلس أصحابه، وكان هذا المجلس يتوسط كل هذه الحجرات.

إضافة لهذه الحجرات، كانت هناك "مشربة" (غرفة علوية) ورد ذكرها في الأحاديث، أقام النبي ﷺ فيها شهراً حين آل ﷺ سنة ٩ هجرية وحين وقع من على الفرس وكُسر. وكانت هذه المشربة مفروشة، فكانت فيها حصيرة، ووسادة من الجلد محشوة بسعف النخيل وبعض الجلود معلقة هنا وهناك.[2]

ومع أن حجرات النبي ﷺ كانت مظهراً للنور الإلهي، إلا أنها كانت تخلو ليلاً من المَصابيح، [3] حيث أن النبي ﷺ لم يكن يهتم بالزخارف الدنيوية والظاهرية للبيت. يُروى أن السيدة عائشة غطت ذات مرة الجدران بقماشة مزخرفة، فغضب رسول الله ﷺ من ذلك، وقال: "إِنَّ الله لَمْ يَأْمُرْنَا فِيمَا رَزَقْنَا أَنْ نَكْسُوَ الْحِجَارَةَ وَاللَّبِنَ " [4]

وقد ظلت تلك الحجرات في قبضة أزواج النبي ﷺ بعد وفاته، وبعد ذلك حينما كانت تتوفى إحداهن تعطى الحجرة لأقاربها. علماً بأن معاوية كان قد اشترى أكثر هذه الحجرات إبان خلافته.[5]

وظلت هذه الحجرات على حالها حتى عهد عمر ﷺ، وفي عهد عثمان ﷺ هدمت بعضها وضمت إلى المسجد النبوي، إلا أن أكثرها ظل حتى عهد الوليد بن عبد الملك. وفي عام ٨٨هـ إبان خلافة عمر بن عبد العزيز هدمت كل هذه الحجرات وضمت لفناء المسجد

---

[1] ورد هذا تفصيلا في الأدب المفرد، البخاري، باب التطاول في البيان والبناء.

[2] أبو داود، باب إمامة القاعد.

[3] صحيح البخاري، صـ ٨٦٩ باب ما كان رسول الله ﷺ يتجوز من اللباس والبسط.وهذا نص الحديث: (٥٠٧) ـــ حدَّثنا عبدُ اللّهِ بنُ يوسُفَ قال: أخبرَنا مالكٌ عن أبي النَّضْرِ مَوْلَى عمرَ بنِ عُبيدِ اللّهِ عن أبي سَلَمةَ بنِ عبدِ الرحمنِ عن عائشةَ زوجِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنها قالت: «كنتُ أنامُ بينَ يَدَيْ رسولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم ورجلايَ في قِبلتهِ، فإذا سَجدَ غَمزَني فقَبَضتُ رِجليَّ فإذا قامَ بسَطتُهما. قالت: والبيوتُ يومَئذٍ ليس فيها مَصابيح». (المترجم).

[4] صحيح البخاري، جـ١، صـ ٧٣، باب التطوع خلف المرأة.

[5] أبو داود، جـ٢، كتاب اللباس، باب في الصور.

النبوي عدا حجرة السيدة عائشة لأن بها قبر الحبيب محمد ﷺ.وقد أثيرت ضجة كبيرة في أرجاء المدينة يوم هدمت هذه الحجرات لأن أثرا من آثار النبي ﷺ قد محى.[1]

الحاضنة:

كان لدى النبي ﷺ جارية حبشية تركها له والده، كان اسمها أم أيمن حاضنة النبي ﷺ[2]. ظلت على قيد الحياة حتى وفاته ﷺ. وكان النبي ﷺ دائما يناديها بقوله: يا أمه. وكان يقول حينما يراها: هذه بقية أهل بيتي. عتقها النبي ﷺ بعد أن تزوج السيدة خديجة وزوجها بمتبناه وحبيبه زيد ــ عبد السيدة خديجة ــ أنجبت أسامة بن زيد. والواقعة التي وردت في الكتب عن مزاح النبي ﷺ هي: أن امرأة جاءت النبي ﷺ وطلبت منه بعيرا. فأخبرها النبي ﷺ بأنه سيعطيها ابن البعير: فقالت المرأة: وماذا سأصنع بابن البعير. فأخبرها النبي ﷺ: بأن كل بعير ابن بعير.

ولقد اشتركت أم أيمن في أكثر الغزوات. فكانت تسقي الجنود وتداوي الجرحى في غزوة أحد واشتركت أيضاً في غزوة خيبر.[3]

الخدم:

كان بعض أحباب النبي ﷺ من الصحابة قد تركوا كل مشاغل الحياة وأوقفوا حياتهم لخدمة النبي ﷺ وأسماء هؤلاء الصحابة هي:

١- عبد الله بن مسعود الصحابي الشهيد الذي يعتبر المؤسس الأول للفقه الحنفي؛ لأن سلسلة فقه الإمام أبي حنيفة ترجع على رواياته واستنباطاته. جهر بالقرآن الكريم في مكة المكرمة في بداية بعثة النبي ﷺ. وحفظ عن النبي ﷺ سبعين سورة.

وكان ﷺ كاتم سر النبي ﷺ. حينما كان النبي ﷺ يخرج إلى سفر، كان ابن مسعود يتولى أمر منام ووضوء ومسواك النبي ﷺ، وكذا يلبسه النعل حينما كان يقوم من المجلس. ويتقدم النبي ﷺ في الطريق بعصاه. وحيثما ذهب رسول الله ﷺ وجلس كان

---

[1] ابن سعد، جزء أزواج النبي ﷺ.

[2] صحيح مسلم، باب رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم.

[3] أخذت كل هذه الوقائع من طبقات ابن سعد جـ٨ ذكر أم أيمن.

ﷺ يخلع نعله ثم يقدمه له وقت قيامه وانصرافه، رافق النبي ﷺ في خلوته وجلوته حتى أصبح نموذجاً لأخلاق وعادات النبي ﷺ.(١)

٢- بلال: المشهور بالمؤذن (كان عبداً حبشياً) أسلم في مكة. وقد مر في بداية هذا الكتاب ذكر الطريقة الحماسية التي أسلم بها. اشتراه أبو بكر الصديق، ثم اعتقه. ومنذ ذلك الحين وهو في خدمة النبي ﷺ. فكان متعهد الأمور المنزلية للنبي ﷺ. فكان يحضر الاحتياجات المنزلية من السوق، ويقترض ثم يرد القرض، ويهتم بخدمة الضيوف من مأكل ومشرب وخلافه.(٢)

٣- أنس بن مالك: كان أيضاً من خدم النبي ﷺ الخاص. وكان صبياً حينما قدم النبي ﷺ المدينة. فقدمت به أمه إلى النبي ﷺ وقالت: يا رسول الله ﷺ هذا ولدي أحضرته في خدمتك.(٣)

فخدم أنس النبي ﷺ عشر سنين. وكان يتولى بعض الأعمال الخفيفة كإحضار ماء الوضوء، والذهاب إلى الناس. ولأنه كان صغيراً، لم يكن قادراً على أداء بعض الأعمال إلا أن النبي ﷺ لم يحاسبه قط.(٤)

(١) ورد هذا تفصيلا في طبقات ابن سعد (وورد مجملا في صحيح البخاري، باب مناقب عبد الله بن مسعود).

(٢) أبو داود، جـ٢، صـ ٢٧، باب قبول هدايا المشركين.

(٣) صحيح مسلم، فضائل أنس.

(٤) [أبو] داود، كتاب الأدب.

شمائله ﷺ (حُليته ولباسه وطعامه ومزاجه)

حُلية النبي ﷺ:

كان النبي ﷺ متوسط القامة متناسق البدن، أشقر اللون، ذا جبهة عريضة كثيف الحواجب. تميل أنفه على الطول، نحيف الوجه؛ أي أن وجهه لم يكن ممتلأ، وكان واسع الفم متباعدة أسنانه، طويلة رقبته، كبيرة رأسه، واسع صدره، وسطاً شعر رأسه؛ أي ليس بناعم ولا متجعد. كثيف ذقنه، متفتح وجهه. سود عيناه، طويلة جفونه، ممتلئ الكتف، متيز العواتق، يغطي شعرٌ خفيفٌ ما بين صدره الشريف وسرته. ويكسو الشعر كتفه وساعديه. لحيمة كفتا يديه. طويلة سواعد يديه. ناعمة أعقاب رجليه، فارغة أخماص قدميه من المنتصف حيث كان الماء يخرج من أسفلها.[١]

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتأثرون بحسن وجمال محمد ﷺ، فحينما رأى عبد الله بن سلام وجه النبي ﷺ أول مرة قبل أن يسلم عليه قال: تالله إنه ليس وجه كاذب.[٢] وسأل شخص الصحابي الجليل جابر بن سمرة قائلاً: أكان وجه النبي يبرق كالسيف. فقال له: لا بل كان يبرق كالشمس والقمر. ويروى هذا الصحابي فيقول: ذات ليلة كان الجو صافياً والقمر ساطعاً وكنت أنظر على النبي ﷺ أحياناً وأحياناً أنظر للقمر. فكان وجه النبي ﷺ أجمل من القمر.[٣] ويقول البراء الصحابي الجليل: ما رأيت أحداً أجمل من النبي ﷺ في حلة حمراء.[٤]

وكان لعرق النبي ﷺ رائحة زكية،[٥] وكان العرق يتساقط من وجهه كالدرر.[١] وكان جلد جسمه رقيقا للغاية، يقول أنس: كان لون النبي ﷺ ناصعاً للغاية. وكان عرقه

---

[١] وردت هذه الصفات بالتفصيل في شمائل الترمذي ومسند ابن حنبل جـ١ صـ ١١٦ - ١١٧ وبإيجاز في البخاري ومسلم باب صفة النبي.

[٢] الترمذي، أبواب الزهد، صـ ٤٠٩.

[٣] المشكاة، باب صفة النبي ﷺ نقلاً عن صحيح مسلم. (المشكاة الباب المذكور نقلاً عن الترمذي والدارمي)."سيد سليمان الندوي"

[٤] صحيح مسلم، باب صفة النبي ﷺ.

[٥] المرجع السابق.

كالدرر وما رأيت ديباجاً ولا حريراً أنعم من جلد النبي ﷺ. وما كان المسك والعنبر أكثر طيباً من بدنه ﷺ.[٢]

وشاع أن النبي ﷺ لم يكن له ظل. لكن لا يوجد أي سند يؤيد هذا.

خاتم النبوة:

كان خاتم النبوة كبيضة حمامة بين كتفي النبي ﷺ، فكان يبدو كغدة حمراء بارزة، روى في صحيح مسلم وشمائل الترمذي عن جابر بن سمرة أنه قال: **رأيت الخاتم بين كتفي رسول الله ﷺ غدّة حمراء مثل بيضة الحمامة.**

ولكن يبدو من رواية أخرى أن الخاتم كان عبارة عن حبيبات لحم مكونة شكلاً مستديراً عند الكتف الأيمن. وهذا ما يعرف بختم النبوة.[٣] لكن ثبت من تطابق صحيح الروايات أن خاتم النبوة كان عبارة عن قطعة لحم بارزة قليلاً بين الكتفين. وكان عليها حسنة ونابت عليها شعر.

شعره المبارك:

كان شعر النبي ﷺ يُسدل حتى كتفيه. ففي فتح مكة رأى الناس أربعة ذوائب متدلية على كتفه ﷺ. وكان مشركي العرب يفرقون الشعر. أما النبي ﷺ فلأنه كان يحب موافقة أهل الكتاب بدلاً من المشركين فكان يترك شعره في البداية قصيراً كأهل الكتاب ثم بدأ يفرقه بعد ذلك، وهذا ما ورد في شمائل الترمذي. ويتضح من ذلك أنه حينما لم يكن للمشركين وجود، كان احتمال مشابهتهم قائمًا. ثم أخذ النبي ﷺ بعد ذلك يفرق.

(وكثيراً ما كان النبي ﷺ يضع زيتاً على شعره، ويفرقه يوما، وكانت في لحيته بعض شُعيرات بيض)

---

(١) البخاري، واقعة الإفك.

(٢) المشكاة، باب صفة النبي ﷺ نقلاً عن البخاري ومسلم.

(٣) صحيح مسلم (باب إثبات النبوة) واشتهر أن خاتم النبوة كان مكتوباً عليه كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله بطريقة فطرية. ولكن هذا الكلام ليس له سند ولا ثبوت له بأي حديث. حتى أن المحدثين صرحوا إن بعض هذه الروايات ضعيفة وباطلة، فيقول ابن حجر: لم يثبت منها شيء .الزرقاني: المواهب جـ١ صـ ١٨٤ لكن كلمة التوحيد كانت مكتوبة على الخاتم الذي كان النبيﷺ يلبسه لثبته على الرسائل. فنسب الناس ذلك لخاتم النبوة خطأ.

كان النبي ﷺ سريع المشي، فحينما كان يمشي يبدو وكأنه يطــوي الأرض. وفـي روايات ضعيفة ذكر أن النبي ﷺ لم يكن له ظل. أي لم يكن لجسده الشــريف ظــل علــى الأرض، إلا أن هذه الرواية غير مأخوذ وغير معتد بها عند المحدثين.

كلامه وتبسمه:

كان حديث النبي ﷺ غاية في الحلاوة وخلاباً، وكان صــلوات الله وســلامه عليــه يتريث في حديثه لذا كانت كل فقرة من فقرات حديثه تخرج مستقلة يتذكرها السامع دائمــا، وكانت عادته ﷺ أن يكرر المقولة الواحدة ثلاث مرات، ويعيد أو يكرر ما يريد التأكيد عليه. وغالباً ما كان ينظر ناحية السماء وهو يتحدث، وكان صوته جهوراً، لذا رُوى عن أم هانئ: أن النبيﷺ كان يقرأ القرآن في الكعبة وكنا نسمع تلاوته ونحن متكئين على الأســرة فــي بيوتنا.[١]

كان للسيدة خديجة ولد من زوجها الأول يدعى هند. وكان ماهراً في الخطابة حيث إنه كان يصور ما يحكى عنه. ذات مرة سأله الإمام الحسين: كيف كان يخطب رســول الله ﷺ؟ فأجابه بقوله: كان ﷺ متفكراً دائماً وصامت لا يتكلم بلا داعٍ، كانت كل فقرة من حديثه الشريف مفصلة واضحة، حينما كان يشير بيده يرفع يده كاملة. وإن تعجب على أمر يقلب كف يده. وأحياناً كان يضرب كفاً على كف أثناء الخطاب، وينظر أسفل إن سُر وهو يتكلم، وكان ﷺ قليل الضحك. إن فرح تبسم فكان تبسمه ضحكة.[٢] ويقول جرير بن عبــد الله: إن رسول الله ﷺ ما رآني قط إلا وابتسم. وورد في بعض الروايات أن نواجذه ﷺ كانت تبــدو إذا زاد ضحكه، لكن ابن القيم وغيره قالوا إن هذا مبالغة، وإلا فما ضــحك رســول الله ﷺ لدرجة أن تبدو نواجذه.

لباسه:

(لم يلتزم النبي ﷺ بأي شيء معين في الملبس. كانت الجبة والقميص والإزار هــي الملبوسات الأكثر استعمالاً للنبي ﷺ. وما لبس رسول الله ﷺ البيجامة قط. مــع أن الإمــام أحمد وأصحاب السنن الأربعة قد ذكروا أنه ﷺ كان قد اشترى بيجامة من سوق منى. يقول الحافظ ابن القيم أنه يقاس من هذا أن النبي ﷺ ربما يكون قد استعملها. ولقد استعمل رسول الله ﷺ الجوارب السود التي أرسلها له النجاشي مع أن استعمالها لم يكــن رائجــاً آنــذاك.

---

[١] ابن ماجه، باب ما جاء في القرآن في صلاة الليل.

[٢] شمائل الترمذي.

ويتضح من ظاهر الرواية أنها كانت جلداً. وفي بعض الأحيان كان النبي يضع العمامة على عاتقه وأحياناً أخرى على كتفيه وأحياناً يلفها على رقبته. وغالباً ما كانت العمامة سوداء، تحتها طاقية رأس. وما استعمل رسول الله الطربوش. أما الطاقية فكانت شيئاً أساسيا تحت العمامة لذا كان رسول الله ﷺ يقول: فَرْقُ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ الْعَمَائِمُ عَلَى الْقَلاَنِسِ».[١]

الجُبة:

كانت الجبب أحب الملبوسات للنبي ﷺ.[٢] ويطلق عليها في العربية "جبة"

العباءة:

ولقد استعمل رسول الله ﷺ عباءة الشام في بعض الأحيان، وقد كانت أكمامها ضيقة لدرجة أن النبي ﷺ إذا أراد أن يتوضأ لم يستطع أن يشمر لذا كان يضطر لإخراج يده من الأكمام. استعمل النبي ﷺ العباءة النوشيروانية التي يغطى جيبها وأكمامها سجاف حريري.

البردة:

حين توفى رسول الله ﷺ أخرجت السيدة عائشة رضي الله عنها بردة مرقعة وإزاراً من صوف وقالت هذان ما توفى فيهما رسول الله ﷺ.

الحلة الحمراء:

ورد في الروايات أن النبي ﷺ استعمل كذلك حلة حمراء. وقد سماها المحدثون بهذا الاسم لأن لونها كان أحمر. لكن ابن القيم قال بإصرار أن النبي ﷺ لم يلبس قط لباساً أحمر، كما أنه لم يجز لبسه للرجال. والحلة الحمراء إحدى جبب اليمن تكون بها خطوط حمراء لذا سميت حمراء. وهي ما كان النبي ﷺ يستعملها أحياناً، ولكن عامة المحدثين يقولون إنه لا دليل على هذا التخصيص ــ وورد هذا الأمر تفصيلاً في الزرقاني ــ ويثبت من مختلف الروايات أن النبي ﷺ لبس كل الألوان بما فيها الأسود والأحمر والأزرق والزعفراني إلا أن اللون الأبيض كان أحبها إليه ﷺ.[٣] (كما استعمل النبي ﷺ في بعض الأحيان نوعاً من

---

(١) أبو داود، كتاب اللباس.وهذا نص الحديث: (٤٠٧٨) حدثنا قُتَيْبَةُ بنُ سَعِيد الثَّقفِيُّ أخبرنا مُحمَّدُ بنُ رَبِيْعَةَ أخبرنا أبُو الْحَسَنِ الْعَسْقَلاَنِيُّ عن أبِي جَعْفَرِ بن مُحمَّدِ بنِ عليِّ بنِ رُكَانَةَ عن أبِيه،:«أنَّ رُكَانَةَ صَارَعَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فصَرَعَهُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم قالَ رُكَانَةُ: وَسَمِعْتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: فَرْقُ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ المُشْرِكِينَ الْعَمَائِمُ عَلَى الْقَلاَنِسِ».(المترجم).

(٢) صحيح البخاري، باب اللباس.

(٣) أبو داود، جـ ٢، كتاب اللباس، ومسند ابن حنبل صـ ٢٤٧.

الحلى مرسوم عليه شكل (صورة) رُحّل.[1] أما نعله ﷺ فكان عبارة عن حذاء فيه أربطة وفرشه من جلد وفيه أوراق جريد بدلاً من القطن. أما سريره ﷺ فكان مصنوعاً من البان لذا كان كثيراً ما يسلخ جسد النبي ﷺ.

الختم:

حينما أراد رسول الله ﷺ أن يراسل النجاشي وقيصر الروم قال له الناس يا رسول الله إن السلاطين لا تقبل رسائل دون ختم، ومن ثم صنع النبي ﷺ خاتماً مكتوباً عليه محمد رسول الله. روى عن بعض الصحابة أن رسول الله ﷺ ما كان يستعمله إلا وقت ثبته على الرسائل، فكان يلبسه في إصبع اليد اليمنى.

المغفر والدرع:

كذلك كان رسول الله يلبس الخوزة والدرع في حالة الحرب. فلبس ﷺ درعين في غزوة أحد. وكانت قبضة سيفه من الفضة.

الطعام وطريقة تناوله:

بسبب إيثاره وقناعته لم يتيسر للنبي ﷺ طعام شهي أو غال أبداً، لدرجة أنه (كما روي في صحيح البخاري كتاب الأطعمة) لم يرى طيلة حياته أفضل أنواع الخبز، لكنه كان يحب بعض الأطعمة حباً كثيراً.

الأطعمة المحببة:

كان رسول الله ﷺ يحب الخل والشهد والحلوى وزيت الزيتون والقرع كثيراً. إن كان طعامه قرعاً فيكون قطعاً في كأس يتناوله بيده. ذهب رسول الله ذات مرة إلى بيت أم هانئ وسألها عن طعام؟ قالت: خل. فأخبر ﷺ: بأن البيت الذي فيه خل لا يقال عنه بيت مفلس. كما كان رسول الله ﷺ يحب أحد الأطعمة العربية التي تسمى "حيس" وهو عبارة عن جبن وتمر مطبوخ في السمن.

ذات مرة ذهب الحسين وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما إلى أم سلمى وقالا لها أطعمينا الطعام الذي كان رسول الله ﷺ يحبه. فقالت: فماذا تحبون إذن؟ قالوا ما كان يحب رسول الله. فطحنت دقيق شعير ثم وضعته في القدر وخبزته بعد ما وضعت عليه زيت زيتون وكمون وفلفل أسود ثم قدمته لهما وقالت: هذا ما كان يحب رسول الله ﷺ.

---

[1] أبو داود، جـ٢، كتاب اللباس، لبس الصوف والشعر.

ومن اللحوم كان رسول الله ﷺ يأكل لحم الخراف والدجاج والسمان والإبل والماعز والغنم والظباء والأرانب والسمك. وكان ﷺ يحب لحم الكتف كثيـراً، روىَ فـي شـمائل الترمذي عن السيدة عائشة أن لحم الكتف في حد ذاته لم يكن محبباً للنبي ﷺ. إنما يكمن هذا الأمر في أن النبي ﷺ لم يكن يتيسر له اللحم لأيام عديدة. لذا حينما كان يتوفر لحـم كـان النبيَ ﷺ يريد أن يطهى بسرعة ومعروف أن لحم الكتف هو أسرع ما يطيب مـن اللحـم. ومن ثم كان رسول الله ﷺ يطلبه. وثبت من روايات كثيرة أن هذا هو سبب حب النبـي ﷺ لهذا اللحم.

وفي عرس السيدة صفية لم يكن على طعام الوليمة سوى تمر وشعير. فكان رسول الله ﷺ يأكل بطيخاً مع تمر. كما كان رسول الله ﷺ يحب الفاقوس (القثة). ذات مرة قـدمت له ابنة معوذ بن عفراء تمراً وشرائح فاقوس (فكان ﷺ يتناول في بعـض الأحيـان التمـر بالخبز أيضاً).

الماء واللبن والمشروبات:

كان رسول الله ﷺ يحب الماء البارد كثيرًا، وأحياناً كان يشـرب اللـبن خالصـاً، وأحياناً يخلطه بالماء. وكان يبلل الزبيب والتمر والعنب في الماء ثم يتناولهم بعد ذلك. ومن آنية الطعام كان عنده ﷺ قدح خشبي مربوط بأسلاك حديدية، وقد ورد في الرواية ما يقاس منه أنه ربما يكون قد كُسر، لذا لُئم بأسلاك.

سنن طعامه:

كان رسول الله ﷺ إذا وضع له طعام لا يحبه لا يضع يده فيه ولا يعيبه، وإذا وضع له طعام ووضع يده فيه فكان يأكل مما يليه ويأمر غيره أن يأكلوا مما يليهم. وكان لا يضع الطعام على مسند أو أريكة وقت الطعام. وكان ينفر من ذلك لذا لم يأكل علـى منضـدة أو مائدة إطلاقا. ولقد كان العجم يضعون الطعام على مائدة مرتفعة بعض الشيء عن الأرض. فكانت هذه سمة للفخر والمباهاة عندهم. حيث إن هـذه العـادة كانـت خاصـة بـالأمراء والأغنياء. ولهذا السبب كان رسول الله ﷺ لا يحب هذا. كما أنه ﷺ كان يأكل بأصـابعه [١] وأحياناً يقطع اللحم بالسكين ثم يأكله. ووردت هذه الرواية في صحيح البخـاري.[٢] وورد حديث في سنن أبي داود ينص على أنه ﷺ قال: «لاَ تَقْطَعُوا اللَّحْمَ بالسِّكِينِ فإنَّهُ مِنْ صَـنِيعِ

---

[١] نقلت أكثر المعلومات المتعلقة بالطعام من شمائل الترمذي ومن زاد المعاد لابن القيم.

[٢] كتاب الأطعمة، باب القطع بالسكين.

الأعَاجِمِ وَانْهَشُوهُ فإنَّهُ أَهْنَأُ وَأَمْرَأُ». إلا أن أبا داود نفسه ذهب إلى ضعف هذا الحديث[١]. لأن راويه هو أبو معشر نجيح الذي كتب عنه البخاري بأنه منكر الحديث وأن هذا الحديث أيضاً من بين منكراته.[٢]

حُسن الملبس:

مع أن النبي ﷺ كان لا يحب التكلف والمباهاة إلا أنه كان يلبس ملابس باهية نفيسة، ويذكر أن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما لبس من أغلى ملبوسات اليمن حينما ذهب إلى الخوارج كسفير. فقالت الخوارج: ما هذا اللباس يا ابن عباس؟ قال تعترضون عليه وقد رأيت رسول الله في أبهى وأفخم الملابس.[٣]

كان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما غاية في التقشف، في ذات مرة اشترى حلّة شامية من السوق وحينما عاد بها إلى البيت وجد فيها خطوطاً حمراء فرجع إلى السوق وأعادها. فقص شخص هذه الواقعة للسيدة أسماء (أخت السيدة عائشة) فأحضرت جبة رسول الله ﷺ التي على جيوبها وأكمامها وذيلها سجاف [٤] من حرير وأرتها الناس. (وكان رسول الله ﷺ قد لبس بعض الأحيان ملابس غالية فخمة أهداها له بعض الأمراء والسلاطين).

اللون المحبب:

كان اللون الأصفر أحب الألوان لرسول الله ﷺ. فقد ورد في الأحاديث أنه ﷺ كان يلبس ملابسه كلها بما فيها العمامة من هذا اللون أحياناً.[٥] (كما كان يحب اللون الأبيض كثيراً ويقول عنه إنه أفضل الألوان).

---

[١] وهذا نص الحديث كما ورد في سنن أبي داود: (٣٧٧٨) حدثنا سَعِيدُ بنُ مَنْصُورٍ قال أخبرنا أبُو مَعْشَرٍ عن هِشَامِ بنِ عُرْوَةَ عن أبِيهِ عن عَائِشَةَ، قالَتْ: قَال رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «لاَ تَقْطَعُوا اللَّحْمَ بالسِّكِّينِ فإنَّهُ مِنْ صَنِيعِ الأعَاجِمِ وَانْهَشُوهُ فإنَّهُ أهْنَأُ وَأمْرَأُ» . قَالَ أبُو دَاوُدَ: وَلَيْس هُوَ بالْقَوِيِّ.(المترجم).

[٢] القسطلاني، شرح صحيح البخاري، صـ ٢٥٢، مصر.

[٣] أبو داود، كتاب اللباس

[٤] أبو داود، باب الرخصة في العلم وخط الحرير.

[٥] أبو داود، باب في الحمرة

ن الغير محبب:

كان ﷺ لا يحب الملابس الحمراء، فذات مرة جاء عبد الله بن عمرو مرتدياً ملابس حمراء. فقال ﷺ: مَا هٰذِهِ الرَّيْطَةُ عَلَيْكَ؟ فانصرف عبد الله وأحرقها. فلما سمع بذلك النبي ﷺ قال له: ألاَ كَسَوْتَهَا بَعْضَ أهْلِكَ فإنَّهُ لا بَأْس بِهِ لِلنِّسَاءِ».[١]

كان لدى العرب مادة اللون الأحمر يسمونها "مغرة" وكانوا يلونون منها الملابس، فكان رسول الله ﷺ لا يحب هذا اللون إطلاقاً، وفي ذات مرة كانت السيدة زينب تلون الملابس بهذا اللون، فحين جاء رسول الله ﷺ البيت ورأى ذلك انصرف. ففهمت السيدة زينب سبب ذلك، لذا غسلت الأقمشة. وحينما عاد النبي ﷺ ثانية لم يدخل البيت إلا حينما تيقن من عدم وجود أثر لهذا اللون.[٢]

ذات يوم قدم رجل بملابس حمراء وسلم على النبي ﷺ، فلم يرد النبي سلامه، ومرة وضع صحابي أردية حمراء على راحلة ركوب، فقال له النبي: ألاَ أرَى هذهِ الْحُمْـرَةَ قَـدْ عَلَتْكُم،. فأسرع الصحابي ونزع الأردية ورمى بها على الفور.[٣]

---

[١] أبو داود، باب في الحمرة.وهذا نص الحديث: (٤٠٦٦) حدثنا مُسَدَّدٌ أخبرنا عِيسَى بنُ يُونُسَ أخبرنا هِشَامُ بنُ الْغَازِ عن عَمْرِو بنِ شُعَيْبٍ عن أبِيهِ عن جَدِّهِ، قال: «هَبَطْنَا مَعَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم مِنْ ثَنِيَّةٍ فالْتَفَتَ إلَيَّ وَعَلَيَّ رَيْطَةٌ مُضَرَّجَةٌ بالْعُصْفَرِ فقال مَا هٰذِهِ الرَّيْطَةُ عَلَيْكَ؟ فَعَرَفْتُ مَا كَرِهَ، فأتَيْتُ أهْلِي وَهُمْ يَسْجُرُونَ تَنُّوراً لَهُمْ فَقَذَفْتُهَا فيهِ ثُمَّ أتَيْتُهُ مِنَ الْغَدِ، فقال: يَا عَبْدَ الله مَا فَعَلَتَ الرَّيْطَةَ، فأخْبَرْتُهُ، فقال: ألاَ كَسَوْتَهَا بَعْضَ أهْلِكَ فإنَّهُ لا بَأْس بِهِ لِلنِّسَاءِ».(المترجم).

[٢] أبو داود.وهذا نص الحديث كما ورد في سنن أبي داود: (٤٠٧١) حدثنا ابنُ عَوْفٍ الصَّائيُّ أخبرنا مُحَمَّدُ بنُ إسْمَاعِيلَ حدَّثَني أبِي قالَ ابنُ عَوْفٍ الطَّائيُّ، وَقَرَأْتُ في أصْلِ إسْمَاعِيلَ قالَ حدَّثَني ضَمْضَمٌ ــ يَعني ابنَ زُرْعَةَ ــ عن شُرَيْحِ بنِ عُبَيْدٍ عن حَبِيبِ بنِ عُبَيْدٍ عن حُرَيْثِ بنِ الأبَجِّ السَّلِيحِيِّ، أنَّ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أسَدٍ قالَتْ: «كُنْتُ يَوْماً عِنْدَ زَيْنَبَ امْرَأةِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وَنَحْنُ نَصْبُغُ ثِيَاباً لَها بِمَغْرَةٍ، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم، فلَمَّا رَأى المَغْرَةَ رَجَعَ، فلَمَّا رَأَتْ ذَلِكَ زَيْنَبُ عَلِمَتْ أنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قَدْ كَرِهَ مَا فَعَلَتْ، فأخَذَتْ فَغَسَلَتْ ثِيَابَهَا وَوَارَتْ كُلَّ حُمْرَةٍ، ثُمَّ إنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم رَجَعَ فاطَّلَعَ، فلَمَّا لَمْ يَرَ شَيْئاً دَخَلَ».(المترجم).

[٣] وردت هذه الروايات كلها في أبي داود كتاب اللباس.وهذا نص الحديث: (٤٠٧٠) حدثنا محمَّدُ بنُ الْعَلاَءِ أخبرنا أبُو أسَامَةَ عن الْوَلِيدِ ــ يَعني ابنَ كَثِيرٍ ــ عن مُحمَّدِ بنِ عَمْرِو بنِ عَطَاءٍ عن رَجُلٍ مِنْ بَنِي حَارِثَةَ عن رَافِعِ بنِ خَدِيجٍ، قال: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم في سفرٍ فَرَأَى رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم عَلَى رَوَاحِلِنَا وَعَلَى إبِلِنَا أكْسِيَةً فِيهَا خُيُوطُ عِهْنٍ حُمْرٌ، فقال رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم:

التطيب:

كان رسول الله ﷺ يحب الطيب ولم يرد أي طيب أهدى إليه. كما كان يداوم على استعمال نوع معين من الطيب يسمى "سكة". يقول الصحابة ما مر رسول الله ﷺ بحارة ولا منعطف إلا وطاب. وكان النبي ﷺ يقول: «طِيبُ الرِّجَالِ مَا ظَهَرَ رِيحُهُ وَخَفِيَ لَوْنَهُ وَطِيبُ النِّسَاءِ مَا ظَهَرَ لَوْنُهُ وَخَفِيَ رِيحُهُ».(١)

حبه للنظافة والطهارة:

كانت النظافة جبلة في رسول الله ﷺ. في ذات مرة رأى رجلاً لابساً ملابس متسخة فقال له: أَمَا كَانَ هذَا يَجِدُ مَا يَغْسِلُ بِهِ ثَوْبَهُ.(٢) وفي ذات مرة جاءه رجل يرتدي ملابس رثة فقال له: أَلَكَ مَالٌ؟. قال: نَعَمْ. قال ﷺ: فإِذَا أَتَاكَ الله مَالاً فَلْيُرَ أَثْرُ نِعْمَةِ الله عَلَيْكَ وَكَرَامَتِهِ».(٣). ولم تكن العرب على دراية بالحضارة ولا التمدن، كانوا يأتون المسجد فيبصقون في الصلاة على الجدران أو على الأرض أمامهم. فكان ﷺ يكره هذا كثيراً ويغضب منه لدرجة يحمر منها وجهه. وكان يزيل آثار هذا البصاق من على الجدران بسن السكين، وذات مرة رأى بصاقاً كثيراً على الجدران فغضب غضباً شديداً وأحمر وجهه، لذا امتدح النبي ﷺ امرأة أنصارية وسُر منها حينما أزالت بصاقاً وطيبت مكانه.(٤)

أحياناً كانت تُشعل أعواد الطيب في مجلسه ﷺ كأعواد الباخور والكافور،(٥) وفي ذات مرة سألت امرأة السيدة عائشة عن الخضاب. فقالت لها السيدة عائشة: لا حرج في ذلك لكني لا أحبه لأن حبيبي ﷺ لا يحب رائحة الحنا.(٦) وكان النبي ﷺ يكثر من استعمال المسك والعنبر.

أَلاَ أَرَى هذِهِ الْحُمْرَةَ قَدْ عَلَتْكُم، فَقُمْنَا سِرَاعاً لِقَوْلِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم حَتَّى نَفَرَ بَعْضُ إِبِلِنَا، فَأَخَذْنَا الأَكْسِيَةَ فَنَزَعْنَاهَا عَنْهَا». (المترجم).

(١) شمائل الترمذي.وهذا نص الحديث: (٢٨٦٤) حدثنا مَحمُودُ بنُ غَيْلاَنَ، حدثنا أَبُو دَاوُدَ الْحَفْرِيُّ، عن سُفْيَانَ عن الْجُرَيْرِيِّ، عن أَبِي نَضْرَةَ عن رَجُلٍ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله «طِيبُ الرِّجَالِ مَا ظَهَرَ رِيحُهُ وَخَفِيَ لَوْنَهُ وَطِيبُ النِّسَاءِ مَا ظَهَرَ لَوْنُهُ وَخَفِيَ رِيحُهُ» (المترجم).

(٢) أبو داود، كتاب اللباس، باب ما جاء في غسل الثوب.

(٣) أبو داود، كتاب اللباس.

(٤) النسائي، كتاب المساجد.

(٥) النسائي صـ ٧٦٤ طباعة نظامي باب البخور.

(٦) النسائي صـ ٧٥٩ باب كراهية ريح الحنا.

ومرة رأى النبيﷺ شعر رجل غير ممشط فقال له:أمَا كَانَ هٰذَا يَجِدُ مَا يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ،.[١] وفي ذات مرة تغطى رجل بغطاء من صوف، فعرق ثم كشفه بعد ذلك[٢]. وقدم الناس المسجد النبوي ذات يوم، ولأن المسجد كان ضيقاً، وكان الناس يأتون إليه بملابس العمل المتسخة ويطمهم العرق؛ لذا كانت الرائحة تفوح في كل أرجاء المسجد. فقال النبي ﷺ: «إِذَا جاء أَحَدُكُم الجمعةَ فلْيَغتَسِلْ».[٣]. ومنذ ذاك الحين أصبح الغسل يوم الجمعة حكماً شرعياً.

كان المسجد النبوي يُكنس بانتظام. فقد كانت أم محجن تقوم على كنسه، روى ابن ماجه أن النبي ﷺ أمر بعدم دخول الأطفال والمجانين المسجد، وألا يباع فيه ولا يشترى، وأن تُشعل فيها أعواد الطيب يوم الجمعة. ولقد اهتم النبي ﷺ بهذا الأمر وأكد عليه، لأن العرب لم تكن تعرف النظافة ولا النفاسة.

كان قضاء الحاجة في الطريق عادة عند العرب وعند البدو أيضاً حتى اليوم، وكان النبي ﷺ يكره التبول والتبرز في الطرقات كرهاً جماً وينهى عن هذه العادة. وهناك أحاديث كثيرة تدل على أنه ﷺ لعن قاضي الحاجة في الطريق أو في ظل شجرة. كما أن الأمراء كانوا معتادين على قضاء حاجتهم في أوعية بسبب كهولتهم. لكن النبي ﷺ نهى عن هذا أيضاً.[٤]

ولم تكن العرب تتهم بالاستنجاء بعد التبول أو حفظ الملابس منه، لذا قال النبي ﷺ وهو سائر ذات مرة في الطريق بعد ما رأى قبرين: أَمَّا هَذَا فَكَانَ لا يستَنْزِهُ مِنَ الْبَوْلِ.[٥]

ذات مرة جاء رسول الله ﷺ المسجد وكانت على جدرانه قاذورات، وكان بيده الشريفة جريدة نخل فأزال بها القاذورات ثم قال للناس بغضب: أيحب أحدكم إذا كان في

---

[١] أبو داود كتاب اللباس.

[٢] المرجع السابق.

[٣] وردت أحاديث عديدة عن هذا الموضوع في صحيح البخاري (غسل الجمعة) بعبارات مختلفة.

[٤] الترغيب والترهيب، كتاب الطهارة.

[٥] صحيح البخاري، عذاب القبر.وهذا نص رواية أبي داود: (٢٠) حدثنا زُهَيْرُ بنُ حَرْبٍ وَ هَنَّادُ بنُ السَّرِيِّ قالا حدثنا وَكِيعٌ حدثنا الأعمَشُ قال سَمِعْتُ مُجَاهِداً يُحَدِّثُ عن طَاوُسٍ عن ابنِ عَبَّاسٍ، قال: مَرَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَلَى قَبْرَيْنِ فَقَالَ: «إنَّهُما يُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ في كَبِيرٍ أَمَّا هَذَا فَكَانَ لا يستَنْزِهُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا هَذَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، ثُمَّ دَعَا بِعَسِيبٍ رَطْبٍ فَشَقَّهُ باثْنَيْنِ، ثُمَّ غَرَسَ عَلَى هَذَا وَاحِداً وَعَلَى هَذَا وَاحِداً وقال: لَعَلَّهُ يُخفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا» قال هَنَّادٌ: يَسْتَتِرُ مكانَ يَسْتَنْزِهُ (المترجم).

صلاته أن يتنخع في وجهه؟ أو يبزق في وجهه، إذا كان أحدكم في صلاته فلا يبزقن بين يديه ولا عن يمينه، ولكن عن يساره تحت قدمه فإن لم يجد قال: بثوبه هكذا».(١)

وفي ذات مرة بصق صحابي في الصلاة (كان هو نفسه الإمام)، فلما رآه رسول الله ﷺ فأمر بألاّ يؤُم هذا الرجل بعد ذلك. فجاء الصحابي النبي ﷺ وقال له: لما يا رسول الله ﷺ؟ فأخبره ﷺ لأنه آذي الله ورسوله.(٢)

وكان النبي ينفر من الأشياء المسببة للروائح كالبصل والثوم والفجل؛ لذا أمر النبيﷺ ألا يأكل الناس هذه الأشياء قُبيل قدومهم المسجد. وفي حديث البخاري: « من أكل ثوما أو بصلاً فليعتزلنا، أو ليعتزل مسجدنا وليقعد في بيته».(٣) وفي زمن خلافته قال عمر رضي الله عنه في إحدى خطبه: أيها الناس إنكم لتأكلون البصل والثوم وتأتون المسجد، ولقد رأيت رسول الله ﷺ يحكم على من يأكل هذه الأشياء ويأتي المسجد أن يُخرج ويرمى به في البقيع.(٤)

رُكوبه:

كان رسول الله يحب ركوب الخيل كثيرا، لذا كان يقول: **الخيل معقود بنواصيها الخير**".(٥) ولقد ركب النبي ﷺ فضلاً عن الخيل، الحمير والبغال والجمال. وكان اسم فرسه

---

(١) الترغيب والترهيب.وهذا نص الحديث كما ورد في مسند الإمام أحمد: (٩٢٥٥) حدّثنا عبد الله، حدّثني أبي، حدثنا عفان قال: حدثنا شعبة، قال: قاسم بن مهران أخبرنيه قال: سمعت أبا رافع، يحدّث، عن أبي هريرة«أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى نخامة في القبلة ــ قال: كان يقول مرة: فحتها ــ قال: ثما قال: قمت فحتيتها ثم قال: أيحب أحدكم إذا كان في صلاته أن يتنخع في وجهه؟ أو يبزقَ في وجهه، إذا كان أحدكم في صلاته فلا يبزقن بين يديه ولا عن يمينه، ولكن عن يساره تحت قدمه فإن لم يجد قال: بثوبه هكذا». (المترجم).

(٢) المرجع السابق، باب البصاق في المسجد.

(٣) وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح ابن خزيمة: (١٦٦٠) أنا أبو طاهر نا أبو بكر نا محمد ابن عزيز أن سلامة ابن روح حدثهم حدثني عقيل وقال ابن شهاب حدثني عطاء ابن رباح أن جابر ابن عبد الله زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:« من أكل ثوما أو بصلاً فليعتزلنا، أو ليعتزل مسجدنا وليقعد في بيته» (المترجم).

(٤) مسلم والنسائي وابن ماجه.

(٥) النسائي، صـ ٥٦٧، باب حب الخيل.

الخاص به ﷺ، لحيف. واسم حمارته عفير، واسم بغلته دلدل، واسم ناقته القصواء والعضباء.

سباق الخيل:

كان على مشارف المدينة ميدان يمتد من حصباء حتى ثنية الوداع على طول ستة أميال تدرب فيه الخيل على السباق. وكانت طريقة إعداد الخيول للسباق تتم كالتالي:

أولاً تُعلف الخيول (أعلافاً) حتى تتمن، ثم تقلل أعلافها بعد ذلك، ثم تربط في البيوت وتُلبس اسرجه فتعرق ثم تجف. وتتواصل هذه الطريقة بصفة يومية حتى تفقد القدر الذي زادته قبل ذلك حتى تخف أبدانها وينتهي العمل بهذه الطريقة بعد أربعين يوماً.

وقد كان لرسول الله ﷺ حصان اسمه سنجه. أشركه الرسول ﷺ فى السباق ذات مرة ففاز، ففرح بذلك رسول الله كثيرا.[1]

وكان علي ﷺ المسئول عن تنسيق سباق الخيل، ولقد أحال هذه المهمة من جانبه لسراقة بن مالك ﷺ بعد أن سن لها الأصول التالية:[2]

١- تصف الخيل ثم ينادي ثلاث مرات على من سيصلح لجاماً أو ينزل طفلاً معه، أو ينزع سرجاً.

٢- تُكبر ثلاث تكبيرات وتنزل الخيول بعد التكبيرة الثالثة منها في ساحة السباق.

٣- يُعتبر أي فرس تسبق أذنه هو السابق.

وكان علي ﷺ قد جلس بنفسه عند نقطة انتهاء السباق، يخط خطاً يوقف على جانبيه رجلين على أن تمر الخيل من بينهما.

كما كانت تجرى سباقات بين الإبل كذلك. وكانت ناقة الرسول ﷺ المسماة عضباء تفوز في السباق دائماً، لكن ذات مرة جاء أعرابي على بعير له وسبقها في النزال فحزن المسلمون كلهم لذلك، فقال رسول الله ﷺ: «حقٌ على اللهِ أن لا يرتَفعَ شيءٌ منَ الدُّنيا إلا

---

(١) الدارقطني، جـ٢، صـ ٥٥٢، كتاب السبق بين الخيل ووردت هذه الواقعة في مسند الإمام أحمد البيهقي.

(٢) ورد هذا تفصيلاً في الدارقطني صـ ٥٥٣، ٥٥٤ وكتاب السبق بين الخيل. لكن هذه الرواية ضعيفة طبقاً لعلم الحديث.

وضعَه».[١] وكان النبي ﷺ يحب الخيول ذات اللون الصندلي والأسود والأحمر،[٢] كما ﷺ منع قطع ذيل الخيول.

العــادات

(روى الترمذي عن علي ﷺ فيما يتعلق بشمائل النبي ﷺ، أنه كان يقسم أوقاته ثلاثة أثلاث ثلث للعبادة وثلث للعباد وثلث لنفسه).

ما كان النبي ﷺ يعمله فى نهاره من الصباح إلى المساء:

كانت عادة النبي ﷺ أن يتربع بعد صــلاة الفجــر فــي مصــلاه حتــى تشــرق الشمس.[٣](وكان هذا هو ميقات مجلسه النبوي المبارك) فتلتف الناس حوله ﷺ يعلمهم أمور دينهم.[٤]

وغالباً كان النبي ﷺ يسأل الصحابة فيقول: «مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمْ رُؤْيَا فَلْيَقُصَّهَا أَعْبُرْهَـا لَهُ» فإن كان أحد قد رأى رؤيا قصها على النبي. ثم يؤولها له النبي ﷺ.[٥] وأحيانـا كـان النبي ﷺ نفسه يخبرهم بما رأى هو من رؤى،[٦] ثم يتنوع الحديث بعد ذلك. فيحكي النــاس عن أيام الجاهلية، أو يُسمعون شعراً أو يتكلمون عن أمور سارة. أما النبي ﷺ فكان يبتســم فقط.[٧] وكان يقضي أكثر هذا الوقت في تقسيم مال الغنائم والرواتب والخراج.[٨]

ورد في بعض الروايات أن النبي ﷺ كان يصلي الضحى أربــع ركعــات أحيانــاً، وأحياناً ثمان، وذلك بعد أن تشرق الشمس، ثم يذهب بعد ذلك للبيت وينشغل فــي أعمالــه كترقيع الثوب وإصلاح النعل وحلب الشاة.[٩]

وبعد صلاة العصر يذهب إلى حجرات أزواجه فيجلس عند كل واحدة منهن قلــيلاً، ثم يقضي الليلة عند صاحبة الليلة. وعندها تجتمع بقية أزواجه المطهــرات حتــى صــلاة

---

(١) صحيح البخاري والنسائي والدارقطني ومسند أحمد عن أنس، باب الرهان والسبق.

(٢) النسائي طبعة نظامي ص ٥٦٧ **(باب ما يستحب من مشية الخيل).**

(٣) صحيح مسلم، باب تبسمه ﷺ وأبو داود صـــ٣١٨ .

(٤) جامع الترمذي.

(٥) صحيح مسلم، كتاب التعبير.

(٦) صحيح البخاري، كتاب التعبير.

(٧) النسائي، باب قعود الإمام في الصلاة.

(٨) وردت وقائع ثانوية متعددة في البخاري وكتب الحديث.

(٩) صحيح البخاري، باب ما يكون الرجل في مهنته، مسند ابن حنبل، ومسند عائشة.

العشاء.[1] وحين وقت صلاة العشاء يذهب النبي ﷺ للمسجد ثم يعود بعد الصلاة فينام بعد أن تكن أزواجه قد انصرفن. فقد كان ﷺ لا يحب الحديث بعد صلاة العشاء.[2]

نومه ﷺ

كانت عادة النبي ﷺ النوم بعد صلاة العشاء، وكان ﷺ يلتزم بقراءة سورة من سور القرآن الكريم (الإسراء، الزمر، الحديد، الحشر، الصف، التغابن، الجمعة) قُبيل نومه وروى في الترمذي أنه ﷺ كان يقول قبل أن ينام: **اللهم باسمك أموت وأحيى**. ويقول بعد أن يصبح: **الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور.**

ثم يقول ﷺ من نومه في منتصف الليل أو في الثلث الأخير منه. ودائما ما كان ﷺ يضع المسواك تحت رأسه، لذا كان يستاك أول ما يقوم من نومه، ثم يتوضأ وينشغل بالعبادة. وكان موضع رأسه في النوم موضعها في السجود.[3] وكان ﷺ ينام دائماً على جنبه واضعاً يده اليمنى تحت خده. وعند سفره ينزل قبل وصوله ويستريح فكان ينام على يده اليمنى. وإذا اشتد نومه سُمع صوت غطيطه. ولم يكن ﷺ يلتزم بفرش أي شيء للنوم فكان ينام أحياناً على مفرش عادي، وأحياناً على جلد، وأحيانا أخرى على حصير؛ بل وأحياناً كان ينام على التراب.[4]

تهجده ﷺ

لم يكن أحد أعلم من السيدة عائشة رضي الله عنها بأمور النبي ﷺ وعاداته المنزلية، روى عنها أنها قالت: حينما نزلت الآيات الأولى من سورة المزمل كان النبي ﷺ يصلي حتى تتورم قدماه، وتأخر نزول بقية السورة أحد عشر شهراً، وبعد ما نزلت صار قيام الليل الذي كان فرضاً نفلاً.

وكان النبي ﷺ يصلي ليلاً ثمان ركعات متواصلة لا يقعد إلا في الركعة الثامنة، ثم يصلي ركعة أخرى بتشهد، ثم يصلي بعدها ركعتين أخرتين. وهكذا فقد كان النبي ﷺ يصلي إحدى عشرة ركعة. لكن حينما كبر سنه وضعف جسده، صلى تسع ركعات فقط؛ سبع

---

[1] صحيح مسلم، باب التقسيم بين الزوجات.

[2] البخاري، صلاة العشاء.

[3] يعني مكان السجود الذي كان النبي ﷺ يسجد عليه وقت الصلاة.

[4] ورد هذا تفصيلاً في الزرقاني نقلاً عن كتب الحديث المتعددة.

فاثنتين فواحدة. وإذا صدف وغلبه النوم ولم يصلِّ ليلاً، كان يصلي في النهار اثنتي عشر ركعة.(١)

وروى في سنن أبي داود عن السيدة عائشة أيضاً أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يعود من المسجد بعد صلاة العشاء في جماعة فيصلي أربع ركعات، ثم ينام وبجانبه ماء الوضوء والسواك. وحينما يقوم من نومه يستاك أولاً، ثم يتوضأ ويصلي في مصلاه ثمان ركعات.

يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ذهبت إلى خالتي ميمونة (أم المؤمنين) حتى أرى كيفية تهجد النبي ﷺ، فلما استراح النبي ﷺ على فراش كان مفروشا على الأرض، نمت قريباً منه، فاستيقظ النبي ﷺ ليلاً وقرأ العشر آيات الأخر من سورة آل عمران. حيث كان بجانبه إناء ماء معلق، توضأ منه ثم بدأ يصلي. فتوضأت أنا أيضاً ووقفت على يساره ﷺ، فأمسك ﷺ بيدي وأوقفني على جانبه الأيمن، ثم نام بعد أن صلى ثلاث عشرة ركعة، ثم نهض في الفجر حينما أذن بلال ﷺ للصلاة فصلى ركعتي الفجر (السنة) ثم ذهب للمسجد.(٢)

وظائفه ﷺ في الصلاة

في البداية كان النبي ﷺ يتوضأ لكل صلاة، لكن حينما بدأ ذلك يصعب عليه، لم يلتزم إلا بالسواك قبل الصلاة. أول ما صلى النبي ﷺ أكثر من صلاة بوضوء واحد كان يوم فتح مكة. وكان ﷺ معتاداً أن يصلي كلما توضأ، وأن يغسل يديه أولاً في الوضوء ثلاث مرات ثم يتمضمض ويستنشق، ثم يغسل وجهه ثلاثًا، ثم يمسح رأسه ويغسل رجليه ثلاثًا.(٣) وكان فى بعض الأوقات يغسل بعض الأعضاء ثلاث مرات وبعضها مرتين وبعضها مرة واحدة.(٤)

وغالباً ما كان النبي ﷺ يؤدي السنن والنوافل في البيت. فكان يستيقظ وقت صلاة الفجر فيصلي ركعتين خفيفتين جداً لدرجة أن السيدة عائشة رضي الله عنها تقول: كان يخيل

---

(١) سنن أبي داود باب صلاة الليل.

(٢) صحيح مسلم، والمسند جـ٥، صـ ٢٢٥.

(٣) صحيح مسلم، جـ٨، باب آخر صفة الوضوء وإكماله.

(٤) صحيح مسلم، جـ ١، صـ ١١٠، باب آخر في صفة الوضوء.

إليّ في بعض الأحيان أن النبي ﷺ لم يقرأ الفاتحة.[1] لكنه ﷺ كان يقرأ في ركعتي الفرض سورتين طويلتين. فقد روى عن عبد الله بن سائب أن النبي ﷺ قرأ سورة المؤمنون في صلاة الفجر بمكة، وكان أحياناً يقرأ سورة " والليل إذا يغشى "، وأحياناً أخرى يقرأ سورة " ق ". وقد قاس الصحابة على ذلك أن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر ما بين ستين إلى مائة آية.

ومع أن النبي ﷺ كان يخفف في صلاة الظهر والعصر مقارنة بالفجر. إلا أنه كان يطيل في الركعتين الأولتين منهما؛ وذلك بقراءة سورة طويلة يستطيع الشخص خلال تلاوتها أن يذهب للبقيع يقضي حاجته هناك ثم يعود لمنزله فيتوضأ، ثم يلحق بالجماعة في الركعة الأولى. وقاس الصحابة أن رسول الله ﷺ كان يطيل في الركعتين الأوليين من صلاة الظهر بقدر قراءة سورة السجدة. أما في الركعتين الأخيرتين فكان يصليها في نصف وقت الركعتين الأوليين. أما الركعتين الأوليين من صلاة العصر، فكان النبي ﷺ يؤديها في وقت يعادل الوقت الذي يؤدي فيه الركعتين الأخيرتين للظهر. والركعتان الأخيرتان من العصر يستغرقان نصف وقت الركعتين الأوليين منه. روى عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ كان يتلو في الركعة الأولى ما يعادل ثلاثين آية من القرآن، وفي الركعة الثانية ما يعادل خمس عشرة آية. أما في العصر فكان يقرأ ما يعادل خمس عشرة آية. يقول جابر بن سمرة ﷺ إن النبي ﷺ كان يقرأ سورة "الأعلى" في الظهر. وسورتي المرسلات والطور في صلاة المغرب.[2]

وكان يقرأ "التين والزيتون" أو ما يعادلها في صلاة العشاء، ويتلو السور الطويلة كالبقرة وآل عمران والنساء في صلاة الليل. وكان يقرأ في الركعة الأولى من صلاة الجمعة سورة الجمعة، وفي الركعة الثانية سورة المنافقون، وأحياناً كان يقرأ فيها الأعلى ثم الغاشية. وكان يقرأ هاتين السورتين أيضاً في صلاة العيدين. وإذا تصادف وتوافقت صلاة العيد وصلاة الجمعة في يوم واحد فيقرأ السورتين أيضاً في كل صلاة منهما. كما أنه ﷺ كان معتاداً على قراءة سورة السجدة، وسورة الإنسان في صلاة فجر يوم الجمعة.[3]

---

[1] صحيح مسلم جـ١، صـ ٢٧٠، باب ركعتي سنة الفجر والحث عليها.

[2] مسلم، جـ١، صـ ١٧٧، باب القراءة في الظهر والعصر وغيرهما.

[3] وردت هذه الروايات كلها في صحيح مسلم، كتاب الصلاة وكتاب الجمعة والعيدين.

أسلوبه ﷺ فى الخُطبة

كثيراً ما كان يخطب رسول الله من أجل الوعظ والإرشاد وخاصة خطبة الجمعة. فكانت عادته ﷺ في خطبة الجمعة أن يخرج من بيته غير متكلف، وبعد أن يجتمع الناس، فيدخل المسجد ويسلم عليهم، ثم يصعد المنبر ويلتفت إلى الناس مسلماً عليهم، ثم يبدأ الخطبة بعد الأذان مباشرة. وكان يمسك بعصا بيده في البداية؛ لكن حينما ظهر المنبر تركها من يده. ودائماً كانت خطبة النبي ﷺ مختصرة جداً وجامعة. وكان ﷺ يقول: «إِنَّ طُولَ صَلاَةِ الرَّجُلِ، وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ، مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ[1]. وعامة كان النبي ﷺ يقرأ سورة "ق"[2] في خطبة الجمعة؛ لورود ذكر يوم القيامة والحشر والنشر فيها تفصيلاً.

وكان الرسول ﷺ يبدأ الخطبة دائماً بحمد الله والثناء عليه. وإن اعترضه عارض أثناء الخطبة، كان ينزل من المنبر فيقضيه ثم يصعد المنبر ثانية ويكمل خطبته. فقد روى أنه ﷺ كان ذات مرة يخطب فجاءه رجل وقال له: يا رسول الله ﷺ إنني على سفر ولست على دراية بأمور ديني، وجئت اسأل منك. فنزل النبي ﷺ من المنبر وجلس على كرسي. وبعد أن انتهى من تعليم الرجل صعد المنبر وأتم خطبته.[3] ومرة أخرى كان النبي ﷺ يخطب، فدخل عليه الإمام الحسين لابساً ملابس حمراء يتعثر في مشيه لأنه كان ما يزال صغير السن، فلما رآه النبي ﷺ لم يستطع الانتظار، ونزل من المنبر وأجلسه في حجره وتلا هذه الآية:[4] "إنما أموالكم وأولادكم فتنة". (التغابن:١٥)

وأيضاً كان النبي ﷺ يشير للناس أثناء الخطبة بأن صلُّوا أو اجلسوا؛ فقد روى أن رجلاً دخل المسجد والنبي ﷺ يخطب. فسأله النبي ﷺ: أَصَلَّيْتَ يا فُلاَنُ؟ قال: لا. قال: قم فاركعْ».[5]

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (١٩٥٩) حدثني سُرَيْجُ بْنُ يُونُسَ. حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحمَـٰنِ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبْجَرَ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ وَاصِلِ بْنِ حَيَّانَ. قَالَ: قَالَ أَبُو وَائِلٍ، خَطَبَنَا عَمَّارٌ، فَأَوْجَزَ وَأَبْلَغَ. فَلَمَّا نَزَلَ قُلْنَا: يَا أَبَا الْيَقْظَانِ لَقَدْ أَبْلَغْتَ وَأَوْجَزْتَ. فَلَوْ كُنْتَ تَنَفَّسْتَ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ يَقُولُ: «إِنَّ طُولَ صَلاَةِ الرَّجُلِ، وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ، مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ. فَأَطِيلُوا الصَّلاَةَ وَأَقْصُرُوا الْخُطْبَةَ. وَإِنَّ من الْبَيَانِ سِحْراً». (المترجم).

[2] صحيح مسلم.

[3] الأدب المفرد، طبعة مصر، صـ ٢١٨، باب الجلوس على السرير.

[4] جامع الترمذي، مناقب الحسين.

[5] البخاري جـ١ صـ ٢٧ باب إذا رأى الإمام رجلاً جاء وهو يخطب أمره أن يصلي ركعتين.

وحين كان النبي ﷺ في ميدان الجهاد، كان يقف متكأ على قوس. ويذهب البعض إلى أن النبي ﷺ كان يقف ممسكا بسيف في يده؛ لكن ابن القيم كتب أن رسول الله ﷺ ما مسك سيفاً قط حال خطبه،[1] وكان يتخول الناس بالموعظة كراهة السآمة.[2]

أعماله ﷺ في السفر

كثيراً ما كان النبي ﷺ يضطر للسفر إما لحج أو لعمرة أو للجهاد في أغلب الأحيان وكان معتاداً في سفره على أن يقترع[3] بين أزواجه أولاً، ومن تقع عليها القرعة ترافقه في سفره. وكان ﷺ يحب السفر يوم الخميس ويغادر وقت الفجر. وحين كان يخرج مع الجيش في أي غزوة،[4] كان يقول: بسم الله حين تأتيه الدابة ويمتطيها، ويكبر إذا ركب على السرج ثلاث مرات، ويتلو هذه الآية الكريمة **(لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ)** (الزخرف:١٣) ثم يدعو بهذا الدعاء: **"اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا واطو عنا بُعده. اللهم أنتِ الصاحب في السفر والخليفة في الأهل. اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في الأهل والعيال".**

وكان ﷺ يكبر إذا صعد في الطريق أي قمة. ويسبح عند نزولها. وكان الصحابة يرددون خلفه التسبيح والتكبير بصوت مرتفع. وإذا نزل منزل يدعو بهذا الدعاء:[5]

"يا أرض، ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك، وشر ما يدب عليك. وأعوذ بك من أسد وأسود، ومن الحية والعقرب، ومن ساكني البلد ومن والد وما ولد".[6]

وإذا أراد دخول قرية يدعو بهذا الدعاء.

"اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، ورب الأراضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، أسألك خير هذه القرية وخير أهلها، وأعوذ

---

[1] زاد المعاد، جـ ١ صـ ١٢١ فصل في هدية في خطبه.

[2] البخاري، باب ما كان النبي يتخولهم بالموعظة.

[3] البخاري، جـ ٢ باب حديث الإفك كتاب المغازى.

[4] أبو داود، كتاب الجهاد، باب فى أي يوم يستحب السفر وباب في الابتكار في السفر.

[5] أبو داود، كتاب الجهاد، باب ما يقول الرجل إذا سافر.

[6] زاد المعاد، فصل في هديه في السفر.

ـك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها (أبو داود، كتاب الجهاد. باب ما يقول الرجل إذا نز المنزل).

وإذا وصل المدينة دخل المسجد أولاً وصلى ركعتين لله.[1] ثم يعود بعد ذلك للبيت. كما كان ﷺ يأمر الناس جميعاً إلا تعود للبيوت فور عودتهم من السفر حتى ترتب النسوة المنزل على مهل.[2]

أعماله ﷺ في الجهاد

كانت عادة النبي ﷺ إذا خرج لتوديع جيش راحل في غزوة أن يوصي أمير الجيش بصفة خاصة بالتقوى والبر إلى رفاقه. ثم يخطب في الجيش قائلاً: **اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تَمْثُلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيداً**. ثم يلقنهم بعد ذلك شرائط الجهاد.[3]

---

[1] أبو داود، كتاب الجهاد، باب في إعطاء البشير.

[2] أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الطروق.

[3] صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب تأمير الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها. وهذ نص الحديث: (٤٤٧٦) وحَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ ابْنُ هَاشِمٍ «وَاللَّفْظُ لَهُ» حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمنِ «يَعْنِي ابْنَ مَهْدِيٍّ» حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ عَلْقَمَةَ ابْنِ مَرْثَدٍ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهِ إِذَا أَمَّرَ أَمِيراً عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْراً ثُمَّ قَالَ اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تَمْثُلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيداً وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاَثِ خِصَالٍ «أَوْ خِلاَلٍ» فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ وَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلاَ تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَلاَ ذِمَّةَ نَبِيِّهِ وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ فَلاَ تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لاَ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمنِ هذَا أَوْ نَحْوَهُ وَزَادَ إِسْحَاقُ فِي آخِرِ حَدِيثِهِ عَنْ يَحْيَى بْنِ آدَمَ قَالَ فَذَكَرْتُ هذَا الْحَدِيثَ لِمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ «قَالَ يَحْيَى يَعْنِي أَنَّ عَلْقَمَةَ يَقُولُهُ لابْنِ حَيَّانَ» فَقَالَ حَدَّثَنِي مُسْلِمُ بْنُ هَيْصَمٍ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ عَنِ النَّبِيِّ . (المترجم).

وحينما يودع الجيش يقول: أَستَوْدِعُ الله دِينَكُم وَأَمَانَتَكُم وَخَوَاتِيمَ أَعْمَالِكُم».[1]

سنته ﷺ فى عيادة المريض والعزاء

كان النبي ﷺ يؤكد ويحث على زيارة ومواساة المرضى. ويقول للصحابة إن زيارة المريض فرض واجب على المسلم. وكانت عادة النبي ﷺ أول ما هاجر إلى المدينة أن يذهب إلى من خُبر باحتضاره ويدعو له بالمغفرة، ويظل عنده حتى تفيض روحه إلى بارئها. ولكن كان الانتظار بجانب المحتضر يشق على النبي ﷺ. وحينما أحس الصحابة بذلك اعتادوا أن يخبروا النبي ﷺ بعد الوفاة، فيذهب ﷺ إليه، يستغفر له ويصلي عليه صلاة الجنازة. ثم ينتظر بعد ذلك إن أراد أن يشيعه، وإلا انصرف. لكن الصحابة شعروا أن هذا أيضاً يشق على النبي ﷺ ؛ لذا بدءوا إحضار الجنازة حتى رسول الله ﷺ، وهذا ما راج فيما بعد.[2] (هذا ما أصبح عادة فيما بعد).

حينما كان النبي ﷺ يذهب لعيادة مريض، كان يواسيه ويضع يده الشريفة على جبهته وصدره[3] ويدعو له بالصحة،[4] ويقول: "لا بأس، طَهورٌ إن شاء الله". ويغضب إذا قال أحد كلمات شؤم. في ذات مرة قدم أعرابيٌ المدينةَ ثم مرض فيها، فذهب النبي ﷺ لزيارته ومواساته. فقال الرجل: قلت خيراً، إنها حمى قاتلة لن تتركني إلا في القبر. فقال النبي ﷺ: "فَنَعم إذاً». [5]

---

[1] أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الدعاء عند الوداع. وهذا نص الحديث: (٢٦٠٢) حدثنا الْحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ أخبرنا يَحْيَى بنُ إسْحَاقَ السَّيْلَحِينِيُّ أخبرنا حَمَّادُ بنُ سَلَمَةَ عن أبي جَعْفَرٍ الْخَطْمِيِّ عنْ مُحَمَّدِ بنِ كَعْبٍ عنْ عَبْدِ الله الْخَطْمِيِّ، قال: « كَانَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إذَا أرَادَ أنْ يَسْتَوْدِعَ الْجَيْشَ قال: أَستَوْدِعُ الله دِينَكُم وَأَمَانَتَكُم وَخَوَاتِيمَ أَعْمَالِكُم». (المترجم).

[2] مسند ابن حنبل، جـ٣، صـ٦٦.

[3] صحيح البخاري، باب وضع اليد على المريض.

[4] باب دعاء العائد للمريض.

[5] باب عيادة العراب. وهذا نص الحديث كما ورد فى البخاري، كتاب المرضى: (٥٥٢٨) حدّثنا مُعلَّى بن أسَد حدَّثنا عبدُ العزيز بن مختار حدثنا خالدٌ عن عكرمةَ عن ابن عبّاس رضيَ الله عنهما: «أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم دخل على أعرابيّ يَعودُه، قال: وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا دخلَ على مريض يَعوده قال له: لا بأس، طَهورٌ إن شاء الله. قال: قلتَ طهور؟ كلا، بل هي حُمى تفور— أوتثور— على شيخ كبير، تُزيره القبور. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فَنَعم إذاً». (المترجم).

سنته ﷺ في لقاء الناس:

كان النبي ﷺ معتاداً على أن يسلم ويصافح بنفسه أولاً على أي شخص يأتي لزيارته، وإن انحنى أحد كي يُسِرَّ إليه بشيء في أذنه لا يلتفت عنه ﷺ حتى ينتهي. وكانت عادته في المصافحة حين يسلم على أحد ألا ينزع يده طالما لم ينزع الآخر يده. وإذا جلس في المجلس لا يجعل ركبته تعلو الآخرين.[1]

وإذا أراد شخص الدخول، يقف على الباب ويلق السلام أولاً ثم يقول: هل أستطيع الدخول؟ (وهذا ما كان النبي ﷺ يصنعه إذا ذهب للقاء أحد)، لذا كان رسول الله ﷺ يرد من يخالف هذه الطريقة. ففي ذات مرة جاءه شخص من بنى عامر ووقف على الباب وقال: هل أستطيع الدخول؟ فأشار النبي ﷺ إلى أحد الجلوس بأن يذهب إليه ويعلمه طريقة الاستئذان. يعني؛ عليه أن يسلم قبل أن يطلب الدخول[2].

في ذات مرة أرسل صفوان بن أمية أحد سادة قريش أخيه كلدة بلبن وظبي وخشب إلى النبي ﷺ، فدخل كلدة على النبي ﷺ بلا إذن، فقال له النبي ﷺ: "ارْجِعْ فَقُلْ السَّلاَمُ عَلَيْكُم".[3]

---

[1] أبو داود والترمذي.

[2] ورد فى سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب كيف الاستئذان: (٥١٧٢) ــــ حدثنا أَبُو بَكْرِ بنُ أَبي شَيْبَةَ أخبرنا أَبُو الاحْوَصِ عن مَنْصُورٍ عن رِبْعِيٍّ، قالَ: « أخبرنا رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَامِرٍ أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ في بَيْتٍ فقَالَ: أَلِجُ؟ فقَالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لِخَادِمِه: اخْرُجْ إلَى هذَا فَعَلِّمْهُ الاسْتِئْذَانَ فَقُلْ لَهُ قُلِ السَّلاَمُ عَلَيْكُم أَأَدْخُلُ، فَسَمِعَهُ الرَّجلُ فقَالَ السَّلاَمُ عَلَيْكُم أَأَدْخُلُ، فأَذِنَ لَهُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم فَدَخَلَ». (المترجم).

[3] توجد هاتان الروايتان في أبي داود جـ٢ ص ١٥٦. وهذا نص الحديث: (٥١٧١) حدثنا يَحْيَى بنُ حَبِيبٍ أخبرنا رَوْحٌ ح وأخبرنا ابنُ بَشَّارٍ قالاَ أخبرنا أَبُو عَاصِمٍ أنبأنا ابنُ جُرَيْجٍ أخبرني عَمْرُو بنُ أَبي سُفْيَانَ أَنَّ عَمْرو بنَ عَبْدِ الله بنِ صَفْوَانَ أَخْبَرَهُ عن كَلَدَةَ بنِ حَنْبَلٍ، : « أَنَّ صَفْوَانَ بنَ أُمَيَّةَ بَعَثَهُ إلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم بِلَبَنٍ وَجِدَايَةٍ وَضَغَابِيسَ وَالنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بِأَعْلَى مَكَّةَ فَدَخَلْتُ وَلَمْ أُسَلِّمْ، فقَالَ: ارْجِعْ فَقُلْ السَّلاَمُ عَلَيْكُم، وَذَلِكَ بَعْدَ ما أَسْلَمَ صَفْوَانُ بنُ أُمَيَّةَ». قالَ عَمْرٌو: وأخبرني ابنُ صَفْوَانَ بِهَذَا أَجْمَعَ عن كَلَدَةَ بنِ الْحَنْبَلِ وَلَمْ يَقُلْ سَمِعْتُهُ مِنْهُ. قالَ أَبُو دَاوُدَ قالَ يَحْيَى بنُ حَبِيبٍ: أُمَيَّةُ بنُ صَفْوَانَ وَلَمْ يَقُلْ سَمِعْتُهُ مِنْ كَلَدَةَ بنِ الْحَنْبَلِ. وقالَ يَحْيَى أَيْضاً: عَمْرُو بنُ عَبْدِ الله ابنِ صَفْوَانَ أَنَّ كَلَدَةَ بنَ الْحَنْبَلِ أَخْبَرَهُ. (المترجم).

وفي ذات مرة جاء جابر ﷺ لزيارة الرسول ﷺ فطرق الباب، فسأله النبي ﷺ من ذا؟ فقال: أنا. فقال: أنا أنا. كأنه كرِهَها»[1] ماذا يعني هذا الجواب؟ يجب أن تخَبر اسمك.

حينما كان النبي ﷺ يذهب لزيارة أحد، كان يقف على أحد جانبي الباب، ويلقي السلام ثم يطلب الإذن في الدخول. (يقول الراوي لم يكن ﷺ يقف مواجهاً لمدخل البيت لأن الأبواب لم يكن يوضع عليها ستائر).

وكان النبي ﷺ يرجع إذا لم يأذن له صاحب البيت بالدخول، فقد ذهب ﷺ ذات مرة لزيارة سعد بن عبادة ﷺ ووقف أمام بيته وقال: السلام عليكم ورحمة الله. فأجاب سعد بصوت خافت لم يسمعه النبي ﷺ، فقال له ابنه قيس بن سعد: ألا تأذن لرسول الله ﷺ بالدخول؟. فقال له أبوه: ذره يكثر علينا من السلام. فكرر رسول الله السلام وأجابه سعد بنفس الصوت؛ لذا كرر الرسول ﷺ السلام ثالثة، وعندما لم يسمع الجواب عاد، فلما رآه سعد يرجع نهض وقال: يا رسول الله إني كنت أسمع تسليمك وأرد عليك ردا خفيا لتكثر علينا من السلام.[2]

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٦١٠٧) ـ حدَّثنا أبو الوَليدِ هشامُ بن عبد الملكِ حدثنا شعبة عن محمد بن المنكدر قال: سمعت جابراً رضيَ اللّهُ عنه يقول: «أتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم في دَين كان على أبي، فدقَقْت الباب، فقال: من ذا؟ فقلت: أنا. فقال: أنا أنا. كأنه كرِهَها». (المترجم).

[2] أبو داود، كتاب الأدب. وهذا نص الحديث: (٥١٨٠) حدثنا مُحَمَّدُ بنُ المُثَنَّى وَ هِشَامٌ أَبُو مَرْوَانَ و محمد بن المثني المَعْنَى، قالَ مُحَمَّدُ بنُ المُثَنَّى أخبرنا الْوَلِيدُ بنُ مُسلِمٍ أخبرنا الأوْزَاعِيُّ سَمِعْتُ يَحْيَى بنَ أَبِي كَثِيرٍ يَقُولُ حدَّثني مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ ابنِ أَسْعَدَ بنِ زُرَارَةَ عن قَيْسِ بنِ سَعْدٍ، قالَ: « زَارَنَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم في مَنْزِلِنَا فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُم وَرَحْمَةُ الله، قَالَ فَرَدَّ سَعْدٌ رَدّاً خَفِياً، فَقَالَ قَيْسٌ فَقُلْتُ: أَلا تَأْذَنُ لِرَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فقَالَ: ذَرْهُ يُكْثِرْ عَلَيْنَا مِنَ السَّلاَمِ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم السَّلاَمُ عَلَيْكُم وَرَحْمَةُ الله، فَرَدَّ سَعْدٌ رَداً خَفِياً، ثُمَّ قالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: السَّلاَمُ عَلَيْكُم وَرَحْمَةُ الله، ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وَاتَّبَعَهُ سَعْدٌ فقَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي كُنْتُ أَسْمَعُ تَسْلِيمَكَ وَأَرُدُّ عَلَيْكَ رَداً خَفِياً لِتُكْثِرَ عَلَيْنَا مِنَ السَّلاَمِ، قَال: فانْصَرَفَ مَعَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وَأَمَرَ لَهُ سَعْدٌ بِغسْلٍ فاغْتَسَلَ، ثُمَّ نَاوَلَهُ مِلْحَفَةً مَصْبُوغَةً بِزَعْفَرَانٍ أَوْ وَرْسٍ فاشْتَمَلَ بِهَا، ثُمَّ رَفَعَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يَدَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وَرَحْمَتَكَ عَلَى آلِ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ. قالَ: ثُمَّ أَصَابَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمَّا أَرَادَ الانْصِرَافَ قَرَّبَ لَهُ سَعْدٌ حِمَاراً قَدْ وَطَّأَ عَلَيْهِ بِقَطِيفَةٍ فَرَكِبَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم، فقَالَ سَعْدٌ: يَا قَيْسُ اصْحَبْ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم، قالَ قَيْسٌ: فقَالَ لِي رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: ارْكَبْ، فَأَبَيْتُ، ثُمَّ قالَ: إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ وَإِمَّا أَنْ

(حينما كان النبي ﷺ يذهب لبيت أحد كان يبتعد عن الجلوس في مكان مرتفع. ففي ذات مرة ذهب إلى بيت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فوضع له عبد الله مسنداً من الجلد ليجلس عليه؛ لكن النبي ﷺ جلس على السرج، وظل المسند بينه وبين عبد الله بن عمر).[1]

عامة أشغاله ﷺ

(كان رسول الله ﷺ يحب التيمن، فكان يلبس النعل في رجله اليمنى أولاً ويدخل المسجد بالرجل اليمنى. وإن قُسِّم شيء في المجلس بدأ باليمين. كما كان يبدأ كل أعماله بالبسملة).

تَنْصَرِفَ، قالَ: فانْصَرَفْتُ». قالَ هِشَامٌ أَبُو مَرْوَانَ عن مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ أَسْعَدَ بنِ زُرَارَةَ. قالَ أَبُو دَاوُدَ: رَوَاهُ عُمَرُ بنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ وَابنُ سَمَاعَةَ عن الأَوْزَاعِيِّ مُرْسلاً وَلَمْ يَذْكُرَا قَيْسَ بنَ سَعْدٍ.(المترجم).

[1] الأدب المفرد ص ٢١٩.

مجالس النبي ﷺ

لم يكن مجلس سيد الدارين محمد ﷺ مجلس تكلف وتصنع. فلم يكن على بابه حُجَابا، لذا كان كل شخص يتمتع برؤية النبي ﷺ. ورد في الأحاديث أن الناس كانت حين تجلس في مجلس رسول الله ﷺ يبدون وكأن على رؤوسهم الطير. أي أنه لم تكن تصدر أية حركة بسيطة من أي شخص. وكان يراعى الترتيب في الإذن بالحديث، ولم يكن هذا الترتيب على أساس الحسب أو النسب؛ وإنما على أساس الأحقية والفضل. كان النبي ﷺ يهتم بالمحتاجين أولاً فيقضي لهم حاجاتهم بعد سماع مطالبهم.

وكان كل الحاضرين يحنون رؤوسهم تواضعاً. وكان النبي ﷺ نفسه يجلس بوقار، وإذا تكلم عم الصمت المجلس، وإذا تكلم شخص ما سكت الجميع حتى ينتهي المتكلم، وإذا تجاوز السائل حدود الأدب في سؤاله تحمله رسول الله بكل حلم.

ولم يكن النبي ﷺ يقطع بكلامه حديث أي أحد، وإذا أغضبه أمر أعرض عنه وتركه، وإن شكره أحد قبل شكره إن كان فعلاً قد صنع له شيء. وكان ﷺ يشترك في الحديث الدائر في المجلس. كما يشترك في المزاح والمداعبة، بل كان يمزح أحياناً. وإن جاءه كبير قبيلة أكرمه مراعاة لمكانته، ويقول: **أكرموا كريما**. وكان يسأل كل فرد عن حاجته ويقول: أخبروني عن حاجات من لم يستطع إيصال مطلبه إليّ.

كان العرف في بلاد فارس إذا دخل المجلس شريف وقف الجميع له احتراما. كما كان ضرورياً أن يقف الجميع واضعين أيديهم على صدورهم عند اجتماعهم في البلاط مع الرؤساء والأمراء. ولقد نهى رسول الله ﷺ عن هذه الأمور وقال: من أحب أن يمثل له الرجال قياماً فليتبوّأ مقعده من النار.[1] وكان ﷺ يقف لبعض الناس من فرط محبته لهم. فغالباً ما كان يقف عند دخول السيدة فاطمة عليه، ويقبل جبهتها من كثرة حبه لها. (كما وقف النبي ﷺ كذلك للسيدة حليمة السعدية وفرش لها البردة. وذات مرة وقف النبي ﷺ

---

(١) أبو داود، كتاب الأدب، باب قيام الرجل للرجل. وهذا نص الحديث: (٥٢٢٤) حدثنا مُوسَى بنُ إِسْمَاعِيلَ حدثنا حَمَّادٌ عن حَبِيبِ بنِ الشَّهِيدِ عن أَبِي مِجْلَزٍ، قال: « خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى ابنِ الزُّبَيْرِ وَابنِ عَامِرٍ فَقَامَ ابنُ عَامِرٍ وَجَلَسَ ابنُ الزُّبَيْرِ، فقَالَ مُعَاوِيَةُ لابنِ عَامِرٍ: اجْلِسْ فإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَمْثُلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَاماً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». (المترجم).

لأخيه في الرضاع حينما جاء ثم أجلسه أمامه؛[١] احتراماً له). وكان لكل شخص رتبة تناسب مكانته، فلم يخطر في بال أحد أن فلانًا من الناس مُفضَّلٌ عليه. وكان النبي ﷺ يثني على من يقول قولاً معروفًا. وينبه من يقول غير ذلك.[٢]

ذات مرة جاء رجلان للنبي؛ أحدهما غني والآخر فقير. فعطس الغني ولم يحمد الله، ثم عطس الثاني وحمد الله، فقال النبي ﷺ للثاني: يرحمك الله. فاشتكى من ذلك الغني. فقال رسول الله ﷺ له: إن هذا حمد الله، وإن هذا لم يحمد الله.[٣]

وكان الصحابة يحرصون كل الحرص على ألاّ تصل النبي ﷺ عنهم أي شكوى. كما كان الرسول ﷺ يخبر أصحابه بأنه يريد أن يرحل من الدنيا وهو ﷺ معاف منهم وقد بلغهم الرسالة كاملة.[٤]

مجالس الوعظ و الإرشاد

مع أنه كان يُستفاد من تعليم وإرشاد النبي ﷺ[٥] في كل وقت من سفر وحضر وجلوة وخلوة وقعود وقيام؛ إلا أن الاستفادة كانت قاصرة على رفاق النبي ﷺ وقت الحديث فقط. ولذا كان النبي ﷺ يخصص أوقاتاً للتعليم والإرشاد يعلنها للناس حتى يأتي من يريد الاستفادة.

وغالباً كانت هذه الجلسات تعقد في المسجد النبوي، حيث كان بالمسجد فناء صغير يجلس فيه النبي ﷺ. لم يكن للنبي ﷺ في البداية مكانا مخصصا للجلوس، لذا كانت الوفود القادمة من الخارج تتعثر في التعرف على رسول الله. لذا، صنع الصحابة رضي الله عنهم أريكة من الطين كان النبي ﷺ يجلس عليها والصحابة حوله.[٦]

آداب المجلس

لم يكن هناك أي قيد على المترددين على مجلس النبي ﷺ. وعامة كان البدو يأتون بطريقتهم البدائية والهمجية ويسألون بلا تحرج. لكن الخلق النبوي كان يفيض في هذه

---

[١] أبو داود، كتاب الأدب، بر الوالدين.

[٢] أخذ كل هذا التفصيل من روايتين مفصلتين من شمائل الترمذي ذكرت فيها الأخلاق العامة للنبي ﷺ.

[٣] الأدب المفرد، الإمام البخاري.

[٤] أبو داود، كتاب الأدب.

[٥] أضفت بداية من هنا حتى صـ٢٣٢. "سيد سليمان الندوي".

[٦] أبو داود، باب القدر.

المجالس ويشع فيها نور خاتم النبيين ﷺ. وكان الصحابة يحضرون في خدمته ﷺ بكل حب وإخلاص. قدم شخص المجلس ولم ير أي ميزة بين النبي ﷺ وبين من حوله. فسأل: من منكم محمد؟ فقال الصحابة: إنه هذا الرجل البهي المتكئ. فقال الرجل: يا ابن عبد المطلب! سأسألك بشدة فلا تغضب. فأذن له النبي ﷺ بكل حلم.[1]

وعلى الرغم من بساطة هذه المجالس وعدم تكلفها، إلا أنها كانت تفيض بالوقار والعظمة وآداب النبوة. وكانت تعليمات النبي ﷺ تشتمل على الأخلاق والدين وتزكية النفوس، فضلاً عن الأمور الدنيوية الأخرى. وكان البعض يسأل النبي ﷺ عن أمور عادية؛ مثل: ما اسم أبي يا رسول الله؟ أو كقول آخر: ضل بعيري، فأين أجده يا رسول الله. أما النبي ﷺ فكان يبغض هذا النوع من الأسئلة.

ذات مرة طُرح هذا النوع من الأسئلة، فغضب رسول الله ﷺ وقال: ليسأل من يسأل، وسأجيب على الجميع. فحين رأى عمر لون وجه النبي ﷺ. قال بإلحاح: **رضيت**[2] **إلخ.**

ولم يكن أحد يسأل وهو واقف، ففي ذات مرة سأل رجل بعد أن وقف، فنظر الرسول ﷺ إليه متعجباً. كما كانت العادة أن تُناقش قضايا أخرى إذا نوقشت الأسئلة التي طرحت من قبل. أحياناً كان يتصادف أن يدخل أعرابي لا يعرف آداب المجلس على رسول الله وهو يخطب، فيسأله وهو يتحدث، فيكمل النبي ﷺ حديثه أولاً ثم يجبه بعد أن يفرغ. وذات مرة جاءه ﷺ أعرابي وقال له: متى الساعة؟ فواصل النبي ﷺ حديثه. فاعتقد الحاضرون أن النبي لم يسمع. فقال أحدهم: بل سمع؛ ولكنه غضب من ذلك. وحين فرغ النبي ﷺ قال: أين السائل عن الساعة؟ قال البدوي: أنا يا رسول الله. فقال النبي ﷺ : «فإذا ضُيِّعَتِ الأمانةُ فانْتَظِرِ الساعةَ». فقال الرجل: وكيف تضيع الأمانة؟ فقال النبي ﷺ:«إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غيرِ أهلهِ فانتَظِرِ الساعةَ».[3]

---

[1] البخاري، جـ١، صـ ١٥ كتاب الإيمان.

[2] صحيح البخاري، كتاب العلم.

[3] المرجع السابق، صـ ١٤. وهذا نص الحديث: (٥٩) حدَّثنا محمد بن سِنانٍ قال: حدَّثنا فُلَيْحٌ .ح. وحدَّثني إبراهيمُ بنُ المُنْذِرِ قال: حدَّثنا محمدُ بنُ فُلَيْح قال: حدَّثني أبي قال: حدثني هِلالُ بنُ عليٍّ عن عَطاءِ بنِ يَسارٍ عنْ أبي هُرَيرةَ قال: بَيْنما النبيُّ صلى الله عليه وسلم في مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ القومَ، جاءَهُ أعْرابيٌّ فقال: مَتى الساعةُ؟ فمضى رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم يُحَدِّثُ. فقالَ بعضُ القوم: سَمِعَ ما قال فكرِهَ ما قال، وقال بعضهم: بلْ لمْ يَسْمَعْ. حتى إذا قَضى حَدِيثَهُ قال: أينَ ــ أُراهُ ــ السائلُ عن الساعة؟ قال:

أوقات جلوسه ﷺ مع الناس:

كان الصبح هو الوقت المقرر لهذه المجالس، فكان النبي ﷺ يجلس فيها بعد صلاة الفجر ويعظ الناس. ويتضح من بعض الروايات أن النبي ﷺ كان يجلس بعد كل صلاة ويلتف الناس من حوله، لأن كعب بن مالك قال حينما عُوتب بسبب تخلفه عن غزوة تبوك بعد أن ذهب إلى رسول الله وهو جالس في هذا المجلس ليتبين مدى رضاه عنه: **وآتي رسول الله ﷺ فاسلم عليه وهو جالس في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا** [١].

وأحيانا كان النبي ﷺ يعظ الناس في مجالسه وقت الصباح. فروى في الترمذي وأبي داود عن عرباض بن سارية قوله: "**وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب**". [٢]

وكان الحديث يدور في المجلس الذي يعقد بعد الصلاة عن الوعظ والإرشاد وما شابه ذلك. وقد كان النبي ﷺ يعقد مجالس خاصة لإظهار حقائق ورؤى، إضافة لمجالس الوعظ هذه. وهذه هي المجالس التي قيل عنها في الأحاديث: **كان يوماً بارزاً للناس.** [٣]

ولأن النبي ﷺ كان يريد ألاّ يَحرم أحد من هذه المجالس حتى تعم الفائدة، لذا كان يغضب ممن يعرضون عن الاشتراك والحضور في تلك المجالس.

ففي ذات مرة كان النبي ﷺ جالساً مع أصحابه في المسجد، فدخل عليهم ثلاثة رجال وجد أحدهم مكاناً ضيقاً في الحلقة فجلس فيه. أما الثاني فلم يجد مكاناً في الحلقة فجلس خلفها. والثالث أعرضَ وانصرف. فلما انتهى النبي ﷺ من حديثه قال (لأصحابه): أما أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعْرَضَ فأعرَضَ اللهُ عنه». [٤]

ها أنا يا رسولَ اللّهِ. قال: «فإذا ضُيِّعَتِ الأمانةُ فانْتَظِرِ الساعةَ». قال: كيفَ إضاعَتُها؟ قال: «إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غيرِ أهلِه فانتَظِرِ الساعةَ» (صحيح البخاري،باب العلم). (المترجم).

[١] البخاري، جـ١، صـ٣٢٥، حديث كعب بن مالك.

[٢] الترمذي، صـ ٤٤٠.

[٣] سنن ابن ماجه، صـ ٢٢.

[٤] صحيح البخاري، جـ١، صـ ٢٠ كتاب العلم. وهذا نص الحديث كاملا: (٦٦) حدَّثَنا إسماعيلُ قال: حدَّثني مالكٌ عن إسحاقَ بن عبد اللهِ بنِ أبي طَلحةَ : أن أبا مُرَّةَ مَولَى عقيلِ بنِ أبي طالبٍ أخبرهُ: عن أبي واقدٍ اللَّيثيِّ: «أنَّ رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم بينما هو جالسٌ في المسجدِ والناسُ معهُ، إذْ أقبلَ

وكان وعظ ونصح النبي ﷺ يتم بطريقة مؤثرة للغاية. ولأن الناس كانت تمل كثرة السماع ولا تتأثر بالوعظ، لذا كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة. فقد روى في البخاري عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: **كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة المسئمة علينا.**

مجالسه ﷺ الخاصة بالنساء

كان نفع تلك المجالس السابقة قاصراً على الرجال في الأغلب، فكانت فرصة استفادة النساء منها قليلة، ومن ثمَّ طالبت النسوة بيوم خاص لهم، فأجاب النبي ﷺ طلبهن وخصص لهن يوماً لإرشادهن ووعظهن.[1]

ومع أنه كان هناك إذن بالاستفسار عن أي شيء يتعلق بالمسائل الشرعية، وكانت النساء تستفسر عن بعض القضايا الخاصة بالنساء؛ إلا أن النبي ﷺ كان يغضب إذا طرح سؤال فاضح أمام الملأ من فرط حيائه.

وكان النبي ﷺ يغضب إذا سأل رجل سؤالاً من الأسئلة السرية أمام الملأ، ففي ذات مرة سأل أحد الأنصار (كان يدعى عاصم) رسول الله ﷺ وقال له: ما الحكم إن رأيت زوجتي مع شخص آخر؟ فغضب النبي ﷺ من ذلك وعاتبه.[2]

طريقة هديه وإرشاده ﷺ:

كان النبي أحيانا يسأل الناس، وكان يمتحن جودة فكرهم وإصابة رأيهم. يقول عبد الله بن عمر رضى الله عنهما: سأل رسول الله ﷺ ذات مرة عن الشجرة التي لا يسقط ورقها وتشبه المسلم، فذهب خيال الناس إلى الشجر الجبلي، لكن طرأ في ذهني أنها ربما

ثلاثةُ نفرٍ، فاقبلَ إثنانِ الى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وذهبَ واحدٌ. قال: فوقفا علَى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فأمّا أحَدُهما فرأى فُرجَةً في الحَلْقةِ فجلسَ فيها، وأمّا الآخرُ فجلسَ خَلْفَهُمْ، وأمّا الثالثُ فأدْبَرَ ذاهباً. فلّما فَرَغَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قال: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعْرضَ فأعرَضَ اللهُ عنه». (المترجم).

[1] صحيح البخاري، كتاب العلم. وهذا نص الحديث: (١٠١) حدَّثنا آدم قال: حدَّثنا شُعبةُ قال: حدَّثني ابنُ الأصْبَهاني قال: سَمعتُ أبا صالحٍ ذَكوانَ : يُحدِّثُ عن أبي سَعيدٍ الْخُدْريِّ قال: قالت النساءُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: غَلَبَنا عَلَيكَ الرِّجالُ، فاجعلْ لنا يَوماً مِنْ نَفْسِكَ. فوَعدَهُنَّ يوماً لَقِيَهُنَّ في فيه فَوَعَظَهُنَّ وأمَرَهنَّ، فكانَ فيما قال لَهنَّ: «ما منكُنَّ امْرأةٌ تُقَدِّمُ ثلاثةً مِن ولَدِها إلاّ كانَ لَها حِجاباً مِنَ النار» فقالت امرأةٌ: واثنين؟ فقال: «واثنين» (المترجم).

[2] المرجع السابق.

تكون النخلة؛ ولأنني كنت صغيراً ما تجرأت على الجواب، وفي النهاية قال الناس: ما هي يا رسول الله؟ فقال ﷺ: هي النخلة. فتحسر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما طيلة حياته على أنه لم يجرأ على الإجابة.[١]

ودخل النبي ﷺ المسجد ذات مرة والصحابة منقسمون في حلقتين، كانت الأولى مشغولة في الذكر والدعاء وقراءة القرآن، وكانت الثانية مشغولة بمناقشات علمية. فأخبر النبي ﷺ بأن كلتيهما خير؛ ولكن الله تعالى بعثه معلماً، ثم جلس في حلقه العلم.[٢]

كان النبي ﷺ لا يحب الحديث في تلك المجالس عن تلك المباحث الدقيقة التي يصعب على العوام فهمها؛ لذا خرج النبي ﷺ من حجرته ذات مرة حين كان الصحابة يتحدثون عن القدر، وكان وجهه محمراً لدرجة توهم أن شخصا قد عصر على وجنتيه رماناً، فقال: هل ولدتم لتأولوا القرآن، فقد هلكت الأمم من قبلكم بسبب هذا.[٣]

وكان من أهداف هذه المجالس حَسْم النبي ﷺ للاختلاف الذي يتولد بين الصحابة حول بعض المسائل، فمثلاً: كان يعتقد أن طلب الشهرة وطلب الجاه أمران متناقضان، وهذا ما كان رائجا في عهد الصحابة، فتحدث رجلان عن هذه المسألة في مجلس النبي ﷺ، فقال أحدهما: ما رأيك لو واجهنا العدو فرمى رجل رمحه وقال بفخر: يا لها من رمية صائبة. فأجابه المخاطب: أرى أنه لن يكون لهذا أي ثواب. فقال ثالث سمع حديثهما: أعتقد أنه لا حرج في ذلك. فاختلف الاثنان على هذا، فأخبر النبي ﷺ بعد أن سمع حوارهما بأنه لا فرق بين الشهرة والثواب.[٤]

وكان يُعتقد أن القدر هو نفسه التواكل. وما قُدِّر لا يمكن أن تمحوه أي قوى عملية، لكن النبي ﷺ أنكر هذا في مجلس كان جالساً فيه وقال: إن الأعمال نفسها هي القدر.

---

[١] سنن ابن ماجه، صـ ٢١، باب فضل العلماء. وهذا نص الحديث: (١٣١) حدَّثنا إسماعيلُ قال: حدَّثني مالكٌ عن عبدِ اللَّهِ بنِ دِينارٍ عن عبدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ أَنَّ رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قالَ: «إنَّ منَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لا يَسقُطُ وَرَقُها وهيَ مَثَلُ المُسلِمِ، حَدِّثوني ما هيَ؟ فوقَعَ الناسُ في شَجَرِ البادِيةِ، ووقعَ في نَفْسي أنها النَّخْلَةُ، قال عبدُ اللَّهِ: فاستَحْيَيْتُ. فقالوا يا رسولَ اللَّه أخبِرْنا بها. فقال رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم هيَ النَّخلةُ». قال عبدُ اللَّهِ: فحدَّثتُ أبي بما وقعَ في نَفْسي، فقالَ: لأنْ تَكونَ قُلتَها أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ يكونَ لي كذا وكذا. (المترجم).

[٢] سنن ابن ماجه صـ ٩ باب القدر.

[٣] المرجع السابق.

[٤] أبو داود، جـ٢، صـ ١١٣.

والأعمال التي يوفق الإنسان إليها هي قدره؛ لذا فليس القدر اسم للتواكل والتكاسل. وكان الصحابة في جنازة، فجاء النبي ﷺ والتف حوله الصحابة وكان بيده عود ينكش به الأرض، ثم قال: ما منكُم من أَحَد، ومَا من نَفْسٍ منْفُوسة، إلا كُتِب مكانُها من الجنة والنار، وإلا قد كُتبت شقيةً أو سَعيدةً. قال رجُلٌ: يا رسولَ الله أفلا نتكلُ على كِتابِنا ونَدَعُ العَمَل، فمنْ كان منا مَن أهل السَّعادة فَسَيَصيرُ إلى أهل السَّعادة، ومن كان منَّا من أهل الشَّقاء فسيصير إلى عمل أهل الشقاوَة؟ قال: أما أهلُ السعادة فَيُيسَّرون لعَمل أهل السعادة، وأما أهلُ الشقاوةِ فَيُيسرون لعمل أهلِ الشقاءِ، ثم قرأ {فأما من أعْطَى واتَّقَى وصدَّق بالحسنَى} (الليل: ٥، ٦) الآية. (١)

لقاؤه الناس بالبشاشة والبشر:

على الرغم من أن الحديث الذي كان يدور في هذه المجالس كان يتعلق بالوعظ والإرشاد والأخلاق وتزكية النفس، وكانت الصحابة تجلس في حضرة النبي ﷺ وكأن على رؤوسهم الطير، إلا أن تلك المجالس لم تخل من المزاح، ففي ذات مرة قال النبي ﷺ في أحد مجالسه: أنَّ رجلاً من أهلِ الجنة استأذَنَ ربَّهُ في الزَّرع فقال: أو لستَ فيما شئتَ؟ قال: بلى ولكني أحبُّ أن أزرعَ، فأسرعَ وبذر فتبادَرَ الطَّرْفَ نباته واستواؤه واستحصاؤه وتكويرهُ أمثالَ الجبال فيقول اللّهُ تعالى: دونَك يا ابن آدم فإنه لا يُشبعُك شيءٌ، فقال الأعرابيُّ يا رسولَ اللَّه لا تَجِد هذا إلاَّ قُرشياً أو أنصاريّاً فإنَّهم أصحابُ زَرْعٍ فأمَّا نحن فَلَسنا بأصحابِ زَرْعٍ، فضحِك رسولُ اللَّهِ». (٢)

---

(١) البخاري، جـ٢، صـ ٣٨ تفسير وكذب بالحسنى. وهذا نص الحديث: (٤٨٢٩) حدَّثنا عثمانُ بن أبي شيبةَ حدَّثنا جريرٌ عن منصورٍ عن سَعد بن عُبيدةَ عن أبي عبد الرحمن السُّلَمي عن علي رضي الله عنه قال «كُنا في جَنازةٍ في بَقيع الغَرْقَد، فأتانا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقعدَ وقعَدْنا حولَه، ومعهُ مِخصَرَة، فنَكَّس فجعل ينكتُ بمخصَرته، ثم قال: ما منكُم من أَحَدٍ، ومَا من نَفْسٍ منْفُوسة، إلا كُتِب مكانُها من الجنة والنار، وإلا قد كُتبت شقيةً أو سَعيدةً. قال رجُلٌ: يا رسولَ الله أفلا نتكلُ على كِتابنا ونَدَعُ العَمَل، فمنْ كان منا من أهل السَّعادة فَسَيَصيرُ إلى أهل السَّعادة، ومن كان منَّا من أهل الشَّقاء فسيصير إلى عمل أهل الشقاوَة؟ قال: أما أهلُ السعادة فَيُيسَّرون لعَمل أهل السعادة، وأما أهلُ الشقاوةِ فَيُيسرون لعمل أهلِ الشقاءِ، ثم قرأ {فأما من أعْطَى واتَّقَى وصدَّق بالحسنَى} (الليل: ٥، ٦) الآية. (المترجم).

(٢) البخاري، جـ٢ صـ ١٢١، باب كلام الرب مع أهل الجنة. وهذا نص الحديث: (٧٣٥٣) حدَّثنا محمد بن سِنان حدثنا فُلَيحٌ حدثنا هلالٌ عن عطاءِ بن يسار عن أبي هريرة أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم «كان يوماً يُحدثُ وعندَه رجلٌ من أهلِ البادية أنَّ رجلاً من أهلِ الجنة استأذَنَ ربَّهُ في الزَّرع فقال: أو لستَ

في ذات مرة قدم رجل إلى النبي ﷺ وقال: هَلَكت. قال: ولم؟ قال: وَقَعت على أهلي في رمضانَ. قال: فأعتقْ رَقبة. قال: ليس عندي. قال: فصُم شهرَين مُتتابعيْن. قال: لاأستطيعُ. قال: فأطعم سِتّينَ مِسكيناً. قال: لاأجدُ فأُتيَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بعَرَقٍ فيه تمر، فقال: أين السائل؟ قال: هاأناذا. قال: تَصدَّق بهذا. قال: على أحوَجَ منّا يارسول الله؟ فوالذي بَعَثَك بالحقّ، مابين لابَتَيها أهلُ بيتٍ أحوَجُ منّا. فضَحكَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم حتى بَدَتْ أنيابُهُ. قال: فأنتم إذاً». [1]

تأثير صحبته ﷺ فيمن يصحبه

(قال أبو هريرة ﷺ ذات مرة لرسول الله: يا رسول الله، حينما نكون معك تهون علينا الدنيا؛ ولكن بعد أن نعود لبيوتنا وصغارنا يتغير حالنا. فقال النبي ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَكُونُونَ إِذَا خَرَجْتُمْ مِنْ عِنْدِي كُنْتُمْ عَلَى حَالِكُمْ ذَلِكَ لَزَارَتْكُمْ المَلاَئِكَةُ فِي بُيُوتِكُمْ". [2]

فيما شئتَ؟ قال: بلى ولكني أحبُّ أن أزرعَ، فأسرعَ وبذر فتبادرَ الطَّرْفَ نباته واستواؤه واستحصاؤه وتكويرهُ أمثالَ الجبال فيقول اللّهُ تعالى: دونَك يا ابن آدم فإنه لا يُشبعُك شيءٌ، فقال الأعرابيُّ يا رسولَ اللّه لا تَجد هذا إلاَّ قُرشياً أو أنصارياً فإنَّهم أصحابُ زَرْعٍ فأمَّا نحن فلَسنا بأصحابِ زَرْعٍ، فضحِك رسولُ اللّه». (المترجم).

[1] البخاري، صـ ٨٠٨، باب نفقة المعسر على أهله. وهذا نص الحديث: (٥٢٤١) حدّثنا أحمدُ بن يونسَ حدَّثنا إبراهيمُ بن سعدٍ حدثنا ابنُ شهابٍ عن حُميدِ بن عبد الرحمن عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه قال: «أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم رجلٌ فقال: هَلَكت. قال: ولم؟ قال: وَقَعت على أهلي في رمضانَ. قال: فأعتقْ رَقبة. قال: ليس عندي. قال: فصُم شهرَين مُتتابعيْن. قال: لاأستطيعُ. قال: فأطعم سِتّينَ مِسكيناً. قال: لاأجدُ فأُتيَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بعَرَقٍ فيه تمر، فقال: أين السائل؟ قال: هاأناذا. قال: تَصدَّق بهذا. قال: على أحوَجَ منّا يارسول الله؟ فوالذي بَعَثَك بالحقّ، مابين لابَتَيها أهلُ بيتٍ أحوَجُ منّا. فضَحكَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم حتى بَدَتْ أنيابُهُ. قال: فأنتم إذاً». (المترجم).

[2] الترمذي، باب ما جاء في صفة الجنة ونعيمها. وهذا الحديث ضعيف عند الترمذي.وهذا نصه: (٢٥٧٨) حَدَّثنا أَبُو كُرَيْب، حدثنا مُحمَّدُ بنُ فَضيلٍ عَنْ حَمْزَةَ الزَّيَّاتِ عَنْ زِيَادٍ الطائِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: «قُلْنَا يَا رَسُولَ الله: مَالَنَا إِذَا كُنَّا عِنْدَكَ رقَّتْ قُلُوبُنَا، وَزَهِدْنَا في الدُّنيا وكُنَّا مِنْ أَهْلِ الآخرَة، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ فَآنَسْنَا أَهَالِينَا وَشَمَمْنَا الأَوْلاَدَ أَنْكَرْنَا أَنْفُسَنَا؟ فَقَالَ رَسُولُ الله : «لَوْ أَنَّكُمْ تَكُونُونَ إِذَا خَرَجْتُمْ مِنْ عِنْدِي كُنْتُمْ عَلَى حَالِكُمْ ذَلِكَ لَزَارَتْكُمْ المَلاَئِكَةُ فِي بُيُوتِكُمْ، وَلَوْ لَمْ تَذْنِبُوا لَجَاءَ الله بِخَلْقٍ جديدٍ كَيْ يُذْنِبُوا فَيَغْفِرَ لَهُمْ. قَالَ قُلْتُ: يَا رسولَ الله مِمَّ خُلِقَ الْخَلْقُ؟ قالَ: مِنَ المَاءِ . قُلْنَا الْجَنَّةُ مَا بِنَاؤُهَا؟ قَالَ: «لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَمِلاَطُهَا المِسْكُ الأَذْفَرُ وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَاليَاقُوتُ وَتُرْبَتُهَا الزَّعْفَرَانُ مَنْ يَدْخُلْهَا يَنْعَمْ لاَ يَبْأَسْ، وَيَخْلُدْ لاَ يَمُوتُ: وَلاَ تَبْلَى ثِيَابُهُمْ وَلاَ يَفْنَى شَبَابُهُمْ. ثُمَّ قَالَ: ثَلاَثٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الإِمَامُ

وذات مرة قدم إليه حنظلة ﷺ وقال: حينما أكون معك وتتحدث عن الجنة والنـــار، أتخيل أنهما أمامي؛ ولكنى أنسى كل هذا بعد ذهابي لأهلي. فقال له النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَىٰ مَا تَكُونونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَىٰ فُرُشِـــكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ.» (1)

العَادِلُ، وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ يَرْفَعُهَا فَوْقَ الغَمَامِ، وَتَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ تبارك وتعالى: وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ» .

قال أبو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ لَيْسَ إِسْنَادُهُ بِذَاكَ القَوِيِّ، وَلَيْسَ هُوَ عِنْدِي بِمُتَّصِلٍ. وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْحَدِيثُ بِإِسْنَادٍ آخَرَ عن أَبِي مُدِلَّه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عن النبي. (المترجم).

(1) الترمذي، أبواب الزهد، وصحيح مسلم، كتاب التوبة. وهذا نص الحديث كما ورد فى مسلم: (٦٩١٥) حدثنا يَحْيَىٰ بْنُ يَحْيَىٰ التَّيْمِيُّ وَ قَطَنُ بْنُ نُسَيْرٍ واللَّفْظُ لِيَحْيَى. أَخْبَرَنَا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ إِيَاسٍ الْجُرَيْرِيِّ عَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ عَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِيِّ، قَالَ: وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ. قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ . يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ. حَتَّىٰ كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ. فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ. فَنَسِينَا كَثِيراً. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَىٰ مِثْلَ هَذَا. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّىٰ دَخَلْنَا عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ . قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ. يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ. تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ. حَتَّىٰ كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ. فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ. نَسِينَا كَثِيراً. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَىٰ مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَىٰ فُرُشِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ. وَلَكِنْ، يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً» ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. (المترجم).

الخطابة النبوية[1]

الخطابة عنصر ضروري للغاية للنبوة، لذا دعا موسى عليه السلام ربه حين أرسله إلى فرعون فقال: "واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي" (طه: ٢٧ــ ٢٨)

أما سيد الأنبياء محمد ﷺ فقد حباه ربه بهذه النعمة الكاملة؛ لذا قال محدثاً بنعمة ربه عليه: "**أنا أفصح العرب، وبعثت بجوامع الكلم**".

ومع أن كل القبائل العربية كانت أهلا للفصاحة والبلاغة، إلا أن هناك قبيلتين من بينهم امتازتا في هذه الناحية؛ وهما قبيلتا قريش وبنو هوزان. أما قريش فقد كان منها النبي ﷺ، وكذا تربى في هوزان. لذا قال عليه الصلاة والسلام: **أنا أعربكم، أنا من قريش، ولساني لسان بني سعد بن بكر**.[2]

طريقته وأسلوب بيانه في الخطابة

كان النبي ﷺ يخطب بطريقة بسيطة جداً. وحينما كان يخرج من بيته، لا يخرج برفقة الحرس كالسلاطين، ولا بملابس الخطباء؛ بل كان يأخذ بيده عصا. وأحياناً يخطب متكئًا على قوس.[3] ففي ابن ماجه، أن النبي ﷺ كان يمسك بيده الشريفة عصا حينما يخطب، وكان يتكئ على قوس حينما يخطب في ساحة القتال. وكانت خطبتا الجمعة والعيدين (محددتين) لهما ميقات خاص، أما ما عداهما من الخطب فلم يكن لها وقت محدد. فقد كان يخطب فى المسلمين إذا دعت الحاجة. لذا خطب ﷺ على أماكن مختلفة كالأرض والمنبر والجمل. ومع أن النبي ﷺ كان يضطر في بعض الأحيان لإطالة الخطبة، إلا أن خطبه عامة كانت موجزة عامة.

وكان يتحدث بأسلوب إخباري إذا تحدث في الوعظ والإرشاد، وبأسلوب استفهامي إذا أراد أن يجعل الخطاب مؤثراً. وقد كانت الخطبة التي خطبها النبي ﷺ أمام الأنصار كلها عبارة عن سؤال وجواب، وتلك هي السمة البارزة في خطبة حجة الوداع وفي غيرها من الخطب. (كما سيرد ذكره). وكانت الحماسة في خطاب النبي ﷺ تصل لدرجة أن تحمرَّ

---

[1] أضفت هذا الباب "سيد سليمان الندوي".

[2] طبقات ابن سعد، صـــ ٧٧.

[3] أبو داود، جــ١، كتاب الصلاة أبواب الجمعة والخطبة على قوس.

عينه ويعلو صوته. وكان إذا اشتد غضبه تحركت أصابعه، وكان يحث جيشاً على القتال.(١) وينتفض جسده من حماسة الحديث،(٢) فكان يسمع صوت كصوت تكسر العيدان من أثر حركت يديه.(٣) وكان أحياناً يقبض كفيه وأحياناً يبسطها. ولقد صور عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما هذه الحالة الحماسية لرسول الله ﷺ فقال: **سمعت رسول الله على المنبر يقول يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيده وقبض يده فجعل يقبضها ويبسطها. قال ويتمائل رسول الله ﷺ عن يمينه وعن شماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى أدني لا أقول ساقط هو برسول الله ﷺ** (ابن ماجة ذكر المبعث).

نوعية خطبه ﷺ

جُمعت خطب رسول الله وفقراتها المتفرقة بلا ترتيب معين في كتب الحديث. ويجب أن نلاحظ أن النبي كانت له حيثيات عديدة، وكان لكل حيثية أسلوب خاص بها، فقد كان ﷺ داعية وفاتح وواعظ وأمير جيش وقاض ورسول؛ لذا أوجد تعدد هذه الحيثيات اختلافاً كبيراً في أسلوب بيانه وخطبه ﷺ، وهذا ما تقتضيه البلاغة. كانت الخطبة التي يلقيها بصفته داعية تفيض حماسة وثورة، فيبدوا النبي ﷺ وقتها وكأنه أمير جيش. لأنه حينما نزل قول الله تعالى "وانذر عشيرتك الأقربين" (الشعراء: ٢١٤) جمع قريشا وأراد أن يخطب فيهم. وبالرغم من أن شرور أبى لهب حالت دون اكتمال الخطبة، إلاّ أن بعض الجمل التي قالها النبي ﷺ حينذاك تنم عن قوة تعبيره. فقد صعد النبي ﷺ جبل الصفا ونادى قائلاً: "يا صاحباه" وهي كلمة تقال عند العرب في حالة هجوم مفاجئ لقبيلة على قبيلة أخرى وقت الصباح، فلما سمع الناس هذا النداء نهضوا واجتمعوا عند رسول الله، فقال النبي ﷺ لهم: **أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟**

قالوا جميعاً: ما جربنا عليكُ كذباً قط. وبعد أن جعلهم النبي ﷺ يقرون بذلك، قال: "**إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**". فقال له أبو لهب باستخفاف تباً لك أ لهذا جمعتنا.(٤)

وفي غزوة حنين، حينما وزَّع النبي ﷺ كل مال الغنيمة على المؤلفة قلوبهم، ولم يعط الأنصار، غضب بعض الشبان وقالوا: سامح الله النبي، يعط قريشًا ويحرمنا، على

---

(١) صحيح مسلم، باب تخفيف الصلاة والخطبة، صـ ٣١٩.

(٢) ابن ماجه، ذكر المبعث.

(٣) مسند ابن حنبل، جـ٦، صـ٤٠٢

(٤) البخاري، جـ٢، صـ ٤٣، تفسير سورة تبت.

الرغم من أن سيوفنا تقطر دماً. فلما سمع النبي ﷺ بذلك جمع كل الأنصار في خيمة وس عن ذلك، فقالوا: قال ذلك بعض الشباب يا رسول الله، أما أصحاب الرأي والسادة منا فلـ ينطقوا بلفظ واحد. فقام النبي ﷺ وخطب قائلاً "**يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي**".

فكان الأنصار يؤمنون على كل كلام النبي ﷺ بقولهم اللهُ ورسولهُ أمنُّ، فقال النبي ﷺ: "أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا فآسيناك". ثم بعد ذلك أجاب النبي على المعترضين فقال: "**أ لا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به**".

فصاح الأنصار جميعاً قائلين "رضينا".[1] ولو تدبرنا هذه الخطبة لوجدناها جديرة بأن تكتب في رسالة صغيرة. ولم يخطب النبي ﷺ بجيشه فاتحاً إلا يوم فتح مكة، ووردت عبارات هذه الخطبة متفرقة في كتب الحديث. وقد كانت مكة مدينة مقدسة للغاية عند العرب، وكان الحرم بمثابة دار للأمان والسلم، فلم يسفك فيه دم إطلاقا. ولم يسل فيه دم إلا يوم فتح مكة. ولأن هذا حدث بسبب الدين، لذا كان يمكن الاعتقاد أن هذا الاحترام لا ينمحي أبدا. وهذان الجانبان هما ما أكد عليهما رسول الله في خطبته. وقد ذكرهما النبي ﷺ بالترتيب، فنظر إلى الصحابة وقال: **إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام بحرام الله إلى يوم القيامة لم تحل لأحد قبلي. ولا تحل لأحد بعدي ولم تحل لي قط إلا ساعة من الدهر لا ينفر صيدها ولا يعضد شوكها ولا يختلى خلاها ولا تحل لقطتها إلا لمنشد.**

وكانت خطبة حجة الوداع أهم خطب النبي ﷺ، وهي عبارة عن مجموعة أحكام مبسطة، لذا كان يجب أن تكون جافة إلى حد ما، لكنها على الرغم من ذلك ليست أقل من الخطب الأخرى في سهولتها وسلامة ألفاظها. ولقد أبرز النبي أهمية هذه الخطبة بعد أن حمد الله وأثنى عليه بقوله: "**أيها الناس اسمعوا فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا**". كانت الصيغة البسيطة لهذا أن يقول النبي ﷺ: هذا آخر أعوام عمري، لكن هذا التفصيل وهذا الأسلوب زاد المعنى قوة ... ثم قال النبي ﷺ للمسلمين "إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام". وقد عبر عن هذا بهذا الأسلوب

---

[1] صحيح البخاري، غزوة حنين.

البليغ:"أتدرون أي يوم هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإن هذا يوم حرام. أ فتدرون أي بلد هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: بلد حرام، قال أتدرون أي شهرَ هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: شهر حرام". وهكذا حينما أوضح النبي للناس حرمة هذا اليوم وهذا الشهر وهذا البلد، أوضح ما يهدف إليه بقوله: "إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض".

كما لقنهم النبي ﷺ درسًا في المساواة بقوله: "إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم من آدم وآدم من تراب، أن أكرمكم عند الله اتقاكم".

وقد كان شن الغارات هو الوسيلة التي تعيش عليها العرب، ولأن هؤلاء الناس لم يكونوا يستطيعون العيش بلا عمل طوال مدة الأشهر الحرم الأربع؛ لذا كانوا يبدلون في (ميقات) هذه الأشهر. وهذا ما يسمى بالنسيء، وقد نهاهم القرآن الكريم عن ذلك فقال:

"إنما النسيء زيادة في الكفر" وهذا ما أعلنه النبي ﷺ في خطبته حين قال: "إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض.

فضلا عن هذه الحيثيات كان النبي ﷺ معلماً وواعظاً أيضا. والخطب التي خطبها النبي ﷺ في هذه الناحية، خطب رغم أنها بسيطة، إلا أنها تحوي في طياتها أسلوباً يفيض بلاغة. فلا حاجة للواعظ لتراكيب ملفوفة ولا لألفاظ قوية ولا لتشبيهات واستعارات، إذ أنه يؤدي مطالبه بألفاظ سهلة وجمل واضحة وعبارات موجزة. وقد كانت خطب النبي ﷺ في هذا المجال تتسم بكل هذه السمات، فكانت أول عبارة قالها النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة هي: "يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام".

وقال في خطبة أول جمعة صلاها بالمدينة، طبقا لما رواه ابن إسحاق بعد الحمد والثناء:

"أما بعد: أيها الناس فقد من إلا نفسكم، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ثم ليقولن له ربه ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه، ألم يأتك رسولي فبلغك، وآتيتك مالا فأفضلت عليك فما قدمت لنفسك، فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم فمن استطاع أن يتقي بوجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإنها تجزي الحسنة بعشر أمثالها إلى

سبع مائة ضعف. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته" وفي المرة التي تلتها قال: **الحمد لله أحمده وأستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، إن أحسن الحديث كتاب الله، قد أفلح من زينه الله في قلبه وأدخله في الإسلام بعد الكفر فاختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أحسن الحديث وأبلغه. أحبوا ما أحب الله. أحبوا الله من كل قلوبكم ولا تملوا كلام الله وذكره ولا تقس عنه قلوبكم، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً واتقوه حق تقاته، وصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم وتحابوا بروح الله بينكم، إن الله يغضب أن ينكث عهده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.**

وذات مرة خطب النبي ﷺ خطبة تحدث فيها عن أمور خمس فقط هي:

أن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور. (صحيح مسلم رواية عن الله تعالى).

وغالباً ما كان النبي ﷺ يتحدث في خطبة الجمعة عن الزهد والتقوى وحسن الخلق، وعن أهوال القيامة وعذاب القبر، وعن صفات الله تعالى. وإن عرض عارض وسط الأسبوع تحدث عنه. وكثيراً ما كان يقرأ سورة مؤثرة تشتمل على الموضوعات السابقة بدلاً من أن يخطب خطبة جديدة، مثلما كان يقرأ سورة "ق "، إذ كان ﷺ يتلو هذه السورة كثيراً في خطبة الجمعة، أما في خطبة العيد، فكان يؤكد على موضوع الصدقة إضافة للموضوعات السابقة. أما الخطبة الفجائية، فكان يلقيها طبقاً لحدثها، فيوضح فيها ما يقتضيه الحال. ففي ذات مرة كسفت الشمس وتصادف أن توفى يوم ذاك ابنه إبراهيم ﷺ، فزعم الناس أن الشمس قد كسفت لموت إبراهيم. لذا خطب رسول الله قائلاً: **"أما بعد يا أيها الناس إنما الشمس والقمر آيتان من آيات الله وإنهم لا ينكسفان لموت أحد من الناس، ما من شيء لم أكن رأيته إلا قد رأيت من مقامي هذا حتى الجنة والنار وإنه قد أوحى إلي أنكم تفتنون في القبور مثل فتنة الدجال فيؤتى أحدكم فيقال ما علمك بهذا الرجل فأما الموقن فيقول هو محمد هو رسول الله جاء بالبينات وهدى فأجبنا وأطعنا. أما المرتاب فيقول لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلت أنه عرض على كل شيء تولجونه فعرضت على الجني حتى لو تناولت منها قطفاً أخذته فقصر يدي عنه، وعرضت على النار فرأيت فيها امرأة تعذب هرة لها ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من حشاش**

الأرض ورأيت أبا ثمامة عمرو بن مالك يجر قصبة في النار وأنهم كانوا يقولون أن الشمس والقمر لا يخسفان إلا لموت عظيم وأنهما آيتان من آيات الله يريكموهما فإذا خسفا فصلوا حتى تنجلي.[1]

ووردت خطبته ﷺ الموجزة عن اجتناب البدع والتمسك بالسنة بعبارات مختلفة في أكثر كتب الحديث.

إنما هما اثنتان: الكلام والهدى؛ فأحسن الكلام كلام الله، وأحسن الهدى هدي محمد. ألا وإياكم ومحدثات الأمور، فإن شر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة ألا لا يطولن عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم. ألا إن ما هو آت قريب، وإن البعيد ما ليس بآت، ألا إنما الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من وعظ بغيره. ألا إن قتال المؤمن كفر وسبابه فسوق ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، ألا وإياكم والكذب. (ابن ماجه، باب اجتناب البدع).

التأثير القوي (فى السامعين)

في الحقيقة، كانت خطب النبي ﷺ معجزة إلهية في قوة تأثيرها وصداها. حيث كانت القلوب المتحجرة تلين بسماعها في لحظات. ففي ذات مرة تلا النبي ﷺ آيات من سورة النجم في مكة، فخر صناديد الكفر سُجداً مع المسلمين بقوة تأثيره.[2]

سمع أحد أصدقاء النبي ﷺ قبل بعثته ﷺ أنه قد أصيب بالجنون، فأتى إليه ليعالجه ﷺ، حيث إنه كان على دراية بأمور السحر. فتحدث النبي ﷺ أمامه حديثاً موجزاً، فقال الرجل: كرره يا محمد، فكرره الرسول ﷺ. فقال الرجل لقد سمعت قصائد الشعراء وكلام الكهان لكن هذا شيء مختلف.[3]

ذات مرة هجر رجل حديث العهد بالإسلام قبيلته وجاء إلى المدينة، فرأى النبي ﷺ ضرورة مساعدته؛ لذا جمع المسلمين في المسجد النبوي وخطب فيهم، وتلا الآية الكريمة التالية: "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة " (النساء:١) والتي تبين أن الناس جميعاً من نفس واحدة، ثم قرأ بعدها آية سورة الحشر التالية "ولتنظر نفس ما قدمت لغد". (الحشر:١٨)

---

[1] صحيح مسلم، بروايات مختلفة.

[2] صحيح مسلم، باب تخفيف الصلاة وقصر الخطبة.

[3] صحيح مسلم، باب تخفيف الصلاة وقصر الخطبة.

ثم أمرهم بعد ذلك بالإنفاق مما عندهم من الدراهم أو الأقمشة أو الحبوب أو حتى من التمر في سبيل الله. ومع أن حالة المسلمين المادية في المدينة كانت كما روت كتب السيرة (حالة متعسرة)؛ لكن بسبب قوة تأثير ووقع خطبة النبي ﷺ همَّ كل من كان عنده حاجة فأحضرها. حتى أن البعض خلع ملابسه، والبعض أحضر قوت داره. وذهب أحد الأنصار فاحضر من بيته كيس دراهم حمله بصعوبة. ويقول راو بأنه بعد قليل من الوقت تكونت كومتان كبيرتان من الغلال والأقمشة أمام النبي ﷺ، فبرق وجه النبي ﷺ من فرط سروره.[1]

ولقد كان حديث النبي ﷺ يحل المشاكل ويجري نهر المحبة حتى في أشد الأزمات؛ فبفضله تحولت العداوات القديمة بين الأوس والخزرج إلى محبة. وفي ذات مرة خرج الرسول ﷺ قبل غزوة بدر راكباً، والمنافقون مجتمعون في مجلس، فسلم المسلمون عليهم بأدب؛ لكن المنافقين أساءوا في الجواب. فكانت هذه هي الشرارة التي أشعلت الموقف وأوشك الفريقان على القتال. لكن النبي ﷺ أطفأ هذه النار ببضع من كلماته ﷺ.[2] ذات مرة أثناء العودة من غزوة بني المصطلق أشعل المنافقون الفتنة حتى أوشك أن يدب القتال بين المهاجرين والأنصار. وحين علم النبي ﷺ بهذا جاء من فوره وخطب فيهم خطبة أزالت كل ما نشأ بينهما من خلاف في لحظات.[3] وقد احتدم الخلاف بين الأوس والخزرج إثر حادثة الإفك حتى كادوا يستلون أسيافهم في المسجد النبوي، فصعد النبي ﷺ على المنبر وخطب فيهم خطبة أعادت جريان نهر المحبة بينهم.[4]

وحين امتعض الأنصار من تقسيم مال الغنيمة في غزوة حنين خطب النبي فيهم بأسلوب بليغ ــ مر ذكره بإيجاز سابقا ــ فما تأثير هذه الخطبة ؟ كانت النتيجة أن أخذ الأنصار الذين كانوا قبل قليل غاضبين يبكون لدرجة أن ابتلت لحاهم وسقط كل غبار قلوبهم بقطرات من نهر كوثر النبي.[5] وحينما عفا النبي ﷺ يوم فتح مكة عن رؤساء مكة خلافاً لما كان يتوقعه الأنصار، واعترض نفر منهم ممن لم يكونوا على بصيرة كاملة بخلق النبي

---

(1) صحيح مسلم، باب الصدقات.

(2) صحيح البخاري، السلام على جماعة فيها المسلم والكافر.

(3) صحيح البخاري، تفسير سورة المنافقون، وورد في ابن سعد، غزوة بنى المصطلق.

(4) صحيح البخاري، قصة الإفك.

(5) صحيح مسلم، فتح مكة.

ﷺ، وقال إن النبي ﷺ حن في النهاية لبلده وأهله. وحينما علم النبي ﷺ بذلك جمع الأنصار: ما حديث بلغني عنكم. قالوا: نعم يا رسول الله. فقال عليه الصلاة والسلام: لم أراع الوطن ولا الأهل ولكني عبد الله ورسوله. لقد هاجرت إلى الله وإليكم فحياتي الآن حياتكم ومماتي مماتكم. فرقت قلوب الأنصار بعد ما سمعوا هذا وغمرهم البكاء. وكانت الخطب التي خطبها النبي ﷺ عن الوعظ والإرشاد مؤثرة هي الأخرى لدرجة صورها لنا أحد الصحابة بقوله: **وعظنا رسول الله ﷺ يوما بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب** (الترمذي وأبو داود).

تروى السيدة أسماء بنت أبي بكر كيفية تأثير إحدى جلسات وعظ النبي ﷺ فتقول: **قام رسول الله ﷺ خطيباً يذكر فتنة القبر التي يفتن بها المرء، فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجة.**(١)

روى عن أبى هريرة وأبى سعيد أن النبي ﷺ كان يخطب ذات مرة، فخرج من فمه الشريف هذا القول: "**والذي نفسي بيده**"، كرر النبي ﷺ هذا القول ثلاث مرات ثم ركع. فركع كل شخص مكانه وأخذ يبكي. يقول الراوي: حتى أننا لم نعد نعى ما كان يقسم عليه رسول الله ﷺ.(٢)

يقول أنس ﷺ: خطب رسول الله ﷺ ذات يوم خطبة مؤثرة ما سمعت مثلها قط. قال في خطبته:" لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا". قال: فغطى أصحاب رسول الله وجوههم بملابسهم ويبكون بلا إرادة.(٣)

---

(١) صحيح البخاري، ما جاء في عذاب القبر.

(٢) سنن النسائي، كتاب الزكاة.

(٣) صحيح البخاري، تفسير سورة المائدة.

"فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب". (الشرح:٧،٨)

لا يمكن[١] الوقوف بطريقة صحيحة على طريقة وأوقات ونوعية عبادة أي نبي بعث إلى الدنيا غير سيدنا محمد ﷺ؛ حيث أن الباب الذي ذكرت فيه حياة وأحوال الأنبياء السابقين منذ سيدنا نوح، بل منذ سيدنا آدم إلى سيدنا موسى عليهم السلام في التوراة مفقود قطعاً من صحائف بني إسرائيل. ولا نجد في التوراة عن سيدنا موسى إلا ما يشير على أنه كان يدعو الله أحياناً. ولكن إذا كان أئمة المذاهب الأخرى قد أهملوا أنبيائهم فما حفظوا حتى تلك الأمور الضرورية التي ينبني عليها الدين والشرع، فعلى أئمة الإسلام أن يفخروا بأنهم حفظوا كل شيء عن أوقات عبادة نبيهم وعن طريقة وأنواع وكيفية وكل دقائق عبادته ﷺ.

الدعاء والصلاة

كان رسول الله ينشغل بعبادة ربه قبل بعثته ﷺ، فكان يذهب إلى غار حراء يتعبد فيه شهورا. ومع بعثته ﷺ وُضِّحت له طريقة الصلاة. لكنه كان يُسِرُّ صلاته مخافة كفار قريش. فكان إذا حان وقت الصلاة يذهب لأدائها خلف سفح أي جبل. ويذكر أنه ذات مرة كان النبي ﷺ يصلي في أحد الأودية وكان معه علي رضي الله عنه، فصدف أن نزل عليهما أبو طالب، فنظر للنبي ﷺ وقال: ماذا تفعل يا ابن أخي؟ فدعاه النبي ﷺ للإسلام [٢].

لكن النبي ﷺ كان يصلي صلاة الضحى في الحرم جهراً لأن هذه الصلاة كانت جائزة عند قريش[٣] وقد ورد في صحيح البخاري أن النبي ﷺ كان يصلي في الحرم في ذات يوم وكان رؤساء قريش جالسين يهزءون به، فقال أبو جهل: ليت أحدا يمر فأجمع من روث البعير وأضعه على رقبة محمد ﷺ حين يسجد. وقد نفذ هذا الاقتراح عقبة[٤].

---

[١] أضفت هذا الباب كله."سيد سليمان الندوى".

[٢] صحيح البخاري، باب بدء الوحي.

[٣] مسند ابن حنبل، جـ١، صـ٩٥.

[٤] ابن الأثير. ورد فى صحيح مسلم: (٤٦٠٤) ـــ وحدثنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبَانٍ الْجُعْفِيُّ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحِيمِ يَعْنِي ابْنَ سُلَيْمَانَ عَنْ زَكَرِيَّاءَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ الأَوْدِيِّ عَن

كما كان الكفار يسيئون إلى النبي ﷺ في صلاته حيث كان يجهر بالقراءة[١]، ففي ذات مرة كان النبي ﷺ يصلي في الحرم وأراد المشركون إيذاءه[٢]، فألقى أحدهم في رقبته حبلاً[٣]؛ لكنه ﷺ لم يرجع رغم ذلك عن أداء واجبه لثقته بربه[٤]. وقد كان النبي ﷺ يصلي لـيلاً، وتوجد روايات مختلفة عن الصحابة تروي عن تهجده ﷺ، فيقول راو: إن النبي ﷺ كـان يقوم الليل كله. وتقول أم سلمة: كان النبي ﷺ ينام قليلاً ثم يقوم فينشغل في الصلاة، ثم ينام ثم يقوم فيصلي. وهكذا كان حاله ﷺ حتى الفجر. وفي رواية ابـن عبـاس (رضـى الله عنهما) أن النبي ﷺ كان يقوم بعد نصف الليل ويصلي ثلاث عشرة ركعة. أمـا السـيدة عائشة(رضى الله عنها) فقد روت ٩ ركعات. ولقد وفق المحدثون بـين هـذه الروايـات فقالوا: إن النبي ﷺ صلى بكل هذه الحالات. وإن كل راوٍ بين ما رآه[٥]. وقد مـر ذكـر طريقة تهجده ﷺ على لسان السيدة عائشة وابن عباس تحت عنوان "قيام الليل".

عادة ما كان النبي ﷺ يصلي كل يوم ٣٩ ركعة نفلاً إضافة للفـرائض الخمسـة، ركعتين سنة الفجر، وأربعا للضحى، وستا للظهر، وستا للعصر (أربع قبل الفرض واثنتين بعده حسب ما روت السيدة عائشة) وركعتي المغرب، وست العشاء، وثلاث عشرة ركعة

ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، وَقَـدْ نُحِـرَتْ جَزُورٌ بِالأَمْسِ. فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَىٰ سَلاَ جَزُورِ بَنِي فُلاَنٍ فَيَأْخُذُهُ، فَيَضَعُهُ فِي كَتِفَيْ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ فَأَخَذَهُ، فَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ. قَالَ: فَاسْتَضْحَكُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَىٰ بَعْضٍ، وَأَنَا قَائِمٌ أَنْظُرُ، لَوْ كَانَتْ لِي مَنَعَةٌ طَرَحْتُهُ عَنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَالنَّبِيُّ سَاجِدٌ، مَـا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى انْطَلَقَ إِنْسَانٌ فَأَخْبَرَ فَاطِمَةَ. فَجَاءَتْ، وَهِيَ جُوَيْرِيَةٌ، فَطَرَحَتْهُ عَنْهُ. ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَـيْهِمْ تَشْتِمُهُمْ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ صَلاَتَهُ رَفَعَ صَوْتَهُ ثُمَّ دَعَا عَلَيْهِمْ، وَكَانَ إِذَا دَعَا، دَعَا ثَلاَثاً. وَإِذَا سَأَلَ، سَأَلَ ثَلاَثاً. ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ! عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ» ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ ذَهَبَ عَنْهُمُ الضِّـحْكُ، وَخَـافُوا دَعْوَتَهُ. ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ! عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيـدِ بْـنِ عُقْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ» (وَذَكَرَ السَّابِعَ وَلَمْ أَحْفَظْهُ) فَوَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّداً بِالْحَقِّ لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ سَمَّىٰ صَرْعَىٰ يَوْمَ بَدْرٍ. ثُمَّ سُحِبُوا إِلَىٰ الْقَلِيبِ، قَلِيبِ بَدْرٍ. قَالَ أَبُو إِسْحَـقَ: الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ غَلَطٌ فِي هَـذَا الْحَدِيثِ. (المترجم).

[١] صحيح البخاري، باب الطهارة والصلاة.

[٢] صحيح البخاري، تفسير سورة بني إسرائيل.

[٣] ابن هشام، ذكر قبل الهجرة.

[٤] صحيح البخاري، باب ما لقي النبي بمكة.

[٥] كتب الزرقاني هذا البحث تفصيلاً في شرح المواهب.

ليلاً وواحدة وتر. ولم تدخل صلاة الأوابين ولا سنة تحية المسجد ضمن هذا العدد. وكان النبي ﷺ يحرص من بين كل هذه السنن جميعاً على ركعتي الفجر[١]، وإن حدث ولم يصل سنة ما خلافاً لعادته، كان يقضيها، مع أن قضاء السنن ليس واجباً على عامة المسلمين طبقاً لما نص عليه الشرع. ولم يحدث أن حدث هذا مع النبي ﷺ إلا مرة واحدة حينما جاءه وفد بين الظهر والعصر، ولم يتمكن النبي ﷺ وقتها من أداء ركعتي سنة الظهر. لذا قضاها بعد صلاة العصر في إحدى حجرات أمهات المؤمنين. ولأن أمهات المؤمنين لم يألفن أن يصلي النبي ﷺ في هذا الوقت؛ لذا سألنه فوضح لهن النبي ﷺ ذلك. ويكون قضاء الصلاة لعامة المسلمين مرة واحدة. أما النبي ﷺ فلأنه كان لا يريد أن يترك شيئاً بدأه؛ لذا ـ كما ذكرت السيدة عائشة وأم سلمة ـ ظل رسول الله ﷺ يقضي هذه الصلاة طيلة حياته[٢].

كان شهر رمضان أكثر شهور عبادته ﷺ. يقول ابن عباس (رضى الله عنهما): كان النبي ﷺ جواداً ولم يكن لجوده حد. فإذا هلّ رمضان وجاءه جبريل ليتلو عليه القرآن، سبق جوده الهواء[٣]. وكان النبي ﷺ يجتهد في العبادة في العشر الأواخر من رمضان، تقول السيدة عائشة: كان رسول الله ﷺ يقوم الليل كاملاً إذا ما حل الثلث الأخير من رمضان، وينقطع عن أزواجه، وفي هذا الثلث كان النبي ﷺ يعتكف عموما في المسجد، أي يجلس في المسجد وينشغل بذكر الله وعبادته تعالى[٤].

كان النبي ﷺ يتلو القرآن يومياً. ويتضح من رواية لأبي داود أن وقت تلاوة النبي كان بعد صلاة العشاء[٥]. وكان يحدد لكل يوم عدد من السور يتلو القرآن طبقاً له. وكان يتلو القرآن الكريم كاملاً في رمضان[٦]، ويقوم آخر الليل يتلو أي سورة أو بعض آيات من القرآن. يقول عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما) رأيت النبي ﷺ ذات ليلة يقوم من

---

(١) صحيح البخاري، أبواب النوافل والسنن.

(٢) مسند أحمد وأبو داود وصحيح مسلم، الركعتان بعد العصر.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصوم.

(٤) صحيح البخاري، باب الاعتكاف.

(٥) أبو داود، شهر رمضان.

(٦) صحيح البخاري، بدء الوحي.

نومه في الثلث الأخير من الليل وقت تلألؤ النجوم، وسط صمت الليل، فنظر إلى السماء ثم تلا قوله تعالى:[1]

"إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فأمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف المعياد﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا لأُكفرنّ عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب﴿" (آل عمران: ١٩٠-١٩٥).

في هذا التوقيت أيضاً كان النبي ﷺ يقول تلك الكلمات التي تفيض روحانية: "**اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض لك الحمد وأنت قيوم السماوات والأرض ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق ولقائك الحق والجنة حق والنار حق والساعة حق. اللهم لك أسلمت وبك أمنت. وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وأسررت وأعلنت أنت إلهي لا إله إلا أنت** (صحيح مسلم، باب الدعاء في صلاة الليل)

كان النبي ﷺ ينهض أحيانا من فراشه بعد أن ينام أهل بيته وينشغل بالدعاء والمناجاة. تقول السيدة عائشة: قمت من نومي ذات ليلة فما وجدت رسول الله ﷺ على الفراش، فاعتقدت أنه ربما يكون قد ذهب إلى حجرة إحدى زوجاته الأخريات، فتحسست المكان في الظلام فوجدته ﷺ ساجداً ومنهمكاً في العبادة. فلما رأيت ذلك ندمت على ريبى، وقلت في نفسي: سبحان الله، في أي شيء تفكر ورسول الله في أي عالم![2]. وأحياناً كان النبي ﷺ يهب من نومه ثم يذهب إلى المقابر بمفرده يدعو الله ويتضرع إليه. في ذات مرة تعقبته السيدة عائشة فرأت أنه ﷺ دخل البقيع واخذ يدعو الله [3].

---

(١) سنن النسائي، باب الغيرة.

(٢) سنن النسائي، باب الغيرة.

(٣) المرجع السابق، باب الاستغفار للمؤمنين.

كان ﷺ ينام بعد الدعاء والصلاة نوماً عميقاً حتى صلاة الفجر، ثم يقوم وقت الفجر فيصلي ركعتي السنة ثم يذهب للمسجد وهو يقول: **اللهم أجعل في قلبي نوراً وفي لساني نوراً واجعل في سمعي نورا واجعل في بصري نورا واجعل في خلقي نورا ومن أمامي نورا واجعل من فوقي نورا وتحتي نورا وأعطني نورا.** (صحيح مسلم، باب الدعاء في صلاة الليل).

كانت أقل وقفة في صلاة النبي ﷺ هي بعد قيامه من الركوع. لكن روى عن أنس: أنه ﷺ كان يقف بعد الركوع لدرجة أن الناس كانت تعتقد أن النبي ﷺ نسى أن يَسجد[1]. كما كان النبي ﷺ يبتعد عن كل ما يلهى في الصلاة. ففي ذات مرة التف ﷺ بالبردة وشرع في الصلاة، وأثناء الصلاة وقع نظره على طرفي البردة فلما فرغ من صلاته أعطاها الشخص (أبو جهم) وقال له: اذهَبوا بخَميصتي هذهِ إلى أبي جَهْمٍ وائْتوني بأَنْبجانيةِ أبي جَهم، فإنها ألهَتْني آنفاً عن صلاتي [2].

ذات مرة كان على الباب ستاراً مزخرفاً وقعت عليه عين النبي ﷺ أثناء الصلاة، فأمر السيدة عائشة رضي الله عنها بإبعاده إذ شغل قلب النبي [3].

الصيام

لقد عد الأنبياء وأئمة الدين تقليل الغذاء؛ بل تركه (الصيام) من أهم العوامل الضرورية لتزكية النفس. ولقد غالى زهاد ورياضيو ودعاة الدين في هذا الشأن. أما دعاة الإسلام فقد انتهجوا نهجاً وسطاً في هذا الشأن بين الإفراط والتفريط. كانت العرب قبل الإسلام تصوم يوم عاشوراء، وهكذا كان النبي ﷺ أيضاً يصوم هذا اليوم كعادته، ويتضح من بعض الأحاديث أن النبي ﷺ كان يصوم شهوراً متتالية أثناء إقامته بمكة. لكن هذه العادة تغيرت بعد الهجرة، فقد كان اليهود بالمدينة يصومون عاشوراء، كما صامه النبي

---

[1] مسند ابن حنبل، ج٣، ص١٧٢.

[2] صحيح البخاري، ج ١، ص٥٤، كتاب الصلاة. وهذا نص الحديث: {(٣٧١) حدَّثنا أحمدُ بنُ يونسَ قال: حدَّثنا إبراهيمُ بنُ سَعدٍ قال: حدَّثنا ابنُ شِهابٍ عن عُروةَ عن عائشةَ: «أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم صلَّى في خَميصةٍ لها أعلامٌ فنَظَرَ إلى أعلامِها نَظرةً، فلما انصرفَ قال: اذهَبوا بخَميصتي هذهِ إلى أبي جَهْمٍ وائْتوني بأَنْبجانيةِ أبي جَهم، فإنها ألهَتْني آنفاً عن صلاتي». وقال هِشامُ بنُ عُروةَ عن أبيهِ عن عائشةَ: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «كنتُ أنظُرُ إلى علَمِها وأنا في الصلاةِ فأخافُ أنْ تَفتِنَني». (المترجم).

[3] صحيح البخاري، كتاب اللباس والصلاة.

ﷺ أيضاً؛ بل إنه أكد على صوم المسلمين جميعاً لهذا اليوم، ولكن حينما فرض صوم رمضان، أصبح صوم عاشوراء نفلاً.

ولم يصم رسول الله ﷺ في المدينة شهراً كاملاً إضافة لرمضان سوى شهر شعبان، حيث كان ﷺ يصومه كاملاً، وهكذا كان النبي ﷺ يصوم شهرين متتاليين شهر شعبان ورمضان. أما بقية أشهر السنة فلم يكن فيها عرف أو نظام معين. وغالباً ما كان النبي ﷺ يصوم الأيام التي يطلق عليها الأيام البيض من كل شهر. وهكذا فقد كان النبي ﷺ معتاداً على صيام ثلاثة أيام إضافة ليومي الاثنين والخميس من كل شهر. وورد في بعض الروايات أنه ﷺ كان معتادًا على صوم يوم الجمعة أيضا. علاوة على ذلك، كان النبي ﷺ يصوم عشرة أيام من محرم منذ غرته حتى يوم العاشر، وكذا ستة أيام من شوال منذ الثاني حتى السابع[1].

إضافة لهذه الأيام كانت هناك أياماً طارئة يصومها رسول الله؛ حيث كان ﷺ يذهب إلى البيت في بعض الأحيان ويقول: "هل عندكم طعام؟"، فإذا قيل له: ليس هنا طعام. قال: "إني صائمٌ" [2]. وكان النبي أحياناً يواصل في الصوم؛ أي يصوم أياماً عديدة دون أن يأكل أو يشرب شيئاً، أو يأكل شيئاً قليلاً جداً. لكنه ﷺ منع الصحابة من تقليده في هذا حينما أرادوا ذلك. وقد حمل بعض الناس ممانعة النبي ﷺ لهم على أساس أنها شفقة من النبي وليست حكماً شرعياً، لذا أخذوا يواصلون الصوم رغم منع النبي لهم. فلما علم النبي ﷺ بذلك واصل الصوم ليومين، وتصادف أن ظهر الهلال في اليوم الثالث. فأخبر النبي ﷺ بأنه لو لم يظهر الهلال لواصل الصيام حتى يُمحى غلو المغالين في الدين. قال الصحابة: فلم تواصل الصوم يا رسول الله؟. قال ﷺ: إنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُم إنِّي أُطْعَمُ

[1] ذكرت كل هذه الأحاديث المتعلقة بالصوم في كل كتب الحديث وأمامي الآن سنن أبي داود وصحيح مسلم، كتاب الصوم.

[2] أبو داود، باب النية في الصيام.وهذا نص الحديث كما ورد فى باب الرخصة فى ذلك: (٢٤٥٦) — حدثنا مُحَمَّدُ بنُ كَثِيرٍ أنْبأنَا سُفْيَانُ ح. وأخبرنا عُثْمَانُ بنُ أبي شَيْبَةَ أخبرنا وكِيعٌ جَمِيعاً عن طَلْحَةَ بنِ يَحْيَى عن عَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ عن عَائِشَةَ ، رضي الله عنها قالَتْ: « كَانَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إذَا دَخَلَ عَلَيَّ قال: هَلْ عِنْدَكُم طَعَامٌ؟ فإذَا قُلْنَا لاَ، قال: إنِّي صَائِمٌ. زَادَ وَكِيعٌ: فَدَخَلَ عَلَيْنَا يَوْماً آخَرَ، فَقُلْنَا: يَارَسُولَ الله أُهْدِيَ لَنَا حَيْسٌ فَحَبَسْنَاهُ لَكَ، فقال: أدْنِيهِ. فأصْبَحَ صَائِماً وَأفْطَرَ». (المترجم).

وَأُسقَى»[١]. وقد ورد في بعض الروايات أنه ﷺ قال: إنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُم، إنَّ لِي مُطْعِماً يُطْعِمُنِي وَسَاقِياً يَسقِينِي»[٢]. وكان ﷺ يكره التشدد في الدين لعامة المسلمين. وكان هو نفسه أيضاً يبتعد عن هذا.(وسنتحدث عن هذا تفصيلاً فيما بعد).

الزكاة

كان النبي ﷺ ينفق ويتصدق قبل الإسلام أيضاً كما شهدت بذلك السيدة عائشة في بداية الإسلام.[٣] وبعد الإسلام لم يكن النبي ﷺ يدع شيئاً فائضاً في بيته إلا وزعه على المحتاجين؛ لكن على الرغم من ذلك لم يثبت أن النبي ﷺ قد أدى زكاة. وقد استنبط الفقهاء من ذلك أن الزكاة ليست فرضاً على الأنبياء. ولكن الحقيقة هي أن للزكاة مفهومين: الأول الصدقة والإنفاق ولا يخفى على أحد حال النبي ﷺ في هذا. المعنى الثاني للزكاة هو أن المبلغ المعين من المال الذي يخرج عن مقدار معين من الذهب والفضة أو الحيوانات أو خلافه إذا زادت عن الحاجة وظلت في حوزة المالك لمدة حول. والزكاة بمفهومها الأخير لم تفرض على النبي ﷺ، وإلا فماذا كان في بيت النبي ﷺ من هذه الأشياء وظل لمدة عام ويستحق أن تخرج عنه زكاة؟ فقد كان النبي ﷺ لا يحب أن ينقضي ليل وفي بيته شيء من المال. ففي ذات مرة تصادف أن حدث ذلك فلم يَخُط النبي البيت بقدمه حتى جاءه بلال وقال له: إن الله قد عافاك يا رسول الله [٤].

الحج

لا يمكن تحديد العدد الصحيح للمرات التي حجها النبي قبل الإسلام. كتب ابن الأثير أن قريش كانت تحج كل عام تقريباً. لذا فاغلب الظن أن الرسول ﷺ ربما كان يحج

---

[١] وهذا نص الحديث كما ورد فى أبي داود، كتاب الصيام: (٢٣٦١) حدثنا عَبْدُ الله بنُ مَسلَمَةَ الْقَعْنَبِيُّ عن مَالِك عن نَافِعٍ عن ابن عُمَرَ ،: «أنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم نَهَى عن الْوِصَالِ قَالُوا فَإِنَّكَ تُوَاصِلُ يَارَسُولَ الله؟ قَالَ إنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُم إنِّي أُطْعَمُ وَأُسقَى».(المترجم).

[٢] أخذت أحاديث الوصال في الصوم هذه من صحيح مسلم. وهذا نص الحديث: (٢٣٦٢) حدثنا قُتَيْبَةُ بنُ سَعِيدٍ أنَّ بَكْرَ بنَ مُضَرَ حَدَّثَهُمْ عن ابن الْهَادِ عنْ عَبْدِ الله بن حَبَّابٍ عنْ أبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، أنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «لاَ تُوَاصِلُوا فَأَيُّكُم أرَادَ أنْ يُوَاصِلَ فَلْيُوَاصِلْ حَتَّى السَّحَرَ قالُوا فَإِنَّكَ تُوَاصِلُ، قالَ إنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُم، إنَّ لِي مُطْعِماً يُطْعِمُنِي وَسَاقِياً يَسقِينِي». (المترجم).

[٣] أبو داود، باب قبول هدايا المشركين.

[٤] أبو داود، باب قبول هدايا المشركين.

كل عام هو الأخر. وفي الترمذي [١] أن رسول الله ﷺ حج مرتين أثناء إقامته بمكة. وورد في ابن ماجة والحاكم أنه ﷺ حج ثلاث مرات. لكن كل هذه الروايات مرسلة [٢] حيث ثبت بالإجماع أن النبي ﷺ حج أثناء إقامته بالمدينة سنة عشرة هجرية. وهذه هي حجة الوداع التي مر ذكرها.

وقد اعتمر رسول الله ﷺ إضافة للحج أيضاً، فقد ثبت أنه اعتمر أربع مرات بعد الهجرة؛ مرة في شهر ذي القعدة، ومرة عام الحديبية، ومرة بعد غزوة حنين، والمرة الأخيرة اعتمرها ﷺ مع حجة الوداع[٣]. يقول أنس: اعتمر رسول الله كل عمراته عدا عمرة حجة الوداع في شهر ذي القعدة. وفي ذات مرة سأل رجل ابن عمر (رضى الله عنهما): كم اعتمر النبي ﷺ؟ فقال ابن عمر: أربع عمرات، إحداهن في شهر رجب. فلما سمعت ذلك السيدة عائشة قالت: اللهم ارحم أبا عبد الرحمن (يعني ابن عمر)؛ حيث أن النبي ﷺ لم يعتمر قط بدونها، كما أنه لم يعتمر في شهر رجب[٤].

وفي عام الحديبية حينما ارتحل رسول الله ﷺ لأداء العمرة للمرة الأولى، حاول كفار مكة جاهدين أن يمنعوه، فانتشر الصحابة لمقاومتهم. لكن النبي ﷺ واصل سيره بطمأنينة دون أن ينتظر أصحابه؛ حيث أنه كان متشوقاً لزيارة الكعبة. ولكن المجاهدين أرسلوا في النهاية أبا قتادة الأنصاري وقالوا له: أبلغ رسول الله ﷺ منا السلام وأطلب منه أن ينتظر قليلاً، فإننا نخاف أن يحول العدو بيننا وبينك، فلبى رسول الله ﷺ طلبهم [٥].

دوام ذكر الله [٦] بين القرآن الكريم صفة المؤمنين فقال:

---

[١] باب كم حج النبي ﷺ.

[٢] الزرقاني، ج ٨ ص ١٦٤.

[٣] صحيح مسلم وأبو داود، حجة الوداع. والترمذي، باب كم حج النبي ﷺ.

[٤] جامع الترمذي، الباب المذكور. والبخاري ومسلم، كتاب الحج.

[٥] صحيح البخاري، باب جزء الصيد ص ٢٤٥.

[٦] ورد فى صحيح مسلم: (٦٧٥٦) حدثنا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ وَ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ وَاللَّفْظُ لِقُتَيْبَةَ. قَالاَ: حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنِ الأَعْمَش عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ : «يَقُولُ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي. وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي. إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي. وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ. وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْراً، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً. وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعاً. وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي، أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً». كما ورد أيضا: (٦٧٥٨) حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ. حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ. حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ: هَـذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ ، عَنْ رَسُولِ اللّهِ .

"الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم"(آل عمران:١٩١)
وقال: "لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله" (النور:٣٧).

وقد كان مُبلّغ القرآن (محمد ﷺ) خيرَ نموذجٍ لهذه الصفات. تقول السيدة عائشة: كان النبي مشغولاً كل حين ووقت بذكر الله. ويقول ربيعة بن كعب الاسلمي: كنت أحرس باب رسول الله ﷺ ليلاً فسئمت من كثرة سماعي تكبير وتهليل النبي ﷺ لأن النوم كان يغلبني[1]. وقد كان النبي ﷺ مشغولاً بذكر الله في كل حالاته من قيام وقعود ومشي وجلوس وأكل وشرب ونوم ويقظة ووضوء وعند لبس ملابس جديدة، وعند ركوبه وعند سفره وعند عودته ودخوله البيت والمسجد. لذا نجد في كتب الحديث أدعية مأثورة لكل وقت وحال. وفي آخر حياته ﷺ، حينما نزلت عليه سورة النصر التي ورد فيها أمر بالتسبيح والاستغفار، كان النبي ﷺ كما تروى أمهات المؤمنين يقضي كل أوقاته وحالاته في التسبيح والتهليل [2].

يقول ابن عمر رضى الله عنهما: غالبًا ما كان النبي ﷺ يدعو بهذا الدعاء: **رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الغفور**. فلما أحصينا ذلك وجدناه يسبح مئات المرات في الجلسة الواحدة[3]. كما أنه ﷺ لم يكن يغفل عن ذكر الله عند قلقه في سفره. وكان يصلي النوافل وهو راكب، غيرَ ملتزمٍ بالقبلة، فحيثما ذهبت الدابة ولى وجهه ونوى للصلاة. "أينما تولوا فثم وجه الله". (البقرة:١١٥)

فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ : «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: إِذَا تَلَقَّانِي عَبْدِي بِشِبْرٍ، تَلَقَّيْتُهُ بِذِرَاعٍ. وَإِذَا تَلَقَّانِي بِذِرَاعٍ، تَلَقَّيْتُهُ بِبَاعٍ. وَإِذَا تَلَقَّانِي بِبَاعٍ، جِئْتُهُ أَتَيْتُهُ بِأَسْرَعَ». وورد فى الباب نفسه: (٦٧٥٩) حدثنا أُمَيَّةُ بْنُ بِسْطَامَ الْعَيْشِيُّ. حَدَّثَنَا يَزِيدُ يَعْنِي ابْنَ زُرَيْعٍ. حَدَّثَنَا رَوْحُ بْنُ الْقَاسِمِ عَنِ الْعَلاَءِ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ. فَمَرَّ عَلَىٰ جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ جُمْدَانُ. فَقَالَ: «سِيرُوا. هَـٰذَا جُمْدَانُ. سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ» قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ «الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيراً، وَالذَّاكِرَاتُ». (المترجم).

[1] مسند ابن حنبل جـ٤ ص ٥٩.

[2] ابن سعد، جزء الوفاة.

[3] الترمذي وابن ماجة والدارمي، باب الدعاء.

وَجْدُه ﷺ

كان رسول الله ﷺ إذا سمع الأذان هب للصلاة حيثما كان، سواء أكان في مجلس أصحابه أو في حجرات نساءه أو كان مشغولاً بالحديث[١]، ومع أنه كان يقضي جزءاً كبيراً من الليل ساهراً، إلا أنه كان يهب من نومه[٢] إذا قال المؤذن: الله أكبر. ولقد صورت السيدة عائشة رضي الله عنها حالة الوجد التي كانت تطرأ على النبي ﷺ في التهجد فقالت: أحياناً كان النبي ﷺ يقوم الليل كله ويقرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء (أطول القرآن)، وحينما ترد آية خوف أو خشية يدعو الله ويتوسل إليه، وإذا أتت آية فيها رحمة وبشارة دعا الله طلباً لها[٣]. وكان يتلو بصوت عالٍ يُسمع من بعيد؛ لذا كان الناس يسمعون تلاوته ﷺ وهم نيام على فُرُشهم [٤]. وأحياناً ترد آية يستغرق النبي ﷺ في تدبرها. يقول أبو ذر الغفاري: قرأ رسول الله ﷺ في الصلاة هذه الآية[٥]: "إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم".(المائدة:١١٨)

. فكان من أثر ذلك أن ظل رسول الله ﷺ يردد هذه الآية حتى صلاة الفجر[٦]. يقول زيد بن خالد الجهنى أحد صحابة رسول الله ﷺ: ذات مرة عزمت أن أذهب ليلاً لأرى رسول الله ﷺ يصلي(حدث هذا غالباً في السفر) فحينما حان وقت الصلاة، قام النبي ﷺ وصلى ركعتين خفيفتين، ثم صلى ركعتين طويلتين جداً، ثم اتبع هذه الركعات الأربع (اثنتين واثنتين) بثمان ركعات خفيفات، ثم أوتر بعد ذلك[٧]. وفي رواية لنفس الصحابي أيضاً أن رسول الله ﷺ قام ليلاً للصلاة فلم ينته إلا الفجر[٨].

---

[١] صحيح البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم.

[٢] صحيح البخاري، باب يكون الرجل في خدمة أهله، ص٨٠٨.

[٣] صحيح البخاري من انتظر الإقامة.

[٤] مسند ابن حنبل ج٦ ص ٩٦.

[٥] ابن ماجة، باب ما جاء في صلاة الليل.

[٦] صحيح مسلم، أبو داود، الموطأ.

[٧] صحيح مسلم، أبو داود، الموطأ.

[٨] النسائي، أحياء الليل.

يقول سيدنا حذيفة ﷺ: يُسر لي ذات ليلة أن اصلي مع رسول الله ﷺ، فبدأ رسول الله ﷺ يتلو سورة البقرة (أطول سور القرآن) فاعتقدت أنه سيقرأ مائة آية فقط، لكنه ﷺ زاد عن ذلك فقلت في نفسي ربما يريد رسول الله ﷺ أن ينهي السورة في هذه الركعة؛ لذا حينما أنهى رسول الله ﷺ السورة اعتقدت أنه سيركع لكنه بدأ على الفور في سورة آل عمران، وبعد أن أنهاها بدأ في النساء (هذه السور الثلاثة تقارب خمسة أجزاء وربع)؛ علماً بأنه ﷺ كان يقرأ (يتلو) بطمأنينة، وكان يدعو ويسبح وسط القراءة طبقاً لما يتطلب موضوع كل آية. ثم ركع بعد ذلك، ثم اطمأن في الركوع مقدار ما توقف في القيام. ثم وَقف من الركوع وظل واقفاً نفس الفترة، ثم سجد واستغرق في السجود نفس الوقت أيضاً[1].

ذكر الله في ساحة القتال

في الوقت الذي يلتقي فيه الجمعان وتبرق في العيون السهام والسيوف والرماح، ويعلو الضجيج والصياح كل أرجاء الميدان، يكون النبي مشغولاً بكل خشوع وخضوع وطمأنينة بذكر الله والدعاء. ومما هو معروف أن الجنود يعبثون في مقابلة العدو لغرورهم وفخرهم بشجاعتهم. أما قائد الجيش، فيكون خاشعاً. وكانت هذه هي حالة النبي ﷺ في كل المعارك الكبرى، كبدر وأحد والخندق وخيبر وتبوك.

في كل المعارك يعتمد قائد الجيش على قوة جنوده. أما القائد الأعظم محمد ﷺ، فلم يعتمد قط إلا على قوة الله تعالى. ومع أنه ﷺ رتب جنده في كل المعارك طبقاً لما تقتضيه أصول الحرب أخذاً بالأسباب، إلا أنه لم يعتمد قط إلا على رب هذه الأسباب. جاءه ﷺ في بدر صحابيان وقالا له: يا رسول الله، اعتقنا الكفار شريطة ألاّ نشترك في المعركة. فقال النبي: "انصرفا نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم" [2]. وإذ كانت ساحة بدر تفيض بالدماء، كان النبي ﷺ رافعاً يديه إلى الله ويقول في خشوع وخضوع: "اللهم أنجز لي ما وعدتني". ويسقط الرداء من على كتفه دون أن يشعر به لما هو فيه من وجد ويقول: "اللهم إن تَهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبد، اللهم إن شئت لم تُعبد بعد اليوم أبدًا" [3]. وفي هذه الأثناء يأتيه علي ﷺ من ساحة القتال ثلاث مرات، وفي كل مرة يرى النبي

---

[1] صحيح مسلم والنسائي في صلاة الليل.

[2] مسلم، باب الوفاء بالعهد.

[3] صحيح مسلم والبخاري بدر.

ساجداً على التراب[1]. هتف أبو سفيان في نهاية غزوة أحد بفرح وقال " أُعل هبل". فأمر رسول الله ﷺ في جو الهزيمة ذاك أن ينادي عمر هو الأخر ويقول: **الله مولانا ولا مولى لكم والله أعلى وأجل**".

وفي غزوة الأحزاب كان النبي ﷺ مشغولاً في حفر الخندق بنفسه وكان يقول وهو يحفر:

اللهم لا خير إلا خير الآخرة فبارك في الأنصار والمهاجرة".

ولأن الأعداء كانوا يهجمون بشراسة؛ لذا لم يتمكن أي مسلم من ترك مكانه. واستمر هذا الحصار عشرين أو اثنين وعشرين يوما، لكن لم تُقض في تلك الفترة سوى أربع صلوات على الأكثر؛ إذ حدث أن هجم الكفار في أحد الأيام بشراسة لم تعط مهلة ولو للحظة واحدة؛ لذا انقضى وقت العصر فحزن النبي لذلك حزناً شديداً. وبعد أن توقفت الهجمة مباشرة صلى في جماعة [2].

وحينما اقترب رسول الله ﷺ من المدينة في غزوة خيبر قال:" اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ. خربتْ خَيبرُ"[3]وحينما تراءت المباني أمر النبي ﷺ الصحابة أن يتوقفوا ثم دعا بهذا الدعاء: **اللهم إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها** (ابن هشام).

وفي غزوة حنين كان مع النبي ﷺ اثنا عشر ألف جندي، لكن أقدامهم تزلزلت في بداية المعركة، فلو أن قائد هذا الجيش يعتمد على رجاله في ساحة القتال لكان أول من هرب، كي ينجو بنفسه. لكن القوة التي يعتمد النبي ﷺ عليها هي الناصر والمعين في الخلوة كما هي في حالة وجود الجيش. في تلك الأثناء تقدم عشرة آلاف من رماة السهام

---

[1] سيرة النبي جـ١ صـ ٤٥٠.

[2] صحيح البخاري، أحد.

[3] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٦٠٣) حدّثنا قُتيبةُ بنُ سَعيدٍ قال: حدَّثنا إسماعيلُ بنُ جعفرٍ عن حُميدٍ عن أنسِ بنِ مالكٍ «أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان إذا غزا بنا قوماً لم يكنْ يَغزُو بنا حتى يُصبحَ ويَنْظُرَ: فإن سَمعَ أذاناً كفَّ عنهم، وإن لم يَسمعْ أذاناً أغارَ عليهم. قال: فخرجْنا إلى خَيبَرَ، فانتهينا إليهم ليلاً، فلمّا أصبحَ ولم يسمَعْ أذاناً رَكِبَ وركبتُ خَلفَ أبي طلحةَ، وإنَّ قَدَمي لَتمسُّ قدمَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: فخَرجوا إلينا بمكاتِلِهم ومَساحيهم. فلما رأَوُا النبيَّ صلى الله عليه وسلم قالوا: محمدٌ واللهِ، محمدٌ والخَميسُ. قال: فلما رآهم رسولُ اللّهِ قال: «اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ. خربتْ خَيبرُ. إنّا إذا نَزَلنا بساحةِ قومٍ فَساءَ صباحُ المُنذَرين». (المترجم).

كالسيل ممطرين سهامهم. ولم يكن بجانب النبي ﷺ إلا نفر للدفاع عنه. فنزل النبي ﷺ من على راحلته وقال: أنا عبدُ الله ورسوله،[1] ثم رفع يده إلى الله وسأله النصر، وفجأة تغير سير الرياح وبدأ نسيم النصر يرفرف راية الإسلام[2]. فمن يجرأ على رد سهام عشرة آلاف عدو بالدعاء والمناجاة فحسب غير الأنبياء.

ويبدو لنا أكبر مشهد مؤثر في غزوة بني المصطلق حين رابط الكفار في المواجهة ينتظرون غفلة المسلمين. وفجأة يحين وقت الصلاة ويتقدم الرسول ﷺ ليؤم الناس فتذهب طائفة من الصحابة خلف النبي ﷺ للصلاة، وترابط الطائفة الأخرى للتصدي للمشركين. وقد وقع حدث أخطر من هذا أيضاً في وقت صلح الحديبية؛ حيث كان النبي قد رابط في عسفان قرب مكة. وكان خالد بن الوليد فارس قريش الشهير قد أحضر كتيبة من جيش الأعداء يتحين الفرصة من خلف الجبال المحيطة. وفي النهاية أجمع المشركون أمرهم على أن يهجموا على المسلمين بغتة حين يقوموا للصلاة. وكان الموقف يستدعي قصر الصلاة؛ حيث كانت آيات القصر قد نزلت. وحينما حان وقت العصر هم النبي ﷺ للصلاة وكان جيش الأعداء مصطفاً في المواجهة؛ لذا انقسم الصحابة إلى طائفتين: طائفة اصطفت خلف النبي ﷺ للصلاة، والثانية وقفت لمواجهة الأعداء، وحينما فرغت الجماعة الأولى من الصلاة عادت بالتدريج لمواجهة المشركين ثم جاءت الطائفة الأخرى ولحقت بالصلاة، خلف النبي ﷺ. حدث كل هذا التغيير في صفوف المأمومين أما قائد الجيش ﷺ، فكان مشغولاً بالعبادة تحت ضربات السيوف لا يبالي بأي خطر[3].

بعد قراءة هذه الوقائع يمكن لنا أن نقيس إلى أي مدى تم تنفيذ قوله تعالى:

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري : (٤٢٣٠) حدَّثنا عليُّ بن عبد الله حدَّثنا أزهرُ عن ابن عونٍ أنبأنا هشام بن زيد بن أنسٍ عن أنسٍ رضي الله عنه قال: «لما كان يومُ حُنينٍ التقى هوازنُ ومع النبي صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف والطلقاءُ، فأدبروا. قال: يا معشر الأنصار. قالوا: لبيك يارسولَ الله وسعدَيك، لبيكَ نحنُ بين يديك. فنزل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أنا عبدُ الله ورسوله، فانهزمَ المشركون، فأعطى الطُلقاءَ والمهاجرين، ولم يعطِ الأنصارَ شيئاً. فقالوا: فدعاهم فأدخلهم في قبة فقال: أما ترضون أن يذهب الناس بالشاةِ والبعير، وتذهبون برسولِ الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لو سلكَ الناسُ وادياً وسلكَتِ الأنصارُ شِعباً لاخترتُ شِعبَ الأنصار». (المترجم).

[2] صحيح البخاري ومسلم،حنين.

[3] أبو داود جـ١ باب صلاة المسافرين.

"يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون" (الأنفال:٤٥).

ورد في البخاري أن النبي ﷺ كان يكبر في الجهاد (الله أكبر) ثلاثاً كلما صعد هضبة [١].

خشية الله

مع أن النبي ﷺ كان خاتم الأنبياء وأفضل الرسل وحبيب رب العالمين، إلا أنه كان يخشى الله لدرجة أنه كان يقول: والله ما أدري ــ وأنا رسولُ الله ــ ما يُفعلُ بي ولا بكم؟ وحينما توفى عثمان بن مظعون وذهب النبي ﷺ للتعزية، كانت جثته ملقاة. فنظرت إليها امرأة وقالت: الله شاهد أنه قد غفر لك. فسألها النبي ﷺ : وما يدريكِ؟، قالت: إن لم يغفر الله له، فلمن سيغفر إذن. فقال النبي ﷺ: أما هوَ فقد جاءهُ اليقين، إني لأرجو له الخيرَ من الله، والله ما أدري ــ وأنا رسولُ الله ــ ما يُفعلُ بي ولا بكم. [٢].

وكان ﷺ يخاف حينما تهب رياح شديدة، فإذا حدث ذلك وهو منصرف في عمل يتركه، ويولي وجهه شطر القبلة[٣] ويدعو اللهم احفظنا من عذابك المحيق. وبعد أن يصفو الجو أو يهطل المطر يفرح الرسول ﷺ ويشكر الله. حدث ذلك ذات يوم فسألته السيدة عائشة: لماذا تخاف يا رسول الله؟ سألها النبي ﷺ أما تدري ما حل بقوم هود؛ الذين قالوا حينما رأوا السحاب إنه سيروي حقولنا، لكنه كان عذاب الله[٤].

---

[١] باب التكبير عند الحرب.

[٢] صحيح البخاري كتاب الجنائز .وهذا نص الحديث: (٦٨٦٦) حدّثنا عَبدانُ أخبرَنا عبدُ الله أخبرَنا مَعمرٌ عن الزُّهريِّ عن خارجةَ بن زيد بن ثابت عن أمِّ العلاء ــ وهي امرأةٌ من نسائهم بايَعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قالت: «طارَ لنا عثمانُ بن مَظعون في السُّكنى حينَ اقترعتِ الأنصارُ على سكنى المهاجرين، فاشتكى، فمرَّضناهُ حتى تُوُفيَ، ثم جعلناهُ في أثوابه، فدخلَ علينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقلت: رحمةُ الله عليكَ أبا السائب، فشهادَتي عليكَ لقد أكرمكَ الله. قال: وما يدريك؟ قلت: لا أدري والله. قال: أما هوَ فقد جاءهُ اليقين، إني لأرجو له الخيرَ من الله، والله ما أدري ــ وأنا رسولُ الله ــ ما يُفعلُ بي ولا بكم. قالت أمُّ العلاءِ: فو الله لا أُزكي أحداً بعدَه. قالت: ورأيت لعثمانَ في النوم عَيناً تجري، فجئت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له، فقال: ذاك عمله يجري له». (المترجم).

[٣] سنن ابن ماجة باب ما يدعو به إذا رأى السحاب.

[٤] وردت هذه الواقعة في البخاري ومسلم وكتب الحديث الأخرى. والجملة الأخيرة ترجمة لآية قرآنية.

قال له أبو بكر: يا رسول الله لقد بدأ شعرك يشيب. فقال ﷺ: «يَا رَسُولَ الله قَدْ شِبْتَ. قالَ: شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَالْوَاقِعَةُ وَالمُرْسَلاَتُ و {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ} و {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ}»[١]. فقد وردت أهوال وأحوال يوم القيامة في هذه السور. وروى عن أُبي بن كعب أنه قال: كان النبي ﷺ إذا انقضى الثلث الثاني من الليل ينادي ويأمر الناس بذكر الله، فالزلزلة قادمة. وما بعدها آت، جاء الموت وأهواله، جاء الموت وأهواله[٢]. وكان يقول: «لَوْ تَعْلَمون مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً»[٣]. في ذات مرة قال ﷺ في إحدى خطبه بأسلوب مؤثر: يا معشر قريش، اعلموا أني لن أجيركم من الله، يا بني عبد مَناف، إني لن أجيركم من الله، يا عباس بن عبد المطلب، إني لن أجيرك من الله، يا صفية عمة رسول الله، إني لن أجيرك من الله. يا فاطمة بنت محمد، إني لن أجيرك من الله. (الصحيحان).

في ذات مرة تزاحم أعراب البادية في المسجد النبوي لدرجة أن النبي ﷺ كاد أن يُداس، فقام المهاجرون وأزاحوا الناس، فخرج النبي ﷺ من المسجد ودخل حجرة السيدة عائشة، وبطبيعة البشر دعا عليهم، ولكنه نهض على الفور بعد ذلك واستقبل القبلة، ورفع يديه إلى السماء ودعا الله تعالى: اللهم إني بشر، فلا تعذبني إن تأذى مني أحد من عبادك[٤]. وكان قلب النبي ﷺ يرق (من خشية الله) وتفيض الدموع من عينيه، وحينما تلا

---

[١] شمائل الترمذي،ما جاء في شيبه ﷺ. وهذا نص الحديث: (٣٤٢١) حدثنا أَبُو كُرَيْبٍ ، حدثنا مُعَاوِيَةُ بنُ هِشَامٍ عنْ شَيْبَانَ عَن أَبي إِسْحَاقَ عَنْ عِكْرِمَةَ عن ابنِ عبَّاسٍ قالَ قالَ أَبُو بَكْر ، رضي الله عنه: «يَا رَسُولَ الله قَدْ شِبْتَ. قالَ: شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَالْوَاقِعَةُ وَالمُرْسَلاَتُ و {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ} و {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ}»
.

قال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غريبٌ لاَ نَعْرِفهُ مِنْ حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ إلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَرَوَى عَلِيُّ بنُ صَالِحٍ هَذَا الحَدِيثَ عَن أَبي إِسْحَاقَ عَن أَبي جُحَيْفَةَ نَحْوَ هَذَا. ورُوِي عَن أَبي إِسْحَاقَ عَن أَبي مَيْسَرَةَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا مرسلاً. وروى أبو بكر بن عياش عن أبي إسحاق عن عكرمة عن النبي نحو حديث شيبان عن أبي إسحاق ولم يذكر فيه عن ابن عباس حدثنا بذلك هاشم بن الوليد الهروي، حدثنا أبو بكر بن عياش. (المترجم).

[٢] المشكاة أخذاً عن الترمذي باب البكاء والخوف.

[٣] الصحيحان. وهذا نص الحديث: (٦٤٠) أخبرنا ابنُ قتيبة ، قال: حدثنا يزيدُ بن مَوْهَب ، قال: حدثنا ابنُ وهب ، عن يونس ، عن الزُّهري ، عن سعيد بن المسيِّب عن أبي هريرة ، أن رَسُولَ الله ، قال : «لَوْ تَعْلَمون مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً». (٣:٦٦) (المترجم).

[٤] مسند ابن حنبل جـ ٦ صـ ١٢٣ وردت الروايتان في كلا الصفحتين لكن الواقعة واحدة في الغالب.

عبد الله بن مسعود ﷺ أمامه هذه الآية: "فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا" سالت دموعه ﷺ [١]. وكثيراً ما كان ﷺ يبكي في الصلاة من خشية الله. في ذات مرة كُسفت الشمس، فتنفس النبي ﷺ الصعداء في صلاة الكسوف، وقال: رب ألم تعدني أن لا تعذبهم وأنا فيهم[٢].

يقول الصحابي عبد الله بن شُيخر ذهبت مرة لرسول الله ﷺ فوجدته مشغولاً في الصلاة وتفيض الدموع من عينيه، وهو مختنق بالبكاء لدرجة كانت تبدو وكأنها طاحونة تدور أو قدراً يفور [٣].

وفي ذات مرة كان النبي ﷺ في جنازة، وكان القبر يحفر. فجلس ﷺ بجوار القبر وظل يبكي من منظره لدرجة أن ابتلت الأرض. ثم أمر الناس بأن يعملوا لهذا اليوم[٤].

وحين كان النبي ﷺ عائداً من إحدى الغزوات التقى بمجلس يجلس فيه بعض الناس. فسألهم النبي ﷺ من أنتم؟ قالوا مسلمون. وكانت معهم امرأة جالسة توقد موقداً وبجوارها ولدها. وكانت النار قد اشتعلت وتأججت. فأخذت المرأة ولدها وذهبت للنبي ﷺ وقالت له: أ أنت رسول الله ﷺ؟ فقال النبي ﷺ: نعم. قالت المرأة: أليس الله أحن على عباده من الوالدة على ولدها؟ قال ﷺ :نعم. فقالت المرأة: فإن الأم لن تلقي بولدها في النار. فبكى رسول الله ﷺ ثم رفع رأسه وأخبر بأن الله سيعذب عبده العاصي الذي تكبر عليه وأشرك به[٥]. ذات مرة دعا النبي ﷺ بدعاء إبراهيم " رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني" (سورة إبراهيم: ٣٦) ثم دعا بدعاء عيسى: " إن تعذبهم فإنهم عبادك وأن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم" (سورة المائدة: ١١٨) ثم رفع يديه إلى السماء وقال والدموع تفيض من عينيه "اللهم أمتي أمتي" [٦].

---

[١] صحيح البخاري تفسير الآية.

[٢] أبو داود صلاة الكسوف.

[٣] الترمذي وأبو داود باب البكاء في صلاة الليل وسنن ابن ماجة باب الحزن والبكاء.

[٤] سنن ابن ماجة باب يرجى من رحمة الله.

[٥] المرجع السابق.

[٦] صحيح مسلم باب بكاءه ﷺ لأمته.

بُعث إلى الدنيا صنفان من الأنبياء. أحدهما: من ظهر لهم كبرياء وجلال الله فقط، لذا كانوا يُعلمون الخشية والخوف من الله فقط كنوح وموسى عليهما السـلام. والصـنف الثاني: هو من كان متيماً في حب الله فكان يدعو الناس إلى هذا العشق، كيحيي وعيسى عليهما السلام. وكان كلاهما طريقان للإفراط والتفريط ، فـالطريق الأول يوصـل إلـى منزلة الإخلاص والمحبة والثاني يُبعد عن العبودية والخضوع. كما يتراءى لكل شـخص في التعليم المسيحي وفي سيرة المسيح الموجودة في الإنجيل الحالي. أما الإسلام فقد هدف إلى إبراز الجانبين بطريقة متساوية .ولهذا السبب يرى هذان الجانبان مجتمعان فـي ذات النبي محمد ﷺ. وقد أوضح القرآن الكريم وصف الإيمان الكامل فـي الآيـة الكريمـة: "والذين آمنوا أشد حباً لله".(البقرة: ١٦٥)

ورد في صحيح الروايات أن النبي ﷺ كان يقوم في صلاة الليل حتى تتورم قدماه. وحينما رأى الصحابة ذلك قالوا: يا رسول الله، لماذا تشق على نفسك وقد غفر الله لـك؟ فقال ﷺ: أفلا أكون عبداً شكوراً. يقول أهل الباطن: إن الناس كانت تعتقد أن عبادات النبي ﷺ كانت خشية من الله. ولأنه ﷺ كان قد غفر له؛ لذا لم يكن في حاجة إلى الاجتهاد فـي العبادة. لكن النبي ﷺ صحح هذا الاعتقاد الخاطئ في إجابته حين قال: إن موجب ذلك هو حب الله وليست خشيته. ولهذا قال: **"وجعلت قرة عيني في الصلاة".**

كان النبي ﷺ يقوم في سكون الليل، فينشغل أحياناً في العبـادة وأحيانـاً يـذهب للمقابر. وكان رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يتَنزلُ ربُنا تَبارَكَ وتعالى كلَّ ليلـة إلى سماءِ الدنيا حين يَبقى ثلثُ الليل الآخر، فيقول: مَن يَدعوني فأستَجيبَ له، من يسألني فأعطيَه، من يستغفِرُني فأغفرَ له؟». [١]. وكانت عبادة النبي ﷺ ليلاً تنتهي بأداء ركعتـي الفجر اللتين قال عنهما: ركعتَي الفجر خير من الدنيا وما فيها[٢].

---

[١] صحيح البخاري. وهذا نص الحديث: (٦١٧٦) حدَّثنا عبدُ العزيز بنُ عبدِ الله حدَّثنا مالكٌ عـن ابـن شهابٍ عن أبي عبد الله الأغر و أبي سلمةَ بن عبد الرحمن عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «يتَنزلُ ربُنا تَبارَكَ وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدنيا حين يَبقى ثلثُ الليل الآخر، فيقول: مَن يَدعوني فأستَجيبَ له، من يسألني فأعطيَه، من يستغفِرُني فأغفرَ له؟». (المترجم).

[٢] صحيح مسلم كتاب الصلاة.

وفي غزوة أُسرت امرأة فقدت وليدها، ومن شدة حبها له كانت كلما رأت طفلاً ضمه لصدرها وأرضعته، فلما رأى النبي ﷺ ذلك سأل الحاضرين هل يمكن لهذه المرأة أن تلق بولدها في النار؟ قال الناس: لا يا رسول الله. فأخبر ﷺ بأن الله أحن على عباده من حنان هذه الوالدة على ولدها(١).

وقد ذكر واقعة أخرى من هذا النوع، وهي أن النبي ﷺ كان عائداً من غزوة، فجاءته امرأة وفي حضنها طفلها، وقالت يا رسول الله: أما يحب الله عباده أكثر من حب الوالدة لولدها؟ فقال ﷺ بلى. فقالت المرأة فإن الأم لا تلقي بطفلها في النار. فلما سمع النبي ﷺ ذلك بكى. ثم رفع رأسه وأخبر بأن الله لن يعذب إلا العبد العاصي الذي يطغى ويشرك(٢).

وذات مرة كان النبي ﷺ جالساً مع أصحابه فجاءه صحابي وقد لف طائرا وصغاره في رداء، وقال: يا رسول الله، أخذت هذه الصغار من على شجرة ولففتهم هكذا؛ فحينما رأت أمهم ذلك أخذت تحلق فوق رأسي؛ ففتحت الرداء قليلاً فدخلت على الفور ونزلت على صغارها. فقال النبي ﷺ (ما معناه) هل تعجب من حب هذه الأم لصغارها، فوالذي بعثني بالحق نبياً إن الله ليحب عباده أكثر من حب هذه الأم لصغارها بكثير (٣).

كان النبي ﷺ يعتبر أن كل أنواع المحبة الدنيوية لا شيء أمام محبة الله. خطب ﷺ قبل وفاته بخمسة أيام في أصحابه وذكر أنه ﷺ يتبرأ أمام الله من أن يكون له ﷺ منهم خليلا، فقد اتخذه ﷺ الله خليلاً كما اتخذ إبراهيم، ولو أنه ﷺ متخذا من أمته خليلا لاتخذ أبا بكر(٤).

وكان النبي ﷺ وقت وفاته يقول مكرراً: "اللهم الرفيق الأعلى" فحينما سمعت السيدة عائشة هذا الكلمات قالت: "الآن ستفارقنا يا رسول الله" (٥).

---

(١) صحيح البخاري صـ ٨٠.

(٢) سنن ابن ماجة باب ما يرجى من الرحمة.

(٣) المشكاة نقلاً عن أبي داود باب رحمة الله.

(٤) صحيح مسلم، باب النهي عن بناء المساجد على القبور ص ١، ٢.

(٥) صحيح البخاري باب الوفاة.

التوكل على الله

التوكل يعنى أن يدع الإنسان نتائج محاولاته وسعيه وقرار أحداث العالم على الله تعالى، وأن يزيل من أمامه ستار الأسباب والعلل. ويبدو له كل شيء تحت قدرة الله المباشرة. وأن يكون لديه يقين راسخ أن الحالات المتردية لن تؤثر مثقال ذرة في أمره. لأن أسباب القدرة والقوة الحقيقية في يد رب هذا الكون. وأنه أصل قوة وعزم وشجاعة الإنسان. وبفضله لن يفلت زمام الصبر من يد الإنسان حتى في أصعب الأوقات، ولن يجد الوهن طريقاً لقلبه حتى في أخطر الطرق، ولن يخيم على قلبه سحاب اليأس حتى في أشد الحالات.

اقرأ سيرة النبي ﷺ حرفاً حرفاً، وسيتضح لك أنه ما من مصيبة ولا نازلة تحت هذه السماء إلا وألمت به ﷺ لكن قلبه ما عرف الاضطراب ولا الفراغ واليأس والخوف قط، فنراه يتوكل على الله سواء في عزلة مكة أم عند نزول المصائب أو عند حصار المشركين له أو في معارك حنين وأحد الداميتين. يقول له أبو طالب: يا بني، اترك هذا الأمر. فيقول له النبي ﷺ : "ياعم، والله لو وضعوا الشمس فى يميني، والقمر فى يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته". ثم أشار إلى أنه سيأتي يوم يجتمع عليه العرب والعجم. ويخبره بأن الله تعالى لن يتركه وحيداً [١]. ويقول ﷺ في مكة لصحابي تملكه اليأس: والله لقد اقترب ذلك الوقت الذي سيكتمل فيه هذا الدين، ولا يخشى فيه أحد إلا الله[٢].

في ذات مرة جلس الكفار في الحرم واجمعوا أمرهم أن يُقتل محمد ﷺ إذا ذهب إلى هناك، وكانت السيدة فاطمة تسمع مؤامرتهم، فذهبت للنبي باكية وأخبرته بما يجري، فطمأنها النبي ﷺ وطلب ماءً فتوضأ، ثم ذهب إلى الحرم آمنا. فلما ذهب إلى صحن الحرم ورآه الكفار غضوا أبصارهم من تلقاء أنفسهم[٣].

قرأت في الجزء الأول (من هذا الكتاب) أن أشجع فرسان قريش كانوا قد حاصروا بيت النبي ﷺ ليلة الهجرة؛ لكنه ﷺ أنام عليًا ﷺ مكانه بكل طمأنينة وثقة. ومع أنه كان معلومًا تماماً أن هذا ليس مرقداً بل مقتلاً ، لكن كان واضحًا أيضاً أن القوة

---

[١] وردت هاتان الواقعتان في ابن هشام.

[٢] صحيح البخاري إذا خرج أول.

[٣] مسند أحمد جـ ١ ص ٣٦٨.

المطلقة التي تستطيع أن تجعل من هذا المقتل جنة قادرة على أن تحميه، لذا قال ﷺ بكل ثقة (لعلي) "لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم" [١].

حاصر كفار قريش بيت النبي ﷺ من كل جانب، وكان يعتقد أن أهل مكة شباباً وشيوخاً ربما كانوا يطوفون الشوارع والأزقة ترقباً لفجر الأمل، متشوقين لسماع الخبر. لكن النبي ﷺ خرج من بيته متوكلاً على الله رغم كل الأوضاع الصعبة وهو يتلو الآيات الأول من سورة "يس" التي تدل على نبوته ﷺ، وعلى أنه على صراط مستقيم. وكانت آخر آية قرأها النبي ﷺ: "وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون" (يس:٩).

ثم اختبأ النبي ﷺ بعد أن خرج من مكة مع صاحبه في غار ثور، وسيطرت ثورة الفشل على قريش، وهاجت مشاعرهم الانتقامية وقتها. وخرجوا يتعقبون رسول الله ﷺ بتفقد آثار قدميه حتى وصلوا إلى الغار، فمن يمكن له القول بأن حواس أي إنسان لا يمكن أن تضطرب في هذا الموقف الخطر؟ لذا اضطرب أبو بكر وقال: يا رسول الله لقد اقترب الأعداء، وإذا نظروا تحت أقدامهم لرأونا. لكن النبي ﷺ قال بصوت يفيض روحانية: "ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما". أو كما قال القرآن الكريم "لا تحزن إن الله معنا". (التوبة: ٤٠) فأين ترى هذه الطمأنينة الروحانية في قلب أحد غير رسول الله ﷺ.

وبعد أن أعلنت قريش أن من سيأتي بمحمد ﷺ حياً أو ميتاً ستكون له مائة ناقة، خرج سراقة بن جشعم ولحق به حتى اقترب منه وكاد أن يمسك به. وكان أبو بكر يتلفت حوله مراراً من الخوف. أما النبي ﷺ فلم يلتفت ولو لمرة واحدة لينظر إلى سُراقة؛ بل كان قلبه مطمئناً وشفتاه مشغولتان بتلاوة القرآن الكريم[٢].

ويسود اعتقاد أن حياة النبي ﷺ كانت قد حفظت من المخاطر بعد أن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة؛ لكن القضية هي أنه على الرغم من أن الإسلام كان له أعوان وأنصار لا بأس بهم في المدينة؛ لكن كان هناك أيضاً أعداء أخطر من أعداء مكة. ومع أن القرشيين في مكة كانوا أعداء النبي ﷺ؛ إلا أنه كانت تربطهم به صلة قرابة، فكانت تلك الصلة تدفع أحدهم إلى اللين (المواساة). أما المنافقون واليهود في المدينة، فلم يكن هناك ما يحثهم على ذلك، فضلاً عن أنه قد بدأت مؤامرات من اليهود والمنافقين في المدينة ومكة لقتل أو

---

[١] ابن هشام والطبري.

[٢] صحيح البخاري، الهجرة.

لإجلاء النبي ﷺ، [1] لذا كان الصحابة يأتون لحراسة النبي ﷺ ليلاً وفداءه وفي ذات ليلة كان الصحابة يحرسون خيمة رسول الله ونزلت هذه الآية: "والله يعصمك من الناس" (المائدة:٦٧)

فخرج النبي ﷺ من خيمته وقال لأصحابه [2] أيها الناس انصرفوا عني فقد عصمني الله.

وعند العودة من غزوة نجد رابط النبي ﷺ في مكان كانت تملئه أسراب الشجر. وكان الوقت وقت الظهر؛ لذا كان الصحابة قد ناموا تحت ظل الأشجار. وكان النبي ﷺ أيضاً نائماً بمفرده تحت شجرة، وسيفه معلق في الشجرة. فجاء أعرابي متخفياً، وأخذ سيف رسول الله ثم استله وجاء أمام النبي ﷺ فتيقظ النبي ورأى البدوي وبيده السيف. فقال البدوي من يعصمك مني الآن؟ فأجابه النبي ﷺ بطمأنينة: الله [3].

وذات مرة قُبض على شخص كان يتربص للاعتداء على النبي ﷺ، فأمر النبي بإطلاق سراحه [4] فإنه حتى وإن كان يريد قتله ﷺ فما كان يستطيع، وكأن النبي ﷺ يريد أن يقول: إن هناك من يحفظني. وسأل النبي ﷺ اليهودية التي أعطته سماً في خيبر: ما حملك على ذلك؟ قالت: لقتلك. فقال ﷺ لا مكنك الله منه (من قتلي)[5]. وتجاوز عنها.

حينما خلت ساحة القتال في غزوة أحد وحنين من المسلمين لبعض الوقت كان إيمان وتوكل وطمأنينة رسول الله ﷺ مثالاً معجزاً. وهذا هو الشكل الأول للتوكل والاعتماد على الله. والشكل الثاني ليس أقل تأثيراً من الأول. فقد مر على رسول الله ﷺ مراحل من العسر واليسر، فيومًا يمتلئ صحن المسجد النبوي بالذهب والمال، وتأتي أيام أخرى يربط النبي فيها لمدة يومين أو ثلاثة على بطنه الشريف من شدة الجوع. ومع أنه كان يمكنه ﷺ أن يدخر من ثروة (أموال) الحاضر لمصاريف الغد؛ إلا أنه ﷺ كان يخالف هذا طيلة حياته، فما ادخر ﷺ من فائض يوم ليوم آخر، و كان ينفق ما يتبقى من

---

[1] سيرت النبي، شبلي، جـ١ سلسلة الغزوات.

[2] جامع الترمذي تفسير المائدة.

[3] صحيح البخاري كتاب الجهاد.

[4] مسند ابن حنبل جـ٣ صـ ٤٧١.

[5] صحيح مسلم، باب السم.

المصاريف الضرورية على مستحقيه في المساء. وقد روى عن أنس في الترمذي قولــه: **إن رسول الله ﷺ كان لا يدخر لغد.**

وإن بقي أي شيء في البيت، أو إن كان منسياً تأذى رسول الله ﷺ كثيراً[١]؛ بــل إنه ﷺ لم يكن يعود إلى البيت إلا بعد أن يتيقن أن البيت ليس فيه شيء إلا بركــة الله [٢]. ولقد وردت وقائع عديدة من هذا القبيل في باب الجود والسخاء.

وفي حالة النزع التي ينسى فيها الإنسان كل شيء، تذكر رسول الله أنه كان قــد ادخر بعض الدراهم عند السيدة عائشة، وأنها ربما ما تزال عندها. فــرأى النبـــي ﷺ أن السهو حتى في هذا الوقت الصعب يخالف حقيقة التوكل على الله؛ لذا قال للسيدة عائشـــة: **أيلقى محمد ربه وهو يسئ الظن به، اذهبي فتصدقي بها أولاً**

الصبر والشكر

لا يعقب العسر عسرٌ آخر في هذه الحياة. لكن حقيقة الكمال الروحاني للإنســـان هي ألاّ يكون مختالاً فخوراً عند نجاحه أو حصوله على مقصده من ناحية، ومن ناحيـــة أخرى يتقبل مرارة المصائب والآلام بوجه بشوش وصدر رحب ويتأكد أن ما عليه سوى العمل. وأن النجاح والفشل بيد الله تعالى. ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأمر في هذه الآية المباركة:

" ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كــل مختال فخور" (الحديد:٢٣).

ولقد تحقق للنبي ﷺ في حياته نجاحا لم يتحقق لغيره في الدنيا لكنه على الرغم من ذلك لم يغتر ويتكبر، فقال: **أنا سيد ولد آدم ولا فخر**. يعني مع أنني سيد ولد آدم لكنني لا أفخر بذلك، كان عدي بن حاتم مسيحي الديانة قد سمع عن النبي ﷺ فشك في أنه ﷺ ملك أم نبي؟ وحينما جاء مع وفد قبيلته إلى النبي ﷺ. جاءت في الوقت نفسه امــرأة مســكينة لحاجة لها. فجاءت مجلس النبي وطلبت من النبي ﷺ أن ينهض قليلاً ويستمع لها، فنهض

---

[١] صحيح البخاري،باب من صلى بالناس فذكر حاجة فتخطاهم . ومسند أحمد جــ٦ صــ٢٩٣.

[٢] أبو داود باب قبول هدايا المشركين.

النبي على الفور فظل واقفاً في جانب معها حتى انصرفت المرأة من تلقاء نفسها. يقول عدي: حينما رأيت تواضع وحلم النبي ﷺ أيقنت أنه نبي وليس ملكاً [١].

ويدخل المنتصرون البلاد المفتوحة رافعي رأسهم بفخر وغرور، أما فاتح مكة وخيبر قد دخلها وهو مطأطأ الرأس تواضعاً لله. روى ابن إسحاق أن النبي ﷺ حينما وصل ذي الطوى يوم فتح مكة وقف على راحلته حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح (يقول: **إن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى ذي الطوى وقف على راحلته ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله من الفتح حتى أن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل**[٢] .

كان النبي ﷺ دائم العبادة والتسبيح فقال له أصحابه يا رسول الله لماذا تشق على نفسك وقد غفر الله لك. فقال ﷺ: **أفلا أكون عبداً شكوراً** [٣].

يعني لو كانت هذه العبادة وهذا التسبيح والحمد قبل ذلك للحصول على هذه الدرجة. فهي الآن شكر واعتراف بالنعمة والإحسان. وينسب عظماء الدنيا الذين لم يعط لهم أي قدر من الروحانية كل نجاحهم ومكاسبهم إلى قوة ساعدهم وحسن تدبيرهم وعظمتهم. لكن هذا الاعتقاد يساوي الكفر والشرك عند أولياء الله. حيث تتراءى لهم يد القادر عز وجل تقوم بشكل غير مرئي داخل كل نجاح وفلاح. ورد في الحديث [٤]: **أنه كان إذ جاءه أمر سرور أو يسر يخر ساجداً شاكراً الله تعالى.**

حين جاء النبي ﷺ خبر إسلام قبيلة همدان فخر ساجداً لله [٥]،كما خر لله ساجداً حين بُشر بأمر[٦] وحينما علم عن طريق الوحي أن الله سيصلي على من سيصلي عليه خر لله شاكراً على هذه المكانة [٧].

يقول سعد رضي الله عنه كنا نرتحل مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة. وحينما وصلنا "زوعرا " نزلنا من على رحالنا. ورفعنا أيدينا تضرعاً إلى الله ثم سجدنا قليلاً. ثم قمنا

---

[١] سيرة ابن هشام ص ٣٥ ج ٢.

[٢] سيرة ابن هشام ذكر فتح مكة.

[٣] صحيح البخاري قيام الليل.

[٤] أبو داود كتاب الجهاد، باب في سجود الشكر.

[٥] زاد المعاد نقلاً عن البيهقي بسند على شرط البخاري جـ١ ص١٩٧.

[٦] المرجع السابق.

[٧] مسند أحمد عن عبد الرحمن بن عوف.

ودعونا خاشعين. وبعد ذلك سجد النبي ﷺ وبعد ما فرغ من دعاء السجود أخبر ﷺ بأنه كن يدعوا الله تعالى بأن يغفر لأمته ﷺ فاستجاب الله بعض دعائه. فسجدَ شاكراً لله تعالى ثم دعاه سبحانه وتعالى ثانية فاستجاب الله تعالى، فسجد ﷺ شاكراً ثم دعاه ﷺ فاستجاب الله تعالى فخر ﷺ ساجداً [1] وقد أبرز الله تعالى في سورة الضحى وصف النبي هذا فقال:" والضحى۞ والليل إذا سجى۞ ما ودعك ربك وما قلى۞ وللآخرة خير لك من الأولى۞ ولسوف يعطيك ربكُ فترضى۞ أ لم يجدك يتيماً فآوى۞ ووجدك ضالاً فهدى۞ ووجدك عائلاً فأغنى۞ فأما اليتيم فلا تقهر۞ وأما السائل فلا تنهر۞وأما بنعمة ربك فحدث۞". (الضحى:١-٦).

وكل حرف من حروف سيرته ﷺ تدل على أنه ﷺ ظل طوال حياته يمتثل لهذا الأمر الإلهي.

يخالف مفهوم الصبر مفهوم الشكر تماماً. إلا أن هذين المفهومين المتضادان اجتمعا في ذات النبي ﷺ. وذلك ما أظهره النبي ﷺ بطريقة عملية، ففي الحديث الشريف أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن أكثر الناس ابتلاءً؟ فأخبر ﷺ: الأنبياء. ثم ذكر أن الله تعالى يبتلي الناس على اختلاف درجاتهم [2]. وتصدق الأحداث هذه الرواية. فلأن النبي كان إمام الأنبياء؛ لذا كان أكثرهم ابتلاء. لهذا السبب أُمر في القرآن مرات عديدة بالتمسك بالصبر فيقول الله تعالى في سورة الأحقاف: "واصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل." (الأحقاف: ٣٥)

وقد توفى والد الحبيب محمد ﷺ قبل أن يولد، وماتت أمه وهو في طفولته، ثم بعد ذلك بسنتين مات جده الذي كانت تمثل رعايته دواء الجرح لليتيم. ثم مات أبو طالب الذي كان يزود عنه ظلم قريش. كما خطف الموت منه في نفس الوقت السيدة خديجة التي كانت أنيسه وسنيده الوحيد في الكرب. ومعلوم أن الإنسان يحب أكثر ما يحب بعد والديه وزوجته يحب أولاده، لذا لا يندمل جرح فراقهم مدى الحياة. وعلى حسب اختلاف الروايات كان للنبي ﷺ على الأقل ولدان وعلى الأكثر ثمانية. أربع بنات. متن جميعاً عدا واحدة (هي السيدة فاطمة) في سن مبكر أمام عين النبي ﷺ. وإن كانت أعين النبي ﷺ قد

---

[1] أبو داود كتاب السجود.

[2] سنن ابن ماجة باب الصبر على البلاء.

بكت من هذه الخطوب إلا أن لسانه وقلبه كانا دائماً شاكرين راضيين. فما خرجت مـرة من فمه الشريف كلمة يشتكي بها قضاء الله.

في سنة ٨ هـ توفيت أكبر بناته السيدة زينب وأشرف النبـي ﷺ بنفسـه علـى تجهيزها وتكفينها، ومع أن دموعه كانت تسيل حين وُضعت الجنازة أمام القبر إلا أنه لـم يخرج من لسانه الشريف لفظاً واحدا. وكان زيد (خادمه الخاص) وجعفر (ابن عمه) مـن أقرب المقربين إليه ﷺ ومع أنه بكى حينما سمع خبر شهادتهما في غزوة مؤتة إلا أنه في الوقت نفسه أرسل إلى بيت جعفر حين سمع صوت نواح هناك فمنعهم من ذلك. وأيضـاً كان أحد أسباطه المقربين إليه يحتضر، فأرسلت أمه إلى أبيها ﷺ الخبر. فأرسل النبي ﷺ لها في الجواب بعد السلام **إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب**. فألحت ابنته ﷺ ثانية في طلبه. فحضر رسول الله ﷺ مع نفر مـن أصـحابه، وكان الطفل ملق في حجر أمه يلتقط أنفاسه الأخيرة. فلما رآه النبي ﷺ سالت الدموع من عينيه. فقال له صحابي: ما هذا يا رسول الله؟ فقال ﷺ: "هذه رحمة جعلها الله في قلـوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء".

ذهب ﷺ ذات مرة لعيادة سعد بن عبادة ﷺ وحين رأى حالته قال ﷺ " قد قضى؟ قالوا: لا يا رسولَ اللّهِ. فبكىٰ النبيُّ صلى الله عليه وسلم. فلما رأى القومُ بكاءَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بَكَوْا. فقال ألا تَسمعونَ؟ إنّ اللّهَ لا يُعذِّبُ بدَمعِ العَينِ ولا بحـزْنِ القلـبِ، ولكنْ يعذِّب بهذا ــ وأشارَ إلى لسانِه ــ أو يَرحَمُ"[1].

حينما كان ﷺ يبكي وقت وفاة ولده إبراهيم قال له عبد الرحمن بن عوف: ما هذا يا رسول الله؟. فقال: هذه الرحمة والشفقة. فطلب منه عبد الرحمن أن يكف عن البكاء[2].

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري، كتاب الجنائز، باب البكاء عند المريض: (١٢٨١) ــــ حدّثنا أصبغُ عن ابنِ وَهبٍ قال أخبرَني عمرٌو عن سعيدِ بنِ الحارثِ الأنصاريِّ عن عبدِ اللّهِ بنِ عُمَرَ رضيَ اللّهُ عنهما قال «اشتكىٰ سعدُ بنُ عُبادةَ شَكوىٰ لهُ، فأتاهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يَعودُهُ معَ عبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ وسَعدِ بنِ أبي وقّاصٍ وعبدِ اللّهِ بنِ مَسعودٍ رضيَ اللّهُ عنهم، فلما دَخَلَ عليهِ فوجدَهُ في غاشيةِ أهلهِ فقال: قد قضى؟ قالوا: لا يا رسولَ اللّهِ. فبكىٰ النبيُّ صلى الله عليه وسلم. فلمـا رأى القومُ بكاءَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بَكَوْا. فقال ألا تَسمعونَ؟ إنّ اللّهَ لا يُعذِّبُ بدَمعِ العَينِ ولا بحـزْنِ القلبِ، ولكنْ يعذِّب بهذا ــ وأشارَ إلى لسانِه ــ أو يَرحَمُ. وإنَّ الميِّتَ يُعذَّبُ ببكاءِ أهلهِ عليه».
وكان عمرُ رضيَ اللّهُ عنه يَضربُ فيه بالعصا، ويَرمِي بالحَجارةِ، ويَحثي بالتّرابِ. (المترجم).

[2] انظر هذه الوقائع كلها في صحيح البخاري، كتاب الجنائز.

فقال ﷺ: **إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون.**

على أي حال إن النوازل تنزل، ويظل أثرها على الإنسان حتى وقت معين ثم تزول، لكن تحمل المصائب والخطوب المتتالية بصبر كامل، فهو أمر صعب للغاية. ولسنا في حاجة لأن نذكر ثانية إجابة كفار الطائف ومكة للنبي ﷺ قبل الهجرة وحتى ثلاث عشرة سنة. ولا التحقير والاستهزاء والسب والشتم والإيذاء الذي لحق بالنبي ﷺ منهم في سبيل دعوته. ولسنا في حاجة لأن نكرر ذكر المعارك الدامية التي واجهها النبي ﷺ في المدينة المنورة لمدة ثمان أو تسع سنيين، ومؤامرات الأعداء لإجلائه عن وطنه وقتله وإيذاءه فبأي سلاح غير الصبر رد النبي ﷺ وابل كل هذه السهام؟ وخاصة إذا كان تثبيط العزيمة والتكليف علامة لسهم يطلق بأيدي الأصدقاء لا الأعداء. فقد حدث ذلك مرتين مع رسول الله. حيث اعترض عليه بعض الشبان العجالى في فعل كان باطنه حكمة. ولكن زمام الصبر لم يفلت أيضاً من يد النبي ﷺ فقد ورد في صحيح البخاري أن نفراً من الأنصار اعترضوا على تقسيم غنائم حنين وقالوا أن رسول الله ﷺ أعطى الآخرين ومنعنا. فلما سمع النبي ﷺ بذلك قال: **رحمة الله على موسى فقد أوذي أكثر من ذلك فصبر (باب غزوة حنين).**

أخلاق النبي ﷺ

" وإنك لعلى خلق عظيم " (القلم:٤)

هذه المرحلة من حياة النبي ﷺ تبدو فيها حياته ﷺ بوضوح أفضل من بقية الأنبياء والصالحين –وشهادة الحياة التاريخية جانباً لذلك– ولو طُرح هذا السؤال: ماذا كان النموذج العملي للمصلحين؟ ستعجز الدنيا عن الإجابة عن هذا السؤال. فكوتم بوذا[١] والسيد المسيح يعتبران أكبر مصلحي العالم كله. لكن من يستطيع أن يقول ماذا كان كوتم بوذا أكبر مصلحي الهند من الناحية العملية؟ وكان معلم الأخلاق الحميدة في جبل الزيتون (المسيح) يعلم الناس الأخلاق. لكن هل تبدو لكم حادثة واحدة من حياته تؤيد أقواله المأثورة؟ أما معلم مكة ﷺ كان يقول: "لم تقولون مالا تفعلون" (الصف:٢)

فقد كان النبي ﷺ نفسه نموذجاً لتعاليمه. ما يقوله على الملأ يفعله في الخلوة، وكان هو نفسه نموذجاً حياً للأخلاق التي كان يعلمها الناس. ومن يعرف أخلاق الإنسان أكثر من زوجه؟ جاء بعض الصحابة إلى السيدة عائشة وسألوها عن أخلاق النبي ﷺ فقالت **أما تقرأون القرآن. أن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن**[٢].

إن الكتب السماوية الموجودة هي عبارة منتقاة لأقوال أصحابها. لكن هل أوضح حرف واحد من هذه الكتب عمل مبلغيها؟ أما القرآن الكريم فكان في حق مبلغه ﷺ رغم كثرة المخالفين والمعاندين فقال "إنك لعلى خلق عظيم.(القلم:٤)

واليوم بعد ألف وثلاث مائة سنة[٣] يقول المعترضون: إن النبي ﷺ كان قاسي القلب. وطالما أن النبي ﷺ كان هكذا فما هي تلك الشهادة التي أدلى بها القرآن الكريم في حقه في مجمع الأعداء أنفسهم فقال:

" فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك". (آل عمران:١٥٩)

---

(١) مؤسس الديانة البوذية.

(٢) أبو داود، باب في الصلاة.

(٣) ألف هذا الجزء في سنة ١٣٣٩ هـ.(المترجم).

ويقول في موضع آخر: "لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم" (التوبة:١٢٨)

والغلطة التي ارتكبت في شأن الأخلاق هي اعتبار الرحمة والرأفة والتواضع فقط مظهراً للأخلاق النبوية مع أن الأخلاق شيء يبرز كل مناحي الحياة وفي كل جوانب الأمور، وتتسع دائرة الأخلاق لتشمل الصديق والعدو والقريب والغريب والصغير والكبير والمفلس والأمير والسلم والحرب والخلوة والجلوة، أي أنها تتسع لكل مكان وإنسان. ومن هذه الزاوية يجب إلقاء الضوء على أخلاق النبي ﷺ:

الوصف التفصيلي لأخلاق النبي ﷺ

قبل كتابة الوقائع التفصيلية والجزئية لأخلاق النبي ﷺ المباركة نذكر شهادات أولئك الصحابة الذين أمضوا أعواماً وسنين في خدمة النبي ومن هم على دراية دقيقة بأخلاق وعادات النبي ﷺ. ومن يقف على أمور الإنسان في الدنيا أكثر من زوجته؟ فقد لازمت السيدة خديجة رضي الله عنها النبي ﷺ طيلة خمسة وعشرين عاماً قبل وبعد البعثة. فكانت تواسيه في بداية نزول الوحي وتقول له: والله لن يخذلك الله أبداً. فإنك لتصل الرحم. وتساعد المديون، وتعين الفقير وتكرم الضيف وتحمي الحق وتواس الناس عند النوازل [١].

ولم يبين أحد من أمهات المؤمنين صفات النبي بالتفصيل أكثر من السيدة عائشة تقول: لم تكن عادة النبي ﷺ الإساءة إلى أحد، فكان لا يجازي بالسوء سوءا بل كان يعفو ويصفح[٢] وإذا خير بين أمرين اختار أيسرهما ما لم يفض إلى آثم، وإلا ابتعد عنه. وما انتقم النبي ﷺ من أحد في أمر خاص. أما من يعص الله فكان ينتقم لله منه[٣] (أي أنه ﷺ كان يجري عليه الحد طبقاً لشرع الله). وما لعن رسول الله ﷺ مسلما، ولا ضرب بيده عبدا ولا أمة ولا امرأة ولا حيوانا قط[٤]. وما رد التماس أحد إذا كان مُحللا [٥]. وحينما

---

[١] صحيح البخاري، باب بدء الوحي.

[٢] جامع الترمذي وشمائل الترمذي.

[٣] صحيح البخاري ومسلم وأبو داود، كتاب الأدب.

[٤] ورد هذا تفصيلاً في صحيح البخاري وأبى داود وغيرهما . ورويت الأحاديث بروايات مختلفة عن السيدة عائشة رضى الله عنها.

[٥] الحاكم بسند متصل وذكرت بعض أجزاء في صحيح مسلم أيضا.

كان يدخل بيته يدخل مبتسماً طلق الوجه. ولم يكن يجلس بين أصحابه ماداً قدميه [١] وكان يسكت بين الكلام وكأنه يريد أن يتذكر شيئاً [٢].

كان سيدنا محمد ﷺ قد ربى عليﷺ، حيث أنه ظل في خدمة النبي ﷺ منذ البعثة حتى الوفاة لمدة ٢٣ عاماً ذات مرة سأله الإمام الحسين عن عادات وأخلاق النبي ﷺ. فقال عليﷺ كان بشوش الوجه رؤفا رحيما فما كان قاسياً جافاً، وكان سمحاً في حديثه، لم يخرج من فمه أي كلمة خبيثة، ولم يكن فاضحاً وإذا أمل فيه أحد لا يخذله، وإذا لم يقبل لا ينكر صراحة بل يظل صامتاً. وكان الواقفون به ﷺ يفهمون مطلبه من نظراته. حرم على نفسه ثلاثة أشياء الجدل وكثرة الكلام ولغو الحديث. وفيما يتعلق بالآخرين كان يبتعد عن ثلاثة أمور أيضا. سب أي أحد، العيب على أحد والتدخل في الأمور الشخصية وكان لا يتكلم إلا فيما يفيد. وحينما كان يتكلم يسكت الصحابة ويحنون رؤوسهم وكأن عليها الطير. وحينما يصمت يتكلم الصحابة. ويُظل رسول الله صامتاً لا يتكلم إلا حين ينته المتحدث من حديثه. وكان يبتسم أيضاً من الأمور التي كان الناس يضحكون عليها. ويتعجب مما يتعجب من الناس. ولو تحدث أجنبي بأسلوب فظ تحمله وكان لا يحب سماع مدحه من الآخرين. أما إذا شكره أحد على إحسانه قبل، ولا يقطع حديث المتكلم إلا إذا صمت بنفسه[٣]. وكان غاية في السخاء واللين وحسن الصحبة. لو رآه أحد فجأة فزع منه لكنه يألفه ويحبه بعد أن يعرفه [٤].

يقول هند بن أبي هالة الذي كان قد تربى في كنف النبي ﷺ[٥]: كان النبي ﷺ لين الطبع. ولم يكن قاسياً، ولم يحتقر أحداً. وكان يؤدي الشكر على أي أمر حتى ولو كان صغيراً، ولم يكن يعيب شيئاً، ويتناول من أي طعام يقدم له دون أن يعيبه. ويغضب إذا خالف أحد الحق ويحميه. لكنه لم يكن يغضب فيما يتعلق بأموره الخاصة وما انتقم من أحد .

---

(١) ابن سعد.

(٢) صحيح البخاري ومسلم وأبو داود.

(٣) ورد هذا تفصيلاً ذلك في شمائل الترمذي في بيان الأخلاق.

(٤) هذه الفقرة مأخوذة من شمائل الترمذي من بيان الحلية المباركة.

(٥) شمائل الترمذي.

مداومة العمل

أول وأهم جانب للأخلاق هو أن يقوم الإنسان بالعمل الذي ينتجه بشغف حتى يصبح هذا العمل وكأنه عادة له. فكل المخلوقات في الدنيا عدا الإنسان لا تستطيع إلا القيام بعمل واحد فتكون مجبورة بطبيعتها على القيام به. فالشمس تضيء فقط فلا يمكن أن تظلم. والليل ينشر الظلام فلا يمكن أن يكون سبباً للنور. والأشجار تثمر في فصولها والزهور تتفتح أيام الربيع. وكل نوع من الحيوانات لا يستطيع أن يتجاوز خصاله. أما الإنسان فقد خلقه الله مختاراً، فهو الشمس وهو ظلمة الليل، تثمر شجرته في كل الفصول. وليست زهور أخلاقه رهناً لفصل الربيع. فهو ليس مجبوراً على فعل شيء بعينه كالحيوانات إذا أنه مخير. وهذا الاختيار يثبت كونه مكلفاً مسئولاً. لكن الجانب الدقيق للأخلاق هو أن يلتزم الإنسان بشدة بالجانب الأخلاقي الذي ينتقيه لنفسه. وأن يقوم عليه بثبات ودوام وكأنه مجبور عليه رغم اختياره. حتى يتيقن الناس حينما يرونه أنه لا يستطيع أن يصنع أو يقوم بأي عمل آخر. فيقوم بعمله كما تصدر الشمس الضوء والشجر الثمر والزهور الرائحة الزكية، فلا يمكن لهذه الأفعال أن تصدر من غير مسببها. وهذا الشيء يسمى استقامة الحال ودوام العمل.

وكان النبي ﷺ يلتزم بهذه الأصول في كل أعماله، فكان يحافظ على إتمام العمل الذي بدأه في وقته وبطريقته. ومن هذا وجُد لفظ السنة في ديننا، فالسنة هي الفعل الذي حافظ النبي ﷺ على فعله ولم يتركه إلا لمانع قوي، وعلى هذا فكل السنن هي في الحقيقة أمثلة مؤكدة لاستقامة حال ودوام عمل النبي ﷺ. وقد مر ذكر عباداته وعلمنا منها أن كل أخلاق وأفعال النبي ﷺ كانت مُتقنة محكمة لم يتخللها أي فرق قط طيلة الحياة: ذات مرة سأل شخص السيدة عائشة عن عبادات وأعمال النبي ﷺ فقال: هل كان النبي يفعل هذا يوم كذا؟ فقالت السيدة عائشة: **لا كان عمله ديمة**" أي كان يحافظ على ما كان يختاره من الأعمال ثم قالت **وأيكم يستطيع ما كان النبي ﷺ يستطيع** [١]. وفي رواية أخرى **وكان إذا عمل عملاً ثبته** [٢] ولذا قال النبي ﷺ: "**إن أحب العمل إلى الله أدومه**" [٣].

---

[١] صحيح البخاري كتاب الرقاق.

[٢] أبو داود، آخر كتاب الصلاة، وصحيح البخاري كتاب الأدب.

[٣] المرجع السابق.

كان رسول الله ﷺ يقوم ليلاً يعبد الله. تقول السيدة عائشة ما ترك رسول الله ﷺ قيام الليل أبداً، وإن تعب صلى جالساً [١].

يقول الصحابي جرير بن عبد الله ﷺ الذي كان إذا رآه الرسول ﷺ ابتسم من شدة حبه له: لم يحدث أن ذهب لرسول الله ﷺ ولم يبتسم له ﷺ [٢]

ولم يكن الرسول يتخلف عن الوقت الذي حدده للقيام بعمل ما. فلم يحدث أي خلل في أوقات تسبيحه وتهليله ولا في عدد النوافل ولا في وقت النوم واليقظة، ولا في أسلوب لقاءه بالناس، حتى صار هذا منهجاً لحياة المسلمين الآن.

حسن الخلق

قضى علي والسيدة عائشة وأنس وهند بن أبي هالة وغيرهم مدة في خدمة النبي ﷺ. ولقد اتفقوا جميعاً على أن النبي ﷺ كان رحيما، حسن الخلق، حسن السيرة. وكان وجهه بساماً يتحدث بوقار وهيبة ولا يغضب أحدا[٣].

كانت عادة النبي ﷺ أن يقوم هو أولاً بالسلام أو بالمصافحة عند لقاءه بأحد. وإذا انحنى شخص ليسر له ببعض الحديث لا يلتفت عنه حتى يستوي الشخص نفسه. وهذه أيضاً كانت عادته في المصافحة أي لا يترك يد المصافح حتى ينزعها بنفسه. وإذا جلس في مجلس لا يجعل ركبته أعلى من الجالسين معه. وكثيراً ما كان الخدم والعبيد يأتون بماء للنبي ﷺ حتى يضع فيه يده تبركاً. ويكون الجو بارداً أو مبكراً ولكنه ﷺ رغم ذلك لم يكن ينكر إطلاقا [٤].

ذات مرة ذهب النبي لزيارة سعد بن عبادة. وعند عودته اصطحب معه قيس بن سعد يركب معه. فأمره النبي ﷺ بالركوب معه على راحلته. فتردد قيس في فعل ذلك تأدباً. فأمره الحبيب ﷺ بأن يركب أو يعود [٥].

---

[١] أبو داود، قيام الليل.

[٢] صحيح مسلم، مناقب جرير بن عبد الله.

[٣] أبو داود والترمذي.

[٤] صحيح مسلم باب في قرب النبي ﷺ من الناس.

[٥] أبو داود كتاب الأدب.

وذات مرة جاءه وفد من قبل النجاشي. فاستضافه النبي ﷺ. وقام على ضيافته بنفسه فقال الصحابة سنقوم نحن بذلك يا رسول الله. فأخبر النبي ﷺ بأن هؤلاء الناس قد أكرموا أصحابه؛ لذا أراد أن يقوم على خدمتهم بنفسه [١].

كان نظر عتبان بن مالك أحد أصحاب بدر قد ضعف. لذا ذهب للنبي ﷺ وقال له: يا رسول الله كنت أصلي في المسجد المجاور لبيتي. لكن حينما يهطل المطر يتعذر على الذهاب للمسجد، لذا استأذنك أن تأتي إلى بيتي وتصلي فيه حتى اتخذ من مكان سجودك مصلى. فذهب النبي ﷺ إلى بيته برفقة أبي بكر في صباح اليوم الثاني. ووقفا على الباب فإذن لهما فدخلا. ثم سأل النبي ﷺ عن المكان الذي سيصلي فيه؟ فخبره عتبان. فنوى النبي ﷺ وصلى ركعتين وبعد أن فرغ أصر الناس عليه ليأكل معهم. فقدموا له "خزيرة" وهي عبارة عن لحم مفروم مطهى مع الدقيق. واشترك في الطعام كل أهل الحي. فقال أحد الحضور: ما لي لا أرى مالك بن وحنش؟ فأجابه آخر: إنه منافق. فأمره النبي ﷺ بألاّ يقل هذا لأن هذا الرجل يشهد أن لا إله إلا الله. قال الناس: نعم ولكنه يميل للمنافقين. فأخبر النبي ﷺ أن الله يحرم النار على عبد يشهد أن لا إله إلا الله يبغى بها وجهه [٢].

وبعد الهجرة ظل رسول الله ﷺ وكل المهاجرين ضيوفاً في بيوت الأنصار. فكانت تنزل الجماعة عشرة أفراد ضيفاً على أي أحد.

يقول المقداد بن الأسود ﷺ كنت في الجماعة التي كان فيها رسول الله ﷺ. وكانَ في البيت بعض الأغنام كنا نعيش على ألبانها. يحلب اللبن فيأخذ كل منا نصيبه ويشربه. ونترك كوباً لرسول الله ﷺ وذات ليلة جاء ﷺ متأخراً بعد أن شرب الجميع اللبنَ وناموا. فوجد النبي ﷺ كوبه فارغاً. فسكت ثم قال: اللهم أطعم من تطعمه. فهم المقداد بذبح شاه وطهى لحمها. لكن النبي منعه. وحلب الشاة ثانية وشرب ما نزل منها ثم نام [٣]. ولم يلم أحد على هذا الصنيع. كان لأبي شعيب الأنصاري عبد يملك دكاناً في السوق لبيع اللحوم. فذهب أبو شعيب للنبي. وكان الصحابة جالسين عنده وعلى وجوههم أثر الجوع، فذهب أبو شعيب إلى عبده وقال له أعدّ طعاماً لخمسة أشخاص. وحين أعد الطعام طلب من الرسول أن يأتي برفقة صحابته الأربعة. وفي الطريق اصطحبهم شخص آخر فأخبر

---

[١] شرح الشفاء لقاضي عياض نقلاً عن الدلائل للبيهقي جزء الأخلاق.

[٢] البخاري جـ١ ص ٦١ كتاب الصلاة.

[٣] مسند ابن حنبل جـ ٦ ص ٤.

رسول الله ﷺ أبا شعيب بأن رجلا آخر اصطحبهم هذا دون إذنه (أبي شعيب) وخيره فى أن يأذن له أم لا. فقال أبو شعيب بل اصطحبه أيضاً معك يا رسول الله [١].

في ذات مرة كان رسول الله ﷺ راكباً على راحلته ويمر من مضيق جبل وكان معه عقبة بن عامر أحد أصحابه، فقال له النبي ﷺ : تعال واركب. فرأى عقبة أنه لا يليق أن يركب ويمشي رسول الله. لكن النبي ﷺ كرر القول له. فكان الرفض في هذا الوقت يعتبر مخالفة لأمر النبي؛ لذا ركب عقبة بعد ما نزل الرسول ﷺ[٢].

وكان النبي ﷺ يتحمل إساءة الناس في المحافل، ولا يظهر لأحد. فحينما عقد النبي ﷺ على السيدة زينب ظل بعض الناس جالسين بعد أكل الوليمة. ولم يكن حين ذاك قد نزل الأمر بالحجاب. لذا كانت السيدة زينب هي الأخرى جالسة معهم. وكان النبي ﷺ يريد أن ينصرف الناس لكنه لم يصرح بشيء ولم يفهم الناس ذلك. فنهض ﷺ وذهب إلى حجرة السيدة عائشة. وبعد ما عاد ووجد الجمع كما تركه. فعاد ثانية فنزلت آية الحجاب بهذه المناسبة[٣].

وبينما كان ﷺ عائداً من غزوة حنين حان وقت الصلاة في الطريق، فتوقف كعادته وأذن المؤذن. وحين ذاك كان أبو محذورة الذي لم يكن قد أسلم في ذاك الوقت يتجول مع بعض أصدقاءه. فلما سمعوا الأذان بدءوا يقلدونه على سبيل الاستهزاء. فاستدعاهم النبي ﷺ وسمع أذان كل واحد منهم. ولأن أبا محذورة كان حسن الصوت لذا أعجب النبي بصوته. ثم أجلسه أمامه ووضع يده الشريفة على رأسه ثم مسح عليها ودعا له بالبركة ثم علمه النبي ﷺ الأذان وأمره بالذهاب إلى الحرم والآذان فيه بهذه الطريقة[٤].

يقول أحد الصحابة كنت في صباي أمشي في مزارع نخيل الأنصار فأرمى النخيل بالحجارة وأسقط التمر. فجاء بي الناس إلى رسول الله ﷺ وقال: يا غلام، لمَ ترمي النخل؟ فقلت: لآكل التمر يا رسول الله. فقال النبي: فلا ترم النخل وكل مما يسقط في أسفلها. وبعدها مسح بيده على رأسي ودعا لي[٥].

---

[١] البخاري ٨٢١، ص.

[٢] النسائي صـ٨٠٣

[٣] البخاري صـ٩٢٢ باب الحجاب.

[٤] الدارقطني طبعة دهلى جـ١ ص٨٦ كتاب الصلاة.

[٥] أبو داود كتاب الجهاد.

كان عباد بن شرحبيل أحد سكان المدنية قد تسلل داخل حديقة في وقت ألـم فيـه القحط فقطع بعض الفواكه وأكل جزءاً منها ثم وضع الباقي في جيبه. فلمّا علم صـاحب الحديقة بذلك جاءه وضربه ثم أخلعه ثيابه؛ فجاء هذا يشتكي لرسول الله ﷺ ومعه المدعى عليه، فنظر إليه الرسول ﷺ وأخبره بأن هذا جاهل وكان عليه أن يعلمه. وكان جائعاً فكان عليه أن يطعمه، ثم أمره أن يعيد إليه ملابسه. وبعد ذلك أعطاه ستين صاعاً من الحبـوب التي كانت عنده [١].

كان اليهود معتادين على أن يخرجوا نساءهم من بيوتهم طوال مدة الحـيض ولا يأكلوا ولا يشربوا معهم. فلما قدم النبي ﷺ سأله الأنصار عن هذا. وكانت الآية الكريمة: "فاعتزلوا النساء في المحيض" (البقرة:٢٢٢) قد نزلت، لذا أعلن رسـول الله ﷺ أن كـل شيء جائز عدا الجماع. فلما سمع اليهود وبما قاله النبي ﷺ قالوا: ما لهذا الرجل يخالفنـا في كل الأمور. فجاءة صحابيان وقالوا له: طالما أن اليهود تقول هذا فلـم لا نجـامعهن أيضاً. فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتيه. وانصرف الرجلان فأرسل النبـي ﷺ إليهما بعض الطعام. فاطمئنا إلى أن الرسول لم يغضب [٢].

وكان النبي إذا أغضبه شيء من أحد لا يصرح له به. ففي ذات مرة جاءه رجـل واضعاً كعادة العرب زعفران. فلم يقل النبي ﷺ له شيئا. وحينما انصرف أمر ﷺ النـاس أن يقولوا له اغسل هذا اللون [٣].

ذات مرة طلب رجل مقابلة النبي ﷺ فأذن الرسول ﷺ بدخوله. ولـم يكـن هـذا الرجل من أشراف قبيلته. لكن حينما جاء النبي ﷺ تكلم معه بلين. فتعجبت من ذلك السيدة عائشة، وسألت النبي ﷺ قائلة: كنت تعتقد أنه ليس طيباً لكنك بالرغم من ذلك خاطبته بلين ولطف. فأخبرها النبي ﷺ بأن أسوء شخص عند الله من ينصرف الناس عنه لسوء حديثه [٤]. اتضح من الأحداث سالفة الذكر مدى كراهية وعداء اليهود للإسلام. لكن على الرغم من ذلك كان النبي ﷺ يتعامل معهم بلين ورفق دائما ويبيع لهم ويبتاع منهم. وفـي أشـد

---

[١] أيضاً.

[٢] أبو داود مؤاكلة الحائض.

[٣] أبو داود جـ٢ كتاب الأدب.

[٤] صحيح البخاري وأبي داود جـ٢ كتاب الأدب باب حسن العشرة باب الرجل.

حالات الغضب لم يقل سوى "ترتب ناصيته" [١]. يقول سيدنا جابر بن عبد الله الأنصاري كان بالمدينة يهودي كنت اقترض منه. وذات سنة تصادف أن النخل لم يثمر. ولم أستطع سداد الدين. ومر عليه عام كامل، وحينما جاء الربيع بدأ اليهودي يطالب بقرضه، ولم يثمر النخيل وقتها أيضاً بما فيه الكفاية فطلبت منه مهلة عام آخر. فرفض. فذهبت لرسول الله ﷺ وحكيت له ما حدث. فذهب رسول الله ﷺ مع بعض صحابته إلى بيت اليهودي وحاول إقناعه أن يمهلني لكنه قال يا أبا القاسم لن أُمهله. فذهب ﷺ إلى حديقة النخيل وطاف بها مرة ثم عاد لليهودي وتكلم معه لكنه لم يوافق. وفي النهاية طلب مني رسول الله أن أفرش مسقفاً على الدكة فاستراح ﷺ ونام عليه، وحينما تيقظ طلب ثانية من اليهودي أن يمهلني لكنه رفض. فذهب رسول الله ﷺ ووقف بين النخيل وقال لجابر ابدأ جمع التمور. فببركة النبي ﷺ كثرت التمور حتى فاضت عن دين اليهودي [٢].

لم يكن بالمجلس النبوي مكان كبير. لذا كان من يأتي أولاً يجلس وإن جاء أحد بعد ذلك ولم يكن هناك مكان فكان النبي ﷺ يفرش له رداءه الشريف. في ذات مرة كان ﷺ جالساً في جعرانة وكان يقسم اللحم على الناس بنفسه. فجاءت في تلك الأثناء امرأة وذهبت صوب النبي ﷺ، فلما رآها النبي ﷺ فرش بردته الشريفة تعظيماً لها. يقول الراوي سألت عن تلك المرأة؟ فقال الناس أنها كانت مرضعة النبي ﷺ [٣].

كان النبي ﷺ جالساً ذات مرة وجاء والده من الرضاعة ففرش له النبي ﷺ طرفاً من عباءته ثم جاءت أمه من الرضاعة ففرش لها الطرف الآخر. ثم جاء أخوة في الرضاعة فنهض النبي وأجلسه أمامه [٤].

أرسل النبي ﷺ إلى سيدنا أبي ذر الغفاري الصحابي الشهير فلم يجده بالبيت، وبعد قليل جاء أبو ذر والنبي متكأ فلما رآه النبي ﷺ نهض وعانقه [٥]. وحينما عاد سيدنا جعفر من الحبشة عانقه رسول الله أيضاً وقبل جبهته [٦]. وكان ﷺ يبدأ بالسلام. وكان يفشي السلام على من يقابله في الطريق سواء أكان رجل أم امرأة أم طفل. في ذات مرة كل ﷺ

---

[١] أدب المفرد الإمام البخاري.

[٢] البخاري ص ٨١٨ باب الرطب والتمر.

[٣] أبو داود كتاب الأدب.

[٤] أيضاً باب بر الوالدين.

[٥] أبو داود كتاب الأدب باب المعانقة.

[٦] المرجع السابق.

يمر بطريق وكان المسلمون والكفار جالسين سوياً عليه فسلم (ألقى السلام) النبي ﷺ على الجميع [1].

وإن غضب ﷺ من فعل أحد لا يجهر باسمه في المجلس (الملأ) بل كان يتكلم بصيغة العموم فيقول: يفعل الناس كذا، ويقول الناس كذا أو اعتاد بعض الناس على كذا. أي أنه كان يتكلم بصيغة الإبهام حتى لا يفصح الشخص بعينه ولا يحرج إحساسه.

حسن المعاملة

مع أن النبي ﷺ غالباً ما كان يعيش مديوناً بسبب جوده اللامتناهي. لدرجة أن درعه ظل مرهوناً حتى الوفاة عند يهودي مقابل بعض الصياع من الحبوب. لكنه مع ذلك ظل محافظاً في كل حال على حسن المعاملة. في المدينة كان اليهود عامة ينعمون بالثراء فكان كثيراً ما يقترض منهم. واليهود كما هو معروف مشهورون بالخسة والدناءة لكن النبي ﷺ كان يتحمل سوء أخلاقهم.

اعترف أولئك الناس الذين كانت لهم مع النبي ﷺ علاقات تجارية قبل البعثة،بأمانته ﷺ وحسن معاملتهﷺ . ومن ثم كانت قريش كلها قد لقبته بالصادق الأمين. ومع أن قريش كانت قد امتلأت بعد النبوة حقداً وبغضاً على النبي ﷺ. لكن كان بيت النبي أأمن مكان لحفظ أموالهم. كان في العرب تاجر يدعى سائب أسلم وحضر إلى النبيﷺ. فأثنى الناس عليه لرسول الله ﷺ أثناء تقديمهم له. فأعلمهم النبي ﷺ بأنه أعرفهم به. فقال سائب ﷺ. فداك أبي وأمي يا رسول الله. كنت شريكي وكنت دوماً حسن المعاملة [2].

ذات مرة اقترض رسول الله ﷺ بعض التمور من شخص، وبعد أيام حل موعد سداد القرض. فأمر رسول الله ﷺ أحد الأنصار بسداده. فرد الأنصاري التمر ولكن التمر لم يكن بنفس جودة التمر المقترض. لذا رفض المقرض أن يأخذ التمور. فقال له الأنصاري: أترفض أن تأخذ تمور رسول الله ﷺ. قال: نعم لأنه إذ لم يعدل رسول الله فمن سيعدل إذن؟ فلما سمع رسول الله ﷺ هذه المقولة سالت الدموع من عينيه، وقال: صدق [3].

---

(1) البخاري، باب السلام على جماعة فيها الكافر.

(2) أبو داود، ج٢، ص٢١٧.

(3) الترغيب والترهيب نقلاً عن مسند أحمد، ص ٢٣، طبعة مصر. ج٢.

وذات مرة جاء أعرابي له دين عند رسول الله، وكان الأعرابي جلفاً، تكلم مع النبي ﷺ بفظاظة. فعنفه الصحابة على ذلك. وقالوا له: أما تدري مع من تتكلم؟ قال: إنني أطلب حقي. فأخبرهم النبي بأنه كان عليهم أن يقفوا معه لأن الحق معه (سواء أكان حق الثمن أو الكلام)، ثم أمر ﷺ بعد ذلك أصحابه أن يعطوه دينه وأكثر منه [١].

في إحدى الغزوات كان جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه رفيق ركب رسول الله. وكانت البعير الذي يركبه بطيئاً. وازداد بطئه أكثر بعد ما تعب. فاشتراه منه رسول الله وأعطاه ثمنه بعيراً آخر، ثم أخبره بأن الاثنين له [٢].

ولقد ذكرت هذه الواقعة في رواية أخرى هكذا: أن رسول الله ﷺ قال له: أعطني عصا إن كان معك. فأعطاه، فأخذها رسول الله ﷺ وضرب بها البعير فأخذ يعدو حتى سبق الجميع. فاشتراه منه رسول الله بأربعة دراهم شريطة أن يظل له (لجابر) حق ركوبه حتى المدينة فبعد ما وصل جابر المدينة طلب الثمن. فأمر رسول الله ﷺ سيدنا بلال أن يعطيه أربعة دراهم ويزيد. لذا أعطاه بلال قيراطاً من الذهب بدلاً من الأربعة دراهم ثم زاده [٣]. وكان النبي معتاداً إذ حضر جنازة أن يسأل أولاً هل هناك دين على الميت ؟ فإذا كان مديناً أمر أصحابه أن يصلوا عليها، ولا يصلي هو معهم[٤].

ذات مرة اقترض ﷺ بعيراً من رجل وحين حان الوقت أعاد بعيراً أفضل منه، وأخبر أصحابه بأن خيرهم هو من يؤدي القرض بأحسن منه [٥].

وذات مرة استعار النبي ﷺ كوباً من شخص، ولسوء الحظ ضاع الكوب فدفع النبي ﷺ ثمنه له [٦] ودائماً كان ﷺ يعلن بأنه لا يحب أن يدخر عنده ديناراً واحداً أكثر من ثلاثة أيام إلا أن يدعه لسداد دين [٧].

ذات مرة كان أعرابي يبيع لحم جمل وكان ﷺ يعتقد أن في بيته تمور، لذا أخذ من الأعرابي لحماً بصاع تمر، وبعد أن عاد للبيت لم يجد تمراً فعاد للجزار وأخبره بأنه وزن

---

[١] ابن ماجة، باب لصاحب الحق سلطان.

[٢] البخاري، ص، ٢٠١٢ باب شرى الدواب.

[٣] صحيح البخاري، كتاب الوكالة.

[٤] صحيح البخاري، ص ٨٠٩، كتاب النفقات.

[٥] الترمذي، باب استقراض البعير، ص ٢٢٥.

[٦] الترمذي، أبواب الكلام، ص ٢٣١.

[٧] البخاري، ج١، ص ٣٢١. كتاب الاستقراض.

منه مقابل تمر ولكن ليس عنده تمر. فصخب الجزار وقال: إنها لعدم أمانة. فعنفه الناس إذ كيف يسيئ الظن بأمانة الرسول ﷺ؟ لكن رسول الله ﷺ أمرهم بتركه فإنَّ له الحق، ثم نظر ﷺ للجزار وقال له نفس ما قال. فقال الجزار نفس الكلمة فمنعه الناس. فأمر النبي ﷺ أصحابه بأن يتركوه يتكلم إذ له الحق في ذلك. وظل الرجل يكرر هذه الجملة ثم أرسله النبي بعد ذلك إلى أحد الأنصار ليأخذ من عنده تمراً، فلما أخذ التمر وعاد كان النبي ﷺ جالساً مع أصحابه. وكان قلب الرجل قد تأثر من حلم وعفو وحسن معاملة النبي. فقال لرسول الله ﷺ وهو ينظر إليه: يا محمد جزاك الله خيرا دفعت الثمن وأحسنت [1].

ذات مرة جاءت قافلة صغيرة ورابطت على مشارف المدينة وكان فيها بعير أحمر، وتصادف أن مر رسول الله ﷺ من هناك فسأل عن ثمن البعير. فأخبره الناس دون أن يساوموا. فرضي النبي ﷺ بالقيمة التي قالوها. وأمسك بلجام البعير ومضى به صوب المدينة. فقال الناس بعد ذلك: لماذا أعطيناه البعير ونحن لا نعرفه. وندمت كل القافلة على ذلك. وكان من بين القافلة امرأة قالت لهم: اطمأنوا فما رأيت وجه أحد مضيئاً كوجه هذا. أي إنه لن يغدر. وحينما حل الليل أرسل النبي ﷺ إليهم طعاماً وقيمة البعير تمرا [2].

وفي غزوة حنين كان النبي ﷺ في حاجة لبعض الأسلحة. وكانت قبيلة صفوان وقت ذاك كافرة وكانت عندها دروع كثيرة. فطلب النبي ﷺ منهم بعضها. فقالوا: يا محمد تريد ذلك جبراً. قال ﷺ: لا، بل عارية ومضمونة حتى نؤديها إليك. لذا أعاروا المسلمين أربعين درعاً. وبعد العودة حين تفقد المسلمين السلاح واتضح لهم ضياع بعض الدروع؛ فأخبر النبي ﷺ صفوان بأن بعض دروعهم فُقدت وأنه سيعطيهم عوضاً عنها. فقال صفوان: يا رسول الله لقد تغير حال قلوبنا [3] أي أسلمنا فلا حاجة للعوض الآن .

العدل والإنصاف

سيكون العدل سهلاً على الشخص إذا انعزل (عن الناس). أما النبي ﷺ فكان يضطر للتعامل مع آلاف من قبائل العرب. وقد كانت بين كل هذه القبائل عداوات، فلو حكم ﷺ لقبيلة ستصبح الأخيرة عدواً، وقد تحتم على النبي ﷺ التأليف بين القلوب بغرض نشر الإسلام. وبالرغم من كل هذه المشاكل لم يترك النبي ﷺ زمام العدل من يده.

---

[1] مسند ابن حنبل، ج١، ص ٢٦٨.

[2] الدارقطني، ج٢، ص ٣٠٨، كتاب البيوع.

[3] أبو داود، باب تضمين العارية.

وبعد فتح مكة كانت الطائف وحدها هي التي لم تذعن لدين الله. فحاصرهم النبي ﷺ. ولكنه اضطر بعد خمسة عشر أو عشرين يوماً لفض الحصار. وكان صخر قائداً فلما علم بذلك ذهب بنفسه وحاصر الطائف، وضيق عليهم لدرجة اضطرتهم في النهاية لقبول المصالحة. فأخبر صخر النبي ﷺ بذلك. جاء المغيرة بن شعبة الثقفي النبي ﷺ وقال لـه: إن صخراً سبى عمتي. فاستدعى رسول الله صخراً وأمره أن يعيد عمة المغيرة إلى دارها. ثم جاءه بعد ذلك بنو سليم الذين لم يكونوا قد أسلموا وقت ذاك. فقالوا: يا رسول الله استولى صخر على بئرنا، والآن اعتنقنا الإسلام. فرد علينا بئرنا. فأرسل النبي ﷺ إلى صخر وأخبره بأنه إذا أسلم قوم عصموا أنفسهم وأموالهم، لذا يجب رد لهم بئرهم، ففعل صخر. يقول الراوي: رأيت وجه رسول الله ﷺ قد احمر خجلاً[1] حين أذعن صخر لأوامره حيث أن صخرا هزم مرتين ولم يحصل على شيء من فتح الطائف.

ذات مرة سرقت امرأة من بني مخزوم. وكانت قريش تريد ألاّ يجري الحد عليها لنسبها فأرسلت أسامة بن زيد (رضى الله عنهما) الذي كان مقرباً لرسول الله، أرسلوه للنبي يطلب منه أن يعفيها من الحد. فغضب النبي ﷺ وقال النبي ﷺ: ياأيها الناس إنما ضلَّ مَن كان قبْلكم أنهم كانوا إذا سَرقَ الشريفُ تركوه، وإذا سرقَ الضَّعيفُ فيهم أقاموا عليه الحدَّ.[2]

وحين تم الصلح مع يهود خيبر قسمت أراضيهم على المجاهدين. فذهب عبد الله بن سهل ذات مرة لجمع التمور. وكان برفقته محيصة ابن عمه. فكان عبد الله ماشياً في منعطف فقتله قاتل ثم وارى جثته في حفرة. فذهب محيصة لرسول الله ﷺ يستغيث به. فقال النبي ﷺ : أتحلِفون وتستحِقُّون قاتِلَكم ــ أو صاحبكم ــ قالوا: وكيفَ نَحلِفُ ولم نشهَدْ

---

[1] أبو داود،ص٨٠،ج٢.

[2] صحيح البخاري، كتاب الحدود. وهذا نص الحديث: (٦٦٤٠) حدّثنا سعيدُ بن سليمان حدَّثنا الليثُ عنِ ابن شهابٍ عن عُروةَ عن عائشةَ رضيَ الله عنها «أن قريشاً اهمتهم المرأةُ المخزوميةُ التي سرقت فقالوا: «من يُكلم فيها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ومن يَجترىء عليه إلا أُسامةُ حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فكلم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال: أتشفعُ في حدّ من حدودِ الله؟ ثم قام فخطبَ فقال: ياأيها الناس إنما ضلَّ مَن كان قبْلكم أنهم كانوا إذا سَرقَ الشريفُ تركوه، وإذا سرقَ الضَّعيفُ فيهم أقاموا عليه الحدَّ. وايمُ اللهِ لو أن فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقت لقطعَ محمدٌ يدها». (المترجم).

ولم نرَ؟ قال: فتُبرِئكم يَهودُ بخمسينَ. فقالوا: كيفَ نأخذُ أيمانَ قومٍ كفّار؟ فعقَلهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم مِن عنده».[١].

ومع أنه لم يكن يعيش في خيبر غير اليهود ومؤكد أنهم هم الذين قتلوا عبد الله بن سهل إلا أن النبي ﷺ لم يتعرض لهم لعدم وجود شهادة واضحة. ودفع دية قتله مائة ناقة من بيت المال [٢].يقول طارق المحاربى حينما أخذ الإسلام ينتشر في بلاد العرب: خرجت مع نفر من أصحابي من ربذة قاصدين المدينة. وحينما وصلنا على مقربة منها رابطنا، وكان معنا في الركب نسوة أيضا، وبينما نحن جالسين مر رجل يرتدي ملابس بيضاء وألقى السلام فأجبناه. وكان معنا بعير أحمر. فسأل الرجل عن قيمته فقلنا له ثمنه كذا من التمر. فرضى بالثمن دون مساومة ثم أمسك بعنان البعير واتجه صوب المدينة حتى غاب عن الأنظار، فاعتقدنا جميعاً أن ثمن البعير قد ضاع حيث أننا لا نعرف المشتري. وعليه أخذ كل منا يلقى باللوم على غيره. فقالت امرأة من النسوة: اطمأنوا فما رأينا وجها مضيئاً كالقمر ليلة البدر كوجه هذا الرجل (أي أنه لن يخدع) وحينما حل الليل جاء شخص وقال: رسول الله ﷺ أرسل لكم هذا الطعام لتأكلوه وهذا التمر ثمن البعير. وفي صباح اليوم الثاني وصلنا المدينة وكان رسول الله ﷺ يخطب في المسجد. فنهض أنصاري حينما رآنا وقال: يا رسول الله هؤلاء من بنى ثعلبة وقد قتل أحدهم شخصاً من عائلتنا. فأذن لي أن أقتل منهم نفراً قصاصاً. فأخبرﷺ بأنه لا يُؤخذ ثأر من الابن [٣].

اشترى الصحابي سرق جملاً من أعرابي ولكنه لم يستطع أن يؤدي ثمنه، فأمسك الأعرابي به وجاء به إلى رسول الله ﷺ وقص عليه الأمر. فأمره رسول الله ﷺ أن يدفع

---

(١) وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٣١٠٤) حدثنا مسدَّدٌ حدَّثنا بِشرٌ هو ابنُ المفضَّل حدَّثنا يحيى عن بُشَيرِ بنِ يسارٍ عن سهلِ بنِ أبي حَثْمةَ قال: «انطلق عبدُ الله بنُ سهلٍ ومُحيِّصةُ بن مسعودِ بنِ زيد إلى خَيبر، وهي يومئذٍ صُلحٌ، فتفرَّقا، فأتى محيِّصة إلى عبد الله بنِ سهلٍ وهو يتشحَّط في دمه قتيلاً، فدفنَه، ثمَّ قدِم المدينةَ فانطلَق عبدُ الرحمن بن سهل ومحيِّصةُ وحُوَيِّصة ابنا مسعودٍ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فذهب عبدُ الرحمنِ يتكلمُ، فقال: «كبِّرْ كبِّرْ»، ــ وهو أحدثُ القومِ ــ فسكتَ، فتكلما، فقال: أتحلِفون وتستحِقُّون قاتلَكم ــ أو صاحبَكم ــ قالوا: وكيفَ نَحلِفُ ولم نشهَدْ ولم نرَ؟ قال: فتُبرِئكم يَهودُ بخمسينَ. فقالوا: كيفَ نأخذُ أيمانَ قومٍ كفّار؟ فعقَلهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم من عنده». (المترجم).

(٢) ذكرت هذه الواقعة بروايات مختلفة في البخاري والنسائي وغيره.

(٣) الدارقطني، ج٢، ص ٣٠٧، ٣٠٨.

الثمن. فاعتذر سرق لإفلاسه، فأمر النبي ﷺ الأعرابي أن يأخذه ويبيعه في السوق. فأخذه الأعرابي إلى السوق. فاشتراه منه أحد الصحابة ثم اعتقه [١].

كان على أبي حدرد الأسلمي أحد صحابة رسول الله ﷺ ديناً ليهودي ولم يكن يملك شيئاً سوى الملابس التي يستر بها بدنه. وفي ذلك الوقت كان النبي ﷺ ينوي الهجوم على خيبر. فطلب أبو حدرد من اليهودي أن يمهله. ولكن اليهودي لم يوافق. وأمسك به وذهب به لرسول الله ﷺ. فقال له النبي ﷺ: «اعْطِهِ حَقَّهُ» قال: والذي بعثك بالحق ما أقدر عليها قال: «أَعْطِهِ حَقَّهُ» قال: والذي نفسي بيده ما أقدر عليها قد أخبرته أنك تبعثنا إلى خيبر فأرجو أن تغنمنا شيئاً فارجع فأقضه قال: «أَعْطِهِ حَقَّهُ» قال: وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا قال ثلاثاً لم يراجع فخرج به ابن أبي حدرد إلى السوق وعلى رأسه عصابة وهو متزر ببرد فنزع العمامة عن رأسه فأتزر بها ونزع البردة فقال: اشتر مني هذه البردة فباعها منه بأربعة الدراهم [٢].

وقد كان من أثر هذا العدل والأنصاف أن كان المسلمون من ناحية، واليهود الذين كانوا ألد أعداء النبي ﷺ يقدمون شكواهم للنبي ﷺ.[٣] وكان يحكم لهم طبقاً لشريعتهم. لورود ذلك في القرآن صراحة. فقد كان هناك تفاوت عجيب في العزة والمكانة بين يهود بني قريظة ويهود بني النضير قبل مجيء الإسلام. فلو قتل واحد من قريظ أحداً من نضير قُتل، أما إذا قتل نضيري قريظي افتدى دمه بمائة ناقة. وحينما حدث ذلك بعد مجي

---

[١] المرجع السابق، ٣١٤.

[٢] مسند أحمد، ج٣، ص٢٢٣، المعجم الصغير للطبراني، ومعجم عبدان. وهذا نص الحديث كما ورد فى مسند أحمد: (١٥١٨٧) ـــ حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا إبراهيم بن إسحاق ثنا حاتم بن إسماعيل المدني قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن أبي يحيى عن أبيه عن ابن أبي حدرد الأسلمي أنه كان ليهودي عليه أربعة دراهم فاستعدى عليه فقال: يا محمد إن لي على هذا أربعة دراهم وقد غلبني عليها فقال: «اعْطِهِ حَقَّهُ» قال: والذي بعثك بالحق ما أقدر عليها قال: «أَعْطِهِ حَقَّهُ» قال: والذي نفسي بيده ما أقدر عليها قد أخبرته أنك تبعثنا إلى خيبر فأرجو أن تغنمنا شيئاً فارجع فأقضه قال: «أَعْطِهِ حَقَّهُ» قال: وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا قال ثلاثاً لم يراجع فخرج به ابن أبي حدرد إلى السوق وعلى رأسه عصابة وهو متزر ببرد فنزع العمامة عن رأسه فأتزر بها ونزع البردة فقال: اشتر مني هذه البردة فباعها منه بأربعة الدراهم فمرت عجوز فقالت: ما لك يا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فأخبرها. فقالت: ها دونك هذا ببرد عليها طرحته عليه. (المترجم).

[٣] أبو داود،باب تضمين العارية،ج٢.

الإسلام قدمت بنو قريظة القضية أمام النبي ﷺ. فأمر رسول الله طبقاً لما نزل في التوراة "**النفس بالنفس**" أن يجري القصاص على السواد بين القبيلتين [١].

إن من أدق جوانب العدل والأنصاف هو أن تلتزم بالعدل حتى ولو على نفسك. في ذات مرة كان رسول الله ﷺ يقسم مال الغنيمة. وكان الناس مزدحمين حوله، فاتكأ شخص على فم النبي ﷺ. وكان في يد النبي ﷺ عصا فوكزه النبي بها. فجاء طرف العصا مصادفة على فم الرجل فجرح. فقال له النبي ﷺ: اقتص مني. فقال: يا رسول الله لقد عفوت [٢] وفي مرضه الأخير أعلن الرسول ﷺ على الملأ قائلاً (ما معناه): إن كان لأحد عندي دين أو كنت قد آذيته في نفسه أو ماله، فها هي نفسي ومالي، فليأت ويقتص مني في الدنيا. وكان الصمت يعم المكان، وإذ بشخص يقوم ويدعي أن له بعض الدراهم، فردت إليه [٣].

جوده وسخائه ﷺ

كان الجود والسخاء فطرة في النبي ﷺ. يقول ابن عباس (رضي الله عنهما): كان رسول الله ﷺ أجود الناس خاصة في شهر رمضان [٤]وكان أكرم الناس. ولم يجب على سؤال أحد بالسلب طيلة حياته وإنما يقول[٥]: **إنما أنا قاسم وخازن والله يعطي**[٦] (رواه البخاري).

ذات مرة جاءه ﷺ رجل ورأى عنده قطيع كبير من الأغنام. فسأله منها. فأعطاه النبي ﷺ القطيع كله. فلما عاد الرجل إلى قبيلته قال: اسلموا فإن محمداً جواداً لدرجة أنه لا يبالي الإفلاس [٧]. وذات مرة طلب رجل منه ﷺ حاجة، فأخبره النبي ﷺ بأنه ليس عنده الآن، وأمره بالذهاب معه. وكان عمر يمضي مع النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله ماذا عليك

---

[١] أبو داود، كتاب الديات.

[٢] أبو داود، باب القود بغير حديد.

[٣] ابن إسحاق برواية ابن هشام.

[٤] صحيح البخاري، باب بدء الوحي.

[٥] صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب حسن الخلق.

[٦] صحيح البخاري، باب فرض الخمس.

[٧] صحيح مسلم، ج٢، ص ٢٩٠.

طالما أنه ليس عندك شيء؟ وجاءه رجل آخر فقال: أعطني يا رسول الله ولا تخشى من رب العرش فإنه لن يتركك محتاجاً. فأعطاه النبي ووجهه يفيض سرورا [١].

وكان النبي ﷺ جواداً لدرجة أنه إذا جاءه سائل أعطاه إن كان عنده شيء وإلا وعده أن يعطيه. لذا كان الناس متجرئين لدرجة أن جاء أعرابي وقت الصلاة وأمسك بثوب النبي ﷺ وقال له: لي حاجة وأخشى أن أنساها، فاقضها لي. فذهب النبي ﷺ معه وقضى له حاجته ثم عاد فصلى [٢].

وفي بعض الأوقات كان النبي ﷺ يشتري الشيء من الشخص وبعد أن يعطيه ثمنه يرده له على سبيل العطية، فقد اشترى ﷺ بعيراً من عمر ثم أعطاه في الوقت نفسه لعبد الله بن عمر. وفعل مثل هذا أيضاً مع جابر [٣].

ولم يكن النبي ﷺ يأكل أي شيء مهما كان بمفرده، بل كان يشرك كل صحابته معه. في إحدى الغزوات كان مع النبي ﷺ ١٣٠ صحابياً. فاشترى النبي ﷺ ماعزة وأمر بشوى كبدها. وبعد أن شوى قسم على كل الصحابة وترك للغائب نصيبه[٤]. وكان ﷺ لا يهدأ إذا ظل عنده شيء ولم ينفقه. تقول أم سلمة: قدم رسول الله ﷺ البيت ووجه ممتعض. فقلت: خيراً يا رسول الله؟ أخبر بأن الدنانير السبع التي جاءته ﷺ بالأمس انقضى عليها الليل وهي مازالت (ملقاة) على السرير [٥].

روى عن أبي ذر الغفاري أنه كان يجول مع النبي ﷺ ليلاقى أحد الطرقات فأخبره رسول الله بأنه لا يحب أن يكون له جبل أحد ذهبا. وألا يبقى في بيته دينار لمدة ثلاثة أيام إلا ما يتركه لقضاء دين [٦].

وكان النبي ﷺ معتاداً على ألا ينام في البيت طالما أن فيه أي درهم لم ينفق، حمل سيد فدك أربعة جمال بالحبوب وأرسلها لرسول الله ﷺ. فباع بلال الحبوب في السوق وأدى ديناً كان ليهودي عنده ثم عاد وأبلغ رسول الله ﷺ بذلك. فامتنع النبي ﷺ عن الذهاب حتى يُتصدق بما تبقى. فقال بلال: وماذا عساي أفعل؟ فما من سائل. فقضى النبي ﷺ ليلته

---

[١] الأدب المفرد، الإمام البخاري.

[٢] صحيح البخاري، ج١ ص ٢٨٤.

[٣] المرجع السابق،ص٢٨٢.

[٤] صحيح مسلم، ص ١٩٩.

[٥] مسند ابن حنبل، ج٣، ص٢٩٣.

[٦] صحيح البخاري، كتاب الاستقراض

بالمسجد. وفي اليوم الثاني جاءه بلال وقال: يا رسول الله لقد عافاك الله. يعني قُسّم ما كان قد فاض. فحمد النبي ﷺ ربه ثم نهض وعاد للبيت [١].

وذات مرة دخل رسول الله ﷺ البيت بعد صلاة العصر ثم خــرج فــوراً خلافــاً لعادته. فتعجب الصحابة من ذلك.فأخبرهم ﷺ بأنه تذكر وهو في الصلاة أن بالبيت بعض الذهب. فخشي أن يأتي الليل وهو باق بالبيت فذهب وأخبر من بالبيت أن يتصدقوا به.[٢]

وكان ﷺ عائداً من غزوة حنين بعد أن وزع ما كان معه. وفي الطريق علم البدو أن رسول الله ﷺ سيمر بهم. فتجمعوا والتفوا حول النبي ﷺ وقالوا له: أكرمنا بشيء فخاف النبي ﷺ من هجومهم واحتمى منهم بشجرة. فأمسكوا برداء النبي ﷺ. وفي نهايــة هــذا الاجتذاب وقع رداء النبي ﷺ من على جسده الشريف في أيديهم. فــأمرهم الجــوّادُ ﷺ أن يعطونه رداءه، وأقسم بالله تعالى بأنه لو عنده عدد هذه الأشجار إبل لأعطاهم إياها. ومــا بخل ولا كذب ولا ملّ [٣].

كان النبي ﷺ قد قال للناس «مَن تَركَ مالاً فلوَرَثَتِه، ومَن تَركَ كلاًّ فإلينا». [٤]. لا حاجة لنا منه. وذات مرة كان جالساً مع أصحابه فجاءه رجل أعرابي وأمســك بطــرف رداءه وقال: يا محمد! اعطني حمل بعير، فليس المال مالك ولا مال أبيك. فحمل النبي ﷺ البعير شعيراً وتمراً [٥].

وذات مرة جاء الخراج من البحرين وكان المبلغ كبيراً لدرجة لم يسبق له مثيــل. فأمر النبي ﷺ أن يوضع في صحن المسجد. ثم جاء النبي ﷺ المسجد ولم يلتفت إليه وبعد أن انتهى من الصلاة بدأ تقسيمه فكان يعطي من يأتيه . فأعطى العباس مالاً كثيراً لم يقدر على حمله إذ أن حالته قد تعسرت بعد غزوة بدر وهكذا أعطى الآخرين حتى نفد المــال. فنفض النبي ﷺ ثوبه وذهب [٦].

---

[١] أبو داود، باب هدايا المشركين.

[٢] صحيح البخاري، يفكر الرجل الشيء في الصلاة

[٣] صحيح البخاري، باب الشجاعة في الحرب.

[٤] صحيح البخاري. وهذا نص الحديث: (٢٣٥٧) حدّثنا أبو الوَليدِ حدّثنا شُعبةُ عن عَديّ بنِ ثابتٍ عــن أبي حازمٍ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه عنِ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «مَن تَركَ مالاً فلوَرَثَتِه، ومَن تَركَ كَلاًّ فإلينا» (المترجم).

[٥] أبو داود، كتاب الأدب.

[٦] صحيح البخاري، ج٢، باب القسمة.

وقد حكم الإسلام إذا مات عبد معتوق وترك تركة أن تكون لسيده. ذات مرة مات عبد هكذا فأخذ الناس تركته وذهبوا بها لرسول الله ﷺ. فسأل النبي ﷺ أ أحد من وطنه هنا؟ فأجاب الناس نعم. فأمرهم النبي ﷺ بأن يعطوه كل شيء [١].

وذات مرة سأله الأنصار شيئاً، فأعطاهم النبي ﷺ وظل يعطيهم حتى نفذ ما عنده. ولكنهم بالرغم من ذلك عادوا وسألوا ثانية. فأخبر النبي بأنه لو ظل عنده شيء فلن يدخره منهم لنفسه[٢].

الإيثار

كان الإيثار أبرز وأظهر سمة من سمات النبي ﷺ وأخلاقه. كان ﷺ يحب أولاده كثيراً جداً خاصة السيدة فاطمة. فكانت إذا جاءته قام وقبل جبهتها وأجلسها مكانه. ولكن مع ذلك كان حال السيدة فاطمة صعباً معسراً لدرجة أن لم يكن في بيتها خادم. فكانت تدير بنفسها الرحى. وتملأ آنية الماء. فكانت كفتا يديها قد تورمتا من إدارة الرحى. والتهب صدرها من حمل الآنية. فذهبت للنبي ﷺ ذات يوم واستحيت أن تخبره عن حالها. فاخبر بدلاً منها الأمير ؓ وطلب أن تخصص لها جارية من الجواري اللاتي يسبين من غزوة كذا. فأخبرهما النبي ﷺ بأنه لم يعط أصحاب الصفة حتى الآن، وطالما لم يحدث هذا. فلن يستطيع أن يصرف اهتمامه لشيء آخر [٣]. وفي رواية أخرى أن بنتي الزبير والسيدة فاطمة الزهراء ذهبن للنبي ﷺ وشكون إفلاسهن وضيق حالهن وطلبن من النبي ﷺ أن يخصص لهن جارية أو جاريتين من أسرى الغزوة اللاحقة. فأخبر سيدنا محمد ﷺ بأن يتامى بدر كانوا قد طلبوا ذلك قبلهم [٤].

وذات مرة طلب منه ﷺ علي ؓ شيئاً. فأخبره النبي ﷺ بأنه لا يمكن له أن يعطيه ويترك أهل الصفة يربطون على بطونهم من الجوع [٥].

---

[١] مسند ابن حنبل، ج٢، ص ١٧٥.

[٢] صحيح البخاري، ص، ١٩٨ كتاب الصدقات.

[٣] وردت هذه الرواية في كتب الحديث (في سنن أبي داود وغيره) بروايات مختلفة .وفي رواية أن النبي ﷺ قال للسيدة فاطمة دعاء وقال أنه أفضل من الجارية.

[٤] أبو داود، ج٢، ص ٣٤٣.

[٥] مسند أحمد، ج١، ص ٧٩.

وذات مرة جاءت امرأة برداء وقدمته للنبي ﷺ. وكان النبي في حاجة إليه فأخذه. فجاء رجل وقال: لكم هذا رداء جيد يا رسول الله؟. فخلعه النبي ﷺ وأعطاه إياه. وبعد أن أنصرف النبي ﷺ لام الناس هذا الرجل وقالوا له: أنت تعلم أن رسول الله ﷺ كان في حاجة إليه. كما أنك تعرف كذلك أنه لا ينكر سؤال أحد فقال الرجل: أعرف ولكني أخذته تبرَكاً كي أُكفن فيه [١].

ويظهر من الأحداث التي كتبت تحت عنوان الزهد والقناعة الحال الضيق العسير الذي كان الرسول ﷺ يعيش فيه. وبعد سنة ٣ هجرية زادت الفتوحات الإسلامية. وكانت الحدائق أفضل الممتلكات عند العرب وفي سنة ٣ هجرية أوصى أحد يهود بني النضير يسمى مخريق عند موته للنبي ﷺ بحدائقه السبع شيب، وصافقة، ودلال، وحسينى، وبرقة، واعواف، ومشربه أم إبراهيم[٢]. ولكن النبي ﷺ تصدق بها جميعاً وأوقفها في سبيل الله. فكان ما يخرج منها يُقسم على الفقراء والمساكين [٣].

تزوج أحد الصحابة ولم يكن في بيته شيء للوليمة. فأمره النبي ﷺ بالذهاب إلى السيدة عائشة ويطلب منها قدرة من الدقيق. فذهب الصحابي وأحضرها. علماً بأنه لم يكن في بيت النبي شيء للعشاء غير هذه القدرة [٤]. وذات مرة حل الغفارى ضيفاً على رسول الله ﷺ ولم يكن عند رسول الله شيء للعشاء سوى لبن شاة. فأعطاه له النبي ﷺ. ومرت الليلة على بيت رسول الله وهم جوعى. كما مرت عليهم الليلة التي كانت قبلها أيضاً [٥].

إكرام الضيف

كان الناس يأتون النبي ﷺ من كل نواحي وقبائل العرب أفواجا، وكان بيت السيدة رملة أحد الصحابيات بيتا للضيوف ينزلون فيه، كما كان بيت أم شريك إحدى الأغنياء الكريمات بيتاً للضيوف، وكان أناس مخصوصين ينزلون بالمسجد النبوي كما نزل وفد

---

[١] صحيح البخاري، باب حسن الخلق والسخاء وباب من استعد لكفن.

[٢] فتح الباري، شرح كتاب الفرائض.

[٣] الإصابة، تذكرة مخريق.

[٤] مسند أحمد، ج٤، ص ٥٨.

[٥] المرجع السابق، ج٦، ص٣٩٧.

ثقيف هناك[١]. وكان النبي ﷺ يكرم ويخدم هؤلاء الضيوف بطيب خاطر[٢]. وهكذا كان النازلون لا يعودون دون أن يأكلوا ويشربوا [٣].

ولم يكن هناك تميز بين إكرام الكافر والمسلم. فكان الكفار والمسلمون كلاهما ينزلون ضيوفاً على رسول الله ﷺ. وكان ﷺ يكرمهم على السواء. وحينما جاءه وفد أهل الحبشة. أنزله النبي ﷺ عنده ضيفاً وقام بنفسه على خدمتهم بطيب خاطر [٤]. وذات مرة نزل عليه أحد الكفار ضيفاً فقدم له النبي لبن شاة. فشربه كله. فحلب النبي ﷺ شاة ثانية فشربه كله أيضاً، وظل رسول الله ﷺ يسقيه حتى حلب له سبع شياة [٥]. وأحياناً كان ينزل الضيف فيقدم النبي ﷺ له كل ما في البيت ويظل أهل البيت جياعاً[٦]، وكان ﷺ يقوم ليلاً سهراً على خدمة ضيوفه [٧].

كان أصحاب الصفة أكثر الصحابة عوزاً وإفلاساً. لكنهم كانوا أكثر من حصل على شرف ضيافة النبي. ذات مرة أخبر النبي ﷺ بأن من عنده طعام رجلين فليصطحب معه ثلاثة ومن عنده طعام ثلاثة يصطحب أربعة. ومن عنده طعام أربعة يصطحب خمسة. لذا اصطحب أبو بكر ثلاثة رجال معه. أما النبي فاصطحب معه عشر رجال [٨].

يحكي أبو هريرة أحد أصحاب الصفة –قصة فقره المؤلمة فيقول: كنت جالساً ذلت يوم على الطريق وأنا في حالة جوع شديد. فمر بي أبو بكر فسألت منه عن آية من كتاب الله كي ألفت انتباهه. ولكنه مر ولم يلق بالاً لحالتي. ثم مر عمر فحدث معه مثلما حدث مع أبي بكر. ثم مر بعد ذلك رسول الله ﷺ فلما رآني ابتسم وأمرني أن أصحبه، فلما وصل البيت رأى قدحاً من اللبن، سأل عنه، فخُبِّر أن شخصاً أرسله هدية. وأمرني رسول

---

[١] الزرقاني، ذكر الوفود.

[٢] صحيح مسلم، ج٢،ص٥١٩.

[٣] شمائل الترمذي.

[٤] الشفاء للقاضي عياض بسند متصل.

[٥] صحيح مسلم، باب المؤمن يأكل في معى.

[٦] مسند ابن حنبل،ج٦، ص٣٩٧.

[٧] أبو داود، كتاب الأدب.

[٨] صحيح مسلم، ج٢.

الله ﷺ بالذهاب إلى أصحاب الصفة وأستدعيهم. ففعلت. فأعطاني رسول الله ﷺ القدح وقال قسّمه بينهم.[١]

وكان ببيت النبي ﷺ قدح ثقيل لا يستطيع حمله أقل من أربعة أشخاص. حينما يحين الظهر يؤتى بالقدح ويجلس أصحاب الصفة حوله. حتى يزدحم المكان لدرجة أن النبي ﷺ كان يضطر لأن يجلس على ركبة (قدم) واحدة حتى يتسع المكان للناس [٢].

يقول المقداد: كنت واثنان من رفاقي قد أوشكنا على العمى من شدة الجوع. فطلبنا أن يكفلنا أحد لكن أحداً لم يرض. وفي النهاية ذهبنا لرسول الله ﷺ. فنزل ﷺ على بيت المال وأراهم ثلاث شياة وقال اشربوا لبنهم، لذا أخذ كل واحد منا يشرب نصيبه من اللبن[٣].

وذات يوم اصطحب النبي ﷺ أصحاب الصفة إلى بيت السيدة عائشة وقال: يَا عَائِشَةُ أَطْعِمِينَا. فجيء بطعام مطهي من الشعير ووضع أمامهم. ولم يطلب النبي ﷺ شيئاً آخر للطعام، ولكن قدُمت لهم عصيدة تمر ثم قدح لبن كبير. وكان هذا آخر شيء يقدم لهم.[٤]

كراهية الاستجداء والسؤال

على الرغم من أن سُحب كرم النبي ﷺ ظلت تمطر كل وقت. إلا أنه كان يشق عليه أن يلح أحد في السؤال بلا ضرورة. فيخبر بأنه لأن يحمل أحدنا على ظهره حزمة خشب يبيع منها يحمي كرامته أفضل من سؤال الناس [٥].

---

[١] الترمذي، ص٢٩٩.

[٢] أبو داود، كتاب الأطعمة.

[٣] صحيح مسلم، ج٢، ص ١٩٨.

[٤] أبو داود،كتاب الأدب. وهذا نص الحديث كاملا: (٥٠٣٦) حدثنا مُحَمَّدُ بنُ المُثَنَّى أخبرنا مُعَاذُ بنُ هِشَامٍ حدَّثني أَبِي عن يَحْيَى بن أَبِي كَثِيرٍ قال أنبأنا أَبُو سَلَمَةَ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عن يَعِيشَ بن طِخْفَةَ بنِ قَيْسٍ الْغِفَارِيِّ، قال: « كَانَ أَبِي مِنْ أَصْحَابِ الصُّفَّة فقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: انْطَلِقُوا بِنَا إِلَى بَيْتِ عَائِشَةَ، فانْطَلَقْنَا فقَالَ: يَا عَائِشَةُ أَطْعِمِينَا، فَجَاءَتْ بِحَشِيشَةٍ فأَكَلْنَا، ثُمَّ قال: يَا عَائِشَةُ أَطْعِمِينَا، فَجَاءَتْ بِحَيْسَةٍ مِثْلَ الْقَطَاةِ فأَكَلْنَا، ثُمَّ قال: يَا عَائِشَةُ أَسْقِينَا، فَجَاءَتْ بِعُسٍّ منَ اللَّبَنِ فَشَرِبْنَا، ثُمَّ قال: يَا عَائِشَةُ أَسْقِينَا فَجَاءَتْ بِقَدَحٍ صَغِير فَشَرِبْنَا، ثُمَّ قال: إنْ شِئْتُمْ بِتُّمْ وَإنْ شِئْتُمْ انْطَلَقْتُمْ إِلَى المَسْجِدِ. قال: فَبَيْنَمَا أَنَا مُضْطَجِعٌ في المَسْجِدِ منَ السَّحَرِ عَلَى بَطْنِي إذَا رَجُلٌ يُحَرِّكُنِي بِرِجْلِهِ فقَالَ: إنَّ هٰذِهِ ضِجْعَةٌ يُبْغِضُهَا الله. قال: فَنَظَرْتُ فإِذَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم» (المترجم).

[٥] صحيح البخاري، كتاب الصدقات، ص ١٩٨.

ذات مرة جاءه أنصاري وسأله شيئاً، فسأله النبي ﷺ عمّ يمتلكه؟ قال: بساطاً أتغطى ببعضه وأفرش بعضه، وقدح ماء فطلبهما رسول الله منه. ثم قال: من يشتري هذين؟ قال شخص: اشتريهما بدرهمين. قال ﷺ: من يزيد؟ قال آخر: درهمان لكل واحد منهما. فأعطاه النبي إياهما ثم أعطى الأنصاري الدراهم وقال له (ما معناه): اشتري بدرهم طعاما، وضعه في البيت واشتري بالبقية حبلاً احتطب عليه من الغابة ثم بع الأخشاب في المدينة. وبعد أسبوعين جاء الرجل النبي ﷺ وقد أدخر عشر دراهم. اشترى ببعضها قماشاً وببعضها حبوبا. فأخبر ﷺ بأن هذا أفضل من أن يأتي الرجل يوم القيامة وعلى وجهه علامة السؤال [١].

وذات مرة جاء أنصاري يسأل النبي ﷺ. فأعطاه النبي. ولم يرد النبي سؤاله طالما كان هناك شيء فلما لم يتبق شيء أخبر ﷺ أنه لو ظل عنده شيء ما ادخره منه. ولكن الشخص الذي يسأل الله أن يعفيه من ذلة السؤال والاستجداء يعفه الله. وما أوتى أحد أفضل ولا أكثر من الصبر [٢].

كان حكيم بن حزام قد أسلم يوم فتح مكة وجاء ذات مرة يسأل الرسول ﷺ شيئاً فأعطاه الرسول ﷺ. ثم جاء بعد بضعة أيام وسأل ثانية. فأعطاه النبي أيضاً. ثم سأل ثالثة فأعطاه النبي أيضاً. ثم أخبر حكيم بأن من يطلب الغنى باستغناء تُبارك ثروته وتزيد. ومن يطلبها بحرص وطمع يحرم منها. مثل ذلك كمثل شخص يأكل ولا يشبع. اليد العليا خير من اليد السفلي". وقد تأثر حكيم من نصيحة رسول الله هذه لدرجة أنه لم يطلب شيئاً من أحد طيلة حياته [٣].

وبينما كان رسول الله ﷺ يُقسم مال الصدقات في حجة الوداع فجاءه رجل. فنظر له الرسول ﷺ فوجده سليماً معافاً. فأخبره بأنه إن كان يريد أعطاه منها، ولكن ليس للأغنياء ولا للأصحاء نصيب فيها [٤].

كان هناك شخص اسمه قبيصة اقترض ديناً. فجاء للنبي وعرض عليه حاجته. فوعده النبي ﷺ، ثم أخبره بأنه لا يجوز السؤال ومد اليد للناس إلا لثلاثة أشخاص الأول

---

[١] أبو داود والترمذي، الصدقات.

[٢] كتاب الصدقات.

[٣] صحيح البخاري، ص ١٩٩ كتاب الصدقات.

[٤] أبو داود، كتاب الزكاة.

رجل مُثقل بالديون، فيمكنه السؤال. فإذا اكتملت حاجته وجب عليه أن يكف. والثاني رجل حلت به مصيبة أخذت كل ماله فيجوز له السؤال حتى تتحسن حالته. والثالث رجل أُبتلى بفاقة وشهد ثلاثة من جيرانه بفاقته. أما من يسأل عدا هؤلاء فإنه يأكل حراما.

بغض الصدقة

كان النبي ﷺ يعتبر قبول الصدقة والزكاة له ولأهل بيته عاراً كبيرا. كان يقول بأنه أحياناً يعود إلى البيت فيجد على الفراش تمرا، فيشتهى أكله، ويهم أن يضعه في فمه. ثم يخشى أن يكون صدقة فيضعه [١]. وذات مرة وجد في الطريق تمرة فأخبر بأنه لو لم يشك أنها صدقة لأكلها.[٢] وذات مرة وضع الإمام الحسن عليه السلام تمرة من تمور الصدقات في فمه. فعنفه النبي ﷺ وقال له: إنَّ الصَّدَقَةَ حَرامٌ على محمدٍ وعلى آهل محمد، ثم أخرجها من فمه. وكان ﷺ إذا قدم له شخص شيئا، استفسر عن هذا الشيء أ هدية أم صدقة؟ فإن كانت هدية قبلها وإن كانت صدقة أعطاها الآخرين[٣].

قبول الهداية

. كان النبي ﷺ يقبل هدايا وتحف الأصدقاء والأحباب. بل أنه قال: أنها وسيلة للمحبة "**تهادوا تحابوا**" (الحديث). لذا كان الصحابة يرسلون لبيته ﷺ أي شيء في أي يوم خاصة اليوم الذي يكون فيه الرسول ﷺ في حجرة السيدة عائشة [٤]. مر سابقاً أن النبي ﷺ كان إذا قُدم له شيء سأل عنه صدقة أم هدية؟ فإن كانت هدية قبلها وإلا ردها. ذات مرة جاءته امرأة برداء أعطته إياه، فقبله النبي ﷺ، وفي الوقت نفسه طلبه منه أحد الصحابة فأعطاه إياه [٥].

وكان الملوك والسلاطين المجاورين يرسلون للنبي ﷺ تحفاً فقد أهداه أحد أمراء حدود الشام بغلة بيضاء. وأهداه عزيز مصر بغلاً من مصر، وأرسل إليه أحد الأمراء جوارب ومرة أرسل إليه قيصر الروم لباساً عليه سجاف من حرير فلبسه ﷺ لفترة قليلة ثم أرسله لجعفر (أخو علي﵁) فلبسه وجاء إلى النبي ﷺ. فأخبره النبي ﷺ بأنه لم يرسله

---

[١] البخاري، ج٢، ص ٣٢٨ كتاب اللقط.

[٢] البخاري ج١، ص ٣٢٨، كتاب اللقط.

[٣] البخاري،ج١،ص٢٠١، كتاب الصدقات.

[٤] البخاري، مناقب عائشة.

[٥] صحيح البخاري كتاب الصدقة.

له ليلبسه. قال: فلم إذن؟ فأعلمه ﷺ بل ليرسله إلى النجاشي [١] حيث ظل جعفر في الحبشة فترة حتى فتح خيبر وتعلم النجاشي منه تعاليم الإسلام.

إعطاء الهدايا

أيضاً كان النبي ﷺ يثيب الناس الذين كان يقبل منهم الهدايا. تقول السيدة عائشة: **كان يقبل الهدية ويثيب عليها".**

أرسل له ملك اليمن الشهير سيف بن ذي يزن الذي كان قد قضى على الحكومة الحبشية وأقام حكومة عربية بتأثير من إيران. أرسل حلة قيمة للنبي ﷺ. كان قد اشتراها بما يعادل ٣٣ بعيرا. فقبلها رسول الله ﷺ ثم أرسل له هدية اشتراها بما يزيد عن ٢٠ بعيرا.

ومرة قدم له شخص من قبيلة بني فزارة ناقة كهدية. فلما كافئه النبي ﷺ عليها غضب غضباً شديداً فصعد النبي ﷺ المنبر وخطب فيهم أنهم يهادونه وهو يثيبهم على هداياهم قدر استطاعته فيغضبون، لذا لن يقبل بعد الآن هدية من أحد سوى من قريش والأنصار وثقيف ودوس[٢].

وكان النبي ﷺ يرسل إلى أبي أيوب الأنصاري الذي كان قد مكث عنده ستة أشهر كان يرسل له ما تبقى من الطعام وكان يرسل هدايا أيضاً لبيوت جيرانه. وقد تشرف أصحاب الصفة كثيراً بهدايا رسول الله ﷺ.

عدم قبول الإحسان

لم يكن ﷺ يقبل إحسان أحد قط. ومن يمكن أن يكون أوفى من أبي بكر للنبي ﷺ. ولكن مع ذلك أعطاه النبي ﷺ ثمن الراحلة التي أخذها منه وقت الهجرة [٣]. وكان أصحاب الأرض التي كانت قد خصصت لبناء المسجد في المدينة يريدون إهداءها للنبي دون مقابل لكنه ﷺ رفض وأعطاهم ثمنها. وذات مرة كان عبد الله بن عمر وعمر (رضى الله عنهما) في سفر مع رسول الله فجمح البعير الذي كان يركبه عبد الله وتقدم ناقة رسول الله. وكان عبد الله بن عمر يوقفه لكنه لم يستطع السيطرة عليه. وكان عمر يكرر توبيخه لابنه. فطلب سيدنا محمد ﷺ من عمر أن يبيعه هذا البعير. فقال: خذه هدية يا رسول الله.

---

[١] البخاري كتاب الجنائز.

[٢] الأدب المفرد،البخاري،ص١٨.

[٣] البخاري، ص ٥٥٣.

فرفض ﷺ حتى يأخذ ثمنه. فقال عمر ثانية: بل هدية يا رسول الله. فرفض النبي ﷺ. وفي النهاية رضى عمر أخذ الثمن. فاشتراه النبي ﷺ وأعطاه لابن عمر [١].

التيسير

كان معاذ بن جبل (أحد كبار الصحابة) يؤم الناس في مسجد منطقة ما. وكان يقرأ سورة طويلة في صلاة الفجر. فجاء رجل واشتكاه لرسول الله ﷺ. وقال أنه (معاذ) يطيل في الصلاة. لدرجة تجعلني لا أستطيع الصلاة خلفه. يقول ابن مسعود الأنصاري: ما رأيت رسول الله ﷺ غاضباً أبداً أشد من هذه المرة[٢]. فقام ﷺ وأرشد الناس بأن بعضهم ينفر الناس، وأمرهم بأن من يؤم الناس فعليه أن يخفف؛ فإن فيهم الكبير والضعيف وذا الحاجة [٣].

كان النبي ﷺ يحتاط للغاية في الحدود والقصاص، وكان يريد العفو قدر المستطاع. وقع ماعز الأسلمى في الزنا. فجاء على الفور إلى المسجد وقال: لقد زنيت يا رسول الله. فأدار النبي عنه وجهه فاستدار إليه ماعز من الناحية الثانية وقال: زنيت يا رسول الله. فأعرض النبي ﷺ عنه بوجهه. وظل يعرض عنه والآخر يأتيه ويعترف بالزنا. فقال له النبي ﷺ: ألست مجنوناً؟ قال: لا. فسأله ﷺ: أمتزوج؟ قال: نعم. فقال ﷺ: علك قبلت، علك كذا؟ قال: بل جامعت يا رسول الله. ففي النهاية اضطر النبي ﷺ أن يجري عليه حد الرجم [٤].

ومرة جاءه ﷺ شخص وقال له: أذنبت يا رسول الله فأجري على الحد. فظل رسول الله ﷺ صامتاً حتى جاء وقت الصلاة. وبعد الصلاة جاء الرجل ثانية وأعاد على النبي الكلام فقال له النبي ﷺ: أصليت. قال: بلى. قال: فقد غفر الله ذنبك [٥]

وذات مرة جاءت امرأة من قبيلة غامد وقالت: زنيت يا رسول الله. فقال ﷺ: ارجعي فرجعت، ثم عادت اليوم الثاني وقالت: لعلك أن تردني كما رددت ماعز بن مالك، فوالله إني لحبلى, فقال لها النبي ﷺ ثانية: ارجعي. فرجعت، ثم عادت في اليوم الثالث فقال

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٨٤.

(٢) البخاري، كتاب الصلاة، باب هل يقضي الحاكم وهو غضبان،ص١٠٦٠.

(٣) ورد هذا الحديث في أبواب مختلفة من صحيح البخاري ولمطالعته انظر ص ١٠٠٨.

(٤) المرجع السابق.

(٥) أبو داود، كتاب الحدود.

لها النبي ﷺ : ارجعي حتى تلدي. فرجعت، فلما ولدت أتته بالصبي، فقالت: هذا قد ولدته. فقال ارجعي فأرضعيه حتى تفطميه فجاءت به وقد فطمته وفي يده شيء يأكله فأمر بالصبي فدفع إلى رجل من المسلمين وأمر بها فحفر لها وأمر بها فرجمت، فبدأ الناس رجمها بالحجارة. فجاء حجر أحدهم على وجهها فطار الدم على وجهه فسبها فقال له النبي ﷺ أمسك عليك لسانك فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له [1].

وذات يوم جاء رجل وقال: يا رسول الله نحن نعيش في بلد اليهود والنصارى. فهل نأكل في آنيتهم؟ فأمره النبي ﷺ بألا يستخدموا أوانيهم إذا كان عندهم آنية، وإلا يغسلوها ثم يأكلون فيها [2].

وذات مرة ظاهر صحابي زوجته حتى شهر رمضان ولكنه جامعها قبل انقضاء مدة الظهار. واخبر الناس بذلك وقال لهم: خذوني لرسول الله ﷺ. فرفض الجميع، فذهب هو بمفرده للنبي وحكى له الواقعة. فتعجب النبي ﷺ في البداية ثم قال له: حرر رقبة. قال الرجل: لا أستطيع. فأمره ﷺ بأن يصوم شهرين متتابعين. قال: لقد حدث ما حدث بسبب رمضان يا رسول الله. فأمره ﷺ بأن يطعم ستين مسكيناً. قال: نحن المساكين. فأمره ﷺ بأن يذهب إلى عامل الصدقة حتى يعطيه وسق تمر يتصدق منه على ستين مسكيناً وما يتبقى يتصدق به على أهلك. فقال الرجل للناس وهو عائد: إنكم لمتشددون، ولا تحسنون التدبير، لكني رأيت رسول الله ﷺ حسن الرأي والتيسير [3].

ذات مرة جاءه صحابي وقال له: هلكت يا رسول الله فقد جامعت زوجتي وأنا صائم. فقال له النبي ﷺ: هل تجد رقبة تعتقها؟. قال: لا. فقال ﷺ: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين. قال: لا. قال ﷺ: فهل تجد إطعام ستين مسكيناً؟ قال: هذا أيضاً لا أقدر عليه يا رسول الله. فتمهل رسول الله ﷺ قليلاً وإذ برجل يأتي ويهدي النبي ﷺ سلة تمر. فقال النبي ﷺ: أين السائل؟ فقال الرجل: أنا هنا يا رسول الله. فقال ﷺ: خذ هذا (التمر)

---

(1) المرجع السابق.

(2) البخاري، ج ٢، ص ٨٢٣.

(3) أبو داود، ج١، ص ٢٢٠.

وتصدق به (على أي فقير). فقال الرجل: من في المدينة أفقر مني يا رسول الله؟. فتبسم رسول الله ﷺ وقال أطعمه أهلك [١].

كراهية الرهبانية

كان رسول الله ﷺ لا يحب الرهبانية ولا التقشف، كان بعض الصحابة بطبعهم أو بتأثير من رهبانية النصارى يميلون للرهبانية؛ فمنعهم النبي ﷺ عن ذلك. كان بعض الصحابة لا يستطيعون الزواج لفقرهم. وفي الوقت نفسه لا يستطيعون ضبط أنفسهم. لذا كانوا يريدون أن يُخصوا أنفسهم. فغضب رسول الله من ذلك غضباً شديدا. جاءه ﷺ قدامة بن مظعون برفقة صاحبي آخر وقال :نوى أحدنا ترك لحوم الحيوانات ونوى الثاني ترك الزواج. فأخبر النبي ﷺ بأنه يتمتع بالاثنين فعزف الصحابيان عن رأيهما حينما وجدا أن النبي ﷺ قد غضب. كان الوصال في الصوم عادة عند العرب، أي كانوا يصومون أياماً متتالية. فأراد أحد الصحابة فعل هذا، فمنعه النبي ﷺ بشدة. وكان عبد الله بن عمر (رضى الله عنهما) غاية في الزهد. كان قد نوى أن يقضي نهاره صائماً وليله متعبداً. فلما علم النبي ﷺ بذلك أرسل إليه وسأله عن صحة ما سمعه. فقال ابن عمر: نعم يا رسول الله. فقال ﷺ: ألم أُخبَرْ أنكَ تَصومُ ولا تُفطِرُ، وتَصلِّي ولا تَنَامُ؟ فصُمْ وأفطِرْ وقُمْ ونَمْ، فإنِ لعَينَيكَ عليكَ حظّاً وإنَّ لنفسِكَ وأهلِكَ عليكَ حظّاً. قال: إني لأقوىٰ لذلكَ. قال: فصُمْ صيام داوُدَ عليه السلامُ قال: وكيف؟ قال: كان يَصومُ يوماً ويُفطِرُ يوماً ولا يَفِرُّ إذا لاقىٰ. قال: مَن لي بهذِهِ يا نبيَّ الله» قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «لا صامَ من صامَ الأبدَ» مرتين [٢].

ورد في رواية أن صوم ابن عمر ذاع صيته فذهب النبي ﷺ إليه. فاستقبله ابن عمر وفرش له فراشاً من الجلد فتركه النبي ﷺ وجلس على الأرض. ثم سأل ﷺ ابن عمر

---

[١] البخاري، ص ٢٦٠، باب إذا جامع في رمضان.

[٢] صحيح البخاري، كتاب الصوم. وهذا نص الحديث: (١٩٥٤) حدثنا عمرُو بنُ عليّ أخبرنا أبو عاصم عنِ ابنِ جُرَيجٍ سَمعتُ عَطاءً أنَّ أبا العبّاسِ الشّاعرَ أخبرَهُ أنهُ سمعَ عبدَ اللهِ بنَ عمرٍو رضيَ اللهُ عنهما يقولُ: «بلَغَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أني أسرُدُ الصومَ، وأصلِّي الليلَ فإمّا أرسلَ إليَّ وإمّا لَقيتُهُ فقال: ألم أُخبَرْ أنكَ تَصومُ ولا تُفطِرُ، وتصلِّي ولا تَنامُ؟ فصُمْ وأفطِرْ وقُمْ ونَمْ، فإن لعَينَيكَ عليكَ حظّاً وإنَّ لنفسِكَ وأهلِكَ عليكَ حظّاً. قال: إني لأقوىٰ لذلكَ. قال: فصُمْ صيام داودَ عليه السلامُ قال: وكيف؟ قال: كان يَصومُ يوماً ويُفطِرُ يوماً ولا يَفِرُّ إذا لاقىٰ. قال: مَن لي بهذِهِ يا نبيَّ الله» قال عطاءٌ: لا أدري كيفَ ذكرَ صيامَ الأبدِ، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «لا صامَ من صامَ الأبدَ» مرتين. (المترجم).

هل لا يكفيه صوم ثلاثة أيام في الشهر. قال: لا. قال: فخمسة. قال: لا. فظل رسول الله ﷺ يعدد له والثاني يرفض. وفي النهاية أمره النبي ﷺ بأن يصوم يوماً ويفطر يوماً [1].

ذات مرة قال أبو هريرة: يا رسول الله إني شاب ولا أستطيع الزواج ولا أن اضبط نفسي. فصمت رسول الله ﷺ. فأعاد أبو هريرة كلامه. فظل ﷺ صامتاً أيضاً. فلما كرره في المرة الثالثة أخبره النبي ﷺ بأنه لن يستطيع (أبو هريرة) أن يماطل حكم الله [2]. قدم رجل من قبيلة باهلة عند النبي ﷺ ثم عاد. وبعد عام كامل جاءه ثانية. ولكن شكله كان قد تغير في تلك الفترة لدرجة أن النبي لم يعرفه. فقال للنبي ﷺ اسمه. فسأله رسول الله متعجباً عمّ غير شكله بعد أن كان حسن الصورة. قال الرجل: بعد ما ذهبت من عندك (العام الماضي) يا رسول الله ظللت أصوم صوماً متواصلاً. فقال له النبي ﷺ: ولم تشق على نفسك، يكفيك صوم يوم واحد من كل شهر إضافة لصوم رمضان. قال الرجل: إنني أستطيع أن أصوم أكثر من هذا. فقال له النبي ﷺ : زد يوماً آخر. فطلب الرجل زيادة أخرى. فجعلها النبي ﷺ ثلاثة أيام. فلم يرض الرجل. فقال له النبي ﷺ: فصم الأشهر الحرم [3]. ويوماً ذهب بعض الصحابة إلى أمهات المؤمنين يسألونهن عن كيفية عبادة النبي وكانوا يعتقدون أن النبي ﷺ ربما لا يقضي ليله ونهاره في شيء سوى العبادة، فلما عرفوها تقالّوها. وقالوا: وأين نحن من رسول الله ﷺ؟ فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ثم قال أحدهم: أما أنا فسأقوم الليل ولا أقعد. وقال الثاني: وأنا سأصوم الدهر ولا أفطر. وقال الثالث: وأنا لن أتزوج النساء. وكان النبي ﷺ يسمع كلامهم فقال: أنتُم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصومُ وأُفطر، وأصلّي وأرقُد، وأتزوجُ النساء، فمن رغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مني» [4].

---

[1] البخاري، كتاب النكاح.

[2] البخاري، كتاب النكاح.

[3] أبو داود، ص ٢٢٤.

[4] صحيح البخاري، كتاب النكاح. وهذا نص الحديث: (٤٩٤٣) ـــ حدّثنا سعيدُ بن أبي مريمَ أخبرَنا محمدُ بن جعفرٍ أخبرَنا حُميدُ بن أبي حُميدِ الطويل أنه سمعَ أنسَ بن مالكٍ رضيَ الله عنه يقول: «جاء ثلاثةُ رَهْطٍ إلى بيوتِ أزواجِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم يسألونَ عن عبادةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فلما أُخبِروا كأنهم تَقالُّوها، فقالوا: وأينَ نحنُ منَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم؟ قد غَفر اللهُ لهُ ما تقدَّمَ من ذنبِهِ وماتأخَّر. قال أحدُهم: أما أنا فأنا أصلِّي الليلَ أبداً. وقال آخر: أنا أصومُ الدهرَ ولا أُفطر. وقال آخر: أنا أعتزِلُ النساء فلا أتزوَّجُ أبداً. فجاء رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنتُم الذين قلتم كذا

في إحدى الغزوات مر صحابي بغار فيه ماء وبجواره بعض النباتات فذهب للنبي ﷺ وقال له:وجدت غاراً فيه كل الأمتعة الضرورية وأريد أن اختلي فيه عن الدنيا يا رسول الله. فأعلن ﷺ أنه ما جاء إلى الدنيا باليهودية ولا بالنصرانية ولكنه جاء بالمذهب الإبراهيمي السهل السمح [١].

كراهية الذم والمدح

كان النبي ﷺ لا يحب المدح والثناء (حتى وإن كان من القلب). مرة ذُكر شخص في مجلسه ﷺ فأثنى عليه أحد الحضور كثيراً. فقال النبي ﷺ: قطعت عنق صاحبك. وظل رسول الله يكرر له هذا ثم قال: إذا مدح أحدكم صاحبه لا محالة فيقل: إني أحسبه كما يريد أن يقول، ولا أزكيه على الله.[٢] وذات مرة كان رجل يمدح أحد الحكام وكان المقداد موجوداً حينذاك فأخذ حفنة من التراب ثم رماها في فمه. وقال :أمر رسول الله ﷺ مرة يُملأ فم المادحين تراباً[٣]. وذات مرة دخل النبي ﷺ المسجد وشخص يصلي. فسأل محجن الثقفي عنه فأخبره محجن عن اسمه ثم اثنى عليه. فأمره النبي ﷺ بألا يستمع إلى هذا وإلا هلك. أي سيتولد الغرور المهلك في قلبه [٤].

جاء الشاعر الأسود بن سريع ذات مرة إلى النبي ﷺ وقال له: لقد كتبت بعض الأبيات في حمد الله ومدحك. فقال له النبي ﷺ: إن الله يحب الحمد. فبدأ الأسود قراءة الأبيات. وفي أثناء ذلك جاء شخص ما من الخارج. فأوقف النبي ﷺ الأسود. تكرر هذا مرتين أو ثلاث فقال الأسود للنبي ﷺ: من ذا الذي توقفني من أجله مراراً يا رسول الله؟ فأخبره ﷺ بأن هذا شخص لا يحب اللغو [٥].

وهنا يمكن أن يعتقد أحدُ أن النبي ﷺ كان يُجلس حسان على المنبر ويستنشد قصائده. ويقول له: **اللهم أيده بروح القدس**. ومع أن هذه القصائد كانت في مدح النبي

وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصومُ وأُفطر، وأصلّي وأرقُد، وأتزوجُ النساء، فمن رغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مني». (المترجم).

[١] مسند ابن حنبل، ج٥ ص ٢٢٦.

[٢] الأدب المفرد، ص ٦٦.

[٣] المرجع السابق، ص ٦٧.

[٤] المرجع السابق، ص ٦.

[٥] المرجع السابق، ص ٦.

ﷺ. لكن الأمر هو أن قصائد حسان هذه كانت رداً على طعن الكفار. وكان للشعراء في العرب مكانه عالية لدرجة أن الشاعر كان يدنى من يهجوه ويرفع من يمدحه. وكان ابن الزابعرى وكعب بن الأشرف وغيرهما قد أردوا إيذاء النبي ﷺ بهذه الطريقة. وكان مدح حسان رداً عليهم.

البساطة وعدم التدلف

كان من عادة النبي ﷺ أن يذهب للبيت أحياناً حافياً ويترك نعله في كثير من الأحيان إذا قام من مجلسه. وكان ترك النعل هذا دلالة على أنه سيعود ثانية [١]. وكان لا يحب أن يمشط شعره يومياً. لذا أخبر بأنه يجب تمشيط الشعر يوما بعد يوم. وكان لا يتكلف في مأكل ولا مشرب ولا ملبس ولا غطاء ولا قيام ولا في قعود. إذا قدم إليه طعام أكل منه. ويلبس ما يجد، وحيث تيسر يجلس سواء أكان على الأرض أو الحصير أو على فراش [٢]. ولم تكن تُنقى له نخالة الدقيق [٣]. وكثير ما يكون زر قميصه مفتوح، فلم يكن يحب الخيلاء في الملبس وينفر من التكلف، أي أنه ﷺ كان يحب الاعتدال والبساطة في كل شيء [٤].

كراهية الإمارة

يخالف الإسلام الرهبانية والدروشة تماماً. ولأنه ﷺ قال: **لا رهبانية في الإسلام؛** لذا كان ﷺ يجيز التمتع بكل ملذات الحياة؛ بل أنه نفسه كان يتمتع بها أحياناً، ولكنه لم يكن يحب الخيلاء ولا المباهاة، ويمنع الآخرين منها.

مرة دعا رجل علىﷺ لطعام. وطهى الطعام ثم أرسله له. فقالت السيدة فاطمة: يحسن أن يأتي رسول الله ﷺ ويأكل معنا. فذهب علي إليه وطلب منه الحضور. فجاءه ولكن حينما وصل إلى الباب ووجد على حوائط البيت ستائر معلقة انصرف وعاد. فسأله علي عن سبب انصرافه. فأشار إلى أن الدخول في مكان مزين يخالف شأن النبوة [٥].

---

(١) أبو داود، ص ٣١٨.

(٢) انظر الشمائل.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأطعمة.

(٤) ذكرت وقائع عديدة في كتاب اللباس بالصحاح.

(٥) أبو داود، ص ١٧١.

وكان النبي ﷺ يأمر المسلم بأن يضع في البيت فراشاً له وفراشاً لزوجته وثالث للضيف. أما إذا كان هناك رابع؛ فسيكون للشيطان [(١)].

ذات مرة خرج النبي ﷺ غزوة وظلت السيدة عائشة بالبيت. فلما عاد النبي ﷺ من الغزوة وذهب عندها وجد ستاراً معلقاً في البيت فغضب وأخبرها بأن الله تعالى لم يعط لنا المال لنكسوا الحجارة. [(٢)] وبني أحد الأنصار بيتاً بقبة شامخة. فلما رآه النبي ﷺ سأل عن صاحبه؟ فقال الناس أنه فلان يا رسول الله. فظل النبي ﷺ صامتاً. وكالعادة حينما جاءه هذا الرجل ألقى عليه السلام فأعرض النبي ﷺ عنه بوجهه. فكرر الرجل السلام. وأعرض النبي ﷺ ثانية. ففهم الرجل سبب غضب النبي ﷺ، لذا ذهب وسوى القبة بالأرض. فلما خرج النبي ﷺ إلى السوق ولم يجد القبة علم أن الأنصاري هدمها فأخبر النبي بأن كل بناء عدا البناء الضروري وبال على صاحبه [(٣)].

مرة أرسل رجل إليه ﷺ جبة من حرير. فلما لبسها النبي ﷺ تذكر فجعلها وأرسلها إلى عمر. فجاءه عمر باكياً: وقال يا رسول الله. لما تفضلت عليّ بما لم تحب؟ فقال له النبي ﷺ : "إني لم أكسكها لتلبسها". فباعها عمر بألف درهم [(٤)].

وذات مرة أرسل له ﷺ رجلة حلة مخططة فأعطاها النبي ﷺ لعلي ﷺ. فلبسها علي، وجاء بها للنبي ﷺ فلما رآه النبي غضب وقال: "إني لم أرسل بها إليك لتلبسها" وأمرني فأطرتها بين نسائي [(٥)].

وحينما صنع النبي خاتماً ليختم به (على الرسائل) صنعه في البداية من الذهب. فقلده الصحابة بلبس خواتم ذهبية أيضاً. فصعد النبي ﷺ المنبر وخلع خاتمه وزُماه، ثم أخبر بأنه لن يلبسه بعد الآن. ففعل الصحابة مثلما فعل [(٦)]. (كما أنه ﷺ كان بسيطاً ويريد أن يعيش أهل بيته كذلك عيشة بسيطة خالية من التكلف والملذات. ومع أن لبس الذهب للنساء مباح شرعاً لكن النبي ﷺ كان يرى أن ذلك ليس لائقاً بأهل بيته). ففي ذات مرة

[(١)] أبو داود، ج،٢ ص ٢١٨،كتاب اللباس.

[(٢)] أبو داود، ج٢،ص٢١٩.

[(٣)] المرجع السابق، ص ٣٦٤.

[(٤)] المرجع السابق، كتاب اللباس.

[(٥)] أبو داود، ج٢، ص ٣٦٤،كتاب اللباس.

[(٦)] أبو داود، كتاب الخاتم.

رأى عقداً في رقبة السيدة فاطمة، فسألها النبي أما يغضبها أن يقول الناس أن برقبة ابنة النبي ﷺ طوقا من نار [١].

ومرة رأى ﷺ أسورة من ذهب في يد السيدة عائشة فقال لها: «أَلاَ أُخْبِرُكِ بِمَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا لَوْ نَزَعْتِ هَذَا وَجَعَلْتِ مَسَكَتَيْنِ مِنْ وَرِقٍ ثُمَّ صَفَّرْتِهِمَا بِزَعْفَرَانٍ كَانَتَا حَسَنَتَيْنِ». [٢].

ذات مرة أرسل النجاشي بعض الحلى هدية لرسول الله ﷺ. وكان من بينها خاتم مرصع بحجر من أحجار الحبشة الكريمة. فكان ﷺ ينفر منه لذا لم يلبسه بيده. بل كان يلمسه بعصا [٣]. وذات مرة أهداه ﷺ شخص قميصاً من حرير. فلبسه ﷺ وصلى فيه، وبعد ما فرغ من صلاته خلعه بضيق ثم أخبر بأن هذا القماش لا يناسب الأتقياء.

فكان ﷺ من تواضعه يلبس أقمشة عادية، وكان عمر يريد أن يلبس النبي ﷺ ملابس فخمة يوم الجمعة والعيدين أو عند قدوم السفراء. وتصادف أن كانت هناك قماشة من حرير تباع في الشارع. فقال عمر لرسول الله ﷺ: اشترى هذه القماشة لتلبسها يوم الجمعة وعند قدوم السفراء. فقال النبي ﷺ: "إنما يلبس هذه من لا خلاق له فى الآخرة". فكان ﷺ يلبس القماش المصنوع من الصوف الخشن في الغالب وفيه توفى رسول الله ﷺ [٤].

وكان فراش النبي ﷺ في بعض الأحيان قماش وأحيانا جلد وأحيانا سعف نخل وأحياناً يطوي النبي قماشة عادية يجعلها فراشاً له. تقول السيدة حفصة: ذات ليلة طويت قماشة أربع طيات ثم فرشتها للنبي ﷺ حتى يكون الفراش ناعما بعض الشيء. فلما صحى رسول الله في الصباح بدا متكدرا [٥].

---

[١] النسائي، ج٢، ص ١٤٣.

[٢] المرجع السابق. وهذا نص الحديث: (٥١٢٧) أَخْبَرَنَا الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ، : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم رَأَى عَلَيْهَا مَسَكَتَيْ ذَهَبٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَلاَ أُخْبِرُكِ بِمَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا لَوْ نَزَعْتِ هَذَا وَجَعَلْتِ مَسَكَتَيْنِ مِنْ وَرِقٍ ثُمَّ صَفَّرْتِهِمَا بِزَعْفَرَانٍ كَانَتَا حَسَنَتَيْنِ». قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ: هَذَا غَيْرُ مَحْفُوظٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (المترجم).

[٣] مسند ابن حنبل، ج٢، ص١١٩.

[٤] أخذت كل الروايات المذكورة أعلاه من صحيح البخاري كتاب اللباس.

[٥] شمائل الترمذي.

في سنة ٩ هجرية كانت حدود الحكومة الإسلامية ممتدة من اليمن حتى الشام فقط. ولم يكن في بيت النبي ﷺ سوى سرير بلا فراش. وإبريق من الجلد [١]. تقول السيدة عائشة: حينما توفي رسول الله ﷺ لم يكن في بيتنا شيء للطعام سوى قليل من الشعير. وكان النبي ﷺ يخبر الصحابة[٢] بأنه يكفي الإنسان في الدنيا ما يكفي المسافرين من الزاد[٣]. في ذات مرة كان النبي ﷺ نائماً على حصير فلما استيقظ رأي الصحابة أثر الحصير على جنب النبي ﷺ. فقالوا يا رسول الله: سنصنع لك مرتبة ونحضرها لك، فأخبر النبي ﷺ أن صلته بالدنيا كصلة مسافر يستريح في ظل شجرة ثم يتركها ويواصل سفره [٤].

جاءه ﷺ عمر في المشربة زمن الإيلاء ورأى حالة الأثاث الدنيوي الذي كان في بيت النبي ﷺ. حيث لم يكن عند النبي إلا إزاراً يربطه على جسده الشريف، وسريراً بلا فرش، ووسادة محشوة سعف نخل. وقليل من الشعير ملقى في جانب. وجلد حيوان في جانب آخر قرب قدم رسول الله ﷺ، وبعض الأباريق الجلدية معلقة في خطاطيف قرب رأس النبي ﷺ. يقول عمر: لما رأيت ذلك سالت الدموع من عيني. فسألني النبي ﷺ عن سبب بكائي. فقلت: ولم لا أبكي يا رسول الله وقد تجرح جسدك من هذا السرير، وهذا أثاث حجرتك يبدو لي ما فيها، وقيصر وكسرى قد جمعوا ملذات الحياة. وهذا حال بيت رغم أنك رسول الله ومصطفاه. فقال النبي ﷺ : يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا.[٥]

---

[١] صحيح البخاري، كتاب اللباس.

[٢] مسند ابن حنبل،ج٦، ص١٠٨.

[٣] ابن ماجة، كتاب الزهد.

[٤] جامع الترمذي، كتاب الزهد.

[٥] صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب تخيير الأزواج. وهذا نص حديث الإيلاء: (٨٤٠) حَدِيثُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لَمَّا اعْتَزَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ قَالَ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا النَّاسُ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى وَيَقُولُونَ طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرْنَ بِالْحِجَابِ فَقَالَ عُمَرُ فَقُلْتُ لَأَعْلَمَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ قَالَ فَدَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَقُلْتُ يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ أَقَدْ بَلَغَ مِنْ شَأْنِكِ أَنْ تُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ مَا لِي وَمَا لَكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ عَلَيْكَ بِعَيْبَتِكَ قَالَ فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ فَقُلْتُ لَهَا يَا حَفْصَةُ أَقَدْ بَلَغَ مِنْ شَأْنِكِ أَنْ تُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُحِبُّكِ وَلَوْلَا أَنَا لَطَلَّقَكِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

المساواة

لقد كان الغني والفقير والحقير والعظيم والسيد والعبد في نظر النبي ﷺ ســواء،

فَبَكَتْ أَشَدَّ الْبُكَاءِ فَقُلْتُ لَهَا أَيْنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ هُوَ فِي خِزَانَتِهِ فِي الْمَشْرُبَةِ فَدَخَلْتُ فَإِذَا أَنَا بِرَبَاحٍ غُلَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاعِدًا عَلَى أُسْكُفَّةِ الْمَشْرُبَةِ مُدَلٍّ رِجْلَيْهِ عَلَى نَقِيرٍ مِنْ خَشَبٍ وَهُوَ جِذْعٌ يَرْقَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَنْحَدِرُ فَنَادَيْتُ يَا رَبَاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَظَرَ رَبَاحٌ إِلَى الْغُرْفَةِ ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ثُمَّ قُلْتُ يَا رَبَــاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَظَرَ رَبَاحٌ إِلَى الْغُرْفَةِ ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ثُمَّ رَفَعْتُ صَوْتِي فَقُلْتُ يَا رَبَاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنِّي أَظُــنُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظَنَّ أَنِّي جِئْتُ مِنْ أَجْلِ حَفْصَةَ وَاللَّهِ لَئِنْ أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِضَرْبِ عُنُقِهَا لَأَضْرِبَنَّ عُنُقَهَا وَرَفَعْتُ صَوْتِي فَأَوْمَأَ إِلَيَّ أَنِ ارْقَهْ فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُــولِ اللَّــهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ فَجَلَسْتُ فَأَدْنَى عَلَيْهِ إِزَارَهُ وَلَــيْسَ عَلَيْــهِ غَيْــرُهُ وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ وَمِثْلِهَا قَرَظًا فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ قَالَ فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ قَالَ مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَفْوَتُهُ وَهَــذِهِ خِزَانَتُكَ فَقَالَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا قُلْتُ بَلَى قَالَ وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ حِــينَ دَخَلْتُ وَأَنَا أَرَى فِي وَجْهِهِ الْغَضَبَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا يَشُقُّ عَلَيْكَ مِنْ شَأْنِ النِّسَاءِ فَإِنْ كُنْتَ طَلَّقْــتَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَكَ وَمَلَائِكَتَهُ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَأَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَكَ وَقَلَّمَا تَكَلَّمْتُ وَأَحْمَدُ اللَّهَ بِكَلَامٍ إِلَّا رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يُصَدِّقُ قَوْلِي الَّذِي أَقُولُ وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ آيَةُ التَّخْيِيرِ) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ) (وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (وَكَانَتْ عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ وَحَفْصَةُ تَظَاهَرَانِ عَلَى سَائِرِ نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَطَلَّقْتَهُنَّ قَالَ لَا قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ وَالْمُسْلِمُونَ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى يَقُولُونَ طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ أَفَأَنْزِلُ فَأُخْبِرَهُمْ أَنَّكَ لَمْ تُطَلِّقْهُنَّ قَالَ نَعَمْ إِنْ شِئْتَ فَلَــمْ أَزَلْ أُحَدِّثُهُ حَتَّى تَحَسَّرَ الْغَضَبُ عَنْ وَجْهِهِ وَحَتَّى كَشَرَ فَضَحِكَ وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ ثَغْرًا ثُمَّ نَزَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَزَلْتُ فَنَزَلْتُ أَتَشَبَّثُ بِالْجِذْعِ وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَأَنَّمَا يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا يَمَسُّهُ بِيَدِهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كُنْتَ فِي الْغُرْفَةِ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ قَالَ إِنَّ الشَّهْرَ يَكُونُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ فَقُمْتُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي لَمْ يُطَلِّقْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَــى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ (فَكُنْتُ أَنَا اسْتَنْبَطْتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آيَــةَ التَّخْيِيرِ * (المترجم).

ومع أن سلمان وصهيب وبلال ﷺ كانوا (فى الأصل) عبيدًا؛ إلا أنهم كانوا في مجلس النبي كسادة قريش. فذات مرة كان سلمان وبلال واقفين في مكان، فتصادف أن خرج عليهما أبو سفيان، فقالا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها. فقال لهما أبو بكر: أتقولان هذا لشيخ قريش وسيدهم. فذهبا للنبي ﷺ وقصا عليه القصة، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: يا أبا بكر لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك. فذهب أبو بكر فوراً وقال لهما: يا اخوتاه، أغضبتكم؟ قالا: لا، يغفر الله لك يا أخي.[١] وسرقت امرأة من قبيلة مخزوم، فأرسل الناس للنبي ﷺ أسامة بن زيد الذي كان رسول الله ﷺ يحبه كثيراً ليشفع لها، فقال النبي ﷺ: أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة. ثم جمع النبي ﷺ الناس وخطب فيهم قائلاً: يا أيها الناس إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا.[٢]

وفي غزوة بدر كان العباس عم رسول الله ﷺ ضمن من أُسروا، وكان الأسرى يُفدون بذهب، فقال الأنصار لقرابته من رسول الله: يا رسول الله، ائذن لنا فلنترك لابن اختنا عباس فداءه. فقال النبي ﷺ: لا تدعون منها درهما.[٣] كما كان النبي ﷺ يقسم الأشياء التي تأتيه في المجلس بداية من جانبه الأيمن ويراعي في تقسيمها المساواة بين الغني والفقير والعظيم والحقير.

وذات مرة كان الصحابة جالسين عند رسول الله واتفق أن كان عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ـ الذي كان ما يزال صبياً ـ جالساً ناحية اليمين. وكبار الصحابة المعمرون جالسون ناحية الشمال. وقُدِّم للنبي ﷺ لبن فشرب منه، ثم استأذن ابن عباس

---

[١] صحيح مسلم، فضائل سلمان وصهيب رضي الله عنهما.

[٢] البخاري ومسلم وأبو داود، كتاب الحدود. وهذا نص الحديث : ٩٧٦ حَدِيثُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلا أُسَامَةُ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ فَقَالَ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا . (المترجم).

[٣] صحيح البخاري، باب فداء المشركين.

في أن يعطيهم قبله. فقال ابن عباس: ولكني لا أؤثرهم في هذا. ولأنه كان ناحية اليمين وله الحق طبقاً لترتيب المجلس فقد أعطاه النبي ﷺ الإناء.[1]

ويقول أنس: قدم رسول الله ﷺ إلى بيتي ذات مرة، وطلب ماءً يشربه، فقدمت له لبن شاة، وكان ترتيب المجلس هكذا؛ أبو بكر ناحية الشمال، وعمر في المواجهة، وأعرابي ناحية اليمين، فلما شرب رسول الله أشار له عمر أن يُعطي أبا بكر ما تبقى. ولكن النبي ﷺ أخبر بأن الحق أولاً لصاحب اليمين، ثم أعطى اللبن المتبقي للأعرابي.[2]

كانت قريش ترابط بالمزدلفة للمباهاة والفخر. فكان النبي ﷺ يكره هذا التفريق والتمييز. فقد كان يجلس مع عامة الناس سواء قبل البعثة أم بعدها.[3] كما أنه لم يكن يحب أن يخصص له مكان مميز منصوب عليه مظلة. فقد اقترح الصحابة ذلك ـ بعد ما رأوا مكاناً بهذه المواصفات ـ على رسول الله. فأخبر ﷺ بأن هذا المكان لمن يأتي أولاً.[4] كما كان النبي ﷺ يشارك الصحابة إذا اجتمعوا لفعل شيء. ويعمل معهم كأي عامل. فقد شارك النبي ﷺ بنفسه في بناء المسجد النبوي؛ أول عمل أقيم في المدينة بعد الهجرة. فكان النبي ﷺ يحضر الطوب بيده الشريفة. ومع أن الصحابة كانوا يقولون له: فداك أرواحنا يا رسول الله لم تشق على نفسك؟.[5] لكنه ﷺ لم يقلع عن أداء واجبه، وكان ﷺ يعمل مع الصحابة في حفر الخندق كأي أجير، لدرجة أن التراب والغبار كان قد تجمع من كثرة العمل على بطن النبي ﷺ.[6]

وفي سفر ما كان هناك طعام دون طهي، فتجمع الصحابة لطهيه وقسموا الأعمال فيما بينهم. فتولى رسول الله ﷺ جمع الأخشاب فقال الصحابة: يا رسول الله سنقوم نحن بهذا العمل، أخبر ﷺ بأنه لا يحب أن يمتاز عنهم فإن الله لا يحب العبد الذي يميز نفسه على رفاقه.[7]

---

[1] صحيح البخاري، ص٨٨٠.

[2] أبو داود، كتاب المناسك.

[3] المرجع السابق.

[4] مسند ابن حنبل، ج٦، ص ١٨٧.

[5] صحيح البخاري،باب الهجرة.

[6] صحيح البخاري، باب غزوة الأحزاب.وهذا نص الحديث: عن سهل بن سعد قال: كنا مع رسول الله ﷺ في الخندق وهم يحفرون ونحن ننقل التراب على أكتادنا.(البخارى، ج٣، ص٤٢.). (المترجم).

[7] الزرقاني، ج٤، ص ٣٠٤، نقلاً عن سيرة محب الدين الطبرى والطيالسي، ولم ترد هذه الرواية في أي كتاب آخر.

وفي غزوة بدر كانت المطايا قليلة. وكان لكل ثلاثة من المجاهدين راحلة يتناوبون عليها. فكان النبي ﷺ كعامة الناس يشترك مع اثنين على راحلة. ومع أن رفيقيه عرضا عليه أن يأخذ نوبتهما في الركوب ويترجل كلاهما؛ لكن النبي ﷺ أشار إلى أنهما ليس أقدر منه على المشي، وأنه ليس أقل منهما احتياجاً إلى الثواب.(1)

التواضع

كان رسول الله ﷺ يقوم بأعمال البيت بنفسه، فكان يرقع الثوب، ويكنس البيت، ويحضر اللبن والبضائع من السوق، ويصلح نعله (ولم يكن ﷺ يخجل من ركوب الحمار، ولا من الجلوس مع العبيد والفقراء والأكل معهم).(2) وذات مرة خرج من بيته، فوقف الناس تعظيماً له، فقال النبي ﷺ : لا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الأعَاجِمُ يُعَظِّمُ بَعْضُ بَعْضاً». (3) وكان ﷺ يعود الفقير إن مرض، ويجلس مع الفقراء والمحتاجين بطريقة لا تميزه عنهم. وإذا ذهب لمجلس جلس حيث وُجِد المكان.(4)

وذات مرة جاء شخص للقاء النبي ﷺ، وكان يرتعد من عظمة النبوة، فأخبره النبي ﷺ بألاّ يخف إذ أنه ليس ملكاً، إنما هو ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد.(5)

كان النبي ﷺ من تواضعه يتناول الطعام وهو جالس القرفصاء، وكان يقول: إني عبد آكل مثل بقية العباد وأجلس كبقيتهم. وذات مرة كان هناك زحام على الطعام وقلة في الأماكن، فجلس النبي على قدم واحدة حتى يتسع المكان. وكان من بين الجلوس أعرابي فقال: ما هذه الجلسة؟. فقال النبي ﷺ: إن الله خلقني عبداً كريماً ولم يجعلني جباراً عنيداً.(6)

---

(1) مسند ابن حنبل، ج1، ص 442، ومسند أبي داود.

(2) شمائل الترمذي.

(3) أبو داود، وابن ماجه. وهذا نص الحديث كما ورد فى أبي داود، كتاب الأدب، باب الرجل يقوم للرجل من مجلسه: (5225) حدثنا أَبُو بَكْرِ بنُ أَبِي شَيْبَةَ حدثنا عَبْدُ الله بنُ نُمَيْرٍ عن أَبِي الْعَنْبَسِ عن مسعر عن أَبِي الْعَدَبَّسِ عن أَبِي مَرْزُوقٍ عن أَبِي غَالِبٍ عن أَبِي أُمَامَةَ، قال: « خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم مُتَوَكِّئاً عَلَى عَصاً، فَقُمْنَا إلَيْهِ، فَقَالَ: لا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الأعَاجِمُ يُعَظِّمُ بَعْضُ بَعْضاً».(المترجم).

(4) شمائل الترمذي.

(5) المستدرك، ج 3، ص 48، على شرح الشيخين، واقعة فتح مكة.

(6) أبو داود، كتاب الأطعمة.

وكان النبي ﷺ من كثرة تواضعه لا يحب أن يسمع مديحاً فيه، فذات مـرة نـاداه شخص وقال: يا سيدي، يا ابن سيدي، يا أفضلنا، ويا ابن أفضلنا، فقال النبـي ﷺ: أيهـا الناس اتقوا الله ولا يُضلِنَّكم الشيطان، إني محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، ولا أحـب أن تنزلوني منزلة أكثر من التي أنزلنيها الله.(١) و قال له رجل مرة: **يا خير البرية**. فقال النبي ﷺ : إنه كان إبراهيم.(٢)

يقول عبد الله بن سخير: حينما جئنا النبي ﷺ مع وفد بني عامر قلنـا لـه: أنـت سيدنا. فقال النبي ﷺ: السيد الله تبارك وتعالى. فقال الناس: وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً، فقال النبي ﷺ: قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان.(٣)

وكانت في المدينة امرأة مختلة بعض الشيء جاءت النبي ﷺ وقالت له: يا رسول الله إن لي إليك حاجة، فقال النبي ﷺ :يا أم فلان انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك فخلا معها فى بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها.(٤) وقال الصحابي مخزمـة ﷺ لابنه مسور: عند رسول الله ﷺ أردية يوزعها، فهيا بنا نذهب إليه نحن أيضاً، فلمـا ذهبا كان رسول الله ﷺ قد دخل إحدى حجرات نساءه. فقال مخزمه لابنه: نادِ عليه. فقال ابنه: ومن أنا حتى أنادي على رسول الله؟ قال مخزمه: يا بني إن محمداً ليس جبـاراً ولا متكبراً. فنادى مسور بعد أن شجعه أبوه، فلما سمع النبي ﷺ خرج من فوره، وأعطاهمـا رداءً من حرير أزراره من ذهب.(٥) ومرة سمع أحد الأنصار يهودياً يقول: أقسم بالـذي فضل موسى على كل الأنبياء، فاعتقد الأنصاري أن اليهودي يُعـرِّض بـالنبي ﷺ، لـذا غضب ولطم اليهودي لطمة على وجهه، فذهب اليهودي يستغيث برسول الله ﷺ، فأرسـل النبي ﷺ يستدعى الأنصاري وحقق في القضية، ثم قال: لا تفضلوا بين أنبياء الله.(٦)

(الموقع الحقيقي الذي يتجلى فيه غرور وكبرياء الإنسان هو حـين يـرى آلاف الناس بجانبه مستعدين بإشارة منه أن يفدوه حتى ولو بأرواحهم، وخاصة حين يدخل إحدى المدن منتصراً بجيش جرار ؛ لكن تواضع رسول الله ﷺ يزداد وضوحاً في هذا الموقف؛

---

(١) مسند ابن حنبل، ج٣، ص ١٥٣.

(٢) صحيح البخاري، باب فضائل إبراهيم.

(٣) أبو داود، كتاب الأدب، باب كراهية التمادح.

(٤) المرجع السابق.

(٥) البخاري، ص ٨٧١.

(٦) البخاري، كتاب الأنبياء، ذكر موسى.

فحين دخل مكة يوم فتحها، حنى رأسه الشريفة تواضعاً لله، لدرجة أنها لمست سرج راحلته.[١] وفي غزوة خيبر دخل النبي ﷺ المدينة راكباً على حمار لجامه من سعف النخل.[٢] وربما سمعتم أيضاً قيمة المحمل الذي كان رسول الله راكباً عليه في حجة الوداع).

النهي عن التعظيم والمدح المفرط

كان النبي ﷺ يراعي هذا الأمر جيداً. ويضع عيسى عليه السلام نصب عينه فيقول: لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم؛ فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله. يقول قيس بن سعد: ذهبت ذات مرة إلى الحيرة، فوجدت الناس هناك تسجد لأمرائهم حين تذهب لبلاطهم. فأخبرت النبي ﷺ بذلك وعرضت عليه أن يُسجد له؛ فهو أهل لذلك، فقال النبي ﷺ: أ رأيت لو مررت بقبري أ كنت تسجد لي؟ قال: لا. فأخبر النبي بأنه لا يجب السجود له حياً.[٣]

وحين تزوجت (ربيع) بنت معوذ بن عفراء. ذهب النبي ﷺ لبيتهم وجلس على الفراش المفروش للعروس. فتجمعت بنات البيت حوله[٤] وبدأن يضربن الدف ويغنين مرثية لشهداء بدر. وأثناء الغناء غنت إحداهن هذا المصراع:

فينا نبي يعلم ما في غد

دَعِي هذَا وَقُولِي الَّذِي كُنْتِ تَقُولِينَ[٥]

واتفق أنه حين توفى إبراهيم ابن رسول الله ﷺ أن كسفت الشمس، وكان ثمة اعتقاد خاطئ يسود الناس بأن عظمة أي نبي تستدعى أن تثور الأجرام السماوية على الأقل عند نزول مصيبة به، ولذا أوّل الناس حادثة كسوف الشمس طبقاً لهذا الاعتقاد. ولم

---

[١] شرح الشفا للقاضي عياض وسيرة ابن هشام. ومستدرك الحاكم، ج ٤، ص ٣١٧.

[٢] المشكاة، أخلاق النبي ﷺ نقلاً عن الحاكم، وابن ماجة، والبيهقي.

[٣] صحيح البخاري، ج١، ص ٢٤٠، كتاب الأنبياء.

[٤] أبو داود،كتاب النكاح، باب حق الزوج على المرأة.

[٥] صحيح مسلم، باب ضرب الدف في النكاح. وهذا نصه كما ورد في أبي داود: (٤٩١٨) حدثنا مُسَدَّدٌ أخبرنا بِشْرٌ عن خَالِدِ بن ذَكْوَانَ عنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذِ بنِ عَفْرَاءَ، قَالَتْ: « جَاءَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم فَدَخَلَ عَلَيَّ صُبْحَةَ بُنِيَ عَلَيَّ فَجَلَسَ عَلَى فِرَاشِي كَمَجْلِسِكَ مِنِّي فَجَعَلَتْ جُوَيْرِيَاتٌ يَضْرِبْنَ بِدُفٍّ لَهُنَّ وَيَنْدُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِي يَوْمَ بَدْرٍ إِلَى أَنْ قَالَتْ إِحْدَاهُنَّ: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا في الغَدِ، فقَالَ دَعِي هذَا وَقُولِي الَّذِي كُنْتِ تَقُولِينَ». (المترجم).

يكن هناك فرصة أفضل من تلك لإنسان يحب المباهاة. لكن عظمة النبي ﷺ أرفع من هذا بكثير. فقد جمع النبي ﷺ الناس في المسجد حين ذاك وخطب فيهم قائلاً: الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكنهما آيتان من آيات الله، فإذا رأيتموهما فصلوا".[١]

كان رسول الله حينما يتوضأ ويسقط ماء الوضوء من يديه الشريفتين، يأخذه الناس في آنية، فسألهم النبي ﷺ وسألهم عن سبب فعلهم لهذا؟ قالوا: حباً في الله ورسوله. فأخبرهم النبي ﷺ بأنه من يريد أن يسعد بحب الله وحب رسوله فعليه أن إذا تحدث صدق، وإذا أؤتمن أوفى، وأن يحسن إلى جاره.[٢]

- جاء رجل للنبي ﷺ وأثناء حديثه معه قال: ما شاء الله وشئت. فأخبره النبي ﷺ بأنه بهذا جعل مع الله شريكاً ونداً، وأمره أن يقول ما شاء الله.[٣]

الحياء

ورد في الصحاح أن النبي ﷺ كان أكثر حياءً من البكر في خدرها.[٤] ويظهر حياء النبي في كل أفعاله، فما أساء النبي إلى أحد قط، وإذا مر بالسوق مر صامتاً، وإذا فرح ابتسم، فلم يقهقه أبداً، وإذا سمع شيئاً يغضبه في المجلس سكت. ولكن كان غضبه يبدو على وجهه فيلاحظه الصحابة.

وكبقية الدول والشعوب، كان الخجل والحياء قليلاً عند العرب، فكان الاستحمام في حالة العرى سائداً عندهم، وكانوا يطوفون بالكعبة عرايا، وبالطبع كان النبي ﷺ يكره هذه الأمور كثيراً. ومرة قال: «مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخِرِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى فَلاَ يَدْخُلِ الحَمَّامَ إلاَّ بِمئزرٍ ".[٥] فقال الناس: يزول الدرن من الاستحمام في الحمامات، ويذهب

---

(١) صحيح البخاري ومسلم، باب صلاة الخسوف. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري" الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكنهما آيتان من آيات الله، فإذا رأيتموهما فصلوا " (البخاري،ج١،ص٢٩٠.)(المترجم).

(٢) المشكاة، نقلاً عن شعب الإيمان للبيهقي.

(٣) الأدب المفرد، الإمام البخاري، ص ٥٧، طبعة مصر.

(٤) وهذا نص الحديث: (٥٩٧٧) حدثنا علي بن الجَعْد أخبرنا شعبةُ عن قتادة عن مولى أنسٍ ــ قال أبو عبد الله: اسمه عبدُ الله بن أبي عُتبة ــ سمعتُ أبا سعيدٍ يقول: «كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم أشدَّ حياءً من العَذراء في خِدرها». (المترجم).

(٥) وهذا نص الحديث : (٨٢٢٧) حدثنا عبد الله، حدثني أبي حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا سعيد حدثني أبو خيرة عن موسى بن وردان قال أبو خيرة: لا أعلم إلا أنه قال عن أبي هريرة أن رسول الله صلى

المرض يا رسول الله. فقال النبي ﷺ: فإذا اغتسل أحدكم فليستتر. ولم يكن عند العرب حمامات، بل كانت موجودة بكثرة في مدن الشام والعراق المجاورة للعرب، لذا قال النبي ﷺ: إنها ستفتح لكم أرض العجم وستجدون فيها بيوتا يقال لها الحمامات فلا يدخلها الرجال إلا بالأزر، وامنعوها النساء إلا مريضة أو نفساء".

ذات مرة جاءت بعض النسوة أم سلمة، فسألتهن عن أوطانهن فقلن: حمص (إحدى مدن الشام)، فقالت السيدة أم سلمة: أهي تلك التي تستحم فيها النساء في الحمامات؟ قلن: وهل الحمام شيء مهين؟، قالت: سمعت رسول الله يقول: " ما من امرأة تخلع ثيابها فى غير بيتها إلا هتكت ما بينها وبين الله تعالى".[١] وفي رواية في أبي داود أن رسول الله ﷺ نهي عن الاستحمام في الحمام مطلقاً. ثم أجازه للرجال شريطة التستر، لكنه منعه تماماً على النساء. ولم يكن عند العرب مكانا لقضاء الحاجة،[٢] فكان الناس يذهبون لقضاء الحاجة في العراء دون أن يستتروا، ويتحدثون في كل شيء، فنهى رسول الله ﷺ عن ذلك بشدة وأخبر بأن ذاك يغضب الله تعالى.[٣]

وكان من عادة النبي ﷺ عند ذهابه لقضاء الحاجة أن يبعد بعيداً جداً حتى يغيب عن الأنظار، فحينما كان يقيم في مكة كان يبعد عن حدود الحرم مسافة تبعد عن مكة ثلاثة أميال.[٤]

العمل بيده ﷺ

مع أن كل الصحابة كانوا يأتون لخدمة النبي ﷺ، لكنه ﷺ كان يحب أن يعمل عمله بيده، فقد روت السيدة عائشة وأبو سعيد الخدري والإمام الحسن رضي الله عنهم، أن رسول الله ﷺ كان يخدم نفسه. وسأل شخص السيدة عائشة وقال: ماذا كان يفعل رسول الله ﷺ في البيت؟ قالت: كان يعمل بعمل أهل بيته؛ فكان يرقع الثوب بيده، ويكنس البيت

الله عليه وسلم قال: «مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخِرِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى فَلاَ يَدْخُلِ الحَمَّامَ إلاَّ بِمئزرٍ، وَمَنْ كانَتْ تُؤْمِنُ بِالله وَاليومِ الآخِرِ مِنْ إناثِ أُمَّتي فلا تَدْخُلِ الْحَمَّامَ». (المترجم).

[١] نقلت كل هذه الروايات من كتب الحديث المذكورة في الترغيب والترهيب.

[٢] صحيح البخاري، حديث الإفك. وهذا نص الحديث: تقول عائشة:... كنا لا نخرج إلا ليلاً، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا...". (البخاري، ج٣،ص٥٤). (المترجم).

[٣] أبو داود، وابن ماجة.

[٤] شرح الشفاء للقاضي عياض، ج٢، ص ١١٦.

بنفسه، ويحضر اللبن، ويشتري الحاجات من السوق، ويصلح النعل، ويصنع الدلو ويربط الناقة بيده ويعلفها. ويعجن **الدقيق** مع الموالى.[1]

ذهب أنس بن مالك ذات مرة لرسول الله ﷺ فرآه يدلك بدن الناقة بالزيت بنفسه. وقال في رواية أخرى: إنه رأى رسول الله يضع علامات على جمال الصدقة. وفي رواية ثالثة قال: إن رسول الله كان يضع علامات على الغنم.[2]

ذات مرة قدم رسول الله ﷺ المسجد النبوي، فرأى شخصاً قد تمخض فيه. فنظف النبي ﷺ أثر ذلك بنفسه بحجر. ومنع الناس أن يفعلوا ذلك.[3]

كان النبي ﷺ وقت بناء الكعبة (وهو في سن صغير قبل بعثته) يحمل الحجارة بنفسه ويناولها البناءين،[4] ولقد مر في الجزء الأول تفصيل الطريقة التي عمل بها النبي ﷺ كعامة الأُجراء في بناء مسجد قباء والمسجد النبوي وحفر الخندق، والطريقة التي رفع بها بيده الشريفة الحجارة وطريقة حفره الأرض. ويروى أنه ذات مرة ذبح الصحابة شاة في سفر، وقسموا الأعمال فيما بينهم ليتمكنوا من طهي الشاة، فقال النبي ﷺ : سأحتطب أنا من الصحراء. فلما رفض الصحابة أخبرهم النبي ﷺ بأنه لا يحب التفرقة.[5] وفي سفر آخر قُطع رباط نعل النبي ﷺ فأراد النبي إصلاحه بنفسه. ولكن صحابيًا قال: أعطينيه يا رسول الله سأصلحه أنا. فأخبر النبي بأن هذا تمييز وهو لا يحب ذلك[6] ويقول صحابيان: ذهبنا ذات مرة إلى رسول الله ﷺ، فوجدناه يرمم البيت بنفسه فشاركناه في العمل، فلما انتهينا دعا لنا رسول الله ﷺ[7]

---

[1] صحيح البخاري، كتاب الأدب، وباب ما يكون الرجل في مهنة أهله. وقد أخذ القاضي عياض أحاديث عديدة وأجزاء من الشفاء جمعها. وقد نقل الزرقاني هذه الرواية في ج٤، ص ٣٠٤ من مسند أحمد وابن سعد وقال: إن ابن حبان ذكر بأنها صحيحة.

[2] وردت هذه الروايات الثلاثة في صحيح مسلم، الرواية الأولى في كتاب الأدب، والثانية والثالثة في باب جواز رسم الحيوان.

[3] سنن النسائي، كتاب المساجد.

[4] صحيح البخاري، باب الجاهلية. وهذا نص الحديث: عن جابر: (... لما بنيت الكعبة ذهب النبي وعباس ينقلان الحجارة...الحديث) (البخاري، ج٢،ص٤٧٠). (المترجم).

[5] الزرقاني، ج ٤، ص ٣٠٤، نقلاً عن سرية محب الدين الطبرى.

[6] المرجع السابق، نقلاً عن كتاب تمثال النعل الشريف لأبي اليمن ابن عساكر.

[7] مسند ابن حنبل، ج٣، ص ٤٦٩.

مساعدة الآخرين في أعمالهم

ذات مرة أرسل رسول الله ﷺ الصحابي خباب بن الأرت في غزوة. ولم يكن في بيت خباب رجل غيره. وكانت النسوة لا يستطعن القيام بالحلب، لذا كان رسول الله يذهب لبيته كل يوم ويحلب هو بنفسه. كما كان يقوم بنفسه على خدمة الضيوف الذين كانوا يأتون من الحبشة. وأراد الصحابة أن يقوموا على خدمتهم. لكن النبي ﷺ منعهم من ذلك وأشار إلى أنهم خدموا أصحابه لذا أراد أن يخدمهم بنفسه. كما أنه ﷺ أنزل وفد ثقيف ــ الذين كانوا قد أدموا قدميه ﷺ في الطائف ــ المسجد النبوي حينما جاءوه سنة ٩ هـ وقام على خدمتهم بطيب خاطر.

كانت جواري المدينة تأتي النبي ﷺ وتقلن: هذا عملنا يا رسول الله. فكان النبي ﷺ يقوم على الفور ويؤدي أعمالهن. وكانت في المدينة جارية مجنونة جاءت النبي ﷺ ذات يوم وأمسكت بيده الشريفة. فقال لها النبي ﷺ : يا أم فلان انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها.[1] لذا يقول الصحابي عبد الله بن أبي أوفى: **ولا يأنف ﷺ أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له الحاجة. (النسائي والدارمي).**

ذات مرة وقف رسول الله ﷺ للصلاة فجاءه أعرابي وأمسك بطرف ثوبه وقال: عندي عمل صغير وأخاف أن أنساه، فاذهب أولاً واصنعه. فخرج النبي ﷺ على الفور من المسجد وأدى العمل ثم عاد فصلى [2].

العزم والثبات

مدح الله تعالى كبار الأنبياء في القرآن الكريم فقال: "أولو العزم من الرسل" ولأن محمداً ﷺ كان خاتم الأنبياء، لذا أودع الله تعالى هذه الصفة في ذاته المباركة بصفة خاصة. وكل مفخرة من مفاخر الإسلام منذ البداية وحتى النهاية تعد مظهرًا كاملاً لعزم وثبات النبي ﷺ، فقد وقف النبي ﷺ بمفرده في أرض كفار العرب، ورفع نداء الحق دون مساندة أحد. حتى أن ذرات الصحراء شكلت جبلاً يعترضه، لكن هذا الجبل انهار بفضل وقار النبوة والعزيمة الإلهية، وتحطمت كل قوى المناهضين.

---

(1) مسلم وأبو داود، أخلاق وآداب.

(2) أبو داود، كتاب الأدب. والبخاري، كتاب الصلاة بإيجاز.

ولم يعرف النبي ﷺ اليأس ولا الهزيمة رغم الإخفاق وعدم بلوغ الهدف الذي دام ثلاثة عشر سنة. وجاءت النهاية، حيث ودع فيه هذا الإنسان الوحيد تلك الدنيا الفانية وترك آلاف المحبين المتبعين. ذات مرة ذهب الصحابة إلى رسول الله قبل الهجرة بعد ما ضاقوا من إيذاء المشركين لهم وقالوا: ألا تدعو لنا يا رسول الله. فاحمر وجه النبي ﷺ من الغضب وقال: **لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله"** [1].

- وفي مكة حينما تعب سادة قريش من كل الحيل والمؤامرات، عرضوا على رسول الله الإمارة والذهب والجواهر والجمال. ومعلوم أن إحدى هذه الأشياء كافية لأن تزلزل قدم أشجع رجل؛ لكن النبي ﷺ رفض عرضهم. وفي النهاية جاء وقت أراد فيه آخر معاضدي ومساندي النبي ﷺ ؛ يعني أبا طالب، أن يتخلى عن رسول الله. وكانت هذه آخر لحظة للتأمل والتفكير، وآخر امتحان للعزم والثبات، ولكن الجواب الذي أجاب به النبي ﷺ كان أبلغ طرق التعبير عن إظهار الثبات والصمود في هذه الحياة فقال: يا عماه لو وضعت قريش الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته (ابن هشام).

وفي غزوة بدر حينما كان ثلاثمائة مسلم بلا عتاد ولا سلاح في مواجهة ألف جندي مجهز، وكانت قريش قد جاءت مغرورة بقوتها وكثرتها. كان المسلمون وقتها يتجمعون بجانب النبي ﷺ. وبالرغم من كل هذا ظل جبل صمود النبي ﷺ ثابتاً شامخاً في مكانه.[2]

وحينما استشار النبي ﷺ أصحابه في غزوة أحد، وأشاروا عليه جميعاً بالهجوم، لبس النبي الدرع وتأهب. لكن الصحابة أشاروا عليه أن يرجع فقال النبي ﷺ: ما كان لنبي لبس لئمته أن يخلعها.[3] وفي غزوة حنين تزلزلت أقدام أكثر الصحابة حينما أمطر عليهم

---

[1] صحيح البخاري، ج١، باب ما لقي النبي ﷺ. وهذا نص الحديث: ورد في البخاري قول النبي هذا: لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله"(البخاري، ج٢، ص٤٧٥). (المترجم).

[2] مسند ابن حنبل، ج١، ص ١٢٦.

[3] البخاري، ج٢، ص ١٠٩، باب قول الله "وأمرهم شورى بينهم".

رماة قبيلة هوازن سهامهم. لكن النبي ﷺ ظل مطمئناً ثابتاً في ميدان المعركة مع بعض الفدائيين، وكان يقول: **أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب.**[1]

وقد كان النبي ﷺ مستريحاً تحت شجرة في غزوة ما، فجاءه كافر واستل سيفه وقال للنبي ﷺ: من يمنعك مني الآن يا محمد؟ فقال النبي ﷺ: الله. فأرعبت هذه العزيمة والجرأة وهذا الثبات ذاك الكافر، فأغمد سيفه على الفور وجلس بجوار النبي ﷺ.[2]

الشجاعة

الشجاعة هي أعلى حقائق الإنسانية وحجر أساس الأخلاق، ومنها يتولد العزم والثبات والعدل والصدق والإخلاص. ولقد واجه النبي ﷺ آلاف المصائب والمخاطر والعديد من المعارك والغزوات إلا أن خطى صموده وثباته لم تتزلزل. ففي غزوة بدر حينما كانت أقدام ثلاثمائة مسلم عزل من السلاح تتزلزل في قتال عنيف ضد ألف جندي مسلح. كان المسلمون يفرون ويحتمون بالنبي ﷺ وفي هذا يقول علي ﷺ الذي خاض وكسب أكبر المعارك. كنا حينما يشتد بنا وطيس المعركة في بدر نحتمي برسول الله ﷺ. وكان ﷺ أشجعنا. ولم يكن أحد منا أقرب لصفوف الأعداء من النبي ﷺ في ذاك اليوم.[3]

في غزوة حنين فرَّ جنود كثيرون من المسلمين من ميدان المعركة حينما هطل وابل سهام هوازن، لكن النبي ﷺ ظل ثابتاً واقفاً في أرض المعركة مع بعض الفدائيين يحض فرسه مراراً على التقدم، لكن أصحابه الفدائيين منعوه من ذلك. ومع أن رسول الله ﷺ كان وقتها الهدف الوحيد لكل جيوش الأعداء لكن قدمه الشريف لم تتزلزل ولم تهتز. وقد سأل رجل البراء ــ الذي كان قد اشترك في هذه الغزوة ــ فقال له: هل فررت من القتال في حنين؟ قال: نعم، هذا صحيح ولكن أشهد على نبي الله ﷺ ما ولى. كنا والله إذا احمرَّ البأس نتقى به، وإن الشجاع منا هو الذي يحاذي به؛ يعني رسول الله.[4]

يقول أنس بن مالك: كان النبي ﷺ أشجع الناس. ففي ذات مرة ذاع خبر في المدينة أن الأعداء قد جاءوا، فاستعد المسلمون لمقابلتهم، لكن النبي ﷺ كان أول من تقدم

---

[1] **صحيح البخاري، حنين.**

[2] **البخاري، ج٢،ص٥٩٣، غزوة ذات الرقاع. (ورد أن الرجل قال: من يمنعك مني. فقال: الله" (البخاري، ج٣، ص٥٠). (المترجم)**

[3] **مسند ابن حنبل، ج١، ص ١٤٦.**

[4] صحيح مسلم، غزوة حنين. (ورد عن أنس أنه: فزع أهل المدينة فكان النبي ﷺ سبقهم على فرس، وقال: وجدناه بحراً) (البخاري، ج٢، ص٢١٧.)(المترجم).

وانطلق، حتى أنه من شدة السرعة لم ينتظر أن يُشد السرج على الفرس. فركب الفرس بلا سرج وجال كل أماكن الخطر ثم عاد وطمأن الناس أنه ليس هناك أي خطر.[1]

لم يقتل النبي ﷺ أي أحد على الإطلاق، ومع أن أبي بن خلف كان من أشد أعداء رسول الله ﷺ، وكان يقول وهو ذاهب بعد أن أعطى الفدية يوم بدر: عندي فرس أعلفه كل يوم شعير سأركبه وأقتل محمدا. وجاء يوم أحد وهو راكب ذاك الفرس وشق الصفوف حتى وصل للنبي ﷺ، فأراد المسلمون أن يحولوا بينه وبين النبي ﷺ، إلا أن النبي ﷺ منعهم من ذلك، ثم أخذ رمحاً من يد أحد المسلمين وتقدم صوب أبي وشكه في رقبته برفق. فهرب أبي صارخاً. فقال له الناس: ليس الجرح عميقاً لدرجة تخيفك لهذا الحد. قال: نعم، ولكنه جرح يد محمد ﷺ.[2]

الصدق

الصدق صفة ضرورية للنبي ولا يمكن أن تخلو ذاته منها. لذا لم يكن هناك داع لتفصيل ذلك في موضوع "أخلاق النبي ﷺ"، لكننا نريد هنا أن ندون فقط تلك الاعترافات التي أمكن الوصول إليها من اعترافات الأعداء.

حين جهر النبي ﷺ بالدعوة لم يقل الكفار ـ الذين كانوا يعرفونه ـ أنه كاذب أو مضلل؛ بل قالوا: إن إدراكه قد فسد (نعوذ بالله) أو أن عقله قد خرب، أو أنه أصيب بداء تخيل الشعراء، لذا قالوا عنه: إنه مجنون وساحر وشاعر، ولكنهم لم يقولوا عنه كاذب.

ذات يوم كان سادة قريش مجتمعين في مجلس ذكر فيه رسول الله، فقال النضر بن الحارث أرشد رجالات قريش: يا قريش لم تستطيعوا حتى الآن تدبيراً لهذه المصيبة التي حلت بكم. محمد أمامكم منذ صباه وحتى شبابه وكان أحبكم وأصدقكم قولاً وأأمنكم، والآن حينما اشتعل رأسه شيبا، وظهرت هذه الأمور لكم تقولون أنه ساحر وكأهن وشاعر ومجنون، والله لقد سمعت كلامه فما في محمد شيء مما تقولون. إنها لمصيبة جديدة حلت بكم.[3] ودائماً كان أبو جهل يقول: يا محمد لا أقول إنك كاذب ولكني لا أعتبر ما تقوله

---

[1] ورد هذا الحديث في أبواب متفرقة من صحيح البخاري مثل باب الشجاعة في الحرب، وباب لغافر عوا بالليل.

[2] شرح الشفاء للقاضي عياض، ج٢، ص٦٤، نقلاً عن البيهقي بسند صحيح وعن عبد الرازق وابن سعد والواقدي.

[3] ابن هشام.

صحيحاً. وهنا نزل قوله تعالى[١] : "قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون" (الأنعام:٣٣).

حين نزل الأمر من الله لمحمدﷺ بدعوة قومه للإسلام، صعد النبي ﷺ جبلاً ونادى قائلاً: يا صباحاه! فلما تجمع الناس قال لهم: أ رأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أ كنتم مصدقي؟ قال الجميع: ما جربنا عليك كذباً.[٢]

سأل قيصر الروم في بلاطه أبا سفيان: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: لا. فقال القيصر في النهاية فيما قال: سألتكم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرتَ أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.[٣]

الوفاء بالعهد

الوفاء بالعهد صفة من صفات النبي ﷺ، اعترف بها أعداؤه كذلك. وكان قيصر الروم قد سأل ضمن ما سأل أبا سفيان وهو في بلاطه: وهل يغدر؟ فاضطر أبو سفيان أن يجيب بلا.[٤] وكان "وحشي" قاتل حمزةؓ يسيح في البلدان خوفاً من الإسلام. وكان اسمه ضمن الوفد الذي كان أهل الطائف قد شكلوه لإرساله إلى المدينة. ولكن وحشي خاف أن يُنتقم منه. إلا أن الأعداء أنفسهم أكدوا له أن يذهب بلا خوف ولا فزع لأن محمداً ﷺ لا يقتل السفراء لذا ذهب للنبي ﷺ وأعلن إسلامه.[٥] وكان صفوان بن أمية (قبل إسلامه) من ألد أعداء الإسلام، وحينما فُتحت مكة، هرب ووصل جدة قاصداً اليمن. فحكى عمير بن

---

[١] جامع الترمذي، تفسير سورة الإنعام.

[٢] صحيح البخاري، تفسير سورة تبت. وهذا نص الحديث: (٤٨٥٢) حدَّثنا يوسفُ بن موسى حدَّثنا أبو أسامةَ حدَّثنا الأعمشُ حدَّثنا عَمرُو بن مُرَّةَ عن سعيد بن جُبير «عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نَزَلَت: وأنذِر عشيرتَكَ الأقربين، ورهطك منهُم المخلصين، خرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتى صَعِدَ الصفا فهَتَف: يا صباحَاه. فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتُم إن أخبرتُكم أنَّ خيلاً تخرُجُ من سَفح هذا الجَبَل أكنتم مُصدِّقِيَّ؟ قالوا: ما جرَّبنا عليك كذِباً. قال: فإنِّي نَذِيرٌ لكم بين يَدَيْ عذاب شديد. قال أبو لهب: تَبًّا لك، ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام. فنزَلَت: {تبت يَدا أبي لهبٍ وتَبَّ}. وقد تبّ. هكذا قرأها الأعمش يومئذٍ». (المترجم).

[٣] صحيح البخاري، باب بدء الوحي.

[٤] المرجع السابق.

[٥] صحيح البخاري، غزوة أحد.(وردت في البخاري هذه الجملة "... فقيل لي (وحشي) إنه لا يهيج الرسل). (البخاري، ج٣، ص٣٥.) (المترجم).

وهب قصته للنبي ﷺ. فتفضل النبي بعمامته وقال: هذه علامة أمان صفوان. فأخذ عمير العمامة ووصل لصفوان وقال له: لست في حاجة للهرب، فأنت في أمان. فلما ذهب لرسول الله قال له: أأعطيتني الأمان يا رسول الله ﷺ؟ فقال النبي ﷺ: نعم.(١)

كان أبو رافع عبداً قدم المدينة قبل إسلامه كسفير من قبل قريش. فلما رأى وجه النبي ﷺ طاب الإسلام في قلبه. فقال: يا رسول الله إني والله لا أرجع إليهم أبداً. فقال النبي ﷺ : إني لا اخيس العهد ولا أحبس البرد، ولكن ارجع فإن كان في نفسك الذي في نفسك الآن فارجع. فعاد واعتنق الإسلام.(٢)

كان من بين شروط صلح الحديبية أن يُردَّ من يسلم من مكة إذا طلب أهل مكة ذلك. وفي الوقت الذي كانت تكتب فيه شروط الصلح فر أبو جندل ﷺ هرباً، وجاء يستغيث برسول الله ﷺ. فلما رأى المسلمون هذا المنظر المؤلم فزعوا؛ لكن رسول الله ﷺ التفت إليه وقال له بيقين كامل: "يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم".(٣)

قبل البعثة تعاقد عبد الله بن أبي العمساء على شيء مع رسول الله ﷺ. فأجلس النبي ﷺ ثم ذهب وقال له: سأعود لأتحاسب معك. وتصادف أنه لم يعد إلا بعد ثلاثة أيام، وكان النبي ما يزال جالساً في مكانه لم يتحرك. فلما رآه قال ﷺ: يا فتي، لقد شققت علي، أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك.(٤)

---

(١) ابن هشام. (ورد في ابن هشام قول صفوان هذا "... إن هذا (يعني عمير) يزعم أنك قد أمنتني. قال ﷺ: صدق...الحديث). (المترجم).

(٢) أبو داود، باب الوفاء بالعهد.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الشروط، ووردت الجمل الأخيرة في ابن هشام. (ورد قول النبي ﷺ في ابن هشام هكذا" يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم). (ابن هشام، ج٣، ص٢٠٣). (المترجم).

(٤) أبو داود، كتاب الأدب. باب فى العدة. وهذا نص الحديث: (٤٩٩٢) حدثنا مُحَمَّدُ بنُ يَحْيَى بنُ فَارِسٍ النَّيْسَابُورِيُّ أخبرنا مُحَمَّدُ بنُ سِنَانٍ أخبرنا إبْرَاهِيمُ بنُ طَهْمَانَ عنْ بُدَيْلٍ عنْ عَبْدِ الْكَرِيمِ عنْ عَبْدِ الله بن شَقِيقٍ عنْ أَبِيهِ عنْ عَبْدِ الله بن أَبِي الْحَمْسَاءِ، قالَ: « بَايَعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم بِبَيْعٍ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ وَبَقِيَتْ لَهُ بَقِيَّةٌ فَوَعَدْتُهُ أَنْ آتِيَهُ بِهَا في مَكَانِهِ، فَنَسِيتُ فَذَكَرْتُ بَعْدَ ثَلاَثٍ فَجِئْتُ، فَإِذَا هُوَ في مَكَانِه، فقَالَ يَا فَتىً لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ أَنَا هَهُنَا مُنْذُ ثَلاَثٍ أَنْتَظِرُكَ». قَالَ أَبُو دَاوُدَ: قالَ مُحَمَّدُ بنُ يَحْيَى هٰذَا عِنْدَنَا

في غزوة بدر كان تعداد المسلمين أقل من ثلث عدد الكفار. ومن الطبيعي أن يتمنى النبي في هذا الموقف أن يكون العدد أكثر، لكنه ﷺ كان في ذاك الوقت أيضاً قمة في الوفاء، فقد قدم كل من حذيفة بن اليمان وأبا حسل، الصحابيان الجليلان من مكة، فاعترضهما الكفار في الطريق قائلين لهما: أنتما ذاهبان لمحمد ﷺ، فأنكرا. وفي النهاية أطلق الكفار سراحهما شريطة ألا يشتركان في الحرب مع النبي ﷺ. فلما جاء الصحابيان رسول الله وقصا عليه القصة قال النبي ﷺ: انصرفا نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم.[1]

الزهد والقناعة

يسود اعتقاد لدى المستشرقين أن النبي كان نبياً طيلة مكوثه بمكة لكنه حينما وصل المدينة أصبح ملكاً بدلاً من رسول. والحقيقة أن النبي ﷺ ظل فقيراً دائماً؛ فقد رُوى في البخاري في باب الجهاد أن درع النبي ﷺ كانت مرهونةً عند وفاته ﷺ عند يهودي مقابل ثلاثة صياع شعير، وأن الثياب التي توفى فيها رسول الله ﷺ كانت كلها مرقعة. وكان هذا في وقت كان المسلمون فيه يسيطرون على المنطقة الممتدة من حدود الشام حتى عدن، وتمتلئ فيه أرض المدينة بالذهب والفضة.

لا ريب في أن القضاء على الرهبانية كان أحد مهام النبي ﷺ، تلك الرهبانية التي لام الله تعالى عليها النصارى فقال "**ورهبانية ابتدعوها**". ومن ثم أكل النبي في بعض الأحيان طعاماً شهياً، ولبس ملابس فاخرة؛ لكنه لم يكن يميل للملذات وزخارف الحياة فيقول «لَيْسَ لابنِ آدَمَ حَقٌّ فِي سِوَى هذِهِ الخِصَالِ: بَيْتٍ يَسْكُنُهُ، وَ ثَوْبٍ يُوَارِي عَوْرَتَهُ، وَجِلْفِ الْخُبْزِ وَالْمَاءِ».[2] لذا تقول السيدة عائشة: **ولا يطوي له ثوب**؛ أي أنه لم يكن له إلا ثوب واحد لذا كان لا يطوي.

عَبْدُ الْكَرِيمِ بنُ عَبْدِ الله بن شَقِيقٍ. قَالَ أَبُو دَاوُدَ: هكَذَا بَلَغَنِي عنْ عَلِيِّ بن عَبْدِ الله. قَالَ أَبُو دَاوُدَ: بَلَغَنِي أَنَّ بِشْرَ بنَ السَّرِيِّ رَوَاهُ عنْ عَبْدِ الْكَرِيمِ بنِ عَبْدِ الله بنِ شَقِيقٍ. (المترجم).

[1] صحيح مسلم، باب الوفاء بالعهد، ج ٢، ص ٨٩ (المترجم).

[2] جامع الترمذي، أبواب الزهد. وهذا نص الحديث: (٢٣٧٩) حَدَّثنا عَبْدُ بنُ حُمَيدٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ بنُ عَبْدِ الوَارِثِ،أخبرنا حُرَيْثُ بنُ السَّائِبِ، قَالَ سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ حدثني حُمْرَانُ بنُ أَبَانَ، عَنْ عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ، عَنْ النبيِّ قَالَ: «لَيْسَ لابنِ آدَمَ حَقٌّ فِي سِوَى هذِهِ الخِصَالِ: بَيْتٍ يَسْكُنُهُ، وَ ثَوْبٍ يُوَارِي عَوْرَتَهُ، وَجِلْفِ الْخُبْزِ وَالْمَاءِ» .

قال أبو عيسَى: هَذَا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ وَهُوَ حديثُ الحُرَيْثِ بنِ السَّائِبِ. وَسَمِعْتُ أَبَا دَاوُدَ سُلَيْمَانَ بنَ سَلْمٍ البَلْخِيَّ يَقُولُ، قَالَ النَّضْرُ بنُ شُمَيْلٍ: جِلْفُ الْخُبْزِ يَعْنِي لَيْسَ مَعَهُ إِدَامٌ. (المترجم).

ذات مرة كان عبد الله بن عمر يرمم جدران البيت وتصادف أن جاءه رسول الله فسأله عم يشغله.قال: أرمم جدران البيت يا رسول الله. فاستفسر النبي ﷺ عن هل يوجد وقت لهذا؟.[1] وكثيراً ما كان الفقر يلازم بيت رسول الله ﷺ، فكان رسول الله وأهله يبيتون جوعى، **وكان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً هو وأهله لا يجدون عشاءً.**[2]

كانت النار لا تُشعل في بيت النبي ﷺ بالشهرين متواصلين. وحينما قالت ذلك السيدة عائشة ذات مرة، سألها عروة بن الزبير وقال: فعلى ماذا كنتم تعيشون؟ قالت: على ماء وتمر. إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله من أبياتهم فيسقيناه.[3] وما رأى رسول الله ﷺ طيلة حياته رغيفاً مرققاً.[4] ولا الميدة؛ التي يقال عنها في العربية الجوارى والنقى. وقد سأل سهل بن سعد راوي هذه الواقعة فقال: أولم تكن هناك غرابيل زمن رسول الله ﷺ؟ قال: لا. فقال الناس: فكيف كان الدقيق ينقى إذن؟ قال: كانوا يطيرون العصف بنفخهم عليه بالفم، ثم يعجنون ما تبقى ويخبزونه.[5] وتقول السيدة عائشة: ما أكل رسول الله طيلة حياته منذ قيامه بالمدينة حتى وفاته خبزاً لوقتين بعد ما يشبع.[6]

يكتب المحدثون وأرباب السير في حديثهم عن فدك وخيبر وغيرهما أن رسول الله ﷺ كان يأخذ من إيراداتهم مصاريف سنة كاملة. ويبدو هذا مخالفاً للروايات المذكورة أعلاه. ولكن الرأيين صحيحان في الحقيقة. فما من شك أن رسول الله ﷺ كان يأخذ قدر نفقته من الإيرادات، ويعطي الفقراء والمحتاجين ما تبقى. ولكن ما كان ﷺ يتركه لنفسه كان يعطيه منه أيضاً للمحتاجين. وتوجد وقائع كثيرة جداً تحكى عن فقر وعسر حال رسول الله ﷺ، نذكر منها هنا بعض الروايات فقط.

---

[1] ابن ماجة، كتاب اللباس.

[2] جامع الترمذي، معيشة النبي ﷺ.

[3] صحيح البخاري، كتاب الرقاق.

[4] المرجع السابق. عن أنس قال: ما أعلم النبي ﷺ رأى رغيفاً مرققاً حتى لحق بالله). (البخاري، ج٤، ص١٨٨). (المترجم).

[5] الشمائل.

[6] المرجع السابق.

مرة جاء رسول الله ﷺ شخص وقال: إني جائع جداً يا رسول الله، فأرسل رسول الله لبيت إحدى أزواجه يسأل عن شيء يؤكل فقالوا له: لا شيء سوى المآء. فأرسل للبيت الثاني فجاءه نفس الجواب حتى أنه ﷺ لم يجد في بيوت أزواجه الثمان أو التسع غير الماء.[1]

يقول أنس ﷺ ذات مرة ذهبت لرسول الله ﷺ فرأيته رابطاً بطنه بقماش، فسألت عن السبب فقال أحد الجالسين: بسبب الجوع.[2] ويقول أبو طلحة: رأيت رسول الله يوماً متمدداً على الأرض في المسجد يتقلب من الجوع.[3]

ذات مرة اشتكى الصحابة لرسول الله ﷺ من الجوع، وأروه بطونهم مربوط على كل منها حجر، فكشف لهم النبي ﷺ عن بطنه وإذ عليها حجران وليس حجراً واحداً.[4]

كان صوت النبي ﷺ يضعف من كثرة الجوع لدرجة تجعل الصحابة يعرفون حالته ﷺ. ففي ذات يوم ذهب أبو طلحة وقال لزوجه: هل من شيء يؤكل فقد رأيت رسول الله ﷺ الآن وصوته قد ضعف.[5]

ذات يوم خرج رسول الله ﷺ من بيته وقت الظهر من شدة الجوع. فقابله في الطريق أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. وكانا يضطربان من شدة الجوع. فاصطحبهما رسول الله لبيت أبي أيوب الأنصاري. وكان أبو أيوب معتاداً على أن يوفر لرسول الله ﷺ لبناً؛ لكن الرسول ﷺ جاءه متأخراً ذاك اليوم، بعد أن سقى أبو أيوب اللبن أولاده، فلما وصل رسول الله إليه كان قد ذهب لمزرعة النخيل. ولما علمت زوجه بمجيء النبي خرجت وقالت: أهلاً بك يا رسول الله. فسأل عن أبي أيوب؟ وكانت مزرعة النخيل قريبة، فلما سمع أبو أيوب الصوت عاد مهرولاً وقال :مرحباً بك يا رسول الله. ولأن الوقت لم يكن وقت مجيء النبي ﷺ؛ لذا أخبره النبي بحالهم، فذهب أبو أيوب لمزرعة النخيل وأحضر بعض التمور. وقال: سأطهى لكم لحماً يا رسول الله. ثم قام وذبح شاة. وطهى نصفها وأعد من النصف الأخر كباباً. ثم أحضر الطعام فأخذ رسول الله ﷺ قليلاً من اللحم ووضعه على رغيف وأشار عليه أن يرسله إلى فاطمة رضي الله عنها لأنها لم تأكل منذ

---

[1] صحيح مسلم، ج٢، ص، ١٩٨ طبعة مصر. وصحيح البخاري، ص ٥٣٥.

[2] المرجع السابق، ص ١٩٣.

[3] المرجع السابق.

[4] المرجع السابق.

[5] المرجع السابق، ص ١٩١.

بضعة أيام. ثم أكل رسول الله ﷺ مع أصحابه. ولما رأى أصناف الأكل العديدة أمامه فاضت الدموع من عينيه وقال: إن هذا هو النعيم الذي قال الله تعالى عنه: ثم لتسألن يومئذ عن النعيم.[١] (التكاثر: ٨)

كثيراً ما كان رسول الله ﷺ يذهب صباحاً لأزواجه ويسألهن عن طعام فيقلن: لا يوجد طعام. فينوي النبي ﷺ الصيام.[٢]

العفو والحلم

صرح أرباب السير أن كل الأحداث شاهدة على أن رسول الله ﷺ لم ينتقم قط من أي أحد، فقد روى في الصحيحين عن السيدة عائشة أن رسول الله ﷺ لم ينتقم لنفسه من أحد إلا إذا تعدى حدود الله.[٣]

وقد كان تحقير وإهانة سادة الطائف أصعب على النبي ﷺ من هزيمة غزوة أحد؛[٤] لكن بالرغم من ذلك وبعد عشر سنوات حينما كانوا يمطرون الحجارة والنبال على المسلمين. كان صاحب الحلم والعفو ﷺ في الجانب الآخر يدعو الله تعالى أن يهديهم إلى الإسلام. وحينما قدم وفدهم المدينة سنة تسع من الهجرة أنزلهم النبي ﷺ بصحن المسجد وقابلهم بكل إعزاز وترحاب.[٥]

وكذا سبّته قريش وأرادت قتله، وفرشت الأشواك في طريقه، ووضعت القاذورات على جسده الشريف، ووضعت في عنقه حبلاً وشدته، وأساءت إليه وقالت عنه: إنه والعياذ بالله ساحر ومجنون وشاعر؛ لكن رسول الله ﷺ لم يغضب قط من هذا.

وكان حين يكذب رجل في مجلس ما، كان النبي ﷺ يرتعد من الغضب. يقول رجل إنه رأى النبي ﷺ يدعو للإسلام في سوق ذي المجاز، وكان رسول الله ﷺ يقول للناس: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وكان أبو جهل خلفه يقول وهو يطير التراب على النبي

---

[١] صحيح مسلم، ص ١٩١.

[٢] الترغيب والترهيب، ج ٢، ص ٧٥، وتوجد هذه الواقعة في صحيح مسلم، جـ٢، ص ١٥٠ باختلاف بسيط.

[٣] مسند أحمد بن حنبل، ج٢، ص ٤٩.

[٤] صحيح البخاري، بدء الخلق.

[٥] أبو داود، ذكر الطائف.(عن عثمان بن أبي العاص أن وفد ثقيف لما قدموا على رسول الله أنزلهم المسجد ليكون أرق لقلوبهم). (أبو داود، ج٢، ص١٤٦). (المترجم). ومسند ابن حنبل، ج٤، ص٢٢٨.

ﷺ: لا يصدنكم كلام هذا الرجل عن دينكم، فإنه يريد أن تتركوا آلهتكم اللات والعــزى. يقول الراوي: وهنا لم يكن النبي ﷺ يلتفت إليه. (مسند أحمد، ج ٤، ص ٦٣).

كانت حادثة الإفك أكبر مواقف الغضب والثورة. ومع أن المشركين والعياذ بـالله رموا السيدة عائشة أحب نساء النبي ﷺ إليه، وبنت ثاني اثنين في الغار، أفضل الصحابة أبي بكر الصديق، وكانت المدينة تعج بالمنافقين الذين أشاعوا الخبر بسرعة فائقة في كل أرجاء المدينة. ومع أن شماتة الأعداء وإساءة سمعة الوحي وفضح النبي ﷺ أمور خارجة عن إمكان صبر وتحمل الإنسان؛ ولكن ماذا صنع رحمة الله للعالمين محمدﷺ في كل هذه الأمور؟ فمع أن أساس ومنبع هذه الفتنة كان عبد الله بن أبي رأس المنافقين، وكان النبـي على دراية كاملة به. لكنه ﷺ على الرغم من ذلك لم يصنع له شيئاً، إلا أنه صعد المنبـر وخطب في جموع الناس قائلاً: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي؟ فهب سعد بن معاذ ﷺ واقفاً وقال بغضب: أنا يا رسول الله، أخبرني عن اسمه وسأقطع عنقه، فاعترض على ذلك سعد بن عبادة الذي كان حليفاً لعبد الله بن أبي، ووقف الاثنان في وجه بعضهما، وكادا يستلان سيفيهما؛ لكن رسول الله ﷺ هدأهما، حيث أن الله تعالى كذب الواقعة وسن عقوبة شرعية للرامين. وقد ترك عبد الله بن أبي لأنه لم يعترف بأنه قد رمى السيدة عائشة، كما أنه لم تكن هناك أي شهادة شرعية تثبت عليه ذلك. ومن الذين عوقبوا مسطح بن أثاثة الذي كان أبو بكرﷺ ينفق عليه. وقد أوقف أبو بكر النفقـة عليه بعد ذلك. ولكن حينما نزلت الآية:

"ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم". (سورة النور:٢٢) استأنف أبو بكر الإنفاق عليه.

كان حسان ﷺ ممن اتهموا السيدة عائشة أيضاً (كما ورد في صحيح الترمـذي، كتاب التفسير، تفسير سورة النور). وكانت السيدة عائشة قد غضبت منه غضبا شـديدًا. ولكن كان من أثر صحبة النبي ﷺ أنه حينما بدأ عروة بن الزبير الإساءة إليه أمام السيدة عائشة منعته عن ذلك، وقالت: إنه كان ينافح أو يهاجي عن رسول الله ﷺ أمام الكفار.[1]

كان لبيد بن اعصم أحد اليهود المنافقين في المدينة قد سحر رسول الله ﷺ، إلا أنه ﷺ لم يصنع له شيئا.

---

[1] صحيح البخاري، قصة الإفك.

ولما حققت السيدة عائشة في الأمر أخبرها رسول الله ﷺ بأنه لا يريد أن يولد فتنة بين الناس.[1]

كان زيد بن سعفة يعمل بالتجارة أيام كان يهوديا، وكان قد اقترض منه رسول الله ﷺ، وكانت هناك بضعة أيام باقية على سداد الدين، لكنه جاء ليتقاضى دينه، وأمسك برداء النبي وجذبه وسبه ثم قال: أنتم يا آل عبد المطلب تماطلون دائماً في الحق. فانتفض عمر بن الخطاب غاضباً ونظر إليه وقال له: يا عدو الله كيف تسئ إلى رسول الله ﷺ؟ فتبسم رسول الله، وأشار إلى عمر بأنه كان يأمل منه شيئا آخر، إذ كان عليه أن يعلمه كيف يَطلب دينه برفق، ويُخبر رسول الله كي يعطيه ﷺ دينه. ثم أمر ﷺ عمر بأن يؤدِّ إليه دينه ويزد عليه عشرين صاعاً من التمر؟[2]

كان عند رسول الله ﷺ حلة واحدة في فترة ما. فكانت سميكة متسخة تزداد ثقلاً كلما جاء العرق. ومصادفة جاءت أقمشة من الشام عند يهودي، فقالت السيدة عائشة: لتقترض منه حلة. فأرسل رسول الله رجلاً لليهودي. فقال اليهودي له: فهمت أن محمداً يريد أن يضيع بضاعتي دون ثمن. فلما سمع النبي ﷺ كلامه القاسي هذا، أخبر ﷺ بأنه ﷺ أكثر الناس احتياطاً وأداءً للأمانة.[3]

ذات مرة كان رسول الله ﷺ سائراً في طريق ما، فرأى امرأة جالسة تبكي. فوقف وقال لها: "اتقي الله واصبري". ولم تكن المرأة تعرف رسول الله (فقالت بلا تأدب): إليك عني فإنك لا تعرف ما نزل بي. فلما انصرف رسول الله ﷺ قال الناس للمرأة: أما تعرفين أن هذا رسول الله ﷺ؟ فخرجت المرأة إلى رسول الله وقالت: لم أكن أعرفك يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: إنما الصبر عند الصدمة الأولى.[4]

ذات مرة مرض سعد بن عبادة، فذهب رسول الله ﷺ لزيارته. وكانت في الطريق جلسة توقف عندها رسول الله. وكان عبد الله بن أبي رأس المنافقين جالساً فيها. فلما تطاير غبار راحلة النبي ﷺ رفع ثوبه ووضعه على أنفه وقال لمحمد ﷺ: لا تغبِّروا علينا. ولما اقترب رسول الله ﷺ قال: يا محمد، أبعد حمارك، فقد أزعجني ريحها. لكن النبي ﷺ

---

[1] صحيح البخاري، ص ٩٠٤.

[2] روى هذه الرواية كل من البيهقي وابن حبان و الطبراني وأبو نعيم. وقال السيوطي: إن سندها صحيح (شرح الشفاء لشهاب الخفاجي).

[3] جامع الترمذي، كتاب البيوع.

[4] البخاري، كتاب الجنائز.

سلم عليهم ثم نزل من على راحلته، ودعاهم للإسلام. فقال عبد الله بن أبي: يا أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا وارجع في رَحلك فمن جاءك فاقصص عليه. فقال عبد الله بن رواحة الشاعر المشهور: بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك. ثم تطور الحديث حتى أوشكت السيوف أن تُستل. لكن رسول الله ﷺ هدأ الفريقين. ثم قام من الجلسة وذهب لسعد بن عبادة وقال له: أي سعد ألم تسمع ما قال عبد الله بن أبي. فقال سعد: يا رسول الله أعف عنه واصفح فلقد أعطاك الله ما أعطاك ولقد اجتمع أهل هذه البحرة أن يتوجوه.(١)

حين كان رسول الله ﷺ يقسم مال الغنيمة في غزوة حنين، اعترض أحد الأنصار عليه وقال: إن هذا التقسيم ليس ابتغاء وجه الله. فلما سمعه النبي ﷺ قال: رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر.(٢)

ذات مرة جاء أعرابي إلى النبي ﷺ وهو جالس في المسجد. وكان الرجل يريد أن يقضي حاجته،(٣) ولم يكن يعرف آداب المسجد. لذا وقف وأخذ يقضي حاجته في المسجد. فهرول الناس من كل جانب لمعاقبته لكن النبي ﷺ قال لهم: دعوه وهريقوا على بوله سَجلا من ماء فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين.(٤)

يقول أنس خادم النبي: ذات مرة أراد رسول الله ﷺ أن يرسلني في عمل فقلت: لن أذهب. فسكت رسول الله ثم خرجت. فجاءني رسول الله ﷺ من الخلف وأمسك بعنقيَّ، فالتفت انظر إليه وإذا هو يضحك. ثم قال برفق ولين: يا أنيس، اذهب حيث أمرتك. فقلت: حسناً يا رسول الله سأذهب. يقول أنس وهو يحكي هذه الواقعة: خدمت رسولَ الله ﷺ سبع سنين لم يقل لي خلالها لما صنعت هذا ولما لم تصنع ذاك.(٥)

---

(١) صحيح البخاري، جـ٢، ص ٨٤٦.

(٢) المرجع السابق، غزوة حنين(ورد أن النبي ﷺ قال: رحم الله موسى قد أُذوى بأكثر من هذا فصبر). (ج٣، ص٩٨). (المترجم).

(٣) كان يريد أن يتبول. (المترجم)

(٤) المرجع السابق، صـ ٣٥.(ورد في البخاري أن النبي ﷺ قال: دعوه وهريقوا على بوله سَجلا من ماء فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين). (ج١، ص٩٩). (المترجم).

(٥) صحيح مسلم وأبو داود، كتاب الأدب.(يُروى عن أنس أنه قال: والله لقد خدمته سبع سنين أو تسع سنين ما علمت قال لشيء صنعت لم فعلت كذا وكذا، ولا لشيء تركت هلاّ فعلت كذا وكذا) (أبو داود، ج٢، ص٥٤٧.)(المترجم).

يقول أبو هريرة كانت عادة النبي ﷺ أن يجلس أمام الناس في المسجد ويخطب فيهم، وحين يعود للبيت نعود نحن أيضاً. وذات يوم خرج رسول الله ﷺ من المسجد حسب عادته فجاء أعرابي وجذب رداءه بشدة حتى احمرت رقبة النبي ﷺ، فالتفت إليه، فقال الرجل: حمّل بعيري بالحبوب فليس المال الذي عندك مالك ولا مال أبيك، فقال له النبي ﷺ: "لا أُحمل لك حتى تقيدني من جذبتك التي جذبتني". فظل الرجل يكرر قسمه أنه لن يعطي العوض رسول الله. فقال النبي ﷺ: "احمل له بعيريه هذين على بعير شعيراً وعلى الآخر تمراً" ثم التفت إلينا فقال:" انصرفوا على بركة الله".[١]

- كانت قريش والعياذ بالله تسب النبي ﷺ وتوبخه، وتقول له على سبيل التحقير: يا مذمَّم بدلاً من أن تقول يا محمد (التي هي للمدح). ولكن النبي ﷺ كان يقول لأصحابه رداً على قريش: بأن الله تعالى يرد عنه ﷺ شتائم قريش. إنهم يشتمون المذمم ويلعنونه أما هو فمحمد ﷺ.[٢]

في الوقت الذي كان يعد فيه رسول الله ﷺ لفتح مكة كان يحتاط كثيراً حتى لا يتسرب الخبر لقريش. إلا أن أحد الصحابة وهوحاطب بن أبي بلتعة أراد أن يخبر قريشاً بذلك، لذا كتب لهم رسالة، وأرسلها خفية مع امرأة إلى مكة. فعرف النبي ﷺ ذلك. وأرسل علياً و الزبير رضى الله عنهما للإمساك بالمرأة والرسالة. واستدعى حاطب فاعترف بذنبه مباشرة. وأراد أن يعتذر فكان الموقف يستلزم من أي سياسي أن يعاقب المذنب؛ لكن رسول الله ﷺ سامحه لأنه كان ممن اشتركوا في بدر. كما لم يحدث للمرأة التي شاركته الذنب أي شيء.[٣] مع العلم بأن الرسالة لو وصلت الأعداء لواجه المسلمون مخاطر عديدة.

---

[١] أبو داود،كتاب الأدب، ورويت هذه الواقعة في البخاري ومسلم عن أنس باختلاف يسير.(ورد في الحديث أن النبيﷺ قال: "لا أحمل لك حتى تقيدني من جذبتك التي جذبتني" والأعرابي يقول: والله لا أقيدكها. فقال النبيﷺ أحمل له بعيريه هذين على بعير شعيراً وعلى الآخر تمراً" ثم التفت إلينا فقال:" انصرفوا على بركة الله" (أبو داود، ج٢، ص٥٤٨.)(المترجم).

[٢] المشكاة، باب أسماء النبي ﷺ.

[٣] صحيح البخاري، فتح مكة.(ولقد ورد أن عمر بن الخطاب قال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلعَ على من شهد بدر وقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم). (البخاري، ج٣، ص٨٣). (المترجم).

كان ثمة شخص يدعى فرات بن حبان يعمل جاسوساً على المسلمين لصالح أبـي سفيان. وكان يهجو رسول الله ﷺ بأبيات من الشعر، فأمر النبي ﷺ بالقبض عليه وقتلـه، فقبض الناس عليه. وحينما جاءوا به في إحدى ضواحي الأنصار قال: إني مسلم. فـذهب أحد الأنصار وأخبر رسول الله أنه يقول: إني مسلم. فقال النبي ﷺ : إن منكم رجالاً نَكِلهم إلى إيمانهم منهم فرات بن حبان[1]. وقد ذكر المؤرخون أن فرات قد حسن إسلامه فيما بعد، وخصه رسول الله ﷺ بقطعة أرض في اليمامة كان إيرادها ٤٢٠٠ درهماً.[2]

العفو عن الأعداء وحسن المعاملة

أندر وأقل شيء وجوداً في ذخيرة أخلاق الإنسان هو العفو عن الأعداء والشـفقة بهم. لكن هذا الشيء كان موجوداً بكثرة عند حامل الوحي والرسالة محمد ﷺ. ومـع أن انتقام الإنسان من أعداءه شيء فطري في الإنسان إلا أن هذا الشيء محرم عند رسول الله ﷺ. حيث تتفق جميع الروايات على أن النبي ﷺ لم ينتقم من أحد قط. كان يوم فتح مكـة هو أوضح وأجل مناسبة للانتقام من الأعداء، ولكن حين جاء هؤلاء الحاقدون ـ والـذين كانوا متعطشين لشرب دماء النبي ﷺ، والذين لاقي على أيديهم ألوانا من العذاب ـ أمـام النبي ﷺ عفا عنهم وقال : لا تثريب عليكم اليوم. اذهبوا فأنتم الطلقاء.

كان "وحشي" قاتل حمزة‌ﷺ ـ أسد الإسلام وأحب الأعمام إلى قلب النبي ﷺ ـ في مكة آنذاك وحين عم الإسلام مكة هرب وحشي إلى الطائف. ولما أذعنت الطائف للإسلام لم تعد مأمنا لوحشي، ولكنه سمع أن رسول الله ﷺ لا يقسو على السفراء، لذا لجأ العاجز (وحشي) إلى رحمة الله للعالمين محمد ﷺ واعتنق الإسلام. فلم يقل له ﷺ سـوى: فهـل تستطيع أن تغيب وجهك عني؟[3]

جاءت هند زوج أبي سفيان ـ التي كانت قد شقت صدر حمـزة وقطعـت قلبـه وكبده ـ يوم فتح مكة مستترة حتى لا يعرفها رسول الله ﷺ وحتى تبايعه على الإسـلام دون أن يعرف وتحصل على الأمان، ولكنها في هذا الموقع أيضاً لم تلتـزم الأدب. فقـد

---

[1] أبو داود، كتاب الجهاد، باب الجاسوس الذمي. وقد روى سفيان الثوري هذا الحديث بطريقتين الأولى عن أبي همام الدلائل وهذه طريقة أبي داود. وهي ضعيفة والطريقة الثانية هي عن بشر بـن سـرى البصري وهي صحيحة. وقد نقل الإمام أحمد هذه الرواية في مسنده أيضاً.

[2] الإصابة ترجمة فرات.

[3] صحيح البخاري، قتل حمزة.(ورد أن النبي ﷺ قال لوحشي: فهل تستطيع أن تغيب وجهـك عنـي؟). (البخاري، ج٣، ص٣٥). (المترجم).

عرفها رسول الله ﷺ ولكنه لم يذكر لها شيئاً عن تلك الواقعة. فتأثرت من إعجاز النبي ﷺ وقالت له دون قصد: ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من أهل خبائك ثم ما أصبح على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلي أن يعزوا من أهل خبائك[١].

كان عكرمة ابن عدو الإسلام أبى جهل قبل اعتناقه الإسلام مثل أبيه من أشد أعداء الإسلام. وقد فر يوم فتح مكة إلى اليمن. وكانت زوجه قد أسلمت وذهبت إليه في اليمن وطمأنته وجعلته يعتنق الإسلام. ثم جاءت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ نهض على الفور من فرط مسرته، وأسرع مهرولاً يستقبلهما حتى أن بردته الشريفة سقطت من على جسده[٢] وهو يقول له: **مرحباً بالراكب المهاجر.**[٣]

كان صفوان بن أمية، وهو من أكابر كفار قريش ومن ألد أعداء الإسلام قد استأجر عمير بن وهب لقتل رسول الله ﷺ، ولذا فر يوم فتح مكة إلى جدة خوفاً من الإسلام. ونوى أن يهرب إلى اليمن عن طريق البحر. فجاء عمير بن وهب رسول الله ﷺ وقال له: يا رسول الله إن صفوان بن أمية سيد قبيلته، وقد هرب خوفاً منك ليلقى بنفسه في البحر. فأخبره النبي ﷺ بأن له الأمان. فقال: يا رسول الله أعطني علامة تأمينه حتى يثق بي إذا رآها. فأعطاه النبي ﷺ عمامته. فأخذها وذهب لصفوان. فقال صفوان: ولكني أخاف على نفسي من الذهاب هناك. فقال له عمير: إنك لم تعرف حتى الآن حلم وعفو رسول الله ﷺ فلما سمع هذا ذهب مع عمير إلى النبي ﷺ. وكان أول سؤال سأله لرسول الله ﷺ: يقول عمير إنك أعطيتني الأمان؟ فقال النبي ﷺ: نعم. قال صفوان: إذن فأمهلني شهرين. فقال النبي ﷺ: " أنت بالخيار أربعة أشهر". فأعلن إسلامه بعد ذلك بطيب خاطر. وقد وردت هذه الواقعة تفصيلاً في ابن هشام.

كان هبار بن الأسود قد آذى السيدة زينب بنت رسول الله ﷺ كثيراً، فقد كانت حاملاً أثناء هجرتها من مكة إلى المدينة. وقد اعترضها الكفار فأسقطها هبار بن الأسود من على الراحلة فأصيبت بجرح عميق وسقط حملها. إضافة إلى أنه ارتكب بعض الجرائم الأخرى؛ لذا كان ضمن من أُحل دمهم يوم فتح مكة، فأراد الهروب إلى إيران. لكن النبي ﷺ استماله إليه فذهب لرسول الله ﷺ وقال له: يا رسول الله أريد أن أهرب إلى إيران

---

[١] صحيح البخاري، ذكر هند.

[٢] الموطأ، الإمام مالك، كتاب النكاح.

[٣] المشكاة، كتاب الأدب نقلاً عن الترمذي.

ولكني تذكرت حلم وعفو رسول الله ﷺ، وما سمعته عني فهو صحيح، واعترف بجهلي وذنبي، والآن جئت لأتشرف بالإسلام. وكان باب الرحمة مفتوح ولم يكنَ هناك تمييز بين حبيب وعدو.[١]

كان أبو سفيان قبل إسلامه ــ كما هو معروف ــ سبب أكثر الحروب التي خاضها المسلمون منذ بدر حتى فتح مكة. وكل حرف من أحرف الغزوات النبوية شاهد على هذا. لكنه حينما أُسر يوم فتح مكة وجاء به العباس رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ. قابله رسول الله ﷺ بكل حب ولين. وكان عمر رضي الله عنه قد نوى قتله جزاء جرائمه السابقة، لكن رسول الله ﷺ منعه. ليس هذا فحسب بل جعل بيته قبلة للأمن والأمان فقال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.[٢] فهل فعل أي منتصر مع عدوه مثل هذا؟

كانت كل قبائل العرب تتجمع تحت راية الإسلام طوعاً. وإن كانت هناك قبيلة قد تمادت في طغيانها حتى النهاية فهي قبيلة بني حنيفة التي كان مسيلمة قد أدعى فيها النبوة. وكان ثمامة بن آثال واحد من سادة هذه القبيلة. ومصادفة سقط في أيدي المسلمين فأخذوه للمدينة، فأمر رسول الله ﷺ بربطه في سارية من سواري المسجد، ثم ذهب النبي ﷺ بعد ذلك إلى المسجد وسأله عم يقول؟ قال :يا محمد إن تقتلني ستكون سفاك، وإن تحسن فسيكون إحسان على ممنون أو شاكر، وإن تريد فدية فاطلب وسأعطيك ما تقول. فلما سمع رسول الله ﷺ ذلك ظل صامتاً. وفي اليوم الثاني تكرر نفس الأمر. وفي اليوم الثالث حينما أجاب بنفس الجواب أمر رسول الله ﷺ أن يُفك قيده ويطلق سراحه. فكان أثر هذا الصنيع الذي لم يتوقعه ثمامة أن ذهب تحت شجرة واغتسل ثم عاد للمسجد وأعلن إسلامه. وقال: يا رسول الله ما كان أحد أبغض إلي منك في الدنيا والآن ما أحد أحب منك إلي في الدنيا. وما كان دين أبغض إلي من دينك والآن هو أحب الأديان إلي، ولم تكن هناك مدينة أبغض إلي من مدينتك ولكنها الآن أحب المدن إلي.

ليس ثمة داعٍ لتكرار الحديث عن ظلم وقسوة قريش، وربما نذكر كيف أن هؤلاء الظلمة قد حاصروا رسول الله ﷺ وأهله في شعب أبي طالب لمدة ثلاث سنوات. لدرجة أنه لم يصل الرسول ﷺ والمسلمين حبة قمح واحدة. فكان الأطفال يبكون ويتضورون، جوعا بينما القاسية قلوبهم يضحكون ويفرحون من سماع أصواتهم. ومعلوم كذلك ما

---

[١] ابن إسحاق. والإصابة، ذكر هبار.

[٢] صحيح البخاري وصحيح مسلم، فتح مكة مع فتح الباري.

صنعه رسول الله لهم مقابل هذا؟ فقد كانت الحبوب تأتي مكة من اليمامة وكان ثمامة بن آثال سيد اليمامة. فلما أسلم وذهب مكة لامته قريش على إسلامه فقال من غضبه: والله لن تحصلوا على حبة قمح واحدة إلا أن يأذن رسول الله ﷺ. فحدث في مكة بسبب هذه الحصار مجاعة. وفي النهاية اضطرت قريش للرجوع لذاك الباب الذي لم يُرد عنه أي سائل. فعطف رسول الله عليهم وأرسل رسالة لثمامة: أن فك عنهم الحصار، فبدأت الحبوب تصلهم كما كان معتاد.[١]

سلوكه مع الكفار والمشركين

وردت وقائع كثيرة عن حسن سلوك النبي ﷺ مع الكفار، ولكن يدعى المستشرقون أن هذه الوقائع لم تكن إلا في وقت كان فيه الإسلام ضعيفا. ولم يكن لها مبررا سوى المجاملة والمودة. لذا لن نذكر تحت هذا العنوان سوى هذه الوقائع التي وقعت في وقت كانت فيه قوى المخالفين قد خارت واكتملت فيه قوة وسيطرة رسول الله ﷺ.

يقول أبو بصرة الغفاري أنه حينما كان كافراً نزل ضيفاً على رسول الله بالمدينة، وشرب لبن كل أغنام البيت ليلاً. ولم يقل له رسول الله ﷺ شيئا وبات كل أهل بيت رسول الله جياعا. وهذه واقعة أخرى من هذا النوع يرويها أبو هريرة فيقول: حل كافر ضيفاً على رسول الله ﷺ فقدم له رسول الله ﷺ لبن شاة فشربه، فقدم له النبي لبن الشاة الثانية فشربه أيضاً، ثم لبن الثالثة فلبن الرابعة حتى أن رسول الله ﷺ حلب له سبع شياه فشرب لبنها جميعاً. ومع ذلك لم يظهر من رسول الله أي تكدر. وربما كان من أثر هذا الخلق الحسن أن أسلم الرجل صباحاً واكتفى بلبن شاة واحدة.[٢]

تقول السيدة أسماء رضي الله عنها أن أمها التي كانت مشركة وقت صلح الحديبية، جاءت المدينة تطلب المساعدة والعون، فلم تعرف أسماء كيف تتعامل معها وهي مشركة، فذهبت لرسول الله ﷺ وسألته، فقال لها النبي ﷺ: نعم صلي أمك.[٣] وكانت أم

---

[١] وردت واقعة ثمامة في صحيح البخاري، ص ٦٢٧، باب وفد بني حنيفة، ووردت آخر جملة منها في ابن هشام.

[٢] جامع الترمذي، باب إن المؤمن يأكل في معي واحد.

[٣] صحيح البخاري، باب صلة الوالد المشرك.(ورد أن النبي ﷺ قال لأسماء:" نعم صلى أمك").(ج٤، ص٧٥). (المترجم).

أبي هريرة كافرة، وكانت تعيش مع ابنها في المدينة، وكانت تسب النبي ﷺ عن جهل، ويقول أبو هريرة: إن رسول الله ﷺ دعا لها بدلاً من أن يغضب منها ويغتاظ.[(١)]

كانت نقود النبي ﷺ كلها مع بلال الذي يقوم بأعمال بيت الرسول ﷺ، فكانت النقود كلها معه. وفي حالة الإفلاس كان يقترض البضاعة من السوق وحين يأتيه المال يسدد ديونه. وذات مرة كان ذاهباً للسوق فرآه مشرك فقال له: إن كنت مقترضاً فاقترض مني . فقبل بلال. وذات يوم وقف بلال يؤذن فجاءه ذاك المشرك مع نفر من التجار وقال له: أيها العبد الحبشي! فرد بلال على سؤاله الأحمق بقوله: لبيك. فقال المشرك :هل من جديد؟ فقد تبقت أربعة أيام على موعد الدين وإن لم تؤد القرض لن أتركك إلا بعد أن ارتعي منك الغنم. فصلى بلال العشاء ثم ذهب لرسول الله وحكى له كل ما جرى، ثم قال: ليس معي أي شيء يا رسول الله. وغداً يأتي المشرك ويفضحني، لذا ائذن لي أن أخرج إلى أي مكان، ثم أعود حين يؤدى الدين. خلاصة القول أنه ذهب ونام ليلة بعد أن وضع أمتعة السفر من حقيبة ونعل وترس تحت رأسه، وفي الصباح نهض، وبينما هو يستعد للسفر جاءه شخص مهرولاً وقال له: رسول الله ﷺ يناديك. فذهب بلال فرأى أربعة جمال محملة بالحبوب واقفة على الباب. فقال له النبي ﷺ : أَبْشِرْ فَقَدْ جَاءَكَ الله تَعَالَى بِقَضَائِكَ، فذهب بلال إلى السوق وباع كل هذه الأشياء ثم عاد للمسجد النبوي بعد أن أدى دين المشرك وقال: قَدْ قَضَى الله تَعَالَى كُلَّ شَيْءٍ.[(٢)] وقد حدثت هذه الواقعة بعد فتح فدك في

---

(١) صحيح البخاري.

(٢) أبو داود، ج٢، باب قبول هدايا المشركين.وهذا نص الحديث كاملا: (٣٠٥٧) حدثنا أَبُو تَوْبَةَ الرَّبِيعُ بنُ نَافِعٍ أخبرنا مُعَاوِيَةُ يَعْنِي ابنَ سَلاَّمٍ عَنْ زَيْدٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَلاَّمٍ قَالَ حَدَّثَني عَبْدُ الله الْهَوْزَنِيُّ، قَالَ: « لَقِيتُ بِلاَلاً مُؤَذِّنَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم بِحَلَبَ، فَقُلْتُ يَابِلاَلُ حَدِّثْني كَيْفَ كَانَتْ نَفَقَةُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: مَا كَانَ لَهُ شَيْءٌ كُنْتُ أَنَا الَّذِي أَلِي ذَلكَ مِنْهُ مُنْذُ بَعَثَهُ الله تَعَالَى حَتَّى تُوُفِّيَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم، وكَانَ إذَا أَتَاهُ الإنْسَانُ مُسْلِماً فَرَآهُ عَارِياً يَأْمُرُنِي فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَقْرِضُ فَأَشْتَرِي لَهُ الْبُرْدَةَ فَأَكْسُوهُ وَأُطْعِمُهُ حَتَّى اعْتَرَضَنِي رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فقال: يَابِلاَلُ إنَّ عِنْدِي سَعَةً فَلاَ تَسْتَقْرِضْ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ مِنِّي، ففَعَلْتُ، فَلَمَّا أَنْ كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ تَوَضَّأْتُ ثُمَّ قُمْتُ لأُؤَذِّنَ بالصَّلاَةِ فَإذَا الْمُشْرِكُ قَدْ أَقْبَلَ في عِصَابَةٍ مِنَ التُّجَّارِ، فَلَمَّا أَنْ رَآنِي قال: يَاحَبَشِيُّ، قُلْتُ: يَالَبَّاهُ، فَتَجَهَّمَنِي وقَالَ لِي قَوْلاً غَلِيظاً وَقَالَ لِي: أَتَدْرِي كَمْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الشَّهْرِ؟ قال قُلْتُ: قَرِيبٌ، قَالَ: إنَّمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ أَرْبَعٌ فَآخُذُكَ بالَّذِي عَلَيْكَ فَأَرُدُّكَ تَرْعَى الْغَنَمَ كَمَا كُنْتَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَأَخَذَ في نَفْسِي مَا يُأْخُذُ في أَنْفُسِ النَّاسِ حَتَّى إذَا صَلَّيْتُ الْعَتَمَةَ رَجَعَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم إلَى أهْلِه، فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْه، فَأَذِنَ لِي، فقُلْتُ يَارَسُولَ الله بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي إنَّ الْمُشْرِكَ الَّذِي كُنْتُ أَتَدَيَّنُ مِنْهُ قالَ لِي كَذَا وكَذَا ولَيْسَ عِنْدَكَ مَا تَقْضِي عَنِّي وَلاَ عِنْدِي وَهُوَ فَاضِحِي فأْذَنْ لِي أَنْ آبِقَ إلَى بَعْضِ هؤُلاَءِ الأَحْيَاءِ الَّذِينَ قَدْ أَسْلَمُوا حَتَّى يَرْزُقَ الله تَعَالَى رَسُولَهُ صلى

السنة السابعة للهجرة. ومع أن بلال كان من المقربين لرسول الله ﷺ والمسئول عن أمور بيته، وناداه المشرك وقال له: أيها الحبشي لن أتركك إلا بعد أن ارتعي منك الأغنام. وأراد بلال الهرب خوفاً من ظلم اليهودي، وكان النبي ﷺ يسمع هذا الكلام. لكنه على الرغم من ذلك لم يتكلم في حق ذاك اليهودي ولو بلفظ واحد. وإذ كان النبي يدبر مخرجاً لبلال تأتي الحبوب فجأة ويؤدي دين المشرك. ويعفو عن سوء خلق وقسوة المشرك. فممن يصدر هذا الحلم والعفو سوى ممن بعثه الله رحمة الله للعالمين، محمد ﷺ؟

كانت قضية المنافقين أصعب قضية، إذ أنهم كانوا جماعة من الكفار برأسهم عبد الله بن أبي. وكانت المدينة بأسرها قد اتفقت في الفترة التي هاجر فيها رسول الله ﷺ للمدينة أن يكون عبد الله سيداً للمدينة كلها. وقد أعلن عبد الله إسلامه بعد غزوة بدر، لكنه كان ما يزال كافر القلب، وهكذا أسلم متبعوه ظاهرياً وكونوا جماعة من المنافقين، فكانت هذه الجماعة تدبر كل المكائد ضد الإسلام، وتتآمر مع قريش ومع بقية القبائل ويخبرونهم بخفايا وأسرار المسلمين. وكانوا على الرغم من ذلك يؤدون شعائر الإسلام، فكانوا يشتركون في الجمعة والجماعة والغزوات. ومع أن النبي ﷺ كان واقفاً بكل حالاتهم وأسماءهم؛ لكن لأن الشريعة وأحكام القانون لا تتعلق بأسرار القلب بل بظاهر الأعمال؛ لذا لم يصدر النبي ﷺ عليهم أحكام الكفر. وهذا فيما يتعلق بالشريعة والقانون، أما فيما يتعلق بسعة القلب والحلم والعفو فقد كان النبي ﷺ يتعامل معهم بأخلاق حسنة دائماً.

الله عليه وسلم مَا يَقْضِي عَنِّي، فَخَرَجْتُ حَتَّى إِذَا أَتَيْتُ مَنْزِلِي فَجَعَلْتُ سَيْفِي وَجِرَابِي وَنَعْلِي وَمِجَنِّي عِنْدَ رَأْسِي حَتَّى إِذَا انْشَقَّ عَمُودُ الصُّبْحِ الأَوَّلِ أَرَدْتُ أَنْ أَنْطَلِقَ فَإِذَا إِنْسَانٌ يَسْعَى يَدْعُو: يَابِلَالُ أَجِبْ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم. فَانْطَلَقْتُ حَتَّى أَتَيْتُهُ فَإِذَا أَرْبَعُ رَكَائِبَ مُنَاخَاتٍ عَلَيْهِنَّ أَحْمَالُهُنَّ، فَاسْتَأْذَنْتُ، فقال لِي رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: أَبْشِرْ فَقَدْ جَاءَكَ الله تَعَالَى بِقَضَائِكَ، ثُمَّ قال: أَلَمْ تَرَ الرَّكَائِبَ الْمُنَاخَاتِ الأَرْبَعِ؟ فَقُلْتُ: بلى، فقال: إِنَّ لَكَ رِقَابَهُنَّ وَمَا عَلَيْهِنَّ، فَإِنَّ عَلَيْهِنَّ كِسْوَةً وَطَعَاماً أَهْدَاهُنَّ إِلَيَّ عَظِيمُ فَدَكَ، فَاقْبِضْهُنَّ وَاقْضِ دَيْنَكَ، فَفَعَلْتُ. فَذَكَرَ الْحَدِيثَ. ثُمَّ انْطَلَقْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَإِذَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم قَاعِدٌ في الْمَسْجِدِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فقال: مَا فَعَلَ مَا قِبَلَكَ؟ قُلْتُ: قَدْ قَضَى الله تَعَالَى كُلَّ شَيْءٍ كَانَ عَلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ. قال: أَفَضَلَ شَيْءٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قال: انْظُرْ أَنْ تُرِيحَنِي مِنْهُ فَإِنِّي لَسْتُ بِدَاخِلٍ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِي حَتَّى تُرِيحَنِي مِنْهُ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم الْعَتَمَةَ دَعَانِي فقال: مَا فَعَلَ الَّذِي قِبَلَكَ؟ قال قُلْتُ: هُوَ مَعِي لَمْ يَأْتِنَا أَحَدٌ، فَبَاتَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم في الْمَسْجِدِ وَقَصَّ الْحَدِيثَ، حَتَّى إِذَا صَلَّى الْعَتَمَةَ ــ يَعْنِي مِنَ الْغَدِ ــ دَعَانِي قال: مَا فَعَلَ الَّذِي قِبَلَكَ؟ قال قُلْتُ: قَدْ أَرَاحَكَ الله مِنْهُ يَارَسُولَ الله، فَكَبَّرَ وَحَمِدَ الله شَفَقاً مِنْ أَنْ يُدْرِكَهُ الْمَوْتُ وَعِنْدَهُ ذَلِكَ، ثُمَّ اتَّبَعْتُهُ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَزْوَاجَهُ فَسَلَّمَ عَلَى امْرَأَةٍ امْرَأَةٍ حَتَّى أَتَى مَبِيتَهُ. فَهَذَا الَّذِي سَأَلْتَنِي عَنْهُ». (المترجم).

ذات مرة لطم أحد المهاجرين أنصارياً في إحدى الغزوات. فقال الأنصاري: يـا للأنصار؛ أي أنه استعان بالأنصار. وكذا استغاث المهاجر بالمهاجرين. وأوشك الفريقان أن يستلا سيوفهما، لكن النبي ﷺ قال: ما بالُ دعوَى جاهلية. فتوقف الفريقان. فلما سـمع عبد الله بن أبي ذلك قال: لَئِنْ رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. وقال رفاقه: الأمر هين سنكف عن مساعدة المهاجرين حتى يهلكوا بأنفسهم. لذا وردت هذه الواقعة في القرآن :

"هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا" (المنافقون:٧)

"يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل" (المنافقون:٨)

فأرسل رسول الله ﷺ يستدعى عبد الله بن أبي فسأله؟ فأنكر. وكان عمر موجوداً فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال رسول الله ﷺ: دعه لا يتحـدث الناس إن محمداً يقتل أصحابه.[1] وفي غزوة أحد ولى عبد الله بن أبي هو وثلاثـة مائـة رجل أدبارهم وقت وطيس المعركة. فلحقت بقوة المسلمين صدمة كبيرة من جراء ذلـك. لكن رسول الله ﷺ عفا عنهم (وحينما مات عبد الله بن أبي أعطاه العباس قميصه إحسـاناً عليه، وأعطاه النبي ﷺ قميصه وكفنه فيه رغم اعتراض المسلمين).[2]

سلوكه مع اليهود والنصارى

ليس هناك أي تمييز بين الكافر والمسلم، ولا بين الصديق والعدو، ولا بين القريبُ والبعيد في الأخلاق. ويشبه هذا تماماً هطول المطر على الصحارى والحدائق على السواء

---

[1] صحيح البخاري، تفسير سورة المنافقون.وهذا نص الحديث: (٤٧٨٥) حدَّثنا عليٌّ حدَّثنا سفيانُ قـال عمرو: سمعتُ جابر بن عبدِ الله رضي اللَّهُ عنهما قال: «كنَّا في غَزاة ــ قال سفيان مَرة في جيش ــ فكَسعَ رجلٌ مِن المهاجرينَ رجلاً منَ الأنصار، فقال الأنصاريُّ: يا لَلأنصار، وقال المهـاجريُّ: يـا لَلمهاجرين. فسمع ذاك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما بالُ دعوى جاهلية؟ قالوا: يا رَسـولَ الله كَسعَ رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: دَعُوهَا فإنها مُنْتِنَةٌ. فسمع بذلك عبدُ الله بن أُبيّ فقال: فعَلوها؟ أما والله لئن رَجَعْنا إلى المدينة ليُخرِجَن الأعزُّ منها الأذل. فبلغ النبيَّ صلى الله عليـه وسلم فقامَ عُمرُ فقال: يا رسولَ الله دَعني أضربْ عُنقَ هذا المنافق، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسـلم: دَعْهُ، لا يتحدَّثُ الناسُ أنَّ محمداً يقتلُ أصحابَه وكانت الأنصارُ أكثرَ منَ المهاجرين حينَ قَدموا المدينة، ثم إنَّ المهاجرين كثرُوا بَعْدُ». قال سفيانُ: «فحفظته من عَمرو، قال عَمرو: سمعتْ جابراً كنَّا مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم..».(المترجم).

[2] وردت هذه الواقعة في البخاري بطرق وروايات عديدة.(ورد أن ابنه عبد الله جاء إلى النبيﷺ وقال: أعطني قميصك أكفنه فيه وصل عليه واستغفر له، فأعطاه النبيﷺ قميصه)(ج١، ص٣٣٩.)(المترجم).

(والعداوة الشديدة التي كانت عند اليهود ضد رسول الله تشهد بها كل الوقائع حتى غزوة خيبر)، لكن النبي ﷺ ظل يقلدهم حتى فترة ما في الأمور التي لم يتنزل فيها حكم خاص.[١]

قال يهودي ذات مرة في مجمع من الناس: والذي فضل موسى على كل الأنبياء، وكان في الجمع صحابي يسمع كلامه فغضب وسأله: وهل فضله حتى على محمد ﷺ؟ فقال اليهودي: نعم. فغضب الصحابي ولطمه لطمة. ولكن لأن الأعداء أنفسهم كانوا يثقون في عدل وحسن خلق النبي ﷺ، لذا ذهب هذا اليهودي للنبي ﷺ مباشرة وقص عليه الواقعة. فاستدعى النبي ﷺ الصحابي وعنفه.[٢]

ذات مرة مرض ولد ليهودى فذهب النبي ﷺ لعيادته ودعاه إلى الإسلام. فنظر الطفل لوالده وكأنه يريد أن يعرف رأيه. فقال له أبوه: أطع أبا القاسم ﷺ فاسلم الطفل.[٣] وذات مرة مرت جنازة يهودي في الطريق فهب رسول الله ﷺ واقفاً.[٤]

مرة جاء نفر من اليهود رسول الله ﷺ وقالوا له بدلاً من السلام عليكم السام عليكم (أي عليكم الموت) فغضبت السيدة عائشة وأجابتهم إجابة قاسية أيضاً. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: مَهلاً يا عائشة، إن اللّه تعالى يحب الرفقَ في الأمرِ كلِّه.[٥] كان النبي ﷺ يلتزم العدل مع اليهود ويتحمل مطالبهم غير العادلة وشتائمهم. ولو حدث خلاف بين اليهود والمسلمين في المعاملات فلا يتحيز بلا حق للمسلمين. ووردت أمثلة كثيرة من مثل هذا الأمر تحت عناوين مختلفة. فذات مرة جاء يهودي واشتكى وقال: يا محمد انظر فقد لطمني مسلم. فاستدعى النبي ﷺ ذاك المسلم وزجره. وحينما قدم وفد النصارى المدينة من

---

[١] البخاري.

[٢] المرجع السابق.

[٣] صحيح البخاري، كتاب الجنائز.

[٤] صحيح مسلم، كتاب الأدب، جـ٢، ص ٢٣٩، طبعة مصر.

[٥] وهذا نص الحديث: (٦٢٤٨) ـــ حدَّثنا عبدُ اللّه بن محمد حدثنا هشامٌ أخبرنا مَعمرٌ عنِ الزهري عن عروةَ عن عائشة رضيَ اللّهُ عنها قالت: «كان اليهودُ يُسلِّمون على النبيِّ صلى الله عليه وسلم يقولون: السامُ عليكم. ففطِنت عائشة رضي اللّه عنها إلى قولهم فقالت: عليكمُ السامُ واللعنة. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: مَهلاً يا عائشة، إن اللّه تعالى يحب الرفقَ في الأمرِ كلِّه. فقالت: يا نبي اللّه أوَلمْ تَسمعْ ما يقولون؟ قال: أوَ لم تسمعي أني أردُّ ذلك عليهم فأقول: وعليكم». (المترجم).

نجران، قام النبي ﷺ على خدمتهم وأنزلهم المسجد النبوي، بل وأجاز لهم أن يصلوا على طريقتهم في المسجد. وحينما أراد المسلمون منعهم من ذلك اعترضهم الرسول ﷺ.[1]

وكان النبي ﷺ قد أجاز الأكل والشرب والزواج والعيش مع اليهود والنصارى. وكان يجري لهم أحكاماً خاصة بهم في الشريعة الإسلامية.

حب الرسول ﷺ وشفقته على الفقراء

كان من المسلمين الغني والفقير، لكن سلوك النبي ﷺ كان متساوياً مع الجميع، بل إنه كان يقابل الفقراء بطريقة لا تجعلهم يتأثرون بسبب حرمانهم من الثروة الدنيوية. وذات مرة صدر بطبيعة البشر من النبي ﷺ فعل مخالف لهذا. فقد حدث أن جاء النبي بعض أكابر قريش وهو في مكة. وكان النبي يدعوهم للإسلام. وفجأة جاء عبد الله بن أم مكتوم الأعمى الفقير، فدخل عليهم وجلس معهم وأخذ يتكلم مع رسول الله ﷺ، ولأن سادة قريش كانوا متكبرين مغرورين لذا غضبوا من المساواة بينهم وبين ابن أم مكتوم، لكن النبي ﷺ لم يهتم بأمر ابن أم مكتوم وظل يتكلم مع سادة قريش على أمل أنهم سيعتنقون الإسلام وتتعرف قلوبهم على لذته. لكن الله تعالى لم يرضه هذا التمييز وأنزل الآيات التالية: "عبس وتولى۞ أن جاءه الأعمى۞ وما يدريك لعله يزكى۞ أو يذكر فتنفعه الذكرى۞ أما من استغنى۞ فأنت له تصدى۞ وما عليك ألا يزكى۞ وأما من جاءك يسعى۞ وهو يخشى۞ فأنت عنه تلهى۞ كلا إنها تذكرة۞ فمن شاء ذكره۞". (عبس: ١-١٢)[2]

هكذا كان هؤلاء الفقراء والمفلسين أوائل الفدائيين في الإسلام. وكان النبي ﷺ يصحبهم ويصلي معهم في الحرم. وحينما يراهم سادة قريش يهزءون من شكلهم وفقرهم ويقولون كما ذكر القرآن: أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا"، لكن النبي ﷺ كان يقابل استهزاءهم بصدر رحب. وكان سعد بن أبي وقاص عالي الطبع يعتبر نفسه أعلى من الفقراء، فأعلمه النبي ﷺ بأن ما تيسر له من العزة والثروة هو بفضل هؤلاء الفقراء.[3] وأخبر ﷺ أسامة بن زيد بأنه ﷺ وقف على باب الجنة فرأي أن أكثر داخليها من الفقراء والمساكين.[4]

---

[1] زاد المعاد.

[2] الترمذي، تفسير سورة عبس.

[3] المشكاة، باب فضل الفقراء برواية صحيح مسلم.

[4] ذكر الاقتباس براوية البخاري ومسلم.

يروى عبد الله بن عمرو بن العاص: كنت ذات مرة جالساً في المسجد النبوي وفقراء المهاجرين جالسين في شكل حلقة في ناحية أخرى. فجاء النبي ﷺ في تلك الأثناء وجلس معهم، فلما رأيت ذلك قمت من مكاني وذهبت فجلست معهم. فأخبر النبي بأن فقراء المهاجرين سيدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين سنة. يقول عبد الله بن عمرو رأيت وجوه المهاجرين قد برقت بعد ما سمعوا هذه البشرى، وتحسرت أنا على أنني لست منهم.[1]

كان النبي ذات مرة جالساً في مجلس ومر عليه رجل، فسأل النبي ﷺ عنه شخصاً بجواره. فقال: إنه من الأمراء يا رسول الله وإنه لأهل إذا تقدم لزواج أن يُقبل، وإن شفع لأحد أن تُقبل شفاعته. فلما سمع النبي ﷺ هذا سكت. وبعد قليل مر رجل آخر في الطريق فسأل النبي ﷺ عنه، فقال له المسئول: يا رسول الله إنه رجل من فقراء المهاجرين يا رسول الله، وإنه إن تقدم لخطبة رُد، وإن شفع لأحد لا تُقبل شفاعته، ولو أراد قول شيء لا يُسمع منه. فأخبر النبي ﷺ بأنه لو أن أغنياء الدنيا جميعا مثل ذاك الغني، فإن هذا الفقير الواحد أفضل منهم جميعاً.[2]

كثيراً ما كان رسول الله ﷺ يدعو ويقول: اللهم أحييني مسكيناً وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين. فسألته السيدة عائشة وقالت: لماذا يا رسول الله؟ فأخبر النبي ﷺ بأنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء. ثم قال يا عائشة: لا تردي مسكيناً عن بابك حتى وإن لم يكن عندك إلا شق تمرة. يا عائشة أحبي المساكين وأدنيهم منك يُدنيكِ الله منه.[3]

ذات مرة جاء فقراء من المسلمين إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله هل سيفضلنا الأغنياء في الآخرة أيضاً؟ فهم يصلون ويصومون كما نصلي ونصوم. ولكنهم يثابون على الصدقات ونحن محرومون من ذلك. فقال النبي ﷺ : " ألا أحدثكم إن أخذتم أدرتم من سبقكم ولم يدرككم أحد بعدكم، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه إلا من عمل مثله ". فقالوا: بلى يا رسول الله. فقال النبي: تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثا وثلاثين". ولكن بعد بضعة أيام جاء نفر من الفقراء للنبي ﷺ وقالوا له: يا رسول الله

---

(1) نقلاً عن الدارمي.

(2) نقلاً عن صحيحي البخاري ومسلم.

(3) المشكاة، باب فضل الفقراء نقلاً عن الترمذي وابن ماجة.

لقد سمعنا الأغنياء وبدءوا يقولون كما نقول. فقال النبي ﷺ: **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**.[1] أما الزكاة التي كانت تؤخذ من المسلمين فقد قال فيها رسول الله ﷺ: **تؤخذ من أمرائهم وترد على فقرائهم**.

وكان الصحابة يلتزمون بذلك بشدة ولا يرسلون زكاة مكان لمكان آخر.[2]

وقد وردت هذه الواقعة تفصيلاً في الحديث عن المساواة. وهي أن أبا بكر ذات مرة اغضب سلمان وبلال رضى الله عنهما، واللذين يعدان من فقراء المهاجرين وذلك بسبب شيء ما، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: إنك ما أغضبت هؤلاء الناس؟[3] فلما سمع أبو بكر هذا ذهب إليهما وطلب منهما السماح والعفو فعفا عنه.

كانت هناك امرأة تعيش في عوالي، وقد مرضت لدرجة لم يكن هناك أي أمل في شفاءها، وكان يتوقع أن تموت في أي وقت من النهار، فأخبر النبي ﷺ الناس بأنه إذا ماتت هذه المرأة فسيصلي هو عليها صلاة الجنازة قبل أن تدفن. وتصادف أن توفيت المرأة ليلاً. وحينما أعدت الجنازة كان رسول الله ﷺ نائماً. فرأى الصحابة عدم إزعاجه في مثل هذا الوقت ودفنوا المرأة ليلاً. فلما أصبح رسول الله ﷺ سأل عنها فقال له الناس ما جرى. فلما سمع رسول الله ﷺ ذلك نهض واصطحب معه أصحابه ثم ذهب إلى قبرها وصلى عليها صلاة الجنازة مرة ثانية.[4]

يقول جرير: ذات يوم كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ في أول النهار، فجاءته قبيلة مسافرة. وكانت حالتها سيئة للغاية، فلم يكن على أجساد أهل تلك القبيلة أي رداء فكانت أجسامهم شبه عارية. وأقدامهم حافية ملفوفة أبدانهم بالجلد. معلقة سيوفهم في أعناقهم. فلما رأى النبي ﷺ حالتهم هذه تأثر تأثراً بالغاً حتى تغير لون وجهه الشريف. ومن كثرة اضطرابه دخل ثم خرج ثم طلب من بلال أن يؤذن للصلاة. وبعدها خطب في المسلمين، ودعاهم جميعاً إلى مساعدة هذه القبيلة بأسرها.[5]

---

(١) صحيح البخاري ومسلم، باب استحباب الذكر بعد الصلاة.

(٢) أبو داود، الزكاة.

(٣) يشير هنا إلى أن إغضابهما يغضبه ﷺ، (المترجم).

(٤) وردت هذه الواقعة في البخاري وغيره. ولكنها نقلت من سنن النسائي، كتاب الجنائز، باب الصلاة في الليل.

(٥) صحيح مسلم، باب الصدقات.

العفو عن الأعداء

لا نجد العدل والعفو والسماح عن الأعداء والمتآمرين إلا في صحيفة أخلاق الأنبياء. ففي الليلة التي هاجر فيها رسول الله ﷺ كان كفار قريش قد أجمعوا أمرهم على قتله صباحاً، ومن ثم حاصرت كتيبة منهم بيت رسول الله ﷺ ليلتها، ومع أن النبي ﷺ لم يكن يملك القوى المادية للانتقام منهم حينذاك، لكن جاء بعد ذلك وقت كانت رقبة كل واحد منهم خاضعة تحت سيف الإسلام، وكانت روح كل واحد منهم رهينة كرم وعطف النبي ﷺ، ولكن بالرغم من ذلك كان كل واحد منهم يعرف أن النبي ﷺ لن يقتل منهم أحد جراء ما ارتكبوه.

لقد قررت قريش يوم هجرة النبي ﷺ قيمة لرأس رسول الله ﷺ، وقالت: سيُعطي لمن يأتي بمحمد حياً أو ميتاً مائة ناقة. وكان سراقة بن جعشم أول شخص خرج راكباً فرسه ماسكاً رمحه بيده باحثاً عن رسول الله ﷺ حتى دنى منه. ولما رأى في النهاية إعجاز رسول الله ﷺ أقلع عن قصده، وطلب أن تعطى له وثيقة الأمان، فأعطى له سند الأمان.[1] وبعد ذلك بثمان سنوات دخل في الإسلام يوم فتح مكة ولم يسأل قط عن أي جرم ارتكبه.[2]

كان عمير بن وهب من أشد أعداء النبي ﷺ. فحينما هرعت قريش جميعها للانتقام لقتلى بدر استأجر صفوان بن أمية عميرًا ووعده بجائزة كبرى، وأرسله إلى المدينة كي يتخفى ويقتل ــ نعوذ بالله ــ النبي ﷺ، فغمس عمير سيفه في السم ثم ذهب إلى المدينة، ولكن الناس هناك عرفوه بمجرد أن رأوا نظراته، وأراد عمر رضي الله عنه قتله لكن رسول الله ﷺ منعه من ذلك، ثم أجلسه بجانبه وتكلم معه حتى عرف منه سبب مجيئه، فاعترى عمير الخوف، لكن رسول الله لم يأذِه ولم يتعرض له. فلما رأى عمير ذلك أسلم وعاد ينشر الإسلام في مكة. حدث ذلك سنة ٣ هـ.[3] وذات مرة كان رسول الله ﷺ عائداً من غزوة، وفي الطريق كانت هناك مزرعة استراح الجند تحت الأشجار بسبب الحر الشديد. وكذلك نام النبي ﷺ تحت شجرة بعد أن علق سيفه في فرع الشجرة، وكان الكفار يتربصون بالمكان، فلما رأوا الناس قد ناموا خرج أعرابي من إحدى النواحي ونزع سيف رسول

---

(١) صحيح البخاري، باب البخرة.

(٢) انظر في حال سراقة بن مالك بن جشعم المديحي في الاستعاب والإصابة وغيرهم.

(٣) تاريخ الطبري، برواية عروة بن زهر

الله. فتيقظ رسول الله فجأة ورأى الأعرابي واقفا على رأسه والسيف مسلول في يده. فلما رأى الأعرابي أن النبي ﷺ قد تيقظ قال له: يا محمد من يعصمك مني، فقال النبـي: الله. فلما سمع الرجل صوت النبي المؤثر أغمد السيف. وفي أثناء هذا جاء الصحابة، فقص النبي عليهم القصة ولم يؤذ الأعرابي.[١]

• ذات مرة أراد رجل قتل رسول الله ﷺ. فقبض الصحابة عليه وذهبوا به إلى رسول الله ﷺ. فلما رأى الرجل النبي ﷺ خاف فهدأه النبيﷺ وأخبره ﷺ بأنه إن كان يريد قتله ﷺ ما كان ليستطيع.[٢]

نزلت كتيبة مكونة من ثمانين رجلاً متخفين على جبل التنعيم إبّان صلح الحديبية، وأرادوا قتل رسول الله ﷺ خفية. وتصادف أن تم القبض عليهم، ولكن النبـي ﷺ أطلق سراحهم ولم يؤذهم. وقد نزلت الآية الكريمة هذه بهذه المناسبة:[٣]

"وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم" (الفتح:٢٤).

وفي خيبر دست يهودية السم لرسول الله في الطعام. فلما أكل رسول الله ﷺ شعر بتأثير السم. فاستدعى اليهودية وسألها، فأقرت بفعلتها، لكن النبي ﷺ لم يصنع لها شيئاً. ولكن حينما توفى أحد الصحابة بتأثير السم، اقتص الرسول من اليهودية فقط. (على الرغم من أنه ﷺ ظل متأثراً بالسم حتى الوفاة).[٤]

الدعاء للأعداء

الدعاء على الأعداء شيء فطري في الإنسان، لكن الأنبياء أسمى من هذا بمراحل، فهم يدعون بالخير لمن يسبونهم ويحسنون لمن يريدون قتلهم، فقبل الهجرة كان الظلم والجور متواصلاً على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين، ونحتاج لقسوة قلب حتى نستطيع تكرار هذه المظالم. وفي تلك الفترة قال الصحابي خباب بن الأرت: يا رسول الله

---

[١] صحيح البخاري، كتاب الجهاد، ص ٢٠٨.

[٢] ابن حنبل، جـ ٣، ص ٤٧١.

[٣] الترمذي، تفسير الفتح.

[٤] البخاري، وفاة النبي ﷺ.(ورد عن عائشة أن النبيﷺ تُوفي وهو ابن ثلاث وستين). (ج٢، ص٤٠١). (المترجم).

ﷺ ألا تدعوا الله؟ فلما سمع النبي هذا غضب وأحمر وجهه.[١] ومرة طلب بعض الصحابة من رسول الله ﷺ هذا فأخبرهم النبي بأنه أرسل رحمة للعالمين.[٢]

وهاهي قريش التي حاصرت رسول الله ﷺ ثلاث سنوات ومنعت وصول حبة قمح واحدة إليه ﷺ. قد دعا لها النبي ﷺ متناسياً كل ما صدر منها. فحينما ألم القحط بمكة وأخذ الناس يأكلون العظام والميتة ذهب أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ وقال لـــه: أي محمـــد إن قومك قد هلكوا، فادع الله أن يكشف عنهم، فدعا لهم النبي ﷺ في الحال فنجاهم الله تعالى من هذا البلاء.[٣]

في غزوة أحد ألقي الأعداء بالحجارة على النبي ﷺ وأمطروا عليـــه وابـــلاً مـــن السهام والسيوف، وحاربوه وكسروا رباعيته، ولطخوا جبينه بالدم. وكان كل ما فعله النبي ﷺ لوقف هذا أن دعا لهم وقال: **اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون.**

وتلك هي الطائف التي قابلت دعوة النبي ﷺ للإســـلام بالســـخرية والاســـتهزاء، ورفضت إيواء النبي ﷺ، وأسالت الدم من قدمه الشريفة حتى جاءه ﷺ جبريل وقال له: أن أردت لطبقت عليهم الأخشبين. فقال النبي ﷺ له: بل أرجو أن يخرج الله عز وجـــل مـــن أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئا.[٤] وهاهي الطائف نفسها تستجيب لدعوة النبي ﷺ لها للإسلام بعد عشر أو اثنتي عشرة سنة بالسيف حتى أن الجثث كانـــت تتساقط فوق بعضها وقال الصحابة: يا رسول الله ادع عليهم دعاء سوء. فرفع النبـــي ﷺ يده وأخذ يدعو الله، واعتقد المسلمون أن النبي ﷺ يدعو عليهم بالسوء؛ ولكنـــه ﷺ كـــان يقول: اللهم اهد ثقيف (أهل الطائف للإسلام) وأت بهم. فكان هذا الدعاء بمثابة السهم الذي لم يصب في المعركة، لكنه أصاب الهدف حينما جاء أهل الطائف المسجد النبوي ونزلوا على رسول الله ﷺ ضيوفاً وأعلنوا إسلامهم.[٥]

كانت قبيلة دوس تعيش في اليمن. وكان سيدها الطفيل بن عمرو قد أسلم منذ فترة وظل يدعو قبيلته للإسلام لفترة طويلة، لكن قومه كانوا يصرون على كفـــرهم. فـــذهب الطفيل إلى رسول الله ﷺ وأخبره عن حال قبيلته وطلب منهﷺ أن يدعو عليهم دعاء سوء.

---

[١] صحيح البخاري، مبعث النبي ﷺ.
[٢] المشكاة، أخلاق النبي نقلاً عن صحيح مسلم.
[٣] صحيح البخاري، تفسير سورة الدخان، جـ٢.
[٤] صحيح البخاري.
[٥] ابن سعد، غزوة الطائف.

فلما سمعه الناس قالوا: لا ريب في هلاك دوس عاجلاً. لكن النبي ﷺ دعا وقال [١]: **اللهم اهد دوساً وأت بهم.**

كانت أم أبى هريرة مشركة. وبقدر ما كان أبو هريرة يدعوها للإسلام كانت تنكر. وذات يوم دعاها أبو هريرة للإسلام فأخطأت في حق رسول الله ﷺ. فصدم أبو هريرة لدرجة أنه أخذ يبكي وذهب لرسول الله ﷺ وهو في هذه الحالة وقص عليه ما حدث. فدعا رسول الله ﷺ وقال: اللهم اهد أم أبي هريرة فعاد أبو هريرة لبيته فرحاً. وحينما وصل البيت رأى بابه مغلقاً ووالدته تغتسل. فلما فرغت من الغسل فتحت الباب ونطقت بالشهادة.[٢]

كانت لعبد الله بن أبي ابن سلول- ذاك الرجل الذي عاش عمره كله منافقاً ولم يضع فرصة تفوته في التآمر على رسول الله ﷺ والاستخفاف به وإهانته علانية ــ صلات بقريش عن طريق الرسائل، وكان قد ترك المسلمين في غزوة أحد مع بعض أصحابه، وكان أول من اتهم السيدة عائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك. ولكن بالرغم من كل هذا ظل رسول الله ﷺ يسامحه ويعفو عن جرائمه. وحينما مات صلى رسول الله ﷺ عليه. فقال عمر: يا رسول الله أ تصلي عليه مع أنه قال كذا وكذا. فتبسم رسول الله ﷺ وقال: أخر عني ياعمر. فلما ألح عمر قال له رسول الله ﷺ: إني خيرت فاخترت لو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها.[٣]

الشفقة بالأطفال

كان رسول الله ﷺ يشفق إشفاقاً كبيراً على الأطفال. إذ كان من عادته ﷺ حين يعود من السفر أن يُجلس على راحلته أمامه أو خلفه أي طفل من الأطفال الذين يلقاهم في الطريق، كما كان يلقي السلام على الأطفال في الطريق.[٤]

---

[١] صحيح مسلم، مناقب دوس.

[٢] صحيح مسلم، فضائل أبي هريرة. (ورد أنها فتحت الباب وقالت: يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله). (مسلم، ج١٦، ص٥٢). (المترجم).

[٣] صحيح البخاري، كتاب الجنائز.

[٤] أبو داود، كتاب الأدب. (عن أنس قال: أتى رسول الله على غلمان يلعبون فسلم عليهم). (أبو داود، ج٢، ص٦٤٢). (المترجم). كما ورد فى صحيح مسلم: (٥٩٧٩) حدثنا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ وَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نُمَيْرٍ (وَاللَّفْظُ لِزُهَيْرٍ) قَالاَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ (وَهُوَ ابْنُ عُلَيَّةَ) عَنْ أَيُّوبَ عَنْ عَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، . قَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَداً كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللّـه . قَالَ: كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَرْضِعاً لَهُ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ. فَكَانَ يَنْطَلِقُ وَنَحْنُ مَعَهُ. فَيَدْخُلُ الْبَيْتَ وَإِنَّهُ لَيُدَّخَنُ. وَكَانَ ظِئْرُهُ قَيْناً.

ومرة جاءه خالد بن سعيد مع ابنته الصغيرة، والتي كانت ترتدي ثوباً أحمراً. فقال لها النبي ﷺ: سَنَاه سَنَاه ؛ وَسَنَاه في كَلَامِ الْحَبَشَةِ الْحَسَنُ. ولأن البنت كانت قد ولدت في الحبشة لذا كلمها النبي ﷺ بالحبشية. وكان ختم النبوة الذي كان على كتف رسول الله ﷺ بارزاً. ولأن الأطفال معتادين على أن يلعبوا في أي شيء غريب؛ لذا أخذت البنت تلعب في ختم النبوة. فزجرها أبوها خالد. لكن رسول الله ﷺ منعه وقال له: دعها.[1]

مرة أرسل للنبي ﷺ قماش فيه رداء أسود في طرفيه شريطان. فقال النبي ﷺ للحضور مَنْ تَرَوْنَ أَحَقَّ بِهَذِهِ، فَسَكَتَ الْقَوْمُ، فقال: ائْتُونِي بِأُمِّ خَالِدٍ.[2] فلما جاءت ألبسها النبي ﷺ إياه وقال لها " أَبْلِي وَأَخْلِقِي مَرَّتَيْنِ " ثم أراها الشريطين اللذين كانا فيه، وَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى عَلَمٍ فِي الْخَمِيصَةِ أَحْمَرَ أَوْ أَصْفَرَ وَيَقُولُ: سَنَاه سَنَاه يَا أُمَّ خَالِدٍ، وَسَنَاه فِي كَلَامِ الْحَبَشَةِ الْحَسَنُ».[3] وكما قلنا أن أم خالد كانت قد ولدت في الحبشة وعاشت هناك بضع شهور لذا خاطبها النبي ﷺ باللغة الحبشية.[4]

يقول أحد الصحابة: كنت في طفولتي أذهب لمزارع نخل الأنصار وأرمي النخل بالحجارة، فجاء بي الناس لرسول الله ﷺ، فقال ﷺ: يا غلام، لمَ ترمي النخل؟ فقلت: لآكل التمر يا رسول الله. فقال النبي: فلا ترم النخل وكل مما يسقط في أسفلها. وبعدها مسح بيده على رأسي ودعا لي.[5]

فَيَأْخُذُهُ فَيُقَبِّلُهُ. ثُمَّ يَرْجِعُ. قَالَ عَمْرٌو: فَلَمَّا تُوُفِّيَ إِبْرَاهِيمُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِي. وَإِنَّهُ مَاتَ فِي الثَّدْيِ، وَإِنَّ لَهُ لَظِئْرَيْنِ تُكَمِّلَانِ رَضَاعَهُ فِي الْجَنَّةِ».(المترجم).

(1) البخاري، جـ ٢، ص ٨٨٦.

(2) ورد في الإصابة أنها كانت صغيرة لدرجة أن الناس كانوا يحملونها في حجورهم ويحضورنها. (الإصابة: ترجمة أم خالد رضي الله عنها).

(3) وهذا نص الحديث: (٤٠٢٣) حدثنا إِسْحَاقُ بنُ الْجَرَّاحِ الأَذَنِيُّ أخبرنا أَبُو النَّضْرِ أخبرنا إِسْحَاقُ بنُ سَعِيدٍ عن أَبِيهِ عن أُمِّ خَالِدٍ بِنْتِ خَالِدِ بنِ سَعِيدِ بنِ الْعَاصِ، : «أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم أُتِيَ بِكِسْوَةٍ فِيهَا خَمِيصَةٌ صَغِيرَةٌ، فقال مَنْ تَرَوْنَ أَحَقَّ بِهَذِهِ، فَسَكَتَ الْقَوْمُ، فقال: ائْتُونِي بِأُمِّ خَالِدٍ، فَأُتِيَ بِهَا فَأَلْبَسَهَا إِيَّاهَا ثُمَّ قال: أَبْلِي وَأَخْلِقِي مَرَّتَيْنِ، وَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى عَلَمٍ فِي الْخَمِيصَةِ أَحْمَرَ أَوْ أَصْفَرَ وَيَقُولُ: سَنَاه سَنَاه يَا أُمَّ خَالِدٍ، وَسَنَاه فِي كَلَامِ الْحَبَشَةِ الْحَسَنُ». (المترجم).

(4) ورد في البخاري، كتاب اللباس أن سنة في الحبشية تعني الحسن والجمال.

(5) أبو داود، كتاب الجهاد.(ورد أن النبي ﷺ دعا له وقال:" اللهم أشبع بطنه") (أبو داود، ج٢، ص٣٨.). (المترجم).

وكان النبي ﷺ يتأثر كثيراً من وقائع حب الأم لأولادها، فذات مرة جاءت امرأة فقيرة للغاية إلى السيدة عائشة ومعها طفلتان صغيرتان، ولم يكن عند السيدة عائشة أي شيء في ذلك الوقت سوى تمرة واحدة ملقاة على الأرض، فأخذتها وأعطتها تلك المرأة، فقسمتها شقين وأعطت كل طفلة شق. فلما عاد النبي من الخارج حكت له السيدة عائشة ما حدث فأخبر النبي ﷺ بأن من يلق الله في قلبه حب أولاده ويؤدي حقوقهم ينجو من جهنم.[١]

يقول أنس: كان رسول الله ﷺ يقول: إني لأقوم في الصلاة أريد أن أُطيل فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه.[٢]

لم تكن محبة وشفقة النبي للأطفال قاصرة على أطفال المسلمين فحسب؛ بل كان يشفق ويحب أولاد المشركين أيضاً، ففي غزوة مات بعض الأطفال، فلما علم النبي بهذا حزن حزناً شديداً. فقال رجل: يا رسول الله إنهم أولاد مشركين. فأخبره النبي ﷺ بأن أطفال المشركين أفضل منه. ونهى عن قتل الأطفال، وقال: كل مولود يُولد على الفطْرة.[٣]

كان النبي ﷺ معتادا إذا جاءته فاكهة الموسم الجديد أن يعطي أول ما يعطى الأطفال الصغار.[٤] وكان يقبل الأطفال ويحبهم. ذات مرة كان ﷺ يقبل الأطفال فجاء أعرابي وقال: أتقبل الأطفال وأنا عندي عشرة أطفال لم أقبل أحدهم حتى الآن. فقال النبي: «إِنَّهُ مَنْ لاَ يَرْحَمْ لاَ يُرْحَمْ»..[٥]

يحكي الصحابي جابر بن سمرة حادثة وقعت في صباه، وهي أنه كان يصلى خلف النبي ﷺ، وبعد الانتهاء من الصلاة أخذ النبي ﷺ يسير نحو بيته، ثم خرج علينا بعض الأطفال الآخرين فقبلهم رسول الله ﷺ جميعاً ثم قبلني.[٦]

---

[١] صحيح البخاري، ص ٨٤.

[٢] البخاري، كتاب الصلاة.

[٣] مسند ابن حنبل، جـ٣، ص ٤٣٥.

[٤] المعجم الصغير، للطبرانى، باب الميم محمد.

[٥] صحيح البخاري ومسلم، كتاب الأدب. وهذا نص الحديث كما ورد فى مسلم، كتاب الفضائل: (٥٩٨١) وحدثني عَمْرٌو النَّاقِدُ وَ ابْنُ أَبِي عُمَرَ. جَمِيعاً عَنْ سُفْيَانَ. قَالَ عَمْرٌو : حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ أَبْصَرَ النَّبِيَّ يُقَبِّلُ الْحَسَنَ. فَقَالَ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ وَاحِداً مِنْهُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «إِنَّهُ مَنْ لاَ يَرْحَمْ لاَ يُرْحَمْ». (المترجم).

[٦] صحيح مسلم، باب طيب رائحة النبي ﷺ.

حين دخل النبي ﷺ المدينة وهو مهاجر من مكة إليها، خرجت بنات الأنصار الصغيرات من خلف الأبواب تغنين فرحاً برسول الله ﷺ. فلما مر عليهن رسول الله ﷺ فسألهم هل يحبونه؟ قلن جميعاً نعم يا رسول الله. فأخبرهم ﷺ بأنه يحبهم أيضا.[١]

كانت السيدة عائشة قد تزوجت النبي ﷺ وهي لا تزال صبية، فكانت تلعب مع بنات الحي. وحينما كان رسول الله يعود للبيت تختبئ البنات منه. فكان ﷺ يلاطفهن ويدعوهن للعب.[٢]

الرفق بالعبيد

كان رسول الله ﷺ يرفق رفقاً خاصاً بالعبيد. وكان يقول: إنهم إخوانكم فأطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون. وكان النبي ﷺ دائماً يعتق العبيد الخاصين به. لكنهم لم يكونوا يتحررون من كرم وإحسان النبي ﷺ. بل كانوا يتركون آباءهم وأمهاتهم وقبائلهم وأقاربهم ويعيشون كل حياتهم خدماً لرسول الله ﷺ. وقد اعتق رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وجاء والده ليأخذه لكنه ضحى بعاطفة الأبوة في سبيل وسول الله ورفض الذهاب مع والده. لذا كان رسول الله يحب ابنه أسامة ويقول: لو كان أسامة بنتاً لألبسته حُلي. وكان ﷺ ينظف له أنفه بيده الشريفة.

كان رسول الله ﷺ يشعر بالمهانة عند سماع كلمة عبد، وكان يتأذى من ذلك؛ لذا قال: لا يقل أحدكم عبدي ولا أمتي؛ ولكن ليقل غلامي أو جاريتي. ولا يقل العبد لسيده مولاي، فإن المولى هو الله؛ ولكن ليقل سيدي. وكان النبي ﷺ يعطف على العبيد لدرجة أن آخر وصية أوصاها في مرض الموت كانت: "اتقوا الله في العبيد".

كان أبو ذر من السابقين للإسلام، وكان رسول الله ﷺ يمدح صدقه، لكنه ذات مرة شتم عبداً عجمياً، فذهب العبد واشتكاه لرسول الله ﷺ. فزجره رسول الله وقال: يا أبا ذر، إنك امرؤ فيك جاهلية، إنهم إخوانكم، فضلكم الله عليهم، فمن لم يلائمكم فبيعوه ولا تعذبوا خلق الله، وأطعمه مما تأكل وأكسه مما تلبس، ولا تكلفه ما لا يطيق، وإن كلفته ما يغلبه فساعده أيضاً.[٣]

---

[١] السيرة، جـ١، الهجرة.

[٢] أبو داود، كتاب الأدب، باب اللعب. (عن عائشة: كنت ألعب بالبنات فربما دخل عليّ رسول الله وعندي الجواري، فإذا دخل خرجن، وإذا خرج دخلن). (ج٢، ص٥٨٠). (المترجم).

[٣] البخاري، باب المعاصي من أمر الجاهلية. وأبو داود، كتاب الأدب.

وذات مرة كان أبو مسعود الأنصاري يضرب عبده، فسمع صوتاً من الخلف يقول : اعلم أبا مسعود لله أقدر عليك منك عليه. فالتفت أبو مسعود ونظر فرأى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، لقد أعتقته لوجه الله. قال النبي ﷺ : أما إنك لو لم تفعل لمستك النار.

جاء رجل للنبي ﷺ وقال يا رسول الله: كم مرة أعفو عن العبيد؟ فسكت رسول الله. فكرر الرجل سؤاله فسكت رسول الله أيضاً. فلما كرر الرجل سؤاله ثالثة قال النبي ﷺ: اعفوا عنه فى كل يوم سبعين مرة.

في حياة رسول الله ﷺ كانت هناك أسرة مكونة من سبعة أفراد تملك جارية واحدة، وذات مرة رمى أحد أفراد تلك الأسرة الجارية بحجر. فلما علم رسول الله ﷺ قال: اعتقوها. فقال له أفراد الأسرة: يا رسول الله نحن سبعةٌ وليس لنا خادم غيرها. فقال النبي ﷺ: فلتخدمهم حتى يستغنوا، فإذا استغنوا فليعتقوها.[1]

مرة كان لرجل عبدان، وكان يشتكي منهما ويضربهما ويسبهما. ولكنهما لم يتأثران. فذهب الرجل لرسول الله ﷺ واشتكاهما. وسأل النبي ﷺ عن طريقة لتقويمهما. فأخبره النبي ﷺ بأنه لو كان عقابه على قدر تقصيرهم لكان خيرا. وإلا سيعاقبه الله بما زاد من عقابه لهما. فلما سمع الرجل هذا خاف وأخذ يبكي. فقال النبي ﷺ: أما قرأ قول الله تعالى: "**ونضع الموازين القسط ... الخ**" فلما سمع الرجل هذا قال: يا رسول الله الأفضل لي أن أبعدهما عني وأشهدك أني قد عتقتهما.[2] وكان الناس يزوجون العبيد ويطلقونهم رغماً عنهم حيثما أرادوا هم. فقد زوج رجل عبداً له أمة، ثم أراد تطليقهما. فاشتكى العبد لرسول الله ﷺ فصعد رسول الله المنبر وخطب خطبة قال فيها«يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَا بَالُ أَحَدِكُمْ يُزَوِّجُ عَبْدَهُ أَمَتَهُ ثُمَّ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا؟ إِنَّمَا الطَّلَاقُ لِمَنْ أَخَذَ بِالسَّاقِ». [3]

---

[1] وردت هذه الأحداث كلها في أبى داود، كتاب الأدب، باب حق المملوك. (وردت هكذا في أبي داود، ج٢، ص٦٣٤ "فلتخدمهم حتى يستغنوا، فإذا استغنوا فليعتقوها"). (المترجم).

[2] مسند ابن حنبل، جـ٢، ص ٢٨٠.

[3] سنن ابن ماجة، كتاب الطلاق. وهذا نص الحديث: (٢١٣٩) ـــ حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى. حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُكَيْرٍ. حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعَةَ، عَنْ مُوسَى بْنِ أَيُّوبَ الْغَافِقِيِّ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ
قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ سَيِّدِي زَوَّجَنِي أَمَتَهُ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا، قَالَ، فَصَعِدَ رَسُولُ اللَّهِ الْمِنْبَرَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَا بَالُ أَحَدِكُمْ يُزَوِّجُ عَبْدَهُ أَمَتَهُ ثُمَّ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا؟ إِنَّمَا الطَّلَاقُ لِمَنْ أَخَذَ بِالسَّاقِ». (المترجم).

كان من أثر شفقة ورحمة النبي ﷺ بالعبيد أن كان عبيد الكفار يفرون هرباً لرسول الله ﷺ. فكان رسول الله يعتقهم.[1] فقد كان رسول الله ﷺ يدخر جزءاً من المال عند تقسيم الغنائم ليعتق منه العبيد.[2] وكان يعطي العبيد حديثي العتق من بيت المال لأنهم لم لا يملكون شيئاً.

معاملته ﷺ للنساء

لأن الصنف الضعيف (النساء) دائماً مهان في الحياة، لذا لا يُذكر عند الحديث عن حالات أي شخصية مشهورة سلوكه مع هذا الصنف الضعيف. والإسلام هو أول دين أعز المرأة وكرمها وأعطاها مكانة تساوي مكانة الرجال في العزة والاحترام. لذا نريد أن نلقي الضوء هنا على هذا الجانب في حياة النبي ﷺ وكيف كان يتعامل مع النساء.

نقل في الروايات التي وردت في صحيح البخاري عن إيلاء (انفصال الرسول ﷺ لبضعة أيام عن نساءه) النبي ﷺ هذا القول لعمر: كنا في مكة لا نهتم بالنساء إطلاقاً. أما في المدينة فكانت النساء تحترم إلى حد ما، ولكن ليس بالقدر الكاف، لكن النبي ﷺ أرسى لهن حقوقهن من خلال تعليماته وإرشاداته، ووضح تعامله هو ﷺ معهن تلك الحقوق. ولقد وردت حالات زوجات النبي ﷺ في فصول مستقلة، أما هنا فنحن نكتب عن الأحداث العامة.

لأن جموع الرجال كانوا دائماً عند رسول الله ﷺ. لذا لم تكن هناك فرصة للنساء ليستمعن لوعظ وإرشاد النبي ﷺ وسؤاله. لذا طلبن أن يكون لهن يوماً خاصاً بهن. فخصص النبي لهن يوماً خاصاً بهن.[3]

وكانت السيدة أسماء بنت عميس من اللائى هاجرن إلى الحبشة في بداية الإسلام. وأثناء فتح خيبر قدم المهاجرون من الحبشة إلى المدينة. فجاءت هي معهم. وذات يوم ذهبت للقاء السيدة حفصة رضي الله عنها. وتصادف أن كان عمر موجوداً عندها حينذاك. فلما رآها قال لحفصة: من هذه؟ فأخبرته حفصة عن اسمها فقال عمر: الحبشية هذه

---

[1] أبو داود، كتاب الجهاد. ومسند ابن حنبل، جـ١، ص ٢٤٣.

[2] أبو داود، باب قسمة الفئ.(عن عبد الله بن عمر: رأيت رسول الله أول ما جاءه شيء بدأ بالمحررين). (أبو داود، ج٢، ص١٢٣). (المترجم).

[3] صحيح البخاري، كتاب العلم، هل تجعل للنساء يوماً على حدة... الخ.(قالت النساء للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك فوعدهن يوما لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن). (البخاري، ج١، ص٧١). (المترجم).

البحرية هذه. فقالت أسماء بنت عميس: نعم أنا. فقال عمر: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم. فغضبت أسماء وقالت: كلا والله كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم وكنا في دار أو في أرض البعداء البغضاء بالحبشة ونحن كنا نؤذى ونخاف. وفي أثناء الحديث جاء رسول الله ﷺ. فقالت له أسماء: يا رسول الله يقول عمر رضي الله عنه كذا وكذا. فقال النبي ﷺ : فما قلتِ له. فقالت للنبي ﷺ ما قالته لعمر، فقال النبي ﷺ :ليس بأحق بي منكم وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان. فذاع ما قاله رسول الله ﷺ فكان مهاجرو الحبشة يذهبون أفواجاً وجماعات لبيت أسماء ليسمعوا منها مراراً ما قاله رسول الله ﷺ لها. تقول السيدة أسماء: ما من الدنيا شيء هم أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبيﷺ.[1]

كانت خالة أنس ـ خادم النبي ﷺ ـ تسمى بأم حرام (وكانت هي أيضاً خالة النبي ﷺ في الرضاع) كانت معتادة حين يذهب رسول الله ﷺ إلى قباء أن تذهب إليه وتقدم له الطعام، فيأكل رسول الله ﷺ ثم ينام فتقوم هي بإخراج القمل من شعره.[2]

كان رسول الله ﷺ يحب أم سليم والدة أنس كثيرا، وكثيراً ما كان يتردد على بيتها. فكانت تفرش لرسول الله ﷺ فينام وحين يقوم تجمع عرقه في زجاجة، وحين موتها أوصت أن يخلط هذا العرق مع الحنوط في الكفن.

ذات مرة دعت والدة أنس رسول الله ﷺ إلى طعام؛ فطهت الطعام وأكل رسول الله ﷺ ثم قال: قوموا كي أصلي لكم. ولم يكن في البيت سوى حصيرة واحدة؛ كانت قد اسودت من شدة قدمها، لذا غسلها أنس ثم فرشها. فأمهم رسول الله ﷺ واصطفَّ خلفه أنس وجدته و(غلام) يتيم. فصلى رسول الله ﷺ ركعتين ثم عاد.[3]

كانت السيدة أسماء أخت السيدة عائشة من الأب متزوجة من الزبير، قدمت المدينة ولم يكن عند الزبير حينذاك سوى فرس. فكانت السيدة أسماء تحضر له الحشيش بنفسها من الصحراء، وتطهي لزوجها الطعام في البيت. وتحضر نوى البلح للفرس من تلك الأرض التي أعطاها رسول الله ﷺ للزبير، والتي تبعد عن المدينة مسافة ميلين. وذات يوم كانت أسماء عائدة بعد أن أحضرت النوى، فرآها رسول الله ﷺ وكان راكباً

[1] صحيح البخاري، غزوة خيبر.

[2] البخاري، كتاب الجهاد، ص ٣٩١.

[3] البخاري، باب الصلاة على الحصير.

على راحلة؛ فأقعد الراحلة وأراد أن يُركب أسماء. لكنها استحيت. فلم يقل لها النبي ﷺ شيئاً حينما رأى استحياءها، وتركها وسبق. تقول السيدة أسماء أرسل إليَّ أبو بكر بعد ذلك بخادم يكفيني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني.[١]

ذات مرة كان بعض النساء ذوات القربى جالسات يتحدثن مع رسول الله ﷺ، فلما دخل عمر قمن جميعا. فضحك رسول الله ﷺ. فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله. قال: عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب. فقال لهن عمر: يا عدوات أنفسهن، أتهبنني ولا تهبن رسول الله، فقلن جميعاً: نعم أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ.[٢]

وذات مرة غطى رسول الله ﷺ وجهه ثم نام في بيت السيدة عائشة، وكان ذاك اليوم يوم العيد. وكانت الجواري تغنين وتضربن الدف. فدخل أبو بكر من الخارج فزجرهن. فقال له النبي ﷺ: دعهن يا أبا بكر فإنها أيام عيد[٣]

كانت النسوة تستفسر من رسول الله بجرأة عن بعض المسائل. وكان الصحابة يتعجبون من جرأتهن، لكن رسول الله ﷺ لم يكن يظهر لهن استياءه. ولأن النساء عامة تكون رقيقة الطبع وضعيفة القلب؛ لذا كان رسول الله ﷺ يراعى اللين معهن. وكان أنجشة عبداً حبشياً يحدو؛ أي يتقدم الجمال ويغني لها حاثاً إياها على المشي. ومرة كانت أمهات المؤمنين في سفر وكان انجشة يحدو. فأخذت الجمال تجري فقال رسول الله ﷺ له: رفقاً بالقوارير يا أنجشة.

الرفق بالحيوان

كان رسول الله ﷺ غاية في الرفق بالحيوان, فقد أنهى كل الظلم الذي كان ينصب على الدواب منذ زمن بعيد. فمنع رسول الله ﷺ القلادة التي كانت تعلق في رقبة

---

[١] البخاري، ص٧٨٦، كتاب النكاح.

[٢] صحيح البخاري، مناقب عمر بن الخطاب.

[٣] مسلم، كتاب العيدين. وهذا نص الحديث: ٤٧٩ حَدِيثُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ أَبُو بَكْرٍ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ مِنْ جَوَارِي الأَنْصَارِ تُغَنِّيَانِ بِمَا تَقَاوَلَتْ بِهِ الأَنْصَارُ يَوْمَ بُعَاثَ قَالَتْ وَلَيْسَتَا بِمُغَنِّيَتَيْنِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَبِمَزْمُورِ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ عِيدٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا وَهَذَا عِيدُنَا .(المترجم).

الجمال.[1] (ومنع القطع من لحم الحيوان الحي وطهيه، وحرم قطع أذناب ومعارف الحيوانات فقال: إن أذناها مذابها ومعارفها دفاؤهم. ومنع أيضاً ربط الحيوانات وتركها واقفة في الحظيرة لفترة طويلة ونهي عن جعل ظهورها مقاعد وأرائك. كما حرم أيضاً عقد مباريات مصارعة بين الحيوانات. ومن العادات القاسية أيضاً أنهم كانوا يربطون الحيوانات ويجعلونها هدفاً يجربون عليه رمايتهم. وهذا أيضاً نهى عنه رسول الله ﷺ).

ذات مرة رأى رسول الله ﷺ في الطريق حماراً مكوي الناصية، فقال: من كوى ناصيته لعنه الله. وكان يتحتم أيضاً كي الجمال والغنم كي لا تضل. فحدد رسول الله ﷺ الأعضاء القوية لتلك العملية. يقول أنس: ذهبت مرة لحظيرة الغنم فرأيت رسول الله ﷺ يَسِمُ آذنها.[2]

ذات مرة كان رسول الله ﷺ ذاهبًا في سفر، فنزل هو ومن معه منزلاً وضع فيه طائر بيضه، فأخذ شخص البيضة، فاضطرب الطائر وظل يخفق بأجنحته. فسأل النبي ﷺ عمن أخذ بيضته وآذاه؟ فقال رجل: أنا يا رسول الله. فأمره النبي ﷺ أن يعيدها مكانها.[3]

جاء رجل للنبي ﷺ وفي يده رداء يختبئ فيه صغار طائر. فسأله النبي ﷺ عنهم. فقال: سمعت صوت يأتي من شجرة. فذهبت ونظرت وإذ بتلك الصغار فأخذتهم. فلما رأت أمهم ذلك أخذت تحلق فوق رأسي. فأمره النبي بأن يرجع ويعيدهم مكانهم.[4]

كان رسول الله ﷺ ماشياً ذات مرة في طريق، فرأى جملاً بدت بطنه وظهره كأنهما شيء واحد من شدة الجوع، فقال النبي ﷺ: اتقوا الله في البهائم.[5]

وذات مرة ذهب رسول الله ﷺ إلى حديقة أحد الأنصار فوقع نظره على جمل جائع. فلما رأى رسول الله الجمل يتضور مسح عليه بيده الشريفة، ثم سأل الناس عن

---

[1] صحيح مسلم، باب اللباس والزينة (روى عن بشير الأنصاري أنه قال: قال رسول الله: لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة ألا قطعت). (مسلم، ج١٤، ص٩٥). (المترجم).

[2] وردت هذه الأحاديث في الترمذي وأبي داود وغيرهما.

[3] الأدب المفرد، الإمام البخاري، باب رحمة البهائم.

[4] المشكاة نقلاً عن أبي داود باب رحمة الله.

[5] أبو داود، كتاب الجهاد. (وهذا نص الحديث: "اتقوا الله في هذا البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة"). (ص٢٢). (المترجم).

صاحبه فقالوا: إنه لأحد الأنصار. فقال له النبي ﷺ: أفلا تتقى الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها.[1]

رحمة النبي ﷺ

بُعث النبي ﷺ رحمة للعالمين، ومع أن السيد المسيح قال إنني "أمير السلام"، لكن لا توجد مأثرة واحدة لحكومته الأخلاقية تؤيد ذلك؛[2] في حين أن الله تعالى خاطب ملك السلام محمد ﷺ فقال له: "**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**".

لقد قرأنا آلاف الأحداث عن حلم وعفو وتسامح وصفح رسول الله ﷺ. ورأينا أن العدو والصديق والكافر والمسلم والعجوز والشاب والمرأة والرجل والسيد والعبد والإنسان والحيوان كانوا جميعا على السواء متمتعين برحمة النبي ﷺ. فذات مرة طلب رجل من رسول الله ﷺ أن يدعو بالسوء على شخص ما، فغضب النبي ﷺ وأخبر بأنه ما بعث إلى الدنيا لعاناً.[3] وإنما بعث رحمة؛ لذا خاطب النبي ﷺ الدنيا كلها وقال:[4] "**لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً**" وقال في حديث آخر: "**أحبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما**"[5] ويقول في حديث آخر رواه أنس بن مالك: "**لا يؤمن أحدكم حتى يحب للناس ما يحب لنفسه. وحتى يحب المرء لا يحبه إلا الله عز وجل.**" (مسند أحمد جـ٣ ص ٢٧٢).

ذات مرة ذهب رجل للمسجد النبوي ثم دعا وقال: اللهم اغفر لي ولمحمد. فقال النبي ﷺ: **لقد ضيق رحمة الله.**[6] وفي رواية أخرى أن أعرابيا جاء المسجد النبوي وصلى خلف النبي ﷺ، وبعد الصلاة ركب راحلته وقال: اللهم ارحمني ومحمد ﷺ ولا تشرك معنا أحد.

---

[1] المرجع السابق.

[2] ـ يشير المؤلف هنا إلى أن المسيحيين أضاعوا أو حرفوا كتابهم السماوي، ولم يتمسكوا بما جاء فيه. (المترجم).

[3] الزرقاني، جـ٩، ص ٢٨٩.

[4] صحيح البخاري، باب الهجرة، ص ٨٩٧.

[5] جامع الترمذي، باب الزهد بسند غريب.

[6] صحيح البخاري، كتاب الأدب، وربما تكون الواقعتان واقعة واحدة.(وردت في البخاري هكذا "لقد حجرت واسعاً"). (البخاري، ج٤، ص٨٢). (المترجم).

فقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: أَتَقُولُونَ هُوَ أَضَلُّ أَمْ بَعِيرُه، أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى ما قَالَ: قَالُوا: بَلَى»[١].يعني أن النبي ﷺ كره هذا النوع من الدعاء.

رقة القلب

كان رسول الله ﷺ غاية في رقة القلب والرحمة. يقول مالك بن حويرث الذي كان أحَد أعضاء وفد زار النبي ﷺ ورافقه لمدة عشرين يوما: كان رسول الله ﷺ رحيماً رقيقا.[٢] كان أحد أطفال السيدة زينب يحتضر، فأرسلت للنبي ﷺ وأقسمت عليه أن يحضر، فجاء النبي ﷺ رغماً عنه وكان معه سعد بن عباده ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت رضى الله عنهم، فجاء الناس بالطفل بين أيديهم وأعطوه لرسول الله ﷺ وهو يلتقط أنفاسه الأخيرة. فلما رآه رسول الله أخذ يبكي. فتعجب سعد وقال: ما هذا يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ: لا يرحم الله من عباده إلا الرحماء.[٣] وحينما عاد النبي ﷺ للمدينة بعد غزوة أحد كانت بيوت الشهداء تعج بالمآتم. وكانت النسوة تنوح على شهدائهن. فلما رأى النبي ﷺ هذا رق قلبه وقال: أما حمزة (عم رسول الله ﷺ) فلا بواكي له.[٤]

كان أحد الصحابة ذات مرة يحكي إحدى قصصه في الجاهلية ويقول: كانت لي بنت صغيرة، ولأن وأد البنات كان عادة عند العرب، لذلك دفنت ابنتي حية أنا أيضاً في التراب، وكانت تصرخ وتقول وأنا أسدل التراب عليها أبتاه أبتاه فلما سمع النبي ﷺ هذه

---

[١] وهذا نص الحديث: (٤٨٨١) ـــ حدثنا عَلِيُّ بنُ نَصْرٍ أخبرنا عَبْدُ الصَّمَدِ بنُ عَبْدِ الْوَارِثِ مِنْ كِتَابِهِ قال حدَّثني أَبِي قال أخبرنا الْجُرَيْرِيُّ عن أبي عَبْدِ الله الْجُشَمِيِّ قال أخبرنا جُنْدُبٌ، قال: « جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فأَنَاخَ رَاحِلَتَهُ ثُمَّ عقَلَهَا ثُمَّ دَخَلَ المَسْجِدَ فَصَلَّى رَسُولِ الله صلى الله عليه وَسلم، فَلَمَّا سَلَّمَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أَتَى رَاحِلَتَهُ فأَطْلَقَهَا ثُمَّ رَكِبَ ثُمَّ نَادَى: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّداً وَلا تُشْرِكْ فِي رَحْمَتِنَا أَحَداً، فقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: أَتَقُولُونَ هُوَ أَضَلُّ أَمْ بَعِيرُه، أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى مَا قَالَ: قَالُوا: بَلَى». (المترجم).

[٢] المرجع السابق.

[٣] صحيح البخاري، باب المرضى، ص ٨٢٢. (وهذا قول النبي ﷺ كما ورد في البخاري، ج٤، ص٦." هذه رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عباده ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء"). (المترجم).

[٤] سيرت النبي، ج١، أحد.

القصة المؤثرة سالت الدموع من عينيه، وطلب من الصحابي أن يكرر هذه القصة. فكررها الصحابي ثانية فأخذ رسول الله ﷺ يبكي ويبكي حتى ابتلت لحيته ﷺ.[1]

في غزوة بدر أُسر العباس فقيَّد الناس يديه ورجليه. فكان يتأوه من الألم. وكان رسول الله يسمع صوت تأوه. ولكنه لم يفك يديه حتى لا يقول الناس إن محمدًا لا يعدل على أقرباءه. ولكنه أيضاً لم يأته النوم فكان يتقلب من الاضطراب، فلما فهم الناس سبب اضطراب النبي ﷺ أرخوا قيود العباس فسكت فنام النبي.

كان الصحابي مصعب بن عمير صحابيًا ينعم برفاهية قبل الإسلام. وكان والداه يلبسانه ملابس غالية باهية، فلما أسلم ورأى أهله أنه ترك دين آباءه، تبدلت محبتهم له إلى عداوة. وذات مرة دخل على رسول الله ﷺ لابساً بدل الحرير ثوباً لا يخلو جزء منه من الرقع، فلما رأى النبي ﷺ ذلك بكى:[2]

عيادة المريض والتعزية والمواساة

كان رسول الله ﷺ لا يفرق في عيادته للمريض بين عدو وصديق، ولا بين كافر ومؤمن (فقد ورد في سنن النسائي في باب التكبير على الجنازة هذا القول: **كان أحسن شيء للنبي ﷺ عيادة المريض**. وروى (في البخاري وأبي داود وغيرهما) أن رسول الله ﷺ عاد طفلاً يهودياً في مرضه الأخير.[3]

حينما مرض عبد الله بن ثابت وذهب النبي ﷺ لعيادته أُغمى عليه. فنادوا عليه؛ ولكنه لم يفق. فقال النبي ﷺ: غُلبنا عليك يا أبا ربيع. فلما سمع النسوة ذلك أخذن يصرخن ويبكين، فمنعهن الناس. فقال النبي ﷺ: دعهن فإذا وجب فلا تبكين باكية. فقالت ابنة عبد الله بن ثابت: والله إن كنت لأرجو أن تكون شهيداً فإنك قد كنت قضيت جهازك. فقال النبي ﷺ: إن الله قد أوقع أجره على قدر نيته.[4]

ولما مرض جابر، كان النبي ﷺ يذهب مترجلاً لعيادته رغم بعد بيته.[5] فمرة مرض فاصطحب الرسول أبا بكر وذهب لعيادته، وحين أُغشى عليه، طلب النبي ﷺ الماء

---

[1] مسند الدارمي، ص١.

[2] الترغيب والترهيب، جـ٢، ص ٢٤٧، نقلاً عن الترمذي ومسند أبي يعلى.

[3] صحيح البخاري، باب عيادة المشرك.

[4] أبو داود، باب الجنائز.

[5] المرجع السابق.(يروى جابر ويقول: كان رسول الله يعودني ليس براكب بغل ولا برذون)(أبو داود، ج٢، ص ١٦٤). (المترجم).

وتوضأ ثم رش ما تبقى من الماء على وجهه فأفاق وقال: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله. فنزلت الآية الكريمة يوصيكم الله في أولادكم.[١] ومرض أحد الصحابة فعاده النبي ﷺ أكثر من مرة، فلما توفى دفنه الناس دون أن يخبروا رسول الله ﷺ. لأن الليل كانَ قد دخل فلم يريدوا إزعاج النبيﷺ. وحين علم بهذا في الصباح اشتكى النبي ﷺ من صنيعهم هذا ثم ذهب وصلى صلاة الجنازة على قبره.[٢]

استشهد عبد الله بن عمرو في غزوة أحد، وقطع الكفار يديه وقدميه، وأُحضر جسده أمام رسول الله وقد غطى برداء، فلما جاء ابنه جابر، أراد من شدة حبه لأبيه أن يكشف الرداء ويرى والده؛ لكن الحضور منعوه من هذا. فمد يده ثانية فمنعه الناس أيضاً. فأمر رسول الله ﷺ عطفاً ورفقاً بحاله أن يرفع الرداء. فلما رفع الرداء، أطلقت أخته صرخة دون إرادة منها. فقال النبي ﷺ: فلم تبك، فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رُفع.[٣]

ذهب رسول الله ﷺ مرة لعيادة سعد بن عبادة وهو مريض، فلما رآه ﷺ رق قلبه وبكى ﷺ. فلما رأى الناس رسول الله ﷺ يبكي بكوا.[٤]

مات حبشي كان يقوم بكنس المسجد،[٥] ولم يخبر الناس رسول الله ﷺ بوفاته. وذات يوم سأل رسول الله ﷺ عنه فقال الناس: لقد مات يا رسول الله. فقال النبي ﷺ: أفلا آذنتموني ؟ لكن الناس استصغروه (قالوا إنه لا يستحق أن تخبر بوفاته يا رسول الله) فسأل رسول الله الناس عن قبره ثم ذهب وصلى عليه صلاة الجنازة.[٦]

---

[١] صحيح البخاري، جـ٢، ص ٦٥٨، تفسير الآية المذكورة.

[٢] البخاري، كتاب الجنائز.(عن أبي هريرة: أن أسود رجلاً أو امرأة كان يقُمُّ المسجد فمات ولم يعلم النبي بموته فذكره ذات يوم فقال:"ما فعل ذلك الإنسان؟" قالوا: مات يا رسول الله. قال:" أفلا آذنتموني". فقالوا: إنه كذا وكذا قصته. قال فحقروا شأنه قال: فدلوني على قبره" فأتى قبره فصلى عليه.(البخاري، ج١، ص٣٥٤). (المترجم).

[٣] البخاري، كتاب الجنائز، ص ١٧٢.

[٤] المرجع السابق، ص ١٧٤. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري، ج١، ص٣٤٨. عن عبد الله بن عمر قال: اشتكى سعد بن عبادة شكوى له فأتاه النبي يعوده مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود فلما دخل عليه فوجده في غاشية أهله، فقال: "قد قضى" قالوا: لا يا رسول الله، فبكى النبيﷺ فلما رأى القوم بكاء النبي بكوا). (المترجم).

[٥] وقد شكك راوي رواية أبي هريرة في البخاري باب الصلاة على القبر، في كون الميت رجلاً أم امرأة. لكن ورد في روايات أخرى بالتحقيق أنها كانت امرأة، وكان اسمها أم محجن.

[٦] البخاري، ص ١٢٨، كتاب الجنائز.

كان رسول الله ﷺ يقف حين تمر جنازة. فقد روى في البخاري أن رسول الله ﷺ قال: إذا رأيتم الجنازة فقوموا حتى تخلفكم.[١] ومع أن رسول الله ﷺ كان رقيق القلب ليناً، وكان يصدم بوفاة أحباءه خاصة؛ لكنه لم يكن يحب العويل ولا النواح. فمع أنه كان يحب جعفر (أخا علي) لكن حينما سمع خبر شهادته وجلس في مجلس عزاءه، جاءه شخص وقال: يا رسول الله إن النسوة يبكين فقال ﷺ: اذهب وامنعهن. فذهب الرجل ثم عاد وقال: لم يمتنعن يا رسول الله. فأرسله النبي ﷺ ثانية لمنعهن فعاد الرجل ثانية وقال: لم يمتنعن يا رسول الله. فلما أراد منعهن ثلاث مرات ولم يمتنعن قال رسول الله ﷺ: فأحث في أفواههن التراب.[٢]

مزاحه ﷺ

كان رسول الله ﷺ يمزح أحياناً، فمرة نادى على أنس وقال له: يا صاحب الأذنين[٣] وفي ذلك إشارة إلى أن أنس كان مطيعاً، وكان يصغي لرسول الله دائماً. وكان شقيق أنس الأصغر يدعى أبو عمير، ولأنه كان صغير السن؛ لذا كان معتاداً على أن يضع طائر النغير فوق رأسه، فلما مات الطائر حزن عليه أبو عمير كثيراً. فلما رآه رسول الله ﷺ حزيناً قال له: **يا أبا عمير ما فعل النغير.**

وجاء شخص النبي ﷺ وقال: يا رسول الله: أعطني جملاً. فأخبره النبي ﷺ بأنه سيعطيه ولد الناقة. فقال الرجل: يا رسول الله ماذا أصنع بولد الناقة؟ فأخبره النبي ﷺ بأن ما من بعير إلا وأمه بعير. وجاءت عجوز للنبي ﷺ وقالت: يا رسول الله أدع الله لي أن يدخلني الجنة. فقال النبي ﷺ: إن العجائز لا يدخلون الجنة. فغضبت المرأة وعادت باكية. فقال النبي ﷺ لصحابته: إذهبوا وقولوا لها إن العجائز ستدخل الجنة بعد أن يرد إليها شبابها.[٤]

كان هناك صحابي أعرابي يدعى زاهر، كان يرسل أشياء البادية تحفاً لرسول الله ﷺ، وذات يوم قدم المدينة وكان يبيع في السوق أشياء أحضرها من البادية، وتصادف أن مر رسول الله فأمسك به من الخلف فقال الرجل: من؟ اتركني. فلما التفت رأى رسول الله

---

[١] البخاري، ص ١٧٥.
[٢] كتاب الجنائز، باب الصبر عند المصيبة.
[٣] شمائل الترمذي.
[٤] المرجع السابق.

ﷺ. وكان ظهره مواجهًا لصدر النبي ﷺ. فقال النبي ﷺ: من يشتري هـذا العبـد. فقـال الرجل: سيخسر من يشتري غلاماً مثلي. فأخبره النبي ﷺ بأن قيمته عند الله غالية.[١]

ذات مرة جاء رجل وقال: يا رسول الله، أخي يشتكي بطنه. فقال النبـي: اسـقه عسلاً، فعاد الرجل ثانية لرسول الله ﷺ وقال: سقيته يا رسول الله ولكن الألم لم يزل. فقال النبي ﷺ: اسقه عسلاً، وبعد المرة الثالثة حينما عاد الرجل وقال نفس الكلام قال النبـي: صدق الله (إن في العسل شفاء) وكذب بطن أخيك. اسقه عسلاً. فسقاه فبـرأ.[٢] إذ كانـت المادة الفاسدة متركزة في المعدة بكثرة فحينما زالت زال الألم.

حب الأولاد

كان رسول الله ﷺ يحب أولاده حباً جماً. وكان معتاداً حين يخرج إلى سـفر أن يذهب بعد زيارته للجميع إلى السيدة فاطمة فيودعها، ثم يلتقي بها قبل الجميع بعد عودته من السفر. في ذات مرة ذهب في غزوة. وأثناء غيابه ألبست السيدة فاطمة كل واحد من ولديها (الحسن والحسين) إسورة فضية وعلقت على الباب ستارة. فلما عاد النبي لم يذهب إليها خلافاً لعادته. ففهمت السيدة فاطمة سبب ذلك ومزقت الستارة ونزعت الأساور مـن أيدي ولديها. فلما جاء أولادها يبكيان لرسـول الله ﷺ، أرسـل رسـول الله الإسـورتين الفضيتين إلى السوق ليُحضر بدلهما اسورتين من العظم.

حينما كانت السيدة فاطمة تذهب لرسول الله، كان رسول الله يقف لها ويقبل جبينها ويجلسها مكانه، يقول أبو قتادة ﵁: كنا في المسجد النبوي فدخل رسول الله وأمامه رضي الله عنها (حفيدة رسول الله) راكبة على كتفه، وكان رسول الله يصلي وهو في حالته هذه. وحينما كان يركع ينزلها، وحينما يقف يرفعها. وهكذا أتم رسول الله ﷺ صلاته.[٣]

ويقول أنس ما رأيت أحداً يحب أهله بقدر ما كان رسول الله ﷺيحب أهله. وكان ابنه إبراهيم يحتضن في العوالي التي تبعد عن المدينة مسافة ثلاثة أو أربعة أميال. فكان

---

[١] المرجع السابق.

[٢] صحيح البخاري، ص ٤٨، باب الدواء بالعسل. وهذا نص الحديث: ١٢٧٨ حَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ إِنَّ أَخِي اسْتَطْلَقَ بَطْنُهُ فَقَالَ رَسُـولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْقِه عَسَلاً فَسَقَاهُ ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ إِنِّي سَقَيْتُهُ عَسَلاً فَلَمْ يَزِدْهُ إِلا اسْتِطْلَاقًا فَقَالَ لَـهُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ جَاءَ الرَّابِعَةَ فَقَالَ اسْقِه عَسَلا فَقَالَ لَقَدْ سَقَيْتُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ إِلا اسْتِطْلَاقًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ فَسَقَاهُ فَبَرَأَ .(المترجم).

[٣] النسائي، ص ١٢٠، باب إدخال الصبيان في المساجد. كما ورد هذا الحديث أيضاً في البخاري.

رسول الله ﷺ يذهب من المدينة مترجلاً ليراه، وكان البيت مليئاً بالدخان على الدوام. فحينما كان رسول الله ﷺ يذهب، كان يأخذ ابنه من يد الحاضنة ويقبله ثم يعود للمدينة.[1]

ومرة جاء الأقرع بن حابس أحد سادة العرب لرسول الله ﷺ وهو يقبل الحسين فقال: يا رسول الله عندي عشرة من الولد ما قبلت أحدهم قط. فقال النبي ﷺ: «إِنَّهُ مَنْ لاَ يَرْحَمْ لاَ يُرْحَمْ». (يعني لا يرحمه الله).

كان رسول الله ﷺ يحب الحسنين كثيراً ويقول إنهما ريحانتاي، وحينما كان يذهب لبيت السيدة فاطمة يقول لها: أحضري أولادي فتحضرهما فيقبلهما رسول الله ﷺ ويضمهما لصدره الشريف.

ذات مرة كان رسول الله يخطب في المسجد، فدخل الحسن والحسين فجأة وهما مرتديان ملابس حمراء وتهتز خطواتهما بسبب صغر سنهما، فلما رآه النبي ﷺ لم يستطيع الانتظار، فنزل من على المنبر وحملهما في حجره وأجلسهما أمامه ثم قال صدق الله تعالى إذ يقول: "إنما أموالكم وأولادكم فتنة". وكان النبي ﷺ يقول: أنا من حسين وحسين مني، أحب الله من أحب حسيناً.

ذات مرة كان الإمام الحسن أو الإمام الحسين راكباً على رسول الله ﷺ فقال قائل: ما أحلى الراحلة. فقال له النبي ﷺ: وما أحلى الراكب هو الآخر.[2]

وذات مرة كان الحسن أو الحسين (لا يذكر الراوي بالضبط) يضع قدمه فوق قدم رسول الله ﷺ ويقف، فقال له النبي ﷺ: اصعد. فوضع قدمه على صدر النبي. فقبله النبي ﷺ ثم قال: اللهم إني أحبه فأحبه.[3]

وذات مرة كان رسول الله ﷺ ذاهبا إلى دعوة، وكان الإمام الحسين يلعب في الطريق، فاقترب منه رسول الله ومد يده، فكان الحسين يضحك ويقترب من يد النبي ثم يجري، وفي النهاية أمسك به النبي ﷺ ووضع إحدى يديه على ذقنه والأخرى على رأسه، وضمه لصدره ثم قال: حسين مني وأنا من حسين.[4]

---

(١) صحيح مسلم، جـ٢، ص ٢٩١.

(٢) وردت كل هذه الروايات في شمائل الترمذي. وكتب الترمذي في شأن راوي الحديث الأخير أن بعض أهل العلم قالوا إنه كان ضعيف الذاكرة.

(٣) الأدب المفرد، البخاري، ص ٥١.

(٤) المرجع السابق، ص ٧٣.

كثيراً ما كان رسول الله ﷺ يُجلس الإمام الحسين في حجره، ويضع فمه على فمه ويقول: اللهم إني أحبه فأحبه وأحبب من يحبه.

حينما أُسر صهر رسول الله ﷺ ؛ زوج السيدة زينب في غزوة بدر ولم يستطيع دفع الفدية، أرسل رسالة للسيدة زينب فخلعت عقداً كان في رقبتها وأرسلته له. وكان هذا العقد قد أعطته السيدة خديجة رضي الله عنها للسيدة زينب في جهازها. فلما رأى النبي ﷺ العقد اضطرب وسالت الدموع من عينيه، ثم اقترح على أصحابه رد العقد للسيدة زينب فوافق الجميع.

كان رسول الله ﷺ يحب حفيدته أمامة ابنة السيدة زينب كثيرا. وكان يأخذها معه حين يذهب للصلاة، فكان حين يصلي يصعدها فوق ظهره، وينزلها من على كتفه حين يركع، ثم يرفعها حين يقوم. ويتضح من الروايات أن رسول الله كان ينزلها ويصدعها بنفسه. لكن ابن القيم قال: إن هذا العمل كثير. وربما كانت أمامة تركب بنفسها ورسول الله ﷺ لم يكن يمنعها.

كانت إحدى حفيدات النبي ﷺ في حالة النزع فأرسلت أمها لرسول الله ﷺ، فلما جاء رسول الله ﷺ وضعها الناس في حجره، فلما رآها رسول الله ﷺ في تلك الحالة سالت الدموع من عينيه، فقال له سعد: ما هذا الذي تفعله يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ: هذه رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عباده.[١]

حين توفى إبراهيم قال رسول الله "إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا".[٢] ولم تكن محبة النبي ﷺ للعيال قاصرة على عياله فقط؛ بل كانت شاملة كل الأطفال.

---

[١] البخاري، كتاب المرض، ص ٨٤٤.(وهذا نص الحديث: "هذه رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عباده ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء). (المترجم).

[٢] البخاري، كتاب الجنائز، ص ١٤٤.(وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: "إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون". (المترجم).

حياته ﷺ مع أزواجه أمهات المؤمنين رضي الله عنهن

السيدة خديجة رضي الله عنها

هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، تلتقي في نسـبها عند قصي مع رسول الله ﷺ، وكانت تلقب بالطاهرة قبل بعثة النبي ﷺ. أمها هي فاطمة بنت زاهدة. وكان والدها من سادة قبيلته، جاء مكة وسكن فيها وحالف بني عبد الدار[١] وتزوج بفاطمة بنت زاهدة من عائلة عامر بن لؤي، وأنجب منها السيدة خديجة. في البداية تزوجت السيدة خديجة من أبي هالة بن زراه التميمي وأنجبت منه ولدين هند[٢] والحارث. وبعد وفاة أبي هالة تزوجت من عتيق بن عايذ المخزومي وأنجبت منه بنتاً كان اسمها هند أيضاً. لذا كانت تنادي بأم هند. وقد قبل هند الإسلام وهو الذي نقلت عنه رواية حلية النبي ﷺ. حيث أنه كان فصيحاً بليغاً، اشترك مع علي ﷺ في موقعة الجمل واستشهد.[٣] وبعد وفاة عتيق تزوجت السيدة خديجة برسول الله ﷺ. وقد مر ذكر ذلك تفصيلاً، وكان للنبي ﷺ منها ستة أولاد ولدين توفيا في الصغر، وأربعة بنات هن السيدة فاطمة الزهراء، والسيدة زينب، والسيدة رقية، والسيدة أم كلثوم. وسيرد ذكر أحوالهن فيما بعد. وكان للسيدة خديجة أخت اسمها هالة أيضاً، وقد أسلمت وظلت على قيد الحياة بعد وفاة السيدة خديجة.

كان رسول الله ﷺ يحب السيدة خديجة حباً جماً، وكان عمرها حين تزوجها رسول الله ﷺ أربعين عاماً، وعمر النبي ﷺ خمس وعشرون سنة. عاشت مع النبي ﷺ بعد النكاح خمسة وعشرون عاماً، ولم يتزوج النبي ﷺ من أخرى طيلة حياتها. وبعد وفاتها كان رسول الله ﷺ معتاداً على ذبح أي حيوان بالبيت، وأن يبحث عن صديقاتها ويرسل إليهن لحماً، لذا تقول السيدة عائشة: مع أنني ما رأيت السيدة خديجة لكنى ما غرت من زوجة

---

[١] طبقات ابن سعد، ذكر خديجة، كتاب النساء.
[٢] طبقات ابن سعد.
[٣] الإصابة، ذكر هند.

أخرى أكثر منها، لأن رسول الله ﷺ كان دائم الذكر لها. وفي ذات مرة أغضبت رسول الله ﷺ بسببها فقال النبي ﷺ: إني قد رقت حبها.[١]

وذات مرة بعد وفاتها جاءت أختها هالة للقاء النبي ﷺ. فطلبت الإذن في الدخول كما هو متعارف عليه، ولأن صوتها كان قريب من صوت السيدة خديجة؛ لذا تذكر النبي ﷺ السيدة خديجة حين سمع صوتها، فنهض مسرعاً وقال: اللهم هالة بنت خويلد. وكانت السيدة عائشة موجودة حينذاك فغارت وقالت: يا رسول الله تذكر عجوزاً ماتت وقد أبدلك الله بزوجات أجمل منها. وردت هذه الرواية كما هي كهذا في صحيح البخاري أما في الاستيعاب زاد عليها أن رسول الله ﷺ قال لها: أبداً والله، لقد صدقتني حين كذبني الناس، وآمنت بي حين كفر الناس، وأعانتني حين تخلى عني الناس.

السيدة سودة بنت زمعة رضي الله عنها

حصلت السيدة سودة من بين كل أزواج النبي ﷺ على شرف السبق بالزواج من النبي ﷺ بعد وفاة السيدة خديجة. وكانت قد شرفت بالإسلام في بداية البعثة. فحصلت أيضاً على شرف السبق في الإسلام. تزوجت في البداية من سكران بن عمرو. فكانت السيدة سودة قد أسلمت وهاجرت معه للحبشة (الهجرة الثانية) ثم قدمت مكة من الحبشة ثم توفي سكران بعد فترة وترك ولداً له اسمه عبد الرحمن استشهد في معركة جلولاء.

كان رسول الله ﷺ قد حزن واضطرب كثيراً بعد وفاة السيدة خديجة فلما رأت ذلك خولة بنت حكيم قالت: إنك لفي حاجة إلى مؤنس ورفيق يا رسول الله. فأجاب النبي ﷺ بنعم، وذكر بأن السيدة خديجة كانت تتولى أمور البيت والعيال. فذهبت خولة بإيماء من رسول الله ﷺ إلى والد السيدة سودة، وسلمت عليه سلام الجاهلية قائلة: **أنعم صباحاً**. ثم أخبرته خبر النكاح. فقال: نعم، إن محمداً لشريف وكفؤ؛ ولكن اسألي سودة. المهم تمت المراسم وجاء النبي ﷺ بنفسه لبيتهم وعقد له والد سودة عليها.[٢] وحدد لها أربعمائة درهم مهراً، وكان عبد الله بن زمعة (أخو السيدة سودة) في ذاك الوقت ما يزال على كفره، فلما علم بذلك ألقى التراب على رأسه وقال: ما هذا الغضب. لذا كان يبدى أسفه دائماً بعد إسلامه على فعلته هذه. ولأن خطبة السيدة عائشة والسيدة سودة تمتا في وقت واحد، لذا

---

[١] صحيح مسلم، فضائل خديجة. (وردت هكذا في صحيح مسلم " إني قد رزقت حبها")(المترجم).

[٢] ورد في طبقات ابن سعد أن الزواج بها تم في رمضان سنة ١٠ هـ. أما الزرقاني فقال: إنه تم سنة ٨ هـ . وقد تولد هذا الاختلاف لأنه يوجد اختلاف في وفاة السيدة خديجة.

يختلف المؤرخون في أيهما أسبق. فيرى ابن إسحاق أن السبق كان للسيدة سودة. ويقـول عبد الله بن محمد بن عقيل: إن النبي ﷺ عقد على السيدة عائشة أولاً.

حليتها

كانت السيدة سودة طويلة بدينة، لذا كانت لا تستطيع الإسراع في المشـي، لـذا طلبت من النبي وقت مغادرة المزدلفة أن تغادر قبل الجميع حتى لا تتأذى من المشي في الزحام.

كانت أمهات المؤمنين قبل نزول آية الحجاب تذهبن لقضاء الحاجة في الصحراء. فكان عمر يتأذى من ذلك؛ لذا تكلم مع رسول الله ﷺ في موضوع الحجاب. ولكن لأن الأمر لم يكن قد نزل حتى ذاك الحين؛ لذا كانت السيدة سودة تخرج لقضاء الحاجة ليلاً. ولأنها كانت طويلة القامة قال لها عمر: لقد عرفناك يا سودة. فنزلت آية الحجاب بعد هذه المرة.(١)

أخلاقها وصفاتها

كان الجود والكرم من أبرز صفات وأخلاق النبي ﷺ، ومن ثم تأثر به ﷺ كل صحابي بقدر قربه من رسول الله ﷺ . وهنا قد تيسر لأمهات المؤمنين الفرصة الأكبر للتمتع بالتأثر من أخلاق وصفات النبي ﷺ، ومن ثم يتصفن عمومًا بوصفه هذا. وقد امتازت السيدة سودة عن جميع أمهات المؤمنين عدا السيدة عائشة في هذه الصفة. فذات مرة أرسل لها عمر كيساً فسألت محضره عما فيه؟ فقال: دراهم. فقالت يرسل عمر الدراهم في كيس التمر. وبعد أن قالت هذا وزعت الدراهم جميعها. كما أنها كانت تمتاز بالطاعة وتسبق كل أمهات المؤمنين في هذه الصفة.

روايتها للحديث:

روى عن السيدة سودة خمسة أحاديث فقط. ورد أحدها في البخاري. وقد روى عنها من الصحابة كل من عبد الله بن عباس ويحيى بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة رضى الله عنهم أجمعين.

وفاتها:

يوجد اختلاف في السنة التي توفيت فيها السيدة سودة فيرى الواقدي أنها توفيت سنة ٥٤هـ في عهد خلافة معاوية. ويقول الحافظ ابن حجر إنها توفيت سنة ٥٥هـ.

---

(١) البخاري، جـ١، ص، ١٢٦. ويوجد اختلاف كبير في شأن نزول آية الحجاب؛ فالرواية الأولى هي المذكورة. أما الرواية الثانية فنقول إن عمر قال لرسول الله ﷺ: إن كل أصناف الناس من جيد وردئ يأتون إلى هنا فليتك تأمرهن بالحجاب. وروى ابن جرير في تفسيره عن مجاهد أن رسول الله ﷺ كان يأكل مع أصحابه وكانت السيدة عائشة أيضاً تأكل معهم فلمستها يد أحد الصحابة. فغضب رسول الله ﷺ فنزلت الآية. والمشهور أن آية الحجاب نزلت في شأن دعوة وليمة السيدة زينب. وقد وردت هذه الواقعة بالتفصيل في الصحاح. وقد وفق الحافظ بن حجر بين هذه الروايات فقال: إن ثمة أسباب عديدة لنزول آية الحجاب، وقد كانت واقعة السيدة زينب آخر سبب لنزولها، وهذا سبب نزولها لأنه يوجد في الآية إشارة لتلك الواقعة. (فتح الباري جـ ١ ص ٢١٩)

وأورد البخاري بسند صحيح في تاريخ وفاتها وهو أنها توفيت في عهد خلافة عمر وأضاف الذهبي في التاريخ الكبير على ما قاله البخاري أنها توفيت في آخر خلافة عمر، وقد توفى عمر سنة ٢٣هـ. لذا يرجح أن تكون قد توفيت سنة ٢٢هـ. ورد في الخميس بأن هذه هي أرجح الروايات.[١]

السيدة عائشة[٢]

كان اسمها عائشة. لم تنجب ولكنها كانت تكنى بأم عبد الله نسبة لابن أختها عبد الله بن الزبير. كان اسم أمها ولقبها أمر رومان. ولدت بعد البعثة بأربع سنين. وتزوجت النبي ﷺ سنة عشرة هجرية وهي بنت ست سنين وكانت مخطوبة قبل النبي ﷺ لابن جبير بن مطعم. وبعد وفاة السيدة خديجة عرضت خولة بنت حكيم على رسول الله الزواج منها فقبل رسول الله ﷺ. فقالت خوله لام رومان، التي حكت لأبي بكر، فقال أبو بكر: إنني وعدت جبير بن مطعم ولن أنقض عهدي معه. ولكن مطعم نفسه رفض أن تأتي السيدة عائشة بيته حتى لا يدخله الإسلام على أثرها. وعلى كل حال عقد أبو بكر مع رسول الله ﷺ عن طريق خولة. وكان المهر أربعمائة درهم. لكن روى في مسلم عن السيدة عائشة أن مهر أمهات المؤمنين كان خمس مائة درهم.

وبعد النكاح أقام رسول الله ﷺ في مكة ثلاث سنين ثم هاجر سنة ١٣ من البعثة برفقة أبي بكر، وترك أهله وعياله في مكة. ولما تحسنت الأوضاع في المدينة أرسل أبو بكر عبد الله بن اريقط ليحضر أم رومان وأسماء وعائشة رضي الله عنهن. وأرسل النبي ﷺ زيد بن حارثة وأبا رافع رضى الله عنهما ليحضرا السيدة فاطمة وأم كلثوم والسيدة سودة وغيرهن. فلما قدمت السيدة عائشة المدينة أصابتها حمى شديدة حتى أن شعر رأسها سقط من شدة المرض. ولما تحسنت صحتها رأت أم رومان أن تتمم الزواج وكان عمر السيدة عائشة حينذاك تسع سنين فكانت تلعب مع صديقاتها، فنادت عليها أم رومان دون أن تعرف بالأمر. فجاءت أمها فغسلت لها وجهها ومشطت شعرها وذهبت بها للبيت. وكانت نساء الأنصار تنتظرن فلما دخلت عائشة البيت هنأها الجميع. ثم جاء النبي ﷺ

---

[١] ورد هذا تفصيلا في الزرقاني، جـ٣، ص ٢٦. وقد وردت الرواية الأولى فقط في طبقات ابن سعد.

[٢] نحتاج لكتاب مستقل للوقوف على حالات وكمالات السيدة عائشة. أما هنا فقد كتبت الأمور الضرورية عن حياتها. وقد أكمل شبلي وعده، وكتب كتابا عن السيدة عائشة باسم "سيرة عائشة" ويوجد هذا الكتاب في مكتبة لاهور.

وقت الضحى، وتمت مراسم العرس. وكان النكاح قد تم في شوال، ولأن شوال كان شهر يأتي فيه مرض الطاعون لذا كانت العرب تكره الزواج في هذا الشهر. فربما تـم زواج النبي ﷺ في هذا الشهر ليقضي على هذا الاعتقاد.

وفاتها:

عاشت مع رسول الله ﷺ تسع سنين. فقد تزوجت النبي ﷺ وهي في التاسعة من عمرها. وكانت تمت ثمان عشرة سنة حين توفى رسول الله ﷺ. عاشت بعد وفاة النبي ﷺ ثمان وأربعين سنة. وتوفيت سنة ٥٧هـ عن ٦٦ سنة. ودفنت طبقاً لوصيتها ليلاً في جنة البقيع، دفنها قاسم بن محمد وعبد الله بن عبد الرحمن وعبد الله بن أبى عتيق وعروة بـن الزبير. وفي ذلك الوقت كان أبو هريرة الحاكم المفوض للمدينة من قبل مروان بن الحكم، لذا أم المسلمين في صلاة الجنازة عليها.

وقد كان رسول الله ﷺ يحب السيدة عائشة كثيراً. لذا استأذن رسول الله ﷺ من كل أزواجه في مرض الموت أن يقيم آخر أيامه في حجرة السيدة عائشة.

وتوجد وقائع كثيرة في الأحاديث والسير تظهر طرق حب رسول الله ﷺ لها.

حياتها العلمية

تحمل الحياة العلمية للسيدة عائشة مكانة كبيرة. إذ أنها كانت تقوم بالفتوى في عهد خلافة أبي بكر وعمر وعثمان رضوان الله عليهم. وأبدت اعتراضات دقيقة على أكـابر الصحابة، جمعها الإمام السيوطي في رسالة.[1] وروى عنها ٢٢١٠ حديث. منهم ١٧٤ حديث اتفق عليهم الشيخان. وروى البخاري عنها ٥٤ حديث، وروى مسلم ٦٨ حـديث. ويقول البعض: إن ربع الأحكام الشرعية مروية عنها، وورد في الترمـذي أن الصـحابة كانوا إذا واجههم أي سؤال صعب ودقيق، كانوا يجدون حله عن طريق السيدة عائشـة. ويقول تلامذتها: لم نر أفصح ولا أفوه منها. كما أنها كانت بارعة في التفسير والحـديث والشريعة والخطابة والأدب وعلم الأنساب، وكانت تحفظ أطول قصائد الشعر. كتب عـن هذا تفصيلا الحاكم في المستدرك، وابن سعد في الطبقات، ويوجد في مسند ابـن حنبـل وغيره أدلة وشواهد على فضلها وكمالها.

---

[1] وردت هذه الرسالة في آخر سيرة عائشة.

السيدة حفصة رضي الله عنها

هي السيدة حفصة بنت عمر رضي الله عنهما. أمها هـي السـيدة زينـب بنـت مظعون. ولدت قبل البعثة بخمس سنين في نفس العام الذي كانت قريش تبني فيه الكعبة. تزوجت من خنيس بن حذافة وهاجرت معه للمدينة. جرح خنيس في غزوة بدر ثم أستشهد متأثر بجراحه بعد عودته من هذه الغزوة.[١] ولم تنجب منه السيدة حفصـة.[٢] وبعـد أن ترملت، شُغل والدها بأمر زوجها، ولسوء الحظ توفيت في الوقت نفسه السيدة رقية؛ لـذا عرض عمر على عثمان أولاً الزواج منها، فقال عثمان: سأنظر في أمـري.[٣] فعـرض عمر الأمر على أبي بكر فسكت. فحزن عمر كثيراً من رفضهما. ولكن بعد ذلك طلـب النبي ﷺ بنفسه الزواج منها فقابل أبو بكر عمر وقال له: لعلك وجدت عليّ حين عرضت علي حفصة فلم أرجع إليك شيئاً، فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليّ إلا أني كنت علمت أن رسول الله ﷺ ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله، ولو تركها رسول الله قبلتها.[٤] ولأن السيدة حفصة كانت بنت عمر؛ لذا كانت قاسية الطبع قليلاً. فيقول عمـر نفسه في البخاري فيما يتعلق بحديث الإيلاء:[٥] كنا في الجاهلية نعتبر النسـاء لا شـيء،

---

[١] الزرقاني، جـ ٢ ص ٢٧٠، وهذه هي الرواية المشهورة لكن ورد في الإصابة أنـه استشـهد فـي غزوة أحد. وكتب الحافظ ابن حجر في فتح الباري أن عمر كان قد طلب من عثمان الزواج منها بعد وفاة السيدة رقية. ومن المسلم به أن السيدة رقية توفيت بعد غزوة بدر؛ لذا لم يـتمكن عثمـان مـن الاشتراك في غزوة بدر، وثبت من ذلك أن خنيس توفى بعد غزوة بدر. وورد في روايـة ثانيـة أن عثمان كان جالسا حزينا فمر عليه عمر وقال له: أتتزوج حفصة؟ فقد أنقضت عدتها. فإن كان خنيس قد استشهد في أحد لكانت عدتها حتى سنة ٤هـ، لكن النكاح تم في سـنة ٣هجريـة. فـتح البـاري ص١٥٢.

[٢] الطبري جـ ٤ ص ١٧٧١.

[٣] البخاري، ج٢، ص٦٨.

[٤] البخاري، جـ٢، ص٦٨

[٥] (٨٤٠) حَدِيثُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لَمَّا اعْتَزَلَ نَبِيُّ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ قَالَ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا النَّاسُ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى وَيَقُولُونَ طَلَّقَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرْنَ بِالْحِجَابِ فَقَالَ عُمَرُ فَقُلْتُ لأَعْلَمَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ قَالَ فَدَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَقُلْتُ يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ أَقَدْ بَلَغَ مِنْ شَأْنِكِ أَنْ تُؤْذِي رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ مَا لِي وَمَا لَكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ عَلَيْـكَ بِعَيْبَتِكَ قَالَ فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ فَقُلْتُ لَهَا يَا حَفْصَةُ أَقَدْ بَلَغَ مِنْ شَأْنِكِ أَنْ تُؤْذِي رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّه لَقَدْ عَلِمْتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُحِبُّكِ وَلَوْلا أَنَا لَطَلَّقَكِ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَكَتْ أَشَدَّ الْبُكَاءِ فَقُلْتُ لَهَا أَيْنَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ هُوَ فِي خِزَانَتِهِ

وذات يوم كنت أفكر في موضوع ما واتفق أن أشارت على زوجتي في الأمر، فقلت لها: وما شأنك في تلك الأمور.[1] قالت: ولم تنكر أن أراجعك، فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه. يقول عمر: فنهضت وذهبت لحفصة وقلت لها: أي حفصة، أتغاضب إحداكن

فِي الْمَشْرُبَةِ فَدَخَلْتُ فَإِذَا أَنَا بِرَبَاحٍ غُلَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاعِدًا عَلَى أُسْكُفَّةِ الْمَشْرُبَةِ مُدَلٍّ رِجْلَيْهِ عَلَى نَقِيرٍ مِنْ خَشَبٍ وَهُوَ جِذْعٌ يَرْقَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَنْحَدِرُ فَنَادَيْتُ يَا رَبَاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَظَرَ رَبَاحٌ إِلَى الْغُرْفَةِ ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ثُمَّ قُلْتُ يَا رَبَاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَظَرَ رَبَاحٌ إِلَى الْغُرْفَةِ ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ثُمَّ رَفَعْتُ صَوْتِي فَقُلْتُ يَا رَبَاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظَنَّ أَنِّي جِئْتُ مِنْ أَجْلِ حَفْصَةَ وَاللَّهِ لَئِنْ أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِضَرْبِ عُنُقِهَا لَأَضْرِبَنَّ عُنُقَهَا وَرَفَعْتُ صَوْتِي فَأَوْمَأَ إِلَيَّ أَنِ ارْقَهْ فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ فَجَلَسْتُ فَأَدْنَى عَلَيْهِ إِزَارَهُ وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ وَمِثْلِهَا قَرَظًا فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ قَالَ فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ قَالَ مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَفْوَتُهُ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ فَقَالَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا قُلْتُ بَلَى قَالَ وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ حِينَ دَخَلْتُ وَأَنَا أَرَى فِي وَجْهِهِ الْغَضَبَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا يَشُقُّ عَلَيْكَ مِنْ شَأْنِ النِّسَاءِ فَإِنْ كُنْتَ طَلَّقْتَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَكَ وَمَلَائِكَتَهُ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَأَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَكَ وَقَلَّمَا تَكَلَّمْتُ وَأَحْمَدُ اللَّهَ بِكَلَامٍ إِلَّا رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يُصَدِّقُ قَوْلِي الَّذِي أَقُولُ وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ آيَةُ التَّخْيِيرِ) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ) (وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (وَكَانَتْ عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ وَحَفْصَةُ تَظَاهَرَانِ عَلَى سَائِرِ نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَطَلَّقْتَهُنَّ قَالَ لَا قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ وَالْمُسْلِمُونَ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى يَقُولُونَ طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ أَفَأَنْزِلُ فَأُخْبِرَهُمْ أَنَّكَ لَمْ تُطَلِّقْهُنَّ قَالَ نَعَمْ إِنْ شِئْتَ فَلَمْ أَزَلْ أُحَدِّثُهُ حَتَّى تَحَسَّرَ الْغَضَبُ عَنْ وَجْهِهِ وَحَتَّى كَشَرَ فَضَحِكَ وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ ثَغْرًا ثُمَّ نَزَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَزَلْتُ فَنَزَلْتُ أَتَشَبَّثُ بِالْجِذْعِ وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَأَنَّمَا يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا يَمَسُّهُ بِيَدِهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كُنْتَ فِي الْغُرْفَةِ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ قَالَ إِنَّ الشَّهْرَ يَكُونُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ فَقُمْتُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي لَمْ يُطَلِّقْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ)فَكُنْتُ أَنَا اسْتَنْبَطْتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آيَةَ التَّخْيِيرِ *(المترجم).

(1) الترمذي، ص٤٧٨، كتاب المناقب.

النبي ﷺ حتى الليل. قالت: نعم نفعل هذا. فقلت لها: احذري، فأنا أحذرك من عــذاب الله ولا يغرنك إن كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى النبي ﷺ[١] (أي عائشــة). وورد فــي الترمذي أن السيدة صفية كانت تبكي ذات مرة فجاء رسول الله ﷺ وســألها عــن سـبب بكاءها، فقالت: قالت لي حفصة " يا بنت اليهودي" فقال النبي ﷺ: إنك لابنــة نبــي، وإن عمك لنبي وإنك لتحت نبي، ففيم تفخر عليك.[٢]

ذات مرة قالت السيدة عائشة والسيدة حفصة للسيدة صفية نحن أكثر عزة منك عند رسول الله، فنحن أزواجه وبنات أعمامه. فغضبت السيدة صفية واشتكت لرســول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: ألا قلت: فكيف تكونان خيرا مني وزوجي محمد وأبي هارون وعمي موسى.

ولأن السيدة عائشة والسيدة حفصة كانتا بنات أبي بكر وعمر أقــرب الصــحابة للنبي؛ لذا كانتا تتحدان مع بعضهما ضد بقية أزواج النبي ﷺ. ولكن أحياناً كان يقع بــين الاثنتين غيرة وغبطة أيضاً. فذات مرة ذهبت السيدة عائشة والسيدة حفصة في سفر مــع رسول الله ﷺ، فكان النبي ﷺ يركب ليلاً جمل السيدة عائشة ويحادثها. وذات يوم قالــت السيدة حفصة للسيدة عائشة: تعالى الليلة على جملي وسأجيء أنا على جملك حتى نشاهد مشاهد مختلفة. فقبلت السيدة عائشة. فجاء النبي ﷺ على جمل السيدة عائشة التي كانــت السيدة حفصة تركبه. وحينما وصلوا المكان ولم تجد السيدة عائشة رسول الله شاكت قدمها وقالت: إلهي، أي عقرب أو حية أرسلت لتلدغني.[٣]

وفاتها

توفيت السيدة حفصة سنة ٤٥ هجرية في عهد خلافة معاوية، وكانت قبل وفاتهــا قد أوصت أخيها عبد الله بن عمر نفس الوصية التي كان عمر قد أوصى بها؛ وهــي أن تُوقف بعض التركة يُتصدقُ ببعضها. ولقد أم صلاة جنازتها مروان بن الحكم حاكم المدينة آنذاك. وحملت جنازتها من بيت بني حزم حتى بيت المغيرة بن شعبة. ثم حمل جنازتهــا

---

[١] صحيح البخاري، جــ١،ص٣٠.

[٢] الترمذي، ص ٤٧٨، كتاب المناقب.

[٣] يجب مراعاة أن هذا النوع من الروايات فقط فيما يتعلق بالسيدة عائشة والسيدة حفصة. ويجب البحث عن أسباب ذلك. فقد كانت عداوة أبي بكر وعمر للمنافقين جديرة بالذكر وملحوظة.

من بيت المغيرة حتى القبر أبو هريرة. ودفنها أخوها عبد الله وأولاده عاصم وعبد الله وحمزة.[1]

السيدة زينب أم المساكين رضي الله عنها

اسمها زينب ولأنها كانت تطعم المساكين والفقراء بكرم شديد؛ لذا لقبت بأم المساكين. تزوجت قبل النبي ﷺ من عبد الله بن جحش. وقد استشهد عبد الله في غزوة أحد سنة ٣هـ فتزوجها رسول الله ﷺ في السنة نفسها. وبعد زواجها بالنبي ﷺ عاشت شهرين أو ثلاثة ثم توفيت. وكانت الزوجة الوحيدة بعد السيدة خديجة التي توفيت في حياة النبي. فصلى عليها رسول الله الجنازة بنفسه ثم دفنت في جنة البقيع، وقد توفيت وهي في الثلاثين من عمرها.

السيدة أم سلمة رضي الله عنها

اسمها هند وكنيتها أم سلمة. اسم ابيها سهيل، واسم أمها عاتكة. وأول من تزوجت هو عبد الله بن عبد الأشد، والذي كان يعرف بأبي سلمة ابن عمها، وشقيق رسول الله في الرضاعة. أسلمت مع زوجها وهاجرت معه إلى الحبشة، وأنجبت ولدها سلمة في الحبشة. ثم رجعت من الحبشة إلى مكة ومنها هاجرت إلى المدينة. وقد حصلت على شرف أنها كانت أول امرأة تهاجر إلى المدينة كما يقول أصحاب السير. وكان زوجها أبو سلمة فارس شجاع. اشترك في غزوة بدر وأحد. وجرح في غزوة أحد ثم مات متأثراً بجراحه في جمادى الثاني سنة ٤هـ. صليت جنازته باهتمام كبير. فقد كبر فيها رسول الله تسع تكبيرات وبعد الصلاة سأل الناس رسول الله فقالوا: هل سهوت يا رسول الله. قال: لا، وأخبر بأنه يستحق ألف تكبيرة. وكانت أم سلمة حاملاً وقت وفاة زوجها أبي سلمة، وبعد ما وضعت حملها وانقضت عدتها أراد رسول الله ﷺ أن يتزوجها، فقدمت له بعض

---

[1] وهناك اختلاف في سنة وفاتها، فورد في رواية أنها توفيت في جمادى الأولى سنة ٤١ هـ وكان عمرها آنذاك ٥٩ سنة. لكن لو افترضنا أنها توفيت سنة ٤٥هـ سيكون عمرها ٦٢ سنة. ووردت رواية أنها توفيت في خلافة عثمان سنة ٢٧هـ. وقد اعتمدت هذه الرواية على ما رواه وهب ابن مالك أنه قال: إن حفصة توفيت في نفس السنة التي فتحت فيها أفريقيا. وقد فتحت أفريقيا سنة٢٧هـ زمن خلافة عثمان. ولكن هذا خطأ فادح حيث فتحت أفريقيا مرتين. وتم الفتح الثاني على يد معاوية بن خديج، وكان هذا في سنة ٥٠هـ، وهي نفس السنة التي اعتبرها وهب بن مالك سنة وفاة السيدة حفصة.

الأعذار، وهي: ١- إنها امرأة غيور للغاية. ٢- إنها صاحبة عيال. ٣- إنها مسنة. لكن رسول الله ﷺ قبل كل هذه الأعذار.

وفاتها

يتفق أهل السير على أن السيدة أم سلمة كانت آخر من توفى من نساء رسول النبي. لكنهم يختلفون في سنة وفاتها. فقال الواقدي أنها توفيت سنة ٥٩هـ. وقال إبراهيم حربى سنة ٦٢هـ، وقال في التقريب: إن هذا هو التاريخ الصحيح. وكتب البخاري في التاريخ الكبير أنها توفيت سنة ٥٨هـ. وورد في بعض الروايات أنها توفيت سنة ٦١هـ حين جاء خبر شهادة الحسين. وقد صحح ابن عبد الله هذه الرواية.

يصعب تحديد سنة الوفاة بسبب اختلاف الروايات هذه. ولكن المؤكد أنها كانت حية أثناء واقعة الحرة. فقد ورد في مسلم أن الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة وعبد الله بن صفوان جاءا السيدة أم سلمة وسألاها عن حال الجيش الذي سيقتحم الأرض. وقد استفسر عن هذا السؤال حين أرسل يزيد مسلم بن عقبة إلى المدينة مع جيش الشام وحديث واقعة الحرة. فقد وقعت واقعة الحرة سنة ٦٣هـ ؛ لذا فكل الروايات التي ذكرت أنها توفيت قبل هذا التاريخ خاطئة. كتب ابن عبد البر أن سعيد بن زيد هو من صلى عليها الجنازة تنفيذاً لوصيتها. لكن هناك شك في صحة هذه الرواية إذ أن سعيد بن زيد قد توفى سن ٥١ أو ٥٢ هـ حسب اختلاف الروايات، ومن المؤكد أن أم سلمة كانت حية وقت وفاته. وكتب الواقدي أن أبا هريرة هو الذي صلى عليها. فإن كان سعيد حياً وقت وفاتها فكيف لأبي هريرة أن يصلي هو الجنازة. ومع كل فإن أم سلمة كانت آخر من توفيت من أمهات المؤمنين. وقد توفيت عن ٨٤ سنة.

فضلها وكمالها:

اشتهرت أم سلمة بالفضل والكمال من بين كل نساء النبي ﷺ بعد السيدة عائشة كما صرح بذلك ابن سعد في طبقاته. ولقد امتازت على كل نساء النبي ﷺ عدا السيدة عائشة في رواية الحديث ونقل الأحكام. ففي صلح الحديبية حين تردد الصحابة في الحلق والفداء خارج مكة، حلت لهم السيدة أم سلمة تلك المسألة بتدبر. وهذا مثال جيد لفطانتها وذكاءها. وقد وردت تلك الواقعة تفصيلاً في صحيح البخاري.

السيدة زينب رضي الله عنها

كانت السيدة زينب من أزواج النبي ﷺ اللائي يدعين تساويهن مع السيدة عائشة. فتقول السيدة عائشة نفسها عنها: "**كانت تساميني**" وكان لها الحق في ذلك. فكانت من ناحية النسب بنت عمة رسول الله ﷺ. وكانت فريدة في الجمال وكان رسول الله ﷺ يحبها كثيراً. كما أنها كانت زاهدة ورعة، فحينما اتهمت السيدة عائشة في حادثة الإفك، وكانت أخت السيدة زينب "حمنه" ممن اشتركن في هذه التهمة. سأل رسول الله السيدة زينب عن أخلاق عائشة فقالت صراحة: **ما علمت إلا خيراً**. وبسبب صدقها هذا وإقرارها للحق آمنت السيدة عائشة بفضلها.

كانت السيدة زينب مشغولة دائما بالعبادة بكل خضوع وخشوع. فحين أراد رسول الله ﷺ أن يتزوج بها قالت: إني لا أعطي رأيا دون أن استخير. وذات مرة كان رسول الله ﷺ يقسم بعض الأموال على المهاجرين فقالت السيدة زينب شيئاً في هذا الأمر فزجرها عمر. فقال له رسول الله: اصفح عنها يا عمر فإنها اداه (أي خاشعة متضرعة)، وكانت غاية في القناعة والكرم. كانت تكتسب بنفسها وتنفق في سبيل الله ذات مرة أرسل لها عمر نفقتها السنوية فوضعت قماشة على النفقة ثم قالت لبرزة بنت رافع: قسمي هذا على أقاربي وعلى اليتامى. فقالت برزة: ألىَّ حق. قالت: خذي القماش. فنظرت برزة تحت القماشة فوجدت خمسين درهما. ولما قسمت المال دعت وقالت :اللهم لا تجعلني استفيد من عطية عمر بعد عامي هذا. فقبل دعاءها وتوفيت في العام نفسه.

وفاتها:

قال رسول الله ﷺ لأمهات المؤمنين: "**أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يدا**".

وكان هذا إشارة إلى الجود، لكن أمهات المؤمنين فهمن الأمر على ظاهره وأخذن يقسن أيديهن؛ لكن هذا القول صدق على السيدة زينب لكرمها وجودها. فلحقت بالنبي ﷺ قبل بقية أزواجه. وكانت قد جهزت كفنها بنفسها وأوصت أن يرسل عمر كفنا ثم يُتصدق بأحد الكفنين. وقد نفذت وصيتها وصلى عليها عمر الجنازة ثم سأل بقية أمهات المؤمنين عمن يدخل معها القبر؟ فقلن: من كان يتردد على بيتها. (لذا دفنها أسامة بن محمد بن عبد الله بن جحش وعبد الله بن أبي أحمد بن جحش) وقد توفيت سنة ٢٠هـ عن ٥٣ سنة. وكتب الواقدي أن رسول الله ﷺ تزوجها وهي في سن ٣٥ سنة.

السيدة جويرية رضي الله عنها

هي السيدة جويرية بنت الحارث بن ضرار سيد قبيلة بني المصطلق. تزوجت من مسافع بن صفوان الذي قتل في غزوة المريسيع، وهي تلك الغزوة التي أسر فيها المسلمون كثيرًا من الجواري والعبيد فكانت السيدة جويرية إحداهن. وحينما قسم مال الغنيمة كانت من نصيب ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري.

يجيز الإسلام للسيد أن يعتق عبده أو جاريته بعد أخذ مبلغ معين منه. وهذا ما يطلق عليه الفقهاء في الإصطلاح "المكاتبة" وقد كاتبت السيدة جويرية شريطة أن تدفع تسع أوقيات من الذهب. لكن كان هذا فوق استطاعتها فذهبت لرسول الله ﷺ وقالت له: يا رسول الله، إني امرأة مسلمة اسمي جويرية بنت الحارث سيد قومه ولا يخفى عليك ما حل من المصائب. وقد كنت من نصيب ثابت بن قيس وقد كاتبته على تسع أوقيات من الذهب، ولكن لا أستطيع أن أؤدي هذا له. لكني قبلت هذا اعتماداً عليك وجئت الآن أسألك. فقال النبي ﷺ: «فَهَلْ لَكِ فِي خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ؟» قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «اقْضِي كِتَابَتَكِ وَأَتَزَوَّجُكِ» قالت: نعم يا رسول الله قال: «قَدْ فَعَلْتُ». فاستدعى رسول الله ﷺ قيس فرضي هو الآخر. فأعطاه النبي ﷺ الذهب ثم أعتقها النبي وتزوج بها. وذاع الخبر فاعتق الناس كل العبيد والجواري الذين اسروا من قبيلة بني المصطلق بسبب مصاهرة الرسول لهم. وقيل في بعض الروايات أن عدد العبيد الذين عتقوا كان قد بلغ سبعمائة. لذا تقول السيدة عائشة: لقد عُتقت أسر كثيرة بفضل السيدة جويرية[1].

---

[1] وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في مسند أحمد: (٢٥٩٦٦) حدثنا عبد الله، حدثني أبي، حدثنا يعقوب قال: حدثنا أبي، عن ابن إسحاق قال: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين قالت: « لما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بني المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له، وكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حلوة وملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه في كتابتها، قالت: فوالله ما هو إلاّ أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت فدخلت عليه، فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له، فكاتبته على نفسي فجئتك أستعينك على كتابتي، قال: «فَهَلْ لَكِ فِي خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ؟» قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «اقْضِي كِتَابَتَكِ وَأَتَزَوَّجُكِ» قالت: نعم يا رسول الله قال: «قَدْ فَعَلْتُ» قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوّج جويرية بنت الحارث، فقال الناس: أصهار رسول الله

وقد ورد في بعض الروايات أن السيدة جويرية هي التي طلبت هذا من رسول الله فحرر رسول الله كل الأسرى إكراماً لها. وقد توفيت السيدة جويرية سنة ٥٠هـ، ودفنت في جنة البقيع عن ٦٥ سنة.

السيدة أم حبيبة رضي الله عنها

اسمها رملة وكنيتها أم حبيبة، ولدت قبل البعثة بـ ١٧ سنة. اعتنق عبيد الله ابن جحش النصرانية، لكنها ظلت على إسلامها. لذا طلقها عبيد الله بسبب اختلاف الدين. فحان لها أن تشرف – إضافة للإسلام والهجرة – بأن تكون من أمهات المؤمنين.

لذا أرسل رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري للنجاشي بهدف النكاح. فلما وصل عمرو عند النجاشي أرسل النجاشي جاريته ابرهة لأم حبيبة فقالت لها: إن رسول الله ﷺ يريد الزواج بك. فوافقت ثم وكلت عنها خالد بن سعيد الأموي. وأعطت الجارية ابرهة خاتمين واسورتين ذهبيتين مقابل تلك البشرى وفي المساء جمع النجاشي جعفر بن أبي طالب والمسلمين الذين كانوا هناك واقر الزواج.(١) ثم أعطى أم حبيبة عن رسول الله ﷺ أربعمائة درهم مهرا.(٢)

أُعطى المهر لخالد بن سعيد أمام الناس جميعاً. فأراد الناس الانصراف بعد العقد لكن النجاشي قال: إن دعوة الوليمة سنة كل الأنبياء. فيجب عليكم الجلوس. ثم جيء بالطعام فأكل الناس ثم انصرفوا. وحينما أعطى المهر لأم حبيبة أعطت الجارية أبرهةَ خمسين ديناراً. لكن الجارية أعادت لها الدنانير والخواتم والأساور التي أخذتها من قبل وقالت: إن الملك منعني أن آخذ شيئاً. ثم جاءتها في اليوم الثاني ومعها عود وزعفران وعنبر وغيره من الأشياء التي أخذتها أم حبيبة معها لرسول الله ﷺ. ولما تمت كل مراسم

صلى الله عليه وسلم، فأرسلوا ما بأيديهم، قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها. (المترجم).

(١) هناك اختلاف في سنة الزواج والمشهور أن الزواج تم سنة ٧هـ، ولكن ورد في بعض الروايات أنه تم سنة ٦هـ ومن الممكن أن يكون رسول الله ﷺ قد أرسل عمرو بن أمية بهدف الزواج، وأن الزواج تم فعلاً سنة ٧هـ. وهناك اختلاف في مكان النكاح أيضاً وفيمن عقده. لكن الصحيح أن النكاح تم في الحبشة وأن النجاشي هو الذي أتمه.

(٢) هذه هي الرواية الصحيحة ولكن هناك اختلاف في الرقم، فورد في بعض الروايات تسعمائة دينار. ويرى البعض أربعة آلاف دينار. وورد في أبي داود أربعة آلاف درهم بدلاً من دينار. وورد في رواية الزهري أربعين أوقية، لذا فإن كانت فضة فتكون قيمتها ألف وست مائة درهم.

الزواج ودعها النجاشي مع شرحبيل بن حسنة إلى رسول الله ﷺ. وقد توفيت أم حبيبة سنة ٤٤هـ،[١] ودفنت بالمدينة.

السيدة ميمونة رضي الله عنها

اسمها ميمونة، واسم والدها الحارث، وأمها هند تزوجت في البداية من مسعود بن عمرو بن عمير الثقفي، وحين طلقها مسعود، تزوجت من أبي رهم بن عبد العزى، وبعد وفاته تزوجت من رسول الله ﷺ. وهناك روايات مختلفة عن زواجها. ففي رواية أنها وهبت نفسها للنبي ﷺ، وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ وكل مولاه أبا رافع وأرسله من المدينة مع أوس بن خولى إليها، فوافقت. ولكن الرواية الصحيحة هي أن العباس هو الذي تولى أمر هذا الزواج وهو من عقد العقد.

وفاتها

من المفارقات الغريبة أن السيدة ميمونة توفيت في نفس المكان الذي تزوجت فيه، وصلى عليها عبد الله بن عباس ﷺ ودفنها. ورد في الصحاح أنه حين حملت جنازتها قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: إنها زوجة رسول الله فلا تحركون الجنازة كثيراً، وامشوا بأدب وبتأني. وهناك اختلاف في سنة وفاتها والصحيح أنها توفيت في سنة ٥١هـ.

السيدة صفية

اسمها صفية، وكتب الزرقاني :أن العرب كانوا يطلقون على أفضل أسهم الغنيمة، والذي يخصص للإمام أو الملك مسمى صفية. وفي غزوة خيبر حين جاءت في عقد النبي ﷺ وفقا لهذه الطريقة، لذا اشتهرت باسم "صفية"، واسمها الحقيقي زينب، واسم أبيها حيي بن أخطب، وأمها ضرة. وكانت السيدة قد فازت بالسيادة من قبل أبيها وأمها، فكان أبوها سيد بني النضير، وأمها ابنة سيد قريظة. تزوجت السيدة صفية من قبل بسلام بن مشكم القرظى، وحين طلقها ابن مشكم، تزوجها كنانة بن أبى الحقيق، قتل كنانة في غزوة خيبر، كما قتل أيضاً أبوها وأخوها، ووقعت هي في أسر المسلمين. وحين جمع أسرى خيبر كلهم طلب دحية الكلبي جارية من الرسول ﷺ، فأعطاه الرسول ﷺ حق الاختيار، فاختار السيدة صفية، ولكن جاء صحابي وقال للنبي ﷺ: إنك بهذا أعطيت دحية سيدة بني النضير

---

[١] كتب البعض أنها توفيت في سنة ٤٢هـ. ويرى ابن أبي خشيمة أنها توفيت سنة ٥٩هـ. ويرى البعض أنها سنة ٥٠هـ وبعض آخر سنة ٥٥هـ. كما ورد في رواية أنها دفنت في دمشق.

: ي قريظة في حين أنها لا تستحق أحد دونك، فأمر النبي ﷺ بمجئ دحية مع هذه المرأة، فجاءه دحية ومعه صفية، وأعطاه النبي ﷺ جارية ثانية وأعتق صفية ثم تـزوج بهـا ﷺ. وحين غادر خيبر تمت مراسم العرس في الصهباء، وجمع الناس ما معهـم مـن أمتعـة وأقيمت وليمة، وحين غادر النبي ﷺ هذا المكان، أجلسها على ناقتها وسـترها بعباءتـه، وكأن هذا إعلان على أنها أصبحت من بين أزواجه المطهرات.

كان النبي يحب السيدة صفية حباً كثيراً، وكان يواسيها إذا ألم بها ما لا ترضـاه، ففي ذات مرة كان النبي ﷺفي سفر، وبرفقته أزواجه المطهرات، ولسوء الطالع مـرض جمل السيدة صفية، وكان عند السيدة زينب إبل تفيض عن الحاجة. فقال لها النبـي ﷺ : أعط صفية جملا. فقالت: أأعطى جملي لهذه اليهودية؟ فغضب النبي ﷺ منها غضبا جعله لا يذهب إليها لمدة شهرين. وذات مرة ذهب النبي ﷺ إلى السيدة صفية، فرأهـا تبكـى، وسألها عن سب بكاءها، فقالت :إن السيدة عائشة والسيدة زينب تقولان: إننا أفضل أزواج النبيﷺ. وقالت السيدة زينب: فأنا زوجته وابنة عمته معا. فقال النبي ﷺ: ألا قلتِ: فكيف تكونان خيرا مني وزوجي محمد وأبي هارون وعمي موسى.؟

توفيت السيدة صفية في سنة ٥٠ هـ في جنة البقيع.

الأولاد

يوجد اختلاف كبير في عدد أولاد النبي ﷺ، لكن الرواية المتفق عليها هي أنه كان للنبي ﷺ ستة أبناء هم القاسم وإبراهيم وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وقد عاصرت كل البنات الإسلام وشرفن بالهجرة، لكن ابن إسحاق ذكر اسم ولدين آخرين هم الطاهر والطيب. وعلى هذا يكون للنبي ﷺ ستة أولاد وست بنات وثبت من جميع الأقوال في هذا الأمر أن النبي ﷺ كان له اثنا عشر ولدا. ثمان أولاد وأربع بنات. ولا يوجد اختلاف في عدد البنات. لكن الاختلاف في عدد الأولاد فيصل عددهم إلى ثمان. ولا تختلف الروايات على القاسم وإبراهيم. كما يتفق الرواة جميعاً على أن إبراهيم كان ابن السيدة ماريا القبطية، والبقية أبناء السيدة خديجة.[١]

القاسم ﷺ

هو أسبق أولاد النبي ﷺ مولداً. ويحتمل أن يكون قد ولد قبل البعثة بإحدى عشرة سنة تقريباً. ويرى مجاهد أنه عاش سبعة أيام فقط. ويتضح من رواية ابن سعد أنه عاش عامين. وكتب ابن فارس أنه بلغ سن الرشد.

كما كان القاسم أسبق أبناء النبي ﷺ مولداً، كذا كان أسبقهم وفاة. والرواية المشهورة هي أنه توفى قبل البعثة وقد كني رسول الله بأبي القاسم نسبة إليه. فكان رسول الله يحب هذه الكنية كثيراً وكان الصحابة ينادونه بها. وذات يوم كان رسول الله ﷺ ماراً في السوق فنادى رجل وقال: يا أبا القاسم. فلما التفت النبي ﷺ قال الرجل: كنت أنادي على رجل آخر يا رسول الله. فقال النبي ﷺ لرفع هذا الالتباس: «تَسَمَّوا باسْمي، ولا تَكتنوا بكُنْيَتي»[٢].

---

[١] الزرقاني، ص ٢٣.

[٢] وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في البخاري: (١١٠) ـــ حدَّثنا موسى قال: حدَّثنا أبو عَوانةَ عن أبي حَصينٍ عن أبي صالحٍ عن أبي هُريرَةَ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «تَسَمَّوا باسْمي، ولا تَكتنوا بكُنْيَتي. ومَنْ رآني في المَنامِ فقدْ رآني، فإنَّ الشيطانَ لا يَتمثَّلُ في صُورتي. ومَنْ كَذَبَ علَيَّ متَعمِّداً فلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ منَ النار» (المترجم).

السيدة زينب رضي الله عنها

اتفق أهل السير على أن السيدة زينب كانت كبرى بنات النبي ﷺ، فيقول زبير بن بكار أنها ولدت بعد القاسم. لكن ابن الكلبي يرى أنها أول مولود ولد للنبي. وقد ولدت قبل البعثة بعشر سنين حين كان عمر النبي ﷺ ثلاثين عاماً. وحينما هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة ترك أهله وأولاده في مكة. تزوجت السيدة زينب من ابن خالتها أبي العاص بن ربيع بن لقيط. وقد أُسر في غزوة بدر وحينما أطلق سراحه وعد أن يذهب لمكة ويرسل السيدة زينب، فلما عاد لمكة ودعها مع أخيه كنانة صوب المدينة. وقد حمل كنانة سلاحه لأنه كان يخاف من أن يتعرض الكفار له. وحينما وصل ذي الطوى، تعقبه بعض كفار قريش، فأسقط هبار بن الأسود السيدة زينب من على الراحلة، وكانت السيدة زينب حامل فسقط حملها. لذا أخرج كنانة سهامه من الجعبة وقال: سأجعل من يتقدم منكم هدفاً لسهامي. فابتعدوا جميعاً. فجاء أبو سفيان مع سادة قريش وقال لكنانة أنزل السهم فإننا نريد أن نتحدث إليك، فلما وضع كنانة سهامه في الجعبة قال أبو سفيان: تعلم ما حل بنا من مصائب على يد محمد، ولو تركنا ابنته الآن تخرج من بيننا علانية لقال الناس إننا ضعفاء. ولا حاجة لنا في أن نعترض زينب، لذا خذها واذهب بها خفية بعد أن يهدأ الأمر. فوافق كنانة على عرض أبي سفيان ثم غادر معها بعد بضعة أيام. وكان رسول الله ﷺ قد أرسل زيد بن حارثة لإحضارها. فتركها له كنانة في البطن أو في الجج. فأخذها زيد واتجه إلى المدينة.

لما جاءت السيدة زينب المدينة تركت زوجها أبا العاص على شركه. ولما أُسر مرة ثانية في سرية[1] آوته السيدة زينب. فعاد إلى مكة وأعاد الأمانات التي كانت عنده لأصحابها ثم أسلم وهاجر للمدينة. ولأن السيدة زينب كانت قد تركته بسبب شركه، فلما عاد إلى المدينة وهو مسلم عادت إليه. وقد روي في الترمذي وغيره عن ابن عباس أنها عادت إليه دون عقد جديد؛ لكن صرح بعقد جديد في رواية أخرى. ومع أن رواية عبد الله بن عباس تُرجح على الثانية من حيث سندها إلا أن الفقهاء أخذوا بالرواية الثانية

---

[1] ورد في الإصابة أن أبا العاص غادر سنة ٦هـ في شهر جمادى الأولى مع قافلة لقريش. فأرسل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة مع ١٧٠ فارساً فالتقوا بالقافلة في مكان يسمى عيض. فأسر بعض الناس وأخذت أمتعتهم وكان أبو العاص من بينهم. فلما جاء أبو العاص آوته السيدة زينب وأعاد إليه الرسول ﷺ ما له بشفاعة من السيدة زينب.

وأولوا رواية عبد الله بن عباس على أنه لم يكن هناك أي تغير في المهر ولا في الشروط ولا في غيرها في النكاح الجديد؛ لذا اعتبره عبد الله بن عباس عقداً واحداً.

وكان أبو العاص حسن العشرة مع السيدة زينب. وقد مدح رسول الله ﷺ علاقاتهما. وقد عاشت السيدة زينب بعد النكاح الثاني فترة بسيطة جداً. فقد أسلم أبو العاص سنة ٧ أو ٦هـ (حسب اختلاف الروايات)، وتوفيت السيدة زينب سنة ٨هـ وغسلتها أم أيمن والسيدة سودة بنت زمعة وأم سلمة رضى الله عنهن وصلى عليها رسول الله ﷺ صلاة الجنازة، ثم دفنها هو ﷺ وأبو العاص. ولقد خلفت السيدة زينب ولدين امامة وعلي. وقد روَي أن علي مات في طفولته، لكن الرائج أنه وصل لسن الرشد وكتب ابن عساكر أنه استشهد في معركة اليرموك.

لقد كان رسول الله ﷺ يحب أمامة كثيراً ولا يفترق عنها حتى في أوقات الصلاة. فقد ورد في الصحاح أن رسول الله ﷺ كان يصعدها على كتفه وهو يصلي وينزلها حينما يركع. وحينما يقوم من سجوده يصعدها ثانية. وذات مرة أرسل شخص بعض الهدايا لرسول الله ﷺ كان فيها عقدًا ذهبياً. وكانت امامة تلعب في ناحية فقال النبي ﷺ: سأعطي هذا العقد لأحب الناس إليَّ فاعتقدت زوجات النبي ﷺ أن عائشة هي التي ستأخذه. لكن النبي ﷺ نادى على أمامة وألبسها إياه، ولقد أوصى أبو العاص الزبير بن العوام بتزويج أمامة. فلما توفيت السيدة فاطمة زوَّجها الزبير من علي، ولمَّا استشهد علي، أوصى المغيرة أن يتزوجها فتزوجها وأنجب منها طفلاً يسمى يحيى. ولكن ورد في بعض الروايات أنه لم يكن لأمامة أي أولاد وقد توفيت عند المغيرة.

السيدة رقية رضي الله عنها:

كتب الجرجاني أنها كانت أصغر بنات النبي ﷺ. لكن الرواية الشهيرة تقول أنها ولدت بعد السيدة زينب قبل البعثة بثلاث وثلاثين سنة. تزوجت في البداية من عتبة بن أبي لهب. وقال ابن سعد أن هذا الزواج كان قد تم قبل البعثة وكانت السيدة أم كلثوم بنت رسول الله قد تزوجت هي الأخرى من عتيبة الابن الثاني لأبي لهب. فلما بُعث النبي ﷺ وجهر بالدعوة جمع أبو لهب أولاده وقال: إن لم تطلقوا بنات محمد فسيحرم علي العيش معكم. فاستجاب أولاده لطلبه. فزوج النبي ﷺ السيدة رقية من عثمان.

كتب الدولابي أن زواجها من عثمان تم قبل البعثة. ولكن رويت رواية عن عثمان نفسه والتي صرح فيها بأن الزواج تم بعد البعثة. وبعد الزواج بها هاجر عثمان

إلى الحبشة برفقتها. وظلت أخبارهما منقطعة عن رسول الله ﷺ لفترة حتى جاءت امـرأة لرسول الله ﷺ وقالت: لقد رأيتهما كلاهما يا رسول الله. فدعى رسول الله ﷺ وأخبر بـأن عثمان هو أول من هاجر مع زوجته بعد إبراهيم ولوط.

أنجبت السيدة رقية وهي في الحبشة طفلاً يدعى عبد الله. ولكنه ما عاش سـوى ست سنوات. وقد عاد عثمان من الحبشة إلى مكة ثم منها إلى المدينة. وهنـا مرضـت السيدة رقية، وكان هذا في أثناء وقت غزوة بدر؛ لذا لم يستطع عثمـان المشـاركة فـي الجهاد في بدر سبب تمريضه لها. وقد توفيت في نفس اليوم الذي جاء فيه زيد بن حارثة وأذاع بشرى النصر. ولم يستطع النبي ﷺ المشاركة في تشيع جنازتها بسبب غزوة بدر.

السيدة أم كلثوم رضي الله عنها:

معروفة بكنيتها، وقد تزوجها عثمان في ربيع الأول سنة ٣هـ عام غزوة بـدر. وقد ورد في البخاري أنه حين ترملت السيدة حفصة، أرسل عمر لعثمان يعـرض عليـه الزواج من حفصة فتردد عثمان. لكن ورد في روايات أخرى أن رسول الله ﷺ أخبر عمر حين علم بذلك بأن رجلا خير من عثمان سيتزوج حفصة وأن عثمان سيتزوج من هـي خير من حفصة، وطلب منه أن يزوجه ابنته حفصة، وزوج النبي ابنته أم كلثوم لعثمان. وعلى كل حال فقد تم الزواج وعاشت السيدة أم كلثوم بعد زواجها مـن عثمـان سـت سنوات. ثم توفيت في شعبان سنة ٩هـ . فصلى عليها رسول الله ﷺ الجنازة ثم دفنها هو وعلي والفضل ابن العباس و أسامة ابن زيد[١].

السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها

اسمها فاطمة، والزهراء لقبها. أُختلف في سنة ميلادها. فروى أنها ولدت في سنة واحد من البعثة، ولكن ابن إسحاق كتب: إن كل أبناء النبي ﷺ علاوة على إبراهيم ولدوا

[١] ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٢٦٧٢٩) ـــ حدّثنا عبد الله حدثني أبي ثنا يعقوب قال: ثنا أبي عن ابن إسحاق قال: حدثني نوح بن حكيم الثقفي ــ وكان قارئاً للقرآن ــ عن رجل من بني عروة بن مسعود ــ يقال له: داود، قد ولدته أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي صلى الله عليه وسلم ــ عـن ليلى ابنة قانف الثقفية قالت: «كنت فيمن غسل أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليـه وسـلم عنـد وفاتها، وكان أول ما أعطانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الحقاء ثم الدرع ثم الخمار ثم الملحفة ثـم أدرجت بعد في الثوب الآخر، قالت: ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند الباب معه كفنهـا يناولنـاه ثوباً ثوباً» (المترجم).

قبل البعثة. وقد بُعث النبي ﷺ وهو في الأربعين من عمره. وعليه، وفق البعض بين كلتا الروايتين على أساس أن السيدة فاطمة ربما تكون قد ولدت في بداية البعثة سنة واحد، ويحتمل أن يكون هذا الاختلاف قد نشأ للبعد الزمني بين كلتا الروايتين. وقال ابن الجوزي: إنها ولدت قبل البعثة بخمس سنين وقت بناء الكعبة. وفي بعض الروايات ورد أنها ولدت قبل البعثة بعام واحد تقريباً. ولو سلمنا أن السنة الأولى للبعثة هي السنة الصحيحة لميلاد السيدة فاطمة، فقد زوجها رسول الله سنة ٢هجرية من علي، وهي بنت خمس عشرة سنة وخمسة شهور ونصف. وكان عمر علي وقتها واحد وعشرين عام.[1]

وَلقد طلب الزواج منها في البداية أبو بكر ثم عمر لكن رسول الله ﷺ لم يرد عليهما. فلما أبدى علي رغبته في الزواج منها فسأله رسول الله ﷺ عمّ يملكه من مهر يدفعه لها؟ فقال: ليس عندي غير فرس ودرع يا رسول الله. فأخبره النبي ﷺ بأن الفرس ضروري للجهاد. وأمره ببيع الدرع، فاشتراه عثمان بـ ٤٨ درهماً. فأخذ علي الثمن وذهب لرسول الله ووضعه أمامه فنادى رسول الله على بلال ليذهب للسوق ويحضر بعض الطيب. وتم النكاح. ثم أعطاها رسول الله في جهازها سريراً وفراشاً. وقد ورد في الإصابة أن رسول الله ﷺ أعطاها رداءً ورحى وسقاء. وقد ظلت هذه الأشياء عندها طيلة حياتها.

وبعد العقد حين حان وقت الزفاف طلب النبي ﷺ من علي أن يستأجر بيتًا، فاستأجر منزل الحارث بن النعمان، وأقام فيه مع السيدة فاطمة. ولقد كان النبي ﷺ يسعى دائماً لتحسين العلاقات بين علي وفاطمة، فقد كان رسول الله ﷺ يصلح بينهما حينما يتعكر صفو أمورهما في بعض الأحيان. فذات مرة تصادف أن ذهب وأصلح بينهما. ثم خرج مسرورا. فسأله الناس وقالوا: يا رسول الله حينما دخلت البيت لم تكن سعيدا، ولكن لماذا حينما خرجت كنت مسروراً؟ فأخبر النبي ﷺ بأنه سُرّ لأنه أصلح بين شخصين يحبهما.

مرة قسى علي ﷺ على السيدة فاطمة، فذهبت لتشتكي لرسول الله فجاء علي خلفها أيضاً. فلما اشتكت السيدة فاطمة لرسول الله ﷺ أخبرها رسول الله بأنه يجب عليها أن تعي من هو الزوج الذي يأتي عقب زوجته صامتاً . فتأثر علي بهذا القول تأثرا كبيراً وقال للسيدة فاطمة: لن أصنع لك شيئاً يغضبكِ من الآن.

---

[1] ورد في رواية عن علي أنه اسلم وهو ابن ثمان سنين. وقد ورد هذا التاريخ بناءاً على هذه الرواية لكن الراجح أنه اسلم وهو في العاشرة من عمره. وطبقاً لهذه الرواية فقد كان عمره ٢٤ سنة وشهر ونصف.

ذات مرة أراد علي أن يتزوج ثانية. فلما علم رسول الله ﷺ غضب غضباً شديداً وألقى خطبة في المسجد أعلن فيها عن غضبه وقال: فإنما ابنتي بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها. فأقلع علي عن إرادته ولم يتزوج من ثانية أبداً طيلة حياة السيدة فاطمة.[1]

كان للسيدة فاطمة خمسة أولاد هم الحسن والحسين ومحسن وأم كلثوم وزينب. توفى محسن ﷺ في طفولته. أما السيدة زينب والإمام الحسين وأم كلثوم فمشهورين في تاريخ الإسلام بسبب الأحداث الهامة.

توفيت السيدة فاطمة في شهر رمضان سنة ١١هـ بعد وفاة أبيها ﷺ بستة أشهر،[2] وكان عمرها آنذاك ٢٩ عاماً. ويوجد اختلاف حول عمرها وقت وفاتها. فالبعض يقول أنها ماتت عن ٢٤ سنة، والبعض الأخر عن ٢٥ سنة، وآخرون يقولون أنها توفيت عن ٣٠ سنة، لكن الزرقاني كتب أن الرواية الأولى هي الأصح لأنه لو سلم بأنها ولدت وعمر أبيها ٤١ سنة، فلا يمكن أن يكون هذا عمرها في هذا الوقت، ولكن لو سلم أن عمرها كان ٢٤ سنة فيعتبر هذا التاريخ هو تاريخ الميلاد. وأن سُلم أنها ولدت قبل البعثة بخمس سنوات فيمكن أن يكون عمرها كان ٢٩ سنة وقت وفاتها.

إبراهيم ﷺ

كان آخر أولاد النبي ﷺ: ولد في شهر ذي الحجة سنة ٨ هـ بمكان اسمه عالية، حيث كانت تعيش مارية القبطية، لذا أطلق الناس على مكان عالية اسم مشربة إبراهيم. وكانت سلمة زوجة أبي رافع جارية النبي أو جارية عمته صفية هي حاضنة إبراهيم. وحينما زف أبو رافع بشرى ولادة إبراهيم لرسول الله ﷺ، أعطاه النبي ﷺ عبداً له. ثم صنع لإبراهيم عقيقة في اليوم السابع وتصدق بوزن شعره فضة. وأسماه إبراهيم على اسم أبي الأنبياء إبراهيمعليه السلام. وقد أبدى كل الأنصار رغبتهم في إرضاعه لكن النبي ﷺ أعطاه لأم بردة خولة بنت زيد الأنصارية لترضعه مقابل بعض أشجار النخيل. وقد روى

---

[1] صحيح البخاري، ذكر أصهار النبي ﷺ.

[2] فيه اختلاف أيضاً فقد كتب البعض أنها عاشت ثلاثة أيام فقط بعد رسول الله ﷺ . وقال آخرون: بل عاشت أربعة أشهر. وقال فريق ثالث:إنها توفيت بعد شهرين. وقال أحدهم: شهر واحد. وقال آخر: ثلاثة أشهر. وقال آخرون: ثلاثة أشهر وخمسة أيام. لكن وردت في الصحاح رواية أنها ماتت بعد ستة أشهر من وفاة النبي ﷺ.

في البخاري عن أنس أن رسول الله ﷺ كلف أم سيف هذه المهمة. لكن القاضي عياض قال إن أم سيف وأم بردة اسمان لامرأة واحدة. ولا يستبعد هذا التأويل. لكن قيل أن زوجها هو البراء بن أوس وهو لم يكن معروفاً بكنية أبو سيف. وكانت أم سيف تعيش في ضواحي المدينة. فكان رسول الله ﷺ يذهب إلى هناك من فرط حبه لولده ويحمله في حجر ويقبله، ولأن زوج أم سيف كان حداداً، لذا كان بيتهم ممتلئ بالدخان، ومع ذلك كان رسول الله ﷺ يتحمل ذلك لحسن أخلاقهم.

توفي إبراهيم عند أم سيف، فلما علم النبي ﷺ بذلك ذهب إليه مع عبد الرحمن بن عوف وهو ما يزال في حالة النزع فحمله في حجره ثم سالت الدموع من عينيه. فقال عبد الرحمن بن عوف: ما هذا يا رسول الله؟ فقال النبي: إنها الرحمة.

وكان العرب يعتقدون أن القمر يخسف والشمس تكسف عند موت أي عظيم. وصدفة أن كسفت الشمس يوم وفاة إبراهيم ﷺ، فاشتهر بأن هذا الكسوف بسبب موت إبراهيم. وحين علم النبي ﷺ بهذا، قال: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته". وقد حملت الجنازة على نعش صغير. وصلى النبي ﷺ بنفسه على الجنازة. ثم دفنوه في قبر متصل بعثمان بن مظعون ﷺ. وقد وضع جسده المبارك في القبر الفضل بن العباس وأسامة بن زيد وكان النبي ﷺ واقفاً بجوار القبر. ثم رش ماء على القبر ووضعت عليه علامة لتميزه.

طبقاً لما رواه أبو داود والبيهقي فقد توفى إبراهيم وهو ابن شهرين وعشرة أيام. فقد ولد في ذي الحجة سنة ٨هـ. وعليه، توفى سنة ٩هـ. ويرى الواقدى أنه تُوفى في شهر ربيع الأول سنة ١٠هـ وطبقاً لهذا الراوي يكون إبراهيم قد عاش خمسة عشر شهراً تقريباً. وورد في بعض الروايات أنه عاش ستة عشر شهراً وثمانية أيام. ويقول آخرون أنه عاش سنة وعشر شهور وستة أيام. لكن روي في الصحاح عن السيدة عائشة أنه عاش ١٧ أو ١٨ شهرا.

حياة النبي ﷺ مع أمهات المؤمنين:

وصل عدد أزواج النبي ﷺ إلى تسع. وكن كبقية النساء تغار وتنافس بعضهن البعض، ولأن رسول الله ﷺ كان يعيش حياة متقشفة ولا يهتم بالصورة الكافية بمأكلهن وملبسهن، لذا كن يشتكين أيضاً. ومع كل هذه الأمور لم يكن النبي ﷺ يقضب وجهه منهن. وكان ﷺ يحب السيدة خديجة، فحين تزوجها كان في ريعان شبابه وكانت تكبره

بخمس عشرة سنة، ولكن مع ذلك لم يتزوج النبي ﷺ طيلة حياتها. حتى بعد ما توفيت كان النبي ﷺ يضطرب حينما يأتي ذكرها (وقد مر تفصيل ذلك).

كانت السيدة عائشة أحب أزواج النبي ﷺ إليه بعد السيدة خديجة. ولكن يجب أن تعرف أن الرسول ﷺ لم يكن يحبها لتلك الأسباب التي يحب الرجال لها النساء. فقد كانت السيدة صفية تفوقها في الجمال، كما كانت تصغرها سناً، إضافة إلى أن نساء النبي ﷺ الأخريات لم يكن أقل منها في المحاسن الظاهرية، لكن كانت حذاقتها وذكاءها وقوة اجتهادها ودقة نظرها وسعة معلوماتها هي ما ميزها (السيدة عائشة) عن بقية أمهات المؤمنين.

مرة أرسلت نساء النبي ﷺ السيدة فاطمة الزهراء كسفيرة لهن إلى رسول الله ﷺ. فلما ذهبت السيدة فاطمة لرسول الله طلبت الأذن في الدخول أولاً كما هو متعارف عليه. ثم دخلت بعد أن أذن لها. فسألها النبي: عمّ إذا كانت تبغي ما يبغيه هو ﷺ ؟ وكانت هذه المقولة كافية للسيدة فاطمة، لذا رجعت وقالت لأمهات المؤمنين: لن أتدخل في هذا الأمر.

وقع الاختيار على السيدة زينب لهذه المهمة، لأنها كانت تضاهي السيدة عائشة من بين بقية أمهات المؤمنين، لذا كانت الأكثر مناسبة لهذه المهمة. فحاولت بكل شجاعة أن تثبت للسيدة عائشة أنها ليست أهلاً لتلك المنزلة. وكانت السيدة عائشة تسمع لها وهي صامتة وتنظر لرسول الله ﷺ. فلما سكتت السيدة زينب وقفت السيدة عائشة وتكلمت بحماس جعل السيدة زينب لا تقدر على الرد. فقال النبي: واه يا بنت أبي بكر.[١]

يقول النبي ﷺ تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك.[٢] إذ أن رسول الله ﷺ كان يقدم الدين على كل شيء في كل الأمور، ويبرز هذا الشيء بوضوح في أزواج النبي اللائى يخدم بهن الدين، حيث تيسر لهن القرب من رسول الله ﷺ. فكن معه في الخلوة والجلوة، لذا كان يمكنهن الإطلاع أكثر من غيرهن على أحكام وأمور الدين لكنهن كن أيضاً في حاجة لفهم المسائل والخوض في غمار خفايا الشريعة. ولقد كانت السيدة عائشة تتمتع بذهن وعقل حاذق. فاستفادت من صحبة النبي ﷺ كثيراً، لذا كانت تخالف أكابر الصحابة في أدق وأخطر المسائل وتصيب

---

[١] ذكرت هذه الواقعة بالتفصيل في البخاري وفي كتب الأحاديث الأخرى. ويتبادر للذهن من ظاهر ألفاظ الرواية أن الاثنين انتقدتا بعضهما كما يحدث عامة بين الضرر. ولكن ليس هذا تحقير. فربما تكون السيدة عائشة قد بينت دليلين لفضليا. وأنه لم يكن هناك جواب عليها سوى السكوت.

[٢] البخاري، كتاب النكاح.

في رأيها. ويبرز فهمها ودقة نظرها في أكثر المسائل (وقد مر ذكر ذلك عند الحديث عنها).

وقد كان النبي ﷺ معتاداً على أن يذهب لبيوت أزواجه فيجلس عند كل واحدة منهن قليلاً ثم يقضي الليل عند صاحبة الليلة. وهذا ما رواه أبو داود. أما الزرقاني فقال في حديثه عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ كانت يبدأ بأم سلمة حين يحين وقت العصر. وورد في بعض الروايات أن أمهات المؤمنين كن يجتمعن عند من كانت الليلة لها فيجلس مع رسول الله ﷺ حتى الليل ثم يعدن ليلاً لحجراتهن. ويتضح من ذلك أن زوجات النبي ﷺ كن يتنافسن أحياناً. لكن كانت قلوبهن صافية، لذا كن يستمتعن بالجلوس مع بعضهن. فلقد نقى شرف صحبتهن لرسول الله ﷺ قلوبهن. ويبدو هذا في حادثة الإفك، حين اتهم المنافقون السيدة عائشة. فكانت هذه أوضح فرصة للانتقام منها. ومع أن بعض الناس كانوا قد اشتركوا في اتهام السيدة عائشة إلا أن أمهات المؤمنين كن بعيدات تماماً عن هذا الأمر، فمع أن السيدة زينب رضي الله عنها كانت تنافس السيدة عائشة، لكن حين سألها رسول الله ﷺ عن السيدة عائشة آنذاك قالت بعدما وضعت يدها على أذنيها: ما علمت إلا خيراً. لذا كانت السيدة عائشة حين تتكلم عن واقعة الإفك تبدى شكرها لنقاء سريرة السيدة زينب (وقد ورد تفصيل ذلك في روايات عديدة للبخاري).

كان رسول الله ﷺ من جانبه يرضي أزواجه ويتحمل ضيق مزاجهن، وسيتضح هذا من الأحداث التالية:

ذات مرة كانت أمهات المؤمنين في سفر، وأخذ الراعي يحس الإبل على الإسراع في المشي فقال النبي ﷺ: رفقاً بالقوارير. وكانت السيدة صفية تجيد الطهي. وذات يوم طهت طعاماً وأرسلت منه لرسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ في ذاك الوقت عند السيدة عائشة فأخذت السيدة عائشة إناء الطعام من الخادم وقذفت به على الأرض، فجمع النبي ﷺ أجزاء الإناء ولأمه، ثم طلب إناء **آخر** وأعاده.[1]

ذات مرة كانت السيدة عائشة تتكلم مع رسول الله ﷺ بصوت عال وهي غاضبة، فتصادف أن جاء أبو بكر فأمسك السيدة عائشة وأراد أن يلطمها لأنها ترفع صوتها على رسول الله ﷺ، فمنعه النبي وحال بينهما فخرج أبو بكر مغتاظاً. فقال رسول الله ﷺ للسيدة

[1] وردت هذه الرواية في البخاري، كتاب النكاح، دون ذكر لأسماء أمهات المؤمنين لكن صرح بأسماهن في النسائي ويوجد اختلاف إلى حد ما بين الروايتين.

عائشة: كيف رأيتني أنقذتك من الرجل. وبعد بضعة أيام جاء أبو بكر رسول الله ﷺ بعدما هدأ الوضع. وقال: أدخلاني في سلمكما كما أدخلتماني في حربكما. فقال النبي ﷺ: قد فعلنا، قد فعلنا.[١]

مرة قال رسول الله ﷺ للسيدة عائشة: إني لأعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت غضبى. فقالت: من أين تعرف ذلك؟ قال رسول الله ﷺ: أما إذا كنت عني راضية فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت غضبى قلت: لا ورب إبراهيم. فقالت السيدة عائشة: أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك.[٢]

حينما تزوج رسول الله السيدة عائشة كانت صغيرة جداً فكانت تلعب مع الفتيات. وإن تصادف ومر بهن رسول الله تهرب الفتيات. فيناديهن رسول الله ويرسلهن ليلعبن مع السيدة عائشة.[٣]

كان الأحباش يضعون رمحاً صغيراً يقال له حربة. كما هو الحال في بلادنا بالنسبة للعبة الطوق. فكان الأحباش يلعبون به وذات مرة كان الأحباش يلعبون به يوم العيد فأرادت السيدة عائشة أن تتفرج عليهم فوقف رسول الله ﷺ أمامها واستترت السيدة عائشة خلفه وأخذت تنظر، وظلت تنظر لفترة طويلة حتى قال لها رسول الله ﷺ: أما اكتفيتِ. قالت: لا. فظل النبي ﷺ صامتاً واقفاً حتى تعبت هي واكتفت.

ذات مرة كانت السيدة عائشة تلعب بالدمى، فجاء الرسول الله ﷺ من الخارج وكان ضمن الدمى فرساً له جناحان من رقاع. فقال النبي ﷺ: ما هذا؟ فقالت عائشة: أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة فتبسم رسول الله.[٤] وقد ذاع بين العوام أن الخيول كانت لها شعر في البداية ثم قصها سليمان لأنه كان قد قضى الصلاة. وهو يتنزه عليها. ومنذ ذاك الحين وشعرها يخف حتى لم يتبقى منها إلا القليل فكان كلام السيدة عائشة إشارة لتلك القصة.

---

[١] أبو داود، كتاب الأدب، باب ما جاء في المزاح.

[٢] صحيح مسلم.

[٣] المرجع السابق.

[٤] أبو داود، كتاب الأدب.

ذات مرة طلب رسول الله ﷺ من السيدة عائشة أن يستبقا في المشي. ولأن السيد عائشة كانت نحيفة في ذاك الوقت لذا سبقت النبي ﷺ. ولكن حينما تقدم بها السن وامتلأ جسدها واستبقت مع رسول الله ﷺ سبقها رسول الله. وقال: هذه بتلك.[١]

حياة أزواجه وأولاده ﷺ البسيطة

يمكن للإنسان أن يجوع، ويتحمل الفقر وكثيرا من الصعاب، كما يمكن له أيضاً، أن يزهد في زخارف الدنيا تماما، ولكنه لا يقدر على جبر أهله وعياله على مثل هذه الحياة البسيطة والمتقشفة، وكان هذا هو السبب الذي جعل الناس الزاهدين في الدنيا يبتعدون بأنفسهم عن بيوت أهلهم وعيالهم ويعيشون عيشة رهبانية. وفي تاريخ الأديان نجد حياة النبي ﷺ مستثناة من هذا كلية، فقد كان للنبي ﷺ تسع زوجات، بعضهن كان قد تربى في عز ورفاهية وأكثرهن كان ينتمي إلى أسر عريقة، لذا كان من الممكن والطبيعي أن يملن إلى أشهى الأطعمة وأفخر الملابس، كما كان الأطفال صغار السن والذين يشتهون كل الأطعمة والملابس وكل شيء فاتن يمكن لهم أن يجذبنه ناحيتهم هم وما يريدونه، ومما ذكر سابقاً يتضح منه أن النبي ﷺ كان يحب أولاده وأزواجه حبا جما، وقد قمع الرهبانية، وبالرغم من كثرة الفتوحات وعموم الرخاء في المدينة إلا أن النبيﷺ كرّه إليهم مثله الزخارف الدنيوية، وكان يمنعهم من الافتتان بالدنيا، ومن ثم أصبحت أزواجه وأهله وعياله خير أسوة حسنة له ﷺ.

كانت السيدة فاطمة أحب الأولاد إليه، ولكنها لم تستغل حبه الجم لها استغلالا دنيويا، إذ كانت تقوم بنفسها بأعمال بيتها، وكانت تطحن الدقيق بالرحى، حتى تورمت يداها، وتحضر الماء، وتكنس البيت، وتغسل الملابس، وتطهى الطعام، لدرجة أن الملابس كانت تسود بسبب الجلوس أما التنور، وبالرغم من هذا رفض الرسول ﷺ رفضا قطعياً توفير جارية لها حين طلبت منه ذات مرة جارية تعينها على أعباء البيت، وأظهرت له ما بأيديها من جروح نتيجة كثرة أعمال البيت، وأخبرها النبي ﷺ أن هذا حق الفقراء واليتامى.[٢]

---

[١] أبو داود.

[٢] الإشارة هنا إلى الجارية، إذ كانت من بين غنائم المسلمين في غزوة من الغزوات. (المترجم).

ذات مرة ذهب النبي ﷺ إلى السيدة فاطمة، ورآها تستر نفسها برداء صغير بسبب الإفلاس، لدرجة أنها لو غطت رأسها لانكشفت قدماها، ولو غطت قدَماها لانكشفت رأسها.[١]

ليس هذا فحسب بل لم يكن يعطيها أي شيء من أشياء الزينة خلافا لطريقة إظهار الحب، بل كان لا يحب هذا النوع من الأشياء التي كانت تحصل عليها عن طريق آخر، فذات مرة أعطاها على ؓ عقدا ذهبيا، وحين علم النبيﷺ بهذا فاعترض، وسألها أتريد أن يقول الناس أن ابنة رسول الله ترتدي عقدا من النار؟ وهنا باعت السيدة فاطمة هذا العقد في الحال واشترت بثمنه عبدا.[٢]

ذات مرة عاد النبي ﷺ من غزوة، وكانت السيدة فاطمة قد علقت ستائر على أبواب المنزل استقبالا له ﷺ كما ألبست الحسن والحسين أساور من فضة، وحين جاء ﷺ حسب عادته[٣] ورأى مثل هذه الزينة الدنيوية رجع، فعلمت السيدة فاطمة سبب رجوعه، فأزالت هذا الستار، وخلعت الأساور من يد الأطفال، فذهب الحسن والحسين إلى الرسولﷺ يبكيان. فأخبر النبي ﷺ: أنهما من أهل بيته، ولا يريد أن يلوثا بزخارف الدنيا هذه، وبدلا منها اشترى عقدا من عظم لفاطمة وإسورتين من عظم (للحسن والحسين).[٤] لم يُظهر النبي ﷺ حبه أبدا لأزواجه المطهرات بطريقة دنيوية، ومن ثم حين أظهرن رغبتهن في أشهى الطعام وأفضل اللباس، ابتعد عنهن وكان الإيلاء. وكانت السيدة عائشة أحب أزواجه إليه، ولكنه ﷺ لم يظهر هذا الحب عن طريق اللباس والزينة الذهبية، فكان لباسها هو لباس بقية الأزواج رضى الله عنهن. تقول بنفسها: **ما كان لإحدانا إلا ثوب واحد** (البخاري، ج١،ص٤٥).

---

(١) المرجع السابق.

(٢) النسائي، كتاب الزينة.

(٣) ذكر المؤلف سابقا أن السيدة فاطمة كانت هي آخر من يلقاها قبل خروجه في أي سفر، كما كانت هي أيضاً أول من يلقاها حين يرجع.(المترجم).

(٤) النسائي، كتاب الزينة. وهذا نص الحديث: (٥١٢٧) أَخْبَرَنَا الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ، : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم رَأَى عَلَيْهَا مَسَكَتَيْ ذَهَبٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَلاَ أُخْبِرُكِ بِمَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا لَوْ نَزَعْتِ هَذَا وَجَعَلْتِ مَسَكَتَيْنِ مِنْ وَرِقٍ ثُمَّ صَفَّرْتِهِمَا بِزَعْفَرَانٍ كَانَتَا حَسَنَتَيْنِ». قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ: هَذَا غَيْرُ مَحْفُوظٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (المترجم).

وحين كان يبدو أي شيء من الزينة الدنيوية على جسدها، كان النبي ﷺ يمنعها، فذات مرة لبست أسورة من ذهب، فقال النبي ﷺ: «أَلاَ أُخْبِرُكِ بِمَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْ هٰذَا لَوْ نَزَعْتِ هٰذَا وَجَعَلْتِ مَسَكَتَيْنِ مِنْ وَرِقٍ ثُمَّ صَفَّرْتِهِمَا بِزَعْفَرَانٍ كَانَتَا حَسَنَتَيْنِ».(كان أهل بيت النبي ﷺ ممنوعين من استخدام زينة الذهب ولباس الحرير وأي تكلف في الحياة، فكان النبي ﷺ يخبرهن: إن كن يردن هذه الأشياء فسوف يجدونها في الجنة، لذا يجب أن يبتعدن عنها في الدنيا).

تدبير شئون بيته ﷺ

بالرغم من أن عدد أزواج النبي ﷺ، وصل في وقت إلى تسع أزواج، ولذا كان هناك صعوبة في تدبير شئون البيت، إلا أن النبي ﷺ لم يكن ليهتم بهذه الأشياء بنفسه، فقد كان من سنته ﷺ في حياته أن ينفق ما يأتيه في يومه، وإذا تبقى أي شيء كان ينفقه في سبيل الله، أما عن طعام وشراب زوجاته ﷺ وضيوفه؛ فكان من مهام بلال ﷺ. ورد في أبي داود رواية عن عبد الله الهوزني: سألت بلال كيف تدبر شئون بيت رسول الله ﷺ ؟ قال: كنت أنا الذي ألي ذلك منه منذ بعثه الله إلى أن توفى رسول الله ﷺ وكان إذا أتاه الإنسان مسلماً فرآه عارياً يأمرني(بقضاء حاجته)، [١] فأقترض وأشتري له البردة فأكسوه وأطعمه.[٢]

تدبير نفقات الأهل والأولاد

كان قد حدد نصيب من نخيل بني النضير لينفق على أزواج النبي ﷺ فكان يبتاع، وينفق ثمنه عليهن طوال السنة.[٣] وحين فتحت خيبر حدد لهن ثمانين وسقا من التمر، وعشرين وسقا من الشعير سنويا. والوسق ستون صاعا. وفي عهد عمر ﷺ أخذت بعض أمهات المؤمنين ــ ومن بينهن عائشة أيضاً ــ أرضاً بدلا من المحصول.[٤]

---

[١] المترجم.

[٢] ج٢، باب في الإمام يقبل هدايا المشركين.

[٣] البخاري، ص٨٠٦.

[٤] البخاري، كتاب المزارعة، ج١، ص٢١٣. (كان ﷺ يعطي أزواجه مائة وسق ثمانون وسق من تمر وعشرون وسق من شعير، فقسم عمر خيبر، فخير أزواج النبي ﷺ أن يقطع لهن من الماء والأرض أو يمضى لهن، فمنهن من اختار الأرض ومنهن من اختار الوسق، وكانت عائشة اختارت الأرض).(البخاري، ج٢، ص٧٣). (المترجم).

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم (المترجم)	١
مقدمة الجزء الثاني	٢
حياة الإسلام الآمنة (سنة ٩ هـ، سنة ١٠ هـ، وسنة ١١هـ)	٤ – ١٢
• استتباب الأمن	٤
• المخاطر الخارجية	٨
• قوة اليهود	٨
نشر الإسلام	١٣ – ٢٩
وفود العرب	٣٠ – ٤٤

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تأسيس الدولة الإلهية	٤٥ – ٦٩
شئون البلاد الداخلية	٤٨
قيادة الجيش	٤٩
الإفتاء	٤٩
الفصل في القضايا	٤٩
التوقيعات والفرمانات	٥٠
الضيافة	٥٠
عيادة المرضى	٥١
الاحتساب	٥٢
الإصلاح بين الناس	٥٣
الكتّاب	٥٥
الحكام والولاة	٥٥
جباة الزكاة والجزية	٥٩
القضاة	٦٢
السياف	٦٣
المعاهدة مع الأقوام الأخرى	٦٣
أنواع الوارد والصادر	٦٥
الزكاة	٦٦
الضياع والأراضي البور	٦٧
الشئون الدينية	٧٠ – ٧٩
دعاة الإسلام	٧٠
تعاليمه وتربيته ﷺ	٧١
بناء المساجد	٧٣
تعيين أئمة الصلاة	٧٧

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المؤذنون	٧٩
تأسيس وإتمام الشريعة	٨٠ – ٨٢
الإيمان وأركان الإسلام الأساسية	٨٣ – ٨٧
العبادات	٨٨ – ١٠٤
الطهارة	٨٨
التيمم	٨٩
الصلاة	٩٠
صلاة الجمعة والعيدين	٩٥
صلاة الخوف	٩٦
الصوم	٩٧
الزكاة	٩٩
الحج	١٠٠
تعديلات الحج	١٠١
المعاملات	١٠٥ – ١١٣
الميراث	١٠٥
الوصية	١٠٧
الوقف	١٠٧
النكاح والطلاق	١٠٨
الحدود والتعزيرات	١٠٩
الحلال والحرام	١١٤ – ١٢٠
الحلال والحرام من الأطعمة	١١٤
تحريم الخمر	١١٥
تحريم الربا	١١٩
السنة الأخيرة، حجة الوداع، اختتام البعثة النبوية	

الفهرس

الموضوع	الصفحة
ذي الحجة سنة ١٠ هـ الموافق سنة ٦٣٢ م	**١٢١ - ١٣٥**
الوفـــاة	**١٣٦ - ١٤٩**
التجهيز والتكفين	١٤٧
التركـــة	**١٥٠ - ١٥٨**
الأرض	١٥١
الدواب	١٥٢
الأسلحة	١٥٣
الآثار المباركة	١٥٤
مسكنه الشريف	١٥٥
الحاضنة	١٥٧
الخدم	١٥٧
شمائله ﷺ (حُليته ولباسه وطعامه ومزاجه)	**١٥٩ - ١٨١**
حُلية النبي ﷺ	١٥٩
خاتم النبوة	١٦٠
شعره المبارك	١٦٠
كلامه وتبسمه	١٦١
لباسه	١٦١
الختم	١٦٣
المغفر والدرع	١٦٣
الطعام وطريقة تناوله	١٦٣
الماء واللبن والمشروبات	١٦٤
سنن طعامه	١٦٤
حُسن الملبس	١٦٥
اللون المحبب	١٦٥

الموضوع	الصفحة
اللون الغير محبب	١٦٦
التطيب	١٦٧
حبّه للنظافة والطهارة	١٦٧
رُكوبه	١٦٩
سباق الخيل	١٧٠
العــادات	١٧١
نومه ﷺ	١٧٢
تهجده ﷺ	١٧٢
وظائفه ﷺ في الصلاة	١٧٣
أسلوبه ﷺ فى الخُطبة	١٧٤
أعماله ﷺ في السفر	١٧٦
أعماله ﷺ في الجهاد	١٧٧
سنته ﷺ فى عيادة المريض والعزاء	١٧٨
سنته ﷺ في لقاء الناس	١٧٩
عامة أشغاله ﷺ	١٨١
مجالس النبيﷺ	**١٨٢ - ١٩٠**
مجالس الوعظ و الإرشاد	١٨٣
آداب المجلس	١٨٣
أوقات جلوسه ﷺ مع الناس	١٨٥
مجالسه ﷺ الخاصة بالنساء	١٨٦
طريقة هديه وإرشاده ﷺ	١٨٦
لقاؤه الناس بالبشاشة والبشر	١٨٨
تأثير صحبته ﷺ فيمن يصحبه	١٨٩
الخطابة النبوية	**١٩١ - ١٩٨**
طريقته وأسلوب بيانه في الخطابة	١٩١

الفهرس

الموضوع	الصفحة
نوعية خطبه ﷺ	١٩٢
التأثير القوي (فى السامعين)	١٩٦
العبادات النبوية	١٩٩ – ٢٢٤
أخلاق النبي ﷺ	٢٢٥ – ٣١٢
حياته ﷺ مع أزواجه أمهات المؤمنين	٣١٣ – ٣٢٨
الأولاد	٣٢٩ – ٣٤١